

منهج النبي ﷺ في دعوة الآخر

تأليف

فضيلة الشيخ الدكتور

مُحَمَّد حَسَّان

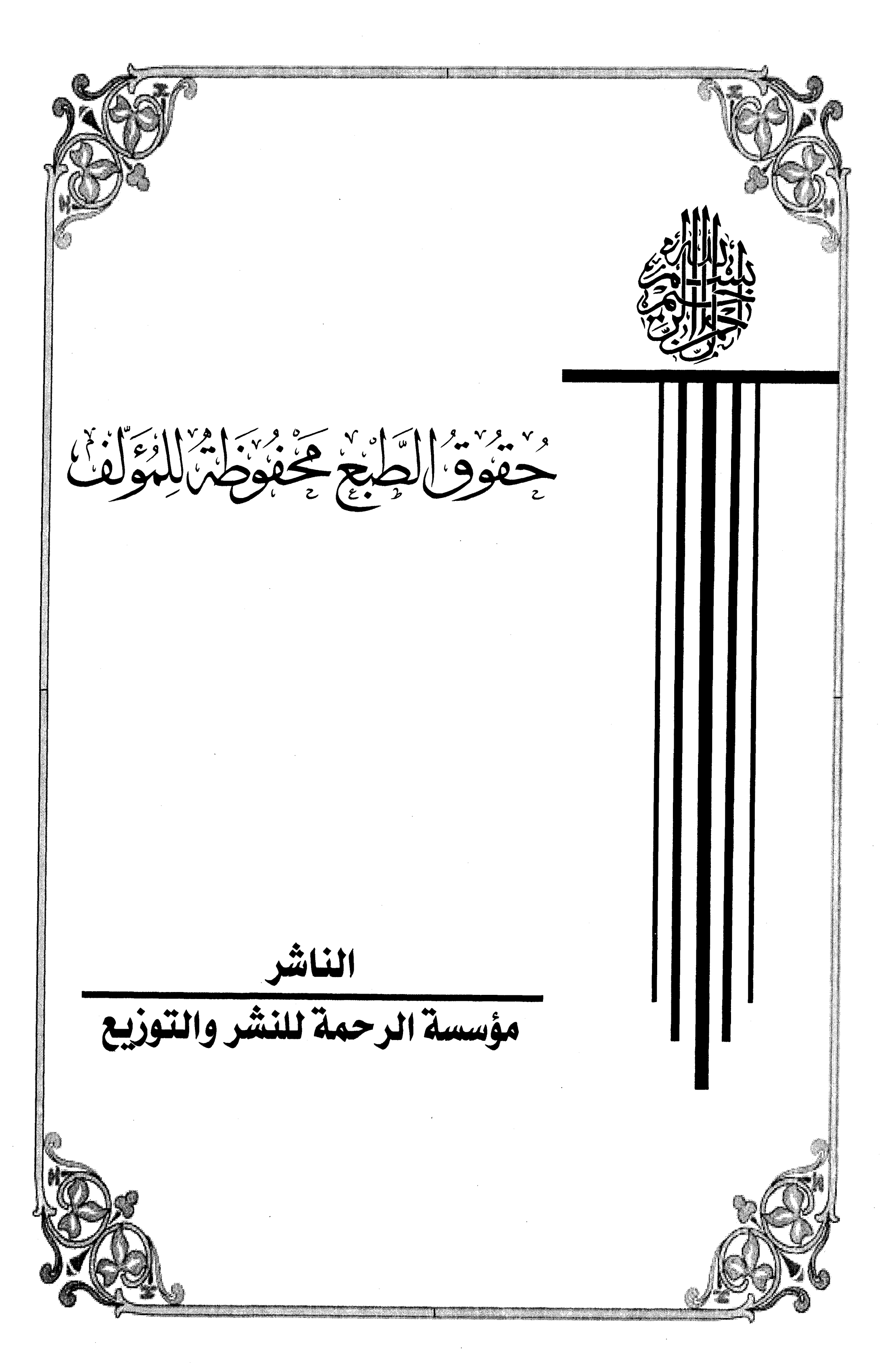
رسالة دكتوراه في الدعوة بدرجة

امتياز مع مرتبة الشرف الأولى

الناشر

مؤسسة الرحمة للنشر والتوزيع





الناشر

مؤسسة الرحمة للنشر والتوزيع



شُكْرٌ وَتَقْدِيرٌ

لأصحابِ الفضيلة العلماء الذين أكرموني بالإشراف والمناقشة والتوجيه والترجمة.

- صاحب الفضيلة الأُستاذ الدكتور / صابر أحمد محمد طه عميد كلية الدعوة الإسلامية بجامعة الأزهر (مُشْرِفًا).

- صاحبُ الفضيلة الأُستاذ الدكتور / محمد عبد العليم العدوي.

الأستاذ غير المتفرغ بجامعة الأزهر ووكيل قسم الدعوة والإعلام بكلية أصول الدين بجامعة الإمام محمد بن سعود (مشرفًا مُنَاقِشًا).

- صاحب الفضيلة الأستاذ الدكتور / طلعت محمد عفيفي عميد كلية الدعوة الإسلامية بجامعة الأزهر سابقًا (مُشْرِفًا مُنَاقِشًا).

- الأستاذ الدكتور / محسن عبد الغني جبر عميد كلية الآداب بالمنصورة سابقًا (مُشرفًا متعاونًا) قام بترجمة الرسالة إلى اللغة الإنجليزية.

أسأل الله أن يجزيهم عني وعن الإسلام والمسلمين خير الجزاء، وأن يجزل لهم المثوبة والعطاء؛ إنَّهُ وليُّ ذلك ومولاه.

المقدمة

الحَمْدُ للهِ المَوْصُوفِ بِصِفَاتِ الكَمَالِ وَالجَمَالِ والجَلَالِ، المُنَزَّهِ عَنِ العُيُوبِ وَالنَّقَائِصِ وَالمِثَالِ، حَيٌّ لَا يَمُوتُ، قَيُّومٌ لا يَنَامُ، وَلَا يَنْبَغِي لَهُ أَنْ يَنَامَ، يَخْفِضُ القِسْطَ وَيَرْفَعُهُ، يُرْفَعُ إِلَيْهِ عَمَلُ اللَّيْلِ قَبْلَ عَمَلِ النَّهَارِ، وَعَمَلُ النَّهَارِ قَبْلَ عَمَلِ اللَّيْلِ، حِجَابُهُ النُّورُ لَوْ كَشَفَهُ لَأَحْرَقَتْ سُبُحَاتُ وَجْهِهِ مَا انْتَهَى إِلَيْهِ بَصَرُهُ مِنْ خَلْقِهِ.

وَأَشْهَدُ أَنْ لَا إِلَه إِلَّا الله، تَمَّتْ كَلِمَاتُهُ صِدْقًا وَعَدْلًا، وَجَلَّتْ صِفَاتُهُ أَنْ تُقَاسَ بِصِفَاتِ خَلْقِهِ شَبَهًا وَمَثَلًا، وَتَعَالَتْ ذَاتُهُ أَنْ تُشْبِهَ شَيْئًا مِنَ الذَّوَاتِ أَصْلًا، وَوَسِعَتْ رَحْمَتُهُ الخَلْقَ إِحْسَانًا وَفَضْلًا، لَهُ الخَلْقُ وَالأَمْرُ، وَلَهُ النِّعْمَةُ وَالْفَضْلُ، وَلَهُ الثَّنَاءُ وَالْمَجْدُ، وَلَهُ المُلْكُ وَالحَمْدُ.

وَأَشْهَدُ أَنَّ مُحَمَّدًا عَبْدُهُ وَرَسُولُهُ، وَصَفِيُّهُ وَخَلِيلُهُ، البَشِيرُ النَّذِيرُ، السِّرَاجُ المزْهِرُ المُنِيرُ، خَيْرُ الأَنْبِيَاءِ مَقَامًا، وَأَحْسَنُ الأَنْبِيَاءِ كَلَامًا، لَبِنَةُ تَمَامِهِمْ، وَمِسْكُ خِتَامِهِمْ، رَافِعُ الإِصْرِ وَالأَغْلَالِ، الدَّاعِي إِلَى خَيْرِ الأَقْوَالِ وَالأَفْعَالِ وَالأَحْوَالِ.

بَعَثَهُ رَبُّهُ - جَلَّ وَعَلَا- بِالْهُدَى وَدِينِ الحَقِّ بَيْنَ يَدَي السَّاعَةِ بَشِيرًا وَنَذِيرًا، وَدَاعِيًا إِلَى اللهِ بِإِذْنِهِ وَسِرَاجًا مُنِيرًا، فَخَتَمَ بِهِ الرِّسَالَةَ، وَهَدَى بِهِ مِنَ الضَّلَالَةِ، وَعَلَّمَ بِهِ مِنَ الجَهَالَةِ، وَفَتَحَ بِرِسَالَتِهِ أَعْيُنًا عُمْيًا، وَآذَانًا صُمًّا، وَقُلُوبًا غُلْفًا، وَتَرَكَنَا عَلَى المَحَجَّةِ البَيْضَاءِ، لَيْلُهَا كَنَهَارِهَا، لَا يَزِيغُ عَنْهَا إِلَّا هَالِكٌ.

اَللَّهُمَّ صَلِّ وَسَلِّمْ وَزِدْ وَبَارِكْ عَلَيْهِ وَعَلَى آلِهِ الطَّيِّبِينَ وَأَصْحَابِهِ الغُرِّ المَيَامِينَ، وَعَلَى كُلِّ مَنِ اهْتَدَى بِهَدْيِهِ وَاقْتَفَى أَثَرَهُ إِلَى يَوْمِ الدِّينِ.

أَمَّا بَعْدُ؛

فَلَا يَخْفَى عَلَى أَحَدٍ مَا وَصَلَتْ إِلَيْهِ البَشَرِيَّةُ الآنَ مِنْ تَقَدُّم مَادِّيٍّ وَعِلْمِيٍّ مُذْهِلٍ!؛ فَلَقَدْ غَاصَتْ فِي أَعْمَاقِ البِحَارِ وَالأَنْهَارِ وَالمُحِيطَاتِ؛ بَلْ وَصَوَّرَتْ لَنَا مَا يَجْرِي فِي القَاعِ. وَانْطَلَقَتْ بَعِيدًا بَعِيدًا فِي أَجْوَاءِ الفَضَاءِ، وَفَجَّرَتِ الذَّرَّةَ، وَاخْتَرَعَتِ القُنْبُلَةَ النَّوَوِيَّةَ، وَاكْتَشَفَتْ كَثِيرًا مِنَ القُوَى الكَوْنِيَّةِ الكَامِنَةِ فِي هَذَا الوُجُودِ؛ بَلْ حَوَّلَتِ العَالَمَ كُلَّهُ إِلَى قَرْيَةٍ صَغِيرَةٍ جِدًّا عَنْ طَرِيقِ التَّقَدُّم المُذْهِلِ فِي وَسَائِلِ الاتِّصَالَاتِ وَالمُوَاصَلَاتِ؛ فَمَا يَحْدُثُ هُنَالِكَ يُرَى هُنَا فِي التَّوِّ وَاللَّحْظَةِ، وَأَمَامَ هَذِهِ الثَّوْرَةِ العِلْمِيَّةِ الهَائِلَةِ، تَمَرَّدَ كَثِيرٌ مِنَ البَشَرِ عَلَى مَنْهَجِ اللهِ وَرُسُلِهِ بِدَعْوَى أَنَّ الانْقِيَادَ لِهَذَا المَنْهَجِ يُشَكِّلُ حَجْرًا وَامْتِهَانًا لِهَذَا العَقْلِ البَشَرِيِّ الجَبَّارِ المُبْدِعِ!!

وَبِحُجَّةِ أَنَّ البَشَرِيَّةَ الآنَ قَدْ بَلَغَتْ مَرْحَلَةَ النُّضْجِ وَالرُّشْدِ الَّتِي تُؤَهِّلُهَا أَنْ تَخْتَارَ لِنَفْسِهَا مِنَ الْمَنَاهِجِ وَالْقَوَانِينِ مَا تَشَاءُ فِي كُلِّ جَوَانِبِ الحَيَاةِ حَتَّى هَجَرَتْ بِالفِعْلِ مَنْهَجَ اللهِ!!

وَأَنَا أُقِرُّ أَنَّ الْبَشَرِيَّةَ الآنَ قَدْ بَلَغَتْ مَرْحَلَةً مِنَ التَّقَدُّم الْعِلْمِيِّ وَالمَادِّيِّ لَا يُنْكِرُهَا إِلَّا مُكَابِرٌ، وَلَكِنَّنِي فِي الوَقْتِ ذَاتِهِ لَعَلَى يَقِينٍ جَازِمٍ أَنَّ الْحَيَاةَ لَيْسَتْ كُلَّهَا مَادَّةً، وَلَا يُمْكِنُ لِطَائِرٍ جَبَّارٍ أَنْ يُحَلِّقَ فِي أَجْوَاءِ الْفَضَاءِ بِجَنَاحٍ وَاحِدٍ! وَإِنْ نَجَحَ فِي ذَلِكَ لِفَتْرَةٍ - وَلَوْ طَالَتْ - فَإِنَّهُ حَتْمًا سَيَسْقُطُ لِيَنْكَسِرَ جَنَاحُهُ الآخَرُ!!

وَوَاقِعُ البَشَرِيَّةِ الآنَ فِي الجَانِبِ الإِيمَانِيِّ وَالرُّوحِيِّ وَالأَخْلَاقِيِّ وَالإِنْسَانِيِّ خَيْرُ شَاهِدٍ عَلَى مَا وَقَعَتْ فِيهِ مِنَ انْفِصَامٍ نَكِدٍ وَغَفْلَةٍ عَنِ الآخِرَةِ!!

كَمَا قَالَ سُبْحَانَهُ: ﴿ يَعْلَمُونَ ظَٰهِرًا مِّنَ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَهُمْ عَنِ ٱلْءَاخِرَةِ هُمْ غَٰفِلُونَ ﴾ [الروم: ٧]، وَقَالَ تَعَالَى: ﴿ بَلِ ٱدَّٰرَكَ عِلْمُهُمْ فِى ٱلْءَاخِرَةِ ۚ بَلْ هُمْ فِى شَكٍّ مِّنْهَا ۖ بَلْ هُم مِّنْهَا عَمُونَ ﴾ [النمل: ٦٦].

نَعَمْ. فَهِي تَهْذِي كَالسَّكْرَانِ، وَتَضْحَكُ كَالْمَجْنُونِ، وَتَجْرِي كَالْمُطَارَدِ، تَئِنُّ مِنَ الْأَلَمِ، تَبْحَثُ عَنْ أَيِّ شَيْءٍ، وَهِيَ فِي الْحَقِيقَةِ تَمْلِكُ مِنْ أُمُورِ الدُّنْيَا كُلَّ شَيْءٍ، وَلَكِنَّهَا حِينَ انْحَرَفَتْ عَنْ مَنْهَجِ اللهِ فَقَدَتْ كُلَّ شَيْءٍ؟!!

لَقَدْ حُرِمَتْ مِنْ نِعْمَةِ الأَمْنِ وَالأَمَانِ، وَرَاحَتْ تَبْحَثُ عَنْهُ وَسْطَ الرُّكَامِ؛ رَغْمَ كَثْرَةِ الوَسَائِلِ الأَمْنِيَّةِ الحَدِيثَةِ، وَالتَّخْطِيطِ العِلْمِيِّ وَالنَّفْسِيِّ لِمُحَارَبَةِ الجَرِيمَةِ!

وَحُرِمَتْ مِنْ رَاحَةِ الضَّمِيرِ، وَانْشِرَاحِ الصَّدْرِ، وَطُمَأْنِينَةِ النَّفْسِ؛ رَغْمَ كَثْرَةِ الوَسَائِلِ العِلْمِيَّةِ وَالطِّبِّيَّةِ وَالتَّرْفِيهِيَّةِ، وَانْتِشَارِ الحَدَائِقِ الغَنَّاءِ، وَالبَسَاتِينِ الخَضْرَاءِ.

وَحُرِمَتْ مِنْ نِعْمَةِ البَرَكَةِ وَالرِّضَا، وَأَصْبَحَتْ تَعِيشُ فِي ضَنْكٍ وَنَكَدٍ، رَغْمَ كَثْرَةِ الأَسْوَاقِ، وَضَخِّ الْمِلْيَارَاتِ؛ بَلْ كَثِيرٌ مِنَ النَّاسِ يَفْتَرِشُ الأَرْضَ، وَيَلْتَحِفُ السَّمَاءَ، وَيَمُوتُ جُوعًا بَيْنَ الْمُتْخَمِينَ!!

وَيَزْدَادُ الأَلَمُ حِينَ تُقَصِّرُ أُمَّةُ الدَّعْوَةِ وَالبَلَاغِ فِي تَحَمُّلِ مَسْئُولِيَّتِهَا الكَبِيرَةِ وَأَمَانَتِهَا العَظِيمَةِ فِي الشَّهَادَةِ العَمَلِيَّةِ لِهَذَا الدِّينِ عَلَى أَرْضِ الوَاقِعِ بِأَخْلَاقِهَا وَسُلُوكِهَا وَعِلْمِهَا مِنْ نَاحِيَةٍ، وَتَقْصِيرِهَا الشَّدِيدِ فِي دَعْوَةِ أَهْلِ الأَرْضِ إِلَى دِينِ اللهِ جَلَّ وَعَلَا بِالحِكْمَةِ البَالِغَةِ وَالمَوْعِظَةِ الحَسَنَةِ وَالخُلُقِ الجَمِيلِ مِنْ نَاحِيَةٍ أُخْرَى.

فالحَقُّ مَعَنَا، وَلَكِنَّنَا لَمْ نُحْسِنْ أَنْ نَشْهَدَ لَهُ شَهَادَةً عَمَلِيَّةً خُلُقِيَّةً عَلَى أَرْضِ الوَاقِعِ، وَلَمْ نُحْسِنْ أَنْ نُبَلِّغَ هَذَا الحَقَّ لِأَهْلِ الأَرْضِ بِحَقٍّ؛ وَقَدْ يَكُونُ البَاطِلُ مَعَ غَيْرِنَا؛ لَكِنَّهُ يُحْسِنُ أَنْ يُلْبِسَ البَاطِلَ ثَوْبَ الحَقِّ، وَيُجِيدُ أَنْ يَصِلَ بِهَذَا البَاطِلِ إِلَى حَيْثُ يَنْبَغِي أَنْ يَصِلَ الحَقُّ، وَحِينَئِذٍ يَنْزَوِي حَقُّنَا وَيَضْعُفُ كَأَنَّهُ مَغْلُوبٌ، وَيَنْتَفِخُ البَاطِلُ وَيَنْتَفِشُ كَأَنَّهُ غَالِبٌ!!

وَهُنَا نُعَبِّرُ عَنْ أَلَمِنَا بِصُورَةٍ مِنْ صُورَتَيْنِ لَا ثَالِثَ لَهُمَا:

- إِمَّا أَنْ يَكُونَ تَعْبِيرُنَا سَلْبِيًّا مَهْزُومًا؛ فَنَزْدَادُ هَزِيمَةً نَفْسِيَّةً، وَانْعِزَالًا عَنِ

المُجْتَمَعِ وَالعَالَمِ!!

- وَإِمَّا أَنْ يَكُونَ تَعْبِيرُنَا صَاخِبًا مُتَشَنِّجًا مُنْفَعِلًا؛ وَأَحْيَانًا دَمَوِيًّا؛ فَنَخْسَرَ الحَقَّ حَتَّى وَنَحْنُ فِي طَرِيقِنَا لِلذَّوْدِ عَنِ الحَقِّ؛ لِأَنَّ النَّاسَ - حِينَئِذٍ- سَيَزْدَادُونَ بُغْضًا لِلْحَقِّ الذِي مَعَنَا، وَإِصْرَارًا عَلَى البَاطِلِ الذِي مَعَهُم!!!

وَمِنْ هُنَا تَزْدَادُ حَاجَةُ البَشَرِيَّةِ عَامَّةً، وَالأُمَّةِ خَاصَّةً إِلَى مَنْهَجِ النَّبِيِّ ﷺ فِي الدَّعْوَةِ إِلَى اللهِ تَعَالَى؛ لِأَنَّهُ المَنْهَجُ الأَوْحَدُ الَّذِي يَسْبُرُ أَغْوَارَ النُّفُوسِ، وَيَفْتَحُ القُلُوبَ وَالعُقُولَ لِلسَّمَاعِ عَنِ اللهِ - جَلَّ وَعَلَا-.

وَمِنَ المُحَالِ أَنْ نُحَقِّقَ ذَلِكَ إِلَّا إِذَا امْتَلَكْنَا مَفَاتِيحَ هَذِهِ النُّفُوسِ البَشَرِيَّةِ؛ فَالحَيَاةُ البَشَرِيَّةُ مِنْ خَلْقِ اللهِ، وَلَنْ تُفْتَحَ مَغَالِيقُ فِطْرَتِهَا إِلَّا بِمَفَاتِيحَ مِنْ صُنْعِ اللهِ، وَلَنْ تُعَالَجَ أَمْرَاضُهَا وَعِلَلُهَا إِلَّا بِالدَّوَاءِ الذِي يُقَدِّمُ لَهَا مِنَ اللهِ بِيَدِ الحَبِيبِ رَسُولِ اللهِ ﷺ؛ فَنَحْنُ لَا نَتَعَامَلُ مَعَ مَلَائِكَةٍ بَرَرَةٍ، وَلَا مَعَ شَيَاطِينَ مَرَدَةٍ، وَلَا مَعَ أَحْجَارٍ صَلْدَةٍ؛ بَلْ نَتَعَامَلُ مَعَ نُفُوسٍ بَشَرِيَّةٍ فِيهَا الإِقْبَالُ وَالإِحْجَامُ، وَالخَيْرُ وَالشَّرُّ، وَالحَقُّ وَالبَاطِلُ، وَالفُجُورُ وَالتَّقْوَى، والهُدَى وَالضَّلَالُ.

وَلَا سَبِيلَ - مُطْلَقًا- لِفَتْحِ هَذِه القُلُوبِ، وَإِقْنَاعِ هَذِهِ العُقُولِ بِهَذَا الحَقِّ الَّذِي مَعَنَا، إِلَّا بِالمَنْهَجِ النَّبَوِيِّ فِي الدَّعْوَةِ إِلَى اللهِ؛ فَهُوَ مَنْهَجٌ تَوقِيفِيٌّ لَيْسَ مِنْ حَقِّ أَيِّ أَحَدٍ يَسْلُكُ طَرِيقَ الدَّعْوَةِ إِلَى اللهِ أَنْ يَحِيدَ عَنْهُ؛ فَاتِّبَاعُ مَنْهَجِهِ ﷺ لَيْسَ تَطَوُّعًا وَلَا اخْتِيَارًا، وَإِنَّمَا هُوَ وَاجِبٌ شَرْعِيٌّ لَا مَفَرَّ مِنْ أَدَائِهِ؛ فَاللهُ مِنْ وَرَائِهِ؛ وَأَسَاسُ هَذَا الْمَنْهَجِ الْكَرِيمِ هُوَ رَبْطُ الْقَلْبِ الْبَشَرِيِّ بِاللهِ - جَلَّ وَعَلَا - يَرْجُوهُ، وَيَخْشَاهُ، فَيَنْقَادُ لِأَوَامِرِهِ - جَلَّ وَعَلَا - رَاجِيًا رِضَاهُ، وَيَنْتَهِي عَنْ نَوَاهِيهِ، وَيَقِفُ عِنْدَ حُدُودِهِ، يَخْشَى سَخَطَهُ وَعَذَابَهُ، وَاللهُ - جَلَّ وَعَلَا - لَمْ يَأْمُرْ إِلَّا بِكُلِّ خَيْرٍ، وَلَمْ يَنْهَ إِلَّا عَنْ كُلِّ شَرٍّ ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يَأْمُرُ بِٱلْعَدْلِ وَٱلْإِحْسَٰنِ وَإِيتَآيِٕ ذِى ٱلْقُرْبَىٰ وَيَنْهَىٰ عَنِ ٱلْفَحْشَآءِ وَٱلْمُنكَرِ وَٱلْبَغْىِ ۚ يَعِظُكُمْ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ﴾ [النحل: ٩٠].

وَيَقُولُ سُبْحَانَهُ: ﴿قُلْ تَعَالَوْا أَتْلُ مَا حَرَّمَ رَبُّكُمْ عَلَيْكُمْ أَلَّا تُشْرِكُوا بِهِ شَيْئًا وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَانًا وَلَا تَقْتُلُوا أَوْلَادَكُم مِّنْ إِمْلَاقٍ نَّحْنُ نَرْزُقُكُمْ وَإِيَّاهُمْ وَلَا تَقْرَبُوا الْفَوَاحِشَ مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَمَا بَطَنَ وَلَا تَقْتُلُوا النَّفْسَ الَّتِي حَرَّمَ اللَّهُ إِلَّا بِالْحَقِّ ذَٰلِكُمْ وَصَّاكُم بِهِ لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ (١٥١) وَلَا تَقْرَبُوا مَالَ الْيَتِيمِ إِلَّا بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ حَتَّىٰ يَبْلُغَ أَشُدَّهُ وَأَوْفُوا الْكَيْلَ وَالْمِيزَانَ بِالْقِسْطِ لَا نُكَلِّفُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا وَإِذَا قُلْتُمْ فَاعْدِلُوا وَلَوْ كَانَ ذَا قُرْبَىٰ وَبِعَهْدِ اللَّهِ أَوْفُوا ذَٰلِكُمْ وَصَّاكُم بِهِ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ (١٥٢) وَأَنَّ هَٰذَا صِرَاطِي مُسْتَقِيمًا فَاتَّبِعُوهُ وَلَا تَتَّبِعُوا السُّبُلَ فَتَفَرَّقَ بِكُمْ عَن سَبِيلِهِ ذَٰلِكُمْ وَصَّاكُم بِهِ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ﴾ [الأنعام: ١٥١-١٥٣].

وَلِتَحْقِيقِ هَذَا المَنْهَجِ الرَّبَّانِيِّ الَّذِي يُعَبِّدُ الخَلْقَ لِلحَقِّ، وَيُخْرِجُهُمْ مِنْ ظُلُمَاتِ الشِّرْكِ إِلَى أَنْوَارِ التَّوْحِيدِ، وَيَدْعُوهُمْ إِلَى تَحْقِيقِ الغَايَةِ الَّتِي مِنْ أَجْلِهَا خُلِقُوا، وَيَدْعُوهُمْ إِلَى التَّحَلِّي بِمَكَارِمِ الأَخْلَاقِ، وَمَعَالِي الشِّيَمِ، وَتَزْكِيَةِ النُّفُوسِ، وَتَطْهِيرِ القُلُوبِ، وَإِصْلَاحِ الدُّنْيَا بِالدِّينِ لِتَحْقِيقِ هَذَا المَنْهَجِ وَتَطْبِيقِهِ وَتَحْوِيلِهِ عَلَى أَرْضِ الوَاقِعِ إِلَى مَنْهَجِ حَيَاةٍ قَامَ النَّبِيُّ ﷺ مُنْذُ اللَّحْظَةِ الأُولَى الَّتِي نَزَلَ فِيهَا قَوْلُ اللهِ - جَلَّ وَعَلَا -: ﴿يَا أَيُّهَا الْمُدَّثِّرُ (١) قُمْ فَأَنذِرْ﴾ [المدثر: ١، ٢]، وَلَمْ يَذُقِ النَّبِيُّ ﷺ طَعْمَ الرَّاحَةِ، وَلَمْ يَدَعْ سَبِيلًا مِنْ سُبُلِ الدَّعْوَةِ إِلَى اللهِ جَلَّ وَعَلَا إِلَّا سَلَكَهُ، وَقَامَ لِلهِ خَيْرَ قِيَامٍ يَحْمِلُ عَلَى عَاتِقِهِ حِمْلًا ثَقِيلًا كَانَ بِالأَمْسِ القَرِيبِ حُلْمًا جَمِيلًا، وَصَارَتِ الدَّعْوَةُ هَمَّهُ بِاللَّيْلِ وَالنَّهَارِ، وَفِكْرَهُ فِي النَّوْمِ وَاليَقَظَةِ، وَشُغْلَهُ فِي السِّرِّ وَالعَلَنِ، يُضَحِّي فِي سَبِيلِ إِبْلَاغِهَا بِالجُهْدِ وَالوَقْتِ وَالرَّاحَةِ وَالمَالِ؛ بَلْ بِرُوحِهِ وَدَمِهِ، وَيَسْتَعْذِبُ فِي سَبِيلِ إِبْلَاغِهَا لِلْخَلْقِ كُلَّ مِحْنَةٍ وَبَلَاءٍ، يَصْعَدُ جَبَلًا، وَيَهْبِطُ وَادِيًا، وَيَسْلُكُ كُلَّ الدُّرُوبِ عَلَى قَدَمَيْهِ المُتْعَبَتَيْنِ، يَبْحَثُ عَنْ أَمَلٍ، وَيَشُقُّ لِلإِسْلَامِ نَهْرًا لِلْحَيَاةِ وَسْطَ أَحْجَارٍ صَلْدَةٍ عَاتِيَةٍ، وَيُضِيءُ لِلتَّوْحِيدِ شُعْلَةً فِي أَرْضٍ مُظْلِمَةٍ، وَيَغْرِسُ لِلْحَقِّ شَجَرَةً وَارِفَةَ الظِّلَالِ فِي صَحْرَاءَ مُقْفِرَةٍ، وَرَاحَ بِهِمَّةٍ عَالِيَةٍ وَإِرَادَةٍ صَادِقَةٍ يَخُوضُ بِدَعْوَتِهِ الكَرِيمَةِ بُحُورًا هَائِجَةً، وَيُوَاجِهُ بِهَا أَمْوَاجًا عَاتِيَةً فِي عَالَمِ النَّفْسِ وَالضَّمِيرِ مَعَ شَهَوَاتٍ ثَقِيلَةٍ، وَشُبُهَاتٍ

خَطِيرَةٍ، وَفِي عَالَمِ الْوَاقِعِ الْأَلِيمِ مَعَ الْكُفْرِ وَالْبَاطِلِ وَالضَّلَالِ، وَلَا يَعْرِفُ قَدْرَ هَذَا الْجَهْدِ الْمُضْنِي مِنَ الْبَلَاغِ الْمُتَوَاصِلِ الدَّؤُوبِ الصَّابِرِ الطَّامِحِ إِلَّا مَنْ عَرَفَ حَجْمَ الْبَاطِلِ مِنْ جِهَةٍ، وَحَجْمَ اسْتِعْصَاءِ النَّفْسِ الْبَشَرِيَّةِ إِذَا انْحَرَفَتْ عَنِ اللَّهِ، وَطَالَ عَلَيْهَا الْأَمَدُ مِنْ جِهَةٍ أُخْرَى.

نَعَمْ، فَالْغُرْبَةُ كَبِيرَةٌ مُؤْلِمَةٌ، وَالْأَرْضُ كُلُّها يُتْمٌ، وَالْبَشَرِيَّةُ تَئِنُّ مِنَ الْأَلَمِ، وَيَعْصِرُ قَلْبَهَا الْهَمُّ وَالْحُزْنُ! وَأَرْضُ الْجَزِيرَةِ غَابَةٌ مِنَ الْأَصْنَامِ الْبَاطِلَةِ وَالْآلِهَةِ الْمَكْذُوبَةِ! وَالْعَادَاتِ الْقَدِيمَةِ الْبَالِيَةِ، فَالْقَوْمُ يَنْحَرُ بَعْضُهُمْ بَعْضًا مِنْ أَجْلِ نَاقَةٍ؛ فَمَا ظَنُّكَ بِمَا سَيَفْعَلُونَهُ مِنْ أَجْلِ آلِهَةٍ مُدَّعَاةٍ يَنْحَرُونَ لَهَا آلَافَ النِّيَاقِ؟!

فَمَاذَا عَسَاهُ يَفْعَلُ الْأَمِينُ الصَّادِقُ ﷺ؟

وَالْإِجَابَةُ كَانَتْ أَكْثَرَ مِنْ ثَلَاثَةٍ وَعِشْرِينَ عَامًا فِي فَنِّ التَّعَامُلِ مَعَ الْخَلْقِ بِحِكْمَةٍ بَالِغَةٍ، وَرَحْمَةٍ جَيَّاشَةٍ، وَتَوَاضُعٍ أَخَّاذٍ، وَأَدَبٍ جَمٍّ، وَصَبْرٍ جَمِيلٍ، عَبَّرَ عَنْهُ ﷺ يَوْمًا بِقَوْلِهِ؛ كَمَا فِي «مُسْنَدِ» **أَحْمَدَ**، وَ «سُنَنِ» **التِّرْمِذِيِّ وَابْنِ مَاجَهْ** بِسَنَدٍ صَحِيحٍ (١) مِنْ حَدِيثِ أَنَسٍ رضي الله عنه: «**لَقَدْ أُوذِيتُ فِي اللهِ وَمَا يُؤْذَى أَحَدٌ، وَأُخِفْتُ فِي اللهِ وَمَا يُخَافُ أَحَدٌ، وَلَقَدْ أَتَتْ عَلَيَّ ثَلَاثَةٌ مِنْ بَيْنِ يَوْمٍ وَلَيْلَةٍ وَمَا لِي وَلِبِلَالٍ طَعَامٌ يَأْكُلُهُ ذُو كَبِدٍ؛ إِلَّا مَا يُوَارِي إِبْطُ بِلَالٍ**»!!

وَمَعَ تِلْكَ الْمَرَارَةِ وَالْأَذَى صَبَرَ، وَرَاحَ يَعْرِضُ نَفْسَهُ، وَيُبَلِّغُ دَعْوَتَهُ لِلْأَفْرَادِ، وَالْجَمَاعَاتِ، وَالْقَبَائِلِ؛ ثُمَّ عَلَى أَهْلِ الْكِتَابِ مِنَ الْيَهُودِ وَالنَّصَارَى، وَعَلَى

---

(١) أخرجه أحمد (٣/ ١٢٠، ٢٨٦)، وعبد بن حميد في «المنتخب» (١٣١٧)، والترمذيُّ، كتاب صفة القيامة، باب (٣٤) حديث رقم (٢٤٧٢)، وقال: «حسن صحيح»، وابن ماجه في المقدمة، باب فضل سلمان وأبي ذر والمقداد (١٥١)، وابن أبي شيبة في «مصنفه» (٧/ ٤٢٤) و(٨/ ٤٤٢)، وأبو نعيم في «الحلية» (١/ ١٥٠) و(٦/ ٢٥٢)، وابن حبان في «صحيحه» (٦٥٦٠)، وأبو يعلى (٣٤٢٣)، والبيهقي في «الشعب» (١٦٣٢)، وصححه الألباني في «صحيح الجامع» (٥١٢٥)، وصححه على شرط مسلم في «الصحيحة» (٥/ ٢٢١) (٢٢٢٢).

الْأَعْرَابِ، وَالْمُنَافِقِينَ؛ بَلْ وَرَاسَلَ الْمُلُوكَ وَالْحُكَّامَ فِي زَمَانِهِ، وَدَعَاهُمْ إِلَى الْإِسْلَامِ.

وَاسْتَطَاعَ - بِأَبِي وَأُمِّي وَرُوحِي - بِهَذَا الْمَنْهَجِ النَّبَوِيِّ فِي الدَّعْوَةِ فِي مُدَّةٍ لَا تُسَاوِي فِي حِسَابِ الزَّمَنِ شَيْئًا عَلَى الْإِطْلَاقِ، أَنْ يُحَوِّلَ رُعَاةَ الْإِبِلِ وَالْغَنَمِ إِلَى سَادَةٍ لِلدُّوَلِ وَالْأُمَمِ، وَأَنْ يَبْعَثَ الْحَيَاةَ فِي نُفُوسِهِمُ الْمَيِّتَةِ!! وَأَنْ يُدَاوِيَ قُلُوبَهُمُ الْمَرِيضَةَ! وَأَنْ يَجْعَلَ مِنْ هَؤُلَاءِ الْغِلَاظِ الْجُفَاةِ شُمُوسَ حَضَارَةٍ حَقَّةٍ تَمْنَحُ ضِيَاءَهَا لِلْعَالَمِينَ.

وَهَذَا هُوَ الْمَنْهَجُ الْعَمَلِيُّ التَّطْبِيقِيُّ فِي دَعْوَتِهِ ﷺ لَا أُقَدِّمُهُ لِلْإِعْجَابِ السَّالِبِ، وَلَا لِلتَّنْظِيرِ الْبَارِدِ، وَلَا مِنْ أَجْلِ الثَّقَافَةِ الذِّهْنِيَّةِ الْبَاهِتَةِ، كَلَّا.. كَلَّا.

بَلْ أُقَدِّمُهُ؛ لِيَكُونَ مِنْ جَدِيدٍ شُعْلَةً تُوقِدُ شُمُوسَ الْحَيَاةِ، وَدِمَاءً زَكِيَّةً تَتَدَفَّقُ مَرَّةً أُخْرَى فِي عُرُوقِ مُسْتَقْبَلِنَا وَأَجْيَالِنَا؛ لِيَكُونَ مَنْهَجًا عَمَلِيًّا لِكُلِّ السَّالِكِينَ دَرْبَ سَيِّدِ الدُّعَاةِ ﷺ.

فَبِهَذَا الْمَنْهَجِ النَّبَوِيِّ وَحْدَهُ نَسْتَطِيعُ أَنْ نَسْبُرَ أَغْوَارَ النَّفْسِ الْبَشَرِيَّةِ، وَأَنْ نَتَغَلْغَلَ إِلَى أَعْمَاقِهَا؛ لِنُزِيحَ عَنْهَا رُكَامَ الْبَاطِلِ الَّذِي طَمَسَ فِطْرَتَهَا النَّيِّرَةَ، وَلِنُخَلِّصَهَا مِنْ رِقِّ الشَّهَوَاتِ الَّتِي كَبَّلَتْهَا، وَأَلْصَقَتْهَا بِالْأَرْضِ وَالطِّينِ، وَنُحَرِّرَهَا مِنْ شِبَاكِ الشُّبُهَاتِ الَّتِي أَبْعَدَتْهَا عَنِ الْحَقِّ الْمُبِينِ.

بِهَذَا الْمَنْهَجِ النَّبَوِيِّ وَحْدَهُ نَسْقِي الدُّنْيَا كَأْسَ الْفِطْرَةِ، لِتُرْوَى بَعْدَ ظَمَأٍ، وَتَهْتَدِيَ بَعْدَ ضَلَالٍ.

بِهَذَا الْمَنْهَجِ النَّبَوِيِّ وَحْدَهُ نُمَزِّقُ غِشَاوَةَ الْكُفْرِ وَالْكَيْدِ الشَّيْطَانِيِّ، وَنَرُدُّ النَّاسَ إِلَى الْمَنْهَجِ الرَّبَّانِيِّ.

بِهَذَا الْمَنْهَجِ النَّبَوِيِّ وَحْدَهُ نُقِيمُ حُجَّةَ اللهِ عَلَى الْخَلْقِ: ﴿لِئَلَّا يَكُونَ لِلنَّاسِ عَلَى ٱللَّهِ حُجَّةٌۢ بَعْدَ ٱلرُّسُلِ﴾ [النساء: ١٦٥].

هَذَا المَنْهَجُ النَّبَوِيُّ وَحْدَهُ هُوَ الَّذِي يَجِبُ أَنْ نُخَاطِبَ بِهِ النَّاسَ جَمِيعًا مُسْلِمِينَ وَغَيْرَ مُسْلِمِينَ، لِدَعْوَتِهِمْ إِلَى اللهِ وَرَسُولِهِ بِالحِكْمَةِ البَالِغَةِ، وَالمَوْعِظَةِ الحَسَنَةِ، وَالكَلِمَةِ الرَّقِيقَةِ، وَالنَّبْرَةِ الصَّادِقَةِ، وَالحُجَّةِ الوَاضِحَةِ، وَالخُلُقِ النَّبِيلِ، وَالسُّلُوكِ القَوِيمِ، وَالعَمَلِ الحَكِيمِ بِكُلِّ الأَسَالِيبِ وَالوَسَائِلِ المُتَاحَةِ المَشْرُوعَةِ.

فَهُوَ مَنْهَجٌ تَوْقِيفِيٌّ يَضَعُ كُلَّ شَيْءٍ فِي مَرْتَبَتِهِ بِالعَدْلِ، وَيُقَدِّمُ الأَوْلَى فَالأَوْلَى بِضَوَابِطِ الشَّرْعِ الَّتِي يَهْدِي إِلَيْهَا نُورُ الوَحْيِ وَنُورُ العَقْلِ وَفَهْمُ الوَاقِعِ، فَلَا يُقَدِّمُ مَا حَقُّهُ التَّأْخِيرُ، وَلَا يُؤَخِّرُ مَا حَقُّهُ التَّقْدِيمُ، وَلَا يُضَخِّمُ الصَّغِيرَ، وَلَا يُهَوِّنُ الخَطِيرَ، وَيَنْتَقِلُ مِنَ الجُزْئِيِّ إِلَى الكُلِّيِّ، وَمِنَ الفَرْعِيِّ إِلَى الأَصْلِيِّ، وَمِنْ ظَاهِرِ الأُمُورِ إِلَى جَوْهَرِهَا، لِتَحْدِيدِ القَوَاعِدِ الأَصْلِيَّةِ، وَتَأْصِيلِ المَفَاهِيمِ الصَّحِيحَةِ.

وَهُوَ مَنْهَجٌ يَتَّسِمُ بِالتَّكَامُلِ وَالشُّمُولِ وَالسَّعَةِ بِقَدْرِ تَكَامُلِ الإِسْلَامِ وَشُمُولِهِ وَسَعَتِهِ؛ فَهُوَ يُخَاطِبُ الفَرْدَ رُوحًا وَقَلْبًا وَعَقْلًا وَجَسَدًا بِتَوَازُنٍ وَاعْتِدَالٍ بِلَا إِفْرَاطٍ أَوْ تَفْرِيطٍ.

فَلَا يُعَالِجُ جَانِبَ الرُّوحِ فَقَطْ إِلَى أَنْ يُصْبِحَ الإِنْسَانُ كَائِنًا مَشْلُولًا مَقْطُوعًا عَنْ كُلِّ مَا يَمُتُّ إِلَى الحَيَاةِ بِصِلَةٍ!!

وَلَا يُقَدِّسُ عَقْلَهُ وَيَرْفَعُهُ فَوْقَ مَكَانَتِهِ وَيَتَجَاوَزُ بِهِ قَدْرَهُ إِلَى أَنْ يُصْبِحَ الإِنْسَانُ كَائِنًا مَغْرُورًا مُتَكَبِّرًا بَلْ مُتَمَرِّدًا عَلَى مَنْهَجِ خَالِقِهِ جَلَّ وَعَلَا!!

وَلَا يَقْتَصِرُ أَيْضًا عَلَى العِنَايَةِ التَّامَّةِ بِجَانِبِ البَدَنِ فَقَطْ إِلَى أَنْ يَصِيرَ الإِنْسَانُ كَائِنًا لَا يَعِيشُ إِلَّا مِنْ أَجْلِ مَلَذَّاتِهِ وَشَهَوَاتِهِ وَنَزَوَاتِهِ فَحَسْب، فَيَعِيشُ بِلَا هَدَفٍ وَلَا غَايَةٍ.

بَلْ هُوَ مَنْهَجٌ مُتَكَامِلٌ يَجْمَعُ بَيْنَ الرُّوحِ وَالقَلْبِ، وَالعَقْلِ وَالبَدَنِ فِي تَوَافُقٍ وَتَنَاسُقٍ وَاتِّزَانٍ، فِي كُلِّ القَضَايَا الَّتِي يَطْرَحُهَا فِي جَانِبِ العَقِيدَةِ وَالعِبَادَةِ وَالأَخْلَاقِ وَالمُعَامَلَاتِ وَالتَّشْرِيعِ.

وَهُوَ مَنْهَجُ الرَّحْمَةِ وَالحِكْمَةِ يَطْرَحُ مَا يَنْبَغِي فِي الوَقْتِ الَّذِي يَنْبَغِي عَلَى

الوَجْهِ الَّذِي يَنْبَغِي بِعِلْمٍ وَحِلْمٍ وَأَنَاةٍ؛ بِلَا جَهْلٍ وَطَيْشٍ وَعَجَلَةٍ، وَيَخْتَارُ مَا يُخَاطِبُ بِهِ العَالِمَ وَالمُتَعَلِّمَ وَالأُمِّيَّ وَالشَّابَّ وَالشَّيْخَ وَالمَرْأَةَ، وَمَا يُقَالُ لِسَاكِنِ المَدِينَةِ وَالقَرْيَةِ.

وَيَنْتَقِي الكَلِمَاتِ وَالمُفْرَدَاتِ الَّتِي تَتَنَاسَبُ مَعَ المُخَاطَبِينَ وَالمَدْعُوِّينَ بِطَرِيقَةٍ مُقْنِعَةٍ مُؤَثِّرَةٍ تَتَنَاسَبُ مَعَ عُقُولِهِمْ وَأَفْهَامِهِمْ وَأَحْوَالِهِمْ وَبِيئَتِهِمْ، وَيَنْظُرُ بِوَعْيٍ ثَاقِبٍ وَبَصِيرَةٍ مُشْرِقَةٍ إِلَى مَآلَاتِ الأَقْوَالِ وَالأَفْعَالِ، وَمَا يَتَرَتَّبُ عَلَيْهَا مِنَ المَصَالِحِ وَالمَفَاسِدِ وَفْقَ الأُصُولِ الشَّرْعِيَّةِ الَّتِي تَقُومُ فِي مَبْنَاهَا وَأَسَاسِهَا عَلَى الحِكَمِ وَمَصَالِحِ العِبَادِ فِي الدُّنْيَا وَالآخِرَةِ، فَهُوَ يُرَاعِي مَتَى وَأَيْنَ وَكَيْفَ يَكُونُ البَلَاغُ عَنِ اللهِ وَرَسُولِهِ.

كَمَا يَقُولُ عَلِيُّ بْنُ أَبِي طَالِبٍ رضي الله عنه: «حَدِّثُوا النَّاسَ بِمَا يَعْرِفُونَ أَتُحِبُّونَ أَنْ يُكَذَّبَ اللهُ وَرَسُولُهُ» (١).

وَيَقُولُ عَبْدُ اللهِ بْنُ مَسْعُودٍ رضي الله عنه: «مَا أَنْتَ مُحَدِّثًا قَوْمًا حَدِيثًا لَا تَبْلُغُهُ عُقُولُهُمْ إِلَّا كَانَ لِبَعْضِهِمْ فِتْنَةً» (٢).

وَتَقُولُ أُمُّ المُؤْمِنِينَ عَائِشَةُ رضي الله عنها: «أَمَرَنَا رَسُولُ اللهِ ﷺ أَنْ نُنْزِلَ النَّاسَ مَنَازِلَهُمْ» (٣)؛ فَلَا يَكْفِي أَنْ تَعْلَمَ فَقَطْ، وَلَكِنْ أَيْضًا أَنْ تَعْرِفَ مَتَى وَأَيْنَ وَكَيْفَ

---

(١) «صحيح» البخاري مع الفتح، كتاب العلم، باب من خص بالعلم قومًا دون قوم كراهية ألا يفهموا (١/ ٢٧٢) (١٢٧) وفي رواية: «ودعوا ما ينكرون»؛ أي: يشتبه عليهم فهمه؛ كما قاله الحافظ.

(٢) أخرجه مسلمٌ في المقدمة، باب النهي عن الحديث بكل ما سمع (١/ ١١) (مع «شرح النووي»).

(٣) أورده مسلمٌ، في المقدمة مع «شرح النووي» (١/ ٥٥») بصيغة التمريض؛ فقال: «وقد ذكر عن عائشة.. فساقه عنها»، وقد وصله أبو داود، كتاب الأدب، باب في تنزيل الناس منازلهم (٤٨٤٢) وحكم عليه بالانقطاع؛ وضعفه الألباني في «ضعيف الجامع» (١٣٤٤)، وله شاهدٌ راجعه في «الضعيفة» (١٨٩٤)، و«علل» الدارقطني (١٤/ ٣٩١) ط دار طيبة، مكة.

تُبلِّغ ما تعلَم؟!!

وَهذَا المَنْهجُ مَعَ ثَباتِ أُصُولِهِ وَأَرْكَانِهِ وَكُلِّيَّاتِهِ إِلَّا أَنَّهُ يُوظِّفُ كُلَّ الوَسَائِلِ وَالأَسَالِيبِ المُتاحَةِ - المَشْرُوعَةِ - وَلَا يَتجاهَلُ وَسَائِلَ الاتِّصَالاتِ الحَدِيثَةِ كَالفَضَائيَّاتِ وَشَبَكَةِ المَعْلُومَاتِ «الإِنْتَرْنِتْ» وَالإِذَاعَةِ وَالصُّحُفِ وَالمَجَلَّاتِ وَالدَّوْرِيَّاتِ وَالمَطْوِيَّاتِ وَأَجْهِزَةِ الهَاتِفِ وَغَيْرِهَا لِلتَّفَاعُلِ مَعَ كُلِّ فِكْرٍ وَمُخَاطَبَةِ كُلِّ عَقْلٍ وَقَلْبٍ لَاسِيَّمَا وَقَدِ انْتَشَرَتْ هَذِهِ الوَسَائِلُ الحَدِيثَةُ بِصُورَةٍ مُذْهِلَةٍ فِي السَّنَوَاتِ القَلِيلَةِ المَاضِيَةِ، وَأَصْحَابُ المَنْهجِ النَّبَوِيِّ هُمْ أَوْلَى النَّاسِ بِالاسْتِفَادَةِ الكَامِلَةِ بِهَذِهِ التِّقْنِيَةِ المُبْهِرَةِ لِتَعْبِيدِ الخَلْقِ لِلحَقِّ جَلَّ وَعَلَا.

وَبِالرَّغْمِ مِنْ أَهَمِّيَّةِ هَذِهِ الوَسَائِلِ الحَدِيثَةِ إِلَّا أَنَّ المَنْهَجَ النَّبَوِيَّ الدَّعَوِيَّ يَجْعَلُ المَسَاجِدَ فِي الطَّلِيعَةِ وَالرِّيَادَةِ وَالصَّدَارَةِ وَلَا يُجَوِّزُ بِحَالٍ مِنَ الأَحْوَالِ أَنْ يُهمِلَ الخِطَابُ الدَّعَوِيُّ المَسَاجِدَ مُنْشَغِلًا بِزَخَمِ الأَضْوَاءِ وَالإِعْلَامِ وَوَسَائِلِ التَّوَاصُلِ الاجْتِمَاعِيِّ.

فَالمَسْجِدُ هُوَ المِحْضَنُ التَّرْبَوِيُّ الطَّاهِرُ وَالمَدْرَسَةُ الرَّبَّانِيَّةُ فِي تَزْكِيَةِ النُّفُوسِ وَتَهْذِيبِ الأَخْلَاقِ وَإِصْلَاحِ القُلُوبِ وَتَجْدِيدِ الإِيمَانِ؛ فَمِنْبَرُهُ أَرْقَى المَنَابِرِ، وَخِطَابُهُ فَوْقَ كُلِّ خِطَابٍ، وَخَطِيبُهُ سَبَقَ الخُطَبَاءَ، وَإِعْلَامُهُ أَصْدَقُ إِعْلَامٍ، وَتَأْثِيرُهُ أَبْلَغُ تَأْثِيرٍ، وَهذِهِ الجَمَاهِيرُ المُسْلِمَةُ الزَّاحِفَةُ إِلَى المَسَاجِدِ لِتَأْدِيَةِ الصَّلَوَاتِ عَامَّةً وَصَلَاةِ الجُمُعَةِ خَاصَّةً تَفْتَرِشُ السَّاحَاتِ وَتَمْلَأُ الطُّرُقَاتِ وَالأَرْصِفَةَ لَمِنْ أَعْظَمِ الأَدِلَّةِ عَلَى عِظَمِ رِسَالَةِ المَسْجِدِ وَجَلِيلِ قَدْرِهَا وَخَطَرِ الخِطَابِ الدَّعَوِيِّ الَّذِي يُشَكِّلُ وِجْدَانَهَا وَعُقُولَهَا وَيُحَرِّكُ قُلُوبَهَا.

وَإِذَا كَانَتْ البَشَرِيَّةُ عَامَّةً، وَالأُمَّةُ خَاصَّةً تَحْتَاجُ إِلَى النَّبِيِّ ﷺ وَلِمَنْهَجِهِ وَرِسَالَتِهِ؛ فَمَا أَحْوَجَ الدُّعَاةَ إِلَى اللهِ تعالَى إِلَيْهِ ﷺ؛ فَهُوَ - بِأَبِي وَأُمِّي وَرُوحِي - أُسْوَةُ كُلِّ الدُّعَاةِ؛ فَحَرِيٌّ بِكُلِّ مَنْ سَلَكَ طَرِيقَ الدَّعْوَةِ إِلَى اللهِ ﷻ وَشَرَّفَهُ اللهُ بِالسَّيْرِ عَلَى خُطَى النَّبِيِّ ﷺ أَنْ يَقِفَ عَلَى هَذِهِ المَعَانِي المُجْمَلَةِ الجَمِيلَةِ مِنْ أَخْلَاقِ وَصِفَاتِ أُسْوَةِ الدُّعَاةِ ﷺ؛ فَلَقَدْ أَكْمَلَ اللهُ لَهُ المَحَاسِنَ خُلُقًا وَخَلْقًا؛

فَهُوَ ﷺ أَعْلَى النَّاسِ قَدْرًا، وَأَعْظَمُهُم مَحلًّا، وَأَكْمَلُهُمْ فَضْلًا، وَأَرْجَحُهُمْ عَقْلًا، وَأَحْسَنُهُمْ رَأْيًا، وَأَبْعَدُهُمْ غَضَبًا، وَأَسْرَعُهُمْ رِضًا، وَكَانَ أَرْأَفَ النَّاسِ بِالنَّاسِ، وَخَيْرَ النَّاسِ لِلنَّاسِ، وَصَدَقَ رَبِّي - جَلَّ وَعَلَا- إِذْ يَقُولُ: ﴿وَإِنَّكَ لَعَلَىٰ خُلُقٍ عَظِيمٍ﴾ [القلم: ٤].

وَمَا أَجْمَلَ قَوْلَ الصِّدِّيقَةِ بِنْتِ الصِّدِّيقِ أُمِّ المُؤْمِنِينَ عَائِشَةَ رضي الله عنها حِينَمَا سُئِلَتْ عَنْ خُلُقِهِ؛ فَقَالَتْ: «كَانَ خُلُقُهُ القُرْآنَ» (١).

أَمَّا أَسْبَابُ اخْتِيَارِي لِلمَوْضُوعِ:

١- تَذْكِيرُ الأُمَّةِ بِوَاجِبِ الدَّعْوَةِ وَفَضْلِهَا.

٢- الوَاقِعُ الأَلِيمُ وَالانْفِصَامُ النَّكِدُ الَّذِي تَعِيشُهُ البَشَرِيَّةُ بِالرَّغْمِ مِنْ تَقَدُّمِهَا المَادِّيِّ وَالعِلْمِيِّ فَهِيَ فِي حَاجَةٍ شَدِيدَةٍ إِلَى مَنْهَجِ خَالِقِهَا جَلَّ وَعَلَا.

٣- التَّقْصِيرُ الشَّدِيدُ الَّذِي وَقَعَتْ فِيهِ أُمَّةُ الدَّعْوَةِ وَالبَلَاغِ حِينَ قَصَّرَتْ فِي الشَّهَادَةِ العَمَلِيَّةِ وَالخُلُقِيَّةِ لِهَذَا الدِّينِ عَلَى أَرْضِ الوَاقِعِ مِنْ نَاحِيَةٍ، وَفِي دَعْوَةِ النَّاسِ بِالحِكْمَةِ وَالرَّحْمَةِ مِنْ نَاحِيَةٍ أُخْرَى.

٤- رَغْبَتِي الشَّدِيدَةُ فِي تَأْصِيلِ وَبَيَانِ المَنْهَجِ النَّبَوِيِّ فِي الدَّعْوَةِ إِلَى اللهِ مَعَ المُسْلِمِينَ وَغَيْرِهِمْ بِصُورَةٍ عَمَلِيَّةٍ حَتَّى لَا تَبْقَى الدَّعْوَةُ مُجَرَّدَ تَأْصِيلٍ عِلْمِيٍّ وَتَنْظِيرٍ فِكْرِيٍّ يُحَلِّقُ فِي أَجْوَاءِ الخَيَالِ وَسَمَاءِ الأَحْلَامِ بَعِيدًا عَنْ وَاقِعِ البَشَرِيَّةِ وَالأُمَّةِ.

٥- مَا أَصَابَ الخِطَابَ الدَّعَوِيَّ مِنْ خَلَلٍ وَقُصُورٍ - عِنْدَ الكَثِيرِينَ - فِي التَّأْصِيلِ وَالتَّطْبِيقِ، لَا يَجْحَدُهُ مُنْصِفٌ مُتَابِعٌ. وَهَذَا يُحَتِّمُ عَلَيْنَا أَنْ نَقِفَ وَقْفَةَ صِدْقٍ لِنَقْدِ الذَّاتِ وَتَصْحِيحِ الخَطَإِ وَتَقْوِيمِ المَسَارِ.

---

(١) أخرجه مسلمٌ، كتاب صلاة المسافرين وقصرها، باب جامع صلاة الليل، ومن نام عنه أو مرض (٧٤٦).

٦- تَطَلُّعُ الأُمَّةِ الشَّدِيدِ لِسَمَاعِ كَلِمَةِ العُلَمَاءِ وَالدُّعَاةِ فِي أَيِّ حَدَثٍ يَقَعُ أَوْ فِتْنَةٍ تَنْزِلُ.

٧- الحَاجَةُ المُلِحَّةُ للدُّعَاةِ إِلَى اللهِ لِمَعْرِفَةِ المَنْهَجِ النَّبَوِيِّ بِصُورَةٍ تَطْبِيقِيَّةٍ مَعَ رَبْطِ ذَلِكَ بِالوَاقِعِ حَتَّى لَا يَحِيْدُوا عَنِ المَنْهَجِ النَّبَوِيِّ التَّوْقِيفِيِّ مِنْ نَاحِيَةٍ، وَلَا يَغِيبُوا عَنْ وَاقِعِ أُمَّتِهِمْ مِنْ نَاحِيَةٍ أُخْرَى.

٨- عَدَمُ الاسْتِفَادَةِ المَرْجُوَّةِ إِلَى الآنَ مِنْ وَسَائِلِ الاتِّصَالِ الحَدِيثَةِ فِي الدَّعْوَةِ إِلَى اللهِ لِمُخَاطَبَةِ أَهْلِ الأَرْضِ.

٩- التَّذْكِيرُ بِأَهْدَافِ وَأَوْلَوِيَّاتِ وَأُصُولِ وَوَسَائِلِ وَأَسَالِيبِ المَنْهَجِ النَّبَوِيِّ فِي الدَّعْوَةِ حَتَّى لَا تَضِيعَ الجُهُودُ وَالأَوْقَاتُ مِنْ نَاحِيَةٍ، وَنَنْحَرِفَ عَنِ الحَقِّ وَسِيلَةً وَنَحْنُ نَتَّجِهُ إِلَيْهِ غَايَةً مِنْ نَاحِيَةٍ أُخْرَى.

١٠- وَأَخِيرًا، اخْتَرْتُ هَذَا المَوْضُوعَ الجَلِيلَ لِنَيْلِ شَرَفِ التَّأَسِّي بِرَسُولِ اللهِ ﷺ وَالانْضِمَامِ لِرَكْبِ الدُّعَاةِ الكَرِيمِ مِنَ الأَنْبِيَاءِ وَالمُرْسَلِينَ وَالسَّائِرِينَ عَلَى دَرْبِهِمْ مِنَ العُلَمَاءِ الرَّبَّانِيِّينَ وَالدُّعَاةِ الصَّادِقِينَ.

الدِّرَاسَاتُ السَّابِقَةُ فِي المَوْضُوعِ:

بِفَضْلِ اللهِ جَلَّ وَعَلَا وَحْدَهُ اطَّلَعْتُ عَلَى كَثِيرٍ مِنَ الكُتُبِ وَالرَّسَائِلِ فِي بَابِ الدَّعْوَةِ إِلَى اللهِ جَلَّ وَعَلَا ذَكَرْتُ كَثِيرًا مِنْ أَسْمَائِهَا فِي فِهْرِسِ المَرَاجِعِ مِنْهَا مَا يُغَطِّي جَانِبًا مِنْ جَوَانِبِ الدَّعْوَةِ كَالحِكْمَةِ وَالرِّفْقِ وَاللِّينِ وَالتَّدَرُّجِ وَفِقْهِ الدَّعْوَةِ وَأُصُولِ الدَّعْوَةِ وَدَعْوَةِ الأَعْرَابِ وَغَيْرِهِمْ؛ لَكِنَّنِي - فِيمَا أَعْلَمُ - لَمْ أَقِفْ عَلَى دِرَاسَةٍ عِلْمِيَّةٍ مُتَخَصِّصَةٍ تَحَدَّثَتْ عَنْ مَنْهَجِ النَّبِيِّ ﷺ فِي دَعْوَةِ الآخَرِ بِصُورَةٍ شَامِلَةٍ، وَلِذَا؛ فَإِنَّنِي أَحْمَدُ اللهَ جَلَّ وَعَلَا عَلَى تَوْفِيقِهِ فِي اخْتِيَارِ هَذَا المَوْضُوعِ المُهِمِّ وَتَقْدِيمِهِ فِي هَذِهِ المَرْحَلَةِ الرَّاهِنَةِ.

منْهجُ البحْثِ:

١ - اعْتَمَدْتُ فِي طَرِيقَةِ البَحْثِ عَلَى المَنْهَجِ التَّارِيخِيِّ وَالاسْتِقْرَائِيِّ؛ لأَنَّ الدِّرَاسَةَ تَتَحَدَّثُ عَنِ المَنْهَجِ النَّبَوِيِّ فِي الدَّعْوَةِ إِلَى اللهِ فِي حَيَاتِهِ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ بِالرُّجُوعِ إِلَى مَرَاحِلِهَا وَتَطَوُّرَاتِهَا وَتَحْلِيلِ وَتَفْسِيرِ هَذِهِ المَرَاحِلِ وَالتَّطَوُّرَاتِ تَحْلِيلاً عِلْمِيًّا رَصِينًا يَرْبِطُ النَّتَائِجَ بِالأَسْبَابِ.

٢- وَعَلَى المَنْهَجِ الاسْتِقْرَائِيِّ أَيْضًا بِجَمْعِ مَا تَيَسَّرَ لَدَيَّ مِنَ المَعْلُومَاتِ المُوَثَّقَةِ الصَّحِيحَةِ فِي مَوْضُوعِ البَحْثِ وَالدِّرَاسَةِ وَجَمْعِهَا وَتَنْظِيمِهَا بِصُورَةٍ جَيِّدَةٍ فِي قَوَالِبَ مُحَدَّدَةٍ لاسْتِنْبَاطِ النَّتَائِجِ الصَّحِيحَةِ لِلوصُولِ إِلَى النَّتَائِجِ وَالحُلُولِ وَالتَّوْصِيَّاتِ الَّتِي نَحْتَاجُ إِلَيْهَا فِي وَاقِعِنَا المُعَاصِرِ.

٣- قُمْتُ بِتَحْدِيدِ الآيَاتِ القُرْآنِيَّةِ بِوَضْعِهَا بَيْنَ هِلَالَيْنِ يَتَوَسَّطُ كُلاًّ مِنْهُمَا نَجْمَةٌ ﴿ ﴾ وَعَزْوِهَا إِلَى مَكَانِهَا فِي السُّورَةِ مَعَ ذِكْرِ رَقْمِ الآيَةِ.

٤- قُمْتُ بِتَخْرِيجِ الأَحَادِيثِ النَّبَوِيَّةِ وَالحُكْمِ عَلَيْهَا مِنْ كَلَامِ أَئِمَّتِنَا وَعُلَمَائِنَا المُتَقَدِّمِينَ وَالمُتَأَخِّرِينَ وَمَيَّزْتُ بَيْنَهَا وَبَيْنَ الآيَاتِ القُرْآنِيَّةِ.

٥- خَرَّجْتُ الآثَارَ الوَارِدَةَ عَنِ الصَّحَابَةِ وَالتَابِعِينَ مَا اسْتَطَعْتُ.

٦- قُمْتُ بِتَرْجَمَةٍ مُخْتَصَرَةٍ جِدًّا لِكُلِّ الأَعْلَامِ الَّذِينَ وَرَدَتْ أَسْمَاؤُهُمْ فِي الرِّسَالَةِ حَتَّى المَعْرُوفِينَ مِنْهُمْ؛ لأَنَّ رِسَالَتِي أُقَدِّمُهَا لِلمُسْلِمِينَ وَغَيْرِ المُسْلِمِينَ.

٧- بَذَلْتُ مَا اسْتَطَعْتُ مِنْ جُهْدٍ لِبَيَانِ مَعَانِي بَعْضِ الكَلِمَاتِ وَالمُفْرَدَاتِ الَّتِي رَأَيْتُ أَنَّهَا تَحْتَاجُ إِلَى تَوضِيحٍ.

٨- عَزَوْتُ الشَّوَاهِدَ وَالأَبْيَاتَ الشِّعْرِيَّةَ إِلَى مَصَادِرِهَا قَدْرَ جُهْدِي.

٩- عَرَّفْتُ بِاخْتِصَارٍ بِالفِرَقِ الَّتِي وَرَدَتْ فِي البَحْثِ.

١٠- حَرَصْتُ عَلَى ذِكْرِ أَسْمَاءِ المَرَاجِعِ مَعَ ذِكْرِ المُؤَلِّفِ وَالنَّاشِرِ وَالتَّارِيخِ إِنْ وُجِدَ فِي الطَّبْعَةِ الَّتِي أَنْقُلُ عَنْهَا.

١١- وَضَعْتُ فَهَارِسَ مُفَصَّلَةً فِي آخِرِ الدِّرَاسَةِ عَلَى النَّحْوِ التَّالِي:

- فِهْرِسُ الأَحَادِيثِ.
- فِهْرِسُ الآثَارِ.
- فِهْرِسُ الأَعْلَامِ وَالتَّرَاجِمِ.
- فِهْرِسُ الأَشْعَارِ.
- فِهْرِسُ المَرَاجِعِ.
- فِهْرِسُ المَوْضُوعَاتِ.

١٢- خَتَمْتُ الرِّسَالَةَ بِالنَّتَائِجِ وَالتَّوْصِيَّاتِ.

تَقْسِيمُ الدِّرَاسَةِ:

هَذَا، وَقَدْ اشْتَمَلَتِ الدِّرَاسَةُ عَلَى مُقَدِّمَةٍ وَخَمْسَةِ فُصُولٍ وَتِسْعَةٍ وَأَرْبَعِينَ مَبْحَثًا وَعَشَرَةِ مَطَالِبَ وَخَاتِمَةٍ مَعَ أَهَمِّ النَّتَائِجِ وَالتَّوْصِيَّاتِ:

○ **الفَصْلُ الأَوَّلُ:** مَنْهَجُ النَّبِيِّ ﷺ فِي دَعْوَةِ الآخَرِ.

وَفِيهِ ثَلَاثَةُ مَبَاحِثَ:

- **المَبْحَثُ الأَوَّلُ:** تَمْهِيدٌ فِي التَّعْرِيفِ بِمَوْضُوعِ الدِّرَاسَةِ.
- **المَبْحَثُ الثَّانِي:** فَضْلُ الدَّعْوَةِ وَفَرْضِيَّتُهَا.
- **المَبْحَثُ الثَّالِثُ:** حَاجَةُ البَشَرِيَّةِ إِلَى مَنْهَجِ النَّبِيِّ ﷺ.

○ **الفَصْلُ الثَّانِي:** أَهْدَافُ المَنْهَجِ النَّبَوِيِّ فِي الدَّعْوَةِ إِلَى اللهِ ﷻ.

وَفِيهِ أَرْبَعَةُ مَبَاحِثَ:

- **المَبْحَثُ الأَوَّلُ:** الدَّعْوَةُ إِلَى الإِيمَانِ بِاللهِ تَعَالَى وَعِبَادَتِهِ.
- **المَبْحَثُ الثَّانِي:** الدَّعْوَةُ إِلَى التَّحَلِّي بِمَكَارِمِ الأَخْلَاقِ.

- المَبْحَثُ الثَّالِثُ: تَزْكِيَةُ النُّفُوسِ وَإِصْلَاحُ الْقُلُوبِ.
- المَبْحَثُ الرَّابِعُ: إِصْلَاحُ الدُّنْيَا بِالدِّينِ.

○ **الفَصْلُ الثَّالِثُ: مُقَوِّمَاتُ المَنْهَجِ النَّبَوِيِّ فِي الدَّعْوَةِ إِلَى الله تَعَالَى؛ وَفِيهِ عَشَرَةُ مَبَاحِثَ:**

- المَبْحَثُ الأَوَّلُ: الإِخْلَاصُ وَالتَّقْوَى.
- المَبْحَثُ الثَّانِي: التَّجَرُّدُ وَالعَدْلُ وَالإِنْصَافُ.
- المَبْحَثُ الثَّالِثُ: البَصِيرَةُ وَالعِلْمُ وَالفَهْمُ وَالعَمَلُ.
- المَبْحَثُ الرَّابِعُ: عُلُوُّ الهِمَّةِ وَالحِرْصُ عَلَى هِدَايَةِ الآخَرِينَ.
- المَبْحَثُ الخَامِسُ: الصَّبْرُ عَلَى الأَذَى.
- المَبْحَثُ السَّادِسُ: الحِكْمَةُ وَالرَّحْمَةُ وَالتَّوَاضُعُ.
- المَبْحَثُ السَّابِعُ: الرِّفْقُ وَاللِّينُ.
- المَبْحَثُ الثَّامِنُ: الوَسَطِيَّةُ وَالاعْتِدَالُ.
- المَبْحَثُ التَّاسِعُ: التَّدَرُّجُ فِي الدَّعْوَةِ.
- المَبْحَثُ العَاشِرُ: التَّمَيُّزُ وَالمفَاصَلَةُ.

○ **الفَصْلُ الرَّابِعُ: أَسَالِيبُ المَنْهَجِ النَّبَوِيِّ فِي الدَّعْوَةِ إِلَى الله:**

- وَفِيهِ: تَمْهِيدٌ فِي تَعْرِيفِ الأُسْلُوبِ وَالوَسِيلَةِ، وَالفَرْقِ بَيْنَهُمَا.
- وَثَلَاثَةٌ وَعِشْرُونَ مَبْحَثًا فِي أَسَالِيبِ المَنْهَجِ النَّبَوِيِّ.

○ **الفَصْلُ الخَامِسُ وَالأَخِيرُ: التَّطْبِيقُ الْعَمَلِيُّ لِلْمَنْهَجِ النَّبَوِيِّ فِي الدَّعْوَةِ إِلَى الله تَعَالَى؛ وَفِيهِ تِسْعَةُ مَبَاحِثَ:**

- المَبْحَثُ الأَوَّلُ: دَعْوَتُهُ ﷺ لِلْمُشْرِكِينَ.

وَفِيهِ مَطْلَبَانِ:

- المَطْلَبُ الأَوَّلُ: تَعْرِيفُ الشِّرْكِ.

- المَطْلَبُ الثَّانِي:

١ - دَعْوَتُهُ لِلأَقْرَبِينَ.

٢ - دَعْوَتُهُ فِي الأَسْوَاقِ لِأَهْلِ الشِّرْكِ.

٣ - دَعْوَتُهُ لِلْقَبَائِلِ.

٤ - دَعْوَتُهُ لِلأَنْصَارِ.

٥ - صُمُودُهُ فِي دَعْوَتِهِ.

٦ - دَعْوَتُهُ لِأَهْلِ الطَّائِفِ.

● المَبْحَثُ الثَّانِي: دَعْوَتُهُ ﷺ لأَهْلِ الْكِتَابِ.

وَفِيهِ مَطْلَبَانِ:

- المَطْلَبُ الأَوَّلُ: مَنْ هُمْ أَهْلُ الْكِتَابِ؟.

- المَطْلَبُ الثَّانِي: كَيْفِيَّةُ دَعْوَتِهِ ﷺ لِأَهْلِ الكِتَابِ.

● المَبْحَثُ الثَّالِثُ: دَعْوَتُهُ ﷺ لِلْمُنَافِقِينَ.

وَفِيهِ مَطْلَبَانِ:

- المَطْلَبُ الأَوَّلُ: تَعْرِيفُ النِّفَاقِ.

- المَطْلَبُ الثَّانِي: تمْهِيدٌ في بَيَانِ خُطُورَةِ النِّفَاقِ وَالْمُنَافِقِينَ، ثُمَّ يَتْلُوهُ:
دَعْوَتُهُ ﷺ لِأَهْلِ النِّفَاقِ وَصَبْرُهُ عَلَى أَذَاهُمْ.

● **الْمَبْحَثُ الرَّابِعُ**: دَعْوَتُهُ ﷺ لِلأَعْرَابِ.

وَفِيهِ مَطْلَبَانِ:

- **الْمَطْلَبُ الأَوَّلُ**: تَعْرِيفُ الأَعْرَابِ.

- **الْمَطْلَبُ الثَّانِي**: تَمْهِيدٌ، ثُمَّ يَتْلُوهُ دَعْوَتُهُ ﷺ لِلأَعْرَابِ.

● **الْمَبْحَثُ الْخَامِسُ**: دَعْوَتُهُ ﷺ لِلْمُلُوكِ وَالْحُكَّامِ وَالأُمَرَاءِ.

● **الْمَبْحَثُ السَّادِسُ**: دَعْوَتُهُ ﷺ لِلْعُصَاةِ.

وَفِيهِ مَطْلَبَانِ:

- **الْمَطْلَبُ الأَوَّلُ**: مَنْ هُمُ الْعُصَاةُ؟

- **الْمَطْلَبُ الثَّانِي**: دَعْوَتُهُ ﷺ لِلْعُصَاةِ وَتَعْلِيمُهُ لَهُمْ.

● **الْمَبْحَثُ السَّابِعُ**: دَعْوَتُهُ ﷺ لِلنِّسَاءِ وَتَعْلِيمُهُ لَهُنَّ.

● **الْمَبْحَثُ الثَّامِنُ**: دَعْوَتُهُ ﷺ لِلأَطْفَالِ وَتَعْلِيمُهُ لَهُمْ.

● **الْمَبْحَثُ التَّاسِعُ**: دَعْوَتُهُ ﷺ الْفَرْدِيَّةُ لِلأَشْخَاصِ.

○ **وَأَخِيرًا**: الخَاتِمَةُ مَعَ النَّتَائِجِ وَالتَّوصِيَّاتِ.

وَفِي الخِتَامِ؛ أَسْأَلُ اللهَ - جَلَّ وَعَلَا- أَنْ يَنْفَعَ بِهَذِهِ الرِّسَالَةِ الإِسْلَامَ وَالْمُسْلِمِيْنَ، وَأَنْ يَجْعَلَ هَذَا العَمَلَ خَالِصًا لِوَجْهِهِ الكَرِيمِ.

وَمَا كَانَ - فِيهَا- مِنْ تَوْفِيقٍ فَمِنَ اللهِ وَحْدَهُ، وَمَا كَانَ فِيهَا مِنْ خَطَأٍ أَوْ زَلَلٍ أَوْ تَقْصِيرٍ فَمِنِّي وَمِنَ الشَّيْطَانِ، وَاللهُ وَرَسُولُهُ مِنْهُ بَرِيئَانِ، وَأَعُوذُ بِاللهِ أَنْ أَكُونَ جِسْرًا يَعْبُرُ النَّاسُ عَلَيْهِ إِلَى الجَنَّةِ، وَيُلْقَى بِهِ فِي النَّارِ، وَأَسْأَلُهُ سُبْحَانَهُ وَأَنْ يَجْعَلَ سِرَّنَا أَحْسَنَ مِنْ عَلَانِيَتِنَا، وَأَنْ يَخْتِمَ لَنَا بِخَاتِمَةِ السَّعَادَةِ، وَأَنْ يَحْشُرَنَا فِي زُمْرَةِ أُسْوَةِ الدُّعَاةِ، وَإِمَامِ الْمُوَحِّدِينَ فِي جَنَّاتِ النَّعِيمِ؛ إِنَّهُ وَلِيُّ ذَلِكَ وَالقَادِرُ عَلَيْهِ، وَصَلَّى

اللهِ وَسَلَّمَ وَبَارَكَ عَلَى عَبْدِهِ وَنَبِيِّهِ مُحَمَّدٍ وَآلِهِ وَصَحْبِهِ أَجْمَعِيْنَ، وَالحَمْـدُ للهِ رَبِّ العَالَمِينَ.

وَكَتَبَهُ
أَبُو أَحْمَدَ/ مُحَمَّدْ حَسَّان
القَاهِرَةُ

۞

الفَصْلُ الأَوَّلُ

● وَفِيْهِ أَرْبَعَةُ مَبَاحِثَ:

○ المَبْحَثُ الأَوَّلُ: التَّعْرِيفُ بِعُنْوَانِ الدِّرَاسَةِ:

«مَنْهَجُ النَّبِيِّ ﷺ فِي دَعْوَةِ الآخَرِ»

○ المَبْحَثُ الثَّانِي: فَضْلُ الدَّعْوَةِ وَفَرْضِيَّتُهَا.

○ المَبْحَثُ الثَّالِثُ: حَاجَةُ الْبَشَرِيَّةِ إِلَى مَنْهَجِ النَّبِيِّ ﷺ.

○ المَبْحَثُ الرَّابِعُ: أُسْوَةُ الدُّعَاةِ.



الفَصْلُ الأَوَّلُ

المَبْحَثُ الأَوَّلُ: التَّعْرِيفُ بِعُنْوَانِ الدِّرَاسَةِ

مَنْهَجُ النَّبِيِّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّم فِي دَعْوَةِ الآخَرِ

○ أَوَّلاً: تَعْرِيفُ كَلِمَةِ «مَنْهَج».

قَالَ الرَّاغِبُ (١) فِي «مُفْرَدَاتِ أَلْفَاظِ الْقُرْآنِ»(٢):

«النَّهْجُ: الطَّرِيقُ الْوَاضِحُ، وَنَهَجَ الأَمْرُ، وَأَنْهَجَ: وَضَحَ، وَمَنْهَجُ الطَّرِيقِ وَمِنْهَاجُهُ، قَالَ تَعَالَى: ﴿لِكُلٍّ جَعَلْنَا مِنكُمْ شِرْعَةً وَمِنْهَاجًا﴾ [المائدة:٤٨]، وَمِنْهُ قَوْلُهُمْ: نَهَجَ الثَّوْبُ وَأَنْهَجَ: بَانَ فِيهِ أَثَرُ البِلَى، وَقَدْ أَنْهَجَهُ البِلَى».

قَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ رضي الله عنهما (٣) وَغَيْرُهُ: ﴿شِرْعَةً وَمِنْهَاجًا﴾؛ أَيْ: «سَبِيلًا، وَسُنَّةً»

---

(١) والراغبُ هو؛ كما قال الذهبيُّ في «السير» (١١/ ٥٩) ط الصفا: «العلامة الماهر، المحقق الباهر، أبو القاسم الحسين بن محمد بن المفضل الأصبهاني، الملقب بالراغب، صاحب التصانيف، كان من أذكياء المتكلمين»، وقال الزركلي في «الأعلام» (٢/ ٢٥٥) ط العلم للملايين ببيروت: «أديب من الحكماء العلماء، من أهل أصبهان، سكن بغداد، واشتهر حتى كان يقرن بالإمام الغزالي» ا. هـ؛ توفي سنة ٥٠٠ هجريَّة، وقيل: سنة ٥٠٢ هـ.

● راجع: «البلاغة في تراجم أئمة النحو واللغة» للفيروز آبادي (صـ ١٩) ط جمعية إحياء التراث بالكويت، سنة ١٤٠٧هـ، و«هدية العارفين في أسماء المؤلفين» لإسماعيل باشا البغدادي (١/ ٣٥١) ط إحياء التراث العربي، بيروت، لبنان.

(٢) (ص:٨٢٥ مادة نهج) ط دار القلم. دمشق، الدار الشامية، بيروت.

(٣) هو عبد الله بن العباس بن عبد المطلب بن هاشم بن عبد مناف القرشي الهاشمي أبو العباس ابن عم رَسُول الله صلى الله عليه وسلم، أمه أم الفضل لبابة بنت الحارث الهلالية، ولد وبنو هاشم بالشعب قبل الهجرة بثلاث سنوات، وقيل: بخمس، والأول أثبت، مات النبيُّ صلى الله عليه وسلم وهو ابن ثلاث عشرة سنة، وفي وفاته أقوال؛ فقيل: سنة خمس وستين، وقيل: =

وَفِي لَفْظٍ: «سُنَّةً وَسَبِيلًا» (١).

قَالَ ابْنُ الْقَيِّم رحمه الله (٢): «وَهَذَا التَّفْسِيرُ يَحْتَاجُ إِلَى تَفْسِيرٍ؛ فَالسَّبِيلُ: الطَّرِيقُ، وَهِيَ الْمِنْهَاجُ، وَالسُّنَّةُ: الشِّرْعَةُ، وَهِيَ: تَفَاصِيلُ الطَّرِيقِ وَحُزُونَاتُهُ، وَكَيْفِيَّةُ الْمَسِيرِ فِيهِ، وَأَوْقَاتُ الْمَسِيرِ، وَعَلَى هَذَا؛ فَقَوْلُهُ: «سَبِيلًا وَسُنَّةً»: يَكُونُ

=

سبع، وقيل: ثمان، وهو الصحيح في قول الجمهور، واتفقوا على أنه مات بالطائف سنة ثمان وستين، واختلفوا في سِنِّه؛ فقيل: ابن إحدى وسبعين، وقيل: ابن اثنتين، وقيل: ابن أربع، والأول هو الأقوى.

● انظر: «الإصابة في تمييز الصحابة» (٤/ ١١٥ ـ ١٢٣) ط التوفيقية، و«الاستيعاب» لابن عبد البر (٤٦٥ـ ٤٦٨) ط المعرفة، بيروت، لبنان.

(١) أخرجه البخاريُّ - معلقًا - في «صحيحه» (فتح - كتاب الإيمان، باب قول النبي ﷺ: «بني الإسلام على خمس» (١/ ٤٦) ط السلفية؛ قال الحافظ في «الفتح» (١/ ٤٨): «وَصَلَ هذا التعليق عبد الرزاق في «تفسيره» - (١/ ١٩٢) ط الرشد/ الرياض- بسندٍ صحيح. والمنهاج: السبيل؛ أي الطريق الواضح» ا. هـ.، ووصله الطَّبريُّ في «تفسيره» (١٢١٦٩: ١٢١٧٦) ط دار السلام، وابن أبي حاتم في «تفسيره» (٦٤٨٥) ط المكتبة العصرية - صيدًا.

(٢) هو شمس الدين أبو عبد الله محمد بن أبي بكر بن أيوب الزرعي المعروف بابن قيم الجوزية، ولد في قرية من قرى حران بنواحي دمشق سنة ٦٩١ هجريَّة، والجوزية مدرسة كان أبوه قيمًا عليها، وكان ابن القيم من أخص تلاميذ شيخ الإسلام ابن تيمية وأكثرهم له ملازمة؛ قال فيه الحافظ ابن كثير: «كان قليل النظر، بل عديم النظر في مجموعه وأموره وأحواله: ولا أعرف من أهل العلم في زماننا أكثر عبادة منه، وله من التصانيف الكبار والصغار شيءٌ كثير، ومن أكثرها ذيوعًا وانتشارًا: «زاد المعاد»، و«أعلام الموقعين» و«حادي الأرواح» وغيرها، توفي رحمه الله ليلة الخميس الثالث عشر من شهر رجب وقت أذان العشاء/ سنة ٧٥١ هجريَّة، وصُلِّي عليه بالجامع الأموي من الغد بعد صلاة الظهر، وكانت جنازته حافلة، ودفن بمقابر الباب الصغير بدمشق، وكمل له من العمر ستون سنة رحمه الله.

● راجع: «البداية والنهاية» لابن كثير (١٤/ ٣١٨، ٣١٩) ط دار ابن رجب. بالمنصورة.

السَّبِيلُ: الْمِنْهَاجَ، وَالسُّنَّةُ: الشِّرْعَةَ»(١).

وَقَالَ ابْنُ مَنْظُورٍ (٢) فِي «اللِّسَانِ» (٣):

«نَهَجَ: طريقٌ نَهْجٌ: بَيِّنٌ وَاضِحٌ، وَهُوَ النَّهْجُ، وَالجَمْعُ: نَهَجَاتٌ، وَنُهُجٌ، وَنُهُوجٌ.

وَأَنْهَجَ الطَّرِيقُ: وَضَحَ وَاسْتَبَانَ، وَصَارَ نَهْجًا وَاضِحًا بَيِّنًا؛ قَالَ يَزِيدُ بْنُ الْخَذَّاقِ الْعَبْدِيُّ(٤):

وَلَقَدْ أَضَاءَ لَكَ الطَّرِيقُ، وَأَنْهَجَتْ ... سُبُلُ الْمَكَارِمِ، وَالْهُدَى تُعْدِي

أَيْ: تُعِينُ، وَتُقَوِّي.

---

(١) «شفاء العليل» لابن القيم (١٧٢) ط دار التراث. القاهرة؛ وكما في («بدائع التفسير» ٢/ ١١٢، ١١٣) بتصرفٍ يسيرٍ، وانظر: «مجموع الفتاوى» لشيخ الإسلام (١٩/ ١١٣) ط مكتبة ابن تيمية.

(٢) هو محمد بن مكرم ـ بتشديد الراء ـ ابن علي بن أحمد الأنصاري الرويفعي، ثم المصري القاضي جمال الدين بن المكرم، من ولد رويفع بن ثابت الأنصاري؛ ولد أول سنة ثلاثين وستمائة، وكان فاضلًا، وعنده تشيع بلا رفض؛ مات في شعبان سنة إحدى عشرة وسبعمائة، خدم في الإنشاء بمصر، ثم ولي نظر طرابلس، وكان كثير الحفظ، اختصر كتبًا كثيرة، وله نظم ونثر.

● راجع: «فوات الوفيات» لمحمد شاكر الكتبي (٤/ ٣٩) ط دار صادر، بيروت، سنة ١٩٧٤م، و«الأعلام» للزركلي (٧/ ١٠٨).

(٣) «لسان العرب» (٨/ ٧١٤) ط الحديث. القاهرة. وراجع: «القاموس المحيط» للفيروز آبادي (١/ ٢٥٨، ٢٥٩) ط التوفيقية، و«بصائر ذوي التمييز» له أيضًا (٥/ ١٢٨) ط المكتبة العلمية، بيروت، و«النهاية» لابن الأثير (٢/ ٨٠٩) ط المعرفة، بيروت.

(٤) شاعرٌ جاهليٌّ، كان معاصرًا لعمرو بن هند، ملك الحيرة؛ انظر: «تاج العروس» للزبيدي (٢٥/ ٢١٦) ط دار الهداية، و«الأعلام» للزركلي (٨/ ١٨٢)

وَالْمِنْهَاجُ: الطَّرِيقُ الْوَاضِحُ. وَنَهَجْتُ الطَّرِيقَ: أَبَنْتُهُ، وَأَوْضَحْتُهُ.

وَنَهَجْتُ الطَّرِيقَ: سَلَكْتُهُ. وَفُلَانٌ يَسْتَنْهِجُ سَبِيلَ فُلَانٍ أَيْ: يَسْلُكُ مَسْلَكَهُ. وَالنَّهْجُ: الطَّرِيقُ الْـمُسْتَقِيمُ».

وَقَدْ ثَبَتَ فِي السُّنَّةِ الْـمُطَهَّرَةِ؛ **مَا أَخْرَجَهُ أَحْـمَدُ** (١) **فِي «مُسْنَدِهِ»، وَابْنُ مَاجَه** (٢) **فِي «سُنَنِهِ»، وَمُسْلِمٌ** (٣) **فِي «صَحِيحِهِ»** (٤) مِنْ حَدِيثِ عَبْدِ اللهِ بْنِ

---

(١) هو أبو عبد الله أحمد بن محمد بن حنبل بن هلال بن أسد الذهلي الشيباني المروزي ثم البغدادي، ولد سنة أربع وستين ومائة، كان أبوه جنديًّا من أبناء الدعوة ومات شابًّا؛ توفي الإمام أحمد يوم الجمعة لثاني عشر ربيع الأول سنة إحدى وأربعين ومائتين، وله سبعٌ وسبعون سنة؛ قال الشافعيُّ: «خرجت من بغداد وما خلفت بها أفقه ولا أورع ولا أزهد ولا أعلم من أحمد».

● راجع: «تذكرة الحفاظ» للذهبي (٢/ ٤٣١، ٤٣٢) ط الكتب العلمية، بيروت، لبنان، و«سير أعلام النبلاء» (٧/ ٤٥٥)، و«طبقات الحنابلة» لابن أبي يعلى (١/ ٣) ط المعرفة، بيروت، و«طبقات الشافعية» للسبكي (٢/ ٢٧) ط هجر سنة ١٤١٣هـ، و«وفيات الأعيان» لابن خلكان (١/ ٦٣) ط دار صادر. بيروت.

(٢) هو أبو عبد الله محمد بن يزيد بن ماجه الربعي بالولاء القزويني الحافظ المشهور، مصنف كتاب «السنن» في الحديث، كان إمامًا في الحديث، وله «تفسير القرآن»، و«تاريخ» مليح، وكانت ولادته سنة تسع ومائتين، وتوفي يوم الاثنين، ودفن يوم الثلاثاء؛ لثمانٍ بقين من شهر رمضان سنة ثلاث وسبعين ومائتين رحمه الله تعالى، وصلَّى عليه أخوه أبو بكر، وتولى دفنه أخواه أبو بكر وعبد الله وابنه عبد الله.

● راجع: «وفيات الأعيان» لابن خلكان (٤/ ٧٥).

(٣) هو مسلم بن الحجاج بن مسلم، أبو الحسين القشيري النيسابوري، أحد الأئمة من حفاظ الأثر، وهو صاحب «الصحيح»، يقال: ولد سنة أربع ومائتين، ومات في رجب سنة إحدى وستين ومائتين؛ انظر: «تذكرة الحفاظ» (٤/ ٥٨٨ ـ ٥٩٠).

(٤) أخرجه أحمد (٥/ ٤٥٢، ٤٥٣) ط المكتب الإسلامي، وابن ماجه، كتاب تعبير الرؤيا، باب تعبير الرؤيا (٣٩٢٠) ط الريان، ومسلم، كتاب فضائل الصحابة رضي الله عنهم، باب؛ من =

سَلَام (١) رضي الله عنه فِي رُؤْيَا رَآهَا، وَفِيهَا: «**رَأَيْتُ كَأَنَّ رَجُلًا أَتَانِي؛ فَقَالَ: انْطَلِقْ؛ فَذَهَبْتُ مَعَهُ، فَسَلَكَ بِي مَنْهَجًا عَظِيمًا**». هَذَا لَفْظُ أَحْمَدَ. وَفِي لَفْظِ ابْنِ مَاجَه: «**فَسَلَكَ بِي فِي نَهْجٍ عَظِيمٍ**». وَفِي لَفْظِ مُسْلِمٍ: «**فَإِذَا جَوَادُّ مَنْهَجٍ عَلَى يَمِينِي**». وَالْجَوَادُّ بِتَشْدِيدِ الدَّالِ جَمْعُ جَادَّةٍ، وَهِيَ الطَّرِيقُ الْبَيِّنَةُ الْمَسْلُوكَةُ (٢).

وَفِي الْحَدِيثِ: «**تَكُونُ خِلَافَةٌ عَلَى مِنْهَاجِ النُّبُوَّةِ**» (٣)؛ فَتَقَرَّرَ مِنْ هَذَا أَنَّ الْمَنْهَجَ بِمَعْنَى: الطَّرِيقِ الْوَاضِحِ الْبَيِّنِ.

فَهَذَا تَأْصِيلٌ لُغَوِيٌّ لِمَعْنَى كَلِمَةِ: «مَنْهَج»؛ **وَالْمُرَادُ بِالْمَنْهَجِ فِي بَحْثِنَا هَذَا**:

الطَّرِيقُ الْوَاضِحُ الْبَيِّنُ الَّذِي قَرَّرَهُ، وَأَصَّلَهُ، وَسَلَكَهُ النَّبِيُّ صلى الله عليه وسلم فِي الدَّعْوَةِ إِلَى اللهِ تَعَالَى.

= فضائل عبد الله بن سلام رضي الله عنه (٢٤٨٤/ ١٥٠) ط دار ابن رجب.

(١) هو عبد الله بن سلام بن الحارث أبو يوسف، من ذرية يوسف النبيّ عليه السلام، حليف القوافل، من الخزرج، الإسرائيلي ثم الأنصاري، أسلم أول ما قدم النبيُّ صلى الله عليه وسلم المدينة، وهو عاشر عشرة في الجنة؛ كما بشَّره رَسُولُ الله صلى الله عليه وسلم؛ كما في «سنن الترمذي» (٣٨٠٤) ط دار الحديث؛ بسندٍ حسنٍ، وصححه الألبانيُّ في «صحيح الترمذي» ط المكتب الإسلامي. بيروت. دمشق. وتوفي بالمدينة في خلافة معاوية سنة ثلاث وأربعين.

● راجع: «الإصابة» (٤/ ٩٥، ٩٦)، و«الاستيعاب» لابن عبد البر (١٥٨٥).

(٢) «شرح مسلم» للنووي (١٦/ ٤٤) ط إحياء التراث العربي بيروت، و«إكمال المعلم شرح صحيح مسلم» للقاضي عياض (٧/ ٥٢٢) ط الوفاء، و«فتح الباري» (١/ ٩٧) ط السلفية.

(٣) أخرجه أحمد (٤/ ٢٧٣) من حديث حذيفة رضي الله عنه، وله شواهد يصحُّ لها؛ كما في «الصحيحة» (رقم:٥) للألباني، ط مكتبة المعارف، الرياض.

○ ثانيًا: تَعْرِيفُ «النَّبِيّ» لُغَةً:

النَّبِيُّ: مُشْتَقٌّ مِنَ النَّبَأِ، وَهُوَ الْـخَبَرُ؛ كَمَا فِي قَوْلِ الله تَعَالَـى: ﴿عَنِ ٱلنَّبَإِ ٱلْعَظِيمِ﴾ [النبأ:٢]، وَالنَّبِيُّ: الْمُخْبِرُ عَنِ الله تَعَالَى، وَتَرْكُ الْهَمْزِ هُوَ الْمُخْتَارُ، وَالْجَمْعُ: أَنْبِيَاءُ وَأَنْبَاءٌ، وَالنَّبِيُّونَ، وَالِاسْمُ: النُّبُوءَةُ.

وَقِيلَ: النُّبُوَّةُ لَفْظٌ مُشْتَقٌّ مِنَ النَّبْوَةِ، وَهُوَ الْـمَكَانُ الْـمُرْتَفِعُ مِنَ الْأَرْضِ، أَوْ مَا ارْتَفَعَ وَعَلَا مِنَ الْأَرْضِ.

فَإِنْ جَعَلْتَ (النَّبِيَّ) مَأْخُوذًا مِنْهُ؛ أَيْ: أَنَّهُ شَرُفَ عَلَـى سَائِرِ الْـخَلْقِ؛ فَأَصْلُهُ غَيْرُ الْـهَمْزِ، وَهُوَ فَعِيلٌ بِمَعْنَى مَفْعُولٍ (١).

قَالَ شَيْخُ الْإِسْلَامِ ابْنُ تَيْمِيَّةَ (٢) رَحِمَهُ اللهُ (٣): «النَّبِيُّ هُوَ الَّذِي يُنْبِئُهُ الله، وَهُوَ يُنْبِئُ بِمَا أَنْبَأَ الله بِهِ» ا. هـ.

وَالْمُرَادُ بِالنَّبِيِّ هُنَا: مُـحَمَّدٌ ﷺ، وَهُوَ أَشْرَفُ نَبِيٍّ عَرَفَتْهُ الْأَرْضُ،

---

(١) راجع: «اللسان» لابن منظور (٨/ ٤٤٢)، و«النهاية» لابن الأثير (٢/ ٧٠٥).

(٢) هو الإمام، العلامة، الحافظ، الناقد، الفقيه، المجتهد، المفسر، البارع، شيخ الإسلام تقي الدين أبو العباس أحمد بن المفتي شهاب الدين عبد الحليم ابن الإمام المجتهد شيخ الإسلام مجد الدين أبي البركات عبد السلام بن عبد الله بن أبي القاسم الحراني، نزيل دمشق، ولد بحران يوم الاثنين عاشر – وقيل ثاني عشر– شهر ربيع الأول سنة ٦٦١ هجريَّة، وله من التصانيف الشيء الكثير؛ من أشهرها: «منهاج السنة النبوية»، و«اقتضاء الصراط المستقيم»، و«درء تعارض العقل والنقل» وغيرها، وكانت وفاته ليلة الاثنين، لعشرين من ذي القعدة من سنة ٧٢٨ هجريَّة في قلعة دمشق التي كان محبوسًا فيها.

● انظر: ترجمته في «تذكرة الحفاظ» للذهبي (١١٧٥) ط دار الفكر، و«العقود الدرية» لابن عبد الهادي (صـ ١٨)، وما بعدها، ط دار الكتاب العربي، و«شذرات الذهب» لابن العماد (٦/ ٧٩) وما بعدها، ط الكتب العلمية.

(٣) («النبوات»٢/ ٤٧٩–٤٨٢) ط ابن عباس – المنصورة.

وَنَسَبُهُ؛ كَمَا قَالَ الإِمَامُ الْبُخَارِيُّ (١) رَحِمَهُ اللهُ (٢):

«مُحَمَّدُ بْنُ عَبْدِ اللهِ بْنِ عَبْدِ الْمُطَّلِبِ بْنِ هَاشِمِ بْنِ عَبْدِ مَنَافِ بْنِ قُصَيِّ بْنِ كِلَابِ بْنِ مُرَّةَ بْنِ كَعْبِ بْنِ لُؤَيِّ بْنِ غَالِبِ بْنِ فِهْرِ بْنِ مَالِكِ بْنِ النَّضْرِ بْنِ كِنَانَةَ بْنِ خُزَيْمَةَ بْنِ مُدْرِكَةَ بْنِ إِلْيَاسَ بْنِ مُضَرَ بْنِ نِزَارِ بْنِ مَعْدِ بْنِ عَدْنَانَ» ا. هـ.

وَهَذَا مُتَّفَقٌ عَلَيْهِ فِي نَسَبِهِ الشَّرِيفِ ﷺ، وَمُخْتَلَفٌ فِيمَا بَيْنَ عَدْنَانَ وَإِسْمَاعِيلَ بْنِ إِبْرَاهِيمَ - عَلَيْهِمَا وَعَلَى نَبِيِّنَا أَفْضَلُ الصَّلَاةِ، وَأَزْكَى السَّلَامِ.

قَالَ ابْنُ الْقَيِّمِ رَحِمَهُ اللهُ فِي «زَادِ الْمَعَادِ» (٣) بَعْدَ أَنْ ذَكَرَ نَسَبَ النَّبِيِّ ﷺ إِلَى عَدْنَانَ:

«إِلَى هَا هُنَا مَعْلُومُ الصِّحَّةِ، مُتَّفَقٌ عَلَيْهِ بَيْنَ النَّسَّابِينَ، وَلَا خِلَافَ فِيهِ الْبَتَّةَ، وَمَا فَوْقَ عَدْنَانَ مُخْتَلَفٌ فِيهِ، وَلَا خِلَافَ بَيْنَهُمْ أَنَّ «عَدْنَانَ» مِنْ وَلَدِ إِسْمَاعِيلَ عَلَيْهِ السَّلَامُ» انْتَهَى.

فَنَبِيُّنَا ﷺ خَيْرُ أَهْلِ الْأَرْضِ نَسَبًا عَلَى الإِطْلَاقِ؛ فَلِنَسَبِهِ مِنَ الشَّرَفِ أَعْلَى

---

(١) هو أبو عبد الله محمد بن إسماعيل بن إبراهيم بن المغيرة بن بَرْدِزْبَهْ، الإمام الحافظ المحدث الفقيه، شيخ الإسلام، وإمام الحفاظ؛ صاحب «الصحيح» والتصانيف، مولده في شوال سنة أربع وتسعين ومائة، وأول سماعه الحديث سنة خمس ومائتين، وحفظ تصانيف ابن المبارك وهو صبيٌّ، ونشأ يتيمًا، ورحل مع أمه وأخيه سنة عشر ومائتين بعد أن سمع مرويات بلده، وكان رأسًا في الذكاء، رأسًا في العلم، ورأسًا في الورع والعبادة، حدث عن خلقٍ كثير، يقولُ عن نفسه رَحِمَهُ اللهُ: «أحفظُ مائة ألف حديث صحيح، وأحفظ مائتي ألف حديث غير صحيح»، وقال ابن خزيمة: «ما تحت أديم السماء أعلم بالحديث من البخاري»، وقال الذهبي: «قد أفردتُ مناقب هذا الإمام في جزءٍ ضخم فيها العجب»؛ مات ليلة عيد الفطر سنة ست وخمسين ومائتين.

● انظر: «تذكرة الحفاظ» (٢/ ٢٥٥)، و«السير» (٨/ ٢٠٤)ط الحديث.

(٢) «صحيح البخاري»، كتاب مناقب الأنصار، باب مبعث النبيِّ ﷺ، (باب ٢٨).

(٣) «الزاد» (١/ ٧١) ط الرسالة.

ذِرْوَةٍ، وَأَعْدَاؤُهُ كَانُوا يَشْهَدُونَ لَهُ بِذَلِكَ، وَلِهَذَا شَهِدَ لَهُ بِهِ عَدُوُّهُ إِذْ ذَاكَ أَبُو سُفْيَانَ (١) بَيْنَ يَدَيْ مَلِكِ الرُّومِ (٢)؛ فَأَشْرَفُ الْقَوْمِ قَوْمُهُ، وَأَشْرَفُ الْقَبَائِلِ قَبِيلُهُ، وَأَشْرَفُ الْأَفْخَاذِ فَخِذُهُ(٣).

فَلَقَدْ خَلَقَ الله الْخَلْقَ، وَاصْطَفَى مِنَ الْخَلْقِ: الْأَنْبِيَاءَ، وَاصْطَفَى مِنَ الْأَنْبِيَاءِ: الرُّسُلَ، وَاصْطَفَى مِنَ الرُّسُلِ: أُولِي الْعَزْمِ الْخَمْسَةَ؛ نُوحًا، وَإِبْرَاهِيمَ، وَمُوسَى، وَعِيسَى، وَمُحَمَّدًا، صَلَوَاتُ الله وَسَلَامُهُ عَلَيْهِمْ أَجْمَعِينَ. وَاصْطَفَى مِنْ أُولِي الْعَزْمِ الْخَمْسَةِ: الْخَلِيلَيْنِ؛ إِبْرَاهِيمَ وَمُحَمَّدًا ﷺ (٤)، ثُمَّ اصْطَفَى مُحَمَّدًا ﷺ عَلَى كُلِّ خَلْقِهِ.

قَالَ ابْنُ الْقَيِّمِ رَحِمَهُ اللهُ (٥):

«اخْتَارَ سُبْحَانَهُ وَلَدَ إِسْمَاعِيلَ مِنْ أَجْنَاسِ بَنِي آدَمَ، ثُمَّ اخْتَارَ مِنْهُمْ بَنِي كِنَانَةَ

---

(١) هو صخر بن حرب بن أمية بن عبد شمس بن عبد مناف، أبو سفيان القرشي الأموي مشهور باسمه وكنيته، وكان يكنى أيضًا أبا حنظلة، ولد قبل الفيل بعشر سنين، وقيل: غير ذلك، وهو والد معاوية رضي الله عنهما، أسلم عام الفتح، وشهد حنينًا والطائف، وكان من المؤلفة، وفقئت عينه يوم الطائف، والأخرى يوم اليرموك تحت راية ابنه يزيد وهو يقول: يا نصر الله اقترب، مات لست خلون من خلافة عثمان، وقيل: لتسع خلون، وقيل: في آخر خلافة عثمان، مات سنة أربع وثلاثين، وقيل: إحدى، وقيل: اثنتين، وقيل: عاش ثلاثًا وتسعين سنة، قال الواقدي: وهو ابن ثمان وثمانين، وقيل غير ذلك.
● راجع: «أسد الغابة» (٤/ ٤٧٢)، و«الإصابة» (٤٠٦٥)، و«الاستيعاب» (١٢٠٤).

(٢) كما في «صحيح البخاري»، كتاب بدء الوحي، باب (٦) (حديث٧) وفيه قولُ أبي سفيان: «ثُمَّ كَانَ أَوَّلُ مَا سَأَلَنِي عَنْهُ أَنْ قَالَ: كَيْفَ نَسَبُهُ فِيكُم؟ قُلْتُ: هُوَ فِينَا ذُو نَسَبٍ».

(٣) «زاد المعاد» (١/ ٧١)، وفَخِذُ الرَّجُلِ: نَفَرُهُ مِنْ حَيِّهِ الَّذِينَ هُمْ أَقْرَبُ عَشِيرَتِهِ إِلَيْهِ؛ راجع: «لسان العرب» (٧/ ٣٨).

(٤) «زاد المعاد» (١/ ٤٣، ٤٤).

(٥) المصدر السابق (١/ ٤٤).

مِنْ خُزَيْمَةَ، ثُمَّ اخْتَارَ مِنْ وَلَدِ كِنَانَةَ قُرَيْشًا، ثُمَّ اخْتَارَ مِنْ قُرَيْشٍ بَنِي هَاشِمٍ، ثُمَّ اخْتَارَ مِنْ بَنِي هَاشِمٍ سَيِّدَ وَلَدِ آدَمَ مُـحَمَّدًا ﷺ.

وَفِي «صَحِيحِ مُسْلِمٍ» (١) مِنْ حَدِيثِ وَاثِلَةَ بْنِ الْأَسْقَعِ (٢) رضي الله عنه قَالَ: سَمِعْتُ رَسُولَ اللهِ ﷺ يَقُولُ: «**إِنَّ اللهَ اصْطَفَى كِنَانَةَ مِنْ وَلَدِ إِسْمَاعِيلَ، وَاصْطَفَى قُرَيْشًا مِنْ كِنَانَةَ، وَاصْطَفَى مِنْ قُرَيْشٍ بَنِي هَاشِمٍ، وَاصْطَفَانِي مِنْ بَنِي هَاشِمٍ**».

وَفِي «صَحِيحِ الْبُخَارِيِّ» (٣) مِنْ حَدِيثِ أَبِي هُرَيْرَةَ (٤) رضي الله عنه أَنَّ رَسُولَ اللهِ

---

(١) أخرجه مسلم، كتاب الفضائل، باب فضل نسب النبيِّ ﷺ وتسليم الحجر عليه قبل النبوة (٢٢٧٦).

(٢) هو واثلة بن الأسقع بن كعب الليثي من أصحاب الصفة، أسلم سنة تسع، وشهد غزوة تبوك، وكان من فقراء المسلمين رضي الله عنه، قيل: إنه خدم النبي ﷺ ثلاث سنين، طال عمره؛ قال الحافظ ابن حجر: «صحابي مشهور، نزل الشام، وعاش إلى سنة خمس وثمانين، وله مائة وخمس سنين» اعتمده البخاري وغيره، قال قتادة: «كان آخر من مات من الصحابة بدمشق» وكان قد عَمِي رحمه الله تعالى.

● راجع: «أسد الغابة» لابن الأثير (٤/ ٣٠٠، ٣٠١)، و«السير» للذهبي (٣/ ٥٢٥، ٥٢٦)، و«تقريب التهذيب» لابن حجر، «ترجمة واثلة» (٨٣١٠) ط المعرفة.

(٣) أخرجه البخاريُّ، كتاب المناقب، باب؛ صفة النبيِّ ﷺ (٣٥٥٧).

(٤) هو أبو هريرة الدوسيُّ الصحابيُّ الجليلُ، حافظ الصحابة، اختلف في اسمه واسم أبيه، قيل: عبد الرحمن بن صخر، وقيل: ابن غنم، وقيل: عبد الله بن عائذ... إلى آخر هذه الأقوال؛ قال الحافظ ابن حجر: «واختلف فيها أيها أرجح، فذهب الأكثرون إلى الأول، وذهب جمع من النسابين إلى عمرو بن عامر».

قال أبو نعيم: «كان أحد أعلام الفقراء والمساكين، صبر على الفقر الشديد حتى أفضى به إلى الظل المديد، وهو أشهر من سكن الصفة».

وقال ابن عبد البر: «أسلم أبو هريرة عام خيبر، وشهدها مع رَسُول الله ﷺ ثم لزمه، وواظب عليه؛ رغبةً في العلم، راضيًا بشبع بطنه؛ فكانت يده مع يد رَسُول الله ﷺ، وكان يدور معه حيث دار، وكان من أحفظ أصحاب رَسُول الله ﷺ» ا. هـ. توفي =

ﷺ قَالَ: «**بُعِثْتُ مِنْ خَيْرِ قُرُونِ بَنِي آدَمَ قَرْنًا فَقَرْنًا، حَتَّى كُنْتُ مِنَ الْقَرْنِ الَّذِي كُنْتُ مِنْهُ**».

فَالله سُبْحَانَهُ قَدْ رَفَعَ لِنَبِيِّنَا ﷺ قَدْرَهُ، وَأَعْلَى لَهُ شَأْنَهُ، وَرَفَعَ لَهُ ذِكْرَهُ، وَوَضَعَ عَنْهُ وِزْرَهُ، وَزَكَّاهُ فِي كُلِّ شَيْءٍ.

زَكَّاهُ فِي عَقْلِهِ؛ فَقَالَ - جَلَّ وَعَلَا -: ﴿مَا ضَلَّ صَاحِبُكُمْ وَمَا غَوَىٰ﴾ [النجم:٢].

وَزَكَّاهُ فِي فُؤَادِهِ؛ فَقَالَ سُبْحَانَهُ: ﴿مَا كَذَبَ الْفُؤَادُ مَا رَأَىٰ﴾ [النجم:١١].

وَزَكَّاهُ فِي بَصَرِهِ؛ فَقَالَ - جَلَّ وَعَلَا -: ﴿مَا زَاغَ الْبَصَرُ وَمَا طَغَىٰ﴾ [النجم:١٧].

وَزَكَّاهُ فِي صَدْرِهِ؛ فَقَالَ تَعَالَى: ﴿أَلَمْ نَشْرَحْ لَكَ صَدْرَكَ﴾ [الشرح:١].

وَزَكَّاهُ فِي طُهْرِهِ؛ فَقَالَ تَعَالَى: ﴿وَوَضَعْنَا عَنكَ وِزْرَكَ﴾ [الشرح:٢].

وَزَكَّاهُ فِي ذِكْرِهِ؛ فَقَالَ - جَلَّ وَعَلَا -: ﴿وَرَفَعْنَا لَكَ ذِكْرَكَ﴾ [الشرح:٤].

وَزَكَّاهُ فِي مُعَلِّمِهِ؛ فَقَالَ سُبْحَانَهُ: ﴿عَلَّمَهُ شَدِيدُ الْقُوَىٰ﴾ [النجم:٥].

وَزَكَّاهُ فِي صِدْقِهِ؛ فَقَالَ - جَلَّ وَعَلَا -: ﴿وَمَا يَنطِقُ عَنِ الْهَوَىٰ﴾ [النجم:٣].

وَزَكَّاهُ فِي حِلْمِهِ؛ فَقَالَ - جَلَّ وَعَلَا -: ﴿بِالْمُؤْمِنِينَ رَءُوفٌ رَّحِيمٌ﴾ [التوبة:١٢٨].

ثُمَّ زَكَّاهُ كُلَّهُ؛ فَقَالَ سُبْحَانَهُ: ﴿وَإِنَّكَ لَعَلَىٰ خُلُقٍ عَظِيمٍ﴾ [القلم:٤].

=

أبو هريرة سنة سبع وخمسين، وقيل: ثمان، وقيل: تسع، وهو ابن ثمان وسبعين سنة رضي الله عنه.

● راجع: «الاستيعاب» (٨٥٠)، و«حلية الأولياء» (١/ ٣٤٤) لأبي نعيم ط المعرفة، و«تقريب التهذيب» (١٠١٥٩).

وَاللهِ مَا ذَرَأَ اللهُ، وَمَا بَرَأَ نَفْسًا أَكْرَمَ عَلَيْهِ مِنْ مُحَمَّدِ بْنِ عَبْدِ اللهِ ﷺ؛ فَفِي «تَفْسِيرِ» الطَّبَرِيِّ (١)، وَابْنِ أَبِي حَاتِمٍ (٢)، وَغَيْرِهِمَا (٣) مِنْ حَدِيثِ ابْنِ عَبَّاسٍ رضي الله عنهما قَالَ: «مَا خَلَقَ اللهُ، وَمَا بَرَأَ نَفْسًا أَكْرَمَ عَلَى اللهِ مِنْ مُحَمَّدٍ ﷺ،

---

(١) هو محمد بن جرير بن يزيد بن كثير، الإمام، المجتهد، عالم العصر، أبو جعفر الطبري؛ صاحب التصانيف البديعة، ولد سنة أربع وعشرين ومائتين، وطلب العلم بعد الأربعين ومائتين، وأكثر الترحال، ولقي نبلاء الرجال، وكان من أفراد الدهر علمًا، وذكاءً، وكثرة تصانيف، قل أن ترى العيون مثله، قاله الذهبي، ثم قال: «وكان من كبار أئمة الاجتهاد، كان ثقةً، صادقًا، حافظًا، رأسًا في التفسير، إمامًا في الفقه، والإجماع والاختلاف، علّامة في التاريخ وأيام الناس، عارفًا بالقراءات وباللغة، وغير ذلك» ا. هـ؛ تُوفِّي ابن جرير عشية الأحد ليومين بقيا من شوال سنة عشر وثلاث مائة.

● راجع: «السير» للذهبيِّ (٩/ ١٥٥).

(٢) هو عبد الرحمن بن محمد بن إدريس، العلامة، الحافظ، يكنى أبا محمد، ولد سنة أربعين ومائتين، أو إحدى وأربعين؛ قال أبو يعلى الخليلي: «أخذ أبو محمد علم أبيه، وأبي زرعة، وكان بحرًا في العلوم، ومعرفة الرجال، صنف في الفقه، وفي اختلاف الصحابة والتابعين وعلماء الأمصار»؛ قال الذهبيُّ: «له كتاب نفيس في «الجرح والتعديل» وله «تفسير» كبير في عدة مجلدات، عامته آثار بأسانيده، من أحسن التفاسير، توفي في المحرم سنة سبع وعشرين وثلاث مائة بالري، وله بضع وثمانون سنة» ا. هـ.

● راجع: «سير» الذهبيِّ (٨/ ٤٨٢).

(٣) أخرجه الطبريُّ في «تفسيره» (لسورة الحجر/ ٧٢)، وابن أبي حاتم في «تفسيره» (١٣٢٧٥)، وابن أبي شيبة؛ كما في «الدر المنثور» (٥/ ٨٩) ط الفكر، والحارث بن أبي أسامة؛ كما في «بغية الباحث عن زوائد مسند الحارث» (٩٣٤) ط مركز خدمة السنة والسيرة النبوية، و«المطالب العالية» (٤٠٢٦) لابن حجر ط قرطبة، و«إتحاف الخيرة المهرة» (٦/ ٧٤) للبوصيريِّ، ط دار الوطن؛ والبيهقيُّ في «الدلائل» (٥/ ٤٨٨) ط الكتب العلمية بيروت، ودار الريان، وأبو يعلى في «مسنده» (٢٧٥٤) ط دار المأمون دمشق سنة ١٤٠٤هـ، بسندٍ فيه عمرو بن مالك النكري؛ متكلم فيه. راجع: ترجمته في «تهذيب التهذيب» لابن حجر (ترجمة: رقم ١٥٤). و«الثقات» لابن حبان (٧/ ٢٢٨) ط دار الفكر.

وَمَا سَمِعْتُ الله أَقْسَمَ بِحَيَاةِ أَحَدٍ غَيْرِهِ؛ فَقَالَ- جَلَّ وَعَلَا: ﴿لَعَمْرُكَ إِنَّهُمْ لَفِى سَكْرَتِهِمْ يَعْمَهُونَ﴾ [الحجر:٧٢]».

قَالَ الْقَاضِي عِيَاضٌ (١) فِي «الشِّفَا» (٢):

«اتَّفَقَ أَهْلُ التَّفْسِيرِ فِي هَذَا أَنَّهُ قَسَمٌ مِنَ الله - جَلَّ جَلَالُهُ- بِمُدَّةِ حَيَاةِ مُحَمَّدٍ ﷺ، وَهَذِهِ نِهَايَةُ التَّعْظِيمِ، وَغَايَةُ التَّشْرِيفِ».

وَفَضَائِلُ النَّبِيِّ ﷺ، وَمَنَاقِبُهُ لَا يَأْتِي عَلَيْهَا الْحَصْرُ؛ فَأَكْتَفِي بِهَذَا الْمِقْدَارِ فِي هَذِهِ الْجُزْئِيَّةِ.

وَسَيَأْتِي بَيَانُ شَيْءٍ مِنْ صِفَاتِهِ - فِيمَا بَعْدُ - بِتَوْفِيقِ الله وَعَوْنِهِ.

○ ثالثًا: تَعْرِيفُ «الدَّعْوَةِ».

قَالَ ابْنُ مَنْظُورٍ (٣):

«وَالدُّعَاءُ: النِّدَاءُ، وَدَعَا الرَّجُلَ دَعْوًا وَدُعَاءً: نَادَاهُ، وَالِاسْمُ: الدَّعْوَةُ، وَدَعَوْتُ فُلَانًا؛ أَيْ: صِحْتُ بِهِ، وَاسْتَدْعَيْتُهُ. وَتَدَاعَى الْقَوْمُ: دَعَا بَعْضُهُمْ بَعْضًا حَتَّى يَجْتَمِعُوا.

---

(١) هو الإمام، العلامة، القاضي، أبو الفضل عياض بن موسى بن عياض بن عمرو بن موسى بن عياض اليحصبي، الأندلسي، المالكي، ولد في سنة ست وسبعين وأربع مائة؛ قال فيه الذهبيُّ: «استبحر من العلوم، وجمع، وألَّف، وسارت بتصانيفه الركبان، واشتهر اسمه في الآفاق، تواليفه نفيسة، وأجلُّها وأشرفها كتاب «الشفا» ا. هـ.، وفيه أشياء مأخوذة عليه؛ كما نبه الذهبيُّ رحمه الله، توفي القاضي في ليلة الجمعة، ودفن بمراكش، سنة أربع وأربعين وخمس مائة؛ راجع: «السير» (١٢/ ١١٧).

(٢) «الشفا بتعريف حقوق المصطفى ﷺ» للقاضي عياض (فصل في قَسَمِه تعالى بعظيم قدره ﷺ) (ص: ٥٣) ط ابن رجب، المنصورة.

(٣) «لسان العرب» (مادة: دعا) (٣/ ٣٦٧، ٣٦٨).

وَقَوْلُهُ تَعَالَـى: ﴿وَدَاعِيًا إِلَى ٱللَّهِ بِإِذْنِهِۦ وَسِرَاجًا مُّنِيرًا﴾ [الأحزاب:٤٦]؛ مَعْنَاهُ: دَاعِيًا إِلَـى تَوْحِيدِ الله وَمَا يُقَرِّبُ مِنْهُ.

وَفِي كِتَابِهِ ﷺ إِلَـى هِرَقْلَ [١]: «أَدْعُوكَ بِدِعَايَةِ الإِسْلَامِ» [٢]؛ أَيْ: بِدَعْوَتِهِ، وَهِيَ كَلِمَةُ الشَّهَادَةِ الَّتِي يُدْعَى إِلَيْهَا أَهْلُ الْـمِلَلِ الْكَافِرَةِ، وَفِي رِوَايَةٍ [٣]: «بِدَاعِيَةِ الْإِسْلَامِ» وَهُوَ مَصْدَرٌ؛ بِمَعْنَى الدَّعْوَةِ؛ كَالْعَافِيَةِ وَالْعَاقِبَةِ.

وَالدُّعَاةُ: قَوْمٌ يَدْعُونَ إِلَـى بَيْعَةِ هُدًى أَوْ ضَلَالَةٍ، وَاحِدُهُمْ دَاعٍ، وَرَجُلٌ دَاعِيَةٌ: إِذَا كَانَ يَدْعُو النَّاسَ إِلَـى بِدْعَةٍ أَوْ دِينٍ، أُدْخِلَتِ الْـهَاءُ فِيهِ لِلْمُبَالَغَةِ. وَالنَّبِيُّ ﷺ دَاعِي الله تَعَالَـى. وَفِي «التَّهْذِيب»: الْـمُؤَذِّنُ دَاعِي الله، وَالنَّبِيُّ ﷺ دَاعِي الْأُمَّةِ إِلَى تَوْحِيدِ الله وَطَاعَتِهِ؛ قَالَ الله ﷻ مُـخْبِرًا عَنِ الْـجِنِّ الَّذِينَ اسْتَمَعُوا الْقُرْآنَ: ﴿وَلَّوْاْ إِلَىٰ قَوْمِهِم مُّنذِرِينَ﴾ [الأحقاف:٢٩]، ﴿يَٰقَوْمَنَآ أَجِيبُواْ دَاعِيَ ٱللَّهِ﴾ [الأحقاف:٣١]» ا. هـ.

وَالدُّعَاءُ يَرِدُ فِي الْقُرْآنِ عَلَـى وُجُوهٍ [٤]:

الْأَوَّلُ: بِمَعْنَى الْقَوْلِ؛ كَمَا قَالَ تَعَالَى: ﴿فَمَا زَالَت تِّلْكَ دَعْوَىٰهُمْ﴾ [الأنبياء:١٥]؛ أَيْ: قَوْلَـهُمْ.

الثَّانِي: بِمَعْنَى الْعِبَادَةِ؛ كَمَا قَالَ: ﴿قُلْ أَنَدْعُواْ مِن دُونِ ٱللَّهِ مَا لَا يَنفَعُنَا﴾ [الأنعام:٧١]؛ أَيْ: أَنَعْبُدُ. وَقَالَ: ﴿يَدْعُواْ لَمَن ضَرُّهُۥٓ أَقْرَبُ مِن نَّفْعِهِۦ﴾ [الحج:١٣]؛

---

(١) هرقل: هو ملك الروم، وهرقل اسمه، وهو بكسر الهاء، وفتح الراء، وسكون القاف، ولقبه قيصر، كما يلقب ملك الفرس كسرى؛ راجع: «فتح الباري» لابن حجر (١/ ٣٣).

(٢) جزءٌ من حديث هرقل الطويل؛ أخرجه البخاريُّ، كتاب بدء الوحي، باب (٦) (حديث:٧)، ومسلمٌ، كتاب الجهاد والسير، باب كتاب النبيِّ ﷺ إلى هرقل يدعوهُ إلى الإسلام (١٧٧٣).

(٣) عند مسلم (١٧٧٣) كذلك.

(٤) «بصائر ذوي التمييز» (٢/ ٦٠١ـ ٦٠٣).

أَيْ: يَعْبُدُ، وَلَهُ نَظَائِرُ.

الثَّالِثُ: بِمَعْنَى: النِّدَاءِ؛ كَمَا قَالَ: ﴿ وَلَا تُسْمِعُ ٱلصُّمَّ ٱلدُّعَآءَ ﴾ [النمل:٨٠]؛ أَيِ: النِّدَاءَ، وَقَالَ: ﴿ فَدَعَا رَبَّهُۥٓ أَنِّي مَغْلُوبٌ فَٱنتَصِرْ ﴾ [القمر:١٠]؛ أَيْ: نَادَى، وَقَالَ: ﴿وَلَمْ أَكُنۢ بِدُعَآئِكَ رَبِّ شَقِيًّا ﴾ [مريم:٤]؛ أَيْ: بِنِدَائِكَ.

الرَّابِعُ: بِمَعْنَى الِاسْتِعَانَةِ وَالِاسْتِغَاثَةِ؛ قَالَ تَعَالَى: ﴿وَٱدْعُوا۟ شُهَدَآءَكُم ﴾ [البقرة:٢٣]؛ أَيِ: اسْتَعِينُوا بِهِمْ، وَقَالَ: ﴿وَٱدْعُوا۟ مَنِ ٱسْتَطَعْتُم ﴾[يونس:٣٨]؛ أَيِ: اسْتَعِينُوا بِهِمْ.

الْخَامِسُ: بِمَعْنَى الِاسْتِعْلَامِ وَالِاسْتِفْهَامِ؛ قَالَ تَعَالَى: ﴿ **قَالُوا۟ ٱدْعُ لَنَا رَبَّكَ يُبَيِّن لَّنَا** ﴾[البقرة:٦٨].

السَّادِسُ: بِمَعْنَى الْعَذَابِ وَالْعُقُوبَةِ؛ قَالَ تَعَالَى: ﴿تَدْعُوا۟ مَنْ أَدْبَرَ وَتَوَلَّىٰ ﴾ [المعارج:١٧]؛ أَيْ: تُعَذِّبُ.

السَّابِعُ: بِمَعْنَى الْعَرْضِ؛ قَالَ تَعَالَى: ﴿وَيَٰقَوْمِ مَا لِيٓ أَدْعُوكُمْ إِلَى ٱلنَّجَوٰةِ ﴾ [غافر:٤٠]؛ أَيْ: أَعْرِضُهَا عَلَيْكُمْ ﴿وَتَدْعُونَنِيٓ إِلَى ٱلنَّارِ ﴾ أَيْ: تَعْرِضُونَهَا.

وَمِمَّا وَرَدَ فِي الْقُرْآنِ أَيْضًا مِنْ وُجُوهِ ذَلِكَ: دَعْوَةُ نُوحٍ قَوْمَهُ؛ كَمَا قَالَ: ﴿رَبِّ إِنِّي دَعَوْتُ قَوْمِي لَيْلًا وَنَهَارًا ﴾ [نوح:٥].

وَدَعْوَةُ خَاتَمِ الْأَنْبِيَاءِ ﷺ لِكَافَّةِ الْخَلْقِ؛ قَالَ تَعَالَى: ﴿ ٱدْعُ إِلَىٰ سَبِيلِ رَبِّكَ بِٱلْحِكْمَةِ وَٱلْمَوْعِظَةِ ٱلْحَسَنَةِ ﴾ [النحل:١٢٥]. انْتَهَى الْمُرَادُ.

وَالدَّعْوَةُ فِي الِاصْطِلَاحِ: هِيَ دَعْوَةُ النَّاسِ إِلَى الْإِسْلَامِ بِالْقَوْلِ وَالْعَمَلِ (١).

وَقَالَ الطَّبَرِيُّ فِي «تَفْسِيرِهِ» (٢) لِقَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿وَمَنْ أَحْسَنُ قَوْلًا مِّمَّن دَعَآ إِلَى ٱللَّهِ وَعَمِلَ صَٰلِحًا ﴾[فصلت:٣٣]: «يَقُولُ تَعَالَى ذِكْرُهُ: وَمَنْ أَحْسَنُ - أَيُّهَا النَّاسُ- قَوْلًا مِمَّنْ قَالَ: رَبُّنَا اللهُ، ثُمَّ اسْتَقَامَ عَلَى الْإِيمَانِ بِهِ، وَالِانْتِهَاءِ إِلَى أَمْرِهِ وَنَهْيِهِ،

---

(١) «تفسير الطبري» (٩/ ٧١٩٧).

(٢) عند آية فصلت (٣٣).

وَدَعَا عِبَادَ اللهِ إِلَى مَا قَالَ، وَعَمِلَ بِهِ مِنْ ذَلِكَ، وَبِنَحْوِ الَّذِي قُلْنَا فِي ذَلِكَ قَالَ أَهْلُ التَّأْوِيلِ». ثُمَّ أَوْرَدَ رحمه الله أَثَرَ الْحَسَنِ فِي الْآيَةِ؛ بِلَفْظِ: «هَذَا حَبِيبُ اللهِ، هَذَا وَلِيُّ اللهِ، هَذَا صَفْوَةُ اللهِ، هَذَا خِيرَةُ اللهِ، هَذَا أَحَبُّ الْخَلْقِ إِلَى اللهِ، أَجَابَ اللهَ فِي دَعْوَتِهِ، وَدَعَا النَّاسَ إِلَى مَا أَجَابَ اللهَ فِيهِ مِنْ دَعْوَتِهِ، وَعَمِلَ صَالِحًا فِي إِجَابَتِهِ».

وَقَالَ شَيْخُ الْإِسْلَامِ ابْنُ تَيْمِيَّةَ رحمه الله (١):

«الدَّعْوَةُ إِلَى اللهِ هِيَ الدَّعْوَةُ إِلَى الْإِيمَانِ بِهِ، وَبِمَا جَاءَتْ بِهِ رُسُلُهُ، بِتَصْدِيقِهِمْ فِيمَا أَخْبَرُوا بِهِ، وَطَاعَتِهِمْ فِيمَا أَمَرُوا، وَذَلِكَ يَتَضَمَّنُ: **الدَّعْوَةَ إِلَى** الشَّهَادَتَيْنِ، وَإِقَامِ الصَّلَاةِ، وَإِيتَاءِ الزَّكَاةِ، وَصَوْمِ رَمَضَانَ، وَحَجِّ الْبَيْتِ، **وَالدَّعْوَةَ** إِلَى الْإِيمَانِ بِاللهِ، وَمَلَائِكَتِهِ، وَكُتُبِهِ، وَرُسُلِهِ، وَالْبَعْثِ بَعْدَ الْمَوْتِ، وَالْإِيمَانِ بِالْقَدَرِ خَيْرِهِ وَشَرِّهِ، **وَالدَّعْوَةَ** إِلَى أَنْ يَعْبُدَ الْعَبْدُ رَبَّهُ كَأَنَّهُ يَرَاهُ؛ فَإِنَّ هَذِهِ الدَّرَجَاتِ الثَّلَاثَ الَّتِي هِيَ «الْإِسْلَامُ» وَ «الْإِيمَانُ» وَ «الْإِحْسَانُ» دَاخِلَةٌ فِي الدِّينِ؛ فَالدَّعْوَةُ إِلَى اللهِ تَكُونُ بِدَعْوَةِ الْعَبْدِ إِلَى دِينِهِ، وَأَصْلُ ذَلِكَ عِبَادَتُهُ وَحْدَهُ لَا شَرِيكَ لَهُ؛ كَمَا بَعَثَ بِذَلِكَ رُسُلَهُ، وَأَنْزَلَ بِهِ كُتُبَهُ؛ قَالَ تَعَالَى: ﴿شَرَعَ لَكُم مِّنَ ٱلدِّينِ مَا وَصَّىٰ بِهِۦ نُوحًا وَٱلَّذِىٓ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ وَمَا وَصَّيْنَا بِهِۦٓ إِبْرَٰهِيمَ وَمُوسَىٰ وَعِيسَىٰٓ أَنْ أَقِيمُوا۟ ٱلدِّينَ وَلَا تَتَفَرَّقُوا۟ فِيهِ﴾[الشورى:١٣]، وَقَالَ تَعَالَى: ﴿وَلَقَدْ بَعَثْنَا فِى كُلِّ أُمَّةٍ رَّسُولًا أَنِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ وَٱجْتَنِبُوا۟ ٱلطَّٰغُوتَ ۖ فَمِنْهُم مَّنْ هَدَى ٱللَّهُ وَمِنْهُم مَّنْ حَقَّتْ عَلَيْهِ ٱلضَّلَٰلَةُ﴾ [النحل:٣٦].. إِلَى آخِرِهِ»، وَسَيَأْتِي بِالتَّفْصِيلِ الْحَدِيثُ عَنْ مَوْضُوعِ الدَّعْوَةِ، وَالْهَدَفِ مِنْ دَعْوَةِ النَّبِيِّ ﷺ وَإِخْوَانِهِ مِنَ النَّبِيِّينَ وَالْمُرْسَلِينَ صَلَوَاتُ اللهِ وَسَلَامُهُ عَلَيْهِمْ أَجْمَعِينَ.

وَالْمُرَادُ هُنَا: دَعْوَةُ النَّاسِ جَمِيعًا إِلَى دِينِ اللهِ عز وجل بِامْتِثَالِ أَوَامِرِهِ، وَاجْتِنَابِ نَوَاهِيهِ، وَالْوُقُوفِ عِنْدَ حَدِّهِ، وَإِرْشَادُهُمْ إِلَى مَا فِيهِ سَعَادَتُهُمْ، وَفَلَاحُهُمْ فِي الدُّنْيَا

---

(١) «مجموع الفتاوى» (١٥/ ١٥٧، ١٥٨).

وَالْآخِرَةِ، وَإِخْرَاجُهُمْ مِنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ بِإِذْنِ رَبِّهِمْ إِلَى صِرَاطِ الْعَزِيزِ الْحَمِيدِ.

●**قُلْتُ**: وَلِهَذِهِ الدَّعْوَةِ أُصُولٌ، وَضَوَابِطُ، وَوَسَائِلُ، وَأَهْدَافٌ يَنْبَغِي مُرَاعَاتُهَا، وَسَتَأْتِي تِبَاعًا- بَعْدَ ذَلِكَ- بِإِذْنِ اللهِ تَعَالَى.

○ رَابِعًا: مَعْنَى «الآخَر»:

قَالَ أَهْلُ اللُّغَةِ: وَالآخَرُ؛ بِفَتْحِ الْخَاءِ: أَحَدُ الشَّيْئَيْنِ (١).

قَالَ ابْنُ مَنْظُورٍ (٢): «وَالآخَرُ؛ بِمَعْنَى: غَيْرٍ؛ كَقَوْلِكَ: رَجُلٌ آخَرُ، وَثَوْبٌ آخَرُ.. وَقَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿فَآخَرَانِ يَقُومَانِ مَقَامَهُمَا﴾[المائدة:١٠٧] فَسَّرَهُ ثَعْلَبٌ (٣)؛ فَقَالَ: فَمُسْلِمَانِ يَقُومَانِ مَقَامَ النَّصْرَانِيَّيْنِ يَحْلِفَانِ، وَقَالَ الْفَرَّاءُ (٤): مَعْنَاهُ: أَوْ

---

(١) «تاج العروس» للزبيدي (١٠/ ٣٣)، و«مختار الصحاح» (٩) للرازي، ط مكتبة لبنان ناشرون بيروت.

(٢) «اللسان» (١/ ٩٤).

(٣) هو أبو العباس أحمد بن يحيى بن زيد بن سيار النحوي الشيباني، المعروف بثعلب، كان إمام الكوفيين في النحو واللغة، وكان ثقة صالحًا مشهورًا بالحفظ وصدق اللهجة والمعرفة بالعربية ورواية الشعر القديم، ولد في سنة مائتين لشهرين مضيا منها، وقيل: سنة أربع ومائتين، وقيل: إحدى ومائتين، وتوفي سنة إحدى وتسعين ومائتين ببغداد، ودفن بمقبرة باب الشام، رحمه الله تعالى، وكان سبب وفاته أنه أصيب في آخر أيامه بصمم فصدمته فرس فسقط في هوة؛ فتوفي على الأثر.

● راجع: «الأنساب» للسمعاني (٥/ ٤٦٧)، و«وفيات الأعيان» (١/ ١٠٢) لابن خلكان، ط صادر ـــ بيروت، و«طبقات الحنابلة» (١/ ٨١) لابن أبي يعلى، ط المعرفة، بيروت، و«الأعلام» للزركلي (١/ ٢٦٧).

(٤) هو يحيى بن زياد الكوفي النحوي، نزل بغداد، وهو أجلُّ أصحاب الكسائي، وكان رأسًا في النحو واللغة، أملى تصانيفه كلها حفظًا، مات بطريق الحج سنة سبع ومائتين، وله ثلاث وستون سنة، رحمه الله.

● راجع: «العبر في خبر من غبر» (١/ ٣٥٤) ط/ حكومة الكويت، و«السير» (٧/ ٥٢)، و«تذكرة الحفاظ» (١/ ٣٧٢) للذهبيِّ.

آخَرَانِ مِنْ غَيْرِ دِينِكُمْ مِنَ النَّصَارَى وَالْيَهُودِ، وَهَذَا لِلسَّفَرِ وَالضَّرُورَةِ» ا. هـ.

قَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ رضي الله عنهما فِي قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿أَوْ ءَاخَرَانِ مِنْ غَيْرِكُمْ﴾. قَالَ: «**مِنْ غَيْرِ الْمُسْلِمِينَ يَعْنِي: أَهْلَ الْكِتَابِ**» (١).

وَقَدْ ذَكَرَ الْفَيْرُوزَ آبَادِي (٢) فِي «**بَصَائِرِ ذَوِي التَّمْيِيزِ**» بَصِيرَةً فِي الْآخِرَةِ، وَالْآخَرِ، وَالْأُخْرَى، وَقَالَ: «آخَرُ - بِفَتْحِ الْخَاءِ- يُقَابَلُ بِهِ الْوَاحِدُ، وَهُمَا آخَرَانِ وَهُمْ آخَرُونَ، وَفِي الْمُؤَنَّثِ تَقُولُ: أُخْرَى، وَأُخْرَيَانِ، وَأُخَرُ» (٣).

ثُمَّ قَالَ: «وَذُكِرَتْ هَذِهِ الْأَلْفَاظُ فِي نَصِّ الْقُرْآنِ عَلَى ثَلَاثَةَ عَشَرَ وَجْهًا: أَخْتَارُ مِنْهَا:

الْأَوَّلَ: بِمَعْنَى أَهْلِ الْمَعْصِيَةِ وَالطَّاعَةِ؛ قَالَ تَعَالَى: ﴿وَءَاخَرُونَ اعْتَرَفُوا بِذُنُوبِهِمْ﴾ [التوبة:١٠٢].

الثَّانِي: آخَرُ؛ بِمَعْنَى: الْعَذَابِ وَالْعُقُوبَةِ؛ قَالَ تَعَالَى: ﴿وَءَاخَرُ مِن شَكْلِهِۦٓ أَزْوَٰجٌ﴾ [ص: ٥٨].

الْعَاشِرَ: أَهْلُ النِّفَاقِ؛ قال تعالى: ﴿سَمَّٰعُونَ لِقَوْمٍ ءَاخَرِينَ﴾[المائدة:٤١].

---

(١) أخرجه ابن أبي حاتم في «تفسيره»؛ كما في ابن كثير عند تفسير آية [المائدة:١٠٦].

(٢) هو محمد بن يعقوب بن محمد بن إبراهيم بن عمر الشيرازي الشيخ العلامة مجد الدين أبو الطاهر الفيروز آبادي، ولد سنة تسع وعشرين وسبعمائة، وأشهر مصنفاته «القاموس المحيط»، و«بصائر ذوي التمييز في لطائف الكتاب العزيز» وغيرهما، ومات في زبيد ليلة الثلاثاء العشرين من شوال سنة ٨١٧ هجرية، وقد ناهز التسعين، وهو متمتع بحواسه؛ انظر: «إنباء الغمر بأنباء العمر» للحافظ ابن حجر (٣/ ٤٧- ٥٠) ط وزارة الأوقاف المجلس الأعلى للشئون الإسلامية سنة ١٤١٥ هجرية، و«البدر الطالع» للشوكاني (٢/ ٨٣٥، ٨٣٩) ط دار ابن كثير، دمشق، بيروت، و«طبقات الشافعية» لابن قاضي شهبة (٤/ ٦٣) ط عالم الكتب، بيروت، سنة ١٤٠٧ هجرية.

(٣) (٢/ ٨٩، ٩٠).

اَلْحَادِي عَشَر: بِمَعْنَى: اَلْمُتَأَخِّرِيْنَ عَنِ الْغَزْوِ؛ قَالَ تَعَالَى: ﴿وَءَاخَرُونَ مُرْجَوْنَ لِأَمْرِ ٱللَّهِ﴾ [التوبة:١٠٦]» ا. هـ.

فَالْمُرَادُ بِالْآخَرِ فِي بَحْثِنَا: «دَعْوَةُ الْغَيْرِ مِنْ جَمِيعِ النَّاسِ عَلَى اخْتِلَافِ أَجْنَاسِهِمْ، وَفِئَاتِهِمْ، وَطَوَائِفِهِمْ، وَمُعْتَقَدَاتِهِمْ، سَوَاءٌ كَانُوا مِنَ الْمُسْلِمِينَ أَوْ مِنْ غَيْرِ الْمُسْلِمِينَ مِنَ الْيَهُودِ، وَالنَّصَارَى، وَالْمُرْتَدِّينَ، وَالْمُنَافِقِينَ، وَجَمِيعِ الْمُخَالِفِينَ أَفْرَادًا وَجَمَاعَاتٍ إِلَى الْإِسْلَامِ، وَالْإِيمَانِ، وَالْهُدَى، وَالْحَقِّ»؛ فَالْخَلْقُ جَمِيعًا فِي حَاجَةٍ مَاسَّةٍ إِلَى الدَّعْوَةِ وَالْبَلَاغِ عَنِ اللهِ وَرَسُولِهِ بِالْحِكْمَةِ الْبَالِغَةِ، وَالْمَوْعِظَةِ الْمُؤَثِّرَةِ، وَالْكَلِمَةِ الرَّقْرَاقَةِ، وَالْأُسْوَةِ الْحَسَنَةِ، وَالْقُدْوَةِ الطَّيِّبَةِ؛ قَالَ تَعَالَى: ﴿قُلْ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِنِّى رَسُولُ ٱللَّهِ إِلَيْكُمْ جَمِيعًا ٱلَّذِى لَهُۥ مُلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ يُحْىِۦ وَيُمِيتُ فَـَٔامِنُوا۟ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِ ٱلنَّبِىِّ ٱلْأُمِّىِّ ٱلَّذِى يُؤْمِنُ بِٱللَّهِ وَكَلِمَٰتِهِۦ وَٱتَّبِعُوهُ لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ﴾ [الأعراف:١٥٨].

فَالْمَعْنَى الْإِجْمَالِيُّ لِعُنْوَانِ رِسَالَتِنَا هَذِهِ بِإِيجَازٍ: الطَّرِيقُ الْوَاضِحُ الْبَيِّنُ الَّذِي قَرَّرَهُ وَأَصَّلَهُ وَسَلَكَهُ أُسْوَةُ الدُّعَاةِ، وَإِمَامُ التُّقَاةِ ﷺ فِي دَعْوَةِ الْآخَرِينَ مِنَ الْمُسْلِمِينَ، وَغَيْرِ الْمُسْلِمِينَ إِلَى دِينِ رَبِّ الْعَالَمِينَ.

فَالدَّعْوَةُ لَيْسَتْ مَقْصُورَةً عَلَى مَكَانٍ دُونَ آخَرَ، أَوْ أُمَّةٍ مُعَيَّنَةٍ؛ بَلْ هِيَ لِلْعَالَمِ بِأَسْرِهِ، وَلِلْخَلْقِ جَمِيعًا؛ قَالَ تَعَالَى: ﴿وَمَآ أَرْسَلْنَٰكَ إِلَّا كَآفَّةً لِّلنَّاسِ بَشِيرًا وَنَذِيرًا وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ﴾ [سبأ:٢٨].

وَبَعْدَ هَذَا التَّأْصِيلِ اللُّغَوِيِّ وَالشَّرْعِيِّ يَحْسُنُ بِنَا فِي الْفَصْلِ التَّالِي أَنْ نَقِفَ -بِإِيجَازٍ- عَلَى فَضْلِ الدَّعْوَةِ، وَفَرْضِيَّتِهَا.

❀◇❀

المَبْحَثُ الثَّانِي
فَضْلُ الدَّعْوَةِ وَفَرْضِيَّتُهَا(١)

إِنَّ الدَّعْوَةَ إِلَى اللهِ تَعَالَى عَمَلٌ جَلِيلٌ مِنْ أَجَلِّ الْأَعْمَالِ، وَعِبَادَةٌ عَظِيمَةٌ مِنْ أَعْظَمِ الْعِبَادَاتِ؛ فَلَقَدْ جَعَلَ اللهُ لِحَامِلِ رَايَتِهَا وَلِوَائِهَا شَرَفًا عَظِيمًا، وَمَكَانَةً عَالِيَةً كَرِيمَةً؛ فَقَالَ اللهُ تَعَالَى: ﴿وَمَنْ أَحْسَنُ قَوْلًا مِّمَّن دَعَآ إِلَى ٱللَّهِ وَعَمِلَ صَٰلِحًا وَقَالَ إِنَّنِى مِنَ ٱلْمُسْلِمِينَ﴾ [فصلت:٣٣].

وَقَالَ تَعَالَى: ﴿وَجَعَلْنَا مِنْهُمْ أَئِمَّةً يَهْدُونَ بِأَمْرِنَا لَمَّا صَبَرُوا۟ ۖ وَكَانُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَا يُوقِنُونَ﴾[السجدة:٢٤].

إِنَّ الدَّعْوَةَ إِلَى اللهِ تَعَالَى هِيَ وَظِيفَةُ الْأَنْبِيَاءِ وَالْمُرْسَلِينَ الَّذِينَ اصْطَفَاهُمُ اللهُ ﷻ لِحَمْلِ رِسَالَتِهِ وَتَبْلِيغِهَا إِلَى النَّاسِ؛ لِتَعْبِيدِ الْعِبَادِ للهِ، وَإِخْرَاجِهِمْ مِنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ.

وَامْتَنَّ اللهُ جَلَّ وَعَلَا- عَلَى لَبِنَةِ تَمَامِهِمْ، وَمِسْكِ خِتَامِهِمْ مُحَمَّدٍ ﷺ؛ فَأَبْقَى هَذِهِ الْوَظِيفَةَ الشَّرِيفَةَ فِي أُمَّتِهِ مِنْ بَعْدِهِ إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ، فَوَرِثَ عُلَمَاءُ أُمَّتِهِ هَذِهِ التَّرِكَةَ الضَّخْمَةَ، وَالْمَسْئُولِيَّةَ الْكَبِيرَةَ، وَالشَّرَفَ الْعَظِيمَ؛ شَرَفَ الدَّعْوَةِ إِلَى اللهِ ﷻ. وَفِي «صَحِيحِ مُسْلِمٍ» (٢) مِنْ حَدِيثِ عَبْدِ اللهِ بْنِ مَسْعُودٍ رضي الله عنه (٣) أَنَّ

---

(١) انظر: «خواطر على طريق الدعوة. جراح وأفراح» للباحث (١٤-٢٧) ط دار المسلم.

(٢) أخرجه مسلمٌ، كتاب الإيمان، باب، بيان كون النهي عن المنكر من الإيمان (٥٠).

(٣) هو عبد الله بن مسعود بن غافل بن حبيب الهذلي، أبو عبد الرحمن من السابقين الأولين، ومن كبار العلماء من الصحابة، مناقبه جمة، أسلم قديمًا، وهاجر الهجرتين، وشهد بدرًا والمشاهد بعدها، ولازم النبيَّ ﷺ، وكان صاحب نعليه؛ كما في «صحيح =

النَّبِيَّ ﷺ قَالَ: «مَا مِنْ نَبِيٍّ بَعَثَهُ اللهُ فِي أُمَّةٍ قَبْلِي إِلَّا كَانَ لَهُ مِنْ أُمَّتِهِ حَوَارِيُّونَ وَأَصْحَابٌ يَأْخُذُونَ بِسُنَّتِهِ، وَيَقْتَدُونَ بِأَمْرِهِ، ثُمَّ إِنَّهَا تَخْلُفُ مِنْ بَعْدِهِمْ خُلُوفٌ؛ يَقُولُونَ مَا لَا يَفْعَلُونَ، وَيَفْعَلُونَ مَا لَا يُؤْمَرُونَ؛ فَمَنْ جَاهَدَهُمْ بِيَدِهِ فَهُوَ مُؤْمِنٌ، وَمَنْ جَاهَدَهُمْ بِلِسَانِهِ فَهُوَ مُؤْمِنٌ، وَمَنْ جَاهَدَهُمْ بِقَلْبِهِ فَهُوَ مُؤْمِنٌ، وَلَيْسَ وَرَاءَ ذَلِكَ مِنَ الْإِيمَانِ حَبَّةُ خَرْدَلٍ».

فَانْطَلَقَ هَؤُلَاءِ الْحَوَارِيُّونَ وَالْأَصْحَابُ، وَمَنْ تَبِعَهُمْ بِإِحْسَانٍ - مُقْتَفِيًا أَثَرَهُمْ، سَالِكًا طَرِيقَهُمْ- بِرَايَةِ الدَّعْوَةِ إِلَى اللهِ ﷻ؛ تَارِكِينَ الدِّيَارَ وَالْأَوْطَانَ، بَاذِلِينَ فِي سَبِيلِهَا الْمُهَجَ وَالْأَرْوَاحَ، وَلَا هَمَّ لَهُمْ سِوَى إِخْرَاجِ الْعِبَادِ مِنْ عِبَادَةِ الْعِبَادِ إِلَى عِبَادَةِ رَبِّ الْعِبَادِ، وَمِنْ جَوْرِ الْأَدْيَانِ إِلَى عَدْلِ الْإِسْلَامِ، وَمِنْ ضِيقِ الدُّنْيَا إِلَى سَعَةِ الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ؛ فَأَعَزَّ اللهُ بِهِمُ الْإِسْلَامَ، وَارْتَفَعَتْ رَايَتُهُ عَلَى بِلَادِ السِّنْدِ، وَالْهِنْدِ، وَالتُّرْكِسْتَانِ، وَالصِّينِ، وَبِلَادِ الرُّوسِ شَمَالًا، وَقَلْبِ أُورُوبَّا، حَتَّى قَالَ «لين بول» فِي كِتَابِهِ «الْعَرَبُ فِي أَسْبَانْيَا»: «... فَكَانَتْ أُورُوبَّا الْأُمِّيَّةُ تَزْخَرُ بِالْجَهْلِ وَالْحِرْمَانِ، بَيْنَمَا كَانَتِ الْأَنْدَلُسُ تَحْمِلُ إِمَامَةَ الْعِلْمِ، وَرَايَةَ الثَّقَافَةِ فِي الْعَالَمِ».

وَقَدْ جَسَّدَ لَنَا هَذَا الْمَدَّ الْعَظِيمَ وَالسُّلْطَانَ الْكَبِيرَ أَحَدُ خُلَفَاءِ الْمُسْلِمِينَ الْعَبَّاسِيِّينَ، إِنَّهُ هَارُونُ الرَّشِيدُ رحمه الله (١) الَّذِي وَقَفَ يَوْمًا - بِبَغْدَادَ- لِيُخَاطِبَ

=

البخاري» في مناقب عبد الله بن مسعود رضي الله عنه (٣٧٦١)، ومن أخباره بعد النبي ﷺ أنه شهد فتوح الشام، وأمَّره عمر على الكوفة، مات سنة اثنتين وثلاثين أو في التي بعدها بالمدينة.

● انظر: «الإصابة» (٤/ ١٨٨)، و«تقريب التهذيب» (٤١٠٠).

(١) هو الخليفة أبو جعفر هارون بن محمد بن عبد الله بن محمد بن علي بن عبد الله بن عباس الهاشمي العباسي، أمير المؤمنين، الرشيد بن المهدي بن المنصور، كان شجاعًا، كثير الحج والغزو؛ قال الذهبيُّ: «له نظر جيد في الأدب والشعر، وله فتوحات ومواقف مشهورة»، ثم قال: «ومحاسنه كثيرة، وله أخبارٌ شائعة!! في اللهو

=

السَّحَابَةَ فِي كَبِدِ السَّمَاءِ، وَيَقُولُ لَهَا (١): «أَيَّتُهَا السَّحَابَةُ، أَمْطِرِي حَيْثُ شِئْتِ، فَسَوْفَ يُحْمَلُ إِلَيْنَا خَرَاجُكَ إِنْ شَاءَ اللهُ»!!؛ فَانْظُرْ إِلَى سَعَةِ الْمُلْكِ، وَعَظَمَةِ الدَّوْلَةِ، وَعِزِّ السُّلْطَانِ؛ فَرَحِمَهُ اللهُ - تَعَالَى - رَحْمَةً وَاسِعَةً.

وَهَكَذَا بَلَغَتْ دَوْلَةُ الْإِسْلَامِ وَامْتَدَّتْ، ثُمَّ إِنَّهُ خَلَفَ مِنْ بَعْدِهِمْ خُلُوفٌ أَخْلَدُوا إِلَى الْأَرْضِ وَإِلَى الْوَحْلِ وَالطِّينِ!! عَاشُوا لِأَنْفُسِهِمْ، وَشَهَوَاتِهِمْ، وَنَزَوَاتِهِمْ، وَرَغَبَاتِهِمُ الْحَقِيرَةِ، وَلِكَرَاسِيِّهِمُ الزَّائِلَةِ!! عَاشُوا لِعُرُوشِهِمْ وَشَهَوَاتِهِمْ؛ فَانْحَسَرَ هَذَا الْمَدُّ الْمُبَارَكُ؛ بَلْ وَهَانَتِ الْأُمَّةُ، وَضَاعَتْ هَيْبَتُهَا، وَزَالَ سُلْطَانُهَا، وَوَلَّى مَجْدُهَا، وَمُسِخَتْ هَوِيَّتُهَا؛ بَلْ احْتُلَّتْ أَرْضُهَا، وَطَمِعَ فِيهَا الضَّعِيفُ قَبْلَ الْقَوِيِّ، وَالذَّلِيلُ قَبْلَ الْعَزِيزِ، وَالْبَعِيدُ قَبْلَ الْقَرِيبِ، وَتَكَالَبَتْ عَلَيْهَا أُمَمُ الْأَرْضِ، وَتَحَقَّقَ فِيهَا قَوْلُ مَنْ لَا يَنْطِقُ عَنِ الْهَوَى بِأَبِي هُوَ وَأُمِّي كَمَا فِي حَدِيثِ ثَوْبَانَ رضي الله عنه (٢): «**يُوشِكُ الْأُمَمُ أَنْ تَدَاعَى عَلَيْكُمْ كَمَا تَدَاعَى الْأَكَلَةُ إِلَى قَصْعَتِهَا**»، فَقَالَ قَائِلٌ: وَمِنْ قِلَّةٍ نَحْنُ يَوْمَئِذٍ؟ قَالَ: «**بَلْ أَنْتُمْ يَوْمَئِذٍ كَثِيرٌ، وَلَكِنَّكُمْ غُثَاءٌ كَغُثَاءِ السَّيْلِ، وَلَيَنْزِعَنَّ اللهُ مِنْ صُدُورِ عَدُوِّكُمُ الْمَهَابَةَ مِنْكُمْ، وَلَيَقْذِفَنَّ اللهُ**

=
واللذات والغناء، الله يسمح له». عاش خمسًا وأربعين سنة، وكانت مدة خلافته ثلاثة وعشرين سنةً وشهرين وستة عشر يومًا؛ توفي بطوس، ثالث جمادي الآخرة، سنةِ ثلاث وتسعين ومائة، وصلى عليه ولده صالح.

● راجع: «السير» (٦/ ٤٥٥، ٤٥٦)، و«فوات الوفيات» (٤/ ٢٢٥).

(١) انظر: «مجلة المنار» لمحمد رشيد رضا (٢٠/ ١٦٦)، وأورده الصالحيُّ في «سبل الهدى والرشاد» (٣/ ١٢٨) عن هشام بن عبد الملك. ط الكتب العلمية.

(٢)هو ثوبان بن بجدد مولى رَسُول الله ﷺ من أهل السراة، وهي موضع بين مكة واليمن، وقيل: إنه من حمير، وقيل: إنه حكمي من حكم بن سعد العشيرة أصابه سباء؛ فاشتراه رَسُول الله ﷺ فأعتقه، ولم يزل يكون معه في السفر والحضر إلى أن تُوُفي رَسُولُ الله ﷺ، فخرج إلى الشام، فنزل الرملة، ثم انتقل إلى حمص، وبنى بها دارًا، وتوفي بها سنة أربع وخمسين. راجع: «الاستيعاب» (٢٣٣)، و«الإصابة» (١/ ٣٦٣)، و«التقريب» (٩٥٥).

فِي قُلُوبِكُمُ الْوَهْنَ»، فَقَالَ قَائِلٌ: يَا رَسُولَ الله، وَمَا الْوَهْنُ؟ قَالَ: «حُبُّ الدُّنْيَا، وَكَرَاهِيَةُ الْمَوْتِ»(١).

فِي الْوَقْتِ الَّذِي ابْتَعَدَتْ فِيهِ الْبَشَرِيَّةُ كَثِيرًا عَنْ مَنْهَجِ الله وَرَسُولِهِ ﷺ، وَأَصْبَحَتْ تَعْرِفُ كَثِيرًا عَنْ عُلُومِ الدُّنْيَا فِي وَقْتٍ جَهِلَتْ فِيهِ خَالِقَهَا- جَلَّ وَعَلَا- وَأَضْحَتْ غَارِقَةً فِي بُحُورِ الشَّهَوَاتِ، وَسَاقِطَةً فِي شِبَاكِ الشُّبُهَاتِ - إِلَّا مَنْ رَحِمَ اللهُ -؛ فَمَنْ لِهَؤُلَاءِ؟ مَنْ يَدْعُوهُمْ إِلَى الله ﷻ؟ مَنْ يُقِيمُ عَلَيْهِمْ حُجَّةَ الله فِي الْأَرْضِ؟ مَنْ يَسْتَنْقِذُهُمْ مِنْ عَذَابِ الله فِي الْآخِرَةِ؟! مَنْ يَتَحَمَّلُ تَبِعَةَ هَؤُلَاءِ؟! ﴿لِئَلَّا يَكُونَ لِلنَّاسِ عَلَى ٱللَّهِ حُجَّةُۢ بَعْدَ ٱلرُّسُلِ﴾[النساء:١٦٥].

إِنَّهَا تَبِعَةٌ تَقْصِمُ الظَّهْرَ، وَتَخْلَعُ الْفُؤَادَ!! قَالَ تَعَالَى: ﴿إِنَّا سَنُلْقِى عَلَيْكَ قَوْلًا ثَقِيلًا﴾[المزمل:٥]. إِنَّهَا الْأَمَانَةُ الْكَبِيرَةُ؛ فَإِمَّا أَنْ نَكُونَ أَهْلًا لَهَا بِتَأْدِيَتِهَا وَإِبْلَاغِهَا، وَإِمَّا أَنْ نَكُونَ خَوَنَةً!! بِتَضْيِيعِهَا وَنِسْيَانِهَا؛ قَالَ تَعَالَى: ﴿إِنَّا عَرَضْنَا ٱلْأَمَانَةَ عَلَى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَٱلْجِبَالِ فَأَبَيْنَ أَن يَحْمِلْنَهَا وَأَشْفَقْنَ مِنْهَا وَحَمَلَهَا ٱلْإِنسَٰنُ إِنَّهُۥ كَانَ ظَلُومًا جَهُولًا﴾[الأحزاب:٧٢]. وَقَالَ الله ﷻ: ﴿وَكَذَٰلِكَ جَعَلْنَٰكُمْ أُمَّةً وَسَطًا لِّتَكُونُوا۟ شُهَدَآءَ عَلَى ٱلنَّاسِ وَيَكُونَ ٱلرَّسُولُ عَلَيْكُمْ شَهِيدًا﴾[البقرة:١٤٣].

بَلْ يُخَاطِبُ الله - جَلَّ وَعَلَا- نَبِيَّهُ ﷺ الَّذِي أَمَرَهُ بِالْقِيَامِ بِقَوْلِهِ: ﴿قُمْ فَأَنذِرْ﴾

---

(١) أخرجه أحمد (٥/ ٢٧٨)، وأبو داود، كتاب «الملاحم»، باب، في تداعي الأمم على الإسلام (٤٢٩٧) ط الحديث، والطيالسيُّ في «مسنده» (٩٩٢) ط المعرفة، وابن أبي شيبة في «مصنفه» (٨/ ٦١٣) ط الرشد، الرياض، وأبو نعيم في «حلية الأولياء» (١/ ١٨٢) ط الكتاب العربي، والبيهقيُّ في «شعب الإيمان» (٧/ ٢٩٧) رقم (١٠٣٧٢) ط الكتب العلمية سنة ١٤١٠هـ، والروياني في «مسنده» (٦٥٤) ط قرطبة، سنة ١٤١٦ هـ، وصَحَّحَهُ لغيره الألبانيُّ في «الصحيحة» (٩٥٨)، و«صحيح الجامع» (٨١٨٣) ط المكتب الإسلامي.

[المدثر:٢]؛ فقامَ، ولَمْ يَقْعُدْ حتَّى لَقِيَ اللهَ ﷻ؛ يُخاطِبُهُ رَبُّهُ بِقَوْلِهِ سُبْحانَهُ: ﴿قُلْ إِنِّي لَن يُجِيرَنِي مِنَ اللَّهِ أَحَدٌ وَلَنْ أَجِدَ مِن دُونِهِ مُلْتَحَدًا ﴿٢٢﴾ إِلَّا بَلَاغًا مِّنَ اللَّهِ وَرِسَالَاتِهِ﴾ [الجن:٢٢، ٢٣]؛ أَيْ: لَا يُجِيرُنِي أَحَدٌ مِنَ الله، وَيُخَلِّصُنِي مِنْ عَذَابِهِ - إِنْ عَصَيْتُهُ- وَلَنْ أَجِدَ مِنْ دُونِهِ مُلْتَحَدًا؛ أَيْ: مَلْجَأً وَمُنْتَصَرًا؛ إِلَّا إِبْلَاغِي الرِّسَالَةَ الَّتِي أَوْجَبَ أَدَاءَهَا عَلَيَّ؛ كَمَا قَالَ تَعَالَى: ﴿يَا أَيُّهَا الرَّسُولُ بَلِّغْ مَا أُنزِلَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ وَإِن لَّمْ تَفْعَلْ فَمَا بَلَّغْتَ رِسَالَتَهُ وَاللَّهُ يَعْصِمُكَ مِنَ النَّاسِ﴾ [المائدة:٦٧] (١). وَهَكَذَا لَا يُمْكِنُ التَّفَلُّتُ مِنْ هَذِهِ الْمُهِمَّةِ الشَّاقَّةِ، وَالْأَمَانَةِ الثَّقِيلَةِ، إِنَّهَا التَّكْلِيفُ الصَّارِمُ، وَالْوَاجِبُ الْمُتَحَتِّمُ، وَالْأَمْرُ الْجَادُّ اللَّازِمُ الَّذِي لَا مَفَرَّ مِنْ أَدَائِهِ؛ فَاللهُ مِنْ وَرَائِهِ.

فَالدَّعْوَةُ إِلَى اللهِ ﷻ وَاجِبُ هَذِهِ الْأُمَّةِ الْخَاتِمَةِ الَّتِي اخْتَارَهَا اللهُ - جَلَّ وَعَلَا- لِلْقِيَادَةِ - بِقُوَّةٍ وَجَدَارَةٍ- بِمَا مَعَهَا مِنَ الْحَقِّ الَّذِي قَامَتْ مِنْ أَجْلِهِ السَّمَوَاتُ وَالْأَرْضُ، وَخُلِقَتِ الْجَنَّةُ وَالنَّارُ، وَأَنْزَلَ اللهُ الْكُتُبَ، وَأَرْسَلَ الرُّسُلَ.

فَلَابُدَّ - إِذَنْ - مِنَ الدَّعْوَةِ وَالْبَلَاغِ، وَلَقَدْ دَلَّتِ الْأَدِلَّةُ مِنَ الْقُرْآنِ وَالسُّنَّةِ عَلَى وُجُوبِ الدَّعْوَةِ إِلَى اللهِ ﷻ، وَأَنَّهَا مِنْ أَكْرَمِ الْفَرَائِضِ الَّتِي افْتَرَضَهَا اللهُ ﷻ عَلَى هَذِهِ الْأُمَّةِ الْمُبَارَكَةِ، وَمِنْ هَذِهِ الْأَدِلَّةِ الْقُرْآنِيَّةِ: قَوْلُ اللهِ ﷻ: ﴿وَلْتَكُن مِّنكُمْ أُمَّةٌ يَدْعُونَ إِلَى الْخَيْرِ وَيَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنكَرِ وَأُولَٰئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ﴾ [آل عمران:١٠٤].

قَالَ الْحَافِظُ ابْنُ كَثِيرٍ (٢) رحمه الله: «﴿وَلْتَكُن مِّنكُمْ أُمَّةٌ﴾ مُنْتَصِبَةٌ لِلْقِيَامِ بِأَمْرِ اللهِ

---

(١) قاله ابن كثير - بتصرفٍ يسيرٍ- في «التفسير» (٤/ ٥٢١) ط دار الفكر/ سنة ١٤١٤ هجرية.
قُلْتُ (البَاحِثُ): وفي الآية وجهٌ آخر من أوجهِ معاني التفسير؛ انظره عند ابن كثير وغيره.

(٢) هو عماد الدين إسماعيل بن عمر بن كثير بن ضوء بن درع البصروي ثم الدمشقي الفقيه الشافعي، ولد سنة ٧٠٠، وقيل: ٧٠١ هـ، ومن أشهر مصنفاته: «تفسير القرآن =

فِي الدَّعْوَةِ إِلَى الْخَيْرِ، وَالْأَمْرِ بِالْمَعْرُوفِ، وَالنَّهْيِ عَنِ الْمُنْكَرِ ﴿وَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ﴾ وَالْمَقْصُودُ مِنْ هَذِهِ الْآيَةِ: أَنْ تَكُونَ فِرْقَةٌ مِنْ هَذِهِ الْأُمَّةِ مُتَصَدِّيَةً لِهَذَا الشَّأْنِ، وَإِنْ كَانَ ذَلِكَ وَاجِبًا عَلَى كُلِّ فَرْدٍ مِنَ الْأُمَّةِ بِحَسَبِهِ»(١).

وَمِنْهَا: قَوْلُ اللهِ ﷻ: ﴿ٱدْعُ إِلَىٰ سَبِيلِ رَبِّكَ بِٱلْحِكْمَةِ وَٱلْمَوْعِظَةِ ٱلْحَسَنَةِ ۖ وَجَٰدِلْهُم بِٱلَّتِى هِىَ أَحْسَنُ﴾[النحل:١٢٥]. وَمِنْهَا: قَوْلُ اللهِ ﷻ: ﴿فَلِذَٰلِكَ فَٱدْعُ ۖ وَٱسْتَقِمْ كَمَآ أُمِرْتَ﴾[الشورى:١٥]. وَمِنْهَا: قَوْلُ اللهِ ﷻ: ﴿وَٱدْعُ إِلَىٰ رَبِّكَ ۖ وَلَا تَكُونَنَّ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ﴾[القصص:٨٧]. وَمِنْهَا: قَوْلُ اللهِ ﷻ: ﴿وَٱدْعُ إِلَىٰ رَبِّكَ ۖ إِنَّكَ لَعَلَىٰ هُدًى مُّسْتَقِيمٍ﴾[الحج:٦٧]. وَمِنْهَا: قَوْلُ اللهِ ﷻ: ﴿قُلْ هَٰذِهِۦ سَبِيلِىٓ أَدْعُوٓا۟ إِلَى ٱللَّهِ ۚ عَلَىٰ بَصِيرَةٍ أَنَا۠ وَمَنِ ٱتَّبَعَنِى ۖ وَسُبْحَٰنَ ٱللَّهِ وَمَآ أَنَا۠ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ﴾[يوسف:١٠٨].

يَقُولُ ابْنُ الْقَيِّمِ ؒ: «فَلَا يَكُونُ الرَّجُلُ مِنْ أَتْبَاعِهِ حَقًّا حَتَّى يَدْعُوَ إِلَى مَا دَعَا إِلَيْهِ، وَيَكُونَ عَلَى بَصِيرَةٍ» (٢).

وَيَقُولُ الْحَافِظُ ابْنُ كَثِيرٍ ؒ: «وَإِنَّمَا حَازَتِ الْأُمَّةُ قَصَبَ السَّبْقِ إِلَى الْخَيْرَاتِ بِنَبِيِّهَا مُحَمَّدٍ - صَلَوَاتُ اللهِ وَسَلَامُهُ عَلَيْهِ - فَإِنَّهُ أَشْرَفُ خَلْقِ اللهِ، وَأَكْرَمُ الرُّسُلِ عَلَى اللهِ، وَبَعَثَهُ اللهُ بِشَرْعٍ كَامِلٍ عَظِيمٍ، لَمْ يُعْطَهُ نَبِيٌّ قَبْلَهُ، وَلَا رَسُولٌ مِنَ الرُّسُلِ؛ فَالْعَمَلُ عَلَى مِنْهَاجِهِ وَسَبِيلِهِ يَقُومُ الْقَلِيلُ مِنْهُ مَا لَا يَقُومُ

=

العظيم»، و«البداية والنهاية»، و«جامع المسانيد والسنن» مات بدمشق في خامس عشر شعبان سنة أربع وسبعين وسبعمائة. راجع: «إنباء الغمر بأنباء العمر» (١/ ٣٩، ٤٠)، و«البدر الطالع» (١/ ١٨٥).

(١) «تفسير ابن كثير» (١/ ٤٧٨) وما بعدها.

(٢) «مفتاح دار السعادة» (١/ ١٥٤) ط الكتب العلمية، وانظر: «إعلام الموقعين» (٤/ ١٣٧) ط مكتبة الكليات الأزهرية، القاهرة، سنة/ ١٣٨٨هجرية، و«المدارج» (٢/ ٤٨٢) بتصرف، ط دار الكتاب العربي/ بيروت.

الْعَمَلُ الْكَثِيرُ مِنْ أَعْمَالِ غَيْرِهِمْ مَقَامَهُ» (١).

أما الأدلة النبوية؛ فهي أيضًا كثيرة، ومنها:

مَا ثَبَتَ فِي «صَحِيحِ الْبُخَارِيِّ» مِنْ حَدِيثِ عَبْدِ اللهِ بْنِ عَمْرِو بْنِ الْعَاصِ رضي الله عنهما (٢) أَنَّ النَّبِيَّ ﷺ قَالَ: «**بَلِّغُوا عَنِّي وَلَوْ آيَةً، وَحَدِّثُوا عَنْ بَنِي إِسْرَائِيلَ وَلَا حَرَجَ، وَمَنْ كَذَبَ عَلَيَّ مُتَعَمِّدًا فَلْيَتَبَوَّأْ مَقْعَدَهُ مِنَ النَّارِ**» (٣).

قَالَ الْحَافِظُ ابْنُ حَجَرٍ (٤) رحمه الله: «وَلَوْ آيَةً» أَيْ: وَاحِدَةً؛ لِيُسَارِعَ كُلُّ سَامِعٍ إِلَى تَبْلِيغِ مَا وَقَعَ لَهُ مِنَ الْآيِ، وَلَوْ قَلَّ؛ لِيَتَّصِلَ بِذَلِكَ نَقْلُ جَمِيعِ مَا جَاءَ بِهِ ﷺ» (٥) ا. هـ.

---

(١) «تفسير ابن كثير» (١/ ٤٨٠).

(٢) هو عبد الله بن عمرو بن العاص بن وائل بن هاشم بن سعيد، بالتصغير، ابن سعد بن سهم السهمي، أبو محمد، وقيل: أبو عبد الرحمن، أحد السابقين المكثرين، من الصحابة، وأحد العبادلة الفقهاء، أسلم قبل أبيه، وكان حافظًا، فاضلًا، عالمًا، قرأ الكتاب، واستأذن النبيَّ ﷺ في أن يكتب حديثه فأذن له، مات في ذي الحجة ليالي الحرة على الأصح، بالطائف على الراجح. انظر: «الاستيعاب» (١٦٣٨)، و«تقريب التهذيب» (رقم: ٣٨٧٣).

(٣) أخرجه البخاريُّ: كتاب الأنبياء، باب ما ذكر عن بني إسرائيل (٣٤٦١).

(٤) هو أحمد بن علي بن محمد بن علي بن أحمد الشهاب، أبو الفضل الكناني العسقلاني، القاهري الشافعي، الشهير بابن حجر، وهو لقب لبعض آبائه، الحافظ الكبير، الإمام المنفرد بمعرفة الحديث وعلله في الأزمنة المتأخرة، نشأ يتيمًا في كنف أحد أوصيائه فحفظ القرآن وهو ابن تسع، ثم حفظ «العمدة»، و«ألفية الحديث» للعراقي، و«الحاوي الصغير»، و«مختصر ابن الحاجب في الأصول والملحة»، وشهد له بالحفظ والإتقان القريب والبعيد والعدو والصديق، حتى صار لفظُ «الحافظ» عليه كلمةَ إجماع. توفي في أواخر ذي الحجة سنة ٨٥٢ هـ. راجع «البدر الطالع» للشوكاني (١/ ١١٨)، وقد ترجم له السخاوي ترجمةً موسعةً في كتابه «الجواهر والدرر». ط المجلس الأعلى للشئون الإسلامية. القاهرة.

(٥) «فتح الباري» (٦/ ٤٩٨).

قُلْتُ: سُبْحَانَ اللهِ! فَكَمْ مِنَ الْمُسْلِمِينَ يَحْفَظُ مِئَاتِ الآيَاتِ، وَعَشَرَاتِ الْأَحَادِيثِ، وَلَكِنَّهُ مُضَيِّعٌ لِأَمْرِ رَسُولِهِ ﷺ الَّذِي يَدُلُّ عَلَى الْوُجُوبِ حَيْثُ لَمْ تَأْتِ قَرِينَةٌ تَصْرِفُهُ مِنَ الْوُجُوبِ إِلَى غَيْرِهِ. مَعَ مَا فِيهِ مِنَ الْفَضْلِ؛ فَـ «**بَلِّغُوا**» تَكْلِيفٌ، وَ«**عَنِّي**» تَشْرِيفٌ، وَ«**لَوْ آيَةً**» تَخْفِيفٌ.

وَمِنْهَا: مَا أَخْرَجَهُ أَحْمَدُ فِي «**الْمُسْنَدِ**»، وَالتِرْمِذِيُّ فِي «**السُّنَنِ**»، وَابنُ مَاجَه، والشَّافِعِيُّ (١) فِي «**مُسْنَدِهِ**» مِنْ حَدِيثِ عَبْدِ اللهِ بْنِ مَسْعُودٍ ﷺ قَالَ: سَمِعْتُ رَسُولَ اللهِ ﷺ يَقُولُ: «**نَضَّرَ اللهُ امْرَأً سَمِعَ مِنَّا حَدِيثًا، فَبَلَّغَهُ كَمَا سَمِعَهُ، فَرُبَّ مُبَلَّغٍ أَحْفَظُ مِنْ سَامِعٍ**» (٢). وَفِي رِوَايَةٍ: «**فَرُبَّ مُبَلَّغٍ أَوْعَى مِنْ سَامِعٍ**».

وَفِي خُطْبَتِهِ يَوْمَ النَّحْرِ؛ قَالَ ﷺ: «**لِيُبَلِّغِ الشَّاهِدُ الْغَائِبَ، فَإِنَّ الشَّاهِدَ عَسَى**

---

(١) هو محمد بن إدريس بن العباس بن عثمان بن شافع بن السائب بن عبيد بن عبد يزيد ابن هاشم بن المطلب بن عبد مناف بن قصي بن كلاب بن مرة بن كعب بن لؤي بن غالب، الإمام عالم العصر، ناصر الحديث، فقيه الملة، أبو عبد الله القرشي، ثم المطلبي، الشافعي، المكيُّ، الغزي المولد ولد بغزة سنة خمسين ومائة، فضائلهُ جمة لا تعد، وقد أُلِّفَتْ كُتُبٌ في مناقبه «كآداب الشافعي ومناقبه» لابن أبي حاتم، و«مناقب الشافعي» للبيهقي، وكذلك للفخر الرازي ولابن كثير، ومات رحمه الله في آخر يوم من رجب سنة أربع ومائتين، وفيها أرَّخه غير واحد. راجع: «سير أعلام النبلاء» (١٥٣٨)، و«تهذيب التهذيب» (٩/ ٢٥)، و«الثقات» (٩/ ٣٠).

(٢) أخرجه أحمد (١/ ٤٣٧)،والحميديُّ في «مسنده» (٨٨) ط الفكر، والترمذيُّ، كتاب العلم، باب ما جاء في الحث على تبليغ السماع (٢٦٥٧، ٢٦٥٨) وقال: «حسن صحيح» ط الحديث، وابن ماجه، في المقدمة، باب من بلغ علمًا (٢٣٢)، والشاشيُّ في «مسنده» (٢٧٥- ٢٧٨) ط العلوم والحكم، وابن أبي شيبة في «مصنفه» (١/ ٢٠٠)، والشافعيُّ في «مسنده» (١١٩٠) ط دار الكتب العلمية بيروت، وأبو نُعيم في «الحلية» (٧/ ٣٣١)، والبيهقيُّ في «الشعب» (١٧٣٨)، وابن حبان في «صحيحه» (٦٦ و٦٩) ط الرسالة، وأبو يعلى في «مسنده» (٥١٢٦)، وصحَّحه الألبانيُّ في «صحيح الجامع» (٦٧٦٤)، و«صحيح الترغيب» (٨٤) ط المكتب الإسلامي.

أَنْ يُبَلِّغَ مَنْ هُوَ أَوْعَى لَهُ مِنْهُ»(١).

وَهَكَذَا تَظَلُّ هَذِهِ الْقَاعِدَةُ الْجَلِيلَةُ بَاقِيَةً خَالِدَةً تَرِنُّ فِي أُذُنِ الزَّمَانِ وَالْأَيَّامِ؛ أَلَا وَهِيَ: لِيُبَلِّغِ الشَّاهِدُ الغائبَ.

وَمِنْهَا: قَوْلُ النَّبِيِّ ﷺ: **«مَنْ دَعَا إِلَى هُدًى، كَانَ لَهُ مِنَ الْأَجْرِ مِثْلُ أُجُورِ مَنْ تَبِعَهُ، لَا يَنْقُصُ ذَلِكَ مِنْ أُجُورِهِمْ شَيْئًا، وَمَنْ دَعَا إِلَى ضَلَالَةٍ، كَانَ عَلَيْهِ مِنَ الْإِثْمِ مِثْلُ آثَامِ مَنْ تَبِعَهُ، لَا يَنْقُصُ ذَلِكَ مِنْ آثَامِهِمْ شَيْئًا»** (٢).

وَمِنْهَا: قَوْلُهُ ﷺ لِعَلِيِّ بْنِ أَبِي طَالِبٍ رضي الله عنه(٣): **«فَوَاللهِ لَأَنْ يَهْدِيَ اللهُ بِكَ رَجُلًا وَاحِدًا خَيْرٌ لَكَ مِنْ حُمْرِ النَّعَمِ»** (٤).

وَهِيَ: الْإِبِلُ النَّفِيسَةُ (٥)؛ **قَالَ ابْنُ حَجَرٍ** رحمه الله (٦): «قِيلَ: الْمُرَادُ خَيْرٌ لَكَ مِنْ

---

(١) أخرجه البخاريُّ، كتاب العلم، باب قول النبيِّ ﷺ: «**رُبَّ مُبَلَّغٍ أَوْعَى مِنْ سَامِعٍ**» (٦٧)، ومسلمٌ، كتاب القسامة، باب تغليظ تحريم الدماء والأعراض والأموال (١٦٧٩) من حديث أبي بكرة رضي الله عنه.

(٢) أخرجه مسلمٌ، كتابُ العلم، باب من سن سنة حسنة أو سيئة (٢٦٧٤) من حديث أبي هريرة رضي الله عنه.

(٣) هو عليُّ بن أبي طالب بن عبد المطلب بن هاشم الهاشمي، يكنى أبا الحسن ابن عم رَسُول الله ﷺ وزوج ابنته، من السابقين الأولين، المرجح أنه أول من أسلم، وهو أحد العشرة، قال ابن إسحاق: أول من آمن بالله وبرَسُوله محمد ﷺ من الرجال علي ابن أبي طالب رضي الله عنه وهو قول ابن شهاب، مات في رمضان سنة أربعين وهو يومئذٍ أفضل الأحياء من بني آدم بالأرض، بإجماع أهل السنة، وله ثلاث وستون على الأرجح.
● راجع: «الاستيعاب» (١٨٦٦)، و«تقريب التهذيب» (٥٣٣٥).

(٤) جزءٌ من حديث طويل؛ أخرجه البخاريُّ، كتاب فضائل الصحابة، باب مناقب على بن أبي طالب رضي الله عنه (٣٧٠١)، ومسلمٌ، كتاب فضائل الصحابة، باب من فضائل علي بن أبي طالب رضي الله عنه (٢٤٠٦) من حديث **سهل بن سعد** رضي الله عنه.

(٥) «شرح مسلم» للنووي (١٥/ ١٧٨).

(٦) «فتح الباري» (٧/ ٤٧٨).

أَنْ تَكُونَ لَكَ، فَتَتَصَدَّقَ بِهَا، وَقِيلَ: تَقْتَنِيهَا، وَتَمْلِكُهَا».

قَالَ النَّوَوِيُّ رحمه الله [(١)]: «وَفِي هَذَا الْحَدِيثِ بَيَانُ فَضِيلَةِ الْعِلْمِ وَالدُّعَاءِ إِلَى الْهُدَى وَسَنِّ السُّنَنِ الْحَسَنَةِ»[(٢)].

يَا لَهُ مِنْ فَضْلٍ عَظِيمٍ لَا يَتَخَلَّى عَنْهُ إِلَّا عَاجِزٌ مَحْرُومٌ؛ فَكُلُّ طَاعَةٍ للهِ عز وجل يَقُومُ بِهَا هَذَا الَّذِي هَدَاهُ اللهُ عَلَى يَدَيْكَ - أَيُّهَا الدَّاعِي - يَثْقُلُ بِهَا مِيزَانُكَ مِنْ حَيْثُ لَا تَدْرِي فِي حَيَاتِكَ؛ بَلْ بَعْدَ مَوْتِكَ! هَذَا هُوَ شَرَفُ الدَّعْوَةِ إِلَى اللهِ عز وجل.

وَهَكَذَا يَتَّضِحُ لَنَا مِنْ خِلَالِ الْأَدِلَّةِ السَّابِقَةِ - الْمُوجَزَةِ- حُكْمُ الدَّعْوَةِ إِلَى اللهِ عز وجل.

يَقُولُ شَيْخُنَا ابْنُ بَازٍ [(٣)] رحمه الله: «وَالدَّعْوَةُ إِلَى اللهِ - سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى- عَلَى

---

(١) هو أبو زكريا يحيى بن شرف بن مُرِّي بن حسن بن حسين بن محمد بن جمعة بن حزام النووي، ولد بنوى سنة إحدى وثلاثين وستمائة، كان إمامًا بارعًا حافظًا متقنًا، أتقن علومًا جمَّة، وصنف التصانيف الكثيرة النافعة المفيدة، والمؤلفات الحميدة، صاحب الأخلاق المرضية، والمحاسن السنية، وترجمته طويلة أفردها تلميذه ابن العطار بالتصنيف، ومن مصنفات هذا الإمام: «رياض الصالحين»، و«الأذكار»، و«المجموع»، و«المنهاج في شرح مسلم»، و«التبيان»، مات ببلدة نوى في رجب سنة سبع وسبعين وستمائة، ودفن بها.

● راجع: «تذكرة الحفاظ» للذهبيِّ (٤/ ١٤٧٠)، و«طبقات الشافعية» لابن قاضي شهبة (٢/ ١٥٣)، و«طبقات» السبكي (٨/ ٣٩٥)، و«شذرات الذهب» لابن العماد (٥/ ٣٥٣)، و«العبر في خبر من غبر» (٥/ ٣١٢).

(٢) «شرح مسلم» (١٥/ ١٧٨ و ١٧٩).

(٣) وترجمته؛ كما قال رحمه الله عن نفسه:

أنا عبد العزيز بن عبد الله بن عبد الرحمن بن محمد بن عبد الله بن باز. ولدتُ بمدينة الرياض في ذي الحجة سنة ١٣٣٠ هـ. وكنتُ بصيرًا في أول الدراسة ثم أصابني المرض في عيني عام ١٣٤٦هـ. فضعف بصري بسبب ذلك. ثم ذهب بالكلية في مستهل محرم من عام ١٣٥٠ هـ والحمد لله على ذلك، وأسأل الله - جَلَّ وعَلَا- أن يعوضني عنه بالبصيرة في الدنيا والجزاء الحسن في الآخرة.

=

حَالَيْنِ:

إِحْدَاهُمَا: فَرْضُ عَيْنٍ.

وَالثَّانِيَةُ: فَرْضُ كِفَايَةٍ.

فَهِيَ فَرْضُ عَيْنٍ عِنْدَ عَدَمِ وُجُودِ مَنْ يَقُومُ بِاللَّازِمِ كَالْأَمْرِ بِالْمَعْرُوفِ، وَالنَّهْيِ عَنِ الْمُنْكَرِ إِذَا كُنْتَ فِي بَلَدٍ، أَوْ قَبِيلَةٍ، أَوْ مَنْطِقَةٍ مِنَ الْمَنَاطِقِ لَيْسَ فِيهَا مَنْ يَدْعُو إِلَى اللهِ، وَيَأْمُرُ بِالْمَعْرُوفِ، وَيَنْهَى عَنِ الْمُنْكَرِ، وَأَنْتَ عِنْدَكَ عِلْمٌ؛ فَإِنَّهُ يَجِبُ عَلَيْكَ عَيْنًا أَنْ تَقُومَ بِالدَّعْوَةِ، وَتُرْشِدَ النَّاسَ إِلَى حَقِّ اللهِ، وَتَأْمُرَهُمْ بِالْمَعْرُوفِ، وَتَنْهَاهُمْ عَنِ الْمُنْكَرِ، أَمَّا إِذَا وُجِدَ مَنْ يَقُومُ بِالدَّعْوَةِ، وَيُبَلِّغُ النَّاسَ، وَيُرْشِدُهُمْ؛ فَإِنَّهَا تَكُونُ فِي حَقِّ الْبَاقِينَ الْعَارِفِينَ بِالشَّرْعِ سُنَّةً، لَا فَرْضًا»(١).

ثُمَّ يُبَيِّنُ الشَّيْخُ رَحِمَهُ اللهُ حُكْمَ الدَّعْوَةِ فِي عَصْرِنَا الرَّاهِنِ؛ فَيَقُولُ: «وَنَظَرًا إِلَى انْتِشَارِ الدَّعْوَةِ إِلَى الْمَبَادِئِ الْهَدَّامَةِ، وَإِلَى الْإِلْحَادِ، وَإِنْكَارِ رَبِّ الْعِبَادِ، وَإِنْكَارِ الرِّسَالَاتِ، وَإِنْكَارِ الْآخِرَةِ، وَانْتِشَارِ الدَّعْوَةِ النَّصْرَانِيَّةِ فِي الْكَثِيرِ مِنَ الْبُلْدَانِ، وَغَيْرِ ذَلِكَ مِنَ الدَّعَوَاتِ الْمُضَلِّلَةِ، نَظَرًا إِلَى هَذَا؛ فَإِنَّ الدَّعْوَةَ إِلَى اللهِ عَزَّ وَجَلَّ الْيَوْمَ

=

وقد بدأتُ الدراسة منذ الصغر، وحفظت القرآن الكريم قبل البلوغ، ثم بدأتُ في تلقِّي العلوم الشرعية والعربية على أيدي كثير من علماء الرياض. توليت رئاسة الجامعة الإسلامية في سنة ١٣٩٠هـ. وفي ١٤ / ١٠ / ١٣٩٥ هـ. صدر الأمر الملكي بتعييني في منصب الرئيس العام لإدارات البحوث العلمية والإفتاء والدعوة والإرشاد.

وفي ٢٠ / ١ / ١٤١٤ هـ. صدر الأمر الملكي بتعييني في منصب المفتي العام للمملكة ورئيس هيئة كبار العلماء. وتُوفي رَحِمَهُ اللهُ في ١٥ شوال سنة ١٤٢١هـ.

● راجع: «مجموع فتاوى ابن باز» (١/ ١٠) ط مكتبة المورد، و«فتاوى اللجنة الدائمة» (١/ ٣٠)، ط دار المؤيد.

(١) «من أقوال سماحة الشيخ عبد العزيز بن باز في الدعوة»، إعداد الأخ / زياد بن محمد السعدون، ط دار الوطن (ص ١٤، ١٥)، وانظر أيضًا: «مجموع الفتاوى» لشيخ الإسلام ابن تيمية رَحِمَهُ اللهُ (١٥/ ١٦٥، ١٦٦).

أَصْبَحَتْ فَرْضًا عَامًّا، وَوَاجِبًا عَلَى جَمِيعِ الْعُلَمَاءِ، وَعَلَى جَمِيعِ الْحُكَّامِ الَّذِينَ يَدِينُونَ بِالْإِسْلَامِ، فَرْضٌ عَلَيْهِمْ أَنْ يُبَلِّغُوا دِينَ الله حَسَبَ الطَّاقَةِ وَالْإِمْكَانِ؛ بِالْكِتَابَةِ، وَالْخَطَابَةِ، وَبِالْإِذَاعَةِ، وَبِكُلِّ وَسِيلَةٍ اسْتَطَاعُوا، وَأَلَّا يَتَقَاعَسُوا عَنْ ذَلِكَ؛ فَإِنَّ الْحَاجَةَ بَلِ الضَّرُورَةُ مَاسَّةٌ الْيَوْمَ إِلَى التَّعَاوُنِ، وَالِاشْتِرَاكِ، وَالتَّكَاتُفِ فِي هَذَا الْأَمْرِ الْعَظِيمِ أَكْثَرَ مِمَّا كَانَ قَبْلُ؛ ذَلِكَ لِأَنَّ أَعْدَاءَ الله قَدْ تَكَاتَفُوا، وَتَعَاوَنُوا بِكُلِّ وَسِيلَةٍ لِلصَّدِّ عَنْ سَبِيلِ الله، وَالتَّشْكِيكِ فِي دِينِهِ وَدَعْوَةِ النَّاسِ إِلَى مَا يُخْرِجُهُمْ مِنْ دِينِ الله ﷻ؛ فَوَجَبَ عَلَى أَهْلِ الْإِسْلَامِ أَنْ يُقَابِلُوا هَذَا النَّشَاطَ الْمُلْحِدَ بِنَشَاطٍ إِسْلَامِيٍّ، وَدَعْوَةٍ إِسْلَامِيَّةٍ عَلَى شَتَّى الْمُسْتَوَيَاتِ، وَبِجَمِيعِ الْوَسَائِلِ، وَبِجَمِيعِ الطُّرُقِ الْمُمْكِنَةِ، وَهَذَا مِنْ بَابِ أَدَاءِ مَا أَوْجَبَ الله عَلَى عِبَادِهِ مِنَ الدَّعْوَةِ إِلَى سَبِيلِهِ» (١).

وَمَعَ كُلِّ هَذَا نَرَى سَلْبِيَّةً قَاتِلَةً عِنْدَ الْكَثِيرِينَ انْطِلَاقًا مِنْ فَهْمٍ مَغْلُوطٍ مَقْلُوبٍ لِقَوْلِ الله ﷻ: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ عَلَيۡكُمۡ أَنفُسَكُمۡۖ لَا يَضُرُّكُم مَّن ضَلَّ إِذَا ٱهۡتَدَيۡتُمۡ ﴾ [المائدة: ١٠٥].

وَقَدْ خَشِيَ الصِّدِّيقُ رضي الله عنه (٢)- مِنْ قَبْلُ- هَذِهِ السَّلْبِيَّةَ النَّاتِجَةَ عَنْ هَذَا الْفَهْمِ الْخَاطِئِ، فَقَامَ فِي النَّاسِ خَطِيبًا؛ لِيُوَضِّحَ لَهُمُ الْمَعْنَى الصَّحِيحَ لِهَذِهِ الْآيَةِ

---

(١) «من أقوال سماحة الشيخ ابن باز في الدعوة» (ص: ١٨) بتصرفٍ يسيرٍ.

(٢) هو عبد الله بن عثمان بن عامر بن عمرو بن كعب بن سعد بن تيم بن مرة بن كعب بن لؤي بن غالب بن فهر بن مالك القرشيُّ التميميُّ؛ أبو بكر الصديق بن أبي قحافة، خليفة رَسُول الله ﷺ، أمُّه أمُّ الخير سلمى بنت صخر بن عامر ابنة عم أبيه، ولد بعد الفيل بسنتين وستة أشهر صحب النبيَّ ﷺ قبل البعثة، وسبق إلى الإيمان به، واستمر معه طول إقامته بمكة، ورافقه في الهجرة وفي الغار، وفي المشاهد كلِّها إلى أن مات، وكانت الراية معه يوم تبوك، وحج في الناس في حياة رَسُول الله ﷺ سنة تسع، واستقر خليفة في الأرض بعده، ولقبه المسلمون خليفة رَسُول الله، وكانت وفاته يوم الاثنين في جمادى الأول سنة ثلاث عشر من الهجرة، وهو ابن ثلاث وستين سنة.

● راجع: «الإصابة» (٤/ ١٣٦ - ١٤١)، و«الاستيعاب» (٧٧٦، ٧٧٧).

الْكَرِيمَةِ، فَحَمِدَ الله، وَأَثْنَى عَلَيْهِ، ثُمَّ قَالَ: أَيُّهَا النَّاسُ، إِنَّكُمْ تَقْرَءُونَ هَذِهِ الْآيَةَ: ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ عَلَيْكُمْ أَنفُسَكُمْ لَا يَضُرُّكُم مَّن ضَلَّ إِذَا ٱهْتَدَيْتُمْ﴾ وَإِنَّكُمْ تَضَعُونَهَا فِي غَيْرِ مَوْضِعِهَا، وَإِنِّي سَمِعْتُ رَسُولَ الله ﷺ يَقُولُ: «**إِنَّ النَّاسَ إِذَا رَأَوُا الْمُنْكَرَ، وَلَا يُغَيِّرُونَهُ يُوشِكُ الله ﷻ أَنْ يَعُمَّهُمْ بِعِقَابِهِ**».

وَفِي رِوَايَةٍ صَحِيحَةٍ أُخْرَى قَالَ: «**إِنَّ النَّاسَ إِذَا رَأَوُا الظَّالِمَ، فَلَمْ يَأْخُذُوا عَلَى يَدَيْهِ؛ أَوْشَكَ أَنْ يَعُمَّهُمُ الله بِعِقَابٍ مِنْهُ**» (١).

فَالْوَاجِبُ عَلَى الْمُسْلِمِ أَنْ يَأْمُرَ بِالْمَعْرُوفِ، وَأَنْ يَنْهَى عَنِ الْمُنْكَرِ حَسَبَ اسْتِطَاعَتِهِ وَقُدْرَتِهِ؛ فَإِنْ لَمْ يَسْتَجِبْ لَهُ النَّاسُ فِي هَذِهِ الْحَالَةِ فَلَا ضَيْرَ يَلْحَقُهُ مِنْ تَقْصِيرِ غَيْرِهِ - إِنْ شَاءَ الله- لِأَنَّهُ حِينَئِذٍ يَكُونُ قَدْ أَدَّى الْوَاجِبَ الَّذِي عَلَيْهِ.

وَيُعَلِّقُ شَيْخُ الْإِسْلَام وَحَسَنَةُ الْأَيَّام- ابْنُ تَيْمِيَّةَ- عَلَى هَذِهِ الْآيَةِ السَّابِقَةِ؛ فَيَقُولُ: «وَالِاهْتِدَاءُ إِنَّمَا يَتِمُّ بِأَدَاءِ الْوَاجِبِ؛ فَإِذَا قَامَ الْمُسْلِمُ بِمَا يَجِبُ عَلَيْهِ مِنَ الْأَمْرِ بِالْمَعْرُوفِ، وَالنَّهْيِ عَنِ الْمُنْكَرِ كَمَا قَامَ بِغَيْرِهِ مِنَ الْوَاجِبَاتِ لَمْ يَضُرَّهُ ضَلَالُ الضُّلَّالِ، وَذَلِكَ يَكُونُ تَارَةً بِالْقَلْبِ، وَتَارَةً بِاللِّسَانِ، وَتَارَةً بِالْيَدِ. فَأَمَّا الْقَلْبُ فَيَجِبُ بِكُلِّ حَالٍ إِذْ لَا ضَرَرَ فِي فِعْلِهِ، وَمَنْ لَمْ يَفْعَلْهُ فَلَيْسَ بِمُؤْمِنٍ؛ كَمَا قَالَ النَّبِيُّ ﷺ: «**وَذَلِكَ أَضْعَفُ الْإِيمَانِ**» (٢).

---

(١) أخرجه أحمد (١/ ٢، ٥، ٧، ٥٣)، والحميديُّ (٣)، وعبد بن حميد في «المنتخب» (١) ط مكتبة ابن عباس، وأبو داود، كتاب الملاحم، باب الأمر والنهي (٤٣٣٨)، والترمذيُّ، كتاب الفتن، باب ما جاء في نزول العذاب إذا لم يغير المنكر (٢١٦٨)، وقال: «صحيح»، وفي كتاب تفسير القرآن (٣٠٧٥)، وقال: «حسن صحيح»، وابن ماجه، كتاب الفتن، باب الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر (٤٠٠٥)، والنسائيُّ في «الكبرى» (١١٠٩٢) ط العلمية بيروت، وصحَّحه الألبانيُّ في «الصحيحة» (١٥٦٤).

(٢) أخرجه مسلمٌ، كتاب الإيمان، باب بيان كون النهي عن المنكر من الإيمان وأن الإيمان يزيد وينقص (٤٩) من حديث أبي سعيد الخدري رضي الله عنه.

وَقَالَ: «وَلَيْسَ وَرَاءَ ذَلِكَ مِنَ الْإِيمَانِ حَبَّةُ خَرْدَلٍ» (١).

وَقِيلَ لِابْنِ مَسْعُودٍ رضي الله عنه: مَنْ مَيِّتُ الْأَحْيَاءِ؟ فَقَالَ: «الَّذِي لَا يَعْرِفُ مَعْرُوفًا، وَلَا يُنْكِرُ مُنْكَرًا»(٢).

وَهُنَا يَغْلَطُ فَرِيقَانِ مِنَ النَّاسِ: فَرِيقٌ يَتْرُكُ مَا يَجِبُ مِنَ الْأَمْرِ وَالنَّهْيِ تَأْوِيلًا لِهَذِهِ الْآيَةِ(٣)، وَالْفَرِيقُ الثَّانِي: مَنْ يُرِيدُ أَنْ يَأْمُرَ وَيَنْهَى؛ إِمَّا بِلِسَانِهِ، وَإِمَّا بِيَدِهِ مُطْلَقًا مِنْ غَيْرِ فِقْهٍ، وَحِلْمٍ، وَصَبْرٍ، وَنَظَرٍ فِيمَا يَصْلُحُ مِنْ ذَلِكَ، وَمَا لَا يَصْلُحُ وَمَا يَقْدِرُ عَلَيْهِ، وَمَا لَا يَقْدِرُ عَلَيْهِ؛ فَإِنَّ الْأَمْرَ وَالنَّهْيَ وَإِنْ كَانَ مُتَضَمِّنًا لِتَحْصِيلِ مَصْلَحَةٍ، وَدَفْعِ مَفْسَدَةٍ، فَيُنْظَرُ فِي الْمُعَارِضِ لَهُ، فَإِنْ كَانَ الَّذِي يَفُوتُ مِنَ الْمَصَالِحِ أَوْ يَحْصُلُ مِنَ الْمَفَاسِدِ أَكْثَرَ لَمْ يَكُنْ مَأْمُورًا بِهِ؛ بَلْ يَكُونُ مُحَرَّمًا إِذَا كَانَتْ مَفْسَدَتُهُ أَكْثَرَ مِنْ مَصْلَحَتِهِ، وَيَكُونُ الْأَمْرُ بِذَلِكَ الْمَعْرُوفِ الْمُسْتَلْزِمِ لِلْمُنْكَرِ الزَّائِدِ عَلَيْهِ أَمْرًا بِمُنْكَرٍ، وَسَعْيًا فِي مَعْصِيَةِ اللهِ وَرَسُولِهِ» (٤) ا. هـ.

هَذَا - بِإِيجَازٍ- هُوَ حُكْمُ هَذِهِ التَّبِعَةِ الثَّقِيلَةِ، وَهَذَا الشَّرَفِ الْكَبِيرِ فِي آنٍ؛ فَلْنَكُنْ أَهْلًا لِهَذِهِ الْأَمَانَةِ الْكَبِيرَةِ، وَلْنَتَحَرَّكْ جَمِيعًا كُلٌّ بِحَسَبِ طَاقَاتِهِ وَقُدُرَاتِهِ؛ فَشَتَّانَ شَتَّانَ بَيْنَ زَهْرَةٍ حَقِيقِيَّةٍ تَنْشُرُ أَرِيجَهَا، وَتُطَيِّبُ الْمَكَانَ بِرِيحِهَا وَعَبِيرِهَا،

---

(١) أخرجه مسلمٌ، كتاب الإيمان، باب كون النهي عن المنكر من الإيمان وأن الإيمان يزيد وينقص (٥٠) من حديث ابن مسعود رضي الله عنهما.

(٢) أخرجه ابن أبي شيبة في «مصنفه» (٨/ ٦٦٧)، والبيهقيُّ في «الشعب» (٧٥٩٠ و١٠٦٧٠)، وابن عساكر في «تاريخه» (١٢/ ٢٩٠) ط دار الفكر بيروت، عن حذيفة رضي الله عنه، ولم أجده عن ابن مسعود رضي الله عنهما، وإنما أورده عنه شيخ الإسلام في مصنفاته الأخرى؛ كالاستقامة (٢/ ٢١٢) وغيره، ط جامعة الإمام محمد بن سعود، المدينة.

(٣) أي: آية المائدة: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ عَلَيۡكُمۡ أَنفُسَكُمۡۖ لَا يَضُرُّكُم مَّن ضَلَّ إِذَا ٱهۡتَدَيۡتُمۡ﴾ [المائدة:١٠٥].

(٤) بتصرفٍ من «مجموع الفتاوى» لشيخ الإسلام (٢٨/ ١٢٦ - ١٣٧).

وَبَيْنَ زَهْرَةٍ صِنَاعِيَّةٍ لَا تَحْمِلُ مِنْ عَالَمِ الزُّهُورِ إِلَّا اسْمَهَا!!

وَكَأَنِّي أَنْظُرُ - الْآنَ - إِلَى صِدِّيقِ الْأُمَّةِ أَبِي بَكْرٍ ﷺ وَهُوَ يُرَدِّدُ شَهَادَةَ التَّوْحِيدِ بَيْنَ يَدَيْ رَسُولِ اللهِ ﷺ فِي هُدُوءٍ وَيَقِينٍ دُونَ تَلَعْثُمٍ أَوْ تَرَدُّدٍ!!

وَكَيْفَ يَتَلَعْثَمُ الصِّدِّيقُ - صَاحِبُ الْقَلْبِ الْحَيِّ الْكَبِيرِ - أَوْ يَتَرَدَّدُ، وَهُوَ الَّذِي مَا فَارَقَ صَاحِبَهُ الْأَمِينَ حَيَاتَهُ كُلَّهَا، فَلَمْ يَرَهُ كَذَبَ مَرَّةً، أَوْ خَانَ أَمَانَةً، أَوْ أَخْلَفَ وَعْدًا، أَوْ غَدَرَ عَهْدًا قَطُّ!! بَلْ لَقَدْ مَلَأَ شَبَابُهُ رُبُوعَ وَأَرْجَاءَ مَكَّةَ الْمُكَرَّمَةِ شَرَفًا، وَطُهْرًا، وَعِفَّةً، وَكَرَامَةً!!

فَلَمْ تَأْخُذْهُ عَنِ الطُّهْرِ نَزْوَةٌ، وَلَمْ تُنْزِلْهُ عَنْ عَلْيَاءِ الْعَظَمَةِ دَنِيَّةٌ، وَلَمْ تَكُنْ قُرَيْشٌ مُجَامِلَةً لَهُ، أَوْ مُمْتَنَّةً عَلَيْهِ يَوْمَ أَنْ خَلَعَ عَلَيْهِ إِجْمَاعُهَا فِي بَيْتِ اللهِ الْحَرَامِ لَقَبَ «الْأَمِينِ» يَوْمَ أَنْ كَادَتِ الْفِتْنَةُ تَعْصِفُ بِأَشْرَافِهَا!!

فَكَيْفَ يَتَرَدَّدُ أَصْحَابُ الْعُقُولِ النَّيِّرَةِ وَالْقُلُوبِ الْحَيَّةِ الْخَيِّرَةِ فِي تَصْدِيقِ هَذَا الْأَمِينِ الطَّاهِرِ الَّذِي فَاضَتْ طَهَارَتُهُ عَلَى جَمِيعِ الْعَالَمِينَ؟! كَيْفَ يَتَلَعْثَمُ الصِّدِّيقُ ﷺ فِي تَصْدِيقِ صَاحِبِهِ الْأَمِينِ الَّذِي لَمْ يَكْذِبْ عَلَى أَهْلِ الْأَرْضِ قَطُّ! فَهَلْ مِنَ الْمُمْكِنِ أَنْ يَكْذِبَ عَلَى رَبِّ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ؟! إِنَّهُ أَمْرٌ مُسْتَحِيلٌ فِي الْعُقُولِ النَّيِّرَةِ، وَمِنْ يَوْمِهَا بَعْدَ أَنْ شَرَحَ اللهُ صَدْرَهُ لِلْإِسْلَامِ لَمْ يَهْدَأْ لَهُ بَالٌ، وَلَمْ يَقَرَّ لَهُ قَرَارٌ؛ بَلْ لَقَدْ تَحَرَّكَ بِهَذَا النُّورِ يَدْعُو إِلَى اللهِ ﷻ كُلَّ مَنْ يَثِقُ فِي رَجَاحَةِ عُقُولِهِمْ مِنْ أَصْحَابِهِ وَالْمُقَرَّبِينَ إِلَيْهِ - فَإِنَّ الدَّعْوَةَ لَا زَالَتْ فِي طَوْرِهَا السِّرِّيِّ وَلَمْ يَلْبَثْ إِلَّا قَلِيلًا وَقَدْ عَادَ الصِّدِّيقُ الْمُبَارَكُ بِخَمْسَةٍ مِنْ أَشْرَافِ قُرَيْشٍ وَمِنْ سَادَةِ النَّاسِ شَرَحَ اللهُ صُدُورَهُمْ لِلْإِسْلَامِ بِدَعْوَةِ أَبِي بَكْرٍ ﷺ؛ أَتَدْرُونَ مَنْ هُمْ هَؤُلَاءِ الْأَشْرَافُ الْكِرَامُ؟(١)!!

---

(١) راجع: «السيرة» لابن إسحاق؛ كما في «سيرة ابن هشام» (١/ ١٥٦) ط المكتب الثقافي، =

عُثْمَانُ بْنُ عَفَّانَ رضي الله عنه[١]، وَالزُّبَيْرُ بْنُ الْعَوَّامِ رضي الله عنه[٢]، وَعَبْدُ الرَّحْمَنِ بْنُ عَوْفٍ رضي الله عنه[٣]،

=

و«زاد المعاد» لابن القيم (٣/ ١٩)، و«الثقات» لابن حبان (١/ ٥٣).

(١) هو عثمان بن عفان بن أبي العاص بن أمية بن عبد شمس بن عبد مناف بن قصي القرشيُّ الأمويُّ، أمير المؤمنين، أمه أروى بنت كريز بن ربيعة بن حبيب بن عبد شمس أسلمت، وأمها البيضاء بنت عبد المطلب عمة رَسُول الله ﷺ، ولد بعد الفيل بست سنين على الصحيح، أسلم قديمًا، وَزَوَّجَ النبيُّ ﷺ ابنته رقية من عثمان، وماتت عنده في أيام بدر، فزوجه بعدها أختها أم كلثوم، فلذلك كان يلقب ذا النورين، وهو من العشرة المبشرين بالجنة، وشهد له النبيُّ ﷺ بالشهادة، قتل صابرًا محتسبًا يوم الجمعة لثمان عشرة خلت من ذي الحجة بعد العصر، ودُفن ليلة السبت بين المغرب والعشاء في حش كوكب، وقتل وهو ابن اثنتين وثمانين سنة.

● انظر: «الإصابة» (٥٤٦٤)، و«الاستيعاب» (١٧٩٠).

(٢) هو الزبير بن العوام بن خويلد بن أسد بن عبد العزى بن قصي بن كلاب القرشي الأسدي، أبو عبد الله، حواري رَسُول الله ﷺ، وابن عمته، أمه صفية بنت عبد المطلب، أحد العشرة المشهود لهم بالجنة، من السابقين الأولين إلى الإسلام، أسلم وهو ابن خمس عشرة سنة، وهاجر الهجرتين، قتل في جمادى الأولى سنة ست وثلاثين، وله ست أو سبع وستون سنة، وكان الذي قتله رجُلٌ من بني تميم، يقال له: عمرو بن جرموز قتله غدرًا بمكان يقال له: وادي السباع، وكان سِنُّهُ يوم قتل سبعًا وستين أو ستًّا وستون.

● انظر: «الإصابة» (٢/ ٤٦٨ ــ ٤٧١)، و«الاستيعاب» (٨٠٢).

(٣) هو عبد الرحمن بن عوف بن عبد عوف بن عبد الحارث بن زهرة بن كلاب بن مرة بن كعب بن لؤي القرشي الزهري، يكنى أبا محمد، أحد العشرة المشهود لهم بالجنة، ولد بعد الفيل بعشر سنين، أسلم قديمًا، وهاجر الهجرتين، وشهد بدرًا وسائر المشاهد، مات سنة إحدى وثلاثين، وقيل: اثنتين، وهو الأشهر، وعاش اثنتين وسبعين سنة، وقيل: ثمانيًا وسبعين، والأول أثبت، ودفن بالبقيع، وصلى عليه عثمان، ويقال: الزبير بن العوام؛ انظر: «الإصابة» (٥١٩٥)، و«الاستيعاب» (١٤٥٣).

وَسَعْدُ بْنُ أَبِي وَقَّاصٍ رضي الله عنه (١)، وَطَلْحَةُ بْنُ عُبَيْدِ اللهِ رضي الله عنه (٢).

اللهُ أَكْبَرُ!! هَؤُلَاءِ الْأَعْلَامُ الْأَطْهَارُ مَرَّةً وَاحِدَةً! إِنَّهَا أُولَى بَرَكَاتِ الدَّعْوَةِ إِلَى اللهِ عز وجل.

لِأَنَّهَا دَعْوَةُ الْحَقِّ الَّذِي يَدْمَغُ الْبَاطِلَ، وَدَعْوَةُ النُّورِ الَّذِي يُبَدِّدُ الظَّلْمَاءَ، وَدَعْوَةُ الْهُدَى الَّذِي يُذْهِبُ الضَّلَالَ.

فَلْنَتَحَرَّكْ لِدِينِ اللهِ، وَلِدَعْوَةِ اللهِ عز وجل، وَإِنِ ابْتُلِينَا، وَأُوذِينَا، وَضُيِّقَ عَلَيْنَا؛ هَيَّا لِنَسِيرَ عَلَى نَفْسِ الطَّرِيقِ الَّذِي سَارَ عَلَيْهِ مِنْ قَبْلُ نُوحٌ، وَإِبْرَاهِيمُ، وَمُوسَى، وَعِيسَى، وَمُحَمَّدٌ، وَإِخْوَانُهُمْ مِنَ الْأَنْبِيَاءِ وَالْمُرْسَلِينَ، هَيَّا لِنَحُوزَ هَذَا الشَّرَفَ الْكَبِيرَ، وَالْفَضْلَ الْجَزِيلَ ﴿وَمَنْ أَحْسَنُ قَوْلًا مِّمَّن دَعَآ إِلَى ٱللَّهِ وَعَمِلَ صَٰلِحًا وَقَالَ إِنَّنِى مِنَ ٱلْمُسْلِمِينَ﴾ [فصلت:٣٣].

وَلْنُعْلِنَ فِي وَجْهِ الْبَاطِلِ الَّذِي أَعْلَنَ عَنْ دَعْوَتِهِ فِي تَبَجُّحٍ وَاسْتِعْلَاءٍ؛ بَلْ

---

(١) هو سعد بن مالك بن أهيب بن عبد مناف بن زهرة بن كلاب القرشي الزهري، يكنى: أبا إسحاق بن أبي وقاص أحد العشرة وآخرهم موتًا، أمه حمنة بنت سفيان بن أمية بنت عم أبي سفيان بن حرب بن أمية، وكان أحد الفرسان، وهو أول من رمى بسهم في سبيل الله، وكان مجاب الدعوة مشهورًا بذلك، مات سنة إحدى وخمسين، وقيل: ست، وقيل: سبع، وقيل: ثمان، والثاني أشهر، ومات بالعقيق، وحُمل إلى المدينة، فصُلِّي عليه في المسجد، قال الواقديُّ: أثبت ما قيل في وفاته أنها سنة خمس وخمسين، وهو ابن بضع وسبعين سنة، وقال أبو نعيم: مات سنة ثمان وخمسين، وهو ابن بضع وسبعين سنة؛ انظر «الإصابة» (٣٢٠٢)، و«الاستيعاب» (٩٢٠).

(٢) هو طلحة بن عبيد الله بن عثمان بن عمرو بن كعب بن سعد بن تميم بن مرة بن كعب ابن لؤي بن غالب القرشي التميمي أبو محمد، أحد العشرة وهو ممن قضى نحبه، قتل وهو ابن ستين سنة، وقيل: اثنين، وقيل: أربع وستين يوم الجمل لعشر خلون من جمادى الآخرة سنة ست وثلاثين، وكان ذلك يوم الخميس؛ انظر: «الإصابة» (٤٢٨٤)، و«الاستيعاب» (١٢٧٨).

وَفَخْرٍ وَخُيَلَاءَ!! فَنُعْلِنَ لَهُ دَعْوَتَنَا فِي عِزَّةٍ وَإِبَاءٍ، وَنَقُولَ بِمِلْءِ أَفْوَاهِنَا: هَذِهِ دَعْوَتُنَا دَعْوَةُ الرُّسُلِ وَالْأَنْبِيَاءِ، دَعْوَةٌ لَا تُمَالِئُ حَاكِمًا، وَلَا تُنَافِقُ ظَالِمًا، وَلَا تَتَعَايَشُ مَعَ كُلِّ قِيَمِ الْبَاطِلِ الزَّائِفَةِ!!

فَهَيَّا لِنَتَحَرَّكْ جَمِيعًا لِلدَّعْوَةِ إِلَى اللهِ ﷻ فِي اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ فِي كُلِّ مَكَانٍ؛ فِي الْمَسْجِدِ، فِي الْبَيْتِ، فِي الْمَصْنَعِ، فِي الشَّارِعِ، فِي الْمَدْرَسَةِ، فِي السُّوقِ، فِي الْمَتْجَرِ، فِي كُلِّ مَكَانٍ، فَنَحْنُ جَمِيعًا رُكَّابُ سَفِينَةٍ وَاحِدَةٍ، إِنْ نَجَتْ نَجَوْنَا جَمِيعًا، وَإِنْ غَرِقَتْ غَرِقْنَا جَمِيعًا؛ كَمَا فِي حَدِيثِ النُّعْمَانِ بْنِ بَشِيرٍ[1] ؓ أَنَّ النَّبِيَّ ﷺ قَالَ: **«مَثَلُ الْقَائِمِ عَلَى حُدُودِ اللهِ وَالْوَاقِعِ فِيهَا؛ كَمَثَلِ قَوْمٍ اسْتَهَمُوا عَلَى سَفِينَةٍ؛ فَأَصَابَ بَعْضُهُمْ أَعْلَاهَا وَبَعْضُهُمْ أَسْفَلَهَا، فَكَانَ الَّذِينَ فِي أَسْفَلِهَا إِذَا اسْتَقَوْا مِنَ الْمَاءِ مَرُّوا عَلَى مَنْ فَوْقَهُمْ؛ فَقَالُوا: لَوْ أَنَّا خَرَقْنَا فِي نَصِيبِنَا خَرْقًا، وَلَمْ نُؤْذِ مَنْ فَوْقَنَا، فَإِنْ يَتْرُكُوهُمْ وَمَا أَرَادُوا هَلَكُوا جَمِيعًا، وَإِنْ أَخَذُوا عَلَى أَيْدِيهِمْ نَجَوْا، وَنَجَوْا جَمِيعًا»**[2].

وَوَاقِعُ الْبَشَرِيَّةِ - الْآنَ- يَفْرِضُ عَلَى أُمَّةِ الدَّعْوَةِ وَالْبَلَاغِ أَنْ تَتَحَرَّكَ وَتَتَحَمَّلَ مَسْئُولِيَّاتِهَا بِصِدْقٍ وَأَمَانَةٍ بَعْدَ أَنْ وَقَعَتْ فِي تَقْصِيرٍ شَدِيدٍ مَرَّتَيْنِ، مَرَّةً حِينَ ابْتَعَدَتْ - هِيَ- كَثِيرًا عَنْ مَنْهَجِ اللهِ وَرَسُولِهِ، وَأَضْحَتْ عَاجِزَةً عَنِ الدَّعْوَةِ إِلَى اللهِ عَلَى أَرْضِ الْوَاقِعِ بِأَخْلَاقِهَا، وَسُلُوكِهَا، وَتَقَدُّمِهَا، وَإِبْدَاعِهَا، وَإِنْتَاجِهَا، وَقَصَّرَتْ مَرَّةً أُخْرَى فِي دَعْوَةِ أَهْلِ الْأَرْضِ إِلَى دِينِ اللهِ - جَلَّ وَعَلَا- بِالْحِكْمَةِ الْبَالِغَةِ، وَالْمَوْعِظَةِ الْحَسَنَةِ.

وَإِلَّا فَمَنْ لِهَؤُلَاءِ الَّذِينَ يَعِيشُونَ فِي الظَّلَامِ إِلَّا مَنْ يَحْمِلُونَ مَشَاعِلَ النُّورِ!!

---

(١) هو النعمان بن بشير بن سعد بن ثعلبة بن خلاس بن زيد الأنصاري الخزرجي، قال الواقدي: كان أول مولود في الإسلام من الأنصار بعد الهجرة بأربعة عشر شهرًا، سكن الشام، ثم ولي إمرة الكوفة، ثم قتل بحمص سنة خمس وستين وله أربع وستون سنة.
● انظر: «التقريب» (٨٠٥٥)، و«الإصابة» (٨٧٤٨)، و«الاستيعاب» (١٦٢١).

(٢) أخرجه البخاريُّ، كتاب الشركة، باب هل يقرع في القسمة؟ (٢٤٩٣، ٢٦٨٦).

وَمَنْ لِهَؤُلَاءِ الَّذِينَ انْحَرَفُوا عَنِ الْهُدَى إِلَّا مَنْ مَنَّ اللهُ عَلَيْهِمْ بِمَصَادِرِ الْهُدَى مِنَ الْقُرْآنِ وَالسُّنَّةِ!!! نَعَمْ.. الْبَشَرِيَّةُ تَحْتَاجُ - جِدًّا- لِهَذَا النُّورِ وَالْهُدَى.

فَهِيَ تَهْذِي كَالسَّكْرَانِ، وَتَضْحَكُ كَالْمَجْنُونِ، وَتَجْرِي كَالْمُطَارَدِ، تَئِنُّ مِنَ الْأَلَمِ، وَقَدْ أَحْرَقَهَا لَفْحُ الْهَاجِرَةِ الْقَاتِلُ، وَأَرْهَقَهَا طُولُ الْمَشْيِ فِي التِّيهِ وَالظَّلَامِ، وَأَضْنَاهَا السَّيْرُ فِي طَرِيقِ الضَّلَالِ، حُرِمَتْ مِنَ الْأَمْنِ، وَرَاحَتْ تَبْحَثُ عَنْهُ وَسْطَ الرُّكَامِ؛ رَغْمَ كَثْرَةِ الْوَسَائِلِ الْأَمْنِيَّةِ الْحَدِيثَةِ، وَالتَّخْطِيطِ الْعِلْمِيِّ وَالنَّفْسِيِّ لِمُحَارَبَةِ الْجَرِيمَةِ!

وَحُرِمَتْ مِنْ رَاحَةِ الضَّمِيرِ، وَانْشِرَاحِ الصَّدْرِ، وَطُمَأْنِينَةِ النَّفْسِ؛ رَغْمَ كَثْرَةِ الْوَسَائِلِ الْعِلْمِيَّةِ وَالطِّبِّيَّةِ الْحَدِيثَةِ!!

نَعَمْ؛ تَعِيشُ فِي ضِيقٍ وَنَكَدٍ رَغْمَ كَثْرَةِ الْحَدَائِقِ الْغَنَّاءِ، وَالْبَسَاتِينِ الْخَضْرَاءِ، تَعِيشُ فِي ضَنْكٍ وَفَقْرٍ رَغْمَ كَثْرَةِ الْأَسْوَاقِ، وَضَخِّ الْمِلْيَارَاتِ مِنَ الدُّولَارَاتِ؛ فَكَثِيرٌ مِنَ النَّاسِ يَمُوتُ جُوعًا، وَكَثِيرٌ يَفْتَرِشُ الْأَرْضَ، وَيَلْتَحِفُ السَّمَاءَ!!

قَدْ تَمْلِكُ مِنَ الْمَادِّيَّاتِ كُلَّ شَيْءٍ، وَهِيَ فِي الْحَقِيقَةِ قَدْ فَقَدَتْ كُلَّ شَيْءٍ؛ حِينَ أَعْرَضَتْ عَنْ مَنْهَجِ اللهِ، وَانْحَرَفَتْ عَنْ طَرِيقِ رَسُولِ اللهِ ﷺ؛ قَالَ تَعَالَى: ﴿فَمَنِ ٱتَّبَعَ هُدَاىَ فَلَا يَضِلُّ وَلَا يَشْقَىٰ ﴿١٢٣﴾ وَمَنْ أَعْرَضَ عَن ذِكْرِى فَإِنَّ لَهُۥ مَعِيشَةً ضَنكًا وَنَحْشُرُهُۥ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ أَعْمَىٰ ﴿١٢٤﴾ قَالَ رَبِّ لِمَ حَشَرْتَنِىٓ أَعْمَىٰ وَقَدْ كُنتُ بَصِيرًا ﴿١٢٥﴾ قَالَ كَذَٰلِكَ أَتَتْكَ ءَايَٰتُنَا فَنَسِيتَهَا ۖ وَكَذَٰلِكَ ٱلْيَوْمَ تُنسَىٰ ﴿١٢٦﴾ وَكَذَٰلِكَ نَجْزِى مَنْ أَسْرَفَ وَلَمْ يُؤْمِنۢ بِـَٔايَٰتِ رَبِّهِۦ ۚ وَلَعَذَابُ ٱلْـَٔاخِرَةِ أَشَدُّ وَأَبْقَىٰٓ﴾ [طه:١٢٣- ١٢٧].

وَهَذَا الْوَاقِعُ الْأَلِيمُ يُحَتِّمُ عَلَى أُمَّةِ الدَّعْوَةِ وَالْبَلَاغِ أَنْ تَنْهَضَ بِرِسَالَتِهَا، وَأَنْ تُجَيِّشَ طَاقَاتِهَا؛ لِدَعْوَةِ الْبَشَرِيَّةِ إِلَى اللهِ بِمَنْهَجِ رَسُولِ اللهِ ﷺ؛ بَعِيدًا عَنِ الْمَنَاهِجِ الدَّعَوِيَّةِ الْمُنْحَرِفَةِ- تَنْظِيرًا وَتَطْبِيقًا- الَّتِي أَسَاءَتْ إِلَى مَنْهَجِنَا الدَّعَوِيِّ الرَّبَّانِيِّ مِنْ نَاحِيَةٍ، وَصَدَّتْ كَثِيرًا مِنَ النَّاسِ عَنِ الْحَقِّ مِنْ نَاحِيَةٍ أُخْرَى!!

فَلَا رَيْبَ أَنَّ الْحَقَّ مَعَنَا، وَلَكِنَّنَا لَمْ نُحْسِنْ - إِلَى الْآنَ- أَنْ نَشْهَدَ لِهَذَا الْحَقِّ

شَهَادَةً عَمَلِيَّةً خُلُقِيَّةً سُلُوكِيَّةً، وَلَمْ نُحَوِّلْهُ- بَعْدُ- فِي حَيَاتِنَا إِلَى وَاقِعٍ عَمَلِيٍّ، وَمَنْهَجِ حَيَاةٍ، وَلَمْ نُحْسِنْ أَنْ نُبَلِّغَ – هَذَا- الْحَقَّ لِأَهْلِ الْأَرْضِ بِحَقٍّ.

وَإِنَّ الْبَاطِلَ مَعَ غَيْرِنَا؛ لَكِنَّهُ يُجِيدُ أَنْ يُلْبِسَ الْبَاطِلَ ثَوْبَ الْحَقِّ، وَيَصِلَ بِالْبَاطِلِ إِلَى حَيْثُ يَنْبَغِي أَنْ يَصِلَ الْحَقُّ، وَهُنَا يَنْزَوِي حَقُّنَا وَيَضْعُفُ كَأَنَّهُ مَغْلُوبٌ، وَيَنْتَفِخُ الْبَاطِلُ وَيَنْتَفِشُ كَأَنَّهُ غَالِبٌ، وَهُنَا نَتَأَلَّمُ لِحَقِّنَا الَّذِي ضَعُفَ وَانْزَوَى، وَلِلْبَاطِلِ الَّذِي انْتَفَخَ وَانْتَفَشَ؛ فَنُعَبِّرُ عَنْ أَلَمِنَا - هَذَا - بِصُورَةٍ مِنْ صُورَتَيْنِ لَا ثَالِثَ لَهُمَا:

إِمَّا أَنْ نُعَبِّرَ عَنْ أَلَمِنَا بِصُورَةٍ مَكْبُوتَةٍ سَلْبِيَّةٍ مَهْزُومَةٍ؛ فَنَزْدَادَ هَزِيمَةً نَفْسِيَّةً عَلَى هَزِيمَتِنَا، وَانْعِزَالًا عَنِ الْمُجْتَمَعِ وَالْعَالَمِ!!

وَإِمَّا أَنْ نُعَبِّرَ بِصُورَةٍ مُتَشَنِّجَةٍ مُنْفَعِلَةٍ؛ بَلْ صَاخِبَةٍ؛ بَلْ - رُبَّمَا- دَمَوِيَّةٍ؛ فَنَخْسَرَ الْحَقَّ مَرَّةً بَعْدَ مَرَّةٍ - حَتَّى وَنَحْنُ فِي طَرِيقِنَا لِلذَّوْدِ عَنِ الْحَقِّ - لِأَنَّ أَهْلَ الْأَرْضِ سَيَزْدَادُونَ -حِينَئِذٍ-بُغْضًا لِلْحَقِّ الَّذِي مَعَنَا، وَخَوْفًا مِنْهُ، وَإِصْرَارًا عَلَى الْبَاطِلِ الَّذِي مَعَهُمْ، وَنُصْرَةً لَهُ!!

وَمِنْ هُنَا تَبْرُزُ حَاجَتُنَا - نَحْنُ الْمُسْلِمِينَ خَاصَّةً، وَالْبَشَرِيَّةَ عَامَّةً - إِلَى مَنْهَجِ النَّبِيِّ ﷺ فِي الدَّعْوَةِ إِلَى اللهِ؛ لِأَنَّهُ الْمَنْهَجُ الْأَوْحَدُ الَّذِي يَسْبُرُ أَغْوَارَ النُّفُوسِ، وَيَفْتَحُ الْقُلُوبَ وَالْعُقُولَ لِلسَّمَاعِ عَنِ اللهِ جَلَّ وَعَلَا؛ فَمِنَ الْمُحَالِ أَنْ نُحَقِّقَ ذَلِكَ إِلَّا إِذَا امْتَلَكْنَا مَفَاتِيحَ هَذِهِ النُّفُوسِ الْبَشَرِيَّةِ؛ فَالْحَيَاةُ الْبَشَرِيَّةُ مِنْ خَلْقِ اللهِ، وَلَنْ تُفْتَحَ مَغَالِيقُ فِطْرَتِهَا إِلَّا بِمَفَاتِيحَ مِنْ صُنْعِ اللهِ، وَلَنْ تُعَالَجَ أَمْرَاضُهَا وَعِلَلُهَا إِلَّا بِالدَّوَاءِ الَّذِي يُقَدَّمُ لَهَا مِنَ اللهِ بِيَدِ رَسُولِ اللهِ ﷺ؛ فَنَحْنُ لَا نَتَعَامَلُ مَعَ مَلَائِكَةٍ بَرَرَةٍ، وَلَا مَعَ شَيَاطِينَ مَرَدَةٍ، وَلَا مَعَ أَحْجَارٍ صَلْدَةٍ؛ بَلْ نَتَعَامَلُ مَعَ نُفُوسٍ بَشَرِيَّةٍ؛ فِيهَا الْإِقْبَالُ وَالْإِحْجَامُ، وَالْخَيْرُ وَالشَّرُّ، وَالْحَقُّ وَالْبَاطِلُ، وَالْفُجُورُ وَالتَّقْوَى، وَالْهُدَى وَالضَّلَالُ.

وَلَا سَبِيلَ - مُطْلَقًا- لِفَتْحِ هَذِهِ الْقُلُوبِ، وَإِقْنَاعِ هَذِهِ الْعُقُولِ بِهَذَا الْحَقِّ

الَّذِي مَعَنَا، إِلَّا بِالْمَنْهَجِ النَّبَوِيِّ فِي الدَّعْوَةِ إِلَى اللهِ؛ فَهُوَ مَنْهَجٌ تَوْقِيفِيٌّ، لَيْسَ مِنْ حَقِّ أَيِّ أَحَدٍ يَسْلُكُ طَرِيقَ الدَّعْوَةِ إِلَى اللهِ أَنْ يَحِيدَ عَنْهُ؛ فَاتِّبَاعُ مَنْهَجِهِ ﷺ لَيْسَ تَطَوُّعًا وَلَا اخْتِيَارًا، وَإِنَّمَا هُوَ وَاجِبٌ شَرْعِيٌّ لَا مَفَرَّ مِنْ أَدَائِهِ؛ فَاللهُ مِنْ وَرَائِهِ.

وَسَأُحَاوِلُ- بِإِيجَازٍ شَدِيدٍ- فِي الْفَصْلِ الْقَادِمِ أَنْ أُبَيِّنَ حَاجَةَ الْبَشَرِيَّةِ إِلَى الْمَنْهَجِ النَّبَوِيِّ فِي الدَّعْوَةِ وَالْبَلَاغِ.

❖

المَبْحَثُ الثَّالِثُ
حَاجَةُ البَشَرِيَّةِ إِلَى مَنْهَجِ النَّبِيِّ ﷺ

فِي ظِلِّ هَذَا التَّقَدُّمِ الْعِلْمِيِّ الْمُذْهِلِ الَّذِي بَلَغَتْ فِيهِ الْبَشَرِيَّةُ ذِرْوَتَهُ. فَغَاصَتْ فِي أَعْمَاقِ الْبِحَارِ وَالْأَنْهَارِ وَالْمُحِيطَاتِ؛ بَلْ صَوَّرَتْ لَنَا مَا يَجْرِي فِي الْقَاعِ، وَانْطَلَقَتْ بَعِيدًا بَعِيدًا فِي أَجْوَاءِ الْفَضَاءِ، وَفَجَّرَتِ الذَّرَّةَ، وَاخْتَرَعَتِ الْقُنْبُلَةَ النَّوَوِيَّةَ، وَاكْتَشَفَتْ كَثِيرًا مِنَ الْقُوَى الْكَوْنِيَّةِ الْكَامِنَةِ فِي هَذَا الْوُجُودِ؛ بَلْ حَوَّلَتِ الْعَالَمَ كُلَّهُ إِلَى قَرْيَةٍ صَغِيرَةٍ جِدًّا عَنْ طَرِيقِ هَذَا التَّقَدُّمِ الْمُذْهِلِ فِي وَسَائِلِ الاِتِّصَالَاتِ وَالْمُوَاصَلَاتِ؛ فَمَا يَحْدُثُ هُنَا يُسْمَعُ وَيُرَى هُنَاكَ فِي التَّوِّ وَاللَّحْظَةِ!!

وَفِي وَسَطِ هَذِهِ الثَّوْرَةِ الْعِلْمِيَّةِ الْهَائِلَةِ نَفَخَ كَثِيرٌ مِنْ شَيَاطِينِ الْبَشَرِ فِي عُقُولِ وَقُلُوبِ كَثِيرٍ مِنَ النَّاسِ دَعْوَةَ التَّمَرُّدِ عَلَى شَرِيعَةِ اللهِ، وَعَلَى مَنْهَجِ الْأَنْبِيَاءِ وَالرُّسُلِ؛ بِحُجَّةِ أَنَّ فِي هَذَا الاِنْقِيَادِ لِمَنْهَجِ الْأَنْبِيَاءِ وَالرُّسُلِ حَجْرًا وَامْتِهَانًا لِهَذَا الْعَقْلِ الْبَشَرِيِّ الْجَبَّارِ الَّذِي اسْتَطَاعَ أَنْ يَصِلَ إِلَى مَا وَصَلَ إِلَيْهِ مِنْ هَذَا التَّقَدُّمِ الْعِلْمِيِّ الْمُذْهِلِ! وَبِحُجَّةِ أَنَّ الْبَشَرِيَّةَ وَالْإِنْسَانِيَّةَ قَدْ بَلَغَتْ مَرْحَلَةَ الرُّشْدِ الَّتِي تُؤَهِّلُهَا لِأَنْ تَخْتَارَ لِنَفْسِهَا مِنَ الْمَنَاهِجِ وَالْقَوَانِينِ وَالْأَوْضَاعِ مَا تَشَاءُ!! وَبِحُجَّةٍ ثَالِثَةٍ؛ أَلَا وَهِيَ: أَنَّ مَنَاهِجَ الدِّينِ لَمْ تَعُدْ تُسَايِرُ رُوحَ الْعَصْرِ الْمُتَحَرِّرَةَ الْمُتَحَضِّرَةَ!!

وَنَحْنُ لَا نُنْكِرُ أَنَّ الْبَشَرِيَّةَ قَدْ وَصَلَتْ إِلَى مَرْحَلَةٍ مِنَ التَّقَدُّمِ الْعِلْمِيِّ لَا يُنْكِرُهَا إِلَّا مُكَابِرٌ، وَقَدْ بَلَغَتْ فِي هَذَا الْجَانِبِ الْمَادِّيِّ شَأْنًا بَعِيدًا، وَلَكِنَّنَا لَعَلَى يَقِينٍ جَازِمٍ أَيْضًا أَنَّ الْحَيَاةَ لَيْسَتْ كُلُّهَا مَادَّةً، وَلَا يُمْكِنُ لِطَائِرٍ جَبَّارٍ أَنْ يُحَلِّقَ فِي أَجْوَاءِ الْفَضَاءِ بِجَنَاحٍ وَاحِدٍ! وَحَتَّى إِنْ حَاوَلَ ذَلِكَ وَنَجَحَ لِمُدَّةٍ - وَلَوْ طَالَتْ- فَإِنَّهُ حَتْمًا سَاقِطٌ مُنْكَسِرٌ جَنَاحُهُ الْآخَرُ!!

وَمَنْ أَرَادَ أَنْ يَتعرَّفَ عَلَى حَقِيقَةِ هَذَا الْعَقْلِ الْبَشَرِيِّ الْجَبَّارِ فِي الْجَانِبِ الْآخَرِ، فِي الْجَانِبِ الدِّينِيِّ، وَالرُّوحِيِّ، وَالْإِيمَانِيِّ، وَالْأَخْلَاقِيِّ، وَالسُّلُوكِيِّ، وَالْإِنْسَانِيِّ، مَنْ أَرَادَ أَنْ يَتعرَّفَ عَلَيْهِ بَعِيدًا عَنْ مَنْهَجِ الْأَنْبِيَاءِ وَالرُّسُلِ، فَلْيُرَاجِعْ فِي عُجَالَةٍ إِحْصَائِيَّاتِ الْجَرِيمَةِ بِكُلِّ أَشْكَالِهَا وَصُوَرِهَا فِي هَذَا الْعَالَمِ الْمُتَحَضِّرِ الْمُتَقَدِّمِ- كَمَا زَعَمُوا - لِيَرَى الِانْحِدَارَ الْخُلُقِيَّ السَّحِيقَ، وَلَيْسَ مَا جَرَى فِي الْعِرَاقِ - فِي سِجْنِ «أَبُو غَرِيبٍ»- أَوْ فِي فِلِسْطِينَ عَلَى أَرْضِ غَزَّةَ، أَوْ عَلَى أَرْضِ لُبْنَانَ وَغَيْرِهَا مِنَّا بِبَعِيدٍ!!

فَكَمْ مِنْ عُقُولٍ مُذْهِلَةٍ تَعْرِفُ كُلَّ شَيْءٍ إِلَّا اللهَ، وَتَقْرَأُ كُلَّ شَيْءٍ إِلَّا الْقُرْآنَ، وَتُؤْمِنُ بِكُلِّ شَيْءٍ إِلَّا الْإِسْلَامَ؛ قَالَ تَعَالَى: ﴿ يَعْلَمُونَ ظَـٰهِرًا مِّنَ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَهُمْ عَنِ ٱلْـَٔاخِرَةِ هُمْ غَـٰفِلُونَ ﴾[الروم:٧].

وَقَالَ سُبْحَانَهُ: ﴿ بَلِ ٱدَّٰرَكَ عِلْمُهُمْ فِى ٱلْـَٔاخِرَةِ ۚ بَلْ هُمْ فِى شَكٍّ مِّنْهَا ۖ بَلْ هُم مِّنْهَا عَمُونَ ﴾[النمل:٦٦].

عُقُولٌ مُذْهِلَةٌ مُبْدِعَةٌ فِي جَانِبِ الْإِعْلَامِ وَالِاتِّصَالِ، وَلَكِنَّهَا وَظَّفَتْهُ فِي كَثِيرٍ مِنْ أَشْكَالِهِ وَوَسَائِلِهِ لِبَثِّ الْفَسَادِ وَالتَّطَرُّفِ الْأَخْلَاقِيِّ وَالْفِكْرِيِّ بِصُورَةٍ لَا سَابِقَ لَهَا!!

عُقُولٌ مُذْهِلَةٌ مُبْدِعَةٌ تَصْنَعُ السِّلَاحَ وَوَسَائِلَ التَّدْمِيرِ لَا لِلدِّفَاعِ، بَلْ لِلْإِبَادَةِ الَّتِي تُحِيلُ الْعُمْرَانَ إِلَى خَرَابٍ، وَالْإِنْسَانَ إِلَى أَشْلَاءٍ، ثُمَّ يَتَنَادَى بَعْضُ «الْعُقَلَاءِ!!» مِنْهُمْ بِجَمْعِ الْإِعَانَاتِ لِإِعَادَةِ الْعُمْرَانِ!!

«عُقُولٌ تَعْرِفُ الصِّدْقَ، وَلَكِنْ لِمَا يَجْلِبُ لَهَا مِنْ مَنْفَعَةٍ، فِيهَا الِابْتِسَامَةُ، وَلَكِنْ لِمَنْ تَرْجُوهُ أَوْ تَخَافُ مِنْهُ.. عُقُولٌ أَصْحَابُهَا كَالْحَيَوَانَاتِ فِي الشَّهْوَةِ، وَكَالسِّبَاعِ فِي الْقَسْوَةِ، وَكَالشَّيَاطِينِ فِي مُحَارَبَةِ الْقِيَمِ وَالْكَرَامَةِ.. عُقُولٌ فِي الصِّنَاعَةِ تُعَانِقُ نُجُومَ السَّمَاءِ، وَفِي الْمَبَادِئِ وَالْأَخْلَاقِ تَهْوِي إِلَى قَاعِ الْبِحَارِ، اتَّخَذَتْ مِنَ الْمَرْأَةِ مَرْكَبًا يَطَأُ الْحَيَاءَ وَالطُّهْرَ وَالْعَفَافَ، وَأَوْصَلَتِ الْمَرْأَةَ إِلَى آخِرِ

مَحطَّةٍ لِلرَّذِيلَةِ، فَأَصْبَحَتِ الْمَرْأَةُ دُمْيَةً يَتَسَلَّى بِهَا الرِّجَالُ فِي كُلِّ مَكَانٍ، وَتُرَوَّجُ بِهَا السِّلَعُ، وَتُزَيَّنُ بِهَا الْكُتُبُ وَالصُّحُفُ، وَأَحْيَانًا سَاقِيَةً لِرَجُلٍ ضَائِعٍ، أَوْ مُسَلِّيَةً لِلتَّافِهِينَ فِي أَمَاكِنِ الرَّذِيلَةِ، تَعْرِضُ جِسْمَهَا بِلَا حَيَاءٍ، تُهْدِرُ كَرَامَتَهَا فِي شَبَابِهَا، وَتُرْمَى فِي دُورِ الْعَجَزَةِ فِي آخِرِ عُمُرِهَا.. عُقُولٌ تَنْتَهِكُ كُلَّ حُرْمَةٍ، وَلَا تُفَارِقُ مَائِدَةَ الشَّيْطَانِ فِي اللَّيْلِ وَلَا النَّهَارِ... عُقُولٌ ضَلَّتْ وَأَضَلَّتْ وَاتَّبَعَتِ الْهَوَى، وَقَادَهَا شَيَاطِينُ الْإِنْسِ وَالْجِنِّ إِلَى فَسَادِ الْأَخْلَاقِ؛ وَخَرَابِ الدِّيَارِ، وَظُلْمِ الْعِبَادِ.

نَعَمْ.. إِنَّهَا عُقُولٌ غَابَ عَنْهَا الْحَقُّ؛ فَتَمَرَّغَتْ فِي الْبَاطِلِ، وَلَمْ تَعْرِفِ النُّورَ، فَوَقَعَتْ فِي الظَّلَامِ!!» (١).

هَذَا هُوَ الْعَقْلُ الْبَشَرِيُّ «الْجَبَّارُ!!» فِي الْجَانِبِ الْمَادِّيِّ يَهْوِي إِلَى قَاعِ الرَّذِيلَةِ، وَمُسْتَنْقَعِ الضَّيَاعِ إِذَا انْفَكَّ عَنْ مَنْهَجِ اللهِ عَلَى أَيْدِي أَنْبِيَائِهِ وَرُسُلِهِ.. هَذَا هُوَ الْعَقْلُ الْبَشَرِيُّ إِذَا تَحَدَّى نُورَ الْوَحْيِ الْإِلَهِيِّ.. نَعَمْ؛ فَهَذَا هُوَ الْعَقْلُ الْأَمْرِيكِيُّ (الْجَبَّارُ!!) يُدَمِّرُ فِي الْعِرَاقِ حَضَارَةً عَرِيقَةً مُنْذُ مِئَاتِ السِّنِينَ، وَيَسْفِكُ الدِّمَاءَ، وَيُمَزِّقُ الْأَشْلَاءَ، وَيَتَعَدَّى عَلَى الْأَعْرَاضِ بِاسْمِ الْحُرِّيَّةِ وَالدِّيمُقْرَاطِيَّةِ!!

وَهَذَا هُوَ الْعَقْلُ الرُّوسِيُّ يُنْكِرُ وُجُودَ اللهِ - تَعَالَى- وَشِعَارُهُ: نُؤْمِنُ بِثَلَاثَةٍ: مَارْكِسْ وَلِينِينْ وَسْتَالِينْ؛ وَنَكْفُرُ بِثَلَاثَةٍ: اللهِ، وَالدِّينِ، وَالْمِلْكِيَّةِ الْخَاصَّةِ(٢)!!!

وَهَذَا هُوَ الْعَقْلُ الصِّينِيُّ - الْجَبَّارُ- يُقَدِّمُ الْقَرَابِينَ لِلشَّمْسِ، وَالْقَمَرِ، وَالْكَوَاكِبِ، وَالسَّحَابِ، وَالْجِبَالِ، وَالْمَلَائِكَةِ، وَأَرْوَاحِ الْآبَاءِ وَالْأَجْدَادِ(٣)!!

وَهَذَا هُوَ الْعَقْلُ الْيُونَانِيُّ يُدَافِعُ عَنِ الدَّعَارَةِ! وَهَذَا هُوَ الْعَقْلُ الرُّومَانِيُّ يُدَافِعُ

---

(١) بتصرفٍ من كتاب «الدَّعوة إلى الله» للشيخ محمد بن إبراهيم التويجري (ص ٢٤ - ٢٨)، ط دار الأصالة للثقافة والنشر والإعلام.

(٢) انظر: «الموسوعة الميسرة في الأديان والمذاهب والأحزاب المعاصرة»: الندوة العالمية للشباب الإسلامي، الناشر دار الندوة العالمية ط ثانية (ص: ٣١٠).

(٣) المصدر السابق (ص: ٤٢٣).

عَنْ مُصَارَعَةِ الثِّيرَانِ! وَهَذَا هُوَ الْعَقْلُ الْهِنْدِيُّ يُدَافِعُ عَنْ إِحْرَاقِ الزَّوْجَةِ بَعْدَ مَوْتِ زَوْجِهَا!!

وَهَذَا هُوَ الْعَقْلُ الْهِنْدِيُّ يُدَافِعُ بِحَمَاسٍ عَنْ عِبَادَةِ الْبَقَرَةِ! بَلْ يَقُولُ زَعِيمُهُمُ الْكَبِيرُ «غَانْدِي»: «عِنْدَمَا أَرَى الْبَقَرَةَ لَا أَجِدُنِي أَرَى حَيَوَانًا؛ لِأَنِّي أَعْبُدُ الْبَقَرَةَ، وَسَأُدَافِعُ عَنْ عِبَادَتِهَا أَمَامَ الْعَالَمِ أَجْمَعَ»!!!

وَمَضَى عَابِدُ الْبَقَرِ يَقُولُ: «إِنَّ مَلَايِينَ الْهُنُودِ يَتَّجِهُونَ لِلْبَقَرَةِ بِالْعِبَادَةِ وَالْإِجْلَالِ، وَأَنَا أَعُدُّ نَفْسِي وَاحِدًا مِنْ هَؤُلَاءِ الْمَلَايِينِ»(١)!!

وَفِي مَكَانٍ آخَرَ فِي الْهِنْدِ أَيْضًا تُقَامُ الْمَعَابِدُ الْفَخْمَةُ الضَّخْمَةُ الَّتِي تُقَدَّمُ لَهَا الْقَرَابِينُ، وَتُرْسَلُ لَهَا النُّذُورُ، وَلَكِنْ! أَتَعْلَمُ يَا تُرَى مَا هِيَ الْآلِهَةُ الَّتِي تُعْبَدُ فِي هَذِهِ الْمَعَابِدِ؟! إِنَّهَا الْفِئْرَانُ، نَعَمْ؛ إِنَّهَا الْفِئْرَانُ(٢)!!!

وَهَذَا هُوَ الْعَقْلُ الْعَرَبِيُّ فِي الْجَاهِلِيَّةِ يُدَافِعُ عَنْ وَأْدِ الْبَنَاتِ؛ وَعِبَادَةِ الْأَصْنَامِ؛ قَالَ تَعَالَى: ﴿وَإِذَا ٱلْمَوْءُۥدَةُ سُئِلَتْ ۝٨ بِأَيِّ ذَنۢبٍ قُتِلَتْ﴾ [التكوير:٨، ٩].

بَلْ هَذَا هُوَ الْعَقْلُ الْقَوْمِيُّ وَالْبَعْثِيُّ يُدَافِعُ عَنِ الشِّرْكِ وَالْكُفْرِ بِاسْمِ الْقَوْمِيَّةِ الْعَرَبِيَّةِ!!

فَيَقُولُ قَائِلُهُمْ(٣):

آمَنْتُ بِالْبَعْثِ رَبًّا لَا شَرِيكَ لَهُ ... وَبِالْعُرُوبَةِ دِينًا مَا لَهُ ثَانِي!!

---

(٣) «الرسل والرسالات» (ص: ٣٧، ٣٨) «بتصرف» ط دار النفائس، الطبعة الرابعة.

(٢) المصدر السابق.

(٣) «مجلة البيان» (ص: ٧٨) العدد رقم (١٨٧) تصدر المجلة عن المنتدى الإسلامي، و«الموسوعة الميسرة في الأديان والمذاهب والأحزاب المعاصرة» (ص:٤٨٤).

وَيَقُولُ آخَرُ(١):

هَبُونِي عِيدًا يَجْعَلُ الْعُرْبَ أُمَّةً ... وَسِيرُوا بِجُثْمَانِي عَلَى دِينِ بُرْهَم

سَلَامٌ عَلَى كُفْرٍ يُوَحِّدُ بَيْنَنَا ... وَأَهْلًا وَسَهْلًا بَعْدَهُ بِجَهَنَّم!!

وَلَوْ تَتَبَّعْتُ إِفْرَازَاتِ هَذِهِ الْعُقُولِ لَجَمَعْتُ الْكَثِيرَ، وَلَكِنِّي لَا أُرِيدُ الْإِطَالَةَ، وَإِنَّمَا قَصْدِي الْإِشَارَةُ!!

فَهَذَا هُوَ الْعَقْلُ الْبَشَرِيُّ الَّذِي فَجَّرَ الذَّرَّةَ فِي الْجَانِبِ الْمَادِّيِّ يُفَجِّرُ الْكُفْرَ وَالْإِلْحَادَ وَالزَّنْدَقَةَ فِي الْجَانِبِ الدِّينِيِّ!!

هَذَا هُوَ الْعَقْلُ الْبَشَرِيُّ الَّذِي عَانَقَ نُجُومَ السَّمَاءِ فِي النَّاحِيَةِ الْعِلْمِيَّةِ يَهْوِي إِلَى قَاعِ الرَّذِيلَةِ فِي النَّاحِيَةِ الْأَخْلَاقِيَّةِ!!

هَذَا هُوَ الْعَقْلُ الْبَشَرِيُّ حِينَمَا يَنْفَكُّ عَنْ نُورِ الْوَحْيِ، وَيُعْرِضُ عَنْ مَنْهَجِ الْأَنْبِيَاءِ وَالرُّسُلِ- صَلَوَاتُ اللهِ وَسَلَامُهُ عَلَيْهِمْ- أَجْمَعِينَ.

نَعَمْ؛ لِأَنَّ لِلْعَقْلِ دَوْرَهُ وَقَدْرَهُ، وَنُورُ الْوَحْيِ لَا يَطْمِسُ أَبَدًا نُورَ الْعَقْلِ، كَلَّا؛ بَلْ يُبَارِكُهُ، وَيُقَوِّيهِ، وَيُزَكِّيهِ(٢)؛ شَرِيطَةَ أَنْ يَعْرِفَ الْعَقْلُ حَدَّهُ، وَأَلَّا يَتَعَدَّى قَدْرَهُ، وَأَنْ يُذْعِنَ الْعَقْلُ مَعَ صَحِيحِ النَّقْلِ؛ بَلْ وَأَنْ يَسْجُدَ الْعَقْلُ مَعَ الْكَوْنِ كُلِّهِ للهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ، ثُمَّ لِيَنْطَلِقَ- بَعْدَ ذَلِكَ- مُبْدِعًا فِي مَجَالِهِ عَنْ هُدًى وَيَقِينٍ، وَهُوَ يَعْلَمُ أَنَّ مَا اكْتَشَفَهُ وَوَصَلَ إِلَيْهِ كَانَ مَوْجُودًا مُودَعًا فِي هَذَا الْكَوْنِ مُنْذُ آلَافِ السِّنِينَ، وَلَكِنَّهُ مَا اكْتَشَفَهُ إِلَّا يَوْمَ أَنْ أَذِنَ لَهُ اللهُ أَنْ يُكْشَفَ ﴿سَنُرِيهِمْ ءَايَٰتِنَا فِى ٱلْءَافَاقِ وَفِىٓ أَنفُسِهِمْ حَتَّىٰ يَتَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُ ٱلْحَقُّ ۗ أَوَلَمْ يَكْفِ بِرَبِّكَ أَنَّهُۥ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ شَهِيدٌ﴾ [فصلت:٥٣].

---

(١) «مجلة البيان» (ص: ٥٠) عدد (١٤٥).

(٢) بل العقل شرط في معرفة العلوم، وكمال وصلاح الأعمال، وبه يكمل العلم والعمل؛ كما قال شيخ الإسلام في «مجموع الفتاوى» (٣/ ٣٣٨ و٣٣٩).

وَرَحِمَ اللهُ ابْنَ الْقَيِّمِ؛ حَيْثُ يَقُولُ (١):

لَا يَسْتَقِلُّ الْعَقْلُ دُونَ هِدَايَةٍ ... بِالْوَحْيِ تَأْصِيلًا وَلَا تَفْصِيلَا
كَالطَّرْفِ دُونَ النُّورِ لَيْسَ بِمُدْرِكٍ ... حَتَّى يَرَاهُ بُكْرَةً وَأَصِيلَا
وَإِذَا الظَّلَامُ تَلَاطَمَتْ أَمْوَاجُهُ ... وَطَمِعْتَ بِالْإِبْصَارِ كُنْتَ مُحِيلَا
فَإِذَا النُّبُوَّةُ لَمْ يَنَلْكَ ضِيَاؤُهَا ... فَالْعَقْلُ لَا يَهْدِيكَ قَطُّ سَبِيلَا
نُورُ النُّبُوَّةِ مِثْلُ نُورِ الشَّمْسِ ... لِلْعَيْنِ الْبَصِيرَةِ فَاتَّخِذْهُ دَلِيلَا
طُرُقُ الْهُدَى مَسْدُودَةٌ إِلَّا عَلَى ... مَنْ أَمَّ هَذَا الْوَحْيَ وَالتَّنْزِيلَا
فَإِذَا عَدَلْتَ عَنِ الطَّرِيقِ تَعَمُّدًا ... فَاعْلَمْ بِأَنَّكَ مَا أَرَدْتَ وُصُولَا
يَا طَالِبًا دَرْكَ الْهُدَى بِالْعَقْلِ ... دُونَ النَّقْلِ لَنْ تَلْقَى لِذَاكَ دَلِيلَا

وَبَعْدَ هَذِهِ الكَلِمَاتِ المُهِمَّةِ، نُقَرِّرُ أَنَّ اللهَ - جَلَّ وَعَلَا- وَحْدَهُ هُوَ الَّذِي خَلَقَ الْبَشَرَ، وَهُوَ الَّذِي يَعْلَمُ ضَعْفَهُمْ، وَعَجْزَهُمْ وَفَقْرَهُمْ، وَيَعْلَمُ مَا كَانَ مِنْ أَمْرِهِمْ وَمَا هُوَ كَائِنٌ.. بَلْ مَا سَيَكُونُ إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ؛ لِذَا رَحْمَةً مِنْهُ بِعِبَادِهِ أَرْسَلَ إِلَيْهِمُ الرُّسُلَ مُبَشِّرِينَ وَمُنْذِرِينَ يُذَكِّرُونَهُمْ، وَيُبَصِّرُونَهُمْ، وَيُحَاوِلُونَ اسْتِنْقَاذَ فِطَرِهِمْ، وَتَحْرِيرَ عُقُولِهِمْ مِنْ رُكَامِ الشَّهَوَاتِ وَالشُّبُهَاتِ، وَيَأْخُذُونَ بِأَيْدِيهِمْ إِلَى الْحَقِّ الَّذِي مِنْ أَجْلِهِ قَامَتِ الْأَرْضُ وَالسَّمَوَاتُ.

وَمِنْ ثَمَّ؛ «فَإِنَّهُ لَا سَبِيلَ إِلَى السَّعَادَةِ وَالْفَلَاحِ لَا فِي الدُّنْيَا وَلَا فِي الْآخِرَةِ إِلَّا عَلَى أَيْدِي الرُّسُلِ، وَلَا سَبِيلَ إِلَى مَعْرِفَةِ الطَّيِّبِ وَالْخَبِيثِ عَلَى التَّفْصِيلِ إِلَّا مِنْ جِهَتِهِمْ، وَلَا يُنَالُ رِضَا اللهِ الْبَتَّةَ إِلَّا عَلَى أَيْدِيهِمْ؛ فَالطَّيِّبُ مِنَ الْأَعْمَالِ وَالْأَقْوَالِ وَالْأَخْلَاقِ لَيْسَ إِلَّا هَدْيُهُمْ وَمَا جَاؤُوا بِهِ؛ فَهُمُ الْمِيزَانُ الرَّاجِحُ الَّذِي عَلَى أَقْوَالِهِمْ وَأَخْلَاقِهِمْ تُوزَنُ الْأَخْلَاقُ وَالْأَعْمَالُ، وَبِمُتَابَعَتِهِمْ يَتَمَيَّزُ أَهْلُ الضَّلَالِ؛ فَالضَّرُورَةُ إِلَيْهِمْ أَعْظَمُ مِنْ ضَرُورَةِ الْبَدَنِ إِلَى رُوحِهِ، وَالْعَيْنِ إِلَى نُورِهَا، وَالرُّوحِ

(١) «الصواعق المرسلة» لابن القيم (٣/ ٩٧٩) ط دار العاصمة.

إِلَى حَيَاتِهَا.. فَأَيُّ ضَرُورَةٍ وَحَاجَةٍ فُرِضَتْ؛ فَضَرُورَةُ الْعَبْدِ وَحَاجَتُهُ إِلَى الرُّسُلِ فَوْقَهَا بِكَثِيرٍ..» (١).

وَيَقُولُ شَيْخُ الْإِسْلَامِ ابْنُ تَيْمِيَّةَ رحمه الله (٢): «قَاعِدَةٌ نَافِعَةٌ فِي وُجُوبِ الِاعْتِصَامِ بِالرِّسَالَةِ، وَبَيَانِ أَنَّ السَّعَادَةَ وَالْهُدَى فِي مُتَابَعَةِ الرَّسُولِ ﷺ، وَأَنَّ الضَّلَالَ وَالشَّقَاءَ فِي مُخَالَفَتِهِ، وَأَنَّ كُلَّ خَيْرٍ فِي الْوُجُودِ؛ إِمَّا عَامٌّ، وَإِمَّا خَاصٌّ؛ فَمَنْشَؤُهُ مِنْ جِهَةِ الرَّسُولِ ﷺ، وَأَنَّ كُلَّ شَرٍّ فِي الْعَالَمِ مُخْتَصٌّ بِالْعَبْدِ؛ فَسَبَبُهُ مُخَالَفَةُ الرَّسُولِ ﷺ، أَوِ الْجَهْلُ بِمَا جَاءَ بِهِ، وَأَنَّ سَعَادَةَ الْعِبَادِ فِي مَعَاشِهِمْ وَمَعَادِهِمْ بِاتِّبَاعِ الرِّسَالَةِ.

الرِّسَالَةُ ضَرُورِيَّةٌ لِلْعِبَادِ لَا بُدَّ لَهُمْ مِنْهَا، وَحَاجَتُهُمْ إِلَيْهَا فَوْقَ حَاجَتِهِمْ إِلَى كُلِّ شَيْءٍ، وَالرِّسَالَةُ رُوحُ الْعَالَمِ وَنُورُهُ وَحَيَاتُهُ؛ فَأَيُّ صَلَاحٍ لِلْعَالَمِ إِذَا عَدِمَ الرُّوحَ وَالْحَيَاةَ وَالنُّورَ؟ وَالدُّنْيَا مُظْلِمَةٌ مَلْعُونَةٌ إِلَّا مَا طَلَعَتْ عَلَيْهِ شَمْسُ الرِّسَالَةِ، وَكَذَلِكَ الْعَبْدُ مَا لَمْ تُشْرِقْ فِي قَلْبِهِ شَمْسُ الرِّسَالَةِ، وَيَنَالُهُ مِنْ حَيَاتِهَا وَرُوحِهَا؛ فَهُوَ فِي ظُلْمَةٍ، وَهُوَ مِنَ الْأَمْوَاتِ؛ قَالَ اللهُ - تَعَالَى -: ﴿أَوَمَن كَانَ مَيْتًا فَأَحْيَيْنَٰهُ وَجَعَلْنَا لَهُۥ نُورًا يَمْشِى بِهِۦ فِى ٱلنَّاسِ كَمَن مَّثَلُهُۥ فِى ٱلظُّلُمَٰتِ لَيْسَ بِخَارِجٍ مِّنْهَا ۚ كَذَٰلِكَ زُيِّنَ لِلْكَٰفِرِينَ مَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ﴾ [الأنعام: ١٢٢]؛ فَهَذَا وَصْفُ الْمُؤْمِنِ كَانَ مَيِّتًا فِي ظُلْمَةِ الْجَهْلِ، فَأَحْيَاهُ اللهُ بِرُوحِ الرِّسَالَةِ وَنُورِ الْإِيمَانِ، وَجَعَلَ لَهُ نُورًا يَمْشِي بِهِ فِي النَّاسِ. وَأَمَّا الْكَافِرُ فَمَيِّتُ الْقَلْبِ فِي الظُّلُمَاتِ.

وَسَمَّى اللهُ تَعَالَى رِسَالَتَهُ رُوحًا، وَالرُّوحُ إِذَا عُدِمَ فَقَدْ فُقِدَتِ الْحَيَاةُ؛ قَالَ اللهُ تَعَالَى: ﴿وَكَذَٰلِكَ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ رُوحًا مِّنْ أَمْرِنَا ۚ مَا كُنتَ تَدْرِى مَا ٱلْكِتَٰبُ وَلَا ٱلْإِيمَٰنُ وَلَٰكِن جَعَلْنَٰهُ نُورًا نَّهْدِى بِهِۦ مَن نَّشَآءُ مِنْ عِبَادِنَا﴾ [الشورى: ٥٢]؛ فَذَكَرَ هُنَا الْأَصْلَيْنِ، وَهُمَا:

(١) «زاد المعاد» (١/ ٦٩).

(٢) «مجموع الفتاوى» (١٩/ ٩٣-١٠٥).

الرُّوحُ، وَالنُّورُ؛ فَالرُّوحُ الْحَيَاةُ، وَالنُّورُ النُّورُ.

وَكَذَلِكَ يَضْرِبُ اللهُ الْأَمْثَالَ لِلْوَحْيِ الَّذِي أَنْزَلَهُ حَيَاةً لِلْقُلُوبِ وَنُورًا لَهَا بِالْمَاءِ الَّذِي يَنْزِلُ مِنَ السَّمَاءِ حَيَاةً لِلْأَرْضِ، وَبِالنَّارِ الَّتِي يَحْصُلُ بِهَا النُّورُ، وَهَذَا كَمَا فِي قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿أَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَسَالَتْ أَوْدِيَةُۢ بِقَدَرِهَا فَٱحْتَمَلَ ٱلسَّيْلُ زَبَدًا رَّابِيًاۚ وَمِمَّا يُوقِدُونَ عَلَيْهِ فِى ٱلنَّارِ ٱبْتِغَآءَ حِلْيَةٍ أَوْ مَتَٰعٍ زَبَدٌ مِّثْلُهُۥۚ كَذَٰلِكَ يَضْرِبُ ٱللَّهُ ٱلْحَقَّ وَٱلْبَٰطِلَۚ فَأَمَّا ٱلزَّبَدُ فَيَذْهَبُ جُفَآءًۖ وَأَمَّا مَا يَنفَعُ ٱلنَّاسَ فَيَمْكُثُ فِى ٱلْأَرْضِۚ كَذَٰلِكَ يَضْرِبُ ٱللَّهُ ٱلْأَمْثَالَ﴾ [الرعد:١٧].

فَشَبَّهَ الْعِلْمَ بِالْمَاءِ الْمُنَزَّلِ مِنَ السَّمَاءِ؛ لِأَنَّ بِهِ حَيَاةَ الْقُلُوبِ، كَمَا أَنَّ بِالْمَاءِ حَيَاةَ الْأَبْدَانِ، وَشَبَّهَ الْقُلُوبَ بِالْأَوْدِيَةِ؛ لِأَنَّهَا مَحَلُّ الْعِلْمِ، كَمَا أَنَّ الْأَوْدِيَةَ مَحَلُّ الْمَاءِ؛ فَقَلْبٌ يَسَعُ عِلْمًا كَثِيرًا وَوَادٍ يَسَعُ مَاءً كَثِيرًا، وَقَلْبٌ يَسَعُ عِلْمًا قَلِيلًا وَوَادٍ يَسَعُ مَاءً قَلِيلًا، وَأَخْبَرَ تَعَالَى أَنَّهُ يَعْلُو عَلَى السَّيْلِ مِنَ الزَّبَدِ بِسَبَبِ مُخَالَطَةِ الْمَاءِ، وَأَنَّهُ يَذْهَبُ جُفَاءً، أَيْ: يُرْمَى بِهِ وَيَخْفَى، وَالَّذِي يَنْفَعُ النَّاسَ يَمْكُثُ فِي الْأَرْضِ وَيَسْتَقِرُّ، وَكَذَلِكَ الْقُلُوبُ تُخَالِطُهَا الشَّهَوَاتُ وَالشُّبُهَاتُ؛ فَإِذَا تَرَابَى فِيهَا الْحَقُّ ثَارَتْ فِيهَا تِلْكَ الشَّهَوَاتُ وَالشُّبُهَاتُ، ثُمَّ تَذْهَبُ جُفَاءً، وَيَسْتَقِرُّ فِيهَا الْإِيمَانُ وَالْقُرْآنُ الَّذِي يَنْفَعُ صَاحِبَهُ وَالنَّاسَ، وَقَالَ: ﴿وَمِمَّا يُوقِدُونَ عَلَيْهِ فِى ٱلنَّارِ ٱبْتِغَآءَ حِلْيَةٍ أَوْ مَتَٰعٍ زَبَدٌ مِّثْلُهُۥۚ كَذَٰلِكَ يَضْرِبُ ٱللَّهُ ٱلْحَقَّ وَٱلْبَٰطِلَ﴾ [الرعد:١٧]؛ فَهَذَا الْمَثَلُ الْآخَرُ وَهُوَ النَّارِيُّ، فَالْأَوَّلُ لِلْحَيَاةِ، وَالثَّانِي لِلضِّيَاءِ.

وَنَظِيرُ هَذَيْنِ الْمِثَالَيْنِ الْمِثَالَانِ الْمَذْكُورَانِ فِي سُورَةِ الْبَقَرَةِ فِي قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿مَثَلُهُمْ كَمَثَلِ ٱلَّذِى ٱسْتَوْقَدَ نَارًا﴾ إِلَى قَوْلِهِ: ﴿أَوْ كَصَيِّبٍ مِّنَ ٱلسَّمَآءِ﴾ إِلَى آخِرِ الْآيَةِ [البقرة:١٧-٢٠]، وَأَمَّا الْكَافِرُ؛ فَفِي ظُلُمَاتِ الْكُفْرِ وَالشِّرْكِ غَيْرُ حَيٍّ، وَإِنْ كَانَتْ حَيَاتُهُ حَيَاةً بَهِيمِيَّةً؛ هُوَ عَادِمُ الْحَيَاةَ الرُّوحَانِيَّةَ الْعُلْوِيَّةَ الَّتِي سَبَبُهَا سَبَبُ الْإِيمَانِ، وَبِهَا يَحْصُلُ لِلْعَبْدِ السَّعَادَةُ وَالْفَلَاحُ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ؛ فَإِنَّ اللهَ سُبْحَانَهُ جَعَلَ الرُّسُلَ وَسَائِطَ بَيْنَهُ وَبَيْنَ عِبَادِهِ فِي تَعْرِيفِهِمْ مَا يَنْفَعُهُمْ، وَمَا يَضُرُّهُمْ،

وَتَكْمِيلِ مَا يُصْلِحُهُمْ فِي مَعَاشِهِمْ وَمَعَادِهِمْ، وَبُعِثُوا جَمِيعًا بِالدَّعْوَةِ إِلَى الله، وَتَعْرِيفِ الطَّرِيقِ الْمُوَصِّلِ إِلَيْهِ، وَبَيَانِ حَالِهِمْ بَعْدَ الْوُصُولِ إِلَيْهِ.

فَالْأَصْلُ الْأَوَّلُ: يَتَضَمَّنُ إِثْبَاتَ الصِّفَاتِ وَالتَّوْحِيدِ وَالْقَدَرِ؛ وَذِكْرَ أَيَّامِ الله فِي أَوْلِيَائِهِ وَأَعْدَائِهِ، وَهِيَ الْقَصَصُ الَّتِي قَصَّهَا عَلَى عِبَادِهِ، وَالْأَمْثَالُ الَّتِي ضَرَبَهَا لَهُمْ.

وَالْأَصْلُ الثَّانِي: يَتَضَمَّنُ تَفْصِيلَ الشَّرَائِعِ، وَالْأَمْرَ وَالنَّهْيَ وَالْإِبَاحَةَ، وَبَيَانَ مَا يُحِبُّهُ الله وَمَا يَكْرَهُهُ.

وَالْأَصْلُ الثَّالِثُ: يَتَضَمَّنُ الْإِيمَانَ بِالْيَوْمِ الْآخِرِ؛ وَالْجَنَّةِ وَالنَّارِ؛ وَالثَّوَابِ وَالْعِقَابِ.

وَعَلَى هَذِهِ الْأُصُولِ الثَّلَاثَةِ مَدَارُ الْخَلْقِ وَالْأَمْرِ، وَالسَّعَادَةُ وَالْفَلَاحُ مَوْقُوفَةٌ عَلَيْهَا؛ وَلَا سَبِيلَ إِلَى مَعْرِفَتِهَا إِلَّا مِنْ جِهَةِ الرُّسُلِ؛ فَإِنَّ الْعَقْلَ لَا يَهْتَدِي إِلَى تَفَاصِيلِهَا وَمَعْرِفَةِ حَقَائِقِهَا؛ وَإِنْ كَانَ قَدْ يُدْرِكُ وَجْهَ الضَّرُورَةِ إِلَيْهَا مِنْ حَيْثُ الْجُمْلَةُ؛ كَالْمَرِيضِ الَّذِي يُدْرِكُ وَجْهَ الْحَاجَةِ إِلَى الطِّبِّ وَمَنْ يُدَاوِيهِ؛ وَلَا يَهْتَدِي إِلَى تَفَاصِيلِ الْمَرَضِ، وَتَنْزِيلِ الدَّوَاءِ عَلَيْهِ.

وَحَاجَةُ الْعَبْدِ إِلَى الرِّسَالَةِ أَعْظَمُ بِكَثِيرٍ مِنْ حَاجَةِ الْمَرِيضِ إِلَى الطِّبِّ؛ فَإِنَّ آخِرَ مَا يُقَدَّرُ بِعَدَمِ الطَّبِيبِ مَوْتُ الْأَبْدَانِ، وَأَمَّا إِذَا لَمْ يَحْصُلْ لِلْعَبْدِ نُورُ الرِّسَالَةِ وَحَيَاتُهَا مَاتَ قَلْبُهُ مَوْتًا لَا تُرْجَى الْحَيَاةُ مَعَهُ أَبَدًا؛ أَوْ شَقِيَ شَقَاوَةً لَا سَعَادَةَ مَعَهَا أَبَدًا، فَلَا فَلَاحَ إِلَّا بِاتِّبَاعِ الرَّسُولِ؛ فَإِنَّ الله خَصَّ بِالْفَلَاحِ أَتْبَاعَهُ الْمُؤْمِنِينَ وَأَنْصَارَهُ؛ كَمَا قَالَ تَعَالَى: ﴿فَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ بِهِۦ وَعَزَّرُوهُ وَنَصَرُوهُ وَٱتَّبَعُواْ ٱلنُّورَ ٱلَّذِىٓ أُنزِلَ مَعَهُۥٓ ۙ أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ﴾ [الأعراف: ١٥٧]؛ أَيْ: لَا مُفْلِحَ إِلَّا هُمْ؛ كَمَا قَالَ تَعَالَى: ﴿وَلْتَكُن مِّنكُمْ أُمَّةٌ يَدْعُونَ إِلَى ٱلْخَيْرِ وَيَأْمُرُونَ بِٱلْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ ٱلْمُنكَرِ ۚ وَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ﴾ [آل عمران:١٠٤]؛ فَخَصَّ هَؤُلَاءِ بِالْفَلَاحِ كَمَا خَصَّ الْمُتَّقِينَ الَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِالْغَيْبِ، وَيُقِيمُونَ الصَّلَاةَ؛ وَيُنْفِقُونَ مِمَّا رَزَقَهُمْ،

وَيُؤْمِنُونَ بِمَا أَنْزَلَ إِلَى رَسُولِهِ وَمَا أَنْزَلَ مِنْ قَبْلِهِ؛ وَيُوقِنُونَ بِالْآخِرَةِ وَبِالْهُدَى وَالْفَلَاحِ؛ فَعُلِمَ بِذَلِكَ أَنَّ الْهُدَى وَالْفَلَاحَ دَائِرٌ حَوْلَ الرِّسَالَةِ وُجُودًا وَعَدَمًا.

وَهَذَا مِمَّا اتَّفَقَتْ عَلَيْهِ الْكُتُبُ الْمُنَزَّلَةُ مِنَ السَّمَاءِ، وَبُعِثَ بِهِ جَمِيعُ الرُّسُلِ، وَلِهَذَا قَصَّ اللهُ عَلَيْنَا أَخْبَارَ الْأُمَمِ الْمُكَذِّبَةِ لِلرُّسُلِ وَمَا صَارَتْ إِلَيْهِ عَاقِبَتُهُمْ، وَأَبْقَى آثَارَهُمْ وَدِيَارَهُمْ عِبْرَةً لِمَنْ بَعْدَهُمْ وَمَوْعِظَةً. وَكَذَلِكَ مَسَخَ مَنْ مَسَخَ قِرَدَةً وَخَنَازِيرَ لِمُخَالَفَتِهِمْ لِأَنْبِيَائِهِمْ، وَكَذَلِكَ مَنْ خَسَفَ بِهِ، وَأَرْسَلَ عَلَيْهِ الْحِجَارَةَ مِنَ السَّمَاءِ وَأَغْرَقَهُ فِي الْيَمِّ، وَأَرْسَلَ عَلَيْهِ الصَّيْحَةَ، وَأَخَذَهُ بِأَنْوَاعِ الْعُقُوبَاتِ، وَإِنَّمَا ذَلِكَ بِسَبَبِ مُخَالَفَتِهِمْ لِلرُّسُلِ، وَإِعْرَاضِهِمْ عَمَّا جَاءُوا بِهِ، وَاتِّخَاذِهِمْ أَوْلِيَاءَ مِنْ دُونِهِ. وَهَذِهِ سُنَّتُهُ سُبْحَانَهُ فِيمَنْ خَالَفَ رُسُلَهُ، وَأَعْرَضَ عَمَّا جَاءُوا بِهِ، وَاتَّبَعَ غَيْرَ سَبِيلِهِمْ؛ وَلِهَذَا أَبْقَى اللهُ سُبْحَانَهُ آثَارَ الْمُكَذِّبِينَ؛ لِنَعْتَبِرَ بِهَا وَنَتَّعِظَ؛ لِئَلَّا نَفْعَلَ كَمَا فَعَلُوا فَيُصِيبَنَا مَا أَصَابَهُمْ؛ كَمَا قَالَ تَعَالَى: ﴿إِنَّا مُنزِلُونَ عَلَىٰٓ أَهْلِ هَٰذِهِ ٱلْقَرْيَةِ رِجْزًا مِّنَ ٱلسَّمَآءِ بِمَا كَانُوا۟ يَفْسُقُونَ ﴿٣٤﴾ وَلَقَد تَّرَكْنَا مِنْهَآ ءَايَةًۢ بَيِّنَةً لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ﴾ [العنكبوت:٣٤، ٣٥]، وَقَالَ تَعَالَى: ﴿ثُمَّ دَمَّرْنَا ٱلْـَٔاخَرِينَ ﴿١٣٦﴾ وَإِنَّكُمْ لَتَمُرُّونَ عَلَيْهِم مُّصْبِحِينَ ﴿١٣٧﴾ وَبِٱلَّيْلِ﴾ [الصافات: ١٣٦- ١٣٨]؛ أَيْ: تَمُرُّونَ عَلَيْهِمْ نَهَارًا بِالصَّبَاحِ وَبِاللَّيْلِ، ثُمَّ قَالَ: ﴿أَفَلَا تَعْقِلُونَ﴾، وَقَالَ تَعَالَى فِي مَدَائِنِ قَوْمِ لُوطٍ: ﴿فَجَعَلْنَا عَٰلِيَهَا سَافِلَهَا وَأَمْطَرْنَا عَلَيْهِمْ حِجَارَةً مِّن سِجِّيلٍ ﴿٧٤﴾ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ لِّلْمُتَوَسِّمِينَ ﴿٧٥﴾ وَإِنَّهَا لَبِسَبِيلٍ مُّقِيمٍ﴾ [الحجر:٧٤- ٧٦]، يَعْنِي: مَدَائِنُهُمْ بِطَرِيقٍ مُقِيمٍ يَرَاهَا الْمَارُّ بِهَا. وَقَالَ تَعَالَى: ﴿أَوَلَمْ يَسِيرُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ فَيَنظُرُوا۟ كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ﴾ [الروم:٩]. وَهَذَا كَثِيرٌ فِي الْكِتَابِ الْعَزِيزِ؛ يُخْبِرُ اللهُ سُبْحَانَهُ عَنْ إِهْلَاكِ الْمُخَالِفِينَ لِلرُّسُلِ، وَنَجَاةِ أَتْبَاعِ الْمُرْسَلِينَ، وَلِهَذَا يَذْكُرُ سُبْحَانَهُ فِي سُورَةِ الشُّعَرَاءِ قِصَّةَ مُوسَى، وَإِبْرَاهِيمَ، وَنُوحٍ، وَعَادٍ، وَثَمُودَ، وَلُوطٍ، وَشُعَيْبٍ؛ وَيَذْكُرُ لِكُلِّ نَبِيٍّ إِهْلَاكَهُ لِمُكَذِّبِيهِمْ، وَالنَّجَاةَ لَهُمْ وَلِأَتْبَاعِهِمْ، ثُمَّ يَخْتِمُ الْقِصَّةَ بِقَوْلِهِ: ﴿إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَةً ۖ وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُم مُّؤْمِنِينَ ﴿٨﴾ وَإِنَّ رَبَّكَ لَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلرَّحِيمُ﴾ [الشعراء:٨، ٩]؛

فَخَتَمَ الْقِصَّةَ بِاسْمَيْنِ مِنْ أَسْمَائِهِ تَقْتَضِيهَا تِلْكَ الصِّفَةُ﴿ٱلْعَزِيزُ ٱلرَّحِيمُ﴾ فَانْتَقَمَ مِنْ أَعْدَائِهِ بِعِزَّتِهِ، وَأَنْجَى رُسُلَهُ وَأَتْبَاعَهُمْ بِرَحْمَتِهِ».

ثُمَّ قَالَ رحمه الله: «وَالرِّسَالَةُ ضَرُورِيَّةٌ فِي إِصْلَاحِ الْعَبْدِ فِي مَعَاشِهِ وَمَعَادِهِ؛ فَكَمَا أَنَّهُ لَا صَلَاحَ لَهُ فِي آخِرَتِهِ إِلَّا بِاتِّبَاعِ الرِّسَالَةِ؛ فَكَذَلِكَ لَا صَلَاحَ لَهُ فِي مَعَاشِهِ وَدُنْيَاهُ إِلَّا بِاتِّبَاعِ الرِّسَالَةِ؛ فَإِنَّ الْإِنْسَانَ مُضْطَرٌّ إِلَى الشَّرْعِ؛ فَإِنَّهُ بَيْنَ حَرَكَتَيْنِ: حَرَكَةٍ يَجْلِبُ بِهَا مَا يَنْفَعُهُ؛ وَحَرَكَةٍ يَدْفَعُ بِهَا مَا يَضُرُّهُ. وَالشَّرْعُ هُوَ النُّورُ الَّذِي يُبَيِّنُ مَا يَنْفَعُهُ وَمَا يَضُرُّهُ، وَالشَّرْعُ نُورُ اللهِ فِي أَرْضِهِ، وَعَدْلُهُ بَيْنَ عِبَادِهِ، وَحِصْنُهُ الَّذِي مَنْ دَخَلَهُ كَانَ آمِنًا. وَلَيْسَ الْمُرَادُ بِالشَّرْعِ التَّمْيِيزَ بَيْنَ الضَّارِّ وَالنَّافِعِ بِالْحِسِّ؛ فَإِنَّ ذَلِكَ يَحْصُلُ لِلْحَيَوَانَاتِ الْعُجْمِ؛ فَإِنَّ الْحِمَارَ وَالْجَمَلَ يُمَيِّزُ بَيْنَ الشَّعِيرِ وَالتُّرَابِ؛ بَلِ التَّمْيِيزُ بَيْنَ الْأَفْعَالِ الَّتِي تَضُرُّ فَاعِلَهَا فِي مَعَاشِهِ وَمَعَادِهِ كَنَفْعِ الْإِيمَانِ وَالتَّوْحِيدِ؛ وَالْعَدْلِ وَالْبِرِّ، وَالتَّصَدُّقِ وَالْإِحْسَانِ؛ وَالْأَمَانَةِ وَالْعِفَّةِ؛ وَالشَّجَاعَةِ وَالْحِلْمِ؛ وَالصَّبْرِ وَالْأَمْرِ بِالْمَعْرُوفِ وَالنَّهْيِ عَنِ الْمُنْكَرِ، وَصِلَةِ الْأَرْحَامِ، وَبِرِّ الْوَالِدَيْنِ، وَالْإِحْسَانِ إِلَى الْمَمَالِيكِ وَالْجَارِ، وَأَدَاءِ الْحُقُوقِ، وَإِخْلَاصِ الْعَمَلِ للهِ، وَالتَّوَكُّلِ عَلَيْهِ؛ وَالِاسْتِعَانَةِ بِهِ، وَالرِّضَا بِمَوَاقِعِ الْقَدَرِ بِهِ؛ وَالتَّسْلِيمِ لِحُكْمِهِ وَالِانْقِيَادِ لِأَمْرِهِ، وَمُوَالَاةِ أَوْلِيَائِهِ وَمُعَادَاةِ أَعْدَائِهِ، وَخَشْيَتِهِ فِي الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ، وَالتَّقْوَى إِلَيْهِ، بِأَدَاءِ فَرَائِضِهِ وَاجْتِنَابِ مَحَارِمِهِ، وَاحْتِسَابِ الثَّوَابِ عِنْدَهُ، وَتَصْدِيقِهِ وَتَصْدِيقِ رُسُلِهِ فِي كُلِّ مَا أَخْبَرُوا بِهِ؛ وَطَاعَتِهِ فِي كُلِّ مَا أَمَرُوا بِهِ، مِمَّا هُوَ نَفْعٌ وَصَلَاحٌ لِلْعَبْدِ فِي دُنْيَاهُ وَآخِرَتِهِ، وَفِي ضِدِّ ذَلِكَ شَقَاوَتُهُ، وَمَضَرَّتُهُ فِي دُنْيَاهُ وَآخِرَتِهِ.

وَلَوْلَا الرِّسَالَةُ لَمْ يَهْتَدِ الْعَقْلُ إِلَى تَفَاصِيلِ النَّافِعِ وَالضَّارِّ فِي الْمَعَاشِ وَالْمَعَادِ؛ فَمِنْ أَعْظَمِ نِعَمِ اللهِ عَلَى عِبَادِهِ وَأَشْرَفِ مِنَّةٍ عَلَيْهِمْ: أَنْ أَرْسَلَ إِلَيْهِمْ رُسُلَهُ، وَأَنْزَلَ عَلَيْهِمْ كُتُبَهُ، وَبَيَّنَ لَهُمُ الصِّرَاطَ الْمُسْتَقِيمَ. وَلَوْلَا ذَلِكَ لَكَانُوا بِمَنْزِلَةِ الْأَنْعَامِ وَالْبَهَائِمِ؛ بَلْ أَشَرَّ حَالًا مِنْهَا، فَمَنْ قَبِلَ رِسَالَةَ اللهِ، وَاسْتَقَامَ عَلَيْهَا فَهُوَ مِنْ خَيْرِ الْبَرِيَّةِ، وَمَنْ رَدَّهَا وَخَرَجَ عَنْهَا فَهُوَ مِنْ شَرِّ الْبَرِيَّةِ، وَأَسْوَأُ حَالًا مِنَ الْكَلْبِ،

وَالْخِنْزِيرِ، وَالْحَيَوَانِ الْبَهِيمِ.

وَفِي «**الصَّحِيحِ**» مِنْ حَدِيثِ أَبِي مُوسَى رضي الله عنه (١) عَنِ النَّبِيِّ ﷺ قَالَ: «**مَثَلُ مَا بَعَثَنِي اللهُ بِهِ مِنَ الْهُدَى وَالْعِلْمِ كَمَثَلِ غَيْثٍ أَصَابَ أَرْضًا، فَكَانَتْ مِنْهَا طَائِفَةٌ قَبِلَتِ الْمَاءَ، فَأَنْبَتَتِ الْكَلَأَ وَالْعُشْبَ الْكَثِيرَ. وَكَانَ مِنْهَا أَجَادِبُ أَمْسَكَتِ الْمَاءَ، فَنَفَعَ اللهُ بِهَا النَّاسَ، فَشَرِبُوا مِنْهَا، وَانْتَفَعُوا وَزَرَعُوا. وَأَصَابَ طَائِفَةً مِنْهَا أُخْرَى إِنَّمَا هِيَ قِيعَانٌ لَا تُمْسِكُ مَاءً وَلَا تُنْبِتُ كَلَأً. فَذَلِكَ مَثَلُ مَنْ فَقُهَ فِي دِينِ اللهِ تَعَالَى، وَنَفَعَهُ مَا بَعَثَنِي اللهُ بِهِ، فَعَلِمَ، وَعَلَّمَ، وَمَثَلُ مَنْ لَمْ يَرْفَعْ بِذَلِكَ رَأْسًا، وَلَمْ يَقْبَلْ هُدَى اللهِ الَّذِي أُرْسِلْتُ بِهِ**» (٢)؛ مُتَّفَقٌ عَلَى صِحَّتِهِ.

فَالْحَمْدُ للهِ الَّذِي أَرْسَلَ إِلَيْنَا رَسُولًا مِنْ أَنْفُسِنَا يَتْلُو عَلَيْنَا آيَاتِ اللهِ، وَيُزَكِّينَا، وَيُعَلِّمُنَا الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ، وَإِنْ كُنَّا مِنْ قَبْلُ لَفِي ضَلَالٍ مُبِينٍ، وَقَالَ أَهْلُ الْجَنَّةِ: ﴿ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِى هَدَىٰنَا لِهَٰذَا وَمَا كُنَّا لِنَهْتَدِىَ لَوْلَآ أَنْ هَدَىٰنَا ٱللَّهُ لَقَدْ جَآءَتْ رُسُلُ رَبِّنَا بِٱلْحَقِّ﴾ [الأعراف:٤٣]. وَالدُّنْيَا كُلُّهَا مَلْعُونَةٌ مَلْعُونٌ مَا فِيهَا إِلَّا مَا أَشْرَقَتْ عَلَيْهِ شَمْسُ الرِّسَالَةِ، وَأُسِّسَ بُنْيَانُهُ عَلَيْهَا، وَلَا بَقَاءَ لِأَهْلِ الْأَرْضِ إِلَّا مَا دَامَتْ آثَارُ الرُّسُلِ مَوْجُودَةً فِيهِمْ، فَإِذَا دَرَسَتْ آثَارُ الرُّسُلِ مِنَ الْأَرْضِ، وَانْمَحَتْ بِالْكُلِّيَّةِ خَرَّبَ اللهُ

---

(١) هو عبد الله بن قيس بن سليم بن حضار بن حرب بن بكر بن عامر بن غنم بن عامر بن عذر بن وائل بن ناجية بن الجماهر بن الأشعر مشهور باسمه وكنيته، أسلم وهاجر إلى الحبشة، وقيل: بل رجع إلى بلاد قومه ولم يهاجر إلى الحبشة، وهذا قول الأكثر قدم المدينة بعد فتح خيبر، واستعمله النبيُّ ﷺ على بعض اليمن: كزبيد، وعدن وأعمالهما، استعمله عمر على البصرة، ثم استعمله عثمان على الكوفة، ثم كان أحد الحكمين بصفين ثم اعتزل الفريقين، واختلف في وقت وفاته؛ فقيل: سنة اثنتين وأربعين، وقيل: سنة أربع وأربعين، وقيل: سنة خمسين، وقيل: سنة اثنتين وخمسين.

● راجع: «الإصابة» (٤٩١٦)، و«الاستيعاب» (٣٦١)، و«التقريب» (٣٩٢٢).

(٢) أخرجه البخاريُّ، كتاب العلم، باب فضل من علم وعلم (٧٩)، ومسلمٌ، كتاب الفضائل، باب بيان مثل ما بعث به النبي ﷺ من الهدى والعلم (٢٢٨٢) وقوله: «**الكلأ**»: العشب الرطب واليابس، راجع: «شرح مسلم» للنوويِّ (١٥/ ٣٩).

الْعَالَمَ الْعُلْوِيَّ وَالسُّفْلِيَّ، وَأَقَامَ الْقِيَامَةَ.

وَلَيْسَتْ حَاجَةُ أَهْلِ الْأَرْضِ إِلَى الرَّسُولِ كَحَاجَتِهِمْ إِلَى الشَّمْسِ وَالْقَمَرِ، وَالرِّيَاحِ وَالْمَطَرِ، وَلَا كَحَاجَةِ الْإِنْسَانِ إِلَى حَيَاتِهِ؛ وَلَا كَحَاجَةِ الْعَيْنِ إِلَى ضَوْئِهَا، وَالْجِسْمِ إِلَى الطَّعَامِ وَالشَّرَابِ؛ بَلْ أَعْظَمُ مِنْ ذَلِكَ وَأَشَدُّ حَاجَةً مِنْ كُلِّ مَا يُقَدَّرُ وَيَخْطُرُ بِالْبَالِ؛ فَالرُّسُلُ وَسَائِطُ بَيْنَ اللهِ وَبَيْنَ خَلْقِهِ فِي أَمْرِهِ وَنَهْيِهِ، وَهُمُ السُّفَرَاءُ بَيْنَهُ وَبَيْنَ عِبَادِهِ.

وَكَانَ خَاتَمُهُمْ وَسَيِّدُهُمْ وَأَكْرَمُهُمْ عَلَى رَبِّهِ مُحَمَّدُ بْنُ عَبْدِ اللهِ ﷺ يَقُولُ: «**يَا أَيُّهَا النَّاسُ! إِنَّمَا أَنَا رَحْمَةٌ مُهْدَاةٌ**» (١)، وَقَالَ اللهُ تَعَالَى: ﴿وَمَآ أَرْسَلْنَٰكَ إِلَّا رَحْمَةً

---

(١) أخرجه ابن سعد في «الطبقات» (١/ ١٩٢) ط دار صادر، والدارميُّ (١٥)، ط دار الكتاب العربي بيروت، وابن أبي شيبة في «مصنفه» (٧/ ٤٤١)، والبيهقيُّ في «الشعب» (١٤٠٤، ١٤٤٦)، وفي «الدلائل» (١/ ١٥٧) عن أبي صالح مرسلًا، وأخرجه الحاكم (١/ ٩١)، ط الكتب العلمية، وصحَّحه على شرطهما، ووافقه الذهبيُّ، والطبرانيُّ في «الصغير» (٢٦٤)، ط المكتب الإسلامي- عمان، و«الأوسط» (٢٩٨١) ط دار الحرمين - القاهرة سنة ١٤١٥هـ، والآجري في «الشريعة» (١٠٥٧) ط دار الحديث القاهرة سنة ١٤٢٦هـ، والقضاعي في «مسنده» (١١٦٠) ط مؤسسة الرسالة بيروت سنة ١٤٠٧هـ، والرامهرمزي في «أمثال الحديث» (ص:٣٤)، ط مؤسسة الكتب الثقافية بيروت، ووكيع في «نسخته» (٢٩) ط الدار السلفية، الكويت، وابن عساكر في «تاريخه» (٥/ ٤٠١)، والبيهقيُّ في «الدلائل» (١/ ١٥٨)، وابن عدي في «الكامل» (٤/ ٢٣٠) ط دار الفكر بيروت - موصولًا-، وقوَّى الشيخُ الألبانيُّ الموصولَ في «الصحيحة» (٤٩٠)، وله شاهدٌ من حديث أنس ﷺ، ذكره حمزة في «سؤالاته» للدارقطنيِّ (١٢٧) ط المعارف.

○ **قُلْتُ**: وله شاهدٌ؛ أخرجه مسلمٌ، في «صحيحه»، كتاب البر والآداب والصلة، باب النهي عن لعن الدواب وغيرها (٢٥٩٩)، من حديث أبي هريرة ﷺ قال: قيل لرسول الله ﷺ: ادْعُ عَلَى الْمُشْرِكِيْنَ؟ قال: «**إِنِّي لَمْ أُبْعَثْ لَعَّانًا، وَإِنَّمَا بُعِثْتُ رَحْمَةً**».

○ **لغة**: قوله في الحديث: «مهداة»، قيل: بكسر الميم، من الهداية، وقيل: بضم الميم؛ أي: أن الله أهداه إلى الناس، نقله الألبانيُّ عن الرامهرمزي عقب الحديث.

﴿لِّلْعَٰلَمِينَ﴾[الأنبياء:١٠٧]، وَقَالَ صَلَوَاتُ اللهِ وَسَلَامُهُ عَلَيْهِ: «**إِنَّ اللهَ نَظَرَ إِلَى أَهْلِ الْأَرْضِ؛ فَمَقَتَهُمْ عَرَبَهُمْ وَعَجَمَهُمْ إِلَّا بَقَايَا مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ**»(١)، وَهَذَا الْمَقْتُ كَانَ لِعَدَمِ هِدَايَتِهِمْ بِالرُّسُلِ، فَرَفَعَ اللهُ عَنْهُمْ هَذَا الْمَقْتَ بِرَسُولِ اللهِ ﷺ، فَبَعَثَهُ رَحْمَةً لِلْعَالَمِينَ وَمَحَجَّةً لِلسَّالِكِينَ، وَحُجَّةً عَلَى الْخَلَائِقِ أَجْمَعِينَ، وَافْتَرَضَ عَلَى الْعِبَادِ طَاعَتَهُ وَمَحَبَّتَهُ، وَتَعْزِيرَهُ وَتَوْقِيرَهُ، وَالْقِيَامَ بِأَدَاءِ حُقُوقِهِ، وَسَدَّ إِلَيْهِ جَمِيعَ الطُّرُقِ، فَلَمْ يَفْتَحْ لِأَحَدٍ إِلَّا مِنْ طَرِيقِهِ، وَأَخَذَ الْعُهُودَ وَالْمَوَاثِيقَ بِالْإِيمَانِ بِهِ وَاتِّبَاعِهِ عَلَى جَمِيعِ الْأَنْبِيَاءِ وَالْمُرْسَلِينَ، وَأَمَرَهُمْ أَنْ يَأْخُذُوهَا عَلَى مَنِ اتَّبَعَهُمْ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ.

أَرْسَلَهُ اللهُ بِالْهُدَى وَدِينِ الْحَقِّ بَيْنَ يَدَيِ السَّاعَةِ بَشِيرًا وَنَذِيرًا، وَدَاعِيًا إِلَى اللهِ بِإِذْنِهِ وَسِرَاجًا مُنِيرًا، فَخَتَمَ بِهِ الرِّسَالَةَ؛ وَهَدَى بِهِ مِنَ الضَّلَالَةِ؛ وَعَلَّمَ بِهِ مِنَ الْجَهَالَةِ، وَفَتَحَ بِرِسَالَتِهِ أَعْيُنًا عُمْيًا، وَآذَانًا صُمًّا، وَقُلُوبًا غُلْفًا، فَأَشْرَقَتْ بِرِسَالَتِهِ الْأَرْضُ بَعْدَ ظُلُمَاتِهَا؛ وَتَأَلَّفَتْ بِهَا الْقُلُوبُ بَعْدَ شَتَاتِهَا، فَأَقَامَ بِهَا الْمِلَّةَ الْعَوْجَاءَ، وَأَوْضَحَ بِهَا الْمَحَجَّةَ الْبَيْضَاءَ، وَشَرَحَ لَهُ صَدْرَهُ، وَوَضَعَ عَنْهُ وِزْرَهُ، وَرَفَعَ ذِكْرَهُ، وَجَعَلَ الذِّلَّةَ وَالصَّغَارَ عَلَى مَنْ خَالَفَ أَمْرَهُ، أَرْسَلَهُ عَلَى حِينِ فَتْرَةٍ مِنَ الرُّسُلِ، وَدُرُوسٍ مِنَ الْكُتُبِ حِينَ حُرِّفَ الْكَلِمُ، وَبُدِّلَتِ الشَّرَائِعُ، وَاسْتَنَدَ كُلُّ قَوْمٍ إِلَى أَظْلَمِ آرَائِهِمْ، وَحَكَمُوا عَلَى اللهِ وَبَيْنَ عِبَادِهِ بِمَقَالَاتِهِمُ الْفَاسِدَةِ وَأَهْوَائِهِمْ؛ فَهَدَى اللهُ بِهِ الْخَلَائِقَ، وَأَوْضَحَ بِهِ الطَّرِيقَ، وَأَخْرَجَ بِهِ النَّاسَ مِنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ، وَأَبْصَرَ بِهِ مِنَ الْعَمَى، وَأَرْشَدَ بِهِ مِنَ الْغَيِّ، وَجَعَلَهُ قَسِيمَ الْجَنَّةِ وَالنَّارِ، وَفَرَّقَ مَا بَيْنَ الْأَبْرَارِ وَالْفُجَّارِ، وَجَعَلَ الْهُدَى وَالْفَلَاحَ فِي اتِّبَاعِهِ وَمُوَافَقَتِهِ، وَالضَّلَالَ وَالشَّقَاءَ فِي مَعْصِيَتِهِ وَمُخَالَفَتِهِ.

وَامْتَحَنَ بِهِ الْخَلَائِقَ فِي قُبُورِهِمْ؛ فَهُمْ فِي الْقُبُورِ عَنْهُ مَسْئُولُونَ، وَبِهِ

---

(١) أخرجه مسلمٌ، كتاب صفة القيامة والجنة والنار، باب الصفات التي يعرف بها في الدنيا أهل الجنة وأهل النار (٢٨٦٥) من حديث عياض بن حمار رضي الله عنه.

مُمْتَحَنُونَ، يُؤتَى الْعَبْدُ فِي قَبْرِهِ، فيُقَالُ: مَا كُنْتَ تَقُولُ فِي هَذَا الرَّجُلِ الَّذِي بُعِثَ فِيكُمْ؟

فَأَمَّا الْمُؤْمِنُ فَيَقُولُ: أَشْهَدُ أَنَّهُ عَبْدُ اللهِ؛ جَاءَنَا بِالْبَيِّنَاتِ وَالْهُدَى، فَآمَنَّا بِهِ وَاتَّبَعْنَاهُ، فَيُقَالُ لَهُ: صَدَقْتَ، عَلَى هَذَا حَيِيتَ، وَعَلَيْهِ مِتَّ، وَعَلَيْهِ تُبْعَثُ إِنْ شَاءَ اللهُ، نَمْ نَوْمَةَ الْعَرُوسِ؛ لَا يُوقِظُهُ إِلَّا أَحَبُّ أَهْلِهِ إِلَيْهِ. ثُمَّ يُفْسَحُ لَهُ فِي قَبْرِهِ، وَيُنَوَّرُ لَهُ فِيهِ، وَيُفْتَحُ لَهُ بَابٌ إِلَى الْجَنَّةِ، فَيَزْدَادُ غِبْطَةً وَسُرُورًا.

وَأَمَّا الْكَافِرُ وَالْمُنَافِقُ فَيَقُولُ: لَا أَدْرِي، سَمِعْتُ النَّاسَ يَقُولُونَ شَيْئًا فَقُلْتُهُ؛ فَيُقَالُ لَهُ: قَدْ كُنَّا نَعْلَمُ ذَلِكَ، وَعَلَى ذَلِكَ حَيِيتَ، وَعَلَيهِ مِتَّ، وَعَلَيْهِ تُبْعَثُ إِنْ شَاءَ اللهُ، ثُمَّ يُضْرَبُ بِمِرْزَبَّةٍ مِنْ حَدِيدٍ، فَيَصِيحُ صَيْحَةً يَسْمَعُهَا كُلُّ شَيْءٍ إِلَّا الْإِنْسَانَ.

وَقَدْ أَمَرَ اللهُ بِطَاعَةِ رَسُولِهِ ﷺ فِي أَكْثَرَ مِنْ ثَلَاثِينَ مَوْضِعًا مِنَ الْقُرْآنِ، وَقَرَنَ طَاعَتَهُ بِطَاعَتِهِ، وَقَرَنَ بَيْنَ مُخَالَفَتِهِ وَمُخَالَفَتِهِ؛ كَمَا قَرَنَ بَيْنَ اسْمِهِ وَاسْمِهِ، فَلَا يُذْكَرُ اللهُ إِلَّا ذُكِرَ مَعَهُ؛ قَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ رضي الله عنهما فِي قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿وَرَفَعْنَا لَكَ ذِكْرَكَ﴾ [الشرح:٤] قَالَ: «لَا أُذْكَرُ إِلَّا ذُكِرْتَ مَعِي»(١).

وَهَذَا كَالتَّشَهُّدِ، وَالْخُطَبِ، وَالْأَذَانِ: أَشْهَدُ أَلَّا إِلَهَ إِلَّا اللهُ، وَأَشْهَدُ أَنَّ مُحَمَّدًا رَسُولُ اللهِ، فَلَا يَصِحُّ الْإِسْلَامُ إِلَّا بِذِكْرِهِ وَالشَّهَادَةِ لَهُ بِالرِّسَالَةِ.

وَكَذَلِكَ لَا يَصِحُّ الْأَذَانُ إِلَّا بِذِكْرِهِ وَالشَّهَادَةِ لَهُ، وَلَا تَصِحُّ الصَّلَاةُ إِلَّا بِذِكْرِهِ

---

(١) أخرجه ابن عساكر في «تاريخه»؛ كما في «الدر المنثور» (٨/ ٥٤٩) عن ابن عباس بسندٍ ضعيفٍ، وورد مثلُه عن مجاهد بسندٍ صحيحٍ؛ أخرجه الشافعيُّ في «مسنده» (١١٥٠) ط دار الكتب العلمية. بيروت، وفي «الرسالة» (ص: ١٦) ط مكتبة ابن تيمية، القاهرة، وعبد الرزاق (٣٥٤٢)، وابن جرير (٢٤/ ٤٩٤)، وابن أبي شيبة في «المصنف» (٧/ ٤٢٠)، والبيهقيُّ في «السنن الكبرى» (٣/ ٢٠٩)، وفي «الدلائل» (٧/ ٣٦) عن مجاهد فذكره. وانظر: «الضعيفة» (١٧٤٦) للألبانيِّ. ط مكتبة المعارف.

وَالشَّهَادَةِ لَهُ، وَلَا تَصِحُّ الْخُطْبَةُ [١] إِلَّا بِذِكْرِهِ وَالشَّهَادَةِ لَهُ.

وَحَذَّرَ اللهُ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى مِنَ الْعَذَابِ وَالْكُفْرِ لِمَنْ خَالَفَهُ؛ قَالَ تَعَالَى: ﴿لَّا تَجْعَلُوا۟ دُعَآءَ ٱلرَّسُولِ بَيْنَكُمْ كَدُعَآءِ بَعْضِكُم بَعْضًا ۚ قَدْ يَعْلَمُ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ يَتَسَلَّلُونَ مِنكُمْ لِوَاذًا ۚ فَلْيَحْذَرِ ٱلَّذِينَ يُخَالِفُونَ عَنْ أَمْرِهِۦٓ أَن تُصِيبَهُمْ فِتْنَةٌ أَوْ يُصِيبَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ [النور:٦٣]؛ قَالَ الْإِمَامُ أَحْمَدُ رحمه الله: أَيُّ فِتْنَةٍ هِيَ؟ إِنَّمَا هِيَ الْكُفْرُ.

وَكَذَلِكَ أَلْبَسَ اللهُ سُبْحَانَهُ الذِّلَّةَ وَالصَّغَارَ لِمَنْ خَالَفَ أَمْرَهُ؛ كَمَا فِي «مُسْنَدِ» الْإِمَامِ أَحْمَدَ مِنْ حَدِيثِ عَبْدِ اللهِ بْنِ عُمَرَ [٢] رضي الله عنهما؛ عَنِ النَّبِيِّ صلى الله عليه وسلم قَالَ: «**بُعِثْتُ بَيْنَ يَدَيِ السَّاعَةِ حَتَّى يُعْبَدَ اللهُ وَحْدَهُ لَا شَرِيكَ لَهُ، وَجُعِلَ رِزْقِي تَحْتَ ظِلِّ رُمْحِي، وَجُعِلَتِ الذِّلَّةُ وَالصَّغَارُ عَلَى مَنْ خَالَفَ أَمْرِي، وَمَنْ تَشَبَّهَ بِقَوْمٍ فَهُوَ مِنْهُمْ**» [٣].

وَكَمَا أَنَّ مَنْ خَالَفَهُ وَشَاقَّهُ وَعَادَاهُ هُوَ الشَّقِيُّ الْهَالِكُ؛ فَكَذَلِكَ مَنْ أَعْرَضَ عَنْهُ وَعَمَّا جَاءَ بِهِ وَاطْمَأَنَّ إِلَى غَيْرِهِ، وَرَضِيَ بِهِ بَدَلًا مِنْهُ هُوَ هَالِكٌ أَيْضًا.

---

(١) وفي المسألة خلافٌ؛ راجع «المغني» لابن قدامة (٣/ ١٦). ط دار الحديث، القاهرة سنة ١٤٢٥هـ.

(٢) هو عبد الله بن عمر بن الخطاب بن نفيل القرشي العدوي أبو عبد الرحمن، أمه زينب بنت مظعون الجمحية، ولد سنة ثلاث من المبعث النبوي، أسلم مع أبيه وهاجر، وعرض نفسه على النبيِّ صلى الله عليه وسلم ببدر فاستصغره، ثم بأحد فكذلك، ثم بالخندق فأجازه، وهو يومئذٍ ابن خمس عشرة سنة، مات سنة اثنتين أو ثلاث وسبعين، وقيل: سنة أربع، وقد بلغ سبعًا وثمانين سنة، وقيل: عاش أربعًا وثمانين والأول أثبت.
● انظر: «الإصابة» (٤٨٥٢)، و«الاستيعاب» (١٦٣٤).

(٣) أخرجه أحمد (٢/ ٥٠، ٩٢)، وعبد بن حميد في «المنتخب» (٨٤٨)، وأبو داود، كتاب اللباس، باب في لبس الشهرة (٤٠٣١)، وابن أبي شيبة في «مصنفه» (٤/ ٥٧٥)، والبيهقيُّ في «الشعب» (١١٩٩)، والطبرانيُّ في «مسند الشاميين» (٢١٦) ط الرسالة، وصحَّحه الألبانيُّ في «صحيح الجامع» (٢٨٣١)، و«الإرواء» (١٢٦٩) ط المكتب الإسلامي.

فَالشَّقَاءُ وَالضَّلَالُ فِي الْإِعْرَاضِ عَنْهُ وَفِي تَكْذِيبِهِ، وَالْهُدَى وَالْفَلَاحُ فِي الْإِقْبَالِ عَلَى مَا جَاءَ بِهِ وَتَقْدِيمِهِ عَلَى كُلِّ مَا سِوَاهُ؛ فَالْأَقْسَامُ ثَلَاثَةٌ: الْمُؤْمِنُ بِهِ، وَهُوَ: الْمُتَّبِعُ لَهُ الْمُحِبُّ لَهُ، الْمُقَدِّمُ لَهُ عَلَى غَيْرِهِ.

وَالْمُعَادِي لَهُ وَالْمُنَابِذُ لَهُ وَالْمُعْرِضُ عَمَّا جَاءَ بِهِ؛ فَالْأَوَّلُ هُوَ السَّعِيدُ، وَالْآخَرَانِ هُمَا الْهَالِكَانِ؛ فَنَسْأَلُ اللهَ الْعَظِيمَ أَنْ يَجْعَلَنَا مِنَ الْمُتَّبِعِينَ لَهُ، الْمُؤْمِنِينَ بِهِ، وَأَنْ يُحْيِينَا عَلَى سُنَّتِهِ، وَيَتَوَفَّانَا عَلَيْهَا لَا يُفَرِّقُ بَيْنَنَا وَبَيْنَهَا؛ إِنَّهُ سَمِيعُ الدُّعَاءِ، وَأَهْلُ الرَّجَاءِ، وَهُوَ حَسْبُنَا وَنِعْمَ الْوَكِيلُ، وَالْحَمْدُ للهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ». انْتَهَى كَلَامُ شَيْخِ الْإِسْلَامِ رحمه الله.

وَحَقِيقٌ بِهَذِهِ الْكَلِمَاتِ أَنْ تُنْقَشَ بِالذَّهَبِ لِجَمَالِهَا، وَأَنْ تُكْتَبَ بِالنُّورِ لِجَلَالِهَا؛ فَرَحْمَةُ اللهِ عَلَى هَذَا الْإِمَامِ الْحَبْرِ، وَنَسْأَلُ اللهَ أَنْ يَجْمَعَنَا بِهِ مَعَ نَبِيِّنَا ﷺ فِي جَنَّاتِ النَّعِيمِ.

فَاللهُ تَعَالَى أَرْسَلَ إِلَيْنَا رَسُولًا؛ فَمَنْ أَطَاعَهُ دَخَلَ الْجَنَّةَ، وَمَنْ عَصَاهُ دَخَلَ النَّارَ؛ قَالَ تَعَالَى: ﴿إِنَّآ أَرْسَلْنَآ إِلَيْكُمْ رَسُولًا شَٰهِدًا عَلَيْكُمْ كَمَآ أَرْسَلْنَآ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ رَسُولًا ﴿١٥﴾ فَعَصَىٰ فِرْعَوْنُ ٱلرَّسُولَ فَأَخَذْنَٰهُ أَخْذًا وَبِيلًا﴾ [المزمل:١٥، ١٦].

فَالنَّبِيُّ ﷺ هُوَ الْإِمَامُ الْأَعْظَمُ، وَخَاتَمُ النَّبِيِّينَ وَالْمُرْسَلِينَ، وَلَمْ يُرْسِلْهُ اللهُ جل جلاله لِلْعَرَبِ فَحَسْبُ؛ بَلْ أَرْسَلَهُ اللهُ جل جلاله إِلَى كُلِّ الْخَلْقِ: ﴿قُلْ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِنِّى رَسُولُ ٱللَّهِ إِلَيْكُمْ جَمِيعًا﴾ [الأعراف:١٥٨]، وَقَالَ جل جلاله: ﴿وَمَآ أَرْسَلْنَٰكَ إِلَّا رَحْمَةً لِّلْعَٰلَمِينَ﴾ [الأنبياء:١٠٧]، وَالْآيَاتُ كَثِيرَةٌ.

وَلَقَدْ أَخَذَ اللهُ جل جلاله الْمِيثَاقَ وَالْعَهْدَ عَلَى النَّبِيِّينَ بِلَا اسْتِثْنَاءٍ، إِذَا بَعَثَ فِيهِمْ مُحَمَّدًا ﷺ أَنْ يُؤْمِنُوا بِهِ، وَأَنْ يَتَّبِعُوهُ؛ قَالَ سُبْحَانَهُ: ﴿وَإِذْ أَخَذَ ٱللَّهُ مِيثَٰقَ ٱلنَّبِيِّۦنَ لَمَآ ءَاتَيْتُكُم مِّن كِتَٰبٍ وَحِكْمَةٍ ثُمَّ جَآءَكُمْ رَسُولٌ مُّصَدِّقٌ لِّمَا مَعَكُمْ لَتُؤْمِنُنَّ بِهِۦ وَلَتَنصُرُنَّهُۥ قَالَ ءَأَقْرَرْتُمْ وَأَخَذْتُمْ عَلَىٰ ذَٰلِكُمْ إِصْرِى قَالُوٓا۟ أَقْرَرْنَا قَالَ فَٱشْهَدُوا۟ وَأَنَا۠ مَعَكُم

مِّنَ ٱلشَّٰهِدِينَ ﴾ [آل عمران:٨١].

وَفِي «صَحِيح مُسْلِم» عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ رضي الله عنه ، عَنِ النَّبِيِّ ﷺ أَنَّهُ قَالَ: «وَالَّذِي نَفْسُ مُحَمَّدٍ بِيَدِهِ! لَا يَسْمَعُ بِي أَحَدٌ مِنْ هَذِهِ الأُمَّةِ يَهُودِيٌّ وَلاَ نَصْرَانِيٌّ، ثُمَّ يَمُوتُ وَلَمْ يُؤْمِنْ بِالَّذِي أُرْسِلْتُ بِهِ، إِلَّا كَانَ مِنْ أَصْحَابِ النَّارِ»(١).

وَاشْتَرَطَ النَّبِيُّ ﷺ السَّمَاعَ؛ لِأَنَّ اللهَ جل جلاله لَا يُعَذِّبُ وَلَا يُحَاسِبُ الْخَلْقَ إِلَّا بَعْدَ أَنْ يُقِيمَ الْحُجَّةَ عَلَيْهِمْ؛ كَمَا قَالَ تَعَالَى: ﴿ رُّسُلًا مُّبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ لِئَلَّا يَكُونَ لِلنَّاسِ عَلَى ٱللَّهِ حُجَّةُۢ بَعْدَ ٱلرُّسُلِۚ وَكَانَ ٱللَّهُ عَزِيزًا حَكِيمًا ﴾[النساء:١٦٥]، وَقَالَ تَعَالَى: ﴿وَمَا كُنَّا مُعَذِّبِينَ حَتَّىٰ نَبۡعَثَ رَسُولًا ﴾[الإسراء:١٥].

إِذًا؛ وَجَبَ عَلَى أَهْلِ الْأَرْضِ بَعْدَ أَنْ بَعَثَ اللهُ فِيهِمْ مُحَمَّدًا ﷺ أَنْ يُؤْمِنُوا بِهِ كَمَا آمَنُوا بِإِخْوَانِهِ مِنَ النَّبِيِّينَ؛ فَنَحْنُ لَا نُفَرِّقُ بَيْنَ نَبِيٍّ وَنَبِيٍّ فِي أَصْلِ الْإِيمَانِ بِاللهِ - تَبَارَكَ وَتَعَالَى- وَفِي الْإِيمَانِ بِهَذَا النَّبِيِّ الْمَبْعُوثِ أَوِ الْمُرْسَلِ مِنْ قِبَلِ اللهِ عز وجل؛ قَالَ تَعَالَى: ﴿ءَامَنَ ٱلرَّسُولُ بِمَآ أُنزِلَ إِلَيۡهِ مِن رَّبِّهِۦ وَٱلۡمُؤۡمِنُونَۚ كُلٌّ ءَامَنَ بِٱللَّهِ وَمَلَٰٓئِكَتِهِۦ وَكُتُبِهِۦ وَرُسُلِهِۦ لَا نُفَرِّقُ بَيۡنَ أَحَدٖ مِّن رُّسُلِهِۦۚ وَقَالُواْ سَمِعۡنَا وَأَطَعۡنَاۖ غُفۡرَانَكَ رَبَّنَا وَإِلَيۡكَ ٱلۡمَصِيرُ ﴾ [البقرة:٢٨٥].

وَفِي «الصَّحِيحَيْنِ» عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ رضي الله عنه أَنَّ رَسُولَ اللهِ ﷺ قَالَ: «فُضِّلْتُ عَلَى الأَنْبِيَاءِ بِسِتٍّ: أُعْطِيتُ جَوَامِعَ الْكَلِمِ، وَنُصِرْتُ بِالرُّعْبِ، وَأُحِلَّتْ لِيَ الْغَنَائِمُ، وَجُعِلَتْ لِيَ الأَرْضُ طَهُورًا وَمَسْجِدًا، وَأُرْسِلْتُ إِلَى الْخَلْقِ كَافَّةً، وَخُتِمَ بِيَ النَّبِيُّونَ» (٢).

(١) أخرجه مسلمٌ، كتاب الإيمان، باب وجوب الإيمان برسالة نبينا محمد ﷺ إلى جميع الناس ونسخ الملل بملته (١٥٣).

(٢) أخرجه البخاريُّ، كتاب الجهاد والسير، باب قول النبيِّ ﷺ: «نُصِرْتُ بِالرُّعْبِ مَسِيرَةَ =

فاللهُ أَرْسَلَ رَسُولَهُ مُحَمَّدًا ﷺ إِلَى جَمِيعِ الْخَلْقِ كَافَّةً؛ فَمَنْ أَطَاعَهُ دَخَلَ الْجَنَّةَ، وَمَنْ عَصَاهُ دَخَلَ النَّارَ؛ قَالَ اللهُ ﷻ: ﴿مَّن يُطِعِ ٱلرَّسُولَ فَقَدْ أَطَاعَ ٱللَّهَ﴾ [النساء: ٨٠].

فَطَاعَةُ رَسُولِ الله ﷺ طَاعَةٌ للهِ، وَمَعْصِيَةُ رَسُولِ الله ﷺ مَعْصِيَةٌ للهِ؛ بَلْ لَا يَجُوزُ لِمَنْ آمَنَ بِالله وَرَسُولِهِ، أَنْ يُقَدِّمَ قَوْلًا أَوْ فِعْلًا عَلَى قَوْلِ وَفِعْلِ رَسُولِ الله ﷺ؛ قَالَ ﷻ: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تُقَدِّمُواْ بَيْنَ يَدَيِ ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ﴾ [الحجرات: ١]؛ قَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ رضي الله عنهما: «أَيْ: لَا تَقُولُوا قَوْلًا خِلَافَ الْكِتَابِ وَالسُّنَّةِ»(١).

وَقَالَ الْقُرْطِبِيُّ (٢): «أَيْ: لَا تُقَدِّمُوا قَوْلًا عَلَى قَوْلِ الله، وَلَا فِعْلًا عَلَى قَوْلِ وَفِعْلِ رَسُولِ اللهِ ﷺ؛ فَإِنَّ مَنْ قَدَّمَ قَوْلَهُ أَوْ فِعْلَهُ عَلَى قَوْلِ وَفِعْلِ رَسُولِ الله؛ فَإِنَّمَا قَدَّمَهُ عَلَى الله؛ لِأَنَّ الرَّسُولَ ﷺ لَا يَأْمُرُ إِلَّا بِمَا أُمِرَ بِهِ مِنَ الله ﷻ» (٣).

=

شَهْرٍ» (٢٩٧٧)، ومسلمٌ، كتاب المساجد ومواضع الصلاة (٥٢٣) واللفظ له، وَثَبَتَ من حديث جابر بن عبد الله رضي الله عنهما عند البخاريِّ (٣٣٥، ٤٣٨، ٣١٢٢)، ومسلمٍ (٥٢١).

(١) أخرجه الطبريُّ في «تفسيره» (٢١/ ١٨٠)، وذكره ابن أبي حاتم في «تفسيره» (١٠/ ٣٣٠٢)، وأبو نعيم في «الحلية» (١٠/ ٣٩٨)، والمروزيُّ في «تعظيم قدر الصلاة» (٢/ ٦٦١) ط مكتبة الدار - المدينة المنورة.

(٢) هو أبو عبد الله بن محمد بن أحمد بن أبي بكر بن فرج الأنصاريُّ الخزرجيُّ القرطبيُّ، صاحب كتاب «التذكرة بأمور الآخرة»، و«التفسير الجامع لأحكام القرآن»؛ قال ابن العماد - عنه -: «الحاكي مذاهب السلف كلها، وما أكثر فوائده، وكان إمامًا علمًا من الغواصين على معاني الحديث، حسن التصنيف، جيد النقل؛ توفي بمنية بني الخصيب من صعيد مصر رحمه الله تعالى أوائل إحدى وسبعين وستمائة» ا. هـ.

● راجع: «شذرات الذهب» (٥/ ٣٣٤)، و«الأعلام» للزركلي (٥/ ٣٢٢).

(٣) «الجامع لأحكام القرآن» (١٦/ ١٩٨) بتصرفٍ، ط الكتب العلمية.

وَقَالَ الشِّنْقِيطِيُّ رحمه الله (١) في قَوْلِهِ: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تُقَدِّمُواْ بَيْنَ يَدَيِ ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ﴾: «وَيَدْخُلُ فِي الْآيَةِ دُخُولًا أَوَّلِيًّا تَشْرِيعُ مَا لَمْ يَأْذَنْ بِهِ الله - تَعَالَى؛ فَلَا حَلَالَ إِلَّا مَا أَحَلَّهُ الله وَرَسُولُهُ، وَلَا حَرَامَ إِلَّا مَا حَرَّمَهُ الله وَرَسُولُهُ، وَلَا دِينَ إِلَّا مَا شَرَعَهُ الله- تَعَالَى- عَلَى لِسَانِ رَسُولِهِ ﷺ» (٢).

إذن؛ طَاعَةُ النَّبِيِّ ﷺ طَاعَةٌ لِلرَّبِّ الْعَلِيِّ، وَمَعْصِيَةُ النَّبِيِّ ﷺ مَعْصِيَةٌ لِلرَّبِّ الْعَلِيِّ؛ قَالَ سُبْحَانَهُ: ﴿ قُلْ أَطِيعُواْ ٱللَّهَ وَٱلرَّسُولَ ﴾[آل عمران:٣٢]، وَقَالَ تَعَالَى: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَطِيعُواْ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ ﴾ [الأنفال:٢٠]، وَقَالَ الله جل جلاله: ﴿وَأَطِيعُواْ ٱللَّهَ وَأَطِيعُواْ ٱلرَّسُولَ وَٱحْذَرُواْ ﴾[المائدة:٩٢]؛ أَي: احْذَرُوا أَنْ تَقَعُوا فِي مُخَالَفَتِهِ ﷺ،

---

(١) هو محمد الأمين، وهو علم مركب من اسمين، وذِكْرُ محمد تبرك، واسم أبيه: محمد المختار بن عبد القادر بن محمد بن أحمد نوح بن محمد بن سيدي أحمد بن المختار، ولد رحمه الله في عام ١٣٢٥هـ.
حفظ القرآن في بيت أخواله على خاله عبد الله.
قال رحمه الله: تعلمت رسم المصحف العثماني «المصحف الأم» عن ابن خالي سيدي محمد بن أحمد بن محمد المختار، وقرأت عليه التجويد في مقرأ نافع برواية ورش من طريق أبي يعقوب الأزرق، وقالون من رواية أبي نشيط، وأخذت عنه سندًا بذلك إلى النبي ﷺ، وذلك وعمري ست عشرة سنة.
وله من التواليف: «أضواء البيان»، و«دفع إيهام الاضطراب عن آي الكتاب»، و«مذكرة الأصول» وغيرها، مات رحمه الله سنة ١٣٩٣ هجرية، بعد أن أحيا علومًا درست، وخلف تراثًا باقيًا، وربى أفواجًا متلاحقة تعد بالآلاف من خريجي كليات ومعاهد الإدارة العامة بالرياض، والجامعة الإسلامية بالمدينة المنورة، ودفن بمقبرة المعلا، بمكة المكرمة، وصلى عليه العلامة ابن باز في الحرم المكي بعد صلاة الظهر من ذلك اليوم؛ فرحمه الله، وطيب ثراه.
● راجع: ترجمته بقلم تلميذه الشيخ عطية سالم رحمه الله؛ كما في «مقدمة أضواء البيان» ط ابن تيمية - القاهرة.
(٢) «أضواء البيان» (٧/ ٦١٤) بتصرفٍ. ط: مكتبة ابن تيمية - القاهرة.

ثُمَّ قَالَ: ﴿وَأَطِيعُواْ ٱللَّهَ وَأَطِيعُواْ ٱلرَّسُولَ وَٱحۡذَرُواْۚ فَإِن تَوَلَّيۡتُمۡ فَٱعۡلَمُوٓاْ أَنَّمَا عَلَىٰ رَسُولِنَا ٱلۡبَلَٰغُ ٱلۡمُبِينُ﴾ [المائدة:٩٢]، وَقَالَ- جَلَّ وَعَلَا-: ﴿وَأَطِيعُواْ ٱللَّهَ وَٱلرَّسُولَ لَعَلَّكُمۡ تُرۡحَمُونَ ۝١٣٢ وَسَارِعُوٓاْ إِلَىٰ مَغۡفِرَةٖ مِّن رَّبِّكُمۡ وَجَنَّةٍ عَرۡضُهَا ٱلسَّمَٰوَٰتُ وَٱلۡأَرۡضُ أُعِدَّتۡ لِلۡمُتَّقِينَ﴾ [آل عمران:١٣٢، ١٣٣]، وَقَالَ سُبْحَانَهُ: ﴿تِلۡكَ حُدُودُ ٱللَّهِۚ وَمَن يُطِعِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ يُدۡخِلۡهُ جَنَّٰتٖ تَجۡرِي مِن تَحۡتِهَا ٱلۡأَنۡهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَاۚ وَذَٰلِكَ ٱلۡفَوۡزُ ٱلۡعَظِيمُ﴾ [النساء:١٣]، وَقَالَ- جَلَّ وَعَلَا-: ﴿وَمَن يُطِعِ ٱللَّهَ وَٱلرَّسُولَ فَأُوْلَٰٓئِكَ مَعَ ٱلَّذِينَ أَنۡعَمَ ٱللَّهُ عَلَيۡهِم مِّنَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ وَٱلصِّدِّيقِينَ وَٱلشُّهَدَآءِ وَٱلصَّٰلِحِينَۚ وَحَسُنَ أُوْلَٰٓئِكَ رَفِيقٗا﴾ [النساء:٦٩]، وَقَالَ تَعَالَى: ﴿وَمَن يُطِعِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ فَقَدۡ فَازَ فَوۡزًا عَظِيمًا﴾ [الأحزاب:٧١]، وَقَالَ تَعَالَى: ﴿وَإِن تُطِيعُوهُ تَهۡتَدُواْ﴾ [النور:٥٤]، وَقَالَ ﷻ: ﴿إِنَّمَا كَانَ قَوۡلَ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ إِذَا دُعُوٓاْ إِلَى ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ لِيَحۡكُمَ بَيۡنَهُمۡ أَن يَقُولُواْ سَمِعۡنَا وَأَطَعۡنَاۚ وَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡمُفۡلِحُونَ ۝٥١ وَمَن يُطِعِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ وَيَخۡشَ ٱللَّهَ وَيَتَّقۡهِ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡفَآئِزُونَ﴾ [النور:٥١، ٥٢]، وَقَالَ تَعَالَى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَطِيعُواْ ٱللَّهَ وَأَطِيعُواْ ٱلرَّسُولَ وَأُوْلِي ٱلۡأَمۡرِ مِنكُمۡ﴾ [النساء:٥٩].

وَفِي الْمُقَابِلِ؛ فَإِنَّ جَزَاءَ مَنْ عَصَاهُ أَنْ يَدْخُلَ النَّارَ؛ قَالَ جَلَّ وَعَلَا: ﴿وَمَن يَعۡصِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ وَيَتَعَدَّ حُدُودَهُۥ يُدۡخِلۡهُ نَارًا خَٰلِدٗا فِيهَا وَلَهُۥ عَذَابٞ مُّهِينٞ﴾ [النساء:١٤]، وَقَالَ تَعَالَى: ﴿إِلَّا بَلَٰغٗا مِّنَ ٱللَّهِ وَرِسَٰلَٰتِهِۦۚ وَمَن يَعۡصِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ فَإِنَّ لَهُۥ نَارَ جَهَنَّمَ خَٰلِدِينَ فِيهَآ أَبَدًا﴾ [الجن:٢٣]، وَحَكَى اللهُ عَنِ الْكُفَّارِ تَمَنِّيَهُمْ طَاعَتَهُ حَيْثُ لَا يَنْفَعُ التَّمَنِّي؛ قَالَ سُبْحَانَهُ: ﴿يَوۡمَ تُقَلَّبُ وُجُوهُهُمۡ فِي ٱلنَّارِ يَقُولُونَ يَٰلَيۡتَنَآ أَطَعۡنَا ٱللَّهَ وَأَطَعۡنَا ٱلرَّسُولَا۠﴾ [الأحزاب:٦٦]؛ لِذَا فَلَا اخْتِيَارَ فِي طَاعَتِهِ؛ قَالَ ﷻ: ﴿وَمَا كَانَ لِمُؤۡمِنٖ وَلَا مُؤۡمِنَةٍ إِذَا قَضَى ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥٓ أَمۡرًا أَن يَكُونَ لَهُمُ ٱلۡخِيَرَةُ مِنۡ أَمۡرِهِمۡۗ وَمَن يَعۡصِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ فَقَدۡ ضَلَّ ضَلَٰلٗا مُّبِينٗا﴾ [الأحزاب:٣٦]، وَقَالَ

الله ﷻ فِي آيَةٍ جَامِعَةٍ: ﴿وَمَآ ءَاتَىٰكُمُ ٱلرَّسُولُ فَخُذُوهُ وَمَا نَهَىٰكُمْ عَنْهُ فَٱنتَهُوا۟ ۚ وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ ۖ إِنَّ ٱللَّهَ شَدِيدُ ٱلْعِقَابِ﴾ [الحشر: ٧].

فَمَنْ زَعَمَ أَنَّهُ يَجِبُ عَلَى الْأُمَّةِ أَنْ تَأْخُذَ بِالْقُرْآنِ- فَقَطْ- دُونَ السُّنَّةِ؛ فَهُوَ مُكَذِّبٌ لِلْقُرْآنِ!! وَأَنَا أَقُولُ: وَالله لَا يَسْتَطِيعُ أَعْقَلُ أَهْلِ الْأَرْضِ أَنْ يَفْهَمَ كِتَابَ الله ﷻ بَعِيدًا عَنْ سُنَّةِ رَسُولِ الله ﷺ، فَلْيَفْتَحْ وَاحِدٌ مِنْ هَؤُلَاءِ الْقُرْآنَ، وَيَقْرَأْ مِنْ سُورَةِ الْفَاتِحَةِ إِلَى سُورَةِ النَّاسِ، وَلْيُخْبِرْنَا بَعِيدًا عَنِ السُّنَّةِ كَيْفَ نُصَلِّي؟ وَكَيْفَ نَحُجُّ؟ وَكَيْفَ نُزَكِّي؟ وَكَيْفَ نَصُومُ؟ وَمَتَى نُفْطِرُ؟ وَمَتَى نُمْسِكُ؟ وَمَا مُبْطِلَاتُ الصَّوْمِ؟ وَمَا وَاجِبَاتُهُ؟ وَمَا مَنْدُوبَاتُهُ؟ وَمَا أَرْكَانُ الْحَجِّ؟ وَمَا الْفَرْقُ بَيْنَ وَادِي عَرَفَةَ، وَوَادِي عُرَنَةَ؟ وَمَا وَاجِبَاتُ الْحَجِّ؟ وَمَا الْفَرْقُ بَيْنَ الرُّكُوعِ وَالسُّجُودِ؟ وَمَا الَّذِي أَقُولُهُ فِي الرُّكُوعِ؟ وَمَا الَّذِي أَقُولُهُ فِي السُّجُودِ؟ إِلَى غَيْرِ ذَلِكَ؛ فَلَا يَسْتَطِيعُ عَاقِلٌ عَلَى وَجْهِ الْأَرْضِ أَنْ يَفْهَمَ الْقُرْآنَ بَعِيدًا عَنْ سُنَّةِ النَّبِيِّ ﷺ؛ لِذَا يَقُولُ نَبِيُّنَا ﷺ: **«إِنِّي قَدْ تَرَكْتُ فِيكُمْ شَيْئَيْنِ لَنْ تَضِلُّوا بَعْدَهُمَا: كِتَابَ الله وَسُنَّتِي، وَلَنْ يَفْتَرِقَا حَتَّى يَرِدَا عَلَيَّ الْحَوْضَ»** (١).

وَمِنْ جَمِيلِ مَا قَالَهُ الْأَوْزَاعِيُّ (٢) عَنْ مَكْحُولٍ (٣) قَالَ: «الْقُرْآنُ أَحْوَجُ إِلَى

---

(١) أخرجه الحاكم في «المستدرك» (١/ ١٧٢)، والدارقطنيُّ في «سننه» (٤/ ٢٤٤) ط دار المعرفة -بيروت سنة ١٣٨٦هـ، والعقيليُّ في «الضعفاء» (٢/ ٢٥٠) ط دار الكتب العلمية سنة١٤٠٤هـ، والخطيب في «الفقيه والمتفقه» (٢٧٤، ٢٧٥) ط مكتبة التوعية الإسلامية سنة ١٤٢٨ هـ، وله شواهد صحَّحه بها الألبانيُّ رحمه الله في «صحيح الجامع» رقم (٢٩٣٧)، و«الصحيحة» (١٧٦١).

(٢) هو عبد الرحمن بن عمرو بن يحمد، شيخ الإسلام، وعالم أهل الشام، أبو عمرو الأوزاعيُّ، كان مولده في حياة الصحابة، وكان ثقة جليل القدر، ولد سنة ثمان وثمانين، وكان خيِّرًا، فاضلًا، مأمونًا، كثير العلم والحديث والفقه، حُجَّة، توفي سنة سبع وخمسين ومائة.

● راجع: «سير أعلام النبلاء» (١١٨٦)، و«تقريب التهذيب» (٤٤٣٥).

(٣) هو مكحول الشامي أبو عبد الله، عالم وفقيه أهل الشام ومفتيهم؛ قال الذهبيُّ في «ميزان =

السُّنَّةِ، مِنْ السُّنَّةِ إِلَى الْقُرْآنِ» (١).

وَقَالَ يَحْيَى بْنُ أَبِي كَثِيرٍ رحمه الله (٢): «السُّنَّةُ قَاضِيَةٌ عَلَى الْكِتَابِ، وَلَيْسَ الْكِتَابُ قَاضِيًا عَلَى السُّنَّةِ» (٣).

وَقَالَ الْإِمَامُ الشَّوْكَانِيُّ رحمه الله (٤): «إِنَّ ثُبُوتَ حُجِّيَّةِ السُّنَّةِ الْمُطَهَّرَةِ، وَاسْتِقْلَالَهَا

=

الاعتدال» (٤/ ١٧٧) ط المعرفة بيروت: «**قلت**: هو صاحب تدليس، وقد رُمي بالقدر؛ فالله أعلم»، ثم نَقل عن الزهريِّ قوله: «العلماء أربعة: سعيد بن المسيب بالمدينة، والشعبيُّ بالكوفة، والحسن بالبصرة، ومكحول بالشام»، قال يحيى بن معين: «كان قدريًّا، ثم رجع»، وقال الأوزاعيُّ: «لم يبلغنا أن أحدًا من التابعين تكلَّم في القدر إلا الحسن ومكحول، فكشفنا عن ذلك؛ فإذا هو باطل»، وقد تُوفي رحمه الله سنة بضع عشرة ومائة.

● راجع: «السير» (٤/ ٤٢٤)، و«حلية الأولياء» (٥/ ١٦٠)، و«التقريب» (٧٧٣٨).

(١) أخرجه الخطيب في «الكفاية» (٢١) ط ابن عباس، مصر، المنصورة. وابن بطة في «الإبانة» (٨٩) ط الفاروق الحديثة؛ القاهرة، سنة ١٤٢٩هـ، والهرويُّ في «ذم الكلام» (٢/ ٦٠) ط أطلس للنشر والتوزيع الرياض سنة/ ١٩٩٦م.

(٢) هو يحيى بن أبي كثير، الإمام، الحافظ، أحد الأعلام، أبو نصر الطائي مولاهم، اليمامي، كان طلَّابة للعلم حجة، ثقة ثبت، قال أحمد: «هو من أثبت الناس»، وقال ابن حبان: «كان من العُبَّاد، إذا حضر جنازة، لم يتعشَّ تلك الليلة، ولا يكلمه أحد»، مات سنة تسع وعشرين، ومائة وقيل: سنة اثنتين وثلاثين ومائة، والأول أصح؛ راجع: «سير أعلام النبلاء» (٩٧٦)، و«التقريب» (٨٥٩٧).

(٣) أخرجه الخطيب في «الكفاية» (٢١)، والدارميُّ في «سننه» (١/ ٤٥)، وابن بطة في «الإبانة» (٨٩، ٩٠)، والهروي في «ذم الكلام» (٢/ ٥٨).

(٤) هو محمد بن علي بن محمد بن عبد الله الشوكاني، ثم الصنعاني، ولد سنة ١١٧٣هـ، كان كثير الاشتغال بمطالعة كتب «التواريخ ومجاميع الأدب»، وكانت الفُتيا تدور عليه من عوامِّ الناس وخواصهم، واستمر يفتي من نحو العشرين من عمره، فما بعد ذلك، وصنف تصانيف مطولات ومختصرات؛ فمنها: «الدرر البهية» وشرحها: «الدراري المضية»، و«الفوائد المجموعة في الأحاديث الموضوعة»، و«نيل الأوطار»، و«السيل الجرار»، و «فتح القدير» في التفسير؛ توفي رحمه الله سنة ١٢٥٠هـ.

=

بِتَشْرِيعِ الْأَحْكَامِ ضَرُورَةٌ دِينِيَّةٌ، وَلَا يُخَالِفُ ذَلِكَ إِلَّا مَنْ لَا حَظَّ لَهُ فِي دِينِ الْإِسْلَامِ» (١).

وَمِنْ بَدِيعِ مَا قَالَهُ ابْنُ الْقَيِّمِ رحمه الله **قَوْلُهُ** (٢): «وَالسُّنَّةُ مَعَ الْقُرْآنِ عَلَى ثَلَاثَةِ أَوْجُهٍ:

الْوَجْهُ الْأَوَّلُ: أَنْ تَكُونَ السُّنَّةُ مُوَافِقَةً لِلْقُرْآنِ مِنْ كُلِّ وَجْهٍ، فَيَكُونُ تَوَارُدُ الْقُرْآنِ وَالسُّنَّةِ عَلَى الْحُكْمِ الْوَاحِدِ مِنْ بَابِ تَوَارُدِ الْأَدِلَّةِ وَتَضَافُرِهَا».

يَعْنِي: يَأْتِي فِي الْقُرْآنِ الْأَمْرُ بِالتَّوْحِيدِ، وَالصَّلَاةِ، وَالصِّيَامِ، وَالزَّكَاةِ، وَالْحَجِّ، فَيَأْتِي صَاحِبُ السُّنَّةِ ﷺ؛ كَمَا فِي «**الصَّحِيحَيْنِ**» عَنِ ابْنِ عُمَرَ رضي الله عنهما قَالَ: قَالَ رَسُول الله ﷺ: «**بُنِيَ الإِسْلَامُ عَلَى خَمْسٍ: شَهَادَةِ أَنْ لاَ إِلَهَ إِلاَّ الله، وَأَنَّ مُحَمَّدًا رَسُولُ الله، وَإِقَامِ الصَّلَاةِ، وَإِيتَاءِ الزَّكَاةِ، وَالْحَجِّ، وَصَوْمِ رَمَضَانَ**»(٣)؛ فَتَتَضَافَرُ السُّنَّةُ مَعَ الْقُرْآنِ فِي الْبَابِ الْوَاحِدِ، أَوْ فِي الْمَسْأَلَةِ الْوَاحِدَةِ؛ هَذَا هُوَ الْوَجْهُ الْأَوَّلُ مِنْ أَوْجُهِ السُّنَّةِ مَعَ الْقُرْآنِ.

قَالَ: «**الْوَجْهُ الثَّانِي**: أَنْ تَكُونَ السُّنَّةُ بَيَانًا لِمَا أُرِيدَ بِالْقُرْآنِ وَتَفْسِيرًا لَهُ»؛ فَالسُّنَّةُ مُبَيِّنَةٌ، وَمُوَضِّحَةٌ، وَمُفَسِّرَةٌ لِمَا أَجْمَلَهُ الْقُرْآنُ، يَأْمُرُ الله فِي الْقُرْآنِ بِالصَّلَاةِ؛ فَيَقُولُ رَبُّنَا تَبَارَكَ وَتَعَالَى: ﴿وَأَقِيمُواْ ٱلصَّلَوٰةَ﴾ [البقرة:٤٣].

فَكَأَنَّمَا سَأَلَ سَائِلٌ: كَيْفَ نُقِيمُ الصَّلَاةَ؟ فَيَقُومُ صَاحِبُ السُّنَّةِ ﷺ؛ لِيُصَلِّيَ

=

● راجع: «البدر الطالع بمحاسن من بعد القرن السابع» (٧٦٨). ط ابن كثير بيروت سنة ١٤٢٧هـ.

(١) «إرشاد الفحول» (٥٣) ط دار الكتاب العربي سنة ١٤١٩هـ.

(٢) «إعلام الموقعين» (٢/ ٢٧٠، ٢٧١) بتصرف.

(٣) أخرجه البخاريُّ، كتاب الإيمان، باب بني الإسلام على خمس (٨)، ومسلمٌ، كتاب الإيمان، باب بيان أركان الإسلام ودعائمه العظام (١٦).

أَمَامَ الصَّحَابَةِ، وَيَقُولُ: «صَلُّوا كَمَا رَأَيْتُمُونِي أُصَلِّي»(١).

وَقَالَ الله - تَبَارَكَ وَتَعَالَى: ﴿وَءَاتُواْ ٱلزَّكَوٰةَ﴾ كَيْفَ نُؤْتِي الزَّكَاةَ؟ وَمَا مِقْدَارُهَا؟ وَمَا نَصِيبُ كُلِّ وَاحِدٍ مِنْ هَؤُلَاءِ الَّذِينَ أُخْرِجُ لَهُمُ الزَّكَاةَ؟ فَيَأْتِي صَاحِبُ السُّنَّةِ ﷺ لِيُبَيِّنَ مِقْدَارَ الزَّكَاةِ، وَنِصَابَهَا، وَمَا يَجِبُ فِيهَا.

وَقَالَ سُبْحَانَهُ: ﴿وَأَتِمُّواْ ٱلْحَجَّ وَٱلْعُمْرَةَ﴾ [البقرة:١٩٦]، وَالسُّؤَالُ: كَيْفَ أَحُجُّ؟ وَكَيْفَ أَعْتَمِرُ؟ فَيَأْتِي صَاحِبُ السُّنَّةِ، وَيَقُولُ: «لِتَأْخُذُوا مَنَاسِكَكُمْ»(٢)؛ أَيْ: عَنْهُ ﷺ.

قَالَ: «وَالْوَجْهُ الثَّالِثُ: أَنْ تَكُونَ السُّنَّةُ مُوجِبَةً لِحُكْمٍ سَكَتَ الْقُرْآنُ عَنْ إِيجَابِهِ، أَوْ مُحَرِّمَةً لِمَا سَكَتَ عَنْ تَحْرِيمِهِ».

وَهَذَا مِنْ أَهَمِّ أَوْجُهِ السُّنَّةِ مَعَ الْقُرْآنِ، لَا سِيَّمَا فِي هَذَا الزَّمَنِ الَّذِي انْتَشَرَتْ فِيهِ الْفِتَنُ؛ فَقَدْ أَنْكَرَ هَذَا التَّأْصِيلَ الْمُغْرِضُونَ الْأَفَّاكُونَ، وَتِلْكَ الْفِتْنَةُ يُغْنِي بُطْلَانُهَا - أَصْلًا- عَنْ إِبْطَالِهَا، وَيُغْنِي فَسَادُهَا عَنْ إِفْسَادِهَا، وَيُغْنِي كَسَادُهَا عَنْ إِكْسَادِهَا.

أَوَ لَمْ يَقُلْ رَبُّنَا - جَلَّ وَعَلَا-: ﴿وَٱلنَّجْمِ إِذَا هَوَىٰ ۝١ مَا ضَلَّ صَاحِبُكُمْ وَمَا غَوَىٰ ۝٢ وَمَا يَنطِقُ عَنِ ٱلْهَوَىٰٓ ۝٣ إِنْ هُوَ إِلَّا وَحْيٌ يُوحَىٰ ۝٤ عَلَّمَهُۥ شَدِيدُ ٱلْقُوَىٰ﴾[النجم:١- ٥].

وَفِي «مُسْنَدِ» أَحْمَدَ، «وَسُنَنِ» أَبِي دَاوُدَ وَالتِّرْمِذِيِّ - بِسَنَدٍ صَحِيحٍ- عَنِ الْمِقْدَامِ بْنِ مَعْدِ يكَرِبَ الْكِنْدِيِّ(٣) رضي الله عنه قَالَ: قَالَ رَسُولُ الله ﷺ: «أَلَا إِنِّي

---

(١) أخرجه البخاريُّ، كتاب الأذان، باب الأذان للمسافر إذا كانوا جماعة (٦٣١).

(٢) أخرجه مسلمٌ، كتاب الحج، باب استحباب رمي جمرة العقبة يوم النحر راكبًا (١٢٩٧).

(٣) هو المقدام بن معد يكرب بن عمرو بن يزيد بن معد يكرب بن عبد الله بن وهب بن ربيعة بن الحارث بن معاوية بن ثور بن عفير الكندي، يكنى: أبا كريمة، وقيل: أبو صالح، وقيل: أبو يحيى، وهو أحد الوفد الذين وفدوا على رسول الله ﷺ من كندة =

أُوتِيتُ الْكِتَابَ وَمِثْلَهُ مَعَهُ، أَلاَ إِنِّي أُوتِيتُ الْقُرْآنَ وَمِثْلَهُ مَعَهُ، أَلاَ يُوشِكُ رَجُلٌ يَنْثَنِي شَبْعَانَ عَلَى أَرِيكَتِهِ، يَقُولُ: عَلَيْكُمْ بِالْقُرْآنِ، فَمَا وَجَدْتُمْ فِيهِ مِنْ حَلاَلٍ فَأَحِلُّوهُ، وَمَا وَجَدْتُمْ فِيهِ مِنْ حَرَامٍ فَحَرِّمُوهُ، أَلاَ لاَ يَحِلُّ لَكُمْ لَحْمُ الْحِمَارِ الأَهْلِيِّ، وَلاَ كُلُّ ذِي نَابٍ مِنَ السِّبَاعِ أَلاَ وَلاَ لُقَطَةٌ مِنْ مَالِ مُعَاهِدٍ، إِلَّا أَنْ يَسْتَغْنِيَ عَنْهَا صَاحِبُهَا، وَمَنْ نَزَلَ بِقَوْمٍ فَعَلَيْهِمْ أَنْ يَقْرُوهُمْ، فَإِنْ لَمْ يَقْرُوهُمْ، فَلَهُمْ أَنْ يُعْقِبُوهُمْ بِمِثْلِ قِرَاهُمْ» (١).

وَقَالَ مَيْمُونُ بْنُ مِهْرَانَ (٢) رحمه الله فِي قَوْلِهِ: ﴿فَإِن تَنَٰزَعۡتُمۡ فِي شَيۡءٖ فَرُدُّوهُ إِلَى ٱللَّهِ وَٱلرَّسُولِ﴾ [النساء:٥٩]: «الرَّدُّ إِلَى اللهِ، هُوَ الرُّجُوعُ إِلَى الْقُرْآنِ الْكَرِيمِ، وَالرَّدُّ إِلَى رَسُولِ اللهِ ﷺ، هُوَ الرُّجُوعُ إِلَى النَّبِيِّ ﷺ فِي حَيَاتِهِ، وَالرُّجُوعِ إِلَى السُّنَّةِ بَعْدَ

= يعد في أهل الشام، وبها مات سنة سبع وثمانين، وهو ابن إحدى وتسعين، وقيل: مات سنة ثلاث، وقيل: سنة ست؛ انظر: «الاستيعاب» (١٥٦٨)، و«الإصابة» (٨٢٠٢)، و«أسد الغابة» (٥٠٧٨)، و«تقريب التهذيب» (٦٨٧١).

(١) أخرجه أحمد في «مسنده» (٤/ ١٣٠، ١٣١)، وأبو داود، كتاب السنة، باب لزوم السنة (٤٦٠٤)، والترمذيُّ، كتاب العلم، باب ما نهي أن يقال عن حديث النبي ﷺ (٢٦٦٤) وقال: «حسن غريب من هذا الوجه»، وابن ماجه في المقدمة، باب تعظيم حديث رَسُول الله ﷺ (١٢)، والدارميُّ (٥٨٦)، وابن حبان (١٢)، والحاكم (١/ ١٠٩) وصحَّحَهُ، ووافقه الذهبيُّ، وصحَّحَه الألبانيُّ في «صحيح سنن أبي داود».
قُلْتُ (الباحث): وهذا تشريعٌ تستقلُّ به السنة، ويستقل به صاحب السنة ﷺ؛ فبموجب هذا الحديث حَرَّم رَسُول الله ﷺ أكل لحوم الحُمُرِ الأهلية، وكل ذي ناب من السباع، وحرم لقطة المعاهد إلا أن يستغني عنها صاحبها.

(٢) هو ميمون بن مهران الجزري، أبو أيوب، أصله كوفي نزل الرقة، ثقة فقيه، ولي الجزيرة لعمر بن عبد العزيز؛ قال عنه أبو نعيم: «الحكيم اليقظان، إمام أهل الجزيرة، حميد السيرة، سديد السريرة»؛ مات سنة سبع عشرة ومائة؛ انظر: «التقريب» (٧٩٣٧)، و«الحلية» لأبي نعيم (ترجمة رقم:٢٥١) (٤/ ٦٧).

مَمَاتِهِ» (١)، وَنُلَاحِظُ أَنَّ اللهَ تَعَالَى لَمْ يَقُلْ: وَأَطِيعُوا أُولِي الْأَمْرِ مِنكُمْ؛ بَلْ جَعَلَ طَاعَةَ أُولِي الْأَمْرِ تَابِعَةً لِطَاعَةِ اللهِ وَرَسُولِهِ.

وَفِي «صَحِيحِ الْبُخَارِيِّ» (٢) عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ ﷺ أَنَّ رَسُولَ اللهِ ﷺ قَالَ: «**كُلُّ أُمَّتِي يَدْخُلُونَ الْجَنَّةَ إِلَّا مَنْ أَبَى**» قَالُوا: يَا رَسُولَ اللهِ، وَمَنْ يَأْبَى؟ قَالَ: «**مَنْ أَطَاعَنِي دَخَلَ الْجَنَّةَ، وَمَنْ عَصَانِي فَقَدْ أَبَى**».

فَالَّذِي يَأْبَى أَنْ يَدْخُلَ الْجَنَّةَ هُوَ مَنْ عَصَى النَّبِيَّ ﷺ، مَعَ أَنَّ النَّبِيَّ ﷺ يَدْفَعُ هَؤُلَاءِ دَفْعًا إِلَى دُخُولِ الْجِنَانِ، وَإِلَى الْبُعْدِ عَنِ النِّيرَانِ؛ فَمَا مِنْ خَيْرٍ إِلَّا وَأَمَرَنَا بِهِ، وَمَا مِنْ شَرٍّ إِلَّا وَحَذَّرَنَا مِنْهُ ﷺ.

وَفِي «الصَّحِيحَيْنِ»(٣) عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ ﷺ أَنَّهُ ﷺ قَالَ: «**مَنْ أَطَاعَنِي فَقَدْ أَطَاعَ اللهَ، وَمَنْ عَصَانِي فَقَدْ عَصَى اللهَ**».

وَفِي «الصَّحِيحَيْنِ» (٤) مِنْ حَدِيثِ أَبِي مُوسَى ﷺ أَنَّهُ ﷺ قَالَ: «**إِنَّمَا مَثَلِي وَمَثَلُ مَا بَعَثَنِي اللهُ بِهِ، كَمَثَلِ رَجُلٍ أَتَى قَوْمًا فَقَالَ: يَا قَوْمِ، إِنِّي رَأَيْتُ الْجَيْشَ بِعَيْنَيَّ، وَإِنِّي أَنَا النَّذِيرُ الْعُرْيَانُ، فَالنَّجَاءَ، فَأَطَاعَهُ طَائِفَةٌ مِنْ قَوْمِهِ فَأَدْلَجُوا، فَانْطَلَقُوا عَلَى مَهَلِهِمْ فَنَجَوْا، وَكَذَّبَتْ طَائِفَةٌ مِنْهُمْ، فَأَصْبَحُوا مَكَانَهُمْ، فَصَبَّحَهُمُ**

---

(١) أخرجه الطبريُّ في «تفسيره» (٩٩١١، ٩٩١٢)، وابن أبي حاتم في «تفسيره» (٣/ ٩٩٠)، والبيهقي في «الاعتقاد» (٢٩٦) ط دار الفضيلة.

(٢) أخرجه البخاريُّ، كتاب الاعتصام بالكتاب والسنة، باب الاقتداء بسنة الرَّسُول ﷺ (٧٢٨٠).

(٣) أخرجه البخاريُّ، كتاب الأحكام، باب قول الله تعالى: ﴿وَأَطِيعُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ﴾ [النساء:٥٩] (٧١٣٧)، وانظر: (٢٩٥٧)، ومسلمٌ، كتاب الإمارة، باب وجوب طاعة الأمراء في غير معصية، وتحريمها في المعصية (١٨٣٥).

(٤) أخرجه البخاريُّ، كتاب الاعتصام، باب الاقتداء بسنن رَسُول الله ﷺ (٧٢٨٣)، وانظر: (٦٤٨٢)، ومسلمٌ، كتاب الفضائل، باب شفقته ﷺ على أمته ومبالغته في تحذيرهم عما يضرهم (٢٢٨٣).

الْجَيْشُ، فَأَهْلَكَهُمْ وَاجْتَاحَهُمْ، فَذَلِكَ مَثَلُ مَنْ أَطَاعَنِي، فَاتَّبَعَ مَا جِئْتُ بِهِ، وَمَثَلُ مَنْ عَصَانِي، وَكَذَّبَ بِمَا جِئْتُ بِهِ مِنَ الْحَقِّ».

وَمِنْ أَرَقِّ الْأَحَادِيثِ الَّتِي قَرَأْتُهَا فِي هَذَا الْبَابِ؛ مَا رَوَاهُ الْإِمَامُ الْبُخَارِيُّ مِنْ حَدِيثِ جَابِرِ بْنِ عَبْدِ اللهِ رضي الله عنهما (١) قَالَ: «جَاءَتْ مَلَائِكَةٌ إِلَى النَّبِيِّ ﷺ وَهُوَ نَائِمٌ؛ فَقَالَ بَعْضُهُمْ: إِنَّهُ نَائِمٌ، وَقَالَ بَعْضُهُمْ: إِنَّ الْعَيْنَ نَائِمَةٌ، وَالْقَلْبَ يَقْظَانُ، فَقَالُوا: إِنَّ لِصَاحِبِكُمْ هَذَا مَثَلاً، فَاضْرِبُوا لَهُ مَثَلاً، فَقَالَ بَعْضُهُمْ: إِنَّهُ نَائِمٌ، وَقَالَ بَعْضُهُمْ: إِنَّ الْعَيْنَ نَائِمَةٌ، وَالْقَلْبَ يَقْظَانُ، فَقَالُوا: مَثَلُهُ كَمَثَلِ رَجُلٍ بَنَى دَارًا، وَجَعَلَ فِيهَا مَأْدُبَةً، وَبَعَثَ دَاعِيًا، فَمَنْ أَجَابَ الدَّاعِيَ دَخَلَ الدَّارَ وَأَكَلَ مِنَ الْمَأْدُبَةِ، وَمَنْ لَمْ يُجِبِ الدَّاعِيَ لَمْ يَدْخُلِ الدَّارَ، وَلَمْ يَأْكُلْ مِنَ الْمَأْدُبَةِ، فَقَالُوا: أَوِّلُوهَا لَهُ يَفْقَهْهَا، فَقَالَ بَعْضُهُمْ: إِنَّهُ نَائِمٌ، وَقَالَ بَعْضُهُمْ: إِنَّ الْعَيْنَ نَائِمَةٌ، وَالْقَلْبَ يَقْظَانُ، فَقَالُوا: فَالدَّارُ الْجَنَّةُ، وَالدَّاعِي مُحَمَّدٌ ﷺ، فَمَنْ أَطَاعَ مُحَمَّدًا ﷺ، فَقَدْ أَطَاعَ اللهَ، وَمَنْ عَصَى مُحَمَّدًا ﷺ، فَقَدْ عَصَى اللهَ، وَمُحَمَّدٌ ﷺ فَرْقٌ بَيْنَ النَّاسِ» (٢)؛ فَمِنْ خُصُوصِيَّاتِ النَّبِيِّ ﷺ أَنَّهُ كَانَ لَا يَنَامُ قَلْبُهُ، وَإِنْ نَامَتْ عَيْنُهُ - عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ.

---

(١) هو جابر بن عبد الله بن عمرو بن حرام بن كعب بن غنم بن كعب بن سلمة الأنصاري السلمي - يكنى: أبا عبد الله وأبا عبد الرحمن وأبا محمد- أقوال.
أحدُ المكثرين عن النبيِّ ﷺ، وروى عنه جماعة من الصحابة، شهد العقبة الثانية مع أبيه وهو صغير، ولم يشهد الأولى، ذكره بعضهم في البدريين، ولا يصحُّ؛ لأنه قد روي عنه أنه قال: لم أشهد بدرًا ولا أُحدًا منعني أبي، وذكر البخاريُّ أنه شهد بدرًا، وكان ينقل لأصحابه الماء يومئذٍ، ثم شهد بعدها مع النبيِّ ﷺ ثمان عشرة غزوة، وقال الحافظ: غزا تسع عشرة غزوة، وكان من المكثرين في الحديث، الحافظين للسنن، مات بالمدينة بعد السبعين، وهو ابن أربع وتسعين.
● راجع: «الاستيعاب» (٢٩٤)، و«أسد الغابة» (١/ ٢٤٩)، و«الإصابة» (١/ ٣٨١)، و«تقريب التهذيب» (٨٧١).

(٢) أخرجه البخاريُّ، كتاب الاعتصام بالكتاب والسنة، باب الاقتداء بسنة النبيِّ ﷺ (٧٢٨١).

فَهَذِهِ الدَّارُ - الْجَنَّةُ -، وَمَا أَعَدَّ الله ﷻ فِيهَا مِنَ النَّعِيمِ، لَا تَكُونُ وَلَا يَكُونُ نَعِيمُهَا إِلَّا لِمَنْ أَطَاعَ مُحَمَّدًا ﷺ، وَمَنْ لَمْ يُجِبِ الدَّاعِيَ لَمْ يَدْخُلِ الدَّارَ، وَلَمْ يَأْكُلْ مِنَ الْمَأْدُبَةِ، أَيْ: لَمْ يَسْتَمْتِعْ بِنَعِيمِهَا مَنْ عَصَى مُحَمَّدًا ﷺ؛ فَمُحَمَّدٌ فَرْقٌ بَيْنَ النَّاسِ (١).

وَبَعْدُ.. فَإِذَا كَانَتِ الْبَشَرِيَّةُ - الْآنَ - تَحْتَاجُ إِلَى رَسُولِ الله ﷺ وَلِمَنْهَجِهِ وَرِسَالَتِهِ؛ فَمَا أَحْوَجَ الدُّعَاةَ - إِلَى الله - إِلَيْهِ ﷺ؛ فَهُوَ أُسْوَةُ كُلِّ الدُّعَاةِ، وَهَذَا مَا نَتَعَرَّفُ عَلَيْهِ بِإِيجَازٍ شَدِيدٍ فِي الْفَصْلِ الْقَادِمِ - بِإِذْنِ اللهِ تَعَالَى.

❊ ❊ ❊

(١) راجع: «شرح الأصول الثلاثة» للباحث (١١٤) وما بعدها، ط دار فياض، المنصورة.

المَبْحَثُ الرَّابِعُ
أُسْوَةُ الدُّعَاةِ

حَرِيٌّ بِكُلِّ مَنْ سَلَكَ طَرِيقَ الدَّعْوَةِ إِلَى اللهِ ﷻ وَشَرَّفَهُ اللهُ بِالسَّيْرِ عَلَى خُطَى النَّبِيِّ ﷺ أَنْ يَقِفَ عَلَى هَذِهِ الْمَعَانِي الْمُجْمَلَةِ مِنْ أَخْلَاقِ وَصِفَاتِ أُسْوَةِ الدُّعَاةِ ﷺ؛ فَلَقَدْ أَكْمَلَ اللهُ تَعَالَى لَهُ الْمَحَاسِنَ خَلْقًا وَخُلُقًا؛ فَهُوَ ﷺ أَعْلَى النَّاسِ قَدْرًا، وَأَعْظَمُهُمْ مَحَلًّا، وَأَكْمَلُهُمْ مَحَاسِنَ وَفَضْلًا، وَأَرْجَحُهُمْ عَقْلًا، وَأَفْضَلُهُمْ رَأْيًا؛ فَأَحْسَنُ الْبَشَرِيَّةِ خُلُقًا هُوَ رَسُولُ اللهِ ﷺ، وَأَكْرَمُ الْبَشَرِيَّةِ عَلَى اللهِ هُوَ النَّبِيُّ ﷺ، وَلَقَدْ صَنَّفَ عُلَمَاؤُنَا فِي أَخْلَاقِهِ وَشَمَائِلِهِ كَثِيرًا مِنَ الْمُصَنَّفَاتِ؛ لَوْ عُدْتَ إِلَى هَذِهِ الْمُصَنَّفَاتِ وَالْمُجَلَّدَاتِ الضَّخْمَةِ الَّتِي وَقَفْتَ عَلَى جَانِبٍ يَسِيرٍ مِنْ أَخْلَاقِ الْبَشِيرِ النَّذِيرِ ﷺ لَرَأَيْتَ الْعَجَبَ الْعُجَابَ [1]، وَلَنْ نَسْتَطِيعَ أَنْ نَقِفَ عِنْدَ كُلِّ صِفَةٍ مِنْ أَخْلَاقِهِ؛ بَلْ أُجْمِلُ لَكَ أَخْلَاقَهُ إِجْمَالًا، وَأَقِفُ بَعْدَهَا مَعَ بَعْضِ التَّفْصِيلَاتِ مِنْ جَوَانِبِ خُلُقِ النَّبِيِّ ﷺ فَحَسْبُ.

لَقَدْ كَانَ النَّبِيُّ ﷺ أَحْسَنَ النَّاسِ، وَأَشْجَعَ النَّاسِ، وَأَعْدَلَ النَّاسِ، وَكَانَ أَزْكَى النَّاسِ، وَكَانَ أَزْهَدَ النَّاسِ، وَكَانَ أَشَدَّ حَيَاءً مِنَ الْعَذْرَاءِ فِي خِدْرِهَا، وَكَانَ يَقْبَلُ الْهَدِيَّةَ وَيُكَافِئُ عَلَيْهَا، وَكَانَ لَا يَسْتَكْبِرُ عَنْ إِجَابَةِ دَعْوَةِ الْأَمَةِ وَالْفَقِيرِ وَالْمِسْكِينِ، وَكَانَ يَغْضَبُ لِرَبِّهِ، وَلَا يَغْضَبُ لِنَفْسِهِ أَبَدًا، وَكَانَ يَضَعُ الْحَجَرَ عَلَى بَطْنِهِ أَحْيَانًا كَثِيرَةً مِنْ شِدَّةِ الْجُوعِ، وَهُوَ حَبِيبُ اللهِ، إِنْ وَجَدَ شِوَاءً أَكَلَهُ، وَإِنْ وَجَدَ حُلْوًا أَكَلَهُ، وَإِنْ وَجَدَ دُونَ خُبْزٍ أَكَلَهُ، وَإِنْ وَجَدَ بِطِّيخًا وَرُطَبًا أَكَلَ الرُّطَبَ

---

(١) ومن ذلك «الشمائل المحمدية» للإمام الترمذيِّ، ومختصره للعلامة الألبانيِّ، و«شمائل الرَّسُول» للحافظ ابن كثير، و«أخلاق النبي ﷺ» لأبي الشيخ الأصبهانيِّ، و«الشفا بتعريف حقوق المصطفى» للقاضي عياض، وغيرها.

بالْبَطِّيخ، وَكَانَ يَعُودُ الْمَرْضَى، وَيَشْهَدُ الْجَنَائِزَ، وَكَانَ أَشَدَّ النَّاسِ تَوَاضُعًا، وَكَانَ أَسْكَنَ النَّاسِ مِنْ غَيْرِ كِبْرٍ وَلَا خُيَلَاءَ، وَكَانَ يَلْبَسُ شَمْلَةً، وَمَرَّةً يَلْبَسُ بُرْدَةً يَمَانِيَّةً، وَمَرَّةً يَلْبَسُ سُتْرَةَ صُوفٍ؛ فَمَا وَجَدَهُ مِنَ اللِّبَاسِ أَمَامَهُ مُيَسَّرًا لَبِسَهُ، يَرْكَبُ مَا يَسَّرَهُ الله لَهُ؛ مَرَّةً يَرْكَبُ فَرَسًا، وَمَرَّةً بَعِيرًا، وَمَرَّةً بَغْلَةً، وَمَرَّةً حِمَارًا، وَمَرَّةً يَمْشِي عَلَى رِجْلَيْهِ، وَمَرَّةً حَافِيًا بِدُونِ نَعْلَيْنِ، يَجْلِسُ مَعَ الْفُقَرَاءِ، وَيُؤَاكِلُ الْمَسَاكِينَ، وَيُكْرِمُ أَهْلَ الْفَضْلِ، وَيَتَأَلَّفُ أَهْلَ الشَّرَفِ بِالْبِرِّ لَهُمْ وَالْوُدِّ مَعَهُمْ، وَيَقْبَلُ مَعْذِرَةَ الْمُعْتَذِرِ إِلَيْهِ، وَيُمَازِحُ أَصْحَابَهُ وَلَا يَقُولُ إِلَّا حَقًّا، وَيُسَابِقُ زَوْجَاتِهِ أَحْيَانًا فِي السَّفَرِ، وَتُرْفَعُ الْأَصْوَاتُ عَلَيْهِ مِنْ بَعْضِ الْأَعْرَابِ الْجُفَاةِ؛ فَيَصْبِرُ وَلَا يَغْضَبُ، لَا يَحْتَقِرُ مِسْكِينًا لِفَقْرِهِ، وَلَا يَهَابُ مُلْكَ مَلِكٍ؛ مَا ضَرَبَ أَحَدًا قَطُّ؛ لَا خَادِمًا وَلَا امْرَأَةً إِلَّا أَنْ يُجَاهِدَ فِي سَبِيلِ الله، وَمَا غَضِبَ لِنَفْسِهِ قَطُّ، إِنَّمَا كَانَ يَغْضَبُ إِذَا انْتُهِكَتْ مَحَارِمُ الله، وَمَا خُيِّرَ بَيْنَ أَمْرَيْنِ إِلَّا اخْتَارَ أَيْسَرَهُمَا مَا لَمْ يَكُنْ إِثْمًا، لَمْ يَكُنْ فَظًّا وَلَا غَلِيظًا، وَلَا صَخَّابًا بِالْأَسْوَاقِ، وَمَا كَانَ يَجْزِي بِالسَّيِّئَةِ السَّيِّئَةَ، وَلَكِنْ يَعْفُو وَيَصْفَحُ، وَكَانَ مِنْ خُلُقِهِ أَنْ يَبْدَأَ مَنْ لَقِيَهُ بِالسَّلَامِ، وَمَا أَخَذَ أَحَدٌ بِيَدِهِ فَيُرْسِلُ النَّبِيُّ ﷺ يَدَهُ حَتَّى يُرْسِلَهَا الْآخَرُ، وَلَمْ يَكُنْ يُعْرَفُ النَّبِيُّ ﷺ فِي مَجْلِسِهِ بَيْنَ أَصْحَابِهِ؛ لِأَنَّهُ كَانَ يَجْلِسُ حَيْثُ انْتَهَى بِهِ الْمَجْلِسُ، وَكَانَ يَدْعُو أَصْحَابَهُ بِكُنَاهُمْ: يَا أَبَا فُلَانٍ، يَا أَبَا فُلَانٍ؛ إِكْرَامًا لَهُمْ، وَاسْتِمَالَةً لِقُلُوبِهِمْ، وَمَنْ لَمْ تَكُنْ لَهُ مِنْهُمْ كُنْيَةٌ كَنَّاهُ، وَكَانَ أَبْعَدَ النَّاسِ غَضَبًا، وَأَسْرَعَهُمْ رِضًا، وَكَانَ أَرْأَفَ النَّاسِ بِالنَّاسِ، وَخَيْرَ النَّاسِ لِلنَّاسِ، وَصَدَقَ رَبِّي - جَلَّ وَعَلَا- إِذْ يَقُولُ فِي حَقِّهِ: ﴿وَإِنَّكَ لَعَلَىٰ خُلُقٍ عَظِيمٍ﴾ [القلم:٤].

لَقَدْ كَانَ النَّبِيُّ ﷺ آيَةً مِنْ آيَاتِ الله، وَعَجِيبَةً مِنْ عَجَائِبِ الْكَوْنِ.

فَهُوَ رَسُولٌ مِنْ عِنْدِ الله، يَتَلَقَّى الْوَحْيَ مِنَ السَّمَاءِ؛ لِيَرْبِطَ الْأَرْضَ بِالسَّمَاءِ بِأَعْظَمِ رِبَاطٍ، وَأَشْرَفِ صِلَةٍ (١).

---

(١) وأودُّ أن أنبه أن بعض الكُتَّاب قدّموا لنا النبيَّ ﷺ على أنه زعيمٌ ناجحٌ، وسياسيٌّ بارعٌ، =

وَهُوَ ﷺ رَجُلُ حَرْبٍ يَضَعُ الْخُطَطَ لِلْجُيُوشِ؛ بَلْ وَيَقُودُ الْجَيْشَ بِنَفْسِهِ؛ بَلْ إِذَا حَمِيَ الْوَطِيسُ (١)، وَاشْتَدَّتِ الْمَعْرَكَةُ، وَفَرَّ الْأَبْطَالُ مِنْ حَوْلِهِ، صَدَّ السِّهَامَ وَالسُّيُوفَ بِنَفْسِهِ، وَصَمَدَ أَمَامَ الْأَعْدَاءِ؛ وَنَادَى بِأَعْلَى صَوْتِهِ (٢): «**أَنَا النَّبِيُّ لَا كَذِبَ ... أَنَا ابْنُ عَبْدِ الْمُطَّلِبِ!!**».

وَهُوَ ﷺ رَجُلُ أُمَّةٍ، اسْتَطَاعَ أَنْ يُقِيمَ لِلْإِسْلَامِ دَوْلَةً مِنْ فُتَاتٍ مُتَنَاثِرٍ وَسْطَ صَحْرَاءَ تَمُوجُ بِالْكُفْرِ وَالْجَهْلِ مَوْجًا؛ فَإِذَا بِدَوْلَةِ الْإِسْلَامِ بِنَاءٌ شَامِخٌ لَا يُطَاوِلُهُ بِنَاءٌ، وَذَلِكَ فِي مُدَّةٍ لَا تُسَاوِي فِي حِسَابِ الزَّمَنِ شَيْئًا عَلَى الْإِطْلَاقِ!!

وَهُوَ ﷺ أَبٌ وَرَبُّ أُسْرَةٍ كَبِيرَةٍ تَحْتَاجُ كَثِيرًا مِنَ النَّفَقَاتِ؛ مِنْ نَفَقَاتِ الْفِكْرِ، وَالْعَوَاطِفِ، وَالشُّعُورِ، وَالتَّرْبِيَةِ؛ فَضْلاً عَنِ النَّفَقَاتِ الْمَادِّيَّةِ، فَضْلًا عَنْ نَفَقَاتِ الْوَقْتِ، فَيَقُومُ الْمُصْطَفَى ﷺ بِهَذَا كُلِّهِ، وَكَأَنَّهُ مَا خُلِقَ إِلَّا لِيَكُونَ أَبًا.

وَهُوَ ﷺ رَجُلُ دَعْوَةٍ، أَخَذَتِ الدَّعْوَةُ عَقْلَهُ، وَفِكْرَهُ، وَرُوحَهُ، وَعَرَقَهُ؛ قَالَ لَهُ رَبُّهُ مِنْ أَوَّلِ يَوْمٍ: ﴿قُمْ فَأَنذِرْ﴾ [المدثر:٢]؛ فَقَامَ النَّبِيُّ ﷺ، وَلَمْ يَذُقْ طَعْمَ الرَّاحَةِ حَتَّى لَقِيَ رَبَّهُ وَمَوْلَاهُ.

وَهُوَ ﷺ رَجُلٌ إِنْسَانِيٌّ مِنْ طِرَازٍ فَرِيدٍ، تَأْخُذُ الْأُمَّةُ بِيَدِهِ - كَمَا ذَكَرْتُ -

---

= وقائدٌ محنَّكٌ، وأنه أعظمُ العظماءِ، وهذا كلُّه حقٌّ؛ بشرط أن يكون تابعًا لصفة الرسالة والنبوة؛ لأنك لو تعاملت مع سيرة النبيِّ ﷺ على أنه عظيم من العظماء؛ فربما تأخذُ منه وتردُّ، وتقبلُ منه وترفضُ، وتتعاملُ مع مواقفهِ الجليلة التي يستحسنها عقلك معاملة جليلة، وقد تتعامل مع موقف آخر معاملة أخرى؛ لكن ينبغي أن تعلم أنه قبل كلِّ ذلك رَسُولٌ من عند الله، يجب عليك أن تتعامل معه على أنه رَسُولٌ من عند الله تجب عليك طاعته فيما أمر، والانتهاء عما نهى عنه وزجر.

(١) والوطيس: التنور، ويُكنى بها عن الحرب؛ فيقال: حمي الوطيس إذا اشتدت الحرب؛ راجع: «اللسان» (٦/ ٢٥٥) مادة (وطس)، و«المصباح المنير» (٢/ ٦٦٣).

(٢) أخرجه البخاريُّ، كتاب الجهاد والسير، باب من صفَّ أصحابه عند الهزيمة ونزل عن دابته واستنصر (٢٩٣٠)، ومسلمٌ، كتاب الجهاد، باب في غزوة حنين (١٧٧٦).

فَيَنْصَرِفُ مَعَهَا حَتَّى يَقْضِيَ لَهَا حَاجَاتِهَا كَأَنَّهُ مَا خُلِقَ إِلَّا لِيَمْسَحَ دُمُوعَ الْبَائِسِينَ، وَلِيُذْهِبَ آلَامَ الْمَحْرُومِينَ.

وَهُوَ ﷺ رَجُلٌ عَابِدٌ خَاشِعٌ أَوَّاهٌ؛ لَا تَرَاهُ يَشْعُرُ بِالْأُنْسِ وَلَا بِالسَّعَادَةِ إِلَّا وَهُوَ فِي مِحْرَابِ الْعِبَادَةِ، بَيْنَ يَدَيْ سَيِّدِهِ وَمَوْلَاهُ، حَتَّى تَوَرَّمَتْ قَدَمَاهُ ﷺ، وَقِيلَ لَهُ: يَا رَسُولَ اللهِ! أَوَ لَمْ يَغْفِرِ اللهُ لَكَ مَا تَقَدَّمَ مِنْ ذَنْبِكَ وَمَا تَأَخَّرَ؟ فَقَالَ: «**أَفَلَا أَكُونُ عَبْدًا شَكُورًا**» (١)؛ فَلَمَّا أَرَادَ اللهُ - جَلَّ وَعَلَا- أَنْ يُقَدِّمَ لِدُنْيَا النَّاسِ قُدْوَةً حَيَّةً لَا تَبْلَى بَعَثَ الْمُصْطَفَى ﷺ؛ فَكَانَ النَّبِيُّ ﷺ أَعْظَمَ قُدْوَةٍ عَرَفَتْهَا الْأَرْضُ، وَصَدَقَ رَبِّي إِذْ يَقُولُ: ﴿ لَّقَدْ كَانَ لَكُمْ فِي رَسُولِ ٱللَّهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ لِّمَن كَانَ يَرْجُوا۟ ٱللَّهَ وَٱلْيَوْمَ ٱلْـَٔاخِرَ وَذَكَرَ ٱللَّهَ كَثِيرًا ﴾ [الأحزاب:٢١].

قَالَ الْحَافِظُ ابْنُ كَثِيرٍ رحمه الله (٢): «هَذِهِ الْآيَةُ الْكَرِيمَةُ أَصْلٌ كَبِيرٌ فِي التَّأَسِّي بِرَسُولِ اللهِ ﷺ فِي أَقْوَالِهِ، وَأَفْعَالِهِ، وَأَحْوَالِهِ».

وَقَالَ الْعَلَّامَةُ الشَّوْكَانِيُّ رحمه الله **فِي «فَتْحِ الْقَدِيرِ»** (٣): «﴿ لَّقَدْ كَانَ لَكُمْ فِي رَسُولِ ٱللَّهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ ﴾ أَيْ: قُدْوَةٌ صَالِحَةٌ، يُقَالُ: لِي فِي فُلَانٍ أُسْوَةٌ: أَيْ: لِي بِهِ، وَالْأُسْوَةُ مِنَ الِائْتِسَاءِ؛ كَالْقُدْوَةِ مِنَ الِاقْتِدَاءِ؛ اسْمٌ يُوضَعُ مَوْضِعَ الْمَصْدَرِ؛ قَالَ الْجَوْهَرِيُّ (٤): وَالْأُسْوَةُ بِالضَّمِّ وَالْكَسْرِ، وَالْجَمْعُ: أُسَى

---

(١) أخرجه البخاريُّ، أبواب التهجد، باب قيام النبي ﷺ الليل حتى ترم قدماه (١١٣٠)، ومسلمٌ، كتاب صفة القيامة والجنة والنار، باب إكثار الأعمال والاجتهاد في العبادة (٢٨١٩) عن المغيرة ابن شعبة رضي الله عنه، وأخرجه البخاريُّ (٤٨٣٧)، ومسلمٌ (٢٨٢٠) عن عائشة رضي الله عنها.

(٢) «تفسير القرآن العظيم» (لسورة الأحزاب: آية ٢١) (١١/ ١٣٣).

(٣) «فتح القدير الجامع بين فني الرواية والدراية من علم التفسير» (٤/ ٣٢٤، ٣٢٥) باختصار، ط دار الحديث / سنة ١٤٢٧هـ.

(٤) هو إمام اللغة أبو نصر إسماعيل بن حماد التركي الأتراري الجوهريُّ، و «أترار» هي مدينة فاراب ،مصنف كتاب «الصحاح»، وأحد من يضرب به المثل في ضبط اللغة، =

وَإِسَّي [١]. قَرَأَ الْجُمْهُورُ ﴿أُسْوَةٌ﴾ بِالضَّمِّ لِلْهَمْزَةِ، وَقَرَأَ عَاصِمٌ بِكَسْرِهَا [٢]، وَهُمَا لُغَتَانِ؛ كَمَا قَالَ الْفَرَّاءُ وَغَيْرُهُ.

وَفِي هَذِهِ الْآيَةِ عِتَابٌ لِلْمُتَخَلِّفِينَ عَنِ الْقِتَالِ مَعَ رَسُولِ الله ﷺ - أَيْ: لَقَدْ كَانَ لَكُمْ فِي رَسُولِ الله ﷺ - حَيْثُ بَذَلَ نَفْسَهُ لِلْقِتَالِ؛ وَخَرَجَ إِلَى الْخَنْدَقِ؛ لِنُصْرَةِ دِينِ الله- أُسْوَةٌ، وَهَذِهِ الْآيَةُ وَإِنْ كَانَ سَبَبُهَا خَاصًّا فَهِيَ عَامَّةٌ فِي كُلِّ شَيْءٍ، وَمِثْلُهَا: ﴿وَمَآ ءَاتَىٰكُمُ ٱلرَّسُولُ فَخُذُوهُ وَمَا نَهَىٰكُمْ عَنْهُ فَٱنتَهُوا۟﴾ [الحشر:٧]، وَقَوْلُهُ: ﴿قُلْ إِن كُنتُمْ تُحِبُّونَ ٱللَّهَ فَٱتَّبِعُونِى يُحْبِبْكُمُ ٱللَّهُ﴾ [آل عمران:٣١]، وَاللَّامُ فِي: ﴿لِّمَن كَانَ يَرْجُوا۟ ٱللَّهَ وَٱلْيَوْمَ ٱلْءَاخِرَ﴾ [الأحزاب:٢١] مُتَعَلِّقٌ بِـ ﴿حَسَنَةٌ﴾، أَوْ بِمَحْذُوفٍ هُوَ صِفَةٌ لـ ﴿حَسَنَةٌ﴾: أَيْ: كَائِنَةٌ لِمَنْ يَرْجُو الله،... وَالْمُرَادُ بِمَنْ كَانَ يَرْجُو الله: الْمُؤْمِنُونَ؛ فَإِنَّهُمُ الَّذِينَ يَرْجُونَ الله، وَيَخَافُونَ عَذَابَهُ، وَمَعْنَى يَرْجُونَ الله: يَرْجُونَ ثَوَابَهُ أَوْ لِقَاءَهُ، وَمَعْنَى يَرْجُونَ الْيَوْمَ الْآخِرَ: أَنَّهُمْ يَرْجُونَ رَحْمَةَ الله فِيهِ، أَوْ يُصَدِّقُونَ بِحُصُولِهِ، وَأَنَّهُ كَائِنٌ لَا مَحَالَةَ، وَهَذِهِ الْجُمْلَةُ تَخْصِيصٌ بَعْدَ التَّعْمِيمِ بِالْجُمْلَةِ الْأُولَى. ﴿وَذَكَرَ ٱللَّهَ كَثِيرًا﴾ مَعْطُوفٌ عَلَى ﴿كَانَ﴾ أَيْ: وَلِمَنْ ذَكَرَ الله فِي جَمِيعِ أَحْوَالِهِ ذِكْرًا كَثِيرًا، وَجَمَعَ بَيْنَ الرَّجَاءِ لله وَالذِّكْرِ لَهُ، فَإِنَّ بِذَلِكَ تَتَحَقَّقُ الْأُسْوَةُ الْحَسَنَةُ بِرَسُولِ الله ﷺ» ا. هـ. كَلَامُ الشَّوْكَانِيِّ.

=

وفي الخط المنسوب، مات الجوهري متردّيًا من سطح داره بنيسابور في سنة ثلاث وتسعين وثلاث مائة، وقيل: مات في حدود سنة أربع مائة رحمه الله.

● راجع: «سير أعلام النبلاء» (٣٦٧١).

(١) «الصحاح» للجوهريِّ (٧/ ١١٨) ط دار العلم للملايين - بيروت.

(٢) راجع: «السبعة في القراءات» لابن مجاهد (٥٢٠) ط دار المعارف القاهرة، و«النشر في القراءات العشر» لابن الجزري (٢/ ٣٨٨) ط دار الكتب العلمية بيروت، و«تحبير التيسير في القراءات العشر» لابن الجزري ط دار الفرقان، عمان الأردن، و«حجة القراءات» لأبي زرعة بن زنجلة (٥٧٥) ط الرسالة. بيروت.

وَمَا أَجْمَلَ قَوْلَ عَائِشَةَ (١) رضي الله عنها حِينَمَا سُئِلتْ عَنْ خُلُقِهِ ﷺ فَلَخَّصَتْ خُلُقَ النَّبِيِّ ﷺ تَلْخِيصًا عَجِيبًا؛ فَقَالَتْ: «**كَانَ خُلُقُهُ الْقُرْآنَ**» (٢). وَلَا أَسْتَطِيعُ - وَاللهِ- أَنْ أَقِفَ مَعَ أَخْلَاقِهِ هُنَا عَلَى جِهَةِ الْبَسْطِ وَالتَّفْصِيلِ (٣)؛ لَوْ فَعَلْتُ ذَلِكَ لَاحْتَجْتُ إِلَى مُجَلَّدَاتٍ، وَلَقَدْ أَبْدَعَتْ عَائِشَةُ رضي الله عنها حِينَمَا لَخَّصَتْ أَخْلَاقَهُ فِي كَلِمَاتٍ!؛ قَالَ الشَّاطِبِيُّ رحمه الله فِي «**الاعْتِصَامِ**» (٤):

«وَإِنَّمَا كَانَ ﷺ خُلُقُهُ الْقُرْآنَ؛ لِأَنَّهُ حَكَّمَ الْوَحْيَ عَلَى نَفْسِهِ، حَتَّى صَارَ فِي عِلْمِهِ وَعَمَلِهِ عَلَى وَفْقِهِ؛ فَكَانَ لِلْوَحْيِ مُوَافِقًا قَائِلًا مُذْعِنًا مُلَبِّيًا».

وَالَّذِي يُمَزِّقُ الْقَلْبَ؛ أَنَّ الْأُمَّةَ أَصْبَحَتْ تَتَعَامَلُ الْآنَ مَعَ أَخْلَاقِ رَسُولِ اللهِ ﷺ عَلَى أَنَّهَا مِنْ بَابِ الْحِكَايَاتِ وَالْأَسَاطِيرِ، وَكَأَنَّهَا لَيْسَتْ مَسْئُولَةً أَنْ تُحَوِّلَ هَذِهِ الْأَخْلَاقَ الْعَظِيمَةَ الْكَرِيمَةَ فِي حَيَاتِهَا إِلَى وَاقِعٍ عَمَلِيٍّ، وَإِلَى مَنْهَجِ حَيَاةٍ؛ فَمُشْكِلَةُ الْأُمَّةِ مُشْكِلَةُ أَخْلَاقٍ بِمَعْنَاهَا الشَّامِلِ.

---

(١) هي عائشة بنت أبي بكر الصديق، الصديقة بنت الصديق أم المؤمنين زوج النبي ﷺ، وأشهر نسائه، وأمها أم رومان، تزوجها رَسُول الله ﷺ قبل الهجرة بسنتين وهي بِكْر؛ قاله أبو عبيدة، وقيل: بثلاث سنين، وقال الزبير: تزوجها رَسُول الله ﷺ بعد خديجة بثلاث سنين، وقال أبو الضحى، عن مسروق: رأيت مشيخة أصحاب رَسُول الله ﷺ الأكابر يسألونها عن الفرائض، وقال عطاء بن أبي رباح: كانت أفقه الناس وأعلم الناس، وأحسن الناس رأيًا في العامة.

وقال هشام بن عروة عن أبيه: ما رأيت أحدًا أعلم بفقه ولا بطب ولا بشعر من عائشة رضي الله عنها، توفيت عائشة سنة سبع وخمسين، وقيل: سنة ثمان وخمسين ليلة الثلاثاء لسبع عشرة ليلة خلت من رمضان، وأمرت أن تدفن بالبقيع ليلًا، فدفنت وصلَّى عليها أبو هريرة.

● راجع: «الاستيعاب» (٥٨٨)، و«أسد الغابة» (٣٤١-٣٤٤)، و«الإصابة» (٨/ ٢٥٧).

(٢) أخرجه مسلمٌ، كتاب صلاة المسافرين وقصرها، باب جامع صلاة الليل، ومن نام عنه أو مرض (٧٤٦).

(٣) وسيأتي في بابٍ خاصٍّ عددٌ من هذه الصفات الكريمة.

(٤) (ص: ٦٢١). الباب العاشر. ط ابن رجب، المنصورة.

فَإِذَا عَادَتِ الأُمَّةُ إِلَى أَخْلَاقِ النَّبِيِّ ﷺ صَحَّحَتِ الْعَقِيدَةَ، وَصَحَّحَتِ الْعِبَادَةَ، وَصَحَّحَتِ الْمُعَامَلَاتِ، وَصَحَّحَتِ السُّلُوكِيَّاتِ، وَصَحَّحَتْ عَلَاقَتَهَا بِرَبِّهَا؛ لِذَا حَاوَلَ أَعْدَاؤُنَا بِكُلِّ سَبِيلٍ أَنْ يَضَعُوا الْحَوَاجِزَ وَالْعَقَبَاتِ وَالْعَرَاقِيلَ وَالسُّدُودَ بَيْنَ الْأُمَّةِ وَبَيْنَ قَائِدِهَا الْأَعْظَمِ وَرَائِدِهَا الْأَكْرَمِ ﷺ، وَصَارَتِ الْأُمَّةُ تَتَعَامَلُ مَعَ أَخْلَاقِهِ تَعَامُلًا ذِهْنِيًّا بَارِدًا، دُونَ تَحْوِيلِهَا إِلَى وَاقِعٍ عَمَلِيٍّ، وَمَنْهَجِ حَيَاةٍ [1]!!!

وَزَادَتِ الْمَأْسَاةُ حِينَ انْحَرَفَ كَثِيرٌ مِمَّنْ يَدْعُونَ إِلَى اللهِ عَنْ أَخْلَاقِ أُسْوَةِ الدُّعَاةِ فِي الدَّعْوَةِ وَالْبَلَاغِ؛ فَلَيْسَ الْقَصْدُ - كَمَا ذَكَرْتُ- أَنْ أَتَعَرَّضَ لِأَخْلَاقِ سَيِّدِ الدُّعَاةِ عَلَى سَبِيلِ التَّفْصِيلِ، وَإِنَّمَا الْقَصْدُ أَنْ أُشِيرَ إِلَيْهَا إِجْمَالًا؛ لِيَتَخَلَّقَ بِهَا الدُّعَاةُ تَفْصِيلًا، وَتَنْظِيرًا وَتَأْصِيلًا وَتَطْبِيقًا فِي كُلِّ مَرْحَلَةٍ مِنْ مَرَاحِلِ الدَّعْوَةِ؛ فَلَيْسَ مِنْ حَقِّ أَيِّ دَاعِيَةٍ أَنْ يَخْتَارَ لِنَفْسِهِ مِنَ الْمَنَاهِجِ الدَّعَوِيَّةِ مَا يَرَاهُ!! فَالْمَنْهَجُ تَوْقِيفِيٌّ، وَلَيْسَ مِنَ الصَّوَابِ أَنْ يُقَدِّمَ هَدَفًا مِنْ أَهْدَافِ الدَّعْوَةِ عَلَى آخَرَ أَوْ أَوْلَوِيَّةٍ عَلَى أُخْرَى خِلَافًا لِلْمَنْهَجِ النَّبَوِيِّ؛ فَلَا يَجُوزُ لِلدَّاعِيَةِ أَنْ يُقَدِّمَ عَلَى الدَّعْوَةِ إِلَى التَّوْحِيدِ وَإِفْرَادِ اللهِ بِالْعِبَادَةِ أَوْلَوِيَّةً أُخْرَى؛ وَلِذَا أَرَى قَبْلَ أَنْ أُبَيِّنَ أُصُولَ وَمُقَوِّمَاتِ الْمَنْهَجِ النَّبَوِيِّ فِي الدَّعْوَةِ أَنْ أُذَكِّرَ الدُّعَاةَ إِلَى اللهِ بِأَوْلَوِيَّاتِ وَأَهْدَافِ الْمَنْهَجِ النَّبَوِيِّ فِي الْفَصْلِ الْقَادِمِ.

❀◊❀

(١) «جبريل ﷺ يسأل والنبي ﷺ يجيب» للباحث (٧/ ٩٨) وما بعدها، ط فياض. المنصورة.



الفَصْلُ الثَّانِي

أَهْدَافُ الْمَنْهَجِ النَّبَوِيِّ
فِي الدَّعْوَةِ إِلَى اللَّهِ تَعَالَى

- وَفِيْهِ تَمْهِيدٌ وَأَرْبَعَةُ مَبَاحِثَ.
- المَبْحَثُ الأَوَّلُ: الدَّعْوَةُ إِلَى الإِيمَانِ بِاللَّهِ تَعَالَى وَعِبَادَتِهِ.
- المَبْحَثُ الثَّانِي: الدَّعْوَةُ إِلَى التَّحَلِّي بِمَكَارِمِ الأَخْلَاقِ.
- المَبْحَثُ الثَّالِثُ: تَزْكِيَةُ النُّفُوسِ وَإِصْلَاحُ الْقُلُوبِ.
- المَبْحَثُ الرَّابِعُ: إِصْلَاحُ الدُّنْيَا بِالدِّينِ.



الفَصْلُ الثَّانِي
أَهْدَافُ الْمَنْهَجِ النَّبَوِيِّ فِي الدَّعْوَةِ

تَمْهِيدٌ

○ **تَعْرِيفُ «الأَهْدَافِ» لُغَةً واصْطِلاحًا:**

أَهْدَافٌ جَمْعُ هَدَفٍ، وَالْهَدَفُ: الْغَرَضُ.

قَالَ الْجَوْهَرِيُّ: «الْهَدَفُ كُلُّ شَيْءٍ مُرْتَفِعٍ مِنْ بِنَاءٍ أَوْ كَثِيبِ رَمْلٍ أَوْ جَبَلٍ، وَمِنْهُ سُمِّيَ الْغَرَضُ هَدَفًا، وَبِهِ شُبِّهَ الرَّجُلُ الْعَظِيمُ»(١).

وَقَالَ ابْنُ فَارِسٍ (٢) **فِي «مَقَايِيسِ اللُّغَةِ»**(٣):

«هَدَفٌ: الْهَاءُ وَالدَّالُ وَالْفَاءُ: أَصْلٌ يَدُلُّ عَلَى انْتِصَابٍ وَارْتِفَاعٍ، وَالْهَدَفُ كُلُّ شَيْءٍ عَظِيمٍ مُرْتَفِعٍ، وَلِذَلِكَ سُمِّيَ الرَّجُلُ الشَّخِيصُ الْجَافِي هَدَفًا، وَالْهَدَفُ: الْغَرَضُ».

---

(١) «الصحاح» للجوهريِّ (٥/ ١٢٨)؛ وراجع: «اللسان» لابن منظور (٩/ ٣٤٥)، و«النهاية» لابن الأثير (٢/ ٨٩٧)، و«كتاب العين» للفراهيدي (٤/ ٢٨) ط دار الهلال، و«تاج العروس» (٢٤/ ٤٨٧).

(٢) هو الإمام العلامة، اللغوي المحدث، أبو الحسين، أحمد بن فارس بن زكريا بن محمد ابن حبيب القزوينيُّ، المعروف بالرازيِّ المالكيِّ، اللغويِّ، نزيل همذان، وصاحب كتاب «المجمل»، ولد بقزوين، وكان رأسًا في الأدب، بصيرًا بفقه مالك، مناظرًا متكلمًا على طريقة أهل الحق، ومذهبه في النحو على طريقة الكوفيين، جمع إتقان العلم إلى ظرف أهل الكتابة والشعر، ومات بالري في صفر سنة خمس وتسعين وثلاث مائة.

● انظر: «سير أعلام النبلاء» (٣٦٩٠)، و«شذرات الذهب» لابن العماد (٣/ ١٣٢).

(٣) (٦/ ٢٩) الناشر: اتحاد الكتاب العربي ط ١٤٢٣هـ.

وَالْمَرَادُ بِالْهَدَفِ هُنَا: الْغَايَةُ الْعَظِيمَةُ الَّتِي مِنْ أَجْلِهَا بُعِثَ النَّبِيُّ ﷺ.

وَمِنَ الْمُتَّفَقِ عَلَيْهِ: أَنَّهُ لَا يَجُوزُ تَقْدِيمُ النَّافِلَةِ عَلَى الْفَرِيضَةِ، وَأَنَّ فُرُوضَ الْأَعْيَانِ مُقَدَّمَةٌ عَلَى فُرُوضِ الْكِفَايَةِ، وَأَنَّ الْمَصَالِحَ الضَّرُورِيَّةَ مُقَدَّمَةٌ عَلَى الْحَاجِيَّةِ وَالتَّحْسِينِيَّةِ، وَأَنَّ الْأُصُولَ مُقَدَّمَةٌ عَلَى الْفُرُوعِ، وَالْكُلِّيَاتِ مُقَدَّمَةٌ عَلَى الْجُزْئِيَّاتِ؛ فَالْأَعْمَالُ تَتَفَاوَتُ وَتَتَفَاضَلُ عِنْدَ اللهِ جَلَّ وَعَلَا؛ قَالَ تَعَالَى: ﴿أَجَعَلْتُمْ سِقَايَةَ الْحَاجِّ وَعِمَارَةَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ كَمَنْ آمَنَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَجَاهَدَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ لَا يَسْتَوُونَ عِندَ اللَّهِ وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ ﴿١٩﴾ الَّذِينَ آمَنُوا وَهَاجَرُوا وَجَاهَدُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنفُسِهِمْ أَعْظَمُ دَرَجَةً عِندَ اللَّهِ وَأُولَٰئِكَ هُمُ الْفَائِزُونَ﴾ [التوبة: ١٩، ٢٠].

وَهَا هُوَ أُسْوَةُ الدُّعَاةِ ﷺ يُوَضِّحُ بِجَلَاءٍ أَهْدَافَ وَأَوْلَوِيَّاتِ الْمَنْهَجِ الدَّعَوِيِّ، وَخُطُوَاتِهِ، وَمَرَاحِلَهُ لِمُعَاذِ بْنِ جَبَلٍ رضي الله عنه [(١)] حِينَ بَعَثَهُ إِلَى الْيَمَنِ.

فَفِي «**الصَّحِيحَيْنِ**»[(٢)] عَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ رضي الله عنهما، قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ لِمُعَاذِ بْنِ جَبَلٍ رضي الله عنه حِينَ بَعَثَهُ إِلَى الْيَمَنِ: «**إِنَّكَ سَتَأْتِي قَوْمًا أَهْلَ كِتَابٍ، فَإِذَا جِئْتَهُمْ، فَادْعُهُمْ إِلَى أَنْ يَشْهَدُوا أَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ، وَأَنَّ مُحَمَّدًا رَسُولُ اللَّهِ، فَإِنْ هُمْ**

---

(١) هو معاذ بن جبل بن عمرو بن أوس بن عائذ بن عدي بن كعب بن عمرو بن أدي بن علي بن أسد بن ساردة بن يزيد بن جشم بن عدي بن نابي بن تميم بن كعب بن سلمة، أبو عبد الرحمن الأنصاريُّ الخزرجيُّ، الإمام المقدم في علم الحلال والحرام؛ قال أبو إدريس الخولاني: كان أبيض وضيء الوجه، براق الثنايا، أكحل العينين، وقال الواقديُّ: كان من أجمل الرجال، وشهد المشاهد كلها، وكانت وفاته بالطاعون في الشام سنة سبع عشرة أو التي بعدها، وهو قول الأكثر، وعاش أربعًا وثلاثين سنة، وقيل غير ذلك.

● انظر: «الإصابة» (٦/ ١١٤- ١١٦)، و«الاستيعاب» (١٤٣٥)، و«أسد الغابة» (٤٩٦١).

(٢) أخرجه البخاريُّ، كتاب الزكاة، باب أخذ الصدقة من الأغنياء وترد في الفقراء حيث كانوا (١٤٩٦) - واللفظ له-، ومسلمٌ، كتاب الإيمان، باب الدعاء إلى الشهادتين وشرائع الإسلام (١٩).

أَطَاعُوا لَكَ بِذَلِكَ، فَأَخْبِرْهُمْ أَنَّ اللَّهَ قَدْ فَرَضَ عَلَيْهِمْ خَمْسَ صَلَوَاتٍ فِي كُلِّ يَوْمٍ وَلَيْلَةٍ، فَإِنْ هُمْ أَطَاعُوا لَكَ بِذَلِكَ، فَأَخْبِرْهُمْ أَنَّ اللَّهَ قَدْ فَرَضَ عَلَيْهِمْ صَدَقَةً تُؤْخَذُ مِنْ أَغْنِيَائِهِمْ فَتُرَدُّ عَلَى فُقَرَائِهِمْ، فَإِنْ هُمْ أَطَاعُوا لَكَ بِذَلِكَ، فَإِيَّاكَ وَكَرَائِمَ أَمْوَالِهِمْ وَاتَّقِ دَعْوَةَ الْمَظْلُومِ، فَإِنَّهُ لَيْسَ بَيْنَهُ وَبَيْنَ اللَّهِ حِجَابٌ».

فَالْعَقِيدَةُ هِيَ الْأَسَاسُ الْأَوَّلُ الَّذِي يَجِبُ عَلَى كُلِّ الدُّعَاةِ إِلَى الله السَّائِرِينَ عَلَى دَرْبِ أُسْوَةِ الدُّعَاةِ أَنْ يُرْسُوا قَوَاعِدَهُ قَبْلَ أَنْ يُشَيِّدُوا الْبِنَاءَ بِالدَّعْوَةِ إِلَى الْأَعْمَالِ وَالْأَخْلَاقِ؛ فَالْإِيمَانُ بِضْعٌ وَسَبْعُونَ شُعْبَةً أَعْلَاهَا لَا إِلَهَ إِلَّا الله، وَأَدْنَاهَا إِمَاطَةُ الْأَذَى عَنِ الطَّرِيقِ، فَالْبَدْءُ بِالْأَدْنَى وَتَرْكُ الْأَعْلَى، وَبِالْفَرْعِ وَتَرْكُ الْأَصْلِ، وَبِالْجُزْءِ وَالتَّخَلِّي عَنِ الْكُلِّ خَلَلٌ كَبِيرٌ يَقَعُ فِيهِ كَثِيرٌ مِنَ الدُّعَاةِ، وَلِذَا رَأَيْتُ أَنْ أَضَعَ بَيْنَ أَيْدِيهِمْ هَذَا الْفَصْلَ الْمُخْتَصَرَ فِي أَهْدَافِ الْمَنْهَجِ النَّبَوِيِّ فِي الدَّعْوَةِ إِلَى الله ﷻ؛ حَتَّى لَا نُؤَخِّرَ مَا يَجِبُ تَقْدِيمُهُ، وَلَا نُقَدِّمَ مَا حَقُّهُ التَّأْخِيرُ، وَلَا نُضَخِّمَ الصَّغِيرَ، وَلَا نُحَقِّرَ الْكَبِيرَ، وَنَتْرُكَ الْمُتَّفَقَ عَلَيْهِ؛ لِنُضَخِّمَ حَجْمَ الْخِلَافِ فِي مَسْأَلَةٍ مِنْ مَسَائِلِ الْأَحْكَامِ يَسَعُ فِيهَا الْخِلَافُ، وَمِنْ هُنَا؛ فَإِنَّ دَعْوَةَ النَّبِيِّ ﷺ تَهْدِفُ إِلَى عِدَّةِ قَضَايَا؛ مِنْ أَبْرَزِهَا وَأَهَمِّهَا مَا يَلِي:

المَبْحثُ الأَوَّلُ
الدَّعْوَةُ إِلَى الإِيمَانِ باللهِ تَعَالَى وَعِبَادَتِهِ

إِنَّ الدَّعْوَةَ إِلَى الإِيمَانِ باللهِ تَعَالَى، وَإِلَى الْعَقِيدَةِ الصَّحِيحَةِ، هِيَ أَصْلُ الْقَضَايَا، وَأَهَمُّهَا فِي دَعْوَتِهِ ﷺ إِلَى اللهِ تَعَالَى؛ بَلْ لَمْ يَبْدَأْ بِشَيْءٍ قَبْلَ هَذِهِ الْقَضِيَّةِ الْكُبْرَى؛ فَقَدْ ظَلَّ النَّبِيُّ ﷺ يُرَبِّي عَلَيْهَا أَصْحَابَهُ الْكِرَامَ فِي مَكَّةَ ثَلَاثَةَ عَشَرَ عَامًا. وَلَمْ يَكُفَّ عَنْهَا أَبَدًا فِي الْمَدِينَةِ؛ لَأَنَّ قَضِيَّةَ التَّوْحِيدِ لَا يُنْتَقَلُ «مِنْهَا» إِلَى غَيْرِهَا؛ بَلْ يُنْتَقَلُ «مَعَهَا» إِلَى غَيْرِهَا.

لِأَنَّ اللهَ تَعَالَى لَمْ يَجْعَلْ هَذِهِ الْكَلِمَةَ الْجَلِيلَةَ: «لَا إِلَهَ إِلَّا اللهُ» مُجَرَّدَ كَلِمَةٍ تُنْطَقُ بِاللِّسَانِ - فَحَسْبُ- وَإِنَّمَا لِتَكُونَ مَنْهَجًا عَمَلِيًّا يَتَأَلَّقُ سُمُوًّا وَعَظَمَةً وَجَلَالًا وَبِنَاءً وَعَقِيدَةً حَيَّةً فِي قُلُوبِ النَّاسِ وَضَمَائِرِهِمْ؛ فَالْإِسْلَامُ عَقِيدَةٌ تَنْبَثِقُ مِنْهَا شَرِيعَةٌ، تُنَظِّمُ هَذِهِ الشَّرِيعَةُ كُلَّ شُئُونِ الْحَيَاةِ، وَلَا يَقْبَلُ اللهُ مِنْ قَوْمٍ شَرِيعَتَهُمْ إِلَّا إِذَا صَحَّتْ عَقِيدَتُهُمْ!!

وَهُنَا تَتَجَلَّى عَظَمَةُ رَسُولِ اللهِ ﷺ الَّذِي اسْتَطَاعَ أَنْ يُقِيمَ لِلتَّوْحِيدِ دَوْلَةً مِنْ فُتَاتٍ مُتَنَاثِرٍ وَسْطَ صَحْرَاءَ تَمُوجُ بِالْجَهْلِ وَالشِّرْكِ مَوْجًا، فَإِذَا هِيَ بِنَاءٌ شَامِخٌ لَا يُطَاوِلُهُ بِنَاءٌ فِي وَقْتٍ لَا يُسَاوِي فِي حِسَابِ الزَّمَنِ شَيْئًا عَلَى الْإِطْلَاقِ، وَذَلِكَ يَوْمَ أَنْ قَامَ النَّبِيُّ ﷺ بِطِبَاعَةِ عَشَرَاتِ الْآلَافِ مِنَ النُّسَخِ مِنْ عَقِيدَةِ التَّوْحِيدِ؛ وَلَكِنَّهُ - بِأَبِي وَأُمِّي وَرُوحِي- لَمْ يَطْبَعْهَا بِالْحِبْرِ عَلَى صَحَائِفِ الْأَوْرَاقِ، وَإِنَّمَا طَبَعَهَا عَلَى صَحَائِفِ قُلُوبِ أَصْحَابِهِ بِمِدَادٍ مِنَ التُّقَى وَالْهُدَى وَالنُّورِ؛ فَشَهِدُوا لِلْحَقِّ بِالْعِلْمِ وَالْعَمَلِ، وَالدَّعْوَةِ وَالْبَلَاغِ.

وَمَا أَحْوَجَ الْأُمَّةَ - الْآنَ- إِلَى تَحْقِيقِ التَّوْحِيدِ عَلَى مُرَادِ اللهِ وَرَسُولِهِ، وَالشَّهَادَةِ لَهُ عَلَى أَرْضِ الْوَاقِعِ؛ لِتَكُونَ أَهْلًا لِدَعْوَةِ أَهْلِ الْأَرْضِ إِلَى هَذَا التَّوْحِيدِ

الْخَالِصِ. وَإِلَّا فَمَنْ لِهَذِهِ الْبَشَرِيَّةِ الَّتِي ضَلَّتْ عَنِ التَّوْحِيدِ؟ مَنْ لِهَذِهِ الْبَشَرِيَّةِ الَّتِي غَرِقَتْ فِي أَوْحَالِ الشِّرْكِ؟ مَنْ لِهَذِهِ الْبَشَرِيَّةِ الَّتِي تَعِيشُ فِي الظَّلَامِ عَلَى الرَّغْمِ مِنْ كَثْرَةِ الْأَضْوَاءِ؟ مَنْ لِهَذِهِ الْبَشَرِيَّةِ الَّتِي تَهْذِي كَالسَّكْرَانِ، وَتَضْحَكُ كَالْمَجْنُونِ، وَتَجْرِي كَالْمُطَارَدِ، تَئِنُّ مِنَ الْأَلَمِ، تَبْحَثُ عَنْ أَيِّ شَيْءٍ، وَهِيَ فِي الْحَقِيقَةِ تَمْلِكُ كُلَّ شَيْءٍ، وَلَكِنَّهَا حِينَ انْحَرَفَتْ عَنْ مَنْهَجِ اللهِ فَقَدَتْ كُلَّ شَيْءٍ؟!!

مَنِ الَّذِي يَحْمِلُ النُّورَ لِمَنْ يَعِيشُونَ فِي الظَّلَامِ إِلَّا مَنْ أَشْرَقَتْ قُلُوبُهُمْ بِنُورِ التَّوْحِيدِ وَالْإِيمَانِ؟! مَنِ الَّذِي يُسْمِعُ الْبَشَرِيَّةَ عَنِ اللهِ وَرَسُولِهِ إِلَّا مَنْ سَمِعُوا للهِ وَرَسُولِهِ؟ مَنْ لِأَهْلِ الْأَرْضِ إِلَّا صَفْوَةُ أَهْلِ الْأَرْضِ مِنَ الْمُوَحِّدِينَ؟!

وَهُنَا يَتَجَلَّى حَجْمُ الْأَمَانَةِ الثَّقِيلَةِ وَالْمَسْئُولِيَّةِ الْعَظِيمَةِ الَّتِي كُلِّفَتْ بِهَا خَيْرُ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ فِي تَحْقِيقِ التَّوْحِيدِ وَدَعْوَةِ أَهْلِ الْأَرْضِ إِلَيْهِ. وَمَا مِنْ يَوْمٍ يَمُرُّ إِلَّا وَنَزْدَادُ يَقِينًا أَنَّ الْخُطْوَةَ الْعَمَلِيَّةَ الْأُولَى عَلَى طَرِيقِ النَّصْرِ وَالتَّمْكِينِ فِي الدُّنْيَا؛ بَلْ وَالسَّعَادَةِ فِي الْآخِرَةِ هِيَ تَحْقِيقُ التَّوْحِيدِ بِشُمُولِهِ وَكَمَالِهِ، وَصَفَائِهِ وَنَقَائِهِ. وَمَا أَحْوَجَ الْبَشَرِيَّةَ عَامَّةً وَالْأُمَّةَ خَاصَّةً إِلَى التَّوْحِيدِ.

فَمِنْ أَهَمِّ وَأَبْرَزِ سِمَاتِ هَذَا الْمَنْهَجِ النَّبَوِيِّ الْكَرِيمِ، وَغَايَاتِهِ النَّبِيلَةِ، وَأَهْدَافِهِ السَّامِيَةِ؛ الْبَدْءُ بِدَعْوَةِ النَّاسِ إِلَى التَّوْحِيدِ الْخَالِصِ وَعِبَادَةِ اللهِ تَعَالَى وَحْدَهُ لَا شَرِيكَ لَهُ، وَإِلَى الْعَقِيدَةِ الصَّحِيحَةِ الصَّافِيَةِ.

وَمَا مِنْ نَبِيٍّ وَلَا رَسُولٍ إِلَّا وَدَعَا قَوْمَهُ أَوَّلَ مَا دَعَاهُمْ إِلَى التَّوْحِيدِ، وَحَذَّرَهُمْ أَوَّلَ مَا حَذَّرَهُمْ مِنَ الشِّرْكِ وَالتَّنْدِيدِ.

فَالتَّوْحِيدُ أَوَّلُ دَعْوَةِ الْمُرْسَلِينَ؛ قال تَعَالَى: ﴿ وَلَقَدْ بَعَثْنَا فِى كُلِّ أُمَّةٍ رَّسُولًا أَنِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ وَٱجْتَنِبُوا۟ ٱلطَّٰغُوتَ ۖ فَمِنْهُم مَّنْ هَدَى ٱللَّهُ وَمِنْهُم مَّنْ حَقَّتْ عَلَيْهِ ٱلضَّلَٰلَةُ ۚ فَسِيرُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ فَٱنظُرُوا۟ كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلْمُكَذِّبِينَ ﴾ [النحل:٣٦].

وَقَالَ تَعَالَى: ﴿وَمَآ أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ مِن رَّسُولٍ إِلَّا نُوحِىٓ إِلَيْهِ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّآ أَنَا۠ فَٱعْبُدُونِ﴾ [الأنبياء:٢٥].

وَقَالَ تَعَالَى: ﴿وَسْـَٔلْ مَنْ أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ مِن رُّسُلِنَآ أَجَعَلْنَا مِن دُونِ ٱلرَّحْمَٰنِ ءَالِهَةً يُعْبَدُونَ﴾ [الزخرف:٤٥].

وَقَالَ تَعَالَى: ﴿شَرَعَ لَكُم مِّنَ ٱلدِّينِ مَا وَصَّىٰ بِهِۦ نُوحًا وَٱلَّذِىٓ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ وَمَا وَصَّيْنَا بِهِۦٓ إِبْرَٰهِيمَ وَمُوسَىٰ وَعِيسَىٰٓ ۖ أَنْ أَقِيمُوا۟ ٱلدِّينَ وَلَا تَتَفَرَّقُوا۟ فِيهِ ۚ كَبُرَ عَلَى ٱلْمُشْرِكِينَ مَا تَدْعُوهُمْ إِلَيْهِ ۚ ٱللَّهُ يَجْتَبِىٓ إِلَيْهِ مَن يَشَآءُ وَيَهْدِىٓ إِلَيْهِ مَن يُنِيبُ﴾ [الشورى:١٣].

وَبَعْدَ هَذَا الْإِجْمَالِ؛ يَأْتِي التَّفْصِيلُ:

قَالَ تَعَالَى: ﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا إِلَىٰ قَوْمِهِۦٓ إِنِّى لَكُمْ نَذِيرٌ مُّبِينٌ ﴿٢٥﴾ أَن لَّا تَعْبُدُوٓا۟ إِلَّا ٱللَّهَ ۖ إِنِّىٓ أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ أَلِيمٍ﴾ [هود:٢٥، ٢٦].

وَقَالَ تَعَالَى: ﴿وَإِلَىٰ عَادٍ أَخَاهُمْ هُودًا ۚ قَالَ يَٰقَوْمِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُۥٓ ۖ إِنْ أَنتُمْ إِلَّا مُفْتَرُونَ﴾ [هود:٥٠].

وَقَالَ تَعَالَى: ﴿وَإِلَىٰ ثَمُودَ أَخَاهُمْ صَٰلِحًا ۚ قَالَ يَٰقَوْمِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُۥ ۖ هُوَ أَنشَأَكُم مِّنَ ٱلْأَرْضِ وَٱسْتَعْمَرَكُمْ فِيهَا فَٱسْتَغْفِرُوهُ ثُمَّ تُوبُوٓا۟ إِلَيْهِ ۚ إِنَّ رَبِّى قَرِيبٌ مُّجِيبٌ﴾ [هود:٦١].

وَقَالَ تَعَالَى: ﴿وَإِلَىٰ مَدْيَنَ أَخَاهُمْ شُعَيْبًا ۚ قَالَ يَٰقَوْمِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُۥ ۖ وَلَا تَنقُصُوا۟ ٱلْمِكْيَالَ وَٱلْمِيزَانَ ۚ إِنِّىٓ أَرَىٰكُم بِخَيْرٍ وَإِنِّىٓ أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ مُّحِيطٍ﴾ [هود:٨٤].

وَالْعِبَادَةُ الَّتِي أُمِرُوا بِهَا هِيَ الْعِبَادَةُ الْخَالِصَةُ الَّتِي لَا يَشُوبُهَا شِرْكٌ جَلِيٌّ أَوْ خَفِيٌّ؛ كَمَا قَالَ تَعَالَى: ﴿وَٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ وَلَا تُشْرِكُوا۟ بِهِۦ شَيْـًٔا﴾ [النساء:٣٦]، ثُمَّ بَيَّنَ

تَعَالَى أَنَّ الشِّرْكَ مُحْبِطٌ لِجَمِيعِ الْأَعْمَالِ؛ فَقَالَ سُبْحَانَهُ: ﴿وَلَوْ أَشْرَكُوا لَحَبِطَ عَنْهُم مَّا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾ [الأنعام:٨٨].

قَالَ ابْنُ الْقَيِّمِ رَحِمَهُ اللَّهُ (١): «التَّوْحِيدُ أَوَّلُ دَعْوَةِ الرُّسُلِ، وَأَوَّلُ مَنَازِلِ الطَّرِيقِ، وَأَوَّلُ مَقَامٍ يَقُومُ فِيهِ السَّالِكُ إِلَى اللهِ تَعَالَى».

وَلَقَدْ بَيَّنَ النَّبِيُّ ﷺ هَذَا الْأَمْرَ بَيَانًا شَافِيًا لِأَصْحَابِهِ، وَلِلْأُمَّةِ مِنْ بَعْدِهِمْ؛ كَمَا فِي «**الصَّحِيحَيْنِ**» (٢) مِنْ حَدِيثِ مُعَاذِ بْنِ جَبَلٍ رضي الله عنه قَالَ: كُنْتُ رِدْفَ النَّبِيِّ ﷺ عَلَى حِمَارٍ يُقَالُ لَهُ: عُفَيْرٌ؛ فَقَالَ: «**يَا مُعَاذُ، هَلْ تَدْرِي حَقَّ اللهِ عَلَى عِبَادِهِ؟ وَمَا حَقُّ الْعِبَادِ عَلَى اللهِ؟**» قُلْتُ: اللهُ وَرَسُولُهُ أَعْلَمُ. قَالَ: «**فَإِنَّ حَقَّ اللهِ عَلَى الْعِبَادِ أَنْ يَعْبُدُوهُ وَلَا يُشْرِكُوا بِهِ شَيْئًا، وَحَقَّ الْعِبَادِ عَلَى اللهِ أَنْ لَا يُعَذِّبَ مَنْ لَا يُشْرِكُ بِهِ شَيْئًا**»؛ فَقُلْتُ: يَا رَسُولَ اللهِ، أَفَلَا أُبَشِّرُ بِهِ النَّاسَ؟ قَالَ: «**لَا تُبَشِّرْهُمْ؛ فَيَتَّكِلُوا**»؛ لِذَا؛ كَانَ الْبَدْءُ بِهِ أَوَّلَ وَصِيَّةٍ لِرَسُولِ اللهِ ﷺ أَوْصَى بِهَا أَوَّلَ دَاعِيَةٍ إِلَى الْيَمَنِ؛ مُعَاذَ بْنَ جَبَلٍ رضي الله عنه؛ كَمَا فِي «**الصَّحِيحَيْنِ**» (٣) عَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ رضي الله عنهما قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ لِمُعَاذِ بْنِ جَبَلٍ رضي الله عنه حِينَ بَعَثَهُ إِلَى الْيَمَنِ: «**إِنَّكَ سَتَأْتِي قَوْمًا أَهْلَ كِتَابٍ؛ فَإِذَا جِئْتَهُمْ؛ فَادْعُهُمْ إِلَى أَنْ يَشْهَدُوا أَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا اللهُ، وَأَنَّ مُحَمَّدًا رَسُولُ اللهِ؛ فَإِنْ هُمْ أَطَاعُوا لَكَ بِذَلِكَ فَأَخْبِرْهُمْ أَنَّ اللهَ قَدْ فَرَضَ عَلَيْهِمْ خَمْسَ صَلَوَاتٍ فِي كُلِّ يَوْمٍ وَلَيْلَةٍ؛ فَإِنْ هُمْ أَطَاعُوا لَكَ بِذَلِكَ فَأَخْبِرْهُمْ أَنَّ اللهَ قَدْ فَرَضَ عَلَيْهِمْ صَدَقَةً تُؤْخَذُ مِنْ أَغْنِيَائِهِمْ، فَتُرَدُّ عَلَى فُقَرَائِهِمْ؛ فَإِنْ هُمْ أَطَاعُوا لَكَ بِذَلِكَ فَإِيَّاكَ وَكَرَائِمَ أَمْوَالِهِمْ، وَاتَّقِ دَعْوَةَ الْمَظْلُومِ، فَإِنَّهُ لَيْسَ بَيْنَهُ وَبَيْنَ اللهِ حِجَابٌ**».

---

(١) «مدارج السالكين» (٣/ ٤٤٣) ط الكتاب العربي. بيروت.

(٢) أخرجه البخاريُّ، كتاب الجهاد والسير، باب اسم الفرس والحمار (٢٨٥٦)، وفي كتاب الاستئذان، باب من أجاب بلبيك وسعديك (٦٢٦٧)، ومسلمٌ، كتاب الإيمان، باب الدليل على أن من مات على التوحيد دخل الجنة قطْعًا (٣٠/ ٤٩).

(٣) تقدم قريبًا.

فَلْتَكُنْ هَذِهِ الْقَضِيَّةُ الْكَبِيرَةُ هِيَ أَسَاسَ دَعْوَةِ النَّاسِ إِلَى الإِسْلَامِ؛ كَمَا كَانَتْ أَسَاسَ دَعْوَتِهِمْ إِلَيْهِ أَوَّلَ مَرَّةٍ؛ هَذَا هُوَ التَّأْصِيلُ الْمَنْهَجِيُّ لِلدَّعْوَةِ الَّذِي يَجِبُ أَنْ تَسِيرَ عَلَيْهِ - أَيُّهَا الدَّاعِي -؛ أَنْ تَبْدَأَ بِدَعْوَةِ الآخَرِينَ حَتَّى وَلَوْ كُنْتَ تَعْلَمُ أَنَّ مَنْ تَدْعُوهُ مُوَحِّدًا للهِ - تَعَالَى - فَإِنَّهُ لَا يُدْعَى إِلَى التَّوْحِيدِ أَهْلُ الشِّرْكِ فَحَسْبُ؛ بَلْ يُدْعَى إِلَى التَّوْحِيدِ أَهْلُ التَّوْحِيدِ؛ فَلَا يَنْبَغِي أَنْ تَصُدَّنَا هَذِهِ الْمَقُولَةُ الْخَبِيثَةُ الَّتِي تَقُولُ: إِنَّ النَّاسَ فِي الْمَاضِي كَانُوا مُشْرِكِينَ، فَلَزِمَ أَنْ تَكُونَ الْعَقِيدَةُ حِينَئِذٍ أَوَّلَ مَا يَنْبَغِي أَنْ يُدْعَوْا إِلَيْهَا، وَلَكِنَّ النَّاسَ الْيَوْمَ - وَالْحَمْدُ للهِ- مُسْلِمُونَ يَقُولُونَ: لَا إِلَهَ إِلَّا اللهُ مُحَمَّدٌ رَسُولُ اللهِ؛ فَمَا الدَّاعِي إِذَنْ لِدَعْوَةِ النَّاسِ إِلَى التَّوْحِيدِ ... إِلَى الْعَقِيدَةِ.. إِلَى لَا إِلَهَ إِلَّا اللهُ؟!! فَهَذَا فَهْمٌ مَغْلُوطٌ؛ فَقَضِيَّةُ التَّوْحِيدِ - كَمَا ذَكَرْتُ- يُدْعَى إِلَيْهَا أَيْضًا الْمُؤْمِنُونَ بِهَا، وَالْمُعْتَنِقُونَ لَهَا، وَالْمُسْتَمْسِكُونَ بِهَا؛ لِيَظَلَّ التَّوْحِيدُ عَقِيدَةً حَيَّةً فِي قُلُوبِهِمْ، رَاسِخَةً فِي ضَمَائِرِهِمْ، عَامِلَةً فِي وَاقِعِ حَيَاتِهِمْ، وَتَدَبَّرْ مَعِي قَوْلَ اللهِ تَعَالَى: ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ ءَامِنُوا۟﴾[النساء:١٣٦]؛ فَاللهُ تَعَالَى أَثْبَتَ لَهُمْ عَقْدَ الإِيمَانِ ابْتِدَاءً، وَمَعَ ذَلِكَ يَأْمُرُهُمْ بِالإِيمَانِ؛ فَالتَّوْحِيدُ أَصْلٌ لَا يُنْتَقَلُ (مِنْهُ) إِلَى غَيْرِهِ، بَلْ يُنْتَقَلُ (مَعَهُ) إِلَى غَيْرِهِ.

وَرَحِمَ اللهُ شَيْخَ الإِسْلَامِ إِذْ يَقُولُ [1]: «فَإِنَّ هَذِهِ الْقَوَاعِدَ الْمُتَعَلِّقَةَ بِتَقْرِيرِ التَّوْحِيدِ، وَحَسْمِ مَادَّةِ الشِّرْكِ وَالْغُلُوِّ، كُلَّمَا تَنَوَّعَ بَيَانُهَا، وَوَضَحَتْ عِبَارَاتُهَا، كَانَ ذَلِكَ نُورًا عَلَى نُورٍ».

فَكُلَّمَا تَنَوَّعَتِ الْعِبَارَةُ وَالْحَدِيثُ فِي مَادَّةِ التَّوْحِيدِ كَانَتْ نُورًا عَلَى نُورٍ، وَضِيَاءً عَلَى ضِيَاءٍ؛ فَالنَّبِيُّ ﷺ يَأْمُرُ مُعَاذًا، وَيُحَدِّدُ لَهُ الْمَنْهَجَ الدَّعَوِيَّ؛ لِأَنَّهُ تَوْقِيفِيٌّ، لَيْسَ مَحَلَّ اخْتِيَارٍ لِكُلِّ دَاعٍ، وَإِنَّمَا وَضَعَ النَّبِيُّ ﷺ أُصُولَهُ وَأُسُسَهُ وَأَهْدَافَهُ، وَتَرَكَ لَكَ الْوَسَائِلَ بِحَسَبِ الْبِيئَةِ، وَالزَّمَانِ، وَالْمَكَانِ الَّذِي تَجِدُ نَفْسَكَ فِيهِ، فَقَدْ تَخْتَلِفُ وَسِيلَةُ الدَّعْوَةِ مِنْ زَمَانٍ إِلَى زَمَانٍ، وَمِنْ مَكَانٍ إِلَى مَكَانٍ،

(١) «مجموع الفتاوى» (١/ ٣١٣).

وَلَيْسَتِ الْعِبْرَةُ بِأَنْ تُحْفَظَ هَـذِهِ الْكَلِمَـاتُ فِي الْقُلُـوبِ فَحَسْـبُ! بَـلْ لَابُـدَّ وَأَنْ تَتَحَوَّلَ فِي حَيَاتِنَا إِلَى وَاقِعٍ عَمَلِيٍّ، وَإِلَى مَنْهَجِ حَيَاةٍ(١).

وَفِي «صَحِيحِ مُسْلِمٍ» (٢)مِنْ حَدِيثِ أَبِي هُرَيْرَةَ ﵁ أَنَّ النَّبِيَّ ﷺ قَـالَ: «**إِنَّ اللهَ يَرْضَى لَكُمْ ثَلَاثًا، وَيَكْرَهُ لَكُمْ ثَلَاثًا، فَيَرْضَى لَكُمْ: أَنْ تَعْبُدُوهُ وَلَا تُشْرِكُوا بِهِ شَيْئًا، وَأَنْ تَعْتَصِمُوا بِحَبْلِ اللَّهِ جَمِيعًا وَلَا تَفَرَّقُوا، وَيَكْرَهُ لَكُمْ: قِيلَ وَقَالَ، وَكَثْرَةَ السُّؤَالِ، وَإِضَاعَةَ الْمَالِ**».

فَلَا يَجُوزُ أَنْ يُشْرَكَ مَعَ اللهِ غَيْرُهُ؛ فَهُوَ وَحْدَهُ الْمُسْتَحِقُّ لِجَمِيعِ أَنْوَاعِ الْعِبَادَةِ؛ فَلَا تُصْرَفُ الْعِبَادَةُ لِمَلَكٍ مِنَ الْمَلَائِكَةِ، وَلَوْ كَانَ مِنَ الْمُقَرَّبِينَ؛ كَجِبْرِيلَ، وَمِيكَائِيلَ، وَإِسْرَافِيلَ، وَغَيْرِهِمْ، وَلَا لِنَبِيٍّ مُرْسَلٍ، وَلَوْ كَانَ أَشْرَفَ الرُّسُلِ وَأَكْرَمَهُمْ عَلَى اللهِ تَعَالَى، وَهُوَ رَسُولُ اللهِ ﷺ؛ فَإِذَا كَانَ هَذَا كَذَلِكَ، فَلَا تُصْرَفُ الْعِبَادَةُ لِوَلِيٍّ، وَلَا لِأَيِّ عَبْدٍ مِنْ عِبَادِ اللهِ؛ لِأَنَّ هَـذَا مِنَ الشِّرْكِ الَّذِي لَا يَرْضَاهُ الْخَالِقُ ﷻ وَهُوَ مِنَ الشِّرْكِ الْأَكْبَرِ الَّذِي لَا يُغْفَرُ وَالْعِيَاذُ بِاللهِ!!

لِذَا؛ عَلَّمَ النَّبِيُّ ﷺ هَذِهِ الْعَقِيدَةَ الصَّافِيَةَ غُلَامًا صَغِيرًا، أَلَا وَهُوَ عَبْدُ اللهِ بْنُ عَبَّاسٍ ﵄ حَبْرُ الْأُمَّةِ، وَتَرْجُمَانُ الْقُرْآنِ؛ فَفِي «**مُسْنَدِ**» **أَحْمَدَ**، وَ«**سُنَنِ**» **التِّرْمِذِيِّ وَغَيْرِهِمَا** (٣)مِنْ حَدِيثِ ابْنِ عَبَّاسٍ ﵄ قَالَ: كُنْتُ خَلْفَ النَّبِيِّ ﷺ يَوْمًا؛ فَقَالَ: «**يَا غُلَامُ، إِنِّي أُعَلِّمُكَ كَلِمَاتٍ: احْفَظِ اللهَ يَحْفَظْكَ، احْفَظِ اللهَ تَجِدْهُ تُجَاهَكَ، إِذَا سَأَلْتَ فَاسْأَلِ اللهَ، وَإِذَا اسْتَعَنْتَ فَاسْتَعِنْ بِاللهِ، وَاعْلَمْ: أَنَّ الْأُمَّةَ لَوْ**

---

(١) «جبريل ﷺ يسأل والنبي ﷺ يجيب» (١/ ٣٧١، ٣٧٢)، و«شرح الأصول الثلاثة» (ص:٤٤)، و«الخواطر» (ص:٨٣، ٨٤) ط فياض، للباحث.

(٢) أخرجه مسلمٌ، كتاب الأقضية، باب النهي عن كثرة المسائل من غير حاجة (١٧١٥).

(٣) أخرجه أحمد (١/ ٢٩٣، ٣٠٣)، والترمذيُّ، كتاب صفة القيامة والورع، باب (٥٩) (٢٥١٦)، وقال الترمذيُّ: «حديث حسن صحيح»، وأبو يعلى (٢٥٥٦)، والحاكم (٣/ ٦٢٤)، والطبرانيُّ في «الكبير» (١١/ ١٧٨) و(١٢/ ٢٣٨)، وصحَّحه الألبانيُّ في «صحيح الجامع» (٧٩٥٧)، و«المشكاة» (٥٣٠٢) ط المكتب الإسلامي، بيروت.

اجْتَمَعَتْ عَلَى أَنْ يَنْفَعُوكَ بِشَيءٍ لَمْ يَنْفَعُوكَ إِلَّا بِشَيءٍ قَدْ كَتَبَهُ اللهُ لَكَ، وَإِنِ اجْتَمَعُوا عَلَى أَنْ يَضُرُّوكَ بِشَيءٍ لَمْ يَضُرُّوكَ إِلَّا بِشَيءٍ قَدْ كَتَبَهُ اللهُ عَلَيْكَ، رُفِعَتِ الأَقْلَامُ، وَجَفَّتِ الصُّحُفُ».

فَمَا أَحْوَجَنَا إِلَى هَذَا التَّوْجِيهِ النَّبَوِيِّ فِي تَأْصِيلِ الْعَقِيدَةِ فِي قُلُوبِ أَوْلَادِنَا فِي مِثْلِ هَذِهِ السِّنِّ الْمُبَكِّرَةِ؛ لِتَكُونَ بِفَضْلِ اللهِ سِيَاجًا وَاقِيًا وَحِصْنًا حَامِيًا لَهُمْ فِي ظِلِّ هَذِهِ الأَمْوَاجِ الْمُتَلَاطِمَةِ الْعَاتِيَةِ مِنَ الْفِتَنِ. فَلَا يَخْفَى عَلَى أَحَدٍ أَنَّ أَوْلَادَنَا يَنْشَئُونَ وَيُرَبَّوْنَ فِي ظِلِّ جُمْلَةٍ هَائِلَةٍ مِنَ الْمُتَنَاقِضَاتِ، وَالأَزَمَاتِ، وَالْمُشْكِلَاتِ وَكَأَنَّهُمْ يَعِيشُونَ فِي بَحْرٍ لُجِّيٍّ إِذَا أَخْرَجَ أَحَدُهُمْ يَدَهُ لَمْ يَكَدْ يَرَاهَا!! بَلْ إِذَا امْتَدَّتْ إِلَيْهِ يَدٌ حَانِيَةٌ طَاهِرَةٌ؛ لِتَنْتَشِلَهُ مِنْ هَذَا الْهَلَاكِ الْمُحَتَّمِ جَذَبَتْهُ أَيَادٍ أُخْرَى كَثِيرَةٌ بِكَثْرَةِ الأَعْدَاءِ الْمُتَرَبِّصِينَ مِمَّنْ لَا يُرِيدُونَ لِأَوْلَادِنَا أَنْ يَتَرَبَّوْا ابْتِدَاءً عَلَى الْعَقِيدَةِ بِصَفَائِهَا، وَشُمُولِهَا، وَكَمَالِهَا. وَمِنْ هُنَا يَبْرُزُ جَلَالُ هَذَا التَّوْجِيهِ النَّبَوِيِّ مِنْ سَيِّدِ الدُّعَاةِ ﷺ لِابْنِ عَبَّاسٍ رضي الله عنهما؛ لِيَكُونَ مَنْهَجًا لِكُلِّ الدُّعَاةِ السَّائِرِينَ عَلَى دَرْبِ قُدْوَةِ الدُّعَاةِ؛ وَلَمْ تَكُنْ دَعْوَتُهُ لِتَأْصِيلِ وَتَرْسِيخِ الْعَقِيدَةِ فِي قُلُوبِ الصِّغَارِ فَحَسْبُ؛ بَلْ كَانَ رَسُولُ اللهِ ﷺ يُؤَصِّلُ الْمُعْتَقَدَ الصَّحِيحَ فِي قُلُوبِ الصَّحَابَةِ الْكِرَامِ؛ حَتَّى صَارُوا أَبَرَّ النَّاسِ قُلُوبًا، وَأَعْمَقَ الأُمَّةِ عِلْمًا، وَأَقَلَّهَا تَكَلُّفًا؛ كَمَا تَقَدَّمَ فِي الأَثَرِ.

فَمَنْ لَقِيَ رَبَّهُ تَعَالَى بِهَذَا التَّوْحِيدِ الْخَالِصِ الَّذِي بَيَّنَّاهُ؛ فَلَا رَيْبَ أَنَّهُ مِنَ السُّعَدَاءِ الْفَائِزِينَ، وَإِنَّ هَذَا التَّوْحِيدَ لَكَفِيلٌ بِأَنْ تُحْرِقَ أَنْوَارُهُ كُلَّ ذُنُوبِهِ وَمَعَاصِيهِ؛ كَمَا قَالَ الْعَلَّامَةُ ابْنُ رَجَبٍ (١) رحمه الله فِي كِتَابِهِ الْمَاتِعِ: «**جَامِعِ الْعُلُومِ**

---

(١) هو عبد الرحمن بن أحمد بن رجب بن عبد الرحمن بن الحسن بن محمد بن أبي البركات (مسعود) البغدادي، ثم الدمشقيُّ الحنبليُّ، الإمام الحافظ الحجة، والفقيه العمدة، أحد العلماء الزهاد، والأئمة العباد، مفيد المحدثين واعظ المسلمين، شهاب الدين أبو العباس أو أبو الفرج، ولد ببغداد سنة ست وسبعمائة، له المؤلفات السديدة، والمصنفات المفيدة، منها شرح «صحيح البخاري» لم يكملْ، وصَلَ فيه إلى كتاب =

وَالْحِكَمِ»[(١)]: «وَمِنْ أَسْبَابِ الْمَغْفِرَةِ: «التَّوْحِيدُ، وَهُوَ السَّبَبُ الْأَعْظَمُ؛ فَمَنْ فَقَدَهُ فَقَدَ الْمَغْفِرَةَ، وَمَنْ جَاءَ بِهِ فَقَدْ أَتَى بِأَعْظَمِ أَسْبَابِ الْمَغْفِرَةِ؛ قَالَ اللهُ تَعَالَى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَغْفِرُ أَن يُشْرَكَ بِهِۦ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَٰلِكَ لِمَن يَشَآءُ﴾ [النساء:١١٦].

فَمَنْ جَاءَ مَعَ التَّوْحِيدِ بِقُرَابِ الْأَرْضِ - وَهُوَ مِلْؤُهَا أَوْ مَا يُقَارِبُ مِلْئَهَا- خَطَايَا لَقِيَهُ اللهُ بِقُرَابِهَا مَغْفِرَةً؛ فَإِنْ كَمُلَ تَوْحِيدُ الْعَبْدِ وَإِخْلَاصُهُ للهِ فِيهِ، وَقَامَ بِشُرُوطِهِ كُلِّهَا بِقَلْبِهِ وَلِسَانِهِ وَجَوَارِحِهِ، أَوْ بِقَلْبِهِ وَلِسَانِهِ عِنْدَ الْمَوْتِ، أَوْجَبَ ذَلِكَ مَغْفِرَةَ مَا سَلَفَ مِنَ الذُّنُوبِ كُلِّهَا، وَمَنَعَهُ مِنْ دُخُولِ النَّارِ بِالْكُلِّيَّةِ؛ فَمَنْ تَحَقَّقَ بِكَلِمَةِ التَّوْحِيدِ قَلْبُهُ أَخْرَجَتْ مِنْهُ كُلَّ مَا سِوَى اللهِ مَحَبَّةً، وَتَعْظِيمًا، وَإِجْلَالًا، وَمَهَابَةً، وَخَشْيَةً، وَرَجَاءً، وَتَوَكُّلًا، وَحِينَئِذٍ تُحْرِقُ ذُنُوبَهُ وَخَطَايَاهُ كُلَّهَا، وَلَوْ كَانَتْ مِثْلَ زَبَدِ الْبَحْرِ، وَرُبَّمَا قَلَبَتْهَا حَسَنَاتٍ؛ فَإِنَّ هَذَا التَّوْحِيدَ هُوَ الْإِكْسِيرُ[(٢)] الْأَعْظَمُ؛ فَلَوْ وُضِعَ مِنْهُ ذَرَّةٌ عَلَى جِبَالِ الذُّنُوبِ وَالْخَطَايَا لَقَلَبَهَا حَسَنَاتٍ» انْتَهَى.

وَتَكَلَّمَ الْعَلَّامَةُ ابْنُ الْقَيِّمِ فِي «الْمَدَارِجِ» كَلَامًا نَفِيسًا رَائِعًا؛ فَقَالَ[(٣)]: «وَلِهَذَا مَنْ رَجَحَتْ حَسَنَاتُهُ عَلَى سَيِّئَاتِهِ أَفْلَحَ وَلَمْ يُعَذَّبْ، وَوُهِبَتْ لَهُ سَيِّئَاتُهُ؛ لِأَجْلِ حَسَنَاتِهِ، وَلِأَجْلِ هَذَا يُغْفَرُ لِصَاحِبِ التَّوْحِيدِ مَا لَا يُغْفَرُ لِصَاحِبِ الشِّرْكِ؛ لِأَنَّهُ قَدْ قَامَ بِهِ مِمَّا يُحِبُّهُ اللهُ مَا اقْتَضَى أَنَّ اللهَ يَغْفِرُ لَهُ، وَيُسَامِحُهُ مَا لَا يُسَامِحُ بِهِ الْمُشْرِكَ،

=

«الجنائز»، و«جامع العلوم والحكم»، و«لطائف المعارف» وغيرها الكثير، مات رحمه الله في شهر رجب أو شهر رمضان سنة خمس وتسعين وسبعمائة بدمشق.

● راجع: «ذيل تذكرة الحفاظ» (صـ١٨٠) ط الفكر العربي، و«الدرر الكامنة في أعيان المائة الثامنة» (٢٢٧٦) ط مجلس دائرة المعارف العثمانية (حيدر أباد / الهند) سنة ١٣٩٢ هـ.

(١) «جامع العلوم والحكم» (الحديث الثاني والأربعون) (ص٣٤١) ط دار الفكر.

(٢) الإِكْسِير: مَادَّة مركَّبةٌ كَانَ الأَقْدَمون يَزْعُمُونَ أَنَّهَا تُحَوِّل المعْدِن الرَّخيص إلى ذهب. «المعجم الوسيط» (ص:٢٢)، ط مكتبة الشروق الدولية، الطبعة الرابعة.

(٣) «مدارج السالكين» (١/ ٣٥٨).

وَكُلَّمَا كَانَ تَوحِيدُ الْعَبْدِ أَعْظَمَ كَانَتْ مَغْفِرَةُ الله لَهُ أَتَمَّ؛ فَمَنْ لَقِيَهُ تَعَالَى لَا يُشْرِكُ بِهِ شَيْئًا الْبَتَّةَ غَفَرَ لَهُ ذُنُوبَهُ كُلَّهَا كَائِنَةً مَا كَانَتْ، وَلَمْ يُعَذَّبْ بِهَا، وَلَسْنَا نَقُولُ: إِنَّهُ لَا يَدْخُلُ النَّارَ أَحَدٌ مِنْ أَهْلِ التَّوْحِيدِ؛ بَلْ كَثِيرٌ مِنْهُمْ يَدْخُلُ بِذُنُوبِهِ، وَيُعَذَّبُ عَلَى مِقْدَارِ جُرْمِهِ، ثُمَّ يَخْرُجُ مِنْهَا، وَلَا تَنَافِي بَيْنَ الْأَمْرَيْنِ لِمَنْ أَحَاطَ عِلْمًا بِمَا قَدَّمْنَاهُ. وَاعْلَمْ أَنَّ أَشِعَّةَ «لَا إِلَهَ إِلَّا الله» تُبَدِّدُ مِنْ ضَبَابِ الذُّنُوبِ وَغُيُومِهَا بِقَدْرِ قُوَّةِ ذَلِكَ الشُّعَاعِ وَضَعْفِهِ، فَلَهَا نُورٌ، وَتَفَاوُتُ أَهْلِهَا فِي ذَلِكَ النُّورِ قُوَّةً وَضَعْفًا لَا يُحْصِيهُ إِلَّا الله تَعَالَى، وَكُلَّمَا عَظُمَ نُورُ هَذِهِ الْكَلِمَةِ وَاشْتَدَّ، أَحْرَقَ مِنَ الشُّبُهَاتِ وَالشَّهَوَاتِ بِحَسَبِ قُوَّتِهِ وَشِدَّتِهِ، وَأَيُّ ذَنْبٍ أَوْ شَهْوَةٍ أَوْ شُبْهَةٍ دَنَتْ مِنْ هَذَا النُّورِ أَحْرَقَهَا؛ فَسَمَاءُ إِيمَانِهِ قَدْ حُرِسَتْ بِالنُّجُومِ مِنْ كُلِّ سَارِقٍ لِحَسَنَاتِهِ؛ فَلَا يَنَالُ مِنْهَا السَّارِقُ إِلَّا عَلَى غِرَّةٍ وَغَفْلَةٍ لَابُدَّ مِنْهَا لِلْبَشَرِ، فَإِذَا اسْتَيْقَظَ وَعَلِمَ مَا سُرِقَ مِنْهُ اسْتَنْقَذَهُ مِنْ سَارِقِهِ أَوْ حَصَّلَ أَضْعَافَهُ بِكَسْبِهِ، فَهُوَ هَكَذَا أَبَدًا مَعَ لُصُوصِ الْإِنْسِ وَالْجِنِّ، لَيْسَ كَمَنْ فَتَحَ لَهُمْ خَزَائِنَهُ وَوَلَّى الْبَابَ ظَهْرَهُ، وَلَيْسَ التَّوْحِيدُ مُجَرَّدَ إِقْرَارِ الْعَبْدِ بِأَنَّهُ لَا خَالِقَ إِلَّا الله، وَأَنَّ الله رَبُّ كُلِّ شَيْءٍ وَمَلِيكُهُ كَمَا كَانَ عُبَّادُ الْأَصْنَامِ مُقِرِّينَ بِذَلِكَ وَهُمْ مُشْرِكُونَ.

بَلِ التَّوْحِيدُ يَتَضَمَّنُ مِنْ مَحَبَّةِ الله، وَالْخُضُوعِ لَهُ، وَالذِّلَّةِ لَهُ، وَكَمَالِ الِانْقِيَادِ لِطَاعَتِهِ، وَإِخْلَاصِ الْعِبَادَةِ لَهُ، وَإِرَادَةِ وَجْهِهِ الْأَعْلَى بِجَمِيعِ الْأَقْوَالِ وَالْأَعْمَالِ، وَالْمَنْعِ وَالْعَطَاءِ، وَالْحُبِّ وَالْبُغْضِ، مَا يَحُولُ بَيْنَ صَاحِبِهِ وَبَيْنَ الْأَسْبَابِ الدَّاعِيَةِ إِلَى الْمَعَاصِي وَالْإِصْرَارِ عَلَيْهَا، وَمَنْ عَرَفَ قَوْلَ النَّبِيِّ ﷺ: **«إِنَّ الله حَرَّمَ عَلَى النَّارِ مَنْ قَالَ لَا إِلَهَ إِلَّا الله يَبْتَغِي بِذَلِكَ وَجْهَ الله»**(١)، وَقَوْلَهُ: **«لَا يَدْخُلُ النَّارَ مَنْ قَالَ: لَا إِلَهَ إِلَّا الله»**(٢)، وَمَا جَاءَ مِنْ هَذَا الضَّرْبِ مِنَ الْأَحَادِيثِ الَّتِي أَشْكَلَتْ عَلَى كَثِيرٍ مِنَ النَّاسِ حَتَّى ظَنَّهَا بَعْضُهُمْ مَنْسُوخَةً، وَظَنَّهَا بَعْضُهُمْ قِيلَتْ قَبْلَ وُرُودِ

---

(١) جزءٌ من حديث؛ أخرجه البخاريُّ، كتاب الصلاة، باب المساجد في البيوت (٤٢٥)، ومسلمٌ، كتاب المساجد، باب الرخصة في التخلف عن الجماعة بعذر (٢٦٣/ ٢٣).

(٢) هو بمعنى الذي قبله.

الْأَوَامِرِ وَالنَّوَاهِي وَاسْتِقْرَارِ الشَّرْعِ، وَحَمَلَهَا بَعْضُهُمْ عَلَى نَارِ الْمُشْرِكِينَ وَالْكُفَّارِ، وَأَوَّلَ بَعْضُهُمُ الدُّخُولَ بِالْخُلُودِ؛ فَقَالَ: الْمَعْنَى لَا يَدْخُلُهَا خَالِدًا، وَنَحْوَ ذَلِكَ مِنَ التَّأْوِيلَاتِ الْمُسْتَكْرَهَةِ.

وَالشَّرْعُ لَمْ يَجْعَلْ ذَلِكَ حَاصِلًا لِمُجَرَّدِ قَوْلِ اللِّسَانِ فَقَطْ؛ فَإِنَّ هَذَا خِلَافُ الْمَعْلُومِ مِنْ دِينِ الْإِسْلَامِ؛ فَإِنَّ الْمُنَافِقِينَ يَقُولُونَهَا بِأَلْسِنَتِهِمْ، وَهُمْ تَحْتَ الْجَاحِدِينَ لَهَا فِي الدَّرْكِ الْأَسْفَلِ مِنَ النَّارِ، فَلَابُدَّ مِنْ قَوْلِ اللِّسَانِ وَقَوْلِ الْقَلْبِ، وَقَوْلِ الْقَلْبِ يَتَضَمَّنُ مِنْ مَعْرِفَتِهَا وَالتَّصْدِيقِ بِهَا وَمَعْرِفَةِ حَقِيقَةِ مَا تَضَمَّنَتْهُ مِنَ النَّفْيِ وَالْإِثْبَاتِ، وَمَعْرِفَةِ حَقِيقَةِ الْإِلَهِيَّةِ الْمَنْفِيَّةِ عَنْ غَيْرِ اللهِ الْمُخْتَصَّةِ بِهِ سُبْحَانَهُ الَّتِي يَسْتَحِيلُ ثُبُوتُهَا لِغَيْرِهِ، وَقِيَامِ هَذَا الْمَعْنَى بِالْقَلْبِ عِلْمًا، وَمَعْرِفَةً، وَيَقِينًا، وَحَالًا مَا يُوجِبُ تَحْرِيمَ قَائِلِهَا عَلَى النَّارِ» انْتَهَى.

إِذًا؛ فَقَضِيَّةُ الْإِيمَانِ بِاللهِ تَعَالَى هِيَ الدَّعْوَةُ الْأُولَى لِكُلِّ نَبِيٍّ، وَالصَّيْحَةُ الْأُولَى لِكُلِّ رَسُولٍ، وَهِيَ الْغَايَةُ الَّتِي مِنْ أَجْلِهَا خَلَقَ اللهُ تَعَالَى الْخَلْقَ، وَأَنْزَلَ لِأَجْلِهَا جَمِيعَ الْكُتُبِ، وَأَرْسَلَ كُلَّ الْأَنْبِيَاءِ وَالرُّسُلِ، مِنْ أَجْلِ أَنْ يُحَقِّقَ الْخَلْقُ الْإِيمَانَ بِالْحَقِّ تَبَارَكَ وَتَعَالَى، وَأَنْ يُفْرِدُوهُ - جَلَّ وَعَلَا - وَحْدَهُ بِالْإِلَهِيَّةِ وَالْعِبَادَةِ دُونَ مَا سِوَاهُ.

قَالَ سُبْحَانَهُ: ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ اعْبُدُوا رَبَّكُمُ الَّذِي خَلَقَكُمْ وَالَّذِينَ مِن قَبْلِكُمْ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ﴾ [البقرة:٢١].

يَقُولُ شَيْخُ الْإِسْلَامِ ابْنُ تَيْمِيَّةَ رحمه الله (١): «وَجِمَاعُ الدِّينِ أَصْلَانِ: أَلَّا نَعْبُدَ إِلَّا اللهَ، وَلَا نَعْبُدَهُ إِلَّا بِمَا شَرَعَ؛ لَا نَعْبُدُهُ بِالْبِدَعِ؛ كَمَا قَالَ تَعَالَى: ﴿فَمَن كَانَ يَرْجُوا لِقَاءَ رَبِّهِ فَلْيَعْمَلْ عَمَلًا صَالِحًا وَلَا يُشْرِكْ بِعِبَادَةِ رَبِّهِ أَحَدًا﴾ [الكهف:١١٠].

وَذَلِكَ تَحْقِيقُ الشَّهَادَتَيْنِ: شَهَادَةِ أَلَّا إِلَهَ إِلَّا اللهُ، وَشَهَادَةِ أَنَّ مُحَمَّدًا رَسُولُ اللهِ.

---

(١) «مجموع الفتاوى» (١٠ / ٢٣٤)، و«الاقتضاء» (ص: ٤٥١).

فَفِي الْأُولَى: أَلَّا نَعْبُدَ إِلَّا اللهَ.

وَفِي الثَّانِيَةِ: أَنَّ مُحَمَّدًا هُوَ رَسُولُهُ الْمُبَلِّغُ عَنْهُ؛ فَعَلَيْنَا أَنْ نُصَدِّقَ خَبَرَهُ، وَنُطِيعَ أَمْرَهُ».

ثُمَّ يَقُولُ: «وَذَلِكَ هُوَ دِينُ الإِسْلَامِ الَّذِي بَعَثَ اللهُ بِهِ الْأَوَّلِينَ وَالْآخِرِينَ مِنَ الرُّسُلِ، وَهُوَ الدِّينُ الَّذِي لَا يَقْبَلُ اللهُ مِنْ أَحَدٍ دِينًا إِلَّا إِيَّاهُ، وَهُوَ حَقِيقَةُ الْعِبَادَةِ لِرَبِّ الْعَالَمِينَ» ا. هـ.

وَلَيْسَتِ الْعِبَادَةُ مَحْصُورَةً فِي الشَّعَائِرِ التَّعَبُّدِيَّةِ الْمَعْرُوفَةِ؛ كَالصَّلَاةِ، وَالصِّيَامِ، وَالزَّكَاةِ، وَالْحَجِّ، وَمَا يَلْحَقُ بِهَا مِنَ الذِّكْرِ، وَالتِّلَاوَةِ، وَالدُّعَاءِ، فَحَسْبُ؛ بَلْ تَسَعُ الْحَيَاةَ كُلَّهَا إِذَا صَحَّتِ النِّيَّةُ، وَكَانَتْ مُوَافِقَةً لِسُنَّةِ سَيِّدِ الْبَشَرِيَّةِ ﷺ.

فَالصَّلَاةُ، وَالصِّيَامُ، وَالزَّكَاةُ، وَالْحَجُّ، وَبِرُّ الْوَالِدَيْنِ، وَصِدْقُ الْحَدِيثِ، وَأَدَاءُ الْأَمَانَةِ، وَصِلَةُ الْأَرْحَامِ، وَالْوَفَاءُ بِالْوُعُودِ وَالْعُهُودِ، وَالْأَمْرُ بِالْمَعْرُوفِ وَالنَّهْيُ عَنِ الْمُنْكَرِ، وَالْإِحْسَانُ إِلَى الْفُقَرَاءِ وَالْمَسَاكِينِ وَالْيَتَامَى وَالْجِيرَانِ، وَالْحُبُّ فِي اللهِ، وَالْبُغْضُ فِي اللهِ، وَالْإِخْلَاصُ، وَالصَّبْرُ، وَالْخَشْيَةُ، وَالْإِنَابَةُ، وَالرَّجَاءُ، وَالشُّكْرُ، وَالتَّوَكُّلُ، وَالْخَوْفُ مِنَ اللهِ - جَلَّ وَعَلَا -، وَالِاسْتِعَانَةُ، وَالِاسْتِغَاثَةُ، وَالذَّبْحُ، وَالنَّذْرُ، وَالتَّفْوِيضُ للهِ جَلَّ وَعَلَا.

كُلُّ هَذَا، وَغَيْرُ هَذَا مِنَ الْعِبَادَةِ الَّتِي هِيَ اسْمٌ جَامِعٌ لِكُلِّ مَا يُحِبُّهُ اللهُ وَيَرْضَاهُ مِنَ الْأَقْوَالِ، وَالْأَعْمَالِ، وَالْأَحْوَالِ الَّتِي لَا تَتِمُّ إِلَّا بِكَمَالِ الْحُبِّ مَعَ تَمَامِ الذُّلِّ وَالِانْقِيَادِ للهِ جَلَّ وَعَلَا، وَالَّتِي لَا تُقْبَلُ إِلَّا بِالْإِخْلَاصِ للهِ ﷻ، وَالِاتِّبَاعِ لِرَسُولِ اللهِ ﷺ.

وَبِهَذَا الْمَعْنَى الشَّامِلِ قَامَ النَّبِيُّ ﷺ يُرَبِّي أَصْحَابَهُ ﷺ؛ فَالْبِنَاءُ التَّعَبُّدِيُّ بِنَاءٌ مُكَمِّلٌ لِلْبِنَاءِ الْعَقَدِيِّ كَمَا لَا يَتِمُّ الْبِنَاءُ التَّعَبُّدِيُّ إِلَّا عَلَى أَسَاسٍ مِنَ الْعَقِيدَةِ

الصَّحِيحَةِ الرَّاسِخَةِ.

فَإِذَا اكْتَمَلَ الْبِنَاءُ الْعَقَدِيُّ، وَالْبِنَاءُ التَّعَبُّدِيُّ أَثْمَرَ الْعُبُودِيَّةَ الْكَامِلَةَ، وَالْأَخْلَاقَ الْكَرِيمَةَ الزَّكِيَّةَ، وَالْحَيَاةَ الطَّيِّبَةَ الْهَنِيَّةَ.

فَالتَّرْبِيَةُ بِالْعِبَادَةِ لَيْسَتْ نَوْعًا مِنَ الْعَبَثِ، أَوْ تَضْيِيعِ الْوَقْتِ!! كَلَّا.. وَلَكِنَّهَا تَصِلُ الْعَبْدَ بِرَبِّهِ جَلَّ وَعَلَا، وَتُزَكِّي أَخْلَاقَهُ، وَتُهَذِّبُ مَشَاعِرَهُ، وَتَضْبِطُ شَهَوَاتِهِ وَنَزَوَاتِهِ وَرَغَبَاتِهِ بِضَابِطِ الشَّرْعِ.

فَمَا أَرْقَاهَا مِنْ لَحَظَاتٍ حِينَ يَجْلِسُ الْعَبْدُ خَاشِعًا مُرَتِّلًا بَعْضَ آيَاتِ الْقُرْآنِ الْكَرِيمِ، مُتَفَكِّرًا فِي كَلِمَاتِهَا، مُتَدَبِّرًا لِمَعَانِيهَا.

وَمَا أَسْعَدَهَا مِنْ لَحَظَاتٍ حِينَ يَقِفُ الْعَبْدُ خَاشِعًا فِي الصَّلَاةِ بَيْنَ يَدَيْ مَوْلَاهُ، أَوْ وَهُوَ يُفْطِرُ فِي آخِرِ نَهَارِ رَمَضَانَ. فَرِحًا بِمَا وَفَّقَهُ إِلَيْهِ رَبُّهُ - جَلَّ عُلَاهُ.

وَمَا أَهْدَأَهَا وَأَسْكَنَهَا مِنْ لَحَظَاتٍ حِينَ يَقُومُ الْمُسْلِمُ فِي السِّرِّ؛ لِيَتَصَدَّقَ عَلَى فَقِيرٍ، أَوْ يُحْسِنَ إِلَى يَتِيمٍ، أَوْ يُسَاعِدَ مِسْكِينًا لَا يَسْأَلُ النَّاسَ إِلْحَافًا، وَيُتَشَاغَلُ عَنْهُ فِي زِحَامِ الْحَيَاةِ الْمَادِّيَّةِ الطَّاغِيَةِ.

وَأَيُّ شُعُورٍ هَذَا الَّذِي يَغْمُرُ الْعَبْدَ الْمُؤْمِنَ، وَهُوَ يَطُوفُ حَوْلَ بَيْتِ اللهِ فِي الْحَجِّ وَالْعُمْرَةِ، أَوْ وَهُوَ يَبْكِي وَيَتَضَرَّعُ إِلَى سَيِّدِهِ وَمَوْلَاهُ فِي يَوْمِ عَرَفَةَ، أَوْ وَهُوَ يَقِفُ أَمَامَ الْقَبْرِ النَّبَوِيِّ الشَّرِيفِ مُسَلِّمًا عَلَى حَبِيبِ قَلْبِهِ الْمُصْطَفَى ﷺ.

فَمَا أَكْثَرَ أَسْرَارَ وَحِكَمَ الْعِبَادَاتِ الَّتِي فَرَضَهَا اللهُ - جَلَّ وَعَلَا - عَلَى عِبَادِهِ الْمُؤْمِنِينَ، وَللهِ الْحِكْمَةُ الْبَالِغَةُ. حَتَّى جَعَلَهَا أَحَبَّ مَا يَتَقَرَّبُ بِهِ الْعَبْدُ إِلَيْهِ - جَلَّ وَعَلَا؛ كَمَا فِي الْحَدِيثِ الْقُدُسِيِّ الَّذِي رَوَاهُ النَّبِيُّ ﷺ عَنْ رَبِّ الْعِزَّةِ: «**مَنْ عَادَى لِي وَلِيًّا فَقَدْ آذَنْتُهُ بِالْحَرْبِ، وَمَا تَقَرَّبَ إِلَيَّ عَبْدِي بِشَيْءٍ أَحَبَّ إِلَيَّ مِمَّا افْتَرَضْتُ عَلَيْهِ، وَمَا يَزَالُ عَبْدِي يَتَقَرَّبُ إِلَيَّ بِالنَّوَافِلِ حَتَّى أُحِبَّهُ؛ فَإِذَا أَحْبَبْتُهُ كُنْتُ سَمْعَهُ**

الَّذِي يَسْمَعُ بِهِ، وَبَصَرَهُ الَّذِي يُبْصِرُ بِهِ، وَيَدَهُ الَّتِي يَبْطِشُ بِهَا، وَرِجْلَهُ الَّتِي يَمْشِي بِهَا، وَإِنْ سَأَلَنِي لَأُعْطِيَنَّهُ، وَلَئِنْ اسْتَعَاذَنِي لَأُعِيذَنَّهُ، وَمَا تَرَدَّدْتُ عَن شَيْءٍ أَنَا فَاعِلُهُ تَرَدُّدِي عَن نَفْسِ الْمُؤْمِنِ يَكْرَهُ الْمَوْتَ، وَأَنَا أَكْرَهُ مَسَاءَتَهُ» (١).

بِهَذِهِ الْعَقِيدَةِ الرَّاسِخَةِ، وَالْعِبَادَةِ الصَّحِيحَةِ اسْتَطَاعَ النَّبِيُّ ﷺ أَنْ يُرَبِّيَ جِيلًا قُرْآنِيًّا فَرِيدًا مَا عَرَفَتْ وَلَنْ تَعْرِفَ الدُّنْيَا لَهُ مَثِيلًا.

فَإِذَا اسْتَقَرَّتِ الْعَقِيدَةُ الْخَالِصَةُ فِي الْقَلْبِ، وَازْدَادَتْ بِالْعِبَادَةِ الصَّحِيحَةِ أَثْمَرَتَا الْأَخْلَاقَ الزَّكِيَّةَ، وَالصِّفَاتِ الْمَرْضِيَّةَ فِي كُلِّ مُعَامَلَةٍ دِينِيَّةٍ، أَوْ دُنْيَوِيَّةٍ. وَلَمْ يَقَعْ أَصْحَابُ هَذِهِ الْعَقِيدَةِ وَالْعِبَادَةِ فِي هَذَا الانْفِصَامِ النَّكِدِ، وَالتَّنَاقُضِ الرَّهِيبِ بَيْنَ الدِّينِ وَالدُّنْيَا، وَبَيْنَ الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ.

وَلِذَا كَانَتِ الْأَوْلَوِيَّةُ الَّتِي تَلِي الْعَقِيدَةَ وَالْعِبَادَةَ مُبَاشَرَةً هِيَ الْأَخْلَاقَ بِمَفْهُومِهَا الشَّامِلِ؛ لِأَنَّ الْبِنَاءَ الْأَخْلَاقِيَّ لَا يَقِلُّ - أَبَدًا- أَهَمِّيَّةً وَلَا خَطَرًا عَنِ الْبِنَاءِ الْعَقَدِيِّ وَالتَّعَبُّدِيِّ، فَأَنَا أَكَادُ أَجْزِمُ أَنَّ أَزْمَةَ الْبَشَرِيَّةِ أَزْمَةُ أَخْلَاقٍ!!.

لَاسِيَّمَا إِذَا فَهِمْنَا حُسْنَ الْخُلُقِ بِالْمَعْنَى الْوَاسِعِ الَّذِي قَالَهُ رَسُولُ اللهِ ﷺ: «الْبِرُّ حُسْنُ الْخُلُقِ» (٢). فِي سِيَاقِ تَدَبُّرِنَا لِآيَةِ الْبِرِّ الْجَامِعَةِ: ﴿لَّيْسَ ٱلْبِرَّ أَن تُوَلُّوا۟ وُجُوهَكُمْ قِبَلَ ٱلْمَشْرِقِ وَٱلْمَغْرِبِ وَلَٰكِنَّ ٱلْبِرَّ مَنْ ءَامَنَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةِ وَٱلْكِتَٰبِ وَٱلنَّبِيِّـۧنَ وَءَاتَى ٱلْمَالَ عَلَىٰ حُبِّهِۦ ذَوِى ٱلْقُرْبَىٰ وَٱلْيَتَٰمَىٰ وَٱلْمَسَٰكِينَ وَٱبْنَ ٱلسَّبِيلِ وَٱلسَّآئِلِينَ وَفِى ٱلرِّقَابِ وَأَقَامَ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتَى ٱلزَّكَوٰةَ وَٱلْمُوفُونَ بِعَهْدِهِمْ إِذَا عَٰهَدُوا۟ۖ وَٱلصَّٰبِرِينَ فِى ٱلْبَأْسَآءِ وَٱلضَّرَّآءِ وَحِينَ ٱلْبَأْسِۗ أُو۟لَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ صَدَقُوا۟ۖ وَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُتَّقُونَ﴾ [البقرة:١٧٧].

---

(١) أخرجه البخاريُّ، كتاب الرقاق، باب التواضع (٦٥٠٢).
(٢) أخرجه مسلمٌ، كتاب البر والصلة والآداب، باب تفسير البر والإثم (٢٥٥٣).

وَهُنَا - فَقَطْ- يَزُولُ الإِشْكَالُ حِينَ تُخْتَزَلُ بَعْثَةُ النَّبِيِّ ﷺ فِي إِتْمَامِ صَالِحِ وَمَكَارِمِ الْأَخْلَاقِ؛ إِذْ يَقُولُ: «**إِنَّمَا بُعِثْتُ؛ لِأُتَمِّمَ صَالِحَ الْأَخْلَاقِ**»(١)، وَفِي رِوَايَةٍ: «**مَكَارِمَ الْأَخْلَاقِ**».

وَهَذَا مَا نَتَعَرَّفُ عَلَيْهِ فِي الْمَبْحَثِ الثَّانِي:

❊

(١) سيأتي تخريجه قريبًا.

المَبْحَثُ الثَّانِي
الدَّعْوَةُ إِلَى التَّحَلِّي بِمَكَارِمِ الأَخْلَاقِ

إِنَّ الْغَايَةَ الَّتِي بُعِثَ النَّبِيُّ ﷺ مِنْ أَجْلِهَا بَعْدَ تَعْبِيدِ النَّاسِ لِرَبِّهِمْ، وَغَرْسِ الْعَقِيدَةِ الصَّحِيحَةِ فِي قُلُوبِهِمْ إِنَّمَا هِيَ قَضِيَّةُ الأَخْلَاقِ؛ بَلْ لَقَدْ لَخَّصَ النَّبِيُّ ﷺ هَذِهِ الْغَايَةَ بِكَلِمَاتٍ نَبَوِيَّةٍ بَلِيغَةٍ؛ كَمَا فِي «**مُسْنَدِ أَحْمَدَ**»، وَ«**الْأَدَبِ الْمُفْرَدِ**» لِلْبُخَارِيِّ [(١)] مِنْ حَدِيثِ أَبِي هُرَيْرَةَ ﷺ أَنَّ النَّبِيَّ ﷺ قَالَ: «**إِنَّمَا بُعِثْتُ؛ لِأُتَمِّمَ**

(١) أخرجه أحمد في «مسنده» (٢/ ٣٨١)، والبخاريُّ في «الأدب المفرد» (٢٧٣) ط دار الصديق، وابن سعد في «الطبقات» (١/ ١٩٢)، وأبو يعلى في «مسنده»؛ كما في «إتحاف الخيرة»(٥٢١٧)، والحاكم (٢/ ٦١٣)، والطحاويُّ في «شرح المشكل» (٤٤٣٢) ط الرسالة، والبيهقيُّ في «الشعب» (٧٩٧٨) من حديث أبي هريرة ﷺ مرفوعًا بلفظ: «**صَالِحَ الأَخْلَاقِ**»، وأخرجه البزار في «مسنده» (٨٩٤٩) ط مؤسسة علوم القرآن ومكتبة العلوم والحكم، والقضاعيُّ في «مسنده» (١١٦٥)، وتمام في «فوائده» (٢٧٦) ط الرشد، والبيهقيُّ في «الكبرى» (١٠/ ١٩١)، والخرائطيُّ في «المكارم» (رقم: ١) بلفظ: «**مَكَارِمَ الأَخْلَاقِ**». والحديثُ إسنادهُ حسن؛ كما قال الألبانيُّ في «الصحيحة» (٤٥) وله شواهد عدة؛ فأخرجه ابن وهب في «الجامع» (ص:٧٥)، وفي «مصنفه» (٧/ ٤٤٠) من طريق: زيد بن أسلم مرسلاً.
وأخرجه ابن سعد في «الطبقات» (١/ ١٩٣)، عن مالك - وهو في «الموطأ» (٣٣٥٧) ط مؤسسة زايد ابن سلطان آل نهيان سنة ١٤٢٥ - بلاغًا؛ بلفظ: «**إِنَّمَا بُعِثْتُ؛ لِأُتَمِّمَ حَسَنَ الأَخْلَاقِ**».
وأخرجه الطبراني في «الكبير» (٢٠/ ٦٥) ط مكتبة العلوم والحكم - الموصل سنة ١٤٠٤هـ، والبيهقيُّ في «الشعب» (٧٩٨٠)،والحارث في «مسنده» كما في «البغية» (٨٩٠)، وأحمد بن منيع في «مسنده» كما في «إتحاف الخيرة» (٥٢٠٨) من حديث معاذ ﷺ مرفوعًا بلفظ: «**إِنَّمَا بُعِثْتُ عَلَى تَمَامِ مَحَاسِنِ الأَخْلَاقِ**»، قال الهيثميُّ في «المجمع» (٧/ ٣٣١): «وفيه عبد الرحمن بن أبي بكر الجدعاني وهو ضعيف»، وأخرجه الطبرانيُّ في «الأوسط» (٦٨٩٥)، والبيهقيُّ في «الشعب» (٧٩٧٩)، والبغويُّ في «شرح السنة»
=

صَالِحَ الأَخْلَاقِ»؛ فَلَخَّصَ النَّبِيُّ ﷺ كُلَّ مُهِمَّتِهِ وَرِسَالَتِهِ فِي إِتْمَامِ مَكَارِمِ الْأَخْلَاقِ، وَمَحَاسِنِ الأَعْمَالِ، وَمَعَالِي الشِّيَمِ وَالْأَحْوَالِ الَّتِي يَشْهَدُ بِحُسْنِهَا كُلُّ عَاقِلٍ، وَنَهَى عَنْ سَفْسَافِهَا، وَمَسَاوِئِهَا، وَمَرْذُولِهَا!! وَلَا غَرْوَ فِي ذَلِكَ إِذَا فَهِمْنَا الْأَخْلَاقَ بِمَعْنَاهَا الْعَامِّ فِي أَدَبِ الْعَبْدِ مَعَ رَبِّهِ، وَمَعَ نَبِيِّهِ، وَمَعَ الْخَلْقِ. وَهِيَ بِهَذَا الْمَعْنَى الْوَاسِعِ تَعْنِي الدِّينَ كُلَّهُ.

أَمَّا إِذَا قَصَرْنَا الأَخْلَاقَ عَلَى المَعْنَى الْجُزْئِيِّ فِي التَّعَامُلِ مَعَ الخَلْقِ فَحَسْبُ؛ فَهَذَا أُسْلُوبٌ نَبَوِيٌّ بَلِيغٌ يَلْفِتُ بِهِ الْأَنْظَارَ لِبَيَانِ عِظَمِ الْأَخْلَاقِ، وَجَلَالِ قَدْرِهَا وَمَكَانَتِهَا؛ كَقَوْلِهِ ﷺ: «**الدِّينُ النَّصِيحَةُ**»[1]، وَقَوْلِهِ: «**الْحَجُّ عَرَفَةَ**»[2]، وَكِلَا الْمَعْنَيَيْنِ مُرَادٌ.

= (٣٦٢٢، ٣٦٢٣) ط المكتب الإسلامي من حديث جابر رضي الله عنه مرفوعًا بلفظ: «**إِنَ اللهَ بَعَثَنِي بِتَمَامِ مَكَارِمِ الأَخْلَاقِ، وَكَمَالِ مَحَاسِنِ الأَفْعَالِ**»؛ وراجع: «الضعيفة» (٢٠٨٧)، و«مجمع الزوائد» (٨/ ١١٧)؛ فبان بذلك أن الحديث صحيح عن أبي هريرة رضي الله عنه مرفوعًا؛ قال ابن عبد البر في «التمهيد» (٢٤/ ٣٣٣،٣٣٤) ط وزارة عموم الأوقاف والشئون الإسلامية - المغرب سنة ١٣٨٧: «هو حديثٌ صحيحٌ متصلٌ من وجوهٍ صحاحٍ عن أبي هريرة وغيره».

وقد قصدتُ الإطالةَ في تخريجهِ لبيانِ ألفاظِهِ لما فيها من فوائدَ ومعانٍ.

(١) أخرجه مسلمٌ، كتاب الإيمان، باب بيان أن الدين النصيحة (٥٥) من حديث تميم الداري رضي الله عنه.

(٢) أخرجه أحمد (٤/ ٣٠٩، ٣١٠، ٣٣٥)، والحميدي في «مسنده» (٨٩٩)، والطيالسيُّ (١٣٠٩)، والدارميُّ (١٨٨٧)، وأبو داود، كتاب المناسك، باب من لم يدرك عرفة (١٩٤٩)، والترمذيُّ، كتاب الحج، باب ما جاء فيمن أدرك الإمام بجمع فقد أدرك الحج (٨٨٩)، والنسائي، كتاب مناسك الحج، باب فرض الوقوف بعرفة (٣٠١٦) ط الحديث، القاهرة، وابن ماجه، كتاب المناسك، باب من أتى عرفة قبل الفجر ليلة جمع (٣٠١٥)، وابن حبان (١٠٠٩)، والحاكم (١/ ٤٦٤) و(٢/ ٢٧٨) وصحَّحه، ووافقه الذهبيُّ، والألبانيُّ؛ كما في «الإرواء» (١٠٦٤).

نَعَمْ.. بُعِثَ نَبِيُّنَا ﷺ؛ لِيُتَمِّمَ مَكَارِمَ الْأَخْلَاقِ وَصَالِحَهَا؛ بَلْ أَمَرَ بِهَا بِوُضُوحٍ وَجَلَاءٍ، وَأَعْلَنَهَا لِأَهْلِ مَكَّةَ صَرَاحَةً؛ فَفِي «**الصَّحِيحَيْنِ**» (١) فِي قِصَّةِ إِسْلَامِ أَبِي ذَرٍّ (٢) رضي الله عنه؛ مِنْ حَدِيثِ عَبْدِ اللهِ بْنِ عَبَّاسٍ رضي الله عنهما قَالَ: «لَمَّا بَلَغَ أَبَا ذَرٍّ مَبْعَثُ النَّبِيِّ ﷺ قَالَ لأَخِيهِ: ارْكَبْ إِلَى هَذَا الْوَادِي، فَاعْلَمْ لِي عِلْمَ هَذَا الرَّجُلِ الَّذِي يَزْعُمُ أَنَّهُ نَبِيٌّ، يَأْتِيهِ الْخَبَرُ مِنَ السَّمَاءِ، وَاسْمَعْ مِنْ قَوْلِهِ، ثُمَّ ائْتِنِي؛ فَانْطَلَقَ الأَخُ حَتَّى قَدِمَهُ وَسَمِعَ مِنْ قَوْلِهِ، ثُمَّ رَجَعَ إِلَى أَبِي ذَرٍّ، فَقَالَ لَهُ: **رَأَيْتُهُ يَأْمُرُ بِمَكَارِمِ الأَخْلَاقِ**...» الْحَدِيثَ.

وَفِي «**الصَّحِيحَيْنِ**»(٣) فِي حَدِيثِ أَبِي سُفْيَانَ مَعَ هِرْقَلَ؛ وَفِيهِ قَالَ هِرَقْلُ: «مَاذَا يَأْمُرُكُمْ؟ قَالَ أبو سفيانَ: قُلْتُ: يقولُ: «**اعْبُدُوا اللهَ وَحدَهُ، وَلَا تُشْرِكُوا بِهِ شَيئًا، وَاتْرُكُوا مَا يَقُولُ آبَاؤُكُمْ، ويَأْمُرُنَا بالصَّلَاةِ، وَالصِّدْقِ، والعَفَافِ، وَالصِّلَةِ**...» الْحَدِيثَ.

---

(١) أخرجه البخاريُّ، كتاب مناقب الأنصار، باب إسلام أبي ذر الغفاري رضي الله عنه (٣٨٦١)، ومسلمٌ، كتاب فضائل الصحابة، باب من فضائل أبي ذر رضي الله عنه (٢٤٧٤).

(٢) هو جندب بن جنادة بن سفيان بن عبيد بن حرام بن غفار بن مليل بن ضمرة بن بكر بن عبد مناة بن كنانة بن خزيمة بن مدركة بن إلياس بن مضر، وقيل غير ذلك، أسلم والنبيُّ ﷺ بمكة أول الإسلام؛ فكان رابع أربعة، وقيل: خامس خمسة، وقد اختلف في اسمه ونسبه اختلافًا كثيرًا، وهو أول من حَيَّا رَسُول الله ﷺ بتحية الإسلام، بايع النبيَّ ﷺ على أن لا تأخذه في الله لومة لائم، وعلى أن يقول الحق وإن كان مرًّا، تقدم إسلامه، وتأخرت هجرته فلم يشهد بدرًا، ومناقبه كثيرة جدًّا، مات بالربذة سنة إحدى وثلاثين، وقيل في التي بعدها؛ وعليه الأكثر، وصلَّى عليه ابن مسعود رضي الله عنه.

● انظر: «أسد الغابة» (١/ ٣٤٣)، و«الإصابة» (٧/ ١١٥، ١١٨)، و«الاستيعاب» (٣٣٩)، و«الثقات» (١/ ٢٧٧- ٢٧٨).

(٣) أخرجه البخاريُّ، كتاب بدء الوحي، باب (٦) حديث (٧)، ومسلمٌ، كتاب الجهاد، باب كتاب النبي ﷺ إلى هرقل يدعوه إلى الإسلام (١٧٧٣).

وَفِي «مُسْنَدِ» (١) أَحْمَدَ وَغَيْرِهِ؛ فِي خِطَابِ جَعْفَرٍ (٢) رضي الله عنه مَعَ النَّجَاشِيِّ (٣)؛ وَفِيهِ قَالَ جَعْفَرٌ رضي الله عنه: «أَيُّهَا الْمَلِكُ، كُنَّا قَوْمًا أَهْلَ جَاهِلِيَّةٍ نَعْبُدُ الأَصْنَامَ، وَنَأْكُلُ الْمَيْتَةَ، وَنَأْتِي الْفَوَاحِشَ، وَنَقْطَعُ الأَرْحَامَ، وَنُسِيءُ الْجِوَارَ، يَأْكُلُ الْقَوِيُّ مِنَّا الضَّعِيفَ؛ فَكُنَّا عَلَى ذَلِكَ حَتَّى بَعَثَ اللهُ إِلَيْنَا رَسُولًا مِنَّا نَعْرِفُ نَسَبَهُ، وَصِدْقَهُ،

---

(١) أخرجه أحمد (١/ ٢٠١)، (٥/ ٢٩٠)، وابن خزيمة في «صحيحه» (٢٢٦٠) مختصرًا ط المكتب الإسلامي، وأبو نعيم في «الحلية» (١/ ١١٥، ١١٦)، وفي «الدلائل» (١٩٤)، والبيهقي في «السنن» (٩/ ٩)، وفي «الدلائل» (٢/ ٣٠١)، وفي «الاعتقاد» (٤٠)، وابن إسحاق؛ كما في «السيرة النبوية» (٢/ ١٧٧- ١٧٩)، ومن طريقه ابن قدامة في «الرقة والبكاء» (١٢٠) ط دار القلم دمشق ١٤١٥هـ، وجوَّد سنده العراقي في «تخريج الإحياء»(٢/ ٢٢٥) وقال الهيثميُّ في «المجمع» (٦/ ٢٧): «ورجاله رجال الصحيح غير ابن إسحاق، وقد صرح بالسماع»، وقال الألبانيُّ رحمه الله: «فهو إسناد جيد»؛ راجع: «الصحيحة» (٣١٩٠).

(٢) هو جعفر بن أبي طالب بن عبد المطلب بن عبد مناف بن قصي، أبو عبد الله ابن عم النبي صلى الله عليه وسلم أخو علي بن أبي طالب، وأحد السابقين إلى الإسلام، هاجر إلى الحبشة وإلى المدينة، استشهد بمؤتة من أرض الشام مقبلاً غير مدبر، مجاهدًا للروم في حياة النبي صلى الله عليه وسلم سنة ثمان في جمادى الأولى، وكان أسن من عليٍّ بعشر سنين فاستوفى أربعين سنة وزاد عليها على الصحيح، وهو جعفر الطيار ذو الجناحين، وكان أشبه الناس برَسُول الله صلى الله عليه وسلم خَلْقًا وخُلُقًا.

● انظر: «الإصابة» (١١٦٩)، و«أسد الغابة» (١/ ٢٧ ــ ٣٣)، و«الاستيعاب» (٣٢٨).

(٣) هو أصحمة بن أبحر النجاشي، ملك الحبشة، واسمه بالعربية عطية، والنجاشي لقبٌ له، معدود في الصحابة رضي الله عنهم، وكان ممن حسن إسلامه ولم يهاجر، ولا رؤية له، فهو تابعي من وجه، صاحب من وجه؛ وقد تُوفي في حياة النبي صلى الله عليه وسلم، فصلى عليه بالناس صلاة الغائب، ولم يثبت أنه صُلِّي على غائب سواه، وسبب ذلك: أنه مات بين قومٍ نصارى، ولم يَكُن عنده من يصلي عليه، لأن الصحابة الذين كانوا مهاجرين عنده خرجوا من عنده مهاجرين إلى المدينة عام خيبر، وكانت وفاته في شهر رجب سنة تسع من الهجرة؛ راجع: «سير أعلام النبلاء» (٣/ ٢٦٠)، و«الإصابة» (٤٧٣).

وَأَمَانَتَهُ، وَعَفَافَهُ؛ فَدَعَانَا إِلَى الله تَعَالَى؛ لِنُوَحِّدَهُ وَنَعْبُدَهُ، وَنَخْلَعَ مَا كُنَّا نَعْبُدُ نَحْنُ وَآبَاؤُنَا مِنْ دُونِهِ مِنَ الْحِجَارَةِ وَالأَوْثَانِ، وَأَمَرَنَا بِصِدْقِ الْحَدِيثِ، وَأَدَاءِ الأَمَانَةِ، وَصِلَةِ الرَّحِمِ، وَحُسْنِ الْجِوَارِ، وَالْكَفِّ عَنِ الْمَحَارِمِ وَالدِّمَاءِ، وَنَهَانَا عَنِ الْفَوَاحِشِ، وَقَوْلِ الزُّورِ، وَأَكْلِ مَالِ الْيَتِيمِ، وَقَذْفِ الْمُحْصَنَةِ، وَأَمَرَنَا أَنْ نَعْبُدَ الله وَحْدَهُ لاَ نُشْرِكُ بِهِ شَيْئًا، وَأَمَرَنَا بِالصَّلاَةِ، وَالزَّكَاةِ، وَالصِّيَامِ...» الْحَدِيثَ.

وَمَا أَرْوَعَ هَذَا الأَمْرَ الرَّبَّانِيَّ لِلنَّبِيِّ ﷺ فِي هَذِهِ الآيَةِ الْجَامِعَةِ لِمَكَارِمِ الأَخْلاَقِ فِي قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿ خُذِ ٱلْعَفْوَ وَأْمُرْ بِٱلْعُرْفِ وَأَعْرِضْ عَنِ ٱلْجَٰهِلِينَ ﴾ [الأعراف:١٩٩].

وَأَعْجَبُ لِدِينٍ تتبَوَّأُ فِيهِ الأَخْلاَقُ هَذِهِ الْمَكَانَةَ السَّامِقَةَ، وَالْمَنْزِلَةَ الْعَالِيَةَ الرَّفِيعَةَ حَتَّى سُئِلَ النَّبِيُّ ﷺ عَنْ أَكْثَرِ مَا يُدْخِلُ النَّاسَ الْجَنَّةَ؟ فَقَالَ: «**تَقْوَى الله، وَحُسْنُ الْخُلُقِ**» (١).

قَالَ ابْنُ الْقَيِّمِ رحمه الله(٢): «جَمَعَ النَّبِيُّ ﷺ بَيْنَ تَقْوَى الله، وَحُسْنِ الْخُلُقِ؛ لِأَنَّ تَقْوَى الله تُصْلِحُ مَا بَيْنَ الْعَبْدِ وَبَيْنَ رَبِّهِ، وَحُسْنُ الْخُلُقِ يُصْلِحُ مَا بَيْنَهُ وَبَيْنَ خَلْقِهِ؛ فَتَقْوَى الله تُوجِبُ لَهُ مَحَبَّةَ الله، وَحُسْنُ الْخُلُقِ يَدْعُو النَّاسَ إِلَى مَحَبَّتِهِ».

---

(١) أخرجه أحمد (٢/ ٤٤٢)، وفي «الزهد» (٣٩٧) ط الريان، والبخاري في «الأدب المفرد» (٢٨٩، ٢٩٤)، والطيالسي في «مسنده» (٢٥٩٦) ط هجر، والترمذي، كتاب البر والصلة، باب ما جاء في حسن الخلق (٢٠٠٤)، وقال: «حديث صحيح غريب»، وابن ماجة، كتاب الزهد، باب ذكر الذنوب (٤٢٤٦)، وابن حبان في «صحيحه» (٤٧٦)، والبيهقي في «الشعب» (٥٧٥٦)، وفي «الآداب» (٥٩٦)، و«الزهد الكبير» (٩٥٥) ط مؤسسة الكتب الثقافية سنة ١٩٩٦، والقضاعي في «مسند الشهاب» (١٠٥٠) وحسنه الألباني في «الصحيحة» (٩٧٧)، و«صحيح الترغيب والترهيب» (٢٦٤٢).

(٢) «الفوائد» (٥٤) ط الكتب العلمية سنة ١٣٩٣هـ.

وَفِي «سُنَنِ» أَبِي دَاوُدَ (١) وَالتِّرْمِذِيِّ (٢)، وَ«مُسْنَدِ» أَحْمَدَ مِنْ حَدِيثِ أَبِي الدَّرْدَاءِ (٣) رضي الله عنه **أَنَّ النَّبِيَّ** ﷺ **قَالَ: «مَا مِنْ شَيْءٍ أَثْقَلُ فِي مِيزَانِ الْمُؤْمِنِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ مِنْ حُسْنِ الْخُلُقِ، وَإِنَّ اللهَ تَعَالَى يُبْغِضُ الْفَاحِشَ الْبَذِيءَ» (٤).**

---

(١) هو سليمان بن الأشعث بن شداد بن عمرو بن عامر، وقيل: سليمان بن الأشعث بن إسحاق بن بشير بن شداد بن عمرو بن عمران، أبو داود الأزدي السجستاني محدث البصرة، ولد سنة اثنتين ومائتين، ورحل وجمع وصنف، وبرع في هذا الشأن، قال أبو بكر بن داسة: سمعت أبا داود يقول: كتبت عن رَسُول الله ﷺ خمس مائة ألف حديث، انتخبت منها ما ضمنته هذا الكتاب يعني كتاب السنن، تُوفي في سادس عشر شوال، سنة خمس وسبعين ومائتين.

- راجع: «سير أعلام النبلاء» (٨/ ٤٤٨ - ٤٥٢)، و«تقريب التهذيب» (٢٥٤١)، و«تاريخ دمشق» (٢٢/ ١٩١-٢٠١).

(٢) هو أبو عيسى محمد بن عيسى بن سورة بن موسى بن الضحاك، وقيل: هو محمد بن عيسى بن يزيد بن سورة بن السكن: الحافظ، العلم، الإمام، البارع، ابن عيسى السلمى، الترمذي، الضرير، مصنف الجامع، وكتاب العلل وغير ذلك، اختلف فيه، فقيل: ولد أعمى، والصحيح أنه أضر في كبره، بعد رحلته وكتابته العلم، ولد في حدود عشر ومائتين، قال أبو سعد الإدريسي: كان أبو عيسى يضرب به المثل في الحفظ، مات في ثالث عشر رجب سنة تسع وسبعين ومائتين بترمذ؛ راجع: «الثقات» (٥/ ٥٠٢)، و«سير أعلام النبلاء» (٨/ ٤٨٣-٤٨٥)، و«تقريب التهذيب» (٦٢٢٦).

(٣) هو عويمر بن عامر؛ ويقال: عويمر بن قيس بن زيد، وقيل: عويمر بن ثعلبة بن عامر بن زيد بن قيس بن أمية بن مالك بن عامر بن عدي بن كعب بن الخزرج بن الحارث بن الخزرج أبو الدرداء الأنصاري، اختلف في اسمه واسم أبيه، أسلم يوم بدر وشهد أحدًا وأبلى فيها، مات لسنتين بقيتا من خلافة عثمان، قال الواقدي وجماعة: مات سنة اثنتين وثلاثين، وقال ابن عبد البر: إنه مات بعد صفين، والأصح عند أصحاب الحديث أنه مات في خلافة عثمان؛ راجع: «الإصابة» (٦١٣٢)، و«الاستيعاب» (١٠٢٤)، و«أسد الغابة» (٤١٤٣، ٥٨٦٦).

(٤) أخرجه أحمد (٦/ ٤٤٢، ٤٤٦، ٤٤٨)، وعبد بن حميد في «المنتخب» (٢٠٤)، والبخاريُّ في «الأدب المفرد» (٢٧٠)، وأبو داود، كتاب الأدب، باب في حسن الخلق (٤٧٩٩)، والترمذيُّ، كتاب البر والصلة، باب ما جاء في حسن الخلق (٢٠٠٢، =

وَفِي «مُسْنَدِ» أَحْمَدَ، وَ«سُنَنِ» أَبِي دَاوُدَ مِنْ حَدِيثِ عَائِشَةَ رضي الله عنها قَالَتْ: قَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: «إِنَّ الْمُؤْمِنَ لَيُدْرِكُ بِحُسْنِ خُلُقِهِ دَرَجَةَ الصَّائِمِ الْقَائِمِ»(١).

وَفِي «سُنَنِ» التِّرْمِذِيِّ وَغَيْرِهِ (٢)عَنْ جَابِرِ بْنِ عَبْدِ اللهِ رضي الله عنهما أَنَّ النَّبِيَّ ﷺ قَالَ: «إِنَّ مِنْ أَحَبِّكم إِلَيَّ، وَأَقْرَبِكُمْ مِنِّي مَجْلِسًا يَوْمَ الْقِيَامَةِ: أَحَاسِنَكُم أَخْلَاقًا...».

وَفِي «مُسْنَدِ» أَحْمَدَ، وَ«سُنَنِ» التِّرْمِذِيِّ وَغَيْرِهِمَا (٣) عَنْ أَبِي ذَرٍّ رضي الله عنه أَنَّ النَّبِيَّ ﷺ قَالَ: «اتَّقِ اللهَ حَيْثُمَا كُنْتَ، وَأَتْبِعِ السَّيِّئَةَ الْحَسَنَةَ تَمْحُهَا، وَخَالِقِ النَّاسَ بِخُلُقٍ حَسَنٍ».

= ٢٠٠٣)، وقال: «حسن صحيح»، وصحَّحه الألباني في «الصحيحة» (٨٧٦) و«صحيح الجامع» (٥٦٣٢).

(١) أخرجه أحمد (٦/ ٦٤، ٩٠، ١٣٣، ١٨٧)، وأبو داود، كتاب الأدب، باب في حسن الخلق (٤٧٩٨)، والحاكم (١/ ١٢٨)، وصححه على شرطهما، ووافقه الذهبي، وابن وهب في «الجامع» (٤٩٦)، وابن حبان في «صحيحه» (٤٨٠)، والبيهقي في «الشعب» (٧٩٩٧)، وتمام في «الفوائد» (٩٤٩) وصحَّحه الألباني في «الصحيحة» (٧٩٥)، و«صحيح الجامع» (١٩٣٢).

(٢) أخرجه الترمذي، كتاب البر والصلة، باب ما جاء في معالي الأخلاق (٢٠١٨) وقال: «حديث حسن غريب من هذا الوجه»، والخطيب البغدادي في «تاريخه» (٤/ ٦٣) ط الكتب العلمية، والخرائطي في «مكارم الأخلاق» (٥٩، ٥٥٢)، وحسَّن إسناده الألباني، ثم صحَّحهُ لشواهده في «الصحيحة» (٧٩١) و«صحيح الجامع» (٢٢٠١).

(٣) أخرجه أحمد (٥/ ١٥٣، ١٥٨، ١٧٧)، والدارميُّ (٢٧٩١)، والترمذيُّ، كتاب البر والصلة، باب ما جاء في معاشرة الناس (١٩٨٧) وقال: «حسن صحيح»، والحاكم (١/ ١٢١) وصححه على شرط الشيخين، ووافقه الذهبي، وأبو نعيم في «الحلية»(٤/ ٣٧٨)، والبزار في «البحر الزخار» (٤٠٢٢)، والقضاعي في «مسند الشهاب» (١/ ٣٧٩)، والبيهقي في «الشعب» (٨٠٢٦)، وحسَّنه لغيره الألباني في «صحيح الترغيب والترهيب» (٢٦٥٥)، و«صحيح الجامع» (٩٧).

وَفِي «مُسْنَدِ» أَحْمَدَ، وَ«مُصَنَّفِ» ابْنِ أَبِي شَيْبَةَ (١)، وَ«سُنَنِ» أَبِي دَاوُدَ وَالتِّرْمِذِيِّ (٢) عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ ﷺ قَالَ: قَالَ رَسُولُ الله ﷺ: «أَكْمَلُ الْمُؤْمِنِينَ إِيمَانًا أَحْسَنُهُمْ خُلُقًا، وَخِيَارُكُمْ خِيَارُكُمْ لِنِسَائِهِمْ».

وَفِي «الصَّحِيحَيْنِ» (٣) عَنْ أَنَسٍ (٤) ﷺ قَالَ: «كَانَ رَسُولُ الله ﷺ مِنْ

(١) هو عبد الله بن محمد بن أبي شيبة إبراهيم بن عثمان بن خواستي العبسي، مولاهم أبو بكر الحافظ الكوفي، الإمام العلم سيد الحفاظ، وصاحب الكتب الكبار، المسند، والمصنف والتفسير، طلب العلم وهو صبي؛ قال العجلي: ثقة حافظ للحديث، قال ابن حبان: كان متقنًا حافظًا دينًا ممن كتب وجمع وصنف وذاكر، وكان أحفظ أهل زمانه للمقاطيع، مات أبو بكر في المحرم سنة خمس وثلاثين ومائتين؛ راجع: «تهذيب التهذيب» (٢/ ٤١٩، ٤٢٠) ط الرسالة سنة ١٤٢٩، و«سير أعلام النبلاء» (١٨٣٩).

(٢) أخرجه ابن أبي شيبة (٨/ ٣٢٧، ٣٢٨)، و(١١/ ٢٧)، وأحمد (٢/ ٢٥٠، ٤٧٢، ٥٢٧)، والدارمي (٢٧٩٢)، وأبو داود، كتاب السنة، باب الدليل على زيادة الإيمان ونقصانه (٤٦٨٢)، والترمذي، كتاب الرضاع، باب حق المرأة على زوجها (١١٦٢) وقال: «حسن صحيح»، والحاكم (١/ ٣) وصححه، ووافقه الذهبي، وأبو يعلى (٥٩٢٦، ٥٩٢٧)، وابن حبان (٤٧٩، ٤١٧٦)، والبيهقي في «الكبير» (١٠/ ١٩٢)، و«الشعب» (٢٦، ٢٧، ٧٩٧٦، ٧٩٧٧، ٧٩٨١)، وفي «الآداب» (١٥٣)، وأبو نعيم في «الحلية» (٩/ ٢٤٨)، والطبراني في «الأوسط» (٤٤٢٠)، و«الكبير» (١٩/ ٣٤١)، والبزار في «مسنده» (٧٩٤٥)، وصحَّحهُ لشواهده الألباني في «الصحيحة» (٢٨٤)، و«صحيح الجامع» (١٢٣٠، ١٢٣٢).

(٣) أخرجه البخاريُّ، كتاب الأدب، باب الكنية للصبي، وقبل أن يولد للرجل (٦٢٠٣)، ومسلمٌ، كتاب الآداب، باب استحباب تحنيك المولود عند ولادته (٢١٥٠)، وانظر (٦٥٩) و (٢٣١٠).

(٤) هو أنس بن مالك بن النضر بن ضمضم بن زيد بن حرام بن جندب بن عامر بن غنم بن عدي بن النجار، واسمه: تيم الله بن ثعلبة بن عمرو بن الخزرج بن حارثة الأنصاري الخزرجي النجاري من بني عدي بن النجار، يكنى: أبا حمزة، خادم رَسُول الله ﷺ، وأحد المكثرين من الرواية عنه، وأمه: أم سليم بنت ملحان، قدم النبيُّ ﷺ المدينة وهو ابن عشر سنين، كان آخر الصحابة موتًا بالبصرة واختلف في وقت وفاته ومبلغ عمره؛ فقيل: توفي سنة إحدى وتسعين، وقيل: سنة اثنتين، وقيل: سنة ثلاث، وقيل: =

أَحْسَنِ النَّاسِ خُلُقًا».

فَمَا أَشَدَّ حَاجَةَ الْبَشَرِيَّةِ عَامَّةً، وَالْأُمَّةِ خَاصَّةً لِهَذَا الْمَنْهَجِ النَّبَوِيِّ الْأَخْلَاقِيِّ كَوَسِيلَةٍ مِنْ أَعْظَمِ وَسَائِلِ بَعْثِ الْأُمَّةِ مِنْ جَدِيدٍ؛ لِتَنْهَضَ مِنْ كَبْوَتِهَا، وَتَسْتَفِيقَ مِنْ رَقْدَتِهَا.

وَإِنَّمَا الْأُمَمُ الْأَخْلَاقُ مَا بَقِيَتْ فَإِنْ هُمُ ذَهَبَتْ أَخْلَاقُهُمْ ذَهَبُوا [(١)]

فَحَاكِمٌ ذُو خُلُقٍ هُوَ رَحْمَةُ اللهِ فِي الْأَرْضِ، وَحَاكِمٌ بِلَا خُلُقٍ هُوَ ذِئْبٌ جَائِعٌ شِرِّيرٌ مُسَلَّطٌ عَلَى رِقَابِ النَّاسِ وَأَعْرَاضِهِمْ وَأَمْوَالِهِمْ.

وَعَالِمٌ ذُو خُلُقٍ هُوَ مَصْدَرُ هِدَايَةٍ وَرَحْمَةٍ لِمَلَايِينِ الْبَشَرِ مِمَّنْ يَتَلَمَّسُونَ الطَّرِيقَ، وَيَبْحَثُونَ عَنِ الْحَقِّ.

وَعَالِمٌ بِلَا خُلُقٍ هُوَ مَصْدَرُ هَدْمٍ، وَمِعْوَلُ تَدْمِيرٍ لِآلَافِ الْبَشَرِ مِمَّن يَحْمِلُونَ قُلُوبًا مَرِيضَةً فِي كُلِّ زَمَانٍ وَمَكَانٍ.

وَجُنْدِيٌّ ذُو خُلُقٍ أَفْضَلُ فِي الْمَيْدَانِ مِنْ أَلْفِ جُنْدِيٍّ بِلَا خُلُقٍ.

وَتَاجِرٌ ذُو خُلُقٍ أَنْفَعُ لِأُمَّتِهِ مِنْ أَلْفِ تَاجِرٍ بِلَا خُلُقٍ.

وَلَا يُنْكِرُ مُنْصِفٌ عَلَى الْإِطْلَاقِ أَنَّ الْأُمَّةَ بِجَمِيعِ فِئَاتِهَا وَأَفْرَادِهَا فِي حَاجَةٍ إِلَى عَوْدَةٍ صَادِقَةٍ إِلَى أَخْلَاقِ هَذَا الدِّينِ، وَقَدْ يَرُدُّ عَلَيْنَا قَائِلٌ: بَلْ إِنَّ الْأُمَّةَ فِي حَاجَةٍ إِلَى الْعِلْمِ، وَالْمَالِ، وَالتِّكْنُولُوجْيَا فِي عَالَمِ الصِّنَاعَةِ وَالسِّلَاحِ، وَنَحْنُ

= سنة تسعين، وقيل: كان عمره مائة سنة وثلاث سنين، وقيل: مائة سنة وعشر سنين، وقيل: مائة سنة وسبع سنين، وقيل: بضع وتسعون سنة، راجع: «أسد الغابة» (١/ ١٤٨ - ١٥٠)، و«الإصابة» (٢٧٧)، و«الاستيعاب» (٨٦).

(١) البيت للشاعر أحمد شوقي؛ راجع: «الشوقيات» (١/ ٣٥) ط دار كنوز المعرفة، و«معجم لآلئ الشعر العربي» للدكتور إميل بديع يعقوب واختصاره «لآلئ اللآلئ» (رقم: ٨٠)، و«مجلة المنار» لمحمد رشيد رضا (٣١/ ٤٤٩).

لَا نُنْكِرُ هَذَا أَبَدًا؛ بَلْ إِنَّنَا لَعَلَى يَقِينٍ أَنَّ هَذَا كُلَّهُ بِدُونِ الْأَخْلَاقِ لَا قِيمَةَ لَهُ؛ بَلْ رُبَّمَا يَتَحَوَّلُ إِلَى مَصْدَرِ إِهْلَاكٍ، وَخَرَابٍ، وَدَمَارٍ!!

وَخُذْ لِذَلِكَ مَثَلًا وَاحِدًا؛ فَهَذَا مُهَنْدِسٌ، حَاذِقٌ، بَارِعٌ، مُؤْتَمَنٌ عَلَى مَشَارِيعِ الْأُمَّةِ؛ وَبَيْنَ يَدَيْهِ مِنْ مُقَوِّمَاتِ الْبِنَاءِ وَالتَّعْمِيرِ مَا يُحَوِّلُ بِهِ الْخَرَابَ إِلَى عُمْرَانٍ، وَلَكِنَّهُ مُتَجَرِّدٌ مِنَ الْأَخْلَاقِ لَا يَعْرِفُ الصِّدْقَ، وَلَا يُحِبُّ الْأَمَانَةَ؛ فَمَاذَا سَتَكُونُ النَّتِيجَةُ؟!!

انْهِيَارٌ لِمِئَاتِ الْمَنَازِلِ، وَتَدْمِيرٌ وَتَخْرِيبٌ لِمِئَاتِ الْمَشْرُوعَاتِ، وَإِزْهَاقٌ لِلْأَرْوَاحِ، وَإِهْدَارٌ لِطَاقَاتِ هَذِهِ الْأُمَّةِ.

وَهَكَذَا قَدْ يَكُونُ مِنَ السَّهْلِ جِدًّا أَنْ نُقَدِّمَ الْمَنْهَجَ الْأَخْلَاقِيَّ النَّظَرِيَّ، وَلَكِنَّ هَذَا الْمَنْهَجَ سَيَظَلُّ حِبْرًا عَلَى وَرَقٍ مَا لَمْ يَتَحَوَّلْ إِلَى مَنْهَجٍ عَمَلِيٍّ، وَوَاقِعٍ يَتَحَرَّكُ فِي دُنْيَا النَّاسِ!!

***

المَبْحَثُ الثَّالِثُ
تَزْكِيَةُ النُّفُوسِ وإِصْلَاحُ القُلُوبِ

قَالَ تَعَالَى: ﴿هُوَ ٱلَّذِى بَعَثَ فِى ٱلْأُمِّيِّـۧنَ رَسُولًا مِّنْهُمْ يَتْلُواْ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتِهِۦ وَيُزَكِّيهِمْ وَيُعَلِّمُهُمُ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْحِكْمَةَ وَإِن كَانُواْ مِن قَبْلُ لَفِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ﴾ [الجمعة: ٢].

وقال تعالى: ﴿رَبَّنَا وَٱبْعَثْ فِيهِمْ رَسُولًا مِّنْهُمْ يَتْلُواْ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتِكَ وَيُعَلِّمُهُمُ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْحِكْمَةَ وَيُزَكِّيهِمْ إِنَّكَ أَنتَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ﴾ [البقرة:١٢٩].

وَأَسَاسُ هَذَا الْمَنْهَجِ الْكَرِيمِ هُوَ رَبْطُ الْقَلْبِ الْبَشَرِيِّ بِالله - جَلَّ وَعَلَا- يَرْجُوهُ، وَيَخْشَاهُ، فَيَنْقَادُ لِأَوَامِرِهِ - جَلَّ وَعَلَا- رَاجِيًا رِضَاهُ، وَيَنْتَهِي عَنْ نَوَاهِيهِ، وَيَقِفُ عِنْدَ حُدُودِهِ، يَخْشَى سَخَطَهُ وَعَذَابَهُ، وَالله - جَلَّ وَعَلَا- لَمْ يَأْمُرْ إِلَّا بِكُلِّ خَيْرٍ، وَلَمْ يَنْهَ إِلَّا عَنْ كُلِّ شَرٍّ؛ كَمَا قَالَ تَعَالَى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يَأْمُرُ بِٱلْعَدْلِ وَٱلْإِحْسَٰنِ وَإِيتَآيِٕ ذِى ٱلْقُرْبَىٰ وَيَنْهَىٰ عَنِ ٱلْفَحْشَآءِ وَٱلْمُنكَرِ وَٱلْبَغْىِ يَعِظُكُمْ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ﴾ [النحل: ٩٠].

وَيَقُولُ سُبْحَانَهُ: ﴿قُلْ تَعَالَوْاْ أَتْلُ مَا حَرَّمَ رَبُّكُمْ عَلَيْكُمْ أَلَّا تُشْرِكُواْ بِهِۦ شَيْـًٔا وَبِٱلْوَٰلِدَيْنِ إِحْسَٰنًا وَلَا تَقْتُلُوٓاْ أَوْلَٰدَكُم مِّنْ إِمْلَٰقٍ نَّحْنُ نَرْزُقُكُمْ وَإِيَّاهُمْ وَلَا تَقْرَبُواْ ٱلْفَوَٰحِشَ مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَمَا بَطَنَ وَلَا تَقْتُلُواْ ٱلنَّفْسَ ٱلَّتِى حَرَّمَ ٱللَّهُ إِلَّا بِٱلْحَقِّ ذَٰلِكُمْ وَصَّىٰكُم بِهِۦ لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ ﴿١٥١﴾ وَلَا تَقْرَبُواْ مَالَ ٱلْيَتِيمِ إِلَّا بِٱلَّتِى هِىَ أَحْسَنُ حَتَّىٰ يَبْلُغَ أَشُدَّهُۥ وَأَوْفُواْ ٱلْكَيْلَ وَٱلْمِيزَانَ بِٱلْقِسْطِ لَا نُكَلِّفُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا وَإِذَا قُلْتُمْ فَٱعْدِلُواْ وَلَوْ كَانَ ذَا قُرْبَىٰ وَبِعَهْدِ ٱللَّهِ أَوْفُواْ ذَٰلِكُمْ وَصَّىٰكُم بِهِۦ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ﴾ [الأنعام: ١٥١-١٥٢].

وَوَسِيلَةُ الْأَنْبِيَاءِ وَالرُّسُلِ جَمِيعًا عَلَيْهِمُ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ إِلَى تَحْقِيقِ هَذَا الْمَنْهَجِ التَّرْبَوِيِّ الرَّبَّانِيِّ الْعَجِيبِ مِنْ تَزْكِيَةٍ لِلنُّفُوسِ، وَتَهْذِيبٍ لِلْأَخْلَاقِ، وَإِصْلَاحٍ لِلْقُلُوبِ هِيَ «الْقُدْوَةُ»؛ نَعَمْ؛ فَهُمْ هُدَاةُ الْبَشَرِيَّةِ، وَهُمْ مُعَلِّمُوهَا وَقَادَتُهَا الَّذِينَ يَقُودُونَ سَفِينَتَهَا وَسْطَ هَذِهِ الرِّيَاحِ الْعَاتِيَةِ- رِيَاحِ الشَّهَوَاتِ وَالشُّبُهَاتِ- إِلَى بَرِّ الْإِيمَانِ وَالْأَمَانِ!! لِأَنَّهُ لَا يَكْفِي فِي هِدَايَةِ النَّاسِ أَنْ يَسْمَعُوا كَلِمَةَ الْخَيْرِ، وَالْحَقِّ، وَالْهُدَى تُلْقَى إِلَيْهِمْ مُجَرَّدَةً - وَفَقَطْ- كَلَّا؛ بَلْ لَا بُدَّ أَنْ يَرَوْهَا مُجَسَّدَةً فِي كِيَانٍ بَشَرِيٍّ يُتَرْجِمُهَا، وَيُحَوِّلُهَا إِلَى وَاقِعٍ مَلْمُوسٍ، وَعَمَلٍ مُشَاهَدٍ، وَعِنْدَئِذٍ تَكُونُ التَّكَالِيفُ عَلَى النَّاسِ سَهْلَةً مَيْسُورَةً فِي التَّحْقِيقِ وَالتَّطْبِيقِ ﴿لَّقَدْ كَانَ لَكُمْ فِي رَسُولِ ٱللَّهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ لِّمَن كَانَ يَرْجُوا۟ ٱللَّهَ وَٱلْيَوْمَ ٱلْءَاخِرَ وَذَكَرَ ٱللَّهَ كَثِيرًا﴾ [الأحزاب:٢١].

بَلْ يَأْمُرُ اللهُ تَعَالَى نَبِيَّهُ مُحَمَّدًا ﷺ - أُسْتَاذَ الْبَشَرِيَّةِ، وَمُعَلِّمَ الْإِنْسَانِيَّةِ- أَنْ يَقْتَدِيَ بِالْأَنْبِيَاءِ وَالرُّسُلِ مِنْ قَبْلِهِ؛ فَيَقُولُ سُبْحَانَهُ: ﴿أُو۟لَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ ءَاتَيْنَٰهُمُ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْحُكْمَ وَٱلنُّبُوَّةَ ۚ فَإِن يَكْفُرْ بِهَا هَٰٓؤُلَآءِ فَقَدْ وَكَّلْنَا بِهَا قَوْمًا لَّيْسُوا۟ بِهَا بِكَٰفِرِينَ ﴿٨٩﴾ أُو۟لَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ هَدَى ٱللَّهُ ۖ فَبِهُدَىٰهُمُ ٱقْتَدِهْ ۗ قُل لَّآ أَسْـَٔلُكُمْ عَلَيْهِ أَجْرًا ۖ إِنْ هُوَ إِلَّا ذِكْرَىٰ لِلْعَٰلَمِينَ﴾ [الأنعام: ٨٩، ٩٠].

أَلَسْنَا نَحْنُ أَحْوَجَ إِلَى هَذَا الْأَمْرِ الْجَلِيلِ، وَإِلَى هَذَا الِاقْتِدَاءِ الْكَرِيمِ؟!

فَاسْتَجَابَ النَّبِيُّ ﷺ لِأَمْرِ رَبِّهِ الْجَلِيلِ- جَلَّ وَعَلَا- فَكَانَ خَيْرَ قُدْوَةٍ، وَأَطْهَرَ أُسْوَةٍ، بَهَرَ النَّاسَ؛ لِأَنَّهُمْ لَمْ يَقْرَأُوا هَذِهِ الْأَخْلَاقَ الْكَرِيمَةَ وَالْمَبَادِئَ الْعُلْيَا فِي كِتَابٍ مِنَ الْكُتُبِ، وَلَكِنَّهُمْ يَرَوْنَهَا رَأْيَ الْعَيْنِ فِي بَشَرٍ بَيْنَهُمْ؛ فَتَتَحَرَّكُ لَهَا نُفُوسُهُمْ، وَتَهْفُو لَهَا مَشَاعِرُهُمْ.

لِأَنَّهُ ﷺ مَا أَمَرَ النَّاسَ بِأَمْرٍ، وَمَا دَعَاهُمْ إِلَى خُلُقٍ، وَمَا نَهَاهُمْ عَنْ شَيْءٍ إِلَّا وَكَانَ أَوَّلَ مَنْ يَمْتَثِلُ هَذَا الْأَمْرَ، وَيَنْتَهِي عَنْ هَذَا الشَّيْءِ، وَيَتَخَلَّقُ بِهَذَا الْخُلُقِ.

أَمَرَهُمْ بِالتَّوْحِيدِ، وَتَصْحِيحِ الْعَقِيدَةِ، وَتَحْقِيقِ التَّوْحِيدِ؛ فَكَانَ أَعْرَفَ النَّاسِ

بِرَبِّهِ - جَلَّ وَعَلَا - وَأَشَدَّهُمْ لَهُ خَشْيَةً، وَأَتْقَاهُمْ للهِ ﷻ.

وَأَمَرَهُمْ بِالْعِبَادَةِ الْخَالِصَةِ الصَّحِيحَةِ، فَكَانَ سَيِّدَ الْعَابِدِينَ، وَقَامَ بَيْنَ يَدَيْ رَبِّهِ وَمَوْلَاهُ حَتَّى تَفَطَّرَتْ قَدَمَاهُ؛ فَلَمَّا قِيلَ لَهُ: أَلَيْسَ اللهُ قَدْ غَفَرَ لَكَ مَا تَقَدَّمَ مِنْ ذَنْبِكَ وَمَا تَأَخَّرَ؟! فَقَالَ: «**أَفَلَا أَكُونُ عَبْدًا شَكُورًا**» (١).

وَأَمَرَهُمْ بِالْحِلْمِ، وَالْحِكْمَةِ، وَالرَّحْمَةِ، وَالتَّوَاضُعِ، وَغَيْرِ ذَلِكَ مِنَ الْأَخْلَاقِ؛ فَكَانَ أُسْتَاذًا لِلْبَشَرِيَّةِ، وَمُعَلِّمًا لِلْإِنْسَانِيَّةِ فِي هَذَا الْمَيْدَانِ، وَفِي كُلِّ مَيْدَانٍ، يَبْدَأُ أَصْحَابَهُ بِالسَّلَامِ، وَيَنْصَرِفُ بِكُلِّيَّتِهِ إِلَى مُحَدِّثِهِ صَغِيرًا كَانَ أَمْ كَبِيرًا، وَيَجْلِسُ حَيْثُ يَنْتَهِي بِهِ الْمَجْلِسُ، وَيُجِيبُ دَعْوَةَ الْحُرِّ وَالْعَبْدِ، وَيَأْكُلُ مَعَ الْخَادِمِ، وَيَقْضِي حَاجَةَ الضَّعِيفِ وَالْمِسْكِينِ، وَيَأْكُلُ وَيَجْلِسُ عَلَى الْأَرْضِ، وَيَتَعَامَلُ مَعَ الْجَمِيعِ بِحِكْمَةٍ، وَرَحْمَةٍ، وَتَوَاضُعٍ، وَيَتَّسِعُ صَدْرُهُ لِأَخْطَائِهِمْ، وَيَحْلُمُ عَلَى جَهْلِهِمْ، وَيَقُولُ لِلْأَعْرَابِيِّ الَّذِي دَخَلَ عَلَيْهِ، فَارْتَعَدَتْ فَرَائِصُهُ هَيْبَةً لِرَسُولِ اللهِ ﷺ، فَيَلْتَفِتُ إِلَيْهِ النَّبِيُّ ﷺ فِي وُدٍّ وَحَنَانٍ، وَيَقُولُ: «**هَوِّنْ عَلَيْكَ، فَإِنِّي لَسْتُ بِمَلِكٍ، إِنَّمَا أَنَا ابْنُ امْرَأَةٍ مِنْ قُرَيْشٍ كَانَتْ تَأْكُلُ الْقَدِيدَ بِمَكَّةَ**» (٢).

وَأَمَرَهُمْ بِالْجُودِ وَالْإِنْفَاقِ وَالْبَذْلِ؛ فَكَانَ أَجْوَدَ بِالْخَيْرِ مِنَ الرِّيحِ الْمُرْسَلَةِ؛ كَمَا فِي «**صَحِيحِ مُسْلِمٍ**» (٣) عَنْ أَنَسٍ رضي الله عنه قَالَ: مَا سُئِلَ رَسُولُ اللهِ ﷺ عَلَى الْإِسْلَامِ شَيْئًا إِلَّا أَعْطَاهُ. قَالَ: فَجَاءَهُ رَجُلٌ فَأَعْطَاهُ غَنَمًا بَيْنَ جَبَلَيْنِ، فَرَجَعَ إِلَى

---

(١) تقدم تخريجه.

(٢) أخرجه ابن ماجه، كتاب الأطعمة، باب القديد (٣٣١٢)، وابن سعد في «الطبقات» (١/ ٢٣)، والحاكم (٣/ ٤٧، ٤٨)، وقال: «صحيح على شرط الشيخين»، ووافقه الذهبي، وقال البوصيريُّ في «مصباح الزجاجة» (٤/ ١٩): «هذا إسنادٌ صحيح، رجالُه ثقات»، وصحَّحَهُ الشيخ الألباني في «الصحيحة» (١٨٧٦)، والقديد هو: اللحم المملح المجفف عن طريق أشعة الشمس. انظر: «النهاية» (٢/ ٤٢٢) (مادة: قدد).

(٣) أخرجه مسلمٌ، كتاب الفضائل، باب ما سئل رسُول الله ﷺ شيئًا قط فقال: لا، وكثرة عطائه (٢٣١٢/ ٥٧).

قَوْمِهِ، فَقَالَ: يَا قَوْمِ أَسْلِمُوا؛ فَإِنَّ مُحَمَّدًا يُعْطِي عَطَاءً لَا يَخْشَى الْفَاقَةَ».

وَأَمَرَهُمْ بِالتَّخَفُّفِ مِنَ الدُّنْيَا؛ فَكَانَ أَوَّلَ الزَّاهِدِينَ لَا عَنْ فَقْرٍ وَعَجْزٍ، بَلْ عَنْ قُوَّةٍ وَغِنًى؛ فَفِي «**سُنَنِ التِّرْمِذِيِّ**» [(١)] مِنْ حَدِيثِ عَبْدِ اللهِ بْنِ مَسْعُودٍ ﷺ قَالَ: نَامَ رَسُولُ اللهِ ﷺ عَلَى حَصِيرٍ، فَقَامَ وَقَدْ أَثَّرَ فِي جَنْبِهِ، فَقُلْنَا: يَا رَسُولَ اللهِ، لَوِ اتَّخَذْنَا لَكَ وِطَاءً؟ فَقَالَ: «**مَا لِي وَمَا لِلدُّنْيَا؟ مَا أَنَا فِي الدُّنْيَا إِلَّا كَرَاكِبٍ اسْتَظَلَّ تَحْتَ شَجَرَةٍ، ثُمَّ رَاحَ وَتَرَكَهَا**».

وَهَكَذَا.. كَانَ النَّبِيُّ ﷺ قُدْوَةً لَيْسَ لَهَا فِي تَارِيخِ الْعَالَمِينَ نَظِيرٌ، فَانْجَذَبَتْ إِلَيْهِ قُلُوبُ أَصْحَابِهِ، وَتَعَلَّقَتْ بِهِ نُفُوسُهُمْ، وَأَحَبُّوهُ أَكْثَرَ مِنْ حُبِّهِمْ لِأَنْفُسِهِمْ، وَأَوْلَادِهِمْ، وَأَمْوَالِهِمْ، فَبَذَلُوا أَمْوَالَهُمْ، وَأَرْوَاحَهُمْ، وَدِمَاءَهُمْ دُونَهُ.

وَبِهَذَا الْمَنْهَجِ النَّبَوِيِّ فِي التَّرْبِيَةِ بِالْقُدْوَةِ اسْتَطَاعَ النَّبِيُّ ﷺ أَنْ يُزَكِّيَ نُفُوسَ أَصْحَابِهِ ﷺ، وَأَنْ يُصْلِحَ قُلُوبَهُمْ، وَأَنْ يَنْقُلَهُمْ هَذِهِ النَّقْلَةَ الْفَذَّةَ الْفَرِيدَةَ فِي تَارِيخِ الْبَشَرِيَّةِ، وَأَنْ يُحَوِّلَهُمْ مِنْ رُعَاةٍ لِلْبَقَرِ وَالْإِبِلِ وَالْغَنَمِ إِلَى سَادَةٍ وَقَادَةٍ لِلدُّوَلِ وَالْأُمَمِ فِي أُمُورِ الدِّينِ وَالدُّنْيَا.

وَلَا أَجِدُ أَرْوَعَ، وَلَا أَبْلَغَ مِنْ كَلِمَاتِ جَعْفَرِ بْنِ أَبِي طَالِبٍ ﷺ الَّتِي نَطَقَ بِهَا بَيْنَ يَدَيِ النَّجَاشِيِّ يُجَسِّدُ بِهَا هَذَا التَّحَوُّلَ الْكَبِيرَ فِي حَيَاتِهِمْ؛ كَمَا تَقَدَّمَ قَرِيبًا فِي مَبْحَثِ «الدَّعْوَةِ إِلَى التَّحَلِّي بِمَكَارِمِ الْأَخْلَاقِ».

---

(١) أخرجه الترمذيُّ، كتاب الزهد عن رَسُول الله ﷺ، باب (٤٠) (٢٣٧٧)، وابن ماجه، كتاب الزهد، باب مثل الدنيا (٤١٠٩)، وأحمد (١/ ٣٩١ و٤٤١)، وابن حبان (٧٢٤٢)، والحاكم (٤/ ٣١٠)، والطيالسي (٢٧٧)، والبيهقي في «الكبير» (٣/ ٣٩١)، وفي «الشعب» (١٠٤١٥)، والشاشي في «مسنده» (٣٤٠) و (٣٤١)، وصحَّحَهُ الألبانيُّ في «صحيح الجامع» (٥٦٦٨)، و«الصحيحة» (٤٣٨).

المَبْحَثُ الرَّابِعُ
إِصْلاحُ الدُّنْيَا بِالدِّينِ

فَالإِسْلَامُ عَقِيدَةٌ، تَنْبَثِقُ مِنْهَا شَرِيعَةٌ، تُنَظِّمُ كُلَّ شُئُونِ الْحَيَاةِ، وَلَا يَقْبَلُ اللهُ مِنْ قَوْمٍ شَرِيعَتَهُمْ إِلَّا إِذَا صَحَّتْ عَقِيدَتُهُمْ.

وَإِذَا رَسَخَتِ الْعَقِيدَةُ فِي الْقُلُوبِ وَالنُّفُوسِ أَمْكَنَ أَنْ نُقِيمَ مُجْتَمَعًا يَلْتَزِمُ فِي كُلِّ جَوَانِبِ حَيَاتِهِ بِمَنْهَجِ اللهِ - جَلَّ وَعَلَا- فِي عَلَاقَتِهِ بِرَبِّهِ، وَعَلَاقَتِهِ بِالنَّاسِ، وَعَلَاقَتِهِ بِالْكَوْنِ وَالْحَيَاةِ.

فَالرَّسُولُ ﷺ لَمْ يَأْتِ أَبَدًا بِمُجَرَّدِ عَقِيدَةٍ وُجْدَانِيَّةٍ، رُوحِيَّةٍ، مَقْطُوعَةِ الصِّلَةِ بِالْحَيَاةِ الْبَشَرِيَّةِ، وَلَا عَلَاقَةَ لَهَا بِالْكَوْنِ وَالْحَيَاةِ!!.

كَلَّا.. فَالتَّلَازُمُ ضَرُورِيٌّ وَحَتْمِيٌّ بَيْنَ الْعَقِيدَةِ الَّتِي تَسْتَقِرُّ فِي النَّفْسِ وَالْقَلْبِ، وَآثَارِهَا الَّتِي لَابُدَّ أَنْ تَظْهَرَ فِي الْحَيَاةِ وَالسُّلُوكِ وَالْعَمَلِ وَالإِرَادَةِ عَلَى مُسْتَوَى الْفَرْدِ، وَالأُمَّةِ.

وَلَوْلَا هَذَا التَّرَابُطُ وَالتَّلَاحُمُ لَكَانَتِ الْعَقِيدَةُ مُجَرَّدَ دَعْوَى لَا يُصَدِّقُهَا الْوَاقِعُ.

وَإِلَّا فَمَا حَقِيقَةُ عَقِيدَةِ التَّوْحِيدِ وَالإِيمَانِ إِذَا كَانَتِ الْحَيَاةُ فِي كُلِّ شُئُونِهَا وَجَوَانِبِهَا بَعِيدَةً عَنْ مَنْهَجِ اللهِ وَحُدُودِهِ؟!.

فَلَيْسَ مِنْ حَقِّ الْمُؤْمِنِ الَّذِي حَقَّقَ التَّوْحِيدَ وَالإِيمَانَ أَنْ يَعِيشَ حَيَاتَهُ كَيْفَمَا شَاءَ، وَأَنْ (يَنْتَقِيَ) لِنَفْسِهِ مُخْتَارًا لَا مُكْرَهًا مِنَ الْمَنَاهِجِ وَالْقَوَانِينِ مَا يَشَاءُ!! بَلْ يَجِبُ عَلَيْهِ أَنْ تَكُونَ حَيَاتُهُ كُلُّهَا للهِ وَفْقَ مَنْهَجِ اللهِ وَرَسُولِهِ.

قَالَ تَعَالَى: ﴿قُلْ إِنَّ صَلَاتِي وَنُسُكِي وَمَحْيَايَ وَمَمَاتِي لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ ﴿١٦٢﴾ لَا شَرِيكَ لَهُ وَبِذَٰلِكَ أُمِرْتُ وَأَنَا أَوَّلُ الْمُسْلِمِينَ﴾[الأنعام:١٦٢، ١٦٣].

نَعَمْ.. الْمُؤْمِنُ لَا يَعْرِفُ هَذَا الانْفِصَامَ النَّكِدَ، وَالتَّنَاقُضَ الرَّهِيبَ بَيْنَ الدِّينِ وَالدُّنْيَا!!.

بَلْ هُوَ يُصْلِحُ دُنْيَاهُ بِدِينِهِ، وَيَحْكُمُ دُنْيَاهُ وَيَعِيشُهَا وَفْقَ مُقْتَضَى دِينِهِ فِي جَانِبِ الْعَقِيدَةِ وَالْعِبَادَةِ وَالْمُعَامَلَةِ وَأُمُورِ الْحَيَاةِ.

فِي جَانِبِ التَّعْلِيمِ وَالإِعْلَامِ وَالاقْتِصَادِ وَالسِّيَاسَةِ وَالتَّرْبِيَةِ وَالاجْتِمَاعِ وَالْقِيَمِ وَالْعَمَلِ وَالإِنْتَاجِ وَغَيْرِهَا.

وَفِي جَمْعٍ بَدِيعٍ، وَفَهْمٍ دَقِيقٍ، وَوَعْيٍ عَمِيقٍ قَامَ النَّبِيُّ ﷺ يُحَقِّقُ هَذَا الْمَنْهَجَ الرَّائِعَ فِي قُلُوبِ أَصْحَابِهِ، وَعَلَى أَرْضِ الْوَاقِعِ فِي دُنْيَا النَّاسِ.

بَلْ يَسْتَعِينُ اللهَ عَلَى ذَلِكَ، وَيَتَضَرَّعُ إِلَيْهِ بِهَذَا الدُّعَاءِ النَّبَوِيِّ الْجَامِعِ: «**اللهُمَّ أَصْلِحْ لِي دِينِي الَّذِي هُوَ عِصْمَةُ أَمْرِي، وَأَصْلِحْ لِي دُنْيَايَ الَّتِي فِيهَا مَعَاشِي، وَأَصْلِحْ لِي آخِرَتِي الَّتِي إِلَيْهَا مَعَادِي، وَاجْعَلِ الْحَيَاةَ زِيَادَةً لِي فِي كُلِّ خَيْرٍ، وَاجْعَلِ الْمَوْتَ رَاحَةً لِي مِنْ كُلِّ شَرٍّ**»(١).

وَفِي دَرْسٍ عَمَلِيٍّ نَبَوِيٍّ مُتَأَلِّقٍ مِنَ الْمُعَلِّمِ وَالْمُرَبِّي الَّذِي يُوَظِّفُ أَيَّ حَدَثٍ تَوْظِيفًا تَرْبَوِيًّا عَالِيًا، وَلَا يَتْرُكُ الْحَدَثَ أَبَدًا يَمُرُّ بِلَا عِبْرَةٍ مُسْتَفَادَةٍ، أَوْ دَرْسٍ يُؤَثِّرُ فِي النُّفُوسِ وَالْقُلُوبِ فِي اللَّحْظَةِ الْمُنَاسِبَةِ الَّتِي تَبْلُغُ فِيهَا حَرَارَةُ التَّأَثُّرِ وَالانْفِعَالِ دَرَجَةَ الذَّوَبَانِ وَالانْصِهَارِ؛ لِيَعْقِدَ بَعْدَهَا الْمُرَبِّي وَالْمُعَلِّمُ الأَمِينُ ﷺ الْعُرْوَةَ الْوُثْقَى، وَلِيَطْبَعَ الطَّابَعَ الَّذِي لَا يَزُولُ بِإِذْنِ اللهِ؛ فَفِي «**الصَّحِيحَيْنِ**»(٢) مِنْ حَدِيثِ أَنَسِ بْنِ مَالِكٍ رضي الله عنه قَالَ: جَاءَ ثَلَاثَةُ رَهْطٍ إِلَى بُيُوتِ أَزْوَاجِ النَّبِيِّ ﷺ يَسْأَلُونَ عَنْ عِبَادَةِ النَّبِيِّ ﷺ، فَلَمَّا أُخْبِرُوا كَأَنَّهُمْ تَقَالُّوهَا، فَقَالُوا: وَأَيْنَ نَحْنُ مِنَ النَّبِيِّ ﷺ؟ قَدْ غُفِرَ لَهُ مَا تَقَدَّمَ مِنْ ذَنْبِهِ وَمَا تَأَخَّرَ، قَالَ أَحَدُهُمْ: أَمَّا أَنَا فَإِنِّي أُصَلِّي

---

(١) أخرجه مسلمٌ، كتاب الذكر والدعاء والتوبة والاستغفار، باب التعوذ من شر ما عمل ومن شر ما لم يعمل (٢٧٢٠) عن أبي هريرة رضي الله عنه.

(٢) أخرجه البخاريُّ، كتاب النكاح، باب الترغيب في النكاح (٥٠٦٣)، ومسلمٌ، كتاب النكاح، باب استحباب النكاح لمن تاقت نفسه إليه ووجد مؤنه (١٤٠١).

اللَّيْلَ أَبَدًا، وَقَالَ آخَرُ: أَنَا أَصُومُ الدَّهْرَ وَلَا أُفْطِرُ، وَقَالَ آخَرُ: أَنَا أَعْتَزِلُ النِّسَاءَ فَلَا أَتَزَوَّجُ أَبَدًا، فَجَاءَ رَسُولُ الله ﷺ إِلَيْهِمْ؛ فَقَالَ: «**أَنْتُمُ الَّذِينَ قُلْتُمْ كَذَا وَكَذَا، أَمَا وَاللهِ إِنِّي لَأَخْشَاكُمْ للهِ، وَأَتْقَاكُمْ لَهُ؛ لَكِنِّي أَصُومُ وَأُفْطِرُ، وَأُصَلِّي وَأَرْقُدُ، وَأَتَزَوَّجُ النِّسَاءَ، فَمَنْ رَغِبَ عَنْ سُنَّتِي فَلَيْسَ مِنِّي**».

وَهَكَذَا اسْتَطَاعَ النَّبِيُّ ﷺ أَنْ يُرَبِّيَ أَصْحَابَهُ ﷺ عَلَى الْعَمَلِ لِلدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ فِي آنٍ.

وَلَمْ يَشْعُرُوا أَبَدًا بِأَيِّ تَعَارُضٍ، أَوْ تَضَارُبٍ بَيْنَهُمَا؛ بَلْ كَانُوا يَعْلَمُونَ أَنَّهُمْ وَهُمْ فِي مَسَاجِدِهِمْ وَعِبَادَتِهِمْ وَتَبَتُّلِهِمْ لَيْسُوا بِمُنْعَزِلِينَ وَلَا مَقْطُوعِينَ عَنِ الدُّنْيَا.

كَمَا أَنَّهُمْ وَهُمْ فِي جِهَادِهِمْ وَعَمَلِهِمْ وَتِجَارَاتِهِمْ وَمَزَارِعِهِمْ غَيْرُ بَعِيدِينَ عَنِ الدِّينِ أَوْ مُنْفَصِلِينَ عَنْهُ، فَتَرَى الْوَاحِدَ مِنْهُمْ يَنْتَفِضُ انْتِفَاضَةَ الْعُصْفُورِ الْمُبَلَّلِ بِمَاءِ الْمَطَرِ فِي الْيَوْمِ الْبَارِدِ إِذَا قَامَ بَيْنَ يَدَيِ الله - جَلَّ وَعَلَا- أَوْ إِذَا اسْتَمَعَ أَوْ رَتَّلَ آيَاتِ الْقُرْآنِ الْكَرِيمِ كَأَنَّهُ يَرَى الْجَنَّةَ وَالنَّارَ رَأْيَ الْعَيْنِ!!.

وَهُوَ نَفْسُهُ الْبَطَلُ فِي سَاحَةِ الْجِهَادِ وَالشَّرَفِ.

وَهُوَ نَفْسُهُ التَّاجِرُ الْأَمِينُ الصَّدُوقُ فِي مَتْجَرِهِ.

وَهُوَ نَفْسُهُ الْأَبُ الْحَنُونُ الْوَدُودُ مَعَ زَوْجِهِ وَأَوْلَادِهِ.

كُلُّ هَذَا وَغَيْرُهُ فِي تَنَاسُقٍ وَتَنَاغُمٍ وَتَوَازُنٍ وَاعْتِدَالٍ؛ لِأَنَّهُ فَهِمَ عَنِ الله مُرَادَهُ، وَفَهِمَ عَنْ رَسُولِ الله مُبْتَغَاهُ.

فَالْأَرْضُ وَمَا عَلَيْهَا خُلِقَتْ لِلْإِنْسَانِ، أَمَّا هُوَ فَمَا خُلِقَ إِلَّا للهِ، وَمَعْرِفَتِهِ، وَعِبَادَتِهِ، وَإِحْسَانِ الصِّلَةِ بِهِ جَلَّ جَلَالُهُ؛ قَالَ تَعَالَى: ﴿وَمَا خَلَقْتُ ٱلْجِنَّ وَٱلْإِنسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ﴾ [الذاريات:٥٦].

فَالدُّنْيَا مَهْبِطُ وَحْيِ الله، وَمُصَلَّى أَنْبِيَاءِ الله، وَمَتْجَرُ أَوْلِيَاءِ الله، رَبِحُوا فِيهَا الرَّحْمَةَ، وَاكْتَسَبُوا فِيهَا الْجَنَّةَ (١)، وَجَعَلُوهَا مَزْرَعَةً وَقَنْطَرَةً لِلْآخِرَةِ؛ قَالَ

(١) أخرجه ابن أبي الدنيا في «إصلاح المال» (رقم: ١٠٨)، وفي «ذم الدنيا» (رقم: ١٤٧)
=

تَعَالَى: ﴿وَٱبْتَغِ فِيمَآ ءَاتَىٰكَ ٱللَّهُ ٱلدَّارَ ٱلْءَاخِرَةَ ۖ وَلَا تَنسَ نَصِيبَكَ مِنَ ٱلدُّنْيَا ۖ وَأَحْسِن كَمَآ أَحْسَنَ ٱللَّهُ إِلَيْكَ ۖ وَلَا تَبْغِ ٱلْفَسَادَ فِى ٱلْأَرْضِ ۖ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ ٱلْمُفْسِدِينَ﴾ [القصص:٧٧].

قَدْ أَكُونُ أَطَلْتُ النَّفَسَ شَيْئًا مَا فِي هَذِهِ الْمَسْأَلَةِ لِأَهَمِّيَّتِهَا؛ لِمَا أَرَاهُ الْآنَ مِنْ وَاقِعٍ يُبْكِي. فَأُمَّتُنَا - زَادَهَا الله شَرَفًا وَفَضْلًا - قَدْ تَوَانَتْ وَتَكَاسَلَتْ كَثِيرًا فِي هَذَا الْجَانِبِ؛ حَتَّى صَارَتْ وَرَاءَ الرَّكْبِ بِبَعِيدٍ؛ بَلْ أَصْبَحَتْ تَتَسَوَّلُ عَلَى مَائِدَةِ الْفِكْرِ وَالْعِلْمِ وَالْإِنْتَاجِ وَالْإِبْدَاعِ وَالْعَمَلِ الْجَادِّ بَعْدَ أَنْ كَانَتْ بِالْأَمْسِ الْقَرِيبِ مَنَارَةً مُشْرِقَةً تَهْدِي الْحَيَارَى وَالتَّائِهِينَ.

وَيَزْدَادُ الْأَنِينُ وَالْأَلَمُ حِينَمَا أَرَى إِخْلَالَ الْقَادِرِينَ عَلَى التَّمَامِ مِنْ شَبَابِنَا، وَيُرِيدُ الْكَثِيرُونَ مِنْهُمْ أَنْ يَتْرُكُوا دِرَاسَةَ الطِّبِّ وَالْهَنْدَسَةِ وَالْجِيُولُوجْيَا وَالْكِيمْيَاءِ وَالْفِيزْيَاءِ وَالذَّرَّةِ لِلتَّفَرُّغِ لِلدِّرَاسَةِ الدِّينِيَّةِ الشَّرْعِيَّةِ!!.

وَمَنْ لِهَذِهِ الْمَيَادِينِ الَّتِي تَحْتَاجُ إِلَيْهَا الْأُمَّةُ لِزَامًا؟! وَهَلْ يَصْلُحُ أَنْ تَكُونَ الْأُمَّةُ كُلُّهَا دُعَاةً عَلَى مَنَابِرِ الْمَسَاجِدِ، أَوْ فِي قَاعَاتِ الدُّرُوسِ وَالْمُحَاضَرَاتِ؟!.

وَهَلْ رَبَّى النَّبِيُّ ﷺ الصَّحَابَةَ ﷡ عَلَى هَذَا الْمَنْهَجِ؟!.

لَا وَالله؛ بَلِ اخْتَارَ الْمُرَبِّي وَالْمُعَلِّمُ كُلَّ وَاحِدٍ مِنْهُمْ بِمَا مَنَّ الله عَلَيْهِ مِنْ مَلَكَاتٍ، وَقُدُرَاتٍ، وَطَاقَاتٍ، وَوَضَعَهُ فِي الْمَكَانِ الَّذِي يَتَنَاسَبُ مَعَ تِلْكَ الْمَلَكَاتِ وَالطَّاقَاتِ، فَأَبْدَعَ لِلدِّينِ وَالدُّنْيَا مَعًا، وَلَوْ أَرَادَ ﷺ أَنْ يَجْعَلَهُمْ «جَمِيعًا» خُطَبَاءَ يَهُزُّونَ أَعْوَادَ الْمَنَابِرِ لَفَعَلَ.

فَلْنَعْلَمْ أَنَّ أَعْظَمَ خِدْمَةٍ نُقَدِّمُهَا الْيَوْمَ لِدِينِ الله هِيَ أَنْ يَشْهَدَ كُلُّ مُسْلِمٍ وَمُسْلِمَةٍ شَهَادَةً عَمَلِيَّةً - عَلَى أَرْضِ الْوَاقِعِ - لِهَذَا الدِّينِ.

=

عن علي بن أبي طالب ﷺ، وإسناده فيه نظر؛ كما قال الإمام ابن رجب في «جامع العلوم والحكم» (ص:٣٩٩).

وَأَنَا أَجْزِمُ أَنَّنَا شَهِدْنَا بِأَلْسِنَتِنَا وَقُلُوبِنَا لِدِينِ رَبِّنَا، لَكِنْ قَلَّ مَنْ شَهِدَ بِلِسَانِهِ وَجَنَانِهِ وَعَمَلِهِ!!

وَلَنْ تَسْتَطِيعَ أُمَّتُنَا - الْكَرِيمَةُ- أَنْ تَشُقَّ لِنَفْسِهَا طَرِيقًا مِنَ الْعِزَّةِ وَالْكَرَامَةِ وَالسِّيَادَةِ وَالْمَكَانَةِ وَسْطَ أَحْجَارِ النِّظَامِ الْعَالَمِيِّ الْجَدِيدِ إِلَّا بِالْإِيمَانِ وَالْعِلْمِ وَالْعَمَلِ.

وَلَنْ تَسْتَقِلَّ فِي قَرَارَاتِهَا، وَلَنْ تَحْتَفِظَ بِهُوِيَّتِهَا إِلَّا بِالْإِيمَانِ وَالْعِلْمِ وَالْعَمَلِ.

نَعَمْ.. لَنْ تَكُونَ كَلِمَتُهَا مِنْ رَأْسِهَا إِلَّا إِذَا كَانَتْ لُقْمَتُهَا مِنْ فَأْسِهَا!!.

وَهَكَذَا تَتَّضِحُ بِجَلَاءٍ أَهْدَافُ وَأَوْلَوِيَّاتُ وَسِمَاتُ هَذَا الْمَنْهَجِ النَّبَوِيِّ فِي الدَّعْوَةِ إِلَى اللهِ، وَمِنْ ثَمَّ فَوَاجِبٌ عَلَى الدُّعَاةِ السَّائِرِينَ عَلَى دَرْبِ أُسْوَةِ الدُّعَاةِ أَنْ يَلْتَزِمُوا هَذَا الْمَنْهَجَ النَّبَوِيَّ الْوَاضِحَ؛ فَلَيْسَ عَلَيْهِمْ إِلَّا أَنْ يُبَلِّغُوا النَّاسَ بِالْحِكْمَةِ وَالرَّحْمَةِ وَالتَّوَاضُعِ وَالْأَدَبِ، وَأَنْ يُقِيمُوا حُجَّةَ اللهِ عَلَى الْخَلْقِ بِالْبِشَارَةِ وَالنِّذَارَةِ دُونَ أَنْ يَسْتَعْجِلُوا النَّتَائِجَ وَالْمَصَائِرَ؛ فَلَيْسَ هَذَا مِنْ شَأْنِ الْعَبِيدِ، إِنَّمَا هُوَ شَأْنُ الْعَزِيزِ الْحَمِيدِ.

وَلَيْسَ لَهُمْ أَيْضًا أَنْ يُحَاسِبُوا النَّاسَ؛ فَلَيْسَ هَذَا لَهُمْ، إِنَّمَا هُوَ لِخَالِقِهِمْ جَلَّ وَعَلَا؛ قَالَ تَعَالَى: ﴿فَإِنَّمَا عَلَيْكَ ٱلْبَلَٰغُ وَعَلَيْنَا ٱلْحِسَابُ﴾ [الرعد:٤٠].

حَتَّى الْهِدَايَةُ لَيْسَتْ مِلْكًا لِمَلَكٍ مُقَرَّبٍ، وَلَا لِنَبِيٍّ مُرْسَلٍ، وَلَوْ كَانَ إِمَامَ الْأَنْبِيَاءِ ﷺ، إِنَّمَا هِيَ مِلْكٌ للهِ وَحْدَهُ.

قَالَ تَعَالَى: ﴿لَّيْسَ عَلَيْكَ هُدَىٰهُمْ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ يَهْدِى مَن يَشَآءُ﴾ [البقرة:٢٧٢].

وَقَالَ سُبْحَانَهُ: ﴿إِنَّكَ لَا تَهْدِى مَنْ أَحْبَبْتَ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ يَهْدِى مَن يَشَآءُ وَهُوَ أَعْلَمُ بِٱلْمُهْتَدِينَ﴾[القصص:٥٦].

فَمَا عَلَى الدُّعَاةِ إِلَى اللهِ إِلَّا أَنْ يُبَلِّغُوا بِحَقٍّ عَنِ اللهِ وَرَسُولِهِ، مَا عَلَيْهِمْ إِلَّا هِدَايَةُ الدَّلَالَةِ وَالْإِرْشَادِ وَالْبَيَانِ وَالتَّعْرِيفِ.

أَمَّا هِدَايَةُ التَّوْفِيقِ؛ فَبِيَدِ الله وَحْدَهُ - جَلَّ وَعَلَا، وَللهِ الْحِكْمَةُ الْبَالِغَةُ، وَالْعَدْلُ التَّامُّ؛ فَأَبْقَى الْبَلَاغَ وَالدَّعْوَةَ وَالدَّلَالَةَ وَالإِرْشَادَ فِي أُمَّةِ الدَّعْوَةِ وَالْبَلَاغِ إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ؛ لِتَظَلَّ حُجَّةُ الله عَلَى الْخَلْقِ قَائِمَةً.

يَقُولُ الله ﷻ: ﴿رُّسُلًا مُّبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ لِئَلَّا يَكُونَ لِلنَّاسِ عَلَى ٱللَّهِ حُجَّةُۢ بَعْدَ ٱلرُّسُلِۚ وَكَانَ ٱللَّهُ عَزِيزًا حَكِيمًا﴾ [النساء:١٦٥]. هَكَذَا بِجَلَاءٍ وَوُضُوحٍ، وَلَكِنَّهُ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى-: «لَمْ يُبَيِّنْ هُنَا مَا هَذِهِ الْحُجَّةُ الَّتِي كَانَتْ تَكُونُ لِلنَّاسِ عَلَيْهِ - جَلَّ وَعَلَا- لَوْ عَذَّبَهُمْ دُونَ إِنْذَارِهِمْ عَلَى أَلْسِنَةِ الرُّسُلِ، وَلَكِنَّهُ - سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى - بَيَّنَهَا فِي سُورَةِ طَهَ بِقَوْلِهِ: ﴿وَلَوْ أَنَّآ أَهْلَكْنَٰهُم بِعَذَابٍ مِّن قَبْلِهِۦ لَقَالُواْ رَبَّنَا لَوْلَآ أَرْسَلْتَ إِلَيْنَا رَسُولًا فَنَتَّبِعَ ءَايَٰتِكَ مِن قَبْلِ أَن نَّذِلَّ وَنَخْزَىٰ﴾[طه: ١٣٤].

وَأَشَارَ لَهَا فِي سُورَةِ الْقَصَصِ بِقَوْلِهِ: ﴿وَلَوْلَآ أَن تُصِيبَهُم مُّصِيبَةُۢ بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيهِمْ فَيَقُولُواْ رَبَّنَا لَوْلَآ أَرْسَلْتَ إِلَيْنَا رَسُولًا فَنَتَّبِعَ ءَايَٰتِكَ وَنَكُونَ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾ [القصص: ٤٧]» (١).

وَقَالَ سُبْحَانَهُ وتَعَالَى: ﴿وَمَا كُنَّا مُعَذِّبِينَ حَتَّىٰ نَبْعَثَ رَسُولًا﴾[الإسراء: ١٥].

وَيُقِيمُ الله - جَلَّ وَعَلَا- الْحُجَّةَ عَلَى خَلْقِهِ كَذَلِكَ يَوْمَ الْقِيَامَةِ؛ فَيَأْتِي بِكُلِّ رَسُولٍ؛ لِيَشْهَدَ عَلَى أُمَّتِهِ بِأَنَّهُ قَدْ بَلَّغَهَا رِسَالَةَ رَبِّهِ - جَلَّ وَعَلَا- وَبَيَّنَ لَهَا، وَبَشَّرَهَا، وَأَنْذَرَهَا: ﴿فَكَيْفَ إِذَا جِئْنَا مِن كُلِّ أُمَّةٍۭ بِشَهِيدٍ وَجِئْنَا بِكَ عَلَىٰ هَٰٓؤُلَآءِ شَهِيدًا ﴿٤١﴾ يَوْمَئِذٍ يَوَدُّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ وَعَصَوُاْ ٱلرَّسُولَ لَوْ تُسَوَّىٰ بِهِمُ ٱلْأَرْضُ وَلَا يَكْتُمُونَ ٱللَّهَ حَدِيثًا﴾ [النساء: ٤١، ٤٢].

بَلْ لَا يُنْكِرُ أَهْلُ النَّارِ - عِيَاذًا بِالله- أَنَّ الرُّسُلَ قَدْ بَلَّغُوهُمْ، وَأَنْذَرُوهُمْ، وَحَذَّرُوهُمْ، وَلَكِنَّهُمْ كَذَّبُوا، وَعَانَدُوا، وَأَعْرَضُوا عَنِ الْحَقِّ: ﴿وَلِلَّذِينَ كَفَرُواْ بِرَبِّهِمْ

---

(١) «أضواء البيان» للعلامة الشنقيطي رحمه الله (١/ ٣٨٠).

عَذَابُ جَهَنَّمَ ۖ وَبِئْسَ ٱلْمَصِيرُ ﴿٦﴾ إِذَآ أُلْقُوا۟ فِيهَا سَمِعُوا۟ لَهَا شَهِيقًا وَهِىَ تَفُورُ ﴿٧﴾ تَكَادُ تَمَيَّزُ مِنَ ٱلْغَيْظِ ۖ كُلَّمَآ أُلْقِىَ فِيهَا فَوْجٌ سَأَلَهُمْ خَزَنَتُهَآ أَلَمْ يَأْتِكُمْ نَذِيرٌ ﴿٨﴾ قَالُوا۟ بَلَىٰ قَدْ جَآءَنَا نَذِيرٌ فَكَذَّبْنَا وَقُلْنَا مَا نَزَّلَ ٱللَّهُ مِن شَىْءٍ إِنْ أَنتُمْ إِلَّا فِى ضَلَٰلٍ كَبِيرٍ ﴿٩﴾ وَقَالُوا۟ لَوْ كُنَّا نَسْمَعُ أَوْ نَعْقِلُ مَا كُنَّا فِىٓ أَصْحَٰبِ ٱلسَّعِيرِ ﴿١٠﴾ فَٱعْتَرَفُوا۟ بِذَنۢبِهِمْ فَسُحْقًا لِّأَصْحَٰبِ ٱلسَّعِيرِ﴾ [الملك: ٦-١١].

يَا لَهَا مِنْ تَبِعَةٍ ثَقِيلَةٍ بِمِقْدَارِ مَا هِيَ عَظِيمَةٌ!!

وَلِمَ لَا؟! وَهِيَ تَتَعَلَّقُ بِمَصِيرِ الْبَشَرِيَّةِ مِنْ سَعَادَةٍ وَشَقَاوَةٍ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ.

أَمَّا الرَّسُولُ ﷺ فَلَا رَيْبَ أَنَّهُ قَدْ بَلَّغَ الرِّسَالَةَ، وَأَدَّى مَا حُمِّلَ مِنْ أَمَانَةٍ ثَقِيلَةٍ، وَمَضَى إِلَى رَبِّهِ- جَلَّ وَعَلَا- وَهُوَ رَاضٍ عَنْهُ، وَبَقِيَ عَلَى أَتْبَاعِهِ وَحَوَارِيِّيهِ أَنْ يَسِيرُوا عَلَى ذَاتِ الطَّرِيقِ بِنَفْسِ الْمَنْهَجِ؛ لِاسْتِنْقَاذِ النَّاسِ مِنْ شِقْوَةِ الدُّنْيَا، وَعَذَابِ الْآخِرَةِ بِإِذْنِ اللهِ تَعَالَى.

وَيَزْدَادُ الْأَمْرُ جَلَاءً إِذَا وَقَفْنَا عَلَى مُقَوِّمَاتِ الْمَنْهَجِ النَّبَوِيِّ الدَّعَوِيِّ الَّتِي أَصَّلَهَا، وَأَسَّسَهَا وَقَعَّدَهَا النَّبِيُّ ﷺ؛ لِتَكُونَ مَنَارًا لِكُلِّ سَالِكٍ صَادِقٍ أَمِينٍ لِهَذَا الدَّرْبِ الْمُنِيرِ.

وَهَذَا لُبُّ بَحْثِنَا، وَقَدْ حَاوَلْتُ - بِتَوَاضُعٍ شَدِيدٍ- أَنْ أَجْمَعَ مَا تَنَاثَرَ هُنَا وَهُنَاكَ؛ لِأَجْمَعَ هَذِهِ الْمُقَوِّمَاتِ الْكَبِيرَةَ؛ لِأَجْعَلَ مِنْهَا بَاقَةً يَانِعَةً، وَدُرُوسًا نَافِعَةً أُقَدِّمُهَا لِنَفْسِي وَإِخْوَانِي مِنَ الدُّعَاةِ إِلَى اللهِ - جَلَّ وَعَلَا- حَتَّى لَا نَنْحَرِفَ عَنِ الْإِسْلَامِ مَنْهَجًا، وَنَحْنُ نَتَّجِهُ إِلَيْهِ غَايَةً!!

وَهَذَا مَا نَتَعَرَّفُ عَلَيْهِ فِي الْفَصْلِ الْقَادِمِ بِإِذْنِ اللهِ تَعَالَى.

٭ ٭ ٭

الفَصْلُ الثَّالِثُ

مُقَوِّمَاتُ الْمَنْهَجِ النَّبَوِيِّ فِي الدَّعْوَةِ إِلَى اللَّهِ تَعَالَى

- وَفِيهِ تَمْهِيدٌ وَعَشَرَةُ مَبَاحِثَ:
- تَمْهِيدٌ: «مَفْهُومُ مُقَوِّمَاتِ الدَّعْوَةِ وَالدَّاعِيَةِ».
- المَبْحَثُ الأَوَّلُ: الإِخْلَاصُ وَالتَّقْوَى.
- المَبْحَثُ الثَّانِي: التَّجَرُّدُ وَالْعَدْلُ وَالإِنْصَافُ.
- المَبْحَثُ الثَّالِثُ: الْبَصِيرَةُ وَالْعِلْمُ وَالْفَهْمُ وَالْعَمَلُ.
- المَبْحَثُ الرَّابِعُ: عُلُوُّ الْهِمَّةِ وَالْحِرْصُ عَلَى هِدَايَةِ الآخَرِينَ.
- المَبْحَثُ الخَامِسُ: الصَّبْرُ عَلَى الأَذَى.
- المَبْحَثُ السَّادِسُ: الْحِكْمَةُ وَالرَّحْمَةُ وَالتَّوَاضُعُ.
- المَبْحَثُ السَّابِعُ: الرِّفْقُ وَاللِّينُ.
- المَبْحَثُ الثَّامِنُ: الْوَسَطِيَّةُ وَالاعْتِدَالُ.
- المَبْحَثُ التَّاسِعُ: التَّدَرُّجُ فِي الدَّعْوَةِ.
- المَبْحَثُ العَاشِرُ: التَّمَيُّزُ وَالْمُفَاصَلَةُ.



الفَصْلُ الثَّالِثُ

مُقَوِّماتُ الْمَنْهَجِ النَّبَوِيِّ فِي الدَّعْوَةِ إِلَى اللَّهِ تعالى

تَمْهِيدٌ

● **مَفْهُومُ مُقَوِّماتِ الدَّعْوَةِ وَالدَّاعِيةِ:**

○ تَعْرِيفُ كَلِمَةِ: «مُقَوِّمَاتٍ»: أَصْلُ الْكَلِمَةِ مِنْ: «قَوَمَ».

قَالَ ابْنُ مَنْظُورٍ: «وَالْقِيَامُ: الْعَزْمُ، وَمِنْهُ قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿وَأَنَّهُۥ لَمَّا قَامَ عَبْدُ ٱللَّهِ يَدْعُوهُ كَادُواْ يَكُونُونَ عَلَيْهِ لِبَدًا﴾ [الجن:١٩]؛ أَيْ: عَزَمَ، وَقَدْ يَجِيءُ الْقِيَامُ بِمَعْنَى الْمُحَافَظَةِ وَالإِصْلَاحِ، وَمِنْهُ قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ٱلرِّجَالُ قَوَّٰمُونَ عَلَى ٱلنِّسَآءِ﴾ [النساء:٣٤]، وَقَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿إِلَّا مَا دُمْتَ عَلَيْهِ قَآئِمًا﴾ [آل عمران:٧٥]؛ أَيْ: مُلَازِمًا مُحَافِظًا، وَيَجِيءُ الْقِيَامُ بِمَعْنَى الْوُقُوفِ وَالثَّبَاتِ، وَعَلَيْهِ فَسَّرُوا قَوْلَهُ سُبْحَانَهُ: ﴿وَإِذَآ أَظْلَمَ عَلَيْهِمْ قَامُواْ﴾ [البقرة:٢٠]؛ قَالَ أَهْلُ اللُّغَةِ وَالتَّفْسِيرِ: قَامُوا هُنَا بِمَعْنَى: وَقَفُوا وَثَبَتُوا فِي مَكَانِهِمْ غَيْرَ مُتَقَدِّمِينَ وَلَا مُتَأَخِّرِينَ، وَأَقَامَ الشَّيْءَ: أَدَامَهُ، وَقَامَ الشَّيْءُ وَاسْتَقَامَ: اعْتَدَلَ وَاسْتَوَى، وَالْقَوَامُ: الْعَدْلُ؛ قَالَ تَعَالَى: ﴿وَكَانَ بَيْنَ ذَٰلِكَ قَوَامًا﴾ [الفرقان:٦٧]، وَقَالَ تَعَالَى: ﴿إِنَّ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانَ يَهْدِى لِلَّتِى هِىَ أَقْوَمُ﴾ [الإسراء:٩].

وقِوَامُ الْأَمْرِ بِالْكَسْرِ: نِظَامُهُ وَعِمَادُهُ.

وَقِوَامُ الْأَمْرِ أَيْضًا: مِلَاكُهُ الَّذِي يَقُومُ بِهِ.

وَالْقَائِمُ بِالدِّينِ: الْمُسْتَمْسِكُ بِهِ، الثَّابِتُ عَلَيْهِ.

وَالْقِوَامُ مِنَ الْعَيْشِ: مَا يُقِيمُكَ.

وَقِوَامُ الْعَيْشِ: عِمَادُهُ الَّذِي يَقُومُ بِهِ»(١).

وَقَالَ أَبُو الْبَقَاءِ (٢) **فِي «الْكُلِّيَّاتِ»** (٣): «وَقِيَامُ الْأَمْرِ وَقِوَامُهُ: مَا يَقُومُ الْأَمْرُ بِهِ؛ وَمِنْهُ قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿وَلَا تُؤْتُوا۟ ٱلسُّفَهَآءَ أَمْوَٰلَكُمُ ٱلَّتِى جَعَلَ ٱللَّهُ لَكُمْ قِيَـٰمًا﴾ [النساء:٥]؛ أَيْ: قِوَامًا».

◻ **وَنَقْصِدُ بِمُقَوِّمَاتِ الْمَنْهَجِ النَّبَوِيِّ فِي الدَّعْوَةِ:** مَجْمُوعَةَ الْأُصُولِ وَالْأُسُسِ وَالْقَوَاعِدِ التَّوْقِيفِيَّةِ الَّتِي أَصَّلَهَا وَأَسَّسَهَا وَقَعَّدَهَا النَّبِيُّ ﷺ فِي الدَّعْوَةِ إِلَى اللهِ، وَالَّتِي يَجِبُ عَلَى كُلِّ سَالِكٍ لِهَذَا الطَّرِيقِ أَنْ يَلْتَزِمَهَا وَأَلَّا يَتَجَاوَزَهَا. فَالْأَمْرُ لَيْسَ اخْتِيَارًا؛ وَلَكِنَّهُ تَوْقِيفِيٌّ لَيْسَ مِنْ حَقِّ أَحَدٍ أَنْ يَتَعَدَّاهُ، أَوْ يَخْتَطَّ لِنَفْسِهِ مَنْهَجًا سِوَاهُ.

فَمَقَامُ الدَّاعِيَةِ مِنَ الْخُطُورَةِ بِمَكَانٍ؛ لِأَنَّهُ يَنُوبُ عَنْ صَفْوَةِ الْخَلْقِ مِنَ الْأَنْبِيَاءِ وَالرُّسُلِ الَّذِينَ اخْتَارَهُمُ اللهُ تَعَالَى، وَاجْتَبَاهُمْ لِهَذِهِ الْوَظِيفَةِ الشَّرِيفَةِ، وَلِهَذِهِ الْمُهِمَّةِ السَّامِيَةِ الرَّفِيعَةِ؛ قَالَ تَعَالَى: ﴿وَرَبُّكَ يَخْلُقُ مَا يَشَآءُ وَيَخْتَارُ﴾ [القصص:٦٨]، وَقَالَ تَعَالَى: ﴿ٱللَّهُ يَصْطَفِى مِنَ ٱلْمَلَـٰٓئِكَةِ رُسُلًا وَمِنَ ٱلنَّاسِ﴾ [الحج:٧٥]؛ فَالرُّسُلُ هُمْ خَيْرُ الْبَشَرِ وَأَزْكَاهُمْ؛ لِذَا أَمَرَنَا اللهُ بِالتَّأَسِّي بِهِمْ

---

(١) «لسان العرب» (٧/ ٥٤٤- ٥٢٢) مادة: قوم. وانظر: «الصحاح» للجوهري (٤/ ١٦٣٤) ط إحياء التراث العربي، و«النهاية» لابن الأثير (٢/ ٥٠٢)، و«القاموس المحيط» (٤/ ١٨٩) ط التوفيقية.

(٢) هو أيوب بن موسى الحسيني الكفوي الحنفي (أبو البقاء) ولد في كفا بالقرم، وتوفي وهو قاض بالقدس، كان من قضاة الأحناف، عاش وولي القضاء في «كفه» بتركيا، وبالقدس، وببغداد، وعاد إلى استنبول فتوفي بها سنة ١٠٩٤م، ودُفن في تربة خالد.

● راجع: «الأعلام» للزركلي (٢/ ٣٨)، و«معجم المؤلفين» (٣/ ٣١) لعمر كحالة، ط دار إحياء التراث العربي ببيروت.

(٣) «الكليات» (ص: ٧٣١) ط الرسالة. وانظر: «مقاييس اللغة» (٧٥٧) ط الحديث.

فِي أَفْعَالِهِمْ وَأَقْوَالِهِمْ؛ كَمَا قَالَ تَعَالَى: ﴿فَبِهُدَىٰهُمُ ٱقْتَدِهْ﴾[الأنعام:٩٠]، وَقَالَ تَعَالَى: ﴿لَّقَدْ كَانَ لَكُمْ فِي رَسُولِ ٱللَّهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ﴾[الأحزاب:٢١]. لِذَا؛ فَوَاجِبٌ عَلَى الدَّاعِيَةِ أَنْ يَسْتَمْسِكَ بِتِلْكَ الْمُقَوِّمَاتِ؛ وَأَنْ يَتَحَلَّى بِمَا تَحَلَّى وَتَخَلَّقَ بِهِ الْأَنْبِيَاءُ مِنْ أَخْلَاقٍ وَصِفَاتٍ؛ وَأَنْ يَكُونَ قُدْوَةً طَيِّبَةً حَسَنَةً، وَمَثَلًا أَعْلَى؛ لِيَكُونَ نَاجِحًا فِي دَعْوَتِهِ، مُسَدَّدًا فِي تَوْجِيهِهِ وَإِرْشَادِهِ وَوَعْظِهِ وَتَعْلِيمِهِ، مُهْتَدِيًا فِي آرَائِهِ وَأَفْكَارِهِ، وَبِذَلِكَ تُثْمِرُ دَعْوَتُهُ الثِّمَارَ الْيَانِعَةَ الْوَاسِعَةَ، وَتُؤْتِي أُكُلَهَا كُلَّ حِينٍ بِإِذْنِ رَبِّهَا؛ فَمَا أَحْوَجَ الدَّعْوَةَ فِي هَذِهِ الْآوِنَةِ إِلَى دُعَاةٍ أَتْقِيَاءَ أَصْفِيَاءَ يُحَوِّلُونَ الْإِسْلَامَ إِلَى وَاقِعٍ مَلْمُوسٍ فِي دُنْيَا النَّاسِ، فَلَا يَكْفِي أَنْ نَشْهَدَ لِلْإِسْلَام شَهَادَةً قَوْلِيَّةً فَحَسْبُ؛ بَلْ يَجِبُ أَنْ نَشْهَدَ لَهُ شَهَادَةً عَمَلِيَّةً كَمَا شَهِدْنَا لَهُ شَهَادَةً قَوْلِيَّةً، وَكَثِيرًا مَا يَتَأَثَّرُ النَّاسُ بِالْأَفْعَالِ أَكْثَرَ مِنَ الْأَقْوَالِ، وَلِأَنَّ التَّنَاقُضَ بَيْنَ الْقَوْلِ وَالْعَمَلِ يَزْرَعُ بُذُورَ النِّفَاقِ فِي الْقُلُوبِ - عِيَاذًا بِاللهِ تَعَالَى -!!

قَالَ اللهُ تَعَالَى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لِمَ تَقُولُونَ مَا لَا تَفْعَلُونَ ۝٢ كَبُرَ مَقْتًا عِندَ ٱللَّهِ أَن تَقُولُواْ مَا لَا تَفْعَلُونَ﴾[الصف:٢، ٣]، وَقَالَ تَعَالَى: ﴿وَمَنْ أَحْسَنُ قَوْلًا مِّمَّن دَعَآ إِلَى ٱللَّهِ وَعَمِلَ صَٰلِحًا﴾[فصلت:٣٣]؛ فَلَابُدَّ مِنْ مُوَافَقَةِ الْقَوْلِ لِلْعَمَلِ.

وَلَقَدْ كَانَتْ هَذِهِ الْمُقَوِّمَاتُ الْجَلِيلَةُ وَاضِحَةً فِي دَعْوَةِ كُلِّ نَبِيٍّ وَرَسُولٍ، لَكِنَّهَا كَانَتْ أَكْثَرَ وُضُوحًا، وَأَسْطَعَ ضِيَاءً فِي أُسْوَةِ الدُّعَاةِ، وَإِمَامِ التُّقَاةِ ﷺ، وَمِنْ أَهَمِّ وَأَعْظَمِ تِلْكَ الْمُقَوِّمَاتِ - مَا يَلِي:

❊

مُقوِّماتُ المَنْهَجِ الدَّعَوِيِّ

المَبْحَثُ الأَوَّلُ: الإِخْلَاصُ وَالتَّقْوَى

قَالَ تَعَالَى مُخَاطِبًا نَبِيَّهُ ﷺ: ﴿وَادْعُ إِلَىٰ رَبِّكَ ۖ إِنَّكَ لَعَلَىٰ هُدًى مُّسْتَقِيمٍ﴾ [الحج: ٦٧]، وَقَالَ تَعَالَى: ﴿يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ إِنَّا أَرْسَلْنَاكَ شَاهِدًا وَمُبَشِّرًا وَنَذِيرًا ﴿٤٥﴾ وَدَاعِيًا إِلَى اللَّهِ بِإِذْنِهِ وَسِرَاجًا مُّنِيرًا﴾ [الأحزاب: ٤٥، ٤٦]، وَقَالَ الله ﷻ: ﴿وَتَزَوَّدُوا فَإِنَّ خَيْرَ الزَّادِ التَّقْوَىٰ ۚ وَاتَّقُونِ يَا أُولِي الْأَلْبَابِ﴾ [البقرة: ١٩٧]، وَقَالَ تَعَالَى: ﴿وَمَا أُمِرُوا إِلَّا لِيَعْبُدُوا اللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ حُنَفَاءَ﴾ [البينة: ٥]، وَقَالَ تَعَالَى: ﴿أَلَا لِلَّهِ الدِّينُ الْخَالِصُ﴾ [الزمر: ٣].

وَلَا يَعْرِفُ قَدْرَ هَذَا الْمُقَوِّمِ مِنْ مُقَوِّمَاتِ الدَّعْوَةِ إِلَّا مَنْ يُعَانِي مَشَقَّةَ الطَّرِيقِ وَوُعُورَتَهُ، وَتُؤْذِيهِ أَشْوَاكُهُ الَّتِي تَتَجَاذَبُهُ تَارَةً، وَيَنْجُو مِنْهَا تَارَةً أُخْرَى بِفَضْلِ اللهِ جَلَّ وَعَلَا؛ فَهُنَاكَ عَلَى الطَّرِيقِ أَشْوَاكُ الشُّبُهَاتِ وَالشَّهَوَاتِ، وَهُنَاكَ أَشْوَاكُ الْمَطَامِعِ وَالْمَطَامِحِ، وَهُنَاكَ أَشْوَاكُ الْمَخَاوِفِ وَالْهَوَاجِسِ وَالْفِتَنِ.

وَالزَّادُ الَّذِي يَكْشِفُ عَنْ هَذِهِ الشُّبُهَاتِ وَالشَّهَوَاتِ، وَيَسْتَعْلِي بِصَاحِبِهِ عَنْ هَذِهِ الْمَطَامِعِ وَالْمَطَامِحِ، وَيُزِيلُ هَذِهِ الْمَخَاوِفَ وَالْهَوَاجِسَ، وَيُثَبِّتُ صَاحِبَهُ عِنْدَ الْفِتَنِ، وَيُثَبِّتُ الْأَقْدَامَ عَلَى هَذَا الطَّرِيقِ الطَّوِيلِ - وَسْطَ هَذِهِ الْأَشْوَاكِ - دُونَ تَوَقُّفٍ أَوِ انْحِرَافٍ؛ إِنَّمَا هُوَ التَّقْوَى وَالْإِخْلَاصُ.

«وَأَصْلُ التَّقْوَى: أَنْ يَجْعَلَ الْعَبْدُ بَيْنَهُ وَبَيْنَ مَا يَخَافُهُ وَيَحْذَرُهُ وِقَايَةً تَقِيهِ مِنْهُ؛ فَتَقْوَى الْعَبْدِ لِرَبِّهِ أَنْ يَجْعَلَ بَيْنَهُ وَبَيْنَ مَا يَخْشَاهُ مِنْ رَبِّهِ مِنْ غَضَبِهِ وَسَخَطِهِ وَعِقَابِهِ

وِقَايَةً تَقِيهِ مِنْ ذَلِكَ، وَهُوَ فِعْلُ طَاعَتِهِ، وَاجْتِنَابُ مَعَاصِيهِ» (١).

وَحَدُّ التَّقْوَى الَّذِي حَدَّهُ عَبْدُ اللهِ بْنُ مَسْعُودٍ ﷺ هُوَ: «أَنْ يُطَاعَ اللهُ - سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى - فَلَا يُعْصَى، وَيُذْكَرَ فَلَا يُنْسَى، وَأَنْ يُشْكَرَ فَلَا يُكْفَرَ» (٢).

وَعَرَّفَهَا طَلْقُ بْنُ حَبِيبٍ رحمه الله (٣)؛ فَقَالَ: «التَّقْوَى: أَنْ تَعْمَلَ بِطَاعَةِ اللهِ عَلَى نُورٍ مِنَ اللهِ تَرْجُو ثَوَابَ اللهِ، وَأَنْ تَتْرُكَ مَعْصِيَةَ اللهِ عَلَى نُورٍ مِنَ اللهِ تَخَافُ عِقَابَ اللهِ» (٤).

وَجَاءَ سَائِلٌ لِأَبِي هُرَيْرَةَ ﷺ يَسْأَلُهُ عَنِ التَّقْوَى؛ فَقَالَ أَبُو هُرَيْرَةَ: «هَلْ أَخَذْتَ طَرِيقًا ذَا شَوْكٍ؟ قَالَ السَّائِلُ: نَعَمْ، قَالَ أَبُو هُرَيْرَةَ: فَكَيْفَ صَنَعْتَ؟ فَقَالَ السَّائِلُ: إِذَا رَأَيْتُ الشَّوْكَ عَدَلْتُ عَنْهُ، أَوْ جَاوَزْتُهُ، أَوْ قَصُرْتُ عَنْهُ، قَالَ أَبُو هُرَيْرَةَ: ذَاكَ التَّقْوَى» (٥).

---

(١) «جامع العلوم والحكم» لابن رجب الحنبلي (١/ ٣٩٨)، ط مؤسسة الرسالة.

(٢) أخرجه عبد الرزاق في «تفسيره» (١/ ١٢٩)، وابن أبي شيبة في «المصنف» (٧/ ١٠٦)، والحاكم في «المستدرك» (٢/ ٣٢٣)، والطبريُّ في «تفسيره» (٣/ ٣٧٥)، والطبراني في «الكبير» (٨٥٠١)، وأبو نعيم في «الحلية» (٧/ ٢٣٨).

(٣) هو طلق بن حبيب العنزي، بصريٌّ زاهدٌ كبيرٌ، من العلماء العاملين، وكان طيب الصوت بالقرآن، برًّا بوالديه، قال طاوس: «ما رأيت أحدًا أحسن صوتًا منه، وكان ممن يخشى الله تعالى»، وقال أيوب: «ما رأيت أحدًا أعبد من طلق بن حبيب». وقال ابن عيينة: سمعت عبد الكريم يقول: «كان طلق لا يركع إذا افتتح سورة «البقرة» حتى يبلغ «العنكبوت» وكان يقول: أشتهي أن أقوم حتى يشتكي قلبي»، ومات طلق رحمه الله قبل المائة.

● راجع: «السير» (٥/ ٣٦٠-٣٦١)، و«تهذيب التهذيب» (٢/ ٢٤٦).

(٤) أخرجه ابن المبارك (١٣٤٣) ط دار الكتب العلمية. بيروت، وهناد (٥٢٢) ط دار الخلفاء للكتاب الإسلامي؛ الكويت. ١٤٠٦هـ كلاهما في «الزهد»، وابن أبي شيبة في «مصنفه» (٦/ ١٨٢، ١٦٤)، وأبو نعيم في «الحلية» (٣/ ٦٤).

(٥) أخرجه ابن أبي الدنيا في «التقوى» (٦١)، والبيهقي في «الشعب» (٧٣٠١)، وراجع: «جامع العلوم والحكم» لابن رجب (حديث ١٨).

فَأَخَذَ ابْنُ الْمُعْتَزِّ هَذَا الْمَعْنَى الْكَبِيرَ، وَتَرْجَمَهُ فِي هَذِهِ الْأَبْيَاتِ الْمُعَبِّرَةِ؛ فَقَالَ:

خَلِّ الذُّنُوبَ صَغِيرَهَا ... وَكَبِيرَهَا فَهُوَ التُّقَى
وَاصْنَعْ كَمَاشٍ فَوْقَ أَرْ ... ضِ الشَّوْكِ يَحْذَرُ مَا يَرَى
لَا تَحْقِرَنَّ صَغِيرَةً ... إِنَّ الْجِبَالَ مِنَ الْحَصَى (١)

وَلِذَا؛ كَانَتِ التَّقْوَى وَصِيَّةَ الله لِلْأَوَّلِينَ وَالْآخِرِينَ؛ كَمَا فِي قَوْلِهِ - جَلَّ وَعَلَا -: ﴿وَلَقَدْ وَصَّيْنَا ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَـٰبَ مِن قَبْلِكُمْ وَإِيَّاكُمْ أَنِ ٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ﴾ [النساء: ١٣١].

قَالَ الْعَلَّامَةُ الْفَيْرُوزَآبَادِي عَقِبَ هَذِهِ الْآيَةِ: «يُفْهَمُ مِنْهَا أَنَّهُ لَوْ كَانَتْ فِي الْعَالَمِ خَصْلَةٌ هِيَ أَصْلَحَ لِلْعَبْدِ، وَأَجْمَعَ لِلْخَيْرِ، وَأَعْظَمَ لِلْأَجْرِ، وَأَجَلَّ فِي الْعُبُودِيَّةِ، وَأَعْظَمُ فِي الْقَدْرِ، وَأَوْلَى فِي الْحَالِ، وَأَنْجَحَ فِي الْمَآلِ مِنْ هَذِهِ الْخَصْلَةِ لَكَانَ الله سُبْحَانَهُ أَمَرَ بِهَا عِبَادَهُ؛ وَأَوْصَى خَوَاصَّهُ بِذَلِكَ؛ لِكَمَالِ حِكْمَتِهِ وَرَحْمَتِهِ.

فَلَمَّا أَوْصَى بِهَذِهِ الْخَصْلَةِ الْوَاحِدَةِ جَمِيعَ الْأَوَّلِينَ وَالْآخِرِينَ مِنْ عِبَادِهِ، وَاقْتَصَرَ عَلَيْهَا عَلِمْنَا أَنَّهَا الْغَايَةُ الَّتِي لَا مُتَجَاوَزَ عَنْهَا، وَلَا مُقْتَصَرَ دُونَهَا، وَأَنَّهُ عَزَّ وَجَلَّ قَدْ جَمَعَ كُلَّ مَحْضِ نُصْحٍ وَدَلَالَةٍ وَإِرْشَادٍ وَسُنَّةٍ وَتَأْدِيبٍ وَتَعْلِيمٍ وَتَهْذِيبٍ فِي هَذِهِ الْوَصِيَّةِ الْوَاحِدَةِ.

وَقَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿إِنَّمَا يَتَقَبَّلُ ٱللَّهُ مِنَ ٱلْمُتَّقِينَ﴾ [المائدة: ٢٧] يُشْعِرُ بِأَنَّ الْأَمْرَ كُلَّهُ رَاجِعٌ إِلَى التَّقْوَى»(٢).

---

(١) «ديوان ابن المعتز» (٤٥).
(٢) «بصائر ذوي التمييز من لطائف الكتاب العزيز» (٢/ ١١٦).

وَكَانَتِ التَّقْوَى وَصِيَّةَ رَسُولِ اللهِ ﷺ لِجَمِيعِ أُمَّتِهِ؛ كَمَا فِي حَدِيثِ الْعِرْبَاضِ ابْنِ سَارِيَةَ(١) رضي الله عنه وَغَيْرِهِ(٢).

وَلَمْ يَزَلِ السَّلَفُ الصَّالِحُ رضي الله عنهم يَتَوَاصَوْنَ بِهَا، وَمَا أَجْمَلَ مَا أَوْصَى بِهِ ابْنُ السَّمَّاكِ (٣) أَخًا لَهُ قَائِلًا: «أَمَّا بَعْدُ؛ أُوصِيكَ بِتَقْوَى اللهِ الَّذِي هُوَ نَجِيُّكَ فِي سَرِيرَتِكَ، وَرَقِيبُكَ فِي عَلَانِيَتِكَ؛ فَاجْعَلِ اللهَ مِنْ بَالِكَ عَلَى كُلِّ حَالِكَ فِي لَيْلِكَ وَنَهَارِكَ، وَخَفِ اللهَ بِقَدْرِ قُرْبِهِ مِنْكَ وَقُدْرَتِهِ عَلَيْكَ، وَاعْلَمْ أَنَّكَ بِعَيْنِهِ لَيْسَ تَخْرُجُ مِنْ سُلْطَانِهِ إِلَى سُلْطَانِ غَيْرِهِ، وَلَا مِنْ مُلْكِهِ إِلَى مُلْكِ غَيْرِهِ، فَلْيَعْظُمْ مِنْهُ حَذَرُكَ،

---

(١) هو عرباض بن سارية السلمي، أبو نجيح، كان من أهل الصُّفَّةِ، وهو ممن نزل فيه قوله تعالى: ﴿وَلَا عَلَى ٱلَّذِينَ إِذَا مَآ أَتَوْكَ لِتَحْمِلَهُمْ﴾ [التوبة:٩٢]، وكان قديم الإسلام جدًّا، سكن الشام، ومات في فتنة ابن الزبير، بعد سنة خمس وسبعين، وكان شيخًا كبيرًا من الصحابة؛ راجع: «الإصابة» (٤/ ٣٩١)، و«أسد الغابة» (٣/ ٢٤٠)، و«الاستيعاب» (١٠٤٤).

(٢) حديث العرباض؛ أخرجه أحمد (٤/ ١٢٦، ١٢٧) و أبو داود، كتاب السنة، باب في لزوم السنة (٤٦٠٧)، والترمذيُّ، كتاب العلم، باب ما جاء في الأخذ بالسنة (٢٦٧٦) وقال: «حديث حسن صحيح»، وابن ماجه في المقدمة، باب اتباع سنة الخلفاء الراشدين المهديين وغيرهم (٤٢، ٤٤)، والدارمي (٩٥)، وابن حبان (٥)، والحاكم (١/ ١٧٤- ١٧٧)، وصحَّحهُ الألباني في «الصحيحة» (٩٣٧)، و«صحيح الجامع» (٢٥٤٩)، و«الإرواء» (٢٤٥٥)، ونصُّه: عن العرباض رضي الله عنه قال: وَعَظَنَا رَسُول الله ﷺ مَوْعِظَةً بَلِيغَةً، وَجِلَتْ مِنْهَا الْقُلُوبُ، وَذَرَفَتْ مِنْهَا الْعُيُونُ، فَقُلْنَا: يَا رَسُولَ الله، كَأَنَّهَا مَوْعِظَةُ مُوَدِّعٍ؛ فَأَوْصِنَا؛ قَالَ: **«عَلَيْكُمْ بِتَقْوَى الله، وَالسَّمْعِ وَالطَّاعَةِ، وَإِنْ تَأَمَّرَ عَلَيْكُمْ عَبْدٌ؛ وَإِنَّهُ مَنْ يَعِشْ مِنْكُمْ بَعْدِي فَسَيَرَى اخْتِلَافًا كَثِيرًا، فَعَلَيْكُمْ بِسُنَّتِي وَسُنَّةِ الْخُلَفَاءِ الرَّاشِدِينَ الْمَهْدِيِّينَ، عَضُّوا عَلَيْهَا بِالنَّوَاجِذِ، وَإِيَّاكُمْ وَمُحْدَثَاتِ الْأُمُورِ؛ فَإِنَّ كُلَّ بِدْعَةٍ ضَلَالَةٌ»**.

(٣) هو أبو الحسن أحمد بن الحسين بن أحمد بن السماك الواعظ، من أهل بغداد، وكانت له حلقة - في جامع المنصور، وفي جامع المهدي - للوعظ يتكلّم فيه على طريقة أهل التصوف؛ مات في ذي الحجة سنة أربع وعشرين وأربعمائة؛ راجع: «الأنساب» للسمعاني (٣/ ٢٩٠) ط دار الجنان، بيروت، سنة ١٤٠٨ هـ.

وَلْيَكْثُرْ مِنْهُ وَجَلُكَ، وَالسَّلَامُ»(١).

وَرَحِمَ الله مَنْ قَالَ:

إِذَا مَا خَلَوْتَ الدَّهْرَ يَوْمًا فَلَا تَقُلْ ... خَلَوْتُ، وَلَكِنْ قُلْ عَلَيَّ رَقِيبُ

وَلَا تَحْسَبَنَّ الله يَغْفُلُ سَاعَةً ... وَلَا أَنَّ مَا يَخْفَى عَلَيْهِ يَغِيبُ

لَهَوْنَا عَنِ الْأَيَّامِ حَتَّى تَتَابَعَتْ ... عَلَيْنَا ذُنُوبٌ بَعْدَهُنَّ ذُنُوبُ

فَيَا لَيْتَ أَنَّ الله يَغْفِرُ مَا مَضَى ... وَيَأْذَنَ فِي تَوْبَاتِنَا فَنَتُوبُ(٢)

فَإِنْ جَاذَبَتْنَا بَعْضُ أَشْوَاكِ الطَّرِيقِ، وَوَقَعَ مِنَّا تَفْرِيطٌ فِي التَّقْوَى، فَتَرَكْنَا مَأْمُورًا وَفَعَلْنَا مَحْظُورًا - وَهَذَا وَاقِعٌ- فَلَابُدَّ أَنْ نُسْرِعَ بِالتَّوْبَةِ؛ وَأَنْ نَمْحُوَ السَّيِّئَةَ بِالْحَسَنَةِ؛ كَمَا قَالَ الله ﷻ: ﴿وَأَقِمِ ٱلصَّلَوٰةَ طَرَفَيِ ٱلنَّهَارِ وَزُلَفًا مِّنَ ٱلَّيۡلِۚ إِنَّ ٱلۡحَسَنَٰتِ يُذۡهِبۡنَ ٱلسَّيِّـَٔاتِۚ ذَٰلِكَ ذِكۡرَىٰ لِلذَّٰكِرِينَ﴾ [هود: ١١٤].

بَلْ لَقَدْ وَصَفَ الله الْمُتَّقِينَ فِي الْقُرْآنِ الْكَرِيمِ، وَأَخْبَرَنَا أَنَّ مِنْ صِفَاتِهِمْ أَنَّهُمْ إِذَا فَعَلُوا فَاحِشَةً أَوْ ظَلَمُوا أَنْفُسَهُمْ بِمَعْصِيَةٍ مِنَ الْمَعَاصِي الْكَبِيرَةِ أَوِ الصَّغِيرَةِ، تَذَكَّرُوا الله عَقِبَ وُقُوعِهَا؛ فَاسْتَغْفَرُوهُ وَتَابُوا إِلَيْهِ فِي الْحَالِ مِنْ غَيْرِ إِصْرَارٍ وَلَا اسْتِكْبَارٍ؛ فَقَالَ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى: ﴿وَسَارِعُوٓاْ إِلَىٰ مَغۡفِرَةٖ مِّن رَّبِّكُمۡ وَجَنَّةٍ عَرۡضُهَا ٱلسَّمَٰوَٰتُ وَٱلۡأَرۡضُ أُعِدَّتۡ لِلۡمُتَّقِينَ ﴿١٣٣﴾ ٱلَّذِينَ يُنفِقُونَ فِي ٱلسَّرَّآءِ وَٱلضَّرَّآءِ وَٱلۡكَٰظِمِينَ ٱلۡغَيۡظَ وَٱلۡعَافِينَ عَنِ ٱلنَّاسِۗ وَٱللَّهُ يُحِبُّ ٱلۡمُحۡسِنِينَ ﴿١٣٤﴾ وَٱلَّذِينَ إِذَا فَعَلُواْ فَٰحِشَةً أَوۡ ظَلَمُوٓاْ أَنفُسَهُمۡ ذَكَرُواْ ٱللَّهَ فَٱسۡتَغۡفَرُواْ لِذُنُوبِهِمۡ وَمَن يَغۡفِرُ

---

(١) أخرجه أبو نعيم في «الحلية» (٨/ ٢٠٦).

(٢) أخرج هذه الأبيات؛ أبو نعيم في «الحلية» (٩/ ٢٢٠)، والبيهقي في «الشعب» (٥/ ٤٦١) (٧٢٩٢)، والخطيب في «تاريخه» (٥/ ٢٠٥)، وابن عساكر (١٣/ ٤٥٥، ٤٥٦) و (٥١/ ٤١٥)، وانظر: «طبقات الحنابلة» (١/ ٨١) لابن أبي يعلى، و«ديوان أبي العتاهية» (ص:٢٨). ط دار المعرفة بيروت. الطبعة الأولى ١٤٢٧هـ.

﴿ٱلذُّنُوبَ إِلَّا ٱللَّهُ وَلَمْ يُصِرُّواْ عَلَىٰ مَا فَعَلُواْ وَهُمْ يَعْلَمُونَ ﴿١٣٥﴾ أُوْلَٰٓئِكَ جَزَآؤُهُم مَّغْفِرَةٌ مِّن رَّبِّهِمْ وَجَنَّٰتٌ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَا ۚ وَنِعْمَ أَجْرُ ٱلْعَٰمِلِينَ﴾

[آل عمران: ١٣٣-١٣٦].

وَلِذَا؛ كَانَتْ وَصِيَّةُ النَّبِيِّ ﷺ لِمُعَاذِ بْنِ جَبَلٍ رضي الله عنه بَعْدَ التَّقْوَى أَنْ يَمْحُوَ السَّيِّئَةَ بِالْحَسَنَةِ إِنْ وَقَعَتِ السَّيِّئَةُ؛ كَمَا فِي الْحَدِيثِ: «**اتَّقِ اللهَ حَيْثُمَا كُنْتَ، وَأَتْبِعِ السَّيِّئَةَ الْحَسَنَةَ تَمْحُهَا، وَخَالِقِ النَّاسَ بِخُلُقٍ حَسَنٍ**»(١).

وَمِنْ زَادِ التَّقْوَى إِلَى زَادِ الْإِخْلَاصِ؛ فَإِنَّ الْإِخْلَاصَ هُوَ سِرُّ قَبُولِ الْأَعْمَالِ، وَمِفْتَاحُ الْقُلُوبِ لِلدَّاعِيَةِ.

وَقَدْ يَكُونُ عَمَلُ الدَّاعِيَةِ جَلِيلًا عَظِيمًا كَبِيرًا فِي أَعْيُنِ النَّاسِ، وَهُوَ عِنْدَ اللهِ - جَلَّ وَعَلَا- حَقِيرٌ لَا وَزْنَ لَهُ وَلَا قِيمَةَ؛ لِأَنَّ صَاحِبَهُ مَا ابْتَغَى بِهِ وَجْهَ اللهِ - تَعَالَى، وَكَذَلِكَ قَدْ يَكُونُ عَمَلُ الدَّاعِيَةِ صَغِيرًا حَقِيرًا فِي أَعْيُنِ النَّاسِ، وَهُوَ عِنْدَ اللهِ عَظِيمٌ؛ لِأَنَّ صَاحِبَهُ ابْتَغَى بِعَمَلِهِ وَجْهَ اللهِ - جَلَّ وَعَلَا.

وَالنَّبِيُّ ﷺ يَقُولُ: «**إِنَّمَا الْأَعْمَالُ بِالنِّيَّاتِ؛ وَإِنَّمَا لِكُلِّ امْرِئٍ مَا نَوَى**»(٢).

فَلَيْسَ هُنَاكَ عَلَى النَّفْسِ شَيْءٌ أَشَقَّ مِنَ الْإِخْلَاصِ؛ لِأَنَّ الْإِخْلَاصَ هُوَ تَصْفِيَةُ الْعَمَلِ بِصَالِحِ النِّيَّةِ عَنْ جَمِيعِ شَوَائِبِ الشِّرْكِ، وَلَا يَدْخُلُ هُنَا الْعَمَلُ

---

(١) أخرجه الترمذيُّ، كتاب البر والصلة، باب ما جاء في معاشرة الناس (١٩٨٧) وقال: «حسن صحيح»، وأحمد (٥/ ١٥٣، ١٥٨، ١٧٧)، والدارمي (٢٧٩١)، وابن أبي شيبة (٨/ ٣٢٨)، والحاكم (١/ ١٢١)، وصححه على شرطهما، ووافقه الذهبي من حديث أبي ذر رضي الله عنه، وأخرجه أحمد (٥/ ٢٢٨، ٢٣٦)، والترمذيُّ بنفس الرقم عن معاذ رضي الله عنه، وحسنه الألباني في «صحيح الجامع» (٩٧)، و«صحيح الترغيب» (٣١٦٠).

(٢) أخرجه البخاريُّ، كتاب بدء الوحي، باب كيف كان بدء الوحي إلى رسول الله ﷺ؟ (رقم: ١)، ومسلمٌ، كتاب الإمارة، باب قوله ﷺ: «**إِنَّمَا الْأَعْمَالُ بِالنِّيَّةِ**» (١٩٠٧)، واللفظ للبخاري.

الظَّاهِرُ - فَقَطْ - بَلْ وَأَعْمَالُ الْقُلُوبِ أَيْضًا.

وَاللهُ - جَلَّ وَعَلَا - لَا يَقْبَلُ مِنَ الْأَعْمَالِ إِلَّا مَا كَانَ لَهُ خَالِصًا؛ فَفِي الْحَدِيثِ الْقُدُسِيِّ الْجَلِيلِ، عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ رضي الله عنه عَنِ النَّبِيِّ ﷺ قَالَ: «**قَالَ اللهُ تَعَالَى: أَنَا أَغْنَى الشُّرَكَاءِ عَنِ الشِّرْكِ؛ مَنْ عَمِلَ عَمَلًا أَشْرَكَ فِيهِ مَعِي غَيْرِي؛ تَرَكْتُهُ وَشِرْكَهُ**» (١).

وَلَفْظُ ابْنِ مَاجَه: «**فَأَنَا مِنْهُ بَرِيءٌ؛ وَهُوَ لِلَّذِي أَشْرَكَ**» (٢).

وَفِي حَدِيثِ أَبِي هُرَيْرَةَ رضي الله عنه الطَّوِيلِ أَنَّ النَّبِيَّ ﷺ قَالَ: «**إِنَّ أَوَّلَ النَّاسِ يُقْضَى يَوْمَ الْقِيَامَةِ عَلَيْهِ؛ رَجُلٌ اسْتُشْهِدَ فَأُتِيَ بِهِ فَعَرَّفَهُ نِعَمَهُ، فَعَرَفَهَا، قَالَ: فَمَا عَمِلْتَ فِيهَا؟ قَالَ: قَاتَلْتُ فِيكَ حَتَّى اسْتُشْهِدْتُ. قَالَ: كَذَبْتَ؛ وَلَكِنَّكَ قَاتَلْتَ لِأَنْ يُقَالَ: جَرِيءٌ؛ فَقَدْ قِيلَ، ثُمَّ أُمِرَ بِهِ، فَسُحِبَ عَلَى وَجْهِهِ حَتَّى أُلْقِيَ فِي النَّارِ، وَرَجُلٌ تَعَلَّمَ الْعِلْمَ وَعَلَّمَهُ وَقَرَأَ الْقُرْآنَ؛ فَأُتِيَ بِهِ فَعَرَّفَهُ نِعَمَهُ، فَعَرَفَهَا، قَالَ: فَمَا عَمِلْتَ فِيهَا؟ قَالَ: تَعَلَّمْتُ الْعِلْمَ وَعَلَّمْتُهُ، وَقَرَأْتُ فِيكَ الْقُرْآنَ. قَالَ: كَذَبْتَ وَلَكِنَّكَ تَعَلَّمْتَ الْعِلْمَ لِيُقَالَ: عَالِمٌ، وَقَرَأْتَ الْقُرْآنَ لِيُقَالَ: هُوَ قَارِئٌ فَقَدْ قِيلَ، ثُمَّ أُمِرَ بِهِ، فَسُحِبَ عَلَى وَجْهِهِ حَتَّى أُلْقِيَ فِي النَّارِ، وَرَجُلٌ وَسَّعَ اللهُ عَلَيْهِ، وَأَعْطَاهُ مِنْ أَصْنَافِ الْمَالِ كُلِّهِ؛ فَأُتِيَ بِهِ فَعَرَّفَهُ نِعَمَهُ، فَعَرَفَهَا، قَالَ: فَمَا عَمِلْتَ فِيهَا؟ قَالَ: مَا تَرَكْتُ مِنْ سَبِيلٍ تُحِبُّ أَنْ يُنْفَقَ فِيهَا إِلَّا أَنْفَقْتُ فِيهَا لَكَ. قَالَ: كَذَبْتَ وَلَكِنَّكَ فَعَلْتَ لِيُقَالَ: هُوَ جَوَادٌ؛ فَقَدْ قِيلَ، ثُمَّ أُمِرَ بِهِ فَسُحِبَ عَلَى وَجْهِهِ ثُمَّ أُلْقِيَ فِي النَّارِ**» (٣).

فَهَذَا شَهِيدٌ، وَعَالِمٌ، وَقَارِئٌ لِلْقُرْآنِ، وَمُنْفِقٌ سَخِيٌّ!!! هَؤُلَاءِ جَمِيعًا هُمْ أَوَّلُ مَنْ تُسَعَّرُ بِهِمُ النَّارُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ؟!! نَعَمْ؛ لِأَنَّ أَعْمَالَهُمْ لَمْ تَكُنْ خَالِصَةً لله - جَلَّ

---

(١) أخرجه مسلمٌ، كتاب الزهد والرقائق، باب من أشرك في عمله غير الله (٢٩٨٥).

(٢) أخرجه ابن ماجة، كتاب الزهد، باب الرياء والسمعة (٤٢٠٢)، وصححه الألباني في «صحيح الترغيب» (٣٤).

(٣) أخرجه مسلمٌ، كتاب الإمارة، باب من قاتل للرياء والسمعة استحق النار (١٩٠٥).

وَعَلَا - وَفِي الْحَدِيثِ عَنْ أَبِي أُمَامَةَ ﷺ قَالَ: جَاءَ رَجُلٌ إِلَى النَّبِيِّ ﷺ فَقَالَ: أَرَأَيْتَ رَجُلًا غَزَا يَلْتَمِسُ الْأَجْرَ وَالذِّكْرَ مَا لَهُ؟ فَقَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: «**لَا شَيْءَ لَهُ**»، فَأَعَادَهَا ثَلَاثَ مَرَّاتٍ، يَقُولُ لَهُ رَسُولُ اللهِ ﷺ: «**لَا شَيْءَ لَهُ**»، ثُمَّ قَالَ: «**إِنَّ اللهَ لَا يَقْبَلُ مِنَ الْعَمَلِ إِلَّا مَا كَانَ لَهُ خَالِصًا، وَابْتُغِيَ بِهِ وَجْهُهُ**»(١).

يَقُولُ صَاحِبُ «الْإِحْيَاءِ» (٢): «فَقَدْ ظَهَرَ بِالْأَدِلَّةِ وَالْعَيَانِ أَنَّهُ لَا وُصُولَ إِلَى السَّعَادَةِ إِلَّا بِالْعِلْمِ وَالْعِبَادَةِ؛ فَالْعَمَلُ بِغَيْرِ نِيَّةٍ عَنَاءٌ، وَالنِّيَّةُ بِغَيْرِ إِخْلَاصٍ رِيَاءٌ، وَهُوَ لِلنِّفَاقِ كِفَاءٌ، وَمَعَ الْعِصْيَانِ سَوَاءٌ، وَالْإِخْلَاصُ مِنْ غَيْرِ صِدْقٍ وَتَحْقِيقٍ هَبَاءٌ؛ وَقَدْ قَالَ اللهُ تَعَالَى فِي كُلِّ عَمَلٍ كَانَ لِغَيْرِهِ ﴿وَقَدِمْنَآ إِلَىٰ مَا عَمِلُوا۟ مِنْ عَمَلٍ فَجَعَلْنَٰهُ هَبَآءً مَّنثُورًا﴾ [الفرقان: ٢٣]» ا. هـ.

أَلَمْ أَقُلْ لَكُمْ: إِنَّ أَشَقَّ شَيْءٍ عَلَى النَّفْسِ الْإِخْلَاصُ!! فَيَجِبُ عَلَيْنَا جَمِيعًا أَنْ نُحْسِنَ النِّيَّةَ، وَأَنْ نُخْلِصَ الطَّوِيَّةَ، وَأَنْ نَقِفَ وَقْفَةَ صِدْقٍ مَعَ أَنْفُسِنَا؛ لِنُحَاسِبَهَا وَنَسْأَلَهَا عَنْ كُلِّ حَرَكَةٍ وَسَكْنَةٍ عَلَى طُولِ طَرِيقِ الدَّعْوَةِ، وَهَذِهِ أَسْئِلَةٌ أَرْبَعَةٌ تَحْتَاجُ مِنَّا جَوَابًا، بِصِدْقٍ وَإِخْلَاصٍ وَتَقْوَى.

١ - لِمَاذَا نَدْعُو؟

٢ - وَلِمَنْ نَدْعُو؟

٣ - وَعَلَى أَيِّ رَابِطَةٍ نُوَالِي وَنُعَادِي؟

٤ - وَعَلَى أَيِّ شَيْءٍ نُحِبُّ وَنُبْغِضُ؛ وَنُقَرِّبُ وَنُبْعِدُ؟

---

(١) أخرجه النسائيُّ، كتاب الجهاد، باب من غزا يلتمس الأجر والذكر (٣١٤٠)، وفي «الكبرى» (٤٣٤٨)، وقال الحافظ العراقيُّ في «تخريج الإحياء» (٤/ ٢٨): «وإسناده حسن»، وقال المنذريُّ في «الترغيب والترهيب» (١/ ٢٤): «إسناده جيد»، وصحَّحهُ الألباني في «الصحيحة» (٥٢).

(٢) «إحياء علوم الدين» (٤/ ٣٦٢) ط المعرفة، بيروت. بتصرفٍ واختصارٍ.

هَلْ نَدْعُو ابْتِغَاءَ وَجْهِ اللهِ - جَلَّ وَعَلَا؟ أَمْ نَدْعُو وَنَتَحَرَّكُ لِدِينِ اللهِ ابْتِغَاءَ السُّمْعَةِ وَالرِّيَاءِ وَالشُّهْرَةِ؟!! هَلْ نَدْعُو للهِ - جَلَّ وَعَلَا - وَلِرَسُولِهِ ﷺ؟ أَمْ نَدْعُو لِجَمَاعَتِنَا لِأَنَّهَا وَحْدَهَا هِيَ الَّتِي عَلَى الْحَقِّ، وَمَا عَدَاهَا مِنَ الْجَمَاعَاتِ الَّتِي تَعْمَلُ عَلَى السَّاحَةِ كُلِّهَا عَلَى الْبَاطِلِ، وَلَيْسَ هَذَا مَحْضَ افْتِرَاءٍ، وَإِنَّمَا قَرَأْتُهُ بِعَيْنَيَّ فِي بَعْضِ الْكُتُبِ!! أَمْ نَدْعُو لِقَوْمِيَّةٍ، أَوْ عَصَبِيَّةٍ، أَوْ حِزْبِيَّةٍ، أَوْ مَذْهَبِيَّةٍ، أَمْ نَدْعُو لِكُرْسِيٍّ زَائِلٍ وَلِمَنْصِبٍ فَانٍ؟!

هَلْ نُوَالِي مَنْ وَالَى اللهَ وَرَسُولَهُ وَالْمُؤْمِنِينَ كَائِنًا مَنْ كَانَ مِنْ أَيِّ جِنْسِيَّةٍ كَانَ، وَمِنْ أَيِّ بَلَدٍ كَانَ، وَمِنْ أَيِّ جَمَاعَةٍ كَانَ، وَنُعَادِي مَنْ عَادَى اللهَ وَرَسُولَهُ وَالْمُؤْمِنِينَ مِنْ أَيِّ جِنْسِيَّةٍ كَانَ، وَمِنْ أَيِّ بَلَدٍ كَانَ، وَمِنْ أَيِّ جَمَاعَةٍ كَانَ؟! أَمْ أَنَّنَا رَسَمْنَا رُسُومًا، وَسَمَّيْنَا أَسْمَاءً، وَنَصَّبْنَا أَشْخَاصًا نُوَالِي مَنْ وَالَاهَا، وَنُعَادِي مَنْ عَادَاهَا!! هَلْ نُحِبُّ فِي اللهِ، وَنُبْغِضُ فِي اللهِ؛ وَنُقَرِّبُ فِي اللهِ، وَنُبْعِدُ فِي اللهِ؟! أَمْ أَنَّنَا نُحِبُّ وَنُقَرِّبُ مَنْ كَانَ مِنْ أَعْضَاءِ جَمَاعَتِنَا وَمَنْ كَانَ عَلَى مَنْهَجِنَا وَخَطِّنَا، وَنُبْغِضُ وَنُبْعِدُ مَنْ لَمْ يَنْضَوِ تَحْتَ لِوَائِهَا، وَلَمْ يُعْطِ «الْبَيْعَةَ!!!» لِأَمِيرِهَا حَتَّى وَلَوْ كَانَ مُوَحِّدًا للهِ - جَلَّ وَعَلَا- مُجْتَهِدًا لِدِينِ اللهِ، مُتَحَرِّكًا لِدَعْوَةِ النَّاسِ إِلَى الْحَقِّ وَالْهُدَى عَلَى مَنْهَجِ سَلَفِ الْأُمَّةِ!!

أَسْئِلَةٌ مُهِمَّةٌ تَحْتَاجُ إِلَى جَوَابٍ؛ تَحْتَاجُ إِلَى صِدْقٍ مَعَ اللهِ، إِلَى صِدْقٍ مَعَ النَّفْسِ؛ تَحْتَاجُ إِلَى قَلْبٍ تَقِيٍّ نَقِيٍّ، وَإِلَى عَقْلٍ وَاعٍ سَلِيمٍ؛ تَحْتَاجُ إِلَى تَجَرُّدٍ وَإِخْلَاصٍ.

إِنَّ الدُّعَاةَ مِنْ أَهْلِ السُّنَّةِ وَالْجَمَاعَةِ الَّذِينَ دَرَجُوا عَلَى مِنْهَاجِ النُّبُوَّةِ، وَسَلَكُوا طَرِيقَ سَلَفِ الْأُمَّةِ، لَيْسَ لَهُمْ إِمَامٌ أَوْ قَائِدٌ يَنْتَمُونَ إِلَيْهِ، وَيَأْتَمِرُونَ بِأَمْرِهِ كُلِّهِ، وَيَنْتَهُونَ بِنَهْيِهِ كُلِّهِ إِلَّا النَّبِيُّ ﷺ. **قَالَ شَيْخُ الْإِسْلَامِ ابْنُ تَيْمِيَّةَ** رَحِمَهُ اللهُ: «وَلَيْسَ لِأَحَدٍ أَنْ يُنَصِّبَ لِلْأُمَّةِ شَخْصًا يَدْعُو إِلَى طَرِيقَتِهِ، وَيُوَالِي وَيُعَادِي عَلَيْهَا غَيْرَ

النَّبِيِّ ﷺ؛ وَلَا يُنَصِّبَ لَهُمْ كَلَامًا يُوَالَى عَلَيْهِ وَيُعَادَى غَيْرَ كَلَامِ اللهِ وَرَسُولِهِ، وَمَا اجْتَمَعَتْ عَلَيْهِ الْأُمَّةُ؛ بَلْ هَذَا مِنْ فِعْلِ أَهْلِ الْبِدَعِ الَّذِينَ يُنَصِّبُونَ لَهُمْ شَخْصًا أَوْ كَلَامًا يُفَرِّقُونَ بِهِ بَيْنَ الْأُمَّةِ، يُوَالُونَ بِهِ عَلَى ذَلِكَ الْكَلَامِ أَوْ تِلْكَ النِّسْبَةِ، وَيُعَادُونَ»(١).

وَلَيْسَ لَهُمْ رَسْمٌ وَلَا مَنْهَجٌ سِوَى مِنْهَاجِ النُّبُوَّةِ مُتَمَثِّلًا فِي الْقُرْآنِ وَالسُّنَّةِ بِفَهْمِ السَّلَفِ الصَّالِحِ.

وَلَمَّا جَاءَ رَجُلٌ إِلَى الْإِمَامِ مَالِكٍ رحمه الله(٢)فَقَالَ: يَا أَبَا عَبْدِ اللهِ، أَسْأَلُكَ عَنْ مَسْأَلَةٍ أَجْعَلُكَ حُجَّةً فِيمَا بَيْنِي وَبَيْنَ اللهِ عز وجل.

قَالَ مَالِكٌ: «مَا شَاءَ اللهُ لَا قُوَّةَ إِلَّا بِاللهِ؛ سَلْ».

---

(١) «مجموع الفتاوى» (٢٠/ ١٦٤).

(٢) هو شيخ الإسلام، حجة الأمة، إمام دار الهجرة، أبو عبد الله مالك بن أنس بن مالك بن أبي عامر بن عمرو بن الحارث بن غَيمان بن خُثَيل بن عمرو بن الحارث، وهو ذو أصبح بن عوف بن مالك بن زيد بن شداد بن زرعة، وهو حمير الأصغر الحميري، ثم الأصبحي، المدني.
مولده على الأصح سنة ثلاث وتسعين، عام موت أنسٍ خادم رَسُول الله ﷺ، ونشأ في صون ورفاهية وتجمل. وعن ابن عيينة قال: مالكٌ عالم أهل الحجاز، وهو حجة زمانه.
وقال محمد بن إسحاق الثقفي: سألت محمد بن إسماعيل البخاري عن أصح الأسانيد؛ فقال: مالك عن نافع عن ابن عمر رضي الله عنهما. وقال الشافعي- وصدق وبر -: إذا ذُكر العلماء فمالك النجم.
قال مصعب الزبيري: إني أحفظ الناس لموت مالك في صفر سنة تسع وسبعين ومائة، ومالكٌ كان ثقةً مأمونًا ثبتًا ورعًا فقيهًا عالمًا حجةً، وقال إسماعيل بن أبي أويس: تُوفي صبيحة أربع عشرة من شهر ربيع الأول سنة تسع وسبعين، وكان ابن خمس وثمانين سنة؛ قال الواقدي: كان ابن تسعين سنة.
● انظر: «سير أعلام النبلاء» (ترجمة:١٣١٧)، و«تهذيب التهذيب» (٤/ ٦- ٨).

قَالَ: مَنْ أَهْلُ السُّنَّةِ؟

قَالَ مَالِكٌ: «أَهْلُ السُّنَّةِ: الَّذِينَ لَيْسَ لَهُمْ لَقَبٌ يُعْرَفُونَ بِهِ؛ لَا جَهْمِيٌّ، وَلَا قَدَرِيٌّ، وَلَا رَافِضِيٌّ»(١).

وَيَقُولُ الْإِمَامُ ابْنُ الْقَيِّمِ رَحِمَهُ اللَّهُ فِي عَلَامَاتِ أَهْلِ الْعُبُودِيَّةِ(٢):

-الْعَلَامَةُ الثَّانِيَةُ:

قَوْلُهُ: «وَلَمْ يُنْسَبُوا إِلَى اسْمٍ» لَمْ يَشْتَهِرُوا بِاسْمٍ يُعْرَفُونَ بِهِ عِنْدَ النَّاسِ؛ مِنَ الْأَسْمَاءِ الَّتِي صَارَتْ أَعْلَامًا لِأَهْلِ الطَّرِيقِ.

وَأَيْضًا؛ فَإِنَّهُمْ لَمْ يَتَقَيَّدُوا بِعَمَلٍ وَاحِدٍ يَجْرِي عَلَيْهِمُ اسْمُهُ، فَيُعْرَفُونَ بِهِ دُونَ غَيْرِهِ مِنَ الْأَعْمَالِ؛ فَإِنَّ هَذَا آفَةٌ فِي الْعُبُودِيَّةِ، وَهِيَ عُبُودِيَّةٌ مُقَيَّدَةٌ، وَأَمَّا الْعُبُودِيَّةُ الْمُطْلَقَةُ فَلَا يُعْرَفُ صَاحِبُهَا بِاسْمٍ مُعَيَّنٍ مِنْ مَعَانِي أَسْمَائِهَا؛ فَإِنَّهُ مُجِيبٌ لِدَاعِيهَا عَلَى اخْتِلَافِ أَنْوَاعِهَا؛ فَلَهُ مَعَ كُلِّ أَهْلِ عُبُودِيَّةٍ نَصِيبٌ يَضْرِبُ مَعَهُمْ بِسَهْمٍ؛ فَلَا يَتَقَيَّدُ بِرَسْمٍ، وَلَا إِشَارَةٍ، وَلَا اسْمٍ، وَلَا بِزِيٍّ، وَلَا طَرِيقٍ وَضْعِيٍّ اصْطِلَاحِيٍّ، بَلْ إِنْ سُئِلَ عَنْ شَيْخِهِ؟ قَالَ: الرَّسُولُ ﷺ، وَعَنْ طَرِيقِهِ؟ قَالَ: الِاتِّبَاعُ، وَعَنْ خِرْقَتِهِ؟ قَالَ: لِبَاسُ التَّقْوَى، وَعَنْ مَذْهَبِهِ؟ قَالَ: تَحْكِيمُ السُّنَّةِ، وَعَنْ مَقْصِدِهِ وَمَطْلَبِهِ؟ قَالَ: ﴿يُرِيدُونَ وَجْهَهُۥ﴾ [الأنعام: ٥٢]، وَعَنْ رِبَاطِهِ؟ قَالَ: ﴿فِي بُيُوتٍ أَذِنَ ٱللَّهُ أَن تُرْفَعَ وَيُذْكَرَ فِيهَا ٱسْمُهُۥ يُسَبِّحُ لَهُۥ فِيهَا بِٱلْغُدُوِّ وَٱلْآصَالِ ﴿٣٦﴾ رِجَالٌ لَّا تُلْهِيهِمْ تِجَٰرَةٌ وَلَا بَيْعٌ عَن ذِكْرِ ٱللَّهِ وَإِقَامِ ٱلصَّلَوٰةِ وَإِيتَآءِ ٱلزَّكَوٰةِ﴾ [النور: ٣٦، ٣٧].

---

(١) رواه ابن عبد البر في «الانتقاء في فضائل الثلاثة الأئمة الفقهاء» (ص: ٣٥) ط دار الكتب العلمية - بيروت، وانظر: «ترتيب المدارك وتقريب المسالك» للقاضي عياض (١/ ١٧٢). ط مطبعة فضالة المحمدية. المغرب.

(٢) «مدارج السالكين» لابن القيم (٣/ ١٨٢، ١٨٣).

وَإِنْ سُئِلَ عَنْ نَسَبِهِ؟ قَالَ:

أَبِـي الْإِسْـلَامُ لَا أَبَ لِـي سِـوَاهُ ... إِذَا افْتَخَـرُوا بِقَـيْسٍ أَوْ تَمِـيمِ (١)

وَلَيْسَ لَهُمْ طَائِفَةٌ أَوْ جَمَاعَةٌ يَتَعَصَّبُونَ إِلَيْهَا؛ بَلْ إِنَّ جَمَاعَتَهُمُ الَّتِي يَنْتَمُونَ إِلَيْهَا هِيَ جَمَاعَةُ الْمُسْلِمِينَ، «وَجَمَاعَةُ الْمُسْلِمِينَ وَاحِدَةٌ، لَا تَتَعَدَّدُ فَوْقَ أَيِّ أَرْضٍ، وَتَحْتَ أَيِّ سَمَاءٍ؛ لَيْسَ لَهَا رَسْمٌ مُعَيَّنٌ سِوَى النَّصِّ الشَّرْعِيِّ وَمُوجَبِهِ؛ فَهِيَ الدَّعْوَةُ إِلَى اللهِ بِيُسْرِهَا وَسُهُولَةِ تَبْلِيغِهَا كَمَا كَانَتْ فِي الصَّدْرِ الْأَوَّلِ.

وَعَلَيْهِ؛ فَإِنَّ أَيَّ فِرْقَةٍ أَوْ حِزْبٍ أَوْ جَمَاعَةٍ تَعِيشُ تَحْتَ مَظَلَّةِ الْإِسْلَامِ بِاسْمٍ مُعَيَّنٍ أَوْ رَسْمٍ خَاصٍّ؛ فَهِيَ مِنْ جَمَاعَةِ الْمُسْلِمِينَ، وَتَقْتَرِبُ وَتَبْتَعِدُ مِنَ الصِّرَاطِ الْمُسْتَقِيمِ الَّذِي عَلَيْهِ جَمَاعَةُ الْمُسْلِمِينَ بِقَدْرِ مَا لَدَيْهَا مِنْ مَنَاهِجَ وَخُطَطٍ، وَتَصَوُّرَاتٍ يُقِرُّهَا الْإِسْلَامُ أَوْ يَنْفِيهَا.

أَمَّا الَّتِي يَكُونُ انْتِسَابُهَا إِلَى الْإِسْلَامِ تَلْبِيسًا وَظُلْمًا كَالْبَابِيَّةِ وَالْبَهَائِيَّةِ (٢)،

---

(١) نُسِبَ لنهار بن توسعة اليشكري؛ كما في «الكتاب» لسيبويه (٢/ ٢٨٢) ط مكتبة الخانجي القاهرة؛ و«الشعر والشعراء» لابن قتيبة (١/ ٥٢٨) ط دار الحديث القاهرة. و«المخصص» لابن سيده (٤/ ١١١) ط دار إحياء التراث العربي، و«الكامل في اللغة» للمبرد (٣/ ١٣٣) ط الفكر العربي، بيروت.
ونسب البيت أيضًا لعيسى بن عاتك الخطي؛ كما في «معجم الشعراء» للمرزبّاني (ص: ٢٥٨) ط الكتب العلمية، بيروت.
ونسب لسلمان الفارسي - وهو مشهور عنه -؛ كما في «البناية شرح الهداية» للعيني (٥/ ١١٢) ط الكتب العلمية بيروت، و«البصائر والذخائر» لأبي حيان التوحيدي (٨/ ٢٠٧) ط دار صادر، بيروت.

(٢) البابية والبهائية: حركة نبعت من المذهب الشيعي نشأت سنة ١٢٦٠هـ/ ١٨٤٤م. أسسها الميرزا علي محمد رضا الشيرازي. وقد ادَّعى أنه المهدي المنتظر، والباب الموصل للحقيقة الإلهية، ثم ادعى حلول الإلهية في شخصه، وقد حكم عليه بالإعدام سنة ١٢٦٦هـ. وقد صدرت الفتاوى من المجامع العلمية ودار الإفتاء المصرية لخروج البهائية والبابية عن شريعة الإسلام. وكفر أتباعها. (جريدة المدينة – الأحد =

وَالْقَادْيَانِيَّةِ (١)؛ فَهَذِهِ فِرَقٌ كَافِرَةٌ لا دَخْلَ لَهَا تَحْتَ سُرَادِقِ بَحْثِنَا» (٢).

وَيَقْبَلُونَ الْحَقَّ أَيًّا كَانَ قَائِلُهُ، وَيَرْفُضُونَ وَيَرُدُّونَ الْبَاطِلَ أَيًّا كَانَ قَائِلُهُ، فَهُمْ لَا يَعْرِفُونَ الْحَقَّ بِالرِّجَالِ، وَإِنَّمَا يَعْرِفُونَ الرِّجَالَ بِالْحَقِّ؛ فَكُلٌّ يُؤْخَذُ مِنْهُ وَيُرَدُّ عَلَيْهِ إِلَّا الْمَعْصُومُ ﷺ.

هَؤُلَاءِ هُمْ دُعَاةُ أَهْلِ السُّنَّةِ وَالْجَمَاعَةِ وَمَنِ اقْتَفَى أَثَرَهُمْ، وَهَذِهِ سِمَاتُهُمْ إِلَى قِيَامِ السَّاعَةِ؛ وَلِذَا مَاتُوا، وَبَقِيَتْ دَعْوَتُهُمْ عَلَى فَمِ الزَّمَانِ، وَخُلِّدَتْ عَلَى صَفْحَةِ الْأَيَّامِ؛ فَارَقُونَا بِأَبْدَانِهِمْ، وَلَمْ يُفَارِقُونَا بِعِلْمِهِمْ وَهَدْيِهِمْ.

نَعَمْ؛ فَهَلْ نُسِيَ الْبُخَارِيُّ رحمه الله؟! كَلَّا، وَلَنْ يُنْسَى إِلَى قِيَامِ السَّاعَةِ؛ فَلَقَدْ فَارَقَنَا بِجَسَدِهِ، وَبَقِيَ «**صَحِيحُهُ**» كَالشَّمْسِ لِلدُّنْيَا، وَكَالْعَافِيَةِ لِلنَّاسِ، وَكَذَا فَارَقَنَا الْإِمَامُ مُسْلِمٌ، وَبَقِيَ «**صَحِيحُهُ**»، وَفَارَقَنَا مَالِكٌ، وَبَقِيَ «**مُوَطَّؤُهُ**»، وَفَارَقَنَا أَبُو حَنِيفَةَ(٣) وَبَقِيَ فِقْهُهُ، وَفَارَقَنَا الشَّافِعِيُّ وَبَقِيَ «**الرِّسَالَةُ**» وَ«**الْأُمُّ**»، وَفَارَقَنَا أَحْمَدُ وَبَقِيَ

= ٢/ ١١/ ١٣٩٩هـ، ٢٣سبتمبر ١٩٧٩م). انظر: «الموسوعة الميسرة في الأديان والمذاهب والأحزاب المعاصرة» (١/ ٤٠٩).

(١) هي حركة نشأت سنة ١٩٠٠م في القارة الهندية على يد ميرزا غلام أحمد القادياني سنة ١٨٣٩هـ/ ١٩٠٨م، وقد تصدى له ولدعوته الخبيثة الشيخ أبو الوفاء أمير جمعية أهل الحديث بالهند؛ حيث ناظره وأفحم حجته، وكشف طويته، وكفره، وانحراف نحلته.

● انظر: «الموسوعة الميسرة في الأديان والمذاهب والأحزاب المعاصرة» (١/ ٤١٦).

(٢) «حكم الانتماء إلى الفرق والأحزاب والجماعات الإسلامية» للدكتور/ بكر أبو زيد رحمه الله (ص:١١٤).

(٣) هو النعمان بن ثابت التيمي، مولى بني تيم الله بن ثعْلبة، وقيل: إنه من أبناء فارس، عالم العراق، رأى أنسًا، ولد سنة ثمانين؛ قال ابن المبارك: أفقه الناس أبو حنيفة ما رأيت في الفقه مثله، وقال الربيع وحرملة: سمعنا الشافعي يقول: الناس عيال في الفقه على أبي حنيفة، قال أبو نعيم وجماعة: مات سنة خمسين ومائة، وقال ابن معين: مات سنة إحدى وخمسين.

● راجع: «سير أعلام النبلاء» (٩٩٤)، و«تهذيب التهذيب» (٤/ ٢٢٩-٢٣٠).

«مُسْنَدُهُ»، وَغَيْرُهُمْ كَثِيرٌ؛ فَإِنَّ الدَّعْوَةَ أَبْقَى مِنَ الدَّاعِيَةِ، وَإِنَّ الدُّعَاةَ وَالْعُلَمَاءَ جَمِيعًا إِلَى فَنَاءٍ، وَالدَّعْوَةَ إِلَى بَقَاءٍ؛ لِأَنَّ الدُّعَاةَ يَجِيئُونَ وَيَذْهَبُونَ وَتَبْقَى الدَّعْوَةُ عَلَى مَرِّ الْأَجْيَالِ وَالْقُرُونِ، وَمِنْ ثَمَّ؛ فَيَنْبَغِي لِلدُّعَاةِ خَاصَّةً وَلِأَبْنَاءِ الدَّعْوَةِ الْإِسْلَامِيَّةِ عَامَّةً أَنْ يَجْعَلُوا وَلَاءَهُمْ لله - جَلَّ وَعَلَا- لَا لِشَخْصِ الدَّاعِيَةِ، وَهَذَا دَاءٌ عُضَالٌ!! يَجِبُ عَلَيْنَا جَمِيعًا أَنْ نَتَحَرَّرَ مِنْهُ؛ لِأَنَّهُ كَمْ تَوَقَّفَتْ دَعَوَاتٌ، أَوْ تَعَطَّلَتْ بِسَبَبِ ارْتِبَاطِ أَفْرَادِهَا ارْتِبَاطًا مُبَاشِرًا بِشَخْصِ الدَّاعِيَةِ لَا بِدَعْوَتِهِ؛ فَإِذَا مَاتَ هَذَا الدَّاعِيَةُ أَوْ تَرَكَ مَجَالَ دَعْوَتِهِ لِسَبَبٍ أَوْ لِآخَرَ تُصَابُ دَعْوَتُهُ بِالتَّوَقُّفِ، أَوْ بِالْإِعْيَاءِ عَلَى أَقَلِّ حَالٍ!!

وَلِخُطُورَةِ هَذَا الْأَمْرِ أَرَادَ الله - جَلَّ وَعَلَا- أَنْ يُرَبِّيَ الصَّحَابَةَ ﷺ، وَيُعَلِّمَهُمْ هَذَا الدَّرْسَ الْعَظِيمَ فِي حَيَاةِ النَّبِيِّ ﷺ؛ فَفِي غَزْوَةِ أُحُدٍ تَعَرَّضَ النَّبِيُّ - بِأَبِي هُوَ وَأُمِّي ﷺ - لِلْمَوْتِ، وَشُجَّ رَأْسُهُ، وَنَزَفَ دَمُهُ الشَّرِيفُ؛ حَتَّى صَاحَ صَائِحٌ فِي أَرْضِ الْمَعْرَكَةِ قَائِلًا: إِنَّ مُحَمَّدًا ﷺ - قَدْ قُتِلَ (١)، وَهُنَا أَحَسَّ بَعْضُ الْمُسْلِمِينَ أَنَّ أَمْرَ هَذَا الدِّينِ قَدِ انْتَهَى، وَأَنَّهُ لَا جَدْوَى وَلَا فَائِدَةَ إِذَنْ مِنْ قِتَالِ الْمُشْرِكِينَ؛ فَنَزَلَ قَوْلُ الله - جَلَّ وَعَلَا: ﴿وَمَا مُحَمَّدٌ إِلَّا رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِهِ ٱلرُّسُلُ ۚ أَفَإِيْن مَّاتَ أَوْ قُتِلَ ٱنقَلَبْتُمْ عَلَىٰٓ أَعْقَـٰبِكُمْ ۚ وَمَن يَنقَلِبْ عَلَىٰ عَقِبَيْهِ فَلَن يَضُرَّ ٱللَّهَ شَيْـًٔا ۗ وَسَيَجْزِى ٱللَّهُ ٱلشَّـٰكِرِينَ﴾ [آل عمران: ١٤٤].

وَوَعَى أَصْحَابُ النَّبِيِّ ﷺ هَذَا الدَّرْسَ الْكَبِيرَ؛ فَحَمَلُوا الْأَمَانَةَ مِنْ بَعْدِهِ وَكَانُوا أَحَقَّ بِهَا وَأَهْلَهَا، وَرَفَعُوا رَايَةَ التَّوْحِيدِ خَفَّاقَةً عَالِيَةً تُعَانِقُ كَوَاكِبَ

---

(١) أخرجه ابن إسحاق في «السيرة»؛ كما عند ابن هشام (٤/ ٢٥ و٢٦)، ومن طريقه الطبريُّ في «تفسيره» (٨٠٠٩)، وخليفة بن خياط في «تاريخه» (٦) ط القلم، ومؤسسة الرسالة، دمشق، بيروت، والضياء المقدسي في «المختارة» (١/ ٤٤٧) ط مكتبة النهضة الحديثة، بمكة، من حديث الزبير بن العوام رضي الله عنه.
قال الحافظ في «الفتح» (٧/ ٣٦٠): «إسناده حسن»، وصحَّح سنده في «المطالب» (٤/ ٣٠٨)، وقال: «له شاهدٌ في «الصحيح» من حديث البراء رضي الله عنه».

الْجَوْزَاءِ؛ فَهَلْ سَنَعِي الدَّرْسَ نَحْنُ؟!

وَهَلْ سَنَنْطَلِقُ بِهَذِهِ الرَّايَةِ، وَهَذَا الْحِمْلِ الثَّقِيلِ مُخْلِصِينَ لله - جَلَّ وَعَلَا- لَا نَبْغِي غَيْرَهُ، وَلَا نَرْجُو سِوَاهُ؟

حَقًّا؛ إِنَّهُ أَوَّلُ مُقَوِّمٍ يَجِبُ عَلَيْنَا أَنْ نُحَقِّقَهُ قَبْلَ أَنْ نَخْطُوَ عَلَى طَرِيقِ الدَّعْوَةِ الطَّوِيلِ- إِنَّهُ زَادُ التَّقْوَى وَالإِخْلَاصِ- لِمُرَاقَبَةِ الله فِي السِّرِّ وَالْعَلَنِ، وَلْتَكُنْ أَقْوَالُنَا وَأَعْمَالُنَا وَجُهُودُنَا لِلدَّعْوَةِ خَالِصَةً لله - جَلَّ وَعَلَا.

❧ ◊ ☙

المَبْحَثُ الثَّانِي
التَّجَرُّدُ والعَدْلُ والإِنْصَافُ

وَهَذَا هُوَ الْمُقَوِّمُ الثَّانِي مِنْ مُقَوِّمَاتِ الْمَنْهَجِ الدَّعَوِيِّ. ولا شَكَّ أَنَّ الدَّعْوَةَ إِلَى اللهِ وَالدُّعَاةَ فِي حَاجَةٍ مَاسَّةٍ فِي هَذِهِ الظُّرُوفِ الرَّاهِنَةِ إِلَى قُلُوبٍ مُتَجَرِّدَةٍ لله تَعَالَى لَا تَنْظُرُ إِلَى مَتَاعٍ دُنْيَوِيٍّ حَقِيرٍ زَائِلٍ، وَلَا تعْمَلُ مِنْ أَجْلِ الزَّعَامَةِ أَوِ الْقِيَادَةِ أَوِ الصَّدَارَةِ، أَوْ مِنْ أَجْلِ الْجَمَاعَةِ الَّتِي تَنْتَمِي إِلَيْهَا، وَلَوْ كَانَ ذَلِكَ عَلَى حِسَابِ الْمَنْهَجِ الصَّحِيحِ.

إِنَّ الدَّعْوَةَ فِي أَمَسِّ الْحَاجَةِ إِلَى هَذِهِ الْقُلُوبِ الْمُتَجَرِّدَةِ الَّتِي لَا يُهِمُّهَا عَلَى لِسَانِ مَنْ سَتكُونُ كَلِمَةُ الْحَقِّ مَا دَامَتْ كَلِمَةُ الْحَقِّ سَتُقَالُ، وَلَا يُزْعِجُهَا أَبَدًا أَيْنَ مَكَانُهَا عَلَى طَرِيقِ الدَّعْوَةِ الطَّوِيلِ؛ هَلْ هِيَ فِي الصَّدَارَةِ فِي صُفُوفِ الْقَادَةِ أَمْ فِي صُفُوفِ الْجُنُودِ، مَا دَامَتْ فِي الْمَيْدَانِ تَعْمَلُ خَالِصَةً لله - جَلَّ وَعَلَا؟

أَجَلْ؛ إِنَّ الدَّعْوَةَ فِي أَمَسِّ الْحَاجَةِ إِلَى هَذَا الطِّرَازِ مِنَ الدُّعَاةِ مِنْ أَصْحَابِ هَذِهِ الْقُلُوبِ الْمُتَجَرِّدَةِ الَّذِينَ يُقْدِمُونَ حِينَمَا يُحْجِمُ الْآخَرُونَ، وَيَصْبِرُونَ وَيَثْبُتُونَ عِنْدَمَا يَجْزَعُ الْآخَرُونَ، وَيَحْلُمُونَ عِنْدَمَا يَجْهَلُ الْآخَرُونَ، وَيَغْفِرُونَ سَاعَةَ يُخْطِئُ فِي حَقِّهِمُ الْآخَرُونَ، وَلَا يَثْأَرُونَ لِأَنْفُسِهِمْ وَذَوَاتِهِمْ عِنْدَمَا يُسِيءُ إِلَيْهِمُ الْآخَرُونَ.

فَالدَّاعِيَةُ الصَّادِقُ هُوَ الَّذِي يَكُونُ - دَوْمًا - عَبْدًا لله لَا عَبْدًا لِذَاتِهِ وَلَا لِهَوَاهُ؛ وَيَتَحَرَّكُ بِدَعْوَتِهِ خَالِصَةً لله - جَلَّ وَعَلَا- قَائِدًا كَانَ أَوْ جُنْدِيًّا دُونَ تَطَلُّعٍ إِلَى زَعَامَةٍ أَوْ دُنْيَا أَوْ مَتَاعٍ.

وَيَزْدَادُ الْأَمْرُ خَطَرًا إِذَا عَلِمْنَا أَنَّ أَوَّلَ مَنْ تُسَعَّرُ بِهِمُ النَّارُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ هُمْ أَهْلُ الرِّيَاءِ وَالْكَذِبِ عَلَى اللهِ؛ الَّذِينَ يُزَيِّنُونَ لِلنَّاسِ فِي الدُّنْيَا أَنَّهُمْ لَا يَتَحَرَّكُونَ حَرَكَةً

إِلَّا مِنْ أَجْلِ اللهِ، وَهُمْ فِي الْحَقِيقَةِ يَتَحَرَّكُونَ مِنْ أَجْلِ شَهَوَاتِهِمْ، وَأَهْوَائِهِمْ، وَذَوَاتِهِمْ، فَاسْتَحَقُّوا النَّارَ حَتَّى وَلَوْ كَانَ فِيهِمُ الْعَالِمُ الْمُعَلِّمُ، وَالْمُنْفِقُ الْبَاذِلُ، وَالْمُجَاهِدُ الْمُقَاتِلُ!!

لِأَنَّ هَؤُلَاءِ مَا كَانُوا عَبِيدًا للهِ - جَلَّ وَعَلَا- بَلْ كَانُوا عَبِيدًا لِأَنْفُسِهِمْ وَذَوَاتِهِمْ وَشَهَوَاتِهِمُ الْخَفِيَّةِ.

وَفِي الْحَدِيثِ الَّذِي رَوَاهُ الْبُخَارِيُّ عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ رضي الله عنه أَنَّ النَّبِيَّ ﷺ قَالَ: **«تَعِسَ عَبْدُ الدِّينَارِ، وَعَبْدُ الدِّرْهَمِ، وَعَبْدُ الْخَمِيصَةِ، إِنْ أُعْطِيَ رَضِيَ، وَإِنْ لَمْ يُعْطَ سَخِطَ، تَعِسَ وَانْتَكَسَ، وَإِذَا شِيكَ فَلَا انْتَقَشَ، طُوبَى لِعَبْدٍ آخِذٍ بِعِنَانِ فَرَسِهِ فِي سَبِيلِ اللهِ، أَشْعَثَ رَأْسُهُ، مُغْبَرَّةٍ قَدَمَاهُ، إِنْ كَانَ فِي الْحِرَاسَةِ، كَانَ فِي الْحِرَاسَةِ، وَإِنْ كَانَ فِي السَّاقَةِ، كَانَ فِي السَّاقَةِ، وإِنِ اسْتَأْذَنَ لَمْ يُؤْذَنْ لَهُ، وَإِنْ شَفَعَ لَمْ يُشَفَّعْ»**(١).

وَنَقَلَ الْحَافِظُ ابْنُ حَجَرٍ فِي تَعْلِيقِهِ عَلَى هَذَا الْحَدِيثِ الْكَرِيمِ قَوْلَ ابْنِ الْجَوْزِيِّ(٢): «وَالْمَعْنَى أَنَّهُ خَامِلُ الذِّكْرِ، لَا يَقْصِدُ السُّمُوَّ» (٣) ا. هـ.

---

(١) أخرجه البخاريُّ، كتاب الجهاد، باب الحراسة في الغزو في سبيل الله (٢٨٨٦، ٢٨٨٧)، وفى كتاب الرقاق، باب ما يُتقى من فتنة المال (٦٤٣٥).

(٢) هو جمال الدين أبو الفرج عبد الرحمن بن علي بن محمد بن علي بن عبيد الله بن عبد الله ابن حمادي بن أحمد بن محمد بن جعفر بن عبد الله بن القاسم بن النضر بن القاسم بن محمد بن عبد الله بن الفقيه عبد الرحمن بن الفقيه القاسم بن محمد ابن خليفة رَسُول الله ﷺ، أبي بكر الصديق القرشي التيمي، البكري، البغدادي، الحنبلي، واعظ الزمان، صاحب التصانيف، أُخِذَتْ عليه أشياء، ولد سنة تسع أو عشر وخمس مائة، له من المصنفات الكثير؛ منها: «منهاج القاصدين»، و«تلبيس إبليس»، و«زاد المسير»، و«صيد الخاطر»، و«الموضوعات»، وغيرها الكثير؛ تُوفي رحمه الله ليلة الجمعة، الثاني عشر من شهر رمضان بين العشاءين، سنة سبع وتسعين وخمسمائة، وله سبع وثمانون سنة.

● انظر: «سير أعلام النبلاء» (٥٣٦٨)، و«البداية والنهاية» (١٣/ ٩٨- ١٠١)، و«وفيات الأعيان» لابن خلكان (٣/ ١٤٠).

(٣) انظر: «فتح الباري» (٦/ ٩٧).

فَهُوَ مُتَجَرِّدٌ فِي عَمَلِهِ للهِ- جَلَّ وَعَلَا- لَا يُرِيدُ إِلَّا إِيَّاهُ؛ وَلَا يَبْتَغِي إِلَّا رِضَاهُ.

وَمِنْ ثَمَّ؛ فَلَا يَعْنِيهِ فِي أَيِّ مَوْقِعٍ سَيَكُونُ، وَلَا فِي أَيِّ الْخَنَادِقِ سَيُقَاتِلُ؛ لِأَنَّهُ لَا يُرِيدُ تَلْمِيعًا سِيَاسِيًّا وَلَا إِعْلَامِيًّا، وَمَا أَجَلَّهُ مِنْ هَدَفٍ، وَمَا أَعْظَمَهَا مِنْ غَايَةٍ، وَتَاللهِ مَا انْتَصَرَ الْإِسْلَامُ فِي جَمِيعِ مَعَارِكِهِ إِلَّا بِمِثْلِ أَصْحَابِ هَذِهِ الْقُلُوبِ الْحَيَّةِ النَّقِيَّةِ الْمُتَجَرِّدَةِ للهِ - جَلَّ وَعَلَا- الَّتِي لَا تَبْتَغِي بِعَمَلِهَا إِلَّا وَجْهَهُ ﷻ.

وَيَقْفِزُ إِلَى ذِهْنِي الْآنَ مَشْهَدٌ يَتَأَلَّقُ سُمُوًّا وَرَوْعَةً وَجَلَالًا؛ ذَلِكُمُ الْمَشْهَدُ الْمَهِيبُ الْكَرِيمُ الَّذِي يُعَلِّمُهُ لَنَا أَبُو سُلَيْمَانَ سَيْفُ اللهِ الْمَسْلُولُ خَالِدُ بْنُ الْوَلِيدِ(١) رَضِيَ اللهُ عَنْهُ وَأَرْضَاهُ-؛ ذَلِكُمُ الْقَائِدُ الَّذِي حَيَّرَ الْقَادَةَ فِي سَاحَةِ الْوَغَى وَمَيَادِينِ الْبُطُولَةِ وَالْفِدَاءِ؛ ذَلِكُمُ الْقَائِدُ الَّذِي هَابَهُ الْأَبْطَالُ وَالْفُرْسَانُ؛ ذَلِكُمُ الْقَائِدُ الَّذِي لَمْ يُهْزَمْ - بِإِذْنِ اللهِ- فِي مَعْرَكَةٍ قَطُّ، وَهَا هُوَ يَتَنَازَلُ- بِأَمْرِ أَمِيرِ الْمُؤْمِنِينَ عُمَرَ بْنِ الْخَطَّابِ (٢) ﷺ - عَنِ الْقِيَادَةِ فِي غَايَةِ الْحُبِّ وَالرِّضَا لِأَخِيهِ

---

(١) هو خالد بن الوليد بن المغيرة بن عبد الله بن عمرو بن مخزوم أبو سليمان، وقيل: أبو الوليد، القرشي المخزومي، كان أحد أشراف قريش في الجاهلية، وكان إليه أعنة الخيل في الجاهلية، وكان إليه القبة وهي التي كانوا يضربونها يجمعون فيها ما يجهزون به الجيش، والأعنة؛ فإنه كان يكون المقدم على خيول قريش في الحرب، وشهد مع كفار قريش الحروب إلى عمرة الحديبية، ثم أسلم في سنة سبع بعد خيبر، وقيل قبلها، ووهم من زعم أنه أسلم سنة خمس، توفي بحمص من الشام سنة إحدى وعشرين، وقيل: توفي بالمدينة المنورة.

● انظر: «الإصابة» (٢٢٠٦)، و«أسد الغابة» (١٣٩٩)، و«الاستيعاب» (٦٣٨).

(٢) هو عمر بن الخطاب بن نفيل بن عبد العزى بن رياح بن عبد الله بن قرط بن رزاح بن عدي بن كعب بن لؤي القرشي العدوي، أبو حفص، أمير المؤمنين ولد بعد الفيل بثلاث عشرة سنة، وكان إليه السفارة في الجاهلية، وكان عند المبعث شديدًا على المسلمين، ثم أسلم فكان إسلامه فتحًا على المسلمين، وفرجًا لهم من الضيق، له مناقب كثيرة، طُعن عمر ﷺ يوم الأربعاء لأربع ليال بقين من ذي الحجة سنة ثلاث وعشرين، ودفن يوم الأحد صباح هلال المحرم سنة أربع وعشرين، وكانت خلافته عشر سنين وخمسة أشهر وأحدًا وعشرين يومًا، وقيل: كانت خلافته عشر سنين، وستة =

أَمِينِ هَذِهِ الْأُمَّةِ أَبِي عُبَيْدَةَ بْنِ الْجَرَّاحِ (١)؛ لِيَتَحَوَّلَ خَالِدٌ عَلَى الْفَوْرِ إِلَى جُنْدِيٍّ مُخْلِصٍ فِي صُفُوفِ الْجُنُودِ، بَعْدَ أَنْ كَانَ قَائِدًا بِالْأَمْسِ، وَلِيُصْبِحَ جُنْدِيًّا مُطِيعًا بَعْدَ أَنْ كَانَ قَائِدًا مُطَاعًا (٢)؛ فَلَيْسَ الْهَدَفُ مَنِ الَّذِي يَرْفَعُ الرَّايَةَ، وَلَكِنَّ الْهَدَفَ أَنْ تَظَلَّ الرَّايَةُ خَفَّاقَةً عَالِيَةً مَرْفُوعَةً دَائِمًا؛ سَوَاءٌ رَفَعَهَا خَالِدٌ أَوْ أَبُو عُبَيْدَةَ - رَضِيَ اللهُ عَنْهُمْ جَمِيعًا. بِاللهِ هَلْ فِي لُغَةِ الْبَشَرِ مَا نَسْتَطِيعُ أَنْ نُعَبِّرَ بِهِ عَنْ تَجَرُّدِ وَصَفَاءِ وَنَقَاءِ وَإِخْلَاصِ هَؤُلَاءِ الْأَطْهَارِ الَّذِينَ رَبَّاهُمُ النَّبِيُّ الْمُخْتَارُ مُحَمَّدٌ ﷺ؟!!

إِنَّ قَادَةَ الْعَمَلِ الْإِسْلَامِيِّ بِصِفَةٍ خَاصَّةٍ، وَشَبَابَ الدَّعْوَةِ بِصِفَةٍ عَامَّةٍ فِي أَشَدِّ الْحَاجَةِ إِلَى هَذَا الدَّرْسِ الْعَمَلِيِّ الْكَبِيرِ؛ لِنُجَرِّدَ دَعْوَتَنَا وَأَعْمَالَنَا للهِ - جَلَّ وَعَلَا - تَطْبِيقًا عَمَلِيًّا لِقَوْلِ اللهِ ﷻ: ﴿قُلْ إِنَّ صَلَاتِي وَنُسُكِي وَمَحْيَايَ وَمَمَاتِي لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ ﴿١٦٢﴾ لَا شَرِيكَ لَهُ وَبِذَلِكَ أُمِرْتُ وَأَنَا أَوَّلُ الْمُسْلِمِينَ﴾ [الأنعام: ١٦٢، ١٦٣].

وَمِنْ أَرْوَعِ صُوَرِ التَّجَرُّدِ للهِ - جَلَّ وَعَلَا - الْعَدْلُ وَالْإِنْصَافُ فِي التَّعَامُلِ وَالْحُكْمِ عَلَى الْآخَرِينَ حَتَّى وَإِنْ كَانُوا لَكَ مِنَ الْمُخَالِفِينَ.

وَهَذَا مِنْ أَعْظَمِ أَنْوَاعِ الْمُقَوِّمَاتِ الَّتِي نُقَدِّمُهَا، وَالَّتِي يَجِبُ أَنْ يَتَحَلَّى بِهَا

=

أشهر، وخمس ليال، وتوفي وهو ابن ثلاث وستين سنة.

● انظر: «الاستيعاب» (٨٩٦)، و«أسد الغابة» (٣٨٣٠)، و«الإصابة» (٥٧٥٢).

(١) هو عامر بن عبد الله بن الجراح بن هلال بن أهيب، ويقال: وهيب بن ضبة بن الحارث ابن فهر القرشي الفهري، أبو عبيدة بن الجراح، مشهور بكنيته، وبالنسبة إلى جده، أحد العشرة المشهود لهم بالجنة، وهو ممن شهد بدرًا وأحدًا والمشاهد كلها مع رَسُول الله ﷺ، وهو من السابقين الأولين إلى الإسلام، هاجر إلى الحبشة، وإلى المدينة، وهو أمين الأمة، توفي في طاعون عمواس بالشام سنة ثمان عشرة، وعمره ثمان وخمسون سنة، وقيل: عاش إحدى وأربعين سنة.

● راجع: «الإصابة» (٤٤١٧)، و«الاستيعاب» (٢٤٧)، و«أسد الغابة» (٢٧٠٧).

(٢) انظر: «تاريخ الأمم والملوك» للطبري (٢/ ٤٩٢) ط الكتب العلمية، و«تاريخ دمشق» (١٦/ ٢٦٨).

الدُّعَاةُ؛ امْتِثَالًا عَمَلِيًّا لِأَمْرِ الْحَقِّ - جَلَّ وَعَلَا-: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ كُونُواْ قَوَّٰمِينَ لِلَّهِ شُهَدَآءَ بِٱلْقِسْطِۖ وَلَا يَجْرِمَنَّكُمْ شَنَـَٔانُ قَوْمٍ عَلَىٰٓ أَلَّا تَعْدِلُواْۚ ٱعْدِلُواْ هُوَ أَقْرَبُ لِلتَّقْوَىٰۖ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَۚ إِنَّ ٱللَّهَ خَبِيرُۢ بِمَا تَعْمَلُونَ﴾ [المائدة: ٨].

فَدِينُنَا يُوجِبُ عَلَى الْعَبْدِ أَنْ يَكُونَ مُعَظِّمًا لِأَمْرِ اللهِ تَعَالَى، عَدْلًا مَعَ مَنْ يُحِبُّ وَمَنْ يَكْرَهُ، مَعَ أَهْلِ وُدِّهِ وَقَرَابَتِهِ أَوْ مَعَ أَعْدَائِهِ وَأَضْدَادِهِ، يَقُومُ للهِ شَهِيدًا بِالْحَقِّ وَالْعَدْلِ وَلَوْ عَلَى نَفْسِهِ، وَلَا يَحْمِلُهُ بُغْضُهُ عَلَى الْخُرُوجِ عَنِ الْحَقِّ وَالْعَدْلِ وَتَجَاوُزِ الْحَدِّ، وَلَا يُدْخِلُهُ رِضَاهُ فِي الْبَاطِلِ، وَلَا تَمْنَعُهُ الْخُصُومَةُ مِنَ الشَّهَادَةِ لِخَصْمِهِ بِمَا فِيهِ مِنْ خَيْرٍ، فَنَهَى أَهْلَ الْإِيمَانِ عَنْ أَنْ يَحْمِلَهُمُ الْبُغْضُ عَلَى تَرْكِ الْعَدْلِ، ثُمَّ أَمَرَهُمْ بِهِ صَرِيحًا، ثُمَّ ذَكَرَ الْعِلَّةَ فِي قَوْلِهِ: ﴿هُوَ أَقْرَبُ لِلتَّقْوَىٰ﴾؛ فَإِذَا كَانَ الْعَدْلُ وَاجِبًا مَعَ الْأَعْدَاءِ وَالْخُصُومِ؛ فَكَيْفَ بِوُجُوبِهِ مَعَ الْمُؤْمِنِينَ مِنْ أَحْبَابِهِ وَأَوْلِيَائِهِ؟!

«فَلَا عُذْرَ لِمُؤْمِنٍ فِي تَرْكِ الْعَدْلِ وَإِيثَارِهِ عَلَى الْجَوْرِ وَالْمُحَابَاةِ، وَجَعْلِهِ فَوْقَ الْأَهْوَاءِ وَحُظُوظِ الْأَنْفُسِ، وَفَوْقَ الْمَحَبَّةِ وَالْعَدَاوَةِ مَهْمَا كَانَ سَبَبُهُمَا، فَلَا يَتَوَهَّمَنَّ مُتَوَهِّمٌ أَنَّهُ يَجُوزُ تَرْكُ الْعَدْلِ فِي الشَّهَادَةِ لِلْكَافِرِ أَوِ الْحُكْمُ لَهُ بِحَقِّهِ عَلَى الْمُؤْمِنِ، فَلَمْ يَكْتَفِ رَبُّ الْعِزَّةِ - جَلَّ وعَلَا - بِالتَّحْذِيرِ مِنْ عَدَمِ الْعَدْلِ مَهْمَا كَانَ سَبَبُهُ وَالنِّيَّةُ فِيهِ؛ بَلْ أَكَّدَ أَمْرَهُ بِقَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿ٱعْدِلُواْ هُوَ أَقْرَبُ لِلتَّقْوَىٰ﴾؛ أَيْ: قَدْ فَرَضْتُ عَلَيْكُمُ الْعَدْلَ فَرْضًا لَا هَوَادَةَ فِيهِ؛ اعْدِلُوا هُوَ- أَيِ: الْعَدْلُ الْمَفْهُومُ مِنِ «اعْدِلُوا»- أَقْرَبُ لِتَقْوَى اللهِ؛ أَيْ: لِاتِّقَاءِ عِقَابِهِ وَسَخَطِهِ بِاتِّقَاءِ مَعْصِيَتِهِ، وَهِيَ الْجَوْرُ الَّذِي هُوَ مِنْ أَكْبَرِ الْمَعَاصِي؛ لِمَا يَتَوَلَّدُ مِنْهُ مِنَ الْمَفَاسِدِ: ﴿وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَۚ إِنَّ ٱللَّهَ خَبِيرُۢ بِمَا تَعْمَلُونَ﴾ [المائدة:٨].

أَيْ: لَا يَخْفَى عَلَيْهِ - تَعَالَى - شَيْءٌ مِنْ أَعْمَالِكُمْ ظَاهِرِهَا وَبَاطِنِهَا، وَلَا مِنْ نِيَّاتِكُمْ وَحِيَلِكُمْ فِيهَا؛ وَهُوَ الْحَكَمُ الْعَدْلُ الْقَائِمُ بِالْقِسْطِ؛ فَاحْذَرُوا أَنْ يَجْزِيَكُمْ بِالْعَدْلِ عَلَى تَرْكِكُمُ الْعَدْلَ؛ فَقَدْ مَضَتْ سُنَّتُهُ الْعَادِلَةُ فِي خَلْقِهِ بِأَنَّ جَزَاءَ تَرْكِ

الْعَدْلِ وَعَدَم إِقَامَةِ الْقِسْطِ فِي الدُّنْيَا هُوَ ذُلُّ الْأُمَّةِ، وَهَوَانُهَا، وَاعْتِدَاءُ غَيْرِهَا مِنَ الْأُمَمِ عَلَى اسْتِقْلَالِهَا، وَلَجَزَاءُ الْآخِرَةِ أَذَلُّ، وَأَخْزَى، وَأَشَدُّ، وَأَبْقَى» (١).

وَمِنْ ثَمَّ يَقُولُ شَيْخُ الْإِسْلَام ابْنُ تَيْمِيَّةَ رحمه الله (٢): «وَأُمُورُ النَّاسِ إِنَّمَا تَسْتَقِيمُ فِي الدُّنْيَا مَعَ الْعَدْلِ الَّذِي قَدْ يَكُونُ فِيهِ الاِشْتِرَاكُ فِي بَعْضِ أَنْوَاعِ الْإِثْمِ أَكْثَرَ مِمَّا تَسْتَقِيمُ فِي الدُّنْيَا مَعَ الظُّلْمِ فِي الْحُقُوقِ، وَإِنْ لَمْ يَشْتَرِكْ فِي إِثْمٍ؛ وَلِهَذَا قِيلَ: إِنَّ اللهَ يُقِيمُ الدَّوْلَةَ الْعَادِلَةَ وَإِنْ كَانَتْ كَافِرَةً، وَلَا يُقِيمُ الظَّالِمَةَ وَإِنْ كَانَتْ مُسْلِمَةً، وَيُقَالُ: الدُّنْيَا تَدُومُ مَعَ الْعَدْلِ وَالْكُفْرِ، وَلَا تَدُومُ مَعَ الظُّلْمِ وَالْإِسْلَامِ.. وَذَلِكَ أَنَّ الْعَدْلَ نِظَامُ كُلِّ شَيْءٍ؛ فَإِذَا أُقِيمَ أَمْرُ الدُّنْيَا بِالْعَدْلِ قَامَتْ، وَإِنْ لَمْ يَكُنْ لِصَاحِبِهَا فِي الْآخِرَةِ مِنْ خَلَاقٍ، وَمَتَى لَمْ تَقُمْ بِالْعَدْلِ لَمْ تَقُمْ، وَإِنْ كَانَ لِصَاحِبِهَا مِنَ الْإِيمَانِ مَا يُجْزَى بِهِ فِي الْآخِرَةِ».

وَنَحْنُ نَعِيشُ عَصْرًا عَزَّ فِيهِ الْعَدْلُ وَالْإِنْصَافُ -إِلَّا مَنْ رَحِمَ رَبُّكَ- وَاتُّبِعَ فِيهِ الْهَوَى الَّذِي يُصِمُّ الْآذَانَ عَنْ سَمَاعِ الْحَقِّ، وَيُعْمِي الْأَبْصَارَ عَنْ رُؤْيَةِ الدَّلِيلِ، وَيُضِلُّ أَصْحَابَهُ عَنْ سَوَاءِ السَّبِيلِ!!

وَمِمَّا يُؤْلِمُ الْقَلْبَ أَنَّنَا نَرَى مِنْ بَيْنِ أَبْنَاءِ الدَّعْوَةِ الْإِسْلَامِيَّةِ مَنْ يَغْفُلُ عَنْ هَذَا الْمِيزَانِ الْحَقِّ؛ فَيَمِيلُ فِي أَقْوَالِهِ، وَأَفْعَالِهِ، وَتَعَامُلَاتِهِ، وَأَحْكَامِهِ عَنِ الْعَدْلِ وَالْحَقِّ، فَقَدْ يَتَغَاضَى عَنْ أَخْطَاءِ جَمَاعَتِهِ الَّتِي يَنْتَمِي إِلَيْهَا، وَيَغُضُّ الطَّرْفَ عَنْ أَخْطَاءِ شَيْخِهِ الَّذِي يَأْخُذُ عَنْهُ الْعِلْمَ؛ بَلْ قَدْ يُحَاوِلُ تَبْرِيرَ هَذِهِ الْأَخْطَاءِ، وَمِنْهُمْ مَنْ يُوَصِّلُهَا - أَحْيَانًا- إِلَى مَحَاسِنَ!!!

فَجَمَاعَتُهُ هِيَ جَمَاعَةُ الْمُسْلِمِينَ، وَهِيَ وَحْدَهَا الَّتِي تَسِيرُ عَلَى الْحَقِّ، وَمَا عَدَاهَا مِنَ الْجَمَاعَاتِ فَهِيَ عَلَى الْبَاطِلِ!! وَمِنْ ثَمَّ؛ فَكُلُّ مَا تَقُولُ بِهِ جَمَاعَتُهُ فَهُوَ الصَّحِيحُ- حَتَّى وَإِنْ خَالَفَ الدَّلِيلَ- وَكُلُّ مَا تَفْعَلُهُ جَمَاعَتُهُ؛ فَهُوَ شَرْعِيٌّ، وَكُلُّ

---

(١) انظر: «تفسير المنار» (٦/ ٢٧٤)، ط دار المعرفة.

(٢) «الاستقامة»، بتحقيق محمد رشاد سالم (٢/ ٢٤٧، ٢٤٨).

مَا يَصْدُرُ عَنْهَا مِنِ اجْتِهَادَاتٍ نَظَرِيَّةٍ أَوْ حَرَكِيَّةٍ فَهُوَ صَوَابٌ!!

أَمَّا شَيْخُهُ أَوْ إِمَامُهُ؛ فَهُوَ لَا يَقْبَلُ فِيهِ الْبَتَّةَ نَقْدًا، وَلَوْ كَانَ هَادِفًا أَوْ بَنَّاءً؛ وَلَا يَقْبَلُ لِقَوْلِهِ مُرَاجَعَةً؛ فَهُوَ الْأَوْسَعُ عِلْمًا، وَالْأَنْصَعُ حُجَّةً، وَالْأَقْوَى دَلِيلًا، حَتَّى وَإِنْ لَمْ يَكُنْ لَدَيْهِ دَلِيلٌ يُقْنِعُ، وَلَا عِلْمٌ يُشْبِعُ!!

فَإِنْ قَالَ شَيْخُهُ صَارَ قَوْلُهُ حُجَّةً لَا يَنْبَغِي أَنْ تُنَاقَشَ، وَإِنْ أَصْدَرَ فَتْوَى صَارَتْ فَتْوَاهُ مُلْزِمَةً لَا يَنْبَغِي أَنْ تُرَدَّ؛ بَلْ يُوَالِي وَيُعَادِي عَلَيْهَا، مَعَ أَنَّ اللهَ - جَلَّ وَعَلَا- مَا تَعَبَّدَنَا بِقَوْلِ فُلَانٍ أَوْ فُلَانٍ مِنَ الْأَئِمَّةِ وَالْعُلَمَاءِ، وَإِنَّمَا تَعَبَّدَنَا اللهُ - جَلَّ وَعَلَا- بِمَا جَاءَ فِي كِتَابِهِ، وَمَا صَحَّ عَنْ رَسُولِهِ ﷺ.

وَمِنْ أَرْوَعِ مَا قَالَهُ شَيْخُ الْإِسْلَامِ ابْنُ تَيْمِيَّةَ رَحِمَهُ اللَّهُ فِي هَذَا؛ قَوْلُهُ [1]: «فَإِنَّ أَكْثَرَهُمْ قَدْ صَارَ لَهُمْ فِي ذَلِكَ هَوًى أَنْ يَنْتَصِرَ جَاهُهُمْ أَوْ رِيَاسَتُهُمْ وَمَا نُسِبَ إِلَيْهِمْ، لَا يَقْصِدُونَ أَنْ تَكُونَ كَلِمَةُ اللهِ هِيَ الْعُلْيَا، وَأَنْ يَكُونَ الدِّينُ كُلُّهُ للهِ؛ بَلْ يَغْضَبُونَ عَلَى مَنْ خَالَفَهُمْ، وَإِنْ كَانَ مُجْتَهِدًا مَعْذُورًا لَا يَغْضَبُ اللهُ عَلَيْهِ، وَيَرْضَوْنَ عَمَّنْ يُوَافِقُهُمْ، وَإِنْ كَانَ جَاهِلًا سَيِّئَ الْقَصْدِ لَيْسَ لَهُ عِلْمٌ وَلَا حُسْنُ قَصْدٍ، فَيُفْضِي هَذَا إِلَى أَنْ يَحْمَدُوا مَنْ لَمْ يَحْمَدْهُ اللهُ وَرَسُولُهُ، وَيَذُمُّوا مَنْ لَمْ يَذُمَّهُ اللهُ وَرَسُولُهُ، وَتَصِيرَ مُوَالَاتُهُمْ وَمُعَادَاتُهُمْ عَلَى أَهْوَاءِ أَنْفُسِهِمْ لَا عَلَى دِينِ اللهِ وَرَسُولِهِ، وَهَذَا حَالُ الْكُفَّارِ الَّذِينَ لَا يَطْلُبُونَ إِلَّا أَهْوَاءَهُمْ، وَيَقُولُونَ: هَذَا صَدِيقُنَا وَهَذَا عَدُوُّنَا، لَا يَنْظُرُونَ إِلَى مُوَالَاةِ اللهِ وَرَسُولِهِ وَمُعَادَاةِ اللهِ وَرَسُولِهِ؛ وَمِنْ هُنَا تَنْشَأُ الْفِتَنُ بَيْنَ النَّاسِ» ا. هـ.

ثُمَّ يَقُولُ شَيْخُ الْإِسْلَامِ رَحِمَهُ اللَّهُ فِي مَوْضِعٍ آخَرَ [2]: «وَمَنْ تَعَصَّبَ لِوَاحِدٍ بِعَيْنِهِ مِنَ الْأَئِمَّةِ دُونَ الْبَاقِينَ فَهُوَ بِمَنْزِلَةِ مَنْ تَعَصَّبَ لِوَاحِدٍ بِعَيْنِهِ مِنَ الصَّحَابَةِ دُونَ

---

(١) «منهاج السنة النبوية» (٥/ ٢٥٥) تحقيق: محمد رشاد سالم ط مؤسسة قرطبة ١٤٠٦هـ.

(٢) «مجموع الفتاوى» (٢٢/ ٢٥٢).

الْبَاقِينَ؛ كَالرَّافِضِيِّ الَّذِي يَتَعَصَّبُ لِعَلِيٍّ رضي الله عنه دُونَ الْخُلَفَاءِ الثَّلَاثَةِ وَجُمْهُورِ الصَّحَابَةِ رضي الله عنهم، وَكَالْخَارِجِيِّ الَّذِي يَقْدَحُ فِي عُثْمَانَ وَعَلِيٍّ رضي الله عنهما؛ فَهَذِهِ طُرُقُ أَهْلِ الْبِدَعِ وَالْأَهْوَاءِ الَّذِينَ ثَبَتَ بِالْكِتَابِ وَالسُّنَّةِ وَالْإِجْمَاعِ أَنَّهُمْ مَذْمُومُونَ خَارِجُونَ عَنِ الشَّرِيعَةِ وَالْمِنْهَاجِ الَّذِي بَعَثَ اللهُ بِهِ رَسُولَهُ ﷺ؛ فَمَنْ تَعَصَّبَ لِوَاحِدٍ مِنَ الْأَئِمَّةِ بِعَيْنِهِ فَفِيهِ شَبَهٌ مِنْ هَؤُلَاءِ؛ سَوَاءٌ تَعَصَّبَ لِمَالِكٍ أَوِ الشَّافِعِيِّ أَوْ أَبِي حَنِيفَةَ أَوْ أَحْمَدَ أَوْ غَيْرِهِمْ» ا. هـ.

وَفِي الْمُقَابِلِ قَدْ نَرَى مِنْ بَيْنِ مَنْ يُزَكُّونَ جَمَاعَتَهُمُ الَّتِي يَنْتَمُونَ إِلَيْهَا وَشُيُوخَهُمُ الَّذِينَ يَتَلَقَّوْنَ عَنْهُمْ، قَدْ نَرَى مِنْهُمْ مَنْ إِذَا أَبْغَضَ جَمَاعَةً أُخْرَى أَوْ شَيْخًا آخَرَ جَرَّدَ هَذِهِ الْجَمَاعَةَ مِنْ كُلِّ خَيْرٍ، وَجَرَّدَ هَذَا الشَّيْخَ مِنْ كُلِّ فَضْلٍ، وَلَا يُسَلِّطُ الضَّوْءَ إِلَّا عَلَى سَقَطَاتِهِ وَزَلَّاتِهِ، وَقَدْ يَنْطَلِقُ؛ لِيُشَنِّعَ بِهَا، وَيَدُقَّ بِهَا الطُّبُولَ؛ عِلْمًا بِأَنَّ الْكَمَالَ للهِ وَحْدَهُ، وَالْعِصْمَةَ لِنَبِيِّهِ ﷺ، وَقَدْ قِيلَ: كَفَى الْمَرْءَ نُبْلًا أَنْ تُعَدَّ مَعَايِبُهُ!!

وَأَحْسَنَ اللهُ إِلَى مَنْ قَالَ:

وَعَيْنُ الرِّضَا عَنْ كُلِّ عَيْبٍ كَلِيلَةٌ ... كَمَا أَنَّ عَيْنَ السُّخْطِ تُبْدِي الْمَسَاوِيَا (١)

وَبِالطَّبْعِ لَمْ يَقِفْ هَذَا الْخَلَلُ الْفِكْرِيُّ وَالْقُصُورُ الْمَنْهَجِيُّ عِنْدَ هَذَا الْحَدِّ فَحَسْبُ؛ بَلْ تَعَدَّاهُ إِلَى مَا كُنَّا نَخَافُهُ وَنَخْشَاهُ مِنْ وُقُوعِ التَّنَازُعِ وَالتَّبَاغُضِ وَالتَّقَاطُعِ؛ بَلِ الْعَدَاءِ بَيْنَ أَبْنَاءِ الدَّعْوَةِ الْإِسْلَامِيَّةِ الَّتِي تَعْمَلُ فِي السَّاحَةِ، وَهَذَا وَاقِعٌ مُرٌّ أَلِيمٌ مُشَاهَدٌ مَحْسُوسٌ، لَا يُنْكِرُهُ إِلَّا مَنْ حَبَسَ نَفْسَهُ فِي مَكْتَبٍ مُكَيَّفٍ، أَوْ جَلَسَ يَنْظُرُ لِلدَّعْوَةِ مِنْ بُرْجٍ عَاجِيٍّ!!

وَمِنْ ثَمَّ؛ فَإِنَّ أَبْنَاءَ الدَّعْوَةِ الْإِسْلَامِيَّةِ بِجَمِيعِ فَصَائِلِهَا فِي أَمَسِّ الْحَاجَةِ فِي

---

(١) البيت منسوبٌ لعبد الله بن معاوية بن عبد الله الجعفري؛ كما في كتاب «الحيوان» للجاحظ (٣/ ٤٨٨) ط دار الجيل، سنة ١٤١٦هـ، و«الأغاني» لأبي الفرج الأصبهاني (١٢/ ٢٥٠، ٢٧٢) ط الفكر - بيروت.

هَذَا الظَّرْفِ الْحَرِجِ إِلَى أَنْ تَتَزَوَّدَ بِهَذَا الْمُقَوِّمِ الْجَلِيلِ الْعَظِيمِ: التَّجَرُّدِ وَالْعَدْلِ وَالْإِنْصَافِ وَالرُّجُوعِ الصَّادِقِ الْعَمَلِيِّ إِلَى مَنْهَجِ سَلَفِنَا الصَّالِحِ فِي الْحُكْمِ وَالتَّعَامُلِ مَعَ الْآخَرِينَ حَتَّى وَإِنْ كَانُوا مِنَ الْمُخَالِفِينَ.

وَنَسْتَطِيعُ أَنْ نُقَعِّدَ بَعْضَ الْقَوَاعِدِ الْكُلِّيَّةِ لِهَذَا الْمَنْهَجِ الْقَوِيمِ؛ لِتَكُونَ مِيزَانًا دَقِيقًا لِأَقْوَالِنَا، وَأَفْعَالِنَا، وَأَحْكَامِنَا، وَسَائِرِ مُعَامَلَاتِنَا، وَمِنْهَا مَا يَلِي:

الْقَاعِدَةُ الأُولَى: التَّوَرُّعُ فِي الْقَوْلِ:

وَهَذِهِ قَاعِدَةٌ جَلِيلَةُ الشَّأْنِ قَلَّ مَنْ يَتَنَبَّهُ إِلَيْهَا، وَلَا شَكَّ أَنَّ التَّوَرُّعَ فِي الْقَوْلِ ثَمَرَةٌ مِنْ ثِمَارِ الْمُرَاقَبَةِ وَالْخَوْفِ مِنَ اللهِ - جَلَّ وَعَلَا - وَهِيَ مَرْتَبَةٌ أَشَدُّ مِنَ التَّوَرُّعِ عَنِ الذَّهَبِ وَالْفِضَّةِ؛ **كَمَا يَقُولُ ابْنُ الْقَيِّمِ** رحمه الله [(١)]:

«وَمِنَ الْعَجَبِ أَنَّ الْإِنْسَانَ يَهُونُ عَلَيْهِ التَّحَفُّظُ وَالِاحْتِرَازُ مِنْ أَكْلِ الْحَرَامِ وَالظُّلْمِ وَالزِّنَا وَالسَّرِقَةِ وَشُرْبِ الْخَمْرِ وَمِنَ النَّظَرِ الْمُحَرَّمِ وَغَيْرِ ذَلِكَ، وَيَصْعُبُ عَلَيْهِ التَّحَفُّظُ مِنْ حَرَكَةِ لِسَانِهِ!! حَتَّى يُرَى الرَّجُلُ يُشَارُ إِلَيْهِ بِالدِّينِ وَالزُّهْدِ وَالْعِبَادَةِ، وَهُوَ يَتَكَلَّمُ بِالْكَلِمَةِ مِنْ سَخَطِ اللهِ لَا يُلْقِي لَهَا بَالًا يَنْزِلُ بِهَا أَبْعَدَ مِمَّا بَيْنَ الْمَشْرِقِ وَالْمَغْرِبِ، وَكَمْ تَرَى مِنْ رَجُلٍ مُتَوَرِّعٍ عَنِ الْفَوَاحِشِ وَالظُّلْمِ، وَلِسَانُهُ يَفْرِي فِي أَعْرَاضِ الْأَحْيَاءِ وَالْأَمْوَاتِ لَا يُبَالِي مَا يَقُولُ».

أَجَلْ؛ فَكَمْ مِنَ النَّاسِ يَتَجَرَّأُ عَلَى إِصْدَارِ الْأَحْكَامِ عَلَى الْآخَرِينَ دُونَ وَرَعٍ أَوْ تَبَيُّنٍ أَوْ تَثَبُّتٍ، فَيُجَرِّحُ فُلَانًا، وَيُعَدِّلُ فُلَانًا، وَلَيْتَهُ مِنْ عُلَمَاءِ الْجَرْحِ وَالتَّعْدِيلِ، أَوْ لَيْتَهُ أَلَمَّ عَلَى الْأَقَلِّ بِقَوَاعِدِ هَذَا الْعِلْمِ حَتَّى لَا يَقَعَ فِي جَوْرٍ وَظُلْمٍ؛ بَلْ وَمِنَ النَّاسِ مَنْ تَجَاوَزَ هَذَا بِجَرْأَةٍ مُتَنَاهِيَةٍ، فَجَلَسَ يُكَفِّرُ هَذَا وَهَذَا، وَيَحْكُمُ لِهَذَا بِالْجَنَّةِ، وَلِهَذَا بِالنَّارِ!!

---

(١) «الجواب الكافي لمن سأل عن الدواء الشافي» (ص: ٥٤). ط دار الكتب العلمية، بيروت.

وَهَذَا رَدُّ فِعْلٍ طَبِيعِيٌّ حِينَمَا تَتَفَلَّتُ الْأَلْسِنَةُ مِنْ قُيُودِهَا الشَّرْعِيَّةِ، وَحُدُودِهَا الْمَرْعِيَّةِ الَّتِي حَدَّهَا رَبُّنَا ﷻ وَبَيَّنَهَا نَبِيُّهُ ﷺ، وَلَوْ تَأَمَّلَ الْعَاقِلُ فِي بَعْضِ مَا وَرَدَ مِنَ النُّصُوصِ الَّتِي وَرَدَتْ بِشَأْنِ خُطُورَةِ الْكَلِمَةِ لَتَوَقَّفَ أَلْفَ مَرَّةٍ قَبْلَ أَنْ يَنْطِقَ بِالْكَلَامِ مَرَّةً، وَقَبْلَ أَنْ يَرْمِيَ بِهِ هُنَا وَهُنَاكَ وَهُنَالِكَ؛ وَإِلَيْكَ بَعْضَهَا:

يَقُولُ اللهُ ﷻ: ﴿مَا يَلْفِظُ مِن قَوْلٍ إِلَّا لَدَيْهِ رَقِيبٌ عَتِيدٌ﴾ [ق: ١٨].

وَفِي «الصَّحِيحَيْنِ» (١) مِنْ حَدِيثِ أَبِي هُرَيْرَةَ رضي الله عنه أَنَّ النَّبِيَّ ﷺ قَالَ: «**مَنْ كَانَ يُؤْمِنُ بِاللهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ فَلْيَقُلْ خَيْرًا أَوْ لِيَصْمُتْ**».

وَفِي حَدِيثِ مُعَاذِ بْنِ جَبَلٍ رضي الله عنه الطَّوِيلِ أَنَّ النَّبِيَّ ﷺ قَالَ لِمُعَاذٍ: «**أَلَا أُخْبِرُكَ بِمَلَاكِ ذَلِكَ كُلِّهِ؟**» قُلْتُ: بَلَى يَا رَسُولَ اللهِ؛ فَأَخَذَ بِلِسَانِهِ ثُمَّ قَالَ: «**كُفَّ عَلَيْكَ هَذَا**»؛ فَقُلْتُ: يَا نَبِيَّ اللهِ، وَإِنَّا لَمُؤَاخَذُونَ بِمَا نَتَكَلَّمُ بِهِ؟ فَقَالَ: «**ثَكِلَتْكَ أُمُّكَ، وَهَلْ يَكُبُّ النَّاسَ فِي النَّارِ عَلَى وُجُوهِهِمْ، أَوْ عَلَى مَنَاخِرِهِمْ إِلَّا حَصَائِدُ أَلْسِنَتِهِمْ**» (٢).

وَفِي «الصَّحِيحَيْنِ» (٣) مِنْ حَدِيثِ أَبِي هُرَيْرَةَ رضي الله عنه عَنِ النَّبِيِّ ﷺ قَالَ: «**إِنَّ الْعَبْدَ لَيَتَكَلَّمُ بِالْكَلِمَةِ مَا يَتَبَيَّنُ مَا فِيهَا، يَهْوِي بِهَا فِي النَّارِ، أَبْعَدَ مَا بَيْنَ الْمَشْرِقِ وَالْمَغْرِبِ**».

---

(١) أخرجه البخاريُّ، كتاب الأدب، باب «مَنْ كَانَ يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ فَلَا يُؤْذِ جَارَهُ» (٦٠١٨)، ومسلمٌ، كتاب الإيمان، باب الحث على إكرام الجار والضيف ولزوم الصمت إلا عن خير (٤٧).

(٢) أخرجه أحمد (٥/ ٢٣١)، والترمذيُّ، كتاب الإيمان، باب ما جاء في حرمة الصلاة (٢٦١٦)، وقال: «حسن صحيح»، وابن ماجه، كتاب الفتن، باب كف اللسان في الفتنة (٣٩٧٣)، وعبد بن حميد في «المنتخب» (١١٢)، والنسائي في «الكبرى» (١١٣٣٠)، وصَحَّحَه الألباني في «الإرواء» (٤١٣)، و«الصحيحة» (٣٢٤٨).

(٣) أخرجه البخاريُّ، كتاب الرقاق، باب حفظ اللسان (٦٤٧٧، ٦٤٨٧)، ومسلمٌ، كتاب الزهد، باب التكلم بالكلمة يهوي بها في النار (٢٩٨٨).

وفي «صحيح» البخاري مِنْ حَدِيْثِ أَبِي هُرَيْرَةَ ﷺ (١) أَنَّ النَّبِيَّ ﷺ قَالَ: «**إِنَّ الْعَبْدَ لَيَتَكَلَّمُ بِالْكَلِمَةِ مِنْ رِضْوَانِ اللهِ لَا يُلْقِي لَهَا بَالًا يَرْفَعُهُ اللهُ بِهَا دَرَجَاتٍ، وَإِنَّ الْعَبْدَ لَيَتَكَلَّمُ بِالْكَلِمَةِ مِنْ سَخَطِ اللهِ لَا يُلْقِي لَهَا بَالًا يَهْوِي بِهَا فِي جَهَنَّمَ**».

وَكَانَ سَلَفُنَا الصَّالِحُ - رِضْوَانُ اللهِ عَلَيْهِمْ- يَعْرِفُونَ خُطُورَةَ الْكَلِمَةِ وَحَصَائِدِ الْأَلْسُنِ، وَفِي الْأَثَرِ الصَّحِيحِ (٢): «أَنَّ عُمَرَ بْنَ الْخَطَّابِ ﷺ دَخَلَ يَوْمًا عَلَى أَبِي بَكْرٍ الصِّدِّيقِ ﷺ وَهُوَ يَجْبِذُ لِسَانَهُ؛ فَقَالَ عُمَرُ: مَهْ؟ غَفَرَ اللهُ لَكَ؛ فَقَالَ لَهُ أَبُو بَكْرٍ: إِنَّ هَذَا أَوْرَدَنِي الْمَوَارِدَ».

وَمَا أَدَقَّ مَا قَالَهُ الْعَلَّامَةُ ابْنُ دَقِيقِ الْعِيدِ (٣) ﷺ: «أَعْرَاضُ النَّاسِ حُفْرَةٌ مِنْ

---

(١) أخرجه البخاريُّ، كتاب الرقاق، باب حفظ اللسان (٦٤٧٨).

(٢) أخرجه مالك في «الموطأ»، باب ما جاء فيما يخاف من اللسان (١٥٦٧)، وابن سعد في «الطبقات» (٥/ ١١)، وابن أبي شيبة في «مصنفه» (٦/ ٢٣٧) و(٨/ ٥٧٢)، وأبو نعيم في «الحلية» (١/ ٣٣) و(٩/ ١٧)، والبيهقي في «الشعب» (٤٩٤٧، ٤٩٩٠)، وأبو يعلى في «مسنده» (٥)، والضياء في «المختارة» (١/ ٣)، والبزار في «مسنده» (١/ ١٦٣)، وابن وهب في «جامعه» (٣٠٣، ٣٠٤، ٣٠٥، ٤٤٨)، وأبو داود في «الزهد» (٣٠)، وابن أبي عاصم في «الزهد» (١٨، ١٩) ط الريان للتراث سنة ١٤٠٨هـ، وابن المبارك في «الزهد» (٣٦٩) ط الكتب العلمية، و«الزهد» لأحمد (١١٢)، ولهناد (١٩٠٣) — ط دار الخلفاء للكتاب الإسلامي، الكويت-، ولوكيع (٢٨١)، وصحَّحَهُ الألباني في «الصحيحة» (٥٣٥).

(٣) هو شيخ الإسلام تقي الدين أبو الفتح محمد بن علي بن وهب بن مطيع بن أبي الطاعة القشيري المنفلوطي الشافعي المالكي المصري، ابن دقيق العيد، ولد في شعبان سنة خمس وعشرين وستمائة، وتفقه على والده بقوص، وكان والده مالكيَّ المذهب، ثم تفقه على الشيخ عز الدين بن عبد السلام، فحقق المذهبين، وأفتى فيهما، وولي قضاء الديار المصرية، وقال الذهبيُّ في «معجمه»: «قاضي القضاة بالديار المصرية، وشيخها، وعالمها الإمام العلامة الحافظ القدوة الورع، شيخ العصر» قال ابن كثير: «وكان قليل الكلام، غزير الفوائد، كثير العلوم، في ديانة ونزاهة، وله شعر رائق، توفي يوم الجمعة حادي عشر شهر صفر، سنة اثنتين وسبعمائة».

=

حُفَرِ النَّارِ وَقَفَ عَلَيْهَا الْمُحَدِّثُونَ وَالْحُكَّامُ» (١).

فَعَلَى كُلِّ مُسْلِمٍ أَنْ يَتَأَمَّلَ كَثِيرًا قَبْلَ أَنْ يُقْدِمَ عَلَى الْكَلَامِ فِي الْآخَرِينَ، وَأَنْ يَسْأَلَ نَفْسَهُ بِصِدْقٍ مَا سَيَكُونُ جَوَابِي عِنْدَ اللهِ - تَعَالَى - يَوْمَ الْقِيَامَةِ إِذَا سَأَلَنِي - جَلَّ وَعَلَا - لِمَاذَا قُلْتَ فِي فُلَانٍ كَذَا وَكَذَا؟ وَمَا الَّذِي دَفَعَكَ إِلَى هَذَا؟!!

هَلْ هُوَ الْإِخْلَاصُ وَالنُّصْحُ الصَّادِقُ للهِ وَرَسُولِهِ ﷺ وَلِلْمُسْلِمِينَ؟ أَمْ لِهَوًى، أَوْ لِحَسَدٍ أَوْ لِبُغْضٍ أَوْ لِغَيْرِ ذَلِكَ؟!

فَلْتَكُنْ عَلَى حَذَرٍ، وَاعْلَمْ بِأَنَّ اللهَ - جَلَّ وَعَلَا - يَعْلَمُ السِّرَّ وَأَخْفَى.

القَاعِدَةُ الثَّانِيَةُ: التَّجَرُّدُ عَنِ الهَوَى:

وَالْهَوَى مِنَ النَّوَازِعِ الْخَفِيَّةِ الَّتِي تَتَسَلَّلُ إِلَى الْقَلْبِ تَدْرِيجِيًّا حَتَّى تُسَيْطِرَ عَلَيْهِ مِنْ حَيْثُ لَا يَشْعُرُ، وَحِينَئِذٍ تَنْقَلِبُ مَوَازِينُهُ، وَمِنْ ثَمَّ يُحَذِّرُ اللهُ تَعَالَى نَبِيًّا كَرِيمًا مِنْ أَنْبِيَائِهِ عَلَيْهِمْ صَلَوَاتُ اللهِ وَسَلَامُهُ مِنْ هَذَا الْمَرَضِ الْخَطِيرِ وَالدَّاءِ الْكَبِيرِ؛ فَيَقُولُ - سُبْحَانَهُ وتَعَالَى -: ﴿يَـٰدَاوُۥدُ إِنَّا جَعَلْنَـٰكَ خَلِيفَةً فِى ٱلْأَرْضِ فَٱحْكُم بَيْنَ ٱلنَّاسِ بِٱلْحَقِّ وَلَا تَتَّبِعِ ٱلْهَوَىٰ فَيُضِلَّكَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ ۚ إِنَّ ٱلَّذِينَ يَضِلُّونَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ لَهُمْ عَذَابٌ شَدِيدٌۢ بِمَا نَسُوا۟ يَوْمَ ٱلْحِسَابِ﴾ [ص: ٢٦].

يَقُولُ شَيْخُ الْإِسْلَامِ ابْنُ تَيْمِيَّةَ رحمه الله (٢): «وَصَاحِبُ الْهَوَى يُعْمِيهِ الْهَوَى وَيُصِمُّهُ؛ فَلَا يَسْتَحْضِرُ مَا للهِ وَلِرَسُولِهِ فِي ذَلِكَ وَلَا يَطْلُبُهُ، وَلَا يَرْضَى لِرِضَا اللهِ وَرَسُولِهِ، وَلَا يَغْضَبُ لِغَضَبِ اللهِ وَرَسُولِهِ؛ بَلْ يَرْضَى إِذَا حَصَّلَ مَا يَرْضَاهُ بِهَوَاهُ، وَيَغْضَبُ إِذَا حَصَّلَ مَا يَغْضَبُ لَهُ بِهَوَاهُ، وَيَكُونُ مَعَ ذَلِكَ مَعَهُ شُبْهَةُ دِينٍ أَنَّ الَّذِي يَرْضَى لَهُ وَيَغْضَبُ لَهُ أَنَّهُ السُّنَّةُ وَأَنَّهُ الْحَقُّ وَهُوَ الدِّينُ؛ فَإِذَا قُدِّرَ أَنَّ الَّذِي مَعَهُ هُوَ

=

● راجع: «البداية والنهاية» (١٤/ ١٠٠)، و«شذرات الذهب» (٦/ ٤ - ٥).

(١) انظر: «طبقات الشافعية الكبرى» للسبكي (٢/ ١٨) ط مكتبة هجر. سنة ١٤١٣هـ.

(٢) «منهاج السنة النبوية» (٥/ ٢٥٦).

الحَقُّ الْمَحْضُ دِينُ الإِسْلَامِ، وَلَمْ يَكُنْ قَصْدُهُ أَنْ يَكُونَ الدِّينُ كُلُّهُ للهِ، وَأَنْ تَكُونَ كَلِمَةُ اللهِ هِيَ الْعُلْيَا؛ بَلْ قَصَدَ الْحَمِيَّةَ لِنَفْسِهِ وَطَائِفَتِهِ أَوِ الرِّيَاءَ؛ لِيُعَظَّمَ هُوَ وَيُثْنَى عَلَيْهِ، أَوْ فَعَلَ ذَلِكَ شَجَاعَةً وَطَبْعًا أَوْ لِغَرَضٍ مِنَ الدُّنْيَا لَمْ يَكُنْ للهِ، وَلَمْ يَكُنْ مُجَاهِدًا فِي سَبِيلِ اللهِ؛ فَكَيْفَ إِذَا كَانَ الَّذِي يَدَّعِي الْحَقَّ وَالسُّنَّةَ هُوَ كَنَظِيرِهِ مَعَهُ حَقٌّ وَبَاطِلٌ وَسُنَّةٌ وَبِدْعَةٌ؛ وَمَعَ خَصْمِهِ حَقٌّ وَبَاطِلٌ وَسُنَّةٌ وَبِدْعَةٌ؟».

وَاللهِ إِنَّهَا كَلِمَاتٌ تَحْتَاجُ إِلَى وَقْفَةٍ مُتَأَنِّيَةٍ طَوِيلَةٍ صَادِقَةٍ؛ فَهِيَ تُعَدُّ أَصْلًا مِنْ أُصُولِ التَّقْوِيمِ وَالْحُكْمِ عَلَى الْآخَرِينَ، وَللهِ دَرُّهُ حِينَمَا يُعَلِّمُنَا أَنَّهُ حَتَّى وَلَوْ كَانَ رَأْيُ الإِنْسَانِ صَحِيحًا، وَلَكِنَّهُ لَمْ يَقْصِدْ بِهِ وَجْهَ اللهِ تَعَالَى، وَلَمْ يُرِدْ بِهِ النُّصْحَ لِلْمُسْلِمِينَ فَإِنَّهُ مَأْزُورٌ غَيْرُ مَأْجُورٍ؛ فَكَيْفَ إِذَا كَانَ حَالُ هَذَا الَّذِي يَحْكُمُ عَلَى غَيْرِهِ كَغَيْرِهِ مَعَهُ حَقٌّ وَبَاطِلٌ، وَسُنَّةٌ وَبِدْعَةٌ؟!!!

وَيَقُولُ تِلْمِيذُهُ ابْنُ الْقَيِّمِ رحمه الله [(١)]: «وَعَلَى الْمُتَكَلِّمِ فِي هَذَا الْبَابِ وَغَيْرِهِ أَنْ يَكُونَ مَصْدَرُ كَلَامِهِ عَنِ الْعِلْمِ بِالْحَقِّ، وَغَايَتُهُ: النَّصِيحَةُ للهِ وَلِكِتَابِهِ وَلِرَسُولِهِ وَلِإِخْوَانِهِ الْمُسْلِمِينَ، وَإِنْ جَعَلَ الْحَقَّ تَبَعًا لِلْهَوَى فَسَدَ الْقَلْبُ وَالْعَمَلُ وَالْحَالُ وَالطَّرِيقُ؛ قَالَ تَعَالَى: ﴿وَلَوِ ٱتَّبَعَ ٱلْحَقُّ أَهْوَآءَهُمْ لَفَسَدَتِ ٱلسَّمَٰوَٰتُ وَٱلْأَرْضُ وَمَن فِيهِنَّ ۚ بَلْ أَتَيْنَٰهُم بِذِكْرِهِمْ فَهُمْ عَن ذِكْرِهِم مُّعْرِضُونَ﴾ [المؤمنون: ٧١].

فَالْعِلْمُ وَالْعَدْلُ أَصْلُ كُلِّ خَيْرٍ، وَالظُّلْمُ وَالْجَهْلُ أَصْلُ كُلِّ شَرٍّ، وَاللهُ تَعَالَى أَرْسَلَ رَسُولَهُ بِالْهُدَى وَدِينِ الْحَقِّ، وَأَمَرَهُ أَنْ يَعْدِلَ بَيْنَ الطَّوَائِفِ، وَلَا يَتَّبِعَ هَوَى أَحَدٍ مِنْهُمْ؛ فَقَالَ تَعَالَى: ﴿فَلِذَٰلِكَ فَٱدْعُ ۖ وَٱسْتَقِمْ كَمَآ أُمِرْتَ ۖ وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَآءَهُمْ ۖ وَقُلْ ءَامَنتُ بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ مِن كِتَٰبٍ ۖ وَأُمِرْتُ لِأَعْدِلَ بَيْنَكُمُ ۖ ٱللَّهُ رَبُّنَا وَرَبُّكُمْ ۖ لَنَآ أَعْمَٰلُنَا وَلَكُمْ أَعْمَٰلُكُمْ ۖ لَا حُجَّةَ بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمُ ۖ ٱللَّهُ يَجْمَعُ بَيْنَنَا ۖ وَإِلَيْهِ ٱلْمَصِيرُ﴾ [الشورى: ١٥]» ا. هـ.

---

(١) «مدارج السالكين» (٣/ ٥٢٢، ٥٢٣).

فَيَجِبُ أَنْ تَكُونَ أَقْوَالُنَا وَأَحْكَامُنَا بِعِلْمٍ وَعَدْلٍ، وَأَنْ يَكُونَ حُبُّنَا وَنُفُورُنَا بِعِلْمٍ وَعَدْلٍ لَا لِمُجَرَّدِ اتِّبَاعِ الْهَوَى الَّذِي بَذَرَ فِي الصُّفُوفِ بُذُورَ الشِّقَاقِ وَالْبَغْضَاءِ وَالتَّنَازُعِ وَالْخِلَافِ، وَمَا أَحْوَجَ الدَّعْوَةَ الْإِسْلَامِيَّةَ فِي هَذِهِ الأَيَّامِ إِلَى هَذَا الْمُقَوِّمِ الْعَظِيمِ إِلَى التَّجَرُّدِ عَنِ الْهَوَى فِي الْأَقْوَالِ وَالْأَعْمَالِ وَالْأَحْكَامِ وَالتَّقْيِيمِ وَغَيْرِهَا؛ لِيَكُونَ الْعَمَلُ خَالِصًا لله مَقْبُولًا؛ امْتِثَالًا عَمَلِيًّا لِأَمْرِ الله جَلَّ وَعَلَا: ﴿وَمَآ أُمِرُوٓاْ إِلَّا لِيَعۡبُدُواْ ٱللَّهَ مُخۡلِصِينَ لَهُ ٱلدِّينَ﴾ [البينة: ٥].

وَكَانَ مِنْ سَلَفِنَا الصَّالِحِ مَنْ يَقُولُ:

«احْذَرُوا مِنَ النَّاسِ صِنْفَيْنِ: صَاحِبَ هَوًى قَدْ فَتَنَهُ هَوَاهُ، وَصَاحِبَ دُنْيَا قَدْ أَعْمَتْهُ دُنْيَاهُ»(١).

وَمِنْ أَجْمَلِ مَا قَالَهُ الْإِمَامُ الْعَلَمُ ابْنُ نَاصِرِ الدِّينِ الدِّمَشْقِيُّ (٢):

---

(١) «اقتضاء الصراط المستقيم» لشيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله (١/ ١٠٥) ط دار المسلم، الرياض، و«إعلام الموقعين» (١/ ١٥٣) لابن القيم، و«إغاثة اللهفان» له (٢/ ١٦٦) ط المعرفة، بيروت. و«الدرر السنية في الأجوبة النجدية» تأليف علماء نجد الأعلام، حققه عبد الرحمن بن محمد بن قاسم، الطبعة السادسة سنة ١٤١٧ هـ، مكتبة المدينة الرقمية.

(٢) هو حافظ دمشق، شمس الدين، أبو عبد الله بن محمد بن أبي بكر عبد الله بن محمد بن أحمد بن مجاهد بن يوسف بن محمد بن أحمد بن علي القيسي الدمشقي الشهير بابن ناصر الدين الشافعي، وقيل: الحنبلي، ولد في أواسط محرم سنة سبع وسبعين وسبعمائة بدمشق، وبها نشأ وحفظ القرآن العزيز وعدة متون، وسمع الحديث في صغره من الحافظ أبي بكر بن المحب، ومهر في الحديث؛ كبير المداراة، شديد الاحتمال، حسن السيرة، لطيف المحاضرة والمحادثة لأهل مجالسه، قليل الوقيعة في الناس، كثير الحياء، قل أن يواجه أحدًا بما يكره ولو آذاه، إمام حافظ مجيد، وفقيه مؤرخ، له الذهن السالم الصحيح، والخط الجيد المليح على طريقة أهل الحديث، مات سنة اثنتين وأربعين وثمانمائة بدمشق.

● راجع: «ذيل تذكرة الحفاظ» (١/ ٣٢١ - ٣٢٢)، و«شذرات الذهب» (٧/ ٢٤٢ - ٢٤٣).

«هَيْهَاتَ هَيْهَاتَ، إِنَّ فِي مَجَالِ الْكَلَامِ فِي الرِّجَالِ عَقَبَاتٍ، مُرْتَقِيهَا عَلَى خَطَرٍ، وَمُرْتَقِبُهَا هَوًى لَا مَنْجَى لَهُ مِنَ الْإِثْمِ وَلَا وَزَرَ؛ فَلَوْ حَاسَبَ نَفْسَهُ الرَّامِي أَخَاهُ: مَا السَّبَبُ الَّذِي هَاجَ ذَلِكَ؟ لَتَحَقَّقَ أَنَّهُ الْهَوَى الَّذِي صَاحِبُهُ هَالِكٌ!» (١).

وَرَحِمَ اللهُ مَنْ قَالَ (٢):

وَكُلُّ امْرِئٍ يَدْرِي مَوَاقِعَ رُشْدِهِ ... وَلَكِنَّهُ أَعْمَى أَسِيرُ هَوَاهُ
يُشِيرُ عَلَيْهِ النَّاصِحُونَ بِجَهْدِهِمْ ... فَيَأْبَى قَبُولَ النُّصْحِ وَهْوَ يَرَاهُ
هَوَى نَفْسِهِ يُعْمِيهِ عَنْ قَصْدِ ... وَيُبْصِرُ عَنْ فَهْمٍ عُيُوبَ سِوَاهُ

لِذَا؛ حَذَّرَنَا النَّبِيُّ ﷺ مِنْ هَذَا الدَّاءِ الْمُهْلِكِ؛ فَفِي الْحَدِيثِ الَّذِي رَوَاهُ الطَّبَرَانِيُّ (٣) فِي «الْأَوْسَطِ» مِنْ حَدِيثِ ابْنِ عُمَرَ رضي الله عنهما أَنَّ النَّبِيَّ ﷺ قَالَ: «ثَلَاثٌ مُهْلِكَاتٌ، وَثَلَاثٌ مُنْجِيَاتٌ، وَثَلَاثٌ كَفَّارَاتٌ، وَثَلَاثٌ دَرَجَاتٌ: فَأَمَّا الْمُهْلِكَاتُ: فَشُحٌّ مُطَاعٌ، وَهَوًى مُتَّبَعٌ، وَإِعْجَابُ الْمَرْءِ بِنَفْسِهِ، وَأَمَّا الْمُنْجِيَاتُ: فَالْعَدْلُ فِي الْغَضَبِ وَالرِّضَا، وَالْقَصْدُ فِي الْفَقْرِ وَالْغِنَى، وَخَشْيَةُ اللهِ - تَعَالَى - فِي السِّرِّ وَالْعَلَانِيَةِ، وَأَمَّا الْكَفَّارَاتُ: فَانْتِظَارُ الصَّلَاةِ بَعْدَ الصَّلَاةِ، وَإِسْبَاغُ الْوُضُوءِ فِي السَّبَرَاتِ، وَنَقْلُ الْأَقْدَامِ إِلَى الْجَمَاعَاتِ، وَأَمَّا الدَّرَجَاتُ: فَإِطْعَامُ الطَّعَامِ، وَإِفْشَاءُ

---

(١) «الرد الوافر» (ص ١٣) ط المكتب الإسلامي، بيروت.

(٢) انظر: «ذم الهوى» لابن الجوزي (ص: ٣٥) ط المنار- القاهرة، و«السير» للذهبي (١٧/ ٣٩٦) - ترجمة الوزير ابن المغربي- (رقم: ٢٥٧).

(٣) هو الإمام الحافظ الثقة الرحال، الجوال، محدث الإسلام، عَلَم المعمَّرين، أبو القاسم سليمان بن أحمد ابن أيوب بن مطير اللخمي، الشامي، الطبراني، صاحب المعاجم الثلاثة، مولده بمدينة عكا في شهر صفر، سنة ستين ومائتين، وقد عاش الطبراني مائة عام وعشرة أشهر، ولم يزل حديث الطبراني رائجًا نافقًا، مرغوبًا فيه، ولاسيما في زمان صاحبه ابن ريذة، وبرع في هذا الشأن، وسمع من ألف شيخ؛ قال أبو نعيم الحافظ: «تُوفي الطبراني لليلتين بقيتا من ذي القعدة، سنة ستين وثلاث مائة بأصبهان».

● راجع: «سير أعلام النبلاء» (٣٢٨٥)، و«البداية والنهاية» (١٢/ ٢٥٥).

السَّلَامِ، وَالصَّلَاةُ بِاللَّيْلِ وَالنَّاسُ نِيَامٌ» (١).

وَهَكَذَا جَعَلَ النَّبِيُّ ﷺ الْهَوَى سَبَبًا مِنْ أَسْبَابِ الْهَلَاكِ - وَالْعِيَاذُ بِاللهِ- فَقَدْ يَكُونُ الْهَوَى فِي الْعِلْمِ، فَيَخْرُجُ بِصَاحِبِهِ إِلَى ضِدِّ مَا يَأْمُرُ بِهِ الْعِلْمُ، وَقَدْ يَكُونُ فِي الزُّهْدِ، فَيَخْرُجُ إِلَى الرِّيَاءِ.. وَهَكَذَا.

وَهُنَا قَدْ يَسْأَلُ الْمُخْلِصُونَ وَالصَّادِقُونَ: فَمَا الْعِلَاجُ؟ وَكَيْفَ يَتَخَلَّصُ وَيَنْجُو مَنِ ابْتُلِيَ بِهَذَا الدَّاءِ؟!!

وَالْجَوَابُ مِنَ الْإِمَامِ ابْنِ الْجَوْزِيِّ رحمه الله: «بِالصَّبْرِ وَالْمُجَاهَدَةِ، وَيُهَوِّنُهُمَا عِدَّةُ أَشْيَاءَ؛ مِنْهَا:

أولاً: التَّفَكُّرُ فِي أَنَّ الْإِنْسَانَ لَمْ يُخْلَقْ لِلْهَوَى.

ثانيًا: أَنْ يُفَكِّرَ فِي عَوَاقِبِ الْهَوَى؛ فَكَمْ قَدْ أَفَاتَ مِنْ فَضِيلَةٍ، وَكَمْ قَدْ أَوْقَعَ فِي رَذِيلَةٍ، وَكَمْ مِنْ مَطْعَمٍ قَدْ أَوْقَعَ فِي مَرَضٍ، وَكَمْ مِنْ زَلَّةٍ أَوْجَبَتِ انْكِسَارَ جَاهٍ، وَقُبْحَ ذِكْرٍ مَعَ إِثْمٍ!! غَيْرَ أَنَّ صَاحِبَ الْهَوَى لَا يَرَى إِلَّا الْهَوَى!

ثالثًا: أَنْ يَتَصَوَّرَ الْعَاقِلُ انْقِضَاءَ غَرَضِهِ مِنْ هَوَاهُ، ثُمَّ يَتَصَوَّرُ الْأَذَى الْحَاصِلَ عَقِبَ اللَّذَّةِ؛ فَإِنَّهُ يَرَاهُ يَرْبُو عَلَى الْهَوَى أَضْعَافًا.

رابعًا: أَنْ يَتَدَبَّرَ عِزَّ الْغَلَبَةِ وَذُلَّ الْقَهْرِ؛ فَإِنَّهُ مَا مِنْ أَحَدٍ غَلَبَ هَوَاهُ إِلَّا أَحَسَّ بِقُوَّةِ عِزٍّ، وَمَا مِنْ أَحَدٍ غَلَبَهُ هَوَاهُ إِلَّا وَجَدَ فِي نَفْسِهِ ذُلَّ الْقَهْرِ.

خامسًا: أَنْ يَتَفَكَّرَ فِي فَائِدَةِ الْمُخَالَفَةِ لِلْهَوَى مِنِ اكْتِسَابِ الذِّكْرِ الْجَمِيلِ فِي الدُّنْيَا، وَسَلَامَةِ النَّفْسِ وَالْعِرْضِ، وَالْأَجْرِ فِي الْآخِرَةِ، ثُمَّ يَعْكِسُ، فَيَتَفَكَّرُ لَوْ وَافَقَ هَوَاهُ فِي حُصُولِ عَكْسِ ذَلِكَ إِلَى الْأَبَدِ، وَلْيَفْرِضْ لِهَاتَيْنِ الْحَالَتَيْنِ حَالَتَي آدَمَ

---

(١) أخرجه الطبرانيُّ في «الأوسط» (٥٧٥٤) ط الحرمين؛ قال الهيثميُّ في «المجمع» (١/ ٩١): «وفيه ابن لهيعة ومن لا يعرف»، وللحديث شواهدُ عدَّة؛ لذا حسَّنه بمجموع طرقه الألباني في «السلسلة الصحيحة» (١٨٠٢).

وَيُوسُفَ عليه السلام فِي لَذَّةِ هَذَا وَصَبْرِ هَذَا! فَيَا أَيُّهَا الْأَخُ النَّصُوحُ أَحْضِرْ لِي قَلْبَكَ عِنْدَ هَذِهِ الْكَلِمَاتِ، وَقُلْ لِي بِاللهِ عَلَيْكَ: أَيْنَ لَذَّةُ آدَمَ الَّتِي قَضَاهَا مِنْ هَمَّةِ يُوسُفَ الَّتِي مَا أَمْضَاهَا؟ مَنْ كَانَ يَكُونُ يُوسُفُ لَوْ نَالَ تِلْكَ اللَّذَّةَ؟ فَلَمَّا تَرَكَهَا وَصَبَرَ عَنْهَا بِمُجَاهَدَةِ سَاعَةٍ صَارَ مَنْ قَدْ عَرَفْتَ» (١).

وَأَخْتِمُ لَكَ بِوَاحِدَةٍ أُرَاهَا أَعْظَمَ جُرْعَةِ (٢) دَوَاءٍ لِهَذَا الدَّاءِ؛ أَلَا وَهِيَ: الِاسْتِعَانَةُ الْكَامِلَةُ بِاللهِ - جَلَّ وَعَلَا- الَّذِي لَا يَخِيبُ أَبَدًا مَنْ لَجَأَ إِلَيْهِ صَادِقًا، وَاسْتَعَانَ بِهِ مُخْلِصًا، وَطَلَبَ مِنْهُ الْعَوْنَ وَالْمَدَدَ فِي أَنْ يُعِينَهُ عَلَى هَوَاهُ وَشَهَوَاتِهِ وَنَفْسِهِ الْأَمَّارَةِ بِالسُّوءِ؛ فَإِنَّ الْفَضْلَ كُلَّهُ بِيَدِ اللهِ يُؤْتِيهِ مَنْ يَشَاءُ، وَاللهُ ذُو الْفَضْلِ الْعَظِيمِ؛ فَوَاللهِ مَنْ تَوَكَّلَ عَلَيْهِ كَفَاهُ، وَمَنِ اعْتَصَمَ بِهِ نَجَّاهُ، وَمَنْ فَوَّضَ إِلَيْهِ الْأَمْرَ هَدَاهُ.

فَاحْذَرِ اتِّبَاعَ الْهَوَى؛ فَإِنَّهَا الْقَاصِمَةُ الَّتِي تُصِمُّ الْآذَانَ عَنْ سَمَاعِ الْحَقِّ، وَتُعْمِي الْأَبْصَارَ عَنْ رُؤْيَةِ الدَّلِيلِ، وَلَوْ كَانَ صَحِيحًا!! ﴿وَمَنْ أَضَلُّ مِمَّنِ ٱتَّبَعَ هَوَىٰهُ بِغَيْرِ هُدًى مِّنَ ٱللَّهِ﴾ [القصص: ٥٠].

نَعَمْ؛ فَالْهَوَى مَلِكٌ عَسُوفٌ غَشُومٌ، وَسُلْطَانٌ ظَالِمٌ، دَانَتْ لَهُ الْقُلُوبُ، وَانْقَادَتْ لَهُ الْجَوَارِحُ - إِلَّا مَنْ رَحِمَ رَبُّكَ - جَلَّ وعَلَا -.

وَهَذِهِ الْعَقَبَةُ الْخَطِيرَةُ - اتِّبَاعُ الْهَوَى- تَحْتَاجُ مِنَ الدُّعَاةِ إِلَى صَبْرٍ طَوِيلٍ، وَإِلَى جِهَادٍ مَرِيرٍ لِهَوَى النَّفْسِ وَشَهَوَاتِهَا، وَالِاسْتِعْلَاءِ عَلَى رَغَبَاتِهَا؛ طَاعَةً للهِ، وَطَمَعًا فِي رِضَاهُ، وَهَذَا لَا يَكُونُ إِلَّا بِالتَّجَرُّدِ وَالْإِخْلَاصِ وَالْعَمَلِ؛ ابْتِغَاءَ مَرْضَاةِ اللهِ - جَلَّ وَعَلَا- بِغَضِّ النَّظَرِ عَلَى لِسَانِ مَنْ أُعْلِنَتْ كَلِمَةُ الْحَقِّ مَا دَامَتْ كَلِمَةُ الْحَقِّ سَتُقَالُ، وَبِغَضِّ النَّظَرِ عَنْ مَنِ الَّذِي سَيَرْفَعُ رَايَةَ الْإِسْلَامِ مَا دَامَتْ رَايَةُ

---

(١) «ذم الهوى» لابن الجوزيِّ (ص: ١٩، ٢٠)، ط دار الكتب العلمية.

(٢) تُروى بفتح الجيم وضمها؛ انظر: «اللسان» (٢/ ١٠٠) (مادة: جرع).

الْإِسْلَام سَتظَلُّ مَرْفُوعَةً خَفَّاقَةً عَالِيَةً تُعَانِقُ كَوَاكِبَ الْجَوْزَاءِ، وَبِغَضِّ النَّظَرِ عَنْ مَكَانِنَا عَلَى طَرِيقِ الدَّعْوَةِ، هَلْ هُوَ فِي مَكَانِ الصَّدَارَةِ وَالْقِيَادَةِ أَمْ هُوَ فِي الْمُؤَخِّرَةِ بَيْنَ صُفُوفِ الْجُنُودِ مَا دَامَ عَمَلُنَا عَلَى طُولِ الطَّرِيقِ خَالِصًا لله - جَلَّ وَعَلَا- نَسْأَلُ الله تَعَالَى أَنْ يَجْعَلَ أَعْمَالَنَا وَأَقْوَالَنَا مُوَافِقَةً لِمَرْضَاتِهِ؛ إِنَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ.

وَالْأُمَّةُ فِي أَمَسِّ الْحَاجَةِ - هَذِهِ الْأَيَّامَ- إِلَى دُعَاةٍ تَتَجَمَّعُ عَلَيْهِمُ الْقُلُوبُ، وَتَتَآلَفُ حَوْلَهُمُ النُّفُوسُ؛ دُعَاةٍ يَنْطَلِقُونَ مِنْ فَهْمٍ صَحِيحٍ ثَابِتٍ لِكِتَابِ الله - جَلَّ وَعَلَا- وَسُنَّةِ رَسُولِهِ ﷺ لِتَبْصِرَةِ الْمُسْلِمِينَ بِحَقِيقَةِ دِينِهِمْ مِنْ نَاحِيَةٍ، وَتَحْذِيرِهِمْ مِنَ الْمُؤَامَرَاتِ الَّتِي تُحَاكُ لَهُمْ فِي اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ مِنْ نَاحِيَةٍ أُخْرَى؛ دُعَاةٍ يَتَحَرَّكُونَ بِدَعْوَتِهِمْ خَالِصَةً لله - جَلَّ وَعَلَا- وَحْدَهُ.

لَا يَدْعُونَ إِلَى قَوْمِيَّةٍ أَوْ حِزْبِيَّةٍ أَوْ عَصَبِيَّةٍ.

لَا يَدْعُونَ إِلَى مَصْلَحَةٍ أَوْ غَنِيمَةٍ أَوْ هَوًى.

لَا يَدْعُونَ إِلَى جَمَاعَةٍ وَيُعَادُونَ الْأُخْرَى؛ فَجَمَاعَتُهُمْ هِيَ جَمَاعَةُ الْمُسْلِمِينَ، وَمَنْهَجُهُمْ هُوَ الْقُرْآنُ وَالسُّنَّةُ، وَإِمَامُهُمْ هُوَ إِمَامُ الْهُدَى وَمِصْبَاحُ الدُّجَى مُحَمَّدٌ ﷺ وَمَنْ سَارَ عَلَى دَرْبِهِ مِنَ الْعُلَمَاءِ الْعَامِلِينَ، وَالدُّعَاةِ الصَّادِقِينَ.

نَعَمْ؛ إِنَّ الْأُمَّةَ فِي حَاجَةٍ شَدِيدَةٍ إِلَى هَذَا الصِّنْفِ مِنَ الدُّعَاةِ فِي وَقْتٍ كَثُرَ فِيهِ دُعَاةُ الْبَاطِلِ وَالْهَوَى، الَّذِينَ بَاعُوا دِينَهُمْ بِعَرَضٍ مِنَ الدُّنْيَا حَقِيرٍ.

وَالضَّحِيَّةُ فِي النِّهَايَةِ هِيَ الْأُمَّةُ الْمِسْكِينَةُ الَّتِي تَمَزَّقَتْ وَتَشَرْذَمَتْ خَلْفَ صِيَاحِ الْقَوْمِيِّينَ تَارَةً، وَزُخْرُفِ الِاشْتِرَاكِيِّينَ تَارَةً أُخْرَى، وَنِفَاقِ اللِّيبْرَالِيِّينَ تَارَةً ثَالِثَةً، وَتَدْلِيسِ عُلَمَاءِ الْبَاطِلِ مِنْ نَاحِيَةٍ رَابِعَةٍ، وَالْأَخِيرَةُ هِيَ الْقَاصِمَةُ؛ لِأَنَّ زَلَّةَ الْعَالِمِ زَلَّةُ الْعَالَمِ!! وَلَقَدْ أَبْدَعَ الْإِمَامُ ابْنُ الْقَيِّمِ رَحِمَهُ اللهُ فِي وَصْفِ هَذَا الصِّنْفِ الْخَبِيثِ مِنْ دُعَاةِ الْبَاطِلِ؛ فَقَالَ: «عُلَمَاءُ السُّوءِ جَلَسُوا عَلَى بَابِ الْجَنَّةِ يَدْعُونَ إِلَيْهَا النَّاسَ بِأَقْوَالِهِمْ، وَيَدْعُونَ إِلَى النَّارِ بِأَفْعَالِهِمْ؛ فَكُلَّمَا قَالَتْ أَقْوَالُهُمْ لِلنَّاسِ:

هَلُمُّوا، قَالَتْ أَفْعَالُهُمْ: لَا تَسْمَعُوا مِنْهُمْ؛ فَلَوْ كَانَ مَا دَعَوْا إِلَيْهِ حَقًّا كَانُوا أَوَّلَ الْمُسْتَجِيبِينَ لَهُ؛ فَهُمْ فِي الصُّورَةِ أَدِلَّاءُ، وَفِي الْحَقِيقَةِ قُطَّاعُ طُرُقٍ» (١).

نَعَمْ، تَزْدَادُ حَاجَتُنَا إِلَى دُعَاةٍ مُخْلِصِينَ مُتَجَرِّدِينَ؛ لِأَنَّنَا نَعِيشُ أَيَّامًا قَدْ كُلِّفَ فِيهَا الذِّئَابُ بِرَعْيِ الْأَغْنَامِ!!

وَرَاعِي الشَّاةِ يَحْمِي الذِّئْبَ عَنْهَا ... فَكَيْفَ إِذَا الرُّعَاةُ لَهَا الذِّئَابُ (٢)

وَقَدْ وَصَفَ النَّبِيُّ ﷺ هَذِهِ الْأَيَّامَ وَصْفًا دَقِيقًا؛ كَمَا فِي حَدِيثِ أَبِي هُرَيْرَةَ رضي الله عنه أَنَّهُ ﷺ قَالَ: «**سَيَأْتِي عَلَى النَّاسِ سَنَوَاتٌ خَدَّاعَاتٌ، يُصَدَّقُ فِيهَا الْكَاذِبُ وَيُكَذَّبُ فِيهَا الصَّادِقُ، وَيُؤْتَمَنُ فِيهَا الْخَائِنُ، وَيُخَوَّنُ فِيهَا الْأَمِينُ، وَيَنْطِقُ فِيهَا الرُّوَيْبِضَةُ**» قِيلَ: وَمَا الرُّوَيْبِضَةُ؟ قَالَ: «**الرَّجُلُ التَّافِهُ يَتَكَلَّمُ فِي أَمْرِ الْعَامَّةِ**» (٣).

إِنَّهُ وَصْفٌ دَقِيقٌ مِمَّنْ لَا يَنْطِقُ عَنِ الْهَوَى - بِأَبِي هُوَ وَأُمِّي - ﷺ؛ فَلَقَدْ أَصْبَحَ كَثِيرٌ مِنَ الرُّوَيْبِضَاتِ قَادَةَ الْفِكْرِ وَالتَّوْجِيهِ، وَأَرْبَابَ الْأَقْلَامِ الَّتِي تُفْسَحُ لَهُمُ الصَّفَحَاتُ؛ لِيَكْتُبُوا فِي كُلِّ شَيْءٍ وَفِي أَيِّ شَيْءٍ، حَتَّى فِي دِينِ اللهِ عز وجل بِدُونِ بَيِّنَةٍ وَلَا هُدًى مِنْ غَيْرِ خَجَلٍ أَوْ وَجَلٍ!!

وَأُفْسِحَتْ لَهُمُ الْإِذَاعَاتُ الْمَرْئِيَّةُ وَالْمَسْمُوعَةُ السَّاعَاتِ الطِّوَالَ؛ لِعَرْضِ «وَفَرْضِ» آرَائِهِمْ وَأَفْكَارِهِمْ لِلَيِّ أَعْنَاقِ النَّاسِ إِلَيْهِمْ لَيًّا، وَلَوْ كَانَتْ مُخَالِفَةً لِلْحَقِّ وَالْهُدَى وَتَصْطَدِمُ مَعَ الْكِتَابِ وَالسُّنَّةِ اصْطِدَامًا مُبَاشِرًا!!

---

(١) «الفوائد» لابن القيم (ص: ١١٢)، ط ٢، دار البيان.

(٢) «إحياء علوم الدين» (١/ ٦١).

(٣) أخرجه أحمد (٢/ ٢٩١، ٣٣٨)، وابن ماجه، كتاب الفتن، باب شدة الزمان (٤٠٣٦)، والحاكم (٤/ ٤٦٥، ٤٦٦)، وصححه، ووافقه الذهبي، ونعيم بن حماد في «الفتن» (١٤٠٧) ط دار الفكر، وقال الحافظ في «الفتح» (١٣/ ٨٤)- بعدما عزاه لأحمد وغيْره عن أنس رضي الله عنه-: «سنده جيد»، وصحَّحَهُ الألباني في «صحيح الجامع» (٣٦٥٠)، و«الصحيحة» (١٨٨٧، ٢٢٥٣).

القَاعِدَةُ الثَّالِثَةُ: تَقْدِيمُ حُسْنِ الظَّنِّ بِالمُسْلِمِينَ:

امْتِثَالًا لِأَمْرِ اللهِ - جَلَّ وَعَلَا- فِي هَذِهِ الْآيَةِ الْعَظِيمَةِ الْجَلِيلَةِ الَّتِي تُعَلِّمُ النَّاسَ كَيْفَ يُنَظِّفُونَ وَيُطَهِّرُونَ مَشَاعِرَهُمْ وَضَمَائِرَهُمْ وَأَخْلَاقَهُمْ فِي أُسْلُوبٍ مُؤَثِّرٍ عَجِيبٍ.

يَقُولُ سُبْحَانَهُ: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱجْتَنِبُواْ كَثِيرًا مِّنَ ٱلظَّنِّ إِنَّ بَعْضَ ٱلظَّنِّ إِثْمٌ﴾ [الحجرات:١٢]؛ نِدَاءٌ مُحَبَّبٌ إِلَى الْقُلُوبِ؛ يا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا، لَا تَتْرُكُوا أَنْفُسَكُمْ نَهْبًا لِكُلِّ مَا يَهْجِسُ فِيهَا حَوْلَ الْآخَرِينَ مِنْ ظُنُونٍ، وَشُبُهَاتٍ، وَشُكُوكٍ؛ لِمَاذَا؟

﴿إِنَّ بَعْضَ ٱلظَّنِّ إِثْمٌ﴾ وَبِهَذَا تُطَهِّرُ هَذِهِ الْآيَةُ وَحْدَهَا الضَّمِيرَ الْحَيَّ مِنْ دَاخِلِهِ؛ حَتَّى لَا يَتَلَوَّثَ بِظَنٍّ سَيِّءٍ أَوْ شَكٍّ مُدَمِّرٍ؛ حَتَّى تَظَلَّ الْقُلُوبُ صَافِيَةً هَادِئَةً لَا يُعَكِّرُهَا الْقَلَقُ وَالشَّكُّ وَالرِّيبَةُ وَالظَّنُّ وَحَتْمًا مَا أَجْمَلَهَا مِنْ حَيَاةٍ، وَمَا أَسْعَدَهَا مِنْ عِيشَةٍ فِي ظِلِّ مُجْتَمَعٍ تَحْيَا فِيهِ هَذِهِ الْقُلُوبُ السَّلِيمَةُ الصَّافِيَةُ!!

وَيَأْتِي الْأَمْرُ النَّبَوِيُّ الْكَرِيمُ مُؤَكِّدًا لِهَذِهِ الْمَعَانِي السَّامِيَةِ فِي هَذِهِ الْآيَةِ الْكَرِيمَةِ؛ **فَيَقُولُ** ﷺ: «**إِيَّاكُمْ وَالظَّنَّ؛ فَإِنَّ الظَّنَّ أَكْذَبُ الْحَدِيثِ**»(١).

قَالَ عُلَمَاؤُنَا: «فَالظَّنُّ هُنَا وَفِي الْآيَةِ هُوَ التُّهْمَةُ، وَمَحَلُّ التَّحْذِيرِ وَالنَّهْيِ إِنَّمَا هُوَ تُهْمَةٌ لَا سَبَبَ لَهَا يُوجِبُهَا، وَالَّذِي يُمَيِّزُ الظُّنُونَ الَّتِي يَجِبُ اجْتِنَابُهَا عَمَّا سِوَاهَا أَنَّ كُلَّ مَا لَمْ تُعْرَفْ لَهُ أَمَارَةٌ صَحِيحَةٌ، وَسَبَبٌ ظَاهِرٌ كَانَ حَرَامًا وَاجِبَ الِاجْتِنَابِ، وَذَلِكَ إِذَا كَانَ الْمَظْنُونُ بِهِ مِمَّنْ شُوهِدَ مِنْهُ السَّتْرُ وَالصَّلَاحُ، وَأُونِسَتْ مِنْهُ الْأَمَانَةُ فِي الظَّاهِرِ، فَظَنُّ الْفَسَادِ بِهِ وَالْخِيَانَةِ مُحَرَّمٌ، بِخِلَافِ مَنِ اشْتُهِرَ بَيْنَ النَّاسِ بِتَعَاطِي الرِّيَبِ وَالْمُجَاهَرَةِ بِالْخَبَائِثِ، وَأَكْثَرُ الْعُلَمَاءِ عَلَى أَنَّ الظَّنَّ الْقَبِيحَ بِمَنْ ظَاهِرُهُ الْخَيْرُ لَا يَجُوزُ؛ وَأَنَّهُ لَا حَرَجَ فِي الظَّنِّ الْقَبِيحِ بِمَنْ ظَاهِرُهُ

---

(١) أخرجه البخاريُّ، كتاب الأدب، باب ما ينهى عن التحاسد والتدابر (٦٠٦٤)، ومسلمٌ، كتاب البر والصلة، باب تحريم الظن والتجسس والتنافس والتناجش ونحوها (٢٥٦٣).

الْقُبْحُ»(١).

فَالْأَصْلُ هُوَ إِحْسَانُ الظَّنِّ بِالْمُسْلِمِينَ حَتَّى يَتَبَيَّنَ خِلَافُهُ بِالدَّلِيلِ الْقَاطِعِ الَّذِي لَا شَكَّ فِيهِ؛ فَكَيْفَ يَكُونُ الْحَالُ مَعَ إِخْوَانِكَ عَلَى طَرِيقِ الدَّعْوَةِ إِلَى اللهِ - جَلَّ وَعَلَا- فَمِنَ الْوَاقِعِ الْمُرِّ الَّذِي يَتَذَوَّقُهُ وَيَسْمَعُهُ وَيَرَاهُ أَيُّ مُتَابِعٍ لِلدَّعْوَةِ الْإِسْلَامِيَّةِ أَنْ نَرَى سُوءَ الظَّنِّ أَحْيَانًا يَتَعَدَّى إِلَى النِّيَّاتِ كَذَلِكَ، وَلَيْسَ عَلَى الْأَقْوَالِ وَالْأَعْمَالِ فَحَسْبُ، وَهَذَا مِنَ الظُّلْمِ الْبَيِّنِ؛ فَإِنَّ السَّرَائِرَ عِلْمُهَا عِنْدَ اللهِ وَحْدَهُ الَّذِي لَا تَخْفَى عَلَيْهِ خَافِيَةٌ فِي الْأَرْضِ وَلَا فِي السَّمَاءِ، وَلَا يَغِيبُ عَنْهُ سِرٌّ وَلَا عَلَانِيَةٌ.

الْقَاعِدَةُ الرَّابِعَةُ: وُجُوبُ الْعِلْمِ وَالْعَدْلِ وَالْإِنْصَافِ:

فَمَنْ تَكَلَّمَ فِي غَيْرِهِ بِغَيْرِ عِلْمٍ؛ فَقَدْ خَالَفَ قَوْلَ اللهِ ﷻ: ﴿وَلَا تَقْفُ مَا لَيْسَ لَكَ بِهِۦ عِلْمٌۚ إِنَّ ٱلسَّمْعَ وَٱلْبَصَرَ وَٱلْفُؤَادَ كُلُّ أُوْلَٰٓئِكَ كَانَ عَنْهُ مَسْـُٔولًا﴾ [الإسراء:٣٦].

وَمَنْ تَكَلَّمَ فِي غَيْرِهِ بِظُلْمٍ؛ فَقَدْ خَالَفَ قَوْلَ اللهِ ﷻ: ﴿وَلَا يَجْرِمَنَّكُمْ شَنَـَٔانُ قَوْمٍ أَن صَدُّوكُمْ عَنِ ٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ أَن تَعْتَدُواْۘ وَتَعَاوَنُواْ عَلَى ٱلْبِرِّ وَٱلتَّقْوَىٰ﴾ [المائدة:٨].

فَالْعِلْمُ وَالْعَدْلُ أَصْلُ كُلِّ خَيْرٍ؛ وَالظُّلْمُ وَالْجَهْلُ أَصْلُ كُلِّ شَرٍّ.

يَقُولُ شَيْخُ الْإِسْلَامِ ابْنُ تَيْمِيَّةَ رَحِمَهُ اللهُ(٢): «وَاللهِ قَدْ أَمَرَنَا أَلَّا نَقُولَ عَلَيْهِ إِلَّا الْحَقَّ، وَأَلَّا نَقُولَ عَلَيْهِ إِلَّا بِعِلْمٍ، وَأَمَرَنَا بِالْعَدْلِ وَالْقِسْطِ؛ فَلَا يَجُوزُ لَنَا إِذَا قَالَ يَهُودِيٌّ أَوْ نَصْرَانِيٌّ فَضْلًا عَنِ الرَّافِضِيِّ قَوْلًا فِيهِ حَقٌّ أَنْ نَتْرُكَهُ أَوْ نَرُدَّهُ كُلَّهُ؛ بَلْ لَا نَرُدُّ إِلَّا مَا فِيهِ مِنَ الْبَاطِلِ دُونَ مَا فِيهِ مِنَ الْحَقِّ».

---

(١) بتصرفٍ يسيرٍ من «الجامع لأحكام القرآن الكريم» للقرطبيِّ (١٦/ ٢١٧)، ط دار الكتب العلميةِ.

(٢) «منهاج السنة النبوية» (٢/ ٣٤٢).

وَالْعَجِيبُ أَنَّ شَيْخَ الْإِسْلَامِ؛ لِعِلْمِهِ وَعَدْلِهِ وَإِنْصَافِهِ كَانَ لَا يَتَرَدَّدُ الْبَتَّةَ أَنْ يَعْتَرِفَ بِفَضَائِلِ الْمُبْتَدِعَةِ إِذَا ثَبَتَ عَنْهُمْ ذَلِكَ؛ **فَيَقُولُ شَيْخُ الْإِسْلَامِ - مَثَلًا -:** «وَقَدْ ذَهَبَ كَثِيرٌ مِنْ مُبْتَدِعَةِ الْمُسْلِمِينَ مِنَ الرَّافِضَةِ وَالْجَهْمِيَّةِ وَغَيْرِهِمْ إِلَى بِلَادِ الْكُفَّارِ، فَأَسْلَمَ عَلَى يَدَيْهِ خَلْقٌ كَثِيرٌ، وَانْتَفَعُوا بِذَلِكَ، وَصَارُوا مُسْلِمِينَ مُبْتَدِعِينَ، وَهُوَ خَيْرٌ مِنْ أَنْ يَكُونُوا كُفَّارًا، وَكَذَلِكَ بَعْضُ الْمُلُوكِ قَدْ يَغْزُو غَزْوًا يَظْلِمُ فِيهِ الْمُسْلِمِينَ وَالْكُفَّارَ، وَيَكُونُ آثِمًا بِذَلِكَ، وَمَعَ هَذَا فَيَحْصُلُ بِهِ نَفْعُ خَلْقٍ كَثِيرٍ كَانُوا كُفَّارًا فَصَارُوا مُسْلِمِينَ، وَذَلِكَ كَانَ شَرًّا بِالنِّسْبَةِ إِلَى الْقَائِمِ بِالْوَاجِبِ، وَأَمَّا بِالنِّسْبَةِ إِلَى الْكُفَّارِ فَهُوَ خَيْرٌ، وَأَكْثَرُ الْمُتَكَلِّمِينَ يَرُدُّونَ بَاطِلًا بِبَاطِلٍ، وَبِدْعَةً بِبِدْعَةٍ؛ لَكِنْ قَدْ يَرُدُّونَ بَاطِلَ الْكُفَّارِ مِنَ الْمُشْرِكِينَ وَأَهْلِ الْكِتَابِ بِبَاطِلِ الْمُسْلِمِينَ، فَيَصِيرُ الْكَافِرُ مُسْلِمًا مُبْتَدِعًا، وَأَخَصُّ مِنْ هَؤُلَاءِ مَنْ يَرُدُّ الْبِدَعَ الظَّاهِرَةَ؛ كَبِدْعَةِ الرَّافِضَةِ بِبِدْعَةٍ أَخَفَّ مِنْهَا، وَهِيَ بِدْعَةُ أَهْلِ السُّنَّةِ»[1].

ثُمَّ يَقُولُ رحمه الله **فِي مَوْضِعٍ آخَرَ:** «وَلَمَّا كَانَ أَتْبَاعُ الْأَنْبِيَاءِ هُمْ أَهْلَ الْعِلْمِ وَالْعَدْلِ كَانَ كَلَامُ أَهْلِ الْإِسْلَامِ وَالسُّنَّةِ مَعَ الْكُفَّارِ وَأَهْلِ الْبِدَعِ بِالْعِلْمِ وَالْعَدْلِ، لَا بِالظَّنِّ وَمَا تَهْوَى الْأَنْفُسُ؛ وَلِهَذَا قَالَ النَّبِيُّ ﷺ: «**الْقُضَاةُ ثَلَاثَةٌ: قَاضِيَانِ فِي النَّارِ وَقَاضٍ فِي الْجَنَّةِ، رَجُلٌ عَلِمَ الْحَقَّ فَقَضَى بِهِ فَهُوَ فِي الْجَنَّةِ، وَرَجُلٌ عَلِمَ الْحَقَّ وَقَضَى بِخِلَافِهِ فَهُوَ فِي النَّارِ، وَرَجُلٌ قَضَى لِلنَّاسِ عَلَى جَهْلٍ فَهُوَ فِي النَّارِ**[2]»[3].

---

(١) «الفرقان بين الحق والباطل» (ص ٦٣، ٦٤) بتحقيق عبد القادر الأرناؤوط، وهو في «مجموع الفتاوى» (١٣/ ٩٦).

(٢) أخرجه أبو داود، كتاب الأقضية، باب في القاضي يخطئ (٣٥٧٣)، والترمذيُّ، كتاب الأحكام، باب ما جاء عن رَسُول الله ﷺ في القاضي (١٣٢٢)، وابن ماجه، كتاب الأحكام، باب الحاكم يجتهد فيصيب الحق (٢٣١٥)، والنسائي في «الكبرى» (٥٨٩١)، وصححه الألباني في «الإرواء» (٢٦١٤، ٢٦٢٨)، و«صحيح الجامع» (٤٤٤٦).

(٣) «الجواب الصحيح لمن بدل دين المسيح» (١/ ٢٢) ط دار العاصمة. الرياض، سنة ١٤١٤هـ.

وَمِنْ أَجْمَلِ مَا قَالَهُ الْإِمَامُ الذَّهَبِيُّ (١) رحمه الله: «غُلَاةُ الْمُعْتَزِلَةِ، وَغُلَاةُ الشِّيعَةِ، وَغُلَاةُ الْحَنَابِلَةِ، وَغُلَاةُ الْأَشَاعِرَةِ، وَغُلَاةُ الْمُرْجِئَةِ، وَغُلَاةُ الْجَهْمِيَّةِ، وَغُلَاةُ الْكَرَّامِيَّةِ قَدْ مَاجَتْ بِهِمُ الدُّنْيَا وَكَثُرُوا، وَفِيهِمْ أَذْكِيَاءُ وَعُبَّادٌ وَعُلَمَاءُ؛ نَسْأَلُ اللهَ الْعَفْوَ وَالْمَغْفِرَةَ لِأَهْلِ التَّوْحِيدِ، وَنَبْرَأُ إِلَى اللهِ مِنَ الْهَوَى وَالْبِدَعِ، وَنُحِبُّ السُّنَّةَ وَأَهْلَهَا، وَنُحِبُّ الْعَالِمَ عَلَى مَا فِيهِ مِنَ الِاتِّبَاعِ وَالصِّفَاتِ الْحَمِيدَةِ، وَلَا نُحِبُّ مَا ابْتَدَعَ فِيهِ بِتَأْوِيلٍ سَائِغٍ؛ إِنَّمَا الْعِبْرَةُ بِكَثْرَةِ الْمَحَاسِنِ» (٢).

وَخُذْ مِثَالًا تَطْبِيقِيًّا لِهَذَا الْمَنْهَجِ الرَّاشِدِ الَّذِي يُعَلِّمُنَا إِيَّاهُ سَلَفُنَا الصَّالِحُ - رِضْوَانُ اللهِ عَلَيْهِمْ - وَهُوَ حُكْمُ شَيْخِ الْإِسْلَامِ ابْنِ تَيْمِيَّةَ عَلَى الْإِمَامِ ابْنِ حَزْمٍ (٣) رحمه الله؛ فَيَقُولُ:

---

(١) هو الحافظ الكبير، مؤرخ الإسلام، وشيخ المحدثين محمد بن أحمد بن عثمان بن قايماز بن عبد الله التركماني الأصل الفارقي ثم الدمشقي، أبو عبد الله شمس الدين الذهبي، ولد في ثالث ربيع الآخر سنة ثلاث وسبعون وستمائة، له مصنفات عدة؛ من أشهرها: «تاريخ الإسلام»، و«سير أعلام النبلاء»، و«ميزان الاعتدال»، و«العلو للعلي الغفار»، وغيرها الكثير، مات في ليلة الاثنين، ثالث شهر ذي القعدة، سنة ثمان وأربعين وسبعمائة.

● انظر: «البداية والنهاية» (١٤/ ٣٠٨)، و«الدرر الكامنة في أعيان المائة الثامنة» (٥/ ٦٧،٦٦) ط مجلس دائرة المعارف العثمانية، سنة ١٣٩٢ هجريَّة، و«شذرات الذهب» (٦/ ١٥٢-١٥٣) ط الكتب العلمية. و«البدر الطالع» (٢/ ١٠٤).

(٢) «سير أعلام النبلاء» (٢٠/ ٤٥، ٤٦).

(٣) هو الإمام الأوحد، البحر، ذو الفنون والمعارف أبو محمد علي بن أحمد بن سعيد بن حزم بن غالب بن صالح بن خلف بن معدان بن سفيان بن يزيد الفارسي الأصل، ثم الأندلسي القرطبي اليزيدي مولى الأمير يزيد بن أبي سفيان بن حرب الأموي، ولد بقرطبة في رمضان سنة أربع وثمانين وثلاث مائة، قرأ القرآن، واشتغل بالعلوم الشرعية، فبرز فيها، وفاق أهل زمانه، وصنف الكتب المفيدة المشهورة وكان أديبًا طبيبًا، شاعرًا فصيحًا، مات عشية يوم الأحد لليلتين بقيتا من شعبان، سنة ست وخمسين وأربع مائة، وكان عمره إحدى وسبعين سنة وأشهرًا.

● انظر: «سير أعلام النبلاء» (٤١٩٠)، و«البداية والنهاية» (١٢/ ١٦٤)، و«إكمال الكمال»

=

«وَكَذَلِكَ أَبُو مُحَمَّدٍ ابْنُ حَزْمٍ فِيمَا صَنَّفَهُ مِنَ الْمِلَلِ وَالنِّحَلِ إِنَّمَا يُسْتَحْمَدُ بِمُوَافَقَةِ السُّنَّةِ وَالْحَدِيثِ مِثْلَ مَا ذَكَرَهُ فِي مَسَائِلِ الْقَدَرِ وَالْإِرْجَاءِ وَنَحْوِ ذَلِكَ، بِخِلَافِ مَا انْفَرَدَ بِهِ مِنْ قَوْلِهِ فِي التَّفْضِيلِ بَيْنَ الصَّحَابَةِ، وَكَذَلِكَ مَا ذَكَرَهُ فِي بَابِ الصِّفَاتِ؛ فَإِنَّهُ يُسْتَحْمَدُ فِيهِ بِمُوَافَقَةِ أَهْلِ السُّنَّةِ وَالْحَدِيثِ؛ لِكَوْنِهِ يُثْبِتُ الْأَحَادِيثَ الصَّحِيحَةَ، وَيُعَظِّمُ السَّلَفَ وَأَئِمَّةَ الْحَدِيثِ وَيَقُولُ:

إِنَّهُ مُوَافِقٌ لِلْإِمَامِ أَحْمَدَ فِي مَسْأَلَةِ الْقُرْآنِ الْكَرِيمِ وَغَيْرِهَا؛ وَلَا رَيْبَ أَنَّهُ مُوَافِقٌ لَهُ وَلَهُمْ فِي بَعْضِ ذَلِكَ، لَكِنَّ الْأَشْعَرِيَّ (١) وَنَحْوَهُ أَعْظَمُ مُوَافَقَةً لِلْإِمَامِ أَحْمَدَ بْنِ حَنْبَلٍ وَمَنْ قَبْلَهُ مِنَ الْأَئِمَّةِ فِي الْقُرْآنِ الْكَرِيمِ وَالصِّفَاتِ، وَإِنْ كَانَ أَبُو مُحَمَّدٍ ابْنُ حَزْمٍ فِي مَسَائِلِ الْإِيمَانِ وَالْقَدَرِ أَقْوَمَ مِنْ غَيْرِهِ، وَأَعْلَمَ بِالْحَدِيثِ، وَأَكْثَرَ تَعْظِيمًا لَهُ وَلِأَهْلِهِ مِنْ غَيْرِهِ، لَكِنْ قَدْ خَالَطَ مِنْ أَقْوَالِ الْفَلَاسِفَةِ وَالْمُعْتَزِلَةِ فِي مَسَائِلِ الصِّفَاتِ مَا صَرَفَهُ عَنْ مُوَافَقَةِ أَهْلِ الْحَدِيثِ فِي مَعَانِي مَذْهَبِهِمْ فِي ذَلِكَ، فَوَافَقَ هَؤُلَاءِ فِي اللَّفْظِ وَهَؤُلَاءِ فِي الْمَعْنَى، وَبِمِثْلِ هَذَا صَارَ يَذُمُّهُ مَنْ يَذُمُّهُ مِنَ الْفُقَهَاءِ وَالْمُتَكَلِّمِينَ وَعُلَمَاءِ الْحَدِيثِ بِاتِّبَاعِهِ لِظَاهِرٍ لَا بَاطِنَ لَهُ، كَمَا نَفَى الْمَعَانِيَ فِي الْأَمْرِ وَالنَّهْيِ وَالِاشْتِقَاقِ، وَكَمَا نَفَى خَرْقَ الْعَادَاتِ وَنَحْوَهُ مِنْ عِبَادَاتِ الْقُلُوبِ مَضْمُومًا إِلَى مَا فِي كَلَامِهِ مِنَ الْوَقِيعَةِ فِي الْأَكَابِرِ وَالْإِسْرَافِ فِي

=

لابن ماكولا (٢/ ٤٥١) ط دار الكتاب الإسلامي.

(١) هو أبو الحسن علي بن إسماعيل بن أبي بشر إسحاق بن سالم بن إسماعيل بن عبد الله ابن موسى بن أمير البصرة بلال بن أبي بردة بن صاحب رسول الله ﷺ أبي موسى عبد الله بن قيس بن حضار، الأشعري اليماني البصري. مولده سنة ستين ومئتين، وقيل: بل ولد سنة سبعين. وكان عجبًا في الذكاء، وقوة الفهم، ولما برع في معرفة الاعتزال، كرهه وتبرأ منه، وصعد للناس، فتاب إلى الله تعالى وله رسالة: «الإبانة عن أصول الديانة»، قرّر فيها مذهب السلف في الصفات. مات ببغداد سنة أربع وعشرين وثلاث مئة.

● راجع: «السير» (١٥/ ٨٥).

نَفْيِ الْمَعَانِي وَدَعْوَى مُتَابَعَةِ الظَّوَاهِرِ، وَإِنْ كَانَ لَهُ مِنَ الْإِيمَانِ وَالدِّينِ وَالْعُلُومِ الْوَاسِعَةِ الْكَثِيرَةِ مَا لَا يُدَافِعُهُ إِلَّا مُكَابِرٌ، وَيُوجَدُ فِي كُتُبِهِ مِنْ كَثْرَةِ الاطِّلَاعِ عَلَى الْأَقْوَالِ وَالْمَعْرِفَةِ بِالْأَحْوَالِ وَالتَّعْظِيمِ لِدَعَائِمِ الْإِسْلَامِ وَلِجَانِبِ الرِّسَالَةِ مَا لَا يَجْتَمِعُ مِثْلُهُ لِغَيْرِهِ؛ فَالْمَسْأَلَةُ الَّتِي يَكُونُ فِيهَا حَدِيثٌ يَكُونُ جَانِبُهُ فِيهَا ظَاهِرَ التَّرْجِيحِ؛ وَلَهُ مِنَ التَّمْيِيزِ بَيْنَ الصَّحِيحِ وَالضَّعِيفِ وَالْمَعْرِفَةِ بِأَقْوَالِ السَّلَفِ مَا لَا يَكَادُ يَقَعُ مِثْلُهُ لِغَيْرِهِ مِنَ الْفُقَهَاءِ» (١).

وَهَذَا تِلْمِيذُهُ النَّجِيبُ الْإِمَامُ ابْنُ الْقَيِّمِ رَحِمَهُ اللَّهُ فِي حُكْمِهِ عَلَى الْإِمَامِ أَبِي إِسْمَاعِيلَ الْهَرَوِيِّ (٢) الَّذِي أَلَّفَ كِتَابَهُ فِي عِلْمِ التَّصَوُّفِ وَالسُّلُوكِ، وَسَمَّاهُ «مَنَازِلَ السَّائِرِينَ»، فَشَرَحَهُ الْإِمَامُ ابْنُ الْقَيِّمِ فِي كِتَابِهِ الْقَيِّمِ: «**مَدَارِجِ السَّالِكِينَ بَيْنَ مَنَازِلِ إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ**»، وَأَثْنَى فِيهِ ابْنُ الْقَيِّمِ عَلَى أَبِي إِسْمَاعِيلَ الْهَرَوِيِّ؛ بَلْ وَكَانَ يُلَقِّبُهُ بِـ «شَيْخِ الْإِسْلَامِ» مَعَ أَنَّهُ قَدِ اسْتَدْرَكَ عَلَيْهِ مَسَائِلَ عَدِيدَةً، وَتَعَقَّبَهُ فِي أَكْثَرَ مِنْ مَوْطِنٍ، وَكَانَ يُعَبِّرُ عَنْ ذَلِكَ؛ فَيَقُولُ: «شَيْخُ الْإِسْلَامِ - أَيِ الْهَرَوِيُّ - حَبِيبُنَا؛ وَلَكِنَّ الْحَقَّ أَحَبُّ إِلَيْنَا مِنْهُ، وَكَانَ شَيْخُ الْإِسْلَامِ ابْنُ تَيْمِيَّةَ رَحِمَهُ اللَّهُ يَقُولُ عَنْهُ - أَيْ عَنِ الْهَرَوِيِّ - عَمَلُهُ خَيْرٌ مِنْ عِلْمِهِ، وَصَدَقَ رَحِمَهُ اللَّهُ فَسِيرَتُهُ بِالْأَمْرِ بِالْمَعْرُوفِ وَالنَّهْيِ عَنِ الْمُنْكَرِ، وَجِهَادِ أَهْلِ الْبِدَعِ: لَا يُشَقُّ لَهُ فِيهَا غُبَارٌ، وَلَهُ الْمَقَامَاتُ الْمَشْهُورَةُ فِي نُصْرَةِ اللهِ وَرَسُولِهِ، وَأَبَى اللهُ أَنْ يَكْسُوَ ثَوْبَ الْعِصْمَةِ

---

(١) «نقض المنطق» (ص: ١٧، ١٨).

(٢) هو الحافظ الكبير، أبو إسماعيل عبد الله بن محمد بن علي بن محمد بن أحمد بن علي بن جعفر بن منصور بن متّ الأنصاري الهروي، ولد سنة ست وتسعين وثلاث مائة صاحب كتاب «ذم الكلام»، و«منازل السائرين»، روى الحديث وصنف، وكانت وفاته بهراة في ذي الحجة سنة إحدى وثمانين وأربعمائة عن ست وثمانين سنة، وقيل: أربع وثمانين سنة وأشهر.

● راجع: «سير أعلام النبلاء» (٤٦١٣)، و«البداية والنهاية» (١٢/ ٢١٠)، و«شذرات الذهب» (٣/ ٣٦٤).

لِغَيْرِ الصَّادِقِ الْمَصْدُوقِ الَّذِي لَا يَنْطِقُ عَنِ الْهَوَى ﷺ»(١).

وَيَسْتَدْرِكُ ابْنُ الْقَيِّمِ عَلَيْهِ خَطَأً آخَرَ؛ فَيَقُولُ: «وَلَا تُوجِبُ هَذِهِ الزَّلَّةُ مِنْ شَيْخِ الْإِسْلَامِ إِهْدَارَ مَحَاسِنِهِ، وَإِسَاءَةَ الظَّنِّ بِهِ؛ فَمَحَلُّهُ مِنَ الْعِلْمِ وَالْإِمَامَةِ وَالْمَعْرِفَةِ وَالتَّقَدُّمِ فِي طَرِيقِ السُّلُوكِ الْمَحَلُّ الَّذِي لَا يُجْهَلُ، وَكُلُّ أَحَدٍ فَمَأْخُوذٌ مِنْ قَوْلِهِ وَمَتْرُوكٌ إِلَّا الْمَعْصُومَ - صَلَوَاتُ اللهِ وَسَلَامُهُ عَلَيْهِ - وَالْكَامِلُ مَنْ عُدَّ خَطَؤُهُ؛ وَلَا سِيَّمَا فِي مِثْلِ هَذَا الْمَجَالِ الضَّنْكِ، وَالْمُعْتَرَكِ الصَّعْبِ الَّذِي زَلَّتْ فِيهِ أَقْدَامٌ، وَضَلَّتْ فِيهَا أَفْهَامٌ، وَافْتَرَقَتْ بِالسَّالِكِينَ فِيهِ الطُّرُقَاتُ، وَأَشْرَفُوا - إِلَّا أَقَلَّهُمْ - عَلَى أَوْدِيَةِ الْهَلَكَاتِ»(٢).

وَهَذَا الْإِمَامُ الذَّهَبِيُّ يَقُولُ عَنِ الْإِمَامِ أَبِي حَامِدٍ الْغَزَالِيِّ(٣): «الْغَزَالِيُّ إِمَامٌ كَبِيرٌ، وَمَا مِنْ شَرْطِ الْعَالِمِ أَنَّهُ لَا يُخْطِئُ»(٤).

وَقَالَ الذَّهَبِيُّ أَيْضًا: «فَرَحِمَ اللهُ أَبَا حَامِدٍ؛ فَأَيْنَ مِثْلُهُ فِي عُلُومِهِ وَفَضَائِلِهِ؛ وَلَكِنْ لَا نَدَّعِي عِصْمَتَهُ مِنَ الْغَلَطِ وَالْخَطَأِ، وَلَا تَقْلِيدَ فِي الْأُصُولِ»(٥).

هَذَا هُوَ الْعِلْمُ وَالْعَدْلُ وَالْإِنْصَافُ، وَحِينَمَا تَضِيعُ هَذِهِ الْقَاعِدَةُ الْجَلِيلَةُ تَكْثُرُ الِاتِّهَامَاتُ؛ وَتَزِيدُ الِافْتِرَاءَاتُ؛ وَتَسْتَعِرُ نَارُ الْفِتْنَةِ بَيْنَ أَبْنَاءِ الدَّعْوَةِ الْإِسْلَامِيَّةِ،

---

(١) «مدارج السالكين» (٣/ ٥٢١).

(٢) المصدر السابق (١/ ١٩٨).

(٣) هو زين الدين أبو حامد محمد بن محمد بن محمد بن أحمد الطوسي الشافعي، الغزالي، صاحب التصانيف، والذكاء المفرط، ولد سنة خمسين وأربعمائة، صاحب التصانيف الكثيرة التي من أشهرها «إحياء علوم الدين»، و«المستصفى»، و«المنخول»، وغيرها، توفي رحمه الله بطوس يوم الاثنين الرابع عشر من جمادى الآخرة سنة خمس وخمسمائة.

● راجع: «سير أعلام النبلاء» (٤٦٢٧)، و«البداية والنهاية» (١٢/ ٢٤٩، ٢٥٠)، و«شذرات الذهب» (٤/ ١٠)، و«وفيات الأعيان» (٤/ ٢١٦).

(٤) «سير أعلام النبلاء» (١٩/ ٣٣٩).

(٥) المصدر السابق (١٩/ ٣٤٦).

وَيُخَيِّمُ عَلَى الْعَلَاقَةِ بَيْنَ أَبْنَائِهَا التَّشَنُّجُ، وَالِانْفِعَالُ، وَالتَّجْرِيحُ الَّذِي لَا يُمْكِنُ أَبَدًا أَنْ يُؤَصِّلَ فِكْرًا، أَوْ أَنْ يُصَحِّحَ خَطَأً، أَوْ أَنْ يُعَدِّلَ مَسَارًا، أَوْ يُنْجِحَ دَعْوَةً!!

فَاللهَ اللهَ فِي الْعَوْدَةِ إِلَى مَنْهَجِ السَّلَفِ الرَّشِيدِ بَعِيدًا بَعِيدًا عَنِ الْقِيلِ وَالْقَالِ وَالْمُهَاتَرَاتِ وَالِانْفِعَالَاتِ وَالْمُشَاحَنَاتِ الْحِزْبِيَّةِ الضَّيِّقَةِ، وَهَذَا مُرْتَقًى صَعْبٌ لَا يَصِلُ إِلَيْهِ إِلَّا الْخُلَّصُ مِنَ الرِّجَالِ الْأَبْرَارِ الَّذِينَ أَنْعَمَ اللهُ عَلَيْهِمْ بِصِدْقِ النِّيَّةِ وَنَقَاءِ الْقَلْبِ، الَّذِينَ أَخْلَصُوا عُبُودِيَّتَهُمْ للهِ - جَلَّ وَعَلَا -، وَمَا أَحْوَجَ الدَّعْوَةَ الْإِسْلَامِيَّةَ إِلَى هَذَا الطِّرَازِ مِنْ هَؤُلَاءِ الْأَطْهَارِ الْأَخْيَارِ؛ أَسْأَلُ اللهَ أَنْ يَجْعَلَنَا وَإِيَّاكُمْ مِنْهُمْ بِمَنِّهِ وَكَرَمِهِ.

وَأَخْتِمُ هَذِهِ الْقَاعِدَةَ الْكَرِيمَةَ بِهَذَا الْحَدِيثِ النَّبَوِيِّ الْمُبَارَكِ الَّذِي أَخْرَجَهُ مُسْلِمٌ فِي «صَحِيحِهِ» (١) مِنْ حَدِيثِ عَبْدِ اللهِ بْنِ عَمْرٍو رضي الله عنهما أَنَّ النَّبِيَّ ﷺ قَالَ: **«إِنَّ الْمُقْسِطِينَ عِنْدَ اللهِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ عَلَى مَنَابِرَ مِنْ نُورٍ عَنْ يَمِينِ الرَّحْمَنِ، وَكِلْتَا يَدَيْهِ يَمِينٌ، الَّذِينَ يَعْدِلُونَ فِي حُكْمِهِمْ وَأَهْلِيهِمْ وَمَا وَلُوا»**.

❀◊❀

(١) أخرجه مسلمٌ، كتاب الإمارة، باب فضيلة الإمام العادل وعقوبة الجائر (١٨٢٧).

القَاعِدَةُ الخَامِسَةُ: عَدَمُ إِهْدَارِ الحَسَنَاتِ (١)!!

فَمَا مِنْ مُسْلِمٍ إِلَّا وَلَهُ مَحَاسِنُ وَمَسَاوِئُ، وَمِنَ الظُّلْمِ الْبَيِّنِ أَنْ تَذْكُرَ مِنْ أَخِيكَ أَسْوَأَ مَا تَعْلَمُ، وَأَنْ تَكْتُمَ مِنْهُ خَيْرَ مَا تَعْلَمُ، وَاللهُ - جَلَّ وَعَلَا- يَقُولُ: ﴿وَلَا تَبْخَسُوا۟ ٱلنَّاسَ أَشْيَآءَهُمْ﴾[هود:٨٥].

يَقُولُ شَيْخُ الْإِسْلَامِ ابْنُ تَيْمِيَّةَ ﵀: «وَيَعْلَمُونَ- أَيْ: أَهْلُ السُّنَّةِ- أَنَّ جِنْسَ الْمُتَكَلِّمِينَ أَقْرَبُ إِلَى الْمَعْقُولِ وَالْمَنْقُولِ مِنْ جِنْسِ الْفَلَاسِفَةِ. وَإِنْ كَانَ الْفَلَاسِفَةُ قَدْ يُصِيبُونَ أَحْيَانًا كَمَا أَنَّ جِنْسَ الْمُسْلِمِينَ خَيْرٌ مِنْ جِنْسِ أَهْلِ الْكِتَابَيْنِ، وَإِنْ كَانَ يُوجَدُ فِي أَهْلِ الْكِتَابِ مَنْ لَهُ عَقْلٌ وَصِدْقٌ وَأَمَانَةٌ لَا تُوجَدُ فِي كَثِيرٍ مِنَ الْمُنْتَسِبِينَ إِلَى الْإِسْلَامِ؛ كَمَا قَالَ اللهُ تَعَالَى: ﴿وَمِنْ أَهْلِ ٱلْكِتَٰبِ مَنْ إِن تَأْمَنْهُ بِقِنطَارٍ يُؤَدِّهِۦٓ إِلَيْكَ وَمِنْهُم مَّنْ إِن تَأْمَنْهُ بِدِينَارٍ لَّا يُؤَدِّهِۦٓ إِلَيْكَ إِلَّا مَا دُمْتَ عَلَيْهِ قَآئِمًا ۗ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ قَالُوا۟ لَيْسَ عَلَيْنَا فِى ٱلْأُمِّيِّۦنَ سَبِيلٌ وَيَقُولُونَ عَلَى ٱللَّهِ ٱلْكَذِبَ وَهُمْ يَعْلَمُونَ﴾ [آل عمران:٧٥]» (٢).

---

(١) والمسألة فيها تفصيلٌ رائعٌ لإمامنا ابن باز ﵀؛ **حيثُ يقولُ**: «المعروفُ في كلام أهل العلم نقدُ المساوئ للتحذير، وبيان الأخطاء التي أخطأوا فيها للتحذير منها، ثم قال: فإذا دعت الحاجة إلى بيان ما عندهم من حقٍّ يُبيَّن، وإذا سأل السائل: ما عندهم من حق؟ ماذا وافقوا فيه أهل السنة؟ والمسئول يعلم ذلك، يُبيِّن؛ لكن المقصود الأعظم والمهم: بيان ما عندهم من الباطل؛ ليحذره السائل، ولئلا يميل إليهم».
وقال أيضًا: «الواجب على أهل العلم إنكارُ البدع والمعاصي الظاهرة بالأدلة الشرعية، وبالترغيب والترهيب، والأسلوب الحسن، ولا يلزم عند ذلك ذكر حسنات المبتدع، ولكن متى ذكرها الآمرُ بالمعروف والناهي عن المنكر لمن وقعت البدعةُ أو المنكر منه؛ تذكيرًا له بأعماله الطيبة، وترغيبًا له في التوبة، فذلك حسن، ومن أسباب قبول الدعوة والرجوع إلى التوبة. وفق الله الجميع». راجع: «منهج السلف الصالح في ترجيح المصالح وتطويح المفاسد والقبائح» للشيخ علي بن حسن بن عبد الحميد الحلبي (ص: ١٤١-١٤٤) ط: الدار الأثرية عمان.

(٢) انظر: «درء تعارض العقل والنقل» (٩/ ٢١١) تحقيق: محمد رشاد سالم.

وقَالَ شَيْخُ الْإِسْلَام رَحِمَهُ اللَّهُ (١): «وَهَذَا أَصْلٌ عَظِيمٌ، وَهُوَ: أَنْ تَعْرِفَ الْحَسَنَةَ فِي نَفْسِهَا عِلْمًا وَعَمَلًا؛ سَوَاءٌ كَانَتْ وَاجِبَةً أَوْ مُسْتَحَبَّةً، وَتَعْرِفَ السَّيِّئَةَ فِي نَفْسِهَا عِلْمًا وَقَوْلًا وَعَمَلًا؛ مَحْظُورَةً كَانَتْ أَوْ غَيْرَ مَحْظُورَةٍ - إِنْ سُمِّيَتْ غَيْرُ الْمَحْظُورَةِ سَيِّئَةً- وَإِنَّ الدِّينَ تَحْصِيلُ الْحَسَنَاتِ وَالْمَصَالِحِ، وَتَعْطِيلُ السَّيِّئَاتِ وَالْمَفَاسِدِ.

وَإِنَّهُ كَثِيرًا مَا يَجْتَمِعُ فِي الْفِعْلِ الْوَاحِدِ، أَوْ فِي الشَّخْصِ الْوَاحِدِ الْأَمْرَانِ؛ فَالذَّمُّ وَالنَّهْيُ وَالْعِقَابُ قَدْ يَتَوَجَّهُ إِلَى مَا تَضَمَّنَهُ أَحَدُهُمَا؛ فَلَا يَغْفُلُ عَمَّا فِيهِ مِنَ النَّوْعِ الْآخَرِ، كَمَا يَتَوَجَّهُ الْمَدْحُ وَالْأَمْرُ وَالثَّوَابُ إِلَى مَا تَضَمَّنَهُ أَحَدُهُمَا، فَلَا يَغْفُلُ عَمَّا فِيهِ مِنَ النَّوْعِ الْآخَرِ، وَقَدْ يُمْدَحُ الرَّجُلُ بِتَرْكِ بَعْضِ السَّيِّئَاتِ الْبِدْعِيَّةِ وَالْفُجُورِيَّةِ، لَكِنْ قَدْ يُسْلَبُ مَعَ ذَلِكَ مَا حُمِدَ بِهِ غَيْرُهُ عَلَى فِعْلِ بَعْضِ الْحَسَنَاتِ السُّنِّيَّةِ الْبِرِّيَّةِ؛ فَهَذَا طَرِيقُ الْمُوَازَنَةِ وَالْمُعَادَلَةِ؛ وَمَنْ سَلَكَهُ كَانَ قَائِمًا بِالْقِسْطِ الَّذِي أَنْزَلَ الله لَهُ الْكِتَابَ وَالْمِيزَانَ» انْتَهَى.

وَقَالَ ابْنُ الْقَيِّم رَحِمَهُ اللَّهُ (٢): «وَالْقُرْآنُ وَالسُّنَّةُ قَدْ دَلَّا عَلَى الْمُوَازَنَةِ وَإِحْبَاطِ الْحَسَنَاتِ وَالسَّيِّئَاتِ؛ فَلَا يُضْرَبُ كِتَابُ الله بَعْضُهُ بِبَعْضٍ، وَلَا يُرَدُّ الْقُرْآنُ بِمُجَرَّدِ كَوْنِ الْمُعْتَزِلَةِ قَالُوهُ فِعْلَ أَهْلِ الْهَوَى وَالتَّعَصُّبِ؛ بَلْ نَقْبَلُ الْحَقَّ مِمَّنْ قَالَهُ، وَيُرَدُّ الْبَاطِلُ عَلَى مَنْ قَالَهُ» ا. هـ.

وَفِي «صَحِيحِ الْبُخَارِيِّ» (٣) مِنْ حَدِيثِ عُمَرَ بْنِ الْخَطَّابِ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: أَنَّ رَجُلًا عَلَى عَهْدِ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ كَانَ اسْمُهُ عَبْدَ الله، وَكَانَ يُلَقَّبُ حِمَارًا (٤)، وَكَانَ يُضْحِكُ

---

(١) «مجموع الفتاوى» (١٠/ ٣٦٦).

(٢) «مدارج السالكين» (١/ ٢٧٨).

(٣) أخرجه البخاريُّ، كتاب الحدود، باب ما يكره من لعن شارب الخمر وأنه ليس بخارج من الملة (٦٧٨٠)، وانظر شرحه للحافظ ابن حجر في: «الفتح»؛ فإنه مهمٌّ جدًّا (١٢/ ٧٧)، الطبعة السلفية.

(٤) هو النعيمان بن عمرو بن رفاعة بن الحارث بن سواد بن مالك بن غنم بن مالك بن النجار الأنصاري، وقيل: عبد الله، يلقب حمارًا، كان صاحب مزاح يُضْحك النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ
=

رَسُولَ الله ﷺ، وَكَانَ النَّبِيُّ ﷺ قَدْ جَلَدَهُ فِي الشَّرَابِ، فَأُتِيَ بِهِ يَوْمًا فَأَمَرَ بِهِ فَجُلِدَ؛ فَقَالَ رَجُلٌ مِنَ الْقَوْمِ: اللَّهُمَّ الْعَنْهُ، مَا أَكْثَرَ مَا يُؤْتَى بِهِ! فَقَالَ النَّبِيُّ ﷺ: «**لَا تَلْعَنُوهُ؛ فَوَاللهِ مَا عَلِمْتُ إِنَّهُ يُحِبُّ اللهَ وَرَسُولَهُ**».

فَهَذَا الصَّحَابِيُّ ﷺ قَدْ زَلَّتْ قَدَمُهُ، وَضَعُفَتْ نَفْسُهُ، فَارْتَكَبَ كَبِيرَةً مِنَ الْكَبَائِرِ؛ بَلْ كَرَّرَهَا، وَلَكِنْ لَا يَعْنِي هَذَا أَنَّهُ قَدْ فَسَدَ بِالْكُلِّيَّةِ، أَوْ أَنَّهُ قَدْ كَفَرَ - عِيَاذًا بِاللهِ- كَمَا يَقُولُ الْخَوَارِجُ الَّذِينَ يُكَفِّرُونَ بِالْمَعْصِيَةِ؛ بَلْ إِنَّ فِيهِ مِنَ الصِّفَاتِ وَالْخِصَالِ الْحَمِيدَةِ الْأُخْرَى الَّتِي تُوجِبُ مَحَبَّتَهُ وَمُوَالَاتَهُ كَحُبِّ اللهِ وَرَسُولِهِ ﷺ كَمَا أَخْبَرَ رَسُولُ اللهِ - عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ.

وَهَذَا صَحَابِيٌّ جَلِيلٌ آخَرُ يَزِلُّ زَلَّةً عَظِيمَةً كَبِيرَةً عَدَّهَا الْفَارُوقُ عُمَرُ بْنُ الْخَطَّابِ ﷺ نِفَاقًا؛ بَلْ وَطَلَبَ مِنْ رَسُولِ اللهِ ﷺ أَنْ يَأْذَنَ لَهُ فِي ضَرْبِ عُنُقِهِ، وَلَكِنَّ الرَّسُولَ ﷺ يَشْهَدُ لَهُ بِالصِّدْقِ، وَيَهَبُ هَذِهِ النَّقِيصَةَ وَالزَّلَّةَ الْكَبِيرَةَ لِفَضْلِهِ وَسَبْقِهِ وَجِهَادِهِ، وَيَأْمُرُهُمْ أَنْ يَذْكُرُوا «حَاطِبَ بْنَ أَبِي بَلْتَعَةَ» (١) بِمَا فِيهِ مِنْ خَيْرٍ؛ فَفِي الْحَدِيثِ الَّذِي رَوَاهُ **الْبُخَارِيُّ وَمُسْلِمٌ** عَنْ عَلِيِّ بْنِ أَبِي طَالِبٍ ﷺ قَالَ: بَعَثَنِي

=

من مزاحه ويهدي إليه، ويكنى أبا عمرو، شهد العقبة وبدرًا والمشاهد بعدها، قال أبو عمر: أظنه صاحب أبي بكر وسويبط، وأظن أنه الذي جلد في الخمر أكثر من خمس مرات، مات في خلافة معاوية.

- راجع: «الاستيعاب» (١٦٢٨)، و«أسد الغابة» (٢٩٠٤، ٥٢٨٧)، و«الإصابة» (٨٨١٠).

(١) هو حاطب بن أبي بلتعة، واسم أبي بلتعة عمرو بن عمير بن سلمة من بني خالفة بطن من لخم، وكنيته أبو عبد الله وقيل: أبو محمد، وقيل: إنه من مذحج وهو حليف لبني أسد بن عبد العزى، ويقال: إنه حالف الزبير، شهد بدرًا والحديبية، أرسله رسول الله ﷺ إلى المقوقس صاحب الإسكندرية سنة ست فأحضره، وقال المرزباني في «معجم الشعراء» كان أحد فرسان قريش في الجاهلية وشعرائها، مات في سنة ثلاثين في خلافة عثمان، وله خمس وستون سنة.

- راجع: «أسد الغابة» (١٠١١)، و«الإصابة» (١٥٤٣).

رَسُولُ الله ﷺ أَنَا وَالزُّبَيْرَ وَالْمِقْدَادَ بْنَ الْأَسْوَدِ [١]؛ فَقَالَ: «**انْطَلِقُوا حَتَّى تَأْتُوا رَوْضَةَ خَاخٍ** [٢]؛ **فَإِنَّ بِهَا ظَعِينَةً** [٣]؛ **وَمَعَهَا كِتَابٌ فَخُذُوهُ مِنْهَا**»؛ فَانْطَلَقْنَا تَتَعَادَى بِنَا خَيْلُنَا، حَتَّى انْتَهَيْنَا إِلَى الرَّوْضَةِ، فَإِذَا نَحْنُ بِالظَّعِينَةِ، فَقُلْنَا: أَخْرِجِي الْكِتَابَ، فَقَالَتْ: مَا مَعِي مِنْ كِتَابٍ، فَقُلْنَا: لَتُخْرِجِنَّ الْكِتَابَ أَوْ لَنُلْقِيَنَّ الثِّيَابَ فَأَخْرَجَتْهُ مِنْ عِقَاصِهَا، فَأَتَيْنَا بِهِ النَّبِيَّ ﷺ فَإِذَا فِيهِ: مِنْ حَاطِبِ بْنِ أَبِي بَلْتَعَةَ إِلَى أُنَاسٍ مِنَ الْمُشْرِكِينَ مِنْ أَهْلِ مَكَّةَ يُخْبِرُهُمْ بِبَعْضِ أَمْرِ رَسُولِ الله ﷺ؛ فَقَالَ رَسُولُ الله ﷺ: «**يَا حَاطِبُ، مَا هَذَا؟**»؛ فَقَالَ: يَا رَسُول الله، لَا تَعْجَلْ عَلَيَّ؛ إِنِّي كُنْتُ امْرَأً مُلْصَقًا فِي قُرَيْشٍ؛ وَلَمْ أَكُنْ مِنْ أَنْفُسِهِمْ، وَكَانَ مَنْ مَعَكَ مِنَ الْمُهَاجِرِينَ لَهُمْ قَرَابَاتٌ بِمَكَّةَ يَحْمُونَ بِهَا أَهْلِيهِمْ وَأَمْوَالَهُمْ؛ فَأَحْبَبْتُ إِذْ فَاتَنِي ذَلِكَ مِنَ النَّسَبِ فِيهِمْ أَنْ أَتَّخِذَ فِيهِمْ يَدًا يَحْمُونَ بِهَا قَرَابَتِي، وَمَا فَعَلْتُ كُفْرًا، وَلَا ارْتِدَادًا عَنْ دِينِي، وَلَا رِضًا بِالْكُفْرِ بَعْدَ الْإِسْلَامِ؛ فَقَالَ رَسُولُ الله ﷺ: «**إِنَّهُ قَدْ صَدَقَكُمْ**»؛ فَقَالَ عُمَرُ: يَا رَسُول الله، دَعْنِي أَضْرِبُ عُنُقَ هَذَا الْمُنَافِقِ؛ فَقَالَ رَسُولُ الله ﷺ: «**إِنَّهُ قَدْ شَهِدَ بَدْرًا؛ وَمَا يُدْرِيكَ لَعَلَّ الله اطَّلَعَ عَلَى أَهْلِ بَدْرٍ؛ فَقَالَ: اعْمَلُوا مَا شِئْتُمْ فَقَدْ غَفَرْتُ لَكُمْ**». قَالَ: فَأَنْزَلَ الله ﷻ: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَتَّخِذُواْ عَدُوِّى

---

(١) هو المقداد بن عمرو بن ثعلبة بن مالك بن ربيعة بن ثمامة بن مطرود بن عمرو بن سعد ابن دهير البهراني وقيل: الحضرمي المعروف بالمقداد بن الأسود الكندي، يكنى أبا الأسود ، وقيل: كنيته أبو عمرو، وقيل: أبو سعيد، وهذا الأسود الذي ينسب إليه هو الأسود بن عبد يغوث الزهري، وهو قديم الإسلام من السابقين، هاجر الهجرتين، وشهد بدرًا والمشاهد بعدها، وهو أول من أظهر الإسلام في مكة، وكان من الفضلاء النجباء الكبار الخيار من أصحاب رَسُول الله ﷺ، اتفقوا على أنه مات سنة ثلاث وثلاثين في خلافة عثمان، وقيل: وهو ابن سبعين سنة.

● راجع: «الاستيعاب» (١٥٦٧)، و«أسد الغابة» (٥٠٧٧)، و«الإصابة» (٨٢٠١).

(٢) اسم مكان بين مكة والمدينة. «معجم البلدان» (٢/ ٣٣٥) لياقوت الحموي؛ ط الفكر، بيروت.

(٣) الظعينة: المرأة في الهودج، وظعن يظعن: إذا سافر. («اللسان»، مادة: ظعن، ٦/ ١٣).

وَعَدُوَّكُمْ أَوْلِيَآءَ ﴾ [الممتحنة:١](١).

يَقُولُ شَيْخُ الْإِسْلَام ابْنُ تَيْمِيَّةَ رحمه الله: «فَمَنْ سَلَكَ طَرِيقَ الاعْتِدَالِ عَظَّمَ مَنْ يَسْتَحِقُّ التَّعْظِيمَ، وَأَحَبَّهُ، وَوَالَاهُ، وَأَعْطَى الْحَقَّ حَقَّهُ، فَيُعَظِّمُ الْحَقَّ، وَيَرْحَمُ الْخَلْقَ، وَيَعْلَمُ أَنَّ الرَّجُلَ الْوَاحِدَ تَكُونُ لَهُ حَسَنَاتٌ وَسَيِّئَاتٌ، فَيُحْمَدُ وَيُذَمُّ، يُثَابُ وَيُعَاقَبُ، وَيُحَبُّ مِنْ وَجْهٍ، وَيُبْغَضُ مِنْ وَجْهٍ؛ هَذَا هُوَ مَذْهَبُ أَهْلِ السُّنَّةِ وَالْجَمَاعَةِ؛ خِلَافًا لِلْخَوَارِجِ وَالْمُعْتَزِلَةِ، وَمَنْ وَافَقَهُمْ» (٢).

وَيُؤَكِّدُ الْإِمَامُ الذَّهَبِيُّ هَذِهِ الْقَاعِدَةَ؛ فَيَقُولُ: «إِنَّ الْكَبِيرَ مِنْ أَئِمَّةِ الْعِلْمِ إِذَا كَثُرَ صَوَابُهُ، وَعُلِمَ تَحَرِّيهِ لِلْحَقِّ، وَاتَّسَعَ عِلْمُهُ، وَظَهَرَ ذَكَاؤُهُ، وَعُرِفَ صَلَاحُهُ وَوَرَعُهُ وَاتِّبَاعُهُ يُغْفَرُ لَهُ زَلَلُهُ، وَلَا نُضَلِّلُهُ وَنَطْرَحُهُ وَنَنْسَى مَحَاسِنَهُ، نَعَمْ، وَلَا نَقْتَدِي بِهِ فِي بِدْعَتِهِ وَخَطَئِهِ، وَنَرْجُو لَهُ التَّوْبَةَ مِنْ ذَلِكَ» (٣).

وَيَقُولُ أَيْضًا(٤): «نَسْأَلُ اللهَ الْعَفْوَ وَالْمَغْفِرَةَ لِأَهْلِ التَّوْحِيدِ، وَنَبْرَأُ إِلَى اللهِ مِنَ الْهَوَى وَالْبِدَعِ، وَنُحِبُّ السُّنَّةَ وَأَهْلَهَا، وَنُحِبُّ الْعَالِمَ عَلَى مَا فِيهِ مِنَ الاتِّبَاعِ وَالصِّفَاتِ الْحَمِيدَةِ، وَلَا نُحِبُّ مَا ابْتَدَعَ فِيهِ بِتَأْوِيلٍ سَائِغٍ، **وَإِنَّمَا الْعِبْرَةُ بِكَثْرَةِ الْمَحَاسِنِ**».

وَيَقُولُ الْإِمَامُ ابْنُ الْقَيِّمِ: «وَمَنْ لَهُ عِلْمٌ بِالشَّرْعِ وَالْوَاقِعِ يَعْلَمُ قَطْعًا أَنَّ الرَّجُلَ الْجَلِيلَ الَّذِي لَهُ فِي الْإِسْلَامِ قَدَمٌ صَالِحٌ وَآثَارٌ حَسَنَةٌ، وَهُوَ مِنَ الْإِسْلَامِ وَأَهْلِهِ بِمَكَانٍ، قَدْ تَكُونُ مِنْهُ الْهَفْوَةُ وَالزَّلَّةُ هُوَ فِيهَا مَعْذُورٌ؛ بَلْ مَأْجُورٌ لِاجْتِهَادِهِ؛

---

(١) أخرجه البخاريُّ، كتاب المغازي، باب غزوة الفتح (٤٢٧٤)، وفى الجهاد، باب الجاسوس (٣٠٠٧)، ومسلمٌ، كتاب فضائل الصحابة، باب من فضائل أهل بدر وقصة حاطب بن أبي بلتعة (٢٤٩٤).

(٢) «منهاج السنة النبوية» (٤/ ٥٤٣، ٥٤٤).

(٣) «سير أعلام النبلاء» (٥/ ٢٧٩).

(٤) المصدر السابق (٢٠/ ٤٦).

فَلَا يَجُوزُ أَنْ يُتَّبَعَ فِيهَا، وَلَا يَجُوزُ أَنْ تُهْدَرَ مَكَانَتُهُ وَإِمَامَتُهُ وَمَنْزِلَتُهُ فِي قُلُوبِ الْمُسْلِمِينَ» [١].

ثُمَّ يَقُولُ فِي «الْمَدَارِجِ»: «فَلَوْ كَانَ كُلُّ مَنْ أَخْطَأَ أَوْ غَلِطَ تُرِكَ جُمْلَةً، وَأُهْدِرَتْ مَحَاسِنُهُ لَفَسَدَتِ الْعُلُومُ وَالصِّنَاعَاتُ وَالْحِكَمُ وَتَعَطَّلَتْ مَعَالِمُهَا» [٢].

وَيَقُولُ الشَّيْخُ مُحَمَّدُ بْنُ عَبْدِ الْوَهَّابِ رحمه الله [٣] **فِي إِحْدَى رَسَائِلِهِ** [٤]: «وَمَتَى لَمْ تَتَبَيَّنْ لَكُمُ الْمَسْأَلَةُ لَمْ يَحِلَّ لَكُمُ الْإِنْكَارُ عَلَى مَنْ أَفْتَى أَوْ عَمِلَ حَتَّى يَتَبَيَّنَ لَكُمْ خَطَؤُهُ؛ بَلِ الْوَاجِبُ: السُّكُوتُ وَالتَّوَقُّفُ؛ فَإِذَا تَحَقَّقْتُمُ الْخَطَأَ بَيَّنْتُمُوهُ، وَلَمْ تُهْدِرُوا جَمِيعَ الْمَحَاسِنِ؛ لِأَجْلِ مَسْأَلَةٍ، أَوْ مِائَةٍ، أَوْ مِائَتَيْنِ أَخْطَأْتُ فِيهِنَّ؛ فَإِنِّي لَا أَدَّعِي الْعِصْمَةَ».

وَرَحِمَ اللهُ سَعِيدَ بْنَ الْمُسَيَّبِ [٥]**، إِذْ يَقُولُ**: «لَيْسَ مِنْ شَرِيفٍ وَلَا عَالِمٍ

---

(١) «إعلام الموقعين» (٣/ ٢٨٣).
(٢) «مدارج السالكين» (٢/ ٣٩).
(٣) هو محمد بن عبد الوهاب بن سليمان بن علي التميمي النجدي، الشيخ المجدد للإسلام في جزيرة العرب، في القرن الثاني عشر من الهجرة، ولد ونشأ في العيينة (بنجد)، شمال مدينة الرياض، ورحل مرتين إلى الحجاز، فمكث في المدينة مدة قرأ بها على بعض أعلامها، وزار الشام، ودخل البصرة فأوذي فيها، وعاد إلى نجد، فسكن (حريملاء)، وكان أبوه قاضيها بعد العيينة، ثم انتقل إلى العيينة، ناهجًا منهج السلف الصالح، داعيًا إلى التوحيد الخالص، ونبذ البدع، وتحطيم ما علق بالإسلام من أوهام، مات رحمه الله سنة «١٢٠٦» هـ.
● راجع: «الأعلام» للزركلي (٦/ ٢٥٧).
(٤) كما في «الدرر السنية في الأجوبة النجدية» (١٠/ ٧٥) الطبعة السادسة، سنة ١٤١٧هـ.
(٥) هو التابعي الجليل سعيد بن المسيب بن حزن بن أبي وهب بن عمرو بن عائذ بن عمران بن مخزوم بن يقظة، الإمام العلم، أبو محمد القرشي، المخزومي، عالم أهل المدينة وسيد التابعين في زمانه، ولد: لسنتين مضيتا في خلافة عمر رضي الله عنه، وقيل: لأربع مضين منها، بالمدينة، رأى عمر وسمع عثمان وعليًّا وغيرهما، وقال سليمان بن موسى: كان أفقه التابعين، وقال أبو حاتم: ليس في التابعين أنبل منه، قال أبو نعيم:
=

وَلَا ذِي فَضْلٍ إِلَّا وَفِيهِ عَيْبٌ، وَلَكِنْ مِنَ النَّاسِ مَنْ لَا يَنْبَغِي أَنْ تُذْكَرَ عُيُوبُهُ؛ فَمَنْ كَانَ فَضْلُهُ أَكْثَرَ مِنْ نَقْصِهِ وُهِبَ نَقْصُهُ لِفَضْلِهِ»(١).

وَإِذَا الحَبِيبُ أَتَى بِذَنْبٍ وَاحِدٍ ... جَاءَتْ مَحَاسِنُهُ بِأَلْفِ شَفِيعِ(٢)

فَالزَّلَلُ وَالْخَطَأُ وَالنَّقْصُ صِفَاتٌ مُلَازِمَةٌ لِلْبَشَرِ، وَأَبَى اللهُ تَعَالَى أَنْ يُلْبِسَ ثَوْبَ الْعِصْمَةِ إِلَّا لِنَبِيِّهِ ﷺ، وَلَوْ نَجَا مِنَ الْخَطَإِ وَالزَّلَلِ أَحَدٌ لَنَجَا مِنْهُ أَفْضَلُ النَّاسِ بَعْدَ الْأَنْبِيَاءِ وَالرُّسُلِ، وَهُمْ أَصْحَابُ النَّبِيِّ ﷺ.

وَمِنْ رَحْمَةِ اللهِ بِهَذِهِ الْأُمَّةِ الْمَيْمُونَةِ أَنَّ مَنِ اجْتَهَدَ رَأْيَهُ فَأَخْطَأَ فِيهِ فَلَهُ أَجْرٌ، وَمَنِ اجْتَهَدَ رَأْيَهُ فَأَصَابَ فِيهِ فَلَهُ أَجْرَانِ - وَلَا شَكَّ أَنَّهُ لَا بُدَّ أَنْ يَكُونَ حَتْمًا مِنْ أَهْلِ الِاجْتِهَادِ- كَمَا فِي حَدِيثِ **الْبُخَارِيِّ وَمُسْلِمٍ** أَنَّهُ ﷺ قَالَ: «**إِذَا حَكَمَ الْحَاكِمُ فَاجْتَهَدَ فَأَصَابَ فَلَهُ أَجْرَانِ؛ وَإِذَا اجْتَهَدَ فَأَخْطَأَ فَلَهُ أَجْرٌ**»(٣).

وَهَا هُمُ الْأَئِمَّةُ الْأَرْبَعَةُ وَغَيْرُهُمْ مِنَ الْعُلَمَاءِ الْمُخْلِصِينَ يُحَذِّرُونَ تَحْذِيرًا شَدِيدًا مِنْ هَذَا التَّعَصُّبِ لِلْأَشْخَاصِ لَا لِلْحَقِّ.

فَيَقُولُ الْإِمَامُ مَالِكٌ رحمه الله: «إِنَّمَا أَنَا بَشَرٌ أُخْطِئُ وَأُصِيبُ، فَانْظُرُوا فِي رَأْيِي؛ فَإِنْ وَافَقَ الْكِتَابَ وَالسُّنَّةَ فَخُذُوا بِهِ؛ وَكُلُّ مَا لَمْ يُوَافِقِ الْكِتَابَ وَالسُّنَّةَ

=

مات سنة ثلاث وتسعين، راجع: «سير أعلام النبلاء» (رقم الترجمة: ٥٩٢)، و«تهذيب التهذيب» (٢/ ٤٢-٤٣).

(١) أخرجه الخطيب في «الكفاية» (٢١٤) بسندٍ ضعيفٍ، وذكَرَهُ ابن عبد البر في «التمهيد» (١١/ ١٧٠)، و«جامع بيان العلم» (٢/ ١٠٥) مستشهدًا به.

(٢) «الفوائد» (١٩٥)، و«المدارج» (١/ ٣٢٨)، و«الآداب الشرعية» لابن مفلح (١/ ٢٤٧) ط مؤسسة الرسالة. بيروت. والبيت لابن نباتة المصري؛ كما في «ديوانه» (١٢٢٦).

(٣) أخرجه البخاريُّ، كتاب الاعتصام، باب أجر الحاكم إذا اجتهد فأصاب أو أخطأ (٧٣٥٢)، ومسلمٌ، كتاب الأقضية، باب بيان أجر الحاكم إذا اجتهد (١٧١٦).

فَاتْرُكُوهُ»(١).

وَهَذَا هُوَ الْإِمَامُ الشَّافِعِيُّ رحمه الله يَقُولُ: «مَا مِنْ أَحَدٍ إِلَّا وَتَذْهَبُ عَلَيْهِ سُنَّةٌ لِلنَّبِيِّ صلى الله عليه وسلم أَوْ تَعْزُبُ عَنْهُ؛ فَمَهْمَا قُلْتُ مِنْ قَوْلٍ أَوْ أَصَّلْتُ مِنْ أَصْلٍ فِيهِ عَنْ رَسُولِ الله خِلَافُ مَا قُلْتُ فَالْقَوْلُ قَوْلُ رَسُولِ الله صلى الله عليه وسلم، وَهُوَ قَوْلِي - وَجَعَلَ يُرَدِّدُ هَذَا الْكَلَامَ»(٢).

وَهَذَا هُوَ الْإِمَامُ أَبُو حَنِيفَةَ رحمه الله يَقُولُ: «لَا يَحِلُّ لِمَنْ يُفْتِي مِنْ كُتُبِي حَتَّى يَعْلَمَ مِنْ أَيْنَ قُلْتُ» (٣). وَكَانَ يَقُولُ: «هَذَا رَأْيِي وَهَذَا أَحْسَنُ مَا قُلْتُ.. فَمَنْ جَاءَ بِرَأْيٍ خَيْرٍ مِنْهُ قَبِلْنَاهُ»(٤).

وَهَذَا هُوَ الْإِمَامُ أَحْمَدُ رحمه الله يَقُولُ: «لَا تُقَلِّدُونِي، وَلَا تُقَلِّدُوا مَالِكًا وَلَا الشَّافِعِيَّ وَلَا الثَّوْرِيَّ»، وَكَانَ يَقُولُ: «مِنْ قِلَّةِ عِلْمِ الرَّجُلِ أَنْ يُقَلِّدَ دِينَهُ الرِّجَالَ، وَقَالَ: لَا تُقَلِّدْ دِينَكَ الرِّجَالَ؛ فَإِنَّهُمْ لَنْ يَسْلَمُوا مِنْ أَنْ يَغْلَطُوا» (٥).

وَهَذَا هُوَ الْإِمَامُ أَبُو حَامِدٍ الْغَزَالِيُّ رحمه الله يَقُولُ (٦): «فَاعْلَمْ أَنَّ مَنْ عَرَفَ الْحَقَّ بِالرِّجَالِ حَارَ فِي مَتَاهَاتِ الضَّلَالِ؛ فَاعْرِفِ الْحَقَّ تَعْرِفْ أَهْلَهُ إِنْ كُنْتَ سَالِكًا طَرِيقَ الْحَقِّ»، وَقَالَ رحمه الله: «وَهَذِهِ عَادَةُ ضُعَفَاءِ الْعُقُولِ يَعْرِفُونَ الْحَقَّ بِالرِّجَالِ لَا الرِّجَالَ بِالْحَقِّ، وَالْعَاقِلُ يَقْتَدِي بِسَيِّدِ الْعُقَلَاءِ عَلِيِّ بْنِ أَبِي طَالِبٍ رضي الله عنه؛ حَيْثُ قَالَ: «لَا تَعْرِفِ الْحَقَّ بِالرِّجَالِ؛ بَلِ اعْرِفِ الْحَقَّ تَعْرِفْ أَهْلَهُ» (٧).

---

(١) انظر: «جامع بيان العلم وفضله» (١٤٣٥، ١٤٣٦) للحافظ ابن عبد البر رحمه الله.
(٢) انظر: «إعلام الموقعين» (٢/ ٢٨٦).
(٣) انظر: «الانتقاء» لابن عبد البر (ص: ١٤٥).
(٤) انظر: «الفتاوى» (٢٠/ ٢١١، ٢١٢).
(٥) نفس المصدر السابق.
(٦) «إحياء علوم الدين» (١/ ٢٣).
(٧) «المنقذ من الضلال» (٣٠) ط المكتبة الثقافية بيروت، و«الإحياء» (١/ ٥٣)، و«تلبيس إبليس» لابن الجوزي (١٠١) ط دار الكتاب العربي.

وَقَالَ ﵀ (١): «فَإِذَا نَسَبْتَ الْكَلَامَ وَأَسْنَدْتَهُ إِلَى قَائِلٍ حَسُنَ فِيهِ اعْتِقَادُهُمْ قَبِلُوهُ وَإِنْ كَانَ بَاطِلًا، وَإِنْ أَسْنَدْتَهُ إِلَى مَنْ سَاءَ فِيهِ اعْتِقَادُهُمْ رَدُّوهُ وَإِنْ كَانَ حَقًّا، فَأَبَدًا يَعْرِفُونَ الْحَقَّ بِالرِّجَالِ، وَلَا يَعْرِفُونَ الرِّجَالَ بِالْحَقِّ، وَهُوَ غَايَةُ الضَّلَالِ، وَهَذِهِ آفَةُ الرَّدِّ».

وَمِنْ ثَمَّ؛ فَإِنَّ تَتَبُّعَ الْعَثَرَاتِ، وَالْبَحْثَ عَنِ الزَّلَّاتِ، وَالْوُقُوفَ عِنْدَ الْهَفَوَاتِ، وَتَصَيُّدَ الْأَخْطَاءِ وَالْهَنَاتِ؛ كُلُّ ذَلِكَ مَعَ التَّغَافُلِ عَنْ جَمِيعِ الْفَضَائِلِ وَالْحَسَنَاتِ؛ دَلِيلٌ عَلَى سُوءِ الطَّوِيَّةِ، وَفَسَادِ الْمَقَاصِدِ وَالنِّيَّاتِ!!

وَأُحَذِّرُ نَفْسِي وَإِخْوَانِي مِنْ هَذَا الظُّلْمِ الَّذِي يَكْثُرُ وَتُشَمُّ رَائِحَتُهُ فِي حَالِ الْخِلَافِ الدَّعَوِيِّ وَالْمَنْهَجِيِّ؛ لِأَنَّنَا نَرَى مِنْ بَيْنِ أَبْنَاءِ الدَّعْوَةِ مَنْ يُمَارِسُ نَوْعًا مِنَ الْإِرْهَابِ الْفِكْرِيِّ بِإِشْهَارِ سَيْفِ الطَّعْنِ وَالتَّجْرِيحِ لِكُلِّ مَنْ يُخَالِفُهُ، وَيُصَوِّبُ إِلَيْهِ سِهَامَ الِاتِّهَامِ بِرِقَّةِ الدِّينِ أَوْ بِالْجَهْلِ، أَوْ بِاتِّبَاعِ الْهَوَى أَوْ بِالنِّفَاقِ أَوْ بِالْكُفْرِ!!

وَأَخِيرًا! بِالْعَمَلِ لِصَالِحِ أَجْهِزَةِ الْأَمْنِ؛ هَكَذَا بِدُونِ بَيِّنَةٍ أَوْ تَثَبُّتٍ أَوْ تَوَرُّعٍ، وَهَذَا مِنْ أَخْطَرِ الْأَمْرَاضِ الَّتِي إِنْ لَمْ تَتَجَاوَزْهَا الدَّعْوَةُ سَيُعَرِّضُهَا لِخَسَائِرَ كَبِيرَةٍ فَادِحَةٍ.

نَسْأَلُ اللهَ أَنْ يُطَهِّرَ قُلُوبَنَا، وَأَنْ يُصْلِحَ أَعْمَالَنَا، وَأَنْ يَجْعَلَ سِرَّنَا خَيْرًا مِنْ عَلَانِيَتِنَا؛ إِنَّهُ وَلِيُّ ذَلِكَ وَالْقَادِرُ عَلَيْهِ.

الْقَاعِدَةُ السَّادِسَةُ: اعْرِفِ الْحَقَّ تَعْرِفْ أَهْلَهُ:

فَإِنَّ الْحَقَّ لَا يُعْرَفُ بِالرِّجَالِ، وَلَكِنَّ الرِّجَالَ هُمُ الَّذِينَ يُعْرَفُونَ بِالْحَقِّ، وَلَا يُوجَدُ أَحَدٌ - مَهْمَا كَانَ - حُجَّةٌ عَلَى دِينِ اللهِ ﷻ إِلَّا الْمَعْصُومُ ﷺ.

لِأَنَّهُ مِمَّا يُؤْلِمُ الْقَلْبَ أَنْ نَرَى مِنْ بَعْضِ أَفْرَادِ الدَّعْوَةِ الْإِسْلَامِيَّةِ تَعَصُّبًا بَغِيضًا

---

(١) «المنقذ من الضلال» (٣٢).

لِبَعْضِ الشُّيُوخِ أَوْ لِبَعْضِ الْجَمَاعَاتِ أَوْقَعَ فِي إِرْبَاكٍ شَدِيدٍ وَحَرَجٍ كَبِيرٍ وَتَأَخُّرٍ مَرِيرٍ!!

«وَقَدْ ثَبَتَ بِالْكِتَابِ وَالسُّنَّةِ وَالْإِجْمَاعِ أَنَّ اللهَ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى فَرَضَ عَلَى الْخَلْقِ طَاعَتَهُ وَطَاعَةَ رَسُولِهِ ﷺ؛ وَلَمْ يُوجِبْ عَلَى هَذِهِ الْأُمَّةِ طَاعَةَ أَحَدٍ بِعَيْنِهِ فِي كُلِّ مَا يَأْمُرُ بِهِ وَيَنْهَى عَنْهُ إِلَّا رَسُولَ اللهِ ﷺ؛ حَتَّى كَانَ صِدِّيقُ هَذِهِ الْأُمَّةِ وَأَفْضَلُهَا بَعْدَ نَبِيِّهَا ﷺ يَقُولُ:

«أَطِيعُونِي مَا أَطَعْتُ اللهَ؛ فَإِذَا عَصَيْتُ اللهَ فَلَا طَاعَةَ لِي عَلَيْكُمْ» (١).

وَقَالَ شَيْخُ الْإِسْلَامِ ابْنُ تَيْمِيَّةَ: «وَلَا يَجِبُ عَلَى أَحَدٍ مِنَ الْمُسْلِمِينَ تَقْلِيدُ شَخْصٍ بِعَيْنِهِ مِنَ الْعُلَمَاءِ فِي كُلِّ مَا يَقُولُ، وَلَا يَجِبُ عَلَى أَحَدٍ مِنَ الْمُسْلِمِينَ الْتِزَامُ مَذْهَبِ شَخْصٍ مُعَيَّنٍ غَيْرَ الرَّسُولِ ﷺ فِي كُلِّ مَا يُوجِبُهُ وَيُخْبِرُ بِهِ؛ بَلْ كُلُّ أَحَدٍ مِنَ النَّاسِ يُؤْخَذُ مِنْ قَوْلِهِ وَيُتْرَكُ إِلَّا رَسُولَ اللهِ ﷺ» (٢).

ثُمَّ يَقُولُ فِي مَوْضِعٍ آخَرَ: «وَالْمَقْصُودُ بِهَذَا الْأَصْلِ: أَنَّ مَنْ نَصَّبَ إِمَامًا فَأَوْجَبَ طَاعَتَهُ مُطْلَقًا؛ اعْتِقَادًا أَوْ حَالًا؛ فَقَدْ ضَلَّ فِي ذَلِكَ، وَكَذَلِكَ مَنْ دَعَا إِلَى اتِّبَاعِ إِمَامٍ مِنْ أَئِمَّةِ الْعِلْمِ فِي كُلِّ مَا قَالَهُ وَأَمَرَ بِهِ وَنَهَى عَنْهُ مُطْلَقًا؛ كَالْأَئِمَّةِ الْأَرْبَعَةِ» (٣).

وَهَذَا تِلْمِيذُهُ ابْنُ الْقَيِّمِ يَقُولُ: «اتِّخَاذُ أَقْوَالِ رَجُلٍ بِعَيْنِهِ بِمَنْزِلَةِ نُصُوصِ الشَّارِعِ لَا يُلْتَفَتُ إِلَى قَوْلِ مَنْ سِوَاهُ؛ بَلْ وَلَا إِلَى نُصُوصِ الشَّارِعِ إِلَّا إِذَا وَافَقَتْ

---

(١) أخرجه عبد الرزاق في «مصنفه» (٢٠٧٠٢) ط المكتب الإسلامي، ومعمر في «جامعه» (١٣١١) عن بعض أهل المدينة، وابن إسحاق؛ كما في «السيرة» لابن هشام (٦/ ٨٣) عن أنس ﷺ، وقال ابن كثير: «إسناده ضعيف»؛ كما في «السيرة النبوية» لابن كثير (٤/ ٤٩٣) ط دار المعرفة بيروت سنة ١٣٩٦هـ.

(٢) «مجموع الفتاوى» (٢٠/ ٢٠٩).

(٣) المصدر السابق (١٩/ ٦٩، ٧٠).

نُصُوصَ قَوْلِهِ؛ فَهَذَا - وَاللهِ- هُوَ الَّذِي أَجْمَعَتِ الْأُمَّةُ عَلَى أَنَّهُ مُحَرَّمٌ فِي دِينِ اللهِ، وَلَمْ يَظْهَرْ فِي الْأُمَّةِ إِلَّا بَعْدَ انْقِرَاضِ الْقُرُونِ الْفَاضِلَةِ» (١).

وَهَذَا الْإِمَامُ الشَّاطِبِيُّ رحمه الله (٢) يُبْدِعُ فِي هَذَا الْمَجَالِ إِبْدَاعًا فِي كِتَابِهِ الْقَيِّمِ «الِاعْتِصَام»؛ **فَيَقُولُ**: «وَلَقَدْ زَلَّ بِسَبَبِ الْإِعْرَاضِ عَنِ الدَّلِيلِ وَالِاعْتِمَادِ عَلَى الرِّجَالِ أَقْوَامٌ خَرَجُوا بِسَبَبِ ذَلِكَ عَنْ جَادَّةِ الصَّحَابَةِ وَالتَّابِعِينَ، وَاتَّبَعُوا أَهْوَاءَهُمْ بِغَيْرِ عِلْمٍ فَضَلُّوا عَنْ سَوَاءِ السَّبِيلِ، وَلْنَذْكُرْ لِذَلِكَ عَشَرَةَ أَمْثِلَةٍ».

وَبَعْدَ مَا ذَكَرَ هَذِهِ الْأَمْثِلَةَ يَقُولُ: «فَالْحَاصِلُ مِمَّا تَقَدَّمَ أَنَّ تَحْكِيمَ الرِّجَالِ مِنْ غَيْرِ الْتِفَاتٍ إِلَى كَوْنِهِمْ وَسَائِلَ لِلْحُكْمِ الشَّرْعِيِّ الْمَطْلُوبِ شَرْعًا ضَلَالٌ، وَمَا تَوْفِيقِي إِلَّا بِاللهِ، وَإِنَّ الْحُجَّةَ الْقَاطِعَةَ وَالْحَاكِمَ الْأَعْلَى هُوَ الشَّرْعُ لَا غَيْرُهُ.

ثُمَّ قَالَ: إِنَّ هَذَا مَذْهَبُ أَصْحَابِ رَسُولِ اللهِ ﷺ وَمَنْ رَأَى سِيَرَهُمْ وَالنَّقْلَ عَنْهُمْ وَطَالَعَ أَحْوَالَهُمْ عَلِمَ ذَلِكَ عِلْمًا يَقِينًا» (٣).

وَمِنْ نَفِيسِ كَلَامِ شَيْخِ الْإِسْلَامِ ابْنِ تَيْمِيَّةَ قَوْلُهُ: «وَلَيْسَ لِأَحَدٍ أَنْ يُنَصِّبَ لِلْأُمَّةِ شَخْصًا يَدْعُو إِلَى طَرِيقَتِهِ، وَيُوَالِي وَيُعَادِي عَلَيْهَا غَيْرَ النَّبِيِّ ﷺ؛ وَلَا يُنَصِّبَ لَهُمْ كَلَامًا يُوَالَى عَلَيْهِ وَيُعَادَى غَيْرَ كَلَامِ اللهِ وَرَسُولِهِ، وَمَا اجْتَمَعَتْ عَلَيْهِ الْأُمَّةُ؛ بَلْ هَذَا مِنْ فِعْلِ أَهْلِ الْبِدَعِ الَّذِينَ يُنَصِّبُونَ لَهُمْ شَخْصًا أَوْ كَلَامًا يُفَرِّقُونَ بِهِ

---

(١) «إعلام الموقعين» (٢/ ٢٣٦).

(٢) هو الحافظ أبو إسحاق إبراهيم بن موسى بن محمد اللخمي الغرناطي المالكي، الشهير بالشاطبي؛ أصوليٌّ، لغويٌّ، حافظ، فقيهٌ، من أهل غرناطة، كان من أئمة المالكية، وله من المؤلفات: «الموافقات» في أصول الفقه، و«الاعتصام»، وله أصول النحو؛ توفي سنة سبعمائة وتسعين هجريَّة.

● انظر: «الأعلام» (١/ ٧٥)، و«هدية العارفين» (١/ ٢٠)لإسماعيل باشا البغدادي، ط دار إحياء التراث العربي، بيروت.

(٣) بتصرفٍ من كتاب «الاعتصام» (٢/ ٣٤٧ - ٣٥٥). ط المكتبة التجارية. مصر.

بَيْنَ الْأُمَّةِ، يُوَالُونَ بِهِ عَلَى ذَلِكَ الْكَلَامِ أَوْ تِلْكَ النِّسْبَةِ، وَيُعَادُونَ»(١).

فَمَا أَحْوَجَ الحُدَاةَ الصَّادِقِيْنَ، وَالدُّعَاةَ المُخْلِصِينَ السَّائِرِيْنَ عَلَى دَرْبِ سَيِّدِ المُرْسَلِينَ إِلَى هَذَا المُقَوِّمِ الجَلِيْلِ مِنْ مُقَوِّمَاتِ الدَّعْوَةِ فِي زَمَنٍ عَزَّ فِيْهِ التَّجَرُّدُ وَالعَدْلُ والإِنْصَافُ!!

---

(١) «مجموع الفتاوى» (٢٠/ ١٦٤).

المَبْحَثُ الثَّالِثُ
البَصِيرَةُ وَالعِلْمُ وَالفَهْمُ وَالعَمَلُ

هَذَا هُوَ المُقَوِّمُ الثَّالِثُ مِنْ مُقَوِّمَاتِ المَنْهَجِ الدَّعَوِيِّ:

قَالَ الله تَعَالَى لِنَبِيِّهِ ﷺ: ﴿قُلْ هَٰذِهِۦ سَبِيلِىٓ أَدْعُوٓاْ إِلَى ٱللَّهِۚ عَلَىٰ بَصِيرَةٍ أَنَا۠ وَمَنِ ٱتَّبَعَنِىۖ وَسُبْحَٰنَ ٱللَّهِ وَمَآ أَنَا۠ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ﴾ [يوسف:١٠٨].

هَذِهِ الْآيَةُ الْكَرِيمَةُ مَنْهَجٌ عَظِيمٌ عَلَى طَرِيقِ الدَّعْوَةِ إِلَى الله، حَدَّدَهُ الله تَعَالَى لِرَسُولِهِ ﷺ فِي هَذِهِ الْمُهِمَّةِ الْكَبِيرَةِ، وَتِلْكَ الرِّسَالَةِ الْخَالِدَةِ، يَأْمُرُ الله تَعَالَى فِيهَا نَبِيَّهُ مُحَمَّدًا ﷺ بِقَوْلِهِ: «قُلْ» فَالدَّعْوَةُ إِلَى الله لَيْسَتْ تَطَوُّعًا وَلَا اخْتِيَارًا - كَمَا ذَكَرْتُ قَبْلَ ذَلِكَ - وَإِنَّمَا هِيَ مِنْ فَرَائِضِ الدِّينِ وَوَاجِبَاتِهِ؛ فَوَاجِبٌ أَنْ نُبَلِّغَ هَذَا الْحَقَّ إِلَى أَهْلِ الْأَرْضِ بِحَقٍّ فِي وَقْتٍ تَخَاذَلَ فِيهِ الْكَثِيرُونَ، وَتَخَلَّفُوا عَنِ الْقِيَامِ بِهَذَا الْحِمْلِ الثَّقِيلِ!! فَهَذَا أَمْرٌ مِنَ الله بِالْبَلَاغِ: «قُلْ» لِذَا قَامَ سَيِّدُ الدُّعَاةِ، وَامْتَثَلَ هَذَا الْأَمْرَ الرَّبَّانِيَّ؛ فَأَدَّى الْأَمَانَةَ، وَبَلَّغَ الرِّسَالَةَ، وَنَصَحَ لِلْأُمَّةِ؛ فَكَشَفَ الله بِهِ الْغُمَّةَ، وَرَغَّبَ فِي ذَلِكَ؛ فَقَالَ ﷺ: **«بَلِّغُوا عَنِّي وَلَوْ آيَةً»** (١)، وَقَالَ: **«نَضَّرَ الله امْرءًا سَمِعَ مَقَالَتِي، فَوَعَاهَا وَحَفِظَهَا وَبَلَّغَهَا، فَرُبَّ حَامِلِ فِقْهٍ إِلَى مَنْ هُوَ أَفْقَهُ مِنْهُ»** (٢)، وَقَالَ: **«لِيُبَلِّغَ الشَّاهِدُ مِنْكُمْ الغَائِبَ»** (٣).

﴿قُلْ هَٰذِهِۦ سَبِيلِىٓ﴾ وَ«هَذِهِ» إِشَارَةٌ لِلْقَرِيبِ؛ فَالسَّبِيلُ: مِنْهَاجُ النُّبُوَّةِ الْوَاضِحُ الْبَيِّنُ، الَّذِي لَا غُمُوضَ وَلَا الْتِبَاسَ فِيهِ، مِنْهَاجٌ وَاضِحُ الْمَعَالِمِ، قَرِيبُ الْوُصُولَ

---

(١) سبق تخريجه في «فضل الدعوة».
(٢) سبق تخريجه في «فضل الدعوة».
(٣) سبق تخريجه في «فضل الدعوة».

إِلَيْهِ، سَهْلُ الْمَعْرِفَةِ وَالسَّيْرِ إِلَيْهِ؛ حِينَئِذٍ يَجِبُ الاعْتِصَامُ وَالتَّمَسُّكُ بِهِ دُونَ أَيِّ شَيْءٍ آخَرَ مِنَ السُّبُلِ الْمُفَرِّقَةِ، وَالْأَهْوَاءِ الْمُشَتِّتَةِ الْمُبْعِدَةِ؛ فَهَذِهِ سَبِيلُهُ؛ أَيْ: طَرِيقَتُهُ وَمَسْلَكُهُ وَسُنَّتُهُ (١)، لَا يَجُوزُ الْعُدُولُ عَنْهَا، وَكُلُّ السُّبُلِ مَسْدُودَةٌ إِلَّا مِنْ طَرِيقِ النَّبِيِّ ﷺ.

وَعَنِ ابْنِ مَسْعُودٍ رضي الله عنه قَالَ: خَطَّ رَسُولُ اللهِ ﷺ خَطًّا بِيَدِهِ، ثُمَّ قَالَ: «**هَذَا سَبِيلُ اللهِ مُسْتَقِيمًا**»، وَخَطَّ خُطُوطًا عَنْ يَمِينِهِ وَشِمَالِهِ، ثُمَّ قَالَ: «**هَذِهِ سُبُلٌ، عَلَى كُلِّ سَبِيلٍ مِنْهَا شَيْطَانٌ يَدْعُو إِلَيْهِ**»، ثُمَّ قَرَأَ: ﴿وَأَنَّ هَٰذَا صِرَٰطِي مُسْتَقِيمًا فَٱتَّبِعُوهُ ۖ وَلَا تَتَّبِعُوا۟ ٱلسُّبُلَ فَتَفَرَّقَ بِكُمْ عَن سَبِيلِهِۦ ۚ ذَٰلِكُمْ وَصَّىٰكُم بِهِۦ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ﴾(٢) [الأنعام:١٥٣].

وَلَقَدْ أَفْرَدَ اللهُ السَّبِيلَ فِي الْآيَةِ؛ لِأَنَّ سَبِيلَ اللهِ وَاحِدٌ لَا يَتَعَدَّدُ؛ كَمَا قَالَ: ﴿ٱهْدِنَا ٱلصِّرَٰطَ ٱلْمُسْتَقِيمَ﴾ [الفاتحة:٦]، وَكَمَا أَفْرَدَ النُّورَ فِي قَوْلِهِ: ﴿لِيُخْرِجَكُم مِّنَ ٱلظُّلُمَٰتِ إِلَى ٱلنُّورِ﴾ [الأحزاب:٤٣]، وَجَمَعَ السُّبُلَ الْأُخْرَى؛ لِكَثْرَتِهَا وَتَعَدُّدِ مَذَاهِبِهَا؛ فَطُرُقُ الْغِوَايَةِ لَا حَصْرَ لَهَا!!!

وَأُضِيفَتْ كَلِمَةُ «**سَبِيلِي**» إِلَى النَّبِيِّ ﷺ بِاعْتِبَارِهِ الْمُبَلِّغَ عَنِ اللهِ تَعَالَى، وَلِأَنَّهَا الطَّرِيقُ الْمُوَصِّلَةُ إِلَى اللهِ عَنْ طَرِيقِ إِمَامِ الدُّعَاةِ ﷺ.

فَسُنَّةُ النَّبِيِّ ﷺ وَحْيٌ لَا يَجُوزُ عَزْلُهُ وَفَصْلُهُ عَنِ الْكِتَابِ الْعَزِيزِ «**أَلَا إِنِّي**

---

(١) «تفسير القرآن العظيم» للحافظ ابن كثير رحمه الله (لسورة يوسف: ١٠٨).

(٢) أخرجه أحمد (١/ ٤٣٥، ٤٦٥)، والدارمي (٢٠٢)، والنسائي في «الكبرى» (١١١٠٩)، والطيالسي (٢٤١)، والحاكم (٢/ ٢٦١، ٣٤٨)، وصححه، ووافقه الذهبي، والشاشي في «مسنده» (٤٩٠،٤٨٩،٤٨٨)، وابن حبان في «صحيحه» (٦، ٧)، وحسَّنه الشيخ الألباني في «المشكاة» (١٦٦)، وصححه في «شرح العقيدة الطحاوية» (ص: ٥٨٧) ط المكتب الإسلامي.

أُوتِيتُ الْكِتَابَ وَمِثْلَهُ مَعَهُ»؛ كَمَا قَالَ ﷺ (١).

وَقَالَ تَعَالَى: ﴿ وَمَا يَنطِقُ عَنِ الْهَوَىٰ ۝٣ إِنْ هُوَ إِلَّا وَحْيٌ يُوحَىٰ ﴾ [النجم:٣، ٤].

وَقَالَ تَعَالَى: ﴿مَّن يُطِعِ الرَّسُولَ فَقَدْ أَطَاعَ اللَّهَ﴾ [النساء:٨٠].

وَالْآيَاتُ الَّتِي تُبَيِّنُ هَذَا الْأَصْلَ لَا تَكَادُ تُحْصَى؛ فَسُنَّةُ النَّبِيِّ ﷺ مُكَمِّلَةٌ وَمُبَيِّنَةٌ وَمُفَسِّرَةٌ لِلْقُرْآنِ الْكَرِيمِ؛ قَالَ الله تَعَالَى: ﴿وَأَنزَلْنَا إِلَيْكَ الذِّكْرَ لِتُبَيِّنَ لِلنَّاسِ مَا نُزِّلَ إِلَيْهِمْ﴾ [النحل:٤٤].

ومَعْنَى قَوْلِهِ: ﴿ قُلْ هَٰذِهِ سَبِيلِي أَدْعُو إِلَى اللَّهِ﴾؛ أَيْ: أَحُثُّ الْخَلْقَ وَالْعِبَادَ عَلَى الْوُصُولِ إِلَى رَبِّهِمْ، وَأُرَغِّبُهُمْ فِي ذَلِكَ، وَأُرَهِّبُهُمْ مِمَّا يُبْعِدُهُمْ عَنْهُ (٢).

إِنَّ الدَّعْوَةَ إِلَى الله وِسَامُ شَرَفٍ لِلْقَائِمِينَ بِهَا، الْعَامِلِينَ بِلَوَازِمِهَا وَأُصُولِهَا وَأَخْلَاقِهَا ﴿ وَمَنْ أَحْسَنُ قَوْلًا مِّمَّن دَعَا إِلَى اللَّهِ وَعَمِلَ صَالِحًا وَقَالَ إِنَّنِي مِنَ الْمُسْلِمِينَ ﴾ [فصلت:٣٣]. لَابُدَّ أَنْ تَكُونَ الدَّعْوَةُ إِلَى الله لَا إِلَى غَيْرِهِ، وَحَتَّى تُحَقِّقَ هَذِهِ الْغَايَةُ لَابُدَّ مِنْ تَحْقِيقِ الْوَسِيلَةِ الْمُوَصِّلَةِ إِلَيْهَا.

قَالَ شَيْخُ الْإِسْلَامِ ابْنُ تَيْمِيَّةَ رحمه الله (٣): «إِنَّهُ سُبْحَانَهُ يَذْكُرُ أَنَّهُ أَمَرَهُ بِالدَّعْوَةِ إِلَى الله تَارَةً، وَتَارَةً بِالدَّعْوَةِ إِلَى سَبِيلِهِ؛ كَمَا قَالَ تَعَالَى: ﴿ ادْعُ إِلَىٰ سَبِيلِ رَبِّكَ بِالْحِكْمَةِ وَالْمَوْعِظَةِ الْحَسَنَةِ ﴾ [النحل:١٢٥]، وَذَلِكَ أَنَّهُ قَدْ عُلِمَ أَنَّ الدَّاعِيَ الَّذِي يَدْعُو غَيْرَهُ إِلَى الْأَمْرِ لَابُدَّ فِيمَا يَدْعُو إِلَيْهِ مِنْ أَمْرَيْنِ:

أَحَدُهُمَا: الْمَقْصُودُ الْمُرَادُ.

---

(١) سبق تخريجه (ص: ٥٩/ الفصل الأول).

(٢) «تيسير الكريم الرحمن» للسعدي (تفسير سورة يوسف: آية رقم: ١٠٨).

(٣) «مجموع الفتاوى»(١٥/ ١٦٢).

وَالثَّانِي: الْوَسِيلَةُ وَالطَّرِيقُ الْمُوَصِّلُ إِلَى الْمَقْصُودِ؛ فَلِهَذَا يَذْكُرُ الدَّعْوَةَ إِلَى اللهِ، وَتَارَةً إِلَى سَبِيلِهِ» ا. هـ.

فَلَابُدَّ مِنَ الْبَصِيرَةِ النَّافِذَةِ، وَالْفَهْمِ الْوَاعِي فِي جَمِيعِ جَوَانِبِ الدَّعْوَةِ؛ لِلدَّاعِي، وَالْمَدْعُوِّ، وَالدَّعْوَةِ نَفْسِهَا، أَنْ يَكُونَ الدَّاعِي عَلَى بَصِيرَةٍ بِحَالِ نَفْسِهِ، وَعَلَى مَعْرِفَةٍ بِرَصِيدِهِ، وَمِقْدَارِ عِلْمِهِ، وَعَلَى بَصِيرَةٍ بِمَا يَكُونُ عَلَيْهِ حَالُ دَعْوَتِهِ، وَعَلَى بَصِيرَةٍ بِمَا يَجْنِيهِ مِنْ ثِمَارٍ، وَمَا يَتَرَتَّبُ عَلَى دَعْوَتِهِ مِنْ آثَارٍ، وَذَلِكَ حَتَّى لَا يَضِيعَ وَقْتُهُ فِيمَا لَا يَنْفَعُ، وَلَابُدَّ أَنْ يَكُونَ عَلَى بَصِيرَةٍ بِحَالِ الْمَدْعُوِّ حَتَّى يَخْتَارَ لَهُ مَا يَصْلُحُ لِأَمْثَالِهِ مِنَ الْأُسْلُوبِ، وَمَا يُنَاسِبُهُ مِنَ الْوَقْتِ، وَمَا يَتَّفِقُ مَعَ مُسْتَوَاهُ الْعِلْمِيِّ، وَمَكَانَتِهِ الاجْتِمَاعِيَّةِ، وَكَذَلِكَ يَجِبُ أَنْ يَكُونَ عَلَى بَصِيرَةٍ بِمَا يَصْلُحُ لِلدَّعْوَةِ نَفْسِهَا مِنْ خُطَطٍ بَنَّاءَةٍ، وَدِرَاسَاتٍ مُتَأَنِّيَةٍ، وَحِسَابَاتٍ دَقِيقَةٍ، وَعَلَى بَصِيرَةٍ بِمَا يُخَطَّطُ لَهَا مِنْ مَكَائِدَ، وَمَا يُحَاكُ ضِدَّهَا مِنْ مُؤَامَرَاتٍ، وَمَا يُرَادُ لَهَا مِنْ قِبَلِ الْأَعْدَاءِ، وَيُدْرِكُ بَعْدَ هَذَا كُلِّهِ أَنْ لِكُلِّ مَقَامٍ مَقَالًا، وَأَنَّ لِكُلِّ بِيئَةٍ مَا يُنَاسِبُ ظُرُوفَهَا؛ تِلْكَ الْكَلِمَةُ الرَّائِعَةُ «**عَلَى بَصِيرَةٍ**» ذَاتُ الْمَدْلُولِ الْعَظِيمِ، الشَّامِلِ الْوَاسِعِ الرَّحِيبِ مِنْ أَخَصِّ الْمُقَوِّمَاتِ وَالشُّرُوطِ الَّتِي يَجِبُ تَوَافُرُهَا لِنَجَاحِ الدَّاعِيَةِ (١).

وَالْقَاعِدَةُ تَقُولُ: مَنْ سَلَكَ طَرِيقًا بِغَيْرِ دَلِيلٍ ضَلَّ، وَمَنْ تَمَسَّكَ بِغَيْرِ الْأُصُولِ زَلَّ!!

وَالدَّلِيلُ الْمُنِيرُ فِي الظَّلْمَاءِ، وَالْأَصْلُ الْعَاصِمُ مِنَ الْأَهْوَاءِ هُوَ الْعِلْمُ، بِفَهْمٍ وَبَصِيرَةٍ.

فَهُوَ الْأَنِيسُ فِي الْوَحْدَةِ، وَالصَّاحِبُ فِي الْغُرْبَةِ، وَالْمُحَدِّثُ فِي الْخَلْوَةِ، وَالْحَاكِمُ الْمُفَرِّقُ بَيْنَ الشَّكِّ وَالْيَقِينِ، وَالْغَيِّ وَالرَّشَادِ، وَالْهُدَى وَالضَّلَالِ.

---

(١) انظر رسالة: «﴿قُلْ هَٰذِهِۦ سَبِيلِىٓ﴾ آيةٌ ومعالم» للدكتور / إبراهيم عباس، ط مكتبة ابن خزيمة بتصرفٍ وتلخيصٍ.

إِنَّهُ زَادُ الْعُقُولِ مِنَ الْجَهْلِ، وَحَيَاةُ الْقُلُوبِ مِنَ الْمَوْتِ، وَمِصْبَاحُ الْأَبْصَارِ مِنَ الظُّلْمَةِ، وَقُوَّةُ الْأَبْدَانِ مِنَ الْخَوْفِ وَالضَّعْفِ.

بِالْعِلْمِ يُعْرَفُ الله وَيُعْبَدُ، وَيُذْكَرُ وَيُوَحَّدُ، وَيُحْمَدُ وَيُمَجَّدُ، وَبِهِ اهْتَدَى إِلَيْهِ الْمُؤْمِنُونَ وَعَرَفَهُ الْعَالِمُونَ؛ لَا يَمْنَحُهُ الله إِلَّا لِلسُّعَدَاءِ، وَلَا يُحْرَمُ مِنْهُ إِلَّا الْأَشْقِيَاءُ(١).

وَرَحِمَ الله مَنْ قَالَ:

مَا الْفَخْرُ إِلَّا لِأَهْلِ الْعِلْمِ إِنَّهُمُ ... عَلَى الْهُدَى لِمَنِ اسْتَهْدَى أَدِلَّاءُ
وَقَدْرُ كُلِّ امْرِئٍ مَا كَانَ يُحْسِنُهُ ... وَالْجَاهِلُونَ لِأَهْلِ الْعِلْمِ أَعْدَاءُ
فَفُزْ بِعِلْمٍ تَعِشْ حَيًّا بِهِ أَبَدًا ... النَّاسُ مَوْتَى وَأَهْلُ الْعِلْمِ أَحْيَاءُ (٢)

لِذَا؛ فَإِنَّ أَغْلَى مَا يُطْلَبُ فِي هَذِهِ الدُّنْيَا هُوَ الْعِلْمُ؛ بَلْ لَمْ يَأْمُرِ الله - جَلَّ وَعَلَا- نَبِيَّهُ ﷺ بِطَلَبِ الازْدِيَادِ مِنْ شَيْءٍ مِنْ هَذِهِ الدُّنْيَا إِلَّا مِنَ الْعِلْمِ؛ فَقَالَ - سُبْحَانَهُ: ﴿وَقُل رَّبِّ زِدْنِي عِلْمًا﴾ [طه: ١١٤].

وَمِنْ أَعْظَمِ كَرَامَاتِ الله - تَعَالَى- لِأَهْلِ الْعِلْمِ؛ أَنَّهُ - جَلَّ وَعَلَا- قَدِ اسْتَشْهَدَ بِهِمْ عَلَى أَجَلِّ وَأَعْظَمِ مَشْهُودٍ بِهِ؛ أَلَا وَهُوَ التَّوْحِيدُ، وَقَرَنَ شَهَادَةَ أَهْلِ الْعِلْمِ بِشَهَادَتِهِ سُبْحَانَهُ، وَشَهَادَةِ مَلَائِكَتِهِ، وَهَذِهِ هِيَ أَعْلَى وَأَعْظَمُ دَرَجَاتِ التَّعْدِيلِ؛ فَإِنَّ الله - جَلَّ وَعَلَا- لَا يَسْتَشْهِدُ بِمَجْرُوحٍ!! فَقَالَ سُبْحَانَهُ: ﴿شَهِدَ ٱللَّهُ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةُ وَأُوْلُواْ ٱلْعِلْمِ قَآئِمَۢا بِٱلْقِسْطِۚ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ﴾ [آل عمران: ١٨].

---

(١) بتصرفٍ واختصارٍ من «مدارج السالكين» (٢/ ٣٧٧) ط دار الحديث.

(٢) نُسِبَت هذه الأبيات لعليٍّ رضي الله عنه، ونُسِبَت كذلك للشافعيِّ رحمه الله، ولغيرهما، انظر: «جامع بيان العلم» (١/ ٤٨) لابن عبد البر، و«الإحياء» (١/ ٧)، و«نظم الدرر» للقضاعي (٢/ ٤٥٠) ط الكتب العلمية، و«تاريخ بغداد» للخطيب (٤/ ٣٩١).

يَشْهَدُ اللهُ - تَعَالَى - لِنَفْسِهِ بِالْوَحْدَانِيَّةِ، وَيُثَنِّي فِي هَذِهِ الشَّهَادَةِ الْكَرِيمَةِ بِمَلَائِكَتِهِ، ثُمَّ يُثَلِّثُ بِأَهْلِ الْعِلْمِ.

ثُمَّ رَفَعَ اللهُ شَأْنَهُمْ، وَأَعْلَى مَنْزِلَتَهُمْ، وَأَجَلَّ قَدْرَهُمْ؛ فَقَالَ ﷻ: ﴿يَرْفَعِ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مِنكُمْ وَٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْعِلْمَ دَرَجَٰتٍ﴾ [المجادلة:١١]، وَلِمَ لَا؟! وَقَدْ شَهِدَ اللهُ - جَلَّ وَعَلَا - لَهُمْ بِهَذِهِ الشَّهَادَةِ الزَّكِيَّةِ؛ فَقَالَ سُبْحَانَهُ: ﴿إِنَّمَا يَخْشَى ٱللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ ٱلْعُلَمَٰٓؤُا۟﴾ [فاطر:٢٨].

فَلَا طَرِيقَ إِلَى مَعْرِفَةِ اللهِ تَعَالَى، وَالْوُصُولِ إِلَى رِضْوَانِهِ، وَالْفَوْزِ بِجَنَّتِهِ إِلَّا بِالْعِلْمِ النَّافِعِ الَّذِي أَنْزَلَ بِهِ كُتُبَهُ، وَبَعَثَ بِهِ رُسُلَهُ.

وَالنَّاسُ عَلَى حَقٍّ وَفِي خَيْرٍ وَهُدًى مَا دَامَ الْعِلْمُ بَاقِيًا فِي الْأَرْضِ؛ فَإِذَا ذَهَبَ الْعِلْمُ بِذَهَابِ أَهْلِهِ وَقَعَ النَّاسُ فِي الضَّلَالِ، هَكَذَا قَالَ سَيِّدُ الرِّجَالِ مُحَمَّدٌ ﷺ؛ فَفِي الْحَدِيثِ الَّذِي رَوَاهُ الشَّيْخَانِ مِنْ حَدِيثِ عَبْدِ اللهِ بْنِ عَمْرٍو رضي الله عنهما عَنِ النَّبِيِّ ﷺ قَالَ: «**إِنَّ اللهَ لَا يَقْبِضُ الْعِلْمَ انْتِزَاعًا يَنْتَزِعُهُ مِنْ صُدُورِ النَّاسِ؛ وَلَكِنْ يَقْبِضُ الْعِلْمَ بِقَبْضِ الْعُلَمَاءِ، حَتَّى إِذَا لَمْ يَتْرُكْ عَالِمًا اتَّخَذَ النَّاسُ رُؤُوسًا جُهَّالًا؛ فَسُئِلُوا فَأَفْتَوْا بِغَيْرِ عِلْمٍ؛ فَضَلُّوا وَأَضَلُّوا**»(١).

وَمِنْ ثَمَّ؛ فَلَقَدْ كَانَ النَّبِيُّ ﷺ عَظِيمَ الاهْتِمَامِ بِالْعِلْمِ، شَدِيدَ الْحَفَاوَةِ بِأَهْلِهِ؛ وَهَذَا طَالِبُ عِلْمٍ كَرِيمٌ يُجَسِّدُ لَنَا هَذِهِ الْحَفَاوَةَ الْكَرِيمَةَ؛ فَيَقُولُ صَفْوَانُ بْنُ عَسَّالٍ الْمُرَادِيُّ (٢) رضي الله عنه: أَتَيْتُ النَّبِيَّ ﷺ وَهُوَ فِي الْمَسْجِدِ مُتَّكِئٌ عَلَى بُرْدٍ لَهُ أَحْمَرَ؛

---

(١) أخرجه البخاريُّ، كتاب العلم، باب كيف يقبض العلم؟ (١٠٠)، ومسلمٌ، كتاب العلم، باب رفع العلم وقبضه (٢٦٧٣).

(٢) هو صفوان بن عسال المراديُّ من بني زاهر بن عامر بن عوثبان بن مراد، سكن الكوفة، وغزا مع النبيِّ ﷺ ثنتي عشرة غزوة.

● راجع: «الإصابة» (٤٠٩٩)، و«أسد الغابة» (٢٥١٧)، و«الاستيعاب» (١٢١٧)، و«تقريب التهذيب» (٢٩٣٧).

فَقُلْتُ لَهُ: يَا رَسُولَ الله، إِنِّي جِئْتُ أَطْلُبُ الْعِلْمَ؛ فَقَالَ النَّبِيُّ ﷺ: **«مَرْحَبًا بِطَالِبِ الْعِلْمِ، إِنَّ طَالِبَ الْعِلْمِ تَحُفُّهُ الْمَلَائِكَةُ بِأَجْنِحَتِهَا؛ ثُمَّ يَرْكَبُ بَعْضُهَا بَعْضًا حَتَّى يَبْلُغُوا السَّمَاءَ الدُّنْيَا مِنْ مَحَبَّتِهِمْ لِمَا يَطْلُبُ»** (١).

وَكَانَ الْإِمَامُ أَحْمَدُ بْنُ حَنْبَلٍ رحمه الله يَقُولُ: «النَّاسُ إِلَى الْعِلْمِ أَحْوَجُ مِنْهُمْ إِلَى الطَّعَامِ وَالشَّرَابِ؛ لِأَنَّ الرَّجُلَ يَحْتَاجُ إِلَى الطَّعَامِ وَالشَّرَابِ فِي الْيَوْمِ مَرَّةً أَوْ مَرَّتَيْنِ، وَحَاجَتُهُ إِلَى الْعِلْمِ بِعَدَدِ أَنْفَاسِهِ» (٢).

وَالْحَدِيثُ عَنْ فَضْلِ الْعِلْمِ حَدِيثٌ طَوِيلٌ، وَلَهُ مَوْضِعٌ آخَرُ، فَإِذَا كَانَ ذَلِكَ كَذَلِكَ؛ فَإِنَّ أَوْلَى النَّاسِ بِذَلِكَ هُمُ الدُّعَاةُ إِلَى الله - تَعَالَى - بِصِفَةٍ خَاصَّةٍ، وَأَبْنَاءُ الدَّعْوَةِ الْإِسْلَامِيَّةِ بِصِفَةٍ عَامَّةٍ.

فَإِنَّ أَوَّلَ وَاجِبٍ عَلَى الدَّاعِيَةِ «الْمُؤَهَّلِ» الَّذِي يَشْتَغِلُ بِالدَّعْوَةِ إِلَى الله عز وجل قَبْلَ أَنْ يَخْطُوَ عَلَى طَرِيقِ الدَّعْوَةِ هُوَ طَلَبُ الْعِلْمِ الشَّرْعِيِّ مِنْ نَبْعَيْهِ الصَّافِيَيْنِ الْكَرِيمَيْنِ: الْقُرْآنِ وَالسُّنَّةِ؛ لِيَكُونَ الْعِلْمُ دَلِيلَهُ وَهَادِيَهُ عَلَى طُولِ الطَّرِيقِ مِنْ أَوَّلِ قَدَمٍ إِلَى آخِرِ قَدَمٍ يَنْتَهِي إِلَيْهِ.

وَمِنْ أَفْقَهِ التَّرَاجِمِ الَّتِي ذَكَرَهَا الْإِمَامُ الْبُخَارِيُّ رحمه الله فِي «الصَّحِيحِ» (٣)

---

(١) أخرجه أحمد (٤/ ٢٣٩، ٢٤٠) مختصرًا، والطبراني في «الكبير» (٧٣٤٧)، والحاكم (١/ ١٠٠، ١٠١)، وابن عدي في «الكامل» (٦/ ٣٣٠)، والضياء في «المختارة» (٣٥) ط مكتبة النهضة، وابنُ عساكر في «تاريخه» (٦٠/ ٣٦٩)، وابن الأثير في «أسد الغابة» (١/ ٥٢٢)، وابن عبد البر في «جامع بيان العلم» (١٦٢)، والآجري في «أخلاق العلماء» (ص: ٣٧)، وقال الهيثميُّ في «المجمع» (١/ ١٣١): «رواه الطبراني في «الكبير»، ورجاله رجال الصحيح»، وجوَّد سنده البوصيري في «إتحاف الخيرة المهرة» (٤/ ٢٦٩) وحسَّنهُ شيخنا الألباني في «صحيح الترغيب والترهيب» (٦٨)، وفي «الصحيحة» (٣٣٩٧).

(٢) «مدارج السالكين» (٢/ ٤٧٠).

(٣) «صحيح البخاري» مع «الفتح»، كتاب العلم، باب العلم قبل القول والعمل =

تَرْجَمَةٌ بِعُنْوَانِ: «بَابُ: الْعِلْمِ قَبْلَ الْقَوْلِ وَالْعَمَلِ».

لِقَوْلِ الله - جَلَّ وَعَلَا -: ﴿ فَٱعْلَمْ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا ٱللَّهُ وَٱسْتَغْفِرْ لِذَنۢبِكَ وَلِلْمُؤْمِنِينَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتِ ۗ وَٱللَّهُ يَعْلَمُ مُتَقَلَّبَكُمْ وَمَثْوَىٰكُمْ ﴾ [محمد:١٩]؛ فَلَقَدْ أَمَرَ الله تَعَالَى نَبِيَّهُ ﷺ فِي هَذِهِ الْآيَةِ الْكَرِيمَةِ بِأَمْرَيْنِ، فَبَدَأَ بِالْعِلْمِ؛ فَقَالَ تَعَالَى: ﴿ فَٱعْلَمْ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا ٱللَّهُ ﴾ ثُمَّ أَعْقَبَهُ بِالْأَمْرِ الثَّانِي وَهُوَ الْعَمَلُ؛ فَقَالَ تَعَالَى: ﴿وَٱسْتَغْفِرْ لِذَنۢبِكَ وَلِلْمُؤْمِنِينَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتِ ۗ وَٱللَّهُ يَعْلَمُ مُتَقَلَّبَكُمْ وَمَثْوَىٰكُمْ ﴾ [محمد:١٩].

فَدَلَّ ذَلِكَ عَلَى أَنَّ مَرْتَبَةَ الْعِلْمِ مُقَدَّمَةٌ عَلَى مَرْتَبَةِ الْعَمَلِ «وَأَنَّ الْعِلْمَ شَرْطٌ فِي صِحَّةِ الْقَوْلِ وَالْعَمَلِ؛ فَلَا يُعْتَبَرَانِ إِلَّا بِهِ، فَهُوَ مُتَقَدِّمٌ عَلَيْهِمَا؛ لِأَنَّهُ مُصَحِّحٌ لِلنِّيَّةِ الْمُصَحِّحَةِ لِلْعَمَلِ» (١).

وَالْعِلْمُ الْمَمْدُوحُ الَّذِي دَلَّ عَلَيْهِ الْكِتَابُ وَالسُّنَّةُ هُوَ الْعِلْمُ الَّذِي وَرَّثَهُ الْأَنْبِيَاءُ؛ كَمَا قَالَ النَّبِيُّ ﷺ: «**وَإِنَّ الْأَنْبِيَاءَ لَمْ يُوَرِّثُوا دِينَارًا وَلَا دِرْهَمًا، إِنَّمَا وَرَّثُوا الْعِلْمَ؛ فَمَنْ أَخَذَهُ أَخَذَ بِحَظٍّ وَافِرٍ**» (٢).

وَقَدْ قَسَّمَ شَيْخُ الْإِسْلَامِ هَذَا الْعِلْمَ إِلَى ثَلَاثَةِ أَقْسَامٍ:

الْقِسْمُ الْأَوَّلُ: عِلْمٌ بِاللهِ وَأَسْمَائِهِ وَصِفَاتِهِ وَمَا يَتْبَعُ ذَلِكَ.

الْقِسْمُ الثَّانِي: عِلْمٌ بِمَا أَخْبَرَ الله بِهِ مِمَّا كَانَ مِنَ الْأُمُورِ الْمَاضِيَةِ، وَمَا يَكُونُ

=

(١/ ١٩٢).

(١) قاله ابن المنيِّر؛ كما في «الفتح» (١/ ١٩٣).

(٢) أخرجه أحمد (٥/ ١٩٦)، والدارمي (٣٤٢)، وابن أبي شيبة في «مسنده» (رقم: ٤٧)، وأبو داود، كتاب العلم، باب الحث على طلب العلم (٣٦٤١)، والترمذيُّ، كتاب العلم، باب ما جاء في فضل الفقه على العبادة (٢٦٨٢)، وابن ماجه في «المقدمة» (٢٢٣)، وابن حبان في «صحيحه» (٨٨)، وحسَّنهُ لغيره الألباني في «صحيح الترغيب» (٧٠)، و«صحيح الجامع» (٦٢٩٧).

مِنَ الْأُمُورِ الْمُسْتَقْبَلَةِ، وَمَا هُوَ كَائِنٌ مِنَ الْأُمُورِ الْحَاضِرَةِ.

الْقِسْمُ الثَّالِثُ: الْعِلْمُ بِمَا أَمَرَ اللهُ بِهِ مِنَ الْعُلُومِ الْمُتَعَلِّقَةِ بِالْقُلُوبِ وَالْجَوَارِحِ مِنَ الْإِيمَانِ بِاللهِ مِنْ مَعَارِفِ الْقُلُوبِ وَأَحْوَالِهَا، وَأَقْوَالِ الْجَوَارِحِ وَأَعْمَالِهَا، وَهَذَا يَنْدَرِجُ فِيهِ الْعِلْمُ بِالْأَقْوَالِ وَالْأَفْعَالِ الظَّاهِرَةِ، وَيَنْدَرِجُ فِيهِ مَا وُجِدَ فِي كُتُبِ الْفُقَهَاءِ مِنَ الْعِلْمِ بِأَحْكَامِ الْأَفْعَالِ الظَّاهِرَةِ، فَإِنَّ ذَلِكَ جُزْءٌ مِنْ جُزْءٍ مِنْ عِلْمِ الدِّينِ» (١).

وَالسُّؤَالُ الْمُهِمُّ الَّذِي يَثُورُ هُنَا هُوَ: مَا أَهَمُّ الْأَسْبَابِ وَالطُّرُقِ الْمُوَصِّلَةِ لِتَحْصِيلِ الْعِلْمِ الشَّرْعِيِّ؟

وَالْجَوَابُ فِي عُجَالَةٍ سَرِيعَةٍ:

أَوَّلًا: أَنْ يَلْجَأَ الدَّاعِيَةُ الصَّادِقُ وَطَالِبُ الْعِلْمِ الْمُخْلِصُ إِلَى اللهِ - جَلَّ وَعَلَا- وَهُوَ الَّذِي عَلَّمَ دَاوُدَ، وَفَهَّمَ سُلَيْمَانَ أَنْ يُعَلِّمَهُ وَأَنْ يُفَهِّمَهُ، وَلَنْ يَعْرِفَ قَدْرَ هَذَا الدُّعَاءِ وَفَضْلَ هَذِهِ الِاسْتِعَانَةِ إِلَّا مَنْ وَجَدَ بَرْدَهَا وَذَاقَ فَضْلَهَا، وَبِاللهِ إِنَّ فَضْلَهَا لَعَظِيمٌ!! وَلَقَدْ كَانَ النَّبِيُّ ﷺ نَفْسُهُ يَلْجَأُ إِلَى اللهِ - تَعَالَى- مُسْتَعِينًا بِهِ سُبْحَانَهُ أَنْ يُعَلِّمَهُ، وَأَنْ يَنْفَعَهُ بِمَا عَلَّمَهُ؛ فَيَقُولُ: «**اللهمَّ انْفَعْنِي بِمَا عَلَّمْتَنِي، وَعَلِّمْنِي مَا يَنْفَعُنِي، وَزِدْنِي عِلْمًا**» (٢).

ثَانِيًا: بَذْلُ أَقْصَى مَا يُمْكِنُ مِنْ جُهْدٍ وَوَقْتٍ وَمَالٍ لِطَلَبِ الْعِلْمِ وَالصَّبْرُ عَلَى ذَلِكَ، وَالْحِرْصُ عَلَى أَخْذِ الْعِلْمِ مِنْ أَهْلِهِ الْمُتَحَقِّقِينَ بِهِ، وَقَدِيمًا قَالُوا (٣): لَقَدْ

---

(١) بتصرفٍ يسيرٍ من «مجموع الفتاوى»(١١/ ٣٩٦، ٣٩٧).

(٢) أخرجه ابن أبي شيبة في «مصنفه» (١٠/ ٢٨١)، وعبد بن حميد في «المنتخب» (١٤١٩)، والترمذيُّ، كتاب الدعوات، باب العفو والعافية (٣٥٩٩)، وابن ماجه في المقدمة، باب الانتفاع بالعلم والعمل به (٢٥١،٣٨٣٣)، والبيهقيُّ في «الشعب» (٤٣٧٦)، والبغويُّ في «شرح السنة» (١٣٧٢)، وصحَّحَهُ الألبانيُّ بشواهده في «الصحيحة» (٣١٥١).

(٣)«الموافقات» (١/ ٩٢) ط المعرفة.

كَانَ الْعِلْمُ فِي صُدُورِ الرِّجَالِ، ثُمَّ انْتَقَلَ إِلَى بُطُونِ الْكُتُبِ، وَصَارَتْ مَفَاتِحُهُ بِأَيْدِي الرِّجَالِ، وَلَمَّا سُئِلَ أَحَدُهُمْ: مَا السَّبَبُ الَّذِي يُنَالُ بِهِ الْعِلْمُ؟ فَقَالَ: بِالْحِرْصِ عَلَيْهِ يَتَّبِعُ؛ وَبِالْحُبِّ لَهُ يَسْتَمِعُ، وَبِالْفَرَاغِ لَهُ يَجْتَمِعُ (١).

وَرَحِمَ اللهُ الشَّافِعِيَّ؛ حَيْثُ قَالَ(٢):

أَخِي لَنْ تَنَالَ الْعِلْمَ إِلَّا بِسِتَّةٍ ... سَأُنْبِيكَ عَنْ تَفْصِيلِهَا بِبَيَانِ
ذَكَاءٌ وَحِرْصٌ وَاجْتِهَادٌ وَبُلْغَةٌ ... وَصُحْبَةُ أُسْتَاذٍ وَطُولُ زَمَانِ

يَقُولُ الْإِمَامُ الشَّاطِبِيُّ ﷺ: «وَإِذَا ثَبَتَ أَنَّهُ لَا بُدَّ مِنْ أَخْذِ الْعِلْمِ عَنْ أَهْلِهِ الْمُتَحَقِّقِينَ بِهِ؛ فَلِذَلِكَ طَرِيقَانِ:

الأَوَّلُ: الْمُشَافَهَةُ، وَهِيَ أَنْفَعُ الطَّرِيقَيْنِ وَأَسْلَمُهُمَا لِوَجْهَيْنِ:

الْوَجْهُ الْأَوَّلُ: خَاصِّيَّةٌ جَعَلَهَا اللهُ - تَعَالَى - بَيْنَ الْمُعَلِّمِ وَالْمُتَعَلِّمِ، يَشْهَدُهَا كُلُّ مَنْ زَاوَلَ الْعِلْمَ وَالْعُلَمَاءَ؛ فَكَمْ مِنْ مَسْأَلَةٍ يَقْرَؤُهَا الْمُتَعَلِّمُ فِي كِتَابٍ، وَيَحْفَظُهَا وَيُرَدِّدُهَا عَلَى قَلْبِهِ، فَلَا يَفْهَمُهَا، فَإِذَا أَلْقَاهَا عَلَيْهِ الْمُعَلِّمُ فَهِمَهَا بَغْتَةً، وَحَصَلَ لَهُ الْعِلْمُ بِهَا، وَهَذَا الْفَهْمُ يَحْصُلُ إِمَّا بِأَمْرٍ عَادِيٍّ مِنْ قَرَائِنِ الْأَحْوَالِ وَإِيضَاحِ مَوْضُوعِ إِشْكَالٍ لَمْ يَخْطُرْ لِلْمُتَعَلِّمِ بِبَالٍ، وَقَدْ يَحْصُلُ بِأَمْرٍ غَيْرِ مُعْتَادٍ، وَلَكِنْ بِأَمْرٍ يَهَبُهُ اللهُ لِلْمُتَعَلِّمِ عِنْدَ مُثُولِهِ بَيْنَ يَدَيِ الْمُعَلِّمِ ظَاهِرَ الْفَقْرِ بَادِيَ الْحَاجَةِ إِلَى مَا يُلْقَى إِلَيْهِ؛ إِذْ يُفْتَحُ لِلْمُتَعَلِّمِ بَيْنَ أَيْدِيهِمْ - أَيِ: الْعُلَمَاءِ - مَا لَا يُفْتَحُ لَهُ دُونَهُمْ.

الطَّرِيقُ الثَّانِي لِأَخْذِ الْعِلْمِ: مُطَالَعَةُ كُتُبِ الْمُصَنِّفِينَ وَمُدَوِّنِي الدَّوَاوِينِ، وَهُوَ أَيْضًا نَافِعٌ فِي بَابِهِ بِشَرْطَيْنِ، - وَمَازَالَ الْكَلَامُ لِلشَّاطِبِي:

الأَوَّلُ: أَنْ يَحْصُلَ لَهُ - أَيْ: لِطَالِبِ الْعِلْمِ - مِنْ فَهْمِ مَقَاصِدِ ذَلِكَ الْعِلْمِ الْمَطْلُوبِ وَمَعْرِفَةِ اصْطِلَاحَاتِ أَهْلِهِ مَا يَتِمُّ لَهُ بِهِ النَّظَرُ فِي الْكُتُبِ.

---

(١) أورده ابن عبد البر في «جامعه» (رقم: ٦٣٢).
(٢) «ديوان الشافعي» (ص: ١١٦).

وَالشَّرْطُ الثاني: أَنْ يَتَحَرَّى كُتُبَ الْمُتَقَدِّمِينَ مِنْ أَهْلِ الْعِلْمِ الْمُرَادَ؛ فَإِنَّهُمْ أَقْعَدُ بِهِ مِنْ غَيْرِهِمْ مِنَ الْمُتَأَخِّرِينَ، وَأَصْلُ ذَلِكَ التَّجْرِبَةُ وَالْخَبَرُ: أَمَّا التَّجْرِبَةُ؛ فَهُوَ أَمْرٌ مُشَاهَدٌ فِي أَيِّ عِلْمٍ كَانَ؛ فَالْمُتَأَخِّرُ لَا يَبْلُغُ مِنَ الرُّسُوخِ فِي عِلْمٍ مَا بَلَغَهُ الْمُتَقَدِّمُ، فَتَحَقُّقُ الصَّحَابَةِ ﷺ بِعُلُومِ الشَّرِيعَةِ لَيْسَ كَتَحَقُّقِ التَّابِعِينَ، وَالتَّابِعُونَ لَيْسُوا كَتَابِعِيهِمْ؛ وَهَكَذَا إِلَى الآنَ، وَمَنْ طَالَعَ سِيَرَهُمْ وَأَقْوَالَهُمْ وَحِكَايَاتِهِمْ، أَبْصَرَ الْعَجَبَ فِي هَذَا الْمَعْنَى.

وَأَمَّا الْخَبَرُ؛ فَفِي الْحَدِيثِ: «**خَيْرُ الْقُرُونِ قَرْنِي، ثُمَّ الَّذِينَ يَلُونَهُمْ، ثُمَّ الَّذِينَ يَلُونَهُمْ**»(١)

وَفِي هَذَا إِشَارَةٌ إِلَى أَنَّ كُلَّ قَرْنٍ مَعَ مَا بَعْدَهُ كَذَلِكَ» (٢) ا. هـ.

وَأَوَدُّ أَنْ أُوَضِّحَ أَنَّهُ لَيْسَ مَعْنَى ذَلِكَ أَنْ نُعْرِضَ عَنْ كُلِّ مَا هُوَ حَدِيثٌ مِنَ الْكُتُبِ وَالْمُصَنَّفَاتِ إِعْرَاضًا تَامًّا؛ فَمِنْهَا مَا هُوَ مُفِيدٌ فِي بَابِهِ كَثِيرًا، لِمَا تَمْتَازُ بِهِ مِنْ تَحْقِيقٍ وَتَدْقِيقٍ وَتَبْوِيبٍ وَسُهُولَةٍ فِي الْعَرْضِ؛ بَلْ وَمِنْهَا مَا لَا يُمْكِنُ بِحَالٍ أَنْ يَسْتَغْنِيَ عَنْهُ الْبَاحِثُ وَطُلَّابُ الْعِلْمِ فَضْلًا عَنِ الدُّعَاةِ وَالْعُلَمَاءِ؛ كَكُتُبِ الْحَدِيثِ الْمُحَقَّقَةِ وَالْمَعَاجِمِ وَالْفَهَارِسِ، وَفَتَاوَى الْمَجَامِعِ الْفِقْهِيَّةِ الْمُعَاصِرَةِ وَغَيْرِهَا؛ وَلَا مَانِعَ مِنِ اسْتِشَارَةِ الْعُلَمَاءِ فِي هَذَا الْجَانِبِ.

ثَالِثًا: مِنْ أَهَمِّ الْأَسْبَابِ وَالطُّرُقِ الْمُوَصِّلَةِ لِتَحْصِيلِ الْعِلْمِ الشَّرْعِيِّ؛ تَرْكُ الذُّنُوبِ وَالْمَعَاصِي بِتَقْوَى اللهِ ﷻ: ﴿**وَاتَّقُوا اللَّهَ وَيُعَلِّمُكُمُ اللَّهُ**﴾ [البقرة:٢٨٢].

---

(١) أخرجه البخاريُّ، كتاب فضائل الصحابة، باب فضائل أصحاب النبي ﷺ (٣٦٥٠)، ومسلمٌ، كتاب فضائل الصحابة، باب فضل الصحابة (٢٥٣٥) عن عمران ﷺ، وأخرجَهُ البخاريُّ (٣٦٥١)، ومسلمٌ (٣٥٣٣) عن ابن مسعود ﷺ، ولفظه: «**خَيْرُ النَّاسِ قَرْنِي**»، ولفظ: «**خَيْرُ الْقُرُونِ..**» ليس ثابتًا.

(٢) بتلخيصٍ من «الموافقات» لأبي إسحاق الشاطبي (١/ ٩٦، ٩٧).

وَلِهَذَا كَانَ عَبْدُ الله بْنُ مَسْعُودٍ ﷺ يَقُولُ: «إِنِّي لَأَحْسَبُ أَنَّ الرَّجُلَ يَنْسَى الْعِلْمَ قَدْ عَلِمَهُ بِالذَّنْبِ يَعْمَلُهُ» (١).

وَلَمَّا جَلَسَ الشَّافِعِيُّ بَيْنَ يَدَيْ مَالِكٍ - رَحِمَهُمَا الله - وَأُعْجِبَ مَالِكٌ بِذَكَاءِ الشَّافِعِيِّ وَحِفْظِهِ، قَالَ لَهُ: «يَا شَافِعِيُّ، إِنِّي أَرَى الله قَدْ جَعَلَ فِي قَلْبِكَ نُورًا؛ فَلَا تُطْفِئْهُ بِظُلْمَةِ الْمَعْصِيَةِ» (٢).

وَقَالَ الْإِمَامُ الشَّافِعِيُّ رَحِمَهُ اللهُ:

شَكَوْتُ إِلَى وَكِيعٍ (٣) سُوءَ حِفْظِي ... فَأَرْشَدَنِي إِلَى تَرْكِ الْمَعَاصِي
وَأَخْبَرَنِي بِأَنَّ الْعِلْمَ نُورٌ ... وَنُورُ الله لَا يُهْدَى لِعَاصِي (٤)

وَإِنْ زَلَّ الدَّاعِيَةُ أَوْ طَالِبُ الْعِلْمِ فَعَلَيْهِ أَنْ يُحْدِثَ تَوْبَةً؛ فَالْكَمَالُ لِلَّهِ وَحْدَهُ، وَالْعِصْمَةُ لِأَنْبِيَائِهِ وَرُسُلِهِ - صَلَوَاتُ الله وَسَلَامُهُ عَلَيْهِمْ أَجْمَعِينَ.

رابعًا: عَدَمُ الْكِبْرِ وَالْحَيَاءِ؛ فَالْحَيَاءُ يَمْنَعُ مِنَ السُّؤَالِ وَالتَّفَقُّهِ فِي الدِّينِ، وَهَذَا

---

(١) أخرجه ابن المبارك في «الزهد» (٨٣)، وأبو نعيم في «الحلية» (١/ ١٣١)، وأبو خيثمة في «العلم» (١٣٢)، ووكيع في «الزهد» (٢٦٩)، وأحمد في «الزهد» (١٩٥، ١٩٦)، والخطيب في «الاقتضاء» (٩٦)، وفي «الجامع لأخلاق الراوي» (١٨٥٠)، وابن عبد البر في «جامع بيان العلم وفضله» (١١٩٥) ط مكتبة التوعية، وقال الهيثميُّ في «المجمع» (١/ ١٩٩): «رواه الطبراني في «الكبير»، ورجاله موثقون إلا أن القاسم لم يسمع من جدِّه».

(٢) أخرجه البيهقي في «مناقب الشافعي» (١/ ١٠٤) ط دار التراث، القاهرة، وانظر: «الجواب الكافي لمن سأل عن الدواء الشافي» لابن القيم (ص: ٣٤).

(٣) هو وكيع بن الجراح بن مليح بن عدي بن فرس بن جمجمة بن سفيان بن الحارث بن عمرو بن عبيد بن رؤاسٍ، الإمام الحافظ، محدث العراق، أبو سفيان الرُّؤَاسي والكوفي، أحد الأعلام. ولد سنة تسع وعشرين ومائة، ومات سنة سبع وتسعين ومائة يوم عاشوراء؛ عاش ثمانيًا وستين سنة، سوى شهر، أو شهرين.

● انظر: «سير أعلام النبلاء» (٦/ ٣٧٨) وما بعدها، و«تهذيب التهذيب» (١١/ ١٢٣).

(٤) «ديوان الشافعي» (ص: ٨٨)، وانظر: «الجواب الكافي» (ص: ٣٥).

مَذْمُومٌ فِي هَذِهِ الْحَالَةِ - لِأَنَّ الْحَيَاءَ خَيْرٌ كُلُّهُ- وَلِهَذَا قَالَتْ عَائِشَةُ رضي الله عنها: «نِعْمَ النِّسَاءُ نِسَاءُ الأَنْصَارِ لَمْ يَمْنَعْهُنَّ الْحَيَاءُ أَنْ يَتَفَقَّهْنَ فِي الدِّينِ» (١).

وَقَالَ مُجَاهِدٌ (٢): «لَا يَتَعَلَّمُ الْعِلْمَ مُسْتَحْيٍ وَلَا مُسْتَكْبِرٌ» (٣).

وَالْكِبْرُ دَاءٌ عُضَالٌ يَنْخُرُ فِي جَسَدِ الدَّعْوَةِ، وَيُعَرِّضُ مَسِيرَهَا لِكَثِيرٍ مِنَ الأَخْطَارِ؛ فَلَوْ لَمْ يَتَكَبَّرْ كُلُّ فَرْدٍ مِنْ أَفْرَادِهَا- يَنْقُصُهُ الْعِلْمُ، وَتَعُوزُهُ الْمَعْرِفَةُ أَنْ يَذْهَبَ إِلَى الْعُلَمَاءِ، وَأَنْ يُزَاحِمَ مَجَالِسَهُمْ - لَمَا رَأَيْنَا مِثْلَ هَذِهِ الْخِلَافَاتِ الْحَادَّةِ الَّتِي لَا يُمْكِنُ بِحَالٍ أَنْ نَغُضَّ الطَّرْفَ عَنْهَا أَوْ نَتَجَاهَلَهَا، وَرَحِمَ اللهُ الْغَزَالِيَّ؛ حَيْثُ يَقُولُ: «لَوْ سَكَتَ مَنْ لَا يَعْرِفُ قَلَّ الِاخْتِلَافُ» (٤). وَقَالَ فِي عِبَارَةٍ أُخْرَى (٥): «وَلَوْ يُنَكَّثُ مِنَ الأَيْدِي مَنْ لَا يَدْرِي لَقَلَّ الْخِلَافُ بَيْنَ الْخَلْقِ».

---

(١) أخرجهُ البخاريُّ - تعليقًا- في كتاب العلم، باب الحياء في العلم(١/ ٢٧٦)، ووصلَهُ مسلمٌ، كتاب الحيض، باب استحباب استعمال المغتسلة من الحيض فرصة من مسك في موضع الدم (٣٣٢/ ٦١).

(٢) هو أبو الحجاج المكيُّ مجاهد بن جبر المخزومي المقرئ، مولى السائب بن السائب شيخ القراء والمفسرين؛ قال قتادة: أعلم من بقي بالتفسير مجاهد، وكان مجاهد، يقول: عرضت القرآن على ابن عباس ثلاثين مرة، وكان ثقةً فقيهًا، عالمًا كثير الحديث؛ كما قال ابن سعد، وقال الحافظ في «التقريب»: «ثقة، إمام في التفسير، وفي العلم؛ مات سنة إحدى أو اثنتين أو ثلاث أو أربع ومائة، وله ثلاث وثمانون» ا. هـ

● راجع: «سير أعلام النبلاء» (٥٤٣)، و«تهذيب التهذيب» (٤/ ٢٥-٢٦) و«التقريب» (ترجمة: ٦٤٨١).

(٣) أخرجه البخاريُّ تعليقًا، كتابُ العلم، باب الحياء في العلم (١/ ٢٧٦)، ووصله أبو نعيم في «الحلية» (٣/ ٢٨٧)، والدارمي في «سننه» (١/ ١١٢)، وقال الحافظ في «الفتح»: «إسناد صحيح على شرط المصنف».

(٤) نقل هذه العبارة عن الغزالي؛ الإمام السيوطي في «الحاوي» (٢/ ١٠٩) ط الكتب العلمية.

(٥) عزاها العلامة جمال الدين القاسمي في «قواعد التحديث» (٣٠٣) ط دار السلام، القاهرة، للغزالي من كتابه «فيصل التفرقة»، ثم عقبها القاسمي بقوله: «أقول: هذا

=

خَامِسًا: وَقُطْبُ الرَّحَى بَيْنَ هَـذِهِ الْأَسْبَابِ، وَبُوصْلَةُ الْخَيْرِ الَّتِي سَتُحَدِّدُ الْمَسَارَ، وَتُوَضِّحُ الِاتِّجَاهَ لِهَذِهِ الطُّرُقِ هِيَ: «الْإِخْلَاصُ»، وَهَذَا هُوَ بَابُ السَّعَادَةِ وَسِرُّ الْقَبُولِ أَنْ يَكُونَ طَلَبُكَ لِلْعِلْمِ الشَّرْعِيِّ خَالِصًا للهِ - جَلَّ وَعَلَا- وَفِي حَدِيثِ كَعْبِ بْنِ مَالِكٍ الْأَنْصَارِيِّ (١) ﷺ قَالَ: سَمِعْتُ رَسُولَ اللهِ ﷺ يَقُولُ: **«مَنْ طَلَبَ الْعِلْمَ؛ لِيُجَارِيَ بِهِ الْعُلَمَاءَ، أَوْ لِيُمَارِيَ بِهِ السُّفَهَاءَ، أَوْ يَصْرِفَ بِهِ وُجُوهَ النَّاسِ إِلَيْهِ؛ فَهُوَ فِي النَّارِ»** (٢).

وَبَعْدُ؛ فَإِذَا وُفِّقَ الدَّاعِيَةُ لِتَحْصِيلِ هَـذَا الْمُقَـوِّمِ الْكَرِيمِ؛ فَلْيَتَرَيَّثْ قَلِيلًا؛ لِيَحْمِلَ مَعَهُ مُقَوِّمًا آخَرَ لَا غِنَى لِزَادِ الْعِلْمِ عَنْهُ بِحَالٍ مِنَ الْأَحْوَالِ؛ أَلَا وَهُوَ: «الْفَهْمُ».

فَإِنَّ مِنْ أَخْطَرِ التَّحَدِّيَاتِ الَّتِي تُوَاجِهُ الدَّعْوَةَ الْإِسْلَامِيَّةَ الْمُعَاصِرَةَ هُوَ التَّعَامُلُ الْخَاطِئُ مِنْ بَعْضِ أَفْرَادِهَا مَعَ النُّصُوصِ الْعَامَّةِ أَوِ الْخَاصَّةِ، وَذَلِكَ بِسُوءِ

=
بمعنى قول سقراط: «لو سكت من لا يعلم لسقط الاختلاف» ا. هـ.
وقد وردت هذه العبارة بلا عزو لقائلها في «جامع بيان العلم وفضله» لابن عبد البر (١/ ٢٩٤) ط مؤسسة الريان، ودار ابن حزم، وكذلك وردت في «تاريخ ابن عساكر» (٢٣/ ٢٨٠) بلفظ: «لو سكت من لا يعلم لاسترحنا» ولم تُعْزَ لأحدٍ.

(١) هو كعب بن مالك بن أبي كعب بن القين بن كعب بن سواد بن غنم بن كعب بن سلمة ابن سعد بن علي بن أسد بن ساردة، أبو عبد الله الأنصاري السلمي، شهد العقبة وبايع بها، وتخلف عن بدر، وشهد أحدًا وما بعدها، وتخلف في تبوك، وهو أحد الثلاثة الذين تيب عليهم؛ قال ابن حبان: مات أيام قتل علي بن أبي طالب، وقال البغويُّ: بلغني أنه مات بالشام في خلافة معاوية.
● انظر: «الإصابة» (٧٤٤٨)، و«الاستيعاب» (١٢٢٦)، و«أسد الغابة» (٤٤٨٥).

(٢) أخرجه الترمذيُّ، كتاب العلم، باب ما جاء فيمن يطلب بعلمه الدنيا (٢٦٥٤) وابن حبان؛ كما في «الإحسان» (٧٧)، وفي «الموارد» (برقم ٩٠)، والحاكم (١/ ٨٦)، والبيهقي في «الشعب» (١٧٧١، ١٧٧٢)، وصححه الألباني لشواهده في «صحيح الترغيب» (١٠١)، طبعة مكتبة المعارف.

فَهْمِهَا، وَمِنْ ثَمَّ بِالاسْتِشْهَادِ بِهَا فِي غَيْرِ مَحَلِّهَا، أَوْ بِوَضْعِهَا فِي غَيْرِ مَوْضِعِهَا، أَوْ بِدُونِ فَهْمِ الْمَنَاطَاتِ الْعَامَّةِ وَالْخَاصَّةِ الَّتِي لَا بُدَّ مِنْهَا لِلرَّبْطِ الصَّحِيحِ السَّلِيمِ بَيْنَ دَلَالَاتِ النُّصُوصِ وَحَرَكَةِ الْوَاقِعِ.

وَلِلْخُرُوجِ مِنْ هَذَا الْمَأْزِقِ الْحَرِجِ؛ فَلَا بُدَّ مِنَ الْعَوْدَةِ إِلَى سَلَفِ الْأُمَّةِ وَعُلَمَائِهَا الثِّقَاتِ لِفَهْمِ نُصُوصِ الْكِتَابِ وَالسُّنَّةِ؛ فَهَذَا هُوَ الْمَنْهَجُ الْمُنْضَبِطُ لِلْفَهْمِ الصَّحِيحِ.

فَكُلُّ خَيْرٍ فِي اتِّبَاعِ مَنْ سَلَفْ وَكُلُّ شَرٍّ فِي ابْتِدَاعِ مَنْ خَلَفْ(١)

فَطَلَبُ الْعِلْمِ بِدُونِ فَهْمٍ دَقِيقٍ وَوَعْيٍ عَمِيقٍ قَدْ يَضُرُّ وَلَا يَنْفَعُ؛ بَلْ قَدْ يُعَرِّضُ لِأَضْرَارٍ خَطِيرَةٍ، وَسَقَطَاتٍ كَبِيرَةٍ، وَزَلَّاتٍ كَثِيرَةٍ؛ بَلْ إِنَّ سُوءَ الْفَهْمِ عَنِ اللهِ وَرَسُولِهِ أَصْلُ كُلِّ بِدْعَةٍ وَضَلَالَةٍ نَشَأَتْ فِي الْإِسْلَامِ قَدِيمًا وَحَدِيثًا، وَهُوَ أَصْلُ كُلِّ خَطَأٍ وَخِلَافٍ فِي الْأُصُولِ وَالْفُرُوعِ.

وَلِذَا يَقُولُ الْإِمَامُ ابْنُ الْقَيِّمِ رحمه الله: «وَهَلْ أَوْقَعَ الْقَدَرِيَّةَ وَالْمُرْجِئَةَ وَالْخَوَارِجَ وَالْمُعْتَزِلَةَ وَالْجَهْمِيَّةَ وَالرَّوَافِضَ وَسَائِرَ طَوَائِفِ أَهْلِ الْبِدَعِ إِلَّا سُوءُ الْفَهْمِ عَنِ اللهِ وَرَسُولِهِ؟!!» (٢).

وَمِنْ ثَمَّ نَرَى الْإِمَامَ الْبُخَارِيَّ رحمه الله يُبَوِّبُ بَابًا عَجِيبًا فِي «صَحِيحِهِ» بِعُنْوَانِ: «بَابُ الْفَهْمِ فِي الْعِلْمِ» يَقُولُ الْحَافِظُ ابْنُ حَجَرٍ رحمه الله: «وَالْفَهْمُ فِطْنَةٌ يَفْهَمُ بِهَا صَاحِبُهَا مِنَ الْكَلَامِ مَا يَقْتَرِنُ بِهِ مِنْ قَوْلٍ أَوْ فِعْلٍ» (٣).

وَفِي «الصَّحِيحَيْنِ» مِنْ حَدِيثِ مُعَاوِيَةَ بْنِ أَبِي سُفْيَانَ (٤) رضي الله عنهما قَالَ: سَمِعْتُ

---

(١) قاله صاحب «جوهرة التوحيد»-كما في «مجلة المنار» لمحمد رشيد رضا- (٢٩/ ٦٥٩).

(٢) «الروح» (٦٣) ط الكتب العلمية.

(٣) «فتح الباري» (١/ ١٩٩).

(٤) هو معاوية بن أبي سفيان: صخر بن حرب بن أمية بن عبد شمس بن عبد مناف القرشي =

النَّبِيَّ ﷺ يَقُولُ: «**مَنْ يُرِدِ الله بِهِ خَيْرًا يُفَقِّهْهُ فِي الدِّينِ**»(١).

يَقُولُ الْحَافِظُ ابْنُ حَجَرٍ: «يُفَقِّهْهُ» أَيْ: يُفَهِّمْهُ، وَمَفْهُومُ الْحَدِيثِ أَنَّ مَنْ لَمْ يَتَفَقَّهْ فِي الدِّينِ؛ أَيْ: يَتَعَلَّمْ قَوَاعِدَ الْإِسْلَامِ وَمَا يَتَّصِلُ بِهَا مِنَ الْفُرُوعِ؛ فَقَدْ حُرِمَ الْخَيْرَ» (٢).

وَلَا شَكَّ أَنَّ النَّاسَ يَتَفَاوَتُونَ فِي هَذَا الْبَابِ تَفَاوُتًا عَظِيمًا ﴿ذَٰلِكَ فَضْلُ ٱللَّهِ يُؤْتِيهِ مَن يَشَآءُۚ وَٱللَّهُ ذُو ٱلْفَضْلِ ٱلْعَظِيمِ﴾ لَا سِيَّمَا إِذَا عَلِمْنَا أَنَّ دَلَالَةَ النُّصُوصِ نَوْعَانِ.

وَهَذَا مَا يُقَرِّرُهُ الْعَلَّامَةُ الْإِمَامُ ابْنُ الْقَيِّمِ رحمه الله؛ فَيَقُولُ: «دَلَالَةُ النُّصُوصِ نَوْعَانِ: حَقِيقِيَّةٌ وَإِضَافِيَّةٌ؛ فَالْحَقِيقِيَّةُ تَابِعَةٌ لِقَصْدِ الْمُتَكَلِّمِ وَإِرَادَتِهِ؛ وَهَذِهِ الدَّلَالَةُ لَا تَخْتَلِفُ.

وَالْإِضَافِيَّةُ تَابِعَةٌ لِفَهْمِ السَّامِعِ وَإِدْرَاكِهِ، وَجَوْدَةِ فِكْرِهِ وَقَرِيحَتِهِ، وَصَفَاءِ ذِهْنِهِ، وَمَعْرِفَتِهِ بِالْأَلْفَاظِ وَمَرَاتِبِهَا، وَهَذِهِ الدَّلَالَةُ تَخْتَلِفُ اخْتِلَافًا مُتَبَايِنًا بِحَسَبِ تَبَايُنِ السَّامِعِينَ فِي ذَلِكَ»(٣).

ثُمَّ ذَكَرَ ابْنُ الْقَيِّمِ عِدَّةَ أَمْثِلَةٍ لِهَذَا الْفَهْمِ الدَّقِيقِ وَالْوَعْيِ الْعَمِيقِ لِلنُّصُوصِ

=

الأموي، أمير المؤمنين، ولد قبل البعثة بخمس سنين، وقيل: بسبع، وقيل: بثلاث عشرة، والأول أشهر، أسلم هو وأبوه وأخوه يزيد وأمه هند في الفتح، وكان معاوية يقول: إنه أسلم عام القضية؛ قال ابن عباس: معاوية فقيه، قال أبو عمر: معاوية وأبوه من المؤلفة قلوبهم؛ مات معاوية في رجب، سنة ستين على الصحيح.

● راجع: «الاستيعاب» (١٤٤٨)، و«أسد الغابة» (٤٩٨٥)، و«الإصابة» (٨٠٨٧).

(١) أخرجه البخاريُّ، كتاب العلم، باب من يرد الله به خيرًا يفقهه في الدين (٧١)، ومسلمٌ، كتاب الزكاة، باب النهي عن المسالة (١٠٣٧) من حديث معاوية رضي الله عنه.

(٢) «فتح الباري» (١/ ١٩٨).

(٣) «إعلام الموقعين» (١/ ٤٠٩).

نَذْكُرُ مِنْهَا هُنَا بَعْضَهَا؛ فَيَقُولُ: «وَقَدْ قَالَ عُمَرُ بْنُ الْخَطَّابِ رضي الله عنه لِلصَّحَابَةِ (١): مَا تَقُولُونَ فِي ﴿إِذَا جَآءَ نَصْرُ ٱللَّهِ وَٱلْفَتْحُ﴾ «أَوَّلِ سُورَةِ النَّصْرِ»؛ فَقَالُوا: أَمَرَ الله نَبِيَّهُ إِذَا فَتَحَ عَلَيْهِ أَنْ يَسْتَغْفِرَهُ؛ فَقَالَ عُمَرُ لِابْنِ عَبَّاسٍ: مَا تَقُولُ أَنْتَ؟ فَقَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ: هُوَ أَجَلُ رَسُولِ الله ﷺ أَعْلَمَهُ إِيَّاهُ؛ فَقَالَ عُمَرُ: مَا أَعْلَمُ مِنْهَا غَيْرَ مَا تَعْلَمُ»؛ **يَقُولُ ابْنُ الْقَيِّمِ**: «وَهَذَا مِنْ أَدَقِّ الْفَهْمِ وَأَلْطَفِهِ، وَلَا يُدْرِكُهُ كُلُّ أَحَدٍ - قَالَ-:

وَفَهِمَ ابْنُ عَبَّاسٍ رضي الله عنهما مِنْ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿وَحَمْلُهُۥ وَفِصَٰلُهُۥ ثَلَٰثُونَ شَهْرًا﴾ [الأحقاف:١٥] مَعَ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿وَٱلْوَٰلِدَٰتُ يُرْضِعْنَ أَوْلَٰدَهُنَّ حَوْلَيْنِ كَامِلَيْنِ﴾ [البقرة:٢٣٣] أَنَّ الْمَرْأَةَ قَدْ تَلِدُ لِسِتَّةِ أَشْهُرٍ، وَلَمْ يَفْهَمْهُ عُثْمَانُ رضي الله عنه فَهَمَّ بِرَجْمِ امْرَأَةٍ وَلَدَتْ لِسِتَّةِ أَشْهُرٍ، حَتَّى ذَكَّرَهُ ابْنُ عَبَّاسٍ، فَأَقَرَّ بِهِ(٢).

وَلَمْ يَفْهَمْ عُمَرُ بْنُ الْخَطَّابِ مِنْ قَوْلِهِ ﷺ: «**أُمِرْتُ أَنْ أُقَاتِلَ النَّاسَ حَتَّى يَقُولُوا لَا إِلَهَ إِلَّا الله، فَإِذَا قَالُوهَا عَصَمُوا مِنِّي دِمَاءَهُمْ وَأَمْوَالَهُمْ إِلَّا بِحَقِّهَا**» قِتَالَ مَانِعِي الزَّكَاةِ حَتَّى بَيَّنَ لَهُ الصِّدِّيقُ رضي الله عنه، فَأَقَرَّ بِهِ عُمَرُ رضي الله عنه» (٣) ا. هـ.(٤).

---

(١) أخرجه البخاريُّ، كتاب المغازي، باب (٥١) (٤٢٩٤)، وفي كتاب «التفسير» (٤٩٧٠).

(٢) أخرجه الطبريُّ في «التفسير» (سورة البقرة آية:٢٣٣)، وابن أبي حاتم في «تفسيره» (لسورة البقرة: ٢٣٣)، وعبد الرزاق في «مصنفه» (٧/ ٣٥١)، وسعيد بن منصور في «سننه»، باب المرأة تلد لستة أشهر (٢٠٧٥)، **قُلْتُ**: ورُوي عن عمر وعلي؛ كما في «سنن سعيد بن منصور» (٢٠٧٤)، وابن أبي حاتم في «التفسير» («لسورة الأحقاف» آية رقم: ١٥)، والطبري في («تفسيره» لسورة الزخرف:٨١)، ومالك في «الموطأ» في الحدود، باب ما جاء في الرجم، باب رقم ١١، وراجع: «الدر المنثور» (تفسير البقرة، والأحقاف).

(٣) أخرجهُ البخاريُّ، كتاب الزكاة، باب وجوب الزكاة (١٣٩٩)، ومسلمٌ، كتاب الإيمان، باب الأمر بقتال الناس حتى يقولوا: لا إله إلا الله محمد رسول الله (٢٠).

(٤) انظر: «إعلام الموقعين» (١/ ٤١٢، ٤١٥).

وَالْأَمْثِلَةُ فِي هَذَا الْبَابِ كَثِيرَةٌ جِدًّا، وَالشَّاهِدُ أَنَّنَا بِحَاجَةٍ مَاسَّةٍ إِلَى عَدَمِ التَّعَجُّلِ، وَإِلَى فَهْمٍ دَقِيقٍ، وَوَعْيٍ عَمِيقٍ لِلنُّصُوصِ الَّتِي نَتَعَامَلُ مَعَهَا حَتَّى لَا نُخْطِئَ، وَلَا نَضُرَّ دَعْوَتَنَا مِنْ حَيْثُ لَا نَشْعُرُ؛ فَإِنَّ الْإِخْلَاصَ وَحْدَهُ لَا يَكْفِي فِي مِثْلِ هَذِهِ الدُّرُوبِ.

وَحِينَئِذٍ - فَقَطْ- يَجِبُ عَلَى الدَّاعِي أَنْ يَتَحَرَّكَ لِدَعْوَةِ النَّاسِ بِعِلْمٍ وَبَصِيرَةٍ دُونَ كَلَلٍ أَوْ مَلَلٍ، وَأَنْ يَجُودَ بِمَا مَنَّ اللهُ عَلَيْهِ مِنْ عِلْمٍ؛ فَالْجُودُ بِالْعِلْمِ؛ كَمَا قَالَ **ابْنُ الْقَيِّمِ**(١): «هُوَ مِنْ أَعْلَى مَرَاتِبِ الْجُودِ، وَالْجُودُ بِالْعِلْمِ أَفْضَلُ مِنَ الْجُودِ بِالْمَالِ؛ لِأَنَّ الْعِلْمَ أَشْرَفُ مِنَ الْمَالِ». وَالْأَنْبِيَاءُ لَمْ يُوَرِّثُوا مَالًا، وَلَمْ يُوَرِّثُوا دِينَارًا وَلَا دِرْهَمًا، وَإِنَّمَا وَرَّثُوا الْعِلْمَ؛ كَمَا قَالَ النَّبِيُّ - عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ (٢)- **فَمَنْ أَخَذَهُ فَقَدْ أَخَذَ بِحَظٍّ وَافِرٍ**؛ أَيْ: مَنْ أَخَذَ الْعِلْمَ فَقَدْ أَخَذَ بِحَظٍّ وَافِرٍ؛ لِأَنَّ اللهَ يُعْطِي الدُّنْيَا وَالْمَالَ لِلْكَافِرِ وَالْمُؤْمِنِ؛ لَكِنَّهُ لَا يُعْطِي الْعِلْمَ وَالدِّينَ إِلَّا لِمَنْ يُحِبُّ؛ نَسْأَلُ اللهَ أَنْ يَجْعَلَنَا أَهْلًا لِهَذِهِ الْكَرَامَةِ، وَأَلَّا يَحْرِمَنَا مِنْهَا حَتَّى نَلْقَاهُ؛ إِنَّهُ وَلِيُّ ذَلِكَ وَمَوْلَاهُ.

وَالنَّاسُ فِي الْجُودِ بِالْعِلْمِ عَلَى مَرَاتِبَ مُتَفَاوِتَةٍ، وَقَدْ شَاءَ اللهُ سُبْحَانَهُ وتَعَالَى أَلَّا يَنْفَعَ بِالْعِلْمِ بَخِيلًا أَبَدًا.

فَالْعَالِمُ الرَّبَّانِيُّ عِنْدَهُ جُودٌ لَا حَصْرَ لَهُ وَلَا حُدُودَ.. الْعَالِمُ الرَّبَّانِيُّ يُبَيِّنُ الْحَقَّ فِي الْمَسْأَلَةِ، وَيُبَيِّنُ الْأَدِلَّةَ مِنْ كَلَامِ اللهِ، وَمِنْ كَلَامِ رَسُولِ اللهِ ﷺ، وَمِنْ أَقْوَالِ أَهْلِ الْعِلْمِ.. وَهَكَذَا لَوْ نَظَرْتَ إِلَى فَتَاوَى عُلَمَاءِ السَّلَفِ بِدَايَةً مِنْ أَصْحَابِ رَسُولِ اللهِ ﷺ لَوَجَدْتَ الْجُودَ ثُمَّ الْجُودَ بِالْعِلْمِ، لَا يَبْخَلُ أَحَدُهُمْ، وَلَا يَضِنُّ بِمَا مَنَّ اللهُ ﷻ بِهِ عَلَيْهِ مِنْ عِلْمٍ، وَلِذَلِكَ أَنَا أَنْصَحُ الْآنَ طَلَبَةَ الْعِلْمِ مِمَّنْ مَنَّ اللهُ عَلَيْهِمْ - بِالْعِلْمِ وَلَوْ كَانَ قَلِيلاً- بِنَصِيحَتَيْنِ:

---

(١) «مدارج السالكين» (٢/ ٢٤٠).

(٢) سبق تخريجه.

الأُولَى: أَلَّا يَغْتَرَّ بِمَا عِنْدَهُ مِنْ عِلْمٍ.

الثَّانِيَةُ: أَلَّا يَجْلِسَ حَتَّى يَأْتِيَهُ النَّاسُ؛ لِيَسْمَعُوا مِنْهُ؛ بَلْ يَجِبُ عَلَيْهِ - هُوَ - أَنْ يَتَحَرَّكَ بِهَذَا النُّورِ الَّذِي مَعَهُ؛ لِيُحَوِّلَ هَذَا النُّورَ وَيَنْقُلَهُ إِلَى مَنْ يَعِيشُونَ فِي ظَلَامٍ.

فَمَا تَرَكَ النَّبِيُّ ﷺ مَحْفَلًا مِنَ الْمَحَافِلِ الْعَامَّةِ إِلَّا وَذَهَبَ بِنَفْسِهِ؛ لِيَدْعُوَ هَؤُلَاءِ النَّاسَ إِلَى اللهِ ﷻ؛ حَتَّى طُرِدَ وَرُمِيَ بِالْحِجَارَةِ، وَوُضِعَ التُّرَابُ عَلَى رَأْسِهِ، وَمَعَ ذَلِكَ يُصِرُّ إِصْرَارًا عَجِيبًا عَلَى أَنْ يُبَلِّغَ لِلنَّاسِ دِينَ اللهِ تَعَالَى، وَهُوَ الَّذِي يَقُولُ: «**مَنْ يُؤْوِينِي حَتَّى أُبَلِّغَ رِسَالَةَ رَبِّي**» (١)، وَيَقُولُ: «**قُولُوا: لَا إِلَهَ إِلَّا اللهُ تُفْلِحُوا**» (٢). وَيَمُرُّ عَلَى الْخِيَامِ، يَخْرُجُ مِنْ خَيْمَةٍ إِلَى خَيْمَةٍ، وَمِنَ الْأُولَى يَدْخُلُ إِلَى الثَّانِيَةِ، وَمِنَ الثَّانِيَةِ يَدْخُلُ إِلَى الثَّالِثَةِ.. طُرِدَ مِنْ مَكَّةَ، فَذَهَبَ إِلَى الطَّائِفِ، وَمِنَ الطَّائِفِ إِلَى الْمَدِينَةِ، وَلَمَّا تَمَّ صُلْحُ الْحُدَيْبِيَّةِ لَمْ يَقِفْ أَبَدًا، وَإِنَّمَا دَعَا مُلُوكَ وَرُؤَسَاءَ الْأَرْضِ إِلَى اللهِ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى؛ فَشَتَّانَ شَتَّانَ بَيْنَ زَهْرَةٍ مِنْ خَلْقِ اللهِ لَا تَحْبِسُ عَنِ النَّاسِ أَرِيجَهَا وَعِطْرَهَا، وَبَيْنَ زَهْرَةٍ اصْطِنَاعِيَّةٍ لَا تَحْمِلُ مِنْ عَالَمِ الزُّهُورِ إِلَّا اسْمَهَا ﴿قُلْ هَٰذِهِۦ سَبِيلِىٓ أَدْعُوٓا۟ إِلَى ٱللَّهِ ۚ عَلَىٰ بَصِيرَةٍ أَنَا۠ وَمَنِ ٱتَّبَعَنِى﴾ [يوسف:١٠٨].

---

(١) جزءٌ من حديث طويل؛ أخرجه أحمد (٣/ ٣٢٢)، وابن حبان (٦٢٧٤)، والبيهقيُّ في «الكبرى» (٩/ ٩)، والحاكم (٢/ ٦٨١) من حديث جابر بن عبد الله مرفوعًا، قال الهيثميُّ في «المجمع» (٦/ ٩): «ورجال أحمد رجال الصحيح»، وصحَّحَهُ العلامة الألبانيُّ في «الصحيحة» (٦٣) ونقل تصحيحَ ابنِ كثيرٍ له في «البداية والنهاية» (٣/ ١٥٩، ١٦٠).

(٢) أخرجه أحمد (٤/ ٦٣)، (٥/ ٣٧١) من حديث شيخ من بني مالك بن كنانة ﷺ مرفوعًا، وأخرجه البخاريُّ في «خلق أفعال العباد» (٢٧) ط مكتبة المعارف، الرياض، وابن خزيمة (١٥٩)، من حديث طارق المحاربي ﷺ مرفوعًا، وأخرجه أحمد (٤/ ٣٤١) من حديث ربيعة بن عباد الديلي ﷺ مرفوعًا، وصحَّحه الألبانيُّ في «صحيح السيرة» (١٤٣).

وَفِي «صَحِيحِ الْبُخَارِيِّ» (١) مِنْ حَدِيثِ عَبْدِ اللهِ بْنِ عَمْرٍو رضي الله عنهما أَنَّ النَّبِيَّ صلى الله عليه وسلم قَالَ: «بَلِّغُوا عَنِّي وَلَوْ آيَةً...». كَمْ تَحْفَظُ مِنَ الْآيَاتِ وَمَا بَلَّغْتَ؟!! كَمْ تَحْمِلُ مِنَ الْعِلْمِ الصَّحِيحِ وَمَا ذَكَّرْتَ؟!! كَمْ جَلَسْتَ لِلتَّعَلُّمِ بَيْنَ أَيْدِي الْعُلَمَاءِ، وَمَا قُمْتَ وَدَعَوْتَ؟!! وَرَبُّنَا يَقُولُ لِحَبِيبِهِ صلى الله عليه وسلم مِنْ أَوَّلِ لَحْظَةٍ: ﴿قُمْ فَأَنذِرْ﴾ [المدثر:٢]؛ فَقَامَ وَلَمْ يَذُقْ طَعْمَ الرَّاحَةِ حَتَّى لَقِيَ اللهَ جَلَّ وَعَلَا.

وَمَا فَارَقَ النَّبِيُّ صلى الله عليه وسلم الدُّنْيَا حَتَّى أَتَمَّ اللهُ بِهِ الْمِلَّةَ، وَأَكْمَلَ بِهِ الدِّينَ وَالشِّرْعَةَ، وَنَزَلَ عَلَيْهِ قَوْلُ اللهِ تَعَالَى: ﴿ٱلْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي وَرَضِيتُ لَكُمُ ٱلْإِسْلَٰمَ دِينًا﴾ [المائدة:٣]؛ حَتَّى عَمَّ الْإِسْلَامُ الْجَزِيرَةَ الْعَرَبِيَّةَ بِأَسْرِهَا؛ بَلْ سَطَعَ نُورُهُ بَعْدَ ذَلِكَ فِي مَشَارِقِ الْأَرْضِ وَمَغَارِبِهَا؛ كُلُّ ذَلِكَ فِي وَقْتٍ لَا يُسَاوِي فِي حِسَابِ الزَّمَنِ شَيْئًا عَلَى الْإِطْلَاقِ؛ كَأَنَّهَا لَحَظَاتٌ مِنْ عُمُرِ الدُّنْيَا؛ فَمَا أَحْوَجَ الْمُسْلِمِينَ بِصِفَةٍ عَامَّةٍ، وَطَلَبَةَ الْعِلْمِ وَالدُّعَاةَ بِصِفَةٍ خَاصَّةٍ أَنْ يَتَلَمَّسُوا خُطَى النَّبِيِّ صلى الله عليه وسلم فِي جِهَادِهِ فِي الدَّعْوَةِ إِلَى دِينِ اللهِ تَبَارَكَ وَتَعَالَى، وَلِيُخْرِجُوا هَذَا الْعِلْمَ وَهَذَا النُّورَ مِنَ السُّطُورِ إِلَى الصُّدُورِ، وَمِنَ الصُّدُورِ إِلَى الدُّورِ؛ لِيَكُونَ فِي دُنْيَا الْبَشَرِ وَاقِعًا عَمَلِيًّا تَطْبِيقِيًّا، وَمَنْهَجَ حَيَاةٍ ﴿هُوَ ٱلَّذِى يُنَزِّلُ عَلَىٰ عَبْدِهِۦٓ ءَايَٰتٍۭ بَيِّنَٰتٍ لِّيُخْرِجَكُم مِّنَ ٱلظُّلُمَٰتِ إِلَى ٱلنُّورِ ۚ وَإِنَّ ٱللَّهَ بِكُمْ لَرَءُوفٌ رَّحِيمٌ﴾

[الحديد:٩].

قَالَ ابْنُ الْقَيِّمِ رحمه الله (٢): «وَمِنَ الْجُودِ بِهِ: أَنْ تَبْذُلَهُ لِمَنْ يَسْأَلُكَ عَنْهُ؛ بَلْ تَطْرَحُهُ طَرْحًا.

وَمِنَ الْجُودِ بِالْعِلْمِ: أَنَّ السَّائِلَ إِذَا سَأَلَكَ عَنْ مَسْأَلَةٍ: اسْتَقْصَيْتَ لَهُ جَوَابَهَا جَوَابًا شَافِيًا، لَا يَكُونُ جَوَابُكَ لَهُ بِقَدْرِ مَا تَدْفَعُ بِهِ الضَّرُورَةَ؛ كَمَا كَانَ بَعْضُهُمْ

---

(١) أخرجه البخاريُّ، كتاب أحاديث الأنبياء، باب ما ذكر عن بني إسرائيل (٣٤٦١).

(٢) «المدارج» (٢/ ٢٩٤).

يَكْتُبُ فِي جَوَابِ الْفُتْيَا: «نَعَمْ» أَوْ «لَا»؟ مُقْتَصِرًا عَلَيْهَا! وَلَقَدْ شَاهَدْتُ مِنْ شَيْخِ الْإِسْلَامِ ابْنِ تَيْمِيَّةَ رحمه الله فِي ذَلِكَ أَمْرًا عَجِيبًا، كَانَ إِذَا سُئِلَ عَنْ مَسْأَلَةٍ حُكْمِيَّةٍ، ذَكَرَ فِي جَوَابِهَا مَذَاهِبَ الْأَئِمَّةِ الْأَرْبَعَةِ إِذَا قَدَرَ، وَمَأْخَذَ الْخِلَافِ، وَتَرْجِيحَ الْقَوْلِ الرَّاجِحِ، وَذَكَرَ مُتَعَلِّقَاتِ الْمَسْأَلَةِ الَّتِي رُبَّمَا تَكُونُ أَنْفَعَ لِلسَّائِلِ مِنْ مَسْأَلَتِهِ، فَيَكُونُ فَرَحُهُ بِتِلْكَ الْمُتَعَلِّقَاتِ وَاللَّوَازِمِ أَعْظَمَ مِنْ فَرَحِهِ بِمَسْأَلَتِهِ.. فَمِنْ جُودِ الْإِنْسَانِ بِالْعِلْمِ: أَنَّهُ لَا يَقْتَصِرُ عَلَى مَسْأَلَةِ السَّائِلِ؛ بَلْ يَذْكُرُ لَهُ نَظَائِرَهَا، وَمُتَعَلَّقَهَا وَمَأْخَذَهَا، بِحَيْثُ يَشْفِيهِ وَيَكْفِيهِ» انْتَهَى.

وَأَضْرِبُ لَكَ مِثَالًا أَخِيرًا عَلَى ذَلِكَ مِنْ حَدِيثِ النَّبِيِّ ﷺ حِينَ سُئِلَ عَنْ مَاءِ الْبَحْرِ؛ كَمَا فِي «**الْمُوَطَّأِ**» لِمَالِكٍ، وَ«**مُسْنَدِ أَحْمَدَ**»، وَ«**السُّنَنِ الْأَرْبَعَةِ**» وَغَيْرِهَا (١) مِنْ حَدِيثِ أَبِي هُرَيْرَةَ رضي الله عنه قَالَ: سَأَلَ رَجُلٌ النَّبِيَّ ﷺ، فَقَالَ: يَا رَسُولَ اللهِ، إِنَّا نَرْكَبُ الْبَحْرَ، وَنَحْمِلُ مَعَنَا الْقَلِيلَ مِنَ الْمَاءِ؛ فَإِنْ تَوَضَّأْنَا بِهِ عَطِشْنَا؛ أَفَنَتَوَضَّأُ بِمَاءِ الْبَحْرِ؟ فَقَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: «**هُوَ الطَّهُورُ مَاؤُهُ الْحِلُّ مَيْتَتُهُ**»؛ فَلَمْ يَقْتَصِرِ النَّبِيُّ ﷺ فِي جَوَابِهِ عَلَى سُؤَالِ السَّائِلِ؛ بَلْ زَادَ عَلَيْهِ مَا يَحْتَاجُونَ إِلَيْهِ، وَهَذَا يُسَمِّيهِ الْعُلَمَاءُ بـ «جَوَابِ الْحَكِيمِ» وَهَذَا مِنْ جُودِهِ ﷺ فِي بَيَانِ الْعِلْمِ وَنَشْرِهِ وَبَثِّهِ وَتَبْلِيغِهِ لِلْأُمَّةِ؛ نَسْأَلُ اللهَ أَنْ يَجْعَلَنَا أَهْلًا لِلْبَلَاغِ عَنْهُ.

كَمَا يَجِبُ عَلَى الدَّاعِي أَنْ يُتَوِّجَ الْعِلْمَ وَالْفَهْمَ بِالْعَمَلِ؛ فَإِنَّنَا فِي أَمَسِّ

---

(١) أخرجه مالك (١/ ٢٢، ٩٩)، (٢/ ٦٠٩)، وأحمد (٢/ ٢٣٧، ٣٦١، ٣٩٣)، وابن أبي شيبة في «مصنفه» (١/ ١٣١)، والدارميُّ (٧٢٩، ٢٠١١)، وأبو داود، كتاب الطهارة، باب الوضوء بماء البحر (٨٣)، والترمذيُّ، كتاب الطهارة، باب ما جاء في ماء البحر أنه طهور (٦٩)، وقال: «حسن صحيح»، والنسائيُّ، كتاب الطهارة، باب في ماء البحر (١/ ٥٠)، وفي كتاب الصيد، باب ميتة البحر (٧/ ٢٠٧)، وفي «الكبرى» (٥٨/ ٤٨٤٣)، وابن ماجه، كتاب الطهارة، باب الوضوء بماء البحر (٣٨٦)، وفي كتاب الصيد، باب الطافي من صيد البحر (٣٢٤٦)، وابن خزيمة (١١١)، وابن حبان (١٢٤٣، ٥٢٥٨)، والحاكم (١/ ٢٣٧، ٢٣٩)، وصححه الألبانيُّ في «صحيح الجامع» (٩٧٦)، و«الصحيحة» (٤٨٠).

الْحَاجَةِ فِي هَذَا الزَّمَنِ إِلَى دُعَاةٍ أَتْقِيَاءَ أَصْفِيَاءَ يُحَوِّلُونَ الْإِسْلَامَ إِلَى وَاقِعٍ مَلْمُوسٍ وَإِلَى مُجْتَمَعٍ يَتَحَرَّكُ، لَا سِيَّمَا إِذَا عَلِمْنَا أَنَّهُ أَصْبَحَ يُحْكَمُ - فِي زَمَانِنَا هَذَا- عَلَى الْإِسْلَامِ مِنْ خِلَالِ وَاقِعِ الْمُسْلِمِينَ الْمُرِّ، وَسُلُوكِ بَعْضِهِمُ الْمُنْحَرِفِ!!

فَلَا يَكْفِي أَبَدًا أَنْ نَشْهَدَ لِلْإِسْلَامِ شَهَادَةً قَوْلِيَّةً - فَقَطْ- بَلْ يَجِبُ أَنْ نَشْهَدَ لَهُ شَهَادَةً عَمَلِيَّةً كَمَا شَهِدْنَا لَهُ شَهَادَةً قَوْلِيَّةً؛ لِأَنَّ التَّنَاقُضَ بَيْنَ الْقَوْلِ وَالْعَمَلِ يَزْرَعُ بُذُورَ النِّفَاقِ فِي الْقُلُوبِ؛ قَالَ تَعَالَى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لِمَ تَقُولُونَ مَا لَا تَفْعَلُونَ ۝٢ كَبُرَ مَقْتًا عِندَ ٱللَّهِ أَن تَقُولُوا۟ مَا لَا تَفْعَلُونَ﴾ [الصف:٢، ٣].

نَعَم؛ فَعِلْمٌ وَفَهْمٌ لَا يَدْفَعُ صَاحِبَهُ إِلَى الْعَمَلِ وَالْقُرْبِ مِنَ اللهِ - جَلَّ وَعَلَا- وَالْبُعْدِ عَنْ مَعْصِيَتِهِ فَلَا خَيْرَ فِيهِ وَلَا بَرَكَةَ؛ بَلْ قَدْ يَكُونُ وَبَالًا وَحُجَّةً عَلَى صَاحِبِهِ؛ فَالْعِلْمُ لَا قِيمَةَ لَهُ بِدُونِ الْعَمَلِ.

وَكَانَ عَبْدُ اللهِ بْنُ مَسْعُودٍ رضي الله عنه يَقُولُ: «تَعَلَّمُوا تَعَلَّمُوا، فَإِذَا عَلِمْتُمْ فَاعْمَلُوا»(١).

وَقَالَ أَبُو الدَّرْدَاءِ رضي الله عنه: «لَا تَكُونُ تَقِيًّا حَتَّى تَكُونَ عَالِمًا، وَلَا تَكُونُ بِالْعِلْمِ جَمِيلًا حَتَّى تَكُونَ بِهِ عَامِلًا» (٢).

وَرَحِمَ اللهُ مَنْ قَالَ:

إِذَا الْعِلْمُ لَمْ تَعْمَلْ بِهِ كَانَ حُجَّةً ... عَلَيْكَ وَلَمْ تُعْذَرْ بِمَا أَنْتَ جَاهِلُهْ

فَإِنْ كُنْتَ قَدْ أُوتِيتَ عِلْمًا فَإِنَّمَا ... يُصَدِّقُ قَوْلَ الْمَرْءِ مَا هُوَ فَاعِلُهْ(٣)

---

(١) أخرجه ابن عبد البر في «جامع بيان العلم وفضله» (١٢٦٦)، وابن أبي شيبة في «مصنفه» (٨/ ١٦١)، والدارميُّ (٣٦٦)، والخطيب في «الاقتضاء» (١٠).

(٢) أخرجه ابن عبد البر في «الجامع» (١٢٣٩)، والدارميُّ (٢٩٣)، والخطيب في «الاقتضاء» (١٦، ١٧).

(٣) «تاريخ دمشق» لابن عساكر (٢٠/ ١٦)، و«جامع بيان العلم» لابن عبد البر (١٢٤٢) والأبيات لسابق بن عبد الله البربري.

وَمَا أَحْوَجَنَا حَقًّا إِلَى هَذِهِ الْوَصِيَّةِ الْغَالِيَةِ لِعَلِيِّ بْنِ أَبِي طَالِبٍ رضي الله عنه؛ **حَيْثُ يَقُولُ**: «يَا حَمَلَةَ الْعِلْمِ؛ اعْمَلُوا بِهِ؛ فَإِنَّمَا الْعَالِمُ مَنْ عَلِمَ، ثُمَّ عَمِلَ وَوَافَقَ عِلْمَهُ عَمَلُهُ، وَسَيَكُونُ أَقْوَامٌ يَحْمِلُونَ الْعِلْمَ لَا يُجَاوِزُ تَرَاقِيَهُمْ، تُخَالِفُ سَرِيرَتُهُمْ عَلَانِيَتَهُمْ؛ وَيُخَالِفُ عَمَلُهُمْ عِلْمَهُمْ، يَقْعُدُونَ حِلَقًا فَيُبَاهِي بَعْضُهُمْ بَعْضًا؛ حَتَّى إِنَّ الرَّجُلَ لَيَغْضَبُ عَلَى جَلِيسِهِ أَنْ يَجْلِسَ إِلَى غَيْرِهِ وَيَدَعَهُ، أُولَئِكَ لَا تَصْعَدُ أَعْمَالُهُمْ فِي مَجَالِسِهِمْ تِلْكَ إِلَى اللهِ عز وجل» (١)!!

فَكَمْ مِنْ مُذَكِّرٍ بِاللهِ وَهُوَ نَاسٍ لِلَّهِ! وَكَمْ مِنْ مُخَوِّفٍ بِاللهِ وَهُوَ جَرِيءٌ عَلَى اللهِ! وَكَمْ مِنْ مُقَرِّبٍ إِلَى اللهِ وَهُوَ بَعِيدٌ عَنِ اللهِ! وَكَمْ مِنْ دَاعٍ إِلَى اللهِ وَهُوَ فَارٌّ مِنَ اللهِ! وَكَمْ مِنْ تَالٍ لِكِتَابِ اللهِ وَهُوَ مُنْسَلِخٌ مِنْ آيَاتِ اللهِ! وَأَخْتِمُ الْحَدِيثَ عَنْ ضَرُورَةِ هَذَا الْمُقَوِّمِ بِحَدِيثٍ يَهُزُّ الْقَلْبَ، وَيُبْكِي الْعَيْنَ؛ أَلَا وَهُوَ حَدِيثُ أُسَامَةَ رضي الله عنه(٢) قَالَ: سَمِعْتُ رَسُولَ اللهِ ﷺ يَقُولُ: «**يُؤْتَى بِالرَّجُلِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ، فَيُلْقَى فِي النَّارِ، فَتَنْدَلِقُ أَقْتَابُ بَطْنِهِ، فَيَدُورُ بِهَا كَمَا يَدُورُ الْحِمَارُ بِالرَّحَى، فَيَجْتَمِعُ إِلَيْهِ أَهْلُ النَّارِ فَيَقُولُونَ: يَا فُلَانُ، مَا لَكَ أَلَمْ تَكُنْ تَأْمُرُ بِالْمَعْرُوفِ وَتَنْهَى عَنِ الْمُنْكَرِ؟ فَيَقُولُ: بَلَى، قَدْ كُنْتُ آمُرُ بِالْمَعْرُوفِ وَلَا آتِيهِ، وَأَنْهَى عَنِ الْمُنْكَرِ وَآتِيهِ**» (٣).

---

(١) أخرجه ابن عبد البر في «جامع بيان العلم وفضله» (١٢٣٧)، والخطيب في «الاقتضاء» (٩)، وفي «الجامع» (٣١)، والدارميُّ (٣٨٣)، وابن عساكر في «تاريخه» (٤٢/ ٥٠٩) بإسنادٍ ضعيفٍ.

(٢) هو أسامة بن زيد بن حارثة بن شراحيل بن كعب بن عبد العزى الكلبيُّ، مولى رَسُول الله ﷺ، وكان يُسَمَّى: حب رَسُول الله ﷺ، يكنى أبا محمد، ويقال: أبو زيد، وكان عمر يجلُّه ويكرمه، واستعمله النبيُّ ﷺ وهو ابن ثمان عشرة سنة؛ قال ابن عبد البر: تُوفي سنة تسع وخمسين، وقيل: بل توفي سنة أربع وخمسين، وهو عندي أصحُّ إن شاء الله.

● راجع: «الاستيعاب» (٢٣)، و«أسد الغابة» (٨٤)، و«الإصابة» (٨٩).

(٣) أخرجه البخاريُّ، كتاب بدء الخلق، باب صفة النار وأنها مخلوقة (٣٢٦٧)، ومسلمٌ، كتاب الزهد، باب عقوبة من يأمر بالمعروف ولا يفعله (٢٩٨٩).

وَرَحِمَ اللهُ مَنْ قَالَ:

يَـا أَيُّهَـا الرَّجُـلُ الْمُعَلِّـمُ غَيْـرَهُ ... هَـلَّا لِنَفْسِـكَ كَـانَ ذَا التَّعْلِـيمُ؟

تَصِفُ الـدَّوَاءَ لِـذِي السِّقَام مِـنَ ... وَمِنَ الضَّـنَى تُمْسِـي وَأَنْـتَ سَـقِيمُ

لَا تَنْـهَ عَـنْ خُلُـقٍ وَتَـأْتِيَ مِثْلَـهُ ... عَـارٌ عَلَيْـكَ إِذَا فَعَلْـتَ عَظِـيمُ

ابْـدَأْ بِنَفْسِـكَ فَانْهَهَـا عَـنْ غَيِّهَـا ... فَـإِذَا انْتَهَـتْ عَنْـهُ فَأَنْـتَ حَكِـيمُ

فَهُنَـاكَ يُقْبَـلُ مَـا تَقُـولُ وَيُقْتَـدَى ... بِـالْقَوْلِ مِنْـكَ وَيَنْفَـعُ التَّعْلِـيمُ(١)

فَإِنْ وَقَعَ الدَّاعِيَةُ أَوْ طَالِبُ الْعِلْمِ فِي زَلَّةٍ نَاشِئَةٍ عَنِ الْغَفَـلَاتِ الَّتِي لَا يَنْجُـو مِنْهَا الْبَشَرُ فَلَا يَنْبَغِي أَنْ تَكُونَ سَبَبًا لِيَتَخَلَّى عَنْ دَعْوَتِهِ.

كَلَّا؛ فَالْكَمَالُ للهِ وَحْدَهُ، وَالْعِصْمَةُ لِأَنْبِيَائِهِ وَرُسُلِهِ؛ بَلْ يَجِبُ أَنْ يَعْتَصِمَ بِاللهِ - جَلَّ وَعَلَا - وَأَنْ يُحْدِثَ تَوْبَةً للهِ - تَعَالَى - وَأَنْ يُكْثِرَ مِنَ الِاسْتِغْفَارِ وَالْعَمَلِ الصَّالِحِ؛ امْتِثَالًا لِأَمْرِ رَسُولِ اللهِ ﷺ لِمُعَاذٍ رضي الله عنه: «**وَأَتْبِعِ السَّيِّئَةَ الْحَسَنَةَ تَمْحُهَا**»(٢).

نَسْأَلُ اللهَ أَنْ يُجَنِّبَنَا الزَّلَلَ؛ إِنَّهُ وَلِيُّ ذَلِكَ وَمَوْلَاهُ.

---

(١) الأبيات منسوبة لأبي الأسود الدؤلي؛ كما في كتاب «تحريم النظر في كتب الكلام»(ص: ٧٦) لابن قدامة المقدسي؛ ط عالم الكتب- الرياض، و«جامع بيان العلم وفضله» (برقم: ١١٨٨)، وكذلك نسبت لابن السماك؛ كما في «شعب الإيمان» للبيهقي (٢/ ٣١٦)، و«تاريخ دمشق» (٣٤/ ١٥٩)، و«البصائر والذخائر» لأبي حيان التوحيدي (٥/ ١٣١) ط دار صادر، بيروت. سنة ١٤١٩هـ، ونسبت للمتوكل الليثي؛ راجع: «لآلئ اللآلئ» (رقم: ٤٨٧).

(٢) أخرجه أحمد (٥/ ١٥٣، ١٥٨، ١٧٧)، والدارميُّ (٢٧٩١)، والترمذيُّ، كتاب البر والصلة، باب ما جاء في معاشرة الناس (١٩٨٧)وقال: «حسن صحيح»، وابن أبي شيبة (٦/ ٨٩)، والحاكم (١/ ١٢١)، وصحَّحه، ووافقه الذهبي، وأبو نعيم في «الحلية» (٤/ ٣٧٨)، عن أبي ذر رضي الله عنه، وأخرجه أحمد (٥/ ٢٣٦)، عن معاذ رضي الله عنه، وحسَّنه الألبانيُّ في «صحيح الجامع» (٩٧).

المَبْحَثُ الرَّابِعُ
عُلُوُّ الهِمَّةِ

العُلُوُّ لُغَةً:

قَالَ ابْنُ فَارِسٍ فِي «مَقَايِيسِ اللُّغَةِ»(١):

«العُلُوُّ: يَدُلُّ عَلَى السُّمُوِّ وَالارْتِفَاعِ، يُقَالُ: تَعَالَى النَّهَارُ؛ أَي: ارْتَفَعَ، وَالْعَلَاءُ: الرِّفْعَةُ، وَأَمَّا الْعُلُوُّ فَالْعَظَمَةُ وَالتَّجَبُّرُ، يَقُولُونَ: عَلَا الْمَلِكُ فِي الْأَرْضِ عُلُوًّا كَبِيرًا؛ قَالَ الله تَعَالَى: ﴿إِنَّ فِرْعَوْنَ عَلَا فِي ٱلْأَرْضِ﴾ [القصص:٤]، وَرَجُلٌ عَالِي الْكَعْبِ؛ أَيْ: شَرِيفٌ، وَيُقَالُ لِكُلِّ شَيْءٍ يَعْلُو: عَلَا يَعْلُو؛ فَإِنْ كَانَ فِي الرِّفْعَةِ وَالشَّرَفِ قِيلَ: عَلِيَ يَعْلَى، وَمَنْ قَهَرَ أَمْرًا فَقَدِ اعْتَلَاهُ وَاسْتَعْلَى عَلَيْهِ وَبِهِ.

قَالَ الْفَرَّاءُ فِي قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿إِنَّ كِتَٰبَ ٱلْأَبْرَارِ لَفِى عِلِّيِّينَ﴾ [المطففين:١٨]: «قَالُوا: إِنَّمَا هُوَ ارْتِفَاعٌ بَعْدَ ارْتِفَاعٍ إِلَى مَا لَا حَدَّ لَهُ».

وَقَالَ الرَّازِيُّ فِي «مُخْتَارِ الصِّحَاحِ»(٢):

«عَلَا فِي الْمَكَانِ مِنْ بَابِ سَمَا، وَعَلِيَ فِي الشَّرَفِ بِالْكَسْرِ عَلَاءً بِالْفَتْحِ وَالْمَدِّ، وَعَلَا يَعْلَى لُغَةٌ مِنْهُ، وَفُلَانٌ مِنْ عِلْيَةِ النَّاسِ، وَهُوَ جَمْعُ عَلِيٍّ أَيْ: شَرِيفٍ رَفِيعٍ، مِثْلُ: صَبِيٍّ وَصِبْيَةٍ، وَعَلَاهُ: غَلَبَهُ، وَعَلَاهُ بِالسَّيْفِ: ضَرَبَهُ، وَعَلَا فِي الْأَرْضِ: تَكَبَّرَ، وَاسْتَعْلَى الرَّجُلُ: عَلَا، وَاسْتَعْلَاهُ: عَلَاهُ، وَاعْتَلَاهُ مِثْلُهُ، وَتَعَلَّى؛ أَيْ: عَلَا فِي مُهْلَةٍ، وَالْعَلِيُّ: الرَّفِيعُ، وَأَعْلَاهُ الله: رَفَعَهُ. وَالتَّعَالِي: الارْتِفَاعُ».

---

(١) «معجم مقاييس اللغة» (ص: ٦٩٠) لأبي الحسين أحمد بن فارس بن زكريا، المتوفى سنة ٣٩٥هـ، ط دار الفكر بيروت، بتلخيص.

(٢) «مختار الصحاح» لمحمد بن أبي بكر بن عبد القادر الرازي (ص:٢٤٩) ط دار الحديث.

الهِمَّةُ لُغَةً:

قَالَ ابْنُ فَارِسٍ فِي «الْمَقَايِيسِ»(١):

«.. وَالْهَمُّ: مَا هَمَمْتَ بِهِ، وَكَذَلِكَ الْهِمَّةُ، ثُمَّ تُشْتَقُّ مِنَ الْهِمَّةِ الْهُمَامُ: الْمَلِكُ الْعَظِيمُ الْهِمَّةِ».

وَقَالَ ابْنُ مَنْظُورٍ (٢):

«الْهَمُّ: الْحُزْنُ، وَجَمْعُهُ: هُمُومٌ، وَهَمَّهُ الْأَمْرُ هَمًّا وَمَهَمَّةً وَأَهَمَّهُ فَاهْتَمَّ وَاهْتَمَّ بِهِ، وَيُقَالُ: لَا مَهَمَّةَ لِي بِالْفَتْحِ، وَلَا هَمَامِ؛ أَيْ: لَا أَهُمُّ بِذَلِكَ، وَلَا أَفْعَلُهُ، وَأَهَمَّنِي الْأَمْرُ: إِذَا أَقْلَقَكَ وَأَحْزَنَكَ، وَالْهِمَّةُ: وَاحِدَةُ الْهِمَمِ، وَهَمَّ بِالشَّيْءِ يَهُمُّ هَمًّا: نَوَاهُ وَأَرَادَهُ وَعَزَمَ عَلَيْهِ، وَالْهِمَّةُ وَالْهَمَّةُ: مَا هَمَّ بِهِ مِنْ أَمْرٍ؛ لِيَفْعَلَهُ، وَتَقُولُ: إِنَّهُ لَعَظِيمُ الْهَمِّ، وَإِنَّهُ لَصَغِيرُ الْهِمَّةِ، وَإِنَّهُ لَبَعِيدُ الْهِمَّةِ وَالْهَمَّةِ، بِالْفَتْحِ، وَالْهُمَامُ: اسْمٌ مِنْ أَسْمَاءِ الْمَلِكِ الْعَظِيمِ هِمَّتُهُ، وَقِيلَ: لِأَنَّهُ إِذَا هَمَّ بِأَمْرٍ أَمْضَاهُ لَا يُرَدُّ عَنْهُ؛ بَلْ يَنْفُذُ كَمَا أَرَادَ، وَقِيلَ: الْهُمَامُ: السَّيِّدُ الشُّجَاعُ السَّخِيُّ، وَالْهُمَامُ: الْأَسَدُ».

وَاصْطِلَاحًا:

قَالَ الْجُرْجَانِيُّ (٣): «الْهِمَّةُ: تَوَجُّهُ الْقَلْبِ وَقَصْدُهُ بِجَمِيعِ قُوَاهُ الرُّوحَانِيَّةِ إِلَى جَانِبِ الْحَقِّ لِحُصُولِ الْكَمَالِ لَهُ أَوْ لِغَيْرِهِ» (٤).

---

(١) (ص: ١٠٥٦).

(٢) «لسان العرب» (٩/ ١٣٨ وما بعدها).

(٣) هو علي بن محمد بن علي الحسيني الجرجاني، عالم الشرق، وهو من أولاد محمد بن زيد الداعي، بينه وبينه ثلاثة عشر أبًا، ولد سنة أربعين وسبعمائة، له مصنفات كثيرة نافعة، منها: «التعريفات»، و«شرح المفتاح»، و«شرح المواقف العضدية» وغيرها الكثير؛ تُوفي يوم الأربعاء، سادس ربيع الآخر، سنة ست عشرة وثمانمائة بشيراز، وقيل: في سنة أربع عشرة وثمانمائة؛ راجع: «البدر الطالع» (٣٢٩)، و«الأعلام» للزركلي (٥/ ٧)، و«الضوء اللامع» (١٠٠٨٧).

(٤) «التعريفات» للجرجاني الحنفي (ص:٢٤٨) ط مكتبة القرآن، القاهرة.

لَقَدْ تحَرَّكَ أَهْلُ الْبَاطِلِ بِكُلِّ السُّبُلِ، وَبَذَلُوا فِي ذَلِكَ الْأَوْقَاتَ وَالْأَمْوَالَ وَالْأَعْمَالَ وَالطَّاقَاتِ الْجَبَّارَةَ الْهَائِلَةَ!! فِي الْوَقْتِ الَّذِي تَقَاعَسَ فِيهِ أَهْلُ الْحَقِّ عَنِ الْحَقِّ الَّذِي مِنْ أَجْلِهِ خَلَقَ اللهُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ، وَالْجَنَّةَ وَالنَّارَ، وَمِنْ أَجْلِهِ وَلِأَجْلِهِ أَنْزَلَ الْكُتُبَ، وَأَرْسَلَ الرُّسُلَ!!.

وَمَا مِنْ أَحَدٍ إِلَّا وَهُوَ يَحْمِلُ فِي قَلْبِهِ هُمُومًا كَثِيرَةً؛ فَهَذَا يَحْمِلُ هَمَّ الْوَظِيفَةِ، وَهَذَا يَحْمِلُ هَمَّ الْبَيْتِ وَالْأَوْلَادِ، وَذَاكَ يَحْمِلُ هَمَّ الْمَالِ، لَكِنْ مَنْ مِنَّا يَحْمِلُ هَمَّ الدِّينِ، كُلٌّ عَلَى قَدْرِ طَاقَتِهِ وَاسْتِطَاعَتِهِ؛ فَلَا يَنْبَغِي لِمُسْلِمٍ أَنْ يَنَامَ مِلْءَ جَفْنِهِ، وَأَنْ يَأْكُلَ مِلْءَ بَطْنِهِ، وَأَنْ يَضْحَكَ مِلْءَ فَمِهِ؛ لَا يُفَكِّرُ أَنْ يَصْنَعَ شَيْئًا لِدِينِهِ، وَكَأَنَّ الْأَمْرَ لَا يَعْنِيهِ!!؛ فَسَيُسْأَلُ الْجَمِيعُ عَنْ هَذَا الدِّينِ؛ فَهَلْ تَحَرَّكْتَ لِدِينِ اللهِ تَبَارَكَ وَتَعَالَى؟!!، هَلْ بَذَلْتَ شَيْئًا لدَعْوَةِ اللهِ تَعَالَى؟!.

وَلَنْ يَنْجُوَ أَحَدٌ إِلَّا إِذَا قَامَ بِهَذِهِ الْأَمَانَةِ؛ فَنَحْنُ رُكَّابُ سَفِينَةٍ وَاحِدَةٍ، إِنْ نَجَتْ نَجَا الصَّالِحُونَ وَالطَّالِحُونَ، وَإِنْ هَلَكَتْ هَلَكَ الصَّالِحُونَ وَالطَّالِحُونَ؛ فَالدَّعْوَةُ إِلَى اللهِ وَاجِبُ الْجَمِيعِ؛ لِذَا فَهِيَ تَحْتَاجُ إِلَى بَذْلٍ وَتَضْحِيَةٍ، وَإِلَى هِمَّةٍ عَالِيَةٍ، وَلَقَدْ كَانَ أَعْلَى النَّاسِ هِمَّةً، وَأَصْدَقُهُمْ عَزِيمَةً، وَأَعْظَمُهُمْ بَذْلًا وَدَعْوَةً وَتَضْحِيَةً وَعَطَاءً هُوَ النبيَّ ﷺ؛ فَلَقَدْ كَانَ - بِأَبِي وَأُمِّي وَرُوحِي -أَشَدَّ النَّاسِ حِرْصًا عَلَى دَعْوَةِ الْآخَرِينَ إِلَى دِينِ رَبِّ الْعَالَمِينَ، كَانَ حَرِيصًا عَلَى هِدَايَتِهِمْ، وَتَعْلِيمِهِمْ، وَتَزْكِيَتِهِمْ، وَإِصْلَاحِهِمْ؛ حَتَّى قَالَ لَهُ رَبُّهُ ﷻ: ﴿فَلَعَلَّكَ بَٰخِعٌ نَّفْسَكَ عَلَىٰٓ ءَاثَٰرِهِمْ إِن لَّمْ يُؤْمِنُوا۟ بِهَٰذَا ٱلْحَدِيثِ أَسَفًا﴾ [الكهف:٦].

قَالَ الْفَيْرُوزَآبَادِي فِي «بَصَائِرِ ذَوِي التَّمْيِيزِ»[١]: «الْبَخْعُ لُغَةً: قَتْلُ النَّفْسِ غَمًّا، بَخَعَ نَفْسَهُ يَبْخَعُ بَخْعًا كَمَنَعَ يَمْنَعُ، وَبَخَعَ بِالْحَقِّ بُخُوعًا، وَبَخَاعَةً: أَقَرَّ بِهِ، وَخَضَعَ لَهُ، وَبَخَعَ الرَّكِيَّةَ بَخْعًا: حَفَرَهَا، حَتَّى ظَهَرَ مَاؤُهَا. وَبَخَعَ لَهُ نُصْحَهُ: أَخْلَصَهُ، وَبَالَغَ فِيهِ، وَبَخَعَ الْأَرْضَ بِالزِّرَاعَةِ: نَهَكَهَا، وَتَابَعَ حِرَاثَتَهَا، وَلَمْ يُجِمَّهَا

---

(١) «بصائر ذوي التمييز» (٢/ ٢٢٩).

عَامًا، وَبَخَعَ الرَّجُلَ خَبَرَهُ: صَدَقَهُ. وَبَخَعَ الشَّاةَ: بَالَغَ فِي ذَبْحِهَا ﴿فَلَعَلَّكَ بَٰخِعٌ نَّفْسَكَ﴾ أَيْ: مُهْلِكُهَا، وَقَاتِلُهَا حِرْصًا عَلَى إِسْلَامِهِمْ، وَفِيهِ حَثٌّ عَلَى تَرْكِ التَّأَسُّفِ، نَحْوَ: ﴿فَلَا تَذْهَبْ نَفْسُكَ عَلَيْهِمْ حَسَرَٰتٍ﴾ [فاطر:٨]» ا. هـ.

وَقَالَ الْأَلُوسِيُّ (١) فِي «رُوحِ الْمَعَانِي»: «وَفِي الْآيَةِ إِشَارَةٌ إِلَى مَزِيدِ شَفَقَتِهِ ﷺ، وَاهْتِمَامِهِ، وَحِرْصِهِ عَلَى دَعْوَةِ الْمُخَالِفِينَ» (٢).

وَقَالَ فِي مَوْضِعٍ آخَرَ فِي تَفْسِيرِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿مَآ أَنزَلْنَا عَلَيْكَ ٱلْقُرْءَانَ لِتَشْقَىٰٓ﴾ [طه:٢]: «أَيْ: مَا أَنْزَلْنَاهُ عَلَيْكَ لِتَتْعَبَ بِالْمُبَالَغَةِ فِي مُكَابَدَةِ الشَّدَائِدِ فِي مُقَاوَلَةِ الْعُتَاةِ، وَمُحَاوَرَةِ الطُّغَاةِ، وَفَرْطِ التَّأَسُّفِ عَلَى كُفْرِهِمْ بِهِ، وَالتَّحَسُّرِ عَلَى أَنْ يُؤْمِنُوا بِهِ» (٣).

وَقَالَ أَيْضًا (٤): «قَوْلُهُ: ﴿فَذَكِّرْ إِن نَّفَعَتِ ٱلذِّكْرَىٰ﴾ وَتَقْيِيدُ التَّذْكِيرِ بِنَفْعِ الذِّكْرَى؛ لِمَا أَنَّ رَسُولَ اللهِ ﷺ كَانَ قَدْ ذَكَّرَ وَبَالَغَ فِيهِ، فَلَمْ يَدَعْ فِي الْقَوْسِ مَنْزِعًا، وَسَلَكَ فِيهِ كُلَّ طَرِيقٍ؛ فَلَمْ يَتْرُكْ مَضِيقًا وَلَا مَهْيَعًا حِرْصًا عَلَى الْإِيمَانِ، وَتَوْحِيدِ الْمَلِكِ الدَّيَّانِ، وَمَا كَانَ يَزِيدُ ذَلِكَ بَعْضَ النَّاسِ إِلَّا كُفْرًا وَعِنَادًا وَتَمَرُّدًا وَفَسَادًا؛ فَأُمِرَ ﷺ تَخْفِيفًا عَلَيْهِ - حَيْثُ كَانَ الْحِرْصُ عَلَى إِيمَانِهِمْ يُوَجِّهُ سِهَامَ

---

(١) هو شهاب الدين أبو الثناء شهاب الدين محمود بن عبد الله الألوسي البغدادي، مفتي الحنفية ببغداد، ولد يوم الجمعة منتصف شعبان في العام السابع عشر بعد الألف والمائتين، صاحب التفسير المشهور «روح المعاني»؛ توفي سنة سبعين بعد المائتين والألف ضحوة يوم السبت الخامس والعشرين من ذي القعدة الحرام.

● راجع: «جلاء العينين في محاكمة الأحمدين» لنعمان محمود الألوسي (٥٧،٥٨) ط المدني سنة ١٤٠١هـ.

(٢) «روح المعاني» (١٥/ ٢٥٨) ط دار إحياء التراث، بيروت، بتصرفٍ يسير.

(٣) المصدر السابق (١٦/ ١٤٩).

(٤) المصدر السابق (٣٠/ ١٠٧).

التَّلفِ إليه؛ كما قال تعالى: ﴿ فَلَعَلَّكَ بَٰخِعٌ نَّفْسَكَ عَلَىٰٓ ءَاثَٰرِهِمْ إِن لَّمْ يُؤْمِنُوا۟ بِهَٰذَا ٱلْحَدِيثِ أَسَفًا ﴾ [الكهف:٦] - بِأَنْ يَخُصَّ التَّذْكِيرَ بِمَوادِّ النَّفْعِ فِي الْجُمْلَةِ بِأَنْ يَكُونَ مَنْ يُذَكِّرُهُ كُلًّا أَوْ بَعْضًا مِمَّنْ يُرْجى مِنْهُ التَّذَكُّرُ، وَلَا يُتْعِبَ نَفْسَهُ الْكَرِيمَةَ فِي تَذْكِيرِ مَنْ لَا يُورِثُهُ التَّذْكِيرُ إِلَّا عُتُوًّا وَنُفُورًا وَفَسَادًا وَغُرُورًا مِنَ الْمَطْبُوعِ عَلَى قُلُوبِهِمْ؛ كَمَا فِي قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿فَذَكِّرْ بِٱلْقُرْءَانِ مَن يَخَافُ وَعِيدِ ﴾، وَقَوْلِهِ سُبْحَانَهُ: ﴿ فَأَعْرِضْ عَن مَّن تَوَلَّىٰ عَن ذِكْرِنَا وَلَمْ يُرِدْ إِلَّا ٱلْحَيَوٰةَ ٱلدُّنْيَا ﴾» ا. هـ.

وَقَالَ الْعَلَّامَةُ السَّعْدِيُّ [(١)]: «وَلَمَّا كَانَ النَّبِيُّ ﷺ حَرِيصًا عَلَى هِدَايَةِ الْخَلْقِ، سَاعِيًا فِي ذَلِكَ أَعْظَمَ السَّعْيِ؛ فَكَانَ ﷺ يَفْرَحُ وَيُسَرُّ بِهِدَايَةِ الْمُهْتَدِينَ، وَيَحْزَنُ وَيَأْسَفُ عَلَى الْمُكَذِّبِينَ الضَّالِّينَ؛ شَفَقَةً مِنْهُ ﷺ عَلَيْهِمْ، وَرَحْمَةً بِهِمْ، أَرْشَدَهُ الله أَلَّا يَشْغَلَ نَفْسَهُ بِالْأَسَفِ عَلَى هَؤُلَاءِ الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِهَذَا الْقُرْآنِ؛ كَمَا قَالَ فِي الْآيَةِ الْأُخْرَى: «﴿ لَعَلَّكَ بَٰخِعٌ نَّفْسَكَ أَلَّا يَكُونُوا۟ مُؤْمِنِينَ ﴾ [الشعراء:٣]، وَهَؤُلَاءِ لَوْ عَلِمَ الله فِيهِمْ خَيْرًا لَهَدَاهُمْ؛ فَإِشْغَالُكَ نَفْسَكَ غَمًّا وَأَسَفًا عَلَيْهِمْ، لَيْسَ فِيهِ فَائِدَةٌ لَكَ.

وَفِي هَذِهِ الْآيَةِ وَنَحْوِهَا عِبْرَةٌ؛ فَإِنَّ الْمَأْمُورَ بِدُعَاءِ الْخَلْقِ إِلَى الله، عَلَيْهِ التَّبْلِيغُ وَالسَّعْيُ بِكُلِّ سَبَبٍ يُوصِلُ إِلَى الْهِدَايَةِ، وَسَدِّ طُرُقِ الضَّلَالِ وَالْغِوَايَةِ بِغَايَةِ مَا يُمْكِنُهُ، مَعَ التَّوَكُّلِ عَلَى الله فِي ذَلِكَ، فَإِنِ اهْتَدَوْا فَبِهَا وَنِعْمَتْ، وَإِلَّا فَلَا يَحْزَنْ وَلَا يَأْسَفْ؛ فَإِنَّ ذَلِكَ مُضْعِفٌ لِلنَّفْسِ، هَادِمٌ لِلْقُوَى، لَيْسَ فِيهِ فَائِدَةٌ، بَلْ يَمْضِي

---

(١) هو الشيخ أبو عبد الله عبد الرحمن بن ناصر بن عبد الله بن ناصر آل سعدي من قبيلة تميم، ولد في بلدة عنيزة في القصيم، ثاني عشر محرم سنة ألف وثلاثمائة وسبع من الهجرة النبوية، اشتهر بذكائه منذ حداثة سنة، ورغبته الشديدة في العلوم، فاجتهد وجد حتى نال الحظ الأوفر من كل فن من فنون العلم، وجلس للتدريس، ولما يبلغ من العمر ثلاثًا وعشرين سنة، له التفسير الموسوم بـ«تيسير الكريم الرحمن في تفسير كلام المنان»، و«القواعد الحسان لتفسير القرآن»، و«الحق الواضح المبين في شرح توحيد الأنبياء والمرسلين»، توفي رحمه الله في مدينة عنيزة عن تسع وستين عامًا في عام ١٣٧٦؛ راجع: ترجمته في (مقدمة «التفسير») بقلم أحدِ تلامذته.

عَلَى فِعْلِهِ الَّذِي كُلِّفَ بِهِ. وَمَا عَدَا ذَلِكَ، فَهُوَ خَارِجٌ عَنْ قُدْرَتِهِ.

وَإِذَا كَانَ النَّبِيُّ ﷺ يَقُولُ اللهُ لَهُ: ﴿إِنَّكَ لَا تَهْدِي مَنْ أَحْبَبْتَ﴾، وَمُوسَى عليه السلام يَقُولُ: ﴿رَبِّ إِنِّي لَآ أَمْلِكُ إِلَّا نَفْسِي وَأَخِي﴾ الْآيَةَ؛ فَمَنْ عَدَاهُمْ مِنْ بَابِ أَوْلَى وَأَحْرَى؛ قَالَ تَعَالَى: ﴿فَذَكِّرْ إِنَّمَآ أَنتَ مُذَكِّرٌ ﴿٢١﴾ لَّسْتَ عَلَيْهِم بِمُصَيْطِرٍ﴾»[1] ا. هـ.

وَقَالَ الشِّنْقِيطِيُّ رحمه الله [2]: «قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿أَمَّا مَنِ ٱسْتَغْنَىٰ ﴿٥﴾ فَأَنتَ لَهُۥ تَصَدَّىٰ ﴿٦﴾ وَمَا عَلَيْكَ أَلَّا يَزَّكَّىٰ﴾ [عبس:٥ - ٧]، بَيَانٌ لِمَوْقِفِهِ ﷺ مِنْ جَمِيعِ الْأُمَّةِ وَحِرْصِهِ عَلَى إِسْلَامِ الْجَمِيعِ حَتَّى مَنْ أَعْرَضَ وَاسْتَغْنَى شَفَقَةً بِهِمْ وَرَحْمَةً؛ كَمَا بَيَّنَ تَعَالَى حَالَهُ ﷺ بِقَوْلِهِ: ﴿عَزِيزٌ عَلَيْهِ مَا عَنِتُّمْ حَرِيصٌ عَلَيْكُم﴾ [التوبة:١٢٩]».

وَقَالَ فِي مَوْضِعٍ آخَرَ [3]: «قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿قَدْ نَعْلَمُ إِنَّهُۥ لَيَحْزُنُكَ ٱلَّذِى يَقُولُونَ ۖ فَإِنَّهُمْ لَا يُكَذِّبُونَكَ وَلَٰكِنَّ ٱلظَّٰلِمِينَ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ يَجْحَدُونَ﴾ [الأنعام: ٣٣]؛ صَرَّحَ تَعَالَى فِي هَذِهِ الْآيَةِ الْكَرِيمَةِ بِأَنَّهُ يَعْلَمُ أَنَّ رَسُولَهُ ﷺ يُحْزِنُهُ مَا يَقُولُهُ الْكُفَّارُ مِنْ تَكْذِيبِهِ ﷺ، وَقَدْ نَهَاهُ تَعَالَى عَنْ هَذَا الْحُزْنِ الْمُفْرِطِ فِي مَوَاضِعَ أُخَرَ؛ كَقَوْلِهِ: ﴿فَلَا تَأْسَ عَلَى ٱلْقَوْمِ ٱلْفَٰسِقِينَ﴾ [المائدة:٢٥]».

هَكَذَا كَانَ حِرْصُ النَّبِيِّ ﷺ عَلَى إِيمَانِ الْجَمِيعِ؛ وَلَكِنْ كَمَا قَالَ تَعَالَى لَهُ: ﴿وَمَآ أَكْثَرُ ٱلنَّاسِ وَلَوْ حَرَصْتَ بِمُؤْمِنِينَ﴾ [يوسف:١٠٣]؛ وَكَمَا قَالَ تَعَالَى: ﴿إِن تَحْرِصْ عَلَىٰ هُدَىٰهُمْ فَإِنَّ ٱللَّهَ لَا يَهْدِى مَن يُضِلُّ ۖ وَمَا لَهُم مِّن نَّٰصِرِينَ﴾ [النمل:٣٧].

---

(١) «تيسير الكريم الرحمن» (٣/ ١٥٦، ١٥٧) بتصرفٍ يسيرٍ، ط دار الصفا.

(٢) «أضواء البيان» (٨/ ٤٣٣) ط دار الفكر، بيروت.

(٣) المصدر السابق (١/ ٤٧٦).

وَمِنْ أَمْتَعِ الْأَحَادِيثِ وَأَرَقِّهَا فِي هَذَا الْبَابِ؛ مَا رَوَاهُ مُسْلِمٌ (١) مِنْ حَدِيثِ جَابِرٍ رضي الله عنه قَالَ: قَالَ رَسُولُ الله ﷺ: «مَثَلِي وَمَثَلُكُمْ كَمَثَلِ رَجُلٍ أَوْقَدَ نَارًا فَجَعَلَ الْجَنَادِبُ وَالْفَرَاشُ يَقَعْنَ فِيهَا، وَهُوَ يَذُبُّهُنَّ عَنْهَا، وَأَنَا آخِذٌ بِحُجَزِكُمْ عَنِ النَّارِ، وَأَنْتُمْ تَفَلَّتُونَ مِنْ يَدِي».

وَفِي رِوَايَةِ «الصَّحِيحَيْنِ»(٢) مِنْ حَدِيثِ أَبِي هُرَيْرَةَ رضي الله عنه قَالَ: قَالَ رَسُولُ الله ﷺ: «مَثَلِي كَمَثَلِ رَجُلٍ اسْتَوْقَدَ نَارًا فَلَمَّا أَضَاءَتْ مَا حَوْلَهَا جَعَلَ الْفَرَاشُ وَهَذِهِ الدَّوَابُّ الَّتِي فِي النَّارِ يَقَعْنَ فِيهَا، وَجَعَلَ يَحْجُزُهُنَّ وَيَغْلِبْنَهُ، فَيَتَقَحَّمْنَ فِيهَا، قَالَ: فَذَلِكُمْ مَثَلِي وَمَثَلُكُمْ، أَنَا آخِذٌ بِحُجَزِكُمْ عَنِ النَّارِ، هَلُمَّ عَنِ النَّارِ، هَلُمَّ عَنِ النَّارِ، فَتَغْلِبُونِي، تَقَحَّمُونَ فِيهَا».

وَمَنْ تَتَبَّعَ سِيرَتَهُ الطَّاهِرَةَ وَرِحْلَتَهُ الدَّعَوِيَّةَ الْعَاطِرَةَ عَلِمَ يَقِينًا أَنَّهُ مَا عَرَفَتِ الدُّنْيَا أَعْلَى هِمَّةً مِنْهُ، وَمَا أَرْوَعَ وَأَوْقَعَ أَنْ أُجْمِلَ فِي صَفَحَاتٍ قَلِيلَةٍ رِحْلَتَهُ الدَّعَوِيَّةَ الطَّوِيلَةَ؛ لِنَتَعَلَّمَ دَرْسًا عَمَلِيًّا مِنْ دُرُوسِ عُلُوِّ الْهِمَّةِ؛ فَلَقَدْ نَشَأَ ﷺ فِي بِيئَةٍ تَصْنَعُ الْحِجَارَةَ بِأَيْدِيهَا، ثُمَّ تَسْجُدُ لَهَا مِنْ دُونِ الله - جَلَّ وَعَلَا- فَاحْتَقَرَ النَّبِيُّ ﷺ هَذِهِ الْأَصْنَامَ وَهَذِهِ الْآلِهَةَ الْمَكْذُوبَةَ الْمُدَّعَاةَ!! وَأَشْفَقَ عَلَى أَصْحَابِ هَذِهِ الْعُقُولِ؛ فَهَا هُوَ أَحَدُهُمْ يَصْنَعُ إِلَهَهُ مِنَ الْخَشَبِ، أَوْ مِنَ الْعَجْوَةِ أَحْيَانًا، فَإِذَا مَا عَبَثَ الْجُوعُ بِبَطْنِهِ، قَامَ؛ لِيَدُسَّ هَذَا الْإِلَهَ الرَّخِيصَ فِي جَوْفِهِ؛ لِيُطْفِئَ بِهِ لَهِيبَ الْجُوعِ بَيْنَ أَحْشَائِهِ!! فَأَشْفَقَ النَّبِيُّ ﷺ عَلَى أَصْحَابِ هَذِهِ الْعُقُولِ الْعَلِيلَةِ، وَتَرَكَ مَكَّةَ وَرَاحَ بَعِيدًا بَعِيدًا عَنْ ضَوْضَائِهَا، وَصَخَبِهَا، وَعَنْ أَصْوَاتِ الشِّرْكِ الَّتِي تَمْلَأُ الْبَيْتَ الْحَرَامَ، وَلَا حَوْلَ وَلَا قُوَّةَ إِلَّا بِالله، وَلَكِنْ إِلَى أَيْنَ؟ إِلَى قِمَّةِ جَبَلِ النُّورِ،

(١) أخرجه مسلمٌ، كتاب الفضائل، باب شفقته ﷺ عَلَى أمته ومبالغته في تحذيرهم مما يضرهم (٢٢٨٥).

(٢) أخرجهُ البخاريُّ، كتاب الرقاق، باب الانتهاء عن المعاصي (٦٤٨٣)، ومسلمٌ، كتاب الفضائل، باب شفقته ﷺ عَلَى أمته ومبالغته في تحذيرهم مما يضرهم (١٨/٢٢٨٤).

إِلَى غَارِ حِـرَاءٍ، رَاحَ هُنَالِـكَ؛ لِيَقْضِـيَ اللَّيْـلَ فِـي التَّبَتُّـلِ، وَالـدُّعَاءِ، وَالتَّضَـرُّعِ، وَيَقْضِيَ النَّهَارَ فِي التَّأَمُّلِ، وَالتَّفكُّرِ، وَالتَّدَبُّرِ، وَفِـي لَيْلَـةٍ كَرِيمَـةٍ مُبارَكَـةٍ يَصْـمُتُ الْكَوْنُ كُلُّهُ؛ بَلْ تَخْشَعُ أَنْفَاسُ الْوُحُوشِ فِي الْبَرِّيَّةِ؛ بَلْ تَسْكُنُ حَبَّاتُ الرِّمَـالِ فِـي الصَّحْرَاءِ؛ بَلْ تَسْكُنُ كُلُّ الْمِيَاهِ، وَلِمَ لَا؟ وَغَارُ حِرَاءٍ يَزْدَادُ أَنْـوَارًا بِتَنَـزُّلِ جِبْرِيـلَ عليه السلام؛ لِيُلَامِسَ هَذِهِ الْأَرْضَ الْمُبَارَكَةَ بِجَنَاحَيْهِ!! لِيَضُمَّ النَّبِيَّ ﷺ إِلَى صَدْرِهِ؛ كَمَا فِي «صَحِيحِ الْبُخَارِيِّ» مِنْ حَدِيثِ عَائِشَةَ أُمِّ الْمُؤْمِنِينَ رضي الله عنها أَنَّهَا قَالَـتْ: أَوَّلُ مَـا بُدِئَ بِهِ رَسُولُ اللهِ ﷺ مِنَ الْوَحْيِ الرُّؤْيَا الصَّالِحَةُ فِي النَّوْمِ، فَكَانَ لَا يَـرى رُؤْيَـا إِلَّا جَاءَتْ مِثْلَ فَلَقِ الصُّبْحِ، ثُمَّ حُبِّبَ إِلَيْهِ الْخَلَاءُ، وَكَانَ يَخْلُو بِغَارِ حِرَاءٍ فَيَتَحَنَّثُ فِيهِ - وَهُوَ التَّعَبُّدُ - اللَّيَالِيَ ذَوَاتِ الْعَدَدِ قَبْلَ أَنْ يَنْزِعَ إِلَى أَهْلِهِ، وَيَتَزَوَّدُ لِذَلِكَ، ثُمَّ يَرْجِعُ إِلَى خَدِيجَةَ (١) فَيَتَزَوَّدُ لِمِثْلِهَا، حَتَّى جَـاءَهُ الْحَـقُّ، وَهُـوَ فِـي غَـارِ حِـرَاءٍ؛ فَجَاءَهُ الْمَلَكُ؛ فَقَالَ: «اقْرَأْ». قَالَ: «مَا أَنَا بِقَارِئٍ» قَالَ: «**فَأَخَذَنِي فَغَطَّنِي حَتَّى بَلَغَ مِنِّي الْجَهْدَ، ثُمَّ أَرْسَلَنِي؛ فَقَالَ: اقْرَأْ، قُلْتُ: مَا أَنَا بِقَارِئٍ، فَأَخَذَنِي فَغَطَّنِي الثَّانِيَـةَ، حَتَّى بَلَغَ مِنِّي الْجَهْدَ، ثُمَّ أَرْسَلَنِي، فَقَالَ: اقْـرَأْ، فَقُلْـتُ: مَـا أَنَـا بِقَـارِئٍ، فَأَخَـذَنِي فَغَطَّنِي الثَّالِثَةَ، ثُمَّ أَرْسَلَنِي؛ فَقَالَ:** ﴿ٱقْرَأْ بِٱسْمِ رَبِّكَ ٱلَّذِى خَلَقَ ۝١ خَلَقَ ٱلْإِنسَٰنَ مِنْ عَلَقٍ ۝٢ ٱقْرَأْ وَرَبُّكَ ٱلْأَكْرَمُ﴾ [العلق:١-٣]»، فَرَجَعَ بِهَا رَسُولُ اللهِ ﷺ يَرْجُفُ فُـؤَادُهُ، فَـدَخَلَ عَلَى خَدِيجَةَ بِنْتِ خُوَيْلِدٍ رضي الله عنها؛ فَقَالَ: «**زَمِّلُونِي زَمِّلُونِي**» فَزَمَّلُـوهُ، حَتَّـى ذَهَـبَ عَنْهُ الرَّوْعُ؛ فَقَالَ لِخَدِيجَةَ وَأَخْبَرَهَا الْخَبَرَ: «**لَقَدْ خَشِيتُ عَلَـى نَفْسِـي**»؛ فَقَالَـتْ

---

(١) هي خديجة بنت خويلد بن أسد بن عبد العزى بن قصي القرشية الأسدية، أم المؤمنين، زوجُ النبيِّ ﷺ، أول امرأة تزوجها، وأول خلق الله أسلم بإجماع المسلمين، ولم يتقدمها رجل ولا امرأة، وهي سيدة نساء العالمين، ورزق النبيُّ ﷺ منها الولد دون غيرها من النساء، ولم يتزوج عليها حتى ماتت، وكانت وفاة خديجة وأبي طالب في عام واحدٍ، ماتت قبل الهجرة بثلاث سنين عَلَـى الصحيح، وقيل: بأربع، وقيل: بخمسٍ، قال الواقدي: توفيت لعشر خلون من رمضان وهي بنت خمس وستين سنة.

وعن حكيم بن حزام: أنها توفيت سنة عشر من البعثة، ودفنت بالحجون.

● انظر: «الإصابة» (١١٠٩٢)، و«الاستيعاب» (٤٧٩)، و«أسد الغابة» (٦٨٧٥).

خَدِيجَةُ: كَلاَّ وَاللهِ، مَا يُخْزِيكَ اللهُ أَبَدًا، إِنَّكَ لَتَصِلُ الرَّحِمَ، وَتَحْمِلُ الْكَلَّ، وَتَكْسِبُ الْمَعْدُومَ، وَتَقْرِي الضَّيْفَ، وَتُعِينُ عَلَى نَوَائِبِ الْحَقِّ؛ فَانْطَلَقَتْ بِهِ خَدِيجَةُ حَتَّى أَتَتْ بِهِ وَرَقَةَ بْنَ نَوْفَلٍ (١) بْنِ أَسَدِ بْنِ عَبْدِ الْعُزَّى ابْنَ عَمِّ خَدِيجَةَ، وَكَانَ امْرَأً تَنَصَّرَ فِي الْجَاهِلِيَّةِ، وَكَانَ يَكْتُبُ الْكِتَابَ الْعِبْرَانِيَّ، فَيَكْتُبُ مِنَ الإِنْجِيلِ بِالْعِبْرَانِيَّةِ مَا شَاءَ اللهُ أَنْ يَكْتُبَ، وَكَانَ شَيْخًا كَبِيرًا قَدْ عَمِيَ؛ فَقَالَتْ لَهُ خَدِيجَةُ: يَا ابْنَ عَمِّ، اسْمَعْ مِنَ ابْنِ أَخِيكَ، فَقَالَ لَهُ وَرَقَةُ: يَا ابْنَ أَخِي، مَاذَا تَرَى؟ فَأَخْبَرَهُ رَسُولُ اللهِ ﷺ خَبَرَ مَا رَأَى، فَقَالَ لَهُ وَرَقَةُ: هَذَا النَّامُوسُ الَّذِي نَزَّلَ اللهُ عَلَى مُوسَى، يَا لَيْتَنِي فِيهَا جَذَعًا، لَيْتَنِي أَكُونُ حَيًّا إِذْ يُخْرِجُكَ قَوْمُكَ؛ فَقَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: «**أَوَمُخْرِجِيَّ هُمْ؟**» قَالَ: نَعَمْ، لَمْ يَأْتِ رَجُلٌ قَطُّ بِمِثْلِ مَا جِئْتَ بِهِ إِلَّا عُودِيَ، وَإِنْ يُدْرِكْنِي يَوْمُكَ أَنْصُرْكَ نَصْرًا مُؤَزَّرًا، ثُمَّ لَمْ يَنْشَبْ وَرَقَةُ أَنْ تُوُفِّيَ، وَفَتَرَ الْوَحْيُ (٢).

أَيْ: انْقَطَعَ! وَالرَّسُولُ ﷺ يَنْتَظِرُ مَاذَا بَعْدَمَا نُبِّئَ بِـ: ﴿ٱقْرَأْ بِٱسْمِ رَبِّكَ ٱلَّذِى خَلَقَ﴾ فِي الْأَرْبَعِينَ مِنْ عُمُرِهِ الشَّرِيفِ الْمُبَارَكِ؟ كَمَا فِي «**صَحِيحِ الْبُخَارِيِّ**» مِنْ حَدِيثِ ابْنِ عَبَّاسٍ ﷺ قَالَ: «أُنْزِلَ عَلَى رَسُولِ اللهِ ﷺ، وَهُوَ ابْنُ أَرْبَعِينَ» الْحَدِيثَ (٣).

فَمَاذَا بَعْدَ اقْرَأْ؟ مَا الْمُهِمَّةُ؟ وَمَا الرِّسَالَةُ؟

---

(١) هو ورقة بن نوفل بن أسد بن عبد العزى بن قصي، القرشي الأسدي، ابن عم خديجة زوج النبيِّ ﷺ؛ قال ابن منده: اختلف في إسلامه، ذكره الطبريُّ، والبغويُّ، وابن قانع، وابن السكن، وغيرهم في الصحابة، وقد مات قبل الدَّعْوَة إلى الإسلام.

● انظر: «الإصابة»(٩١٥٠)، و«أسد الغابة» (٥٤٦٦)، و«الإنابة إلى معرفة المختلف فيهم من الصحابة» لمغلطاي (١٠٨٤) ط الرشد - الرياض.

(٢) أخرجه البخاريُّ، كتاب بدء الوحي، باب (٣) رقم(٣)، ومسلمٌ، كتاب الإيمان، باب بدء الوحي إلى رسول الله ﷺ (١٦٠).

(٣) أخرجه البخاريُّ، كتاب مناقب الأنصار، باب مبعث النبي ﷺ (٣٨٥١)، وراجع: «البداية والنهاية» (٣/ ٣ وما بعدها).

رَوَى الْبُخَارِيُّ وَمُسْلِمٌ مِنْ حَدِيثِ جَابِرِ بْنِ عَبْدِ اللهِ رضي الله عنهما: أَنَّهُ سَمِعَ النَّبِيَّ صلى الله عليه وسلم يَقُولُ: «ثُمَّ فَتَرَ عَنِّي الْوَحْيُ فَتْرَةً، فَبَيْنَا أَنَا أَمْشِي سَمِعْتُ صَوْتًا مِنَ السَّمَاءِ، فَرَفَعْتُ بَصَرِي قِبَلَ السَّمَاءِ، فَإِذَا الْمَلَكُ الَّذِي جَاءَنِي بِحِرَاءٍ قَاعِدٌ عَلَى كُرْسِيٍّ بَيْنَ السَّمَاءِ وَالأَرْضِ، فَجُئِثْتُ مِنْهُ حَتَّى هَوَيْتُ إِلَى الأَرْضِ، فَجِئْتُ أَهْلِي، فَقُلْتُ: زَمِّلُونِي زَمِّلُونِي؛ فَأَنْزَلَ اللهُ تَعَالَى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلْمُدَّثِّرُ ۝١ قُمْ فَأَنذِرْ﴾ إِلَى قَوْلِهِ: ﴿وَٱلرُّجْزَ فَٱهْجُرْ﴾ [المدثر:١-٥]، قَالَ أَبُو سَلَمَةَ [١]: وَالرِّجْزُ: الأَوْثَانُ»[٢]، وَهَذِهِ هِيَ الْمَرَّةُ الأُولَى الَّتِي رَأَى فِيهَا نَبِيُّنَا صلى الله عليه وسلم جِبْرِيلَ عَلَى هَيْئَتِهِ الْحَقِيقِيَّةِ، وَعَلَى صُورَتِهِ الطَّبِيعِيَّةِ.

أَيُّهَا الْمُدَّثِّرُ بِالأَغْطِيَةِ، قُمْ فَمَا كَانَ بِالأَمْسِ الْقَرِيبِ حُلْمًا جَمِيلًا أَصْبَحَ الْيَوْمَ حِمْلًا ثَقِيلًا، قُمْ؛ فَلَقَدْ مَضَى عَهْدُ النَّوْمِ، لَا رَاحَةَ بَعْدَ الْيَوْمِ؛ فَقَامَ النَّبِيُّ صلى الله عليه وسلم، وَاللهِ لَمْ يَذُقْ طَعْمَ الرَّاحَةِ حَتَّى نَزَلَ عَلَيْهِ قَوْلُ رَبِّهِ: ﴿ٱلْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِى وَرَضِيتُ لَكُمُ ٱلْإِسْلَٰمَ دِينًا﴾ [المائدة:٣]، قَامَ وَمَا عَاشَ لِنَفْسِهِ قَطُّ، وَمَا عَاشَ لِرَاحَتِهِ الشَّخْصِيَّةِ أَبَدًا؛ بَلْ قَامَ فَبَذَلَ مِنْ أَجْلِ دِينِ اللهِ تَبَارَكَ وَتَعَالَى كُلَّ مَا يَمْلِكُ مِنْ وَقْتٍ وَعَرَقٍ وَجَهْدٍ وَرُوحٍ، فَلَمْ يَرَ الرَّاحَةَ صلى الله عليه وسلم بَعْدَ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلْمُدَّثِّرُ ۝١ قُمْ فَأَنذِرْ﴾ [المدثر:١، ٢]؛ أَيْ: أَنْذِرْ هَؤُلَاءِ الْمُشْرِكِينَ؛ لِتُخْرِجَهُمْ مِنْ ظُلُمَاتِ الشِّرْكِ وَالْوَثَنِيَّةِ، إِلَى أَنْوَارِ التَّوْحِيدِ وَالإِيمَانِ بِرَبِّ الْبَرِيَّةِ - جَلَّ

---

(١) هو أبو سلمة بن عبد الرحمن بن عوف بن عبد بن الحارث بن زهرة بن كلاب بن مرة بن كعب، القرشي الزهري المدني الحافظ، قيل: اسمه عبد الله، وقيل: إسماعيل، وقيل: اسمه كنيته، وهو إمامٌ ثقةٌ فقيهٌ كثيرُ الحديث، وكان من سادات قريش، ولد سنة بضع وعشرين، ومات سنة أربع وتسعين، وقيل: أربع ومائة.

● انظر: «تهذيب التهذيب» (٤/ ٥٣١،٥٣٢) ط الرسالة، و«سير أعلام النبلاء» (٤٧٦).

(٢) أخرجه البخاريُّ، كتاب بدء الخلق، باب إذا قال أحدكم: «آمين» والملائكة في السماء، فوافقت إحداهما الأخرى غفر له ما تقدم من ذنبه (٣٢٣٨)، ومسلمٌ، كتاب الإيمان، باب بدء الوحي إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم (١٦١).

وَعَلَا: ﴿وَرَبَّكَ فَكَبِّرْ﴾؛ أَيْ: كَبِّرْ رَبَّكَ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى بِالتَّوْحِيدِ، وَأَفْرِدْهُ - جَلَّ وَعَلَا- وَحْدَهُ بِالْعُبُودِيَّةِ، وَاحْمَدْهُ أَنْ هَدَاكَ لِلطَّرِيقِ الْحَقِّ ﴿وَثِيَابَكَ فَطَهِّرْ﴾؛ أَيْ: طَهِّرْ ثِيَابَكَ مِنَ النَّجَاسَةِ؛ لِأَنَّ الْمُشْرِكِينَ كَانُوا لَا يُطَهِّرُونَ ثِيَابَهُمْ، وَقِيلَ: طَهِّرْ ثِيَابَكَ مِنْ دَنَسِ الْمَعَاصِي، وَحَاشَاهُ ﷺ؛ فَلَقَدْ طَهَّرَهُ اللهُ تَبَارَكَ وَتَعَالَى، أَوْ أَنَّ الْمُرَادَ: طَهِّرْ بَاطِنَكَ كَمَا أُمِرْتَ بِتَطْهِيرِ ظَاهِرِكَ، وَالْآيَةُ تَحْتَمِلُ هَذِهِ الْمَعَانِيَ ﴿وَالرُّجْزَ فَاهْجُرْ﴾؛ أَيْ: اهْجُرْ هَذِهِ الْأَصْنَامَ، وَتِلْكَ الْآلِهَةَ الْمَكْذُوبَةَ الْبَاطِلَةَ الْمُدَّعَاةَ، الَّتِي لَا تَسْمَعُ، وَلَا تَتَكَلَّمُ، وَلَا تُبْصِرُ، وَلَا تُغْنِي عَنْ نَفْسِهَا شَيْئًا؛ بَلْ لَا تَمْلِكُ لِنَفْسِهَا نَفْعًا وَلَا ضَرًّا فَضْلًا عَنْ أَنْ تَمْلِكَ ذَلِكَ لِغَيْرِهَا، مِنْ هَؤُلَاءِ الَّذِينَ يَتَضَرَّعُونَ إِلَيْهَا، وَيَعْبُدُونَهَا فِي اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ!! قُمْ يَا مُحَمَّدُ؛ فَقَامَ ﷺ، وَبَدَأَ يَدْعُو إِلَى اللهِ تَبَارَكَ وَتَعَالَى، سِرًّا ثَلَاثَ سَنَوَاتٍ كَامِلَةً، نَعَمْ سِرًّا؛ فَلِلْأَصْنَامِ، وَالْآلِهَةِ الْمَكْذُوبَةِ جُيُوشٌ مِنَ الْغَضَبِ؛ بَلْ إِنَّ هَؤُلَاءِ الْقَوْمَ الَّذِينَ يَعْبُدُونَ هَذِهِ الْأَصْنَامَ، يَنْحَرُ أَحَدُهُمَا الْآخَرَ مِنْ أَجْلِ نَاقَةٍ؛ فَمَا ظَنُّكُمْ بِمَا سَيَفْعَلُونَهُ مِنْ أَجْلِ آلِهَتِهِمُ الَّتِي يَذْبَحُونَ لَهَا آلَافَ النِّيَاقِ؛ نَعَمْ إِنَّ لِلْأَصْنَامِ جُيُوشًا مِنَ الْغَضَبِ، وَهِيَ عَلَى أَتَمِّ اسْتِعْدَادٍ لِنَحْرِ كُلِّ مَنْ يَعْتَدِي عَلَى قُدْسِيَّةِ وَكَرَامَةِ هَذِهِ الْأَصْنَامِ! وَهَذِهِ الْآلِهَةِ الْمَكْذُوبَةِ الْمُدَّعَاةِ!!

تَحَرَّكَ النَّبِيُّ ﷺ يَدْعُو إِلَى اللهِ تَبَارَكَ وَتَعَالَى سِرًّا، يَنْتَقِي وَيَخْتَارُ أَصْحَابَ الْعُقُولِ الرَّاشِدَةِ، وَأَصْحَابَ الْعُقُولِ الْأَبِيَّةِ الْكَرِيمَةِ؛ لِيُبَلِّغَهُمْ عَنِ اللهِ تَبَارَكَ وَتَعَالَى، فَأَسْلَمَتْ خَدِيجَةُ رضي الله عنها؛ فَأَوَّلُ مَنْ أَسْلَمَ مِنَ النِّسَاءِ أُمُّ الْمُؤْمِنِينَ خَدِيجَةُ - رِضْوَانُ اللهِ عَلَيْهَا - رَمْزُ الْوَفَاءِ، وَسَكَنُ سَيِّدِ الْأَنْبِيَاءِ، وَأَسْلَمَ أَبُو بَكْرٍ رضي الله عنه، وَأَسْلَمَ عَلِيُّ بْنُ أَبِي طَالِبٍ رضي الله عنه؛ فَأَوَّلُ مَنْ أَسْلَمَ مِنَ الرِّجَالِ الصِّدِّيقُ، وَأَوَّلُ مَنْ أَسْلَمَ مِنَ الصِّبْيَانِ عَلِيٌّ رضي الله عنه (١).

---

(١) قال شيخ الإسلام ابن تيمية في «الفتاوى» (٤/ ٤٦٢): «وأول من أسلم من الرجال الأحرار البالغين أبو بكر، ومن الأحرار الصبيان عليٌّ، ومن الموالي زيد بن حارثة، ومن =

ثُمَّ بَعْدَ ذَلِكَ خَرَجَ الصِّدِّيقُ - رِضْوَانُ الله عَلَيْهِ- وَمَا كَانَ أَبَدًا كَالزَّهْرَةِ الصِّنَاعِيَّةِ الَّتِي لَا تَحْمِلُ مِنَ الزُّهُورِ إِلَّا اسْمَهَا؛ بَلْ كَانَ زَهْرَةً حَقِيقِيَّةً مِنْ خَلْقِ الله تَبَارَكَ وَتَعَالَى، لَا تَحْبِسُ عَنِ النَّاسِ أَرِيجَهَا وَعِطْرَهَا، تَحَرَّكَ الصِّدِّيقُ بِهَذَا النُّورِ الَّذِي مَلَأَ الله بِهِ قَلْبَهُ، فَدَعَا إِلَى الله تَبَارَكَ وَتَعَالَى، وَعَادَ فِي الْيَوْمِ التَّالِي إِلَى النَّبِيِّ ﷺ بِخَمْسَةٍ مِنَ الْعَشَرَةِ الْمُبَشَّرِينَ بِالْجَنَّةِ [1]؛ فَأَسْلَمَ عَلَى يَدَيْهِ عُثْمَانُ بْنُ عَفَّانَ، وَعَبْدُ الرَّحْمَنِ بْنُ عَوْفٍ، وَطَلْحَةُ بْن عُبَيْدِ الله، وَسَعْدُ بْنُ أَبِي وَقَّاصٍ، وَالزُّبَيْرُ بْنُ الْعَوَّامِ، وَأَعْلَنُوا إِسْلَامَهُمْ، وَهَكَذَا بَدَأَ النَّاسُ يَدْخُلُونَ فِي دِينِ الله تَبَارَكَ وَتَعَالَى

= النساء خديجة أم المؤمنين، وهذا باتفاق أهل العلم» ا. هـ.

وفي «**صحيح البخاري**» من حديث عمار رضي الله عنه قال: «**رأيتُ رسول الله ﷺ وما معه إلا خمسةُ أعبدٍ وامرأتان وأبو بكر**»، أخرجه البخاريُّ، كتاب فضائل الصحابة (حديث: ٣٦٦٠)؛ **قال الحافظ**: «وأما المرأتان فخديجة، والأخرى أم أيمن أو سمية».

ولا تعارض بين حديث زيد بن أرقم رضي الله عنه قال: «**عَلِيٌّ أَوَّلُ مَنْ أَسْلَمَ**»، أخرجه الترمذيُّ (٣٧٣٥)، وأحمد (٤/ ٣٦٨)، وهو صحيحٌ، وصحَّحَه شيخنا الألباني في «صحيح الترمذي» (٣/ ٢١٥)، وبين الحديث الذي يثبت أن أبا بكر أول من أسلم؛ عند الترمذيِّ كذلك (٣٦٦٧) وهو صحيحٌ أيضًا.

قال ابن كثير في «البداية والنهاية» (٣/ ٢٨): «وقد أجاب أبو حنيفة رضي الله عنه بالجمع بين هذه الأقوال بأن أول من أسلم من الرجال الأحرار أبو بكر، ومن النساء خديجة، ومن الموالي زيد بن حارثة، ومن الغلمان علي بن أبي طالب ــ رضي الله عنهم أجمعين» وهذا قول جمع من أهل العلم، ومنهم إسحاق بن راهويه؛ كما نقل عنه ذلك القرطبيُّ في «تفسيره» (لسورة التوبة:١٠٠)، والبغوي في «معالم التنزيل» (١/ ٨٧)، وانظر: «الاستيعاب» (١/ ٢٩٤).

(١) «السيرة» لابن إسحاق، كما في «سيرة ابن هشام» (١/ ١٥٦) ط المكتب الثقافي، و«مختصر سيرة الرسول ﷺ» لعبد الله ابن الشيخ محمد بن عبد الوهاب (ص: ١١٣،١١٤)، و«زاد المعاد» (٣/ ١٩)، و«الثقات» لابن حبان (١/ ٥٣) ط الفكر، و «جزء في حديث خيثمة» (باب إسلام أبي بكر الصديق) (ص:١٢٥) ط دار الكتاب العربي.

يَوْمًا بَعْدَ يَوْمٍ، وَفِي دَارِ الْأَرْقَمِ بْنِ أَبِي الْأَرْقَمِ (١) قَامَ النَّبِيُّ ﷺ؛ لِيُرَبِّيَ هَـؤُلَاءِ الْأَطْهَارَ؛ لِيُزَكِّيَ نُفُوسَهُمْ، وَلِيُهَذِّبَ أَخْلَاقَهُمْ، لِنَرَى مِنْهُمْ بَعْدَ ذَلِكَ الْعَجَبَ الْعُجَابَ؛ بَلْ وَاللهِ يَزُولُ كُلُّ عَجَبٍ إِذَا عَلِمْنَا أَنَّ الَّذِي رَبَّى هَؤُلَاءِ هُوَ الْمُصْطَفَى، وَكَفَى! رَبَّاهُمْ تَرْبِيَةً سَتَظَلُّ الدُّنْيَا تَقِفُ أَمَامَ هَـذَا الْمَنْهَجِ التَّرْبَوِيِّ وَقْفَةَ إِعْزَازٍ وَإِجْلَالٍ وَإِكْبَارٍ، وَإِذَا كَانَ كُلُّ تِلْمِيذٍ فِي الْعَادَةِ يَقْتَبِسُ مِنْ أُسْتَاذِهِ؛ فَلَكُمْ أَنْ تَتَصَوَّرُوا كَيْفَ يَكُونُ الِاقْتِبَاسُ إِذَا كَانَ الْمُرَبِّي وَالْمُعَلِّمُ رَسُولَ اللهِ ﷺ؟!!

وَإِذَا كَانَ كُلُّ مَنْهَجٍ فِي الْعَادَةِ يَتْرُكُ طَابَعَهُ عَلَى مَنْ يَتَرَبَّوْنَ عَلَيْهِ، وَيَتَتَلْمَذُونَ عَلَيْهِ، فَلَكُمْ أَنْ تَتَصَوَّرُوا كَيْفَ يَكُونُ الطَّابَعُ الَّذِي تُرِكَ عَلَى قُلُوبِ وَعُقُولِ الصَّحَابَةِ ﷺ؟!!

فَالْمَنْهَجُ الَّذِي تَرَبَّى عَلَيْهِ هَؤُلَاءِ هُوَ الْقُرْآنُ وَالسُّنَّةُ، نَعَمْ رَبَّى النَّبِيُّ ﷺ الصَّحَابَةَ فِي دَارِ الْأَرْقَمِ بْنِ أَبِي الْأَرْقَمِ (٢) وَمَازَالَ مُسْتَخْفِيًا حَتَّى نَزَلَ عَلَيْهِ قَوْلُ

---

(١) كما قال عامة أهل السير وغيرهم؛ وانظر: «الإصابة» لابن حجر (ترجمة الأرقم بن أبي الأرقم) (١/ ٤١، ٤٢) ط التوفيقية، و«سبل الهدى والرشاد» للصالحي (٢/ ٣١٩، ٣٢٠).

وهناك أحاديثُ في أسانيدها مقالٌ شديدٌ؛ فراجع: «حلية الأولياء» لأبي نُعيم (١/ ٤٤، ٤٥)، و«تاريخ دمشق» لابن عساكر (٤٤/ ٢٩، ٣٠)، و«أخبار مكة» للفاكهي (٢٢٤١) ط دار خضر، بيروت الطبعة الثانية ١٤١٤هـ، و«مستدرك» الحاكم (٣/ ٥٧٤)، و«الضعيفة» (٣٠٦٢).

(٢) هو الأرقم بن أبي الأرقم، واسم أبي الأرقم: عبد مناف بن أسد بن عبد الله بن عمر بن مخزوم القرشي المخزومي، يكنى أبا عبد الله، كان من السابقين الأولين إلى الإسلام، أسلم قديمًا؛ قيل: كان ثاني عشر، وكان من المهاجرين الأولين، وشهد بدرًا، ونفله رسول الله ﷺ منها سيفًا، واستعمله عَلَى الصدقات، وهو الذي استخفى رسول الله ﷺ في داره، وهو صاحبُ حلف الفضول؛ تُوفي سنة خمس وخمسين بالمدينة، وهو ابن بضع وثمانين سنة.

● راجع: «أسد الغابة» (٧٠)، و«الاستيعاب» (١٣٩)، و«الإصابة» (٧٣).

الله تَعَالَى: ﴿فَٱصْدَعْ بِمَا تُؤْمَرُ وَأَعْرِضْ عَنِ ٱلْمُشْرِكِينَ﴾(١) [الحجر: ٩٤]، وَنَزَلَ قَوْلُ الله تَعَالَى: ﴿وَأَنذِرْ عَشِيرَتَكَ ٱلْأَقْرَبِينَ﴾ [الشعراء: ٢١٤]؛ فَصَعِدَ النَّبِيُّ ﷺ جَبَلَ الصَّفَا؛ كَمَا فِي «الصَّحِيحَيْنِ» (٢) مِنْ حَدِيثِ ابْنِ عَبَّاسٍ رضي الله عنهما قَالَ: لَمَّا نَزَلَتْ: ﴿وَأَنذِرْ عَشِيرَتَكَ ٱلْأَقْرَبِينَ﴾ صَعِدَ النَّبِيُّ ﷺ عَلَى الصَّفَا فَجَعَلَ يُنَادِي: **يَا بَنِي فِهْرٍ، يَا بَنِي عَدِيٍّ**» - لِبُطُونِ قُرَيْشٍ - حَتَّى اجْتَمَعُوا، فَجَعَلَ الرَّجُلُ إِذَا لَمْ يَسْتَطِعْ أَنْ يَخْرُجَ، أَرْسَلَ رَسُولًا؛ لِيَنْظُرَ مَا هُوَ، فَجَاءَ أَبُو لَهَبٍ وَقُرَيْشٌ؛ فَقَالَ: «**أَرَأَيْتَكُمْ لَوْ أَخْبَرْتُكُمْ أَنَّ خَيْلاً بِالْوَادِي تُرِيدُ أَنْ تُغِيرَ عَلَيْكُمْ أَكُنْتُمْ مُصَدِّقِيَّ؟**» قَالُوا: نَعَمْ، مَا جَرَّبْنَا عَلَيْكَ إِلَّا صِدْقًا، قَالَ: «**فَإِنِّي نَذِيرٌ لَكُمْ بَيْنَ يَدَيْ عَذَابٍ شَدِيدٍ**» فَقَالَ أَبُو لَهَبٍ: تَبًّا لَكَ سَائِرَ الْيَوْمِ أَلِهَذَا جَمَعْتَنَا؟! فَنَزَلَتْ: ﴿تَبَّتْ يَدَآ أَبِى لَهَبٍ وَتَبَّ ۝١ مَآ أَغْنَىٰ عَنْهُ مَالُهُۥ وَمَا كَسَبَ﴾ [المسد: ١، ٢].

---

(١) أخرج الطبريُّ (٢١٢٠٦) عن عبد الله بن عبيدة قال: «ما زال النبيُّ ﷺ مستخفيًا حتى نزلت: ﴿فَٱصْدَعْ بِمَا تُؤْمَرُ وَأَعْرِضْ عَنِ ٱلْمُشْرِكِينَ﴾ [الحجر: ٩٤]، فخرج هو وأصحابه»، وفي ابن كثير و«الدر المنثور»: أبو عبيدة عن ابن مسعود، وفي «تفسير البغوي والقرطبي» موافق للطبري. ونحوه عند أبي نعيم في «الدلائل» من طريق السدى الصغير عن الكلبي عن أبي صالح عن ابن عباس قال: «كان رسول الله ﷺ مستخفيًا سنين لا يظهر شيئًا حتى نزلت:...» وسنده فيه متهم. انظر: «الدر المنثور» (٥/ ٨٩).

● راجع: «التحرير والتنوير» لابن عاشور (تفسير الحجر: ٩٤)، و«معارج القبول» (٢/ ١٠٥٥) للحكمي، ط دار ابن القيم، و«السيرة» لابن هشام (١/ ١٤٩) قال: قال ابن إسحاق: «وكان بين ما أخفى رسول الله ﷺ أمره واستتر به إلى أن أمره الله تعالى بإظهار دينه ثلاث سنين فيما بلغني من مبعثه...».

وفي «**صحيح مسلم**» (٨٣٢) قال عمرو بن عبسة السلمي: «فسمعتُ برجل بمكة يخبر أخبارًا، فقعدتُ علَى راحلتي، فقدمت عليه، فإذا رسول الله ﷺ مستخفيًا، جُرءاءُ عليه قومه..».

(٢) أخرجه البخاريُّ، كتاب التفسير، باب ﴿وَأَنذِرْ عَشِيرَتَكَ ٱلْأَقْرَبِينَ﴾ (٤٧٧٠)، ومسلمٌ، كتاب الإيمان، باب ﴿وَأَنذِرْ عَشِيرَتَكَ ٱلْأَقْرَبِينَ﴾ (٢٠٨).

فَلَمَّا قَالَ النَّبِيُّ ﷺ: **«فَإِنِّي رَسُولُ اللهِ إِلَيكُمْ بَيْنَ يَدَيْ عَذَابٍ شَدِيدٍ»**، وَسَمِعَتْ مَكَّةُ هَذِهِ الْكَلِمَاتِ! أَبْرَقَتْ وَأَرْعَدَتْ، وَأَرْغَتْ وَأَزْبَدَتْ؛ بَلْ دَقَّتْ طُبُولَ الْحَرْبِ وَأَوْعَدَتْ!! وَصَبَّتْ فِي التَّوِّ وَاللَّحْظَةِ جَامَ غَضَبِهَا عَلَى ابْنِهَا الصَّادِقِ الْأَمِينِ، الَّذِي شَهِدَتْ لَهُ بِالصِّدْقِ وَالْأَمَانَةِ، وَخَلَعَ عَلَيْهِ بَرْلَمَانُهَا الشِّرْكِيُّ بِالْإِجْمَاعِ لَقَبَ الصَّادِقِ الْأَمِينِ.

وَتَفَنَّنَ الْمُشْرِكُونَ مِنْ هَذِهِ اللَّحْظَةِ فِي إِيذَاءِ النَّبِيِّ ﷺ، وَدَخَلَتِ الدَّعْوَةُ مَرْحَلَةً جَدِيدَةً؛ مَرْحَلَةً شَرِسَةً، أُوذِيَ فِيهَا رَسُولُ اللهِ ﷺ إِيذَاءً تَنُوءُ عَنْ حَمْلِهِ الْجِبَالُ الرَّوَاسِي؛ فَلَقَدْ وُضِعَ التُّرَابُ عَلَى رَأْسِهِ، وَوُضِعَتِ النَّجَاسَةُ عَلَى ظَهْرِهِ، وَخُنِقَ حَتَّى كَادَتْ أَنْفَاسُهُ أَنْ تَخْرُجَ!!

فَفِي **«الصَّحِيحَيْنِ»**[1] مِنْ حَدِيثِ عَبْدِ اللهِ بْنِ مَسْعُودٍ رضي الله عنه: أَنَّ النَّبِيَّ ﷺ كَانَ يُصَلِّي عِنْدَ الْبَيْتِ وَأَبُو جَهْلٍ وَأَصْحَابٌ لَهُ جُلُوسٌ إِذْ قَالَ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ: أَيُّكُمْ يَجِيءُ بِسَلَى جَزُورِ بَنِي فُلَانٍ فَيَضَعُهُ عَلَى ظَهْرِ مُحَمَّدٍ إِذَا سَجَدَ؟ فَانْبَعَثَ أَشْقَى الْقَوْمِ، فَجَاءَ بِهِ، فَنَظَرَ حَتَّى سَجَدَ النَّبِيُّ ﷺ وَضَعَهُ عَلَى ظَهْرِهِ بَيْنَ كَتِفَيْهِ، وَأَنَا أَنْظُرُ لَا أُغْنِي شَيْئًا لَوْ كَانَتْ لِي مَنَعَةٌ، قَالَ: فَجَعَلُوا يَضْحَكُونَ، وَيُحِيلُ بَعْضُهُمْ عَلَى بَعْضٍ، وَرَسُولُ اللهِ ﷺ سَاجِدٌ لَا يَرْفَعُ رَأْسَهُ، حَتَّى جَاءَتْهُ فَاطِمَةُ فَطَرَحَتْ عَنْ ظَهْرِهِ، فَرَفَعَ رَسُولُ اللهِ ﷺ رَأْسَهُ، ثُمَّ قَالَ: **«اللهمَّ عَلَيْكَ بِقُرَيْشٍ»** ثَلَاثَ مَرَّاتٍ، فَشَقَّ عَلَيْهِمْ إِذْ دَعَا عَلَيْهِمْ، قَالَ: وَكَانُوا يَرَوْنَ أَنَّ الدَّعْوَةَ فِي ذَلِكَ الْبَلَدِ مُسْتَجَابَةٌ، ثُمَّ سَمَّى: **«اللهمَّ عَلَيْكَ بِأَبِي جَهْلٍ، وَعَلَيْكَ بِعُتْبَةَ بْنِ رَبِيعَةَ، وَشَيْبَةَ بْنِ رَبِيعَةَ، وَالْوَلِيدِ بْنِ عُتْبَةَ، وَأُمَيَّةَ بْنِ خَلَفٍ، وَعُقْبَةَ بْنِ أَبِي مُعَيْطٍ»** وَعَدَّ السَّابِعَ، فَلَمْ نَحْفَظْهُ، قَالَ: فَوَالَّذِي نَفْسِي بِيَدِهِ، لَقَدْ رَأَيْتُ الَّذِينَ عَدَّ رَسُولُ اللهِ ﷺ صَرْعَى فِي الْقَلِيبِ قَلِيبِ بَدْرٍ.

---

(١) أخرجه البخاريُّ، كتاب الوضوء، باب إذا ألقي عَلَى ظهر المصلي قَذَرٌ أو جيفةٌ لم تفسد عليه صلاته(٢٤٠)، ومسلمٌ، كتاب الجهاد والسير، باب ما لقي النبيُّ ﷺ من أذى المشركين والمنافقين (١٧٩٤).

حَتَّى لَقَدْ تَوَعَّدَهُ أَبُو جَهْلٍ فِرْعَوْنُ هَذِهِ الْأُمَّةِ؛ كَمَا فِي «**صَحِيحِ مُسْلِمٍ**» عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ رضي الله عنه قَالَ: قَالَ أَبُو جَهْلٍ: هَلْ يُعَفِّرُ مُحَمَّدٌ وَجْهَهُ بَيْنَ أَظْهُرِكُمْ؟ قَالَ: فَقِيلَ: نَعَمْ، فَقَالَ: وَاللاَّتِ وَالْعُزَّى لَئِنْ رَأَيْتُهُ يَفْعَلُ ذَلِكَ لأَطَأَنَّ عَلَى رَقَبَتِهِ، أَوْ لأُعَفِّرَنَّ وَجْهَهُ فِي التُّرَابِ، قَالَ: فَأَتَى رَسُولَ الله ﷺ وَهُوَ يُصَلِّي زَعَمَ لِيَطَأَ عَلَى رَقَبَتِهِ، قَالَ: فَمَا فَجِئَهُمْ مِنْهُ إِلَّا وَهُوَ يَنْكِصُ عَلَى عَقِبَيْهِ وَيَتَّقِي بِيَدَيْهِ، قَالَ: فَقِيلَ لَهُ: مَا لَكَ؟ فَقَالَ: إِنَّ بَيْنِي وَبَيْنَهُ لَخَنْدَقًا مِنْ نَارٍ وَهَوْلاً وَأَجْنِحَةً؛ فَقَالَ رَسُولُ الله ﷺ: «**لَوْ دَنَا مِنِّي لاَخْتَطَفَتْهُ الْمَلاَئِكَةُ عُضْوًا عُضْوًا**» قَالَ: فَأَنْزَلَ الله عز وجل لاَ نَدْرِي فِي حَدِيثِ أَبِي هُرَيْرَةَ أَوْ شَيْءٌ بَلَغَهُ: ﴿كَلَّآ إِنَّ ٱلْإِنسَٰنَ لَيَطْغَىٰٓ ۝٦ أَن رَّءَاهُ ٱسْتَغْنَىٰٓ ۝٧ إِنَّ إِلَىٰ رَبِّكَ ٱلرُّجْعَىٰٓ ۝٨ أَرَءَيْتَ ٱلَّذِى يَنْهَىٰ ۝٩ عَبْدًا إِذَا صَلَّىٰٓ ۝١٠ أَرَءَيْتَ إِن كَانَ عَلَى ٱلْهُدَىٰٓ ۝١١ أَرَءَيْتَ إِن كَذَّبَ وَتَوَلَّىٰٓ﴾ [العلق:٦- ١٣]»(١). (يَعْنِي: أَبَا جَهْلٍ) ﴿أَلَمْ يَعْلَم بِأَنَّ ٱللَّهَ يَرَىٰ ۝١٤ كَلَّا لَئِن لَّمْ يَنتَهِ لَنَسْفَعًۢا بِٱلنَّاصِيَةِ ۝١٥ نَاصِيَةٍ كَٰذِبَةٍ خَاطِئَةٍ ۝١٦ سَنَدْعُ ٱلزَّبَانِيَةَ ۝١٨ كَلَّا لَا تُطِعْهُ وَٱسْجُدْ وَٱقْتَرِب﴾ [العلق:١٤- ١٩]؛ فَالله تَبَارَكَ وَتَعَالَى هُوَ الَّذِي قَالَ لِنَبِيِّهِ ﷺ: ﴿وَٱللَّهُ يَعْصِمُكَ مِنَ ٱلنَّاسِ﴾ [المائدة:٦٧]؛ فَالَّذِي تَوَلَّى حِفْظَ الرَّسُولِ ﷺ، هُوَ الله تَبَارَكَ وَتَعَالَى.

وَيُخْنَقُ النَّبِيُّ ﷺ حَتَّى كَادَتْ أَنْفَاسُهُ أَنْ تَخْرُجَ؛ حَتَّى جَاءَ الصِّدِّيقُ رضي الله عنه، وَدَفَعَ هَذَا الْوَغْدَ الْمُجْرِمَ عُقْبَةَ بْنَ أَبِي مُعَيْطٍ عَنْ رَسُولِ الله ﷺ؛ فَفِي «**صَحِيحِ الْبُخَارِيِّ**»(٢) مِنْ حَدِيثِ عُرْوَةَ بْنِ الزُّبَيْرِ (٣) قَالَ: «سَأَلْتُ عَبْدَ الله بْنَ عَمْرٍو عَنْ

---

(١) أخرجه مسلمٌ، كتاب صفة القيامة، باب قوله: ﴿كَلَّآ إِنَّ ٱلْإِنسَٰنَ لَيَطْغَىٰٓ ۝٦ أَن رَّءَاهُ ٱسْتَغْنَىٰٓ﴾ [العلق:٦، ٧]، (٢٧٩٧).

(٢) أخرجه البخاريُّ، كتاب فضائل أصحاب النبي ﷺ، باب قول النبيِّ ﷺ: «**لَوْ كُنْتُ مُتَّخِذًا خَلِيلًا**» (٣٦٧٨).

(٣) هو عروة بن الزبير بن العوام بن خويلد بن أسد بن عبد العزى بن قصي الأسدي، أبو عبد الله المدني، الفقيه أحد الفقهاء السبعة؛ قال ابن سعد: كان ثقة، كثير الحديث، فقيهًا، عالمًا ثبتًا مأمونًا، وقال العجلي: مدني تابعي ثقة، وكان رجلًا صالحًا لم يدخل في شيء من الفتن، وهو أعلم الناس بحديث عائشة رضي الله عنها، ولد سنة ثلاث وعشرين، =

أَشَدِّ مَا صَنَعَ الْمُشْرِكُونَ بِرَسُولِ اللهِ ﷺ، قَالَ: رَأَيْتُ عُقْبَةَ بْنَ أَبِي مُعَيْطٍ جَاءَ إِلَى النَّبِيِّ ﷺ وَهُوَ يُصَلِّي، فَوَضَعَ رِدَاءَهُ فِي عُنُقِهِ، فَخَنَقَهُ بِهِ خَنْقًا شَدِيدًا، فَجَاءَ أَبُو بَكْرٍ حَتَّى دَفَعَهُ عَنْهُ؛ فَقَالَ: ﴿أَتَقْتُلُونَ رَجُلًا أَن يَقُولَ رَبِّيَ ٱللَّهُ وَقَدْ جَآءَكُم بِٱلْبَيِّنَٰتِ مِن رَّبِّكُمْ﴾ [غافر:٢٨]».

إِنْ كَانَ هَذَا قَدْ فُعِلَ بِالنَّبِيِّ ﷺ؛ فَمَا ظَنُّكُمْ بِمَا فَعَلَهُ الْمُشْرِكُونَ بِالصَّحَابَةِ ﷺ؟! فَلَقَدْ كَانَ أَبُو طَالِبٍ عَمُّ النَّبِيِّ ﷺ حَائِطَ صَدٍّ مَنِيعٍ، طَالَمَا تَحَطَّمَتْ عَلَيْهِ سُيُوفُ وَرِمَاحُ أَهْلِ الشِّرْكِ بِمَكَّةَ، وَمَعَ ذَلِكَ يُفْعَلُ بِالنَّبِيِّ ﷺ ذَلِكَ!! اتَّهَمُوهُ بِالسِّحْرِ وَالْجُنُونِ وَالْكَهَانَةِ وَالشِّعْرِ، وَيُلْقَى التُّرَابُ عَلَى رَأْسِهِ، وَتُوضَعُ النَّجَاسَةُ عَلَى ظَهْرِهِ.. إِلَى آخِرِ صُوَرِ الْإِيذَاءِ وَالسُّخْرِيَةِ الَّتِي أَلْحَقُوهَا بِسَيِّدِ الْبَشَرِيَّةِ ﷺ؛ فَتَصَوَّرُوا مَاذَا فُعِلَ بِالصَّحَابَةِ؟ مَاذَا فُعِلَ بِبِلَالٍ وَعَمَّارٍ وَأُمِّهِ سُمَيَّةَ؟ مَاذَا فُعِلَ بِكُلِّ مَنْ آمَنَ بِاللهِ، وَآمَنَ بِرَسُولِ اللهِ ﷺ؟! فُعِلَ بِهِمْ مَا لَا يَحْتَمِلُهُ عَقْلٌ، وَلَا يَتَصَوَّرُهُ خَيَالٌ، وَلَوْلَا أَنَّنَا عَلَى يَقِينٍ مُطْلَقٍ بِالْأَدِلَّةِ الصَّحِيحَةِ الثَّابِتَةِ أَنَّ هَذَا قَدْ وَقَعَ بِالْفِعْلِ لِأَصْحَابِ رَسُولِ اللهِ ﷺ، وَاللهِ مَا تَصَوَّرْنَاهُ، وَلَا تَخَيَّلْنَاهُ، لَقَدْ ثَبَّتَهُمُ اللهُ تَبَارَكَ وَتَعَالَى، وَمَلَأَ اللهُ ﷻ قُلُوبَهُمْ إِيمَانًا وَيَقِينًا وَثَبَاتًا وَصَبْرًا، وَضَرَبُوا أَرْوَعَ الْأَمْثِلَةِ فِي الصَّبْرِ عَلَى الْأَذَى وَالْبَلَاءِ؛ لِنُصْرَةِ دِينِ رَبِّ الْأَرْضِ وَالسَّمَاءِ.

رَوَى ابْنُ مَاجَهْ فِي «السُّنَنِ»، وَأَحْمَدُ فِي «الْمُسْنَدِ» بِسَنَدٍ حَسَنٍ مِنْ حَدِيثِ ابْنِ مَسْعُودٍ ﷺ قَالَ: «كَانَ أَوَّلَ مَنْ أَظْهَرَ إِسْلَامَهُ سَبْعَةٌ: رَسُولُ اللهِ ﷺ، وَأَبُو

=

وقيل: بعد ذلك. توفي وهو ابن سبع وستين سنة، مات سنة: ثلاث وتسعين، وقيل سنة أربع، وقيل: خمس، وقيل: سنة إحدى ومائة.

● انظر: «تهذيب التهذيب» (٣/ ٩٢-٩٤)، و«سير أعلام النبلاء» (٥٣٦)، و«شذرات الذهب» (١/ ٦٢).

بَكْرٍ، وَعَمَّارٌ [١]، وَأُمُّهُ سُمَيَّةُ [٢]، وَصُهَيْبٌ [٣]، وَبِلَالٌ [٤]، وَالْمِقْدَادُ، فَأَمَّا رَسُولُ اللهِ ﷺ فَمَنَعَهُ اللهُ بِعَمِّهِ أَبِي طَالِبٍ، وَأَمَّا أَبُو بَكْرٍ فَمَنَعَهُ اللهُ بِقَوْمِهِ، وَأَمَّا سَائِرُهُمْ، فَأَخَذَهُمُ الْمُشْرِكُونَ وَأَلْبَسُوهُمْ أَدْرَاعَ الْحَدِيدِ، وَصَهَرُوهُمْ فِي الشَّمْسِ، فَمَا مِنْهُمْ مِنْ أَحَدٍ إِلَّا وَقَدْ وَاتَاهُمْ عَلَى مَا أَرَادُوا إِلَّا بِلَالًا، فَإِنَّهُ قَدْ هَانَتْ عَلَيْهِ نَفْسُهُ فِي اللهِ وَهَانَ عَلَى قَوْمِهِ، فَأَخَذُوهُ، فَأَعْطَوْهُ الْوِلْدَانَ، فَجَعَلُوا يَطُوفُونَ بِهِ فِي شِعَابِ مَكَّةَ، وَهُوَ يَقُولُ: أَحَدٌ أَحَدٌ»[٥].

---

(١) هو عمار بن ياسر بن عامر بن مالك بن كنانة بن قيس بن الحصين بن الوديم بن ثعلبة ابن عوف بن حارثة بن عامر بن يام بن عنسي بن مالك العنسي، أبو اليقظان حليف بني مخزوم، وأمه سمية مولاة لهم، كان من السابقين الأولين إلى الإسلام، شهد الجمل وصفين، ومات بها في ربيع الأول أو الآخر سنة سبع وثلاثين، وكان عمره أربعًا وتسعين سنة، وقيل: ثلاث وتسعون، وقيل: إحدى وتسعون.

● انظر: «الإصابة» (٥٧٢٠)، و«أسد الغابة» (٣٨٠٤)، و«الاستيعاب» (٨٨٠).

(٢) هي سمية بنت خُبَّاط، كانت أَمَةً لأبي حذيفة بن المغيرة المخزومي، كانت سابعة سبعة في الإسلام، عذبها أبو جهل، وطعنها في قُبلها، فماتت، وكانت أوَّل شهيدة في الإسلام.

● راجع: «الإصابة» (١١٣٤٢)، و«أسد الغابة» (٧٠٢٢)، و«الاستيعاب» (٥٥٤).

(٣) هو صهيب بن سنان بن مالك، ويقال: خالد بن عبد عمرو بن عقيل، ويقال: طفيل بن عامر بن جندلة بن سعد بن خزيمة بن كعب بن أسلم بن أوس بن زيد مناة بن النمر بن قاسط النمري، أبو يحيى، قيل له الرومي: لأن الروم سَبَوْه صغيرًا، من السابقين الأولين إلى الإسلام؛ تُوفي بالمدينة سنة ثمان وثلاثين في شوال، وقيل: سنة تسع وهو ابن ثلاث وسبعين سنة، وقيل: ابن سبعين سنة، ودفن بالمدينة.

● انظر: «الإصابة» (٤١٢٣)، و«الاستيعاب» (١٢٢٤)، و«أسد الغابة» (٢٥٣٨).

(٤) هو بلال بن رباح الحبشي المؤذن، اشتراه أبو بكر الصديق من المشركين لما كانوا يعذبونه عَلَى التوحيد فأعتقه، فلزم النبيَّ ﷺ وأذن له، وشهد معه جميع المشاهد، ثم خرج بلالٌ بعد النبيِّ ﷺ مجاهدًا إلى أن مات بالشام زمن عمر في طاعون عمواس سنة عشرين.

● انظر: «الإصابة» (٧٣٦)، و«الاستيعاب» (٢١٣)، و«أسد الغابة» (٤٩٣).

(٥) أخرجه ابن ماجه في «المقدمة»، باب فضل سلمان وأبي ذر والمقداد ﷺ (١٥٠)، وأحمد (١/ ٤٠٤)، وابن أبي شيبة (٣٢٣٣٣) ط الرشد، والحاكم (٣/ ٣٢٠) ط دار الكتب، =

قَالَ ابْنُ كَثِيرٍ (١): «كَانَ بِلَالٌ ﷺ يَأْبَى عَلَيْهِمْ ذَلِكَ وَهُمْ يَفْعَلُونَ بِهِ الْأَفَاعِيلَ، حَتَّى إِنَّهُمْ لَيَضَعُونَ الصَّخْرَةَ الْعَظِيمَةَ عَلَى صَدْرِهِ فِي شِدَّةِ الْحَرِّ، وَيَأْمُرُونَهُ أَنْ يُشْرِكَ بِالله، فَيَأْبَى عَلَيْهِمْ، وَهُوَ يَقُولُ: أَحَدٌ أَحَدٌ»؛ فَوَجَدَتْ قُرَيْشٌ أَنَّ أُسْلُوبَ الْعُنْفِ وَالشِّدَّةِ وَالْقَسْوَةِ لَمْ يُوقِفْ تَيَّارَ الدَّعْوَةِ إِلَى الله تَبَارَكَ وَتَعَالَى، وَلَمْ يَحُلْ بَيْنَ رَسُولِ الله ﷺ وَبَيْنَ الدَّعْوَةِ إِلَى الله، فَفَكَّرُوا فِي أُسْلُوبٍ آخَرَ؛ إِنَّهُ أُسْلُوبُ الْإِغْرَاءِ وَالِاسْتِمَالَةِ بِعَرَضِ الدُّنْيَا الزَّائِلِ.

قَالَ الْحَافِظُ ابْنُ كَثِيرٍ فِي «تَفْسِيرِهِ» (٢): «قَالَ الْإِمَامُ الْعَلَمُ عَبْدُ بْنُ حُمَيْدٍ (٣) فِي «مُسْنَدِهِ»(٤) - ثُمَّ سَاقَهُ بِسَنَدِهِ إِلَى - جَابِرِ بْنِ عَبْدِ الله ﷺ قَالَ: اجْتَمَعَتْ

=

والعجلي في «الثقات» (٢/ ٣١٨) ط مكتبة الدار، المدينة المنورة، وابن حبان (٧٠٨٣)، والبيهقي في «الدلائل» (٢/ ٢٨١، ٢٨٢)، وأبو نعيم في «الحلية» (١/ ١٤٩)، قال في «مصباح الزجاجة» (١/ ٢٣): «هذا إسنادٌ رجالُه ثقات»، وحسَّنه الألباني في «صحيح ابن ماجه»، وأخرجه ابن أبي شيبة (٣٢٣٣٤)، وابن سعد في «الطبقات» (٣/ ٢٣٣) عن مجاهد قوله. وانظر: «علل الدارقطني» (٣٠٨) ط دار طيبة، الرياض، قوله: «واتاهم»؛ أي: طاوعهم ووافقهم، وقوله: «هانت عليه نفسه في الله»؛ أي: صغرت وحقرت عنده؛ لأجله تعالى، وفي شأنه. قاله السنديُّ في تعليقه على ابن ماجه.

(١) «تفسير ابن كثير» (لسورة النحل:١٠٦).

(٢) «تفسير ابن كثير» (لسورة فصلت ١ - ٥).

(٣) هو عبد بن حميد بن نصر الكشي، أبو محمد، قيل: اسمه عبد الحميد، كان ممن جمع وصنف مصنف المسند الكبير والتفسير، ومات سنة تسع وأربعين ومائتين.
● انظر: «تهذيب التهذيب» (٢/ ٦٤١)، و«تذكرة الحفاظ» للذهبي (٥٥١).

(٤) في «المنتخب» (برقم:١١٢٣)، وأخرجه ابن أبي شيبة في «المصنف» (٣٦٥٦٠)، وابن عساكر في «تاريخه» (٣٨٢٤٣)، وأبو نعيم في «الدلائل» (٢٥٨) ط دار طيبة. وله شاهدٌ عن ابن عمر ﷺ عند البيهقي في «الدلائل» (٢/ ٢٠٥، ٢٠٦)، والحديث صححه الألباني في «صحيح السيرة» (١٥٩- ١٦١).

قُرَيْشٌ يَوْمًا فَقَالُوا: انْظُرُوا أَعْلَمَكُمْ بِالسِّحْرِ وَالْكَهَانَةِ وَالشِّعْرِ، فَلْيَأْتِ هَذَا الرَّجُلَ الَّذِي قَدْ فَرَّقَ جَمَاعَتَنَا، وَشَتَّتَ أَمْرَنَا، وَعَابَ دِينَنَا، فَلْيُكَلِّمْهُ، وَلْنَنْظُرْ مَاذَا يَرُدُّ عَلَيْهِ؟ فَقَالُوا: مَا نَعْلَمُ أَحَدًا غَيْرَ عُتْبَةَ بْنِ رَبِيعَةَ، فَقَالُوا: أَنْتَ يَا أَبَا الْوَلِيدِ، فَأَتَاهُ عُتْبَةُ، فَقَالَ: يَا مُحَمَّدُ، أَنْتَ خَيْرٌ أَمْ عَبْدُ اللهِ؛ فَسَكَتَ رَسُولُ اللهِ ﷺ؛ فَقَالَ: أَنْتَ خَيْرٌ أَمْ عَبْدُ الْمُطَّلِبِ؟ فَسَكَتَ رَسُولُ اللهِ ﷺ، قَالَ: فَإِنْ كُنْتَ تَزْعُمُ أَنَّ هَؤُلَاءِ خَيْرٌ مِنْكَ، فَقَدْ عَبَدُوا الْآلِهَةَ الَّتِي عِبْتَ، وَإِنْ كُنْتَ تَزْعُمُ أَنَّكَ خَيْرٌ مِنْهُمْ فَتَكَلَّمْ حَتَّى نَسْمَعَ قَوْلَكَ، إِنَّا وَاللهِ مَا رَأَيْنَا سَخْلَةً قَطُّ أَشْأَمَ عَلَى قَوْمِكَ مِنْكَ، فَرَّقْتَ جَمَاعَتَنَا، وَشَتَّتَ أَمْرَنَا، وَعِبْتَ دِينَنَا، وَفَضَحْتَنَا فِي الْعَرَبِ، حَتَّى لَقَدْ طَارَ فِيهِمْ أَنَّ فِي قُرَيْشٍ سَاحِرًا، وَأَنَّ فِي قُرَيْشٍ كَاهِنًا! وَاللهِ مَا نَنْتَظِرُ إِلَّا مِثْلَ صَيْحَةِ الْحُبْلَى أَنْ يَقُومَ بَعْضُنَا إِلَى بَعْضٍ بِالسُّيُوفِ حَتَّى نَتَفَانَى! أَيُّهَا الرَّجُلُ، إِنْ كَانَ إِنَّمَا بِكَ الْحَاجَةُ جَمَعْنَا لَكَ حَتَّى تَكُونَ أَغْنَى قُرَيْشٍ رَجُلًا، وَإِنْ كَانَ إِنَّمَا بِكَ الْبَاءَةُ فَاخْتَرْ أَيَّ نِسَاءِ قُرَيْشٍ فَلْنُزَوِّجْكَ عَشْرًا؛ فَقَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: «فَرَغْتَ؟» قَالَ: نَعَمْ. فَقَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: «بِسْمِ اللهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ ﴿حمٓ ۝١ تَنزِيلٌ مِّنَ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ﴾ حَتَّى بَلَغَ: ﴿فَإِنْ أَعْرَضُوا۟ فَقُلْ أَنذَرْتُكُمْ صَٰعِقَةً مِّثْلَ صَٰعِقَةِ عَادٍ وَثَمُودَ﴾ [فصلت:١-١٣]؛ فَقَالَ عُتْبَةُ: حَسْبُكَ! حَسْبُكَ! مَا عِنْدَكَ غَيْرُ هَذَا؟ قَالَ: «لَا».

فَرَجَعَ إِلَى قُرَيْشٍ، فَقَالُوا: مَا وَرَاءَكَ؟ قَالَ: مَا تَرَكْتُ شَيْئًا أَرَى أَنَّكُمْ تُكَلِّمُونَهُ بِهِ إِلَّا كَلَّمْتُهُ، قَالُوا: فَهَلْ أَجَابَكَ؟ قَالَ: لَا، وَالَّذِي نَصَبَهَا بِنْيَةً مَا فَهِمْتُ شَيْئًا مِمَّا قَالَ، غَيْرَ أَنَّهُ أَنْذَرَكُمْ صَاعِقَةً مِثْلَ صَاعِقَةِ عَادٍ وَثَمُودَ، قَالُوا: وَيْلَكَ! يُكَلِّمُكَ الرَّجُلُ بِالْعَرَبِيَّةِ مَا تَدْرِي مَا قَالَ؟! قَالَ: لَا، وَاللهِ مَا فَهِمْتُ شَيْئًا مِمَّا قَالَ غَيْرَ ذِكْرِ الصَّاعِقَةِ (١).

---

(١) قال ابن كثير: «وهكذا رواه الحافظ أبو يعلى الموصليُّ في «مسنده» (برقم:١٨١٨) عن أبي بكر بن أبي شيبة بإسناده مثله».

وَقَدْ سَاقَهُ الْبَغَوِيُّ (١) فِي «تَفْسِيرِهِ» (٢) - مِنْ وَجْهٍ آخَرَ- عَنْ جَابِرٍ، فَذَكَرَ الْحَدِيثَ إِلَى قَوْلِهِ: ﴿فَإِنْ أَعْرَضُوا فَقُلْ أَنذَرْتُكُمْ صَاعِقَةً مِّثْلَ صَاعِقَةِ عَادٍ وَثَمُودَ﴾ [فصلت: ١٣]، فَأَمْسَكَ عُتْبَةُ عَلَى فِيهِ، وَنَاشَدَهُ بِالرَّحِمِ، وَرَجَعَ إِلَى أَهْلِهِ، وَلَمْ يَخْرُجْ إِلَى قُرَيْشٍ وَاحْتَبَسَ عَنْهُمْ، فَقَالَ أَبُو جَهْلٍ: يَا مَعْشَرَ قُرَيْشٍ، وَاللهِ مَا نَرَى عُتْبَةَ إِلَّا قَدْ صَبَا إِلَى مُحَمَّدٍ، وَأَعْجَبَهُ طَعَامُهُ، وَمَا ذَاكَ إِلَّا مِنْ حَاجَةٍ أَصَابَتْهُ، فَانْطَلِقُوا بِنَا إِلَيْهِ، فَانْطَلَقُوا إِلَيْهِ؛ فَقَالَ أَبُو جَهْلٍ: يَا عُتْبَةُ، مَا حَبَسَكَ عَنَّا إِلَّا أَنَّكَ صَبَوْتَ إِلَى مُحَمَّدٍ وَأَعْجَبَكَ طَعَامُهُ، فَإِنْ كَانَتْ لَكَ حَاجَةٌ جَمَعْنَا لَكَ مِنْ أَمْوَالِنَا مَا يُغْنِيكَ عَنْ طَعَامِ مُحَمَّدٍ، فَغَضِبَ عُتْبَةُ، وَأَقْسَمَ أَلَّا يُكَلِّمَ مُحَمَّدًا أَبَدًا، وَقَالَ: وَاللهِ لَقَدْ عَلِمْتُمْ أَنِّي مِنْ أَكْثَرِ قُرَيْشٍ مَالًا، وَلَكِنِّي أَتَيْتُهُ وَقَصَصْتُ عَلَيْهِ الْقِصَّةَ، فَأَجَابَنِي بِشَيْءٍ وَاللهِ مَا هُوَ بِشِعْرٍ وَلَا كَهَانَةٍ وَلَا سِحْرٍ، وَقَرَأَ السُّورَةَ إِلَى قَوْلِهِ: ﴿فَإِنْ أَعْرَضُوا فَقُلْ أَنذَرْتُكُمْ صَاعِقَةً مِّثْلَ صَاعِقَةِ عَادٍ وَثَمُودَ﴾، فَأَمْسَكْتُ بِفِيهِ، وَنَاشَدْتُهُ بِالرَّحِمِ أَنْ يَكُفَّ، وَقَدْ عَلِمْتُمْ أَنَّ مُحَمَّدًا إِذَا قَالَ شَيْئًا لَمْ يَكْذِبْ، فَخَشِيتُ أَنْ يَنْزِلَ بِكُمُ الْعَذَابُ.

وَقَدْ أَوْرَدَ هَذِهِ الْقِصَّةَ الْإِمَامُ مُحَمَّدُ بْنُ إِسْحَاقَ بْنِ يَسَارٍ (٣) فِي كِتَابِ

---

(١) هو الشيخ الإمام، العلامة القدوة، الحافظ، شيخ الإسلام، محي السنة، أبو محمد الحسين بن مسعود بن محمد بن الفراء البغوي الشافعي، المفسر صاحب التصانيف، منها: «معالم التنزيل»، و«شرح السنة» وغيرها، توفي بمرو الروز - مدينة من مدائن خراسان- في شوال سنة ست عشرة وخمس مائة، عاش بضعًا وسبعين سنة، انظر: «سير أعلام النبلاء» (٤٦٨١)، و«وفيات الأعيان» (٢/ ١٣٦)، و«شذرات الذهب» (٤/ ٤٨)، و«البداية والنهاية» (١٢/ ٢٧٠).

(٢) «معالم التنزيل» (٧/ ١٦٧) (تفسير فصلت:١٣) ط طيبة. وفيه الأجلح؛ قال ابن كثير: «وهو ابن عبد الله الكندي، وقد ضعف بعض الشيء».

(٣)هو محمد بن إسحاق بن يسار بن خيار، وقيل: ابن كوثان، العلامة، الحافظ، الأخباري، أبو بكر: وقيل: أبو عبد الله القرشي، المطلبي مولاهم، المدني، نزيل العراق، صاحب السيرة النبوية، ولد سنة ثمانين، ومات سنة خمسين ومائة، وقيل: سنة إحدى وخمسين =

«السِّيرَةِ»(١) عَلَى خِلَافِ هَذَا النَّمَطِ؛ فَقَالَ: حَدَّثَنِي يَزِيدُ بْنُ زِيَادٍ (٢)، عَنْ مُحَمَّدِ ابْنِ كَعْبٍ الْقُرَظِيِّ (٣) قَالَ: حُدِّثْتُ أَنَّ عُتْبَةَ بْنَ رَبِيعَةَ - وَكَانَ سَيِّدًا - قَالَ يَوْمًا وَهُوَ جَالِسٌ فِي نَادِي قُرَيْشٍ، وَرَسُولُ الله ﷺ جَالِسٌ فِي الْمَسْجِدِ وَحْدَهُ: يَا مَعْشَرَ قُرَيْشٍ، أَلَا أَقُومُ إِلَى مُحَمَّدٍ فَأُكَلِّمَهُ، وَأَعْرِضَ عَلَيْهِ أُمُورًا لَعَلَّهُ يَقْبَلُ بَعْضَهَا، فَنُعْطِيَهُ أَيَّهَا شَاءَ وَيَكُفَّ عَنَّا؟ وَذَلِكَ حِينَ أَسْلَمَ حَمْزَةُ، وَرَأَوْا أَصْحَابَ رَسُولِ الله ﷺ يَزِيدُونَ وَيَكْثُرُونَ؛ فَقَالُوا: بَلَى يَا أَبَا الْوَلِيدِ، فَقُمْ إِلَيْهِ فَكَلِّمْهُ، فَقَامَ إِلَيْهِ عُتْبَةُ، حَتَّى جَلَسَ إِلَى رَسُولِ الله ﷺ؛ فَقَالَ: يَا ابْنَ أَخِي، إِنَّكَ مِنَّا حَيْثُ قَدْ عَلِمْتَ مِنَ السِّطَةِ فِي الْعَشِيرَةِ، وَالْمَكَانِ فِي النَّسَبِ، وَإِنَّكَ قَدْ أَتَيْتَ قَوْمَكَ بِأَمْرٍ عَظِيمٍ، فَرَّقْتَ بِهِ جَمَاعَتَهُمْ، وَسَفَّهْتَ بِهِ أَحْلَامَهُمْ، وَعِبْتَ بِهِ آلِهَتَهُمْ وَدِينَهُمْ، وَكَفَّرْتَ بِهِ مَنْ مَضَى مِنْ آبَائِهِمْ، فَاسْمَعْ مِنِّي أَعْرِضْ عَلَيْكَ أُمُورًا تَنْظُرُ فِيهَا لَعَلَّكَ تَقْبَلُ مِنَّا

= ومائة، وقيل: اثنتين أو ثلاث.

● انظر: «تهذيب التهذيب» (٣/ ٤٠٤-٤٠٧)، و«سير أعلام النبلاء» (١٠١٦)، و«شذرات الذهب» (١/ ٢٣٠).

(١) كما في «السيرة» لابن هشام (١/ ١٦٦)، ومن طريق ابن إسحاق؛ أخرجه البيهقيُّ في «الدلائل» (٢/ ٢٠٤، ٢٠٥).

(٢) هو يزيد بن زياد، ويقال: ابن أبي زياد، ويقال: يزيد بن زياد بن أبي زياد المدني، مولى عبد الله بن عياش بن أبي ربيعة المخزومي، قال الترمذيُّ: مدني، روى عن مالك وغير واحد، وقال: النسائي ثقة، وذكره ابن حبان في الثقات، وكان عبدًا صالحًا، قانتًا لله.

● راجع: «تهذيب التهذيب» (١١/ ٣٢٨)، و«سير أعلام النبلاء» (٩٥٦).

(٣) هو محمد بن كعب بن سليم بن أسد القرظي، أبو حمزة، وقيل: أبو عبد الله المدني، قال عون بن عبد الله: ما رأيت أحدًا أعلم بتأويل القرآن منه؛ قيل: ولد في حياة النبي ﷺ، كان كبير القدر، وكان ثقةً، عالمًا، كثيرَ الحديث، ورعًا؛ توفي سنة ثمان ومائة، وقيل: سبع عشرة ومائة، وقيل: تسع عشرة، وقيل: عشرين ومائة وهو ابن ثمان وسبعين سنة.

● راجع: «سير أعلام النبلاء» (٧٧٥)، و«تهذيب التهذيب» (٩/ ٤٢٠- ٤٢١).

بَعْضَهَا، قَالَ: فَقَالَ لَهُ رَسُولُ اللهِ ﷺ: «**قُلْ يَا أَبَا الْوَلِيدِ أَسْمَعْ؟**» قَالَ: يَا ابْنَ أَخِي، إِنْ كُنْتَ إِنَّمَا تُرِيدُ بِمَا جِئْتَ بِهِ مِنْ هَذَا الْأَمْرِ مَالًا جَمَعْنَا لَكَ مِنْ أَمْوَالِنَا؛ حَتَّى تَكُونَ مِنْ أَكْثَرِنَا أَمْوَالًا، وَإِنْ كُنْتَ تُرِيدُ بِهِ شَرَفًا سَوَّدْنَاكَ عَلَيْنَا، حَتَّى لَا نَقْطَعَ أَمْرًا دُونَكَ، وَإِنْ كُنْتَ تُرِيدُ بِهِ مُلْكًا مَلَّكْنَاكَ عَلَيْنَا، وَإِنْ كَانَ هَذَا الَّذِي يَأْتِيكَ رَئِيًّا تَرَاهُ لَا تَسْتَطِيعُ رَدَّهُ عَنْ نَفْسِكَ، طَلَبْنَا لَكَ الطِّبَّ، وَبَذَلْنَا فِيهِ أَمْوَالَنَا حَتَّى نُبْرِئَكَ مِنْهُ، فَإِنَّهُ رُبَّمَا غَلَبَ التَّابِعُ عَلَى الرَّجُلِ حَتَّى يُدَاوَى مِنْهُ - أَوْ كَمَا قَالَ لَهُ - حَتَّى إِذَا فَرَغَ عُتْبَةُ وَرَسُولُ اللهِ ﷺ يَسْتَمِعُ مِنْهُ قَالَ: «**أَفَرَغْتَ يَا أَبَا الْوَلِيدِ؟**» قَالَ: نَعَمْ، قَالَ: «**فَاسْتَمِعْ مِنِّي؟**» قَالَ: أَفْعَلُ، قَالَ: « ﴿حمٓ ۝١ تَنزِيلٌ مِّنَ ٱلرَّحۡمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ ۝٢ كِتَٰبٌ فُصِّلَتۡ ءَايَٰتُهُۥ قُرۡءَانًا عَرَبِيًّا لِّقَوۡمٖ يَعۡلَمُونَ ۝٣ بَشِيرًا وَنَذِيرًا فَأَعۡرَضَ أَكۡثَرُهُمۡ فَهُمۡ لَا يَسۡمَعُونَ﴾ [فصلت:١-٤]»، ثُمَّ مَضَى رَسُولُ اللهِ ﷺ فِيهَا يَقْرَؤُهَا عَلَيْهِ، فَلَمَّا سَمِعَ عُتْبَةُ أَنْصَتَ لَهَا، وَأَلْقَى يَدَيْهِ خَلْفَ ظَهْرِهِ مُعْتَمِدًا عَلَيْهِمَا يَسْمَعُ مِنْهُ، ثُمَّ انْتَهَى رَسُولُ اللهِ ﷺ إِلَى السَّجْدَةِ مِنْهَا، فَسَجَدَ، ثُمَّ قَالَ: «**قَدْ سَمِعْتَ يَا أَبَا الْوَلِيدِ مَا سَمِعْتَ، فَأَنْتَ وَذَاكَ**» فَقَامَ عُتْبَةُ إِلَى أَصْحَابِهِ، فَقَالَ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ: أُقْسِمُ - يَحْلِفُ بِاللهِ - لَقَدْ جَاءَكُمْ أَبُو الْوَلِيدِ بِغَيْرِ الْوَجْهِ الَّذِي ذَهَبَ بِهِ، فَلَمَّا جَلَسَ إِلَيْهِمْ قَالُوا: مَا وَرَاءَكَ يَا أَبَا الْوَلِيدِ؟ قَالَ: وَرَائِي أَنِّي قَدْ سَمِعْتُ قَوْلًا وَاللهِ مَا سَمِعْتُ مِثْلَهُ قَطُّ، وَاللهِ مَا هُوَ بِالسِّحْرِ وَلَا بِالشِّعْرِ وَلَا الْكَهَانَةِ، يَا مَعْشَرَ قُرَيْشٍ، أَطِيعُونِي وَاجْعَلُوهَا بِي، خَلُّوا بَيْنَ الرَّجُلِ وَبَيْنَ مَا هُوَ فِيهِ فَاعْتَزِلُوهُ، فَوَاللهِ لَيَكُونَنَّ لِقَوْلِهِ الَّذِي سَمِعْتُ نَبَأٌ، فَإِنْ تُصِبْهُ الْعَرَبُ فَقَدْ كُفِيتُمُوهُ بِغَيْرِكُمْ، وَإِنْ يَظْهَرْ عَلَى الْعَرَبِ فَمُلْكُهُ مُلْكُكُمْ، وَعِزُّهُ عِزُّكُمْ، وَكُنْتُمْ أَسْعَدَ النَّاسِ بِهِ، قَالُوا: سَحَرَكَ وَاللهِ يَا أَبَا الْوَلِيدِ بِلِسَانِهِ! قَالَ: هَذَا رَأْيِي فِيهِ، فَاصْنَعُوا مَا بَدَا لَكُمْ.

وَهَذَا السِّيَاقُ أَشْبَهُ مِنَ الَّذِي قَبْلَهُ، وَاللهُ أَعْلَمُ» انْتَهَى كَلَامُ ابْنِ كَثِيرٍ.

وَفِي «مُسْتَدْرَكِ الْحَاكِمِ»(١)، وَ«الدَّلَائِلِ»، وَ«الشُّعَبِ» لِلْبَيْهَقِـيِّ (٢) (٣) مِـنْ حَدِيثِ ابْنِ عَبَّاسٍ رضي الله عنهما: «أَنَّ الْوَلِيدَ بْنَ الْمُغِيرَةِ جَاءَ إِلَى النَّبِيِّ ﷺ؛ فَقَـرَأَ عَلَيْـهِ الْقُرْآنَ؛ فَكَأَنَّهُ رَقَّ لَهُ، فَبَلَغَ ذَلِكَ أَبَا جَهْلٍ؛ فَأَتَاهُ؛ فَقَالَ: يَا عَمِّ! إِنَّ قَوْمَكَ يَرَوْنَ أَنْ يَجْمَعُوا لَكَ مَالًا قَالَ: لِمَ؟ قَالَ: لِيُعْطُوكَهُ؛ فَإِنَّكَ أَتَيْتَ مُحَمَّدًا لِتَعْرِضَ لِمَا قِبَلَـهُ، قَالَ: قَدْ عَلِمَتْ قُرَيْشٌ أَنِّي مِنْ أَكْثَرِهَا مَالًا. قَالَ: فَقُلْ فِيهِ قَوْلًا يَبْلُغُ قَوْمَـكَ أَنَّـكَ

---

(١) هو أبو عبد الله محمد بن عبد الله بن حمدويه بن نعيم الضبي، الشهير بالحاكم، ويعرف بابن البيِّع، الإمام الحافظ الناقد العلامة، شيخ المحدثين، وصاحب التصانيف، مولده في يوم الاثنين، ثالث شهر ربيع الأول، سنة إحدى وعشرين وثلاث مائة، بنيسابور.
وطلب هذا الشأن في صغره بعناية والده وخاله، وكان من بحور العلم، إمام أهل الحديث في عصره؛ توفي رحمه الله في نيسابور يوم الثلاثاء، ثالث صفر، سنة خمس وأربعمائة.
● راجع: «سير أعلام النبلاء» (٣٩٨٧)، و«تذكرة الحفاظ» (٤/ ٢٨٠)، و«تاريخ بغداد» (٥/ ٤٧٣) ط الكتب العلمية.

(٢) هو الحافظ العلامة الثبت الفقيه، شيخ الإسلام أبو بكر أحمد بن الحسين بن علي بن موسى الخُسْرَوْجِرْديُّ الخرساني، الشافعي، ولد في سنة أربع وثمانين وثلاث مائة في شعبان، بورك له في علمه، وصنف التصانيف النافعة، وفرد أقرانه في الفنون، كان قانعًا باليسير، متجملًا في زهده، وورعه، وقال إمام الحرمين في حقه: ما من شافعي المذهب إلا وللشافعي عليه منَّةٌ، إلا أحمد البيهقي؛ فإن له عَلَـى الشافعي منة. توفي رحمه الله في العاشر من جمادي الأول سنة ثمان وخمسين وأربعمائة بنيسابور؛ ونقل إلى بيهق رحمه الله.
● راجع: «سير أعلام النبلاء» (٤٤٣٧)، و«وفيات الأعيان» (١/ ٧٥، ٧٦)، و«الأنساب» (٢/ ٣٦٤).

(٣) أخرجه الحاكم في «المستدرك» (٢/ ٥٥٠) ط دار الكتب، وقال: «صحيح الإسناد عَلَـى شرط البخاري، ولم يخرجاه»، ووافقه الذهبيُّ، وكذا الألبانيُّ؛ كما في «صحيح السيرة» (١٥٨، ١٥٩)، وأخرجه كذلك البيهقي في «الدلائل» (٢/ ١٩٨، ٢٠٠)، و«الشعب» (١٣٥) وجوَّد سندَهُ العراقيُّ في «تخريج الإحياء» (١/ ٢٧٤)، وصحَّحَهُ الألبانيُّ - كما سبق.

مُنْكِرٌ لَهُ، أَوْ أَنَّكَ كَارِهٌ لَهُ. قَالَ: وَمَاذَا أَقُولُ؟ فَوَاللهِ مَا فِيكُمْ رَجُلٌ أَعْلَمُ بِالْأَشْعَارِ مِنِّي، وَلَا أَعْلَمَ بِرَجَزٍ وَلَا بِقَصِيدَةٍ مِنِّي، وَلَا بِأَشْعَارِ الجِنِّ، وَاللهِ مَا يُشْبِهُ الَّذِي يَقُولُ شَيْئًا مِنْ هَذَا، وَوَاللهِ إِنَّ لِقَوْلِهِ الَّذِي يَقُولُ حَلَاوَةً، وَإِنَّ عَلَيْهِ لَطَلَاوَةً، وَإِنَّهُ لَمُثْمِرٌ أَعْلَاهُ، مُغْدِقٌ أَسْفَلُهُ، وَإِنَّهُ لَيَعْلُو وَمَا يُعْلَى، وَإِنَّهُ لَيَحْطِمُ مَا تَحْتَهُ. قَالَ: لَا يَرْضَى عَنْكَ قَوْمُكَ حَتَّى تَقُولَ فِيهِ. قَالَ: فَدَعْنِي حَتَّى أُفَكِّرَ، فَلَمَّا فَكَّرَ قَالَ: هَذَا سِحْرٌ يُؤْثَرُ، يَأْثِرُهُ عَنْ غَيْرِهِ: ﴿ذَرْنِي وَمَنْ خَلَقْتُ وَحِيدًا﴾ [المدثر:١١].

نَعَمْ؛ أَنْزَلَ اللهُ هَذِهِ الْآيَاتِ الْفَرِيدَةَ فِي شَأْنِ هَذَا الْمُفْتَرِي عَلَى رَسُولِ اللهِ ﷺ؛ فَقَالَ - جَلَّ وَعَلَا: ﴿ذَرْنِي وَمَنْ خَلَقْتُ وَحِيدًا ﴿١١﴾ وَجَعَلْتُ لَهُ مَالًا مَمْدُودًا ﴿١٢﴾ وَبَنِينَ شُهُودًا ﴿١٣﴾ وَمَهَّدْتُ لَهُ تَمْهِيدًا ﴿١٤﴾ ثُمَّ يَطْمَعُ أَنْ أَزِيدَ ﴿١٥﴾ كَلَّا إِنَّهُ كَانَ لِآيَاتِنَا عَنِيدًا ﴿١٦﴾ سَأُرْهِقُهُ صَعُودًا ﴿١٧﴾ فَقُتِلَ كَيْفَ قَدَّرَ ﴿١٩﴾ ثُمَّ قُتِلَ كَيْفَ قَدَّرَ ﴿٢٠﴾ ثُمَّ نَظَرَ ﴿٢١﴾ ثُمَّ عَبَسَ وَبَسَرَ ﴿٢٢﴾ ثُمَّ أَدْبَرَ وَاسْتَكْبَرَ ﴿٢٣﴾ فَقَالَ إِنْ هَذَا إِلَّا سِحْرٌ يُؤْثَرُ ﴿٢٤﴾ إِنْ هَذَا إِلَّا قَوْلُ الْبَشَرِ ﴿٢٥﴾ سَأُصْلِيهِ سَقَرَ﴾

[المدثر:١١-٢٦].

فَالْمُشْرِكُونَ كَانُوا يَخْشَوْنَ عَلَى أَنْفُسِهِمْ وَأَوْلَادِهِمْ مِنَ الْقُرْآنِ؛ بَلْ يَقُولُونَ لِبَعْضِهِمُ الْبَعْضِ؛ كَمَا قَالَ اللهُ عَنْهُمْ: ﴿وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لَا تَسْمَعُوا لِهَذَا الْقُرْآنِ وَالْغَوْا فِيهِ لَعَلَّكُمْ تَغْلِبُونَ﴾ [فصلت:٢٦]؛ أَيْ: شَوِّشُوا عَلَى الْقُرْآنِ، وَلَا تَدَعُوهُ يَصِلُ إِلَى الآذَانِ؛ وَلَا تُنْصِتُوا لَهُ؛ لِأَنَّهُ يَقْلِبُ الْقُلُوبَ، وَيَسْبِي الْعُقُولَ، وَكُلُّ مَنِ اسْتَمَعَ إِلَيْهِ صَبَا إِلَيْهِ (١)، وَلَوْ وَصَلَ الْقُرْآنُ إِلَى الآذَانِ لَصَدَّعَ جَلَالُ الْقُرْآنِ عِنَادَ الْكِبْرِ فِي الْقُلُوبِ!!

وَيُفَسِّرُ لَنَا الْإِمَامُ السَّعْدِيُّ هَذِهِ الْآيَةَ تَفْسِيرًا رَائِعًا؛ حَيْثُ يَقُولُ (٢): «يُخْبِرُ تَعَالَى عَنْ إِعْرَاضِ الْكُفَّارِ عَنِ الْقُرْآنِ، وَتَوَاصِيهِمْ بِذَلِكَ؛ فَقَالَ: ﴿وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا

---

(١) «البحر المديد» لابن عجيبة (٦/ ٥١٣) ط دار الكتب العلمية، بيروت.

(٢) «تيسير الكريم الرحمن» (لسورة فصلت:٢٦).

﴿لَا تَسْمَعُوا لِهَٰذَا الْقُرْآنِ﴾ أَيْ: أَعْرِضُوا عَنْهُ بِأَسْمَاعِكُمْ، وَإِيَّاكُمْ أَنْ تَلْتَفِتُوا، أَوْ تُصْغُوا إِلَيْهِ وَإِلَى مَنْ جَاءَ بِهِ؛ فَإِنِ اتَّفَقَ أَنَّكُمْ سَمِعْتُمُوهُ أَوْ سَمِعْتُمُ الدَّعْوَةَ إِلَى أَحْكَامِهِ، عَارِضُوهُ﴿وَالْغَوْا فِيهِ﴾ [فصلت:٢٦]؛ أَيْ: تَكَلَّمُوا بِالْكَلَامِ الَّذِي لَا فَائِدَةَ فِيهِ، بَلْ فِيهِ الْمَضَرَّةُ، وَلَا تُمَكِّنُوا - مَعَ قُدْرَتِكُمْ - أَحَدًا يَمْلِكُ عَلَيْكُمُ الْكَلَامَ بِهِ، وَتِلَاوَةَ أَلْفَاظِهِ وَمَعَانِيهِ، هَذَا لِسَانُ حَالِهِمْ، وَلِسَانُ مَقَالِهِمْ فِي الْإِعْرَاضِ عَنْ هَذَا الْقُرْآنِ.

﴿لَعَلَّكُمْ﴾ إِنْ فَعَلْتُمْ ذَلِكَ ﴿تَغْلِبُونَ﴾ وَهَذِهِ شَهَادَةٌ مِنَ الْأَعْدَاءِ، وَأَوْضَحُ الْحَقِّ مَا شَهِدَتْ بِهِ الْأَعْدَاءُ؛ فَإِنَّهُمْ لَمْ يَحْكُمُوا بِغَلَبَتِهِمْ لِمَنْ جَاءَ بِالْحَقِّ إِلَّا مِنْ حَالِ الْإِعْرَاضِ عَنْهُ وَالتَّوَاصِي بِذَلِكَ.

وَمَفْهُومُ كَلَامِهِمْ، أَنَّهُمْ إِنْ لَمْ يَلْغَوْا فِيهِ؛ بَلِ اسْتَمَعُوا إِلَيْهِ، وَأَلْقَوْا أَذْهَانَهُمْ، أَنَّهُمْ لَا يَغْلِبُونَ، فَإِنَّ الْحَقَّ غَالِبٌ غَيْرُ مَغْلُوبٍ، يَعْرِفُ هَذَا أَصْحَابُ الْحَقِّ وَأَعْدَاؤُهُ» ا. هـ.

وَمِنْ أَرْوَعِ مَا قَرَأْتُ أَنَّهُ فِي السَّنَةِ الْخَامِسَةِ مِنَ النُّبُوَّةِ [(١)]، دَخَلَ النَّبِيُّ ﷺ بَيْتَ اللهِ الْحَرَامَ، وَرَحَى الصِّرَاعِ دَائِرَةٌ عَلَى أَشُدِّهَا بَيْنَهُ وَبَيْنَ الْمُشْرِكِينَ، وَقَرَأَ النَّبِيُّ ﷺ سُورَةَ النَّجْمِ بِمَكَّةَ، وَلَكَ أَنْ تَتَخَيَّلَ حَلَاوَةَ الْقُرْآنِ وَجَلَالَهُ حِينَ يَتْلُوهُ رَسُولُ اللهِ ﷺ؛ فَالْقُرْآنُ لَوْ أَنْزَلَهُ اللهُ عَلَى جَبَلٍ لَتَصَدَّعَ مِنْ خَشْيَةِ اللهِ - جَلَّ وَعَلَا- قَامَ النَّبِيُّ ﷺ يَقْرَأُ هَذِهِ الْآيَاتِ: ﴿وَالنَّجْمِ إِذَا هَوَىٰ ﴿١﴾ مَا ضَلَّ صَاحِبُكُمْ وَمَا غَوَىٰ ﴿٢﴾ وَمَا يَنطِقُ عَنِ الْهَوَىٰ ﴿٣﴾ إِنْ هُوَ إِلَّا وَحْيٌ يُوحَىٰ ﴿٤﴾ عَلَّمَهُ شَدِيدُ الْقُوَىٰ﴾[النجم:١-٥]، وَفِي آخِرِ السُّورَةِ قَرَأَ آيَاتٍ كَرِيمَاتٍ تَطِيرُ لَهَا الْقُلُوبُ: ﴿أَفَمِنْ هَٰذَا الْحَدِيثِ تَعْجَبُونَ ﴿٥٩﴾ وَتَضْحَكُونَ وَلَا تَبْكُونَ ﴿٦٠﴾ وَأَنتُمْ سَامِدُونَ ﴿٦١﴾ فَاسْجُدُوا لِلَّهِ وَاعْبُدُوا﴾ [النجم:٥٩-٦٢]، وَخَرَّ النَّبِيُّ ﷺ سَاجِدًا لِلَّهِ؛ فَلَمْ يَتَمَالَكْ أَحَدٌ مِنَ الْمُشْرِكِينَ

---

(١) كما قال أهل السير؛ ذكره الحافظ في «الفتح» (٧/ ٢٢٧)، باب الهجرة إلى الحبشة (٨/ ٤٨١).

نَفْسَهُ، فَخَرُّوا كُلُّهُمْ سُجَّدًا لِلَّهِ خَلْفَ رَسُولِ الله ﷺ!!

رَوَى الْبُخَارِيُّ فِي كِتَابِ السُّجُودِ مِنْ «صَحِيحِهِ» مِنْ حَدِيثِ ابْنِ عَبَّاسٍ رضي الله عنهما: «أَنَّ النَّبِيَّ ﷺ سَجَدَ بِالنَّجْمِ، وَسَجَدَ مَعَهُ الْمُسْلِمُونَ، وَالْمُشْرِكُونَ، وَالْجِنُّ، وَالإِنْسُ» (١).

وَهذِهِ هِيَ الْعِلَّةُ الَّتِي جَعَلَتِ الْمُهَاجِرِينَ إِلَى الْحَبَشَةِ يَعُودُونَ إِلَى مَكَّةَ مَرَّةً أُخْرَى بَعْدَمَا تَرَامَتِ الْأَنْبَاءُ إِلَيْهِمْ هُنَالِكَ أَنَّ الْمُشْرِكِينَ قَدْ سَجَدُوا خَلْفَ رَسُولِ الله ﷺ (٢)؛ لَكِنَّهُمْ لَمْ يَعْلَمُوا أَنَّ جَلَالَ الْقُرْآنِ هُوَ الَّذِي صَدَعَ عِنَادَ الْكِبْرِ فِي قُلُوبِهِمْ، وَسَجَدُوا لِلَّهِ؛ فَلَمَّا رَفَعُوا رُؤُوسَهُمُ اسْتَنْكَرُوا ذَلِكَ، وَعَابَ بَعْضُهُمْ عَلَى بَعْضٍ أَنْ يَفْعَلُوا ذَلِكَ مَعَ رَسُولِ الله ﷺ!!

فَفِي السَّنَةِ الْخَامِسَةِ مِنَ الْبَعْثَةِ (٣) اشْتَدَّ الْعَذَابُ وَالْإِيذَاءُ بِالصَّحَابَةِ رضي الله عنهم، بَعْدَمَا فَشِلَتْ خُطَّةُ قُرَيْشٍ فِي اسْتِمَالَةِ رَسُولِ الله ﷺ بِالْإِغْرَاءِ؛ فَلَمْ يَجِدِ النَّبِيُّ ﷺ بُدًّا أَنْ يَطْلُبَ مِنْ أَصْحَابِهِ الَّذِينَ اشْتَدَّ بِهِمُ الْأَذَى أَنْ يُهَاجِرُوا إِلَى الْحَبَشَةِ؛ لِتَغْسِلَ شَلَّالَاتُ الْحَبَشَةِ جُرُوحَهُمْ، وَدِمَاءَهُم الَّتِي لَا زَالَتْ تَنْزِفُ مِنْ رِمَاحٍ وَسُيُوفٍ وَسِهَامٍ وَسِيَاطِ الْمُشْرِكِينَ فِي مَكَّةَ!!

ثُمَّ لِمَاذَا الْحَبَشَةُ؟

---

(١) أخرجه البخاريُّ، كتاب سجود القرآن، باب سجود المسلمين مع المشركين والمشرك نجس ليس له وضوء (١٠٧١).

(٢) قال ابن إسحاق: «وبلغ أصحاب رسول الله ﷺ الذين خرجوا إلى أرض الحبشة، إسلام أهل مكة، فأقبلوا لما بلغهم من ذلك، حتى إذا دنوا من مكة، بلغهم أن ما كانوا تحدثوا به من إسلام أهل مكة كان باطلاً، فلم يدخل منهم أحد إلا بجوارٍ أو مستخفيًا...»؛ راجع: «السيرة» لابن هشام (٢/ ١١)، و«الفتح» لابن حجر (٧/ ٢٧٦)، و«البداية والنهاية» (٣/ ٨٨).

(٣) «البداية والنهاية» (٣/ ٦٤).

وَالْجَوَابُ مِنْ رَسُولِ اللهِ ﷺ؛ فَقَدْ قَالَ (١): «**إِنَّ بِأَرْضِ الْحَبَشَةِ مَلِكًا لاَ يُظْلَمُ أَحَدٌ عِنْدَهُ فَالْحَقُوا بِبِلاَدِهِ حَتَّى يَجْعَلَ اللهُ لَكُمْ فَرَجًا وَمَخْرَجًا مِمَّا أَنْتُمْ فِيهِ**».

وَيَخْرُجُ الصَّحَابَةُ - رِضْوَانُ اللهِ عَلَيْهِمْ - الْمَغْلُوبُونَ عَلَى أَمْرِهِمُ الْمُسْتَضْعَفُونَ الَّذِينَ أُلْهِبَتْ ظُهُورُهُمْ بِسِيَاطِ أَهْلِ الشِّرْكِ فِي مَكَّةَ؛ فَخَرَجُوا إِلَى الْحَبَشَةِ (٢)، وَلَمَّا وَجَدَ النَّبِيُّ ﷺ أَرْضَ مَكَّةَ أَرْضًا صَلْدَةً تَأْبَى أَنْ تَقْبَلَ بَذْرَةَ التَّوْحِيدِ وَالْإِيمَانِ، خَرَجَ بِأَبِي هُوَ وَأُمِّي، لِيَبْحَثَ عَنْ أَرْضٍ جَدِيدَةٍ أُخْرَى؛ فَخَرَجَ إِلَى الطَّائِفِ عَلَى قَدَمَيْهِ الدَّامِيَتَيْنِ الْمُتْعَبَتَيْنِ، لَمْ يَجِدْ رَاحِلَةً لِيَرْكَبَهَا، وَالْمَسَافَةُ بَيْنَ مَكَّةَ وَالطَّائِفِ تُقَارِبُ سَبْعِينَ كِيلُو مِتْرٍ؛ فَلَمْ يَجِدْ شَيْئًا يَحْمِلُهُ؛ بَلْ يَمْشِي عَلَى رِمَالِ مَكَّةَ، فِي الصَّحْرَاءِ الَّتِي انْعَكَسَتْ عَلَيْهَا أَشِعَّةُ الشَّمْسِ؛ فَكَادَتِ الْأَشِعَّةُ الْمُنْعَكِسَةُ - فَقَطْ - أَنْ تَخْطِفَ الْأَبْصَارَ!!! لا يَرَى حَوْلَهُ إِلَّا جِبَالًا سَوَّدَتْهَا حَرَارَةُ الشَّمْسِ، وَلَا يَرَى إِلَّا رِمَالًا مُلْتَهِبَةً، وَأَحْجَارًا صَلْدَةً، وَصُخُورًا قَاسِيَةً لا تَقِلُّ قَسْوَةً عَنْ قُلُوبٍ مُظْلِمَةٍ رَدَّتِ الْحَقَّ، وَكَرِهَتِ النُّورَ الَّذِي جَاءَ بِهِ مُحَمَّدٌ ﷺ.

وَاللهِ مَا خَرَجَ إِلَيْهَا يَطْلُبُ جَاهًا أَوْ مَالًا، إِنَّمَا ذَهَبَ؛ لِيَنْتَشِلَهُمْ مِنْ ظَلَامِ الشِّرْكِ وَالْوَثَنِيَّةِ إِلَى أَنْوَارِ التَّوْحِيدِ وَالْإِيمَانِ بِرَبِّ الْبَرِيَّةِ - تَعَالَى - لَكِنَّ أَهْلَ الطَّائِفِ فَعَلُوا بِهِ أَسْوَأَ مَا يَفْعَلُهُ الْإِنْسَانُ بِالْإِنْسَانِ، وَلَمْ يَتَوَقَّعْ رَسُولُ اللهِ ﷺ أَنْ يَفْعَلَ بِهِ أَهْلُ الطَّائِفِ مَا فَعَلُوا! لَقَدْ سَلَّطُوا عَلَيْهِ السُّفَهَاءَ وَالصِّبْيَانَ؛ فَسَبُّوهُ، وَشَتَمُوهُ، وَقَذَفُوهُ بِالْحِجَارَةِ حَتَّى أَدْمَوْا كَعْبَيْهِ، وَلَمْ يَسْتَجِيبُوا لِدَعْوَتِهِ؛ **كَمَا رَوَى**

---

(١) أخرجه البيهقيُّ في «السنن» (٩/ ٩)، وفي «الدلائل» (٢/ ٣٠١) من حديث أم سلمة رضي الله عنها قالت: فذكرته مرفوعًا. وهو عند أحمد (١/ ٢٠١، ٢٠٢)، وابن إسحاق في «السيرة»؛ كما في «سيرة ابن هشام» (١/ ١٩١) عن أم سلمة بدون هذه الفقرة، والحديث جوَّد سنده العراقي في «تخريج الإحياء» (٢/ ٢٢٥)، وكذا الألباني في «الصحيحة» (٣١٩٠).

(٢) «السيرة» لابن هشام (١/ ١٨٤)؛ فصل: «الهجرة الأولى إلى الحبشة».

ذَلِكَ الطَّبَرَانِيُّ فِي «الْكَبِيرِ»، وَفِي «الدُّعَاءِ»، وَابْنُ عَدِيٍّ [١] فِي «الْكَامِلِ»، وَابْنُ عَسَاكِرَ [٢] فِي «تَارِيخِهِ»، وَالْخَطِيبُ [٣] فِي «الجَامِعِ لِأَخْلَاقِ الرَّاوِي» [٤] مِنْ

---

(١) هو الإمام الحافظ الناقد، الجوال، أبو أحمد عبد الله بن عدي بن عبد الله بن محمد بن مبارك القطان الجرجاني، مولده في سنة سبع وسبعين ومائتين، وأول سماعه كان في سنة تسعين، كان حافظًا متقنًا، جرح وعدل وعلل، وتقدم في هذه الصناعة على لَحْنٍ فيه يظهر في تأليفه، طاف البلاد في طلب العلم، قال حمزه السهميُّ: مات في جمادى الآخر سنة خمس وستين وثلاث مائة.

● راجع: «سير أعلام النبلاء» (٣٤٧٣)، و«شذرات الذهب» (٣/ ٥١).

(٢) هو الإمام العلامة، الحافظ الكبير، محدث الشام، ثقة الدين، أبو القاسم الدمشقيُّ عليُّ ابن الحسن بن هبة الله أبو محمد الشهير بابن عساكر؛ فعساكر لا أدري لقب من هو من أجداده؛ أو لعله اسمٌ لأحدهم، وكان فهمًا حافظًا، متقنًا ذكيًّا، بصيرًا بهذا الشأن، لا يلحق شأوه، ولا يشق غباره، ولا كان له نظير في زمانه، ولد في المحرم في أول الشهر، سنة تسع وتسعين وأربعمائة؛ توفي رحمه الله في رجب سنة إحدى وسبعين وخمس ومائة، ليلة الإثنين، حادي عشر الشهر.

● راجع: «سير أعلام النبلاء»(٥٤١٢)، و«الأعلام» للزركلي (٤/ ٢٧١).

(٣) هو الإمام الأوحد، العلامة المفتي الحافظ الناقد، محدث الوقت، أبو بكر أحمد بن علي ابن ثابت بن أحمد بن مهدي البغدادي، أحد الأئمة الأعلام، وصاحب التصانيف المنتشرة في الإسلام، ولد في جمادى الآخرة سنة اثنتين وتسعين وثلاثمائة، وتفنن في علل الحديث، وجرح وعدل، وصار أحفظ أهل عصره على الإطلاق، كان مهيبًا متحريًا حجة، حسن الخط كثير الضبط فصيحًا. توفي رحمه الله يوم الاثنين سابع ذي الحجة سنة ثلاث وستين وأربعمائة ببغداد.

● راجع: «سير أعلام النبلاء» (٤٤٨٩)، و«شذرات الذهب» (٣/ ٣١٠)، و«وفيات الأعيان» (١/ ٩٢-٩٣).

(٤) سنده حسن لولا ما يخشى من تدليس ابن إسحاق، وقد أخرجه الطبراني في «الكبير»؛ كما في «المجمع» (٦/ ٣٧)، وفي «الدعاء» (١٠٣٦)، وفي «جزء في ترجمة الطبراني» (١/ ٣٤٦)، وابن عدي (٦/ ١١١)، وابن عساكر (٤٩/ ١٥٢)، والخطيب في «الجامع»(١٨٣٩) من طريق: ابن إسحاق به.

قال ابن عدي: «وهذا حديث أبي صالح الراسبي لم نسمع أن أحدًا حدَّث بهذا الحديث

=

طَرِيق: ابْنِ إِسْحَاقَ عَنْ هِشَامِ بْنِ عُرْوَةَ عَنْ عُرْوَةَ عَنْ عَبْدِ اللهِ بْنِ جَعْفَرٍ (١) قَالَ: لَمَّا تُوُفِّيَ أَبُو طَالِبٍ خَرَجَ النَّبِيُّ ﷺ إِلَى الطَّائِفِ مَاشِيًا عَلَى قَدَمَيْهِ، فَدَعَاهُمْ إِلَى الْإِسْلَامِ، فَلَمْ يُجِيبُوهُ، فَانْصَرَفَ فَأَتَى ظِلَّ شَجَرَةٍ، فَصَلَّى رَكْعَتَيْنِ، ثُمَّ قَالَ: «اللهمَّ إِلَيْكَ أَشْكُو ضَعْفَ قُوَّتِي، وَقِلَّةَ حِيلَتِي، وَهَوَانِي عَلَى النَّاسِ، يَا أَرْحَمَ الرَّاحِمِينَ، أَنْتَ أَرْحَمُ بِي، إِلَى مَنْ تَكِلُنِي؟ إِلَى عَدُوٍّ يَتَجَهَّمُنِي؟ أَمْ إِلَى قَرِيبٍ مَلَّكْتَهُ أَمْرِي؟ إِنْ لَمْ تَكُنْ غَضْبَانَ عَلَيَّ فَلَا أُبَالِي، غَيْرَ أَنَّ عَافِيَتَكَ هِيَ أَوْسَعُ لِي، أَعُوذُ بِنُورِ وَجْهِكَ الَّذِي أَشْرَقَتْ لَهُ الظُّلُمَاتُ، وَصَلَحَ عَلَيْهِ أَمْرُ الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ، أَنْ يَنْزِلَ بِي غَضَبُكَ، وَأَنْ يَحِلَّ عَلَيَّ سَخَطُكَ، لَكَ الْعُتْبَى حَتَّى تَرْضَى، وَلَا حَوْلَ وَلَا قُوَّةَ إِلَّا بِكَ».

حَتَّى قَالَتْ عَائِشَةُ رضي الله عنها لِلنَّبِيِّ ﷺ؛ فِيمَا رَوَاهُ الْبُخَارِيُّ وَمُسْلِمٌ (٢) عَنْهَا

=

غيره، ولم نكتبه إلا عنه».

وقال الهيثميُّ: «وفيه ابن إسحاق مدلس ثقة، وبقية رجاله ثقات»، وقد ضعفه الشيخ الألباني؛ فقال: «فإنه ضعيف على شهرته في كتب السيرة»؛ راجع: «تمام المنة» (١/ ٤)، و«الضعيفة» (٢٩٣٣)، و«ضعيف الجامع» (١١٨٢)، و«فقه السيرة» (١/ ١٢٥).

قُلْتُ (الباحث): وللحديث شاهدٌ مرسلٌ؛ أخرجه ابن إسحاق؛ كما في «السيرة» لابن هشام (٢/ ٤٣، ٤٤)، ومن طريقه الطبري في «تاريخه» (١/ ٥٥٤) عن يزيد بن زياد عن محمد بن كعب القرظي مرسلًا، فلعلّه يحسن به، والله أعلم.

(١) هو عبد اللّـه بن جعفر بن أبي طالب بن عبد المطلب بن هاشم بن عبد مناف القرشي الهاشمي ذو الجناحين، يكنى: أبا جعفر له صحبة، وهو أول مولود ولد في الإسلام بأرض الحبشة، وقدم مع أبيه المدينة، وحفظ عن رَسُول اللّـه ﷺ، وأخبارُه في الكرم كثيرةٌ وشهيرة، مات عام ثمانين عام الجحاف، وقيل: سنة تسعين، وقيل: سنة أربع أو خمس وثمانين، والأول أكثر.

● راجع: «الاستيعاب» (١٥٢٣)، و«أسد الغابة» (٢٨٦٤)، و«الإصابة» (٤٦٠٩).

(٢) أخرجه البخاريُّ، كتاب بدء الخلق، باب ذكر الملائكة (٣٢٣١)، ومسلم، كتاب الجهاد والسير، باب ما لقي النبي ﷺ من أذى المشركين (١٧٩٥).

قَالَتْ: هَلْ أَتَى عَلَيْكَ يَوْمٌ كَانَ أَشَدَّ مِنْ يَوْمِ أُحُدٍ؟ قَالَ: «لَقَدْ لَقِيتُ مِنْ قَوْمِكِ مَا لَقِيتُ، وَكَانَ أَشَدَّ مَا لَقِيتُ مِنْهُمْ يَوْمَ الْعَقَبَةِ، إِذْ عَرَضْتُ نَفْسِي عَلَى ابْنِ عَبْدِ يَالِيلَ ابْنِ عَبْدِ كُلَالٍ، فَلَمْ يُجِبْنِي إِلَى مَا أَرَدْتُ، فَانْطَلَقْتُ وَأَنَا مَهْمُومٌ عَلَى وَجْهِي، فَلَمْ أَسْتَفِقْ إِلَّا وَأَنَا بِقَرْنِ الثَّعَالِبِ، فَرَفَعْتُ رَأْسِي فَإِذَا أَنَا بِسَحَابَةٍ قَدْ أَظَلَّتْنِي، فَنَظَرْتُ فَإِذَا فِيهَا جِبْرِيلُ، فَنَادَانِي؛ فَقَالَ: إِنَّ اللهَ قَدْ سَمِعَ قَوْلَ قَوْمِكَ لَكَ، وَمَا رَدُّوا عَلَيْكَ، وَقَدْ بَعَثَ إِلَيْكَ مَلَكَ الْجِبَالِ لِتَأْمُرَهُ بِمَا شِئْتَ فِيهِمْ، فَنَادَانِي مَلَكُ الْجِبَالِ، فَسَلَّمَ عَلَيَّ، ثُمَّ قَالَ: يَا مُحَمَّدُ، فَقَالَ: ذَلِكَ فِيمَا شِئْتَ إِنْ شِئْتَ أَنْ أُطْبِقَ عَلَيْهِمُ الْأَخْشَبَيْنِ (١)؛ فَقَالَ النَّبِيُّ ﷺ: بَلْ أَرْجُو أَنْ يُخْرِجَ اللهُ مِنْ أَصْلَابِهِمْ مَنْ يَعْبُدُ اللهَ وَحْدَهُ لَا يُشْرِكُ بِهِ شَيْئًا».

هَذَا هُوَ الْمُصْطَفَى ﷺ، خَرَجَ وَهُوَ يَحْمِلُ فِي قَلْبِهِ أَمَلًا يَتَجَدَّدُ، خَرَجَ وَهُوَ يَحْمِلُ فِي صَدْرِهِ رَبِيعًا يَتَنَفَّسُ؛ نَعَمْ! مَا خَرَجَ لِلِانْتِقَامِ وَلَا لِلثَّأْرِ لِلذَّاتِ أَبَدًا، وَاللهِ ثُمَّ وَاللهِ لَوْ كَانَ النَّبِيُّ ﷺ مِمَّنْ يَنْتَقِمُونَ لِأَنْفُسِهِمْ وَمِمَّنْ يَثْأَرُونَ لِذَوَاتِهِمْ، لَأَمَرَ مَلَكَ الْجِبَالِ، فَلَحَطَّمَ هَذِهِ الرُّؤُوسَ الصَّلْدَةَ، وَالْجَمَاجِمَ الْعَنِيدَةَ، وَلَسَالَتْ بُحُورٌ مِنَ الدِّمَاءِ - لَا مِنَ الْمَاءِ- وَلَكِنَّهُ الرَّحْمَةُ الْمُهْدَاةُ وَالنِّعْمَةُ الْمُسْدَاةُ - بِأَبِي هُوَ وَأُمِّي ﷺ.

وَيَرْجِعُ النَّبِيُّ ﷺ مَرَّةً أُخْرَى إِلَى مَكَّةَ، بَعْدَمَا وَجَدَ أَرْضَ الطَّائِفِ أَشَدَّ صَلَادَةً مِنْ أَرْضِ مَكَّةَ!

وَيَشَاءُ رَبُّنَا تَبَارَكَ وَتَعَالَى فِي الْعَامِ الْعَاشِرِ (٢) أَنْ يَمُوتَ عَمُّهُ أَبُو طَالِبٍ، وَقَدَّرَ - جَلَّ وَعَلَا- أَنْ يَمُوتَ عَلَى دِينِ قَوْمِهِ، مَعَ مَا بَذَلَهُ لِلنَّبِيِّ ﷺ وَلِدَعْوَةِ اللهِ

---

(١) الأخشبان: جبلان عظيمان: يقال للأول: أبو قبيس، ويقال للثاني: الأحمر، أو قيعان. راجع: «الفتح» (١٠/ ١٦).

(٢) «الفتح» (٧/ ٢٣٣) باب قصة أبي طالب.

تَبَارَكَ وَتَعَالَى مِنْ حِمَايَةٍ وَرِعَايَةٍ (١).

فَفِي «الصَّحِيحَيْنِ» مِنْ حَدِيثِ سَعِيدِ بْنِ الْمُسَيَّبِ عَنْ أَبِيهِ الْمُسَيَّبِ بْنِ حَزْنٍ(٢) ﷺ أَنَّ أَبَا طَالِبٍ لَمَّا حَضَرَتْهُ الْوَفَاةُ دَخَلَ عَلَيْهِ النَّبِيُّ ﷺ وَعِنْدَهُ أَبُو جَهْلٍ؛ فَقَالَ: «**أَيْ عَمِّ قُلْ: لاَ إِلَهَ إِلاَّ اللهُ كَلِمَةً أُحَاجُّ لَكَ بِهَا عِنْدَ اللهِ**»؛ فَقَالَ أَبُو جَهْلٍ وَعَبْدُ اللهِ بْنُ أَبِي أُمَيَّةَ: يَا أَبَا طَالِبٍ، تَرْغَبُ عَنْ مِلَّةِ عَبْدِ الْمُطَّلِبِ، فَلَمْ يَزَالاَ يُكَلِّمَانِهِ حَتَّى قَالَ آخِرَ شَيْءٍ كَلَّمَهُمْ بِهِ عَلَى مِلَّةِ عَبْدِ الْمُطَّلِبِ؛ فَقَالَ النَّبِيُّ ﷺ: «**لأَسْتَغْفِرَنَّ لَكَ مَا لَمْ أُنْهَ عَنْهُ**»؛ فَنَزَلَتْ: ﴿مَا كَانَ لِلنَّبِيِّ وَالَّذِينَ آمَنُوا أَن يَسْتَغْفِرُوا لِلْمُشْرِكِينَ وَلَوْ كَانُوا أُولِي قُرْبَىٰ مِن بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُمْ أَصْحَابُ الْجَحِيمِ﴾ [التوبة:١١٣](٣)، وَنَزَلَتْ: ﴿إِنَّكَ لَا تَهْدِي مَنْ أَحْبَبْتَ وَلَٰكِنَّ اللَّهَ يَهْدِي مَن يَشَاءُ ۚ وَهُوَ أَعْلَمُ بِالْمُهْتَدِينَ﴾ [القصص:٥٦].

وَبَعْدَ مَوْتِ عَمِّهِ أَبِي طَالِبٍ تَمُوتُ خَدِيجَةُ ﵂ (٤) رَمْزُ الْوَفَاءِ، وَسَكَنُ

---

(١) **قال الحافظ في «الفتح» (٧/ ٢٣٣)**: «وأخباره في حياطته والذب عنه معروفة مشهورة، ومما اشتهر من شعره في ذلك قوله:

والله لـن يصلوا إليـك بجمعهـم ... حتـى أوسـد في التـراب دفينًـا».

(٢) هو المسيب بن حزن بن أبي وهب بن عمرو بن عائذ بن عمران بن مخزوم القرشي المخزومي، يكنى أبا سعيد، وهو والد سعيد بن المسيب الفقيه المشهور، هاجر المسيب مع أبيه حزن، وكان المسيب بايع تحت الشجرة في قول، وشهد اليرموك بالشام؛ قال ابن حجر: «لم يتحرر لي متى مات».

● انظر: «الإصابة» (٨٠٠٢)، و«أسد الغابة» (٤٩٢٩)، و«الاستيعاب» (١٤٢٦).

(٣) أخرجه البخاريُّ، كتاب المناقب، باب قصة أبي طالب (٣٨٨٤)، ومسلمٌ، كتاب الإيمان، باب الدليل عَلَى صحة إسلام من حضره الموت ما لم يشرع في النزع (٢٤).

(٤) وقد ماتا في عام واحدٍ؛ قاله ابن إسحاق، انظر: «السيرة» لابن إسحاق، و«سيرة ابن هشام»(٢/ ٤٢)، و«الفتح» (٧/ ٢٣٢)، و«البداية والنهاية» (٣/ ١٢٠).

وقد ورد في «صحيح البخاري»(٣٨٩٦) عن عروة قال: «توفيت خديجة ﵂ قبل مخرج النبي ﷺ إلى المدينة بثلاث سنين». وراجع: «الدلائل» للبيهقي(٢/ ٣٥١-

=

سَيِّدِ الْأَنْبِياءِ، وَيَحْزَنُ النَّبِيُّ ﷺ فِي هَذَا الْعَامِ حُزْنًا شَدِيدًا، حَتَّى سَمَّى بَعْضُ الْمُؤَرِّخِينَ لِلسِّيَرِ هَذَا الْعَامَ بِعَامِ الْحُزْنِ؛ فَفِيهِ مَاتَ أَبُو طَالِبٍ، وَمَاتَتْ خَدِيجَةُ، وَمَلأَ الْحُزْنُ قَلْبَ رَسُولِ اللهِ ﷺ وَفَتَّتَ الْأَلَمُ كَبِدَهُ ﷺ، وَخَرَجَ النَّبِيُّ - عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ- يَدْعُو، وَيَشَاءُ اللهُ تَبَارَكَ وَتَعَالَى أَنْ يُضَمِّدَ جِرَاحَ حَبِيبِهِ ﷺ؛ فَيَدْعُوهُ رَبُّهُ تَبَارَكَ وَتَعَالَى لِرِحْلَةٍ مِنْ أَعْظَمِ الرَّحَلَاتِ؛ بَلْ هِيَ أَعْظَمُ رِحْلَةٍ عَرَفَتْهَا الْبَشَرِيَّةُ، أَلَا وَهِيَ: رِحْلَةُ الْإِسْرَاءِ وَالْمِعْرَاجِ [(١)]؛ لِرَبِّ الْبَرِيَّةِ - جَلَّ وَعَلَا- وَكَأَنَّ اللهَ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى أَرَادَ أَنْ يُبَيِّنَ لِنَبِيِّهِ ﷺ، أَنْ أَهْلَ الْأَرْضِ إِنْ كَانُوا قَدْ طَرَدُوكَ فَرَبُّ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ يَدْعُوكَ، وَإِنْ كَانُوا قَدْ نَاصَبُوكَ الْعَدَاءَ؛ فَإِنَّكَ مَدْعُوٌّ لِلِقَاءِ رَبِّ الْأَرْضِ وَالسَّمَاءِ. يَا لَهَا مِنْ كَرَامَةٍ تَقِفُ أَمَامَهَا كُلُّ كَلِمَاتِ اللُّغَةِ خَجَلًا، وَلَا يَسْتَطِيعُ بَلِيغٌ وَلَا أَدِيبٌ أَنْ يُجَسِّدَ كَرَامَةَ هَذِهِ الدَّعْوَةِ مِنَ اللهِ تَبَارَكَ وَتَعَالَى لِنَبِيِّهِ ﷺ؛ لِيَعْرُجَ إِلَى السَّمَوَاتِ الْعُلَا بَعْدَ رِحْلَةِ الْإِسْرَاءِ؛ قَالَ تَعَالَى: ﴿سُبْحَٰنَ ٱلَّذِىٓ أَسْرَىٰ بِعَبْدِهِۦ لَيْلًا مِّنَ ٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ إِلَى ٱلْمَسْجِدِ ٱلْأَقْصَا﴾ [الإسراء:١] الْآيَاتِ.

ثُمَّ بَعْدَ ذَلِكَ تَأْتِي مُعْجِزَةُ الْمِعْرَاجِ فِي سُورَةِ النَّجْمِ كَرَامَةً مِنَ اللهِ لِلنَّبِيِّ ﷺ؛

= ٣٥٣) (٢/ ٤١٠)، و«الفتح» (٧/ ٢٤٣).

(١) وكان ذلك قبل الهجرة من مكة إلى المدينة بالإجماع؛ كما نقل ذلك شيخ الإسلام ابن تيمية في «منهاج السنة» (٥/ ٣٢) ثم وقع الاختلاف في تحديد ذلك؛ فقيل: كان الإسراء لخمس قبل الهجرة، وقيل: قبل الهجرة بعام، قال القاضي عياض: «والأشبه أنه لخمس» (الشفا ١/ ٢٠٨) وقال ابن عبد البر وغيره: «كان بين الإسراء والهجرة سنة وشهران»، انظر: «زاد المعاد»(٣/ ٤٢)، وعن الزهري قال: «أسري برسول الله ﷺ إلى بيت المقدس قبل خروجه إلى المدينة بسنة» أخرجه البيهقيُّ في «الدلائل» (٢/ ٣٥٤).

قال في «الفتح» (٧/ ٢٤٢): «وقد اختلف في وقت المعراج.. وذهب الأكثر إلى أنه كان بعد المبعث؛ ثم اختلفوا؛ فقيل: قبل الهجرة بسنة، قاله ابن سعد وغيره، وبه جزم النوويُّ، وبالغ ابن حزم فنقل الإجماع فيه! وهو مردودٌ؛ فإن في ذلك اختلافًا كثيرًا يزيد عَلَى عشرة أقوال... إلخ».

فَقَالَ تَعَالَى: ﴿وَٱلنَّجْمِ إِذَا هَوَىٰ (١) مَا ضَلَّ صَاحِبُكُمْ وَمَا غَوَىٰ (٢) وَمَا يَنطِقُ عَنِ ٱلْهَوَىٰٓ (٣) إِنْ هُوَ إِلَّا وَحْىٌ يُوحَىٰ (٤) عَلَّمَهُۥ شَدِيدُ ٱلْقُوَىٰ (٥) ذُو مِرَّةٍ فَٱسْتَوَىٰ (٦) وَهُوَ بِٱلْأُفُقِ ٱلْأَعْلَىٰ (٧) ثُمَّ دَنَا فَتَدَلَّىٰ (٨) فَكَانَ قَابَ قَوْسَيْنِ أَوْ أَدْنَىٰ (٩) فَأَوْحَىٰٓ إِلَىٰ عَبْدِهِۦ مَآ أَوْحَىٰ (١٠) مَا كَذَبَ ٱلْفُؤَادُ مَا رَأَىٰٓ (١١) أَفَتُمَٰرُونَهُۥ عَلَىٰ مَا يَرَىٰ (١٢) وَلَقَدْ رَءَاهُ نَزْلَةً أُخْرَىٰ (١٣) عِندَ سِدْرَةِ ٱلْمُنتَهَىٰ (١٤) عِندَهَا جَنَّةُ ٱلْمَأْوَىٰٓ (١٥) إِذْ يَغْشَى ٱلسِّدْرَةَ مَا يَغْشَىٰ (١٦) مَا زَاغَ ٱلْبَصَرُ وَمَا طَغَىٰ (١٧) لَقَدْ رَأَىٰ مِنْ ءَايَٰتِ رَبِّهِ ٱلْكُبْرَىٰٓ﴾ [النجم:١-١٨].

وَأَقُولُ: إِنَّ مُعْجِزَةَ الْإِسْرَاءِ كَانَتْ تَكْرِيمًا مِنَ اللهِ لِصَاحِبِ الدَّعْوَةِ فِي الْمَقَامِ الْأَوَّلِ، فَلَمْ تَكُنْ تَكْرِيمًا لِلدَّعْوَةِ، بِقَدْرِ مَا كَانَتْ تَكْرِيمًا لِصَاحِبِ الدَّعْوَةِ؛ بَلْ إِنَّ مُعْجِزَةَ الْإِسْرَاءِ فَتَنَتْ كَثِيرًا مِنَ النَّاسِ، لَمَّا عَادَ النَّبِيُّ ﷺ؛ لِيُخْبِرَهُمْ بِأَنَّ اللهَ أَسْرَى بِهِ مِنَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ إِلَى الْمَسْجِدِ الْأَقْصَى، ثُمَّ عَرَجَ بِهِ إِلَى السَّمَوَاتِ الْعُلَا.

وَمُعْجِزَةُ الْإِسْرَاءِ تَتَلَخَّصُ فِي الزَّمَنِ؛ فَمِنَ الْمَعْلُومِ عِنْدَ أَهْلِ الْعِلْمِ أَنَّ الْقُدْرَةَ تَتَنَاسَبُ تَنَاسُبًا عَكْسِيًّا مَعَ الزَّمَنِ؛ فَكُلَّمَا زَادَتِ الْقُدْرَةُ قَلَّ الزَّمَنُ، يَعْنِي: لَوْ أَنَّكَ قَطَعْتَ الْمَسَافَةَ مِنَ الْقَاهِرَةِ إِلَى الْمَنْصُورَةِ مَثَلًا عَلَى دَرَّاجَةٍ فَتَأْخُذُ وَقْتًا مُعَيَّنًا، فَإِنْ قَطَعْتَ الْمَسَافَةَ عَلَى سَيَّارَةٍ عَادِيَّةٍ سَيَقِلُّ الْوَقْتُ، فَإِنْ قَطَعْتَ الْمَسَافَةَ بِسَيَّارَةٍ أَقْوَى قَلَّ الْوَقْتُ، فَإِنْ قَطَعْتَ الْمَسَافَةَ بِطَائِرَةٍ أَوْ بِصَارُوخٍ قَلَّ الْوَقْتُ؛ فَكُلَّمَا زَادَتِ الْقُدْرَةُ قَلَّ الْوَقْتُ، فَإِنْ كَانَتِ الْقُدْرَةُ الَّتِي أَسْرَتْ بِرَسُولِ اللهِ ﷺ مِنْ مَكَّةَ إِلَى الْمَسْجِدِ الْأَقْصَى هِيَ قُدْرَةَ اللهِ ﷻ! إِذًا لَا وَقْتَ؛ فَإِعْجَازُ رَبِّنَا تَبَارَكَ وَتَعَالَى فِي رِحْلَةِ الْإِسْرَاءِ يَتَلَخَّصُ فِي الْوَقْتِ.

أَمَّا الْمِعْرَاجُ؛ فَالْحَدِيثُ عَنِ الْمِعْرَاجِ حَدِيثٌ يَطُولُ (١)، وَيَكْفِي أَنْ نَقُولَ: إِنَّهُ

---

(١) وراجع: أحاديث الإسراء والمعراج في «الصحيحين» وغيرهما (البخاري، كتاب التوحيد، باب ما جاء في قوله ﷻ: ﴿وَكَلَّمَ ٱللَّهُ مُوسَىٰ تَكْلِيمًا﴾ [النساء:١٦٤]، (٧٥١٧)، ومسلم، كتاب الإيمان، باب الإسراء برسول الله ﷺ إلى السماوات وفرض =

بِهَذِهِ الْكَرَامَةِ أَعْلَى اللهُ مَكَانَةَ النَّبِيِّ ﷺ، وَرَفَعَهُ عَلَى كُلِّ الْأَنْبِيَاءِ وَالْمُرْسَلِينَ، إِذْ صَلَّى بِهِمْ ﷺ إِمَامًا؛ فَهُوَ الْإِمَامُ الْأَعْظَمُ، وَهُوَ النَّبِيُّ الْأَكْرَمُ، الَّذِي إِنْ وُجِدَ فِي أَيِّ عَصْرٍ وَمِصْرٍ لَوَجَبَ عَلَى الْخَلْقِ جَمِيعًا أَنْ يُؤْمِنُوا بِهِ، وَأَنْ يَتَّبِعُوهُ، وَلَوْ كَانَ فِيهِمْ نَبِيٌّ مُرْسَلٌ مِنْ أَنْبِيَاءِ اللهِ تَبَارَكَ وَتَعَالَى (١).

هَذَا هُوَ نَبِيُّنَا ﷺ يُشَرِّفُهُ اللهُ بِرِحْلَةِ الْإِسْرَاءِ؛ لِيُضَمِّدَ جِرَاحَهُ الَّتِي نَزَفَتْ بَعْدَ هَذَا الْأَذَى وَالِابْتِلَاءِ.

ثُمَّ يَخْرُجُ النَّبِيُّ ﷺ فِي مَوْسِمِ الْحَجِّ فِي السَّنَةِ الْحَادِيَةَ عَشْرَةَ مِنَ الْبَعْثَةِ يَبْحَثُ عَنْ أُنَاسٍ يُبَلِّغُهُمْ دِينَ اللهِ، وَيَدْعُوهُمْ إِلَى: لَا إِلَهَ إِلَّا اللهُ؛ **كَمَا فِي «مُسْنَدِ أَحْمَدَ»، وَ«سُنَنِ» التِّرْمِذِيِّ، وَأَبِي دَاوُدَ، وَابْنِ مَاجَهْ وَغَيْرِهِمْ** (٢) عَنْ جَابِرِ بْنِ عَبْدِ اللهِ رضي الله عنهما قَالَ: «كَانَ رَسُولُ اللهِ ﷺ يَعْرِضُ نَفْسَهُ عَلَى النَّاسِ فِي الْمَوْقِفِ - وَفِي

= الصلوات) (١٦٢)؛ وراجع: «صحيح البخاري» كتاب مناقب الأنصار، باب حديث الإسراء (٤١) (حديث ٣٨٨٦ وما بعده)، وراجع: «تفسير ابن كثير» (لسورة الإسراء:١)، و«دلائل النبوة» للبيهقي (٢/ ٣٥٤- ٤٠٨) ط الريان، و«الشفا بتعريف حقوق المصطفى» (١٩٣، ٢١٩) ط ابن رجب.

(١) انظر: «تفسير ابن كثير» (لسورة آل عمران:٨١)؛ **قال ابنُ كثير**: «فالرسول محمد خاتم الأنبياء ــ صلوات الله وسلامه عليه - دائمًا إلى يوم الدين؛ هو الإمام الأعظم الذي لو وُجد في أي عصر وجد لكان هو الواجب الطاعة المقدم عَلَى الأنبياء كلِّهم، ولهذا كان إمامهم ليلة الإسراء لما اجتمعوا ببيت المقدس؛ وكذلك هو الشفيع في المحشر في إتيان الرب جل جلاله لفَصْل القضاء بين عباده، وهو المقام المحمود الذي لا يليق إلا له، والذي يحيد عنه أولو العزم من الأنبياء والمرسلين حتى تنتهي النوبة إليه؛ فيكون هو المخصوص به- صلوات الله وسلامه عليه» ا. هـ.

(٢) أخرجه أحمد (٣/ ٣٩٠)، وأبو داود، كتاب السنة في القرآن، باب في القرآن (٤٧٣٤)، والترمذيُّ، كتاب فضائل القرآن (٢٩٢٥) وقال: «هذا حديث حسن غريب صحيح»، وابن ماجه في المقدمة، باب فيما أنكرت الجهمية (٢٠١)، وصحَّحَهُ العلامة الألبانيُّ في «صحيح الترمذي» وغيره.

رِوَايَةٍ: فِي الْمَوْسِمِ - فَقَالَ: «أَلاَ رَجُلٌ يَحْمِلُنِي إِلَى قَوْمِهِ؛ فَإِنَّ قُرَيْشًا قَدْ مَنَعُونِي أَنْ أُبَلِّغَ كَلَامَ رَبِّي».

حَتَّى مَنَّ اللهُ تَبَارَكَ وَتَعَالَى عَلَيْهِ فِي الْعَامِ الْحَادِيَ عَشَرَ بِخَيْمَةٍ كَرِيمَةٍ مُبَارَكَةٍ، فِيهَا سِتَّةُ نَفَرٍ مِنَ الْأَنْصَارِ الْأَطْهَارِ الْأَخْيَارِ، فَدَعَاهُمُ النَّبِيُّ الْمُخْتَارُ إِلَى الْعَزِيزِ الْغَفَّارِ، فَآمَنُوا بِاللهِ تَبَارَكَ وَتَعَالَى، وَوَعَدُوا رَسُولَ اللهِ ﷺ أَنْ يَنْقُلُوا هَذِهِ الدَّعْوَةَ - دَعْوَةَ التَّوْحِيدِ- إِلَى أَهْلِيهِمْ فِي الْمَدِينَةِ، الَّتِي كَانَتْ تُسَمَّى يَوْمَهَا بِيَثْرِبَ، وَقَالُوا: «إِنَّا قَدْ تَرَكْنَا قَوْمَنَا، وَلَا قَوْمَ بَيْنَهُمْ مِنَ الْعَدَاوَةِ وَالشَّرِّ مَا بَيْنَهُمْ، فَعَسَى أَنْ يَجْمَعَهُمُ اللهُ بِكَ، فَسَنَقْدَمُ عَلَيْهِمْ، فَنَدْعُوهُمْ إِلَى أَمْرِكَ، وَنَعْرِضَ عَلَيْهِمُ الَّذِي أَجَبْنَاكَ إِلَيْهِ مِنْ هَذَا الدِّينِ؛ فَإِنْ يَجْمَعْهُمُ اللهُ عَلَيْكَ، فَلَا رَجُلَ أَعَزَّ مِنْكَ، ثُمَّ انْصَرَفُوا عَنْ رَسُولِ اللهِ ﷺ رَاجِعِينَ إِلَى بِلَادِهِمْ، وَقَدْ آمَنُوا وَصَدَّقُوا.

قَالَ ابْنُ إِسْحَاقَ: وَهُمْ - فِيمَا ذُكِرَ لِي: «سِتَّةُ نَفَرٍ مِنَ الْخَزْرَجِ، حَتَّى إِذَا كَانَ الْعَامُ الْمُقْبِلُ وَافَى الْمَوْسِمَ مِنَ الْأَنْصَارِ اثْنَا عَشَرَ رَجُلًا، فَلَقُوهُ بِالْعَقَبَةِ» (١).

وَبِالْفِعْلِ عَادُوا فِي الْعَامِ الْمُقْبِلِ، وَقَدْ أَسْلَمَ اثْنَا عَشَرَ رَجُلًا مِنَ الْأَنْصَارِ الْأَخْيَارِ (٢).

وَبَايَعُوا النَّبِيَّ ﷺ بَيْعَةَ الْعَقَبَةِ الْأُولَى؛ تِلْكَ الْبَيْعَةَ الَّتِي حَطَّمَتِ الْجُدْرَانَ

---

(١) انظر: «سيرة ابن هشام» (٢/ ٤٩، ٥٠) دَعْوَة الرسول ﷺ الخزرج إلى الإسلام، وأخرجه من طريق ابن إسحاق: البيهقي في «الدلائل» (٢/ ٤٣٣، ٤٣٤)، وراجع: «زاد المعاد» (٣/ ٤٥ وما بعدها).

(٢) كما عند ابن إسحاق في «السيرة» - كما في «سيرة ابن هشام» (٢/ ٥٢) - ومن طريقه البيهقي في «الدلائل»(٢/ ٤٣٦) عن عبادة بن الصامت ﷺ، وأخرجه أحمد (٥/ ٣١٦) من وجه آخر عن عبادة. وهو صحيح.
وانظر: «صحيح البخاري»، كتاب مناقب الأنصار، باب وفود الأنصار إلى النبي ﷺ بمكة وبيعة العقبة (٣٨٩٣، ٣٨٨٩)، و«صحيح مسلم»، كتاب الحدود، باب الحدود كفارات لأهلها (١٧٠٩).

السَّوْدَاءَ، تِلْكَ الْبَيْعَةَ الَّتِي أَذِنَ اللهُ تَبَارَكَ وَتَعَالَى بِهَا لِشَمْسِ التَّوْحِيدِ أَنْ تُشْرِقَ عَلَى أَرْضِ يَثْرِبَ، وَقَدْ بَايَعُوا النَّبِيَّ ﷺ عَلَى أَنْ يَنْصُرُوهُ، وَأَنْ يَمْنَعُوهُ مِمَّا يَمْنَعُونَ مِنْهُ أَنْفُسَهُمْ وَأَمْوَالَهُمْ وَذَرَارِيهِمْ.

رَوَى أَحْمَدُ فِي «مُسْنَدِهِ»، وَالْحَاكِمُ فِي «مُسْتَدْرَكِهِ»، وَأَبُو يَعْلَى [1] فِي «مُسْنَدِهِ»، وَابْنُ حِبَّانَ [2] فِي «صَحِيحِهِ» وَغَيْرُهُمْ عَنْ جَابِرٍ رضي الله عنه قَالَ: مَكَثَ رَسُولُ اللهِ ﷺ بِمَكَّةَ عَشْرَ سِنِينَ يَتَّبِعُ النَّاسَ فِي مَنَازِلِهِمْ بِعُكَاظَ وَمَجَنَّةَ، وَفِي الْمَوَاسِمِ بِمِنًى، يَقُولُ: «**مَنْ يُؤْوِينِي؟ مَنْ يَنْصُرُنِي؟ حَتَّى أُبَلِّغَ رِسَالَةَ رَبِّي، وَلَهُ الْجَنَّةُ**» حَتَّى إِنَّ الرَّجُلَ لَيَخْرُجُ مِنَ الْيَمَنِ أَوْ مِنْ مُضَرَ - كَذَا قَالَ- فَيَأْتِيهِ قَوْمُهُ، فَيَقُولُونَ: احْذَرْ غُلَامَ قُرَيْشٍ، لَا يَفْتِنْكَ. وَيَمْشِي بَيْنَ رِجَالِهِمْ وَهُمْ يُشِيرُونَ إِلَيْهِ بِالْأَصَابِعِ، حَتَّى بَعَثَنَا اللهُ إِلَيْهِ مِنْ يَثْرِبَ، فَآوَيْنَاهُ، وَصَدَّقْنَاهُ، فَيَخْرُجُ الرَّجُلُ مِنَّا فَيُؤْمِنُ بِهِ، وَيُقْرِئُهُ الْقُرْآنَ، فَيَنْقَلِبُ إِلَى أَهْلِهِ، فَيُسْلِمُونَ بِإِسْلَامِهِ، حَتَّى لَمْ يَبْقَ دَارٌ مِنْ دُورِ الْأَنْصَارِ إِلَّا وَفِيهَا رَهْطٌ مِنَ الْمُسْلِمِينَ، يُظْهِرُونَ الْإِسْلَامَ، ثُمَّ ائْتَمَرُوا جَمِيعًا، فَقُلْنَا: حَتَّى مَتَى نَتْرُكُ رَسُولَ اللهِ ﷺ يُطْرَدُ فِي جِبَالِ مَكَّةَ، وَيَخَافُ؟

---

(١) هو الإمام الحافظ شيخ الإسلام أبو يعلَى أحمد بن عَلَى بن المثنى بن يحيى، محدث الموصل، وصاحب «المسند»، ولد في ثالث شوال سنة عشر ومائتين؛ فهو أكبر من النسائي بخمس سنين، وأعْلَى إسنادًا منه، وكان حافظًا خيرًا، حسن التصانيف، عدلاً فيما يرويه، ضابطًا لما يحدث به؛ قال ابن حبان: هو من المتقنين المواظبين عَلَى رعاية الدين وأسباب الطاعة، وكان عاقلًا حليمًا صبورًا، حسن الأدب؛ توفي سنة ٣٠٧هـ.

● راجع: «سير أعلام النبلاء» (٢٧٨١)، و«البداية والنهاية» (١١/ ١١٣).

(٢) الإمام الحافظ المجود، شيخ خراسان، أبو حاتم البستي محمد بن حبان بن أحمد بن حبان؛ صاحب «الأنواع والتقاسيم» ولد سنة بضع وسبعين ومائتين، كان من أوعية العلم في الفقه واللغة والحديث والوعظ، وكان من المجتهدين، وكان ثقة نبيلًا فهمًا، مات سنة (٣٥٤) هـ.

● راجع: «سير أعلام النبلاء» (٣٤٣١)، و«البداية والنهاية» (١١/ ٢٢٥).

فَرَحَلَ إِلَيْهِ مِنَّا سَبْعُونَ رَجُلًا، حَتَّى قَدِمُوا عَلَيْهِ فِي الْمَوْسِمِ، فَوَاعَدْنَاهُ شِعْبَ الْعَقَبَةِ، فَاجْتَمَعْنَا عَلَيْهِ مِنْ رَجُلٍ وَرَجُلَيْنِ، حَتَّى تَوَافَيْنَا، فَقُلْنَا: يَا رَسُولَ اللهِ عَلَى مَا نُبَايِعُكَ؟ قَالَ: «**تُبَايِعُونِي عَلَى السَّمْعِ وَالطَّاعَةِ فِي النَّشَاطِ وَالْكَسَلِ، وَالنَّفَقَةِ فِي الْعُسْرِ وَالْيُسْرِ، وَعَلَى الْأَمْرِ بِالْمَعْرُوفِ وَالنَّهْيِ عَنِ الْمُنْكَرِ، وَأَنْ تَقُولُوا فِي اللهِ لَا تَخَافُونَ فِي اللهِ لَوْمَةَ لَائِمٍ، وَعَلَى أَنْ تَنْصُرُونِي، فَتَمْنَعُونِي إِذَا قَدِمْتُ عَلَيْكُمْ مِمَّا تَمْنَعُونَ مِنْهُ أَنْفُسَكُمْ، وَأَزْوَاجَكُمْ، وَأَبْنَاءَكُمْ، وَلَكُمُ الْجَنَّةُ**».

قَالَ: «فَقُمْنَا إِلَيْهِ فَبَايَعْنَاهُ، وَأَخَذَ بِيَدِهِ أَسْعَدُ بنُ زُرَارَةَ (١)، وَهُوَ مِنْ أَصْغَرِهِمْ، فَقَالَ: رُوَيْدًا يَا أَهْلَ يَثْرِبَ، فَإِنَّا لَمْ نَضْرِبْ أَكْبَادَ الإِبِلِ إِلَّا وَنَحْنُ نَعْلَمُ أَنَّهُ رَسُولُ اللهِ ﷺ، وَإِنَّ إِخْرَاجَهُ الْيَوْمَ مُفَارَقَةُ الْعَرَبِ كَافَّةً، وَقَتْلُ خِيَارِكُمْ، وَأَنْ تَعَضَّكُمُ السُّيُوفُ، فَإِمَّا أَنْتُمْ قَوْمٌ تَصْبِرُونَ عَلَى ذَلِكَ، وَأَجْرُكُمْ عَلَى اللهِ، وَإِمَّا أَنْتُمْ قَوْمٌ تَخَافُونَ مِنْ أَنْفُسِكُمْ جَبِينَةً، فَبَيِّنُوا ذَلِكَ، فَهُوَ أَعْذَرُ لَكُمْ عِنْدَ اللهِ، قَالُوا: أَمِطْ عَنَّا يَا أَسْعَدُ، فَوَاللهِ لَا نَدَعُ هَذِهِ الْبَيْعَةَ أَبَدًا، وَلَا نَسْلُبُهَا أَبَدًا، قَالَ: فَقُمْنَا إِلَيْهِ فَبَايَعْنَاهُ، فَأَخَذَ عَلَيْنَا وَشَرَطَ، وَيُعْطِينَا عَلَى ذَلِكَ الْجَنَّةَ»(٢).

وَعَادَ هَؤُلَاءِ الْأَخْيَارُ إِلَى الْمَدِينَةِ، وَقَدْ بَعَثَ النَّبِيُّ ﷺ مَعَهُمْ لُؤْلُؤَةَ شَبَابِ

---

(١) هو أسعد بن زرارة بن عدس بن عبيد بن ثعلبة بن غنم بن مالك بن النجار أبو أمامة الأنصاري، ويقال له: أسعد الخير، وهو من أول الأنصار إسلامًا، وكان أول من قدم بالإسلام إلى المدينة، وهو أول من صلى الجمعة في المدينة، وكان عقبيًّا، شهد العقبة الأولى والثانية والثالثة وبايع فيها، وقد اتفق أهل المغازي والتواريخ عَلَى أنه مات في حياة النبي ﷺ قبل بدر.

● راجع: «أسد الغابة» (٩٨)، و«الإصابة» (١١١).

(٢) أخرجه أحمد في «مسنده» (٣/ ٣٢٢، ٣٢٣)، والحاكم (٢/ ٦٢٤، ٦٢٥) وصحَّحَهُ، ووافقه الذهبي، وأبو يعلَى (١٨٨٧) مختصرًا، وابن حبان (٦٢٧٤)، وجوَّده ابن كثير في «البداية» (٣/ ١٥٩، ١٦٠)، وحسَّن سنده الحافظ في «الفتح» (٧/ ٢٦٣).

قُرَيْشٍ، وَغُرَّةَ فِتْيَانِهَا، وَزَهْرَةَ شَبَابِهَا مُصْعَبَ الْخَيْرِ، مُصْعَبَ بْنَ عُمَيْرٍ [(١)] رضي الله عنه [(٢)].

وَوَضَعَ النَّبِيُّ ﷺ فِي هَذَا الْوَقْتِ مَصِيرَ الدَّعْوَةِ بِأَكْمَلِهِ بَيْنَ يَدَيْ مُصْعَبٍ؛ فَأَرْضُ مَكَّةَ لَمْ تَقْبَلْ بَذْرَةَ التَّوْحِيدِ، وَأَرْضُ الطَّائِفِ لَفَظَتْ هِيَ الْأُخْرَى بَذْرَةَ التَّوْحِيدِ، وَلَا تُوجَدُ خَيْمَةٌ مِنَ الْخِيَامِ إِلَّا وَطَرَدَتِ النَّبِيَّ ﷺ، وَأَصْحَابُهُ مُطَارَدُونَ فِي الْحَبَشَةِ، لَا يَمْلِكُونَ لِأَنْفُسِهِمْ حَوْلًا وَلَا قُوَّةً؛ فَمَصِيرُ الدَّعْوَةِ إِذًا سَيَكُونُ فِي هَذِهِ الْأَرْضِ الْجَدِيدَةِ؛ فِي أَرْضِ يَثْرِبَ، وَمَعَ ذَلِكَ يَخْتَارُ النَّبِيُّ ﷺ مُصْعَبَ بْنَ عُمَيْرٍ رضي الله عنه ؛ لِيَقُومَ بِهَذِهِ الْمُهِمَّةِ، وَاسْتَطَاعَ مُصْعَبٌ - رِضْوَانُ اللهِ عَلَيْهِ - بِحِكْمَتِهِ الْبَالِغَةِ، وَصَبْرِهِ الْعَجِيبِ - أَنْ يَغْرِسَ لِلْإِسْلَامِ شَجَرَةً فِي أَرْضٍ مُقْفِرَةٍ، وَاسْتَطَاعَ بِحِكْمَةٍ بَالِغَةٍ أَنْ يُضِيءَ لِلْإِسْلَامِ نُورًا فِي أَرْضٍ مُظْلِمَةٍ، وَأَنْ يَشُقَّ نَهَرًا لِلْحَيَاةِ - نَهَرًا لِلْإِسْلَامِ - وَسْطَ صُخُورٍ صَلْبَةٍ وَأَحْجَارٍ عَاتِيَةٍ.

وَبَعْدَ عَامٍ - فِي السَّنَةِ الثَّالِثَةَ عَشْرَةَ مِنَ الْبَعْثَةِ - يَرْجِعُ مُصْعَبٌ مَعَ سَبْعِينَ رَجُلًا مِنَ الصَّحَابَةِ - رِضْوَانُ اللهِ عَلَيْهِمْ مِنَ الْأَنْصَارِ؛ لِيُبَايِعُوا النَّبِيَّ ﷺ بَيْعَةَ الْعَقَبَةِ الثَّانِيَةِ [(٣)]، وَهُنَا تَنْتَقِلُ الدَّعْوَةُ إِلَى مَرْحَلَةٍ أُخْرَى جَدِيدَةٍ... نَعَمْ أَشْرَقَتْ شَمْسُ التَّوْحِيدِ عَلَى يَثْرِبَ، وَلَمْ يَعُدْ هُنَالِكَ بَيْتٌ إِلَّا وَقَدْ سَمِعَ عَنِ الْإِسْلَامِ، أَوْ مِنْهُ مَنْ دَخَلَ فِي الْإِسْلَامِ بِفَضْلِ اللهِ، ثُمَّ بِفَضْلِ دَعْوَةِ مُصْعَبٍ - رِضْوَانُ اللهِ

---

(١) هو مصعب بن عمير بن هاشم بن عبد مناف بن عبد الدار بن قصي بن كلاب بن مرة القرشي العبدري، يكنى أبا عبد الله، كان من فضلاء الصحابة وخيارهم، ومن السابقين الأولين إلى الإسلام، هاجر إلى الحبشة ثم رجع إلى مكة، وهاجر إلى المدينة، وشهد بدرًا وأحدًا واستشهد بها؛ راجع: «الإصابة» (٨٠٠٨)، و«أسد الغابة» (٤٩٣٧)، و«الاستيعاب» (١٥٥٩).

(٢) راجع: «السيرة» لابن هشام (٢/ ٥١)، و«البداية والنهاية» (٣/ ١٤٩).

(٣) راجع: «السيرة النبوية» لابن هشام (٢/ ٥٥)، و«دلائل النبوة» للبيهقي (٢/ ٤٤٢)، و «البداية والنهاية» لابن كثير (٣/ ١٥٦)، و«زاد المعاد» (٣/ ٤٧). وانظر: «صحيح البخاري» (٣٨٩٠).

عَلَيْهِ [١].

ثُمَّ قَامَ بَعْدَ ذَلِكَ مَعَهُ أَسْعَدُ بْنُ زُرَارَةَ وَأُسَيْدُ بْنُ حُضَيْرٍ [٢]، وَغَيْرُهُمْ وَبَايَعَ هَؤُلَاءِ رَسُولَ اللهِ ﷺ عَلَى حَرْبِ كُلِّ مَنْ يَقِفُ فِي سَبِيلِ الدَّعْوَةِ إِلَى اللهِ تَبَارَكَ وَتَعَالَى!!

رَوَى ابْنُ إِسْحَاقَ فِي «السِّيرَةِ»، وَمِنْ طَرِيقِهِ أَحْمَدُ فِي «مُسْنَدِهِ»، وَابْنُ حِبَّانَ فِي «صَحِيحِهِ»، وَالْبَيْهَقِيُّ فِي «الدَّلَائِلِ» بِسَنَدٍ حَسَنٍ [٣] مِنْ حَدِيثِ كَعْبِ بْنِ مَالِكٍ - وَكَانَ كَعْبٌ مِمَّنْ شَهِدَ الْعَقَبَةَ، وَبَايَعَ رَسُولَ اللهِ ﷺ بِهَا - قَالَ: خَرَجْنَا فِي حُجَّاجِ قَوْمِنَا مِنَ الْمُشْرِكِينَ وَقَدْ صَلَّيْنَا وَفَقِهْنَا، وَمَعَنَا الْبَرَاءُ بْنُ مَعْرُورٍ [٤]

---

(١) **قال الحافظ ابن حجر في «الفتح»** (٧/ ٢٦٤): «فأسلم خلقٌ كثير من الأنصار عَلَى يد مصعب بن عمير بمعاونة أسعد بن زرارة حتى فشا الإسلام بالمدينة، فكان ذلك سبب رحلتهم في السنة المقبلة، حتى وافى منهم العقبة سبعون مسلمًا وزيادة، فبايعوا كما تقدم».

(٢) هو أسيد بن الحضير بن سماك بن عتيك بن امرئ القيس بن زيد بن عبد الأشهل الانصاري الأوسي الأشهلي، كان إسلامه عَلَى يد مصعب بن عمير، وكان من أحسن الناس صوتًا بالقرآن؛ توفي في شعبان سنة عشرين، وقيل: إحدى وعشرين؛ راجع: «الإصابة» (١٨٥)، و«أسد الغابة» (١٧٠)، و«الاستيعاب» (٥٦).

(٣) أخرجه ابن إسحاق في «السيرة»؛ كما في «سيرة ابن هشام» (٢/ ٥٥/ ٥٦)، وأحمد (٣/ ٤٦٠-٤٦٢)، وابن حبان في «الصحيح» (٧٠١١)، والبيهقي في «الدلائل» (٢/ ٤٤٤ - ٤٤٩).
قال الهيثميُّ في «المجمع» (٦/ ٤٥): «رجال أحمد رجال الصحيح غير ابن إسحاق وقد صرح بالسماع»، وصححه الشيخ الألباني في «فقه السيرة» (١٤٦).

(٤) هو البراء بن معرور بن صخر بن خنساء بن سنان بن عبيد بن عدي بن غنم بن كعب بن سلمة بن سعد بن علي بن أسد بن ساردة بن تزيد بن جشم بن الخزرج الأنصاري الخزرجي السلمي، أبو بشر كان من النفر الذين بايعوا البيعة الأولى بالعقبة، وهو أول من بايع، وأول من استقبل القبلة، وأول من أوصى بثلث ماله، وهو أحد النقباء، توفي في سفر قبل قدوم النبي ﷺ المدينة بشهر؛ راجع: «الإصابة» (٦٢٢)، و«أسد الغابة»
=

كَبِيرُنَا وَسَيِّدُنَا، فَلَمَّا تَوَجَّهْنَا لِسَفَرِنَا، وَخَرَجْنَا مِنَ الْمَدِينَةِ، قَالَ الْبَرَاءُ لَنَا: يَا هَؤُلَاءِ، إِنِّي قَدْ رَأَيْتُ وَاللهِ رَأْيًا، وَإِنِّي وَاللهِ مَا أَدْرِي تُوَافِقُونِي عَلَيْهِ أَمْ لَا؟ قَالَ: قُلْنَا لَهُ: وَمَا ذَاكَ؟ قَالَ: قَدْ رَأَيْتُ أَنْ لَا أَدَعَ هَذِهِ الْبَنِيَّةَ مِنِّي بِظَهْرٍ - يَعْنِي الْكَعْبَةَ - وَأَنْ أُصَلِّيَ إِلَيْهَا، قَالَ: فَقُلْنَا: وَاللهِ مَا بَلَغَنَا أَنَّ نَبِيَّنَا يُصَلِّي إِلَّا إِلَى الشَّامِ، وَمَا نُرِيدُ أَنْ نُخَالِفَهُ، فَقَالَ: إِنِّي أُصَلِّي إِلَيْهَا، قَالَ: فَقُلْنَا لَهُ: لَكِنَّا لَا نَفْعَلُ، فَكُنَّا إِذَا حَضَرَتِ الصَّلَاةُ صَلَّيْنَا إِلَى الشَّامِ، وَصَلَّى إِلَى الْكَعْبَةِ، حَتَّى قَدِمْنَا مَكَّةَ، قَالَ أَخِي: وَقَدْ كُنَّا عِبْنَا عَلَيْهِ مَا صَنَعَ، وَأَبَى إِلَّا الْإِقَامَةَ عَلَيْهِ، فَلَمَّا قَدِمْنَا مَكَّةَ، قَالَ: يَا ابْنَ أَخِي انْطَلِقْ إِلَى رَسُولِ اللهِ ﷺ، فَاسْأَلْهُ عَمَّا صَنَعْتُ فِي سَفَرِي هَذَا؛ فَإِنَّهُ - وَاللهِ - قَدْ وَقَعَ فِي نَفْسِي مِنْهُ شَيْءٌ لِمَا رَأَيْتُ مِنْ خِلَافِكُمْ إِيَّايَ فِيهِ.

قَالَ: خَرَجْنَا نَسْأَلُ عَنْ رَسُولِ اللهِ ﷺ، وَكُنَّا لَا نَعْرِفُهُ، لَمْ نَرَهُ قَبْلَ ذَلِكَ، فَلَقِينَا رَجُلٌ مِنْ أَهْلِ مَكَّةَ، فَسَأَلْنَاهُ عَنْ رَسُولِ اللهِ ﷺ، فَقَالَ: هَلْ تَعْرِفَانِهِ؟ قَالَ: قُلْنَا: لَا، قَالَ: فَهَلْ تَعْرِفَانِ الْعَبَّاسَ بْنَ عَبْدِ الْمُطَّلِبِ (١)، عَمَّهُ؟ قُلْنَا: نَعَمْ، قَالَ: وَكُنَّا نَعْرِفُ الْعَبَّاسَ، كَانَ لَا يَزَالُ يَقْدَمُ عَلَيْنَا تَاجِرًا، قَالَ: فَإِذَا دَخَلْتُمَا الْمَسْجِدَ، فَهُوَ الرَّجُلُ الْجَالِسُ مَعَ الْعَبَّاسِ، قَالَ: فَدَخَلْنَا الْمَسْجِدَ، فَإِذَا الْعَبَّاسُ جَالِسٌ وَرَسُولُ اللهِ ﷺ مَعَهُ جَالِسٌ، فَسَلَّمْنَا، ثُمَّ جَلَسْنَا إِلَيْهِ، فَقَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ لِلْعَبَّاسِ: «**هَلْ تَعْرِفُ هَذَيْنِ الرَّجُلَيْنِ يَا أَبَا الْفَضْلِ؟**» قَالَ: نَعَمْ، هَذَا الْبَرَاءُ بْنُ

=

(٣٩٢)، و«الاستيعاب» (١٧٠).

(١) هو العباس بن عبد المطلب بن هاشم بن عبد مناف بن قصي بن كلاب بن مرة القرشي الهاشمي عم رسول الله ﷺ، يكنى أبا الفضل، ولد قبل رسول الله ﷺ بسنتين، شهد بدرًا مع المشركين مكرهًا، وأسر فافتدى نفسه، وهاجر قبل الفتح بقليل، وشهد الفتح، وثبت يوم حنين، وأضر العباس في آخر عمره، ومات بالمدينة يوم الجمعة لاثنتي عشرة ليلة خلت من رجب، وقيل: بل من رمضان سنة اثنتين وثلاثين، وصلى عليه عثمان، ودفن بالبقيع، وهو ابن ثمان وثمانين سنة؛ راجع: «الإصابة» (٤٥١٠)، و«أسد الغابة» (٢٧٩٩).

مَعْرُورٍ سَيِّدُ قَوْمِهِ، وَهَذَا كَعْبُ بْنُ مَالِكٍ، قَالَ: فَوَاللهِ مَا أَنْسَى قَوْلَ رَسُولِ اللهِ ﷺ: «**الشَّاعِرُ؟**» قَالَ: نَعَمْ، قَالَ: فَقَالَ الْبَرَاءُ بْنُ مَعْرُورٍ: يَا نَبِيَّ اللهِ، إِنِّي خَرَجْتُ فِي سَفَرِي هَذَا، وَهَدَانِي اللهُ لِلإِسْلَامِ، فَرَأَيْتُ أَلَّا أَجْعَلَ هَذِهِ الْبَنِيَّةَ مِنِّي بِظَهْرٍ، فَصَلَّيْتُ إِلَيْهَا، وَقَدْ خَالَفَنِي أَصْحَابِي فِي ذَلِكَ، حَتَّى وَقَعَ فِي نَفْسِي مِنْ ذَلِكَ شَيْءٌ، فَمَاذَا تَرَى يَا رَسُولَ اللهِ؟ قَالَ: «**لَقَدْ كُنْتَ عَلَى قِبْلَةٍ لَوْ صَبَرْتَ عَلَيْهَا**» قَالَ: فَرَجَعَ الْبَرَاءُ إِلَى قِبْلَةِ رَسُولِ اللهِ ﷺ فَصَلَّى مَعَنَا إِلَى الشَّامِ، قَالَ: وَأَهْلُهُ يَزْعُمُونَ أَنَّهُ صَلَّى إِلَى الْكَعْبَةِ حَتَّى مَاتَ، وَلَيْسَ ذَلِكَ كَمَا قَالُوا، نَحْنُ أَعْلَمُ بِهِ مِنْهُمْ.

قَالَ: وَخَرَجْنَا إِلَى الْحَجِّ، فَوَاعَدْنَا رَسُولَ اللهِ ﷺ الْعَقَبَةَ مِنْ أَوْسَطِ أَيَّامِ التَّشْرِيقِ، فَلَمَّا فَرَغْنَا مِنَ الْحَجِّ، وَكَانَتِ اللَّيْلَةُ الَّتِي وَعَدَنَا رَسُولُ اللهِ ﷺ وَمَعَنَا عَبْدُ اللهِ بْنُ عَمْرِو بْنِ حَرَامٍ(١) أَبُو جَابِرٍ سَيِّدٌ مِنْ سَادَاتِنَا، وَكُنَّا نَكْتُمُ مَنْ مَعَنَا مِنْ قَوْمِنَا مِنَ الْمُشْرِكِينَ أَمْرَنَا، فَكَلَّمْنَاهُ، وَقُلْنَا لَهُ: يَا أَبَا جَابِرٍ، إِنَّكَ سَيِّدٌ مِنْ سَادَاتِنَا، وَشَرِيفٌ مِنْ أَشْرَافِنَا، وَإِنَّا نَرْغَبُ بِكَ عَمَّا أَنْتَ فِيهِ أَنْ تَكُونَ حَطَبًا لِلنَّارِ غَدًا، ثُمَّ دَعَوْتُهُ إِلَى الإِسْلَامِ، وَأَخْبَرْتُهُ بِمِيعَادِ رَسُولِ اللهِ ﷺ، فَأَسْلَمَ، وَشَهِدَ مَعَنَا الْعَقَبَةَ، وَكَانَ نَقِيبًا، قَالَ: فَنِمْنَا تِلْكَ اللَّيْلَةَ مَعَ قَوْمِنَا فِي رِحَالِنَا، حَتَّى إِذَا مَضَى ثُلُثُ اللَّيْلِ خَرَجْنَا مِنْ رِحَالِنَا لِمِيعَادِ رَسُولِ اللهِ ﷺ نَتَسَلَّلُ مُسْتَخْفِينَ تَسَلُّلَ الْقَطَا، حَتَّى اجْتَمَعْنَا فِي الشِّعْبِ عِنْدَ الْعَقَبَةِ وَنَحْنُ سَبْعُونَ رَجُلًا، وَمَعَنَا امْرَأَتَانِ مِنْ نِسَائِهِمْ، نُسَيْبَةُ بِنْتُ كَعْبٍ (٢)، أُمُّ عُمَارَةَ إِحْدَى نِسَاءِ بَنِي مَازِنِ بْنِ النَّجَّارِ، وَأَسْمَاءُ بِنْتُ

---

(١) هو عبد الله بن عمرو بن حرام بن ثعلبة بن حرام الأنصاري الخزرجي السلمي، كان عقبيًّا بدريًّا نقيبًا، كان نقيب بني سلمة هو والبراء بن معرور، واستشهد بأحد، يكنى أبا جابر بابنه جابر بن عبد الله، وهو ممن نزل فيه قوله تعالى: ﴿وَلَا تَحْسَبَنَّ ٱلَّذِينَ قُتِلُوا۟ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ أَمْوَٰتًۢا ۚ بَلْ أَحْيَآءٌ عِندَ رَبِّهِمْ يُرْزَقُونَ﴾ [آل عمران:١٦٩].
● راجع: «أسد الغابة» (٣٠٨٦)، و«الاستيعاب» (١٦٣٦).

(٢) هي أم عمارة نسيبة بنت كعب بن عمرو بن عوف بن مبذول بن عمرو بن غنم من بني مازن بن النجار الأنصارية، قال أبو عمر: شهدت بيعة العقبة، وشهدت أحدًا مع
=

عَمْرِو بْنِ عَدِيِّ بْنِ ثَابِتٍ إِحْدَى نِسَاءِ بَنِي سَلِمَةَ وَهِيَ أُمُّ مَنِيعٍ (١).

قَالَ: فَاجْتَمَعْنَا بِالشِّعْبِ نَنْتَظِرُ رَسُولَ اللهِ ﷺ حَتَّى جَاءَنَا وَمَعَهُ يَوْمَئِذٍ عَمُّهُ الْعَبَّاسُ ابْنُ عَبْدِ الْمُطَّلِبِ، وَهُوَ يَوْمَئِذٍ عَلَى دِينِ قَوْمِهِ، إِلَّا أَنَّهُ أَحَبَّ أَنْ يَحْضُرَ أَمْرَ ابْنِ أَخِيهِ، وَيَتَوَثَّقَ لَهُ، فَلَمَّا جَلَسْنَا كَانَ الْعَبَّاسُ بْنُ عَبْدِ الْمُطَّلِبِ أَوَّلَ مُتَكَلِّمٍ، فَقَالَ: يَا مَعْشَرَ الْخَزْرَجِ، قَالَ: وَكَانَتِ الْعَرَبُ مِمَّا يُسَمُّونَ هَذَا الْحَيَّ مِنَ الأَنْصَارِ الْخَزْرَجَ؛ أَوْسَهَا وَخَزْرَجَهَا - إِنَّ مُحَمَّدًا مِنَّا حَيْثُ قَدْ عَلِمْتُمْ، وَقَدْ مَنَعْنَاهُ مِنْ قَوْمِنَا مِمَّنْ هُوَ عَلَى مِثْلِ رَأْيِنَا فِيهِ، وَهُو فِي عِزٍّ مِنْ قَوْمِهِ، وَمَنَعَةٍ فِي بَلَدِهِ، قَالَ: فَقُلْنَا: قَدْ سَمِعْنَا مَا قُلْتَ، فَتَكَلَّمْ يَا رَسُولَ اللهِ، فَخُذْ لِنَفْسِكَ وَلِرَبِّكَ مَا أَحْبَبْتَ، قَالَ: فَتَكَلَّمَ رَسُولُ اللهِ ﷺ فَتَلَا، وَدَعَا إِلَى اللهِ ﷻ وَرَغَّبَ فِي الإِسْلَامِ، قَالَ: «**أُبَايِعُكُمْ عَلَى أَنْ تَمْنَعُونِي مِمَّا تَمْنَعُونَ مِنْهُ نِسَاءَكُمْ وَأَبْنَاءَكُمْ**» قَالَ: فَأَخَذَ الْبَرَاءُ بْنُ مَعْرُورٍ بِيَدِهِ، ثُمَّ قَالَ: نَعَمْ، وَالَّذِي بَعَثَكَ بِالْحَقِّ، لَنَمْنَعَنَّكَ مِمَّا نَمْنَعُ مِنْهُ أُزُرَنَا فَبَايِعْنَا يَا رَسُولَ اللهِ، فَنَحْنُ أَهْلُ الْحُرُوبِ وَأَهْلُ الْحَلْقَةِ، وَرِثْنَاهَا كَابِراً عَنْ كَابِرٍ.

قَالَ: فَاعْتَرَضَ الْقَوْلَ - وَالْبَرَاءُ يُكَلِّمُ رَسُولَ اللهِ ﷺ - أَبُو الْهَيْثَمِ بْنُ التَّيِّهَانِ(٢) حَلِيفُ بَنِي عَبْدِ الأَشْهَلِ، فَقَالَ: يَا رَسُولَ اللهِ، إِنَّ بَيْنَنَا وَبَيْنَ الرِّجَالِ

=

زوجها، وشهدت بيعة الرضوان ثم شهدت قتال مسيلمة باليمامة؛ وجرحت يومئذ اثنتي عشرة جراحة وقطعت يدها؛ قال الذهبي: الفاضلة المجاهدة، جاهدت وفعلت الأفاعيل.

● راجع: «أسد الغابة» (٧٣٢٠)، و«الإصابة» (١٢١٧٨)، و«الاستيعاب» (٧٥٤).

(١) هي أسماء بنت عمرو بن عدي بن نابي بن سواد بن غنم بن كعب بن سلمة، أم منيع الأنصارية السلمية، من المبايعات تحت العقبة، وهي ابن عمة معاذ بن جبل، وقيل: أم معاذ بن جبل، وقيل: هي أسماء بنت عدي بن عمرو.

● راجع: «أسد الغابة» (٦٧١٣)، و«الإصابة» (١٠٨٠١)، و«الاستيعاب» (٣٩٧).

(٢) هو أبو الهيثم مالك بن التيهان، والتيهان اسم مالك بن عتيك بن عمرو بن عبد الأعلم ابن عامر حليف بني عبد الأشهل، كان أحد النقباء ليلة العقبة ثم شهد بدرًا، وشهد

=

حِبَالًا، وَإِنَّا قَاطِعُوهَا- يَعْنِي الْعُهُودَ- فَهَلْ عَسَيْتَ إِنْ نَحْنُ فَعَلْنَا ذَلِكَ، ثُمَّ أَظْهَرَكَ اللهُ، أَنْ تَرْجِعَ إِلَى قَوْمِكَ، وَتَدَعَنَا؟ قَالَ: فَتَبَسَّمَ رَسُولُ اللهِ ﷺ ثُمَّ قَالَ: «**بَلِ الدَّمُ الدَّمُ، وَالْهَدْمُ الْهَدْمُ، أَنَا مِنْكُمْ وَأَنْتُمْ مِنِّي، أُحَارِبُ مَنْ حَارَبْتُمْ، وَأُسَالِمُ مَنْ سَالَمْتُمْ**»، وَقَدْ قَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: «**أَخْرِجُوا إِلَيَّ مِنْكُمُ اثْنَي عَشَرَ نَقِيبًا يَكُونُونَ عَلَى قَوْمِهِمْ**»، فَأَخْرَجُوا مِنْهُمُ اثْنَي عَشَرَ نَقِيبًا، مِنْهُمْ تِسْعَةٌ مِنَ الْخَزْرَجِ، وَثَلَاثَةٌ مِنَ الأَوْسِ.

ثُمَّ قَالَ كَعْبُ بْنُ مَالِكٍ: كَانَ أَوَّلَ مَنْ ضَرَبَ عَلَى يَدِ رَسُولِ اللهِ ﷺ الْبَرَاءُ بْنُ مَعْرُورٍ، ثُمَّ تَتَابَعَ الْقَوْمُ، فَلَمَّا بَايَعْنَا رَسُولَ اللهِ ﷺ صَرَخَ الشَّيْطَانُ مِنْ رَأْسِ الْعَقَبَةِ بِأَبْعَدِ صَوْتٍ سَمِعْتُهُ قَطُّ: يَا أَهْلَ الْجُبَاجِبِ - وَالْجُبَاجِبُ: الْمَنَازِلُ- هَلْ لَكُمْ فِي مُذَمَّمٍ وَالصُّبَاةُ مَعَهُ؟ قَدْ أَجْمَعُوا عَلَى حَرْبِكُمْ - قَالَ عَلِيٌّ- يَعْنِي ابْنَ إِسْحَاقَ: مَا يَقُولُ عَدُوُّ اللهِ: مُحَمَّدٌ؛ فَقَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: «**هَذَا أَزَبُّ الْعَقَبَةِ** (١)، **هَذَا ابْنُ أَزْيَبَ، اسْمَعْ أَيْ عَدُوَّ اللهِ، أَمَا وَاللهِ لأُفْرِغَنَّ لَكَ**»، ثُمَّ قَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: «**ارْفَعُوا**(٢) **إِلَى رِحَالِكُمْ**» قَالَ: فَقَالَ لَهُ الْعَبَّاسُ بْنُ عُبَادَةَ بْنِ نَضْلَةَ (٣): وَالَّذِي بَعَثَكَ بِالْحَقِّ لَئِنْ شِئْتَ لَنَمِيلَنَّ عَلَى أَهْلِ مِنًى غَدًا بِأَسْيَافِنَا؟ قَالَ: فَقَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: «**لَمْ**

=

المشاهد مع رسول الله ﷺ، واختلف في وقت وفاته، فذكر خليفة عن الأصمعي قال: سألت قومه فقالوا: مات في حياة رسول الله ﷺ، وقيل: مات سنة عشرين أو إحدى وعشرين، قيل: إنه أدرك صفين وشهدها مع علي رضي الله عنه، وقتل بها، وهو الأكثر.

● راجع: «الاستيعاب» (٣٨١)، و«أسد الغابة» (٦٣٣٣)، و«الإصابة» (١٠٦٨٣).

(١) قال ابن الأثير في «النهاية» (١/ ٥٦): «هو: شيطان اسمه أزبُّ العقبة، وهو الحية».

(٢) وفي رواية: «ارفضُّوا» أي: تفرقوا.

(٣) هو العباس بن عبادة بن نضلة بن مالك بن العجلان بن زيد بن غنم بن سالم بن عوف الأنصاري الخزرجي، شهد العقبة، وقيل: شهد العقبتين، وقيل: بل كان في النفر الستة من الأنصار الذين لقوا رسول الله ﷺ قبل جميع الأنصار، وآخى رسول الله ﷺ بينه وبين عثمان بن مظعون، ولم يشهد بدرًا، وكان أنصاريًّا مهاجريًّا، واستشهد يوم أحد.

● راجع: «أسد الغابة» (٢٧٩٨)، و«الإصابة» (٤٥٠٩)، و«الاستيعاب» (١٣٧٨).

أُومَرْ بِذَلِكَ».

قَالَ: فَرَجَعْنَا فَنِمْنَا حَتَّى أَصْبَحْنَا، فَلَمَّا أَصْبَحْنَا غَدَتْ عَلَيْنَا جِلَّةُ قُرَيْشٍ حَتَّى جَاءُونَا فِي مَنَازِلِنَا، فَقَالُوا: يَا مَعْشَرَ الْخَزْرَجِ، إِنَّهُ قَدْ بَلَغَنَا أَنَّكُمْ قَدْ جِئْتُمْ إِلَى صَاحِبِنَا هَذَا تَسْتَخْرِجُونَهُ مِنْ بَيْنِ أَظْهُرِنَا، وَتُبَايِعُونَهُ عَلَى حَرْبِنَا! وَاللهِ إِنَّهُ مَا مِنَ الْعَرَبِ أَحَدٌ أَبْغَضَ إِلَيْنَا أَنْ تَنْشَبَ الْحَرْبُ بَيْنَنَا وَبَيْنَهُ مِنْكُمْ، قَالَ: فَانْبَعَثَ مِنْ هُنَالِكَ مِنْ مُشْرِكِي قَوْمِنَا يَحْلِفُونَ لَهُمْ بِاللهِ مَا كَانَ مِنْ هَذَا شَيْءٌ، وَمَا عَلِمْنَاهُ، وَقَدْ صَدَقُوا لَمْ يَعْلَمُوا مَا كَانَ مِنَّا، قَالَ: فَبَعْضُنَا يَنْظُرُ إِلَى بَعْضٍ، قَالَ: وَقَامَ الْقَوْمُ وَفِيهِمُ الْحَارِثُ بْنُ هِشَامِ بْنِ الْمُغِيرَةِ الْمَخْزُومِيُّ (١) وَعَلَيْهِ نَعْلاَنِ جَدِيدَانِ، قَالَ: فَقُلْتُ كَلِمَةً كَأَنِّي أُرِيدُ أَنْ أُشْرِكَ الْقَوْمَ بِهَا فِيمَا قَالُوا: مَا تَسْتَطِيعُ يَا أَبَا جَابِرٍ، وَأَنْتَ سَيِّدٌ مِنْ سَادَاتِنَا أَنْ تَتَّخِذَ نَعْلَيْنِ مِثْلَ نَعْلَيْ هَذَا الْفَتَى مِنْ قُرَيْشٍ؟ فَسَمِعَهَا الْحَارِثُ، فَخَلَعَهُمَا، ثُمَّ رَمَى بِهِمَا إِلَيَّ، فَقَالَ: وَاللهِ لَتَنْتَعِلَنَّهُمَا، قَالَ: يَقُولُ أَبُو جَابِرٍ: أَحْفَظْتَ - وَاللهِ - الْفَتَى، فَارْدُدْ عَلَيْهِ نَعْلَيْهِ، قَالَ: فَقُلْتُ: وَاللهِ لاَ أَرُدُّهُمَا، فَأْلٌ - وَاللهِ - صَالِحٌ، وَاللهِ لَئِنْ صَدَقَ الْفَأْلُ لأَسْلُبَنَّهُ.

فَلَمَّا تَمَّتْ بَيْعَةُ الْعَقَبَةِ الثَّانِيَةُ - وَكَانَتْ سِرًّا عَلَى كُفَّارِ قُرَيْشٍ - أَمَرَ رَسُولُ اللهِ ﷺ مَنْ كَانَ مَعَهُ مِنَ الْمُسْلِمِينَ بِالْخُرُوجِ إِلَى الْمَدِينَةِ أَرْسَالاً؛ أَيْ: جَمَاعَاتٍ.

وَهَكَذَا أَخَذُوا يَتْرُكُونَ مَكَّةَ زَرَافَاتٍ وَوُحْدَانًا، حَتَّى كَادَتْ مَكَّةُ تَخْلُو مِنَ الْمُسْلِمِينَ، خَرَجُوا مُسْتَخْفِينَ مُتَسَلِّلِينَ، وَتَرَكُوا وَرَاءَهُمُ الْوَطَنَ وَالْمَالَ وَالْمَتَاعَ! وَأَقَامَ رَسُولُ اللهِ ﷺ بِمَكَّةَ بَعْدَ أَصْحَابِهِ يَنْتَظِرُ أَنْ يُؤْذَنَ لَهُ فِي الْهِجْرَةِ، وَقَدْ أَعَدَّ

---

(١) هو الحارث بن هشام بن المغيرة بن عبد الله بن عمرو بن مخزوم القرشي، يكنى أبا عبد الرحمن، شهد بدرًا كافرًا، فانهزم، وعُيِّر بفراره ذلك، ثم أسلم يوم الفتح، وحسن إسلامه، وكان من فضلاء الصحابة وخيارهم، وكان من المؤلفة قلوبهم، وخرج إلى الشام مجاهدًا أيام عمر بن الخطاب بأهله وماله، فلم يزل يجاهد حتى استشهد يوم اليرموك في رجب من سنة خمس عشرة، وقيل: بل مات في طاعون عمواس سنة عشرة؛ راجع: «الاستيعاب» (٤٤٤)، و«أسد الغابة» (٩٧٩)، و«الإصابة» (١٥٠٦).

جِهَازَهُ يَنْتَظِرُ مَتَى يُؤْمَرُ بِالْخُرُوجِ، وَأَعَدَّ أَبُو بَكْرٍ جِهَازَهُ (١)، وَجَاءَ رَسُولُ اللهِ ﷺ إِلَى أَبِي بَكْرٍ نِصْفَ النَّهَارِ فِي سَاعَةٍ لَمْ يَكُنْ يَأْتِيهِ فِيهَا مُتَقَنِّعًا؛ فَقَالَ لَهُ: «**أَخْرِجْ مَنْ عِنْدَكَ**»، فَقَالَ: إِنَّمَا هُمْ أَهْلُكَ يَا رَسُولَ اللهِ؛ فَقَالَ: «**إِنَّ اللهَ قَدْ أَذِنَ لِي فِي الْخُرُوجِ**».

وَالْحَدِيثُ بِطُولِهِ فِي «**صَحِيحِ الْبُخَارِيِّ**»(٢) مِنْ حَدِيثِ عَائِشَةَ رضي الله عنها، فِي بَابِ «هِجْرَةِ النَّبِيِّ ﷺ وَأَصْحَابِهِ إِلَى الْمَدِينَةِ».

قَالَتْ عَائِشَةُ: قَالَ النَّبِيُّ ﷺ: «**إِنِّي أُرِيتُ دَارَ هِجْرَتِكُمْ ذَاتَ نَخْلٍ بَيْنَ لَابَتَيْنِ**». وَهُمَا الْحَرَّتَانِ؛ فَهَاجَرَ مَنْ هَاجَرَ قِبَلَ الْمَدِينَةِ، وَرَجَعَ إِلَى الْمَدِينَةِ بَعْضُ مَنْ كَانَ هَاجَرَ إِلَى أَرْضِ الْحَبَشَةِ، وَتَجَهَّزَ أَبُو بَكْرٍ قِبَلَ الْمَدِينَةِ؛ فَقَالَ لَهُ رَسُولُ اللهِ ﷺ: «**عَلَى رِسْلِكَ فَإِنِّي أَرْجُو أَنْ يُؤْذَنَ لِي**» فَقَالَ أَبُو بَكْرٍ: وَهَلْ تَرْجُو ذَلِكَ بِأَبِي أَنْتَ؟ قَالَ: «**نَعَمْ**» فَحَبَسَ أَبُو بَكْرٍ نَفْسَهُ عَلَى رَسُولِ اللهِ ﷺ؛ لِيَصْحَبَهُ، وَعَلَفَ رَاحِلَتَيْنِ كَانَتَا عِنْدَهُ وَرَقَ السَّمُرِ - وَهُوَ الْخَبَطُ- أَرْبَعَةَ أَشْهُرٍ.

قَالَتْ عَائِشَةُ: فَبَيْنَمَا نَحْنُ يَوْمًا جُلُوسٌ فِي بَيْتِ أَبِي بَكْرٍ فِي نَحْرِ الظَّهِيرَةِ قَالَ قَائِلٌ لِأَبِي بَكْرٍ: هَذَا رَسُولُ اللهِ ﷺ مُتَقَنِّعًا - فِي سَاعَةٍ لَمْ يَكُنْ يَأْتِينَا فِيهَا- فَقَالَ أَبُو بَكْرٍ: فِدَاءٌ لَهُ أَبِي وَأُمِّي، وَاللهِ مَا جَاءَ بِهِ فِي هَذِهِ السَّاعَةِ إِلَّا أَمْرٌ، قَالَتْ: فَجَاءَ رَسُولُ اللهِ ﷺ فَاسْتَأْذَنَ، فَأُذِنَ لَهُ، فَدَخَلَ؛ فَقَالَ النَّبِيُّ ﷺ لِأَبِي بَكْرٍ: «**أَخْرِجْ مَنْ عِنْدَكَ**» فَقَالَ أَبُو بَكْرٍ: إِنَّمَا هُمْ أَهْلُكَ بِأَبِي أَنْتَ يَا رَسُولَ اللهِ، قَالَ: «**فَإِنِّي قَدْ أُذِنَ لِي فِي الْخُرُوجِ**»؛ فَقَالَ أَبُو بَكْرٍ: الصَّحَابَةُ بِأَبِي أَنْتَ يَا رَسُولَ اللهِ، قَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: «**نَعَمْ**»، قَالَ أَبُو بَكْرٍ: فَخُذْ بِأَبِي أَنْتَ يَا رَسُولَ اللهِ إِحْدَى رَاحِلَتَيَّ هَاتَيْنِ،

---

(١) «زاد المعاد» (٣/ ٥٠)، و«سيرة ابن هشام» (٢/ ٧٩) [تعجُّل أبي بكر هجرةَ الرسول ﷺ].

(٢) أخرجه البخاريُّ، كتاب مناقب الأنصار، باب هجرة النبي ﷺ وأصحابه إلى المدينة (٣٩٠٥).

قَالَ رَسُولُ الله ﷺ: «بِالثَّمَنِ». قَالَتْ عَائِشَةُ: فَجَهَّزْنَاهُمَا أَحَثَّ الْجِهَازِ، وَصَنَعْنَا لَهُمَا سُفْرَةً فِي جِرَابٍ، فَقَطَعَتْ أَسْمَاءُ بِنْتُ أَبِي بَكْرٍ (١) قِطْعَةً مِنْ نِطَاقِهَا فَرَبَطَتْ بِهِ عَلَى فَمِ الْجِرَابِ؛ فَبِذَلِكَ سُمِّيَتْ ذَاتَ النِّطَاقَيْنِ، قَالَتْ: ثُمَّ لَحِقَ رَسُولُ الله ﷺ وَأَبُو بَكْرٍ بِغَارٍ فِي جَبَلِ ثَوْرٍ، فَكَمَنَا فِيهِ ثَلَاثَ لَيَالٍ يَبِيتُ عِنْدَهُمَا عَبْدُ الله بْنُ أَبِي بَكْرٍ (٢) وَهُوَ غُلَامٌ شَابٌّ ثَقِفٌ لَقِنٌ فَيُدْلِجُ مِنْ عِنْدِهِمَا بِسَحَرٍ، فَيُصْبِحُ مَعَ قُرَيْشٍ بِمَكَّةَ كَبَائِتٍ، فَلَا يَسْمَعُ أَمْرًا يُكْتَادَانِ بِهِ إِلَّا وَعَاهُ حَتَّى يَأْتِيَهُمَا بِخَبَرِ ذَلِكَ حِينَ يَخْتَلِطُ الظَّلَامُ، وَيَرْعَى عَلَيْهِمَا عَامِرُ بْنُ فُهَيْرَةَ(٣) مَوْلَى أَبِي بَكْرٍ مِنْحَةً مِنْ

---

(١) هي أسماء بنت أبي بكر الصديق - واسم أبي بكر: عبد الله بن عثمان - القرشية التميمية زوج الزبير بن العوام، أسلمت قديمًا بمكة، وهي ذات النطاقين، وُلِدَت قبل التاريخ بسبع وعشرين سنة، وأسلمت بعد سبعة عشر إنسانًا وهاجرت إلى المدينة، وهاجرت وهي حامل بعبد الله بن الزبير، وإنما قيل لها ذات النطاقين؛ لأنها صنعت للنبيِّ ﷺ ولأبيها سفرة، لما هاجرا، فلم تجد ما تشدها به فشقت نطاقها وشدت السفرة له، فسماها رسول الله ﷺ ذات النطاقين، عاشت إلى أوائل سنة أربع وعشرين، وقيل: عاشت بعد ابنها عشرين يومًا، وقيل غير ذلك.

● راجع: «أسد الغابة» (٦٧٠٦)، و«الإصابة» (١٠٧٩٨)، والاستيعاب» (٣٩٣).

(٢) هو عبد الله بن عبد الله بن عثمان وهو ابن أبي بكر الصديق، شهد الطائف مع رسول الله ﷺ فرمي بسهم، رماه أبو محجن الثقفي فيما ذكر الواقدي، فدمل جرحه حتى انتقض به فمات منه في خلافة أبيه، وذلك في شوال من سنة إحدى عشرة، وكان يعد من شهداء الطائف، وهو الذي كان يأتي النبيَّ ﷺ وأباه أبا بكر بالطعام وبأخبار قريش وهما في الغار، وكان إسلامه قديمًا، ولم يسمع له بمشهد إلا شهوده الفتح، وحنينًا، والطائف.

● راجع: «الاستيعاب» (١٤٧٨)، و«أسد الغابة» (٣٠٤٤)، و«الإصابة» (٤٥٧١).

(٣) هو عامر بن فهيرة التيمي، مولى أبي بكر الصديق، يكنى أبا عمرو، وكان مولدًا من مولَّدي الأزد، وكان مملوكًا للطفيل بن عبد الله بن سخبرة، وعامر أخو عائشة من الأم؛ فأسلم وهو مملوك فاشتراه أبو بكر من الطفيل فأعتقه، وكان حسن الإسلام، وشهد بدرًا وأحدًا، وكان ممن يعذب في الله، وقتل يوم بئر معونة، سنةَ أربعْ من الهجرة، وهو ابن أربعين سنة.

● راجع: «الاستيعاب» (١٣٤٦)، و«أسد الغابة» (٢٧٢٤)، و«الإصابة» (٤٤٣٢).

غَنَمٍ، فَيُرِيحُهَا عَلَيْهِمَا حِينَ تَذْهَبُ سَاعَةٌ مِنَ الْعِشَاءِ فَيَبِيتَانِ فِي رِسْلٍ - وَهُوَ لَبَنُ مِنْحَتِهِمَا وَرَضِيفِهِمَا - حَتَّى يَنْعِقَ بِهَا عَامِرُ بْنُ فُهَيْرَةَ بِغَلَسٍ، يَفْعَلُ ذَلِكَ فِي كُلِّ لَيْلَةٍ مِنْ تِلْكَ اللَّيَالِي الثَّلَاثِ، وَاسْتَأْجَرَ رَسُولُ اللهِ ﷺ وَأَبُو بَكْرٍ رَجُلًا مِنْ بَنِي الدِّيلِ، وَهُوَ مِنْ بَنِي عَبْدِ بْنِ عَدِيٍّ هَادِيًا خِرِّيتًا - وَالْخِرِّيتُ الْمَاهِرُ بِالْهِدَايَةِ - قَدْ غَمَسَ حِلْفًا فِي آلِ الْعَاصِ بْنِ وَائِلٍ السَّهْمِيِّ، وَهُوَ عَلَى دِينِ كُفَّارِ قُرَيْشٍ، فَأَمِنَاهُ، فَدَفَعَا إِلَيْهِ رَاحِلَتَيْهِمَا وَوَاعَدَاهُ غَارَ ثَوْرٍ بَعْدَ ثَلَاثِ لَيَالٍ بِرَاحِلَتَيْهِمَا صُبْحَ ثَلَاثٍ، وَانْطَلَقَ مَعَهُمَا عَامِرُ بْنُ فُهَيْرَةَ وَالدَّلِيلُ، فَأَخَذَ بِهِمْ طَرِيقَ السَّوَاحِلِ».

وَخَطَّطَ النَّبِيُّ ﷺ لِلْهِجْرَةِ بِالِانْتِقَالِ مِنْ مَكَّةَ إِلَى يَثْرِبَ، وَسَمِعَ الْمُشْرِكُونَ بِهَذَا الْأَمْرِ، وَاجْتَمَعَ الْبَرْلَمَانُ الشِّرْكِيُّ فِي دَارِ النَّدْوَةِ بِمَكَّةَ بِالْإِجْمَاعِ [1]؛ لِاتِّخَاذِ أَخْطَرِ قَرَارٍ عَرَفَتْهُ الْبَشَرِيَّةُ، أَلَا وَهُوَ قَتْلُ سَيِّدِ الْبَشَرِيَّةِ ﷺ، لِلْقَضَاءِ عَلَى تَيَّارِ نُورِ هَذِهِ الدَّعْوَةِ نِهَائِيًّا، وَلَكِنْ هَيْهَاتَ هَيْهَاتَ!! فَكَمَا قَالَ اللهُ: ﴿وَإِذْ يَمْكُرُ بِكَ الَّذِينَ كَفَرُوا لِيُثْبِتُوكَ أَوْ يَقْتُلُوكَ أَوْ يُخْرِجُوكَ وَيَمْكُرُونَ وَيَمْكُرُ اللَّهُ وَاللَّهُ خَيْرُ الْمَاكِرِينَ﴾ [الأنفال:٣٠]؛ فَلَمَّا خَطَّطُوا لِقَتْلِهِ ﷺ، خَطَّطَ النَّبِيُّ ﷺ لِلْهِجْرَةِ [2]، وَأَخَذَ بِكُلِّ

---

(١) راجع: «دلائل النبوة» (٢/ ٤٦٥، ٤٦٦)، [باب مكر المشركين برسول الله ﷺ وعصمة الله رسولَهُ وإخباره إياه بذلك حتى خرج مع أبي بكر الصديق رضي الله عنه مهاجرًا]، و«زاد المعاد» (٣/ ٥٠)، و«سيرة ابن هشام» (٢/ ٨٠) [مؤامرة قريش عَلَى رسول الله ﷺ].

(٢) **قال الحافظ ابن كثير في «البداية والنهاية»** (٣/ ١٧٥): «وقد كانت هجرته عليه السلام في شهر ربيع الأول سنة ثلاث عشرة من بعثته عليه السلام، وذلك في يوم الاثنين؛ كما رواه أحمد في «المسند» (١/ ٢٧٧) بسندٍ فيه ابن لهيعة من حديث ابن عباس رضي الله عنهما قال: «ولد النبيُّ ﷺ يوم الاثنين، واستنبئ يوم الاثنين، وتوفي يوم الاثنين، وخرج مهاجرًا من مكة إلى المدينة يوم الاثنين، وقدم المدينة يوم الاثنين، ورفع الحجر الأسود يوم الاثنين»، وله شاهدٌ عند ابن أبي شيبة عن ابن عباس وجابر؛ قال ابن كثير في «البداية والنهاية» (٣/ ١٠٧): «فيه انقطاع»، وجزم ابن إسحاق بأنه خرج أول يوم من ربيع الأول؛ راجع: «الفتح» (٧/ ٢٦٨).

أَسْبابِ الْحيْطَةِ وَالْحذَرِ؛ فَلَقَدْ أَمَرَ النَّبِيُّ ﷺ عَلِيًّا رضي الله عنه أَنْ يَبِيتَ فِي مَضْجعِهِ تِلْكَ اللَّيْلَةَ، وَاجْتَمَعَ أُولَئِكَ النَّفَرُ مِنْ قُرَيْشٍ يَتطَلَّعُونَ مِنْ صِيرِ الْبَابِ وَيَرْصُدُونَهُ، وَيُرِيدُونَ بَيَاتَهُ، وَيَأْتَمِرُونَ أَيُّهُمْ يَكُونُ أَشْقَاهَا [١]!!

● فَفِي «مُسْنَدِ أَحْمَدَ»، وَ«مُصَنَّفِ عَبْدِ الرَّزَّاقِ[٢]» [٣] وَغَيْرِهِمَا بِسَنَدٍ حَسَّنَهُ الْحَافِظَانِ ابْنُ كَثِيرٍ وَابْنُ حَجَرٍ -رَحِمَهُمَا اللهُ- مِنْ حَدِيثِ ابْنِ عَبَّاسٍ رضي الله عنهما فِي قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿وَإِذْ يَمْكُرُ بِكَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ لِيُثْبِتُوكَ﴾[الأنفال:٣٠]، قَالَ: «تَشَاوَرَتْ قُرَيْشٌ لَيْلَةً بِمَكَّةَ؛ فَقَالَ بَعْضُهُمْ: إِذَا أَصْبَحَ فَأَثْبِتُوهُ بِالْوَثَاقِ -يُرِيدُونَ النَّبِيَّ ﷺ- وَقَالَ بَعْضُهُمْ: بَلِ اقْتُلُوهُ، وَقَالَ بَعْضُهُمْ: بَلْ أَخْرِجُوهُ، فَأَطْلَعَ اللهُ عز وجل نَبِيَّهُ ﷺ عَلَى ذَلِكَ، فَبَاتَ عَلِيٌّ رضي الله عنه عَلَى فِرَاشِ النَّبِيِّ ﷺ تِلْكَ اللَّيْلَةَ، وَخَرَجَ النَّبِيُّ ﷺ حَتَّى لَحِقَ بِالْغَارِ، وَبَاتَ الْمُشْرِكُونَ يَحْرُسُونَ عَلِيًّا يَحْسَبُونَهُ النَّبِيَّ ﷺ، فَلَمَّا أَصْبَحُوا ثَارُوا إِلَيْهِ، فَلَمَّا رَأَوْا عَلِيًّا رَدَّ اللهُ مَكْرَهُمْ، فَقَالُوا: أَيْنَ صَاحِبُكَ هَذَا؟ قَالَ: لَا أَدْرِي، فَاقْتَصُّوا أَثَرَهُ، فَلَمَّا بَلَغُوا الْجَبَلَ خُلِّطَ عَلَيْهِمْ، فَصَعِدُوا فِي الْجَبَلِ، فَمَرُّوا بِالْغَارِ، فَرَأَوْا عَلَى بَابِهِ نَسْجَ الْعَنْكَبُوتِ، فَقَالُوا: لَوْ دَخَلَ هَاهُنَا لَمْ يَكُنْ نَسْجُ الْعَنْكَبُوتِ عَلَى بَابِهِ، فَمَكَثَ فِيهِ ثَلَاثَ لَيَالٍ».

---

(١) «زاد المعاد» (٣/ ٥١، ٥٢).

(٢) هو عبد الرزاق بن همام بن نافع، الحافظ الكبير، عالم اليمن، أبو بكر الحميري مولاهم، الصنعاني، الثقة، ولد سنة ست وعشرين ومائة، وكان شيعيًّا؛ توفي في شوال سنة إحدى عشرة ومائتين؛ راجع: «تهذيب التهذيب» (٢/ ٥٧٢)، و«سير أعلام النبلاء» (١٥٣٣).

(٣) أخرجه أحمد (١/ ٣٤٨)، وعبد الرزاق (٥/ ٣٨٤)، والطبراني في «الكبير» (١١/ ٤٠٧)، وابن أبي عمر العدني في «مسنده»؛ كما في «إتحاف الخيرة» (٦/ ٦٩)؛ قال الهيثميُّ في «المجمع» (٧/ ١٠٠): «رواه أحمد والطبراني، وفيه عثمان بن عمرو الجزري، وثقة ابن حبان وضعفه غيره، وبقية رجاله رجال الصحيح»، والحديث حَسَّنه ابن كثير في «البداية والنهاية» (٣/ ١٧٩)، وابن حجر في «الفتح» (٧/ ٢٧٨).

فَلَمْ يَدَعِ النَّبِيُّ ﷺ سَبَبًا مِنْ أَسْبَابِ التَّوَكُّلِ عَلَى اللهِ إِلَّا وَأَخَذَ بِهِ، وَعَلَيْهِ فَالْمُفْتَرَضُ أَنَّ الْمُتَّجِهَ مِنْ مَكَّةَ إِلَى الْمَدِينَةِ لَابُدَّ أَنْ يَتَّجِهَ شَمَالًا؛ لَكِنَّهُ ﷺ اتَّجَهَ جَنُوبًا؛ لِأَنَّ الْمُطَارِدِينَ سَيَبْحَثُونَ عَنْهُ فِي كُلِّ الطُّرُقِ الَّتِي تُؤَدِّي إِلَى الْمَدِينَةِ، فَلْيَتَّجِهِ النَّبِيُّ ﷺ جَنُوبًا، وَلْيَمْكُثْ فِي الْغَارِ حَتَّى تَهْدَأَ حَرَكَةُ الْبَاحِثِينَ عَنْهُ بَيْنَ الصُّخُورِ وَالْجِبَالِ؛ بَلْ حَتَّى بَيْنَ حَبَّاتِ الرِّمَالِ!! وَبِالْفِعْلِ يَمْكُثُ النَّبِيُّ ﷺ ثَلَاثَ لَيَالٍ، وَعَبْدُ اللهِ بْنُ أَبِي بَكْرٍ يَبِيتُ فِي مَكَّةَ يَسْمَعُ الْأَخْبَارَ، وَفِي جَوْفِ اللَّيْلِ يَنْطَلِقُ إِلَى النَّبِيِّ ﷺ؛ لِيُخْبِرَهُ بِمَا خَطَّطَ بِهِ وَلَهُ الْمُشْرِكُونَ، وَقَبْلَ أَنْ يُصْبِحَ الصَّبَاحُ يَكُونُ فِي مَكَّةَ؛ لِيُصْبِحَ بَيْنَ أَهْلِهَا وَكَأَنَّهُ بَاتَ بَيْنَهُمْ، وَعَامِرُ بْنُ فُهَيْرَةَ يَأْتِي بِالْأَغْنَامِ؛ لِتُزِيلَ بِآثَارِ أَقْدَامِهَا آثَارَ أَقْدَامِ النَّبِيِّ ﷺ وَصَاحِبِهِ، وَأَسْمَاءُ تَأْتِي بِالزَّادِ، وَعَبْدُ اللهِ بْنُ أُرَيْقِطٍ مُشْرِكٌ؛ لَكِنَّهُ خَبِيرٌ بِالطُّرُقِ - تَأَكَّدَ النَّبِيُّ ﷺ مِنْ أَمَانَتِهِ - لِيَدُلَّ النَّبِيَّ ﷺ وَصَاحِبَهُ عَلَى أَقْرَبِ الطُّرُقِ الْمُؤَدِّيَةِ إِلَى الْمَدِينَةِ - إِلَى يَثْرِبَ - وَهَذَا هُوَ الْأَخْذُ بِالْأَسْبَابِ؛ وَلَا يَنْبَغِي عَلَى الْإِطْلَاقِ أَنْ نَفْهَمَ التَّوَكُّلَ عَلَى غَيْرِ هَذَا؛ فَالتَّوَكُّلُ عَلَى اللهِ هُوَ جِمَاعُ الْإِيمَانِ، وَهُوَ نِهَايَةُ التَّحْقِيقِ فِي التَّوْحِيدِ، وَهُوَ صِدْقُ اعْتِمَادِ الْقَلْبِ عَلَى اللهِ مَعَ الْأَخْذِ بِالْأَسْبَابِ؛ فَلَمْ يَدَعِ النَّبِيُّ ﷺ مِنَ الْأَسْبَابِ شَيْئًا، وَمَعَ ذَلِكَ فِي لَحْظَةٍ مِنَ اللَّحَظَاتِ انْقَطَعَتْ هَذِهِ الْأَسْبَابُ؛ فَهَا هُمُ الْمُشْرِكُونَ يُحَاصِرُونَ الْغَارَ مِنْ كُلِّ نَاحِيَةٍ، وَالصِّدِّيقُ فِي حِوَارٍ هَامِسٍ وَجِلٍ يَقُولُ؛ كَمَا فِي «**الصَّحِيحَيْنِ**» (١) مِنْ حَدِيثِ أَبِي بَكْرٍ الصِّدِّيقِ قَالَ: نَظَرْتُ إِلَى أَقْدَامِ الْمُشْرِكِينَ عَلَى رُءُوسِنَا وَنَحْنُ فِي الْغَارِ، فَقُلْتُ: يَا رَسُولَ اللهِ، لَوْ أَنَّ

---

(١) أخرجه البخاريُّ، كتاب فضائل أصحاب النبي ﷺ، باب مناقب الأنصار وفضلهم (٣٦٥٣)، ومسلمٌ، كتاب فضائل الصحابة، باب من فضائل أبي بكر الصديق رضي الله عنه (٢٣٨١) واللفظ له.

أَحَدَهُمْ نَظَرَ إِلَى قَدَمَيْهِ أَبْصَرَنَا تَحْتَ قَدَمَيْهِ؛ فَقَالَ: «**يَا أَبَا بَكْرٍ! مَا ظَنُّكَ بِاثْنَيْنِ اللهُ ثَالِثُهُمَا؟**».

وَفِي رِوَايَةٍ لِلْبُخَارِيِّ (١): عَنْ أَبِي بَكْرٍ ﷺ قَالَ: كُنْتُ مَعَ النَّبِيِّ ﷺ فِي الْغَارِ، فَرَفَعْتُ رَأْسِي، فَإِذَا أَنَا بِأَقْدَامِ الْقَوْمِ، فَقُلْتُ: يَا نَبِيَّ اللهِ، لَوْ أَنَّ بَعْضَهُمْ طَأْطَأَ بَصَرَهُ رَآنَا، قَالَ: «**اسْكُتْ يَا أَبَا بَكْرٍ، اثْنَانِ اللهُ ثَالِثُهُمَا**»؛ إِنَّهُ قَلْبٌ مُطْمَئِنٌّ مَوْصُولٌ بِرَبِّهِ تَبَارَكَ وَتَعَالَى.

وَفِي رِوَايَةٍ مُرْسَلَةٍ عَنِ الْحَسَنِ الْبَصْرِيِّ (٢) قَالَ: انْطَلَقَ النَّبِيُّ ﷺ وَأَبُو بَكْرٍ فِي الْغَارِ، وَجَاءَتْ قُرَيْشٌ يَطْلُبُونَ النَّبِيَّ ﷺ، وَكَانُوا إِذَا رَأَوْا عَلَى بَابِ الْغَارِ نَسْجَ الْعَنْكَبُوتِ قَالُوا: لَمْ يَدْخُلْ أَحَدٌ، وَكَانَ النَّبِيُّ ﷺ قَائِمًا يُصَلِّي وَأَبُو بَكْرٍ يَرْتَقِبُ؛ فَقَالَ أَبُو بَكْرٍ لِلنَّبِيِّ ﷺ: هَؤُلَاءِ قَوْمُكَ يَطْلُبُونَكَ، أَمَا وَاللهِ مَا عَلَى نَفْسِي أَئِلُ، وَلَكِنْ مَخَافَةَ أَنْ أَرَى فِيكَ مَا أَكْرَهُ؛ فَقَالَ النَّبِيُّ ﷺ: «**يَا أَبَا بَكْرٍ؛ لَا تَخَفْ إِنَّ اللهَ**

---

(١) أخرجه البخاريُّ، كتاب مناقب الأنصار، باب هجرة النبي ﷺ وأصحابه إلى المدينة (٣٩٢٢).

(٢) هو الحسن بن أبي الحسن يسار البصري أبو سعيد مولى زيد بن ثابت، ويقال: مولى أبي اليسر كعب بن عمرو السلمي، ولد لسنتين بقيتا من خلافة عمر، وكان فصيحًا، قال قتادة: «ما جالست رجلًا فقيهًا إلا رأيت فضل الحسن عليه»، وقال أيضًا: «ما رأت عيناي أفقه من الحسن»، وقال الأعمش: «ما زال الحسن يعي الحكمة حتى نطق بها»، وكان أبو جعفر الباقر إذا ذكره يقول: «ذلك الذي يشبه كلامه كلام الأنبياء»، وقال محمد بن سعد: «قالوا: كان الحسن جامعًا للعلم والعمل، عالمًا، رفيعًا، فقيهًا، ثقةً، مأمونًا، عابدًا، زاهدًا، ناسكًا، كثير العلم والعمل، فصيحًا، جميلًا، وسيمًا»، مات في رجب سنة عشر ومائة وهو ابن ثمان وثمانين سنة؛ بينه وبين محمد بن سيرين مائة يوم رحمه الله.

- راجع: «سير أعلام النبلاء» (٥٩١)، و«تهذب التهذيب»(١/ ٣٨٨-٣٩١)، و«البداية والنهاية»(٢٦٦، ٢٦٧).

مَعَنَا»(١).

قَالَ تَعَالَى: ﴿إِلَّا تَنصُرُوهُ فَقَدْ نَصَرَهُ ٱللَّهُ إِذْ أَخْرَجَهُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ ثَانِيَ ٱثْنَيْنِ إِذْ هُمَا فِي ٱلْغَارِ إِذْ يَقُولُ لِصَٰحِبِهِۦ لَا تَحْزَنْ إِنَّ ٱللَّهَ مَعَنَاۖ فَأَنزَلَ ٱللَّهُ سَكِينَتَهُۥ عَلَيْهِ وَأَيَّدَهُۥ بِجُنُودٍ لَّمْ تَرَوْهَا وَجَعَلَ كَلِمَةَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ ٱلسُّفْلَىٰۗ وَكَلِمَةُ ٱللَّهِ هِيَ ٱلْعُلْيَاۗ وَٱللَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ﴾

[التوبة: ٤٠].

وَيُنَجِّي الله تَبَارَكَ وَتَعَالَى نَبِيَّهُ وَحَبِيبَهُ الْمُصْطَفَى ﷺ مِنْ أَذَى الْمُشْرِكِينَ، وَقَدْ ضَرَبَ الصِّدِّيقُ ﵁ فِي هَذَا الْيَوْمِ أَرْوَعَ الْمَثَلِ لِلْحُبِّ؛ فَلَقَدْ نَسَجَ الصِّدِّيقُ بِدِمَائِهِ عَبَاءَةً لِرَسُولِ الله ﷺ، وَوَدَّ لَوْ فَدَى رَسُولَ الله ﷺ وَحَمَاهُ بِنَفْسِهِ!! لِأَنَّهُ بَشَرٌ، أَمَّا رَسُولُ الله؛ فَهُوَ سَيِّدُ الْبَشَرِ، إِنْ قُتِلَ قُتِلَتْ أُمَّةٌ؛ بَلْ قُتِلَتْ بَشَرِيَّةٌ بِأَسْرِهَا، وَلَمَّا يَئِسَ الْمُشْرِكُونَ مِنَ الظَّفَرِ بِهِمَا، جَعَلُوا لِمَنْ جَاءَ بِهِمَا دِيَةَ كُلِّ وَاحِدٍ مِنْهُمَا، فَجَدَّ الطَّلَبُ، وَالله غَالِبٌ عَلَى أَمْرِهِ، وَكَانَ سُرَاقَةُ بْنُ مَالِكِ بْنِ جُعْشُمٍ(٢) مِمَّنْ جَدَّ فِي طَلَبِ رَسُولِ الله ﷺ وَصَاحِبِهِ، وَلَكِنَّهُ بَاءَ بِالْفَشَلِ فِي مُحَاوَلَتِهِ، فَكَانَ أَوَّلَ النَّهَارِ جَاهِدًا عَلَيْهِمَا، وَآخِرَهُ حَارِسًا لَهُمَا.

فَفِي «صَحِيحِ الْبُخَارِيِّ»(٣) عَنْ سُرَاقَةَ بْنِ جُعْشُمٍ قَالَ: جَاءَنَا رُسُلُ كُفَّارِ

(١) أخرجه أبو بكر أحمد بن علي بن سعيد القاضي المروزي في «مسند أبي بكر» - كما في «البداية والنهاية» (٣/ ١٧٩)، و«الفتح» (٧/ ٢٧٩)، وقال الحافظ ابن كثير: «وهذا مرسل عن الحسن، وهو حسن بحاله من الشاهد، وفيه زيادة صلاة النبي ﷺ في الغار، وقد كان ﷺ إذا أحزنه أمر صلى».

(٢) هو سراقة بن مالك بن جُعْشُم بن مالك بن عمرو بن تيم بن مدلج بن مرة بن عبد مناة ابن كنانة الكناني المدلجي، وقد ينسب إلى جدِّه، أسلم يوم الفتح، يكنى أبا سفيان، مات في خلافة عثمان سنة أربع وعشرين، وقيل: بعد ما مات عثمان، والله أعلم.

● انظر: «الإصابة» (٣١٢٢)، و«أسد الغابة» (١٩٥٦)، و«الاستيعاب» (٩١٦).

(٣) أخرجه البخاريُّ، كتاب مناقب الأنصار، باب هجرة النبي ﷺ وأصحابه إلى المدينة =

قُرَيْشٍ يَجْعَلُونَ فِي رَسُولِ اللهِ ﷺ وَأَبِي بَكْرٍ دِيَةَ كُلِّ وَاحِدٍ مِنْهُمَا لِمَنْ قَتَلَهُ أَوْ أَسَرَهُ، فَبَيْنَمَا أَنَا جَالِسٌ فِي مَجْلِسٍ مِنْ مَجَالِسِ قَوْمِي بَنِي مُدْلِجٍ إِذْ أَقْبَلَ رَجُلٌ مِنْهُمْ حَتَّى قَامَ عَلَيْنَا وَنَحْنُ جُلُوسٌ؛ فَقَالَ: يَا سُرَاقَةُ، إِنِّي قَدْ رَأَيْتُ آنِفًا أَسْوِدَةً بِالسَّاحِلِ أُرَاهَا مُحَمَّدًا وَأَصْحَابَهُ، قَالَ سُرَاقَةُ: فَعَرَفْتُ أَنَّهُمْ هُمْ، فَقُلْتُ لَهُ: إِنَّهُمْ لَيْسُوا بِهِمْ، وَلَكِنَّكَ رَأَيْتَ فُلَانًا وَفُلَانًا انْطَلَقُوا بِأَعْيُنِنَا، ثُمَّ لَبِثْتُ فِي الْمَجْلِسِ سَاعَةً، ثُمَّ قُمْتُ فَدَخَلْتُ فَأَمَرْتُ جَارِيَتِي أَنْ تَخْرُجَ بِفَرَسِي وَهِيَ مِنْ وَرَاءِ أَكَمَةٍ فَتَحْبِسَهَا عَلَيَّ، وَأَخَذْتُ رُمْحِي فَخَرَجْتُ بِهِ مِنْ ظَهْرِ الْبَيْتِ فَحَطَطْتُ بِزُجِّهِ الْأَرْضَ وَخَفَضْتُ عَالِيَهُ حَتَّى أَتَيْتُ فَرَسِي فَرَكِبْتُهَا فَرَفَعْتُهَا تُقَرِّبُ بِي حَتَّى دَنَوْتُ مِنْهُمْ، فَعَثَرَتْ بِي فَرَسِي، فَخَرَرْتُ عَنْهَا، فَقُمْتُ فَأَهْوَيْتُ يَدِي إِلَى كِنَانَتِي، فَاسْتَخْرَجْتُ مِنْهَا الْأَزْلَامَ، فَاسْتَقْسَمْتُ بِهَا أَضُرُّهُمْ أَمْ لَا، فَخَرَجَ الَّذِي أَكْرَهُ، فَرَكِبْتُ فَرَسِي وَعَصَيْتُ الْأَزْلَامَ تُقَرِّبُ بِي حَتَّى إِذَا سَمِعْتُ قِرَاءَةَ رَسُولِ اللهِ ﷺ، وَهُوَ لَا يَلْتَفِتُ وَأَبُو بَكْرٍ يُكْثِرُ الِالْتِفَاتَ، سَاخَتْ يَدَا فَرَسِي فِي الْأَرْضِ حَتَّى بَلَغَتَا الرُّكْبَتَيْنِ، فَخَرَرْتُ عَنْهَا، ثُمَّ زَجَرْتُهَا فَنَهَضَتْ، فَلَمْ تَكَدْ تُخْرِجُ يَدَيْهَا، فَلَمَّا اسْتَوَتْ قَائِمَةً إِذَا لِأَثَرِ يَدَيْهَا عُثَانٌ سَاطِعٌ فِي السَّمَاءِ مِثْلُ الدُّخَانِ، فَاسْتَقْسَمْتُ بِالْأَزْلَامِ، فَخَرَجَ الَّذِي أَكْرَهُ فَنَادَيْتُهُمْ بِالْأَمَانِ، فَوَقَفُوا، فَرَكِبْتُ فَرَسِي حَتَّى جِئْتُهُمْ وَوَقَعَ فِي نَفْسِي حِينَ لَقِيتُ مَا لَقِيتُ مِنَ الْحَبْسِ عَنْهُمْ أَنْ سَيَظْهَرُ أَمْرُ رَسُولِ اللهِ ﷺ فَقُلْتُ لَهُ: إِنَّ قَوْمَكَ قَدْ جَعَلُوا فِيكَ الدِّيَةَ وَأَخْبَرْتُهُمْ أَخْبَارَ مَا يُرِيدُ النَّاسُ بِهِمْ وَعَرَضْتُ عَلَيْهِمُ الزَّادَ وَالْمَتَاعَ، فَلَمْ يَرْزَآنِي وَلَمْ يَسْأَلَانِي إِلَّا أَنْ قَالَ: «أَخْفِ عَنَّا»، فَسَأَلْتُهُ أَنْ يَكْتُبَ لِي كِتَابَ أَمْنٍ فَأَمَرَ عَامِرَ بْنَ فُهَيْرَةَ فَكَتَبَ فِي رُقْعَةٍ مِنْ أَدِيمٍ ثُمَّ مَضَى رَسُولُ اللهِ ﷺ، قَالَ ابْنُ شِهَابٍ (١) فَأَخْبَرَنِي عُرْوَةُ بْنُ الزُّبَيْرِ أَنَّ

=

(٣٩٠٥، ٣٩٠٦)، والبيهقي في «الدلائل» (٢/ ٤٨٥، ٤٨٦)؛ وانظر: كلام الحافظ في «الفتح» (٧/ ٢٨٣).

(١) هو محمد بن مسلم بن عبيد الله بن عبد الله بن شهاب بن عبد الله بن الحارث بن زهرة ابن كلاب بن مرة بن كعب بن لؤي بن غالب، الإمام العلم الفقيه، حافظ زمانه،

=

رَسُولَ الله ﷺ لَقِيَ الزُّبَيْرَ فِي رَكْبٍ مِنَ الْمُسْلِمِينَ كَانُوا تِجَارًا قَافِلِينَ مِنَ الشَّأْمِ، فَكَسَا الزُّبَيْرُ رَسُولَ الله ﷺ وَأَبَا بَكْرٍ ثِيَابَ بَيَاضٍ وَسَمِعَ الْمُسْلِمُونَ بِالْمَدِينَةِ مَخْرَجَ رَسُولِ الله ﷺ مِنْ مَكَّةَ، فَكَانُوا يَغْدُونَ كُلَّ غَدَاةٍ إِلَى الْحَرَّةِ فَيَنْتَظِرُونَهُ حَتَّى يَرُدَّهُمْ حَرُّ الظَّهِيرَةِ، فَانْقَلَبُوا يَوْمًا بَعْدَ مَا أَطَالُوا انْتِظَارَهُمْ، فَلَمَّا أَوَوْا إِلَى بُيُوتِهِمْ أَوْفَى رَجُلٌ مِنْ يَهُودَ عَلَى أُطُمٍ مِنْ آطَامِهِمْ لِأَمْرٍ يَنْظُرُ إِلَيْهِ؛ فَبَصُرَ بِرَسُولِ الله ﷺ وَأَصْحَابِهِ مُبَيَّضِينَ يَزُولُ بِهِمُ السَّرَابُ، فَلَمْ يَمْلِكِ الْيَهُودِيُّ أَنْ قَالَ بِأَعْلَى صَوْتِهِ: يَا مَعَاشِرَ الْعَرَبِ، هَذَا جَدُّكُمْ الَّذِي تَنْتَظِرُونَ، فَثَارَ الْمُسْلِمُونَ إِلَى السِّلَاحِ، فَتَلَقَّوْا رَسُولَ الله ﷺ بِظَهْرِ الْحَرَّةِ، فَعَدَلَ بِهِمْ ذَاتَ الْيَمِينِ حَتَّى نَزَلَ بِهِمْ فِي بَنِي عَمْرِو بْنِ عَوْفٍ، وَذَلِكَ يَوْمَ الِاثْنَيْنِ مِنْ شَهْرِ رَبِيعٍ الْأَوَّلِ [1]؛ فَقَامَ أَبُو بَكْرٍ لِلنَّاسِ، وَجَلَسَ رَسُولُ الله ﷺ صَامِتًا، فَطَفِقَ مَنْ جَاءَ مِنَ الْأَنْصَارِ مِمَّنْ لَمْ يَرَ رَسُولَ الله ﷺ يُحَيِّي أَبَا بَكْرٍ حَتَّى أَصَابَتِ الشَّمْسُ رَسُولَ الله ﷺ فَأَقْبَلَ أَبُو بَكْرٍ حَتَّى ظَلَّلَ عَلَيْهِ بِرِدَائِهِ، فَعَرَفَ النَّاسُ رَسُولَ الله ﷺ عِنْدَ ذَلِكَ، فَلَبِثَ رَسُولُ الله ﷺ فِي بَنِي عَمْرِو بْنِ عَوْفٍ بِضْعَ عَشْرَةَ لَيْلَةً، وَأَسَّسَ الْمَسْجِدَ الَّذِي أُسِّسَ عَلَى التَّقْوَى، وَصَلَّى فِيهِ رَسُولُ الله ﷺ، ثُمَّ رَكِبَ رَاحِلَتَهُ، فَسَارَ يَمْشِي مَعَهُ النَّاسُ حَتَّى بَرَكَتْ عِنْدَ مَسْجِدِ الرَّسُولِ ﷺ بِالْمَدِينَةِ وَهُوَ يُصَلِّي فِيهِ يَوْمَئِذٍ رِجَالٌ مِنَ الْمُسْلِمِينَ، وَكَانَ مِرْبَدًا لِلتَّمْرِ لِسُهَيْلٍ وَسَهْلٍ غُلَامَيْنِ يَتِيمَيْنِ فِي حَجْرِ أَسْعَدَ بْنِ زُرَارَةَ، فَقَالَ رَسُولُ الله ﷺ حِينَ بَرَكَتْ بِهِ رَاحِلَتُهُ: «**هَذَا إِنْ شَاءَ اللهُ الْمَنْزِلُ**»، ثُمَّ

=

أبو بكر القرشي الزهري المدني، نزيل الشام أحد الأئمة الأعلام وعالم الحجاز والشام، ولد سنة خمسين، وقيل: سنة إحدى وخمسين، وقيل: سنة ست، وقيل: سنة ثمان، وتوفي سنة أربع أو ثلاث وعشرين ومائة في رمضان وهو ابن اثنتين وسبعين سنة.

● راجع: «سير أعلام النبلاء» (٧٧٥)، و«تهذيب التهذيب» (٣/ ٦٩٦- ٦٩٩).

(١) **قال الحافظ** (٧/ ٢٨٦): «وصورته مرسل؛ لكنه وصله الحاكم أيضًا من طريق معمر عن الزهري قال: «أخبرني عروة أنه سمع الزبير به» ا. هـ، وانظر: «زاد المعاد» (٣/ ٥٨)، و«دلائل النبوة» (٢/ ٥١١).

دَعَا رَسُولُ اللهِ ﷺ الْغُلَامَيْنِ، فَسَاوَمَهُمَا بِالْمِرْبَدِ؛ لِيَتَّخِذَهُ مَسْجِدًا؛ فَقَالَا: لَا بَلْ نَهَبُهُ لَكَ يَا رَسُولَ اللهِ، فَأَبَى رَسُولُ اللهِ أَنْ يَقْبَلَهُ مِنْهُمَا هِبَةً حَتَّى ابْتَاعَهُ مِنْهُمَا، ثُمَّ بَنَاهُ مَسْجِدًا، وَطَفِقَ رَسُولُ اللهِ ﷺ يَنْقُلُ مَعَهُمُ اللَّبِنَ فِي بُنْيَانِهِ، وَيَقُولُ وَهُوَ يَنْقُلُ اللَّبِنَ: «**هَذَا الْحِمَالُ لَا حِمَالُ خَيْبَرْ، هَذَا أَبَرُّ رَبَّنَا وَأَطْهَرْ**»، وَيَقُولُ: «**اللهم إِنَّ الْأَجْرَ أَجْرُ الْآخِرَهْ، فَارْحَمِ الْأَنْصَارَ وَالْمُهَاجِرَهْ**» فَتَمَثَّلَ بِشِعْرِ رَجُلٍ مِنَ الْمُسْلِمِينَ لَمْ يُسَمَّ لِي، قَالَ ابْنُ شِهَابٍ: وَلَمْ يَبْلُغْنَا فِي الْأَحَادِيثِ أَنَّ رَسُولَ اللهِ ﷺ تَمَثَّلَ بِبَيْتِ شِعْرٍ تَامٍّ غَيْرَ هَذَا الْبَيْتِ.

وَاسْتَقْبَلَتْ يَثْرِبُ رَسُولَ اللهِ ﷺ اسْتِقْبَالًا يَلِيقُ بِمَكَانَتِهِ؛ فَلَقَدْ جَسَّدَ الصَّحَابَةُ مِنَ الْأَنْصَارِ الْأَطْهَارِ الْأَخْيَارِ حُبَّهُمُ الْعَارِمَ لِلنَّبِيِّ الْمُخْتَارِ ﷺ فِي حُسْنِ الاِسْتِقْبَالِ وَالْحَفَاوَةِ وَالْحُبِّ وَالسَّعَادَةِ؛ لَقَدْ حَلَّ النَّبِيُّ ﷺ وَصَحْبُهُ فِي قُلُوبِ الْأَنْصَارِ وَعُيُونِهِمْ، قَبْلَ أَنْ يَحِلَّ وَصَحْبُهُ - مِنَ الْمُهَاجِرِينَ- فِي بُيُوتِهِمْ وَدُورِهِمْ!! وَصَدَقَ رَبِّي إِذْ يَقُولُ فِي حَقِّ هَؤُلَاءِ الْأَطْهَارِ مِنَ الْأَنْصَارِ: ﴿وَٱلَّذِينَ تَبَوَّءُو ٱلدَّارَ وَٱلْإِيمَٰنَ مِن قَبْلِهِمْ يُحِبُّونَ مَنْ هَاجَرَ إِلَيْهِمْ وَلَا يَجِدُونَ فِى صُدُورِهِمْ حَاجَةً مِّمَّآ أُوتُوا۟ وَيُؤْثِرُونَ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ وَلَوْ كَانَ بِهِمْ خَصَاصَةٌ ۚ وَمَن يُوقَ شُحَّ نَفْسِهِۦ فَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ﴾ [الحشر:٩].

وَيَبْدَأُ النَّبِيُّ ﷺ إِقَامَةَ دَوْلَةِ الْإِسْلَامِ فِي الْمَدِينَةِ بِبِنَاءِ الْمَسْجِدِ النَّبَوِيِّ؛ لِيُرَبِّيَ الصَّحَابَةَ هُنَالِكَ فِي بَيْتِ الرَّبِّ الْعَلِيِّ تَرْبِيَةً إِيمَانِيَّةً، وَعَقَدِيَّةً، وَتَعَبُّدِيَّةً، وَفِكْرِيَّةً، وَخُلُقِيَّةً، وَسُلُوكِيَّةً، مَا عَرَفَتْ وَلَنْ تَعْرِفَ الْبَشَرِيَّةُ لَهَا مَثِيلًا وَلَا نَظِيرًا عَلَى الْإِطْلَاقِ.

وَتَبْدَأُ مَرْحَلَةٌ جَدِيدَةٌ مِنْ مَرَاحِلِ الدَّعْوَةِ إِلَى اللهِ؛ أَلَا وَهِيَ مَرْحَلَةُ بَعْثِ، وَإِرْسَالِ الْبُعُوثِ وَالسَّرَايَا؛ ﴿أُذِنَ لِلَّذِينَ يُقَٰتَلُونَ بِأَنَّهُمْ ظُلِمُوا۟ ۚ وَإِنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ نَصْرِهِمْ لَقَدِيرٌ ﴿٣٩﴾ ٱلَّذِينَ أُخْرِجُوا۟ مِن دِيَٰرِهِم بِغَيْرِ حَقٍّ إِلَّآ أَن يَقُولُوا۟ رَبُّنَا ٱللَّهُ ۗ وَلَوْلَا

دَفْعُ ٱللَّهِ﴾ [الحج:٣٩، ٤٠]؛ فَهِيَ مَرْحَلَةٌ أُخْرَى جَدِيدَةٌ يَأْذَنُ الله تبارَكَ وَتَعَالَى فِيهَا لِلنَّبِيِّ ﷺ بِالْجِهَادِ وَالْقِتَالِ(١).

قَالَ السَّعْدِيُّ فِي «تَفْسِيرِهِ»(٢): «كَانَ الْمُسْلِمُونَ فِي أَوَّلِ الْإِسْلَامِ، مَمْنُوعِينَ مِنْ قِتَالِ الْكُفَّارِ، وَمَأْمُورِينَ بِالصَّبْرِ عَلَيْهِمْ لِحِكْمَةٍ إِلَهِيَّةٍ؛ فَلَمَّا هَاجَرُوا إِلَى الْمَدِينَةِ، وَأُوذُوا، وَحَصَلَ لَهُمْ مَنَعَةٌ وَقُوَّةٌ، أُذِنَ لَهُمْ بِالْقِتَالِ؛ كَمَا قَالَ تَعَالَى: ﴿أُذِنَ لِلَّذِينَ يُقَـٰتَلُونَ﴾ يُفْهَمُ مِنْهُ أَنَّهُمْ كَانُوا قَبْلُ مَمْنُوعِينَ، فَأَذِنَ الله لَهُمْ بِقِتَالِ الَّذِينَ يُقَاتِلُونَهُمْ، وَإِنَّمَا أَذِنَ لَهُمْ؛ لِأَنَّهُمْ ظُلِمُوا، بِمَنْعِهِمْ مِنْ دِينِهِمْ، وَأَذِيَّتِهِمْ عَلَيْهِ، وَإِخْرَاجِهِمْ مِنْ دِيَارِهِمْ.

﴿وَإِنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ نَصْرِهِمْ لَقَدِيرٌ﴾ فَلْيَسْتَنْصِرُوهُ، وَلْيَسْتَعِينُوا بِهِ، ثُمَّ ذَكَرَ صِفَةَ ظُلْمِهِمْ؛ فَقَالَ: ﴿ٱلَّذِينَ أُخْرِجُوا۟ مِن دِيَـٰرِهِم﴾ أَيْ: أُلْجِئُوا إِلَى الْخُرُوجِ بِالْأَذِيَّةِ وَالْفِتْنَةِ ﴿بِغَيْرِ حَقٍّ إِلَّآ﴾ أَنَّ ذَنْبَهُمُ الَّذِي نَقَمَ مِنْهُمْ أَعْدَاؤُهُمْ ﴿أَن يَقُولُوا۟ رَبُّنَا ٱللَّهُ﴾ أَيْ: إِلَّا لِأَنَّهُمْ وَحَّدُوا الله، وَعَبَدُوهُ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ، فَإِنْ كَانَ هَذَا ذَنْبًا، فَهُوَ ذَنْبُهُمْ؛ كَقَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿وَمَا نَقَمُوا۟ مِنْهُمْ إِلَّآ أَن يُؤْمِنُوا۟ بِٱللَّهِ ٱلْعَزِيزِ ٱلْحَمِيدِ﴾ [البروج:٨]، وَهَذَا يَدُلُّ عَلَى حِكْمَةِ الْجِهَادِ؛ فَإِنَّ الْمَقْصُودَ مِنْهُ، إِقَامَةُ دِينِ الله، أَوْ ذَبُّ الْكُفَّارِ الْمُؤْذِينَ لِلْمُؤْمِنِينَ، الْبَادِئِينَ لَهُمْ بِالِاعْتِدَاءِ، عَنْ ظُلْمِهِمْ، وَاعْتِدَائِهِمْ، وَالتَّمْكِينُ مِنْ عِبَادَةِ الله، وَإِقَامَةُ الشَّرَائِعِ الظَّاهِرَةِ» انْتَهَى.

وَالْجِهَادُ لَيْسَ غَايَةً، وَلَكِنَّهُ وَسِيلَةٌ لِغَايَةٍ؛ فَالْجِهَادُ وَسِيلَةٌ لِتَعْبِيدِ النَّاسِ فِي الْأَرْضِ لِلْحَقِّ تَبَارَكَ وَتَعَالَى؛ فَنَحْنُ لَا نَرْفَعُ السَّيْفَ فِي وَجْهِ أَيِّ أَحَدٍ أَبَدًا، وَإِنَّمَا نَحْنُ نَدْعُو لِدِينِ الله تَبَارَكَ وَتَعَالَى، وَنُبَلِّغُ أَهْلَ الْأَرْضِ دِينَ الله بِحِكْمَةٍ وَرَحْمَةٍ

---

(١) راجع: «زاد المعاد» (٣/ ٧٠)؛ ففيه تفصيلٌ في وقت الإذن بالقتال، و«الدلائل» للبيهقي (٢/ ٥٧٦).

(٢) «تيسير الكريم الرحمن» (لسورة الحج: ٣٩، ٤٠).

وَتَوَاضُعٍ؛ فَمَنْ أَعْرَضَ مِنْهُمْ بَعْدَ الدَّعْوَةِ وَالْبَلَاغِ لَا نُكْرِهُهُ عَلَى الدُّخُولِ فِي الْإِسْلَامِ، بَلْ نَقُولُ: ﴿لَآ إِكْرَاهَ فِي ٱلدِّينِ﴾؛ لَكِنَّنَا نُقَاتِلُ مَنْ حَالَ بَيْنَنَا وَبَيْنَ دَعْوَةِ النَّاسِ لِدِينِ الله تَبَارَكَ وَتَعَالَى؛ قَالَ تَعَالَى: ﴿وَقَٰتِلُوهُمْ حَتَّىٰ لَا تَكُونَ فِتْنَةٌ﴾ [البقرة:١٩٣]، وَالْفِتْنَةُ الْمَذْكُورَةُ فِي الْآيَةِ هِيَ الشِّرْكُ؛ فَإِنَّ أَعْظَمَ فِتْنَةٍ هِيَ فِتْنَةُ الْكُفْرِ بِالله تَبَارَكَ وَتَعَالَى؛ قَالَ تَعَالَى: ﴿يَٰبُنَيَّ لَا تُشْرِكْ بِٱللَّهِ إِنَّ ٱلشِّرْكَ لَظُلْمٌ عَظِيمٌ﴾ [لقمان:١٣].

وَإِذَا كَانَتْ بَعْضُ دُوَلِ الْأَرْضِ تُجَيِّشُ الْجُيُوشَ الْجَرَّارَةَ، وَتَسْفِكُ الدِّمَاءَ، وَتُمَزِّقُ الْأَشْلَاءَ، وَتُبِيدُ حَضَارَاتٍ بِدَعْوَى الْحُرِّيَّةِ وَالدِّيمُقْرَاطِيَّةِ!!.

أَلَيْسَ مِنْ حَقِّنَا أَنْ نَتَحَرَّكَ بِالدَّعْوَةِ لِدِينِ الله بِالْحِكْمَةِ الْبَالِغَةِ وَالْمَوْعِظَةِ الْحَسَنَةِ وَنَحْنُ عَلَى يَقِينٍ أَنَّنَا نَحْمِلُ مَشَاعِلَ الْهُدَى وَالنُّورِ لِمَنْ يَعِيشُونَ فِي الظَّلَامِ؟!

وَيَبْعَثُ النَّبِيُّ ﷺ بَعْضَ الْبُعُوثِ وَالسَّرَايَا (١)، وَيَشَاءُ الله تَبَارَكَ وَتَعَالَى، وَيُقَدِّرُ أَنْ يَلْتَقِي التَّوْحِيدُ بِالشِّرْكِ، وَأَنْ يَلْتَقِيَ النَّبِيُّ ﷺ وَصَحْبُهُ مَعَ الْمُشْرِكِينَ فِي مَعْرَكَةٍ فَاصِلَةٍ حَاسِمَةٍ بَعْدَ عَامٍ وَاحِدٍ فَقَطْ مِنَ الْهِجْرَةِ؛ أَلَا وَهِيَ مَعْرَكَةُ بَدْرٍ(٢)، وَمَا خَرَجَ النَّبِيُّ ﷺ وَصَحْبُهُ لِلنَّفِيرِ؛ بَلْ خَرَجُوا لِلْعِيرِ؛ لَكِنَّ رَبَّكَ تَبَارَكَ

---

(١) فقبل غزواته ﷺ كان يرسل السرايا، وكان أول لواء عقده رسول الله ﷺ في شهر رمضان عَلَى رأس سبعة أشهر من مهاجره كان لحمزة بن عبد المطلب؛ راجع: تلك السرايا في «السيرة» لابن هشام (٢/ ١٥٨)، و«البداية والنهاية» (٣/ ٢٣٢)، و«زاد المعاد» (٢/ ١٦٣)، وفيه رجَّح ابنُ القيم أن سرية حمزة أول السرايا؛ خلافًا لابن إسحاق.

(٢) وكان قبل بدر عدة غزوات؛ قال ابن إسحاق: «أول ما غزا رسول الله ﷺ الأبواء، ثم بواط، ثم العشيرة» علقهُ البخاري في «الصحيح»؛ كما في «الفتح» (٧/ ٣٢٦).
قُلْتُ (الباحث): وغزوة بدر كانت في السنة الثانية من الهجرة في رمضان؛ **قال الحافظ في «الفتح»** (٧/ ٣٣٣): «بدر قرية مشهورة نسبت إلى بدر بن مخلد بن النضر بن كنانة =

وَتَعَالَى قَدَّرَ أَنْ يَكُونَ خُرُوجُهُمْ لِلنَّفِيرِ لَا لِلْعِيرِ؛ قَالَ تَعَالَى: ﴿وَإِذْ يَعِدُكُمُ اللَّهُ إِحْدَى الطَّائِفَتَيْنِ أَنَّهَا لَكُمْ وَتَوَدُّونَ أَنَّ غَيْرَ ذَاتِ الشَّوْكَةِ تَكُونُ لَكُمْ وَيُرِيدُ اللَّهُ أَنْ يُحِقَّ الْحَقَّ بِكَلِمَاتِهِ وَيَقْطَعَ دَابِرَ الْكَافِرِينَ﴾[الأنفال:٧].

فَاللهُ تَبَارَكَ وَتَعَالَى أَرَادَ أَنْ يُحِقَّ الْحَقَّ، وَأَنْ يُبْطِلَ الْبَاطِلَ، وَأَنْ يَكْسِرَ شَوْكَةَ الْمُجْرِمِينَ مِنَ الْمُشْرِكِينَ فِي هَذَا اللِّقَاءِ؛ فِي لِقَاءِ الْفُرْقَانِ؛ فِي لِقَاءِ الْحَقِّ؛ فِي لِقَاءِ بَدْرٍ، وَيَنْصُرُ اللهُ تَبَارَكَ وَتَعَالَى نَبِيَّهُ ﷺ وَالصَّحَابَةَ مَعَهُ نَصْرًا مُؤَزَّرًا، وَيَتَبَعْثَرُ الْمُشْرِكُونَ الَّذِينَ زَادَ عَدَدُهُمْ عَنْ أَلْفِ مُقَاتِلٍ، يَتَبَعْثَرُونَ فِي الصَّحْرَاءِ، كَتَبَعْثُرِ الْفِئْرَانِ، وَيَنْصُرُ اللهُ عَبْدَهُ، وَالْمُؤْمِنِينَ الْمُسْتَضْعَفِينَ مِنَ الْمُوَحِّدِينَ، وَتَسْمَعُ الدُّنْيَا كُلُّهَا بِانْتِصَارِ رَسُولِ اللهِ ﷺ عَلَى الْمُشْرِكِينَ فِي بَدْرٍ، فَتَطِيشُ عُقُولُ الْيَهُودِ وَالْمُنَافِقِينَ فِي الْمَدِينَةِ، وَعُقُولُ الْمُشْرِكِينَ فِي مَكَّةَ! إِذْ كَيْفَ يَنْتَصِرُ هَؤُلَاءِ الْمُسْتَضْعَفُونَ عَلَى هَذَا الْجَيْشِ الْجَرَّارِ لِلشِّرْكِ وَأَهْلِهِ؟! وَدَارَتْ غَزَوَاتٌ، وَوَقَعَتْ حُرُوبٌ وَمَعَارِكُ، وَشَاءَ اللهُ تَبَارَكَ وَتَعَالَى أَنْ يُرَبِّيَ الصَّحَابَةَ فِي أُحُدٍ بَعْدَ بَدْرٍ [١]؛ فِي دَرْسٍ بَالِغٍ أَوَدُّ أَنْ لَوْ وَعَتْهُ الْأُمَّةُ الْآنَ؛ لِأَنَّ كَثِيرًا مِنْ أَبْنَاءِ الْأُمَّةِ الْآنَ

= كان نزلها، ويقال بدر بن الحارث، ويقال: بدر اسم البئر التي بها سُمِّيت بذلك؛ لاستدارتها أو لصفاء مائها فكان البدر يرى فيها، وحكى الواقديُّ إنكار ذلك كلِّه عن غير واحدٍ من شيوخ بني غفار، وإنما هي مأوانا ومنازلنا وما ملكها أحد قط يقال له بدر، وإنما هو عَلَمٌ عليها كغيرها من البلاد».

● وراجع: «زاد المعاد» (٢/ ١٧١)، و«البداية والنهاية» (٣/ ٢٤٤).

(١) وكانت غزوة أحد في السنة الثالثة من الهجرة في شهر شوال؛ قاله ابن إسحاق؛ انظر: «السيرة النبوية» لابن هشام (٣/ ١٣).

وقد بوَّب البيهقيُّ في «الدلائل» بابًا بعنوان: «باب ذكر التاريخ لوقعة أحد» (٢/ ٢٠١)، وراجع: «فتح الباري» (٧/ ٤٠١).

قال ابن كثير: «وكانت هذه الغزوة في شوال سنة ثلاث، قاله الزهري وقتادة وموسى ابن عقبة ومحمد بن إسحاق ومالك...»؛ انظر: «البداية والنهاية» (٣/ ١١).

لَمْ يَعِ دَرْسَ أُحُدٍ، لَقَدْ هُزِمَ الْمُسْلِمُونَ فِي أُحُدٍ بَعْدَ بَدْرٍ!! لِمَاذَا؟ لِأَنَّ بَعْضَ الصَّحَابَةِ قَدْ تَخَلَّى عَنْ سَبَبٍ مِنْ أَسْبَابِ النَّصْرِ؛ أَلَا وَهُوَ طَاعَةُ النَّبِيِّ ﷺ؛ فَلَقَدْ أَمَرَ النَّبِيُّ ﷺ بَعْضَ الرُّمَاةِ أَلَّا يُفَارِقُوا الْجَبَلَ.

فَفِي «**صَحِيحِ الْبُخَارِيِّ**»(١) مِنْ حَدِيثِ الْبَرَاءِ (٢) رضي الله عنه قَالَ: لَقِينَا الْمُشْرِكِينَ يَوْمَئِذٍ، وَأَجْلَسَ النَّبِيُّ ﷺ جَيْشًا مِنَ الرُّمَاةِ، وَأَمَّرَ عَلَيْهِمْ عَبْدَ الله (٣)؛ وَقَالَ: «**لاَ تَبْرَحُوا، إِنْ رَأَيْتُمُونَا ظَهَرْنَا عَلَيْهِمْ، فَلاَ تَبْرَحُوا، وَإِنْ رَأَيْتُمُوهُمْ ظَهَرُوا عَلَيْنَا فَلاَ تُعِينُونَا**».

وَفِي رِوَايَةٍ فِي «**الصَّحِيحِ**» كَذَلِكَ(٤): «جَعَلَ النَّبِيُّ ﷺ عَلَى الرَّجَّالَةِ يَوْمَ أُحُدٍ - وَكَانُوا خَمْسِينَ رَجُلًا - عَبْدَ الله بْنَ جُبَيْرٍ؛ فَقَالَ: «**إِنْ رَأَيْتُمُونَا تَخْطَفُنَا الطَّيْرُ، فَلاَ تَبْرَحُوا مَكَانَكُمْ هَذَا حَتَّى أُرْسِلَ إِلَيْكُمْ، وَإِنْ رَأَيْتُمُونَا هَزَمْنَا الْقَوْمَ وَأَوْطَأْنَاهُمْ؛ فَلاَ تَبْرَحُوا حَتَّى أُرْسِلَ إِلَيْكُمْ**».

وَبِالْفِعْلِ انْتَهَتِ الْمَعْرَكَةُ، وَحُسِمَتْ لِصَالِحِ الْمُسْلِمِينَ، وَتَرَكَ الرُّمَاةُ

---

(١) أخرجه البخاريُّ، كتاب المغازي، باب غزوة أحد (٤٠٤٣).

(٢) هو البراء بن عازب بن الحارث بن عدي بن جشم بن مجدعة بن حارثة بن الحارث بن عمرو بن مالك بن الأوس الأنصاري الأوسي، يكنى أبا عمارة، وقيل: أبو عَمْرو.
استصغر يوم بدر، وأول مشاهدهِ أحد، وقيل: الخندق، وغزا مع رسول الله ﷺ أربع عشرة غزوة، وفي رواية: خمس عشرة، مات في إمارة مصعب بن الزبير، وأرخه ابن حبان سنة اثنتين وسبعين.
● انظر: «الإصابة» (٦١٨)، و«أسد الغابة» (٣٨٩)، و«الاستيعاب» (١٧٠).

(٣) هو عبد الله بن جبير بن النعمان بن أمية بن امرئ القيس وهو البرك بن ثعلبة بن عمرو ابن عوف بن مالك بن الأوس الأنصاري الأوسي، ثم من بني ثعلبة بن عمرو، شهد العقبة وبدرًا، وقتل يوم أحد، وكان أمير الرماة يومئذٍ.
● انظر: «الإصابة» (٤٦٠٠)، و«أسد الغابة» (٢٨٥٧)، و«الاستيعاب» (١٥١٨).

(٤) عند البخاريِّ، كتاب الجهاد والسير، باب ما يكره من التنازع والاختلاف في الحرب وعقوبة من عصى إمامه (٣٠٣٩).

مَوَاقِعَهُمْ؛ لِجَمْعِ الْغَنَائِمِ، لَكِنَّ الرَّسُولَ ﷺ أَمَرَهُمْ أَلَّا يُفَارِقُوا مَوَاقِعَهُمْ بِالْمَيْدَانِ إِلَّا بِأَمْرٍ مِنْهُ، فَفَارَقُوا الْمَيْدَانَ، وَوَقَعُوا فِي مُخَالَفَةٍ لِأَمْرٍ نَبَوِيٍّ؛ قَالَ عَبْدُاللهِ بْنُ جُبَيْرٍ: أَنَسِيتُمْ مَا قَالَ لَكُمْ رَسُولُ اللهِ ﷺ؟ قَالُوا: «وَاللهِ لَنَأْتِيَنَّ النَّاسَ فَلَنُصِيبَنَّ مِنَ الْغَنِيمَةِ، فَلَمَّا أَتَوْهُمْ صُرِفَتْ وُجُوهُهُمْ، فَأَقْبَلُوا مُنْهَزِمِينَ»(١).

فَصَارَ النَّصْرُ هَزِيمَةً، وَتَغَيَّرَ مِيزَانُ الْمَعْرَكَةِ، وَتَعَرَّضَ النَّبِيُّ ﷺ بِالْفِعْلِ لِلْقَتْلِ؛ بَلْ كُسِرَتْ رَبَاعِيَتُهُ، وَشُجَّ وَجْهُهُ، وَدَخَلَتْ حَلْقَتَا الْمِغْفَرِ فِي وَجْنَتَيْهِ الشَّرِيفَتَيْنِ.

فَفِي «**الصَّحِيحَيْنِ**»(٢) مِنْ حَدِيثِ سَهْلِ بْنِ سَعْدٍ(٣) رضي الله عنه وَهُوَ يُسْأَلُ عَنْ جُرْحِ رَسُولِ اللهِ ﷺ فَقَالَ: وَجُرِحَ وَجْهُ رَسُولِ اللهِ ﷺ، وَكُسِرَتْ رَبَاعِيَتُهُ، وَهُشِمَتِ الْبَيْضَةُ عَلَى رَأْسِهِ؛ قَالَ: كَانَتْ فَاطِمَةُ(٤) رضي الله عنها بِنْتُ رَسُولِ اللهِ ﷺ

---

(١) المصدر السابق.

(٢) أخرجه البخاريُّ، كتاب المغازي، باب ما أصاب النبيَّ ﷺ من الجراح يوم أحد (٤٠٧٥)، ومسلمٌ، كتاب الجهاد، باب في غزوة أحد (١٧٩٠) واللفظ له.

(٣) هو سهل بن سعد بن مالك بن خالد بن ثعلبة بن حارثة بن عمرو بن الخزرج بن ساعدة ابن كعب بن الخزرج الأنصاري الساعدي من مشاهير الصحابة، يكنى: أبا العباس، وقيل: أبو يحيى، مات النبي ﷺ وهو ابن خمس عشرة سنة، وهو آخر من مات بالمدينة من الصحابة سنة إحدى وتسعين، وقيل: قبل ذلك عاش مائة سنة، انظر: «الإصابة» (٣٥٤٦)، و«أسد الغابة» (٢٢٩٥)،و«الاستيعاب» (١٠٨٧).

(٤) هي فاطمة الزهراء بنت إمام المتقين رسول الله محمد بن عبد الله بن عبد المطلب بن هاشم، الهاشمية صلى الله عَلَى أبيها وآله وسلم و رضي الله عنها، أمها خديجة بنت خويلد، واختلف في سنة ولادتها؛ فقيل: ولدت والكعبة تُبنى والنبيُّ ﷺ ابن خمس وثلاثين سنة، وقيل: ولدت سنة إحدى وأربعين من مولد النبيِّ ﷺ وكان مولدها قبل البعثة بقليل، وهي أسن من عائشة بنحو خمس سنين، تزوجها علي بن أبي طالب أوائل المحرم سنة اثنتين، وقيل: غير ذلك، وانقطع نسل رسول الله ﷺ إلا من فاطمة، ماتت بعد النبيِّ ﷺ بستة أشهر، وقيل: قبل ذلك.

● انظر: «الإصابة» (١١٥٨٧)، و«أسد الغابة» (٧١٨٤)، و«الاستيعاب» (٦٢٤).

تَغْسِلُ الدَّمَ، وَعَلِيُّ بْنُ أَبِي طَالِبٍ يَسْكُبُ الْمَاءَ بِالْمِجَنِّ؛ فَلَمَّا رَأَتْ فَاطِمَةُ أَنَّ الْمَاءَ لَا يَزِيدُ الدَّمَ إِلَّا كَثْرَةً أَخَذَتْ قِطْعَةَ حَصِيرٍ، فَأَحْرَقَتْهُ حَتَّى صَارَ رَمَادًا، ثُمَّ أَلْصَقَتْهُ بِالْجُرْحِ؛ فَاسْتَمْسَكَ الدَّمُ.

وَفِي رِوَايَةٍ(١): «وَجُرِحَ فِي وَجْهِهِ فِي ذَلِكَ الْيَوْمِ بِرَمْيَةٍ أَصَابَتْهُ، حَتَّى دَخَلَ بَعْضُ الْمِغْفَرِ فِي وَجْهِهِ، وَكُسِرَتِ الْبَيْضَةُ أَيْضًا عَلَى وَجْهِهِ بِرَأْسِهِ بِرَمْيَةٍ رَمَاهُ بِهَا بَعْضُ الْمُشْرِكِينَ».

وَانْتَشَرَ خَبَرُ قَتْلِهِ فِي الْمَيْدَانِ، بَعْدَ مَا انْتَقَلَتِ الدَّفَّةُ، وَكَانَتِ الدَّوْلَةُ أَوَّلَ النَّهَارِ لِلْمُسْلِمِينَ عَلَى الْكُفَّارِ، فَأَحَاطَ الْكُفَّارُ بِالْمُسْلِمِينَ، وَأَلْقَى بَعْضُ الصَّحَابَةِ السِّلَاحَ بِالْفِعْلِ، وَاسْتَسْلَمُوا لِلْمَوْتِ، وَقُتِلَ مَنْ قُتِلَ مِنَ الصَّحَابَةِ(٢)، وَمَرَّ أَنَسُ ابْنُ النَّضْرِ(٣) رضي الله عنه بِقَوْمٍ مِنَ الصَّحَابَةِ، فَوَجَدَهُمْ قَدْ أَلْقَوُا السِّلَاحَ؛ فَقَالَ: «مَا يُجْلِسُكُمْ؟ فَقَالُوا: قُتِلَ رَسُولُ اللهِ ﷺ! قَالَ: فَمَاذَا تَصْنَعُونَ بِالْحَيَاةِ بَعْدَهُ؟ قُومُوا فَمُوتُوا عَلَى مَا مَاتَ عَلَيْهِ رَسُولُ اللهِ ﷺ، ثُمَّ اسْتَقْبَلَ الْقَوْمَ، فَقَاتَلَ حَتَّى قُتِلَ»(٤)، كُلُّ ذَلِكَ؛ لِتَتَعَلَّمَ الْأُمَّةُ بَعْدَ الصَّحَابَةِ أَنَّ مُجَرَّدَ الْمُخَالَفَةِ لِأَمْرٍ وَاحِدٍ مِنْ

---

(١) عند ابن أبي شيبة في «المسند» (١١٩) **بسندٍ صحيح**، وورد نحوه عند الحاكم (٣/ ٢٧) عن عائشة بسندٍ فيه محمد بن إسحاق بن يحيى بن طلحة؛ قال الذهبيُّ في «التلخيص»: «ابن إسحاق متروك».

(٢) «زاد المعاد» (٣/ ١٩٦، ١٩٧).

(٣) هو أنس بن النضر بن ضمضم بن زيد بن حرام بن جندب بن عامر بن غنم بن عدي بن النجار الأنصاري الخزرجي، عمُّ أنس بن مالك خادم النبيِّ ﷺ، تغيب يوم بدر، وقتل يوم أحد شهيدًا، وهو ممن قضى نحبه، وجد به بضعًا وثمانين ما بين ضربة بسيف، أو طعنة برمح، أو رمية بسهم، وَمَثَّلَ به المشركون فما عرفته أخته الرُّبَيِّع بنت النضر إلا ببنانه؛ انظر: «الإصابة» (٢٨٣)، و«الاستيعاب» (٨٩)، و«أسد الغابة» (٢٦٣).

(٤) أخرجه ابن إسحاق في «السيرة» - [كما في «سيرة ابن هشام» ٣/ ٣٠] - ومن طريقه البيهقي في «الدلائل» (٣/ ٢٤٥).

وفي رواية «الصحيحين» البخاري (٤٠٤٨)، ومسلم (١٩٠٣) من حديث أنس قال =

أَوَامِرِ رَسُولِ الله ﷺ يَكُونُ سَبَبًا فِي الْهَزِيمَةِ.

أَنَا أَسْأَلُ وَأَقُولُ: كَيْفَ وَقَدْ خَالَفَتِ الْأُمَّةُ الْآنَ جُلَّ أَوَامِرِ رَسُولِ الله ﷺ؟ وَلِذَلِكَ لَمَّا قَالَ بَعْضُ الصَّحَابَةِ: كَيْفَ نُهْزَمُ وَقَائِدُ الْمَعْرَكَةِ رَسُولُ الله ﷺ؟! كَيْفَ نُهْزَمُ وَالْمُشْرِكُونَ هُمْ أَعْدَاؤُنَا؟ جَاءَ الْجَوَابُ مِنَ الله الْعَلِيمِ الْحَكِيمِ؛ فَقَالَ جَلَّ مِنْ قَائِلٍ: ﴿**أَوَلَمَّآ أَصَٰبَتۡكُم مُّصِيبَةٞ قَدۡ أَصَبۡتُم مِّثۡلَيۡهَا قُلۡتُمۡ أَنَّىٰ هَٰذَاۖ قُلۡ هُوَ مِنۡ عِندِ أَنفُسِكُمۡۗ إِنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيۡءٖ قَدِيرٞ**﴾ [آل عمران:١٦٥]؛ فَلَا يَنْبَغِي أَنْ تُعَلِّقَ الْأُمَّةُ أَخْطَاءَهَا عَلَى الْحُكَّامِ، وَلَا عَلَى الْعُلَمَاءِ، وَلَا عَلَى الْأَعْدَاءِ؛ بَلْ يَجِبُ عَلَى كُلِّ مُسْلِمٍ أَنْ يَنْظُرَ فِي تَقْصِيرِهِ مَعَ رَبِّهِ؛ فِي خَلَلِهِ هُوَ بَيْنَهُ وَبَيْنَ رَبِّهِ تَبَارَكَ وَتَعَالَى، وَلَا تَجْعَلْ - أَيُّهَا الْمُسْلِمُ - مِنْ غَيْرِكَ مِشْجَبًا؛ لِتُعَلِّقَ عَلَيْهِ أَخْطَاءَكَ، وَتَقْصِيرَكَ؛ فَمَا عَلَيْكَ إِلَّا أَنْ تَبْذُلَ مَا أُمِرْتَ بِهِ لِدِينِ الله، وَأَنْ تَدَعَ النَّتَائِجَ بَعْدَ ذَلِكَ لِلَّهِ تَبَارَكَ وَتَعَالَى؛ فَلَيْسَ أَحَدٌ أَغْيَرَ عَلَى الدِّينِ مِنَ الله، وَلَيْسَ أَحَدٌ أَغْيَرَ عَلَى الْمُسْلِمِينَ - مِمَّنْ تُسْفَكُ دِمَاؤُهُمْ، وَتُمَزَّقُ أَشْلَاؤُهُمْ - مِنْ رَبِّهِمْ تَبَارَكَ وَتَعَالَى.

وَهَكَذَا تَوَالَتِ الْمَعَارِكُ وَالْغَزَوَاتُ، وَعَاشَ النَّبِيُّ ﷺ فِي الْمَدِينَةِ عَشْرَ سَنَوَاتٍ فِي جِهَادٍ يُبَلِّغُ دِينَ الله تَبَارَكَ وَتَعَالَى، وَيُرْسِلُ كُتُبَهُ إِلَى الْمُلُوكِ، وَالزُّعَمَاءِ، وَإِلَى الْحُكَّامِ وَالرُّؤَسَاءِ (١)، حَتَّى عَادَ مَرَّةً أُخْرَى إِلَى مَكَّةَ فَاتِحًا (٢)،

= عمِّه حين هُزم الناسُ يوم أحدٍ: «اللَّهُمَّ إِنِّي أَعْتَذِرُ إِلَيْكَ مِمَّا صَنَعَ هَؤُلَاءِ - يَعْنِي الْمُسْلِمِينَ - وَأَبْرَأُ إِلَيْكَ مِمَّا جَاءَ بِهِ الْمُشْرِكُونَ..».

(١) راجع: «صحيح مسلم» (١٧٧٣، ١٧٧٤)؛ وانظر: «صحيح السيرة النبوية» لإبراهيم العلي (المبحث الرابع عشر: كتب الرسول إلى الملوك والزعماء ٣٧٩- ٣٨٥)، وسيأتي لذلك مبحثٌ خاصٌّ في نهاية الرسالة.

(٢) وقد كانت غزوة الفتح في السنة الثامنة للهجرة في شهر رمضان؛ روي البخاريُّ (٤٢٧٥) عن ابن عباس قال: «غزا رسول الله ﷺ غزوة الفتح في رمضان»؛ **قال في «الفتح»** (٤/ ٢١٤): «والذي اتفق عليه أهل السير أنه خرج في عاشر رمضان، ودخل مكة لتسع عشرة ليلة خلت منه»؛ وراجع: «البداية والنهاية» (٤/ ٢٧٧)، و «دلائل =

وَوَقَفَ بَعْدَ ذَلِكَ بَيْنَ أَصْحَابِهِ - رِضْوَانُ اللهِ عَلَيْهِمْ -؛ لِيُعَلِّمَهُمْ مَناسِكَ الْحَجِّ فِي حَجَّةِ الْوَدَاعِ، وَكَانَتْ فِي السَّنَةِ الْعَاشِرَةِ مِنَ الْهِجْرَةِ فِي شَهْرِ ذِي الْحِجَّةِ، وَقَدْ وَضَعَ الْحَافِظُ ابْنُ كَثِيرٍ فِي كِتَابِهِ الْعَظِيمِ: «الْبِدَايَةِ وَالنِّهَايَةِ» كِتَابًا قَالَ فِيهِ: «كِتَابُ حَجَّةِ الْوَدَاعِ فِي سَنَةِ عَشْرٍ، وَيُقَالُ لَهَا: حَجَّةُ الْبَلَاغِ، وَحَجَّةُ الْإِسْلَامِ، وَحَجَّةُ الْوَدَاعِ؛ لِأَنَّهُ - عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ - وَدَّعَ النَّاسَ فِيهَا، وَلَمْ يَحُجَّ بَعْدَهَا، **وَسُمِّيَتْ حَجَّةَ الْإِسْلَامِ**؛ لِأَنَّهُ ﷺ لَمْ يَحُجَّ مِنَ الْمَدِينَةِ غَيْرَهَا، وَلَكِنْ حَجَّ قَبْلَ الْهِجْرَةِ مَرَّاتٍ قَبْلَ النُّبُوَّةِ وَبَعْدَهَا.

وَسُمِّيت حَجَّةَ الْبَلَاغِ؛ لِأَنَّهُ ﷺ بَلَّغَ النَّاسَ شَرْعَ اللهِ فِي الْحَجِّ قَوْلًا وَفِعْلًا، وَلَمْ يَكُنْ بَقِيَ مِنْ دَعَائِمِ الْإِسْلَامِ وَقَوَاعِدِهِ شَيْءٌ إِلَّا وَقَدْ بَيَّنَهُ ﷺ؛ فَلَمَّا بَيَّنَ لَهُمْ شَرِيعَةَ الْحَجِّ وَوَضَّحَهُ وَشَرَحَهُ أَنْزَلَ اللهُ ﷻ عَلَيْهِ وَهُوَ وَاقِفٌ بِعَرَفَةَ: ﴿ٱلْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي وَرَضِيتُ لَكُمُ ٱلْإِسْلَامَ دِينًا﴾ [المائدة:٣]»(١).

فَفِي «صَحِيح مُسْلِم»(٢) مِنْ حَدِيثِ جَابِرٍ رضي الله عنه قَالَ: رَأَيْتُ النَّبِيَّ ﷺ يَرْمِي عَلَى رَاحِلَتِهِ يَوْمَ النَّحْرِ، وَيَقُولُ: «**لِتَأْخُذُوا مَنَاسِكَكُمْ، فَإِنِّي لَا أَدْرِي لَعَلِّي لَا أَحُجُّ بَعْدَ حَجَّتِي هَذِهِ**».

وَفِي «**الصَّحِيحَيْنِ**»(٣) مِنْ حَدِيثِ عُمَرَ بْنِ الْخَطَّابِ رضي الله عنه : «أَنَّ رَجُلاً مِنَ الْيَهُودِ قَالَ لَهُ: يَا أَمِيرَ الْمُؤْمِنِينَ، آيَةٌ فِي كِتَابِكُمْ تَقْرَءُونَهَا لَوْ عَلَيْنَا مَعْشَرَ الْيَهُودِ نَزَلَتْ لَاتَّخَذْنَا ذَلِكَ الْيَوْمَ عِيدًا، قَالَ: أَيُّ آيَةٍ؟ قَالَ: «﴿ٱلْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ

=

النبوة» للإمام البيهقي (٥/ ٥ وما بعدها).

(١) «البداية والنهاية» (٥/ ٩٩)؛ وراجع: «سيرة ابن هشام» (٤/ ١٥٢).

(٢) أخرجه مسلمٌ، كتاب الحج، باب استحباب رمي جمرة العقبة يوم النحر راكبًا (١٢٩٧).

(٣) أخرجه البخاريُّ، كتاب الإيمان، باب زيادة الإيمان ونقصانه (٤٥)، ومسلمٌ، كتاب التفسير، باب (٥٤) (٣٠١٧).

وَأَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي وَرَضِيتُ لَكُمُ ٱلْإِسْلَٰمَ دِينًا﴾ [المائدة:٣]، قَالَ عُمَرُ: قَدْ عَرَفْنَا ذَلِكَ الْيَوْمَ، وَالْمَكَانَ الَّذِي نَزَلَتْ فِيهِ عَلَى النَّبِيِّ ﷺ وَهُوَ قَائِمٌ بِعَرَفَةَ يَوْمَ جُمُعَةٍ».

وَأَظْهَرَ اللهُ دِينَهُ، وَنَصَرَ اللهُ عَبْدَهُ وَرَسُولَهُ؛ قَالَ - جَلَّ وَعَلَا: ﴿يُرِيدُونَ لِيُطْفِـُٔواْ نُورَ ٱللَّهِ بِأَفْوَٰهِهِمْ وَٱللَّهُ مُتِمُّ نُورِهِۦ وَلَوْ كَرِهَ ٱلْكَٰفِرُونَ ۝٨ هُوَ ٱلَّذِىٓ أَرْسَلَ رَسُولَهُۥ بِٱلْهُدَىٰ وَدِينِ ٱلْحَقِّ لِيُظْهِرَهُۥ عَلَى ٱلدِّينِ كُلِّهِۦ وَلَوْ كَرِهَ ٱلْمُشْرِكُونَ﴾ [الصف:٨، ٩]، وَيَعُودُ النَّبِيُّ ﷺ مَرَّةً أُخْرَى إِلَى الْمَدِينَةِ(١).

وَقَدْ نَزَلَ عَلَيْهِ قَبْلَ ذَلِكَ قَوْلُ اللهِ تَبَارَكَ وَتَعَالَى: ﴿إِذَا جَآءَ نَصْرُ ٱللَّهِ وَٱلْفَتْحُ ۝١ وَرَأَيْتَ ٱلنَّاسَ يَدْخُلُونَ فِى دِينِ ٱللَّهِ أَفْوَاجًا ۝٢ فَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ وَٱسْتَغْفِرْهُ ۚ إِنَّهُۥ كَانَ تَوَّابًۢا﴾ [النصر:١-٤]، وَهَذِهِ السُّورَةُ مِنْ أَوَاخِرِ مَا نَزَلَ عَلَى رَسُولِ اللهِ ﷺ؛ كَمَا فِي «**صَحِيحِ مُسْلِمٍ**»(٢)؛ مِنْ حَدِيثِ عُبَيْدِ اللهِ بْنِ عُتْبَةَ (٣) قَالَ لِي ابْنُ عَبَّاسٍ رضي الله عنهما: «تَعْلَمُ آخِرَ سُورَةٍ نَزَلَتْ مِنَ الْقُرْآنِ نَزَلَتْ

---

(١) وبها تُوفِّي رسول الله ﷺ؛ روى البخاريُّ في «صحيحه»، كتاب مناقب الأنصار، باب مبعث النبيِّ ﷺ (٣٨٥١) عن ابن عباس رضي الله عنهما قال: «أنزل علَى رسول الله ﷺ وهو ابن أربعين، فمكث ثلاث عشرة سنة، ثم أُمر بالهجرة فهاجر إلى المدينة، فمكث بها عشر سنين، ثم تُوفِّي رسولُ الله ﷺ».
قال الحافظ في «الفتح» (٧/ ٢٠٢): «قوله: فمكث بمكة عشرة سنة»، أصحُّ مما رواه مسلمٌ (٢٣٥٣) من طريق عمار بن أبي عمار عن ابن عباس أن النبيَّ ﷺ أقام بمكة خمس عشرة سنة» ا. هـ.

(٢) أخرجه مسلمٌ، كتاب التفسير (٣٠٢٤).

(٣) هو عبيد الله بن عبد الله بن عتبة، الإمام الفقيه مفتي المدينة وعالمها، وأحد الفقهاء السبعة، أبو عبد الله الهذلي، المدني الأعمى، وهو أخو المحدث عون وجدهما عتبة هو: أخو عبد الله بن مسعود، ولد في خلافة عمر أو بعيدها، كان ثقة كثير الحديث والعلم، رجل صالح من سادات التابعين؛ قال أبو جعفر الطبري: كان مقدمًا في العلم والمعرفة بالأحكام والحلال والحرام، مات سنة أربع أو خمس وتسعين، وقيل: ثمان وتسعين، وقيل: سنة تسع وتسعين؛ راجع: «سير أعلام النبلاء» (٦٨٣)، و«تهذيب
=

جَمِيعًا؟ قُلْتُ: نَعَمْ، ﴿إِذَا جَآءَ نَصْرُ ٱللَّهِ وَٱلْفَتْحُ﴾ قَالَ: صَدَقْتَ».

وَفِي «صَحِيحِ الْبُخَارِيِّ»[(١)] مِنْ حَدِيثِ ابْنِ عَبَّاسٍ أَنَّ عُمَرَ رضي الله عنه سَأَلَهُمْ عَنْ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿إِذَا جَآءَ نَصْرُ ٱللَّهِ وَٱلْفَتْحُ﴾؟ قَالُوا: فَتْحُ الْمَدَائِنِ وَالْقُصُورِ، قَالَ: مَا تَقُولُ يَا ابْنَ عَبَّاسٍ؟ قَالَ: أَجَلٌ، أَوْ مَثَلٌ ضُرِبَ لِمُحَمَّدٍ ﷺ، نُعِيَتْ لَهُ نَفْسُهُ».

وَرَوَى الْبُخَارِيُّ فِي «صَحِيحِهِ» [(٢)] مِنْ حَدِيثِ ابْنِ عَبَّاسٍ رضي الله عنهما قَالَ: «كَانَ عُمَرُ يُدْخِلُنِي مَعَ أَشْيَاخِ بَدْرٍ، فَكَأَنَّ بَعْضَهُمْ وَجَدَ فِي نَفْسِهِ فَقَالَ: لِمَ تُدْخِلُ هَذَا مَعَنَا وَلَنَا أَبْنَاءٌ مِثْلُهُ؟ فَقَالَ عُمَرُ: إِنَّهُ مِنْ حَيْثُ عَلِمْتُمْ، فَدَعَاهُ ذَاتَ يَوْمٍ فَأَدْخَلَهُ مَعَهُمْ، فَمَا رُئِيتُ أَنَّهُ دَعَانِي يَوْمَئِذٍ إِلَّا لِيُرِيَهُمْ، قَالَ: مَا تَقُولُونَ فِي قَوْلِ اللهِ تَعَالَى: ﴿إِذَا جَآءَ نَصْرُ ٱللَّهِ وَٱلْفَتْحُ﴾؟ فَقَالَ بَعْضُهُمْ: أُمِرْنَا نَحْمَدُ اللهَ وَنَسْتَغْفِرُهُ إِذَا نُصِرْنَا، وَفُتِحَ عَلَيْنَا، وَسَكَتَ بَعْضُهُمْ فَلَمْ يَقُلْ شَيْئًا، فَقَالَ لِي: أَكَذَاكَ تَقُولُ يَا ابْنَ عَبَّاسٍ؟ فَقُلْتُ: لَا، قَالَ: فَمَا تَقُولُ؟ قُلْتُ: هُوَ أَجَلُ رَسُولِ اللهِ ﷺ أَعْلَمَهُ لَهُ قَالَ: ﴿إِذَا جَآءَ نَصْرُ ٱللَّهِ وَٱلْفَتْحُ﴾ - وَذَلِكَ عَلَامَةُ أَجَلِكَ - ﴿فَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ وَٱسْتَغْفِرْهُ ۚ إِنَّهُۥ كَانَ تَوَّابًۢا﴾ فَقَالَ عُمَرُ: مَا أَعْلَمُ مِنْهَا إِلَّا مَا تَقُولُ».

وَقَدْ بَوَّبَ الْبَيْهَقِيُّ فِي «الدَّلَائِلِ»[(٣)] بَابًا بِعُنْوَانِ: «بَابُ مَا جَاءَ فِي نَعْيِ النَّبِيِّ ﷺ نَفْسَهُ إِلَى النَّاسِ فِي حَجَّةِ الْوَدَاعِ، وَذَلِكَ حِينَ نَزَلَ عَلَيْهِ قَوْلُهُ عز وجل: ﴿إِذَا

= التهذيب» (٧/ ٢٣-٢٤).

(١) أخرجه البخاريُّ، كتاب التفسير، باب قوله: ﴿وَرَأَيْتَ ٱلنَّاسَ يَدْخُلُونَ فِى دِينِ ٱللَّهِ أَفْوَاجًا﴾ (٤٩٦٩).

(٢) أخرجه البخاريُّ، كتاب التفسير، باب قوله: ﴿فَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ وَٱسْتَغْفِرْهُ ۚ إِنَّهُۥ كَانَ تَوَّابًۢا﴾ (٤٩٧٠).

(٣) «دلائل البيهقي»(٥/ ٤٤٥).

جَاءَ نَصْرُ اللَّهِ وَالْفَتْحُ ﴾ إِلَى آخِرِ السُّورَةِ، ثُمَّ سَاقَ الْحَدِيثَ السَّابِقَ»، ثُمَّ أَوْرَدَ رِوَايَةً أُخْرَى تُفِيدُ أَنَّهَا نَزَلَتْ فِي حَجَّةِ الْوَدَاعِ، ثُمَّ قَالَ (١): «كَذَا فِي هَذِهِ الرِّوَايَةِ، وَيُذْكَرُ عَنْ أَبِي سَعِيدٍ (٢) مَا يَدُلُّ عَلَى أَنَّهَا نَزَلَتْ عَامَ الْفَتْحِ، وَاللهُ أَعْلَمُ».

نَعَمْ؛ يَمْرَضُ النَّبِيُّ ﷺ، وَتَشْتَدُّ عَلَيْهِ الْحُمَّى؛ حَتَّى قَالَ لَهُ ابْنُ مَسْعُودٍ رضي الله عنه؛ كَمَا فِي «الصَّحِيحَيْنِ»(٣): أَتَيْتُ النَّبِيَّ ﷺ فِي مَرَضِهِ - وَهُوَ يُوعَكُ وَعْكًا شَدِيدًا - وَقُلْتُ: إِنَّكَ لَتُوعَكُ وَعْكًا شَدِيدًا!! قُلْتُ: إِنَّ ذَاكَ بِأَنَّ لَكَ أَجْرَيْنِ؟ قَالَ: «**أَجَلْ؛ مَا مِنْ مُسْلِمٍ يُصِيبُهُ أَذًى إِلَّا حَاتَّ اللهُ عَنْهُ خَطَايَاهُ كَمَا تَحَاتُّ وَرَقُ الشَّجَرِ**».

وَيَشْتَدُّ الْأَلَمُ عَلَى النَّبِيِّ ﷺ؛ فَيَعْصِبُ النَّبِيُّ ﷺ رَأْسَهُ (٤)، وَيَتَّكِئُ عَلَى رَجُلَيْنِ مِنَ الصَّحَابَةِ: الْعَبَّاسِ وَعَلِيٍّ - رِضْوَانُ اللهِ عَلَيْهِمَا (٥) - وَيَصْعَدُ عليه السلام؛ لِيَرْتَقِيَ الْمِنْبَرَ فِي أَيَّامِهِ الْأَخِيرَةِ؛ فَيَحْمَدُ اللهَ، وَيُثْنِي عَلَيْهِ؛ ثُمَّ يَقُولُ: «**إِنَّ اللهَ خَيَّرَ عَبْدًا بَيْنَ الدُّنْيَا وَبَيْنَ مَا عِنْدَهُ، فَاخْتَارَ مَا عِنْدَ اللهِ**»؛ فَبَكَى أَبُو بَكْرٍ الصِّدِّيقُ رضي الله عنه؛ فَقُلْتُ فِي نَفْسِي: مَا يُبْكِي هَذَا الشَّيْخَ إِنْ يَكُنِ اللهُ خَيَّرَ عَبْدًا بَيْنَ الدُّنْيَا وَبَيْنَ مَا عِنْدَهُ فَاخْتَارَ مَا عِنْدَ اللهِ؛ فَكَانَ رَسُولُ اللهِ ﷺ هُوَ الْعَبْدَ، وَكَانَ أَبُو بَكْرٍ أَعْلَمَنَا،

---

(١) في «الدلائل»(٥/ ٤٤٧)، وفي سندها موسى بن عبيدة الربذي، وهو ضعيف.

(٢) هو سعد بن مالك بن شيبان بن عبيد بن ثعلبة بن الأبجر الأنصاري الخزرجي، أبو سعيد الخدري، وهو مشهور بكنيته، من مشهوري الصحابة وفضلائهم، وهو من المكثرين من الرواية، أول مشاهده الخندق، وغزا مع رسول الله ﷺ اثنتي عشرة غزوة، وكان من نجباء الأنصار وعلمائهم، توفي سنة أربع وسبعين، وقيل: أربع وستين، وقيل: ثلاث وستين، وقيل: خمس وستين.

● راجع: «الاستيعاب» (٩٥٥)، و«أسد الغابة» (٢٠٣٧)، و«الإصابة» (٣١٩٨).

(٣) أخرجه البخاريُّ، كتاب المرضى، باب شدة المرض (٥٦٤٧)، ومسلمٌ، كتاب البر والصلة والآداب، باب ثواب المؤمن فيما يصيبه من مرض (٢٥٧١).

(٤) كما عند البخاريِّ، كتاب المرضى، باب الخوخة والممر في المسجد (٤٦٧).

(٥) كما عند البخاريِّ، كتاب المرض، باب شدة المرض (٤٤٤٢)، ومسلم، كتاب الصلاة، باب استخلاف الإمام إذا عرض له عذر من مرض وسفر (٤١٨/ ٩١).

قَالَ: «يَا أَبَا بَكْرٍ لاَ تَبْكِ إِنَّ أَمَنَّ النَّاسِ عَلَيَّ فِي صُحْبَتِهِ وَمَالِهِ أَبُو بَكْرٍ، وَلَوْ كُنْتُ مُتَّخِذًا خَلِيلًا مِنْ أُمَّتِي لاَتَّخَذْتُ أَبَا بَكْرٍ، وَلَكِنْ أُخُوَّةُ الإِسْلاَمِ وَمَوَدَّتُهُ، لَا يَبْقَيَنَّ فِي الْمَسْجِدِ بَابٌ إِلَّا سُدَّ إِلَّا بَابُ أَبِي بَكْرٍ» (١).

وَنَزَلَ النَّبِيُّ ﷺ مِنْ عَلَى الْمِنْبَرِ وَثُقِلَ بِهِ، وَاشْتَدَّ بِهِ الْأَلَمُ وَالْوَجَعُ، وَاسْتَأْذَنَ نِسَاءَهُ أَنْ يُمَرَّضَ فِي بَيْتِ أُمِّ عَبْدِ اللهِ أُمِّ الْمُؤْمِنِينَ عَائِشَةَ رضي الله عنها كَمَا فِي «الصَّحِيحَيْنِ» (٢) عَنْ عَائِشَةَ قَالَتْ: «لَمَّا ثَقُلَ رَسُولُ ﷺ وَاشْتَدَّ بِهِ وَجَعُهُ، اسْتَأْذَنَ أَزْوَاجَهُ أَنْ يُمَرَّضَ فِي بَيْتِي فَأَذِنَّ لَهُ».

وَفِي الْيَوْمِ الْمَوْعُودِ يَوْمِ الاِثْنَيْنِ الثَّانِي عَشَرَ مِنْ شَهْرِ رَبِيعِ الْأَوَّلِ، فِي الْعَامِ الْحَادِي عَشَرَ مِنَ الْهِجْرَةِ (٣)، يَنَامُ ﷺ عَلَى صَدْرِهَا، وَيَأْتِيهِ مَلَكُ الْمَوْتِ؛ لِيُخَيِّرَهُ بَيْنَ الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ، فَيَخْتَارُ النَّبِيُّ ﷺ لِقَاءَ اللهِ تَعَالَى؛ فَفِي «الصَّحِيحَيْنِ» (٤) عَنْ عَائِشَةَ رضي الله عنها قَالَتْ: كُنْتُ أَسْمَعُ أَنَّهُ لَا يَمُوتُ نَبِيٌّ حَتَّى يُخَيَّرَ بَيْنَ الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ؛ فَسَمِعَتِ النَّبِيَّ ﷺ يَقُولُ فِي مَرَضِهِ الَّذِي مَاتَ فِيهِ - وَأَخَذَتْهُ بُحَّةٌ - يَقُولُ: «﴿مَعَ ٱلَّذِينَ أَنْعَمَ ٱللَّهُ عَلَيْهِم مِّنَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ وَٱلصِّدِّيقِينَ وَٱلشُّهَدَآءِ وَٱلصَّـٰلِحِينَ ۚ وَحَسُنَ أُو۟لَـٰٓئِكَ رَفِيقًا﴾ [النساء:٦٩]، فَظَنَنْتُ أَنَّهُ خُيِّرَ».

---

(١) أخرجه البخاريُّ، كتاب الصلاة، باب الخوخة والممر في المسجد(٤٦٦)، ومسلمٌ، كتاب فضائل الصحابة رضي الله عنهم، باب من فضائل أبي بكر الصديق رضي الله عنه (٢٣٨٢) عن أبي سعيد رضي الله عنه.

(٢) تقدم تخريجه.

(٣) قال الحافظ ابن حجر في «الفتح» (٧/ ٧٣٦): «وكانت وفاته يوم الاثنين بلا خلافٍ من ربيع الأول، وكاد يكون إجماعًا.. والجمهور أنها في الثاني عشر منه»؛ وراجع: «البداية والنهاية» (٥/ ٢٢٣، ٢٢٤)،وانظر: «صحيح البخاري» كتاب الجنائز، باب موت يوم الاثنين (١٣٨٧).

(٤) أخرجه البخاريُّ، كتاب المغازي، باب مرض النبي ﷺ ووفاته (٤٤٣٥)، ومسلمٌ، كتاب فضائل الصحابة، باب في فضل عائشة رضي الله عنها (٢٤٤٤/ ٨٦).

وَفِي «**الصَّحِيحَيْنِ**»(١) مِنْ حَدِيثِ عَائِشَةَ رضي الله عنها أَنَّهَا سَمِعَتْ رَسُولَ الله ﷺ يَقُولُ قَبْلَ أَنْ يَمُوتَ: وَهُوَ مُسْنَدٌ إِلَى صَدْرِهَا، وَأَصْغَتْ إِلَيْهِ، وَهُوَ يَقُولُ: «**اللهمَّ! اغْفِرْ لِي وَارْحَمْنِي، وَأَلْحِقْنِي بِالرَّفِيقِ**».

وَفِي «**الصَّحِيحَيْنِ**»(٢) مِنْ حَدِيثِ عَائِشَةَ رضي الله عنها قَالَتْ: كَانَ رَسُولُ الله ﷺ وَهُوَ صَحِيحٌ يَقُولُ: «**إِنَّهُ لَمْ يُقْبَضْ نَبِيٌّ قَطُّ حَتَّى يَرَى مَقْعَدَهُ مِنَ الْجَنَّة ثُمَّ يُحَيَّا أَوْ يُخَيَّرَ**» فَلَمَّا اشْتكَى وَحَضَرَهُ الْقَبْضُ وَرَأْسُهُ عَلَى فَخِذِ عَائِشَةَ، غُشِيَ عَلَيْهِ، فَلَمَّا أَفَاقَ شَخَصَ بَصَرُهُ نَحْوَ سَقْفِ الْبَيْتِ، ثُمَّ قَالَ: «**اللهمَّ فِي الرَّفِيقِ الأَعْلَى**» فَقُلْتُ: إِذًا لاَ يَخْتَارُنَا، فَعَرَفْتُ أَنَّهُ حَدِيثُهُ الَّذِي كَانَ يُحَدِّثُنَا وَهُوَ صَحِيحٌ.

وَفِي «**صَحِيح الْبُخَارِيِّ**»(٣) مِنْ حَدِيثِ عَائِشَةَ رضي الله عنها قَالَتْ: «دَخَلَ عَبْدُ الرَّحْمَنِ بْنُ أَبِي بَكْرٍ(٤)، وَمَعَهُ سِوَاكٌ يَسْتَنُّ بِهِ، فَنَظَرَ إِلَيْهِ رَسُولُ الله ﷺ، فَقُلْتُ لَهُ: أَعْطِنِي هَذَا السِّوَاكَ يَا عَبْدَ الرَّحْمَنِ، فَأَعْطَانِيهِ، فَقَصَمْتُهُ، ثُمَّ مَضَغْتُهُ، فَأَعْطَيْتُهُ رَسُولَ الله ﷺ فَاسْتَنَّ بِهِ، وَهُوَ مُسْتَنِدٌ إِلَى صَدْرِي».

وَفِي رِوَايَةٍ (٥): قَالَتْ عَائِشَةُ رضي الله عنها: إِنَّ مِنْ نِعَمِ الله عَلَيَّ أَنَّ رَسُولَ الله ﷺ

---

(١) أخرجه البخاريُّ، كتاب المغازي، باب مرض النبي ﷺ ووفاته (٤٤٤٠)، ومسلمٌ، كتاب فضائل الصحابة، باب في فضل عائشة رضي الله عنها (٢٤٤٤) واللفظُ لمسلم.

(٢) أخرجه البخاريُّ، كتاب المغازي، باب مرض النبي ﷺ ووفاته (٤٤٣٧)، ومسلمٌ، كتاب فضائل الصحابة، باب في فضل عائشة رضي الله عنها (٢٤٤٤/ ٨٧).

(٣) أخرجه البخاريُّ، كتاب الجمعة، باب من تسوك بسواك غيره (٨٩٠).

(٤) هو عبد الرحمن بن عبد الله بن عثمان بن أبي قحافة القرشي التيمي، ابن أبي بكر الصديق، يكنى أبا عبد الله، وقيل: أبو محمد، وكان شقيق عائشة وأكبر أبناء أبي بكر، شهد بدرًا وأحدًا مع الكفار، وكان شجاعًا راميًا حسن الرمي، وأسلم في هدنة الحديبية وحسن إسلامه، قال أبو عمر: وشهد الجمل مع أخته عائشة، وكانت وفاته سنة ثلاث وخمسين، وقيل: خمس وخمسين بمكة، والأول أكثر، وقيل غير ذلك.

● راجع: «الاستيعاب» (١٣٩٤)، و«أسد الغابة» (٣٣٤٤)، و«الإصابة» (٥١٥٥).

(٥) عند البخاريِّ، كتاب المغازي، باب مرض النبيِّ ﷺ ووفاته (٤٤٤٩).

تُوُفِّيَ فِي بَيْتِي، وَفِي يَوْمِي، وَبَيْنَ سَحْرِي وَنَحْرِي، وَأَنَّ اللهَ جَمَعَ بَيْنَ رِيقِي وَرِيقِهِ عِنْدَ مَوْتِهِ: دَخَلَ عَلَيَّ عَبْدُ الرَّحْمَنِ وَبِيَدِهِ السِّوَاكُ، وَأَنَا مُسْنِدَةٌ رَسُولَ اللهِ ﷺ فَرَأَيْتُهُ يَنْظُرُ إِلَيْهِ، وَعَرَفْتُ أَنَّهُ يُحِبُّ السِّوَاكَ، فَقُلْتُ: آخُذُهُ لَكَ؟ فَأَشَارَ بِرَأْسِهِ «**أَنْ نَعَمْ**»، فَتَنَاوَلْتُهُ فَاشْتَدَّ عَلَيْهِ، وَقُلْتُ: أُلَيِّنُهُ لَكَ؟ فَأَشَارَ بِرَأْسِهِ «**أَنْ نَعَمْ**» فَلَيَّنْتُهُ فَأَمَرَّهُ، وَبَيْنَ يَدَيْهِ رَكْوَةٌ - أَوْ عُلْبَةٌ يَشُكُّ عُمَرُ - فِيهَا مَاءٌ، فَجَعَلَ يُدْخِلُ يَدَيْهِ فِي الْمَاءِ فَيَمْسَحُ بِهِمَا وَجْهَهُ يَقُولُ: «**لَا إِلَهَ إِلَّا اللهُ، إِنَّ لِلْمَوْتِ سَكَرَاتٍ**» ثُمَّ نَصَبَ يَدَهُ فَجَعَلَ يَقُولُ: «**فِي الرَّفِيقِ الْأَعْلَى**» حَتَّى قُبِضَ، وَمَالَتْ يَدُهُ.

سَقَطَتْ يَدُهُ الشَّرِيفَةُ ﷺ، وَخَرَجَتْ عَائِشَةُ رضي الله عنها تَبْكِي، وَضَجَّ الصَّحَابَةُ، فَبَكَوْا بُكَاءً شَدِيدًا، وَطَاشَتْ عُقُولُهُمْ، وَفَقَدُوا صَوَابَهُمْ؛ مِنْهُمْ مَنْ أُقْعِدَ [(١)]؛ وَمِنْهُمْ مَنْ أُخْرِسَ لِسَانُهُ؛ وَمِنْهُمْ مَنْ فَقَدَ كُلَّ شَيْءٍ، لَا يَعْرِفُ شَيْئًا؛ يُؤْخَذُ فَيُؤْتَى بِهِ وَيُنْصَرَفُ بِهِ، وَهُوَ لَا يَدْرِي، وَضَجَّ النَّاسُ حَوْلَ مَسْجِدِ رَسُولِ اللهِ ﷺ؛ حَتَّى جَاءَ الصِّدِّيقُ مِنْ مَنْزِلِهِ بِالسُّنْحِ، وَقَدْ أَنْزَلَ اللهُ عَلَى قَلْبِهِ السَّكِينَةَ وَالثَّبَاتَ، وَشَقَّ هَذِهِ الْجُمُوعَ الْمُلْتَهِبَةَ، وَدَخَلَ حُجْرَةَ عَائِشَةَ، وَوَجَدَ أَنَّ الْخَبَرَ بِالْفِعْلِ قَدْ تَحَقَّقَ، وَأَنَّ الْمُصِيبَةَ قَدْ وَقَعَتْ، فَرَسُولُ اللهِ ﷺ لَا يَسْتَقْبِلُهُ الْيَوْمَ، وَوَجَدَ رَسُولَ اللهِ ﷺ مُسَجًّى؛ فَجَلَسَ الصِّدِّيقُ عِنْدَ رَأْسِهِ، وَبَرَكَ عَلَى رُكْبَتَيْهِ، وَكَشَفَ الْغِطَاءَ عَنْ وَجْهِهِ الْأَزْهَرِ الْأَنْوَرِ؛ فَقَبَّلَهُ وَبَكَى؛ فَفِي «**صَحِيحِ الْبُخَارِيِّ**»[(٢)] مِنْ حَدِيثِ عَائِشَةَ رضي الله عنها أَنَّ أَبَا بَكْرٍ أَقْبَلَ عَلَى فَرَسٍ مِنْ مَسْكَنِهِ بِالسُّنْحِ حَتَّى نَزَلَ، فَدَخَلَ الْمَسْجِدَ، فَلَمْ يُكَلِّمِ النَّاسَ حَتَّى دَخَلَ عَلَى عَائِشَةَ، فَتَيَمَّمَ رَسُولَ اللهِ ﷺ، وَهُوَ مُغَشًّى بِثَوْبِ حِبَرَةٍ، فَكَشَفَ عَنْ وَجْهِهِ، ثُمَّ أَكَبَّ عَلَيْهِ فَقَبَّلَهُ وَبَكَى، ثُمَّ قَالَ: بِأَبِي أَنْتَ وَأُمِّي، وَاللهِ لَا يَجْمَعُ اللهُ عَلَيْكَ مَوْتَتَيْنِ، أَمَّا الْمَوْتَةُ الَّتِي كُتِبَتْ عَلَيْكَ فَقَدْ مُتَّهَا».

وَنَادَى عَلَى رَسُولِ اللهِ ﷺ بَعْدَمَا قَبَّلَ جَبْهَتَهُ، وَقَالَ: وَا نَبِيَّاهْ، ثُمَّ رَفَعَ رَأْسَهُ،

---

(١) قال عمر رضي الله عنه: «فعقرت حتى ما تقلني رجلاي، وحتى أهويت إلى الأرض»؛ انظر: «صحيح البخاري»، كتاب المغازي، باب مرض النبي ﷺ ووفاته (٤٤٥٤).

(٢) أخرجه البخاريُّ، كتاب المغازي، باب مرض النبيِّ ﷺ ووفاته (٤٤٥٢، ٤٤٥٣).

ثُمَّ حَدَرَ فَاهُ وَقَبَّلَ جَبْهَتَهُ، ثُمَّ قَالَ: وَا صَفِيَّاهْ، ثُمَّ رَفَعَ رَأْسَهُ وَحَدَرَ فَاهُ وَقَبَّلَ جَبْهَتَهُ وَقَالَ: وَا خَلِيلاَهْ، مَاتَ رَسُولُ الله ﷺ (١).

وَفِي «صَحِيحِ الْبُخَارِيِّ»(٢) مِنْ حَدِيثِ عَائِشَةَ رضي الله عنها زَوْجِ النَّبِيِّ ﷺ أَنَّ رَسُولَ الله ﷺ مَاتَ، وَأَبُو بَكْرٍ بِالسُّنْحِ - قَالَ إِسْمَاعِيلُ يَعْنِي: بِالْعَالِيَةِ - فَقَامَ عُمَرُ يَقُولُ: وَالله مَا مَاتَ رَسُولُ الله ﷺ، قَالَتْ: وَقَالَ عُمَرُ: وَالله مَا كَانَ يَقَعُ فِي نَفْسِي إِلَّا ذَاكَ، وَلَيَبْعَثَنَّهُ الله، فَيَقْطَعَنَّ أَيْدِيَ رِجَالٍ وَأَرْجُلَهُمْ، فَجَاءَ أَبُو بَكْرٍ فَكَشَفَ عَنْ رَسُولِ الله ﷺ فَقَبَّلَهُ، وَقَالَ: «بِأَبِي أَنْتَ وَأُمِّي طِبْتَ حَيًّا وَمَيِّتًا، وَالَّذِي نَفْسِي بِيَدِهِ لاَ يُذِيقُكَ الله الْمَوْتَتَيْنِ أَبَدًا، ثُمَّ خَرَجَ فَقَالَ: أَيُّهَا الْحَالِفُ عَلَى رِسْلِكَ، فَلَمَّا تَكَلَّمَ أَبُو بَكْرٍ جَلَسَ عُمَرُ؛ فَحَمِدَ الله وَأَثْنَى عَلَيْهِ، وَقَالَ: أَلاَ مَنْ كَانَ يَعْبُدُ مُحَمَّدًا ﷺ فَإِنَّ مُحَمَّدًا قَدْ مَاتَ، وَمَنْ كَانَ يَعْبُدُ الله، فَإِنَّ الله حَيٌّ لاَ يَمُوتُ، وَقَالَ: ﴿إِنَّكَ مَيِّتٌ وَإِنَّهُم مَّيِّتُونَ﴾ [الزمر:٣٠]، وَقَالَ: ﴿وَمَا مُحَمَّدٌ إِلَّا رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِهِ ٱلرُّسُلُ أَفَإِيْن مَّاتَ أَوْ قُتِلَ ٱنقَلَبْتُمْ عَلَىٰٓ أَعْقَٰبِكُمْ وَمَن يَنقَلِبْ عَلَىٰ عَقِبَيْهِ فَلَن يَضُرَّ ٱللَّهَ شَيْـًٔا وَسَيَجْزِى ٱللَّهُ ٱلشَّٰكِرِينَ﴾ [آل عمران:١٤٤]، قَالَ: فَنَشَجَ النَّاسُ يَبْكُونَ».

---

(١) أخرجه أحمد (٦/ ٣١- مختصرًا)، و(٦/ ٢١٣، ٢٢٠- مطولًا)، والترمذيُّ في «الشمائل» - «أشرف الرسائل إلى فهم الشمائل» لابن حجر الهيتمي - (٣٧٤)، وأبو يعْلَى في «مسنده» (٤٨)، وإسحاق ابن راهويه في «مسنده» (١٣٣٣، ١٧١٨)، وأبو نعيم في «الحلية» (٩/ ٢٢٨، ٢٢٩)، والخطيب في «تاريخه» (٥/ ٢٣١)، وابن سعد في «الطبقات» (٢/ ٢٦٥)، وابن أبي حاتم في «تفسيره»، والبيهقي في «الدلائل» وغيرهم؛ كما في «الدر المنثور» (الأنبياء:٣٤)، من طريق: أبي عمران الجوني عن يزيد بن بابنوس عن عائشة فذكرته، وفي سنده يزيد من الثالثة وهو متكلَّمٌ فيه، ويحتمل تحسين حديثه؛ لذا حَسَّنه الألبانيُّ في «مختصر الشمائل» (٣٢٨)، و«الإرواء» (٣/ ١٥٧).

(٢) أخرجه البخاريُّ، كتاب الفضائل، باب قول النبيِّ ﷺ: **«لو كنت متخذًا خليلًا»** (٣٦٦٧، ٣٦٦٨).

وَهكَذا: تُوفِّي رَسُولُ الله ﷺ بَعْدَ أَنْ بَلَّغَ رِسَالَةَ رَبِّهِ، وَأَتَمَّ الله بِهِ الْمِلَّةَ، وَأَكْمَلَ الله بِهِ الدِّينَ، وَلَهُ مِنَ الْعُمُرِ ثَلَاثٌ وَسِتُّونَ سَنَةً؛ فَصَلَواتُ رَبِّي وَسَلَامُهُ عَلَيْهِ.

كَمْ بَذَلَ مِنْ جُهْدٍ، وَكَمْ عَانَى مِنْ أَلَمٍ، وَلَكِنَّهُ قَامَ بِهِمَّةٍ عَالِيَةٍ، وَعَزِيْمَةٍ صَادِقَةٍ، لَا يَعْرِفُ الكَلَلَ أَوِ المَلَلَ؛ بَلْ إِلى آخِرِ لَحْظَةٍ مِنْ حَيَاتِهِ الشَّرِيْفَةِ يُبَلِّغُ عَنِ اللهِ جَلَّ وَعَلَا.

فَمَا أَحْوَجَ الدُّعَاةَ إِلَى دِرَاسَةِ السِّيرَةِ الطَّاهِرَةِ لِأَخْذِ العِبْرَةِ وَالدَّرْسِ وَالعِظَةِ لَا لِمُجَرَّدِ الإِعْجَابِ السَّالِبِ، أَوِ الثَّقَافَةِ الذِّهْنِيَّةِ البَارِدَةِ. فَالسِّيرَةُ مَنْهَجٌ عَمَلِيٌّ فِي عُلُوِّ الهِمَّةِ.

عَلَى قَدْرِ أَهْلِ العَزْمِ تَأْتِي العَزَائِمُ ... وَتَأْتِي عَلَى قَدْرِ الكِرَامِ المَكَارِمُ
وَتَعْظُمُ فِي عَيْنِ الصَّغِيرِ صِغَارُهَا ... وَتَصْغُرُ فِي عَيْنِ العَظِيمِ العَظَائِمُ (١)

وَالعَبْدُ لَا يَقْطَعُ مَنَازِلَ السَّيْرِ إِلَى اللهِ جَلَّ وَعَلَا إِلَّا بِقَلْبِهِ وَهِمَّتِهِ، فَالتَّقْوَى فِي الحَقِيقَةِ تَقْوَى القُلُوبِ لَا تَقْوَى الجَوَارِحِ!!

نَسْأَلُ اللهِ أَنْ يَرْزُقَنَا الهِمَّةَ العَالِيَةَ، وَالنِّيَّةَ الصَّادِقَةَ، وَأَنْ يَجْزِي عَنَّا نَبِيَّنَا خَيْرَ مَا جَزَى نَبِيًّا عَنْ دَعْوَتِهِ، وَرَسُولاً عَنْ قَوْمِهِ.

---

(١) «ديوان المتنبي» (ص:١٣١).

المَبْحَثُ الخَامِسُ
الصَّبْرُ عَلَى الأَذَى

لَقَدْ تَحَدَّثْتُ فِي الْفَصْلِ السَّابِقِ عَنْ هَـذَا الْجَانِـبِ فِي طَيَّاتِ حَدِيثِي عَنْ رِحْلَتِهِ ﷺ الدَّعَوِيَّةِ، وَكَيْفَ صَبَرَ وَصَابَرَ وَعَانَى لِأَجْلِ إِعْلَاءِ كَلِمَةِ اللهِ فِي الْأَرْضِ، وَبِالْفِعْلِ حَقَّقَ اللهُ لَهُ ذَلِكَ، وَانْتَشَرَ الدِّينُ بِبَرَكَةِ دَعْوَتِهِ فِي أَنْحَاءِ الْمَعْمُورَةِ، وَهُنَا أُرِيدُ أَنْ أُبْرِزَ شَيْئًا مِنْ جَانِبِ هَذَا الصَّبْرِ لِحَاجَتِنَا الْمَاسَّةِ إِلَيْهِ فِي هَذِهِ الْأَيَّامِ، وَاللهُ وَحْدَهُ الْمُسْتَعَانُ.

تَعْرِيفُ الصَّبْرِ لُغَةً: هُوَ الْحَبْسُ وَالْمَنْعُ (١).

وَاصْطِلَاحًا: حَبْسُ النَّفْسِ عَنِ الْجَزَعِ وَالتَّسَخُّطِ، وَحَبْسُ اللِّسَانِ عَنِ التَّشَكِّي، وَحَبْسُ الْجَوَارِحِ عَنِ الْمَعَاصِي (٢).

وَالصَّبْرُ عَلَى الْأَذَى نَوْعٌ مِنْ أَنْوَاعِ الصَّبْرِ الْمَأْمُورِ بِهِ؛ فَالصَّبْرُ جَوَادٌ لَا يَكْبُو، وَجُنْدٌ لَا يُهْزَمُ، وَحِصْنٌ لَا يُهْدَمُ.

وَلَا يَنَالُ الْعَبْدُ الْإِمَامَةَ فِي الدِّينِ إِلَّا بِالصَّبْرِ وَالْيَقِينِ؛ كَمَا قَالَ تَعَالَى: ﴿وَجَعَلْنَا مِنْهُمْ أَئِمَّةً يَهْدُونَ بِأَمْرِنَا لَمَّا صَبَرُوا وَكَانُوا بِآيَاتِنَا يُوقِنُونَ﴾ [السجدة: ٢٤].

وَاعْلَمْ أَنَّ الْأَنْبِيَاءَ أَشَدُّ النَّاسِ بَلَاءً، وَأَشَدُّهُمْ هُوَ نَبِيُّنَا ﷺ؛ فَفِي **«مُسْنَدِ أَحْمَدَ»، «وَسُنَنِ التِّرْمِذِيِّ» وَابْنِ مَاجَهْ وَالدَّارِمِيِّ** (٣) **وَغَيْرِهِمْ بِسَنَدٍ**

---

(١) «لسان العرب» (٤/ ٤٣٨) (مادة: صبر).

(٢) «مدارج السالكين» (١/ ١٦٢، ١٦٣)، و«عدة الصابرين» (ص: ١٨) ط ابن عباس.

(٣) هو عبد الله بن عبد الرحمن بن الفضل بن بهرام بن عبد الصمد الحافظ الإمام أحد =

حَسَنٍ[(١)] مِنْ حَدِيثِ سَعْدِ بْنِ أَبِي وَقَّاصٍ رضي الله عنه قَالَ: قُلْتُ: يَا رَسُولَ الله، أَيُّ النَّاسِ أَشَدُّ بَلاَءً؟

قَالَ: «الأَنْبِيَاءُ، ثُمَّ الصَّالِحُونَ، ثُمَّ الأَمْثَلُ فَالأَمْثَلُ مِنَ النَّاسِ، يُبْتَلَى الرَّجُلُ عَلَى حَسَبِ دِينِهِ، فَإِنْ كَانَ فِي دِينِهِ صَلاَبَةٌ زِيدَ فِي بَلاَئِهِ، وَإِنْ كَانَ فِي دِينِهِ رِقَّةٌ خُفِّفَ عَنْهُ، وَمَا يَزَالُ الْبَلاَءُ بِالْعَبْدِ حَتَّى يَمْشِيَ عَلَى ظَهْرِ الأَرْضِ لَيْسَ عَلَيْهِ خَطِيئَةٌ».

فَمَا مِنْ نَبِيٍّ وَلَا رَسُولٍ إِلَّا وَتَعَرَّضَ لِلأَذَى، انْظُرْ إِلَى هَذَا الْخِطَابِ لِلنَّبِيِّ ﷺ فِي قَوْلِ الله تَعَالَى: ﴿وَلَقَدْ كُذِّبَتْ رُسُلٌ مِّن قَبْلِكَ فَصَبَرُوا۟ عَلَىٰ مَا كُذِّبُوا۟ وَأُوذُوا۟ حَتَّىٰٓ أَتَىٰهُمْ نَصْرُنَا﴾ [الأنعام: ٣٤].

وَتَصَوَّرْ أَنَّ النَّبِيَّ ﷺ، وَهُوَ صَاحِبُ أَطْهَرِ وَأَشْرَفِ نَفْسٍ، يَشْتَدُّ بِهِ الأَذَى إِلَى الْحَدِّ الَّذِي يَحْتَاجُ فِيهِ النَّبِيُّ ﷺ إِلَى أَنْ يُذَكَّرَ مِنْ رَبِّهِ الْعَلِيِّ بِقَوْلِهِ: ﴿فَٱصْبِرْ كَمَا صَبَرَ أُو۟لُوا۟ ٱلْعَزْمِ مِنَ ٱلرُّسُلِ﴾ [الأحقاف: ٣٥].

=

الأعلام، أبو محمد التميمي، ثم الدارمي السمرقندي، صاحب «السنن»، كان من الحفاظ المتقنين، وأهل الورع في الدين ممن حفظ وجمع، وتفقه، وصنف وحدث، أظهر السنة ببلده، ودعا إليها، وذب عن حريمها، وقمع من خالفها، ولد سنة إحدى وثمانين ومائة، ومات سنة خمس وخمسين ومائتين يوم التروية بعد العصر، ودفن يوم عرفة يوم الجمعة، وهو ابن أربع أو خمس وسبعين سنة؛ انظر: «سير أعلام النبلاء» (٢٠٤١)، و«تهذيب التهذيب» (٢/ ٣٧٣، ٣٧٤)، و«شذرات الذهب» (٢/ ١٣٠).

(١) أخرجه أحمد (١/ ١٧٢ - ١٧٤، ١٨٠ - ١٨٥)، والترمذيُّ، كتاب الزهد، باب ما جاء في الصبر عَلَى البلاء (٢٣٩٨)، وقال: «حسن صحيح»، وابن ماجه، كتاب الفتن، باب الصبر عَلَى البلاء (٤٠٢٣)، والدارميُّ (٢٧٨٣)، وعبد بن حميد في «المنتخب» (١٤٦)، وابن حبان (٢٩٠٠، ٢٩٢١)، والحاكم (١/ ٤١)، وصحَّحهُ، ووافقه الذهبيُّ، وصحَّحه الألبانيُّ في «الصحيحة» (١٤٣)، و«صحيح الجامع» (٩٩٢).

وَهُوَ صَاحِبُ النَّفْسِ الزَّكِيَّةِ، الْمُطْمَئِنَّةِ، وَهُوَ صَاحِبُ التَّوَكُّلِ عَلَى الله ﷻ، يَحْتَاجُ مِنْ شِدَّةِ الْأَذَى أَنْ يُذَكِّرَهُ رَبُّهُ - تَبَارَكَ وتَعَالَى - بِهَذَا.

وَدِدْتُ لَوْ تَدَبَّرَ شَبَابُنَا، وَاسْتَفَادُوا مِنْ هَذَا الْأَمْرِ الرَّبَّانِيِّ لِلْحَبِيبِ النَّبِيِّ ﷺ: اصْبِرْ.. لَا تَتَعَجَّلْ؛ فَالْعُنْفُ يَهْدِمُ وَلَا يَبْنِي، وَالشِّدَّةُ تُفْسِدُ وَلَا تُصْلِحُ، وَمَا كَانَ الرِّفْقُ فِي شَيْءٍ إِلَّا زَانَهُ، وَمَا نُزِعَ الرِّفْقُ مِنْ شَيْءٍ إِلَّا شَانَهُ.

هَذَا الَّذِي يُرِيدُ النَّصْرَ، وَالْعِزَّةَ، وَالاِسْتِخْلَافَ وَالتَّمْكِينَ، وَلَمَّا تُقَدِّمُ الْأُمَّةُ إِلَى الْآنَ كُلَّ أَسْبَابِ النَّصْرِ، وَالتَّمْكِينِ؛ فَإِنَّهُ شَخْصٌ مُتَعَجِّلٌ، وَيُرِيدُ أَنْ يَجْنِيَ الثَّمَرَةَ قَبْلَ أَنْ تَنْضُجَ، وَهَذَا مُخَالِفٌ لِسُنَنِ الله - تَعَالَى - فِي الْكَوْنِ.

فَالرَّسُولُ ﷺ يَحْتَاجُ إِلَى أَنْ يُذَكَّرَ مِنْ رَبِّهِ بِالصَّبْرِ؛ مِنْ شِدَّةِ الْأَذَى، وَالاِبْتِلَاءِ، وَالْمِحَنِ الَّتِي تَعَرَّضَ لَهَا.

وَقَالَ - جَلَّ وَعَلَا -: ﴿وَٱصْبِرْ حَتَّىٰ يَحْكُمَ ٱللَّهُۚ وَهُوَ خَيْرُ ٱلْحَٰكِمِينَ﴾ [يونس:١٠٩].

وَقَال ﷻ: ﴿وَٱصْبِرْ وَمَا صَبْرُكَ إِلَّا بِٱللَّهِۚ وَلَا تَحْزَنْ عَلَيْهِمْ وَلَا تَكُ فِي ضَيْقٍ مِّمَّا يَمْكُرُونَ﴾ [النحل:١٢٧].

وَقَالَ سُبْحَانَهُ: ﴿فَٱصْبِرْۖ إِنَّ ٱلْعَٰقِبَةَ لِلْمُتَّقِينَ﴾ [هود:٤٩].

وَقَالَ الله ﷿: ﴿فَٱصْبِرْ صَبْرًا جَمِيلًا﴾ [المعارج:٥].

وَقَالَ الله تَعَالَى: ﴿وَٱصْبِرْ عَلَىٰ مَا يَقُولُونَ وَٱهْجُرْهُمْ هَجْرًا جَمِيلًا﴾ [المزمل: ١٠]، وَقَالَ تَعَالَى: ﴿وَلِرَبِّكَ فَٱصْبِرْ﴾ [المدثر:٧].

وَمِنْ أَوَّلِ لَحْظَةٍ ارْتَقَى فِيهَا النَّبِيُّ ﷺ جَبَلَ الصَّفَا بَعْدَمَا أُمِرَ مِنَ الله ﷻ بِالْبَلَاغِ، وَنَادَى النَّبِيُّ ﷺ عَلَى بُطُونِ قُرَيْشٍ.

وَالْحَدِيثُ فِي «**الصَّحِيحَيْنِ**» عَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ رضي الله عنهما قَالَ: لَمَّا نَزَلَتْ: ﴿وَأَنذِرْ

عَشِيرَتَكَ ٱلۡأَقۡرَبِينَ ﴾[الشعراء:٢١٤]، صَعِدَ النَّبِيُّ ﷺ عَلَى الصَّفَا، فَجَعَلَ يُنَادِي: «**يَا بَنِي فِهْرٍ، يَا بَنِي عَدِيٍّ**» لِبُطُونِ قُرَيْشٍ، حَتَّى اجْتَمَعُوا، فَجَعَلَ الرَّجُلُ إِذَا لَمْ يَسْتَطِعْ أَنْ يَخْرُجَ أَرْسَلَ رَسُولًا لِيَنْظُرَ مَا هُوَ.

فَجَاءَ أَبُو لَهَبٍ وَقُرَيْشٌ؛ فَقَالَ: «**أَرَأَيْتَكُمْ لَوْ أَخْبَرْتُكُمْ أَنَّ خَيْلاً بِالْوَادِي، تُرِيدُ أَنْ تُغِيرَ عَلَيْكُمْ أَكُنْتُمْ مُصَدِّقِيَّ**» قَالُوا: نَعَمْ، مَا جَرَّبْنَا عَلَيْكَ إِلاَّ صِدْقًا، قَالَ: «**فَإِنِّي نَذِيرٌ لَكُمْ بَيْنَ يَدَيْ عَذَابٍ شَدِيدٍ**».

فَقَالَ أَبُو لَهَبٍ: تَبًّا لَكَ سَائِرَ الْيَوْمِ، أَلِهَذَا جَمَعْتَنَا؟ فَنَزَلَتْ: ﴿تَبَّتۡ يَدَآ أَبِي لَهَبٖ وَتَبَّ ۝١ مَآ أَغۡنَىٰ عَنۡهُ مَالُهُۥ وَمَا كَسَبَ ﴾[المسد:١، ٢] (١).

مِنْ هَذِهِ اللَّحْظَةِ تَعَرَّضَ النَّبِيُّ ﷺ لِأَصْنَافِ الْأَذَى، وَالْفِتَنِ، وَالْمِحَنِ، وَالِابْتِلَاءِ؛ بَلْ لَقَدْ أَبْرَقَتْ مَكَّةُ وَأَرْعَدَتْ، وَأَرْغَتْ مَكَّةُ وَأَزْبَدَتْ، وَدَقَّتْ طُبُولَ الْحَرْبِ وَأَوْعَدَتْ، وَصَبَّتْ مَكَّةُ كُلُّهَا جَامَ غَضَبِهَا عَلَى ابْنِهَا الْبَارِّ، الَّذِي خَلَعَتْ عَلَيْهِ بِالْإِجْمَاعِ قَبْلَ النُّبُوَّةِ لَقَبَ الصَّادِقِ الْأَمِينِ.

وَمَعَ ذَلِكَ فَهُمُ الْآنَ يَصُبُّونَ جَامَ غَضَبِهِمْ عَلَيْهِ؛ لِأَنَّهُ يَدْعُوهُمُ الْآنَ إِلَى تَوْحِيدِ اللهِ - تَبَارَكَ وَتَعَالَى - وَالْكُفْرِ بِالطَّوَاغِيتِ، وَالْأَنْدَادِ، وَالْأَرْبَابِ، وَالْآلِهَةِ الْمَكْذُوبَةِ الْبَاطِلَةِ الْمُدَّعَاةِ؛ مِنْ هَذِهِ اللَّحْظَةِ لَمْ يَتَوَقَّفِ الْأَذَى؛ بَلْ وَاللهِ لَقَدْ تَعَرَّضَ النَّبِيُّ ﷺ لِلْخَنْقِ عَلَى يَدِ عُقْبَةَ بْنِ أَبِي مُعَيْطٍ - عَلَيْهِ مِنَ اللهِ مَا يَسْتَحِقُّهُ - حَتَّى كَادَتْ أَنْفَاسُ النَّبِيِّ ﷺ أَنْ تَتَوَقَّفَ، وَجَاءَ الصِّدِّيقُ؛ لِيَرُدَّ هَذَا الشَّقِيَّ الْفَاجِرَ عَنْ رَسُولِ اللهِ ﷺ وَهُوَ يَقُولُ: أَتَقْتُلُونَ رَجُلًا أَنْ يَقُولَ رَبِّيَ اللهُ.

وَقَدْ رَوَى ذَلِكَ الْبُخَارِيُّ، عَنْ عُرْوَةَ بْنِ الزُّبَيْرِ قَالَ: سَأَلْتُ ابْنَ عَمْرِو بْنِ

---

(١) أخرجه البخاريُّ، كتاب التفسير، باب قوله تعالى: ﴿وَأَنذِرۡ عَشِيرَتَكَ ٱلۡأَقۡرَبِينَ﴾ [الشعراء:٢١٤] (٤٧٧٠)؛ وانظر: (١٣٩٤)، ومسلمٌ، كتاب الإيمان، باب قوله تعالى: ﴿وَأَنذِرۡ عَشِيرَتَكَ ٱلۡأَقۡرَبِينَ﴾ (٢٠٨).

الْعَاصِ: أَخْبِرْنِي بِأَشَدِّ شَيْءٍ صَنَعَهُ الْمُشْرِكُونَ بِالنَّبِيِّ ﷺ؟ قَالَ: «بَيْنَا النَّبِيُّ ﷺ يُصَلِّي فِي حِجْرِ الْكَعْبَةِ؛ إِذْ أَقْبَلَ عُقْبَةُ بْنُ أَبِي مُعَيْطٍ، فَوَضَعَ ثَوْبَهُ فِي عُنُقِهِ، فَخَنَقَهُ خَنْقًا شَدِيدًا، فَأَقْبَلَ أَبُو بَكْرٍ حَتَّى أَخَذَ بِمَنْكِبِهِ، وَدَفَعَهُ عَنِ النَّبِيِّ ﷺ، قَالَ: ﴿أَتَقْتُلُونَ رَجُلًا أَن يَقُولَ رَبِّيَ ٱللَّهُ﴾ [غافر:٢٨] الآية»(١).

بَلْ لَقَدْ وُضِعَتِ النَّجَاسَةُ عَلَى ظَهْرِهِ ﷺ، وَهُوَ سَاجِدٌ بَيْنَ يَدَي الله - تَبَارَكَ وَتَعَالَى - كَمَا فِي «الصَّحِيحَيْنِ»(٢) مِنْ حَدِيثِ عَبْدِ الله بْنِ مَسْعُودٍ رضي الله عنه قَالَ: بَيْنَمَا رَسُولُ الله ﷺ قَائِمٌ يُصَلِّي عِنْدَ الْكَعْبَةِ، وَجَمْعُ قُرَيْشٍ فِي مَجَالِسِهِمْ؛ إِذْ قَالَ قَائِلٌ مِنْهُمْ: أَلاَ تَنْظُرُونَ إِلَى هَذَا الْمُرَائِي؟ أَيُّكُمْ يَقُومُ إِلَى جَزُورِ آلِ فُلاَنٍ، فَيَعْمِدُ إِلَى فَرْثِهَا وَدَمِهَا وَسَلاَهَا، فَيَجِيءُ بِهِ، ثُمَّ يُمْهِلُهُ حَتَّى إِذَا سَجَدَ وَضَعَهُ بَيْنَ كَتِفَيْهِ؟

فَانْبَعَثَ أَشْقَاهُمْ، فَلَمَّا سَجَدَ رَسُولُ الله ﷺ وَضَعَهُ بَيْنَ كَتِفَيْهِ، وَثَبَتَ النَّبِيُّ ﷺ سَاجِدًا، فَضَحِكُوا حَتَّى مَالَ بَعْضُهُمْ إِلَى بَعْضٍ مِنَ الضَّحِكِ، فَانْطَلَقَ مُنْطَلِقٌ إِلَى فَاطِمَةَ رضي الله عنها وَهِيَ جُوَيْرِيَةٌ، فَأَقْبَلَتْ تَسْعَى، وَثَبَتَ النَّبِيُّ ﷺ سَاجِدًا، حَتَّى أَلْقَتْهُ عَنْهُ، وَأَقْبَلَتْ عَلَيْهِمْ تَسُبُّهُمْ، فَلَمَّا قَضَى رَسُولُ الله ﷺ الصَّلاَةَ، قَالَ: «**اللهمَّ عَلَيْكَ بِقُرَيْشٍ؛ اللهمَّ عَلَيْكَ بِقُرَيْشٍ؛ اللهمَّ عَلَيْكَ بِقُرَيْشٍ**».

أَنَا أَسْأَلُكَ: هَلْ وُضِعَتِ النَّجَاسَةُ عَلَى ظَهْرِكَ؟ هَلْ وُضِعَ التُّرَابُ عَلَى رَأْسِكَ؟ هَلْ خُنِقْتَ خَنْقًا شَدِيدًا حَتَّى كَادَتْ أَنْفَاسُكَ أَنْ تَتَوَقَّفَ، وَأَنْتَ عَلَى هَذَا الدَّرْبِ عَلَى طَرِيقِ الله - تَبَارَكَ وَتَعَالَى؟!

فَهَذَا نَبِيُّنَا ﷺ يُؤْذَى هَذَا الإِيذَاءَ، وَيُبْتَلَى هَذَا الابْتِلاَءَ؛ بَلْ فِي «**صَحِيحِ**

---

(١) أخرجه البخاريُّ، كتاب مناقب الأنصار، باب ما لقي النبيُّ ﷺ وأصحابه من المشركين بمكة (٣٨٥٦) (٤٨١٥).

(٢) أخرجه البخاريُّ، كتاب الصلاة، باب المرأة تطرح عن المصلى شيئًا من الأذى (٥٢٠)؛ وانظر: (٢٤٠)، ومسلمٌ، كتاب الجهاد والسير، باب ما لقي النبيُّ ﷺ من أذى المشركين والمنافقين (١٧٩٤).

مُسْلِم» مِنْ حَدِيثِ أَبِي هُرَيْرَةَ رضي الله عنه قَالَ: قَالَ أَبُو جَهْلٍ: هَلْ يُعَفِّرُ مُحَمَّدٌ وَجْهَهُ بَيْنَ أَظْهُرِكُمْ، قَالَ: فَقِيلَ: نَعَمْ، فَقَالَ: وَاللاَّتِ وَالْعُزَّى! لَئِنْ رَأَيْتُهُ يَفْعَلُ ذَلِكَ لأَطَأَنَّ عَلَى رَقَبَتِهِ، أَوْ لأُعَفِّرَنَّ وَجْهَهُ فِي التُّرَابِ، قَالَ: فَأَتَى رَسُولَ الله ﷺ وَهُوَ يُصَلِّي، زَعَمَ لِيَطَأَ عَلَى رَقَبَتِهِ، قَالَ: فَمَا فَجِئَهُمْ مِنْهُ إِلَّا وَهُوَ يَنْكِصُ عَلَى عَقِبَيْهِ، وَيَتَّقِي بِيَدَيْهِ، قَالَ: فَقِيلَ لَهُ: مَا لَكَ؟! فَقَالَ: إِنَّ بَيْنِي وَبَيْنَهُ لَخَنْدَقًا مِنْ نَارٍ وَهَوْلاً وَأَجْنِحَةً؛ فَقَالَ رَسُولُ الله ﷺ: «**لَوْ دَنَا مِنِّي لَاخْتَطَفَتْهُ الْمَلائِكَةُ عُضْوًا عُضْوًا**»(١).

وَلَقَدْ قَالَ النَّبِيُّ ﷺ يَوْمًا لِعَائِشَةَ؛ كَمَا فِي «**الصَّحِيحَيْنِ**» عَنْهَا رضي الله عنها قَالَتْ: «يَا رَسُولَ الله، هَلْ أَتَى عَلَيْكَ يَوْمٌ كَانَ أَشَدَّ مِنْ يَوْمِ أُحُدٍ؟»، قَالَ: «**لَقَدْ لَقِيتُ مِنْ قَوْمِكِ مَا لَقِيتُ، وَكَانَ أَشَدُّ مَا لَقِيتُ مِنْهُمْ يَوْمَ الْعَقَبَةِ، إِذْ عَرَضْتُ نَفْسِي عَلَى ابْنِ عَبْدِ يَالِيلَ بْنِ عَبْدِ كُلَالٍ، فَلَمْ يُجِبْنِي إِلَى مَا أَرَدْتُ، فَانْطَلَقْتُ وَأَنَا مَهْمُومٌ عَلَى وَجْهِي فَلَمْ أَسْتَفِقْ إِلاَّ وَأَنَا بِقَرْنِ الثَّعَالِبِ، فَرَفَعْتُ رَأْسِي؛ فَإِذَا أَنَا بِسَحَابَةٍ قَدْ أَظَلَّتْنِي، فَنَظَرْتُ فَإِذَا فِيهَا جِبْرِيلُ، فَنَادَانِي فَقَالَ: إِنَّ الله قَدْ سَمِعَ قَوْلَ قَوْمِكَ لَكَ، وَمَا رَدُّوا عَلَيْكَ، وَقَدْ بَعَثَ إِلَيْكَ مَلَكَ الْجِبَالِ، لِتَأْمُرَهُ بِمَا شِئْتَ فِيهِمْ، فَنَادَانِي مَلَكُ الْجِبَالِ، فَسَلَّمَ عَلَيَّ، ثُمَّ قَالَ: يَا مُحَمَّدُ، فَقَالَ: ذَلِكَ فِيمَا شِئْتَ، إِنْ شِئْتَ أَنْ أُطْبِقَ عَلَيْهِم الأَخْشَبَيْنِ؟** فَقَالَ النَّبِيُّ ﷺ: «**بَلْ أَرْجُو أَنْ يُخْرِجَ الله مِنْ أَصْلَابِهِمْ مَنْ يَعْبُدُ الله وَحْدَهُ، لاَ يُشْرِكُ بِهِ شَيْئًا**»(٢).

وَالله لَوْ كَانَ النَّبِيُّ ﷺ مِمَّنْ يَنْتَقِمُ لِذَاتِهِ، وَيَثْأَرُ لِنَفْسِهِ، لَأَمَرَ النَّبِيُّ مَلَكَ الْجِبَالِ، فَلَحَطَّمَ مَلَكُ الْجِبَالِ هَذِهِ الرُّؤُوسَ الصَّلْدَةَ، وَالْجَمَاجِمَ الْعَنِيدَةَ،

---

(١) أخرجه مسلمٌ، كتاب صفة القيامة والجنة والنار، باب قوله تعالى: ﴿كَلَّآ إِنَّ ٱلْإِنسَٰنَ لَيَطْغَىٰٓ ۝٦ أَن رَّءَاهُ ٱسْتَغْنَىٰٓ﴾ [العلق: ٦، ٧]، (٢٧٩٧).

(٢) أخرجه البخاريُّ، كتاب بدء الخلق، باب إذا قال أحدكم: آمين (٣٢٣١)، ومسلمٌ، كتاب الجهاد والسير، باب ما لقي النبيُّ ﷺ من أذى المشركين والمنافقين (١٧٩٥).

وَلَسَالَتْ بُحُورٌ مِنَ الدِّمَاءِ؛ لَا أَقُولُ لِيَرَاهَا أَهْلُ الطَّائِفِ بِالطَّائِفِ؛ بَلْ لِيَرَاهَا أَهْلُ مَكَّةَ بِمَكَّةَ، لَكِنَّهُ مَا خَرَجَ لِذَاتِهِ قَطُّ، وَمَا انْتَقَمَ لِنَفْسِهِ أَبَدًا؛ بَلْ خَرَجَ وَهُوَ يَحْمِلُ فِي قَلْبِهِ رَبِيعًا يَتَجَدَّدُ وَيَتَنَفَّسُ، خَرَجَ وَهُوَ يَحْمِلُ فِي قَلْبِهِ أَمَلًا يَنْمُو كُلَّ لَحْظَةٍ؛ لِذَا يَقُولُ لِمَلَكِ الْجِبَالِ تِلْكَ الْمَقَالَةَ الرَّحِيمَةَ: «**بَلْ أَرْجُو أَنْ يُخْرِجَ اللهُ مِنْ أَصْلَابِهِمْ مَنْ يَعْبُدُ اللهَ وَحْدَهُ، لَا يُشْرِكُ بِهِ شَيْئًا**».

إِنَّهُ نَهَرُ الرَّحْمَةِ، وَيَنْبُوعُ الْحَنَانِ ﷺ، أَنَا لَمْ أَتَكَلَّمْ عَنِ الْأَذَى الَّذِي تَعَرَّضَ لَهُ عَالِمٌ مِنَ الْعُلَمَاءِ أَوْ دَاعِيَةٌ مِنَ الدُّعَاةِ، وَإِنَّمَا أَتَكَلَّمُ عَنِ الْأَذَى الَّذِي تَعَرَّضَ لَهُ نَبِيُّنَا ﷺ؛ وَهُوَ حَبِيبُ اللهِ سُبْحَانَهُ، وَمَعَ هَذَا يَتَعَرَّضُ لِهَذَا الْأَذَى، وَيَتَعَرَّضُ لِهَذِهِ الْمِحَنِ، وَالْفِتَنِ، وَالِابْتِلَاءَاتِ.

وَلَقَدْ رَوَى التِّرْمِذِيُّ وَابْنُ مَاجَهْ - بِسَنَدٍ حَسَنٍ[1]- مِنْ حَدِيثِ أَنَسٍ رضي الله عنه أَنَّ النَّبِيَّ ﷺ قَالَ: «**إِنَّ عِظَمَ الْجَزَاءِ مَعَ عِظَمِ الْبَلَاءِ، وَإِنَّ اللهَ إِذَا أَحَبَّ قَوْمًا ابْتَلَاهُمْ، فَمَنْ رَضِيَ فَلَهُ الرِّضَا، وَمَنْ سَخِطَ فَلَهُ السَّخَطُ**».

قَالَ تَعَالَى: ﴿أَحَسِبَ ٱلنَّاسُ أَن يُتْرَكُوٓاْ أَن يَقُولُوٓاْ ءَامَنَّا وَهُمْ لَا يُفْتَنُونَ ۝٢ وَلَقَدْ فَتَنَّا ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ ۖ فَلَيَعْلَمَنَّ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ صَدَقُواْ وَلَيَعْلَمَنَّ ٱلْكَٰذِبِينَ﴾ [العنكبوت: ٢، ٣].

وَقَدْ يَسْأَلُ سَائِلٌ وَيَقُولُ: وَهَلْ رَبُّنَا جل جلاله لَا يَعْرِفُ الصَّادِقَ مِنَ الْكَاذِبِ إِلَّا بَعْدَ أَنْ تَقَعَ الْفِتْنَةُ وَالْمِحْنَةُ وَالِابْتِلَاءُ؟ **وَالْجَوَابُ**: كَلَّا؛ فَاللهُ جل جلاله يَعْلَمُ مَا كَانَ، وَمَا هُوَ كَائِنٌ، وَمَا سَيَكُونُ، وَمَا لَمْ يَكُنْ لَوْ قَدَّرَ اللهُ عز وجل لَهُ أَنْ يَكُونَ لَعَلِمَ كَيْفَ يَكُونُ؛ فَمَا مِنْ جَبَلٍ عَلَى ظَهْرِ الْأَرْضِ، إِلَّا وَيَعْلَمُ اللهُ مَا فِي وَعْرِهِ، وَمَا مِنْ بَحْرٍ وَلَا نَهَرٍ عَلَى سَطْحِ الْأَرْضِ، إِلَّا وَيَعْلَمُ اللهُ مَا فِي قَعْرِهِ، وَمَا تَحْمِلُ مِنْ أُنْثَى وَلَا تَضَعُ إِلَّا

---

(١) أخرجه الترمذيُّ، كتاب الزهد، باب ما جاء في الصبر عَلَى البلاء (٢٣٩٦) وقال: «حسن غريب من هذا الوجه»، وابن ماجه، كتاب الفتن، باب الصبر عَلَى البلاء (٤٠٣١)، وحسَّنه الألبانيُّ في «صحيح سنن الترمذي وابن ماجه».

بِعِلْمِهِ؛ قَالَ جَلَّ جَلَالُهُ: ﴿وَعِندَهُۥ مَفَاتِحُ ٱلْغَيْبِ لَا يَعْلَمُهَآ إِلَّا هُوَ ۚ وَيَعْلَمُ مَا فِى ٱلْبَرِّ وَٱلْبَحْرِ ۚ وَمَا تَسْقُطُ مِن وَرَقَةٍ إِلَّا يَعْلَمُهَا وَلَا حَبَّةٍ فِى ظُلُمَٰتِ ٱلْأَرْضِ وَلَا رَطْبٍ وَلَا يَابِسٍ إِلَّا فِى كِتَٰبٍ مُّبِينٍ﴾ [الأنعام:٥٩]؛ فَاللهُ عَزَّ وَجَلَّ لَا يُحَاسِبُ الْخَلْقَ بِمُقْتَضَى عِلْمِهِ فِيهِمْ، وَإِنَّمَا بِمُقْتَضَى عَمَلِهِمْ هُمْ؛ فَاللهُ يَعْلَمُ الصَّادِقَ مِنَ الْكَاذِبِ، لَكِنْ تَأْتِي الْمِحْنَةُ؛ لِتُثْبِتَ لِلصَّادِقِ صِدْقَهُ، وَلِلْكَاذِبِ كَذِبَهُ، فَلَا يُعَامِلُ الْخَلْقَ بِمُقْتَضَى عِلْمِهِ فِيهِمْ، وَهُوَ الْحَكَمُ الْحَقُّ الْعَدْلُ جَلَّ جَلَالُهُ، وَإِنَّمَا بِمُقْتَضَى عَمَلِ الْخَلْقِ بِأَنْفُسِهِمْ (١)، فَيُعَامَلُ أَوْ يُجَازَى الصَّادِقُ عَلَى صِدْقِهِ، وَيُجَازَى الْكَاذِبُ عَلَى كَذِبِهِ، ثُمَّ لِيَظْهَرَ لِلصَّفِّ الْمُسْلِمِ الصَّادِقُ مِنَ الْكَاذِبِ، وَقَدْ يَنْدَسُّ الْكَذَّابُونَ وَالْمُنَافِقُونَ فِي الصَّفِّ، فَتَأْتِي الْمِحَنُ؛ لِتُبْرِزَ الْمُنَافِقِينَ، وَلِتُظْهِرَ الْكَذَّابِينَ.

فَإِنَّ الْمَعَادِنَ لَا تَظْهَرُ إِلَّا بَعْدَ التَّمْحِيصِ؛ كَالذَّهَبِ لَا يَخْلُصُ مِنَ الشَّوَائِبِ الْعَالِقَةِ بِهِ إِلَّا بَعْدَ أَنْ يَدْخُلَ النَّارَ، كَذَلِكَ الْفِتْنَةُ تَأْتِي؛ لِتُصَفِّيَ الصَّفَّ، وَتُمَيِّزَ الْخَبِيثَ مِنَ الطَّيِّبِ، وَتُمَحِّصَ الْعَامِلِينَ وَالسَّائِرِينَ عَلَى الدَّرْبِ؛ قَالَ جَلَّ جَلَالُهُ: ﴿أَمْ حَسِبْتُمْ أَن تَدْخُلُوا۟ ٱلْجَنَّةَ وَلَمَّا يَأْتِكُم مَّثَلُ ٱلَّذِينَ خَلَوْا۟ مِن قَبْلِكُم ۖ مَّسَّتْهُمُ ٱلْبَأْسَآءُ وَٱلضَّرَّآءُ وَزُلْزِلُوا۟﴾ [البقرة:٢١٤]، وَاللهِ الَّذِي لَا إِلَهَ غَيْرُهُ لَمْ أَجِدْ فِي قَوَامِيسِ اللُّغَةِ

---

(١) قال الشنقيطيُّ في «دفع إيهام الاضطراب» (٢٤): «أي: علمًا يترتب عليه الثواب والعقاب، فلا ينافي كونه عالمًا به قبل وقوعه، وقد أشار تعالى إلى أنه لا يستفيد بالاختبار علمًا جديدًا؛ لأنه عالم بما سيكون؛ حيث قال تعالى: ﴿وَمَن كَفَرَ فَلَا يَحْزُنكَ كُفْرُهُۥٓ ۚ إِلَيْنَا مَرْجِعُهُمْ فَنُنَبِّئُهُم بِمَا عَمِلُوٓا۟ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمٌۢ بِذَاتِ ٱلصُّدُورِ﴾ [آل عمران:١٥٤]؛ فقوله: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمٌۢ بِذَاتِ ٱلصُّدُورِ﴾ بعد قوله: ﴿وَلِيَبْتَلِىَ﴾ دليلٌ علـى أنه لا يفيده الاختبار علمًا لم يكن يعلمه سبحانه وتعالى عن ذلك؛ بل هو تعالى عالم بكل ما سيعمله خلقه، وعالم بكل شيء قبل وقوعه كما لا خلاف فيه بين المسلمين، ﴿لَا يَعْزُبُ عَنْهُ مِثْقَالُ ذَرَّةٍ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَلَا فِى ٱلْأَرْضِ وَلَآ أَصْغَرُ مِن ذَٰلِكَ وَلَآ أَكْبَرُ إِلَّا فِى كِتَٰبٍ مُّبِينٍ﴾ [سبأ:٣]» ا. هـ.

عَلَى وَجْهِ الْأَرْضِ مُرَادِفًا لِقَوْلِهِ جَلَّ: ﴿وَزُلْزِلُوا﴾ وَلَكَ أَنْتَ أَنْ تَتَصَوَّرَ حَجْمَ هَذَا الزِّلْزَالِ، وَقَالَ جَلَّ : ﴿أَمْ حَسِبْتُمْ أَن تَدْخُلُوا الْجَنَّةَ وَلَمَّا يَعْلَمِ اللَّهُ الَّذِينَ جَاهَدُوا مِنكُمْ وَيَعْلَمَ الصَّابِرِينَ﴾ [آل عمران:١٤٢]؛ فَالْأَمْرُ لَيْسَ فَوْضَى، وَلَيْسَ ادِّعَاءً؛ فَمَا أَيْسَرَ الادِّعَاءَ، وَمَا أَرْخَصَ الكَلَامَ، وَمَا أَسْهَلَ الزَّعْمَ، وَالتَّنْظِيرَ الْبَارِدَ؛ قَالَ جَلَّ وَعَلَا: ﴿حَتَّى إِذَا اسْتَيْأَسَ الرُّسُلُ وَظَنُّوا أَنَّهُمْ قَدْ كُذِبُوا جَاءَهُمْ نَصْرُنَا فَنُجِّيَ مَن نَّشَاءُ وَلَا يُرَدُّ بَأْسُنَا عَنِ الْقَوْمِ الْمُجْرِمِينَ﴾ [يوسف:١١٠].

فَالْإِيمَانُ لَيْسَ مُجَرَّدَ كَلِمَةٍ تُرَدِّدُهَا الْأَلْسِنَةُ فَقَطْ؛ بَلْ مُعْتَقَدُنَا الَّذِي نَدِينُ للهِ بِهِ: أَنَّ الْإِيمَانَ قَوْلٌ بِاللِّسَانِ، وَتَصْدِيقٌ بِالْجَنَانِ، وَعَمَلٌ بِالْجَوَارِحِ وَالْأَرْكَانِ، يَزِيدُ بِالطَّاعَةِ، وَيَنْقُصُ بِالْمَعْصِيَةِ.

فَالْإِيمَانُ أَمَانَةٌ ذَاتُ تَكَالِيفَ، وَمَسْئُولِيَّةٌ ضَخْمَةٌ ذَاتُ أَعْبَاءٍ، وَاللهُ - تَبَارَكَ وَتَعَالَى - يَبْتَلِي أَهْلَ الْإِيمَانِ؛ لِيَمِيزَ الْخَبِيثَ مِنَ الطَّيِّبِ، وَلِيُظْهِرَ الصَّادِقَ مِنَ الْكَاذِبِ؛ فَكَثِيرٌ مِنَ النَّاسِ يُرَدِّدُ كَلِمَةَ الْإِيمَانِ يَحْسَبُهَا سَهْلَةً هَيِّنَةً، خَفِيفَةَ الْحَمْلِ؛ فَهُوَ يُرَدِّدُ كَلِمَةَ الْإِيمَانِ وَهُوَ سَائِرٌ عَلَى دَرْبِ الدَّعْوَةِ، وَعَلَى الطَّرِيقِ إِلَى اللهِ - تَبَارَكَ وَتَعَالَى - مَعَ السَّائِرِينَ إِنْ حَصَّلَ مِنَ الْمَغَانِمِ، أَوْ مِنَ الْمَكَاسِبِ الْمَادِّيَّةِ مَا يُرِيدُ، فَهُوَ سَائِرٌ عَلَى الدَّرْبِ، أَمَّا إِنْ تَعَرَّضَ لِمِحْنَةٍ، أَوْ لِفِتْنَةٍ، أَوِ ابْتِلَاءٍ، نَكَصَ عَلَى عَقِبَيْهِ؛ فَهَذَا لَا يَسْتَحِقُّ أَنْ يُشَرَّفَ بِرَفْعِ رَايَةِ الدَّعْوَةِ إِلَى اللهِ - سُبْحَانَهُ - وَلَيْسَ جَدِيرًا أَنْ يَسِيرَ عَلَى هَذَا الطَّرِيقِ، عَلَى دَرْبِ الْأَنْبِيَاءِ؛ دَرْبِ نُوحٍ، وَإِبْرَاهِيمَ، وَمُوسَى، وَعِيسَى، وَمُحَمَّدٍ، وَغَيْرِهِمْ - صَلَوَاتُ اللهِ وَسَلَامُهُ عَلَيْهِمْ أَجْمَعِينَ.

قَالَ ابْنُ الْقَيِّمِ رَحِمَهُ اللهُ (١): «سَأَلَ رَجُلٌ الشَّافِعِيَّ رَحِمَهُ اللهُ فَقَالَ: يَا أَبَا عَبْدِ اللهِ أَيُّهُمَا أَفْضَلُ لِلرَّجُلِ: أَنْ يُمَكَّنَ فَيَشْكُرَ اللهَ عَزَّ وَجَلَّ، أَوْ يُبْتَلَى بِالشَّرِّ فَيَصْبِرَ؟ **فَقَالَ الشَّافِعِيُّ:**

---

(١) «الفوائد» لابن القيم (٢٨٣) بتصرف.

لَا يُمَكَّنُ حَتَّى يُبْتَلَى؛ فَإِنَّ الله ابْتَلَى نُوحًا وَإِبْرَاهِيمَ وَمُحَمَّدًا - صَلَوَاتُ الله عَلَيْهِمْ أَجْمَعِينَ - فَلَمَّا صَبَرُوا مَكَّنَهُمْ؛ فَلَا يَظُنَّ أَحَدٌ أَنْ يَخْلُصَ مِنَ الْأَلَمِ الْبَتَّةَ».

وَلَوْ كَانَ طَرِيقُ الدَّعْوَةِ إِلَى الله هَيِّنًا لَيِّنًا سَهْلًا مَفْرُوشًا بِالْوَرْدِ، وَالزُّهُورِ وَالرَّيَاحِينِ، لَسَهُلَ عَلَى كُلِّ إِنْسَانٍ أَنْ يَكُونَ صَاحِبَ دَعْوَةٍ، وَلَاخْتَلَطَتْ حِينَئِذٍ دَعْوَةُ الْحَقِّ بِدَعَاوَى الْبَاطِلِ، وَمَا أَكْثَرَهَا!!

وَالَّذِي يَجِبُ أَنْ يَكُونَ رَاسِخًا فِي الْقَلْبِ؛ لَا تَعْصِفُ بِهِ الرِّيَاحُ، وَلَا تُزَعْزِعُهُ الْأَهْوَاءُ أَنْ نَعْلَمَ يَقِينًا أَنَّهُ لَيْسَ أَحَدٌ أَغْيَرَ عَلَى الْحَقِّ وَأَهْلِهِ مِنَ الله - جَلَّ وَعَلَا - وَحَاشَا للهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ أَنْ يُعَذِّبَ أَوْلِيَاءَهُ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ بِالْفِتَنِ أَوْ أَنْ يُؤْذِيَهُمْ بِالِابْتِلَاءَاتِ.

«وَلَكِنَّهُ الْإِعْدَادُ الْحَقِيقِيُّ لِتَحَمُّلِ الْأَمَانَةِ؛ فَهِيَ فِي حَاجَةٍ إِلَى إِعْدَادٍ خَاصٍّ لَا يَتِمُّ إِلَّا بِالْمُعَانَاةِ الْعَمَلِيَّةِ لِلْمَشَاقِّ، وَإِلَّا بِالِاسْتِعْلَاءِ الْحَقِيقِيِّ عَلَى الشَّهَوَاتِ، وَإِلَّا بِالصَّبْرِ الْحَقِيقِيِّ عَلَى الْآلَامِ، وَإِلَّا بِالثِّقَةِ الْحَقِيقِيَّةِ فِي نَصْرِ الله أَوْ فِي ثَوَابِهِ عَلَى الرَّغْمِ مِنْ طُولِ الْفِتْنَةِ وَشِدَّةِ الِابْتِلَاءِ، وَالنَّفْسُ تَصْهَرُهَا الشَّدَائِدُ، فَتَنْفِي عَنْهَا الْخَبَثَ، وَتَسْتَجِيشُ مِنْ قُوَاهَا الْمَذْخُورَةِ، فَلَا يَكْفِي أَنْ يَقُولَ النَّاسُ: آمَنَّا وَهُمْ لَا يُتْرَكُونَ لِهَذِهِ الدَّعْوَى حَتَّى يَتَعَرَّضُوا لِلْفِتْنَةِ، فَيَثْبُتُوا عَلَيْهَا وَيَخْرُجُوا مِنْهَا صَافِيَةً عَنَاصِرُهُمْ، خَالِصَةً قُلُوبُهُمْ، كَمَا تَفْتِنُ النَّارُ الذَّهَبَ؛ لِتَفْصِلَ بَيْنَهُ وَبَيْنَ الْعَنَاصِرِ الرَّخِيصَةِ الْعَالِقَةِ بِهِ، وَكَذَلِكَ تَصْنَعُ الْفِتْنَةُ بِالْقُلُوبِ؛ قَالَ تَعَالَى: ﴿أَحَسِبَ ٱلنَّاسُ أَن يُتْرَكُوٓاْ أَن يَقُولُوٓاْ ءَامَنَّا وَهُمْ لَا يُفْتَنُونَ﴾ [العنكبوت:٢]؛ هَذِهِ الْفِتْنَةُ عَلَى الْإِيمَانِ أَصْلٌ ثَابِتٌ، وَسُنَّةٌ جَارِيَةٌ فِي مِيزَانِ الله سُبْحَانَهُ؛ كَمَا قَالَ تَعَالَى: ﴿وَلَقَدْ فَتَنَّا ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ فَلَيَعْلَمَنَّ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ صَدَقُواْ وَلَيَعْلَمَنَّ ٱلْكَٰذِبِينَ﴾ [العنكبوت:٣].

فَالْفِتْنَةُ سُنَّةٌ جَارِيَةٌ؛ لِامْتِحَانِ الْقُلُوبِ، وَتَمْحِيصِ الصُّفُوفِ؛ لِأَنَّ الْإِيمَانَ أَمَانَةُ الله فِي الْأَرْضِ لَا يَحْمِلُهَا إِلَّا مَنْ هُمْ لَهَا أَهْلٌ، وَفِيهِمْ عَلَى حَمْلِهَا قُدْرَةٌ، وَفِي قُلُوبِهِمْ تَجَرُّدٌ لَهَا وَإِخْلَاصٌ، لَا يَحْمِلُهَا إِلَّا الَّذِينَ يُؤْثِرُونَهَا عَلَى الرَّاحَةِ

وَالدَّعَةِ، وَعَلَى الْأَمْنِ وَالسَّلَامَةِ، وَعَلَى الْمَتَاعِ وَالْإِغْرَاءِ، وَإِنَّهَا لَأَمَانَةُ الْخِلَافَةِ فِي الْأَرْضِ، وَقِيَادَةِ النَّاسِ إِلَى طَرِيقِ اللهِ، وَتَحْقِيقِ كَلِمَتِهِ فِي عَالَمِ الْحَيَاةِ؛ فَهِيَ أَمَانَةٌ ثَقِيلَةٌ.

وَمِنْ ثَمَّ تَحْتَاجُ إِلَى طِرَازٍ خَاصٍّ يَصْبِرُ عَلَى الِابْتِلَاءِ، وَللهِ الْحِكْمَةُ الْبَالِغَةُ؛ فَإِنَّ بُرُوزَ الْمُجْرِمِينَ لِحَرْبِ الدَّعَوَاتِ يُقَوِّي عُودَهَا، وَيَطْبَعُهَا بِطَابَعِ الْجِدِّ الَّذِي يُنَاسِبُ طَبِيعَتَهَا، وَكِفَاحُ وَجِهَادُ أَصْحَابِ الدَّعَوَاتِ لِلْمُجْرِمِينَ الَّذِينَ يَتَصَدَّوْنَ لَهَا- مَهْمَا كَلَّفَهُمْ مِنْ مَشَقَّةٍ وَكُلْفَةٍ - هُوَ الَّذِي يُمَيِّزُ الدَّعَوَاتِ الْحَقَّةَ مِنَ الدَّعَاوَى الزَّائِفَةِ، وَهُوَ الَّذِي يُمَحِّصُ الْقَائِمِينَ عَلَيْهَا وَيَطْرُدُ الزَّائِفِينَ عَنْهَا، فَلَا يَبْقَى إِلَّا الْعَنَاصِرُ الْمُؤْمِنَةُ الْقَوِيَّةُ الْمُتَجَرِّدَةُ الَّتِي لَا تَبْتَغِي الْمَغَانِمَ، وَلَا تُرِيدُ إِلَّا الدَّعْوَةَ خَالِصَةً تَبْتَغِي بِهَا وَجْهَ اللهِ تَعَالَى، مُؤْثِرِينَ دَعْوَتَهُمْ عَلَى الرَّاحَةِ وَالْمَتَاعِ وَأَعْرَاضِ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا؛ بَلْ عَلَى الْحَيَاةِ نَفْسِهَا حِينَ تَقْتَضِيهِمْ دَعْوَتُهُمْ أَنْ يُسْتَشْهَدُوا فِي سَبِيلِهَا، وَهَؤُلَاءِ بِجَدَارَةٍ هُمْ أَصْحَابُ الْأَهْلِيَّةِ لِحَمْلِ رَايَةِ هَذِهِ الدَّعْوَةِ وَالسَّيْرِ بِهَا بَيْنَ الْأَشْوَاكِ وَالصُّخُورِ، وَهُمْ وَاثِقُونَ فِيمَا عِنْدَ اللهِ تَعَالَى مِنْ إِحْدَى الْحُسْنَيَيْنِ! إِمَّا النَّصْرُ، وَإِمَّا الشَّهَادَةُ» (١).

«وَهَكَذَا فَإِنَّ مَوْكِبَ الدَّعْوَةِ إِلَى اللهِ، الْمُوغِلَ فِي الْقِدَمِ، الضَّارِبَ فِي شِعَابِ الزَّمَانِ، مَاضٍ فِي الطَّرِيقِ؛ مُسْتَقِيمُ الْخُطَى، ثَابِتُ الْأَقْدَامِ، يَعْتَرِضُ طَرِيقَهُ الْمُجْرِمُونَ مِنْ كُلِّ قَبِيلٍ، يُقَاوِمُهُ التَّابِعُونَ مِنَ الضَّالِّينَ وَالْمَتْبُوعِينَ، وَيُصِيبُ الْأَذَى مَنْ يُصِيبُ مِنَ الدُّعَاةِ، وَتَسِيلُ الدِّمَاءُ، وَتَتَمَزَّقُ الْأَشْلَاءُ، وَالْمَوْكِبُ فِي طَرِيقِهِ لَا يَنْحَنِي، وَلَا يَنْثَنِي، وَلَا يَنْكِصُ، وَلَا يَحِيدُ، وَالْعَاقِبَةُ مَهْمَا طَالَ الزَّمَنُ لِلْمُؤْمِنِينَ».

وَالْوُصُولُ إِلَى هَذَا الْمُرْتَقَى الْكَرِيمِ يَحْتَاجُ حَتْمًا إِلَى زَادِ الدَّعْوَةِ اللَّازِمِ لِكُلِّ

---

(١) انظر: «خواطر عَلَى طريق الدَعْوَة» (٢٦١- ٢٦٣) للباحث.

مَرْحَلَةٍ مِنْ مَرَاحِلِ هَذَا الطَّرِيقِ الطَّوِيلِ الشَّاقِّ، أَلَا وَهُوَ: «الصَّبْرُ الْجَمِيلُ» (١).

وَلَكِنَّ الصَّبْرَ الْجَمِيلَ - كَمَا ذَكَرْنَا- لَيْسَ مُجَرَّدَ كَلِمَةٍ تُرَدِّدُهَا الْأَلْسِنَةُ مَعَ ضِيقِ الصَّدْرِ وَتَمَلْمُلِ الْقَلْبِ! كَلَّا؛ **إِنَّمَا الصَّبْرُ الْجَمِيلُ**: «هُوَ الصَّبْرُ الْمُطْمَئِنُّ الَّذِي لَا يُصَاحِبُ السَّخَطَ وَلَا الْقَلَقَ وَلَا الشَّكَّ فِي صِدْقِ الْوَعْدِ، صَبْرُ الْوَاثِقِ مِنَ الْعَاقِبَةِ، الرَّاضِي بِقَدَرِ اللهِ، الشَّاعِرِ بِحِكْمَتِهِ مِنْ وَرَاءِ الِابْتِلَاءِ، الْمَوْصُولِ بِاللهِ، الْمُحْتَسِبِ كُلَّ شَيْءٍ عِنْدَهُ مِمَّا يَقَعُ بِهِ.

الصَّبْرُ الْجَمِيلُ: هُوَ التَّرَفُّعُ عَلَى الْأَلَمِ، وَالِاسْتِعْلَاءُ عَلَى الشَّكْوَى، وَالثَّبَاتُ عَلَى تَكَالِيفِ الدَّعْوَةِ، وَالتَّسْلِيمُ للهِ ﷻ، وَالِاسْتِسْلَامُ لِمَا يُرِيدُ مِنَ الْأُمُورِ وَالْقَبُولُ لِحُكْمِهِ وَالرِّضَا بِهِ.

الصَّبْرُ الْجَمِيلُ: هُوَ الَّذِي يَكُونُ ابْتِغَاءَ وَجْهِ اللهِ - جَلَّ وَعَلَا - لَا تَحَرُّجًا مِنَ النَّاسِ حَتَّى لَا يَقُولُوا: جَزِعُوا، وَلَا تَجَمُّلًا لِلنَّاسِ حَتَّى يَقُولُوا: صَبَرُوا.

الصَّبْرُ الْجَمِيلُ: هُوَ الثَّبَاتُ عَلَى طُولِ الطَّرِيقِ دُونَ عَجَلَةٍ أَوْ قُنُوطٍ، وَلْنَقِفْ أَمَامَ لَفْتَةٍ تَسْتَحِقُّ التَّدَبُّرَ الْعَمِيقَ؛ أَلَا وَهِيَ: أَنَّ الرَّسُولَ ﷺ الَّذِي يُلَاقِي مَا يُلَاقِي مِنَ الْأَذَى وَالتَّكْذِيبِ وَالْكِبْرِ وَالْكُنُودِ يُقَالُ لَهُ: ﴿فَاصْبِرْ إِنَّ وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ فَإِمَّا نُرِيَنَّكَ بَعْضَ الَّذِي نَعِدُهُمْ أَوْ نَتَوَفَّيَنَّكَ فَإِلَيْنَا يُرْجَعُونَ﴾ [غافر:٧٧].

فَأَدِّ وَاجِبَكَ وَفَقَطْ، فَأَمَّا النَّتَائِجُ فَلَيْسَتْ لَكَ، حَتَّى شِفَاءُ صَدْرِهِ بِأَنْ يَشْهَدَ تَحَقُّقَ وَعِيدِ اللهِ لِلْمُتَكَبِّرِينَ وَالْمُكَذِّبِينَ، لَيْسَ لَهُ أَنْ يُعَلِّقَ بِهِ قَلْبَهُ، إِنَّهُ يَعْمَلُ وَكَفَى، يُؤَدِّي وَاجِبَهُ وَيَمْضِي؛ فَالْأَمْرُ لَيْسَ أَمْرَهُ، وَالْقَضِيَّةُ لَيْسَتْ قَضِيَّتَهُ - بِأَبِي هُوَ وَأُمِّي - وَلَكِنَّ الْأَمْرَ كُلَّهُ للهِ، وَاللهُ يَفْعَلُ بِهِ مَا يُرِيدُ، وَلِمِثْلِ هَذِهِ اللَّفْتَةِ الْعَمِيقَةِ يَنْبَغِي أَنْ تَتَوَجَّهَ قُلُوبُ الدُّعَاةِ إِلَى اللهِ فِي كُلِّ حِينٍ؛ فَهَذَا هُوَ حِزَامُ النَّجَاةِ فِي خِضَمِّ الرَّغَائِبِ الَّتِي تَبْدُو بَرِيئَةً فِي أَوَّلِ الْأَمْرِ ثُمَّ يَخُوضُ فِيهَا الشَّيْطَانُ بَعْدَ ذَلِكَ

---

(١) المصدر السابق.

وَيَعُومُ!!

نَعَمْ؛ فَإِنَّهُ مِنَ السَّهْلِ جِدًّا عَلَى صَاحِبِ الدَّعْوَةِ أَنْ يَغْضَبَ؛ لِأَنَّ النَّاسَ لَا يَسْتَجِيبُونَ لِدَعْوَتِهِ فَيَهْجُرَ النَّاسَ، إِنَّهُ عَمَلٌ مُرِيحٌ قَدْ يَفْثَأُ الْغَضَبَ، وَيُهَدِّئُ الْأَعْصَابَ، وَلَكِنْ أَيْنَ هَذِهِ الدَّعْوَةُ؟ إِنَّ الدَّعْوَةَ هِيَ الْأَصْلُ لَا شَخْصُ الدَّاعِيَةِ، فَلْيَضِقْ صَدْرُهُ، وَلَكِنْ لِيَكْظِمْ غَيْظَهُ، وَلْيَمْضِ فِي دَعْوَتِهِ، وَاللهُ أَرْعَى لِدَعْوَتِهِ وَأَحْفَظُ، فَلْيُؤَدِّ الدَّاعِيَةُ وَاجِبَهُ فِي كُلِّ ظَرْفٍ وَفِي كُلِّ جَوٍّ، وَالْبَقِيَّةُ عَلَى اللهِ تَعَالَى، وَالْهُدَى هُدَى اللهِ ﷻ، وَإِنَّ فِي قِصَّةِ ذِي النُّونِ- عَلَيْهِ السَّلَامُ- لَدَرْسًا لِأَصْحَابِ الدَّعَوَاتِ يَنْبَغِي أَنْ يَتَأَمَّلُوهُ، وَإِنَّ فِي رَجْعَةِ ذِي النُّونِ إِلَى رَبِّهِ وَاعْتِرَافِهِ بِظُلْمِهِ لَعِبْرَةً لِأَصْحَابِ الدَّعَوَاتِ يَنْبَغِي أَنْ يَتَدَبَّرُوهَا، وَالْقُرْآنُ الْكَرِيمُ لَا يَقُصُّ قِصَّةً إِلَّا لِيُوَاجِهَ بِهَا حَالَةً، وَلَا يُقَرِّرُ حَقِيقَةً إِلَّا لِيُغَيِّرَ بِهَا بَاطِلًا لَا لِلنَّظَرِ الْمُجَرَّدِ!!

وَفِي قِصَّةِ يُونُسَ عليه السلام الَّذِي لَمْ يَصْبِرْ عَلَى تَكَالِيفِ الرِّسَالَةِ فِي لَحْظَةٍ مِنَ اللَّحَظَاتِ فَضَاقَ صَدْرًا بِالْقَوْمِ، وَأَلْقَى عِبْءَ الدَّعْوَةِ، وَذَهَبَ مُغَاضِبًا، ضَيِّقَ الصَّدْرِ، حَرِجَ النَّفْسِ، فَأَوْقَعَهُ اللهُ فِي الضِّيقِ الَّذِي تَهُونُ إِلَى جَانِبِهِ مُضَايَقَاتُ الْمُكَذِّبِينَ، وَلَوْلَا أَنَّهُ تَابَ إِلَى رَبِّهِ، وَاعْتَرَفَ بِظُلْمِهِ لِنَفْسِهِ وَدَعْوَتِهِ وَوَاجِبِهِ؛ لَمَا فَرَّجَ اللهُ عَنْهُ هَذَا الضِّيقَ!

يَقُولُ عَزَّ مِنْ قَائِلٍ: ﴿وَذَا ٱلنُّونِ إِذ ذَّهَبَ مُغَٰضِبٗا فَظَنَّ أَن لَّن نَّقۡدِرَ عَلَيۡهِ فَنَادَىٰ فِي ٱلظُّلُمَٰتِ أَن لَّآ إِلَٰهَ إِلَّآ أَنتَ سُبۡحَٰنَكَ إِنِّي كُنتُ مِنَ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾

[الأنبياء: ٨٧].

فَمَنْ مَسَّهُ الضُّرُّ فِي فِتْنَةٍ مِنَ الْفِتَنِ وَفِي ابْتِلَاءٍ مِنَ الِابْتِلَاءَاتِ فَلْيَثْبُتْ وَلَا يَتَزَعْزَعْ، وَلْيَثِقْ بِرَحْمَةِ اللهِ وَعَوْنِهِ وَقُدْرَتِهِ عَلَى كَشْفِ الضَّرَّاءِ، وَعَلَى الْعِوَضِ وَالْجَزَاءِ.

فَأَمَّا مَنْ يَفْقِدُ ثِقَتَهُ فِي نَصْرِ اللهِ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ، وَيَقْنَطُ مِنْ عَوْنِ اللهِ لَهُ فِي الْمِحْنَةِ، حِينَ تَشْتَدُّ الْمِحْنَةُ فَدُونَهُ فَلْيَفْعَلْ بِنَفْسِهِ مَا يَشَاءُ، وَلْيَذْهَبْ بِنَفْسِهِ كُلَّ

مَذْهَبٍ!! فَمَا شَيْءٌ مِنْ ذَلِكَ بِمُبَدِّلٍ مَا بِهِ مِنَ الْبَلَاءِ: ﴿مَن كَانَ يَظُنُّ أَن لَّن يَنصُرَهُ ٱللَّهُ فِي ٱلدُّنْيَا وَٱلْآخِرَةِ فَلْيَمْدُدْ بِسَبَبٍ إِلَى ٱلسَّمَآءِ ثُمَّ لْيَقْطَعْ فَلْيَنظُرْ هَلْ يُذْهِبَنَّ كَيْدُهُۥ مَا يَغِيظُ﴾ [الحج: ١٥].

وَالَّذِي يَيْأَسُ فِي الضُّرِّ مِنْ عَوْنِ الله يَفْقِدُ كُلَّ نَافِذَةٍ مُضِيئَةٍ، وَكُلَّ نِسْمَةٍ رَخِيَّةٍ، وَكُلَّ رَجَاءٍ فِي الْفَرَجِ، وَيَسْتَبِدُّ بِهِ الضِّيقُ، وَيَثْقُلُ عَلَى صَدْرِهِ الْكَرْبُ، فَيَزِيدُ هَذَا كُلُّهُ مِنْ وَقْعِ الْكَرْبِ وَالْبَلَاءِ إِلَّا أَنَّهُ لَا سَبِيلَ فِي احْتِمَالِ الْبَلَاءِ إِلَّا بِالرَّجَاءِ فِي نَصْرِ الله، وَلَا سَبِيلَ إِلَى الْفَرَجِ إِلَّا بِالتَّوَجُّهِ إِلَى الله، وَلَا سَبِيلَ إِلَى الِاسْتِعْلَاءِ عَلَى الضُّرِّ وَالْكِفَاحِ لِلْخَلَاصِ إِلَّا بِالِاسْتِعَانَةِ بِالله، وَكُلُّ حَرَكَةٍ يَائِسَةٍ لَا ثَمَرَةَ لَهَا وَلَا نَتِيجَةَ، إِلَّا زِيَادَةَ الْكَرْبِ، وَمُضَاعَفَةَ الشُّعُورِ بِهِ، وَالْعَجْزَ عَنْ دَفْعِهِ بِغَيْرِ عَوْنِ الله.

وَأَخِيرًا؛ فَإِنَّ الَّذِينَ احْتَمَلُوا فِي الطَّرِيقِ إِلَى الله مَا احْتَمَلُوا، فَلَمْ يَنْكِصُوا وَلَمْ يَيْأَسُوا، الَّذِينَ صَبَرُوا عَلَى فِتْنَةِ النَّاسِ وَعَلَى فِتْنَةِ النَّفْسِ، الَّذِينَ حَمَلُوا أَعْبَاءَهُمْ، وَسَارُوا فِي ذَلِكَ الطَّرِيقِ الطَّوِيلِ الشَّاقِّ الْغَرِيبِ، أُولَئِكَ لَنْ يَتْرُكَهُمُ الله وَحْدَهُمْ، وَلَنْ يُضَيِّعَ أَعْمَالَهُمْ، وَلَنْ يَنْسَى جِهَادَهُمْ، إِنَّهُ تَعَالَى سَيَنْظُرُ إِلَيْهِمْ مِنْ عَلْيَائِهِ فَيُرْضِيهِمْ، وَسَيَنْظُرُ إِلَى جِهَادِهِمْ فِيهِ فَيَهْدِيهِمْ، وَسَيَنْظُرُ إِلَى مُحَاوَلَتِهِمُ الْوُصُولَ؛ فَيَأْخُذُ بِأَيْدِيهِمْ، وَسَيَنْظُرُ إِلَى صَبْرِهِمْ وَإِحْسَانِهِمْ فَيُجَازِيهِمْ: ﴿وَٱلَّذِينَ جَٰهَدُوا۟ فِينَا لَنَهْدِيَنَّهُمْ سُبُلَنَا ۚ وَإِنَّ ٱللَّهَ لَمَعَ ٱلْمُحْسِنِينَ﴾ [العنكبوت: آخر آية: ٦٩]».

وَأَمَّا الَّذِينَ يَفْتِنُونَ الْمُؤْمِنِينَ، وَيَسُومُونَهُمْ سُوءَ الْعَذَابِ، فَمَا هُمْ أَبَدًا بِمُفْلِتِينَ مِنْ عَذَابِ الله، وَلَا نَاجِينَ مَهْمَا انْتَفَخَ بَاطِلُهُمْ وَانْتَفَشَ، وَمَهْمَا زَادَ ظُلْمُهُمْ وَانْتَعَشَ؛ فَكَمَا أَنَّ الله - تَعَالَى - جَعَلَ الِابْتِلَاءَ سُنَّةً جَارِيَةً؛ لِيَمِيزَ الْخَبِيثَ مِنَ الطَّيِّبِ، فَقَدْ جَعَلَ أَخْذَ الظَّالِمِينَ أَيْضًا سُنَّةً لَا تَتَبَدَّلُ وَلَا تَتَخَلَّفُ؛ فَكُلُّ هَذِهِ الْقُوَى بِكُلِّ مَا تَمْلِكُ مِنْ وَسَائِلِ التِّقْنِيَةِ الْحَدِيثَةِ، وَمِنْ وَسَائِلِ الْإِبَادَةِ وَالتَّدْمِيرِ مَثَلُهَا: ﴿كَمَثَلِ ٱلْعَنكَبُوتِ ٱتَّخَذَتْ بَيْتًا ۖ وَإِنَّ أَوْهَنَ ٱلْبُيُوتِ لَبَيْتُ ٱلْعَنكَبُوتِ ۖ لَوْ كَانُوا۟ يَعْلَمُونَ﴾ [العنكبوت: ٤١].

نَعَمْ؛ فَأَيْنَ الطَّوَاغِيتُ وَالْفَرَاعِنَةُ وَالْجَبَابِرَةُ وَالْأَكَاسِرَةُ وَالْقَيَاصِرَةُ؟! أَيْنَ فِرْعَوْنُ الَّذِي قَالَ لِقَوْمِهِ: ﴿أَنَا۠ رَبُّكُمُ ٱلْأَعْلَىٰ﴾ [النازعات:٢٤] وَاسْتَخَفَّهُمْ بِقَوْلِهِ: ﴿أَلَيْسَ لِي مُلْكُ مِصْرَ وَهَٰذِهِ ٱلْأَنْهَٰرُ تَجْرِي مِن تَحْتِيٓ أَفَلَا تُبْصِرُونَ﴾ [الزخرف:٥١]؟! فَأَجْرَاهَا اللهُ مِنْ فَوْقِهِ!!! أَيْنَ نُمْرُودُ ابْنُ كَنْعَانَ الَّذِي قَالَ لِإِبْرَاهِيمَ عليه السلام: ﴿أَنَا۠ أُحْيِۦ وَأُمِيتُ﴾ [البقرة:٢٥٨]؟! أَيْنَ قَارُونُ الَّذِي قَالَ فِي خُيَلَاءَ وَكِبْرٍ وَاسْتِعْلَاءٍ: ﴿إِنَّمَآ أُوتِيتُهُۥ عَلَىٰ عِلْمٍ عِندِيٓ﴾ [القصص: ٧٨]؟! وَأَيْنَ عَادٌ وَثَمُودُ؟ وَأَيْنَ أَبُو جَهْلٍ وَأَبُو لَهَبٍ؟ ﴿فَكُلًّا أَخَذْنَا بِذَنۢبِهِۦ فَمِنْهُم مَّنْ أَرْسَلْنَا عَلَيْهِ حَاصِبًا وَمِنْهُم مَّنْ أَخَذَتْهُ ٱلصَّيْحَةُ وَمِنْهُم مَّنْ خَسَفْنَا بِهِ ٱلْأَرْضَ وَمِنْهُم مَّنْ أَغْرَقْنَا وَمَا كَانَ ٱللَّهُ لِيَظْلِمَهُمْ وَلَٰكِن كَانُوٓاْ أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ﴾ [العنكبوت: ٤٠][1].

فَالْإِيمَانُ أَمَانَةٌ عَظِيمَةٌ، وَمَسْئُولِيَّةٌ كَبِيرَةٌ ذَاتُ تَكَالِيفَ وَأَعْبَاءٍ، وَلَا يَجُوزُ أَبَدًا أَنْ يُرَدِّدَ الْإِنْسَانُ كَلِمَةَ الْإِيمَانِ دُونَ أَنْ يُمَحَّصَ، وَأَنْ يُبْتَلَى، أَيَثْبُتُ عَلَى الدَّرْبِ أَمْ يَنْكِصُ عَلَى عَقِبَيْهِ؟ قَالَ تَعَالَى: ﴿وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يَعْبُدُ ٱللَّهَ عَلَىٰ حَرْفٍ فَإِنْ أَصَابَهُۥ خَيْرٌ ٱطْمَأَنَّ بِهِۦ وَإِنْ أَصَابَتْهُ فِتْنَةٌ ٱنقَلَبَ عَلَىٰ وَجْهِهِۦ خَسِرَ ٱلدُّنْيَا وَٱلْأَخِرَةَ ذَٰلِكَ هُوَ ٱلْخُسْرَانُ ٱلْمُبِينُ﴾ [الحج:١١]، وَقَالَ سُبْحَانَهُ: ﴿وَلَقَدْ فَتَنَّا ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ فَلَيَعْلَمَنَّ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ صَدَقُواْ وَلَيَعْلَمَنَّ ٱلْكَٰذِبِينَ﴾ [العنكبوت:٣]، وَأَوَدُّ أَنْ أُطِيلَ النَّفَسَ فِي هَذِهِ الْمَسْأَلَةِ؛ لِأَنَّنِي أُعَالِجُ بِهَا وَاقِعًا تَحْيَاهُ الْأُمَّةُ الْآنَ، أُعَالِجُ بِهَا وَاقِعَ شَبَابِنَا الَّذِي يُعَانِي وَيَتَسَاءَلُ فِي كُلِّ لِقَاءٍ مِنَ اللِّقَاءَاتِ؛ فَالْفِتَنُ كَثِيرَةٌ، وَالْمِحَنُ كَبِيرَةٌ، وَالشَّبَابُ إِلَى الْآنَ لَا يُرِيدُ أَنْ يَتَعَلَّمَ الصَّبْرَ؛ فَهُوَ - دَائِمًا- مُتَعَجِّلٌ، وَمَنْ تَعَجَّلَ الشَّيْءَ قَبْلَ أَوَانِهِ عُوقِبَ بِحِرْمَانِهِ؛ فَهُوَ يَسْتَكْثِرُ هَذِهِ الْمِحَنَ وَالْفِتَنَ وَالِابْتِلَاءَاتِ الَّتِي تَمُرُّ بِهَا الْأُمَّةُ الْآنَ، وَيَتَسَاءَلُ: أَيْنَ النَّصْرُ؟ أَيْنَ الْعِزَّةُ؟ أَيْنَ الِاسْتِعْلَاءُ؟ أَيْنَ التَّمْكِينُ؟ أَيْنَ

---

(١) راجع: «الخواطر» (٢٦٧- ٢٧٢) ط فياض.

الاسْتِخْلَافُ؟ بَلْ لَقَدْ قَالَ لِي قَائِلٌ بِنَفْسِ اللَّفْظِ: يَا شَيْخُ! هَلْ خَلَقَ اللهُ الْكَوْنَ وَنَفَضَ يَدَيْهِ مِنْهُ! وَلَمْ يَعُدِ اللهُ قَادِرًا عَلَى ضَبْطِ الْكَوْنِ بِمِيزَانِ الْحَقِّ وَالْعَدْلِ؟ أَلَا يَرَى هَذِهِ الدِّمَاءَ الَّتِي تُسْفَكُ، وَالْأَشْلَاءَ الَّتِي تُمَزَّقُ؟!! فَأَقُولُ:

لَقَدْ أَنْسَتْنَا الْعَجَلَةُ سُنَنَ اللهِ الثَّابِتَةَ فِي الْكَوْنِ؛ فَإِنَّ للهِ سُنَنًا رَبَّانِيَّةً لَا تَتَبَدَّلُ، وَلَا تَتَغَيَّرُ، وَلَا تُجَامِلُ تِلْكَ السُّنَنُ أَحَدًا مِنَ الْخَلْقِ بِحَالٍ؛ مَهْمَا ادَّعَى لِنَفْسِهِ مِنْ مُقَوِّمَاتِ الْمُحَابَاةِ!!

قَالَ تَعَالَى: ﴿أَوَلَمَّآ أَصَٰبَتۡكُم مُّصِيبَةٞ قَدۡ أَصَبۡتُم مِّثۡلَيۡهَا قُلۡتُمۡ أَنَّىٰ هَٰذَاۖ قُلۡ هُوَ مِنۡ عِندِ أَنفُسِكُمۡۗ إِنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيۡءٖ قَدِيرٞ﴾ [آل عمران:١٦٥]، وَقَالَ تَعَالَى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُغَيِّرُ مَا بِقَوۡمٍ حَتَّىٰ يُغَيِّرُواْ مَا بِأَنفُسِهِمۡ﴾ [الرعد:١١]، وَقَالَ سُبْحَانَهُ: ﴿ذَٰلِكَ بِأَنَّ ٱللَّهَ لَمۡ يَكُ مُغَيِّرٗا نِّعۡمَةً أَنۡعَمَهَا عَلَىٰ قَوۡمٍ حَتَّىٰ يُغَيِّرُواْ مَا بِأَنفُسِهِمۡ﴾ [الأنفال:٥٣].

فَسُنَنُ اللهِ ثَابِتَةٌ لَا تَتَبَدَّلُ وَلَا تَتَغَيَّرُ؛ فَالشَّبَابُ الْآنَ مُتَعَجِّلٌ لِلنَّصْرِ، مَعَ أَنَّنَا لَمْ نَبْذُلْ بَعْدُ كُلَّ أَسْبَابِ النَّصْرِ، وَالتَّمْكِينِ، وَالْعِزِّ؛ فَنَحْنُ لَا نُرِيدُ إِلَى هَذِهِ اللَّحْظَةِ أَنْ نَتَعَلَّمَ الصَّبْرَ!!

فَالْكُلُّ مُتَعَجِّلٌ؛ بَلِ الْكُلُّ يَتَسَاءَلُ الْآنَ - وَرُبَّمَا بِجُرْأَةٍ: لِمَاذَا لَا يَنْصُرُنَا اللهُ؟ وَأَنَا أَقُولُ: لَسْنَا مَسْئُولِينَ عَنِ النَّتَائِجِ، وَلَسْنَا أَغْيَرَ عَلَى دِينِ اللهِ مِنَ اللهِ - سُبْحَانَهُ-، وَلَسْنَا أَغْيَرَ عَلَى الْمُسْتَضْعَفِينَ الَّذِينَ تُسْفَكُ دِمَاؤُهُمْ، وَتُمَزَّقُ أَشْلَاؤُهُمْ مِنَ اللهِ، لَكِنَّ اللهَ لَا يَعْجَلُ لِعَجَلَةِ أَحَدٍ؛ فَمَا عَلَيْنَا إِلَّا أَنْ نَبْذُلَ، وَأَنْ نَأْخُذَ بِالْأَسْبَابِ، وَأَنْ نَبْذُرَ فِي حَقْلِ الْإِسْلَامِ بَذْرًا صَحِيحًا عَلَى الْقُرْآنِ وَالسُّنَّةِ بِفَهْمِ سَلَفِ الْأُمَّةِ، وَأَنْ نَتَأَدَّبَ مَعَ اللهِ، وَنَدَعَ النَّتَائِجَ لَهُ - تَبَارَكَ وَتَعَالَى.

قَالَ تَعَالَى: ﴿وَكَذَٰلِكَ جَعَلۡنَا لِكُلِّ نَبِيٍّ عَدُوّٗا مِّنَ ٱلۡمُجۡرِمِينَۗ وَكَفَىٰ بِرَبِّكَ هَادِيٗا وَنَصِيرٗا﴾ [الفرقان:٣١]، وَقَالَ جَلَّ جَلَالُهُ: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ أَجۡرَمُواْ كَانُواْ مِنَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ يَضۡحَكُونَ ﴿٢٩﴾ وَإِذَا مَرُّواْ بِهِمۡ يَتَغَامَزُونَ ﴿٣٠﴾ وَإِذَا ٱنقَلَبُوٓاْ إِلَىٰٓ أَهۡلِهِمُ ٱنقَلَبُواْ فَكِهِينَ ﴿٣١﴾ وَإِذَا رَأَوۡهُمۡ

قَالُوٓاْ إِنَّ هَٰٓؤُلَآءِ لَضَآلُّونَ﴾ [المطففين:٢٩- ٣٢].

فَمَا مِنْ رَسُولٍ وَلَا نَبِيٍّ، وَلَا مُصْلِحٍ سَلَكَ هَذَا الدَّرْبَ إِلَى اللهِ، وَسَلَكَ طَرِيقَ الدَّعْوَةِ إِلَيْهِ ﷻ إِلَّا وَتَعَرَّضَ لِلْأَذَى، وَالْمِحَنِ، وَتَعَرَّضَ لِلْفِتَنِ وَالِابْتِلَاءَاتِ، وَالْمُؤْمِنُ هُوَ الَّذِي يُصَبِّرُ نَفْسَهُ عَلَى الْأَذَى، وَعَلَى الْمِحَنِ، وَعَلَى الْفِتَنِ حَتَّى يَلْقَى اللهَ ﷻ، وَلَيْسَ مِنَ الضَّرُورَةِ أَنْ يَجْنِيَ ثَمَرَةَ الصَّبْرِ فِي حَيَاتِهِ؛ بَلِ النَّصْرُ الْحَقِيقِيُّ أَنْ تَمُوتَ وَأَنْتَ عَلَى الدِّينِ.

فَمَا عَلَيْنَا نَحْنُ إِلَّا أَنْ نَبْذُلَ، وَأَنْ نَمْتَثِلَ الْأَمْرَ، وَأَنْ نَجْتَنِبَ النَّهْيَ، وَأَنْ نَقِفَ عِنْدَ الْحَدِّ، وَأَنْ نَعْمَلَ مَا أَمَرَ اللهُ بِهِ وَرَسُولُهُ ﷺ، وَأَنْ نَدَعَ النَّتَائِجَ لَهُ - تَبَارَكَ وَتَعَالَى؛ فَهُوَ الَّذِي يَنْصُرُ دِينَهُ وَقْتَمَا أَرَادَ أَنْ يَنْصُرَهُ، وَيُمَكِّنُ لِدِينِهِ فِي الْوَقْتِ الَّذِي أَرَادَ أَنْ يُمَكِّنَ لَهُ فِيهِ.

وَلَقَدْ شَكَا خَبَّابُ بْنُ الْأَرَتِّ (١) ﷺ وَأَصْحَابُهُ إِلَى رَسُولِ اللهِ ﷺ مِنْ شِدَّةِ الْعَذَابِ وَمَا يَلْقَاهُ هُوَ وَأَصْحَابُهُ مِنْ أَذَى الْمُشْرِكِينَ؛ فَمَاذَا قَالَ ﷺ؟

رَوَى الْبُخَارِيُّ (٢) مِنْ حَدِيثِ خَبَّابِ بْنِ الْأَرَتِّ ﷺ قَالَ: شَكَوْنَا إِلَى رَسُولِ اللهِ ﷺ وَهُوَ مُتَوَسِّدٌ بُرْدَةً لَهُ فِي ظِلِّ الْكَعْبَةِ، فَقُلْنَا: أَلَا تَسْتَنْصِرُ لَنَا،

---

(١) هو خباب بن الأرت بن جندلة بن سعد بن خزيمة بن كعب بن سعد بن زيد مناة بن تميم التميميُّ، ويقال: الخزاعي، أبو عبد الله، وقيل: أبو محمد أو يحيى، وهو من السابقين الأولين إلى الإسلام وممن عُذِّبَ في الله تعالى، وهو سادس ستة في الإسلام، وشهد بدرًا وما بعدها، ونزل الكوفة ومات بها سنة سبع وثلاثين، وقيل: سنة تسع عشرة، والأول أصح، عاش ثلاثًا وستين سنة.

● انظر: «الإصابة» (٢٢١٥)، و«الاستيعاب» (٦٤٥)، و«أسد الغابة» (١٤٠٧).

(٢) أخرجه البخاريُّ، كتاب الإكراه، باب من اختار الضرب والقتل والهوان عَلَى الكفر (٦٩٤٣)؛ وانظر: رقم (٣٦١٢).

أَلاَ تَدْعُو لَنَا؟ فَقَالَ: «قَدْ كَانَ مَنْ قَبْلَكُمْ يُؤْخَذُ الرَّجُلُ فَيُحفَرُ لَهُ فِي الأَرْضِ، فَيُجْعَلُ فِيهَا، فَيُجَاءُ بِالْمِنْشَارِ فَيُوضَعُ عَلَى رَأْسِهِ فَيُجْعَلُ نِصْفَيْنِ، وَيُمَشَّطُ بِأَمْشَاطِ الْحَدِيدِ مَا دُونَ لَحْمِهِ وَعَظْمِهِ، فَمَا يَصُدُّهُ ذَلِكَ عَنْ دِينِهِ، وَالله لَيَتِمَّنَّ هَذَا الأَمْرُ، حَتَّى يَسِيرَ الرَّاكِبُ مِنْ صَنْعَاءَ إِلَى حَضْرَمَوْتَ، لاَ يَخَافُ إِلَّا الله، وَالذِّئْبَ عَلَى غَنَمِهِ، وَلَكِنَّكُمْ تَسْتَعْجِلُونَ».

وَقَالَ ﷺ لابْنِ عَبَّاسٍ رضي الله عنهما؛ كَمَا فِي «مُسْنَدِ» أَحْمَدَ، وَ«سُنَنِ» التِّرْمِذِيِّ - بِسَنَدٍ صَحِيحٍ - [(١)]: «وَاعْلَمْ أَنَّ فِي الصَّبْرِ عَلَى مَا تَكْرَهُ خَيْرًا كَثِيرًا، وَأَنَّ النَّصْرَ مَعَ الصَّبْرِ، وَأَنَّ الْفَرَجَ مَعَ الْكَرْبِ، وَأَنَّ مَعَ الْعُسْرِ يُسْرًا».

بَلْ أَخبَرَ النَّبِيُّ ﷺ أَنَّ: «الصَّبْرَ ضِيَاءٌ» [(٢)].

قَالَ النَّوَوِيُّ رحمه الله: «أَيْ: لَا يَزَالُ صَاحِبُهُ مُسْتَضِيئًا مُهْتَدِيًا مُسْتَمِرًّا عَلَى الصَّوَابِ» [(٣)].

وَفِي «الصَّحِيحَيْنِ» [(٤)] عَنْ أَبِي سَعِيدٍ الْخُدْرِيِّ رضي الله عنه أَنَّ النَّبِيَّ ﷺ قَالَ: «وَمَنْ يَصْبِرْ يُصَبِّرْهُ الله، وَمَا أُعْطِيَ أَحَدٌ مِنْ عَطَاءٍ خَيْرًا وَأَوْسَعَ مِنَ الصَّبْرِ».

فَالصَّبْرُ مَنْهَجٌ وَدِينٌ وَمُقَوِّمٌ مِنْ أَعْظَمِ مُقَوِّمَاتِ الدَّعْوَةِ والدَّاعِيَةِ فَلَا غِنَى لِلدَّعْوَةِ أَوْ لِلدَّاعِي عَنْهُ فِي أَيِّ مَرْحَلَةٍ عَلَى الطَّرِيقِ وَقَالَ لُقْمَانُ لِوَلَدِهِ: ﴿يَٰبُنَيَّ

---

(١) أخرجه أحمد (١/ ٣٠٧، ٣٠٨)، والترمذيُّ، كتاب صفة القيامة، باب (٥٩) (٢٥١٦)، وقال: «حسن صحيح»، وصححه الألباني في «صحيح الجامع» (٧٩٥٧).

(٢) أخرجه مسلمٌ، كتاب الطهارة، باب فضل الوضوء (٢٢٣) من حديث أبي مالك الأشعري رضي الله عنه.

(٣) «مسلم بشرح النووي» (٢/ ١٠٣).

(٤) أخرجه البخاريُّ، كتاب الرقاق، باب الصبر عن محارم الله (٦٤٧٠)، وانظر: (١٤٦٩)، ومسلمٌ، كتاب الزكاة، باب فضل التعفف والصبر (١٠٥٣).

أَقِمِ ٱلصَّلَوٰةَ وَأْمُرْ بِٱلْمَعْرُوفِ وَٱنْهَ عَنِ ٱلْمُنكَرِ وَٱصْبِرْ عَلَىٰ مَآ أَصَابَكَ ۖ إِنَّ ذَٰلِكَ مِنْ عَزْمِ ٱلْأُمُورِ﴾ [لقمان:١٧].

وَالله نَسْأَلُ أَنْ يَرْزُقَنَا الصَّبْرَ عَلَى طَرِيقِ الدَّعْوَةِ إِلَيْهِ؛ فَذَلِكَ فَضْلُ الله يُؤْتِيهِ مَنْ يَشَاءُ، وَالله ذُو الْفَضْلِ الْعَظِيمِ.

❧◊❧

المَبْحَثُ السَّادِسُ
الحِكْمَةُ وَالرَّحْمَةُ وَالتَّوَاضُعُ

إِنَّ الدُّعَاةَ إِلَى اللهِ - جَلَّ وَعَلَا - لَا يَعِيشُونَ لِأَنْفُسِهِمْ؛ لِأَنَّ الَّذِي يَعِيشُ لِنَفْسِهِ - فَقَطْ - مِنْ أَجْلِ شَهَوَاتِهِ وَرَغَبَاتِهِ وَأَهْوَائِهِ قَدْ يَعِيشُ مُسْتَرِيحًا، وَرُبَّمَا يَكُونُ سَعِيدًا، وَلَكِنَّهُ يَعِيشُ صَغِيرًا، وَيُمُوتُ صَغِيرًا!!

أَمَّا الدُّعَاةُ الصَّادِقُونَ؛ فَإِنَّهُمْ يَعِيشُونَ لِدَعْوَتِهِمْ؛ هِيَ هَمُّهُمْ بِاللَّيْلِ وَالنَّهَارِ؛ هِيَ فِكْرُهُمْ فِي النَّوْمِ وَالْيَقَظَةِ؛ هِيَ شُغْلُهُمْ فِي السِّرِّ وَالْعَلَنِ، يُؤْثِرُونَ مِنْ أَجْلِهَا التَّعَبَ وَالنَّصَبَ وَيُضَحُّونَ فِي سَبِيلِهَا بِالْوَقْتِ وَالْجُهْدِ وَالْمَالِ؛ بَلِ الْمُهَجِ وَالْأَرْوَاحِ، وَيَسْتَعْذِبُونَ فِي سَبِيلِ نَشْرِهَا وَإِبْلَاغِهَا النَّصَبَ وَالْوَصَبَ، وَيَخُوضُونَ بِهَا مَعْرَكَةً تِلْوَ الْمَعْرَكَةِ؛ مَعْرَكَةً مَعَ الْكُفْرِ وَأَعْوَانِهِ وَمَعَ الْبَاطِلِ وَأَنْصَارِهِ، وَمَعْرَكَةً مَعَ الشَّهَوَاتِ وَالشُّبُهَاتِ، وَلَا يَعْرِفُ حَجْمَ هَذِهِ الْمَعَارِكِ الضَّخْمَةِ - الَّتِي يَخُوضُهَا دُعَاةُ الْحَقِّ بِدَعْوَتِهِمْ - إِلَّا مَنْ عَرَفَ حَجْمَ الْبَاطِلِ وَشَرَاسَةَ الْكُفْرِ مِنْ نَاحِيَةٍ، وَحَجْمَ الْتِوَاءَاتِ النَّفْسِ الْبَشَرِيَّةِ الَّتِي تُدَنِّسُهَا الشَّهَوَاتُ وَتَنْهَكُهَا الشُّبُهَاتُ مِنْ نَاحِيَةٍ أُخْرَى لَا سِيَّمَا إِذَا طَالَ عَلَيْهَا الْأَمَدُ، فَلَمْ تُذَكَّرْ وَلَمْ تُرَغَّبْ، وَلَمْ تُرَهَّبْ!! وَمِنْ ثَمَّ كَانَ لَا بُدَّ لِلدُّعَاةِ لِخَوْضِ هَذِهِ الْمَعَارِكِ بِسِلَاحِ الدَّعْوَةِ!! مِنْ حِكْمَةٍ وَرَحْمَةٍ وَتَوَاضُعٍ.

خَاصَّةً وَأَنَّنَا - نَحْنُ الدُّعَاةَ - لَا نَتَعَامَلُ مَعَ مَلَائِكَةٍ بَرَرَةٍ لَا يَعْصُونَ اللهَ مَا أَمَرَهُمْ وَيَفْعَلُونَ مَا يُؤْمَرُونَ، وَلَا نَتَعَامَلُ أَيْضًا مَعَ أَحْجَارٍ صَلْدَةٍ لَا تُحِسُّ وَلَا تَشْعُرُ وَلَا تَفْرَحُ وَلَا تَحْزَنُ، وَلَا نَتَعَامَلُ مَعَ شَيَاطِينَ مَرَدَةٍ!! كَلَّا؛ بَلْ إِنَّنَا نَتَعَامَلُ مَعَ نُفُوسٍ بَشَرِيَّةٍ؛ فِيهَا الْإِقْبَالُ وَالْإِحْجَامُ؛ فِيهَا الْخَيْرُ وَالشَّرُّ؛ فِيهَا الْحُلْوُ وَالْمُرُّ؛ فِيهَا التَّقْوَى وَالْفُجُورُ؛ فِيهَا الطَّاعَةُ وَالْمَعْصِيَةُ؛ كَمَا قَالَ خَالِقُ هَذِهِ النَّفْسِ

الْبَشَرِيَّةِ - سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى: ﴿وَنَفْسٍ وَمَا سَوَّىٰهَا ﴿٧﴾ فَأَلْهَمَهَا فُجُورَهَا وَتَقْوَىٰهَا ﴿٨﴾ قَدْ أَفْلَحَ مَن زَكَّىٰهَا ﴿٩﴾ وَقَدْ خَابَ مَن دَسَّىٰهَا﴾ [الشمس: ٧-١٠].

فَإِذَا جَهِلْنَا مَدَاخِلَ هَذِهِ النَّفْسِ الْبَشَرِيَّةِ وَطَبِيعَتَهَا فَقَدْ لَا تُؤْتِي دَعْوَتُنَا ثِمَارَهَا الْمُرْتَجَاةَ، وَمِنْ رَحْمَةِ اللهِ بِنَا وَحَتَّى لَا نَضِلَّ الطَّرِيقَ أَوْ يَنْحَرِفَ بِنَا الْمَسَارُ حَدَّدَ لَنَا خَالِقُ هَذِهِ النَّفْسِ - جَلَّ وَعَلَا - الطَّرِيقَ الصَّحِيحَ وَالْمَنْهَجَ الْمُتَكَامِلَ لِلدَّعْوَةِ الصَّحِيحَةِ الرَّاشِدَةِ فِي آيَةٍ وَاحِدَةٍ مِنْ كِتَابِ اللهِ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى؛ فَقَالَ ﷻ مُخَاطِبًا سَيِّدَ الدُّعَاةِ وَإِمَامَ الْأَنْبِيَاءِ وَالتُّقَاةِ مُحَمَّدًا ﷺ بِقَوْلِهِ: ﴿ٱدْعُ إِلَىٰ سَبِيلِ رَبِّكَ بِٱلْحِكْمَةِ وَٱلْمَوْعِظَةِ ٱلْحَسَنَةِ ۖ وَجَٰدِلْهُم بِٱلَّتِي هِيَ أَحْسَنُ ۚ إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعْلَمُ بِمَن ضَلَّ عَن سَبِيلِهِۦ ۖ وَهُوَ أَعْلَمُ بِٱلْمُهْتَدِينَ﴾ [النحل: ١٢٥].

وَهُنَا نَلْحَظُ أَنَّ اللهَ تَعَالَى قَدْ أَطْلَقَ لَفْظَ الْحِكْمَةِ، فَلَمْ يُقَيِّدْهَا بِوَصْفِ الْحَسَنَةِ؛ لِأَنَّ الْحِكْمَةَ كُلَّهَا حَسَنَةٌ وَوَصْفُ الْحُسْنِ لَهَا ذَاتِيٌّ!!

وَأَمَّا الْمَوْعِظَةُ؛ فَقَدْ قَيَّدَهَا - تَبَارَكَ وَتَعَالَى - بِالْإِحْسَانِ، إِذْ لَيْسَ كُلُّ مَوْعِظَةٍ حَسَنَةً!!

وَكَذَلِكَ الْجِدَالُ يَنْبَغِي أَنْ يَكُونَ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ سَوَاءٌ مَعَ الْمُجَادِلِ نَفْسِهِ أَوْ لِمَا يُجَادِلُ بِهِ مِنْ أَدِلَّةٍ وَحُجَجٍ وَكَلِمَاتٍ وَأَدَاءٍ يُوَضِّحُ الْمَقْصُودَ وَيُوَصِّلُ إِلَى الْمَطْلُوبِ دُونَ تَعْنِيفٍ أَوْ تَوْبِيخٍ أَوْ تَحْقِيرٍ أَوِ ازْدِرَاءٍ لَا لِشَخْصِ الْمُجَادِلِ وَلَا لِفِكْرِهِ لَا سِيَّمَا إِنْ كَانَ لَا يَدْرِي وَيَدْرِي أَنَّهُ لَا يَدْرِي!!

فَالدَّعْوَةُ - **أَوَّلًا** - **للهِ** - جَلَّ وَعَلَا ﴿ٱدْعُ إِلَىٰ سَبِيلِ رَبِّكَ﴾ لَا لِشَخْصِ الدَّاعِيَةِ وَلَا لِقَوْمِهِ وَلَا لِجَمَاعَتِهِ وَلَا لِكُرْسِيِّهِ الزَّائِلِ وَمَنْصِبِهِ الْفَانِي!! أَجَلْ فَلَيْسَ لِلدَّاعِي مِنْ دَعْوَتِهِ إِلَّا أَنْ يُؤَدِّيَ وَاجِبَهُ خَالِصًا للهِ - جَلَّ وَعَلَا - وَأَلَّا تُحَدِّثَهُ نَفْسُهُ الْبَتَّةَ بِفَضْلٍ مَا!! لَا عَلَى الدَّعْوَةِ، وَلَا عَلَى مَنْ يَهْدِيهِمُ اللهُ - جَلَّ وَعَلَا - عَلَى يَدَيْهِ؛ فَالْفَضْلُ للهِ وَحْدَهُ الَّذِي مَنَّ عَلَيْهِ، وَشَرَّفَهُ بِالدَّعْوَةِ وَأَعَانَهُ وَوَفَّقَهُ لِتَحَمُّلِ تَبِعَاتِهَا

﴿بَلِ اللَّهُ يَمُنُّ عَلَيْكُمْ أَنْ هَدَاكُمْ لِلْإِيمَانِ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ﴾ [الحجرات: ١٧].

وَالدَّعْوَةُ - **ثَانِيًا**- يَجِبُ أَنْ تَكُونَ بِالْحِكْمَةِ وَالْمَوْعِظَةِ الْحَسَنَةِ وَالْجِدَالِ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ؛ **فَمَا هِيَ الْحِكْمَةُ؟** لِأَنَّهَا زَادُنَا الَّذِي نُرِيدُ تَحْصِيلَهُ، وَمُقَوِّمُنَا الَّذِي نَتَحَدَّثُ عَنْهُ. وَلَا غِنًى عَنْهُ مُطْلَقًا لِلدَّعْوَةِ وَلِلدَّاعِيَةِ.

الْحِكْمَةُ: هِبَةٌ وَفَضْلٌ مِنَ اللهِ - جَلَّ وَعَلَا- لِمَنْ شَاءَ مِنْ عِبَادِهِ؛ كَمَا قَالَ ﷻ: ﴿يُؤْتِي الْحِكْمَةَ مَن يَشَاءُ ۚ وَمَن يُؤْتَ الْحِكْمَةَ فَقَدْ أُوتِيَ خَيْرًا كَثِيرًا﴾ [البقرة: ٢٦٩].

وَقَدْ حَدَّهَا الْإِمَامُ ابْنُ الْقَيِّمِ فِي الْمَدَارِجِ حَدًّا جَامِعًا؛ **فَقَالَ**(١): «الْحِكْمَةُ هِيَ فِعْلُ مَا يَنْبَغِي، عَلَى الْوَجْهِ الَّذِي يَنْبَغِي، فِي الْوَقْتِ الَّذِي يَنْبَغِي».

وَمِنْهُمْ مَنْ عَرَّفَهَا بِقَوْلِهِ (٢): «الْحِكْمَةُ هِيَ إِصَابَةُ الْحَقِّ بِالْقَوْلِ وَالْعَمَلِ».

قَالَ ابنُ القَيِّمِ ؒ: «قَالَ ابْنُ قُتَيْبَةَ وَالْجُمْهُورُ: الحِكْمَةُ: إِصَابَةُ الحَقِّ وَالعَمَلُ بِهِ» (٣).

وقَالَ الرَّاغِبُ: «وَالحِكْمَةُ: إِصَابَةُ الحَقِّ بِالعِلْمِ وَالعَقْلِ» (٤).

وَقَالَ الْكَفَوِيُّ فِي «الْكُلِّيَّاتِ» (٥): «الْحِكْمَةُ هِيَ الْعَدْلُ، وَالْعِلْمُ، وَالْحُكْمُ، وَالنُّبُوَّةُ، وَالْقُرْآنُ، وَالْإِنْجِيلُ، وَوَضْعُ الشَّيْءِ فِي مَوْضِعِهِ، وَصَوَابُ الْأَمْرِ

---

(١) «مدارج السالكين» (٢/ ٤٩٩)، طبعة دار الحديث.

(٢) «التحرير والتنوير» لابن عاشور (١١/ ٩) (تفسير يونس: ١)، وقال الرازيُّ في «تفسيره» (٤/ ٦١): «الحكمة هي الإصابة في القول والعمل»، وانظر: «فتح القدير» (١/ ٤٣٨) للشوكاني، و«تاج العروس» للزبيدي (٣١/ ٥١٣).

(٣)«مفتاح دار السعادة» (١/ ٥٢) ط دار الكتب العلمية، بيروت.

(٤)«المفردات» (ص: ١٣٤).

(٥) «الكليات» للكفوي (٣٨٢) ط مؤسسة الرسالة.

وَسَدَادُهُ».

«وَلِلْحِكْمَةِ ثَلَاثَةُ أَرْكَانٍ هِيَ:

الْعِلْمُ وَالْحِلْمُ وَالْأَنَاةُ.

وَآفَاتُهَا وَأَضْدَادُهَا وَمَعَاوِلُ هَدْمِهَا: الْجَهْلُ وَالطَّيْشُ وَالْعَجَلَةُ؛ فَلَا حِكْمَةَ لِجَاهِلٍ وَطَائِشٍ وَعَجُولٍ» (١).

فَالدَّاعِيَةُ الْحَكِيمُ هُوَ الَّذِي يَنْظُرُ بِوَعْيٍ ثَاقِبٍ وَبَصِيرَةٍ مُشْرِقَةٍ إِلَى وَاقِعِ أُمَّتِهِ الْجَرِيحَةِ؛ لِيَتَعَرَّفَ عَلَى أَسْبَابِ ذُلِّهَا وَضَعْفِهَا وَغِيَابِ هَوِيَّتِهَا مِنْ نَاحِيَةٍ، وَإِلَى حَجْمِ الْمُؤَامَرَاتِ الَّتِي تُحَاكُ لَهَا فِي اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ مِنْ نَاحِيَةٍ أُخْرَى، لِيُشَخِّصَ الدَّاءَ بِدِقَّةٍ قَبْلَ أَنْ يُحَدِّدَ الدَّوَاءَ!! فَلَا يَكُونُ بِدَعْوَتِهِ فِي وَادٍ وَأُمَّتُهُ الْجَرِيحَةُ فِي وَادٍ آخَرَ، فَيَعْلَمَ الَّذِي يَنْبَغِي أَنْ يُقَالَ فِي الْوَقْتِ الَّذِي يَجِبُ فِيهِ أَنْ يُقَالَ.

الدَّاعِيَةُ الْحَكِيمُ هُوَ الَّذِي يَبْذُلُ عَرَقَهُ وَجُهْدَهُ وَفِكْرَهُ وَرُوحَهُ؛ لِتَهْيِئَةِ النُّفُوسِ الشَّارِدَةِ وَالْعُقُولِ الْمُشَوَّشَةِ؛ لِتَقْبَلَ الْحَقَّ، وَذَلِكَ بِالتَّلَطُّفِ وَالتَّدَرُّجِ وَالْفَهْمِ الْعَمِيقِ لِحَجْمِ شُرُودِ هَذِهِ النَّفْسِ وَقَدْرِ التَّشْوِيشِ عِنْدَ هَذَا الْعَقْلِ، وَذَلِكَ لِإِعْدَادِ الْحُجَّةِ وَالْبَلَاغِ الَّذِي يَتَنَاسَبُ مَعَ حَالِ الْمَدْعُوِّينَ مِنْ حَيْثُ انْتَهَى إِلَيْهِ فَهْمُهُمْ لَا مِنْ حَيْثُ انْتَهَى إِلَيْهِ فَهْمُ الدَّاعِي!! فَالنَّاسُ يَخْتَلِفُونَ فِي عُقُولِهِمْ وَفَهْمِهِمْ وَطَبَائِعِهِمْ وَأَخْلَاقِهِمْ وَمُسْتَوَاهُمُ الْفِكْرِيِّ وَالِاجْتِمَاعِيِّ، وَمِنْ ثَمَّ تَخْتَلِفُ الطُّرُقُ وَالْوَسَائِلُ الَّتِي يَجِبُ عَلَى الدَّاعِيَةِ أَنْ يَسْلُكَهَا. وَمَا أَجْمَلَ قَوْلَ عَلِيِّ بْنِ أَبِي طَالِبٍ ﵁: «حَدِّثُوا النَّاسَ بِمَا يَعْرِفُونَ أَتُحِبُّونَ أَنْ يُكَذَّبَ اللهُ وَرَسُولُهُ» (٢).

---

(١) «المدارج» (٢/ ٥٠٠).

(٢) «صحيح» البخاري مع الفتح، كتاب العلم، باب من خص بالعلم قومًا دون قوم كراهية ألا يفهموا (١/ ٢٧٢) (١٢٧) وفي رواية: «ودعوا ما ينكرون»؛ أي: يشتبه عليهم فهمه؛ كما قاله الحافظ.

قَالَ الْحَافِظُ فِي «الْفَتْحِ» (١):

«وَفِيهِ دَلِيلٌ عَلَى أَنَّ الْمُتَشَابِهَ لا يَنبَغِي أَنْ يُذْكَرَ عِنْدَ الْعَامَّةِ، وَمِثْلُهُ قَوْلُ ابْنِ مَسْعُودٍ رضي الله عنه: «مَا أَنْتَ مُحَدِّثًا قَوْمًا حَدِيثًا لَا تَبْلُغُهُ عُقُولُهُمْ إِلَّا كَانَ لِبَعْضِهِمْ فِتْنَةً» رَوَاهُ مُسْلِمٌ» (٢). انْتَهى.

وَمِثْلُهُ قَوْلُ عَائِشَةَ رضي الله عنها: «أَمَرَنَا رَسُولُ الله ﷺ أَنْ نُنْزِلَ النَّاسَ مَنَازِلَهُمْ»(٣)؛ فَلا يَكْفِي أَنْ تَعْلَمَ فَقَطْ، وَلَكِنْ أَيْضًا أَنْ تَعْرِفَ مَتَى وَأَيْنَ وَكَيْفَ تُبَلِّغُ مَا تَعْلَمُ؟!!

الدَّاعِيَةُ الْحَكِيمُ هُوَ الَّذِي يَفْهَمُ الإِسْلَامَ فَهْمًا صَحِيحًا كَمَا فَهِمَهُ سَلَفُ الأُمَّةِ، ثُمَّ يَنْطَلِقُ لِدَعْوَةِ النَّاسِ إِلَى الإِسْلَامِ بِشُمُولِهِ؛ لِنَقْلِهِمْ مِنْ صُورَةِ الإِسْلَامِ إِلَى حَقِيقَةِ الإِسْلَامِ، وَذَلِكَ بِدَعْوَتِهِمْ إِلَى الأُصُولِ قَبْلَ الْفُرُوعِ، وَإِلَى الْكُلِّيَّاتِ قَبْلَ الْجُزْئِيَّاتِ.

وَانْتَبِهُوا جَيِّدًا فَإِنِّي لَا أَقُولُ يَدعُو النَّاسَ إِلَى الأُصُولِ وَيَهْزَأُ بِالْفُرُوعِ أَوْ يَدْعُوهُمْ إِلَى الْكُلِّيَّاتِ وَيَسخَرُ بِالْجُزْئِيَّاتِ؛ فَهَذِهِ شَنْشَنَةٌ خَطِيرَةٌ، وَمَزِلَّةٌ كَبِيرَةٌ وَقَعَ فِيهَا بَعْضُ الْعُلَمَاءِ وَالدُّعَاةِ؛ فَالدِّينُ كُلٌّ لَا يَتَجَزَّأُ، بِأُصُولِهِ وَفُرُوعِهِ، وَكُلِّيَّاتِهِ وَجُزْئِيَّاتِهِ، وَفَرْقٌ كَبِيرٌ جِدًّا - فِي مَرَاحِلِ الدَّعْوَةِ- بَيْنَ فِقْهِ الأَوْلَوِيَّاتِ وَبَيْنَ السُّخْرِيَةِ وَتَحْقِيرِ الْفَرْعِيَّاتِ وَالْجُزْئِيَّاتِ!!

الدَّاعِيَةُ الْحَكِيمُ هُوَ الَّذِي يَنْظُرُ بِوَعْيٍ ثَاقِبٍ وَبَصِيرَةٍ نَيِّرَةٍ إِلَى مَآلَاتِ الأَقْوَالِ

---

(١) «فتح الباري» (١/ ٢٧٢).

(٢) أخرجه مسلمٌ في المقدمة، باب النهي عن الحديث بكل ما سمع (١/ ١١) (مع «شرح النووي»).

(٣) أورده مسلمٌ، في المقدمة (مع «شرح النووي» (١/ ٥٥)) بصيغة التمريض؛ فقال: «وقد ذُكِر عن عائشة... فساقه عنها»، وقد وصله أبو داود، كتاب الأدب، باب في تنزيل الناس منازلهم (٤٨٤٢) وحكم عليه بالانقطاع، وضعَّفه الألباني في «ضعيف الجامع» (١٣٤٤)، وله شاهدٌ؛ راجعْهُ في «الضعيفة» (١٨٩٤)، و«علل الدارقطني» (١٤/ ٣٩١) ط طيبة بمكة المكرمة.

وَالْأَفْعَالِ مِنْ مَصَالِحَ وَمَفَاسِدَ؛ لِأَنَّ الْحَمَاسَ قَدْ يَدْفَعُنَا أَحْيَانًا إِلَى الْعَجَلَةِ وَعَدَمِ التَّأَنِّي وَالصَّبْرِ، وَلَكِنْ يَجِبُ أَنْ تَكُونَ الْأَقْوَالُ وَالْأَفْعَالُ، بَلِ الاجْتِهَادَاتُ الْحَرَكِيَّةُ الْمُتَجَدِّدَةُ بِتَغَيُّرِ الظُّرُوفِ وَتَجَدُّدِ الْأَحْدَاثِ، يَجِبُ أَنْ تَكُونَ - جَمِيعُهَا- مُنْبَثِقَةً مِنْ خِلَالِ مَنْهَجٍ مَضْبُوطٍ وَفْقَ الْأُصُولِ الشَّرْعِيَّةِ، وَالْحَقُّ أَنَّ غِيَابَ هَذَا الْأَصْلِ الْعَظِيمِ يُرْبِكُ الدَّعْوَةَ الْإِسْلَامِيَّةَ بِشَتَّى فَصَائِلِهَا مِنْ حِينٍ لِآخَرَ، وَقَدْ يُعَطِّلُ مَسِيرَهَا أَحْيَانًا.

«وَالشَّرِيعَةُ مَبْنَاهَا وَأَسَاسُهَا عَلَى الْحِكَمِ وَمَصَالِحِ الْعِبَادِ فِي الْمَعَاشِ وَالْمَعَادِ، وَهِيَ عَدْلٌ كُلُّهَا، وَرَحْمَةٌ كُلُّهَا، وَمَصَالِحُ كُلُّهَا، وَحِكْمَةٌ كُلُّهَا؛ فَكُلُّ مَسْأَلَةٍ خَرَجَتْ مِنَ الْعَدْلِ إِلَى الْجَوْرِ، وَعَنِ الرَّحْمَةِ إِلَى ضِدِّهَا، وَعَنِ الْمَصْلَحَةِ إِلَى الْمَفْسَدَةِ، وَعَنِ الْحِكْمَةِ إِلَى الْعَبَثِ؛ فَلَيْسَتْ مِنَ الشَّرِيعَةِ وَإِنْ أُدْخِلَتْ فِيهَا بِالتَّأْوِيلِ، فَالشَّرِيعَةُ عَدْلُ اللهِ بَيْنَ عِبَادِهِ، وَرَحْمَتُهُ بَيْنَ خَلْقِهِ، وَهِيَ نُورُهُ الَّذِي بِهِ أَبْصَرَ الْمُبْصِرُونَ، وَهُدَاهُ الَّذِي بِهِ اهْتَدَى الْمُهْتَدُونَ، وَشِفَاؤُهُ التَّامُّ الَّذِي بِهِ دَوَاءُ كُلِّ عَلِيلٍ، وَطَرِيقُهُ الْمُسْتَقِيمُ الَّذِي مَنِ اسْتَقَامَ عَلَيْهِ فَقَدِ اسْتَقَامَ عَلَى سَوَاءِ السَّبِيلِ؛ فَهِيَ قُرَّةُ الْعُيُونِ، وَحَيَاةُ الْقُلُوبِ، وَلَذَّةُ الْأَرْوَاحِ، وَكُلُّ خَيْرٍ فِي الْوُجُودِ فَإِنَّمَا هُوَ مُسْتَفَادٌ مِنْهَا وَحَاصِلٌ بِهَا، وَمِنْ ذَلِكَ أَنَّ النَّبِيَّ ﷺ شَرَعَ لِأُمَّتِهِ إِيجَابَ إِنْكَارِ الْمُنْكَرِ؛ لِيَحْصُلَ بِإِنْكَارِهِ مِنَ الْمَعْرُوفِ مَا يُحِبُّهُ اللهُ وَرَسُولُهُ، فَإِذَا كَانَ إِنْكَارُ الْمُنْكَرِ يَسْتَلْزِمُ مَا هُوَ أَنْكَرُ مِنْهُ وَأَبْغَضُ إِلَى اللهِ وَرَسُولِهِ فَإِنَّهُ لَا يَسُوغُ إِنْكَارُهُ، وَمَنْ تَأَمَّلَ مَا جَرَى عَلَى الْإِسْلَامِ فِي الْفِتَنِ الْكِبَارِ وَالصِّغَارِ رَآهَا مِنْ إِضَاعَةِ هَذَا الْأَصْلِ، فَقَدْ كَانَ رَسُولُ اللهِ ﷺ يَرَى بِمَكَّةَ أَكْبَرَ الْمُنْكَرَاتِ وَلَا يَسْتَطِيعُ تَغْيِيرَهَا؛ بَلْ لَمَّا فَتَحَ اللهُ مَكَّةَ وَصَارَتْ دَارَ إِسْلَامٍ عَزَمَ عَلَى تَغْيِيرِ الْبَيْتِ وَرَدِّهِ عَلَى قَوَاعِدِ إِبْرَاهِيمَ، وَمَنَعَهُ مِنْ ذَلِكَ مَعَ قُدْرَتِهِ عَلَيْهِ؛ خَشْيَةُ وُقُوعِ مَا هُوَ أَعْظَمُ مِنْهُ مِنْ عَدَمِ احْتِمَالِ قُرَيْشٍ ذَلِكَ؛ لِقُرْبِ عَهْدِهِمْ بِالْإِسْلَامِ، وَكَوْنِهِمْ حَدِيثِي عَهْدٍ بِكُفْرٍ» (١).

---

(١) بتصرفٍ من «إعلام الموقعين» (٣/ ٦، ٧)، طبعة مكتبة ابن تيمية، بتحقيق الشيخ عبد الرحمن الوكيل.

وَأَخِيرًا: فَإِنَّ الدَّاعِيَةَ الْحَكِيمَ هُوَ الَّذِي يَعْرِفُ مَتَى يَعْدِلُ عَنِ الدَّعْوَةِ بِالْحِكْمَةِ وَالْمَوْعِظَةِ الْحَسَنَةِ وَالرِّفْقِ وَاللِّينِ إِلَى الشِّدَّةِ - أَحْيَانًا - إِذَا انْتُهِكَتْ حُرْمَةٌ مِنْ حُرُمَاتِ اللهِ، وَلَكِنْ بِالْقَدْرِ الَّذِي يَنْبَغِي مَعَ مُرَاعَاةِ الضَّوَابِطِ الشَّرْعِيَّةِ الَّتِي ذَكَرْنَاهَا آنِفًا، وَلَنَا فِي رَسُولِ اللهِ ﷺ الْأُسْوَةُ الْحَسَنَةُ وَالْقُدْوَةُ الطَّيِّبَةُ؛ فَلَقَدْ كَانَ النَّبِيُّ ﷺ إِذَا انْتُهِكَتْ حُرْمَةٌ مِنْ حُرُمَاتِ اللهِ غَضِبَ غَضَبًا شَدِيدًا، كَمَا فَعَلَ ذَلِكَ حِينَمَا جَاءَهُ أُسَامَةُ بْنُ زَيْدٍ رضي الله عنه يَشْفَعُ عِنْدَهُ فِي الْمَرْأَةِ الْمَخْزُومِيَّةِ الَّتِي سَرَقَتْ، فَتَلَوَّنَ وَجْهُهُ ﷺ، وَقَالَ: «**أَتَشْفَعُ فِي حَدٍّ مِنْ حُدُودِ اللهِ**»؛ فَقَالَ أُسَامَةُ: اسْتَغْفِرْ لِي يَا رَسُولَ اللهِ! فَلَمَّا كَانَ الْعَشِيُّ قَامَ رَسُولُ ﷺ، فَاخْتَطَبَ فَأَثْنَى عَلَى اللهِ بِمَا هُوَ أَهْلُهُ ثُمَّ قَالَ: «**أَمَّا بَعْدُ؛ فَإِنَّمَا أَهْلَكَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِكُمْ، أَنَّهُمْ كَانُوا إِذَا سَرَقَ فِيهِمُ الشَّرِيفُ تَرَكُوهُ، وَإِذَا سَرَقَ فِيهِمُ الضَّعِيفُ أَقَامُوا عَلَيْهِ الْحَدَّ، وَإِنِّي وَالَّذِي نَفْسِي بِيَدِهِ! لَوْ أَنَّ فَاطِمَةَ بِنْتَ مُحَمَّدٍ سَرَقَتْ لَقَطَعْتُ يَدَهَا**»[١].

وَبَعْدُ؛ فَإِنَّهُ مِنَ الْحِكْمَةِ أَنْ نَخْتِمَ الْحَدِيثَ عَنْهَا بِمَشْهَدٍ عَمَلِيٍّ وَدَرْسٍ وَاقِعِيٍّ مِنْ مُعَلِّمِ النَّاسِ الْحِكْمَةَ - بِأَبِي هُوَ وَأُمِّي - ﷺ.

فَفِي «**صَحِيحِ الْبُخَارِيِّ**»[٢] مِنْ حَدِيثِ أَبِي هُرَيْرَةَ رضي الله عنه قَالَ: قَامَ أَعْرَابِيٌّ فَبَالَ فِي الْمَسْجِدِ فَتَنَاوَلَهُ النَّاسُ؛ فَقَالَ لَهُمُ النَّبِيُّ ﷺ: «**دَعُوهُ وَأَهْرِيقُوا عَلَى بَوْلِهِ سَجْلًا مِنْ مَاءٍ - أَوْ ذَنُوبًا مِنْ مَاءٍ - فَإِنَّمَا بُعِثْتُمْ مُيَسِّرِينَ، وَلَمْ تُبْعَثُوا مُعَسِّرِينَ**».

وَفِي رِوَايَةِ أَبِي دَاوُدَ وَغَيْرِهِ[٣]: «أَنَّ أَعْرَابِيًّا دَخَلَ الْمَسْجِدَ وَرَسُولُ اللهِ ﷺ

---

(١) أخرجه البخاريُّ، كتاب الحدود، باب كراهية الشفاعة في الحد إذا رفع إلى السلطان (٦٧٨٨)، ومسلمٌ، كتاب الحدود، باب قطع يد السارق الشريف وغيره والنهي عن الشفاعة في الحدود (١٦٨٨)، وهذا لفظه.

(٢) أخرجه البخاريُّ، كتاب الوضوء، باب صب الماء عَلَى البول في المسجد (٢١٧) وعنده برقم (٥٧٧٧).

(٣) عند أبي داود، كتاب الطهارة، باب الأرض يصيبها البول (٣٨٠)، وأحمد (٢/ ٢٣٩)، والترمذيّ، كتاب الطهارة، باب ما جاء في البول يصيب الأرض (١٤٧) والنسائي، =

جَالِسٌ فَصَلَّى رَكْعَتَيْنِ، ثُمَّ قَالَ: اللهمَّ ارْحَمْنِي وَمُحَمَّدًا وَلَا تَرْحَمْ مَعَنَا أَحَدًا؛ فَقَالَ النَّبِيُّ ﷺ: «**لَقَدْ تَحَجَّرْتَ وَاسِعًا**» ثُمَّ لَمْ يَلْبَثْ أَنْ بَالَ فِي نَاحِيَةِ الْمَسْجِدِ فَأَسْرَعَ النَّاسُ إِلَيْهِ، فَنَهَاهُمْ ﷺ، وَقَالَ:.. وَذَكَرَ الْحَدِيثَ».

وَفِي رِوَايَةٍ لِأَحْمَدَ (١) وَغَيْرِهِ: «فَقَامَ إِلَيْهِ رَسُولُ الله ﷺ؛ فَقَالَ: «**إِنَّمَا بُنِيَ هَذَا الْبَيْتُ لِذِكْرِ الله وَالصَّلَاةِ، وَإِنَّهُ لَا يُبَالُ فِيهِ**».

ثُمَّ دَعَا بِسَجْلٍ مِنْ مَاءٍ فَأَفْرَغَهُ عَلَيْهِ قَالَ: يَقُولُ الْأَعْرَابِيُّ بَعْدَ أَنْ فَقِهَ: فَقَامَ النَّبِيُّ ﷺ إِلَيَّ - بِأَبِي هُوَ وَأُمِّي - فَلَمْ يَسُبَّ وَلَمْ يُؤَنِّبْ وَلَمْ يَضْرِبْ».

وَفِي رِوَايَةٍ لِمُسْلِمٍ (٢) عَنْ أَنَسٍ رضي الله عنه قَالَ: بَيْنَمَا نَحْنُ فِي الْمَسْجِدِ مَعَ رَسُولِ الله ﷺ إِذْ جَاءَ أَعْرَابِيٌّ، فَقَامَ يَبُولُ فِي الْمَسْجِدِ؛ فَقَالَ أَصْحَابُ رَسُولِ الله: مَهْ مَهْ. قَالَ: قَالَ رَسُولُ الله ﷺ: «**لَا تُزْرِمُوهُ دَعُوهُ**»، فَتَرَكُوهُ حَتَّى بَالَ، ثُمَّ إِنَّ رَسُولَ الله ﷺ دَعَاهُ؛ فَقَالَ لَهُ: «**إِنَّ هَذِهِ الْمَسَاجِدَ لَا تَصْلُحُ لِشَيْءٍ مِنْ هَذَا الْبَوْلِ وَلَا الْقَذَرِ، إِنَّمَا هِيَ لِذِكْرِ الله عز وجل وَالصَّلَاةِ وَقِرَاءَةِ الْقُرْآنِ**» أَوْ كَمَا قَالَ رَسُولُ الله ﷺ. قَالَ: فَأَمَرَ رَجُلًا مِنَ الْقَوْمِ فَجَاءَ بِدَلْوٍ مِنْ مَاءٍ فَشَنَّهُ عَلَيْهِ».

بِالله عَلَيْكُمْ هَلْ فِي لُغَةِ الْبَشَرِ مَا نَسْتَطِيعُ أَنْ نُعَبِّرَ بِهِ عَنْ هَذِهِ الْحِكْمَةِ وَالرَّحْمَةِ؟! كَلَّا، أَلَا فَلْنَدَعِ الْمَشْهَدَ يُحَدِّثُ عَنْ جَلَالِهِ وَرَوْعَتِهِ بِنَفْسِهِ!!

وَمِنَ الْحِكْمَةِ إِلَى الرَّحْمَةِ؛ فَإِنَّ الْغِلْظَةَ أَوِ الْقَسْوَةَ تُفْسِدُ وَلَا تُصْلِحُ، وَتَهْدِمُ

= كتاب السهو، باب الكلام في الصلاة (٣/ ١٤)، وفي «الكبرى» (٥٥٤)، وابن خزيمة (٨٦٤)، والحميدي (٩٣٨)، والشافعي (٧٢)، ومن طريقه البيهقي في «معرفة السنن والآثار» (١٣٦٩)، وابن حبان (٩٨٧) بسندٍ صححه العلامة الألباني.

(١) عند أحمد (٢/ ٥٠٣)، وابن ماجه، كتاب الطهارة، باب الأرض يصيبها البول كيف تغسل؟ (٥٢٩)، والبزار في «مسنده» (٧٩١٥)، وابن حبان (٩٨٥) بسندٍ حسنٍ.

(٢) عند مسلم، كتاب الطهارة، باب وجوب غسل البول وغيره (٢٨٤)، و(٢٨٥)، وكذا عند البخاريِّ، كتاب الأدب، باب الرفق في الأمر كلِّه (٦٠٢٥) مختصرًا.

وَلَا تَبْنِي، وَالَّذِي لَا يَرَى النَّاسَ إِلَّا بِعَيْنِ الِاحْتِقَارِ وَالِازْدِرَاءِ وَلَا يَذْكُرُهُمْ إِلَّا بِلِسَانِ الطَّعْنِ فِيهِمْ وَالْعَيْبِ لَهُمْ وَالذَّمِّ، يَنْبَغِي أَنْ يَعْلَمَ جَيِّدًا: «أَنَّهُ أَعْجَزُ شَيْءٍ عَنْ حِفْظِ نَفْسِهِ وَأَضْعَفُهُ، وَأَنَّهُ لَا قُوَّةَ لَهُ وَلَا قُدْرَةَ وَلَا حَوْلَ لَهُ إِلَّا بِرَبِّهِ - جَلَّ وَعَلَا- وَأَنَّ قَلْبَهُ كَرِيشَةٍ مُلْقَاةٍ بِأَرْضٍ فَلَاةٍ تُقَلِّبُهَا الرِّيَاحُ يَمِينًا وَشِمَالًا، وَأَنَّهُ كَرَاكِبِ سَفِينَةٍ فِي الْبَحْرِ تَهِيجُ بِهَا الرِّيَاحُ وَتَتَلَاعَبُ بِهَا الْأَمْوَاجُ، تَرْفَعُهَا تَارَةً وَتَخْفِضُهَا تَارَةً أُخْرَى، وَهُوَ لَا يَمْلِكُ لِنَفْسِهِ ضَرًّا وَلَا نَفْعًا وَلَا مَوْتًا وَلَا حَيَاةً وَلَا نُشُورًا، لَيْسَ لَهُ مِنْ نَفْسِهِ إِلَّا الْجَهْلُ وَالظُّلْمُ وَآثَارُهُمَا وَمُقْتَضَيَاتُهُمَا؛ فَالْهَلَاكُ أَدْنَى إِلَيْهِ مِنْ شِرَاكِ نَعْلِه كَشَاةٍ مُلْقَاةٍ بَيْنَ الذِّئَابِ وَالسِّبَاعِ لَا يَرُدُّهَا عَنْهَا إِلَّا الرَّاعِي؛ فَلَوْ تَخَلَّى عَنْهَا طَرْفَةَ عَيْنٍ لَتَقَاسَمُوهَا أَعْضَاءً، يَنْبَغِي أَنْ يَعْلَمَ أَنَّهُ يَفْتَقِرُ افْتِقَارًا تَامًّا إِلَى رَبِّهِ وَوَلِيِّهِ - جَلَّ وَعَلَا- وَمَنْ بِيَدِهِ صَلَاحُهُ وَفَلَاحُهُ وَهُدَاهُ وَسَعَادَتُهُ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ»[(١)].

وَمِنْ ثَمَّ يَسْتَحْضِرُ فَضْلَ اللهِ عَلَيْهِ فِي كُلِّ لَحْظَةٍ، وَفِي كُلِّ حَرَكَةٍ وَسَكَنَةٍ؛ فَهُوَ الَّذِي اخْتَارَهُ وَعَلَّمَهُ وَأَعَانَهُ وَوَفَّقَهُ وَأَعَزَّهُ بِالدَّعْوَةِ إِلَيْهِ وَإِلَى دِينِهِ؛ لِذَا يَنْبَغِي أَنْ يَكُونَ كَالطَّبِيبِ الَّذِي يَنْظُرُ إِلَى مَرِيضِهِ نَظْرَةَ إِشْفَاقٍ وَرَحْمَةٍ لَا نَظْرَةَ ازْدِرَاءٍ وَاحْتِقَارٍ، وَإِلَّا فَهَلْ سَمِعْنَا أَنَّ طَبِيبًا طَرَدَ مَرِيضَهُ مِنْ عِيَادَتِهِ لِأَنَّهُ مَرِيضٌ؟!

فَيَجِبُ عَلَى الدَّاعِيَةِ أَنْ يَكُونَ رَحِيمًا بِمَنْ مَعَهُ لَيِّنًا لَهُمْ، وَلَوْ كَانَ فَظًّا غَلِيظَ الْقَلْبِ مَا تَآلَفَتْ حَوْلَهُ الْقُلُوبُ، وَلَا تَجَمَّعَتْ حَوْلَهُ النُّفُوسُ؛ فَالتَّعَامُلُ مَعَ النُّفُوسِ الْبَشَرِيَّةِ لِهِدَايَتِهَا يَقْتَضِي سَعَةَ صَدْرٍ، وَسَمَاحَةَ طَبْعٍ، وَيُسْرًا وَتَيْسِيرًا، وَلَكِنْ مِنْ غَيْرِ تَهَاوُنٍ وَلَا تَفْرِيطٍ فِي دِينِ اللهِ، وَهَذَا التَّفْرِيقُ يَحْتَاجُ إِلَى حِكْمَةٍ كَبِيرَةٍ، وَوَعْيٍ ثَاقِبٍ، وَبَصِيرَةٍ نَيِّرَةٍ؛ حَتَّى لَا تَخْتَلِطَ الْأَوْرَاقُ.

الدَّاعِيَةُ الرَّحِيمُ هُوَ الَّذِي يُصَابُ بِالْحَسْرَةِ وَالْأَلَمِ حِينَ يَرَى النَّاسَ يُعْرِضُونَ عَنْ دِينِ اللهِ وَيَشْرُدُونَ عَنِ الْحَقِّ وَيَصُدُّونَ عَنْ سَبِيلِ اللهِ، فَيَدْنُو مِنْهُمْ؛ لِيَأْخُذَ

---

(١) مستفادٌ بتصرفٍ من «مدارج السالكين» (١/ ٤٢٧ و٤٢٨).

بِأَيْدِيهِمْ إِلَى الْحَقِّ وَالْهُدَى وَالنُّورِ، وَقَدْ ثَبَتَ فِي «الصَّحِيحَيْنِ» (١) مِنْ حَدِيثِ جَرِيرِ بْنِ عَبْدِ اللهِ (٢) رضي الله عنه أَنَّ النَّبِيَّ صلى الله عليه وسلم قَالَ: «**مَنْ لَا يَرْحَمُ النَّاسَ لَا يَرْحَمْهُ اللهُ**». وَلَقَدِ امْتَنَّ اللهُ - جَلَّ وَعَلَا- عَلَى هَذِهِ الْأُمَّةِ الْمَيْمُونَةِ بِمَنْ بُعِثَ رَحْمَةً لِلْعَالَمِينَ؛ فَقَالَ اللهُ - جَلَّ وَعَلَا: ﴿لَقَدْ جَاءَكُمْ رَسُولٌ مِّنْ أَنفُسِكُمْ عَزِيزٌ عَلَيْهِ مَا عَنِتُّمْ حَرِيصٌ عَلَيْكُم بِالْمُؤْمِنِينَ رَءُوفٌ رَّحِيمٌ﴾ [التوبة:١٢٨].

وَفِي «صَحِيحِ مُسْلِمٍ»(٣) مِنْ حَدِيثِ أَبِي هُرَيْرَةَ رضي الله عنه أَنَّ النَّبِيَّ صلى الله عليه وسلم قِيلَ لَهُ يَوْمًا: يَا رَسُولَ اللهِ! ادْعُ عَلَى الْمُشْرِكِينَ؟ قَالَ: «**إِنِّي لَمْ أُبْعَثْ لَعَّانًا، وَإِنَّمَا بُعِثْتُ رَحْمَةً**».

قَالَ تَعَالَى: ﴿وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا رَحْمَةً لِّلْعَالَمِينَ﴾ [الأنبياء:١٠٧]؛ قَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ رضي الله عنهما (٤): «مَنْ آمَنَ بِاللهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ كُتِبَ لَهُ الرَّحْمَةُ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ، وَمَنْ لَمْ يُؤْمِنْ بِاللهِ وَرَسُولِهِ عُوفِيَ مِمَّا أَصَابَ الْأُمَمَ مِنَ الْخَسْفِ

---

(١) أخرجه البخاريُّ، كتاب الأدب، باب رحمة الناس والبهائم (٦٠١٣) بلفظ: «**مَنْ لَا يَرْحَمُ لَا يُرْحَمُ**»، ومسلمٌ، كتاب الفضائل، باب رحمته صلى الله عليه وسلم بالصبيان والعيال وتواضعه في ذلك (٢٣١٩) واللفظ له.

(٢) هو جرير بن عبد الله بن جابر، وهو الشليل بن مالك بن نصر بن ثعلبة بن جشم بن عوف بن خزيمة بن حرب بن علي بن مالك بن سعد بن نذير بن قسر بن عبقر بن أنمار ابن إراش، أبو عمرو، وقيل: أبو عبد الله البجلي، كان إسلامه في العام الذي تُوفي فيه النبيُّ صلى الله عليه وسلم قبل موته بأربعين يومًا؛ قال الحافظ: هذا خطأ، والظاهر أن إسلامه قبل سنة عشر، وهو الذي بعثه النبي صلى الله عليه وسلم لذي الخلصة، وكان جميلاً؛ حتى قيل: هو يوسف هذه الأمة، مات سنة إحدى وخمسين، وقيل: سنة أربع وخمسين؛ انظر: «أسد الغابة» (٧٣٠)، و«الاستيعاب» (٣٢٣)، و«الإصابة» (١١٣٨).

(٣) أخرجه مسلمٌ، كتاب البر والصلة والآداب، باب النهي عن لعن الدواب وغيرها (٢٥٩٩).

(٤) أخرجه الطبريُّ في «تفسيره» (٢٤٧١٤).

وَالْقَذْفِ»؛ لِأَنَّ الله قَالَ لَهُ: ﴿وَمَا كَانَ ٱللَّهُ لِيُعَذِّبَهُمْ وَأَنتَ فِيهِمْ﴾ [الأنفال:٣٣].

وَفِي الْحَدِيثِ الَّذِي رَوَاهُ ابْنُ سَعْدٍ (١) فِي «الطَّبَقَاتِ» مُرْسَلًا؛ لَكِنْ رَوَاهُ مَوْصُولًا الْحَاكِمُ فِي «مُسْتَدْرَكِهِ»، وَابْنُ الْأَعْرَابِيِّ (٢) فِي «مُعْجَمِهِ» (٣) بِسَنَدٍ صَحِيحٍ لِغَيْرِهِ مِنْ حَدِيثِ أَبِي هُرَيْرَةَ رضي الله عنه أَنَّهُ ﷺ قَالَ: «يَا أَيُّهَا النَّاسُ، إِنَّمَا أَنَا رَحْمَةٌ مُهْدَاةٌ».

---

(١) هو أبو عبد الله محمد بن سعد بن منيع الزهري البصري كاتب الواقدي، صحب الواقدي زمانًا، وكتب له، فعرف به، وسمع سفيان بن عيينة وأنظاره، صنف كتابًا كبيرًا في طبقات الصحابة والتابعين والخلفاء إلى وقته، فأجاد فيه وأحسن، وله طبقات أخرى صغرى، وكان صدوقًا ثقةً، أثنى عليه الخطيب في «تاريخه»؛ فقال: «ومحمد بن سعد عندنا من أهل العدالة، وحديثه يدل عَلَى صدقه؛ فإنه يتحرى في كثير من رواياته»، توفي يوم الأحد لأربع خلون من جمادى الآخرة سنة ثلاثين ومائتين ببغداد، ودُفن في مقبرة باب الشام، وهو ابن اثنتين وستين سنة - رحمه الله تعالى.

● راجع في ترجمته: «وفيات الأعيان» (٤/ ٣٥٢)، و«السير» (ترجمة رقم:١٩٠٨)، و«الأنساب» (٥/ ٨) للسمعاني.

(٢) هو أحمد بن محمد بن زياد بن بشر بن درهم، الإمام المحدث القدوة الصدوق الحافظ، شيخ الإسلام، أبو سعيد ابن الأعرابي البصري الصوفي الزاهد، نزيل مكة، وشيخ الحرم، خرج معجمًا كبيرًا، ورحل إلى الأقاليم، وجمع وصنف، صحب المشايخ، وتعبد وتأله، وألف مناقب الصوفية، وحمل «السنن» عن أبي داود، وكان كبير الشأن، بعيد الصيت، عالي الإسناد؛ توفي بمكة في شهر ذي القعدة سنة أربعين وثلاث مائة، وله أربع وتسعون سنة وأشهر.

● راجع: ترجمته في «السير» (رقم:٣٢٤٩)، و«لسان الميزان» (١/ ٤٠٧) ط الفاروق.

(٣) أخرجه ابن سعد في «الطبقات» (١/ ١٩٢)، وابن أبي شيبة (٦/ ٣٢٥)، والدارمي في «سننه» (١٥) عن أبي صالح مرسلاً، وسنده صحيحٌ مرسلٌ؛ لكن وصله الحاكم في «مستدركه» (١/ ٩١)، والطبراني في «الأوسط» (٢٩٨١)، وابن الأعرابي في «معجمه» (٢٤٧/ ٢) وقوّى الحديث بطرقه العلامة الألباني في «الصحيحة» (٤٩٠).

وَفِي «**صَحِيحِ مُسْلِمٍ**»[١] مِنْ حَدِيثِ عِمْرَانَ بْنِ حُصَيْنٍ رضي الله عنه[٢] قَالَ: كَانَتْ ثَقِيفُ حُلَفَاءَ لِبَنِي عُقَيْلٍ فَأَسَرَتْ ثَقِيفُ رَجُلَيْنِ مِنْ أَصْحَابِ رَسُولِ الله ﷺ، وَأَسَرَ أَصْحَابُ رَسُولِ الله ﷺ رَجُلاً مِنْ بَنِي عُقَيْلٍ، وَأَصَابُوا مَعَهُ الْعَضْبَاءَ، فَأَتَى عَلَيْهِ رَسُولُ الله ﷺ وَهُوَ فِي الْوَثَاقِ قَالَ: يَا مُحَمَّدُ! فَأَتَاهُ؛ فَقَالَ: «**مَا شَأْنُكَ**»؛ فَقَالَ: بِمَ أَخَذْتَنِي؟ وَبِمَ أَخَذْتَ سَابِقَةَ الْحَاجِّ؟ فَقَالَ إِعْظَامًا لِذَلِكَ: «**أَخَذْتُكَ بِجَرِيرَةِ حُلَفَائِكَ ثَقِيفَ**»، ثُمَّ انْصَرَفَ عَنْهُ؛ فَنَادَاهُ فَقَالَ: يَا مُحَمَّدُ! يَا مُحَمَّدُ! وَكَانَ رَسُولُ الله ﷺ رَحِيمًا رَقِيقًا، فَرَجَعَ إِلَيْهِ فَقَالَ: «**مَا شَأْنُكَ**»، قَالَ: إِنِّي مُسْلِمٌ، قَالَ: «**لَوْ قُلْتَهَا وَأَنْتَ تَمْلِكُ أَمْرَكَ أَفْلَحْتَ كُلَّ الْفَلَاحِ**»، ثُمَّ انْصَرَفَ فَنَادَاهُ فَقَالَ: يَا مُحَمَّدُ! يَا مُحَمَّدُ! فَأَتَاهُ فَقَالَ: «**مَا شَأْنُكَ؟**»، قَالَ: إِنِّي جَائِعٌ فَأَطْعِمْنِي وَظَمْآنُ فَأَسْقِنِي، قَالَ: «**هَذِهِ حَاجَتُكَ**»، فَفُدِيَ بِالرَّجُلَيْنِ.

وَفِي «**الصَّحِيحَيْنِ**»[٣] مِنْ حَدِيثِ مَالِكِ بْنِ الْحُوَيْرِثِ[٤] رضي الله عنه قَالَ: أَتَيْنَا

---

(١) أخرجه مسلمٌ، كتاب النذر، باب لا وفاء لنذر في معصية الله ولا فيما لا يملك العبد (١٦٤١).

(٢) هو عمران بن حصين بن عبيد بن خلف الخزاعي الكعبي. يكنى: أبا نجيد، بنون وجيم مصغرًا، أسلم عام خيبر، وغزا مع رَسُول الله ﷺ غزوات، وكان صاحب راية خزاعة يوم الفتح، بعثه عمر بن الخطاب إلى البصرة ليفقه أهلها، وكان مجاب الدعوة، ولم يشهد الفتنة، فلم يقاتل، قال أبو عمر: كان من فضلاء الصحابة وفقهائهم، يقول عنه أهل البصرة: إنه كان يرى الحفظة، وكانت تكلمه حتى اكتوى، ففقد تسليم الملائكة ثم عادت إليه. توفي بالبصرة سنة اثنتين وخمسين، وكان أبيض الرأس واللحية رضي الله عنه.

(٣) أخرجه البخاريُّ، كتاب الأذان، باب الأذان للمسافر إذا كانوا جماعة.. (٦٣١) وانظر أطرافه: رقم(٦٢٨)، ومسلمٌ، كتاب المساجد ومواضع الصلاة، باب من أحق بالإمامة (٦٧٤).

(٤) هو مالك بن الحويرث بن أشيم الليثي؛ وقال البغويُّ: ويقال له: ابن الحويرثة، وقال ابن السكن: مالك بن الحارث، يكنى: أبا سليمان وهو من أهل البصرة، قال الحافظ: مات بالبصرة سنة أربع وسبعين، وقيل: وتسعين، والأول هو الصحيح، وبه جزم ابن السكن وغيره.

=

إِلَى رَسُولِ اللهِ ﷺ وَنَحْنُ شَبَبَةٌ مُتَقَارِبُونَ؛ فَأَقَمْنَا عِنْدَهُ عِشْرِينَ لَيْلَةً وَكَانَ رَسُولُ اللهِ ﷺ رَحِيمًا رَقِيقًا، فَظَنَّ أَنَّا قَدِ اشْتَقْنَا أَهْلَنَا فَسَأَلَنَا عَنْ مَنْ تَرَكْنَا مِنْ أَهْلِنَا، فَأَخْبَرْنَاهُ فَقَالَ: «**ارْجِعُوا إِلَى أَهْلِيكُمْ فَأَقِيمُوا فِيهِمْ وَعَلِّمُوهُمْ وَمُرُوهُمْ، فَإِذَا حَضَرَتِ الصَّلاَةُ فَلْيُؤَذِّنْ لَكُمْ أَحَدُكُمْ، ثُمَّ لِيَؤُمَّكُمْ أَكْبَرُكُمْ**».

وَرَوَى مُسْلِمٌ فِي «صَحِيحِهِ» (١) مِنْ حَدِيثِ عَبْدِ اللهِ بْنِ عَمْرٍو رضي الله عنهما: أَنَّ النَّبِيَّ ﷺ تلاَ قَوْلَ اللهِ عز وجل فِي إِبْرَاهِيمَ - عَلَى نَبِيِّنَا وَعَلَيْهِ الصَّلاَةُ وَالسَّلاَمُ: ﴿رَبِّ إِنَّهُنَّ أَضْلَلْنَ كَثِيرًا مِّنَ النَّاسِ فَمَن تَبِعَنِي فَإِنَّهُ مِنِّي وَمَنْ عَصَانِي فَإِنَّكَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾ [إبراهيم:٣٦] - لَمْ يَقُلْ: فَمَنْ عَصَانِي فَانْتَقِمْ مِنْهُ! - وَقَالَ عِيسَى عليه السلام: ﴿إِن تُعَذِّبْهُمْ فَإِنَّهُمْ عِبَادُكَ وَإِن تَغْفِرْ لَهُمْ فَإِنَّكَ أَنتَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ﴾ [المائدة:١١٨]، فَرَفَعَ يَدَيْهِ وَقَالَ: «**اللهمَّ أُمَّتِي أُمَّتِي**» وَبَكَى؛ فَقَالَ اللهُ عز وجل: يَا جِبْرِيلُ، اذْهَبْ إِلَى مُحَمَّدٍ - وَرَبُّكَ أَعْلَمُ- فَسَلْهُ مَا يُبْكِيكَ؟ فَأَتَاهُ جِبْرِيلُ - عَلَيْهِ الصَّلاَةُ وَالسَّلاَمُ- فَسَأَلَهُ فَأَخْبَرَهُ رَسُولُ اللهِ ﷺ بِمَا قَالَ، وَهُوَ أَعْلَمُ. فَقَالَ اللهُ: يَا جِبْرِيلُ، اذْهَبْ إِلَى مُحَمَّدٍ فَقُلْ: إِنَّا سَنُرْضِيكَ فِي أُمَّتِكَ وَلاَ نَسُوءُكَ».

وَفِي «صَحِيحِ مُسْلِمٍ» (٢) مِنْ حَدِيثِ أَبِي هُرَيْرَةَ رضي الله عنه أَنَّهُ ﷺ قَالَ: «**لِكُلِّ نَبِيٍّ دَعْوَةٌ مُسْتَجَابَةٌ، فَتَعَجَّلَ كُلُّ نَبِيٍّ دَعْوَتَهُ، وَإِنِّي اخْتَبَأْتُ دَعْوَتِي شَفَاعَةً لأُمَّتِي يَوْمَ الْقِيَامَةِ؛ فَهِيَ نَائِلَةٌ إِنْ شَاءَ اللهُ مَنْ مَاتَ مِنْ أُمَّتِي لاَ يُشْرِكُ بِاللهِ شَيْئًا**».

وَفِي «الصَّحِيحَيْنِ» (٣) مِنْ حَدِيثِ عَبْدِ اللهِ بْنِ مَسْعُودٍ رضي الله عنه قَالَ: كُنَّا مَعَ

=

● راجع: «الاستيعاب» (١٢٨٢)، و«أسد الغابة» (٤٥٨٧)، و«الإصابة» (٧٦٣٣).

(١) أخرجه مسلمٌ، كتاب الإيمان، باب دعاء النبي ﷺ لأمته وبكائه شفقة عليهم (٢٠٣).

(٢) أخرجه مسلمٌ، كتاب الإيمان، باب اختباء النبي ﷺ دَعْوَة الشفاعة لأمته (١٩٩/ ٣٣٩).

(٣) أخرجه البخاريُّ، كتاب الرقاق، باب كيف الحشر؟ (٦٥٢٨)، ومسلمٌ، كتاب الإيمان، باب كون هذه الأمة نصف أهل الجنة (٢٢١/ ٣٧٧).

رَسُولِ الله ﷺ فِي قُبَّةٍ - أَيْ: خَيْمَةٍ - فَقَالَ النبيُّ ﷺ لأَصْحَابه: «أَتَرْضَوْنَ أَنْ تَكُونُوا رُبُعَ أَهْلِ الْجَنَّةِ؟» قُلْنَا: نَعَمْ، قَالَ: «أَتَرْضَوْنَ أَنْ تَكونوا ثُلُثَ أَهْلِ الْجَنَّةِ؟» قُلْنَا: نَعَمْ، قَالَ: «وَالَّذِي نَفْسِي بِيَدِهِ إِنِّي لأَرْجُو أَنْ تَكُونُوا نِصْفَ أَهْلِ الْجَنَّةِ، وَذَاكَ أَنَّ الْجَنَّةَ لاَ يَدْخُلُهَا إِلاَّ نَفْسٌ مُسْلِمَةٌ، وَمَا أَنْتُمْ فِي أَهْلِ الشِّرْكِ إِلَّا كَالشَّعْرَةِ الْبَيْضَاءِ فِي جِلْدِ الثَّوْرِ الأَسْوَدَ أَوِ كَالشَّعْرَةِ السَّوْدَاءِ فِي جِلْدِ الثَّوْرِ الأَحْمَرَ».

قَالَ تَعَالَى: ﴿كُنتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ تَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَتَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنكَرِ وَتُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ ۗ وَلَوْ آمَنَ أَهْلُ الْكِتَابِ لَكَانَ خَيْرًا لَّهُم ۚ مِّنْهُمُ الْمُؤْمِنُونَ وَأَكْثَرُهُمُ الْفَاسِقُونَ﴾ [آل عمران:١١٠]، وَسَتَظَلُّ الأُمَّةُ الْمُحَمَّدِيَّةُ - زَادَهَا الله شَرَفًا- خَيْرَ أُمَّةٍ أُخرِجَتْ لِلنَّاسِ، وَلَا يَجُوزُ أَبَدًا أَنْ نُجَرِّدَ الأُمَّةَ مِنْ خَيْرِيَّتِهَا لِمَا تَمُرُّ بِهِ الآنَ مِنْ مَرْحَلَةِ ضَعْفٍ؛ فَالأَيَّامُ دُوَلٌ، وَأُمَّةُ النَّبِيِّ ﷺ نَامَتْ وَلَمْ تَمُتْ، وَلَنْ تَمُوتَ بِمَوْعُودِ الله؛ فَقَدْ شَرَّفَهَا بِحَمْلِ الرِّسَالَةِ الْخَاتِمَةِ إِلَى أَهْلِ الأَرْضِ إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ.

وَشَتَّانَ بَيْنَ مَنْ يَقُولُ سَاجِدًا بَاكِيًا خَاشِعًا: سُبْحَانَ رَبِّي الأَعْلَى، وَمَنْ يَقُولُ مُتَكبِّرًا مُتَجبِّرًا مُعْرِضًا: أَنَا رَبُّكُمُ الأَعْلَى!!

نَعَمْ.. إِذَا أَرَدْتُمْ أَنْ تَتَعَرَّفُوا عَلَى مَكَانَةِ أُمَّةِ الْحَبِيبِ ﷺ فَانْظُرُوا إِلَى جَمِيعِ الأُمَمِ؛ فَلَنْ تَجِدُوا أُمَّةً - الآنَ- تُوَحِّدُ رَبَّهَا وَتَتَّبِعُ نَبِيَّهَا ﷺ إِلَّا أُمَّةَ مُحَمَّدٍ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ.

قَالَ تَعَالَى: ﴿أَفَنَجْعَلُ الْمُسْلِمِينَ كَالْمُجْرِمِينَ (٣٥) مَا لَكُمْ كَيْفَ تَحْكُمُونَ﴾ [القلم:٣٥، ٣٦].

وَقَالَ تَعَالَى: ﴿أَمْ نَجْعَلُ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ كَالْمُفْسِدِينَ فِي الْأَرْضِ أَمْ نَجْعَلُ الْمُتَّقِينَ كَالْفُجَّارِ﴾ [ص:٢٨].

وَقَالَ تَعَالَى: ﴿أَفَمَن كَانَ مُؤْمِنًا كَمَن كَانَ فَاسِقًا ۚ لَّا يَسْتَوُونَ﴾ [السجدة:١٨].

فَأُمَّةُ النَّبِيِّ ﷺ كَانَتْ وَلَا زَالَتْ وَسَتَظَلُّ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخرِجَتْ لِلنَّاسِ.

وَمَا كُرِّمَتِ الْأُمَّةُ إِلَّا لِكَرَامَةِ النَّبِيِّ ﷺ عِنْدَ اللهِ!!.

أَلَمْ يَعِدْهُ رَبُّهُ - جَلَّ وَعَلَا - أَنَّهُ لَا يَسُوؤُهُ فِي أُمَّتِهِ؟!.

نَعَمْ.. إِنَّهُ رَحْمَةُ اللهِ لِلْعَالَمِينَ.

وَلَا يَسْتَطِيعُ أَدِيبٌ بَلِيغٌ أَنْ يُبَيِّنَ حَقَّ الْبَيَانِ رَحْمَةَ مَنْ جَعَلَهُ اللهُ رَحْمَةً لِبَنِي الْإِنْسَانِ، فَلْنَقِفْ طَوِيلًا أَمَامَ الْآيَاتِ الْقُرْآنِيَّةِ وَالْأَحَادِيثِ النَّبَوِيَّةِ الَّتِي ذَكَرْتُهَا آنِفًا؛ فَلَا يَعْرِفُ قَدْرَ النَّبِيِّ إِلَّا الرَّبُّ الْعَلِيُّ، وَلَنْ نَجِدَ فِي كَلِمَاتِ الْبَشَرِ أَبْلَغَ مِنْ كَلِمَاتِ رَسُولِ اللهِ ﷺ الَّذِي آتَاهُ اللهُ جَوَامِعَ الْكَلِمِ.

وَلَقَدْ تَجَسَّدَتْ رَحْمَةُ النَّبِيِّ ﷺ الْعَامَّةُ فِي الْأُمَّةِ فِي دَعْوَتِهِ؛ قَالَ لَهُ رَبُّهُ: ﴿فَبِمَا رَحْمَةٍ مِّنَ ٱللَّهِ لِنتَ لَهُمْ ۖ وَلَوْ كُنتَ فَظًّا غَلِيظَ ٱلْقَلْبِ لَٱنفَضُّوا۟ مِنْ حَوْلِكَ ۖ فَٱعْفُ عَنْهُمْ وَٱسْتَغْفِرْ لَهُمْ وَشَاوِرْهُمْ فِى ٱلْأَمْرِ ۖ فَإِذَا عَزَمْتَ فَتَوَكَّلْ عَلَى ٱللَّهِ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلْمُتَوَكِّلِينَ﴾

[آل عمران:١٥٩].

وَيَنْبَغِي أَنْ يَقِفَ الدُّعَاةُ طَوِيلًا أَمَامَ هَذِهِ الْآيَةِ الْكَرِيمَةِ؛ فَإِذَا كَانَتْ هَذِهِ الْغِلْظَةُ تُنَفِّرُ النَّاسَ مِنْ سَيِّدِ الْخَلْقِ، وَإِمَامِ الْحَقِّ - إِنْ كَانَتْ فِيهِ - فَكَيْفَ إِذَا كَانَتْ هَذِهِ الْخَصْلَةُ فِي غَيْرِهِ؟! لِذَا؛ رَوَى مُسْلِمٌ عَنْ عَائِشَةَ رضي الله عنها أَنَّ رَسُولَ اللهِ ﷺ قَالَ: «**يَا عَائِشَةُ! إِنَّ اللهَ رَفِيقٌ يُحِبُّ الرِّفْقَ، وَيُعْطِي عَلَى الرِّفْقِ مَا لَا يُعْطِي عَلَى الْعُنْفِ، وَمَا لَا يُعْطِي عَلَى مَا سِوَاهُ**»(١).

وَأَسُوقُ هُنَا مَشْهَدَيْنِ كَرِيمَيْنِ لِرَسُولِ اللهِ ﷺ تَتَأَلَّقُ فِيهِمَا الرَّحْمَةُ تَأَلُّقَ الشَّمْسِ فِي ضُحَاهَا وَالنَّهَارِ إِذَا جَلَّاهَا!!

الْأَوَّلُ: لِشَابٍّ تَجْرِي حَرَارَةُ الشَّبَابِ فِي عُرُوقِهِ جَاءَ النَّبِيَّ ﷺ؛ لِيَسْأَلَهُ شَيْئًا!! فَهَلْ يَا تُرَى جَاءَ لِيَسْأَلَهُ مَالًا؟

(١) أخرجه مسلمٌ، كتاب البر والصلة والآداب، باب فضل الرفق (٢٥٩٣).

أَوْ هَلْ جَاءَ لِيَسْأَلَهُ أَنْ يَدْعُوَ اللهَ لَهُ؟

أَوْ هَلْ جَاءَ لِيَسْتَأْذِنَهُ فِي الْجِهَادِ فِي سَبِيلِ اللهِ؟

كَلَّا، وَإِنَّمَا جَاءَ؛ لِيَسْتَأْذِنَ رَسُولَ اللهِ ﷺ فِي «الزِّنَا»! أَجَلْ فِي الزِّنَا!!!

فَكَيْفَ كَانَ مَوْقِفُ الرَّحْمَةِ الْمُهْدَاةِ وَالنِّعْمَةِ الْمُسْدَاةِ مَعَ هَذَا الشَّابِّ الْجَرِيءِ؟!!

هَلْ سَبَّهُ؟ هَلْ زَجَرَهُ وَنَهَرَهُ؟ هَلْ عَنَّفَهُ وَوَبَّخَهُ وَأَمَرَ بِهِ؛ لِيُحْمَلَ مِنَ الْأَيْدِي وَالْأَرْجُلِ لِيُلْقَى بِهِ بَعِيدًا بَعِيدًا؟! لَا وَرَبِّ الْكَعْبَةِ؛ فَمَاذَا قَالَ نَهَرُ الرَّحْمَةِ وَيَنْبُوعُ الْحَنَانِ وَمَعِينُ الرِّفْقِ وَاللِّينِ - بِأَبِي هُوَ وَأُمِّي - ﷺ؟

رَوَى الْحَدِيثَ إِمَامُ أَهْلِ السُّنَّةِ أَحْمَدُ بْنُ حَنْبَلٍ فِي **«مُسْنَدِهِ»** عَنْ أَبِي أُمَامَةَ(١) رضي الله عنه قَالَ: «إِنَّ فَتًى شَابًّا أَتَى النَّبِيَّ ﷺ فَقَالَ: ائْذَنْ لِي بِالزِّنَا، فَأَقْبَلَ الْقَوْمُ عَلَيْهِ فَزَجَرُوهُ، قَالُوا: مَهْ مَهْ؛ فَقَالَ: «**ادْنُهْ**»؛ فَدَنَا مِنْهُ قَرِيبًا، فَجَلَسَ، قَالَ ﷺ: «**أَتُحِبُّهُ لِأُمِّكَ؟**»، قَالَ: لَا وَاللهِ جَعَلَنِي اللهُ فِدَاءَكَ، قَالَ ﷺ: «**وَلَا النَّاسُ يُحِبُّونَهُ لِأُمَّهَاتِهِم**»، قَالَ ﷺ: «**أَفَتُحِبُّهُ لِابْنَتِكَ؟**»، قَالَ: لَا وَاللهِ يَا رَسُولَ اللهِ جَعَلَنِي اللهُ فِدَاءَكَ، قَالَ ﷺ: «**وَلَا النَّاسُ يُحِبُّونَهُ لِبَنَاتِهِمْ**»، قَال ﷺ: «**أَفَتُحِبُّهُ لِأُخْتِكَ؟**»، قَالَ: لَا وَاللهِ جَعَلَنِي اللهُ فِدَاءَكَ، قَالَ ﷺ: «**وَلَا النَّاسُ يُحِبُّونَهُ لِأَخَوَاتِهِمْ**»، قَالَ ﷺ: «**أَفَتُحِبُّهُ لِعَمَّتِكَ؟**»، قَالَ: لَا وَاللهِ جَعَلَنِي اللهُ فِدَاءَكَ. قَالَ ﷺ: «**وَلَا النَّاسُ**

---

(١) هو صُدَيُّ (بالتصغير) بن عجلان بن الحارث، وقيل: عجلان بن وهب، ويقال: ابن عمرو بن وهب بن عريب بن وهب، أبو أمامة الباهلي السهميُّ، واختلف في نسبه إلى باهلة، سكن حمص من الشام، ومات بها مشهور بكنيته؛ قال ابن حبان: كان مع عليٍّ بصفين، مات أبو أمامة الباهلي سنة ست وثمانين؛ قال ابن البرقي: بغير خلاف، وأثبت غيره الخلاف؛ فقيل سنة إحدى؛ قاله محمد بن سعد، وهو آخر من مات بالشام من أصحاب النبي ﷺ في قول بعضهم.

● راجع: «الاستيعاب» (٢٣)، و«أسد الغابة» (٢٤٩٧)، و«الإصابة» (٤٠٦٣).

يُحِبُّونَهُ لِعَمَّاتِهِمْ»، قَالَ ﷺ: «أَفَتُحِبُّهُ لِخَالَتِكَ؟»، قَالَ: لَا وَاللهِ جَعَلَنِي اللهُ فِدَاءَكَ، قال ﷺ: «وَلَا النَّاسُ يُحِبُّونَهُ لِخَالَاتِهِمْ»، قَالَ: فَوَضَعَ النَّبِيُّ ﷺ يَدَهُ عَلَيْهِ وَقَالَ: «اللهمَّ اغْفِرْ ذَنْبَهُ وَطَهِّرْ قَلْبَهُ وَحَصِّنْ فَرْجَهُ»؛ فَلَمْ يَكُنْ بَعْدُ ذَلِكَ الْفَتَى يَلْتَفِتُ إِلَى شَيْءٍ» (١).

وَالْمَشْهَدُ الثَّانِي: رَحْمَتُهُ ﷺ مَعَ سَلَمَةَ بْنِ صَخْرٍ الْأَنْصَارِيِّ (٢) رضي الله عنه؛ **كَمَا رَوَى ذَلِكَ أَحْمَدُ، وَأَبُو دَاوُدَ، وَالتِّرْمِذِيُّ، وَابْنُ مَاجَهْ، وَالدَّارِمِيُّ** مِنْ حَدِيثِ سَلَمَةَ بْنِ صَخْرٍ الْأَنْصَارِيِّ قَالَ: كُنْتُ رَجُلًا قَدْ أُوتِيتُ مِنْ جِمَاعِ النِّسَاءِ مَا لَمْ يُؤْتَ غَيْرِي؛ فَلَمَّا دَخَلَ رَمَضَانُ تَظَاهَرْتُ مِنَ امْرَأَتِي حَتَّى يَنْسَلِخَ رَمَضَانُ فَرَقًا مِنْ أَنْ أُصِيبَ مِنْهَا فِي لَيْلَتِي فَأَتَتَابَعَ فِي ذَلِكَ إِلَى أَنْ يُدْرِكَنِي النَّهَارُ وَأَنَا لَا أَقْدِرُ أَنْ أَنْزِعَ؛ فَبَيْنَمَا هِيَ تَخْدُمُنِي ذَاتَ لَيْلَةٍ إِذْ تَكَشَّفَ لِي مِنْهَا شَيْءٌ فَوَثَبْتُ عَلَيْهَا، فَلَمَّا أَصْبَحْتُ غَدَوْتُ عَلَى قَوْمِي، فَأَخْبَرْتُهُمْ خَبَرِي فَقُلْتُ: انْطَلِقُوا مَعِي إِلَى رَسُولِ اللهِ ﷺ فَأُخْبِرُهُ بِأَمْرِي، فَقَالُوا: لَا وَاللهِ لَا نَفْعَلُ نَتَخَوَّفُ أَنْ يَنْزِلَ فِينَا قُرْآنٌ أَوْ يَقُولَ فِينَا رَسُولُ اللهِ ﷺ مَقَالَةً يَبْقَى عَلَيْنَا عَارُهَا، وَلَكِنِ اذْهَبْ أَنْتَ فَاصْنَعْ مَا بَدَا لَكَ، قَالَ: فَخَرَجْتُ فَأَتَيْتُ النَّبِيَّ ﷺ فَأَخْبَرْتُهُ خَبَرِي؛ فَقَالَ النَّبِيُّ ﷺ: «أَنْتَ بِذَاكَ؟»، فَقُلْتُ: أَنَا بِذَاكَ (٣)؛ فَقَالَ: «أَنْتَ بِذَاكَ؟»، فَقُلْتُ: أَنَا بِذَاكَ؛ فَقَالَ: «أَنْتَ بِذَاكَ؟»؛

---

(١) أخرجه أحمد (٥/ ٢٥٦، ٢٥٧)، والطبراني في «الكبير» (٧٦٧٩)، و«مسند الشاميين» (١٠٦٦)، والبيهقي في «الشعب» (٥١٨١)، وابن عدي في «الكامل» (٢/ ٤٥٢ و٤٥٣)، وقال الهيثميُّ في «المجمع» (١/ ١٢٩): «رجاله رجال الصحيح»، وقال الحافظ العراقيُّ: «رواه أحمد بإسناد جيد؛ رجاله رجال الصحيح»، «تخريج إحياء علوم الدين» (٢/ ٣٣٤)، وصححه الألباني في «الصحيحة» (٣٧٠).

(٢) هو سلمة بن صخر بن سلمان بن الصمة بن حارثة بن الحارث بن زيد الأنصاري الخزرجي ثم البياضي مدني، ويقال له: سلمان بن صخر، وسلمة أصح، وهو الذي ظاهر من امرأته، ثم وقع عليها، فأمره رسول الله ﷺ أن يُكفِّر، وكان أحد البكائين.

● راجع: «الاستيعاب» (١٠٢٤)، و«أسد الغابة» (٢١٧٧)، و«الإصابة» (٣٣٨٨).

(٣) أي: أنا الـملمُّ بذاك والمرتكب له.

فَقُلْتُ: نَعَمْ، هَا أَنَا ذَا فَأَمْضِ فِيَّ حُكْمَ اللهِ ﷻ فَإِنِّي صَابِرٌ لَهُ؛ فَقَالَ النَّبِيُّ ﷺ: «اعْتِقْ رَقَبَةً»، قَالَ سَلَمَةُ: فَضَرَبْتُ صَفْحَةَ رَقَبَتِي بِيَدِي وَقُلْتُ: لَا وَالَّذِي بَعَثَكَ بِالْحَقِّ مَا أَصْبَحْتُ أَمْلِكُ غَيْرَهَا، قَالَ ﷺ: «**فَصُمْ شَهْرَيْنِ**».

قَالَ: قُلْتُ: يَا رَسُولَ اللهِ، وَهَلْ أَصَابَنِي مَا أَصَابَنِي إِلَّا فِي الصِّيَامِ، قَالَ ﷺ: «**فَتَصَدَّقْ**»، قَالَ: فَقُلْتُ: وَالَّذِي بَعَثَكَ بِالْحَقِّ لَقَدْ بِتْنَا لَيْلَتَنَا هَذِهِ وَحْشَاءَ مَا لَنَا عَشَاءٌ، قَالَ ﷺ: «**اذْهَبْ إِلَى صَاحِبِ صَدَقَةِ بَنِي زُرَيْقٍ فَقُلْ لَهُ فَلْيَدْفَعْهَا إِلَيْكَ، فَأَطْعِمْ عَنْكَ مِنْهَا وَسْقًا مِنْ تَمْرٍ سِتِّينَ مِسْكِينًا، ثُمَّ اسْتَعِنْ بِسَائِرِهِ عَلَيْكَ وَعَلَى عِيَالِكَ**»، قَالَ: فَرَجَعْتُ إِلَى قَوْمِي فَقُلْتُ: وَجَدْتُ عِنْدَكُمُ الضِّيقَ وَسُوءَ الرَّأْيِ، وَوَجَدْتُ عِنْدَ رَسُولِ اللهِ ﷺ السَّعَةَ وَالْبَرَكَةَ، قَدْ أَمَرَ لِي بِصَدَقَتِكُمْ فَادْفَعُوهَا لِي فَدَفَعُوهَا إِلَيَّ» (١).

---

(١) أخرجه أحمد (٤/ ٣٧) و(٥/ ٤٣٦)، وأبو داود، كتاب الطلاق، باب في الظهار (٢٢١٣)، والترمذيُّ، كتاب تفسير القرآن عن رسول الله ﷺ، باب سورة المجادلة (٣٢٩٩)، وابن ماجة، كتاب الطلاق، باب الظهار (٢٠٦٢)، والدارمي (٢٢٧٣)، وابن خزيمة (٢٣٧٨)، والحاكم (٢/ ٢٢١)، والطبراني في «الكبير» (٧/ ٤٣) (٦٣٣٣)، وابن الجارود في «المنتقى» (٧٤٤)، وابن أبي شيبة في «مسنده» (٦٢٧)، ومن طريقه البيهقي في «الكبير» (٧/ ٣٨٥)، وابن شبة في «تاريخ المدينة» (١/ ٢٧٠) ط الفكر، بيروت، من حديث سليمان بن يسار عن سلمة بن صخر البياضي مرفوعًا؛ قال الترمذيُّ: «هذا حديث حسن، قال محمد: سليمان بن يسار لم يسمع عندي من سلمة بن صخر» ا. هـ.، وقد توبع سليمان من يسار من أبي سلمة ومحمد بن عبد الرحمن بن ثوبان؛ كما عند الترمذي (١٢٠٠) باب ما جاء في كفارة الظهار؛ قال الترمذيُّ: «هذا حديث حسن»، وقد أشار البيهقي إلى إرسالها كذلك (٧/ ٣٩٠) وللحديث شاهدٌ عن ابن عباس؛ عند الترمذي (١١٩٩)، وأبي داود (٢٢٢٥)، وابن ماجة (٢٠٦٥)، والنسائي (٧/ ١٦٧) من حديث الحكم بن أبان عن عكرمة عنه به، والحكم ضعيف.

والحديث صحيح بهذه الشواهد، وقد حَسَّنه الحافظ ابن حجر العسقلاني في «فتح الباري» (٩/ ٤٣٢) وقال عنه الشيخ أحمد عبد الرحمن البنا: «حسن لكثرة طرقه»؛ كما =

بِاللهِ مَا أَرْحَمَهُ وَمَا أَحْلَمَهُ وَمَا أَلْطَفَهُ ﷺ!! فَإِنَّ الْخَطَأَ الَّذِي وَقَعَ فِيهِ سَلَمَةُ لَيْسَ هَيِّنًا؛ وَلَكِنَّهُ وَقَعَ فِيهِ؛ لِضَعْفِهِ الْبَشَرِيِّ مِنْ غَيْرِ عِنَادٍ وَلَا اسْتِخْفَافٍ بِحُدُودِ اللهِ - جَلَّ وَعَلَا- وَجَاءَ تَائِبًا نَادِمًا مُقْبِلًا عَلَى اللهِ صَابِرًا عَلَى مَا يُقِيمُهُ عَلَيْهِ رَسُولُ اللهِ ﷺ مِنْ حَدٍّ؛ كَمَا فِي قَوْلَتِهِ الطَّيِّبَةِ: «هَا أَنَا ذَا فَأَمْضِ فِيَّ حُكْمَ اللهِ ﷻ فَإِنِّي صَابِرٌ لَهُ».

هَكَذَا كَانَ قَلْبُ سَيِّدِ الدُّعَاةِ ﷺ، وَهَكَذَا كَانَتْ حَيَاتُهُ وَأَخْلَاقُهُ مَعَ النَّاسِ، وَمَا ضَاقَ صَدْرُهُ بِضَعْفِهِمُ الْبَشَرِيِّ، وَوَسِعَهُمْ حِلْمُهُ وَعَطْفُهُ وَوُدُّهُ الرَّحِيمُ الْحَنُونُ الْكَرِيمُ؛ لِأَنَّ الْقُلُوبَ الْكَبِيرَةَ قَلَّمَا تَسْتَجِيشُهَا دَوَافِعُ الْقَسْوَةِ؛ بَلْ هِيَ إِلَى الرَّحْمَةِ وَالْحَنَانِ وَالصَّفْحِ وَالْعَفْوِ أَدْنَى مِنْهَا إِلَى الْبُغْضِ وَالْحِقْدِ وَالِانْتِقَامِ.

وَلَكِنْ قَدْ تَأْخُذُ الرَّحْمَةُ الْحَقِيقِيَّةُ - أَحْيَانًا- شَكْلَ الْقَسْوَةِ، وَلَيْسَتْ كَذَلِكَ الْبَتَّةَ.

فَالطَّبِيبُ- مَثَلًا- عِنْدَمَا يَتَقَدَّمُ لِإِجْرَاءِ عَمَلِيَّةٍ جِرَاحِيَّةٍ لِمَرِيضِهِ، يَسْتَخْدِمُ مِبْضَعَهُ؛ لِتَمْزِيقِ اللَّحْمِ، وَقَدْ يُضْطَرُّ أَحْيَانًا لِبَتْرِ عُضْوٍ مِنْ أَعْضَاءِ هَذَا الْمَرِيضِ، وَلَكِنْ مَعَ ذَلِكَ فَهِيَ رَحْمَةٌ كَبِيرَةٌ؛ لِأَنَّهُ يَبْتُرُ عُضْوًا قَدْ يَكُونُ سَبَبًا فِي هَلَاكِ جَمِيعِ الْأَعْضَاءِ!!

وَكَذَا قَدْ يَسْتَدِرُّ الْعَطْفَ وَالشَّفَقَةَ وَالرَّحْمَةَ هَذَا الْجَانِي الَّذِي تَعَدَّى حَدًّا مِنْ حُدُودِ اللهِ - جَلَّ وَعَلَا- وَهُوَ مُتَقَدِّمٌ؛ لِيُقَامَ عَلَيْهِ حَدُّ اللهِ، وَلَكِنَّ عَيْنَ الرَّحْمَةِ لِلْإِنْسَانِيَّةِ أَنْ تُسْتَأْصَلَ نَوَاةُ الشَّرِّ فِي مَهْدِهَا؛ لِتَعِيشَ الْجَمَاعَةُ هَادِئَةً آمِنَةً مُطْمَئِنَّةً؛ لِأَنَّهُ لَوْ تُرِكَ الْجَانِي وَأُرْخِيَ لَهُ الْعِنَانُ فَسَوْفَ يُؤَدِّي ذَلِكَ حَتْمًا إِلَى انْتِشَارِ

= في «بلوغ الأماني من أسرار الفتح الرباني» (١٧/ ٢٣)، وأورد طرقه شيخنا الألباني في «إرواء الغليل» (٢٠٩١) (٧/ ١٧٦) وقال: «وبالجملة؛ فالحديث بطرقه وشاهده صحيح، والله أعلم».

الْجَرِيمَةِ بِكُلِّ صُوَرِهَا، وَإِلَى تَفَاقُمِ الشَّرِّ وَالاِسْتِهْتَارِ بِحُرُمَاتِ النَّاسِ، وَتَمُوتُ الْفَضِيلَةُ وَتَنْهَارُ الْأَخْلَاقُ، وَحِينَئِذٍ يَذْهَبُ الْفَرْدُ وَتَنْهَارُ الْجَمَاعَةُ، وَلَيْسَتِ الْأُمَّةُ سِوَى مَجْمُوعَةِ أَفْرَادٍ!!

وَمِنْ ثَمَّ قَالَ اللَّطِيفُ الْخَبِيرُ الْعَالِمُ بِخَلْقِهِ: ﴿وَلَكُمْ فِي الْقِصَاصِ حَيَوٰةٌ يَـٰٓأُو۟لِى الْأَلْبَـٰبِ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ﴾[البقرة:١٧٩]، وَبَعْدُ؛ فَإِذَا كَانَتِ الرَّحْمَةُ بِالْكِلَابِ تَغْفِرُ ذُنُوبَ الْبَغَايَا؛ فَكَيْفَ تَصْنَعُ الرَّحْمَةُ بِالْمُوَحِّدِينَ مِنْ أَصْحَابِ الْحَسَنَاتِ وَالْخَطَايَا!!

أَجَلْ؛ أَلَمْ يَقُلِ الصَّادِقُ الْمَصْدُوقُ ﷺ: «**بَيْنَمَا كَلْبٌ يُطِيفُ بِرَكِيَّةٍ** - أي: بئرٍ - **قد كَادَ يَقْتُلُهُ الْعَطَشُ، إِذْ رَأَتْهُ بَغِيٌّ مِنْ بَغَايَا بَنِي إِسْرَائِيلَ فَنَزَعَتْ مُوقَهَا** - أَيْ: خُفَّهَا - **فَاسْتَقَتْ لَهُ بِهِ، فَسَقَتْهُ إِيَّاهُ فَغُفِرَ لَهَا بِهِ**» (١).

وَمِنَ الْحِكْمَةِ وَالرَّحْمَةِ إِلَى التَّوَاضُعِ: قَالَ اللهُ لِنَبِيِّهِ ﷺ: ﴿وَلَا تَمْنُن تَسْتَكْثِرُ﴾ [المدثر:٦].

فَمِنَ الْمَزَالِقِ الْخَطِيرَةِ أَنْ يَنْظُرَ دَاعِيَةٌ إِلَى مَنْ يَدْعُوهُمْ نَظْرَةَ الْمُسْتَعْلِي، وَأَنْ يُكَلِّمَهُمْ كَلَامَ الْمُتَرَفِّعِ وَكَأَنَّ لِسَانَ حَالِهِ يَقُولُ لَهُمْ:

أَنَا الْعَالِمُ، وَأَنْتُمُ الْجَاهِلُونَ!!

أَنَا الطَّائِعُ، وَأَنْتُمُ الْمُذْنِبُونَ!!

أَنَا التَّقِيُّ، وَأَنْتُمُ الْفَاسِقُونَ!!

أَنَا الْمُتَّبِعُ، وَأَنْتُمُ الْمُبْتَدِعُونَ!!

---

(١) أخرجه البخاريُّ، كتاب أحاديث الأنبياء، باب (٥٤) (رقم: ٣٤٦٧)، ومسلمٌ، كتاب السلام، باب فضل سقي البهائم المحترمة وإطعامها (٢٢٤٥/ ١٥٥) من حديث أبي هريرة رضي الله عنه.

أَنَا الْمُهْتَدِي، وَأَنْتُم الضَّالُّونَ!!

أَلَا فَلْنَذْكُرْ - جَمِيعًا - قَوْلَ الله - جَلَّ وَعَلَا -: ﴿كَذَٰلِكَ كُنتُم مِّن قَبْلُ فَمَنَّ ٱللَّهُ عَلَيْكُمْ فَتَبَيَّنُوٓاْ﴾ [النساء:٩٤]، وَقَوْلَهُ سُبْحَانَهُ: ﴿بَلِ ٱللَّهُ يَمُنُّ عَلَيْكُمْ أَنْ هَدَىٰكُمْ لِلْإِيمَٰنِ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ﴾ [الحجرات:١٧].

فَمَهْمَا أَظْهَرَ الدَّاعِيَةُ مِنْ حِكْمَةٍ وَرَحْمَةٍ، وَلَمْ يُتَوِّجْ هَذَا بِتَاجِ التَّوَاضُعِ فَحَتْمًا سَتَنْصَرِفُ مِنْ حَوْلِهِ الْقُلُوبُ؛ لِأَنَّ النَّفْسَ الْبَشَرِيَّةَ تَنْفِرُ مِنَ الْكِبْرِ، وَتُبْغِضُ الْمُتَكَبِّرِينَ وَمَنْ يَطْلُبُ العِزَّةَ فِي الْكِبْرِ كَمَنْ يَطْلُبُ الْمَاءَ مِنَ النَّارِ!!

فَمَا هُوَ التَّوَاضُعُ إِذَنْ؟

قَالَ الْعَلَّامَةُ ابْنُ الْقَيِّمِ رَحِمَهُ اللهُ (١):

«هُوَ انْكِسَارُ الْقَلْبِ للهِ، وَخَفْضُ جَنَاحِ الذُّلِّ وَالرَّحْمَةِ بِعِبَادِهِ، فَلَا يَرَى لَهُ عَلَى أَحَدٍ فَضْلًا، وَلَا يَرَى لَهُ عِنْدَ أَحَدٍ حَقًّا».

بَلْ يَرَى الْفَضْلَ لِلنَّاسِ عَلَيْهِ، وَالْحُقُوقَ لَهُمْ قِبَلَهُ؛ وَسُئِلَ الْفُضَيْلُ بْنُ عِيَاضٍ (٢) عَنِ التَّوَاضُعِ؟ فَقَالَ: «يَخْضَعُ لِلْحَقِّ، وَيَنْقَادُ لَهُ وَيَقْبَلُهُ مِمَّنْ قَالَهُ» (٣).

فَلْيَحْذَرِ الدَّاعِيَةُ أَنْ يَرَى لِنَفْسِهِ - بِدَعْوَتِهِ - حَقًّا عَلَى الله - جَلَّ وَعَلَا - فَلَنْ

---

(١) «الروح» لابن القيم (٢٣٣).

(٢) هو الفضيل بن عياض بن مسعود بن بشر، الإمام القدوة، الثبت، شيخ الإسلام، أبو علي التميمي الخراساني، الزاهد المجاور بحرم الله، ولد بسمرقند، وارتحل في طلب العلم، كتب عن الأئمة، وحدث عن ابن المبارك والثوري وابن عيينة وغيرهم؛ قال ابن المبارك: «ما بقي عَلَى ظهر الأرض عندي أفضل من الفضيل بن عياض»؛ قال الذهبيُّ: «هو من أقران سفيان بن عيينة في المولد، ولكنه مات قبله بسنوات».
● راجع: «السير» (ترجمة رقم: ١٤٢٣)، و«تهذيب التهذيب» (٨/ ٢٩٤).

(٣) أخرجه البيهقي في «الشعب» (٨٢٤٥)، وابن عساكر في «تاريخه» (٤٨/ ٤١٩)؛ وانظر:: «مدارج السالكين» (٢/ ٣٤٢).

يَدْخُلَ الْجَنَّةَ أَحَدٌ بِعَمَلِهِ إِلَّا أَنْ يَتَغَمَّدَهُ اللهُ - جَلَّ وَعَلَا - بِرَحْمَتِهِ.

كَمَا أَخْبَرَنَا حَبِيبُ رَبِّ الْعَالَمِينَ؛ كَمَا فِي «الصَّحِيحَيْنِ» (١) مِنْ حَدِيثِ أَبِي هُرَيْرَةَ رضي الله عنه أَنَّ النَّبِيَّ صلى الله عليه وسلم قَالَ: «**لَنْ يُدْخِلَ أَحَدًا مِنْكُمْ عَمَلُهُ الْجَنَّةَ**»، قَالُوا: وَلَا أَنْتَ يَا رَسُولَ اللهِ؟، قَالَ: «**وَلَا أَنَا، إِلَّا أَنْ يَتَغَمَّدَنِي اللهُ مِنْهُ بِفَضْلٍ وَرَحْمَةٍ**».

وَفِي «صَحِيحِ مُسْلِمٍ» (٢) مِنْ حَدِيثِ جَابِرٍ رضي الله عنه أَنَّ النَّبِيَّ صلى الله عليه وسلم قَالَ: «**لَا يُدْخِلُ أَحَدًا مِنْكُمْ عَمَلُهُ الْجَنَّةَ، وَلَا يُجِيرُهُ مِنَ النَّارِ، وَلَا أَنَا، إِلَّا بِرَحْمَةٍ مِنَ اللهِ**».

فَيَجِبُ عَلَى الدَّاعِيَةِ أَنْ يُخْلِصَ للهِ - جَلَّ وَعَلَا - فِي دَعْوَتِهِ إِخْلَاصًا تَتَوَارَى مَعَهُ ذَاتُهُ.

وَلْيَحْذَرِ الدَّاعِيَةُ أَنْ يَرَى لِنَفْسِهِ فَضْلًا عَلَى النَّاسِ، وَلَكِنَّهُ فِي كُلِّ نَفَسٍ مِنْ أَنْفَاسِ حَيَاتِهِ بِالْإِسْلَامِ مَدِينٌ لِصَاحِبِ الْفَضْلِ وَالْمِنَّةِ - جَلَّ وَعَلَا - أَجَلْ؛ فَمَنِ الَّذِي اخْتَارَهُ مُسْلِمًا، وَشَرَّفَهُ بِالتَّوْحِيدِ، وَأَنْزَلَ لَهُ الْقُرْآنَ، وَأَرْسَلَ إِلَيْهِ أَعْظَمَ رُسُلِهِ مُحَمَّدًا صلى الله عليه وسلم؟

وَرَحِمَ اللهُ مَنْ قَالَ:

وَمِمَّا زَادَنِي فَخْرًا وَتِيهًا ... وَكِدْتُ بِأَخْمَصِي أَطَأُ الثُّرَيَّا
دُخُولِي تَحْتَ قَوْلِكَ يَا عِبَادِي ... وَأَنْ صَيَّرْتَ أَحْمَدَ لِي نَبِيَّا (٣)

وَمَنِ الَّذِي عَلَّمَهُ وَفَهَّمَهُ وَوَفَّقَهُ وَأَعَانَهُ، وَهُوَ الَّذِي يَأْجُرُهُ وَيُثِيبُهُ؟

---

(١) أخرجه البخاريُّ، كتاب المرض، باب نهي تمني المريض الموت (٥٦٧٣)، ومسلمٌ، كتاب صفة القيامة والجنة والنار (٢٨١٦) (٧٥).

(٢) أخرجه مسلمٌ، كتاب صفة القيامة والجنة والنار (٢٨١٧)، وأخرجه البخاريُّ (٦٤٦٤ و٦٤٦٧)، ومسلمٌ (٢٨١٨) من حديث عائشة رضي الله عنها.

(٣) هذه الأبيات للقاضي عياض؛ انظر: «غذاء الألباب» للسفاريني (٤/ ٥٨). ط المكتبة العلمية، بيروت.

إِنَّهُ الله ﷻ صَاحِبُ الْفَضل كُلِّهِ، وَبِيَدِهِ الْأَمْرُ كُلُّهُ، فَلْيَسْجُدِ الدَّاعِيَةُ إِلَى رَبِّهِ شَاكِرًا مُنْكَسِرًا ذَلِيلًا ضَارِعًا إِلَيْهِ أَلَّا يَكِلَهُ لِنَفْسِهِ طَرْفَةَ عَيْنٍ فَيَهْلِكَ، وَأَنْ يُثَبِّتَ قَلْبَهُ عَلَى الْحَقِّ؛ فَإِنَّ الْقُلُوبَ بَيْنَ إِصْبَعَيْنِ مِنْ أَصَابِعِ الرَّحْمَنِ يُقَلِّبُهَا كَيْفَ يَشَاءُ، وَإِنَّمَا الْأَعْمَالُ بِالْخَوَاتِيمِ، خَتَمَ الله لَنَا وَلَكُمْ جَمِيعًا بِالتَّوْحِيدِ وَالإِيمَانِ؛ إِنَّهُ وَلِيُّ ذَلِكَ وَمَوْلَاهُ، وَهُوَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ.

وَلْيَحْذَرِ الدَّاعِيَةُ أَنْ يُزَكِّيَ نَفْسَهُ أَوْ عِلْمَهُ أَوْ دَعْوَتَهُ؛ فَالَّذِي يَعْلَمُ الْقُلُوبَ وَيَطَّلِعُ عَلَى الْغُيُوبِ، وَيَعْلَمُ السِّرَّ وَأَخْفَى هُوَ الْعَلِيمُ الْخَبِيرُ - جَلَّ وَعَلَا- الَّذِي أَمَرَنَا بِذَلِكَ؛ فَقَالَ: ﴿فَلَا تُزَكُّوٓاْ أَنفُسَكُمْۖ هُوَ أَعۡلَمُ بِمَنِ ٱتَّقَىٰٓ﴾ [النجم:٣٢].

لِأَنَّ الْعُجْبَ مَدْخَلٌ خَطِيرٌ مِنْ مَدَاخِلِ الْكِبْرِ - وَالْعِيَاذُ بِالله - قَدْ يَزِلُّ فِيهِ بَعْضُ الدُّعَاةِ ظَنًّا مِنْهُمْ أَنَّهُ لَا بُدَّ لِلْعَالِمِ أَوِ الدَّاعِيَةِ مِنْ هَيْبَةٍ تَعْلُوهُ، وَلَكِنْ شَتَّانَ شَتَّانَ بَيْنَ الْهَيْبَةِ وَبَيْنَ الْعُجْبِ وَالْكِبْرِ!!

فَالْمَهَابَةُ؛ كَمَا يَقُولُ الْعَلَّامَةُ ابْنُ الْقَيِّمِ رَحِمَهُ اللهُ (١): «أَثَرٌ مِنْ آثَارِ امْتِلَاءِ الْقَلْبِ بِعَظَمَةِ الله وَمَحَبَّتِهِ وَإِجْلَالِهِ؛ فَإِذَا امْتَلَأَ الْقَلْبُ بِذَلِكَ حَلَّ فِيهِ النُّورُ، وَنَزَلَتْ عَلَيْهِ السَّكِينَةُ، وَأُلْبِسَ رِدَاءَ الْهَيْبَةِ، فَاكْتَسَى وَجْهُهُ الْحَلَاوَةَ وَالْمَهَابَةَ؛ فَأَخَذَ بِمَجَامِعِ الْقُلُوبِ مَحَبَّةً وَمَهَابَةً؛ فَحَنَّتْ إِلَيْهِ الْأَفْئِدَةُ، وَقَرَّتْ بِهِ الْعُيُونُ، وَأَنِسَتْ بِهِ الْقُلُوبُ؛ فَكَلَامُهُ نُورٌ، وَمَدْخَلُهُ نُورٌ، وَمَخْرَجُهُ نُورٌ، وَعِلْمُهُ نُورٌ، وَإِنْ سَكَتَ عَلَاهُ الْوَقَارُ، وَإِنْ تَكَلَّمَ أَخَذَ بِالْقُلُوبِ وَالْأَسْمَاعِ، وَأَمَّا الْكِبْرُ؛ فَأَثَرٌ مِنْ آثَارِ الْعُجْبِ وَالْبَغْيِ مِنْ قَلْبٍ قَدِ امْتَلَأَ بِالْجَهْلِ وَالظُّلْمِ، تَرَحَّلَتْ مِنْهُ الْعُبُودِيَّةُ، وَنَزَلَ عَلَيْهِ الْمَقْتُ فَنَظَرُهُ إِلَى النَّاسِ شَزْرٌ، وَمَشْيُهُ بَيْنَهُمْ تَبَخْتُرٌ، وَمُعَامَلَتُهُ لَهُمْ مُعَامَلَةُ الِاسْتِئْثَارِ لَا الْإِيثَارِ وَلَا الْإِنْصَافِ، ذَاهِبٌ بِنَفْسِهِ تِيهًا، لَا يَبْدَأُ مَنْ لَقِيَهُ بِالسَّلَامِ، وَإِنْ رَدَّ عَلَيْهِ رَأَى أَنَّهُ قَدْ بَالَغَ فِي الْإِنْعَامِ عَلَيْهِ، لَا يَنْطَلِقُ لَهُمْ وَجْهُهُ وَلَا يَسَعُهُمْ خُلُقُهُ، وَلَا يَرَى لِأَحَدٍ عَلَيْهِ حَقًّا، وَيَرَى حُقُوقَهُ عَلَى النَّاسِ، وَلَا يَرَى فَضْلَهُمْ عَلَيْهِ، وَيَرَى فَضْلَهُ عَلَيْهِمْ،

---

(١) «الروح» لابن القيم (٢٣٥).

وَلَا يَزْدَادُ مِنَ اللهِ إِلَّا بُعْدًا، وَلَا مِنَ النَّاسِ إِلَّا صَغَارًا وَبُغْضًا» ا. هـ.

فَلْيَحْذَرِ الدَّاعِيَةُ مِنِ اسْتِعْظَامِ عَمَلِهِ - أَيًّا كَانَ- حَتَّى لَا يَظُنَّ أَنَّ عَمَلَهُ أَوْ دَعْوَتَهُ جَعَلَتْ لَهُ عِنْدَ اللهِ مَوْضِعًا، وَأَنَّهُ قَدِ اسْتَوْجَبَ بِهَا الْجَزَاءَ مِنْهُ- جَلَّ جَلَالُهُ- فَهَذَا مِنَ الْهَلَاكِ الَّذِي حَذَّرَ مِنْهُ رَسُولُ اللهِ ﷺ فِي قَوْلِهِ: «**ثَلَاثٌ مُهْلِكَاتٌ: شُحٌّ مُطَاعٌ، وَهَوًى مُتَّبَعٌ، وَإِعْجَابُ الْمَرْءِ بِنَفْسِهِ**» (١).

وَمَا أَطْيَبَ قَوْلَ الْإِمَامِ ابْنِ الْجَوْزِيِّ رَحِمَهُ اللهُ (٢): «إِذَا تَمَّ عِلْمُ الْإِنْسَانِ لَمْ يَرَ لِنَفْسِهِ عَمَلًا، وَلَمْ يُعْجَبْ بِهِ لِأَشْيَاءَ، مِنْهَا: أَنَّهُ وُفِّقَ لِذَلِكَ الْعَمَلِ: ﴿حَبَّبَ إِلَيْكُمُ ٱلْإِيمَٰنَ وَزَيَّنَهُۥ فِى قُلُوبِكُمْ﴾ [الحجرات:٧].

وَمِنْهَا: أَنَّهُ إِذَا قِيسَ بِالنِّعَمِ لَمْ يَفِ بِمِعْشَارِ عُشْرِهَا.

وَمِنْهَا: أَنَّهُ إِذَا لُوحِظَتْ عَظَمَةُ الْمَخْدُومِ احْتَقَرَ كُلَّ عَمَلٍ وَتَعَبُّدٍ، هَذَا إِذَا سَلِمَ مِنْ شَائِبَةٍ وَخَلَصَ مِنْ غَفْلَةٍ، فَأَمَّا وَالْغَفَلَاتُ تُحِيطُ بِهِ فَيَنْبَغِي أَنْ يُغَلِّبَ الْحَذَرَ مِنْ رَدِّهِ، وَيَخَافَ الْعِتَابَ عَلَى التَّقْصِيرِ فِيهِ، فَيَشْتَغِلَ عَنِ النَّظَرِ إِلَيْهِ، وَتَأَمَّلْ عَلَى

---

(١) روي عن عدد من الصحابة؛ فأخرجه الطبراني في «الأوسط» (٥/ ٣٢٨)، وأبو نعيم في «الحلية» (٢/ ١٦٠ و٣٤٣)، والبيهقي في «الشعب» (١/ ٤٧١)، والبزار في «مسنده» (٧٢٩٣)، والقضاعي في «مسند الشهاب» (٣٢٥ -٣٢٧) بسندٍ ضعيف عن أنس بن مالك به رضي الله عنه.
وأخرجه الطبراني في «الأوسط» (٦/ ٤٦ و٤٧)، وفي «الكبير» (١١/ ٣٠١) بسندٍ ضعيف عن ابن عمر رضي الله عنهما مرفوعًا.
وأخرجه أبو نعيم في «الحلية» (٣/ ٢١٩)، والبزار (٨٢) من طريقين ضعيفين عن ابن عباس رضي الله عنهما مرفوعًا.
وثم شواهد أخرى؛ حسَّنَهُ بمجموعها العلامة الألباني في «الصحيحة» (١٨٠٢)، و«صحيح الترغيب» (٢٦٠٧)، و«صحيح الجامع» (٣٠٣٩) و(٣٠٤٥)، وراجع: «مجمع الزوائد» (١/ ١٠٧)، و«المغني» للعراقي «تخريج الإحياء» (١/ ١٥).
(٢) «صيد الخاطر» (٢٩٦) ط دار ابن رجب، بتصرف يسير.

الْفُطَنَاءِ أَحْوَالَهُمْ فِي ذَلِكَ؛ فَالْمَلَائِكَةُ الَّذِينَ يُسَبِّحُونَ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ لَا يَفْتُرُونَ؛ قَالُوا: مَا عَبَدْنَاكَ حَقَّ عِبَادَتِكَ [(١)].

وَالْخَلِيلُ - عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ - يَقُولُ: ﴿وَٱلَّذِىٓ أَطْمَعُ أَن يَغْفِرَ لِى خَطِيٓـَٔتِى يَوْمَ ٱلدِّينِ﴾ [الشعراء:٨٢]، وَمَا أَدَلَّ بِتَصَبُّرِهِ عَلَى النَّارِ، وَتَسْلِيمِهِ الْوَلَدَ إِلَى الذَّبْحِ، وَرَسُولُ اللهِ ﷺ يَقُولُ: «**مَا مِنْكُمْ مَنْ يُنَجِّيهِ عَمَلُه**»، قَالُوا: وَلَا أَنْتَ؟ قَالَ: «**وَلَا أَنَا إِلَّا أَنْ يَتَغَمَّدَنِيَ اللهُ بِرَحْمَتِهِ**»[(٢)].

وَعُمَرُ يَقُولُ: «لَوْ أَنَّ لِي طِلَاعَ الْأَرْضِ ذَهَبًا لَافْتَدَيْتُ بِهِ مِنْ عَذَابِ اللهِ قَبْلَ أَنْ أَرَاهُ»[(٣)]، وَهَذَا شَأْنُ جَمِيعِ الْعُقَلَاءِ» اهـ.

فَيَا أَيُّهَا الدَّاعِيَةُ الْحَبِيبُ: أُذَكِّرُ نَفْسِي وَإِيَّاكَ بِمَا قَالَ بَعْضُهُمْ:

وَأَحْسَنُ أَخْلَاقِ الْفَتَى وَأَتَمُّهَا ... تَوَاضُعُهُ لِلنَّاسِ وَهُوَ رَفِيعُ
وَأَقْبَحُ شَيْءٍ أَنْ يَرَى الْمَرْءُ نَفْسَهُ ... رَفِيعًا وَعِنْدَ الْعَالَمِينَ وَضِيعُ[(٤)]

وَفِي «صَحِيحِ مُسْلِمٍ»[(٥)] عَنْ عِيَاضِ بْنِ حِمَارٍ[(٦)] رضي الله عنه قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللهِ

---

(١) كما عند الحاكم في «المستدرك» (٤/ ٥٨٦) عن سلمان الفارسي رضي الله عنه مرفوعًا، وأخرجه الآجري في «الشريعة» (٣٨٢) موقوفًا عَلَى سلمان، وله حكم الرفع؛ كما قال الألباني في «الصحيحة» (٩٤١)، وصححه لغيره في «صحيح الترغيب» (٣٦٢٦).

(٢) تقدم قريبًا.

(٣) أخرجه البخاريُّ، كتاب فضائل الصحابة، باب مناقب عمر بن الخطاب رضي الله عنه (٣٦٩٢).

(٤) «غذاء الألباب» للسفاريني (٢/ ١٨٢).

(٥) أخرجه مسلمٌ، كتاب الجنة، باب الصفات التي يُعرف بها في الدنيا أهل الجنة وأهل النار (٢٨٦٥) (٦٤).

(٦) هو عياض بن حمار بن أبي حمار بن ناجيه بن عقال بن محمد بن سفيان بن مجاشع التميمي، كذا نسبه خليفة بن خياط، وقال أبو عبيدة: هو عياض بن حمار بن عرفجة بن ناجية، وكان صديقًا لرسول الله ﷺ، أهدى إلى النبي ﷺ قبل أن يسلم؛ فلم يقبل منه، وسكن البصرة. راجع: «الاستيعاب» (١٠٣٠)، و«أسد الغابة» (٤١٥١)، و«الإصابة»
=

ﷺ: «إِنَّ اللهَ أَوْحَى إِلَيَّ أَنْ تَوَاضَعُوا حَتَّى لَا يَفْخَرَ أَحَدٌ عَلَى أَحَدٍ، وَلَا يَبْغِي أَحَدٌ عَلَى أَحَدٍ».

وَكَمَا خَتَمْنَا الْحَدِيثَ عَنِ الْمُقَوِّمَيْنِ السَّابِقَيْنِ بِدُرُوسٍ عَمَلِيَّةٍ مِنْ أُسْتَاذِ الْبَشَرِيَّةِ وَمُعَلِّمِ الْإِنْسَانِيَّةِ ﷺ؛ فَلْنَخْتِمِ الْحَدِيثَ عَنْ هَذَا الْمُقَوِّمِ الْمُهِمِّ بِبَعْضِ مَوَاقِفِ سَيِّدِ الْمُتَوَاضِعِينَ - عَلَيْهِ صَلَوَاتُ رَبِّ الْعَالَمِينَ.

فَعَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ رضي الله عنهما أَنَّهُ سَمِعَ عُمَرَ بْنَ الْخَطَّابِ رضي الله عنه يَقُولُ عَلَى الْمِنْبَرِ: سَمِعْتُ النَّبِيَّ ﷺ يَقُولُ: «لَا تُطْرُونِي كَمَا أَطْرَتِ النَّصَارَى ابْنَ مَرْيَمَ، فَإِنَّمَا أَنَا عَبْدُهُ؛ فَقُولُوا: عَبْدُ اللهِ وَرَسُولُهُ» (١).

وَعَنْ عَبْدِ اللهِ بنِ الشِّخِّيرِ رضي الله عنه(٢) قَالَ: «انْطَلَقْتُ فِي وَفْدِ بَنِي عَامِرٍ إِلَى رَسُولِ اللَّهِ ﷺ: فَقُلْنَا: أَنْتَ سَيِّدُنَا، فَقَالَ: «السَّيِّدُ اللَّهُ تَبَارَكَ وَتَعَالَى» قُلْنَا: وَأَفْضَلُنَا فَضْلًا وَأَعْظَمُنَا طَوْلًا، فَقَالَ: «قُولُوا بِقَوْلِكُمْ، أَوْ بَعْضِ قَوْلِكُمْ، وَلَا يَسْتَجْرِيَنَّكُمُ الشَّيْطَانُ» (٣).

=

(ترجمة برقم: ٦١٤٣).

(١) أخرجه البخاريُّ، كتاب أحاديث الأنبياء، باب قوله تعالى: ﴿وَٱذْكُرْ فِي ٱلْكِتَٰبِ مَرْيَمَ﴾ [مريم:١٦] (٣٤٤٥).

(٢) هو عبد الله بن الشخير - بكسر الشين وتشديد الخاء المعجمتين - ابن عوف بن كعب ابن وقدان الحريش بن كعب بن ربيعة بن عامر العامري ثم الحرشي الصحابي، من مسلمة الفتح.

● انظر: «الإصابة» (٤٧٦١)، و«تقريب التهذيب» (٣٣٩٢)، و«أسد الغابة» (٣٠٠٥).

(٣) أخرجه أحمد في «المسند» (٤/ ٢٤، ٢٥)، وأبو داود، كتاب الأدب، باب في كراهية التمادح (٤٨٠٦)، والبخاريُّ في «الأدب المفرد» (٢١١)، والنسائي في «الكبرى» (٩/ ١٠٢، ١٠٣)، وقال الحافظ في «الفتح»: «رجاله ثقات، وقد صحَّحَهُ غير واحد». «الفتح» (٥/ ١٧٩)، وله شاهدٌ عن أنس بن مالك رضي الله عنه عند أحمد (٣/ ١٥٣، ٢٤١،

=

وَأَخْتِمُ بِهَذَا الْمَوْقِفِ الَّذِي يَتَأَلَّقُ رَوْعَةً وَسُمُوًّا وَجَلَالًا وَتَوَاضُعًا؛ فَعَنْ أَبِي مَسْعُودٍ الْبَدْرِيِّ[١] رضي الله عنه قَالَ: أَتَى النَّبِيَّ ﷺ رَجُلٌ فَكَلَّمَهُ، فَجَعَلَ تُرْعَدُ فَرَائِصُهُ، فَقَالَ لَهُ: «**هَوِّنْ عَلَيْكَ؛ فَإِنِّي لَسْتُ بِمَلِكٍ، إِنَّمَا أَنَا ابْنُ امْرَأَةٍ كَانَتْ تَأْكُلُ الْقَدِيدَ**»[٢].

وَالْقَدِيدُ: هُوَ اللَّحْمُ الْمُمَلَّحُ الْمُجَفَّفُ فِي الشَّمْسِ[٣].

هَذِهِ هِيَ أَخْلَاقُ الدَّاعِيَةِ، وَهَذِهِ هِيَ سِمَاتُهُ؛ حِكْمَةٌ، وَرَحْمَةٌ، وَتَوَاضُعٌ.

❊❊❊

= ٢٤٩)، وعبد بن حميد (١٣٠٩، ١٣٣٧)، والنسائي في «الكبرى» (٩/ ١٠٣)، وصححه الألباني في «صحيح الجامع» (٣٥٩٤).

(١) هو عقبة بن عمرو بن ثعلبة بن أسيرة، وقيل: ثعلبة بن عسيرة، وقيل: ثعلبة بن أسيرة بن عسيرة بن عطية بن خدارة بن عوف بن الحارث بن الخزرج، الأنصاري، أبو مسعود البدري، وهو مشهور بكنيته، واختلفوا في شهوده بدرًا، وإنما سكن بدرًا، وشهد العقبة الثانية، وكان أحدث من شهدها سنًّا، وشهد أحدًا وما بعدها من المشاهد، وهو معدودٌ من علماء الصحابة، وكان من أصحاب عليٍّ، واستخلفه على الكوفة. مات سنة أربعين، والصحيح أنه مات بعدها.

● راجع: «الاستيعاب» (١٨٣٨)، و«أسد الغابة» (٣٧١٧)، و«الإصابة» (٥٦١٠)، و«السير» (٢/ ٤٩٣، ٤٩٤).

(٢) أخرجه ابن ماجه، كتاب الأطعمة، باب القديد (٣٣١٢)، والحاكم (٣/ ٤٧ و٤٨) موصولًا، وابن سعد في «الطبقات» (١/ ٢٣) مرسلًا، وصححه الألباني في «السلسلة الصحيحة» (١٨٧٦)، و«صحيح الجامع» (٧٠٥٢).

(٣) «النهاية» لابن الأثير (٤/ ٢٢).

المَبْحَثُ السَّابِعُ
الرِّفْقُ وَاللِّينُ

اللِّينُ فِي الدَّعْوَةِ إِلَى الله تَعَالَى مُقَوِّمٌ أَصِيلٌ مِنْ مُقَوِّمَاتِ الْمَنْهَجِ الدَّعَوِيِّ، وَلَقَدْ جَعَلَ الْإِسْلَامُ سَبِيلَ الدَّعْوَةِ مَعَ الْكُفَّارِ وَغَيْرِهِمْ هُوَ الْحِكْمَةَ الْبَالِغَةَ، وَالْمَوْعِظَةَ الْحَسَنَةَ، وَالْجِدَالَ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ، وَذَلِكَ لِأَنَّ النُّفُوسَ الشَّارِدَةَ، وَالْقُلُوبَ الْقَاسِيَةَ لَا تَعُودُ إِلَى الْإِسْلَامِ، وَلَا تَلِينُ إِلَّا بِالْمُلَايَنَةِ وَالْمُلَاطَفَةِ وَإِظْهَارِ الْعَطْفِ وَالشَّفَقَةِ وَالْحِرْصِ.

وَلِذَلِكَ قَالَ الله تَعَالَى لِمُوسَى وَهَارُونَ عليهما السلام عِنْدَمَا أَرْسَلَهُمَا الله عز وجل إِلَى فِرْعَوْنَ: ﴿فَقُولَا لَهُۥ قَوْلًا لَّيِّنًا لَّعَلَّهُۥ يَتَذَكَّرُ أَوْ يَخْشَىٰ﴾ [طه:٤٤]؛ فَسُبْحَانَكَ مَا أَحْلَمَكَ!! إِنْ كَانَ هَذَا حِلْمَكَ بِفِرْعَوْنَ الَّذِي قَالَ: أَنَا رَبُّكُمُ الْأَعْلَى؛ فَكَيْفَ يَكُونُ حِلْمُكَ بِعَبْدٍ قَالَ: سُبْحَانَ رَبِّيَ الْأَعْلَى؟!!

قَالَ يَحْيَى بْنُ مُعَاذٍ (١): «إِلَهِي وَسَيِّدِي! هَذَا رِفْقُكَ بِمَنْ يَزْعُمُ أَنَّهُ إِلَهٌ!! فَكَيْفَ رِفْقُكَ بِمَنْ يَقُولُ: أَنْتَ الْإِلَهُ؟!!» (٢).

---

(١) هو يحيى بن معاذ بن جعفر الرازي الواعظ، من كبار المشايخ، له كلامٌ جيد، ومواعظُ مشهورة، وعنه قال: لست أبكي عَلَى نفسي إن ماتت، إنما أبكي عَلَى حاجتي إن فاتت.
نسيج وحده في وقته، له لسان في الرجاء خصوصًا، وكان له عبارات حسنة؛ تُوفي سنة ثمان وخمسين ومائتين بنيسابور.
● راجع: «سير أعلام النبلاء» (٢٣٦٧)، و«وفيات الأعيان» (٦/ ١٦٧)، و«الأعلام» (٨/ ١٧٢).

(٢) أخرجه البيهقي في «الشعب» (٤٥١١).

وَكَانَ الْفَضْلُ بْنُ عِيسَى الرُّقَاشِيُّ (١) إِذَا تَلَا هَذِهِ الْآيَةَ قَالَ: «يَا مَنْ يَتَحَبَّبُ إِلَى مَنْ يُعَادِيهِ؛ فَكَيْفَ بِمَنْ يَتَوَلَّاهُ وَيُنَادِيهِ؟!» (٢).

قَالَ الْقُرْطُبِيُّ فِي تَفْسِيرِ هَذِهِ الْآيَةِ (٣): «الْقَوْلُ اللَّيِّنُ هُوَ الْقَوْلُ الَّذِي لَا خُشُونَةَ فِيهِ، يُقَالُ: لَانَ الشَّيْءُ يَلِينُ لِينًا؛ فَإِذَا كَانَ مُوسَى أُمِرَ بِأَنْ يَقُولَ لِفِرْعَوْنَ قَوْلًا لَيِّنًا؛ فَمَنْ دُونَهُ أَحْرَى بِأَنْ يَقْتَدِيَ بِذَلِكَ فِي خِطَابِهِ وَأَمْرِهِ بِالْمَعْرُوفِ فِي كَلَامِهِ، وَقَدْ قَالَ تَعَالَى: ﴿ **وَقُولُواْ لِلنَّاسِ حُسْنًا** ﴾ [البقرة:٨٣]».

وَقَالَ ابْنُ كَثِيرٍ (٤): «هَذِهِ الْآيَةُ فِيهَا عِبْرَةٌ عَظِيمَةٌ، وَهُوَ أَنَّ فِرْعَوْنَ فِي غَايَةِ الْعُتُوِّ وَالِاسْتِكْبَارِ، وَمُوسَى صَفْوَةُ اللهِ مِنْ خَلْقِهِ إِذْ ذَاكَ، وَمَعَ هَذَا أُمِرَ أَلَّا يُخَاطِبَ فِرْعَوْنَ إِلَّا بِالْمُلَاطَفَةِ وَاللِّينِ».

فَكَانَتْ دَعْوَتُهُمَا لِفِرْعَوْنَ بِكَلَامٍ رَقِيقٍ لَيِّنٍ سَهْلٍ رَفِيقٍ؛ لِيَكُونَ أَوْقَعَ فِي النُّفُوسِ، وَأَبْلَغَ وَأَنْجَعَ (٥).

وَهَكَذَا فِعْلُ رَسُولِ اللهِ ﷺ مَعَ الْمُشْرِكِينَ وَالْكَافِرِينَ وَالْمُنَافِقِينَ مِمَّنْ عَرَضَ عَلَيْهِمْ دَعْوَتَهُ؛ سَوَاءٌ كَانُوا مِنَ الْعَرَبِ الْمُشْرِكِينَ أَوِ الْيَهُودِ أَوِ النَّصَارَى؛

---

(١) هو الفضل بن عيسى بن أبان الرقاشي أبو عيسى البصري الواعظ، وكان قاصًّا، وكان رجل سوء، وكان قدريًّا، وكان معتزليًّا ضعيف الحديث؛ قال أيوب: لو أن فضلاً الرقاشي ولد أخرس كان خيرًا له.

● راجع: «الجرح والتعديل» (٣٦٧) ط. دار إحياء التراث العربي، و«تهذيب التهذيب» (٨/ ٢٨٣-٢٨٤).

(٢) «روح المعاني» للألوسي (١٦/ ١٩٥)، و«تفسير البغوي» (١/ ٢٧٤)، و«تفسير القرطبي» (١١/ ٨١)، و«زاد المسير» (٥/ ٢٨٨)، وفي «تفسير ابن كثير» (لسورة طه: ٤٤) ذكره عن يزيد الرقاشي.

(٣) «تفسير القرطبي» (٦/ ١٨٢) ط الحديث.

(٤) «تفسير ابن كثير» (٣/ ١٨٨).

(٥) قاله ابن كثير المصدر السابق.

امْتِثَالًا مِنْهُ لِقَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿ ٱدْعُ إِلَىٰ سَبِيلِ رَبِّكَ بِٱلْحِكْمَةِ وَٱلْمَوْعِظَةِ ٱلْحَسَنَةِ ﴾ [النحل:١٢٥]، وَقَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿ وَلَا تُجَٰدِلُوٓاْ أَهْلَ ٱلْكِتَٰبِ إِلَّا بِٱلَّتِي هِيَ أَحْسَنُ إِلَّا ٱلَّذِينَ ظَلَمُواْ مِنْهُمْ ﴾ [العنكبوت:٤٦].

وَلَا تَنَاقُضَ بَيْنَ ذَلِكَ وَبَيْنَ الْآيَاتِ الَّتِي تَدْعُو إِلَى الشِّدَّةِ وَالْغِلْظَةِ؛ لِأَنَّهَا إِنَّمَا تَكُونُ فِي الْقِتَالِ لِلْمُشْرِكِينَ وَالْمُنَافِقِينَ؛ كَمَا فِي قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ جَٰهِدِ ٱلْكُفَّارَ وَٱلْمُنَٰفِقِينَ وَٱغْلُظْ عَلَيْهِمْ ۚ وَمَأْوَىٰهُمْ جَهَنَّمُ ۖ وَبِئْسَ ٱلْمَصِيرُ ﴾ [التحريم:٩].

وَقَوْلِهِ ﷻ: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ قَٰتِلُواْ ٱلَّذِينَ يَلُونَكُم مِّنَ ٱلْكُفَّارِ وَلْيَجِدُواْ فِيكُمْ غِلْظَةً ﴾ [التوبة:١٢٣]، وَقَالَ تَعَالَى: ﴿ فَإِذَا لَقِيتُمُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ فَضَرْبَ ٱلرِّقَابِ ﴾ [محمد:٤].

وَبِهَذَا يَظْهَرُ لَنَا جَلِيًّا التَّفْرِيقُ بَيْنَ مَقَامِ الْقِتَالِ وَالْجِهَادِ، وَمَقَامِ الدَّعْوَةِ؛ فَمَقَامُ الدَّعْوَةِ هُوَ اللِّينُ، وَالْمُلَاطَفَةُ، وَتَخَيُّرُ الْأَلْفَاظِ، وَإِحْسَانُ الْقَوْلِ؛ رَغْبَةً فِي اسْتِمَالَةِ الْقُلُوبِ إِلَى الْإِسْلَامِ، وَمَقَامُ الْقِتَالِ هُوَ الشِّدَّةُ وَالْغِلْظَةُ وَالْقُوَّةُ.

وَلْيُعْلَمْ أَنَّ الْجِهَادَ مَا شُرِعَ إِلَّا مِنْ أَجْلِ الدَّعْوَةِ إِلَى دِينِ اللهِ وَنَشْرِهَا، وَمَا أُمِرَ النَّبِيُّ ﷺ بِالْجِهَادِ إِلَّا لِيُقَلِّمَ أَظْفَارَ مَنْ يَحُولُ بَيْنَ النَّاسِ وَبَيْنَ دَعْوَةِ اللهِ جَلَّ وَعَلَا.

فَالْجِهَادُ وَسِيلَةٌ لِلدِّفَاعِ عَنِ الدَّعْوَةِ أَمَامَ الْبَاطِلِ الَّذِي يَتَرَبَّصُ بِهَا فِي كُلِّ زَمَانٍ وَمَكَانٍ؛ لِإِزَالَةِ الْعَقَبَاتِ الَّتِي تَعْتَرِضُ طَرِيقَهَا حَتَّى يَسْمَعَ النَّاسُ كَلَامَ اللهِ وَكَلَامَ رَسُولِهِ ﷺ وَشَرِيعَتِهِ وَدَعْوَتِهِ.

ثُمَّ بَعْدَ ذَلِكَ لَا يَسْتَطِيعُ أَحَدٌ أَنْ يُكْرِهَ أَحَدًا عَلَى الدُّخُولِ فِي الْإِسْلَامِ؛ قَالَ تَعَالَى: ﴿ وَقُلِ ٱلْحَقُّ مِن رَّبِّكُمْ ۖ فَمَن شَآءَ فَلْيُؤْمِن وَمَن شَآءَ فَلْيَكْفُرْ ﴾ [الكهف:٢٩]، وَقَالَ تَعَالَى: ﴿ لَآ إِكْرَاهَ فِي ٱلدِّينِ ۖ قَد تَّبَيَّنَ ٱلرُّشْدُ مِنَ ٱلْغَيِّ ﴾ [البقرة: ٢٥٦].

لِذَا؛ فَعَرْضُ الدَّعْوَةِ يَحْتَاجُ إِلَى أُسْلُوبٍ لَيِّنٍ يَفْتَحُ الْقُلُوبَ، وَيَشْرَحُ الصُّدُورَ، وَيَحْمِلُ الْآخَرِينَ عَلَى اسْتِمَاعِ الْحَقِّ، وَالْإِذْعَانِ لَهُ.

لِذَا؛ حَدَّدَ الله تَعَالَى هَذَا الْمَنْهَجَ لِلنَّبِيِّ ﷺ، وَرَسَمَهُ لَهُ وَلِلدُّعَاةِ مِنْ بَعْدِهِ؛ فَقَالَ تَعَالَى: ﴿فَبِمَا رَحْمَةٍ مِّنَ ٱللَّهِ لِنتَ لَهُمْ ۖ وَلَوْ كُنتَ فَظًّا غَلِيظَ ٱلْقَلْبِ لَٱنفَضُّوا۟ مِنْ حَوْلِكَ ۖ فَٱعْفُ عَنْهُمْ وَٱسْتَغْفِرْ لَهُمْ وَشَاوِرْهُمْ فِى ٱلْأَمْرِ ۖ فَإِذَا عَزَمْتَ فَتَوَكَّلْ عَلَى ٱللَّهِ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلْمُتَوَكِّلِينَ﴾ [آل عمران:١٥٩].

وَهَكَذَا كَانَ النَّبِيُّ ﷺ يَحْمِلُ قَلْبًا كَبِيرًا رَحِيمًا لَيِّنًا؛ كَمَا قَالَ تَعَالَى: ﴿بِٱلْمُؤْمِنِينَ رَءُوفٌ رَّحِيمٌ﴾ [التوبة:١٢٨].

فَالْقَوْلُ اللَّيِّنُ الْحَسَنُ وَالشَّيِّقُ تَرْنُوا إِلَيْهِ الْقُلُوبُ، وَتَتَعَلَّقُ بِهِ النُّفُوسُ، وَتُقْبِلُ عَلَيْهِ.

وَالدَّاعِيَةُ الْبَصِيرُ حِينَ يَسْتَعْمِلُ أُسْلُوبَ الرِّفْقِ وَاللِّينِ؛ فَإِنَّهُ يَظْفَرُ بِمَطْلُوبِهِ، وَيَحْصُلُ عَلَى مَرْغُوبِهِ.

فَعَلَى الدَّاعِي إِلَى الله أَنْ يَسْلُكَ مَسْلَكَ مُعَامَلَةِ النَّاسِ بِالْحُسْنَى، وَالتَّوَدُّدَ إِلَيْهِمْ، وَالرِّفْقَ بِهِمْ، وَالشَّفَقَةَ عَلَيْهِمْ.

فَإِنَّ الرِّفْقَ لَا يَكُونُ فِي شَيْءٍ إِلَّا زَانَهُ، وَلَا يُنْزَعُ مِنْ شَيْءٍ إِلَّا شَانَهُ؛ كَمَا قَالَ ﷺ (١).

وَقَالَ ﷺ: «**مَنْ يُحْرَمُ الرِّفْقَ يُحْرَمُ الْخَيْرَ**» (٢).

وَمَعَ هَذَا؛ فَقَدْ تَسْتَكْبِرُ بَعْضُ النُّفُوسِ وَتَقْسُو بَعْضُ الْقُلُوبِ، وَقَدْ لَا

---

(١) أخرجه مسلمٌ، كتاب البر والصلة والآداب، باب فضل الرفق (٢٥٩٣) من حديث عائشة رضي الله عنها.

(٢) أخرجه مسلمٌ، كتاب البر والصلة والآداب، باب فضل الرفق (٢٥٩٢) من حديث جرير رضي الله عنه.

يُصْلِحُهَا اللِّينُ وَالرِّفْقُ؛ بَلْ تَحْتَاجُ إِلَى كَلِمَاتٍ شَدِيدَةٍ تَهُزُّهَا مِنْ أَعْمَاقِهَا؛ لَعَلَّهَا تَكُونُ قَادِرَةً عَلَى تَخْلِيصِهَا مِنْ هَذَا الْكِبْرِ وَتَطْهِيرِهَا مِنْ تِلْكَ الْقَسْوَةِ، فَيَعْدِلُ حِينَئِذٍ سَيِّدُ الدُّعَاةِ صَاحِبُ الْقَلْبِ الْكَبِيرِ الَّذِي فَاضَتْ رَحْمَتُهُ عَلَى الْعَالَمِينَ، يَعْدِلُ إِلَى الشِّدَّةِ الَّتِي تُجْدِي وَتُصْلِحُ لَعَلَّهَا تَرْعَوِي أَوْ تَسْتَجِيبُ؛ كَمَا قَالَ تَعَالَى: ﴿وَأَنزَلْنَا ٱلْحَدِيدَ فِيهِ بَأْسٌ شَدِيدٌ وَمَنَـٰفِعُ لِلنَّاسِ﴾ [الحديد: ٢٥].

قَالَ سُفْيَانُ لِأَصْحَابِهِ: تَدْرُونَ مَا الرِّفْقُ؟ قَالُوا: قُلْ يَا أَبَا مُحَمَّدٍ؟ قَالَ: أَنْ تَضَعَ الْأُمُورَ فِي مَوَاضِعِهَا؛ الشِّدَّةَ فِي مَوَاضِعِهَا، وَاللِّينَ فِي مَوْضِعِهِ، وَالسَّيْفَ فِي مَوْضِعِهِ، وَالسَّوْطَ فِي مَوْضِعِهِ.

قَالَ الْغَزَالِيُّ:

«وَهَذِهِ إِشَارَةٌ إِلَى أَنَّهُ لَابُدَّ مِنْ مَزْجِ الْغِلْظَةِ بِاللِّينِ، وَالْفَظَاظَةِ بِالرِّفْقِ» (١).

فَاللِّينُ فِي مَوْطِنِ الشِّدَّةِ لَا يَنْفَعُ، كَمَا أَنَّ الشِّدَّةَ فِي مَوْضِعِ اللِّينِ لَا تُجْدِي وَلَا تَصْلُحُ.

فَتَعَامُلُ سَيِّدِ الدُّعَاةِ ﷺ بِهَذَا الْمَنْطِقِ الْقَوِيمِ، وَالْمَنْهَجِ الْمُسْتَقِيمِ.

فَوَضْعُ النَّدَى فِي مَوْضِعِ السَّيْفِ بِالْعُلَا ... مُضِرٌّ كَوَضْعِ السَّيْفِ فِي مَوْضِعِ النَّدَى (٢)

(١) «الإحياء» للغزالي (٣/ ١٨٦).
(٢) وصاحب هذا البيت هو أبو الطيب المتنبي؛ كما في «ديوانه» (٣٦١)، و«شرحه» للواحدي (٢/ ٦٢)، وكما في «فيض القدير» (١/ ٢٥٤)، و«الكشكول» لبهاء الدين العاملي (١/ ٢٨١) ط الكتب العلمية، و«الآداب الشرعية» لابن مفلح (١/ ٣٣٠) ط الرسالة سنة ١٤١٧هـ.
وقبله:
إذا أنت أكرمت الكريم ملكته ... وإن أنت أكرمت اللئيم تمرَّدا

فَفِي «تَفْسِيرِ» ابْنِ أَبِي حَاتِمٍ، وَ«مُسْتَدْرَكِ» الْحَاكِمِ [(١)]؛ مِنْ حَدِيثِ ابْنِ عَبَّاسٍ رضي الله عنهما قَالَ: «الْعَاصَ بْنَ وَائِلٍ أَخَذَ عَظْمًا مِنَ الْبَطْحَاءِ فَفَتَّهُ بِيَدِهِ، ثُمَّ قَالَ لِرَسُولِ اللهِ ﷺ: أَيُحْيِي اللهُ هَذَا بَعْدَمَا أَرِمَ؟ فَقَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: «نَعَمْ، يُمِيتُكَ اللهُ، ثُمَّ يُحْيِيكَ، ثُمْ يُدْخِلُكَ جَهَنَّمَ»، قَالَ: وَنَزَلَتِ الْآيَاتُ مِنْ آخِرِ يس.

وَفِي «الدَّلَائِلِ» لِأَبِي نُعَيْمٍ، وَابْنِ مَرْدَوَيْهِ [(٢)] فِي «تَفْسِيرِهِ» [(٣)] مِنْ حَدِيثِ ابْنِ عَبَّاسٍ رضي الله عنهما: «أَنَّ أَبَا مُعَيْطٍ كَانَ يَجْلِسُ مَعَ النَّبِيِّ ﷺ بِمَكَّةَ لَا يُؤْذِيهِ، وَكَانَ رَجُلًا سَلِيمًا، وَكَانَ بَقِيَّةُ قُرَيْشٍ إِذَا جَلَسُوا مَعَهُ آذَوْهُ، وَكَانَ لِأَبِي مُعَيْطٍ خَلِيلٌ غَائِبٌ عَنْهُ بِالشَّامِ؛ فَقَالَتْ قُرَيْشٌ: صَبَأَ أَبُو مُعَيْطٍ، وَقَدِمَ خَلِيلُهُ مِنَ الشَّامِ لَيْلًا؛ فَقَالَ لِامْرَأَتِهِ: مَا فَعَلَ مُحَمَّدٌ مِمَّا كَانَ عَلَيْهِ؟ فَقَالَتْ: أَشَدُّ مِمَّا كَانَ أَمْرًا؛ فَقَالَ: مَا فَعَلَ خَلِيلِي أَبُو مُعَيْطٍ؟ فَقَالَتْ: صَبَأَ، فَبَاتَ بِلَيْلَةِ سُوءٍ، فَلَمَّا أَصْبَحَ أَتَاهُ أَبُو مُعَيْطٍ، فَحَيَّاهُ، فَلَمْ يَرُدَّ عَلَيْهِ التَّحِيَّةَ، فَقَالَ: مَالَكَ لَا تَرُدُّ عَلَيَّ تَحِيَّتِي؟ فَقَالَ: كَيْفَ أَرُدُّ

---

(١) أخرجه الطبريُّ في «تفسيره» (٢٣/ ٣٠)، والحاكم (٢/ ٤٢٩)، وابن أبي حاتم؛ كما في «تفسير ابن كثير» (لسورة يس:٧٨)؛ قال ابن كثير: «ورواه جرير عن سعيد بن جبير فذكره، ولم يذكر ابن عباس»، وهو عند الطبري (برقم: ٢٩٠٧٢) عن سعيد مرسلًا.
وذكره السيوطي في «الدر المنثور» (٥/ ٥٠٧)، وزاد نسبته إلى ابن المنذر والإسماعيلي في «معجمه»، وابن مردويه، والبيهقي في «البعث»، والضياء في «المختارة»، وصححه الشيخ مقبل بن هادي الوادعي في «الصحيح المسند من أسباب النزول» (١٩٧).

(٢) هو أبو بكر أحمد بن موسى بن مردويه بن فورك بن موسى الأصبهاني، الحافظ الثبت العلامة، صاحب «التفسير والتاريخ» وغيرهما، ولد سنة ثلاث وعشرين وثلاث مائة وكان من فرسان الحديث، فهمًا يقظًا متقنًا، كثير الحديث جدًّا، بصيرًا بالرجال، طويل الباع، مليح التصانيف، ومات لست بقين من رمضان سنة عشر وأربع مائة عن سبع وثمانين سنة رحمه الله.

● راجع: «تذكرة الحفاظ» (٣/ ١٠٥١)، و«السير» (١٧/ ٣٠٨) للذهبيِّ.

(٣) أخرجه أبو نعيم في «الدلائل» وابن مردويه بسندٍ صحيح؛ كما قال السيوطي في «الدر المنثور» (٦/ ٢٥٠)، وأورده العلامة الوادعيُّ في «أسباب النزول» (١٧٢) ط مكتبة ابن تيمية، وصحَّحهُ الألبانيُّ في «صحيح السيرة» (٢٠٥) ط المكتبة الإسلامية.

عَلَيْكَ تَحِيَّتَكَ وَقَدْ صَبَوْتَ؟ فَقَالَ: أَوَقَدْ فَعَلَتْهَا قُرَيْشٌ؟ قَالَ: فَمَا يُبْرِئُ صُدُورَهُمْ إِنْ أَنَا فَعَلْتُ؟ فَقَالَ: تَأْتِيهِ فِي مَجْلِسِهِ وَتَبْزُقُ فِي وَجْهِهِ، وَتَشْتُمُهُ بِأَخْبَثِ مَا تَعْلَمُهُ مِنَ الشَّتْمِ، فَفَعَلَ، فَلَمْ يَزِدِ النَّبِيُّ ﷺ أَنْ مَسَحَ وَجْهَهُ مِنَ الْبُزَاقِ، ثُمَّ الْتَفَتَ إِلَيْهِ؛ فَقَالَ: إِنْ وَجَدْتُكَ خَارِجًا مِنْ جِبَالِ مَكَّةَ، أَضْرِبْ عُنُقَكَ صَبْرًا.

فَلَمَّا كَانَ يَوْمُ بَدْرٍ وَخَرَجَ أَصْحَابُهُ، أَبَى أَنْ يَخْرُجَ؛ فَقَالَ لَهُ أَصْحَابُهُ: اخْرُجْ مَعَنَا، قَالَ: قَدْ وَعَدَنِي هَذَا الرَّجُلُ إِنْ وَجَدَنِي خَارِجًا مِنْ جِبَالِ مَكَّةَ أَنْ يَضْرِبَ عُنُقِي صَبْرًا.

فَقَالُوا: لَكَ جَمَلٌ أَحْمَرُ، لَا يُدْرَكُ؛ فَلَوْ كَانَتِ الْهَزِيمَةُ طِرْتَ عَلَيْهِ، فَخَرَجَ مَعَهُمْ، فَلَمَّا هَزَمَ اللهُ الْمُشْرِكِينَ، وَحَلَّ بِهِ جَمَلُهُ فِي جُدَدِ الْأَرْضِ، فَأَخَذَهُ رَسُولُ اللهِ ﷺ أَسِيرًا فِي سَبْعِينَ مِنْ قُرَيْشٍ، وَقُدِّمَ إِلَيْهِ أَبُو مُعَيْطٍ، فَقَالَ: تَقْتُلُنِي مِنْ بَيْنِ هَؤُلَاءِ؟ قَالَ: «بِمَ بَزَقْتَ فِي وَجْهِي» فَأُنْزِلَ فِي أَبِي مُعَيْطٍ: ﴿وَيَوْمَ يَعَضُّ ٱلظَّالِمُ عَلَىٰ يَدَيْهِ﴾ إِلَى قَوْلِهِ: ﴿وَكَانَ ٱلشَّيْطَٰنُ لِلْإِنسَٰنِ خَذُولًا﴾ [الفرقان: ٢٧: ٢٩].

بَلْ فِي وَقْعَةِ بَدْرٍ الْكُبْرَى يَقُولُ اللهُ تَعَالَى لِنَبِيِّهِ ﷺ فِي أَخْذِ الْفِدَاءِ مِنَ الْأُسَارَى: ﴿مَا كَانَ لِنَبِيٍّ أَن يَكُونَ لَهُۥٓ أَسْرَىٰ حَتَّىٰ يُثْخِنَ فِى ٱلْأَرْضِ تُرِيدُونَ عَرَضَ ٱلدُّنْيَا﴾ [الأنفال: ٦٧] الآيَةُ.

قَالَ ابْنُ إِسْحَاقَ فِي «السِّيرَةِ»[1]: «﴿مَا كَانَ لِنَبِيٍّ﴾؛ أَيْ: قَبْلَكَ، ﴿أَن يَكُونَ لَهُۥٓ أَسْرَىٰ﴾ مِنْ عَدُوِّهِمْ، ﴿حَتَّىٰ يُثْخِنَ فِى ٱلْأَرْضِ﴾؛ أَيْ: يُثْخِنَ عَدُوَّهُ حَتَّى يَنْفِيَهُ مِنَ الْأَرْضِ، ﴿تُرِيدُونَ عَرَضَ ٱلدُّنْيَا﴾؛ أَيِ: الْمَتَاعَ بِأَخْذِ الرِّجَالِ، ﴿وَٱللَّهُ يُرِيدُ ٱلْءَاخِرَةَ﴾؛ أَيْ: قَتْلَهُمْ؛ لِظُهُورِ الدِّينِ الَّذِي يُرِيدُ إِظْهَارَهُ، وَالَّذِي تُدْرَكُ بِهِ الْآخِرَةُ، ﴿لَّوْلَا كِتَٰبٌ مِّنَ ٱللَّهِ سَبَقَ لَمَسَّكُمْ فِيمَآ أَخَذْتُمْ﴾؛ أَيْ: مِنَ الْأُسَارَى

---

(١) راجع: «السيرة» لابن هشام (١/ ٤٥٤) ط دار ابن رجب بالمنصورة.

وَالْمَغَانِمِ ﴿عَذَابٌ عَظِيمٌ﴾؛ أَيْ: لَوْلَا أَنَّهُ سَبَقَ مِنِّي أَنِّي لَا أُعَذِّبُ إِلَّا بَعْدَ النَّهْيِ - وَلَمْ يَكُ نَهَاهُمْ - لَعَذَّبْتُكُمْ فِيمَا صَنَعْتُمْ..».

رَوَى مُسْلِمٌ فِي «صَحِيحِهِ» (١) مِنْ حَدِيثِ ابْنِ عَبَّاسٍ عَنْ عُمَرَ بْنِ الْخَطَّابِ رضي الله عنه قَالَ: لَمَّا كَانَ يَوْمُ بَدْرٍ.. فَقَتَلُوا يَوْمَئِذٍ سَبْعِينَ وَأَسَرُوا سَبْعِينَ، قَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ رضي الله عنهما: فَلَمَّا أَسَرُوا الأُسَارَى؛ قَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ لأَبِي بَكْرٍ وَعُمَرَ رضي الله عنهما: «**مَا تَرَوْنَ فِي هَؤُلَاءِ الأُسَارَى؟**»؛ فَقَالَ أَبُو بَكْرٍ: يَا نَبِيَّ اللهِ! هُمْ بَنُو الْعَمِّ وَالْعَشِيرَةِ، أَرَى أَنْ تَأْخُذَ مِنْهُمْ فِدْيَةً، فَتَكُونُ لَنَا قُوَّةً عَلَى الْكُفَّارِ، عَسَى اللهُ أَنْ يَهْدِيَهُمْ لِلإِسْلَامِ؛ فَقَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: «**مَا تَرَى يَا ابْنَ الْخَطَّابِ؟**»، قُلْتُ: لَا وَاللهِ يَا رَسُولَ اللهِ! مَا أَرَى الَّذِي رَأَى أَبُو بَكْرٍ، وَلَكِنِّي أَرَى أَنْ تُمَكِّنَّا فَنَضْرِبَ أَعْنَاقَهُمْ، فَتُمَكِّنَ عَلِيًّا مِنْ عَقِيلٍ (٢)، فَيَضْرِبَ عُنُقَهُ، وَتُمَكِّنِّي مِنْ فُلَانٍ -نَسِيبًا لِعُمَرَ- فَأَضْرِبَ عُنُقَهُ؛ فَإِنَّ هَؤُلَاءِ أَئِمَّةُ الْكُفْرِ وَصَنَادِيدُهَا، فَهَوِيَ رَسُولُ اللهِ ﷺ مَا قَالَ أَبُو بَكْرٍ رضي الله عنه، وَلَمْ يَهْوَ مَا قُلْتُ، فَلَمَّا كَانَ مِنَ الْغَدِ جِئْتُ، فَإِذَا رَسُولُ اللهِ ﷺ وَأَبُو بَكْرٍ قَاعِدَيْنِ يَبْكِيَانِ، قُلْتُ: يَا رَسُولَ اللهِ أَخْبِرْنِي مِنْ أَيِّ شَيْءٍ تَبْكِي أَنْتَ وَصَاحِبُكَ، فَإِنْ وَجَدْتُ بُكَاءً بَكَيْتُ، وَإِنْ لَمْ أَجِدْ بُكَاءً تَبَاكَيْتُ لِبُكَائِكُمَا؛ فَقَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: «**أَبْكِي لِلَّذِي عَرَضَ عَلَيَّ أَصْحَابُكَ مِنْ أَخْذِهِمُ الْفِدَاءَ، لَقَدْ عُرِضَ عَلَيَّ عَذَابُهُمْ أَدْنَى مِنْ هَذِهِ الشَّجَرَةِ**»؛ شَجَرَةٍ قَرِيبَةٍ مِنْ نَبِيِّ اللهِ ﷺ، وَأَنْزَلَ اللهُ عز وجل: ﴿مَا كَانَ لِنَبِيٍّ أَن يَكُونَ لَهُۥٓ أَسْرَىٰ حَتَّىٰ يُثْخِنَ فِي ٱلْأَرْضِ﴾ إِلَى قَوْلِهِ:

---

(١) أخرجه مسلمٌ، كتاب الجهاد والسير، باب الإمداد بالملائكة في غزوة بدر، وإباحة الغنائم. (١٧٦٣).

(٢) هو عقيل - بفتح أوله- ابن أبي طالب بن عبد مناف القرشي الهاشمي يكنى أبا يزيد أخو عليٍّ وجعفر، وكان الأسن، تأخر إسلامه، ابن عم رسول الله ﷺ، هاجر إلى النبيِّ ﷺ سنة ثمان، وشهد غزوة مؤتة، وقد قيل إنه: ممن ثبت يوم حنين مع رسول الله ﷺ؛ تُوفي في خلافة معاوية رضي الله عنه، وقيل: مات أول خلافة يزيد قبل الحرة.

● راجع: «الاستيعاب» (١٨٢٦)، و«أسد الغابة» (٣٧٣٢)، و«الإصابة» (٥٦٤٤).

﴿ فَكُلُوا۟ مِمَّا غَنِمْتُمْ حَلَٰلًا طَيِّبًا ﴾[الأنفال:٦٧:٦٩]؛ فَأَحَلَّ الله الْغَنِيمَةَ لَهُمْ.

وَمِنْ ذَلِكَ؛ مَا أَخْرَجَهُ مُسْلِمٌ فِي «الصَّحِيحِ» (١) مِنْ حَدِيثِ أَبِي هُرَيْرَةَ رضي الله عنه قَالَ: «جَاءَ مُشْرِكُو قُرَيْشٍ يُخَاصِمُونَ رَسُولَ الله صلى الله عليه وسلم فِي الْقَدَرِ؛ فَنَزَلَتْ: ﴿ يَوْمَ يُسْحَبُونَ فِى ٱلنَّارِ عَلَىٰ وُجُوهِهِمْ ذُوقُوا۟ مَسَّ سَقَرَ ﴿٤٨﴾ إِنَّا كُلَّ شَىْءٍ خَلَقْنَٰهُ بِقَدَرٍ ﴾ [القمر:٤٨ - ٤٩]».

وَفِي «الصَّحِيحَيْنِ» (٢) مِنْ حَدِيثِ ابْنِ مَسْعُودٍ رضي الله عنه قَالَ: إِنَّ قُرَيْشًا لَمَّا اسْتَعْصَتْ عَلَى النَّبِيِّ صلى الله عليه وسلم دَعَا عَلَيْهِمْ بِسِنِينَ كَسِنِي يُوسُفَ، فَأَصَابَهُمْ قَحْطٌ وَجَهْدٌ حَتَّى أَكَلُوا الْعِظَامَ، فَجَعَلَ الرَّجُلُ يَنْظُرُ إِلَى السَّمَاءِ فَيَرَى ما بَيْنَهُ وَبَيْنَهَا كَهَيْئَةِ الدُّخَانِ مِنَ الْجَهْدِ؛ فَأَنْزَلَ الله سبحانه وتعالى: ﴿ فَٱرْتَقِبْ يَوْمَ تَأْتِى ٱلسَّمَآءُ بِدُخَانٍ مُّبِينٍ ﴿١٠﴾ يَغْشَى ٱلنَّاسَ ۖ هَٰذَا عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴾ [الدخان:١٠-١١]، قَالَ: فَأُتِيَ رَسُولُ الله صلى الله عليه وسلم، فَقِيلَ: يَا رَسُولَ الله! اسْتَقِ الله لِمُضَرَ، فَإِنَّها قَدْ هَلَكَتْ، قَالَ «لِمُضَرَ؟ إِنَّكَ لَجَرِيءٌ»، فَاسْتَقَى فَسُقُوا؛ فَنَزَلَتْ: ﴿ إِنَّا كَاشِفُوا۟ ٱلْعَذَابِ قَلِيلًا ۚ إِنَّكُمْ عَآئِدُونَ ﴾[الدخان: ١٥]؛ فَلَمَّا أَصَابَتْهُمُ الرَّفَاهِيَةُ عَادُوا إِلَى حَالِهِمْ حِينَ أَصَابَتْهُمُ الرَّفَاهِيَةُ؛ فَأَنْزَلَ الله عز وجل: ﴿ يَوْمَ نَبْطِشُ ٱلْبَطْشَةَ ٱلْكُبْرَىٰٓ إِنَّا مُنتَقِمُونَ ﴾ [لدخان:٦]، قَالَ: يَعْنِي يَوْمَ بَدْرٍ.

فَالدَّاعِيَةُ الْفَقِيهُ الْمُوَفَّقُ هُوَ الَّذِي يَضَعُ الْأُمُورَ فِي مَوَاضِعِهَا، حَتَّى لَا يَضُرَّ مِنْ حَيْثُ يُرِيدُ النَّفْعَ، وَحَتَّى لَا يُفْسِدَ مِنْ حَيْثُ يُرِيدُ الْإِصْلَاحَ!!

فَالْأَصْلُ هُوَ الرِّفْقُ وَاللِّينُ؛ إِذْ لَا تُفْتَحُ الْقُلُوبُ إِلَّا بِهَذَا، وَعَلَيْهِ جُبِلَتِ

---

(١) أخرجه مسلمٌ، كتاب القدر، باب: كل شيء بقدر (٢٦٥٦).

(٢) أخرجه البخاريُّ، كتاب التفسير، باب ﴿ يَغْشَى ٱلنَّاسَ ۖ هَٰذَا عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴾ (٤٨٢١، ٤٨٢٢)، ومسلمٌ، كتاب صفة القيامة والجنة والنار، باب الدخان (٢٧٩٨).

النُّفُوسُ، إِلَّا فِي حَالَاتٍ تَقْسُو فِيهَا الْقُلُوبُ، وَتَصْدَأُ النُّفُوسُ حِينَ يَطُولُ عَلَيْهَا أَمَدُ الْغَفْلَةِ، وَالْبُعْدِ عَنِ اللهِ ﷻ، وَالانْغِمَاسِ فِي الشَّهَوَاتِ وَالشُّبُهَاتِ، وَقَدْ يَكُونُ الرِّفْقُ بِهَا وَالتَّلَطُّفُ مَعَهَا سَبَبًا فِي مَزِيدٍ مِنَ الْكِبْرِ وَالاسْتِهْتَارِ وَالإِعْرَاضِ، وَحِينَئِذٍ لَا يُصْلِحُهَا إِلَّا بَعْضُ الْكَلِمَاتِ الَّتِي تَرُدُّهَا إِلَى الْحَقِّ بِحَقٍّ؛ فَهُنَاكَ نُفُوسٌ لَا تَأْتِي لِلْحَقِّ إِلَّا بِالْحُبِّ وَالتَّرْغِيبِ، وَهُنَالِكَ نُفُوسٌ لَا تَأْتِي إِلَّا بِالتَّرْهِيبِ وَالتَّحْذِيرِ؛ قَالَ الْعَلِيمُ الْخَبِيرُ: ﴿حمٓ ۝١ تَنزِيلُ ٱلۡكِتَٰبِ مِنَ ٱللَّهِ ٱلۡعَزِيزِ ٱلۡعَلِيمِ ۝٢ غَافِرِ ٱلذَّنۢبِ وَقَابِلِ ٱلتَّوۡبِ شَدِيدِ ٱلۡعِقَابِ ذِي ٱلطَّوۡلِۖ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَۖ إِلَيۡهِ ٱلۡمَصِيرُ﴾ [غافر:١-٣].

وَقَالَ تَعَالَى: ﴿نَبِّئۡ عِبَادِيٓ أَنِّيٓ أَنَا ٱلۡغَفُورُ ٱلرَّحِيمُ ۝٤٩ وَأَنَّ عَذَابِي هُوَ ٱلۡعَذَابُ ٱلۡأَلِيمُ﴾ [الحجر:٤٩-٥٠].

وَلَا شَكَّ أَنَّ الْأَمْرَ كَبِيرٌ، يَحْتَاجُ إِلَى تَجَرُّدٍ وَإِخْلَاصٍ وَعِلْمٍ وَفَهْمٍ وَوَعْيٍ حَتَّى لَا يَسْتَخْدِمَ الدَّاعِي الشِّدَّةَ فِي أَمْرٍ يُصْلِحُهُ الرِّفْقُ وَاللِّينُ، أَوْ يَسْتَخْدِمَ اللِّينَ فِي شَأْنٍ يَحْتَاجُ إِلَى شَيْءٍ مِنَ الشِّدَّةِ.

وَالْمُوَفَّقُ مَنْ وَفَّقَهُ اللهُ ﷻ؛ أَسْأَلُ اللهَ أَنْ يُلْهِمَنَا الرَّشَادَ وَالتَّوْفِيقَ، وَأَنْ يُجَنِّبَنَا الزَّيْغَ وَالشَّطَطَ وَالزَّلَلَ؛ إِنَّهُ وَلِيُّ ذَلِكَ وَمَوْلَاهُ.

❧ ◊ ☙

الْمَبْحَثُ الثَّامِنُ
الوَسَطِيَّةُ وَالاعْتِدَالُ

الْوَسَطِيَّةُ فِي الْإِسْلَامِ مِنْ أَبْرَزِ خَصَائِصِهِ، وَكَذَلِكَ هِيَ خَصِّيصَةٌ لِهَذِهِ الْأُمَّةِ؛ قَالَ الله تَعَالَى: ﴿ وَكَذَٰلِكَ جَعَلْنَٰكُمْ أُمَّةً وَسَطًا ﴾ [البقرة:١٤٣].

قَالَ الْبَغَوِيُّ (١): «قَالَ الْكَلْبِيُّ (٢): يَعْنِي: أَهْلَ دِينٍ وَسَطٍ بَيْنَ الْغُلُوِّ وَالتَّقْصِيرِ؛ لِأَنَّهُمَا مَذْمُومَانِ فِي الدِّينِ».

وَقَالَ الطَّبَرِيُّ (٣): «... وَأَرَى أَنَّ الله تَعَالَى ذِكْرُهُ إِنَّمَا وَصَفَهُمْ بِأَنَّهُمْ وَسَطٌ؛ لِتَوَسُّطِهِمْ فِي الدِّينِ؛ فَلَا هُمْ أَهْلُ غُلُوٍّ فِيهِ غُلُوَّ النَّصَارَى الَّذِينَ غَلَوْا بِالتَّرَهُّبِ وَقِيلِهِمْ فِي عِيسَى مَا قَالُوا فِيهِ، وَلَا هُمْ أَهْلُ تَقْصِيرٍ فِيهِ تَقْصِيرَ الْيَهُودِ الَّذِينَ بَدَّلُوا كِتَابَ الله، وَقَتَلُوا أَنْبِيَاءَهُمْ، وَكَذَبُوا عَلَى رَبِّهِمْ، وَكَفَرُوا بِهِ، وَلَكِنَّهُمْ أَهْلُ تَوَسُّطٍ وَاعْتِدَالٍ فِيهِ، فَوَصَفَهُمُ الله بِذَلِكَ؛ إِذْ كَانَ أَحَبُّ الْأُمُورِ إِلَى الله أَوْسَطَهَا».

قَالَ الْحَافِظُ ابْنُ كَثِيرٍ (٤): «وَلَمَّا جَعَلَ الله هَذِهِ الْأُمَّةَ وَسَطًا، خَصَّهَا بِأَكْمَلِ الشَّرَائِعِ، وَأَقْوَمِ الْمَنَاهِجِ، وَأَوْضَحِ الْمَذَاهِبِ؛ كَمَا قَالَ تَعَالَى: ﴿هُوَ ٱجْتَبَىٰكُمْ وَمَا

---

(١) «معالم التنزيل» (١/ ١٥٨) ط دار طيبة.

(٢) هو العلامة الإخباري أبو النضر محمد بن السائب بن بشر الكلبي المفسر، وكان أيضًا رأسًا في الأنساب إلا أنه شيعيٌّ متروك الحديث، وهو معروفٌ بالتفسير وليس لأحدٍ أطول من تفسيره، وحدث عنه ثقات من الناس ورضوه في التفسير، وأما في الحديث ففيه مناكير، توفي سنة ست وأربعين ومائة.

● راجع: «سير أعلام النبلاء» (١٠٧٩)، و«تهذيب التهذيب» (٩/ ١٧٨-١٨٠).

(٣) «جامع البيان» لأبي جعفر الطبريِّ (١/ ٧٤٥) ط السلام.

(٤) في «تفسيره» (لسورة البقرة:١٤٣).

جَعَلَ عَلَيْكُمْ فِي ٱلدِّينِ مِنْ حَرَجٍ ۚ مِّلَّةَ أَبِيكُمْ إِبْرَٰهِيمَ ۚ هُوَ سَمَّىٰكُمُ ٱلْمُسْلِمِينَ مِن قَبْلُ وَفِي هَٰذَا لِيَكُونَ ٱلرَّسُولُ شَهِيدًا عَلَيْكُمْ وَتَكُونُوا۟ شُهَدَآءَ عَلَى ٱلنَّاسِ ﴾ [الحج: ٧٨]».

وَتكَلَّمَ الْعَلَّامَةُ السَّعْدِيُّ حَوْلَ مَعْنَى الْآيَةِ كَلَامًا بَدِيعًا قَالَ فِيهِ (١):

«﴿ وَكَذَٰلِكَ جَعَلْنَٰكُمْ أُمَّةً وَسَطًا ﴾؛ أَيْ: عَدْلًا خِيَارًا، وَمَا عَدَا الْوَسَطِ؛ فَالْأَطْرَافُ دَاخِلَةٌ تَحْتَ الْخطَرِ؛ فَجَعَلَ الله هَذِهِ الْأُمَّةَ وَسَطًا فِي كُلِّ أُمُورِ الدِّينِ؛ وَسَطًا فِي الْأَنْبِيَاءِ، بَيْنَ مَنْ غَلَا فِيهِمْ؛ كَالنَّصَارَى، وَبَيْنَ مَنْ جَفَاهُمْ؛ كَالْيَهُودِ؛ بِأَنْ آمَنُوا بِهِمْ كُلِّهِمْ عَلَى الْوَجْهِ اللَّائِقِ بِذَلِكَ، وَوَسَطًا فِي الشَّرِيعَةِ؛ لَا تَشْدِيدَاتِ الْيَهُودِ وَآصَارَهُمْ، وَلَا تَهَاوُنَ النَّصَارَى.

وَفِي بَابِ الطَّهَارَةِ وَالْمَطَاعِمِ؛ لَا كَالْيَهُودِ الَّذِينَ لَا تَصِحُّ لَهُمْ صَلَاةٌ إِلَّا فِي بِيَعِهِمْ وَكَنَائِسِهِمْ، وَلَا يُطَهِّرُهُمُ الْمَاءُ مِنَ النَّجَاسَاتِ، وَقَدْ حُرِّمَتْ عَلَيْهِمُ الطَّيِّبَاتُ عُقُوبَةً لَهُمْ، وَلَا كَالنَّصَارَى الَّذِينَ لَا يُنَجِّسُونَ شَيْئًا، وَلَا يُحَرِّمُونَ شَيْئًا؛ بَلْ أَبَاحُوا مَا دَبَّ وَدَرَجَ؛ بَلْ طَهَارَتُهُمْ أَكْمَلُ طَهَارَةٍ وَأَتَمُّهَا.

وَأَبَاحَ الله لَهُمُ الطَّيِّبَاتِ مِنَ الْمَطَاعِمِ وَالْمَشَارِبِ وَالْمَلَابِسِ وَالْمَنَاكِحِ، وَحَرَّمَ عَلَيْهِمُ الْخَبَائِثَ مِنْ ذَلِكَ (٢)؛ فَلِذَلِكَ كَانُوا ﴿أُمَّةً وَسَطًا﴾ كَامِلِينَ مُعْتَدِلِينَ؛ لِيَكُونُوا ﴿شُهَدَآءَ عَلَى ٱلنَّاسِ﴾ بِسَبَبِ عَدَالَتِهِمْ وَحُكْمِهِمْ بِالْقِسْطِ، يَحْكُمُونَ عَلَى النَّاسِ مِنْ سَائِرِ أَهْلِ الْأَدْيَانِ، وَلَا يَحْكُمُ عَلَيْهِمْ غَيْرُهُمْ؛ فَمَا شَهِدَتْ لَهُ هَذِهِ الْأُمَّةُ بِالْقَبُولِ؛ فَهُوَ مَقْبُولٌ، وَمَا شَهِدَتْ لَهُ بِالرَّدِّ؛ فَهُوَ مَرْدُودٌ» ا. هـ.

---

(١) «تيسير الكريم الرحمن» (ص:٥٣). وقارن بـ«محاسن التأويل» للقاسمي (١/ ٤٦٣) ط الحديث.

(٢) قال الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى: ﴿ ٱلَّذِينَ يَتَّبِعُونَ ٱلرَّسُولَ ٱلنَّبِىَّ ٱلْأُمِّىَّ ٱلَّذِى يَجِدُونَهُۥ مَكْتُوبًا عِندَهُمْ فِى ٱلتَّوْرَىٰةِ وَٱلْإِنجِيلِ يَأْمُرُهُم بِٱلْمَعْرُوفِ وَيَنْهَىٰهُمْ عَنِ ٱلْمُنكَرِ وَيُحِلُّ لَهُمُ ٱلطَّيِّبَٰتِ وَيُحَرِّمُ عَلَيْهِمُ ٱلْخَبَٰٓئِثَ وَيَضَعُ عَنْهُمْ إِصْرَهُمْ وَٱلْأَغْلَٰلَ ٱلَّتِى كَانَتْ عَلَيْهِمْ ﴾ [الأعراف:١٥٧]؛ قال ابن كثير: «أي: أنه جاء بالتيسير والسماحة»، «التفسير» (٦/ ٤١٦).

فَهَذِهِ الْأُمَّةُ لَمْ تَغْلُ غُلُوَّ النَّصَارَى فِي عِيسَى عليه السلام، وَلَا قَصَّرُوا تَقْصِيرَ الْيَهُودِ فِي أَنْبِيَائِهِمْ(١).

لِذَا؛ حَذَّرَ الْإِسْلَامُ مِنْ سُلُوكِ أَحَدِ الطَّرِيقَيْنِ: الْغُلُوِّ أَوِ التَّقْصِيرِ؛ فَقَالَ تَعَالَى: ﴿ ٱهْدِنَا ٱلصِّرَٰطَ ٱلْمُسْتَقِيمَ ۝٦ صِرَٰطَ ٱلَّذِينَ أَنْعَمْتَ عَلَيْهِمْ غَيْرِ ٱلْمَغْضُوبِ عَلَيْهِمْ وَلَا ٱلضَّآلِّينَ ﴾ [الفاتحة:٦ - ٧].

وَأَهْلُ السُّنَّةِ - مِنْ هَذِهِ الْأُمَّةِ الْمَيْمُونَةِ- وَسَطٌ فِي الْفِرَقِ وَالنِّحَلِ؛ كَمَا أَنَّ مِلَّةَ الْإِسْلَامِ وَسَطٌ فِي الْأُمَمِ وَالْمِلَلِ.

فَأَهْلُ السُّنَّةِ لَا إِفْرَاطَ وَلَا تَفْرِيطَ، وَلَا غُلُوَّ وَلَا تَقْصِيرَ؛ فَكِلَا طَرَفَي قَصْدِ الْأُمُورِ ذَمِيمٌ، وَخَيْرُ الْأُمورِ الْوَسَطُ؛ فَهُمْ ﴿ عَوَانٌۢ بَيْنَ ذَٰلِكَ ﴾ [البقرة: ٦٨].

فَكَمَا أَنَّ أُمَّةَ النَّبِيِّ ﷺ وَسطٌ بَيْنَ الْأُمَمِ؛ فَكَذَلِكَ أَهْلُ السُّنَّةِ وَسَطٌ بَيْنَ الْفِرَقِ؛ فَأَهْلُ السُّنَّةِ وَسَطٌ فِي بَابِ الْأَسْمَاءِ وَالصِّفَاتِ بَيْنَ الْجَهْمِيَّةِ وَالْمُعَطِّلَةِ وَالْمُشَبِّهَةِ وَالْمُجَسِّمَةِ.

وَسَطٌ فِي بَابِ أَفْعَالِ اللهِ بَيْنَ الْقَدَرِيَّةِ النُّفَاةِ، وَالْقَدَرِيَّةِ الْجَبْرِيَّةِ.

وَسَطٌ فِي بَابِ الْوَعْدِ وَالْوَعِيدِ بَيْنَ الْخَوَارِجِ وَالْمُرْجِئَةِ.

وَسَطٌ فِي الصَّحَابَةِ بَيْنَ الرَّوَافِضِ وَالْخَوَارِجِ.

وَسَطٌ فِي الْحُكْمِ عَلَى الْآخَرِينَ؛ فَلَا يَحْكُمُونَ عَلَى أَحَدٍ إِلَّا بِعِلْمٍ وَعَدْلٍ؛ امْتِثَالًا لِقَوْلِهِ : ﴿ وَلَا تَقْفُ مَا لَيْسَ لَكَ بِهِۦ عِلْمٌ ۚ إِنَّ ٱلسَّمْعَ وَٱلْبَصَرَ وَٱلْفُؤَادَ كُلُّ أُو۟لَٰٓئِكَ كَانَ عَنْهُ مَسْـُٔولًا ﴾ [الإسراء:٣٦].

وَسَطٌ بَيْنَ الْمُتَفَلِّتِينَ مِنَ الشَّرْعِ، الْمُتَتَبِّعِينَ لِرُخَصِ أَهْلِ الْعِلْمِ، بِدَعْوَى

---

(١) «فتح القدير» للشوكاني (١/ ٢١٤) ط الحديث.

التَّيْسِيرِ وَالتَّخْفِيفِ، وَبَيْنَ الْمُتَشَدِّدِينَ الْمُتَعَمِّقِينَ الْمُجَاوِزِينَ لِلْحَدِّ.

قَالَ الشَّوْكَانِيُّ: «وَلَمَّا كَانَ الْوَسَطُ مُجَانِبًا لِلْغُلُوِّ وَالتَّقْصِيرِ كَانَ مَحْمُودًا»(١).

وَالْوَسَطُ: الْعَدْلُ؛ كَمَا فَسَّرَهُ النَّبِيُّ ﷺ (٢).

لِذَا؛ كَانَ مَنْهَجُ النَّبِيِّ ﷺ فِي دَعْوَتِهِ: الْوَسَطِيَّةَ وَالاِعْتِدَالَ، وَالتَّيْسِيرَ وَعَدَمَ الْعَنَتِ وَالْمَشَقَّةِ وَالتَّعْسِيرِ، وَمُجَانَبَةَ الْغُلُوِّ وَالتَّفْرِيطِ وَالتَّقْصِيرِ، وَالْأَدِلَّةُ عَلَى ذَلِكَ مُتَضَافِرَةٌ.

قَالَ اللهُ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى: ﴿لَقَدْ جَاءَكُمْ رَسُولٌ مِّنْ أَنفُسِكُمْ عَزِيزٌ عَلَيْهِ مَا عَنِتُّمْ حَرِيصٌ عَلَيْكُم بِالْمُؤْمِنِينَ رَءُوفٌ رَّحِيمٌ﴾

[التوبة:١٢٨].

قَالَ الْعَلَّامَةُ ابْنُ كَثِيرٍ عِنْدَ هَذِهِ الْآيَةِ: «وَقَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿عَزِيزٌ عَلَيْهِ مَا عَنِتُّمْ﴾ أَيْ: يَعِزُّ عَلَيْهِ الشَّيْءُ الَّذِي يُعْنِتُ أُمَّتَهُ، وَيَشُقُّ عَلَيْهَا.

وَلِهَذَا جَاءَ فِي الْحَدِيثِ الْمَرْوِيِّ مِنْ طُرُقٍ عَنْهُ ﷺ أَنَّهُ قَالَ: «**بُعِثْتُ بِالْحَنِيفِيَّةِ السَّمْحَةِ**» (٣).

---

(١) المصدر السابق.

(٢) أخرجه البخاريُّ، كتاب أحاديث الأنبياء، باب قول الله ﷻ: ﴿**وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا إِلَىٰ قَوْمِهِۦ**﴾ (٣٣٣٩) عن أبي سعيد الخدري ﷺ.

(٣) أخرجه أحمد في «المسند» (٥/ ٢٦٦)، والطبراني في «الكبير» (٧٨٦٨)، والخطيب في «الفقيه والمتفقه» (١٢١٤)، وابن الجوزي في «التلبيس» (٣٣٠)، وابن عساكر في «الأربعين في الجهاد» (الحديث ١٥) من حديث أبي أمامة ﷺ مرفوعًا بسندٍ معلٍّ، وله شاهدٌ من حديث عائشة ﷺ عند أحمد (٦/ ١١٦ و٢٣٣) بلفظ: «لتعلم يهود أن في ديننا فسحة، إني أُرسلت بحنيفية سمحة»؛ قال الألبانيُّ: «وهذا إسنادٌ حسنٌ في المتابعات والشواهد علَى الأقل»؛ كما في «الصحيحة» ٢٩٢٤) (٦/ ٢/ ١٠٢٤)، وله شاهدٌ من حديث جابر ﷺ عند الخطيب في «تاريخه» (٧/ ٢٠٩) وفي سنده مسلم بن

=

وَفِي «**الصَّحِيحِ**»: «**إِنَّ هَذَا الدِّينَ يُسْرٌ**» (١).

وَشَرِيعَتُهُ كُلُّهَا سَهْلَةٌ سَمْحَةٌ كَامِلَةٌ، يَسِيرَةٌ عَلَى مَنْ يَسَّرَهَا الله عَلَيْهِ» ا. هـ.

قَالَ الْبُخَارِيُّ رحمه الله (٢): «بَابُ الدِّينِ يُسْرٌ، وَقَوْلُ النَّبِيِّ ﷺ: «**أَحَبُّ الدِّينِ إِلَى اللهِ الْحَنِيفِيَّةُ السَّمْحَةُ**» (٣)، ثُمَّ أَوْرَدَ حَدِيثَ أَبِي هُرَيْرَةَ رضي الله عنه عَنِ النَّبِيِّ ﷺ قَالَ: «**إِنَّ الدِّينَ يُسْرٌ، وَلَنْ يُشَادَّ الدِّينَ أَحَدٌ إِلَّا غَلَبَهُ، فَسَدِّدُوا وَقَارِبُوا وَأَبْشِرُوا، وَاسْتَعِينُوا بِالْغَدْوَةِ وَالرَّوْحَةِ وَشَيْءٍ مِنَ الدُّلْجَةِ**».

قَالَ الْحَافِظُ فِي «الْفَتْحِ»: «قَوْلُهُ: «**الدِّينُ يُسْرٌ**»، أَيْ: دِينُ الْإِسْلَامِ ذُو يُسْرٍ، أَوْ سُمِّيَ الدِّينُ يُسْرًا مُبَالَغَةً بِالنِّسْبَةِ إِلَى الْأَدْيَانِ قَبْلَهُ؛ لِأَنَّ الله رَفَعَ عَنْ هَذِهِ الْأُمَّةِ

=
عبد ربه ضعفه الأزدي، انظر: «اللسان» لابن حجر (٧/ ٨٩) ط الفاروق، والحديث قوّاه الشيخ شعيب الأرناؤوط.

(١) أخرجه البخاريُّ، كتاب الإيمان، باب الدين يسر (٣٩) عن أبي هريرة رضي الله عنه.

(٢) كما في «صحيحه» مع «الفتح» (١/ ١١٦) ط الريان.

(٣) هكذا علَّقه البخاريُّ في «الصحيح» من كتاب الإيمان، وقد وصله هو في «الأدب المفرد» (رقم: ٣٨٧)، وأحمد في «المسند» (رقم: ٢١٠٨)، والبزار في «المسند» (الكشف ١/ ٥٨/ ٧٨)، والطبراني في «المعجم الكبير» (١١/ ٢٢٧)، وغيرهم من طريق: يزيد بن هارون عن محمد بن إسحاق عن داود بن حصين عن عكرمة عن ابن عباس رضي الله عنهما قال: سُئِلَ النَّبِيُّ ﷺ أَيُّ الأَدْيَانِ أَحَبُّ إِلَى اللهِ عز وجل؟ قَالَ: «**الحَنِيفِيَّةُ السَّمْحَةُ**».

قال الألبانيُّ - بعد الذي تقدم: «ورجاله ثقات؛ لكن ابن إسحاق مدلس وقد عنعنه، وقال الهيثميُّ في «المجمع» (١/ ٦٠): «رواه أحمد والطبراني في «الكبير» و«الأوسط» والبزار، وفيه ابن إسحاق وهو مدلس، ولم يصرح بالسماع».

ثم قال: «وللحديث شواهد تقويه؛ خرجتها في «تمام المنة» (ص: ٤٤)»؛ انظر: «الصحيحة» (رقم: ٨٨١).

● وراجع: «الصحيحة» كذلك: (٦/ ٢/ ١٠٢٦)، وحسَّن سنده الحافظ ابن حجر في «الفتح» (١/ ١١٧).

الْإِصْرَ الَّذِي كَانَ عَلَى مَنْ قَبْلَهُمْ. وَمِنْ أَوْضَحِ الْأَمْثِلَةِ لَهُ: أَنَّ تَوْبَتَهُمْ كَانَتْ بِقَتْلِ أَنْفُسِهِمْ، وَتَوْبَةُ هَذِهِ الْأُمَّةِ بِالْإِقْلَاعِ وَالْعَزْمِ وَالنَّدَمِ.

وَقَوْلُهُ: «**أَحَبُّ الدِّينِ**»؛ أَيْ: خِصَالُ الدِّينِ؛ لِأَنَّ خِصَالَ الدِّينِ كُلَّهَا مَحْبُوبَةٌ، لَكِنْ مَا كَانَ مِنْهَا سَمْحًا - أَيْ: سَهْلًا - فَهُوَ أَحَبُّ إِلَى اللهِ، وَيَدُلُّ عَلَيْهِ مَا أَخْرَجَهُ أَحْمَدُ (١) بِسَنَدٍ صَحِيحٍ مِنْ حَدِيثِ أَعْرَابِيٍّ لَمْ يُسَمِّهِ أَنَّهُ سَمِعَ رَسُولَ اللهِ ﷺ يَقُولُ: «**خَيْرُ دِينِكُمْ أَيْسَرُهُ**»... وَ«**السَّمْحَةُ**» السَّهْلَةُ؛ أَيْ: أَنَّهَا مَبْنِيَّةٌ عَلَى السُّهُولَةِ؛ لِقَوْلِهِ -تَعَالَى-: ﴿**وَمَا جَعَلَ عَلَيْكُمْ فِي الدِّينِ مِنْ حَرَجٍ مِّلَّةَ أَبِيكُمْ إِبْرَاهِيمَ**﴾

[الحج: ٧٨].

قَوْلُهُ: «**وَلَنْ يُشَادَّ الدِّينَ أَحَدٌ إِلَّا غَلَبَهُ**» وَالْمُشَادَّةُ بِالتَّشْدِيدِ: الْمُغَالَبَةُ...، وَالْمَعْنَى: لَا يَتَعَمَّقُ أَحَدٌ فِي الْأَعْمَالِ الدِّينِيَّةِ وَيَتْرُكُ الرِّفْقَ إِلَّا عَجَزَ وَانْقَطَعَ فَيُغْلَبُ؛ قَالَ ابْنُ الْمُنِيِّرِ (٢): «فِي هَذَا الْحَدِيث عَلَمٌ مِنْ أَعْلَامِ النُّبُوَّةِ، فَقَدْ رَأَيْنَا وَرَأَى النَّاسُ قَبْلنا أَنَّ كُلَّ مُتَنَطِّعٍ فِي الدِّينِ يَنْقَطِعُ، وَلَيْسَ الْمُرَادُ مَنْعَ طَلَبِ الْأَكْمَلِ فِي الْعِبَادَةِ؛ فَإِنَّهُ مِنَ الْأُمُورِ الْمَحْمُودَةِ؛ بَلْ مَنْعَ الْإِفْرَاطِ الْمُؤَدِّي إِلَى الْمَلَالِ، أَوِ الْمُبَالَغَةِ فِي التَّطَوُّعِ الْمُفْضِي إِلَى تَرْكِ الْأَفْضَلِ، أَوْ إِخْرَاجِ الْفَرْضِ عَنْ

---

(١) أخرجه أحمد (٣/ ٤٧٩)، وله شواهدُ تقويه.

● راجع: «الصحيحة» (١٦٣٥)، و«أنيس الساري في تخريج الفتح» (٤/ ١/ ٣٠١٢) ط مؤسسة الريان.

(٢) هو أحمد بن محمد بن منصور بن أبي بكر الجذامي الجروي الإسكندراني المالكي، قاضي الإسكندرية، وفاضلها المشهور، المفسر العلامة ناصر الدين أبو العباس الزين ابن المنير، ولد سنة عشرين وست مائة، وبرع في الفقه والأصول والعربية والبلاغة، وصنف التصانيف المفيدة، له تفسير نفيس، وله تأليف عَلَى تراجم «صحيح البخاري»، وله كتاب «الاقتفا» عارض به «الشفا» للقاضي عياض، وقد مدحه العز بن عبد السلام؛ توفي ابن المنير في أول ربيع الأول سنة ثلاث وثمانين وستمائة.

● راجع: ترجمته في: «العبر» (٥/ ٣٤٢)، و«شذرات الذهب» (٥/ ٣٨٠)، و«فوات الوفيات» (١/ ١٤٩) لابن شاكر الكتبي ط صادر.

وَقْتِهِ كَمَنْ بَاتَ يُصَلِّي اللَّيْلَ كُلَّهُ، وَيُغَالِبُ النَّوْمَ إِلَى أَنْ غَلَبَتْهُ عَيْنَاهُ فِي آخِرِ اللَّيْلِ، فَنَامَ عَنْ صَلَاةِ الصُّبْحِ فِي الْجَمَاعَةِ، أَوْ إِلَى أَنْ خَرَجَ الْوَقْتُ الْمُخْتَارُ، أَوْ إِلَى أَنْ طَلَعَتِ الشَّمْسُ، فَخَرَجَ وَقْتُ الْفَرِيضَةِ... وَقَدْ يُسْتَفَادُ مِنْ هَذَا الْإِشَارَةُ إِلَى الْأَخْذِ بِالرُّخْصَةِ الشَّرْعِيَّةِ؛ فَإِنَّ الْأَخْذَ بِالْعَزِيمَةِ فِي مَوْضِعِ الرُّخْصَةِ تَنَطُّعٌ، كَمَنْ يَتْرُكُ التَّيَمُّمَ عِنْدَ الْعَجْزِ عَنِ اسْتِعْمَالِ الْمَاءِ؛ فَيُفْضِي بِهِ اسْتِعْمَالُهُ إِلَى حُصُولِ الضَّرَرِ».

قَوْلُهُ: «**فَسَدِّدُوا**» أَيْ: الْزَمُوا السَّدَادَ، وَهُوَ الصَّوَابُ مِنْ غَيْرِ إِفْرَاطٍ وَلَا تَفْرِيطٍ، قَالَ أَهْلُ اللُّغَةِ: السَّدَادُ: التَّوَسُّطُ فِي الْعَمَلِ.

قَوْلُهُ: «**وَقَارِبُوا**» أَيْ: إِنْ لَمْ تَسْتَطِيعُوا الْأَخْذَ بِالْأَكْمَلِ فَاعْمَلُوا بِمَا يَقْرُبُ مِنْهُ.

وَفِي رِوَايَةِ ابْنِ أَبِي ذِئْبٍ [(١)]: «**الْقَصْدَ الْقَصْدَ**»[(٢)] بِالنَّصْبِ فِيهِمَا عَلَى الْإِغْرَاءِ، وَالْقَصْدُ: الْأَخْذُ بِالْأَمْرِ الْأَوْسَطِ» انْتَهَى كَلَامُ الْحَافِظِ.

فَالدِّينُ يُسْرٌ عَلَى وَفْقِ الشَّرْعِ لَا عَلَى مَا يُوَافِقُ الْأَهْوَاءَ وَالْآرَاءَ!!

وَفِي «صَحِيحِ مُسْلِمٍ» [(٣)] مِنْ حَدِيثِ جَابِرِ بْنِ عَبْدِ اللهِ رضي الله عنهما أَنَّ النَّبِيَّ ﷺ قَالَ: «..**إِنَّ اللهَ لَمْ يَبْعَثْنِي مُعَنِّتًا، وَلَا مُتَعَنِّتًا، وَلَكِنْ بَعَثَنِي مُعَلِّمًا مُيَسِّرًا**».

---

(١) هو محمد بن عبد الرحمن بن المغيرة بن الحارث بن أبي ذئب، الإمام، شيخ الإسلام، أبو الحارث القرشي العامري، المدني الفقيه، وكان من أوعية العلم، ثقةً فاضلًا، قوالًا بالحق مهيبًا، ولد سنة ثمانين، وكان أورع الناس وأورعهم، ورمي بالقدر، وكان من فقهاء أهل المدينة وعُبَّادهم، مات سنة ثمان وخمسين ومائة، وقيل: سنة تسع وخمسين.
● راجع: «سير أعلام النبلاء» (١١١٨)، و«تهذيب التهذيب» (٩/ ٣٠٣-٣٠٧).

(٢) عند البخاريِّ، كتاب الرقاق، باب: القصد والمداومة عَلَى العمل (٦٤٦٣) عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «**لَنْ يُنَجِّيَ أَحَدًا مِنْكُمْ عَمَلُهُ...**» وفيه: «**وَالْقَصْدَ الْقَصْدَ تَبْلُغُوا**».

(٣) أخرجه مسلمٌ، كتاب الطلاق، باب بيان أن تخيير امرأته لا يكون طلاقًا إلا بالنية (١٤٧٨).

وَلَقَدِ اتَّخَذَ النَّبِيُّ ﷺ ذَلِكَ مَنْهَجًا فِي حَيَاتِهِ؛ فَفِي «الصَّحِيحَيْنِ» (١) مِنْ حَدِيثِ عَائِشَةَ ﵂ أَنَّهَا قَالَتْ: «مَا خُيِّرَ رَسُولُ اللهِ ﷺ بَيْنَ أَمْرَيْنِ إِلَّا أَخَذَ أَيْسَرَهُمَا، مَا لَمْ يَكُنْ إِثْمًا؛ فَإِنْ كَانَ إِثْمًا كَانَ أَبْعَدَ النَّاسِ مِنْهُ».

لِذَا؛ فَقَدْ أَرْشَدَ النَّبِيُّ ﷺ صَحَابِيَّيْنِ كَرِيمَيْنِ حِينَ بَعَثَهُمَا إِلَى الْيَمَنِ إِلَى هَذِهِ الْمَنْهَجِيَّةِ الرَّشِيدَةِ فِي الدَّعْوَةِ إِلَى اللهِ.

فَفِي «الصَّحِيحَيْنِ» (٢) مِنْ حَدِيثِ أَبِي مُوسَى الْأَشْعَرِيِّ ﵁ أَنَّ النَّبِيَّ ﷺ بَعَثَهُ وَمُعَاذًا إِلَى الْيَمَنِ؛ فَقَالَ: «**يَسِّرَا وَلَا تُعَسِّرَا، وَبَشِّرَا وَلَا تُنَفِّرَا، وَتَطَاوَعَا وَلَا تَخْتَلِفَا**».

وَفِي «**صَحِيحِ الْبُخَارِيِّ**» (٣) مِنْ حَدِيثِ أَبِي هُرَيْرَةَ ﵁ أَنَّ النَّبِيَّ ﷺ قَالَ: «**إِنَّمَا بُعِثْتُمْ مُيَسِّرِينَ، وَلَمْ تُبْعَثُوا مُعَسِّرِينَ**».

قَالَ أَبُو بَرْزَةَ الْأَسْلَمِيُّ ﵁ (٤): «وَإِنِّي غَزَوْتُ مَعَ رَسُولِ اللهِ ﷺ - سِتَّ غَزَوَاتٍ أَوْ سَبْعَ غَزَوَاتٍ وَثَمَانِيًا، وَشَهِدْتُ تَيْسِيرَهُ» (٥).

---

(١) أخرجه البخاريُّ، كتاب المناقب، باب صفة النبي ﷺ (٣٥٦٠)، ومسلمٌ، كتاب الفضائل، باب قرب النبي ﷺ من الناس وتبركهم به (٢٣٢٧).

(٢) أخرجه البخاريُّ، كتاب الجهاد والسير، باب ما يكره من التنازع والاختلاف في الحرب (٣٠٣٨)، ومسلمٌ، كتاب الجهاد والسير، باب في الأمر بالتيسير وترك التنفير (١٧٣٣).

(٣) أخرجه البخاريُّ، كتاب الوضوء، باب صب الماء علَى البول في المسجد (٢٢٠).

(٤) هو نضلة بن عبيد، وقيل: عبد الله، وقيل: عابد، مشهورٌ بكنيته، وهو نضلة بن عبيد بن الحارث بن حبال بن ربيعة بن دعبل بن أنس بن جذيمة بن مالك بن سلامان بن أسلم ابن أنصى، نزل مرو، ومات بها، وقيل: مات بالبصرة، وقيل: مات بمفازة سجستان وهراة، مات سنة ستين قبل موت معاوية، وقيل: مات سنة أربع وستين، وقيل: مات في خلافة معاوية.

- راجع: «الإصابة» (٨٧٣٦)، و«الاستيعاب» (٤٣)، و«أسد الغابة» (٥٧٢٧).

(٥) أخرجه البخاريُّ، كتاب العمل في الصلاة، باب إذا انفلتت الدابة في الصلاة (١٢١١).

فَدِينُنَا الْحَنِيفُ، وَشَرِيعَتُنَا السَّمْحَةُ السَّهْلَةُ، مَبْنِيَّةٌ عَلَى هَـذَا الْأَصْـلِ الْمُهِـمِّ: عَلَى التَّيْسِيرِ وَالتَّخْفِيفِ، وَرَفْعِ الْحَرَجِ عَنْ هَذِهِ الْأُمَّةِ الْمَرْحُومَةِ الْمَيْمُونَةِ.

وَلَقَدْ بَيَّنَ ذَلِكَ الْإِمَامُ أَبُو إِسْحَاقَ الشَّاطِبِيُّ فِي عِدَّةِ مَوَاضِعَ مِنْ كِتَابِـهِ الْقَـيِّمِ «الْمُوَافَقَاتِ»(١)؛ حَيْثُ يَقُولُ: «الْمَسْأَلَةُ السَّادِسَةُ: فَـإِنَّ الشَّـارِعَ لَـمْ يَقْصِـدْ إِلَـى التَّكْلِيفِ بِالْمَشَاقِّ، وَالْإِعْنَاتِ فِيهِ.

وَالدَّلِيلُ عَلَى ذَلِكَ أُمُورٌ:

أَحَدُهَا: النُّصُوصُ الدَّالَّةُ عَلَى ذَلِكَ؛ كَقَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿وَيَضَعُ عَنْهُمْ إِصْرَهُمْ وَالْأَغْلَالَ الَّتِي كَانَتْ عَلَيْهِمْ﴾ [الأعراف:١٥٧]، وَقَوْلِهِ: ﴿رَبَّنَا لَا تُؤَاخِذْنَا إِن نَّسِينَا أَوْ أَخْطَأْنَا ۚ رَبَّنَا وَلَا تَحْمِلْ عَلَيْنَا إِصْرًا كَمَا حَمَلْتَهُ عَلَى الَّذِينَ مِن قَبْلِنَا﴾ [البقرة:٢٨٦]، وَفِي الْحَدِيثِ: «قَالَ الله: قَدْ فَعَلْتُ»، وَجَاءَ: ﴿لَا يُكَلِّفُ اللَّهُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا﴾ [البقرة:٢٨٦]، ﴿يُرِيدُ اللَّهُ بِكُمُ الْيُسْرَ وَلَا يُرِيدُ بِكُمُ الْعُسْرَ﴾ [البقرة:١٨٥]، ﴿وَمَا جَعَلَ عَلَيْكُمْ فِي الدِّينِ مِنْ حَرَجٍ﴾ [الحج:٧٨]، ﴿يُرِيدُ اللَّهُ أَن يُخَفِّفَ عَنكُمْ ۚ وَخُلِقَ الْإِنسَانُ ضَعِيفًا﴾ [النساء:٢٨]، ﴿مَا يُرِيدُ اللَّهُ لِيَجْعَلَ عَلَيْكُم مِّنْ حَرَجٍ وَلَٰكِن يُرِيدُ لِيُطَهِّرَكُمْ﴾ [المائدة:٦]، وَفِي الْحَدِيثِ: «بُعِثْتُ بِالْحَنِيفِيَّةِ السَّمْحَةِ»، «وَمَا خُيِّرَ بَيْنَ شَيْئَيْنِ إِلَّا اخْتَارَ أَيْسَرَهُمَا مَا لَمْ يَكُنْ إِثْمًا» وَإِنَّمَا قَالَ: «مَا لَمْ يَكُنْ إِثْمًا»؛ لِأَنَّ تَرْكَ الْإِثْمِ لَا مَشَقَّةَ فِيهِ، مِنْ حَيْثُ كَانَ مُجَرَّدَ تَرْكٍ إِلَى أَشْبَاهِ ذَلِكَ مِمَّا فِي هَذَا الْمَعْنَى، وَلَوْ كَانَ قَاصِدًا لِلْمَشَقَّةِ لَمَا كَانَ مُرِيدًا لِلْيُسْرِ وَلَا لِلتَّخْفِيفِ، وَلَكَانَ مُرِيدًا لِلْحَرَجِ وَالْعُسْرِ، وَذَلِكَ بَاطِلٌ.

وَالثَّانِي: مَا ثَبَتَ أَيْضًا مِنْ مَشْرُوعِيَّةِ الرُّخَصِ، وَهُوَ أَمْـرٌ مَقْطُـوعٌ بِـهِ، وَمِمَّـا عُلِـمَ مِـنْ دِيـنِ الْأُمَّـةِ ضَـرُورَةً؛ كَـرُخَصِ الْقَصْـرِ، وَالْفِطْـرِ، وَالْجَمْـعِ، وَتَنَاوُلِ

---

(١) «الموافقات في أصول الشريعة» (٢/ ١٠٤) ط مكتبة الأسرة.

الْمُحَرَّمَاتِ فِي الاِضْطِرَارِ؛ فَإِنَّ هَذَا النَّمَطَ يَدُلُّ قَطْعًا عَلَى مُطْلَقِ رَفْعِ الْحَرَجِ وَالْمَشَقَّةِ، وَكَذَلِكَ مَا جَاءَ مِنَ النَّهْيِ عَنِ التَّعَمُّقِ وَالتَّكْلِيفِ وَالتَّسَبُّبِ فِي الاِنْقِطَاعِ عَنْ دَوَامِ الْأَعْمَالِ، وَلَوْ كَانَ الشَّارِعُ قَاصِدًا لِلْمَشَقَّةِ فِي التَّكْلِيفِ لَمَا كَانَ ثَمَّ تَرْخِيصٌ وَلَا تَخْفِيفٌ.

وَالثَّالِثُ: الْإِجْمَاعُ عَلَى عَدَمِ وُقُوعِهِ وُجُودًا فِي التَّكْلِيفِ، وَهُوَ يَدُلُّ عَلَى عَدَمِ قَصْدِ الشَّارِعِ إِلَيْهِ، وَلَوْ كَانَ وَاقِعًا لَحَصَلَ فِي الشَّرِيعَةِ التَّنَاقُضُ وَالاِخْتِلَافُ، وَذَلِكَ مَنْفِيٌّ عَنْهَا، فَإِنَّهُ إِذَا كَانَ وَضْعُ الشَّرِيعَةِ عَلَى قَصْدِ الْإِعْنَاتِ وَالْمَشَقَّةِ، وَقَدْ ثَبَتَ أَنَّهَا مَوْضُوعَةٌ عَلَى قَصْدِ الرِّفْقِ وَالتَّيْسِيرِ، كَانَ الْجَمْعُ بَيْنَهُمَا تَنَاقُضًا وَاخْتِلَافًا، وَهِيَ مُنَزَّهَةٌ عَنْ ذَلِكَ» ا. هـ.

لِذَا قَالَ ﷺ: «**هَلَكَ الْمُتَنَطِّعُونَ**»؛ قَالَهَا ثَلَاثًا (١).

قَالَ النَّوَوِيُّ رحمه الله (٢): «**الْمُتَنَطِّعُونَ**: أَيِ: الْمُتَعَمِّقُونَ الْمُغَالُونَ الْمُجَاوِزُونَ الْحُدُودَ فِي أَقْوَالِهِمْ وَأَفْعَالِهِمْ»، وَبَوَّبَ الْبُخَارِيُّ رحمه الله فِي كِتَابِ الاِعْتِصَامِ بِالسُّنَّةِ بَابًا بِعُنْوَانِ (٣): «بَابُ مَا يُكْرَهُ مِنَ التَّعَمُّقِ وَالتَّنَازُعِ وَالْغُلُوِّ فِي الدِّينِ وَالْبِدَعِ؛ لِقَوْلِهِ -تَعَالَى-: ﴿يَٰٓأَهۡلَ ٱلۡكِتَٰبِ لَا تَغۡلُواْ فِي دِينِكُمۡ وَلَا تَقُولُواْ عَلَى ٱللَّهِ إِلَّا ٱلۡحَقَّ﴾ [النساء:١٧١]».

قَالَ الْحَافِظُ فِي «الْفَتْحِ» (٤): «**فَأَمَّا التَّعَمُّقُ**؛ فَهُوَ بِالْمُهْمَلَةِ وَبِتَشْدِيدِ الْمِيمِ ثُمَّ قَافٍ، وَمَعْنَاهُ: التَّشْدِيدُ فِي الْأَمْرِ حَتَّى يَتَجَاوَزَ الْحَدَّ فِيهِ.

---

(١) أخرجه مسلمٌ، كتاب العلم، باب هلك المتنطعون (٢٦٧٠) عن ابن مسعود رضي الله عنه.
(٢) «شرح النووي لمسلم» (٨/ ٤٧٣) ط الحديث.
(٣) «الفتح» (١٣/ ٢٨٩).
(٤) (١٣/ ٢٩١).

وَأَمَّا «التَّنَازُعُ» فَمِنَ الْمُنَازَعَةِ، وَهِيَ فِي الْأَصْلِ الْمُجَاذَبَةُ، وَيُعَبَّرُ بِهَا عَنِ الْمُجَادَلَةِ، وَالْمُرَادُ بِهَا: الْمُجَادَلَةُ عِنْدَ الِاخْتِلَافِ فِي الْحُكْمِ إِذَا لَمْ يَتَّضِحِ الدَّلِيلُ، وَالْمَذْمُومُ مِنْهُ اللَّجَاجُ بَعْدَ قِيَامِ الدَّلِيلِ.

وَأَمَّا «الْغُلُوُّ» فَهُوَ الْمُبَالَغَةُ فِي الشَّيْءِ، وَالتَّشْدِيدُ فِيهِ بِتَجَاوُزِ الْحَدِّ، وَفِيهِ مَعْنَى التَّعَمُّقِ».

وَفِي «سُنَنِ» النَّسَائِيِّ [(١)] وَابْنِ مَاجَهْ، وَ«مُسْنَدِ» أَحْمَدَ [(٢)] مِنْ حَدِيثِ ابْنِ عَبَّاسٍ رضي الله عنهما قَالَ: قَالَ لِي رَسُولُ الله ﷺ غَدَاةَ الْعَقَبَةِ، وَهُوَ وَاقِفٌ عَلَى رَاحِلَتِهِ: «هَاتِ الْقُطْ لِي»، فَلَقَطْتُ لَهُ سَبْعَ حَصَيَاتٍ هُنَّ حَصَى الْخَذْفِ، فَوَضَعَهُنَّ فِي يَدِهِ؛ فَقَالَ: «بِأَمْثَالِ هَؤُلَاءِ»، مَرَّتَيْنِ، وَقَالَ بِيَدِهِ، فَأَشَارَ يَحْيَى أَنَّهُ رَفَعَهَا، وَقَالَ: «إِيَّاكُمْ وَالْغُلُوَّ؛ فَإِنَّمَا هَلَكَ مَنْ كَانَ قَبْلَكُمْ بِالْغُلُوِّ فِي الدِّينِ».

وَفِي «صَحِيحِ الْبُخَارِيِّ»[(٣)] مِنْ حَدِيثِ أَبِي جُحَيْفَةَ السَّوَائِيِّ وَهْبِ بْنِ

---

(١) هو أبو عبد الرحمن الإمام، الحافظ الثبت، شيخ الإسلام، ناقد الحديث، أحمد بن شعيب ابن علي بن سنان بن بحر الخراسانيُّ، صاحب «السنن»، ولد بنسا في سنة خمس عشرة ومائتين، وطلب العلم في صغره، جال في طلب العلم في خراسان، والحجاز، ومصر والعراق، وغيرهم، وكان إمامًا في الحديث، ثقة ثبت، توفي بفلسطين يوم الإثنين لثلاث عشر خلت من صفر سنة (٣٠٣) هـ.

● راجع: «سير أعلام النبلاء» (٢٧٤٨)، و«تهذيب التهذيب» (١/ ٣٦-٣٩).

(٢) أخرجه أحمد (١/ ٢١٥)، وابن أبي شيبة (٤/ ٣٣١)، وابن أبي عاصم في «السنة» (٩٨)، والنسائيُّ، كتاب مناسك الحج، باب من أين يلتقط الحصى؟ (٥/ ٢٦٨) (٣٠٥٧)، وفي «الكبرى» (٤٠٤٩)، وابن ماجه، كتاب المناسك، باب قدر حصى الرمي (٣٠٢٩)، وابن خزيمة (٢٨٦٧، ٢٨٦٨)، وصححه الألبانيُّ في «ظلال الجنة»، و«صحيح سنن النسائي».

(٣) أخرجه البخاريُّ، كتاب الصوم، باب من أقسم عَلَى أخيه ليفطر في التطوع (١٩٦٨).

عَبْدِالله رضي الله عنه (١) أَنَّهُ قَالَ: آخَى النَّبِيُّ ﷺ بَيْنَ سَلْمَانَ (٢)، وَأَبِي الدَّرْدَاءِ، فَزَارَ سَلْمَانُ أَبَا الدَّرْدَاءِ، فَرَأَى أُمَّ الدَّرْدَاءِ مُتَبَذِّلَةً. فَقَالَ لَهَا: مَا شَأْنُكِ؟ قَالَتْ: أَخُوكَ أَبُو الدَّرْدَاءِ لَيْسَ لَهُ حَاجَةٌ فِي الدُّنْيَا، فَجَاءَ أَبُو الدَّرْدَاءِ، فَصَنَعَ لَهُ طَعَامًا، فَقَالَ: كُلْ، قَالَ: فَإِنِّي صَائِمٌ، قَالَ: مَا أَنَا بِآكِلٍ حَتَّى تَأْكُلَ، قَالَ: فَأَكَلَ، فَلَمَّا كَانَ اللَّيْلُ ذَهَبَ أَبُو الدَّرْدَاءِ يَقُومُ، قَالَ: نَمْ، فَنَامَ، ثُمَّ ذَهَبَ يَقُومُ، فَقَالَ: نَمْ، فَلَمَّا كَانَ مِنْ آخِرِ اللَّيْلِ، قَالَ سَلْمَانُ: قُمِ الآنَ، فَصَلَّيَا؛ فَقَالَ لَهُ سَلْمَانُ: إِنَّ لِرَبِّكَ عَلَيْكَ حَقًّا، وَلِنَفْسِكَ عَلَيْكَ حَقًّا، وَلأَهْلِكَ عَلَيْكَ حَقًّا، فَأَعْطِ كُلَّ ذِي حَقٍّ حَقَّهُ. فَأَتَى النَّبِيَّ ﷺ فَذَكَرَ ذَلِكَ لَهُ؛ فَقَالَ النَّبِيُّ ﷺ: «**صَدَقَ سَلْمَانُ**».

وَفِي «**الصَّحِيحَيْنِ**» (٣) مِنْ حَدِيثِ عَبْدِ الله بْنِ عَمْرِو بْنِ الْعَاصِ رضي الله عنهما قَالَ: كُنْتُ أَصُومُ الدَّهْرَ وَأَقْرَأُ الْقُرْآنَ كُلَّ لَيْلَةٍ، قَالَ: فَإِمَّا ذُكِرْتُ لِلنَّبِيِّ ﷺ وَإِمَّا أَرْسَلَ

---

(١) هو وهب بن عبد الله، ويقال: وهب بن وهب بن مسلم بن جنادة بن حبيب بن سواءة السوائي أبو جحيفة: السوائي، مشهور بكنيته، نزل الكوفة، وكان من صغار الصحابة، جعله علي بن أبي طالب رضي الله عنه على بيت المال بالكوفة، وشهد معه مشاهده كلها، وكان يحبه ويثق إليه، ويسميه وهب الخير، ووهب الله أيضًا. مات في ولاية بشر علَى العراق، وقال ابن حبان: سنة أربع وستين.

● راجع: «الاستيعاب» (١٧٣١)، و«أسد الغابة» (٥٤٩٤ و٥٧٦٠)، و«الإصابة» (٩١٨٥).

(٢) هو سلمان الفارسي، أبو عبد الله، ويقال له: سلمان ابن الإسلام، وسلمان الخير، مولى رسول الله ﷺ، أصله من فارس من رامهرمز، وقيل: من أصبهان، وكان قد سمع بأن النبيَّ ﷺ سيبعث، فخرج في طلب ذلك، فأُسر وَبِيع بالمدينة، فاشتغل بالرق، حتى كان أول مشاهده الخندق، وشهد بقية المشاهد، وفتوح العراق، وولي المدائن، آخى النبيُّ ﷺ بينه وبين أبي الدرداء؛ مات سنة ست وثلاثين، وقيل: سبع، قال الحافظ: فكأنه مات سنة ثلاث أو اثنتين وثلاثين.

● راجع: «الإصابة» (٣٣٦٩)، و«الاستيعاب» (١٠١٣)، و«أسد الغابة» (٢١٥١).

(٣) أخرجه البخاريُّ، كتاب الصوم، باب حق الجسم في الصوم (١٩٧٥)، ومسلمٌ، كتاب الصيام، باب النهي عن صوم الدهر لمن تضرر به (١١٥٩).

إِلَيَّ، فَأَتَيْتُهُ؛ فَقَالَ لِي: «أَلَمْ أُخْبَرْ أَنَّكَ تَصُومُ الدَّهْرَ، وَتَقْرَأُ الْقُرْآنَ كُلَّ لَيْلَةٍ؟»، قُلْتُ: بَلَى يَا نَبِيَّ اللهِ وَلَمْ أُرِدْ بِذَلِكَ إِلَّا الْخَيْرَ، قَالَ: «فَإِنَّ بِحَسْبِكَ أَنْ تَصُومَ مِنْ كُلِّ شَهْرٍ ثَلَاثَةَ أَيَّامٍ»، قُلْتُ: يَا نَبِيَّ اللهِ إِنِّي أُطِيقُ أَفْضَلَ مِنْ ذَلِكَ، قَالَ: «فَإِنَّ لِزَوْجِكَ عَلَيْكَ حَقًّا، وَلِزَوْرِكَ عَلَيْكَ حَقًّا، وَلِجَسَدِكَ عَلَيْكَ حَقًّا»، قَالَ: «فَصُمْ صَوْمَ دَاوُدَ نَبِيِّ اللهِ ﷺ؛ فَإِنَّهُ كَانَ أَعْبَدَ النَّاسِ»، قَالَ: قُلْتُ: يَا نَبِيَّ اللهِ! وَمَا صَوْمُ دَاوُدَ؟ قَالَ: «كَانَ يَصُومُ يَوْمًا وَيُفْطِرُ يَوْمًا»، قَالَ: «وَاقْرَأِ الْقُرْآنَ فِي كُلِّ شَهْرٍ»، قَالَ: قُلْتُ: يَا نَبِيَّ اللهِ، إِنِّي أُطِيقُ أَفْضَلَ مِنْ ذَلِكَ، قَالَ «فَاقْرَأْهُ فِي كُلِّ عِشْرِينَ»، قَالَ: قُلْتُ: يَا نَبِيَّ اللهِ إِنِّي أُطِيقُ أَفْضَلَ مِنْ ذَلِكَ، قَالَ: «فَاقْرَأْهُ فِي كُلِّ عَشْرٍ»، قَالَ: قُلْتُ: يَا نَبِيَّ اللهِ، إِنِّي أُطِيقُ أَفْضَلَ مِنْ ذَلِكَ، قَالَ: «فَاقْرَأْهُ فِي كُلِّ سَبْعٍ وَلَا تَزِدْ عَلَى ذَلِكَ؛ فَإِنَّ لِزَوْجِكَ عَلَيْكَ حَقًّا، وَلِزَوْرِكَ عَلَيْكَ حَقًّا، وَلِجَسَدِكَ عَلَيْكَ حَقًّا»، قَالَ: فَشَدَّدْتُ فَشُدِّدَ عَلَيَّ، قَالَ: وَقَالَ لِيَ النَّبِيُّ ﷺ: «إِنَّكَ لَا تَدْرِي لَعَلَّكَ يَطُولُ بِكَ عُمْرٌ»، قَالَ: فَصِرْتُ إِلَى الَّذِي قَالَ لِيَ النَّبِيُّ ﷺ، فَلَمَّا كَبِرْتُ وَدِدْتُ أَنِّي كُنْتُ قَبِلْتُ رُخْصَةَ نَبِيِّ اللهِ ﷺ.

وَفِي «الصَّحِيحَيْنِ» (١) مِنْ حَدِيثِ أَنَسٍ رضي الله عنه أَنَّ النَّبِيَّ ﷺ رَأَى شَيْخًا يُهَادَى بَيْنَ ابْنَيْهِ؛ فَقَالَ: «مَا بَالُ هَذَا؟»، قَالُوا: نَذَرَ أَنْ يَمْشِيَ، قَالَ: «إِنَّ اللهَ عَنْ تَعْذِيبِ هَذَا نَفْسَهُ لَغَنِيٌّ»، وَأَمَرَهُ أَنْ يَرْكَبَ.

وَفِي «صَحِيحِ الْبُخَارِيِّ» (٢) مِنْ حَدِيثِ ابْنِ عَبَّاسٍ رضي الله عنهما قَالَ: بَيْنَا النَّبِيُّ ﷺ يَخْطُبُ إِذَا هُوَ بِرَجُلٍ قَائِمٍ فَسَأَلَ عَنْهُ، فَقَالُوا: أَبُو إِسْرَائِيلَ (٣) نَذَرَ أَنْ يَقُومَ

---

(١) أخرجه البخاريُّ، كتاب جزاء الصيد، باب من نذر المشي إلى الكعبة (١٨٦٥)، ومسلمٌ، كتاب النذر، باب من نذر أن يمشي إلى الكعبة (١٦٤٢).

(٢) أخرجه البخاريُّ، كتاب الأيمان والنذور، باب النذر فيما لا يملك وفي معصية (٦٠٧٤).

(٣) هو أبو إسرائيل الأنصاري، أو القرشي العامري؛ وقيل: اسم أبي إسرائيل قشير، مشهور بكنيته؛ قال أبو عمر: قيل: اسمه يسير، وهو الذي نذر أن يحج، ذكره البغويُّ وعليُّ بنُ =

وَلَا يَقْعُدَ، وَلَا يَسْتَظِلَّ، وَلَا يَتكَلَّمَ، وَيَصُومَ؛ فَقَالَ النَّبِيُّ ﷺ: «**مُرْهُ فَلْيَتَكَلَّمْ، وَلْيَسْتَظِلَّ، وَلْيَقْعُدْ، وَلْيُتِمَّ صَوْمَهُ**».

وَفِي «**صَحِيحِ الْبُخَارِيِّ**» (١) مِنْ حَدِيثِ أَنَسِ بْنِ مَالِكٍ رضي الله عنه قَالَ: دَخَلَ النَّبِيُّ ﷺ فَإِذَا حَبْلٌ مَمْدُودٌ بَيْنَ السَّارِيَتَيْنِ؛ فَقَالَ: «**مَا هَذَا الْحَبْلُ؟**»، قَالُوا: هَذَا حَبْلٌ لِزَيْنَبَ (٢)، فَإِذَا فَتَرَتْ تَعَلَّقَتْ؛ فَقَالَ النَّبِيُّ ﷺ: «**حُلُّوهُ لِيُصَلِّ أَحَدُكُمْ نَشَاطَهُ؛ فَإِذَا فَتَرَ فَلْيَقْعُدْ**».

وَفِي «**الصَّحِيحَيْنِ**» (٣) مِنْ حَدِيثِ أَنَسِ بْنِ مَالِكٍ رضي الله عنه أَنَّ نَفَرًا مِنْ أَصْحَابِ النَّبِيِّ ﷺ سَأَلُوا أَزْوَاجَ النَّبِيِّ ﷺ عَنْ عَمَلِهِ فِي السِّرِّ؛ فَقَالَ بَعْضُهُمْ: لاَ أَتَزَوَّجُ النِّسَاءَ، وَقَالَ بَعْضُهُمْ: لاَ آكُلُ اللَّحْمَ، وَقَالَ بَعْضُهُمْ: لاَ أَنَامُ عَلَى فِرَاشٍ، فَحَمِدَ اللهَ وَأَثْنَى عَلَيْهِ؛ فَقَالَ: «**مَا بَالُ أَقْوَامٍ قَالُوا كَذَا وَكَذَا، لَكِنِّي أُصَلِّي وَأَنَامُ، وَأَصُومُ**

= السَّكَن في الصحابة، يعد من أهل المدينة، وهو الذي نذر أن لا يتكلم وأن يقف صائمًا للشمس ولا يستظل، فأمره النبيُّ ﷺ أن يقعد، ويستظل، ويتكلَّم، ويتم صومه.

● راجع: «الاستيعاب» (١٣)، و«أسد الغابة» (٥٦٨١)، و«الإصابة» (٧١٢٥، ٩٥٢١).

(١) أخرجه البخاريُّ، كتاب أبواب التهجد، باب ما يكره من التشديد في العبادة (١١٥٠)، ومسلمٌ، كتاب صلاة المسافرين وقصرها، باب أمر من نعس في صلاته أو استعجم عليه القرآن أو الذكر بأن يرقد أو يقعد حتى يذهب عنه ذلك (٧٨٤).

(٢) هي زينب بنت جحش بن رئاب بن يعمر بن صبيرة بن مرة زوج النبي ﷺ، وهي أسدية من أسد بن خزيمة، وكانت قديمة الإسلام، ومن المهاجرات، وكانت تحت زيد بن حارثة قبل أن يتزوجها رسول الله ﷺ، وكانت كثيرة الخير والصدقة، وكان اسمها برة فسماها رسول الله ﷺ زينب، وكانت تفخر عَلَى نساء النبي ﷺ بأنها بنت عمته، وبأن الله زوَّجها له.

● راجع: «الاستيعاب» (٥٢٥)، و«أسد الغابة» (٦٩٥٦)، و«الإصابة» (١١٢٢٧).

(٣) أخرجه البخاريُّ، كتاب النكاح، باب الترغيب في النكاح (٥٠٦٣)، ومسلمٌ، كتاب النكاح، باب استحباب النكاح لمن تاقت نفسه إليه ووجد مؤنه، واشتغال من عجز عن المؤن بالصوم (١٤٠١)، واللفظ له.

وَأُفْطِرُ، وَأَتَزَوَّجُ النِّسَاءَ؛ فَمَنْ رَغِبَ عَنْ سُنَّتِي فَلَيْسَ مِنِّي».

قَالَ الْحَافِظُ فِي «الْفَتْحِ» (١): «الْمُرَادُ بِالسُّنَّةِ: الطَّرِيقَةُ لَا الَّتِي تُقَابِلُ الْفَرْضَ، وَالرَّغْبَةُ عَنِ الشَّيْءِ: الإِعْرَاضُ عَنْهُ إِلَى غَيْرِهِ، وَالْمُرَادُ: مَنْ تَرَكَ طَرِيقَتِي، وَأَخَذَ بِطَرِيقَةِ غَيْرِي فَلَيْسَ مِنِّي، وَلَمَّحَ بِذَلِكَ إِلَى طَرِيقِ الرَّهْبَانِيَّةِ؛ فَإِنَّهُمُ الَّذِينَ ابْتَدَعُوا التَّشْدِيدَ كَمَا وَصَفَهُمُ الله، وَقَدْ عَابَهُمْ بِأَنَّهُمْ مَا وَفَّوْهُ بِمَا الْتَزَمُوهُ، وَطَرِيقَةُ النَّبِيِّ ﷺ الْحَنِيفِيَّةُ السَّمْحَةُ، فَيُفْطِرُ؛ لِيَتَقَوَّى عَلَى الصَّوْمِ، وَيَنَامُ؛ لِيَتَقَوَّى عَلَى الْقِيَامِ، وَيَتَزَوَّجُ؛ لِكَسْرِ الشَّهْوَةِ وَإِعْفَافِ النَّفْسِ وَتَكْثِيرِ النَّسْلِ.

وَقَوْلُهُ: «فَلَيْسَ مِنِّي» إِنْ كَانَتِ الرَّغْبَةُ بِضَرْبٍ مِنَ التَّأْوِيلِ يُعْذَرُ صَاحِبُهُ فِيهِ؛ فَمَعْنَى: «فَلَيْسَ مِنِّي»؛ أَيْ: عَلَى طَرِيقَتِي، وَلَا يَلْزَمُ أَنْ يَخْرُجَ عَنِ الْمِلَّةِ، وَإِنْ كَانَ إِعْرَاضًا وَتَنَطُّعًا يُفْضِي إِلَى اعْتِقَادِ أَرْجَحِيَّةِ عَمَلِهِ؛ فَمَعْنَى: «فَلَيْسَ مِنِّي» لَيْسَ عَلَى مِلَّتِي؛ لِأَنَّ اعْتِقَادَ ذَلِكَ نَوْعٌ مِنَ الْكُفْرِ» ا. هـ.

وَفِي «الصَّحِيحَيْنِ» (٢) مِنْ حَدِيثِ أَنَسٍ رضي الله عنه قَالَ: وَاصَلَ النَّبِيُّ ﷺ آخِرَ الشَّهْرِ، وَوَاصَلَ أُنَاسٌ مِنَ النَّاسِ، فَبَلَغَ النَّبِيَّ ﷺ؛ فَقَالَ: «لَوْ مُدَّ بِيَ الشَّهْرُ لَوَاصَلْتُ وِصَالاً يَدَعُ الْمُتَعَمِّقُونَ تَعَمُّقَهُمْ، إِنِّي لَسْتُ مِثْلَكُمْ، إِنِّي أَظَلُّ يُطْعِمُنِي رَبِّي وَيَسْقِينِ».

فَالنَّبِيُّ ﷺ نَهَى عَنِ التَّشْدِيدِ فِي الدِّينِ بِالزِّيَادَةِ عَلَى الْمَشْرُوعِ، وَأَخْبَرَ ﷺ أَنَّ تَشْدِيدَ الْعَبْدِ عَلَى نَفْسِهِ هُوَ السَّبَبُ لِتَشْدِيدِ الله عَلَيْهِ إِمَّا بِالْقَدَرِ، وَإِمَّا بِالشَّرْعِ؛ فَبِالْقَدَرِ كَفِعْلِ أَهْلِ الْوَسْوَاسِ؛ فَإِنَّهُمْ شَدَّدُوا عَلَى أَنْفُسِهِمْ؛ فَشُدِّدَ عَلَيْهِمْ حَتَّى اسْتَحْكَمَ، وَصَارَ صِفَةً لَازِمَةً لَهُمْ، وَأَمَّا التَّشْدِيدُ بِالشَّرْعِ: كَمَنْ شَدَّدَ عَلَى نَفْسِهِ

---

(١) «الفتح» (٩/ ٧، ٨).

(٢) أخرجه البخاريُّ، كتاب التمني، باب ما يجوز من اللو (٧٢٤١)؛ وانظر: (١٩٦١)، ومسلمٌ، كتاب الصيام، باب النهي عن الوصال في الصوم (١١٠٤).

بِالنَّذْرِ؛ فَشَدَّدَ الله عَلَيْهِ، فَأَلْزَمَهُ الْوَفَاءَ بِهِ(١).

قَالَ شَيْخُ الْإِسْلَامِ ابْنُ تَيْمِيَّةَ رحمه الله (٢): «نَهَى الشَّارِعُ عَنِ الْغُلُوِّ وَالتَّشْدِيدِ نَهْيًا عَامًّا فِي الِاعْتِقَادَاتِ وَالْأَعْمَالِ».

وَكَمِثَالٍ آخَرَ - وَالْأَمْثِلَةُ كَثِيرَةٌ مُتَعَدِّدَةٌ - فِي ذَلِكَ؛ رَأَتْ طَائِفَةٌ أَنَّ حُبَّ الْحَيَاةِ وَالْحِرْصَ عَلَيْهَا، وَحُبَّ الْمَالِ هُوَ الْغَايَةُ الْقُصْوَى، وَالْهَدَفُ الْأَسْمَى؛ وَهَؤُلَاءِ هُمُ الْيَهُودُ؛ فَقَالَ الله فِي حَقِّهِمْ: ﴿ وَلَتَجِدَنَّهُمْ أَحْرَصَ النَّاسِ عَلَىٰ حَيَوٰةٍ ﴾ [البقرة:٩٦]، وَجَاءَتْ كَلِمَةُ ﴿حَيَوٰةٍ﴾ نَكِرَةً؛ لِتَعُمَّ وَلِتَشْمَلَ أَيَّ حَيَاةٍ، وَلَوْ كَانَتْ رَخِيصَةً حَقِيرَةً!!

وَعَلَى الْعَكْسِ مِنْ هَؤُلَاءِ حَرَّمَتْ طَائِفَةٌ عَلَى نَفْسِهَا حَقَّهَا مِنَ الْحَيَاةِ، وَابْتَدَعَتْ تِلْكَ الطَّائِفَةُ مَا يُسَمَّى بِـ «الرَّهْبَانِيَّةِ»؛ كَمَا قَالَ سُبْحَانَه: ﴿وَرَهْبَانِيَّةً ٱبْتَدَعُوهَا مَا كَتَبْنَٰهَا عَلَيْهِمْ إِلَّا ٱبْتِغَآءَ رِضْوَٰنِ ٱللَّهِ فَمَا رَعَوْهَا حَقَّ رِعَايَتِهَا ﴾ [الحديد:٢٧].

لَكِنَّ الْإِسْلَامَ الْحَنِيفَ؛ دِينَ الْعَدْلِ وَالْوَسَطِيَّةِ نَبَذَ هَذِهِ الْأَفْكَارَ وَطَرَحَهَا، فَرَدَّ هَذَا الْغُلُوَّ، وَلَمْ يَقْبَلْ ذَاكَ التَّفْرِيطَ؛ بَلْ جَاءَ بِالِاعْتِدَالِ؛ فَيَقُولُ الله- تَعَالَى-: ﴿ وَٱبْتَغِ فِيمَآ ءَاتَىٰكَ ٱللَّهُ ٱلدَّارَ ٱلْءَاخِرَةَ ۖ وَلَا تَنسَ نَصِيبَكَ مِنَ ٱلدُّنْيَا﴾ [القصص: ٧٧]، وَقَالَ- تَعَالَى-: ﴿ قُلْ مَنْ حَرَّمَ زِينَةَ ٱللَّهِ ٱلَّتِىٓ أَخْرَجَ لِعِبَادِهِۦ وَٱلطَّيِّبَٰتِ مِنَ ٱلرِّزْقِ ﴾ [الأعراف:٣٢]. هَذَا هُوَ دِينُنَا، وَهَذِهِ هِيَ شَرِيعَتُنَا الْغَرَّاءُ.

قَالَ أَبُو جَعْفَرٍ الطَّحَاوِيُّ (٣) رحمه الله: «وَدِينُ الله فِي الْأَرْضِ وَالسَّمَاءِ وَاحِدٌ،

---

(١) قاله ابن القيم؛ كما في «إغاثة اللهفان» (١/ ١٦٤) بتصرفٍ ط ابن رجب.

(٢) «اقتضاء الصراط المستقيم» (١٠٦) ط السنة المحمدية القاهرة.

(٣) هو أحمد بن محمد بن سلامة بن سلمة بن عبد الملك، أبو جعفرٍ الطحاويُّ، نسبة إلى =

وَهُوَ دِينُ الْإِسْلَامِ، وَهُوَ بَيْنَ الْغُلُوِّ وَالتَّقْصِيرِ، وَبَيْنَ التَّشْبِيهِ وَالتَّعْطِيلِ، وَبَيْنَ الْجَبْرِ وَالْقَدَرِ، وَبَيْنَ الْيَأْسِ وَالْأَمَلِ»(١).

فَاحْذَرْ سَبِيلَ الشَّيْطَانِ، وَاسْلُكْ سَبِيلَ الرَّحْمَنِ، وَتَمَسَّكْ بِمَا كَانَ عَلَيْهِ السَّلَفُ الصَّالِحُ.

وَرَحِمَ الله عُمَرَ بْنَ عَبْدِ الْعَزِيزِ؛ فَلَقَدْ كَتَبَ كِتَابًا إِلَى أَحَدِ عُمَّالِهِ أَوْصَاهُ فِيهِ بِلُزُوم طَرِيقِ السَّلَفِ؛ ثُمَّ قَالَ: «مَا دُونَهُمْ مِنْ مَقْصَرٍ وَمَا فَوْقَهُمْ مِنْ مَحْسَرٍ، وَقَدْ قَصَّرَ قَوْمٌ دُونَهُمْ فَجَفَوْا، وَطَمَحَ عَنْهُمْ أَقْوَامٌ، فَغَلَوْا، وَإِنَّهُمْ بَيْنَ ذَلِكَ لَعَلَى هُدىً مُسْتَقِيمٍ» (٢).

وَقَالَ ابْنُ الْقَيِّم (٣): «مَا أَمَرَ الله بِأَمْرٍ إِلَّا وَلِلشَّيْطَانِ فِيهِ نَزْغَتَانِ؛ إِمَّا إِلَى تَفْرِيطٍ وَإِضَاعَةٍ، وَإِمَّا إِلَى إِفْرَاطٍ وَغُلُوٍّ، وَدِينُ الله وَسَطٌ بَيْنَ الْجَافِي عَنْهُ وَالْغَالِي فِيهِ؛ كَالْوَادِي بَيْنَ جَبَلَيْنِ، وَالْهُدَى بَيْنَ ضَلَالَتَيْنِ، وَالْوَسَطُ بَيْنَ طَرَفَيْنِ ذَمِيمَيْنِ؛ فَكَمَا

=

«طحا» قرية بصعيد مصر، الفقيه الحنفي، صاحب المصنفات المفيدة، والفوائد الغزيرة، وهو أحد الثقات الأثبات، والحفاظ الجهابذة، وهو ابن أخت المزني، صنف كتبًا كثيرة؛ منها: «أحكام القرآن»، و«معاني الآثار»، و«التاريخ الكبير»، و«اختلاف العلماء»، مولده سنة تسع وثلاثين ومائتين؛ تُوفي في مستهل ذي القعدة من سنة إحدى وعشرين وثلاثمائة، عن ثنتين وثمانين سنة، وقد ذكر السمعاني أنه ولد في سنة تسع وعشرين ومائتين؛ فعَلَى هذا يكون قد جاوز التسعين، والله أعلم، ودفن بالقرافة، وقد ترجمه ابن عساكر رحمه الله.

- راجع: «البداية النهاية» لابن كثير (١١/ ١٧٤) ط المعارف، بيروت، و«المنتظم» لابن الجوزي (٦/ ٢٥٠) ط صادر بيروت سنة ١٣٥٨هـ، و«الأنساب» للسمعاني (١/ ١٢٠)، و«السير» (ترجمة: ٣٠٢٤)، و«تاريخ دمشق» (٥/ ٣٦٧).

(١) «شرح الطحاوية» (٥١٨) ط المكتب الإسلامي.

(٢) أخرجه أبو داود، كتاب السنة، باب لزوم السنة (٤٦١٢)، بسندٍ صحَّحه الألبانيُّ رحمه الله عن عمر بن عبد العزيز، وسياقه طويل.

(٣) «مدارج السالكين» (٢/ ٣٩٩).

أَنَّ الْجَافِي عَنِ الْأَمْرِ مُضَيِّعٌ لَهُ؛ فَالْغَالِي فِيهِ مُضَيِّعٌ لَهُ؛ هَذَا بِتَقْصِيرِهِ عَنِ الْحَدِّ، وَهَذَا بِتَجَاوُزِهِ الْحَدَّ».

وَمَا أَرْوَعَ أَنْ أَخْتِمَ الْحَدِيثَ فِي هَذَا الْمُقَوِّمِ الْمُهِمِّ وَالضَّرُورِيِّ بِهَذَا الدُّعَاءِ النَّبَوِيِّ الَّذِي يَجْمَعُ فِيهِ النَّبِيُّ ﷺ بَيْنَ الدِّينِ وَالدُّنْيَا، وَالدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ؛ كَمَا قَالَ فِي «صَحِيحِ مُسْلِمٍ» (١) مِنْ حَدِيثِ أَبِي هُرَيْرَةَ رضي الله عنه قَالَ: كَانَ رَسُولُ اللهِ ﷺ يَقُولُ: «**اللهمَّ أَصْلِحْ لِي دِينِي الَّذِي هُوَ عِصْمَةُ أَمْرِي، وَأَصْلِحْ لِي دُنْيَايَ الَّتِي فِيهَا مَعَاشِي، وَأَصْلِحْ لِي آخِرَتِي الَّتِي فِيهَا مَعَادِي، وَاجْعَلِ الْحَيَاةَ زِيَادَةً لِي فِي كُلِّ خَيْرٍ، وَاجْعَلِ الْمَوْتَ رَاحَةً لِي مِنْ كُلِّ شَرٍّ**».

فَمَا أَحْوَجَ الدَّعْوَةَ وَالدُّعَاةَ إِلَى هَذَا الْمُقَوِّمِ الْجَلِيلِ فِي التَّأْصِيلِ الْعِلْمِيِّ وَفِي التَّطْبِيقِ الْعَمَلِيِّ، وَالْمُوَفَّقُ مَنْ وَفَّقَهُ اللهُ.

---

(١) تقدم.

الْمَبْحَثُ التَّاسِعُ
التَّدَرُّجُ فِي الدَّعْوَةِ

تَعْرِيفُ التَّدَرُّجِ لُغَةً:

الدَّالُ وَالرَّاءُ وَالْجِيمُ أَصْلٌ وَاحِدٌ يَدُلُّ عَلَى مُضِيِّ الشَّيْءِ وَالْمُضِيِّ فِي الشَّيْءِ، وَدَرَجَ ودَرِجَ؛ أَيْ: مَضَى لِسَبِيلِهِ. وَدَرَجَ الرَّجُلُ إِذَا مَضَى وَلَمْ يُخَلِّفْ نَسْلًا. وَدَرَجَ الْقَوْمُ إِذَا انْقَرَضُوا.

وَالدَّرَجَانُ: مِشْيَةُ الشَّيْخِ وَالصَّبِيِّ، وَيُقَالُ لِلصَّبِيِّ إِذَا دَبَّ وَأَخَذَ فِي الْحَرَكَةِ: دَرِجَ ودَرَجَ الشَّيْخُ وَالصَّبِيُّ يَدْرُجُ دَرَجًا وَدَرَجَانًا وَدَرِيجًا، فَهُوَ دَارِجٌ: مَشَيَا مَشْيًا ضَعِيفًا وَدَبًّا.

وَالدَّرَّاجَةُ: الْعَجَلَةُ الَّتِي يَدِبُّ الشَّيْخُ وَالصَّبِيُّ عَلَيْهَا. وَدَرَجَ الرَّجُلُ وَالضَّبُّ يَدْرُجُ دُرُوجًا؛ أَيْ: مَشَى.

وَيُقَالُ: دَرَّجْتُ الْعَلِيلَ تَدْرِيجًا إِذَا أَطْعَمْتُهُ شَيْئًا قَلِيلًا، وَذَلِكَ إِذَا نَقِهَ، حَتَّى يَتَدَرَّجَ إِلَى غَايَةِ أَكْلِهِ؛ كَمَا كَانَ قَبْلَ الْعِلَّةِ.

وَدَرَّجَهُ إِلَى كَذَا وَاسْتَدْرَجَهُ؛ بِمَعْنًى؛ أَيْ: خَدَعَهُ وَأَدْنَاهُ مِنْهُ عَلَى التَّدْرِيجِ فَتَدَرَّجَ هُوَ، وَفِي التَّنْزِيلِ الْعَزِيزِ: ﴿سَنَسْتَدْرِجُهُم مِّنْ حَيْثُ لَا يَعْلَمُونَ﴾ [القلم: ٤٤]، قَالَ بَعْضُهُمْ: مَعْنَاهُ: سَنَأْخُذُهُمْ قَلِيلًا قَلِيلًا وَلَا نُبَاغِتُهُمْ. وَقِيلَ مَعْنَاهُ: سَنَأْخُذُهُمْ مِنْ حَيْثُ لَا يَحْتَسِبُونَ؛ وَذَلِكَ أَنَّ اللهَ يَفْتَحُ عَلَيْهِمْ مِنَ النَّعِيمِ مَا يَغْتَبِطُونَ بِهِ؛ فَيَرْكَنُونَ إِلَيْهِ وَيَأْنَسُونَ بِهِ فَلَا يَذْكُرُونَ الْمَوْتَ، فَيَأْخُذُهُمْ عَلَى غِرَّتِهِمْ أَغْفَلَ مَا

كَانُوا (١).

وَاصْطِلَاحًا:

مِنْ خِلَالِ مَعَانِي التَّدَرُّجِ فِي «اللُّغَةِ» يُمْكِنُ التَّوَصُّلُ إِلَى تَعْرِيفٍ لِلتَّدَرُّجِ هُوَ: التَّقَدُّمُ بِالْمَدْعُوِّ شَيْئًا فَشَيْئًا؛ لِلْبُلُوغِ بِهِ إِلَى غَايَةِ مَا طُلِبَ مِنْهُ وَفْقَ طُرُقٍ مَشْرُوعَةٍ مَخْصُوصَةٍ(٢).

وَالتَّدَرُّجُ سِمَةٌ بَارِزَةٌ فِي الرِّسَالَةِ الْخَالِدَةِ؛ فَالْقُرْآنُ الْكَرِيمُ أَنْزَلَهُ الله تَعَالَى عَلَى رَسُولِهِ ﷺ مُنَجَّمًا؛ قَالَ سُبْحَانَهُ: ﴿وَقُرْءَانًا فَرَقْنَٰهُ لِتَقْرَأَهُۥ عَلَى ٱلنَّاسِ عَلَىٰ مُكْثٍ وَنَزَّلْنَٰهُ تَنزِيلًا﴾ [الإسراء:١٠٦]؛ وَالْحِكْمَةُ مِنْ ذَلِكَ هِيَ تَثْبِيتُ قَلْبِ الْمُصْطَفَى ﷺ؛ كَمَا قَالَ تَعَالَى: ﴿وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ لَوْلَا نُزِّلَ عَلَيْهِ ٱلْقُرْءَانُ جُمْلَةً وَٰحِدَةً ۚ كَذَٰلِكَ لِنُثَبِّتَ بِهِۦ فُؤَادَكَ ۖ وَرَتَّلْنَٰهُ تَرْتِيلًا﴾ [الفرقان:٣٢]، وَكَذَلِكَ مِنَ الْحِكَمِ فِي ذَلِكَ: مُرَاعَاةُ أَحْوَالِ النَّاسِ، وَالتَّدَرُّجُ فِي دَعْوَتِهِمْ إِلَى دِينِ الله ﷻ شَيْئًا فَشَيْئًا، حَتَّى يَتِمَّ الْغَرَضُ بِإِكْمَالِ الدِّينِ، وَتَمَامِ النِّعْمَةِ، دُونَ أَنْ تَكُونَ هُنَاكَ عَوَائِقُ نَفْسِيَّةٌ تَعُوقُ الْإِنْسَانَ السَّوِيَّ عَنْ مُتَابَعَةِ الْوَحْيِ، وَتَدَبُّرِ مَعَانِيهِ، وَالِاقْتِنَاعِ بِمَرَامِيهِ، وَالْعَمَلِ بِمَا تَضَمَّنَهُ مِنْ تَشْرِيعَاتٍ وَأَحْكَامٍ.

فَالله هُوَ الْحَكِيمُ الْخَبِيرُ الْعَلِيمُ بِحَاجَةِ النَّاسِ، وَحَاجَةِ الدَّعْوَةِ، فَأَنْزَلَ مِنَ الْقُرْآنِ مَا يُنَاسِبُ كُلَّ مَرْحَلَةٍ مِنْ مَرَاحِلِ الدَّعْوَةِ، وَالْبِنَاءِ لِهَذِهِ الدَّوْلَةِ الَّتِي تَنْشَأُ فِي صَحْرَاءَ تَمُوجُ بِالْكُفْرِ مَوْجًا؛ فَفِي أَوَّلِ الْأَمْرِ نَزَلَتْ آيَاتٌ شَدِيدَةٌ تَهُزُّ الْقُلُوبَ هَزًّا، حَيْثُ الْوَعْدُ وَالْوَعِيدُ، وَالنَّهْيُ عَنِ الْمُنْكَرِ، وَالْأَمْرُ بِالْمَعْرُوفِ؛ فَقَالَ سُبْحَانَهُ

---

(١) «معجم مقاييس اللغة»(٢٩١)، و«الصحاح» للجوهري (١/ ٢٧٦)، و«لسان العرب» (٣/ ٣٢٥- ٣٢٧)، و«القاموس المحيط» (١/ ٢٣٠)، و«تاج العروس» (٥/ ٥٥٣).

(٢) راجع: رسالة: «التدرج في دَعْوَة النبي ﷺ» (١٢) للشيخ إبراهيم المطلق، الناشر: وزارة الشئون الإسلامية والأوقاف والدَّعْوَة والإرشاد.

وَتَعَالَى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلۡمُدَّثِّرُ ١ قُمۡ فَأَنذِرۡ ٢ وَرَبَّكَ فَكَبِّرۡ ٣ وَثِيَابَكَ فَطَهِّرۡ ٤ وَٱلرُّجۡزَ فَٱهۡجُرۡ ٥ وَلَا تَمۡنُن تَسۡتَكۡثِرُ ٦ وَلِرَبِّكَ فَٱصۡبِرۡ﴾ [المدثر:١-٧]، ثُمَّ قَالَ بَعْدَهَا: ﴿فَإِذَا نُقِرَ فِي ٱلنَّاقُورِ ٨ فَذَٰلِكَ يَوۡمَئِذٖ يَوۡمٌ عَسِيرٌ ٩ عَلَى ٱلۡكَٰفِرِينَ غَيۡرُ يَسِيرٖ ١٠ ذَرۡنِي وَمَنۡ خَلَقۡتُ وَحِيدٗا ١١ وَجَعَلۡتُ لَهُۥ مَالٗا مَّمۡدُودٗا ١٢ وَبَنِينَ شُهُودٗا ١٣ وَمَهَّدتُّ لَهُۥ تَمۡهِيدٗا ١٤ ثُمَّ يَطۡمَعُ أَنۡ أَزِيدَ ١٥ كَلَّآۖ إِنَّهُۥ كَانَ لِأٓيَٰتِنَا عَنِيدٗا ١٦ سَأُرۡهِقُهُۥ صَعُودًا ١٧ إِنَّهُۥ فَكَّرَ وَقَدَّرَ ١٨ فَقُتِلَ كَيۡفَ قَدَّرَ ١٩ ثُمَّ قُتِلَ كَيۡفَ قَدَّرَ ٢٠ ثُمَّ نَظَرَ ٢١ ثُمَّ عَبَسَ وَبَسَرَ ٢٢ ثُمَّ أَدۡبَرَ وَٱسۡتَكۡبَرَ ٢٣ فَقَالَ إِنۡ هَٰذَآ إِلَّا سِحۡرٞ يُؤۡثَرُ ٢٤ إِنۡ هَٰذَآ إِلَّا قَوۡلُ ٱلۡبَشَرِ ٢٥ سَأُصۡلِيهِ سَقَرَ ٢٦ وَمَآ أَدۡرَىٰكَ مَا سَقَرُ﴾ [المدثر:٨- ٢٧]؛ آيَاتٌ شَدِيدَةٌ قَوِيَّةٌ تَخْلَعُ الْقَلْبَ، فَنَزَلَتِ الْآيَاتُ الْقُرْآنِيَّةُ أَوَّلَ مَا نَزَلَتْ فِي التَّرْغِيبِ وَالتَّرْهِيبِ، وَالْوَعْدِ وَالْوَعِيدِ، حَتَّى إِذَا ثَابَتِ الْقُلُوبُ إِلَى اللهِ - جَلَّ وَعَلَا- نَزَلَ الْحَلَالُ وَالْحَرَامُ، وَسَائِرُ الْأَحْكَامِ.

فَالتَّدَرُّجُ سُنَّةٌ كَوْنِيَّةٌ وَدَعَوِيَّةٌ؛ فَمُحَالٌ أَنْ يُوجَدَ الْفَرْعُ قَبْلَ الْأَصْلِ؛ لِأَنَّهُ مُتَفَرِّعٌ عَنْهُ، وَأَنْ يُوجَدَ الْجُزْءُ قَبْلَ الْكُلِّ؛ لِأَنَّهُ جُزْءٌ مِنْهُ.

وَكَذَلِكَ فِي أَمْرِ الدَّعْوَةِ إِلَى اللهِ ﷻ؛ فَلْنُبَيِّنِ الْأَصْلَ قَبْلَ الْفَرْعِ، وَالْكُلَّ قَبْلَ الْجُزْءِ، وَالضَّرُورِيَّ قَبْلَ التَّحْسِينِيِّ، وَالْفَرْضَ قَبْلَ الْمَنْدُوبِ وَالْمُسْتَحَبِّ، وَالْحَرَامَ قَبْلَ الْمَكْرُوهِ، وَالْمُتَّفَقَ عَلَيْهِ قَبْلَ الْمُخْتَلَفِ فِيهِ.

وَهَا هُوَ سَيِّدُ الدُّعَاةِ ﷺ يُبَيِّنُ لَنَا هَذَا الْمَنْهَجَ الدَّعَوِيَّ بِجَلَاءٍ؛ فَفِي الْحَدِيثِ الَّذِي رَوَاهُ **الْبُخَارِيُّ وَمُسْلِمٌ** (١) مِنْ حَدِيثِ ابْنِ عَبَّاسٍ رضي الله عنهما قَالَ: «لَمَّا بَعَثَ النَّبِيُّ ﷺ مُعَاذَ بْنَ جَبَلٍ إِلَى الْيَمَنِ؛ فَقَالَ: «**يَا مُعَاذُ، إِنَّكَ تَقْدُمُ عَلَى قَوْمٍ أَهْلِ كِتَابٍ، فَلْيَكُنْ أَوَّلَ مَا تَدْعُوهُمْ إِلَيْهِ عِبَادَةُ اللهِ ﷻ؛ فَإِذَا عَرَفُوا اللهَ فَأَخْبِرْهُمْ أَنَّ اللهَ فَرَضَ عَلَيْهِمْ خَمْسَ صَلَوَاتٍ فِي يَوْمِهِمْ وَلَيْلَتِهِمْ؛ فَإِذَا فَعَلُوا؛ فَأَخْبِرْهُمْ أَنَّ اللهَ قَدْ**

---

(١) أخرجه البخاريُّ، كتاب الزكاة، باب أخذ الصدقة من الأغنياء وترد في الفقراء حيث كانوا (١٤٩٦)، ومسلمٌ، كتاب الإيمان، باب الدعاء إلى الشهادتين وشرائع الإسلام (١٩).

فَرَضَ عَلَيْهِمْ زَكَاةً تُؤْخَذُ مِنْ أَغْنِيَائِهِمْ فَتُرَدُّ عَلَى فُقَرَائِهِمْ؛ فَإِذَا أَطَاعُوا بِهَا فَخُذْ مِنْهُمْ، وَتَوَقَّ كَرَائِمَ أَمْوَالِهِمْ».

قَالَ النَّوَوِيُّ رحمه الله (١): «.. وَلِأَنَّهُ ﷺ رَتَّبَ ذَلِكَ فِي الدُّعَاءِ إِلَى الْإِسْلَامِ، وَبَدَأَ بِالْأَهَمِّ، أَلَا تَرَاهُ بَدَأَ بِالصَّلَاةِ قَبْلَ الزَّكَاةِ».

وَقَالَ الْحَافِظُ ابْنُ حَجَرٍ(٢): «وَوَقَعَتِ الْبَدَاءَةُ بِهِمَا - أَيِ: الشَّهَادَتَيْنِ - لِأَنَّهُمَا أَصْلُ الدِّينِ الَّذِي لَا يَصِحُّ شَيْءٌ غَيْرُهُمَا إِلَّا بِهِمَا».

• **وَمِنَ الأَدِلَّةِ عَلَى البَدْءِ بِالأَهَمِّ فَالأَهَمِّ فِي الدَّعْوَةِ:**

مَا أَخْرَجَهُ مُسْلِمٌ فِي «**الصَّحِيحِ**» (٣) مِنْ حَدِيثِ عَوْفِ بْنِ مَالِكٍ الْأَشْجَعِيِّ (٤) رضي الله عنه قَالَ: كُنَّا عِنْدَ رَسُولِ اللهِ ﷺ تِسْعَةً أَوْ ثَمَانِيَةً أَوْ سَبْعَةً؛ فَقَالَ: «**أَلَا تُبَايِعُونَ رَسُولَ اللهِ؟**»، وَكُنَّا حَدِيثَ عَهْدٍ بِبَيْعَةٍ؛ فَقُلْنَا: قَدْ بَايَعْنَاكَ يَا رَسُولَ اللهِ، ثُمَّ قَالَ: «**أَلَا تُبَايِعُونَ رَسُولَ اللهِ؟**» فَقُلْنَا: قَدْ بَايَعْنَاكَ يَا رَسُولَ اللهِ، ثُمَّ قَالَ: «**أَلَا تُبَايِعُونَ رَسُولَ اللهِ؟**»، قَالَ: فَبَسَطْنَا أَيْدِيَنَا وَقُلْنَا: قَدْ بَايَعْنَاكَ يَا رَسُولَ اللهِ، فَعَلَامَ نُبَايِعُكَ؟ قَالَ: «**عَلَى أَنْ تَعْبُدُوا اللهَ وَلَا تُشْرِكُوا بِهِ شَيْئًا، وَالصَّلَوَاتِ الْخَمْسِ، وَتُطِيعُوا** - وَأَسَرَّ كَلِمَةً خَفِيَّةً - **وَلَا تَسْأَلُوا النَّاسَ شَيْئًا**»؛ فَلَقَدْ رَأَيْتُ بَعْضَ أُولَئِكَ النَّفَرِ يَسْقُطُ سَوْطُ أَحَدِهِمْ، فَمَا يَسْأَلُ أَحَدًا يُنَاوِلُهُ إِيَّاهُ.

وَفِي «**الصَّحِيحَيْنِ**» (٥) مِنْ حَدِيثِ ابْنِ عَبَّاسٍ رضي الله عنهما قَالَ: إِنَّ وَفْدَ عَبْدِ

---

(١) «شرح مسلم» للنووي (١/ ١٩٨).

(٢) «فتح الباري» (٣/ ٤٢٠).

(٣) أخرجه مسلمٌ، كتاب الزكاة، باب كراهية المسألة للناس (١٠٤٣).

(٤) هو عوف بن مالك بن أبي عوف الأشجعي، يكنى أبا عبد الرحمن، ويقال: أبو حماد، وقيل: أبو عمرو، وأول مشاهده خيبر، وكانت معه راية أشجع يوم الفتح، وسكن الشام، أسلم عام خيبر، مات سنة ثلاث وسبعين في خلافة عبد الله بن مروان.

● راجع: «الاستيعاب» (١٠٢١)، و«أسد الغابة» (٤١٣١)، و«الإصابة» (٦١٠٥).

(٥) أخرجه البخاريُّ، كتاب الإيمان، باب أداء الخمس من الإيمان (٥٣)، ومسلمٌ، كتاب
=

الْقَيْسِ لَمَّا أَتَوُا النَّبِيَّ ﷺ قَالَ: «مَنِ الْقَوْمُ؟ أَوْ مَنِ الْوَفْدُ؟»، قَالُوا: رَبِيعَةُ قَالَ: «مَرْحَبًا بِالْقَوْمِ - أَوْ بِالْوَفْدِ- غَيْرَ خَزَايَا وَلَا نَدَامَى»، فَقَالُوا: يَا رَسُولَ اللهِ، إِنَّا لَا نَسْتَطِيعُ أَنْ نَأْتِيَكَ إِلَّا فِي الشَّهْرِ الْحَرَامِ، وَبَيْنَنَا وَبَيْنَكَ هَذَا الْحَيُّ مِنْ كُفَّارِ مُضَرَ، فَمُرْنَا بِأَمْرٍ فَصْلٍ، نُخْبِرْ بِهِ مَنْ وَرَاءَنَا، وَنَدْخُلْ بِهِ الْجَنَّةَ، وَسَأَلُوهُ عَنِ الْأَشْرِبَةِ، فَأَمَرَهُمْ بِأَرْبَعٍ، وَنَهَاهُمْ عَنْ أَرْبَعٍ، أَمَرَهُمْ بِالْإِيمَانِ بِاللهِ وَحْدَهُ، قَالَ: «أَتَدْرُونَ مَا الْإِيمَانُ بِاللهِ وَحْدَهُ؟»، قَالُوا: اللهُ وَرَسُولُهُ أَعْلَمُ، قَالَ: «شَهَادَةُ أَلَّا إِلَهَ إِلَّا اللهُ وَأَنَّ مُحَمَّدًا رَسُولُ اللهِ، وَإِقَامُ الصَّلَاةِ، وَإِيتَاءُ الزَّكَاةِ، وَصِيَامُ رَمَضَانَ، وَأَنْ تُعْطُوا مِنَ الْمَغْنَمِ الْخُمُسَ»، وَنَهَاهُمْ عَنْ أَرْبَعٍ: عَنِ الْحَنْتَمِ (١)، وَالدُّبَّاءِ (٢)، وَالنَّقِيرِ (٣)، وَالْمُزَفَّتِ (٤)، وَرُبَّمَا قَالَ: الْمُقَيَّرِ (٥)، وَقَالَ: «احْفَظُوهُنَّ وَأَخْبِرُوا بِهِنَّ مَنْ وَرَاءَكُمْ».

وَكَذَلِكَ: فِي قَوْلِ أُمِّ الْمُؤْمِنِينَ رضي الله عنها؛ كَمَا رَوَى الْبُخَارِيُّ فِي «صَحِيحِهِ» (٦) مِنْ حَدِيثِ: يُوسُفَ بْنِ مَاهَكَ (٧) قَالَ: «إِنِّي عِنْدَ عَائِشَةَ أُمِّ الْمُؤْمِنِينَ رضي الله عنها إِذْ

= الإيمان، باب الأمر بالإيمان بالله تعالى ورسوله (١٧).

(١) الحَنْتَم: الجرَّة. وقيل: الجرار الخضر. وقيل: جرار تُعملُ من طينٍ وشعرٍ ودمٍ. «الفتح» (١/ ١٦٣).

(٢) الدباء: القرع. قال النوويُّ: اليابس منه. المصدر نفسه.

(٣) النقير: أصل النخلة يُنقر فيتخذ منه وعاء. المصدر نفسه.

(٤) ما طُلي بالزفت. المصدر نفسه.

(٥) المقير: ما طُلي بالقار، ويقال له: القير، وهو نبتٌ يُحرق إذا يبس تُطْلَى به السفن وغيرها كما تُطلى بالزفت. المصدر نفسه. انظر أيضًا: «شرح صحيح مسلم» للنووي رحمه الله (١/ ٢١٩، ٢٢٠).

(٦) أخرجه البخاريُّ، كتاب فضائل القرآن، باب تأليف القرآن (٤٩٩٣).

(٧) هو يوسف بن ماهك بن مهران الفارسي المكي مولى قريش؛ قال الحافظ ابن حجر: «والصحيح: أنه غير يوسف بن مهران، روى عن أبي هريرة وعائشة وعبد الله بن عباس رضي الله عنهم» وغيرهم، روى له الجماعة، وثقة ابن معين والنسائيُّ. وقال ابن خراش: =

جَاءَهَا عِرَاقِيٌّ؛ فَقَالَ: أَيُّ الْكَفَنِ خَيْرٌ؟ قَالَتْ: وَيْحَكَ، وَمَا يَضُرُّكَ؟ قَالَ: يَا أُمَّ الْمُؤْمِنِينَ، أَرِينِي مُصْحَفَكِ! قَالَتْ: لِمَ؟ قَالَ: لَعَلِّي أُوَلِّفُ الْقُرْآنَ عَلَيْهِ؛ فَإِنَّهُ يُقْرَأُ غَيْرَ مُؤَلَّفٍ، قَالَتْ: وَمَا يَضُرُّكَ أَيَّهُ قَرَأْتَ قَبْلُ، إِنَّمَا نَزَلَ أَوَّلَ مَا نَزَلَ مِنْهُ سُورَةٌ مِنَ الْمُفَصَّلِ فِيهَا ذِكْرُ الْجَنَّةِ وَالنَّارِ، حَتَّى إِذَا ثَابَ النَّاسُ إِلَى الْإِسْلَامِ نَزَلَ الْحَلَالُ وَالْحَرَامُ، وَلَوْ نَزَلَ أَوَّلَ شَيْءٍ لَا تَشْرَبُوا الْخَمْرَ؛ لَقَالُوا: لَا نَدَعُ الْخَمْرَ أَبَدًا، وَلَوْ نَزَلَ لَا تَزْنُوا؛ لَقَالُوا: لَا نَدَعُ الزِّنَا أَبَدًا».

قَالَ الْحَافِظُ ابْنُ حَجَرٍ - مُعَلِّقًا عَلَى قَوْلِ عَائِشَةَ رضي الله عنها -: «حَتَّى إِذَا ثَابَ النَّاسُ إِلَى الْإِسْلَامِ نَزَلَ الْحَلَالُ وَالْحَرَامُ»: «أَشَارَتْ إِلَى الْحِكْمَةِ الْإِلَهِيَّةِ فِي تَرْتِيبِ التَّنْزِيلِ، وَأَنَّ أَوَّلَ مَا نَزَلَ مِنَ الْقُرْآنِ: الدُّعَاءُ إِلَى التَّوْحِيدِ، وَالتَّبْشِيرُ لِلْمُؤْمِنِ وَالْمُطِيعِ بِالْجَنَّةِ، وَلِلْكَافِرِ وَالْعَاصِي بِالنَّارِ، فَلَمَّا اطْمَأَنَّتِ النُّفُوسُ عَلَى ذَلِكَ أُنْزِلَتِ الْأَحْكَامُ؛ وَلِهَذَا قَالَتْ: «وَلَوْ نَزَلَ أَوَّلَ شَيْءٍ لَا تَشْرَبُوا الْخَمْرَ؛ لَقَالُوا: لَا نَدَعُهَا» وَذَلِكَ لِمَا طُبِعَتْ عَلَيْهِ النُّفُوسُ مِنَ النُّفْرَةِ عَنْ تَرْكِ الْمَأْلُوفِ» انْتَهَى.

وَهَذَا هُوَ مَا فَهِمَهُ الْخَلِيفَةُ الرَّاشِدُ: عُمَرُ بْنُ عَبْدِ الْعَزِيزِ رضي الله عنه [(١)] حِينَ قَالَ لَهُ

=

ثقة عدل، مات سنة ست ومائة، وقيل ثلاث ومائة، وهناك أقوال أخر.

- راجع: «تهذيب التهذيب» (١١/ ٤٢١ و٤٢٢)، و«تقريب التهذيب» (ترجمة رقم: ٧٩٠٧).

(١) هو عمر بن عبد العزيز بن مروان بن الحكم الأمويُّ المدنيُّ، ثم الدمشقيُّ، أمير المؤمنين، والإمام العادل، روى عن أنس، وصلَّى أنسٌ خلفه، وقال: «ما رأيتُ أحدًا أشبه صلاة برسول الله ﷺ من هذا الفتى»؛ قال ابن سعد: «كان ثقةً مأمونًا، له فقه وورع، وروى حديثًا كثيرًا، وكان إمامَ عَدْلٍ، أقام في الخلافة سنتين ونصفًا، ومات يوم الجمعة لعشر بقين من رجب سنة إحدى ومائة، وله أربعون سنة إلا أشهرًا».

- راجع: في ترجمته: «إسعاف المبطأ برجال الموطأ» للسيوطي (ص٢٢) ط المكتبة التجارية الكبرى- مصر سنة ١٣٨٩هـ، و«تهذيب الكمال» للمزي (٢١/ ٤٣١)

=

وَلَدُهُ يَوْمًا: «مَا لَكَ لَا تُنْفِذُ الْأُمُورَ؟ فَوَاللهِ مَا أُبَالِي لَوْ أَنَّ الْقُدُورَ غَلَتْ بِي وَبِكَ فِي الْحَقِّ» قَالَ لَهُ عُمَرُ: «لَا تَعْجَلْ يَا بُنَيَّ؛ فَإِنَّ اللهَ ذَمَّ الْخَمْرَ فِي الْقُرْآنِ مَرَّتَيْنِ، وَحَرَّمَهَا فِي الثَّالِثَةِ، وَإِنِّي أَخَافُ أَنْ أَحْمِلَ الْحَقَّ عَلَى النَّاسِ جُمْلَةً؛ فَيَدْفَعُوهُ جُمْلَةً، وَيَكُونُ مِنْ ذَا فِتْنَةٌ» (١).

فَلَقَدْ ظَلَّ النَّبِيُّ ﷺ يُعَلِّمُ الصَّحَابَةَ ثَلَاثَ عَشْرَةَ سَنَةً يُؤَصِّلُ الْعَقِيدَةَ وَالْإِيمَانَ فِي قُلُوبِهِمْ، ثُمَّ نَزَلَ الْحَلَالُ وَالْحَرَامُ، فَانْتَهَوْا عَنِ الْحَرَامِ، وَعَمِلُوا الْحَلَالَ، وَذَلِكَ نَتِيجَةُ الْعَقِيدَةِ وَالْإِيمَانِ، وَالْقُلُوبِ الْحَيَّةِ الْمُرْهَفَةِ، وَالضَّمَائِرِ الْحَسَّاسَةِ.

فَالْفَتْرَةُ الْمَكِّيَّةُ عَلَى طُولِهَا لَمْ تَكُنِ التَّعَالِيمُ الْقُرْآنِيَّةُ فِيهَا مُتَّجِهَةً إِلَّا لِبِنَاءِ الْعَقِيدَةِ وَتَرْسِيخِهَا، وَلَيْسَ ذَلِكَ إِلَّا لِأَنَّ الْعَقِيدَةَ هِيَ قُوَّةُ الدَّفْعِ لِلْإِنْسَانِ الْمُؤْمِنِ لِطَاعَةِ اللهِ تَعَالَى، فَعِنْدَمَا تَمَكَّنَتِ الْعَقِيدَةُ مِنْ قُلُوبِ الصَّحَابَةِ وَتَأَصَّلَتْ، نَتَجَ عَنْ ذَلِكَ جِيلٌ مِنَ الصَّحْبِ الْكِرَامِ مَا عَرَفَتِ الْبَشَرِيَّةُ لَهُ نَظِيرًا!!

فَبَدَأَتِ الدَّعْوَةُ: بِالْإِيمَانِ ثُمَّ بَعْدَ ذَلِكَ فُرِضَتِ الصَّلَاةُ؛ بَلْ لَمْ تُفْرَضِ الصَّلَاةُ دَفْعَةً وَاحِدَةً؛ فَأَوَّلُ مَا شُرِعَتْ كَانَتْ رَكْعَتَيْنِ رَكْعَتَيْنِ؛ كَمَا فِي **الْبُخَارِيِّ وَمُسْلِمٍ** (٢) مِنْ حَدِيثِ عَائِشَةَ رضي الله عنها قَالَتْ: «فَرَضَ اللهُ الصَّلَاةَ حِينَ فَرَضَهَا رَكْعَتَيْنِ رَكْعَتَيْنِ فِي الْحَضَرِ وَالسَّفَرِ، فَأُقِرَّتْ صَلَاةُ السَّفَرِ، وَزِيدَ فِي صَلَاةِ الْحَضَرِ».

وَهَكَذَا الْأَمْرُ فِي الصِّيَامِ وَالزَّكَاةِ وَالْجِهَادِ وَالْحَجِّ، وَكَذَلِكَ كَانَ الشَّأْنُ فِي التَّحْرِيمِ؛ زَجَرَهُمْ عَنِ الْكَبَائِرِ، ثُمَّ نَهَاهُمْ عَنِ الصَّغَائِرِ، وَتَدَرَّجَ بِهِمْ فِي تَحْرِيمِ مَا

=

ط الرسالة، و«تاريخ دمشق» لابن عساكر (٤٥/ ١٢٦)، ولابن الجوزيِّ ترجمةٌ موسعةٌ له في كتابٍ مفردٍ، و«سير أعلام النبلاء» (٨٠٠).

(١) انظر: «الموافقات» للشاطبي (٢/ ١٤٨) ط ابن عفان.

(٢) أخرجه البخاريُّ، كتاب الصلاة، باب كيف فرضت الصلاة في الإسراء؟ (٣٥٠)، ومسلمٌ، كتاب صلاة المسافرين وقصرها، باب صلاة المسافرين وقصرها (٦٨٥).

كَانَ مُسْتَأْصَلًا فِيهِمْ - كَالْخَمْرِ - تَدَرُّجًا حَكِيمًا حَقَّقَ الْغَايَةَ.

فَفِي «مُسْنَدِ» أَحْمَدَ، «وَسُنَنِ» أَبِي دَاوُدَ وَالتِّرْمِذِيِّ وَالنَّسَائِيِّ، وَ«مُسْتَدْرَكِ» الْحَاكِمِ وَصَحَّحَهُ ابْنُ الْمَدِينِيِّ (١) وَغَيْرُهُ عَنْ عُمَرَ بْنِ الْخَطَّابِ ﷺ: «لَمَّا نَزَلَ تَحْرِيمُ الْخَمْرِ قَالَ عُمَرُ: اللهمَّ بَيِّنْ لَنَا فِي الْخَمْرِ بَيَانًا شِفَاءً؛ فَنَزَلَتِ الْآيَةُ الَّتِي فِي الْبَقَرَةِ: ﴿يَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلْخَمْرِ وَٱلْمَيْسِرِ قُلْ فِيهِمَآ إِثْمٌ كَبِيرٌ﴾ [البقرة:٢١٩] الْآيَةَ، قَالَ: فَدُعِيَ عُمَرُ؛ فَقُرِئَتْ عَلَيْهِ، قَالَ: اللهمَّ بَيِّنْ لَنَا فِي الْخَمْرِ بَيَانًا شِفَاءً؛ فَنَزَلَتِ الْآيَةُ الَّتِي فِي النِّسَاءِ: ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَا تَقْرَبُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ وَأَنتُمْ سُكَـٰرَىٰ﴾ [النساء:٤٣]؛ فَكَانَ مُنَادِي رَسُولِ الله ﷺ إِذَا أُقِيمَتِ الصَّلَاةُ يُنَادِي: أَلَا لَا يَقْرَبَنَّ الصَّلَاةَ سَكْرَانُ؛ فَدُعِيَ عُمَرُ، فَقُرِئَتْ عَلَيْهِ؛ فَقَالَ: اللهمَّ بَيِّنْ لَنَا فِي الْخَمْرِ بَيَانًا شِفَاءً؛ فَنَزَلَتْ هَذِهِ الْآيَةُ: ﴿فَهَلْ أَنتُم مُّنتَهُونَ﴾ [المائدة:٩١]؛ قَالَ عُمَرُ: انْتَهَيْنَا»(٢).

وَكَانَ الْإِسْلَامُ فِي انْتِهَاجِ هَذِهِ الْخُطَّةِ الْمُثْلَى أَبْعَدَ نَظَرًا، وَأَهْدَى سَبِيلًا، وَأَعْظَمَ تَشْرِيعًا، وَأَنْجَحَ سِيَاسَةً مِنْ تِلْكُمُ الْأُمَمِ الْمُتَحَضِّرَةِ الَّتِي أَفْلَسَتْ فِي

---

(١) هو أبو الحسن علي بن عبد الله بن جعفر بن نجيح السعدي مولاهم، المعروف بابن المديني، الإمام، الحجة، أمير المؤمنين في الحديث، صنف وجمع، وساد الحفاظ في معرفة العلل، روى البخاريُّ عنه وغيره، ولد سنة إحدى وستين ومائة. قال فيه أبو حاتم الرازي: «كان ابن المديني علمًا في الناس في معرفة الحديث والعلل»؛ توفي في ذي العقدة سنة أربع وثلاثين ومائتين.
● راجع: «السير» (ترجمة رقم: ١٩٥٠)، و«تهذيب التهذيب» (٧/ ٣٤٩).

(٢) أخرجه أحمد (١/ ٥٣)، وأبو داود، كتاب الأشربة، باب تحريم الخمر (٣٦٧٠)، والترمذيُّ، كتاب تفسير القرآن، باب ومن سورة المائدة (٣٠٤٩) وقال: «حديث حسن صحيح»، والنسائيُّ، كتاب الأشربة، باب تحريم الخمر (٨/ ٢٨٦)، والحاكم (٤/ ١٤٣)، وصحَّحَه، ووافقه الذهبيُّ؛ بل صححه علي بن المديني؛ كما في «الفتح» (٨/ ١٢٩)، وصحَّحَه الألبانيُّ في «صحيح سنن الترمذي».

تَحْرِيمِ الْخَمْرِ عَلَى شُعُوبِهَا أَفْظَعَ إِفْلَاسٍ، وَفَشِلَتْ نِهَايَةَ الْفَشَلِ، وَمَا عَهْدُ أَمْرِيكَا فِي مَهْزَلَةِ تَحْرِيمِ الْخَمْرِ بِبَعِيدٍ، وَهِيَ الْأُمَّةُ الَّتِي يُشَارُ إِلَيْهَا الْآنَ بِالْبَنَانِ؛ فَهِيَ مَا زَالَتْ إِلَى يَوْمِنَا هَذَا عَاجِزَةً عَنْ تَحْرِيمِ الْخَمْرِ!! فَلَقَدِ اسْتَطَاعَ الْإِسْلَامُ بِأَوَامِرِهِ وَنَوَاهِيهِ وَحُدُودِهِ أَنْ يُحَرِّمَ الْخَمْرَ عَلَى أُنَاسٍ كَانَتِ الْخَمْرُ بِالنِّسْبَةِ إِلَيْهِمْ مَاءً لَا يُسْتَغْنَى عَنْ شَرَابِهِ فِي لَحْظَةٍ مِنْ لَيْلٍ أَوْ نَهَارٍ!! لِنَعْلَمَ يَقِينًا أَنَّ هَذَا الْقُرْآنَ مِنْ عِنْدِ اللهِ الَّذِي خَلَقَ النَّفْسَ، وَيَعْلَمُ دُرُوبَهَا وَمَدَاخِلَهَا؛ قَالَ سُبْحَانَهُ: ﴿أَلَا يَعْلَمُ مَنْ خَلَقَ وَهُوَ اللَّطِيفُ الْخَبِيرُ﴾ [الملك:١٤].

وَقَالَ: ﴿قُلْ أَنزَلَهُ الَّذِي يَعْلَمُ السِّرَّ فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾ [الفرقان:٦].

فَلَابُدَّ إِذًا مِنْ تَغْيِيرِ النُّفُوسِ شَيْئًا فَشَيْئًا، وَتَهْيِئَةِ النُّفُوسِ التَّائِهَةِ؛ لِتَقَبُّلِ الْحَقِّ، كَمَا يُهَيَّأُ الطِّفْلُ لِلْفِطَامِ بَعْدَ الرَّضَاعَةِ.

وَمِمَّا يَدُلُّ عَلَى ذَلِكَ أَيْضًا؛ **مَا أَخْرَجَهُ الْبُخَارِيُّ وَمُسْلِمٌ** (١) مِنْ حَدِيثِ عَائِشَةَ رضي الله عنها زَوْجِ النَّبِيِّ ﷺ أَنَّ رَسُولَ اللهِ ﷺ قَالَ لَهَا: «**أَلَمْ تَرَيْ أَنَّ قَوْمَكِ لَمَّا بَنَوُا الْكَعْبَةَ اقْتَصَرُوا عَنْ قَوَاعِدِ إِبْرَاهِيمَ؟**»؛ فَقُلْتُ: يَا رَسُولَ اللهِ، أَلَا تَرُدُّهَا عَلَى قَوَاعِدِ إِبْرَاهِيمَ. قَالَ: «**لَوْلَا حِدْثَانُ قَوْمِكِ بِالْكُفْرِ لَفَعَلْتُ**».

وَفِي رِوَايَةٍ (٢): «**يَا عَائِشَةُ لَوْلَا قَوْمُكِ حَدِيثٌ عَهْدُهُمْ - قَالَ ابْنُ الزُّبَيْرِ: بِكُفْرٍ لَنَقَضْتُ الْكَعْبَةَ، فَجَعَلْتُ لَهَا بَابَيْنِ: بَابٌ يَدْخُلُ النَّاسُ، وَبَابٌ يَخْرُجُونَ**» فَفَعَلَهُ ابْنُ الزُّبَيْرِ (٣).

---

(١) أخرجه البخاريُّ، كتاب الحج، باب فضل مكة وبنيانها (١٥٨٣)، ومسلمٌ، كتاب الحج، باب نقض الكعبة وبنائها (١٣٣٣) (٣٩٩).

(٢) عند البخاريِّ، كتاب العلم، باب من ترك بعض الاختيار مخافة أن يقصر فهم بعض الناس عنه، فيقعوا في أشد منه (١٢٦)، وانظر: «صحيح مسلم» (١٣٣٣/ ٤٠٢).

(٣) يعني: بنى الكعبة على ما أراد النبيُّ ﷺ. «الفتح» (١/ ٢٧١)؛ وراجع: قصة تغيير الحجاج لما صنعه ابن الزبير في «صحيح مسلم» (١٣٣٣/ ٤٠٢)؛ وراجع: «الفتح»
=

قَالَ الْإِمَامُ النَّوَوِيُّ رحمه الله (١): «وَفِي هَذَا الْحَدِيثِ دَلِيلٌ لِقَوَاعِدَ مِنَ الْأَحْكَامِ مِنْهَا: إِذَا تَعَارَضَتِ الْمَصَالِحِ أَوْ تَعَارَضَتْ مَصْلَحَةٌ وَمَفْسَدَةٌ، وَتَعَذَّرَ الْجَمْعُ بَيْنَ فِعْلِ الْمَصْلَحَةِ وَتَرْكِ الْمَفْسَدَةِ بُدِئَ بِالْأَهَمِّ؛ لِأَنَّ النَّبِيَّ ﷺ أَخْبَرَ أَنَّ نَقْضَ الْكَعْبَةِ وَرَدَّهَا إِلَى مَا كَانَتْ عَلَيْهِ مِنْ قَوَاعِدِ إِبْرَاهِيمَ ﷺ مَصْلَحَةٌ، وَلَكِنْ تُعَارِضُهُ مَفْسَدَةٌ أَعْظَمَ مِنْهُ، وَهِيَ خَوْفُ فِتْنَةِ بَعْضِ مَنْ أَسْلَمَ قَرِيبًا؛ وَذَلِكَ لِمَا كَانُوا يَعْتَقِدُونَهُ مِنْ فَضْلِ الْكَعْبَةِ، فَيَرَوْنَ تَغْيِيرَهَا عَظِيمًا، فَتَرَكَهَا ﷺ. وَمِنْهَا - أَيْ: مِنَ الْقَوَاعِدِ -: فِكْرُ وَلِيِّ الْأَمْرِ فِي مَصَالِحِ رَعِيَّتِهِ، وَاجْتِنَابُهُ مَا يَخَافُ مِنْهُ تَوَلُّدُ ضَرَرٍ عَلَيْهِمْ فِي دِينٍ أَوْ دُنْيَا لَا الْأُمُورِ الشَّرْعِيَّةِ كَأَخْذِ الزَّكَاةِ وَإِقَامَةِ الْحُدُودِ وَنَحْوِ ذَلِكَ. وَمِنْهَا: تَأَلُّفُ قُلُوبِ الرَّعِيَّةِ وَحُسْنُ حِيَاطَتِهِمْ، وَأَلَّا يُنَفَّرُوا وَلَا يَتَعَرَّضَ لِمَا يَخَافُ تَنْفِيرَهُمْ بِسَبَبِهِ مَا لَمْ يَكُنْ فِيهِ تَرْكُ أَمْرٍ شَرْعِيٍّ كَمَا سَبَقَ».

وَيَقُولُ ابْنُ الْقَيِّمِ رحمه الله (٢): «فَإِنَّ الشَّرِيعَةَ مَبْنَاهَا وَأَسَاسَهَا عَلَى الْحِكَمِ وَمَصَالِحِ الْعِبَادِ فِي الْمَعَاشِ وَالْمَعَادِ.. إِلَى أَنْ قَالَ: وَمِنْ ذَلِكَ: أَنَّ النَّبِيَّ ﷺ شَرَعَ لِأُمَّتِهِ إِيجَابَ إِنْكَارِ الْمُنْكَرِ؛ لِيَحْصُلَ بِإِنْكَارِهِ مِنَ الْمَعْرُوفِ مَا يُحِبُّهُ اللهُ وَرَسُولُهُ، فَإِذَا كَانَ إِنْكَارُ الْمُنْكَرِ يَسْتَلْزِمُ مَا هُوَ أَنْكَرُ مِنْهُ وَأَبْغَضُ إِلَى اللهِ وَرَسُولِهِ، فَإِنَّهُ لَا يَسُوغُ إِنْكَارُهُ، وَمَنْ تَأَمَّلَ مَا جَرَى عَلَى الْإِسْلَامِ فِي الْفِتَنِ الْكِبَارِ وَالصِّغَارِ رَآهَا مِنْ إِضَاعَةِ هَذَا الْأَصْلِ، فَقَدْ كَانَ رَسُولُ اللهِ ﷺ يَرَى بِمَكَّةَ أَكْبَرَ الْمُنْكَرَاتِ وَلَا يَسْتَطِيعُ تَغْيِيرَهَا؛ بَلْ لَمَّا فَتَحَ اللهُ مَكَّةَ، وَصَارَتْ دَارَ الْإِسْلَامِ؛ عَزَمَ عَلَى تَغْيِيرِ الْبَيْتِ وَرَدِّهِ عَلَى قَوَاعِدِ إِبْرَاهِيمَ، وَمَنَعَهُ مِنْ ذَلِكَ - مَعَ قُدْرَتِهِ عَلَيْهِ - خَشْيَةُ وُقُوعِ مَا هُوَ أَعْظَمُ مِنْهُ مِنْ عَدَمِ احْتِمَالِ قُرَيْشٍ بِذَلِكَ؛ لِقُرْبِ عَهْدِهِمْ بِالْإِسْلَامِ وَكَوْنِهِمْ حَدِيثِي عَهْدٍ بِكُفْرٍ» ا. هـ.

=

(٣/ ٥٢٢).

(١) «مسلم بشرح النووي» (٩/ ٨٩).

(٢) «إعلام الموقعين» (٣/ ٥، ٦) بتصرفٍ يسيرٍ.

فَالتَّدَرُّجُ مُقَوِّمٌ كَبِيرٌ مِنَ الْمُقَوِّمَاتِ الَّتِي يَنْبَغِي لِلدَّاعِي إِلَى اللهِ عَلَى بَصِيرَةٍ أَنْ يَكُونَ مُلِمًّا بِهِ، مُسْتَوْعِبًا لَهُ، مُطَبِّقًا لَهُ عَلَى أَرْضِ الْوَاقِعِ حَتَّى لَا يُقَدِّمَ مَا حَقُّهُ التَّأْخِيرُ، وَلَا يُؤَخِّرَ مَا حَقُّهُ التَّقْدِيمُ، وَلَا يُهَوِّنَ مِنْ شَأْنِ الْكَبِيرِ، وَلَا يُضَخِّمَ مِنْ شَأْنِ الصَّغِيرِ، وَلَا يُعَادِي مِنْ أَجْلِ مَسْأَلَةٍ خِلَافِيَّةٍ مِنْ مَسَائِلِ الْأَحْكَامِ، وَيَتْرُكَ الْمُتَّفَقَ عَلَيْهِ.

وَالْأَمْرُ يَحْتَاجُ بَعْدَ فَضْلِ اللهِ وَتَوْفِيقِهِ إِلَى فَهْمٍ دَقِيقٍ، وَوَعْيٍ عَمِيقٍ بِسِيرَةِ النَّبِيِّ ﷺ وَمَنْهَجِهِ الدَّعَوِيِّ؛ لِيَتَمَكَّنَ الدَّاعِي إِلَى اللهِ مِنَ الْجَمْعِ بَيْنَ التَّأْصِيلِ الْعِلْمِيِّ، وَالتَّطْبِيقِ الْعَمَلِيِّ.

❀◊❀

المَبْحَثُ العَاشِرُ
التَّمَيُّزُ والمُفَاصَلَةُ

لَقَدْ حَاوَلَ أَعْدَاءُ الْإِسْلَامِ تَشْوِيهَ الصُّورَةِ الْمُشْرِقَةِ لَهُ؛ لِيَلْتَبِسَ عَلَى الْأُمَّةِ أَمْرُ دِينِهَا، وَلِيُصْبِحَ الدِّينُ الْوَاحِدُ بِعَقِيدَتِهِ وَعِبَادَتِهِ وَشَرِيعَتِهِ وَأَخْلَاقِهِ وَمَنْهَجِهِ اسْمًا مُتَعَدِّدًا بِتَعَدُّدِ أَلْوَانِ مُؤَامَرَةِ الِالْتِبَاسِ وَالْخِدَاعِ وَالتَّزْيِيفِ؛ لِصَدِّ الْأُمَّةِ عَنْ دِينِ الله.

وَيَعْرِفُ أَعْدَاءُ الدِّينِ خُطُورَةَ هَذِهِ الثَّغْرَةِ، فَيَعْكُفُونَ عَلَيْهَا تَوْسِيعًا وَتَمْيِيعًا وَتَخْلِيطًا لِسَبِيلِ الْمُؤْمِنِينَ وَسَبِيلِ الْمُجْرِمِينَ لِحَدٍّ أَصْبَحَ فِيهِ الْجَهْرُ بِاسْتِبَانَةِ سَبِيلِ الْمُجْرِمِينَ تُهْمَةً يُؤْخَذُ عَلَيْهَا بِالنَّوَاصِي وَالْأَقْدَامِ، وَمِنْ هُنَا فَإِنَّ الرِّحْلَةَ الطَّوِيلَةَ لِدَعْوَةِ الْحَقِّ، وَإِزْهَاقِ الْبَاطِلِ؛ لِإِعَادَةِ الْإِسْلَامِ إِلَى أَرْجَاءِ الْأَرْضِ تَبْدَأُ مِنْ هُنَا: مِنْ إِسْقَاطِ اللَّافِتَاتِ الْكَاذِبَةِ لَافِتَاتِ الضِّرَارِ، وَفَضْحِ الشِّعَارَاتِ الْمُضَلِّلَةِ، وَتَمْزِيقِ خُيُوطِ الْعَنْكَبُوتِ، وَأَوْرَاقِ التُّوتِ الَّتِي طَالَمَا وَارَى بِهَا أَعْدَاءُ الْإِسْلَامِ سَوْآتِهِمُ الْمُغَلَّظَةَ، وَتَخَفَّوْا خَلْفَهَا؛ لِيُلَبِّسُوا عَلَى عَامَّةِ الْمُسْلِمِينَ أَمْرَ دِينِهِمْ وَعَقِيدَتِهِمْ؛ لِتَخْرُجَ الْأُمَّةُ مِنْ حَالَةِ الْغَبَشِ الْعَقَدِيِّ وَالتَّعَبُّدِيِّ وَالْفِكْرِيِّ وَالْأَخْلَاقِيِّ الَّتِي تَحْيَاهَا الْآنَ؛ لِتَتَمَايَزَ الْأُمَّةُ - لِزَامًا - إِلَى فَرِيقَيْنِ: فَرِيقِ إِيمَانٍ لَا نِفَاقَ فِيهِ، وَفَرِيقِ نِفَاقٍ لَا إِيمَانَ فِيهِ!!

قَالَ: ﴿فَمَن يَكْفُرْ بِٱلطَّٰغُوتِ وَيُؤْمِنۢ بِٱللَّهِ فَقَدِ ٱسْتَمْسَكَ بِٱلْعُرْوَةِ ٱلْوُثْقَىٰ لَا ٱنفِصَامَ لَهَا ۗ وَٱللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ﴾ [البقرة:٢٥٦].

وَقَالَ: ﴿ذَٰلِكَ بِأَنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلْحَقُّ وَأَنَّ مَا يَدْعُونَ مِن دُونِهِۦ هُوَ ٱلْبَٰطِلُ وَأَنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلْعَلِيُّ ٱلْكَبِيرُ﴾ [الحج:٦٢].

وَأَعْجَبُ كَثِيرًا لِغِيَابِ هَذَا التَّأْصِيلِ الْعِلْمِيِّ وَالْعَمَلِيِّ الْمُهِمِّ، وَبَيْنَ أَيْدِينَا

سِيرَةُ وَمَنْهَجُ سَيِّدِ الدُّعَاةِ ﷺ الَّذِي قَدَّمَ لِلأُمَّةِ هَذَا الْمَنْهَجَ بِجَلَاءٍ وَوُضُوحٍ كَالشَّمْسِ فِي ضُحَاهَا، وَالنَّهَارِ إِذَا جَلَّاهَا. حَتَّى فِي أَحْلَكِ الْأَوْقَاتِ، وَأَشَدِّ الْأَزَمَاتِ، فِي وَقْتٍ كَانَتْ فِيهِ رَحَى الصِّرَاعِ دَائِرَةً عَلَى أَشُدِّهَا بَيْنَ رَسُولِ اللهِ ﷺ وَبَيْنَ أَعْدَائِهِ فِي مَكَّةَ، حَيْثُ جَاءُوا إِلَيْهِ؛ لِيَعْرِضُوا عَلَيْهِ بِلُغَةِ الْعَصْرِ صَفْقَةً يُهَرْوِلُ لَهَا السَّاسَةُ وَالْكُبَرَاءُ!!

رَوَى ابْنُ أَبِي شَيْبَةَ فِي «الْمُصَنَّفِ»، وَمِنْ طَرِيقِهِ عَبْدُ بْنُ حُمَيْدٍ فِي «الْمُنْتَخَبِ»، وَأَبُو يَعْلَى فِي «مُسْنَدِهِ»، وَأَبُو نُعَيْمٍ (١) **فِي «الدَّلَائِلِ»، وَابْنُ عَسَاكِرَ فِي «تَارِيخِهِ»، وَالْبَغَوِيُّ فِي «تَفْسِيرِهِ»**(٢) مِنْ حَدِيثِ جَابِرِ بْنِ عَبْدِ اللهِ رضي الله عنهما قَالَ: اجْتَمَعَتْ قُرَيْشٌ لِلنَّبِيِّ ﷺ يَوْمًا؛ فَقَالُوا: انْظُرُوا أَعْلَمَكُمْ بِالسِّحْرِ وَالْكَهَانَةِ، وَالشِّعْرِ، فَلْيَأْتِ هَذَا الرَّجُلَ الَّذِي قَدْ فَرَّقَ جَمَاعَتَنَا، وَشَتَّتَ أَمْرَنَا، وَعَابَ دِينَنَا، فَلْيُكَلِّمْهُ وَلْيَنْظُرْ مَا يَرُدُّ عَلَيْهِ، قَالُوا: مَا نَعْلَمُ أَحَدًا غَيْرَ عُتْبَةَ بْنِ رَبِيعَةَ، قَالُوا: أَنْتَ يَا أَبَا الْوَلِيدِ، فَأَتَاهُ عُتْبَةُ؛ فَقَالَ: يَا مُحَمَّدُ، أَنْتَ خَيْرٌ أَمْ عَبْدُ اللهِ؟ فَسَكَتَ رَسُولُ اللهِ ﷺ، ثُمَّ قَالَ: أَنْتَ خَيْرٌ أَمْ عَبْدُ الْمُطَّلِبِ؟ فَسَكَتَ رَسُولُ اللهِ ﷺ، قَالَ: فَإِنْ كُنْتَ

---

(١) هو أحمد بن عبد الله بن أحمد بن إسحاق بن موسى بن مهران، الإمام الحافظ الثقة، أبو نعيم المهرانيُّ، الأصبهانيُّ، الصوفيُّ، الجامعُ بين الفقه والتصوف والنهاية في الحفظ والضبط، ولد في رجب سنة ست وثلاثمائة بأصبهان، وهو أحد الأعلام الذين جمع الله لهم بين العلو في الرواية والنهاية في الدراية، وهو صاحب كتاب «حلية الأولياء»، و«دلائل النبوة»، مات في العشرين من المحرم سنة ثلاثين وأربع مائة، وله أربع وتسعون سنة رحمه الله.

- راجع: ترجمته في «السير» (ترجمة رقم: ٤١٩٤)، و«تذكرة الحفاظ» (٣/ ١٠٩٢)، و«طبقات الشافعية» للسبكي (٤/ ١٨)، وابن قاضي شهبة كذلك في «طبقاته» (١/ ٢٠٢).

(٢) أخرجه عبد بن حميد في «المنتخب» (١١٢٣)، وابن أبي شيبة في «مصنفه» (٣٦٥٦٠)، وابن عساكر في «تاريخه» (٢٤٢، ٣٨/ ٢٤٣)، وأبو نعيم في «الدلائل» (٢٥٨) ط طيبة، وله شواهد عن ابن عمر رضي الله عنهما؛ عند البيهقيِّ في «الدلائل» (٢/ ٢٠٥، ٢٠٦)، والحديث صحَّحه الألبانيُّ في «صحيح السيرة» (١٥٩- ١٦).

تَزْعُمُ أَنَّ هَؤُلاءِ خَيْرٌ مِنْكَ فَقَدْ عَبَدُوا الْآلِهَةَ الَّتِي عِبْتَ، وَإِنْ كُنْتَ تَزْعُمُ أَنَّكَ خَيْرٌ مِنْهُمْ فَتَكَلَّمْ حَتَّى نَسْمَعَ قَوْلَكَ، إِنَّا وَاللهِ مَا رَأَيْنَا سَخْلَةً قَطُّ أَشْأَمَ عَلَى قَوْمِكَ مِنْكَ، فَرَّقْتَ جَمَاعَتَنَا، وَشَتَّتَ أَمْرَنَا، وَعِبْتَ دِينَنَا، فَفَضَحْتَنَا فِي الْعَرَبِ، حَتَّى لَقَدْ طَارَ فِيهِمْ أَنَّ فِي قُرَيْشٍ سَاحِرًا، وَأَنَّ فِي قُرَيْشٍ كَاهِنًا، وَاللهِ مَا نَنْتَظِرُ إِلا مِثْلَ صَيْحَةِ الْحُبْلَى بِأَنْ يَقُومَ بَعْضُنَا إِلَى بَعْضٍ بِالسُّيُوفِ حَتَّى نَتَفَانَى أَيُّهَا الرَّجُلُ، إِنْ كَانَ إِنَّمَا بِكَ الْحَاجَةُ جَمَعْنَا حَتَّى تَكُونَ أَغْنَى قُرَيْشٍ رَجُلاً، وَإِنْ كَانَ إِنَّمَا بِكَ الْبَاءَةُ فَاخْتَرْ أَيَّ نِسَاءِ قُرَيْشٍ شِئْتَ فَنُزَوِّجُكَ عَشْرًا، قَالَ لَهُ رَسُولُ اللهِ ﷺ: «أَفَرَغْتَ؟» قَالَ: نَعَمْ، قَالَ: فَقَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: «﴿حمٓ ۞ تَنزِيلٌ مِّنَ ٱلرَّحۡمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ﴾، حَتَّى بَلَغَ: ﴿فَإِنۡ أَعۡرَضُواْ فَقُلۡ أَنذَرۡتُكُمۡ صَٰعِقَةً مِّثۡلَ صَٰعِقَةِ عَادٍ وَثَمُودَ﴾ [فصلت:١-١٣]؛ فَقَالَ عُتْبَةُ: حَسْبُكَ حَسْبُكَ، مَا عِنْدَكَ غَيْرُ هَذَا؟ قَالَ: لَا، فَرَجَعَ إِلَى قُرَيْشٍ، فَقَالُوا: مَا وَرَاءَكَ؟ قَالَ: مَا تَرَكْتُ شَيْئًا أَرَى أَنَّكُمْ تُكَلِّمُونَهُ بِهِ إِلَّا كَلَّمْتُهُ، قَالُوا: هَلْ أَجَابَكَ؟ قَالَ: نَعَمْ، وَالَّذِي نَصَبَهَا بَنِيَّةً، مَا فَهِمْتُ شَيْئًا مِمَّا قَالَ غَيْرَ أَنَّهُ قَالَ: ﴿أَنذَرۡتُكُمۡ صَٰعِقَةً مِّثۡلَ صَٰعِقَةِ عَادٍ وَثَمُودَ﴾، قَالُوا: وَيْلَكَ يُكَلِّمُكَ رَجُلٌ بِالْعَرَبِيَّةِ لا تَدْرِي مَا قَالَ؟ قَالَ: لَا، وَاللهِ مَا فَهِمْتُ شَيْئًا مِمَّا قَالَ غَيْرَ ذِكْرِ الصَّاعِقَةِ».

وَلَقَدْ جَاءَ النَّهْيُ الصَّرِيحُ الْوَاضِحُ فِي ذَلِكَ لِلنَّبِيِّ ﷺ؛ فَقَالَ لَهُ رَبُّهُ: ﴿وَدُّواْ لَوۡ تُدۡهِنُ فَيُدۡهِنُونَ ۞ وَلَا تُطِعۡ كُلَّ حَلَّافٍ مَّهِينٍ ۞ هَمَّازٍ مَّشَّآءِۭ بِنَمِيمٍ ۞ مَّنَّاعٍ لِّلۡخَيۡرِ مُعۡتَدٍ أَثِيمٍ ۞ عُتُلِّۭ بَعۡدَ ذَٰلِكَ زَنِيمٍ ۞ أَن كَانَ ذَا مَالٍ وَبَنِينَ ۞ إِذَا تُتۡلَىٰ عَلَيۡهِ ءَايَٰتُنَا قَالَ أَسَٰطِيرُ ٱلۡأَوَّلِينَ ۞ سَنَسِمُهُۥ عَلَى ٱلۡخُرۡطُومِ﴾ [القلم:٩-١٦].

وَقَالَ تَعَالَى: ﴿وَلَا تُطِعۡ مَنۡ أَغۡفَلۡنَا قَلۡبَهُۥ عَن ذِكۡرِنَا وَٱتَّبَعَ هَوَىٰهُ وَكَانَ أَمۡرُهُۥ فُرُطًا﴾ [الكهف:٢٨]؛ أَيْ: ضَيَاعًا وَهَلاكًا؛ فَالْغَفْلَةُ تُؤَدِّي إِلَى اتِّبَاعِ الْهَوَى!! وَقَالَ تَعَالَى لَهُ: ﴿فَلَا تُطِعِ ٱلۡكَٰفِرِينَ وَجَٰهِدۡهُم بِهِۦ جِهَادًا كَبِيرًا﴾ [الفرقان:٥٢].

قَالَ الرَّازِيُّ (١) فِي «مَفَاتِيحِ الْغَيْبِ» (٢): «قَوْلُهُ: ﴿فَلَا تُطِعِ ٱلْكَٰفِرِينَ﴾ فَالْمُرَادُ: نَهْيُهُ عَنْ طَاعَتِهِمْ، وَدَلَّتْ هَذِهِ الْآيَةُ عَلَى أَنَّ النَّهْيَ عَنِ الشَّيْءِ لَا يَقْتَضِي كَوْنَ الْمَنْهِيِّ عَنْهُ مُشْتَغَلًا بِهِ».

قَالَ صَاحِبُ «الْبَحْرِ الْمَدِيدِ فِي تَفْسِيرِ الْقُرْآنِ الْمَجِيدِ» (٣): «﴿فَلَا تُطِعِ ٱلْكَٰفِرِينَ﴾ فِيمَا يَدْعُونَكَ إِلَيْهِ مِنْ مُوَافَقَتِهِمْ وَمُدَاهَنَتِهِمْ، وَكَمَا آثَرْتُكَ عَلَى جَمِيعِ الْأَنْبِيَاءِ فَآثِرْ رِضَايَ عَلَى جَمِيعِ الْأَهْوَاءِ، وَكَأَنَّهُ نَهْيٌ لِلرَّسُولِ ﷺ عَنِ الْمُدَارَاةِ مَعَهُمْ، وَالتَّقْصِيرِ فِي الدَّعْوَةِ؛ لِئَلَّا تَغْلِبَهُ الشَّفَقَةُ عَنْ مُقَابَلَتِهِمْ لِصَرِيحِ الْحَقِّ، فَكُنْ قَائِمًا بِحَقِّنَا مِنْ غَيْرِ أَنْ يَكُونَ مِنْكَ جُنُوحٌ إِلَى غَيْرِنَا، أَوْ مُبَالَاةٌ بِسِوَانَا!!».

وَهَذَا فِيهِ تَهْيِيجٌ لَهُ ﷺ، وَلِلْمُؤْمِنِينَ بِالثَّبَاتِ وَالِاجْتِهَادِ فِي الدَّعْوَةِ، وَإِظْهَارِ

---

(١) هو العلامة الكبير، ذو الفنون، فخر الدين، محمد بن عمر بن الحسين القرشيُّ، البكريُّ الطبرستانيُّ، الأصوليُّ، المفسر، كبير الأذكياء والحكماء والمصنفين، أبو المعالي وأبو عبد الله المعروف بالفخر الرازيِّ، ولد سنة أربع وأربعين وخمس مائة، ومات بهراة يوم عيد الفطر سنة ست وستمائة، وله بضع وستون سنة، ورجع عن الطرق الكلامية قبل وفاته، وحذَّر منها.

- انظر: «سير أعلام النبلاء» (٥٦٩٥)، و«البداية والنهاية» (١٣/ ٤٨-٤٩)، و«وفيات الأعيان» (٤/ ٢٤٨).

(٢) وهو «التفسير الكبير» (٢٤/ ٩٤) ط التوفيقية.

(٣) (٥/ ١٤٥) ط التوفيقية.

- وراجع: «تفسير الطبري» في الآية (١٩/ ٢٣) ط الفكر، وصاحب «البحر المديد» هو أحمد بن محمد بن المهدي بن عجيبة الحسني الانجري؛ مفسر صوفي، من أهل المغرب، دفن ببلدة أنجرة (بين طنجة وتطوان) له كتب كثيرة، ومنها: «شرح المقدمة الآجرومية»؛ توفي سنة ١٢٢٤هـ.
- راجع: ترجمته في «الأعلام» (١/ ٢٤٥).

الْحَقِّ(١)، وَلَا يَخْشَوْا فِي الله لَوْمَةَ لَائِمٍ.

قَالَ الْعَلَّامَةُ السَّعْدِيُّ(٢): «قَوْلُهُ: ﴿وَجَٰهِدْهُم بِهِۦ﴾؛ أَيْ: بِالْقُرْآنِ. ﴿جِهَادًا كَبِيرًا﴾؛ أَيْ: لَا تُبْقِ مِنْ مَجْهُودِكَ فِي نَصْرِ الْحَقِّ، وَقَمْعِ الْبَاطِلِ، إِلَّا بَذَلْتَهُ، وَلَوْ رَأَيْتَ مِنْهُمْ مِنَ التَّكْذِيبِ وَالْجَرَاءَةِ مَا رَأَيْتَ، فَابْذُلْ جُهْدَكَ، وَاسْتَفْرِغْ وُسْعَكَ، وَلَا تَيْأَسْ مِنْ هِدَايَتِهِمْ، وَلَا تَتْرُكْ إِبْلَاغَهُمْ لِأَهْوَائِهِمْ»؛ قَالَ: ﴿فَٱصْدَعْ بِمَا تُؤْمَرُ وَأَعْرِضْ عَنِ ٱلْمُشْرِكِينَ﴾ [الحجر:٩٤]؛ فَاصْدَعْ بِدَعْوَةِ الْحَقِّ، وَلَا تَتَهَاوَنْ فِي ثَوَابِتِكَ، وَلَا تَتَنَازَلْ عَنْ أُصُولِ هَذَا الدِّينِ الْعَظِيمِ.

لِذَا؛ قَالَ أَيْضًا لِسَيِّدِ الْمُوَحِّدِينَ مُحَمَّدٍ ﷺ آمِرًا لَهُ بِالْمُفَاصَلَةِ: ﴿قُلْ يَٰٓأَيُّهَا ٱلْكَٰفِرُونَ ۝١ لَآ أَعْبُدُ مَا تَعْبُدُونَ ۝٢ وَلَآ أَنتُمْ عَٰبِدُونَ مَآ أَعْبُدُ ۝٣ وَلَآ أَنَا۠ عَابِدٌ مَّا عَبَدتُّمْ ۝٤ وَلَآ أَنتُمْ عَٰبِدُونَ مَآ أَعْبُدُ ۝٥ لَكُمْ دِينُكُمْ وَلِىَ دِينِ﴾ [الكافرون:١-٦]؛ فَلَمْ يَقْبَلْ رَسُولُ الله ﷺ أَيَّ تَنَازُلَاتٍ عُرِضَتْ عَلَيْهِ، وَطُلِبَتْ مِنْهُ؛ بَلْ لَقَدْ تَبَرَّأَ عَلَانِيَةً مِنْ عِبَادَةِ غَيْرِ الله، وَجَهَرَ بِالتَّوْحِيدِ وَأَعْلَنَهُ، حَتَّى نَشَرَ التَّوْحِيدَ وَأَنْوَارَ الْحَقِّ فِي كُلِّ مَكَانٍ.

ثُمَّ يَأْتِي دَوْرُ: عَدَمِ الْمُجَامَلَةِ عَلَى حِسَابِ هَذَا الْمَنْهَجِ وَالدَّعْوَةِ؛ فَأَقُولُ: الْفُرْقَةُ شَرٌّ، وَالْخِلَافُ هَزِيمَةٌ وَضَعْفٌ؛ قَالَ: ﴿وَلَا تَنَٰزَعُوا۟ فَتَفْشَلُوا۟ وَتَذْهَبَ رِيحُكُمْ﴾ [الأنفال:٤٦]. وَلَا عِزَّ لِلْأُمَّةِ وَلَا سِيَادَةَ لَهَا وَلَا كَرَامَةَ إِلَّا إِذَا تَوَحَّدَتْ وَاجْتَمَعَتْ وَنَبَذَتِ الْفُرْقَةَ وَالْخِلَافَ وَالشِّقَاقَ، إِلَّا إِذَا نَفَضَتْ هَذِهِ النَّعَرَاتِ، وَأَسْقَطَتْ جَمِيعَ الرَّايَاتِ، وَرَفَعَتْ رَايَةً وَاحِدَةً هِيَ رَايَةُ الْإِسْلَامِ؛ هِيَ رَايَةُ التَّوْحِيدِ الصَّافِي.

---

(١) «روح المعاني» للألوسيِّ (١٠/ ٣٢) ط دار الفكر.

(٢) «تيسير الكريم المنان» (ص:٥٣٢) ط دار الصفا.

وَلَنْ تَتَّحِدَ الْأُمَّةُ إِلَّا إِذَا الْتَقَتْ عَلَى كَلِمَةِ التَّوْحِيدِ؛ فَكَلِمَةُ التَّوْحِيدِ أَوَّلًا قَبْلَ تَوْحِيدِ الْكَلِمَةِ؛ لِأَنَّهُ لَا يُمْكِنُ عَلَى الْإِطْلَاقِ أَنْ يَتَّحِدَ الصَّفُّ بِمِثْلِ هَذَا الْغَبَشِ الْعَقَدِيِّ وَالتَّعَبُّدِيِّ وَ... فَالْإِسْلَامُ عَقِيدَةٌ تَنْبَثِقُ مِنْهَا شَرِيعَةٌ تُنَظِّمُ هَذِهِ الشَّرِيعَةُ كُلَّ شُئُونِ الْحَيَاةِ، وَلَا يَقْبَلُ اللهُ مِنْ قَوْمٍ شَرِيعَتَهُمْ إِلَّا إِذَا صَحَّتْ عَقِيدَتُهُمْ!! وَأَنَا أُقَرِّرُ وَأَقُولُ: إِنَّ وَحْدَةً تُجَمِّعُ شَتَاتًا مُتَنَاقِضًا عَلَى غَيْرِ حَقٍّ وَاتِّبَاعٍ وَهُدًى؛ فَتِلْكَ وَحْدَةٌ مَزْعُومَةٌ تُفَرِّقُ وَلَا تُجَمِّعُ، وَتُجَرِّحُ وَلَا تُضَمِّدُ!!

فَالدَّعْوَةُ الَّتِي تُجَمِّعُ الصُّفُوفَ وَالْقُلُوبَ لَابُدَّ أَنْ تَكُونَ عَلَى مِنْهَاجِ النُّبُوَّةِ الطَّاهِرِ الصَّافِي.

فَأَنَا أَدِينُ للهِ- تَعَالَى- أَنَّ مِنْ أَخْطَرِ مَا تَتَعَرَّضُ لَهُ الدَّعْوَةُ الْآنَ: أَنَّ بَعْضَ الدُّعَاةِ يُجَامِلُونَ أَبْنَاءَ الدَّعْوَةِ عَلَى حِسَابِ الْمَنْهَجِ الْحَقِّ!! فَأَقُولُهَا بِصَرَاحَةٍ وَوُضُوحٍ إِنْ لَمْ يَمْتَنَّ رَبُّنَا عَلَى هَذِهِ الدَّعْوَةِ الْمُبَارَكَةِ بِعُلَمَاءَ مُخْلِصِينَ، وَدُعَاةٍ صَادِقِينَ؛ لِيُصَحِّحُوا لَهَا وَلِشَبَابِهَا الِانْحِرَافَ الْعِلْمِيَّ، وَالْعَمَلِيَّ؛ بَلْ وَالدَّعَوِيَّ، لَتَبَدَّدَ جُهْدُ الدَّعْوَةِ وَضَاعَ كَمَا يَضِيعُ مَاءُ الْأَمْطَارِ بَيْنَ الْوِدْيَانِ وَالشِّعَابِ!!

وَلَقَدْ اتَّسَمَ الْمَنْهَجُ النَّبَوِيُّ بِهَذَا الْأَصْلِ الدَّعَوِيِّ: عَدَمِ الْمُجَامَلَةِ لِأَحَدٍ عَلَى حِسَابِ الْمَنْهَجِ الْحَقِّ، أَمَّا مَا يَزْعُمُهُ الْبَعْضُ بِأَنَّ هَذَا لَيْسَ وَقْتَهُ الْآنَ، وَلَسْنَا فِي حَاجَةٍ إِلَيْهِ!! فَهَذَا لَا دَلِيلَ عَلَيْهِ وَلَا بُرْهَانَ، لَا مِنْ جِهَةِ الشَّرْعِ، وَلَا مِنْ جِهَةِ الْوَاقِعِ الَّذِي نَحْيَاهُ. **وَمِنَ الْأَدِلَّةِ النَّبَوِيَّةِ عَلَى ذَلِكَ:**

مَا ثَبَتَ فِي «**الصَّحِيحَيْنِ**» (١) عَنْ عَائِشَةَ رضي الله عنها أَنَّ قُرَيْشًا أَهَمَّهُمْ شَأْنُ الْمَرْأَةِ الْمَخْزُومِيَّةِ الَّتِي سَرَقَتْ؛ فَقَالُوا: وَمَنْ يُكَلِّمُ فِيهَا رَسُولَ اللهِ ﷺ؛ فَقَالُوا:

---

(١) أخرجه البخاريُّ، كتاب الحدود، باب كراهية الشفاعة في الحد إذا رفع إلى السلطان (٦٧٨٨) وانظر: (رقم: ٣٤٧٩)، ومسلمٌ، كتاب الحدود، باب قطع السارق الشريف وغيره، والنهي عن الشفاعة في الحدود (١٦٨٨).

وَمَنْ يَجْتَرِئُ عَلَيْهِ إِلَّا أُسَامَةُ بْنُ زَيْدٍ حِبُّ رَسُولِ اللهِ ﷺ؛ فَكَلَّمَهُ أُسَامَةُ؛ فَقَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: **«أَتَشْفَعُ فِي حَدٍّ مِنْ حُدُودِ اللهِ؟»** ثُمَّ قَامَ فَاخْتَطَبَ، ثُمَّ قَالَ: **«إِنَّمَا أَهْلَكَ الَّذِينَ قَبْلَكُمْ أَنَّهُمْ كَانُوا إِذَا سَرَقَ فِيهِمُ الشَّرِيفُ تَرَكُوهُ، وَإِذَا سَرَقَ فِيهِمُ الضَّعِيفُ أَقَامُوا عَلَيْهِ الْحَدَّ، وَايْمُ اللهِ لَوْ أَنَّ فَاطِمَةَ بِنْتَ مُحَمَّدٍ سَرَقَتْ لَقَطَعْتُ يَدَهَا»**.

قَالَ الْحَافِظُ فِي «الْفَتْحِ» (١): «وَوَقَعَ لِلشَّافِعِيِّ أَنَّهُ لَمَّا ذَكَرَ هَذَا الْحَدِيثَ قَالَ: فَذَكَرَ عُضْوًا شَرِيفًا مِنِ امْرَأَةٍ شَرِيفَةٍ، وَاسْتَحْسَنُوا ذَلِكَ مِنْهُ؛ لِمَا فِيهِ مِنَ الْأَدَبِ الْبَالِغِ، وَإِنَّمَا خَصَّ ﷺ فَاطِمَةَ ابْنَتَهُ بِالذِّكْرِ؛ لِأَنَّهَا أَعَزُّ أَهْلِهِ عِنْده، وَلِأَنَّهُ لَمْ يَبْقَ مِنْ بَنَاتِهِ حِينَئِذٍ غَيْرُهَا، فَأَرَادَ الْمُبَالَغَةَ فِي إِثْبَاتِ إِقَامَةِ الْحَدِّ عَلَى كُلِّ مُكَلَّفٍ، وَتَرْكِ الْمُحَابَاةِ فِي ذَلِكَ».

وَفِي «الصَّحِيحَيْنِ» (٢) عَنْ عَائِشَةَ رضي الله عنها قَالَتْ: صَنَعَ رَسُولُ اللهِ ﷺ أَمْرًا فَتَرَخَّصَ فِيهِ؛ فَبَلَغَ ذَلِكَ نَاسًا مِنْ أَصْحَابِهِ، فَكَأَنَّهُمْ كَرِهُوهُ وَتَنَزَّهُوا عَنْهُ؛ فَبَلَغَهُ ذَلِكَ فَقَامَ خَطِيبًا؛ فَقَالَ: **«مَا بَالُ رِجَالٍ بَلَغَهُمْ عَنِّي أَمْرٌ تَرَخَّصْتُ فِيهِ، فَكَرِهُوهُ وَتَنَزَّهُوا عَنْهُ؛ فَوَاللهِ لَأَنَا أَعْلَمُهُمْ بِاللهِ، وَأَشَدُّهُمْ لَهُ خَشْيَةً»**.

قال الحافظ رحمه الله (٣): «أَمَّا الْمُعَاتَبَةُ فَقَدْ حَصَلَتْ مِنْهُ لَهُمْ بِلَا رَيْبٍ، وَإِنَّمَا لَمْ يُمَيِّزِ الَّذِي صَدَرَ مِنْهُ ذَلِكَ سَتْرًا عَلَيْهِ، فَحَصَلَ مِنْهُ الرِّفْقُ مِنْ هَذِهِ الْحَيْثِيَّةِ لَا بِتَرْكِ الْعِتَابِ أَصْلًا».

وَفِي «مُسْنَدِ» أَحْمَدَ، وَ«سُنَنِ» التِّرْمِذِيِّ، وَ«مُصَنَّفِ» ابْنِ أَبِي شَيْبَةَ، وَ«مُسْنَدِ»

---

(١) «فتح الباري» (١٢/ ٩٧).

(٢) أخرجه البخاريُّ، كتاب الأدب، باب من لم يواجه الناس بالعتاب (٦١٠١)، ومسلمٌ، كتاب الفضائل، باب علمه ﷺ بالله تعالى وشدة خشيته (٢٣٥٦).

(٣) «فتح الباري» (١٠/ ٥٣٠).

الْحُمَيْدِيِّ(١)، وَغَيْرِهِمْ (٢) مِنْ حَدِيثِ أَبِي وَاقِدٍ اللَّيْثِيِّ ﵁ (٣) أَنَّ رَسُولَ اللهِ ﷺ لَمَّا خَرَجَ إِلَى خَيْبَرَ مَرَّ بِشَجَرَةٍ لِلْمُشْرِكِينَ يُقَالُ لَهَا: ذَاتُ أَنْوَاطٍ، يُعَلِّقُونَ عَلَيْهَا أَسْلِحَتَهُمْ؛ فَقَالُوا: يَا رَسُولَ اللهِ، اجْعَلْ لَنَا ذَاتَ أَنْوَاطٍ؛ كَمَا لَهُمْ ذَاتُ أَنْوَاطٍ؛ فَقَالَ النَّبِيُّ ﷺ: «سُبْحَانَ اللهِ! هَذَا كَمَا قَالَ قَوْمُ مُوسَى: ﴿ٱجْعَل لَّنَآ إِلَـٰهًا كَمَا لَهُمْ ءَالِهَةٌ﴾ [الأعراف:١٣٨]، وَالَّذِي نَفْسِي بِيَدِهِ لَتَرْكَبُنَّ سُنَّةَ مَنْ كَانَ قَبْلَكُمْ».

وَفِي «الصَّحِيحَيْنِ» (٤) مِنْ حَدِيثِ أَنَسٍ ﵁؛ أَنَّ نَفَرًا مِنْ أَصْحَابِ النَّبِيِّ ﷺ

---

(١) هو عبد الله بن الزبير القرشيُّ الأسديُّ الحميديُّ المكيُّ، الحافظ الفقيه، صاحب «المسند» قال الإمام أحمد بن حنبل فيه: «الحميدي عندنا إمام»، وقال الفسويُّ: «ما لقيت أنصح للإسلام وأهله منه»، وكان من أجل أصحاب ابن عيينة؛ قال ابن سعد: مات بمكة سنة تسع عشرة ومائتين، وكان ثقةً كثير الحديث»، وكذا أَرَّخه البخاريُّ، وروى عنه البخاريُّ خمسة وسبعين حديثًا.

● راجع: «تهذيب التهذيب» (٥/ ٢١٥)، و«السير» (ترجمة رقم: ١٨٧٨).

(٢) أخرجه أحمد (٥/ ٢١٨)، والترمذيُّ، كتاب الفتن، باب ما جاء لتركبن سنة من كان قبلكم (٢١٨٠)، وقال: «حديث حسن صحيح»، وابن أبي شيبة (١٥/ ١٠١)، والحميديُّ (٨٤٨)، وابن حبان (٦٧٠٢)، وأبو يعلَى (١٤٤١)، وصحَّحَه الألبانيُّ في «صحيح الجامع» (٣٦٠١).

(٣) من بني ليث بن بكر بن عبد مناة بن علي بن كنانة بن خزيمة بن مدركة، وقد اختلف في اسمه؛ فقيل: الحارث بن عوف، وقيل: عوف بن الحارث، وقيل: الحارث بن مالك، قيل: إنه شهد بدرًا مع النبيِّ ﷺ، وقيل: لم يشهدها، وكان قديم الإسلام، وقيل: إنه من مسلمة الفتح، ورجحه ابن الأثير؛ قال ابن عبد البر: «والأول أصح وأكثر، يُعدُّ في أهل المدينة، وجاور بمكة سنة، ومات بها، فدفن في مقبرة المهاجرين سنة ثمانٍ وستين، وهو ابن خمس وسبعين سنة، وقيل: ابن خمسين وثمانين سنة»، ورجح الأخيرَ الحافظُ العسقلانيُّ ﵀.

● راجع في ترجمته: «الاستيعاب» (ترجمة ٣٨٣)، و«أسد الغابة» (ترجمة ٩٤٠ و ٦٣٣٦- الكنى)، و«التقريب» (٨٤٧٤).

(٤) أخرجه البخاريُّ، كتاب النكاح، باب الترغيب في النكاح (٥٠٦٣)، ومسلمٌ، كتاب النكاح، باب استحباب النكاح لمن تاقت نفسه إليه ووجد مُؤَنه.. (١٤٠١).

سَأَلُوا أَزْوَاجَ النَّبِيِّ ﷺ عَنْ عَمَلِهِ فِي السِّرِّ؛ فَقَالَ بَعْضُهُمْ: لاَ أَتَزَوَّجُ النِّسَاءَ. وَقَالَ بَعْضُهُمْ: لاَ آكُلُ اللَّحْمَ. وَقَالَ بَعْضُهُمْ: لاَ أَنَامُ عَلَى فِرَاشٍ. فَحَمِدَ اللهَ وَأَثْنَى عَلَيْهِ؛ فَقَالَ «**مَا بَالُ أَقْوَامٍ قَالُوا كَذَا وَكَذَا؛ لَكِنِّي أُصَلِّي، وَأَنَامُ، وَأَصُومُ، وَأُفْطِرُ، وَأَتَزَوَّجُ النِّسَاءَ؛ فَمَنْ رَغِبَ عَنْ سُنَّتِي فَلَيْسَ مِنِّي**».

وَفِي «**الصَّحِيحَيْنِ**»(١) عَنْ أَبِي مَسْعُودٍ الْأَنْصَارِيِّ رضي الله عنه قَالَ: جَاءَ رَجُلٌ إِلَى النَّبِيِّ ﷺ؛ فَقَالَ: إِنِّي لأَتَأَخَّرُ عَنْ صَلاةِ الصُّبْحِ مِنْ أَجْلِ فلانٍ مِمَّا يُطِيلُ بِنَا! فَمَا رَأَيْتُ النَّبِيَّ ﷺ غَضِبَ فِي مَوْعِظَةٍ قَطُّ أَشَدَّ مِمَّا غَضِبَ يَوْمَئِذٍ؛ فَقَالَ: «**يَا أَيُّهَا النَّاسُ! إِنَّ مِنْكُمْ مُنَفِّرِينَ؛ فَأَيُّكُمْ أَمَّ النَّاسَ فَلْيُوجِزْ؛ فَإِنَّ مِنْ وَرَائِهِ الْكَبِيرَ وَالصَّغِيرَ وَذَا الْحَاجَةِ**».

وَفِي «**الصَّحِيحَيْنِ**» (٢)عَنْ جَابِرٍ رضي الله عنه قَالَ: كَانَ مُعَاذٌ يُصَلِّي مَعَ النَّبِيِّ ﷺ، ثُمَّ يَأْتِي فَيَؤُمُّ قَوْمَهُ فَصَلَّى لَيْلَةً مَعَ النَّبِيِّ ﷺ الْعِشَاءَ، ثُمَّ أَتَى قَوْمَهُ، فَأَمَّهُمْ فَافْتَتَحَ بِسُورَةِ الْبَقَرَةِ؛ فَانْحَرَفَ رَجُلٌ فَسَلَّمَ، ثُمَّ صَلَّى وَحْدَهُ وَانْصَرَفَ؛ فَقَالُوا لَهُ: أَنَافَقْتَ يَا فُلاَنُ؟ قَالَ: لاَ وَاللهِ وَلآتِيَنَّ رَسُولَ اللهِ ﷺ فَلأُخْبِرَنَّهُ. فَأَتَى رَسُولَ اللهِ ﷺ؛ فَقَالَ: يَا رَسُولَ اللهِ، إِنَّا أَصْحَابُ نَوَاضِحَ نَعْمَلُ بِالنَّهَارِ، وَإِنَّ مُعَاذًا صَلَّى مَعَكَ الْعِشَاءَ، ثُمَّ أَتَى فَافْتَتَحَ بِسُورَةِ الْبَقَرَةِ. فَأَقْبَلَ رَسُولُ اللهِ ﷺ عَلَى مُعَاذٍ؛ فَقَالَ: «**يَا مُعَاذُ أَفَتَّانٌ أَنْتَ؟ اقْرَأْ بِكَذَا وَاقْرَأْ بِكَذَا**». قَالَ سُفْيَانُ: فَقُلْتُ لِعَمْرٍو: إِنَّ أَبَا الزُّبَيْرِ (٣) حَدَّثَنَا عَنْ جَابِرٍ أَنَّهُ قَالَ: «**اقْرَأْ: وَالشَّمْسِ وَضُحَاهَا، وَالضُّحَى، وَاللَّيْلِ**

---

(١) أخرجه البخاريُّ، كتاب الأذان، باب من شكا إمامه إذا طول (٧١٤) وانظر: (٧٠٢)، ومسلمٌ، كتاب الصلاة، باب أمر الأئمة بتخفيف الصلاة في تمام (٤٦٦).

(٢) أخرجه البخاريُّ، كتاب الأذان، باب إذا طول الإمام وكان للرجل حاجة فخرج فصلى (٧٠١)، ومسلمٌ، كتاب الصلاة، باب القراءة في العشاء (٤٦٥).

(٣) هو محمد بن مسلم بن تدرس القرشي الأسدي المكيُّ، الإمام الحافظ الصدوق، حافظ ثقة، وكان مدلسًا واسع العلم، روى عن العبادلة الأربعة، قال ابن عدي: «وكفى
=

إِذَا يَغْشَى، وَسَبِّحِ اسْمَ رَبِّكَ الأَعْلَى». فَقَالَ عَمْرٌو نَحْوَ هَذَا.

وَفِي «الصَّحِيحَيْنِ»(١) عَنْ عَائِشَةَ رضي الله عنها قَالَتْ: قَدِمَ نَاسٌ مِنَ الأَعْرَابِ عَلَى رَسُولِ اللهِ ﷺ؛ فَقَالُوا: أَتُقَبِّلُونَ صِبْيَانَكُمْ؟ فَقَالُوا: نَعَمْ، فَقَالُوا: لَكِنَّا وَاللهِ مَا نُقَبِّلُ، فَقَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: «وَأَمْلِكُ لَكَ إِنْ كَانَ اللهُ نَزَعَ مِنْكُمُ الرَّحْمَةَ». وَفِي رِوَايَةٍ: «مِنْ قَلْبِكَ الرَّحْمَةَ».

وَفِيهِمَا (٢) عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ رضي الله عنه؛ أَنَّ الأَقْرَعَ بْنَ حَابِسٍ (٣) أَبْصَرَ النَّبِيَّ ﷺ يُقَبِّلُ الْحَسَنَ (٤)؛ فَقَالَ: إِنَّ لِي عَشَرَةً مِنَ الْوَلَدِ مَا قَبَّلْتُ وَاحِدًا مِنْهُمْ؛ فَقَالَ

=

بأبي الزبير صدقًا أن يحدث عنه مالك؛ فإن مالكًا لا يروي إلا عن ثقة». وقال عطاء: «كان أبو الزبير أحفظنا للحديث»، مات أبو الزبير في خلافة مروان بن محمد سنة ثمان وعشرين ومئة، ولم يذكروا له مولدًا. ولعله نيف على الثمانين.

● انظر: «السير» (٥/ ٣٨٠)، و«تهذيب الكمال» (٢٦/ ٤٠٢)، و«تهذيب التهذيب» (٩/ ٤٤٠-٤٤١).

(١) أخرجه البخاريُّ، كتاب الأدب، باب رحمة الولد وتقبيله ومعانقته (٥٩٩٨)، ومسلمٌ، كتاب الفضائل، باب رحمته ﷺ الصبيان والعيال وتواضعه وفضل ذلك (٢٣١٧).

(٢) البخاري (٥٩٩٧) - الباب السابق -، ومسلم (٢٣١٨) - الباب السابق -.

(٣) هو الأقرع بن حابس بن عقال بن محمد بن سفيان بن مجاشع التميميُّ المجاشعيُّ الدارميُّ، أحدُ المؤلفة قلوبهم، وحسن إسلامه، وشهد فتح مكة وحنينًا، وحضر الطائف، وشهد مع خالد بن الوليد حرب أهل العراق، وشهد معه فتح الأنبار، وإنما قيل له: الأقرع؛ لقرع كان برأسه، وكان شريفًا في الجاهلية والإسلام، قتل الأقرع بن حابس باليرموك في عشرة من بنيه، والله أعلم.

● راجع: «الاستيعاب» (٦٩)، و«أسد الغابة» (٢٠٨)، و«الإصابة» (٢٣١).

(٤) هو الحسن بن علي بن أبي طالب بن عبد المطلب بن هاشم بن عبد مناف القرشيُّ الهاشميُّ أبو محمد، سبط رسول الله ﷺ وريحانته أمير المؤمنين، ولد في نصف شهر رمضان سنة ثلاث من الهجرة، وكان أشبه الناس بالنبيِّ ﷺ، كان حليمًا ورعًا فاضلًا،

=

رَسُولُ الله ﷺ: «إِنَّهُ مَنْ لاَ يَرْحَمُ لاَ يُرْحَمُ».

وَفِي «الصَّحِيحَيْنِ» (١) عَنِ الْمُعْرُورِ بْنِ سُوَيْدٍ (٢) قَالَ: مَرَرْنَا بِأَبِي ذَرٍّ بِالرَّبَذَةِ وَعَلَيْهِ بُرْدٌ وَعَلَى غُلاَمِهِ مِثْلُهُ، فَقُلْنَا: يَا أَبَا ذَرٍّ، لَوْ جَمَعْتَ بَيْنَهُمَا كَانَتْ حُلَّةً؛ فَقَالَ: إِنَّهُ كَانَ بَيْنِي وَبَيْنَ رَجُلٍ مِنْ إِخْوَانِي كَلاَمٌ وَكَانَتْ أُمُّهُ أَعْجَمِيَّةً؛ فَعَيَّرْتُهُ بِأُمِّهِ، فَشَكَانِي إِلَى النَّبِيِّ ﷺ، فَلَقِيتُ النَّبِيَّ ﷺ؛ فَقَالَ: «يَا أَبَا ذَرٍّ إِنَّكَ امْرُؤٌ فِيكَ جَاهِلِيَّةٌ». قُلْتُ: يَا رَسُولَ الله مَنْ سَبَّ الرِّجَالَ! سَبُّوا أَبَاهُ وَأُمَّهُ. قَالَ: «يَا أَبَا ذَرٍّ، إِنَّكَ امْرُؤٌ فِيكَ جَاهِلِيَّةٌ، هُمْ إِخْوَانُكُمْ، جَعَلَهُمُ الله تَحْتَ أَيْدِيكُمْ؛ فَأَطْعِمُوهُمْ مِمَّا تَأْكُلُونَ، وَأَلْبِسُوهُمْ مِمَّا تَلْبَسُونَ، وَلاَ تُكَلِّفُوهُمْ مَا يَغْلِبُهُمْ؛ فَإِنْ كَلَّفْتُمُوهُمْ فَأَعِينُوهُمْ».

وَلَوْ جَازَتِ الْمُجَامَلَةُ فِي دِينِ الله لِأَحَدٍ مِنَ الْخَلْقِ لَكَانَ أَوْلَى النَّاسِ بِذَلِكَ سَيِّدَ الْخَلْقِ ﷺ؛ فَلَقَدْ قَالَ الله لَهُ: ﴿عَفَا ٱللَّهُ عَنكَ لِمَ أَذِنتَ لَهُمْ حَتَّىٰ يَتَبَيَّنَ لَكَ ٱلَّذِينَ صَدَقُواْ وَتَعْلَمَ ٱلْكَٰذِبِينَ﴾ [التوبة:٤٣].

وَقَالَ: ﴿وَلَا تَطْرُدِ ٱلَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُم بِٱلْغَدَوٰةِ وَٱلْعَشِيِّ يُرِيدُونَ وَجْهَهُۥ مَا عَلَيْكَ مِنْ

=

وهو سيد شباب أهل الجنة، وهو خامس أهل الكساء، مات سنة تسع وأربعين وقيل: سنة خمسين، وقيل: سنة إحدى وخمسين، وقيل: سنة أربع وأربعين، وقيل: ثمان وخمسين.

● راجع: «الاستيعاب» (٦٠٠)، و«أسد الغابة» (١١٦٥)، و«الإصابة» (١٧٢١).

(١) أخرجه البخاريُّ، كتاب العتق، باب قول النبي ﷺ: «العَبِيدُ إِخْوَانُكُمْ فَأَطْعِمُوهُمْ مِمَّا تَأْكُلُونَ» (٢٥٤٥)، ومسلمٌ، كتاب الإيمان، باب إطعام المملوك مما يأكل وإلباسه مما يلبس ولا يكلفه ما يغلبه (١٦٦١).

(٢) هو المعرور بن سويد الأسديُّ أبو أمية الكوفيُّ، الإمام المعمر، حدث عن ابن مسعود، وأبي ذر رضي الله عنهما وجماعة، قال الأعمش: رأيته وهو ابن عشرين ومائة سنة، وكان كثير الحديث؛ مات سنة بضع وثمانين.

● راجع: «سير أعلام النبلاء» (٥٦٩)، و«تهذيب التهذيب» (١٠/ ٢٣٠).

حِسَابِهِم مِّن شَىْءٍ وَمَا مِنْ حِسَابِكَ عَلَيْهِم مِّن شَىْءٍ فَتَطْرُدَهُمْ فَتَكُونَ مِنَ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴾ [الأنعام:٥٢].

وَقَالَ : ﴿ ٱسْتَغْفِرْ لَهُمْ أَوْ لَا تَسْتَغْفِرْ لَهُمْ إِن تَسْتَغْفِرْ لَهُمْ سَبْعِينَ مَرَّةً فَلَن يَغْفِرَ ٱللَّهُ لَهُمْ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ كَفَرُوا۟ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ وَٱللَّهُ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلْفَٰسِقِينَ ﴾ [التوبة:٨٠].

وَقَالَ : ﴿ وَلَا تُصَلِّ عَلَىٰٓ أَحَدٍ مِّنْهُم مَّاتَ أَبَدًا وَلَا تَقُمْ عَلَىٰ قَبْرِهِۦٓ إِنَّهُمْ كَفَرُوا۟ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ وَمَاتُوا۟ وَهُمْ فَٰسِقُونَ ﴾ [التوبة: ٨٤].

وَقَالَ : ﴿ مَا كَانَ لِلنَّبِىِّ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ أَن يَسْتَغْفِرُوا۟ لِلْمُشْرِكِينَ وَلَوْ كَانُوٓا۟ أُو۟لِى قُرْبَىٰ مِنۢ بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُمْ أَصْحَٰبُ ٱلْجَحِيمِ ﴾ [التوبة:١١٣].

وَقَالَ عز وجل: ﴿ عَبَسَ وَتَوَلَّىٰٓ ﴿١﴾ أَن جَآءَهُ ٱلْأَعْمَىٰ ﴿٢﴾ وَمَا يُدْرِيكَ لَعَلَّهُۥ يَزَّكَّىٰٓ ﴿٣﴾ أَوْ يَذَّكَّرُ فَتَنفَعَهُ ٱلذِّكْرَىٰٓ ﴾ [عبس:١-٤].

وَقَالَ تَعَالَى: ﴿ وَلَوْلَآ أَن ثَبَّتْنَٰكَ لَقَدْ كِدتَّ تَرْكَنُ إِلَيْهِمْ شَيْـًٔا قَلِيلًا ﴿٧٤﴾ إِذًا لَّأَذَقْنَٰكَ ضِعْفَ ٱلْحَيَوٰةِ وَضِعْفَ ٱلْمَمَاتِ ثُمَّ لَا تَجِدُ لَكَ عَلَيْنَا نَصِيرًا ﴾ [الإسراء:٧٤-٧٥].

وَقَالَ تَعَالَى: ﴿ وَإِذْ تَقُولُ لِلَّذِىٓ أَنْعَمَ ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَأَنْعَمْتَ عَلَيْهِ أَمْسِكْ عَلَيْكَ زَوْجَكَ وَٱتَّقِ ٱللَّهَ وَتُخْفِى فِى نَفْسِكَ مَا ٱللَّهُ مُبْدِيهِ وَتَخْشَى ٱلنَّاسَ وَٱللَّهُ أَحَقُّ أَن تَخْشَىٰهُ ﴾ [الأحزاب:٣٧].

وَقَالَ : ﴿ وَلَوْ تَقَوَّلَ عَلَيْنَا بَعْضَ ٱلْأَقَاوِيلِ ﴿٤٤﴾ لَأَخَذْنَا مِنْهُ بِٱلْيَمِينِ ﴿٤٥﴾ ثُمَّ لَقَطَعْنَا مِنْهُ ٱلْوَتِينَ ﴿٤٦﴾ فَمَا مِنكُم مِّنْ أَحَدٍ عَنْهُ حَٰجِزِينَ ﴾ [الحاقة:٤٤-٤٧].

فَلَا يَنْبَغِي لِلدُّعَاةِ إِلَى اللهِ تَعَالَى أَنْ يُمَيِّعُوا الْمَنْهَجَ، أَوْ أَنْ يَتَخَلَّوْا عَنِ الثَّوَابِتِ وَالْأُصُولِ حَتَّى وَلَوْ كَانَ ذَلِكَ - مِنْ وِجْهَةِ نَظَرِهِمْ - لِمَصْلَحَةِ الدَّعْوَةِ أَوْ لِإِنْجَاحِهَا وَتَوْسِيعِ نِطَاقِهَا؛ فَالنَّجَاحُ وَالْمَصْلَحَةُ الْحَقِيقِيَّةُ فِي اتِّبَاعِ مَنْهَجِ النَّبِيِّ ﷺ بِفَهْمٍ صَحِيحٍ، وَقَصْدٍ خَالِصٍ، وَنِيَّةٍ صَالِحَةٍ، وَدَعْوَةٍ وَاعِيَةٍ نَاجِحَةٍ، بِحَيْثُ يَكُونُ الدَّاعِي عَلَى بَصِيرَةٍ تَامَّةٍ بِمَا يَجِبُ التَّمَسُّكُ بِهِ، وَعَدَمُ التَّفْرِيطِ فِيهِ، وَمَا يُمْكِنُ قَبُولُهُ مَادَامَ فِي الْأَمْرِ سَعَةٌ بِضَابِطٍ مِنَ الشَّرْعِ، لَا بِالْهَوَى وَالْمَطَامِعِ وَالْمَطَامِحِ، وَلَا رَهْبَةً وَلَا خَوْفًا.

وَعَلَيْهِ بَعْدَ ذَلِكَ أَنْ يَكُونَ عَلَى يَقِينٍ أَنَّهُ لَيْسَ أَحْرَصَ عَلَى الدِّينِ مِنْ رَسُولِ اللهِ ﷺ، وَلَيْسَ أَغْيَرَ عَلَى الْحَقِّ وَأَهْلِهِ مِنْهُ؛ فَمَا عَلَيْهِ إِلَّا أَنْ يُؤَدِّيَ مَا عَلَيْهِ بِفَهْمٍ وَإِخْلَاصٍ وَحَقٍّ وَأَنْ يَدَعَ النَّتَائِجَ إِلَى اللهِ - جَلَّ عُلَاهُ -.

فَلَا مُدَاهَنَةَ أَوْ مُجَامَلَةَ؛ بَلْ تَمَيُّزٌ وَمُفَاصَلَةٌ، بِلَا إِفْرَاطٍ أَوْ تَفْرِيطٍ.

❀ ◈ ❀

الفَصْلُ الرَّابِعُ

أَسَالِيبُ الْمَنْهَجِ النَّبَوِيِّ فِي الدَّعْوَةِ إِلَى اللَّهِ تعالى

○ وَفِيهِ تَمْهِيدٌ وَثَلاثَةٌ وَعِشْرُونَ مَبْحَثًا :



الفَصْلُ الرَّابِعُ

أَسَالِيبُ الْمَنْهَجِ النَّبَوِيِّ فِي الدَّعْوَةِ إِلَى اللَّهِ تعالى

تَمْهِيدٌ

○ **تَعْرِيفُ الأُسْلُوبِ لُغَةً:**

قَالَ ابْنُ مَنْظُورٍ (١):

«وَالأُسْلُوبُ: الطَّرِيقُ، وَالْوَجْهُ، والْمَذْهَبُ، وَيُجْمَعُ: أَسَالِيبَ، وَالْأُسْلُوبُ: الطَّرِيقُ تَأْخُذُ فِيهِ، وَالْأُسْلُوبُ بِالضَّمِّ: الْفَنُّ، يُقَالُ: أَخَذَ فُلَانٌ فِي أَسَالِيبَ مِنَ الْقَوْلِ أَيْ: أَفَانِينَ مِنْهُ، وَإِنَّ أَنْفَهُ لَفِي أُسْلُوبٍ إِذَا كَانَ مُتَكَبِّرًا».

وَقَالَ ابْنُ فَارِسٍ (٢): «وَالْأَسَالِيبُ: الطُّرُقُ وَالْفُنُونُ، وَكُلُّ شَيْءٍ امْتَدَّ عَلَى غَيْرِ امْتِنَاعٍ؛ فَهُوَ أُسْلُوبٌ، وَيُقَالُ لِعُنُقِ الْأَسَدِ: أُسْلُوبٌ؛ لِأَنَّهَا لَا تَنْثَنِي».

قَالَ الرَّاغِبُ: «وَالْأَسَالِيبُ: الْفُنُونُ الْمُخْتَلِفَةُ» (٣).

تَعْرِيفُ الْأُسْلُوبِ اصْطِلَاحًا: عُرِّفَ الْأُسْلُوبُ بِعِدَّةِ تَعْرِيفَاتٍ (٤):

١ - الْأُسْلُوبُ: هُوَ الطَّرِيقَةُ الْكَلَامِيَّةُ الَّتِي يَسْلُكُهَا الْمُتَكَلِّمُ فِي تَأْلِيفِ كَلَامِهِ،

---

(١) «لسان العرب» (٦/ ٣١٩).

(٢) «مجمل اللغة» (٣١٨)، وراجع: «القاموس المحيط» (١٢٥)، و«الكليات» للكفوي (٨٢).

(٣) «المفردات» (٢٤٤).

(٤) انظر: «دَعْوَة النبي ﷺ للأعراب» (ص: ٢١٥- ٢١٧)، وأيضًا (١٣٧ وما بعدها) تأليف حمود الحارثي ط المسلم. الرياض.

وَاخْتِيَارِ مُفْرَدَاتِهِ (١).

٢- **الْأُسْلُوبُ**: هُوَ طَرِيقُ الْإِنْشَاءِ، أَوْ طَرِيقَةُ اخْتِيَارِ الْأَلْفَاظِ وَتَأْلِيفِهَا، لِلتَّعْبِيرِ بِهَا عَنِ الْمَعَانِي، قَصْدَ الْإِيضَاحِ وَالتَّأْثِيرِ (٢).

٣- **أُسْلُوبُ الدَّعْوَةِ هُوَ**: طَرِيقَةُ الدَّاعِي فِي دَعْوَتِهِ، أَوْ كَيْفِيَّةُ تَطْبِيقِ مَنَاهِجِ الدَّعْوَةِ.

٤- **أُسْلُوبُ الدَّعْوَةِ هُوَ**: فَنُّ الدَّعْوَةِ، وَأَسَالِيبُ الدَّعْوَةِ: فُنُونُهَا، وَهِيَ: الْحِكْمَةُ، الْمَوْعِظَةُ، الْقُوَّةُ.... إلخ (٣).

٥- **أُسْلُوبُ الدَّعْوَةِ هُوَ**: الطَّرِيقَةُ أَوِ الْمَذْهَبُ الَّذِي يَلْجَأُ إِلَيْهِ الدَّاعِي إِلَى اللهِ؛ لِيُحَقِّقَ بِذَلِكَ أَهْدَافَ الدَّعْوَةِ (٤).

٦- **أَسَالِيبُ الدَّعْوَةِ**: هِيَ الْعِلْمُ الَّذِي يَتَّصِلُ بِكَيْفِيَّةِ مُبَاشَرَةِ التَّبْلِيغِ وَإِزَالَةِ الْعَوَائِقِ عَنْهُ (٥).

مِنْ مَجْمُوعِ هَذِهِ التَّعَارِيفِ الِاصْطِلَاحِيَّةِ أَقُولُ:

أُسْلُوبُ الدَّعْوَةِ - الْأَمْثَلُ -: هُوَ الطَّرِيقَةُ الْمُقْنِعَةُ الْمُؤَثِّرَةُ فِي الْمَدْعُوِّ بِمَا يَتَنَاسَبُ مَعَ حَالِهِ؛ لِأَنَّ طَبَائِعَ النَّاسِ وَمَنَازِلَهُمْ مُخْتَلِفَةٌ.

---

(١) «خصائص القرآن» (ص: ١٨)، د/ فهد الرومي (بدون ذكر اسم الناشر) ط ١٤٠٩هـ.

(٢) «الأسلوب دراسة بلاغية تحليلية لأصول الأساليب الأدبية» (ص:٤٤)، أحمد الشائب، ط مكتبة النهضة المصرية، القاهرة، ط ١٣٩٦هـ.

(٣) «المدخل إلى علم الدَعْوَة» (ص: ٤٧) البيانوني.

(٤) «فقه الدَعْوَة إلى الله» (١/ ٢١٥) د/ علي عبد الحليم محمود.

(٥) «الحكمة في الدَعْوَة إلى الله» (ص: ١٢٥) د/ سعيد القحطاني.

○ الْفَرْقُ بَيْنَ الْوَسِيلَةِ وَالْأُسْلُوبِ:

الْوَسِيلَةُ: هِيَ الْأَدَاةُ الْمُوَصِّلَةُ إِلَى غَايَةٍ؛ قَالَ ابْنُ كَثِيرٍ رحمه الله (١): «هِيَ الَّتِي يُتَوَصَّلُ بِهَا إِلَى تَحْصِيلِ الْمَقْصُودِ».

وَالْوَسِيلَةُ الدَّعَوِيَّةُ: هِيَ الْأَدَاةُ الْمُنْضَبِطَةُ شَرْعًا، الْمُوَصِّلَةُ إِلَى غَايَةٍ مُنْضَبِطَةٍ، وَهِيَ الَّتِي تُسْتَخْدَمُ لِنَقْلِ الْأَفْكَارِ مِنَ الدَّاعِي إِلَى الْمَدْعُوِّ.

وَمَعْنَى: «الْمُنْضَبِطَةُ شَرْعًا» أَي: الَّتِي لَيْسَتْ مُحَرَّمَةً أَوْ مَشْبُوهَةً وَلَا تُؤَثِّرُ عَلَى شَرَفِ الْغَايَةِ.

فَالْوَسَائِلُ لَهَا أَحْكَامُ الْمَقَاصِدِ (٢)، لَا أَنَّ الْغَايَةَ تُبَرِّرُ الْوَسِيلَةَ!!

وَمِنْ وَسَائِلِ الدَّعْوَةِ الْمُبَاشِرَةِ: الْمَسْجِدُ، الْحَجُّ، الدَّرْسُ، الْمُحَاضَرَةُ، الشَّرِيطُ، الفَضَائِيَّاتُ، الانْتَرْنِتُّ، الصُّحُفُ، المَطْوِيَّاتُ، المَجَلَّاتُ.. إِلَى غَيْرِ ذَلِكَ.

قَالَ الْعَلَّامَةُ ابْنُ عُثَيْمِينَ(٣) رحمه الله:

«وَالْوَسَائِلُ لَيْسَ لَهَا حَدٌّ شَرْعِيٌّ؛ فَكُلُّ مَا أَدَّى إِلَى الْمَقْصُودِ؛ فَهُوَ مَقْصُودٌ،

---

(١) «تفسير ابن كثير» (٢/ ٤٨).

(٢) وهي قاعدةٌ شرعية مقررة عند السلف.

● راجع: «إعلام الموقعين» (٣/ ١٤٧)، المكتبة العصرية، بيروت ١٤٠٧هـ، و«قواعد الأحكام» للعز ابن عبد السلام (١/ ٤٦) ط المعرفة، بيروت.

(٣) هو محمد بن صالح بن محمد بن عثيمين المقبل الوهيبيُّ أبو عبد الله، ولد في مدينة عنيزة إحدى مدن القصيم في السابع والعشرين من شهر رمضان، عام ١٣٤٧ هجرية، حفظ القرآن صغيرًا، واتجه إلى طلب العلم، وكان قد رزق ذكاء وزكاء، وهمة عالية، وحرصًا عَلَى التحصيل العلمي في مزاحمته الركب لمجالس العلماء، وفي مقدمتهم العلامة المفسر الفقيه عبد الرحمن بن ناصر السعديُّ، والشنقيطيُّ رحمهم الله، وانشغل الشيخ بالتدريس والإفتاء وتعليم الناس، وله مصنفات مفيدة منها: «الشرح الممتع»، و«شرح العقيدة الواسطية»، و«القواعد المثلى»، و«تسهيل الفرائض»، و«شرح بلوغ =

مَا لَمْ يَكُنْ مَنْهِيًّا عَنْهُ بِعَيْنِهِ؛ فَإِنْ كَانَ مَنْهِيًّا عَنْهُ بِعَيْنِهِ؛ فَلَا نُقِرُّ بِهِ؛ فَلَوْ قَالَ قَائِلٌ: أَنَا أُرِيدُ أَنْ أَدْعُوَ شَخْصًا بِالْغِنَاءِ وَالْمُوسِيقَى؛ لِأَنَّهُ يَطْرَبُ لَهَا، وَيَسْتَأْنِسُ بِهَا، وَرُبَّمَا يَكُونُ هَذَا جَذْبًا لَهُ، فَأَدْعُوهُ بِالْمُوسِيقَى وَالْغِنَاءِ، هَلْ نُبِيحُ لَهُ ذَلِكَ؟ لَا؛ لَا يَجُوزُ أَبَدًا؛ لَكِنْ إِذَا كَانَتْ وَسِيلَةً لَمْ يُنْهَ عَنْهَا، وَلَهَا أَثَرٌ؛ فَهَذِهِ لَا بَأْسَ بِهَا؛ فَالْوَسَائِلُ غَيْرُ الْمَقَاصِدِ، وَلَيْسَ مِنَ اللَّازِمِ أَنْ يَنُصَّ الشَّرْعُ عَلَى كُلِّ وَسِيلَةٍ بِعَيْنِهَا، يَقُولُ: هَذِهِ جَائِزَةٌ، وَهَذِهِ غَيْرُ جَائِزَةٍ؛ لِأَنَّ الْوَسَائِلَ لَا حَصْرَ لَهَا، وَلَا حَدَّ لَهَا؛ فَكُلُّ مَا كَانَ وَسِيلَةً لِخَيْرٍ فَهُوَ خَيْرٌ» (١) انْتَهَى.

***

=

المرام»، وغيرها الكثير؛ توفي سنة ١٤٢١ هـ، ودفن بمكة.

- راجع: ترجمته بقلم تلميذه وليد بن أحمد الحسين رئيس تحرير مجلة الحكمة؛ كما في مقدمة «شرح الواسطية» للشيخ رحمه الله، ط ابن الجوزي.

(١) «لقاء الباب المفتوح» (رقم: ١٥ / ص: ٢١).

تَمْهِيدٌ

لَا يَخْفَى عَلَى أَحَدٍ مَا لِأُسْلُوبِ الدَّعْوَةِ مِنْ أَهَمِّيَّةٍ بَالِغَةٍ فِي الوُصُولِ إِلَى قُلُوبِ وَعُقُولِ المَدْعُوِّينَ. فَكَمْ مِنْ دَعْوَةٍ صَحِيحَةٍ فَشِلَتْ فِي أَنْ تَجِدَ طَرِيقَهَا لِلْقُلُوبِ وَالعُقُولِ بِسَبَبِ أُسْلُوبِ دُعَاتِهَا، وَكَمْ مِنْ دَعْوَةٍ بَاطِلَةٍ أَثَّرَتْ تَأْثِيرًا بَالِغًا فِي النَّاسِ بِسَبَبِ أُسْلُوبِ دُعَاتِهَا الَّذِينَ يُلْبِسُونَ البَاطِلَ ثَوْبَ الحَقِّ.

فَالدَّاعِيَةُ النَّاجِحُ المُوَفَّقُ هُوَ الَّذِي يَخْتَارُ الأُسْلُوبَ المُنَاسِبَ فِي كَلِمَاتِهِ، وَتَرْتِيبِ أَفْكَارِهِ، وَطَرِيقَةِ عَرْضِهِ، وَجَمِيلِ عِبَارَاتِهِ، وَتَعْبِيرَاتِ وَجْهِهِ، وَطَبَقَةِ صَوْتِهِ، لِيَسَعَ جَمِيعَ المَدْعُوِّينَ عَلَى اخْتِلَافِ اعْتِقَادَاتِهِمْ وَأَعْمَارِهِمْ. فَالأُسْلُوبُ الَّذِي يُخَاطِبُ بِهِ غَيْرَ المُسْلِمِ يَخْتَلِفُ عَنِ الأُسْلُوبِ الَّذِي يُخَاطِبُ بِهِ المُسْلِمَ. وَهَكَذَا وَمَنْ تَتَبَّعَ المَنْهَجَ النَّبَوِيَّ فِي الدَّعْوَةِ إِلَى اللهِ، عَلِمَ أَنَّهُ ﷺ كَانَ يَخْتَارُ مِنَ الأَسَالِيبِ المُتَعَدِّدَةِ وَالمُتَنَوِّعَةِ مَا يُنَاسِبُ حَالَ المَدْعُوِّينَ؛ فَتَارَةً يَدْعُو بِحُسْنِ الخُلُقِ، وَتَارَةً بِالتَّرْغِيبِ، وَتَارَةً بِالتَّرْهِيبِ، وَتَارَةً بِالمَوْعِظَةِ، وَتَارَةً بِضَرْبِ المَثَلِ، وَالسُّؤَالِ، وَالإِشَارَةِ، وَالرَّسْمِ وَغَيْرِهَا مِنَ الأَسَالِيبِ الَّتِي يَصِلُ مِنْ خِلَالِهَا إِلَى قُلُوبِ وَعُقُولِ المَدْعُوِّينَ لِتَبْلِيغِ الرِّسَالَةِ بِحَقٍّ وَحِكْمَةٍ. وَمِنْ خِلَالِ مُعَايَشَتِي لِسِيرَتِهِ ﷺ تَعَلُّمًا وَتَعْلِيمًا أَسْتَطِيعُ أَنْ أُقَدِّمَ بَعْضَ هَذِهِ الأَسَالِيبِ النَّبَوِيَّةِ لِتَكُونَ عَوْنًا لِلدُّعَاةِ إِلَى اللهِ عَلَى بَصِيرَةٍ فِي المَبَاحِثِ التَّالِيَةِ:

❁

المَبْحَثُ الأَوَّلُ
تَعْلِيمُهُ ﷺ بِالقُدْوَةِ الحَسَنَةِ وَالخُلُقِ العَظِيمِ

لَقَدْ كَانَ النَّبِيُّ ﷺ قُدْوَةً لِلنَّاسِ فِي وَاقِعِ الأَرْضِ.. يَرَوْنَهُ وَهُوَ بَشَرٌ مِنْهُمْ تَتَمَثَّلُ فِيهِ صِفَاتٌ كَثِيرَةٌ حَسَنَةٌ، وَطَاقَاتٌ هَائِلَةٌ، فَيُصَدِّقُونَ وَيَنْبَهِرُونَ بِهَذِهِ المَبَادِئِ الحَيَّةِ؛ لأَنَّهُمْ لَا يَقْرَؤُنَهَا فِي كِتَابٍ؛ بَلْ يَرَوْنَهَا رَأْيَ العَيْنِ، وَيَرَوْنَهَا فِي بَشَرٍ فَتَتَحَرَّكُ لَهَا نُفُوسُهُمْ، وَتَهْفُو لَهَا مَشَاعِرُهُمْ..

لأَنَّهُ مَا مِنْ أَمْرٍ أَمَرَهُمْ بِهِ إِلَّا وَكَانَ أَوَّلَ المُنَفِّذِينَ لَهُ.. وَمَا مِنْ نَهْيٍ نَهَاهُمْ عَنْهُ إِلَّا وَكَانَ أَوَّلَ المُبْتَعِدِينَ عَنْهُ. وَمَا مِنْ حَدٍّ حَدَّهُ لَهُمْ إِلَّا وَكَانَ أَوَّلَ الوَقَّافِينَ عِنْدَهُ، وَمَا مِنْ صِفَةٍ وَلَا خُلُقٍ حَثَّهُمْ عَلَيْهِ إِلَّا وَكَانَ أَوَّلَ المُتَحَلِّيْنَ بِهِ.

- أَمَرَهُمْ بِتَصْحِيحِ العَقِيْدَةِ وَتَحْقِيقِ التَّوْحِيدِ؛ فَكَانَ أَعْرَفَ النَّاسِ بِاللهِ، وَأَشَدَّهُمْ لِلهِ خَشْيَةً.. فَكَانَ قُدْوَةً فِي العَقِيْدَةِ بِصَفَائِهَا وَشُمُولِهَا وَكَمَالِهَا.

- وَأَمَرَهُمْ بِالعِبَادَةَ فَقَامَ عَابِدًا بَيْنَ يَدَي اللهِ حَتَّى تَوَرَّمَتْ قَدَمَاهُ. وَلَمَّا قِيلَ لَهُ: قَدْ غَفَرَ اللهُ لَكَ مَا تَقَدَّمَ مِنْ ذَنْبِكَ وَمَا تَأَخَّرَ؛ فَقَالَ: «**أَفَلَا أَكُونُ عَبْدًا شَكُورًا؟**»(١). فَكَانَ ﷺ قُدْوَةً فِي العِبَادَةِ.

- وَأَمَرَهُمْ بِالجُودِ وَالإِنْفَاقِ؛ فَكَانَ أَجْوَدَ بِالخَيْرِ مِنَ الرِّيحِ المُرْسَلَةِ؛ فَفِي

---

(١) أخرجَهُ البخاريُّ، كتاب التهجد، باب قيام النبي ﷺ بالليل حتى تورمت قدماه (١٠٣٠)، ومسلمٌ، كتاب صفة القيامة والجنة والنار، باب إكثار الأعمال والاجتهاد في العبادة (٢٨١٩) عن المغيرة بن شعبة رضي الله عنه.

«صَحِيْحِ» مُسْلِم [١] عَنْ أَنَسِ بْنِ مَالِكٍ ﷺ قَالَ: مَا سُئِلَ رَسُولُ اللهِ ﷺ عَلَى الْإِسْلَامِ شَيْئًا إِلَّا أَعْطَاهُ، قَالَ: فَجَاءَهُ رَجُلٌ فَأَعْطَاهُ غَنَمًا بَيْنَ جَبَلَيْنِ، فَرَجَعَ إِلَى قَوْمِهِ، فَقَالَ: يَا قَوْمِ أَسْلِمُوا، فَإِنَّ مُحَمَّدًا يُعْطِي عَطَاءً لَا يَخْشَى الْفَاقَةَ، وَإِنْ كَانَ الرَّجُلُ لَيُسْلِمُ مَا يُرِيدُ إِلَّا الدُّنْيَا، فَمَا يُسْلِمُ حَتَّى يَكُونَ الْإِسْلَامُ أَحَبَّ إِلَيْهِ مِنَ الدُّنْيَا وَمَا عَلَيْهَا».

● وَأَمَرَهُمْ بِالحِلْمِ وَالرَّحْمَةِ وَالتَّوَاضُعِ؛ فَكَانَ أُسْتَاذًا للبَشَرِيَّةِ وَمُعَلِّمًا للإِنْسَانِيَّةِ فِي هَذَا المَيْدَانِ وَفِي كُلِّ مَيْدَانٍ، يَبْدَأُ أَصْحَابَهُ بِالسَّلَامِ، وَيَنْصَرِفُ بِكُلِّيَّتِهِ إِلَى مُحَدِّثِهِ صَغِيرًا كَانَ أَمْ كَبِيرًا، وَيَجْلِسُ حَيْثُ يَنْتَهِي بِهِ المَجْلِسُ، وَيَذْهَبُ إِلَى السُّوقِ، ويَحْمِلُ بِضَاعَتَهُ وَحَاجَتَهُ، وَيُجِيبُ دَعْوَةَ الحُرِّ وَالعَبْدِ، وَيَأْكُلُ مَعَ الخَادِمِ، وَيَقْضِي حَاجَةَ الضَّعِيفِ وَالمِسْكِينِ، وَيَأْكُلُ وَيَجْلِسُ عَلَى الأَرْضِ.

● وَأَمَرَهُمْ بِالتَّخَفُّفِ مِنَ الدُّنْيَا؛ فَكَانَ أَوَّلَ الزَّاهِدِينَ لَا عَنْ فَقْرٍ وَعَجْزٍ؛ بَلْ عَنْ قُوَّةٍ وَغِنَىً.. فَفِي «سُنَنِ» التِّرمِذِيِّ وَابْنِ مَاجَه، وَ«مُسْنَدِ» أَحْمَدَ [٢] مِنْ حَدِيثِ عَبْدِ اللهِ بْنِ مَسْعُودٍ ﷺ قَالَ: نَامَ رَسُولُ اللهِ ﷺ عَلَى حَصِيرٍ فَقَامَ وَقَدْ أَثَّرَ فِي جَنْبِهِ، فَقُلْنَا: يَا رَسُولَ اللهِ لَوِ اتَّخَذْنَا لَكَ وِطَاءً - أي: فِرَاشًا لَيِّنًا -؛ فَقَالَ: «**مَا لِي وَلِلدُّنْيَا، مَا أَنَا فِي الدُّنْيَا إِلاَّ كَرَاكِبٍ اسْتَظَلَّ تَحْتَ شَجَرَةٍ ثُمَّ رَاحَ وَتَرَكَهَا**».

---

(١) أخرجَهُ مسلمٌ، كتاب الفضائل، باب ما سئل رسول الله ﷺ شيئًا قط فقال: لا. وكثرة عطائه (٢٣١٢) (٥٨).

(٢) أخرجه الترمذيُّ، كتاب الزهد، باب (٤٤) (٢٣٧٧) وقال: «حسن صحيح»، وابن ماجه، كتاب الزهد، باب مثل الدنيا (٤١٠٩)، وأحمد (١/ ٣٩١)، والطيالسي في «مسنده» (٢٧٥)، وصححه الألباني في «الصحيحة» (٤٣٨). وله شاهدٌ عن ابن عباسٍ؛ انظره في «الصحيحة» (٤٣٩).

● وَأَمَرَهُمْ بِعَدَمِ الاسْتِعْجَالِ وَالصَّبْرِ عَلَى البَلَاءِ؛ فَكَانَ طَوْدًا شَامِخًا، وَجَبَلاً ثَابِتًا تَحَطَّمَتْ عَلَيْهِ كُلُّ سُيُوفِ وَرِمَاحِ أَهْلِ الشِّرْكِ.

فَفِي «الصَّحِيْحَيْنِ»(١) مِنْ حَدِيْثِ عَبْدِ اللهِ بْنِ مَسْعُودٍ رضي الله عنه قَالَ: قَسَمَ النَّبِيُّ ﷺ قَسْمًا؛ فقَالَ رَجُلٌ: إِنَّ هَذِهِ لَقِسْمَةٌ مَا أُرِيدَ بِهَا وَجْهُ اللَّهِ، فَأَتَيْتُ النَّبِيَّ ﷺ فَأَخْبَرْتُهُ، فَغَضِبَ حَتَّى رَأَيْتُ الغَضَبَ فِي وَجْهِهِ، ثُمَّ قَالَ: «يَرْحَمُ اللهُ مُوسَى، قَدْ أُوذِيَ بِأَكْثَرَ مِنْ هَذَا فَصَبَرَ».

● وَأَمَرَهُمْ بِالجِهَادِ فِي سَبِيلِ اللهِ؛ فَكَانَ فِي صَدْرِ الصُفُوفِ إِذَا حَمِيَ الوَطِيسُ، وَاشْتَدَّتِ المَعْرَكَةُ، وَفَرَّ الرِّجَالُ، وَقَفَ الحَبِيبُ يُنَادِي بِأَعْلَى صَوْتِهِ وَيَقُولُ: «أَنَا النَّبِيُّ لاَ كَذِبْ، أَنَا ابْنُ عَبْدِ المُطَّلِبْ»(٢).

فَمَبْلَغُ العِلْمِ فِيهِ أَنَّهُ بَشَرٌ   وَأَنَّهُ خَيْرُ خَلْقِ اللهِ كُلِّهِمِ (٣)

وَهَكَذَا كَانَ الحَبِيبُ ﷺ قُدْوَةً لَيسَ لَهَا فِي تَارِيخِ العَالَمِينَ نَظِيرٌ؛ فَانْجَذَبَتْ إِلَيْهِ قُلُوبُ أَصْحَابِهِ، وَعَشِقَتْهُ نُفُوسُهُمْ، وَأَحَبُّوهُ أَكْثَرَ مِنْ أَنْفُسِهِمْ وَأَمْوَالِهِمْ وَأَوْلَادِهِمْ، فَبَذَلُوا أَمْوَالَهُمْ وَأَرْوَاحَهُمْ وَدِمَاءَهُمْ دُونَهُ.

فَرَسُولُ اللهِ ﷺ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ وَقُدْوَةٌ طَيِّبَةٌ لِأُمَّتِهِ فِي أَخْلَاقِهِ وَأَفْعَالِهِ وَأَحْوَالِهِ؛ قَالَ تَعَالَى: ﴿لَّقَدْ كَانَ لَكُمْ فِي رَسُولِ ٱللَّهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ لِّمَن كَانَ يَرْجُواْ ٱللَّهَ وَٱلْيَوْمَ ٱلْآخِرَ

---

(١) أخرجه البخاريُّ، كتاب أحاديث الأنبياء، باب (٢٨) (٣٤٠٥)، ومسلمٌ، كتاب الزكاة، باب إعطاء المؤلفة قلوبهم على الإسلام (١٠٦٢).

(٢) أخرجه البخاريُّ، كتاب الجهاد والسير، باب من صفَّ أصحابه عند الهزيمة ونزل عن دابته واستنصر (٢٩٣٠)، ومسلمٌ، كتاب الجهاد، باب في غزوة حنين (١٧٧٦) عن البراء ابن عازب رضي الله عنه.

(٣) «العمدة في إعراب البردة» (ص:٤١) (رقم:٥١).

وَذَكَرَ ٱللَّهَ كَثِيرًا ﴾ [الأحزاب:٢١].

وَلِمَ لَا؟ وَهُوَ الَّذِي بُعِثَ بِالأَخْلَاقِ العَالِيَةِ، وَالخِصَالِ الشَّرِيفَةِ السَّامِيَةِ؛ بَلْ لَقَدْ عَلَا عَلَى كُلِّ الأَخْلَاقِ؛ قَالَ تَعَالَى: ﴿ وَإِنَّكَ لَعَلَىٰ خُلُقٍ عَظِيمٍ ﴾ [القلم:٤].

وَفِي «**الصَّحِيْحَيْنِ**»(١) عَنْ أَنَسِ بْنِ مَالِكٍ ﷺ قَالَ: «كَانَ رَسُولُ اللهِ ﷺ أَحْسَنَ النَّاسِ خُلُقًا».

وَفِي «**صَحِيْحِ** مُسْلِمٍ» (٢) عَنْ سَعْدِ بْنِ هِشَامِ بْنِ عَامِرٍ (٣) قُلْتُ: يَا أُمَّ الْمُؤْمِنِينَ أَنْبِئِيْنِي عَنْ خُلُقِ رَسُولِ اللهِ ﷺ؟ قَالَتْ: «أَلَسْتَ تَقْرَأُ الْقُرْآنَ؟» قُلْتُ: بَلَى، قَالَتْ: «فَإِنَّ خُلُقَ نَبِيِّ اللهِ ﷺ كَانَ الْقُرْآنَ».

قَالَ الْإِمَامُ الشَّاطِبِيُّ رحمه الله **فِي كِتَابِهِ «الاعْتِصَامِ»** (٤): «وَإِنَّمَا كَانَ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ خُلُقُهُ الْقُرْآنَ؛ لِأَنَّهُ حَكَّمَ الْوَحْيَ عَلَى نَفْسِهِ، حَتَّى صَارَ فِي عِلْمِهِ وَعَمَلِهِ عَلَى وَفْقِهِ؛ فَكَانَ الْوَحْيُ حَاكِمًا مُوَافِقًا قَائِلًا، وَكَانَ هُوَ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ مُذْعِنًا مُلَبِّيًا وَاقِفًا عِنْدَ حُكْمِهِ.

وَهَذِهِ الْخَاصِّيَّةُ كَانَتْ مِنْ أَعْظَمِ الْأَدِلَّةِ عَلَى صِدْقِهِ فِيمَا جَاءَ بِهِ، إِذْ قَدْ جَاءَ بِالْأَمْرِ وَهُوَ مُؤْتَمِرٌ، وَبِالنَّهْيِ وَهُوَ مُنْتَهٍ، وَبِالْوَعْظِ وَهُوَ مُتَّعِظٌ، وَبِالتَّخْوِيفِ وَهُوَ أَوَّلُ الْخَائِفِينَ، وَبِالتَّرْجِيَةِ وَهُوَ سَائِقُ دَابَّةِ الرَّاجِينَ.

---

(١) تقدم في الفصل الثاني (ص: ٩٩).

(٢) أخرجه مسلمٌ، كتاب صلاة المسافرين وقصرها، باب جامع صلاة الليل ومن نام عنه أو مرض (٧٤٦).

(٣) هو الأنصاريُّ المدنيُّ ابن عم أنس، ثقة، مات في غزاةٍ على أحسن أحواله، روى له الجماعة. راجع: «التهذيب» (٣/ ٤٨٣).

(٤) (٢/ ٣٣٩، ٣٤٠) باختصارٍ يسيرٍ. ط المكتبة التجارية الكبرى. مصر.

وَحقِيقَةُ ذَلِكَ كُلِّهِ: جَعْلُهُ الشَّرِيعَةَ الْمُنَزَّلَةَ عَلَيْهِ حُجَّةً حَاكِمَةً عَلَيْهِ، وَدَلَالَةً لَهُ عَلَى الصِّرَاطِ الْمُسْتَقِيمِ الَّذِي سَارَ عَلَيْهِ ﷺ.

وَلِذَلِكَ صَارَ عَبْدَ الله حَقًّا، وَهُوَ أَشْرَفُ اسْمٍ تَسَمَّى بِهِ الْعِبَادُ؛ قَالَ تَعَالَى: ﴿سُبْحَٰنَ ٱلَّذِىٓ أَسْرَىٰ بِعَبْدِهِۦ لَيْلًا مِّنَ ٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ﴾ [الإسراء:١]، وَقَالَ أَيْضًا: ﴿تَبَارَكَ ٱلَّذِى نَزَّلَ ٱلْفُرْقَانَ عَلَىٰ عَبْدِهِۦ﴾ [الفرقان:١].

وَقَالَ أَيْضًا: ﴿وَإِن كُنتُمْ فِى رَيْبٍ مِّمَّا نَزَّلْنَا عَلَىٰ عَبْدِنَا﴾ [البقرة:٢٣]، وَمَا أَشْبَهَ ذَلِكَ مِنَ الْآيَاتِ الَّتِي وَقَعَ مَدْحُهُ فِيهَا بِصِفَةِ الْعُبُودِيَّةِ.

وَإِذَا كَانَ كَذَلِكَ فَسَائِرُ الْخَلْقِ حَرِيُّونَ بِأَنْ تَكُونَ الشَّرِيعَةُ حُجَّةً حَاكِمَةً عَلَيْهِمْ، وَمَنَارًا يَهْتَدُونَ بِهَا إِلَى الْحَقِّ، وَشَرَفُهُمْ إِنَّمَا يَثْبُتُ بِحَسَبِ مَا اتَّصَفُوا بِهِ مِنَ الدُّخُولِ تَحْتَ أَحْكَامِهَا، وَالْعَمَلِ بِهَا قَوْلًا وَاعْتِقَادًا وَعَمَلًا، لَا بِحَسَبِ عُقُولِهِمْ فَقَطْ، وَلَا بِحَسَبِ شَرَفِهِمْ فِي قَوْمِهِمْ فَقَطْ؛ لِأَنَّ الله تَعَالَى إِنَّمَا أَثْبَتَ الشَّرَفَ بِالتَّقْوَى لَا غَيْرِهَا؛ لِقَوْلِهِ: ﴿إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِندَ ٱللَّهِ أَتْقَىٰكُمْ﴾ [الحُجُرات:١٣].

فَمَنْ كَانَ أَشَدَّ مُحَافَظَةً عَلَى اتِّبَاعِ الشَّرِيعَةِ، فَهُوَ أَوْلَى بِالشَّرَفِ وَالكَرَمِ، وَمَنْ كَانَ دُونَ ذَلِكَ لَمْ يُمْكِنْ أَنْ يَبْلُغَ فِي الشَّرَفِ مَبْلَغَ الْأَعْلَى فِي اتِّبَاعِهَا؛ فَالشَّرَفُ إِذًا إِنَّمَا هُوَ بِحَسَبِ الْمُبَالَغَةِ فِي تَحْكِيمِ الشَّرِيعَةِ». انْتَهَى.

○ وَالنَّمَاذِجُ فِي تَعْلِيمِهِ ﷺ بِالْقُدْوَةِ كَثِيرَةٌ مُسْتَفِيضَةٌ، أَكْتَفِي بِذِكْرِ بَعْضِهَا:

فَفِي «صَحِيْحِ» مُسْلِمٍ [١] مِنْ حَدِيثِ جَابِرِ بْنِ عَبْدِ اللهِ رضي الله عنهما قَالَ: أَتَانَا رَسُولُ اللهِ ﷺ فِي مَسْجِدِنَا هَذَا، وَفِي يَدِهِ عُرْجُونُ ابْنِ طَابٍ [٢]، فَرَأَى فِي قِبْلَةِ الْمَسْجِدِ نُخَامَةً [٣]، فَحَكَّهَا بِالْعُرْجُونِ. ثُمَّ أَقْبَلَ عَلَيْنَا؛ فَقَالَ: «**أَيُّكُمْ يُحِبُّ أَنْ يُعْرِضَ اللهُ عَنْهُ؟!**»، قَالَ: فَخَشَعْنَا [٤]، ثُمَّ قَالَ: «**أَيُّكُمْ يُحِبُّ أَنْ يُعْرِضَ اللهُ عَنْهُ؟!**»، قَالَ: فَخَشَعْنَا، ثُمَّ قَالَ: «**أَيُّكُمْ يُحِبُّ أَنْ يُعْرِضَ اللهُ عَنْهُ؟!**». قُلْنَا: لاَ أَيُّنَا يَا رَسُولَ اللهِ [٥]. قَالَ: «**فَإِنَّ أَحَدَكُمْ إِذَا قَامَ يُصَلِّي، فَإِنَّ اللهَ تَبَارَكَ وَتَعَالَى قِبَلَ وَجْهِهِ، فَلاَ يَبْصُقَنَّ قِبَلَ وَجْهِهِ، وَلاَ عَنْ يَمِينِهِ، وَلْيَبْصُقْ عَنْ يَسَارِهِ تَحْتَ رِجْلِهِ الْيُسْرَى، فَإِنْ عَجِلَتْ بِهِ بَادِرَةٌ، فَلْيَقُلْ بِثَوْبِهِ هَكَذَا** [٦]»، ثُمَّ طَوَى ثَوْبَهُ بَعْضَهُ عَلَى بَعْضٍ - وَفِي رِوَايَةِ أَبِي دَاوُدَ [٧]: وَوَضَعَ ثَوْبَهُ عَلَى فِيهِ ثُمَّ دَلَكَهُ - ثُمَّ قَالَ: «**أَرُونِي عَبِيرًا**»؛ فَقَامَ فَتًى مِنَ الْحَيِّ يَشْتَدُّ إِلَى أَهْلِهِ، فَجَاءَ بِخَلُوقٍ فِي رَاحَتِهِ، فَأَخَذَهُ رَسُولُ اللهِ ﷺ، فَجَعَلَهُ عَلَى رَأْسِ الْعُرْجُونِ، ثُمَّ لَطَخَ بِهِ عَلَى أَثَرِ النُّخَامَةِ.

---

(١) أخرجه مسلمٌ، كتاب الزهد والرقائق، باب حديث جابر الطويل وقصة أبي اليسر (٣٠٠٨).

(٢) ابنُ طاب: رجل من أهل المدينة، ينسب إليه نوعٌ من تمرها، ومن عادتهم أنهم ينسبون ألوان التمر كلَّ لون إلى نسبة، والعرجون هو العود الأصفر العريض الخالي من الرطب إذا يبس واعوجَّ، وسُمِّي «عرجونًا» لانعراجه وانعطافه؛ أي: كان بيده ﷺ عودٌ من شجر ذلك التمر. راجع: «شرح النووي» (١٥/ ٣١)، و«عون المعبود» (٢/ ١٠٣) للعظيم آبادي ط المكتبة العلمية، و«النهاية» (٣/ ٤٣٢).

(٣) النخامة: هي البزقة تخرج من أقصى الحلق، وهي البلغم. «النهاية» (٥/ ٧٨).

(٤) يعني: أطرقنا برؤوسنا وأبصارنا إلى الأرض.

(٥) يعني: لا أحد منا يحبُّ ذلك يا رسول الله.

(٦) أي: فليفعل بثوبه هكذا، كما فعل النبيُّ ﷺ.

(٧) عند أبي داود، كتاب الصلاة، باب في كراهية البزاق في المسجد (٤٨٥).

قَالَ جَابِرٌ: فَمِنْ هُنَاكَ جَعَلْتُمُ الْخَلُوقَ فِي مَسَاجِدِكُمْ.

وَفِي «صَحِيحِ» الْبُخَارِيِّ [١] عَنِ ابْنِ أَبَانَ [٢] أَخْبَرَهُ، قَالَ: «أَتَيْتُ عُثْمَانَ بِطَهُورٍ، وَهُوَ جَالِسٌ عَلَى الْمَقَاعِدِ، فَتَوَضَّأَ فَأَحْسَنَ الْوُضُوءَ، ثُمَّ قَالَ: رَأَيْتُ النَّبِيَّ ﷺ يَتَوَضَّأُ وَهُوَ فِي هَذَا الْمَجْلِسِ، فَأَحْسَنَ الْوُضُوءَ ثُمَّ قَالَ: «مَنْ تَوَضَّأَ مِثْلَ هَذَا الْوُضُوءِ، ثُمَّ أَتَى الْمَسْجِدَ فَرَكَعَ رَكْعَتَيْنِ، (لَا يُحَدِّثُ فِيهِمَا نَفْسَهُ) [٣]، ثُمَّ جَلَسَ، غُفِرَ لَهُ مَا تَقَدَّمَ مِنْ ذَنْبِهِ»، قَالَ: وَقَالَ النَّبِيُّ ﷺ: «لَا تَغْتَرُّوا».

قَالَ الْحَافِظُ ابْنُ حَجَرٍ فِي «فَتْحِ الْبَارِي» [٤]: «فِي الْحَدِيثِ التَّعْلِيمُ بِالْفِعْلِ؛ لِكَوْنِهِ أَبْلَغَ وَأَضْبَطَ لِلْمُتَعَلِّمِ، وَقَوْلُهُ ﷺ «لَا تَغْتَرُّوا» مَعْنَاهُ: لَا تَحْمِلُوا الْغُفْرَانَ عَلَى عُمُومِهِ فِي جَمِيعِ الذُّنُوبِ، فَتَسْتَرْسِلُوا فِي الذُّنُوبِ اتِّكَالًا عَلَى غُفْرَانِهَا بِالصَّلَاةِ؛ فَإِنَّ الصَّلَاةَ الَّتِي تُكَفِّرُ الذُّنُوبَ هِيَ الْمَقْبُولَةُ، وَلَا اطِّلَاعَ لِأَحَدٍ عَلَيْهِ، ثُمَّ الْمُكَفَّرُ بِالصَّلَاةِ هِيَ الصَّغَائِرُ فَقَطْ، دُونَ الْكَبَائِرِ وَحُقُوقِ الْعِبَادِ».

---

(١) أخرجه البخاريُّ، كتاب الرقاق، باب قول الله ﷻ: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِنَّ وَعۡدَ ٱللَّهِ حَقٌّۖ﴾ (٦٤٣٣).

(٢) هو حمران بن أبان مولى عثمان الفارسي الفقيه، كان من سبي عين التمر، ابتاعه عثمان من المسيب بن نجبة، أدرك أبا بكر وعمر، وروى عن عثمان ومعاوية، تابعيٌّ من أهل المدينة ومحدثيهم، كان يصلي مع عثمان؛ فإذا أخطأ فتح عليه، وكان أحد العلماء الجلة أهل الوجاهة والرأي والشرف؛ مات سنة (٧١)، وقيل: (٧٦).

● راجع: «سير أعلام النبلاء» (٥٧٧)، و«تهذيب التهذيب» (٣/ ٢٤ـ ٢٥).

(٣) أي: لا يشغل فيها نفسه وخاطره بشيء من أمور الدنيا، وهذه الجملة «لَا يُحَدِّثُ فِيهِمَا نَفْسَهُ» من رواية أخرى عند البخاريِّ، كتاب الوضوء، باب الوضوء ثلاثًا ثلاثًا (١٥٩).

(٤) «الفتح» (١/ ٢٢٨) و(١١/ ٢١٤) بتصرفٍ.

وَقَدْ صَلَّى مَرَّةً بِالنَّاسِ إِمَامًا، وَهُوَ عَلَى الْمِنْبَرِ؛ لِيَرَوْا صَلَاتَهُ كُلُّهُمْ، وَلِيَتَعَلَّمُوهَا مِنْ أَفْعَالِهِ وَمُشَاهَدَتِهِ ﷺ:

فَفِي «الصحيحين» [١] - وَاللَّفْظُ لِلْبُخَارِيِّ - عَنْ سَهْلِ بْنِ سَعْدٍ السَّاعِدِيِّ ﵁ قَالَ: رَأَيْتُ رَسُولَ الله ﷺ قَامَ عَلَى الْمِنْبَرِ، فَاسْتَقْبَلَ الْقِبْلَةَ، وَكَبَّرَ، وَقَامَ النَّاسُ خَلْفَهُ، فَقَرَأَ وَرَكَعَ، وَرَكَعَ النَّاسُ خَلْفَهُ، ثُمَّ رَفَعَ رَأْسَهُ، ثُمَّ رَجَعَ الْقَهْقَرَى [٢]، فَسَجَدَ عَلَى الْأَرْضِ، ثُمَّ عَادَ إِلَى الْمِنْبَرِ، ثُمَّ قَرَأَ، ثُمَّ رَكَعَ، ثُمَّ رَفَعَ رَأْسَهُ، ثُمَّ رَجَعَ الْقَهْقَرَى حَتَّى سَجَدَ بِالْأَرْضِ، فَلَمَّا فَرَغَ أَقْبَلَ عَلَى النَّاسِ؛ فَقَالَ: «**أَيُّهَا النَّاسُ، إِنَّمَا صَنَعْتُ هَذَا لِتَأْتَمُّوا بِي، وَلِتَعَلَّمُوا صَلَاتِي**».

أَيْ: لِتَتَعَلَّمُوا صَلَاتِي؛ قَالَ الْإِمَامُ النَّوَوِيُّ فِي «شَرْحِ صَحِيحِ مُسْلِمٍ» [٣]: «فَبَيَّنَ لَهُمْ ﷺ أَنَّ صُعُودَهُ الْمِنْبَرَ، وَصَلَاتَهُ عَلَيْهِ، إِنَّمَا كَانَ لِلتَّعْلِيمِ؛ لِيَرَى جَمِيعُهُمْ أَفْعَالَهُ ﷺ، بِخِلَافِ مَا إِذَا كَانَ عَلَى الْأَرْضِ، فَإِنَّهُ لَا يَرَاهُ إِلَّا بَعْضُهُمْ مِمَّنْ قَرُبَ مِنْهُ».

وَقَالَ الْحَافِظُ ابْنُ حَجَرٍ فِي «فَتْحِ الْبَارِي» [٤]: «وَعُرِفَ مِنْ قَوْلِهِ ﷺ: «**أَيُّهَا النَّاسُ، إِنَّمَا صَنَعْتُ هَذَا لِتَأْتَمُّوا بِي، وَلِتَعَلَّمُوا صَلَاتِي**»، أَنَّ الْحِكْمَةَ فِي صَلَاتِهِ فِي أَعْلَى الْمِنْبَرِ؛ لِيَرَاهُ مَنْ قَدْ يَخْفَى عَلَيْهِ رُؤْيَتُهُ إِذَا صَلَّى عَلَى الْأَرْضِ. وَيُسْتَفَادُ مِنْهُ

---

(١) أخرجه البخاريُّ، كتاب الصلاة، باب الصلاة في السطوح والمنبر والخشب (٣٧٧)، وفي كتاب الجمعة، باب الخطبة عَلَى المنبر (٩١٧)، ومسلمٌ، كتاب المساجد، باب جواز الخطوة والخطوتين في الصلاة (٥٤٤).

(٢) القهقرى: المشي إلى خلف، والحامل عَلَى رجوعه القهقرى هو المحافظة عَلَى استقبال القبلة.

(٣) «شرح صحيح مسلم» (٥/ ٧٥).

(٤) «فتح الباري» (٢/ ٣٣١).

أَنَّ مَنْ فَعَلَ شَيْئًا يُخَالِفُ الْعَادَةَ - يَنْبَغِي - أَنْ يُبَيِّنَ حِكْمَتَهُ لِأَصْحَابِهِ. وَفِيهِ جَوَازُ قَصْدِ تَعْلِيمِ الْمَأْمُومِينَ أَفْعَالَ الصَّلَاةِ بِالْفِعْلِ، وَجَوَازُ الْعَمَلِ الْيَسِيرِ فِي الصَّلَاةِ، وَكَذَا الْكَثِيرُ إِنْ تَفَرَّقَ، وَفِيهِ اسْتِحْبَابُ اتِّخَاذِ الْمِنْبَرِ؛ لِكَوْنِهِ أَبْلَغَ فِي مُشَاهَدَةِ الْخَطِيبِ وَالسَّمَاعِ مِنْهُ». انْتَهى.

۞

المَبْحَثُ الثَّاني
تَعْلِيمُهُ ﷺ بإقامة الحُجَّة

قَدْ لَا تُدْفَعُ الشُّبْهَةُ أَحْيَانًا بِالمَوْعِظَةِ وَلَوْ كَانَتْ مُؤَثِّرَةً؛ بَلْ تَحْتَاجُ إِلَى حُجَّةٍ دَامِغَةٍ، وَدَلَالَةٍ بَلِيغَةٍ قَاطِعَةٍ، وَكَلِمَاتٍ سَاطِعَةٍ تُخَاطِبُ العَقْلَ وَالقَلْبَ مَعًا دُونَ تَسْفِيهٍ للمُخَاطَبِ أَوْ تَحْقِيرِهِ؛ بَلْ بِتَحْرِيكِ عَقْلِهِ وَوِجْدَانِهِ مَعًا لِيَصِلَ إِلَى الحَقِّ الَّذِي يَقْتَلِعُ مِنْ قَلْبِهِ جُذُورَ الشَّهْوَةِ وَالبَاطِلِ.

فَفِي الحَدِيثِ الَّذِي رَوَاهُ أَحْمَدُ، وَاللَّفْظُ لَهُ، وَالطَّبَرَانِيُّ (١) عَنْ أَبِي أُمَامَةَ الْبَاهِلِيِّ رضي الله عنه : أَنَّ فَتًى شَابًّا أَتَى النَّبِيَّ ﷺ؛ فَقَالَ: يَا رَسُولَ الله ائْذَنْ لِي بِالزِّنَا، فَأَقْبَلَ الْقَوْمُ عَلَيْهِ فَزَجَرُوهُ، قَالُوا: مَهْ مَهْ (٢).

فَقَالَ ﷺ: «**ادْنُهْ**»(٣)، فَدَنَا مِنْهُ قَرِيبًا قَالَ: فَجَلَسَ، فَقَالَ ﷺ: «**أَتُحِبُّهُ لِأُمِّكَ؟**»، قَالَ: لَا والله يَا رَسُولَ الله جَعَلَنِي الله فِدَاءَكَ، قَالَ: «**وَلَا النَّاسُ يُحِبُّونَهُ لِأُمَّهَاتِهِمْ**».

قَالَ: «**أَفَتُحِبُّهُ لِابْنَتِكَ؟**» قَالَ: لَا وَاللهِ يَا رَسُولَ الله جَعَلَنِي الله فِدَاءَكَ، قَالَ:

---

(١) أخرجه أحمد (٥/ ٢٥٦)، والطبرانيُّ في «المعجم الكبير» (٨/ ١٦٢ و١٨٣) (رقم ٧٦٧٩ و ٧٧٥٩)، وقال الهيثميُّ في «مجمع الزوائد» (١/ ١٢٩): «رجال إسناد هذا الحديث رجال الصحيح»، وقال الحافظ العراقيُّ في «تخريج أحاديث الإحياء» في كتاب الأمر بالمعروف، في باب آداب المحتسب: «روى هذا الحديث أحمد بإسنادٍ جيدٍ رجالُه رجال الصحيح»، وصحَّحه الألبانيُّ في «الصحيحة» (٣٧٠).

(٢) لفظ «مه» اسم فعل أمر، معناه: اكفف. «اللسان» (٣/ ٢١٣).

(٣) هو فعل أمر من الدنو، وهو القرب، والهاء فيه للسكت جيء بها لبيان الحركة؛ كما في «النهاية» لابن الأثير (٢/ ٣٣).

«وَلَا النَّاسُ يُحِبُّونَهُ لِبَنَاتِهِمْ».

قَالَ: «أَفَتُحِبُّهُ لِأُخْتِكَ؟» قَالَ: لَا وَاللهِ يَا رَسُولَ اللهِ جَعَلَنِي اللهُ فِدَاءَكَ، قَالَ: «وَلَا النَّاسُ يُحِبُّونَهُ لِأَخَوَاتِهِمْ».

قَالَ: «أَفَتُحِبُّهُ لِعَمَّتِكَ؟» قَالَ: لَا وَاللهِ يَا رَسُولَ اللهِ جَعَلَنِي اللهُ فِدَاءَكَ، قَالَ: «وَلَا النَّاسُ يُحِبُّونَهُ لِعَمَّاتِهِمْ».

قَالَ: «أَفَتُحِبُّهُ لِخَالَتِكَ؟» قَالَ: لَا وَاللهِ يَا رَسُولَ اللهِ جَعَلَنِي اللهُ فِدَاءَكَ، قَالَ: «وَلَا النَّاسُ يُحِبُّونَهُ لِخَالَاتِهِمْ».

قَالَ: فَوَضَعَ يَدَهُ عَلَيْهِ، وَقَالَ: «اللهمَّ اغْفِرْ ذَنْبَهُ، وَطَهِّرْ قَلْبَهُ، وَحَصِّنْ فَرْجَهُ»، فَلَمْ يَكُنْ بَعْدُ ذَلِكَ الْفَتَى يَلْتَفِتُ إِلَى شَيْءٍ».

وَهَكَذَا اسْتَطَاعَ النَّبِيُّ ﷺ - بِكُلِّ حِكْمَةٍ وَرَحْمَةٍ - أَنْ يَجْتَثَّ مِنْ قَلْبِهِ كُلَّ دَاعٍ إِلَى الفَاحِشَةِ، وَكُلَّ بَاعِثٍ إِلَى الشَّهْوَةِ وَالحَرَامِ بِحِوَارٍ عَقْلِيٍّ هَادِئٍ، وَمُحَاكَمَةٍ قَوِيَّةٍ مُقْنِعَةٍ.

وَمِنَ الأَمْثِلَةِ أَيْضًا عَلَى ذَلِكَ؛ مَا رَوَاهُ الْبُخَارِيُّ وَمُسْلِمٌ [١]، وَاللَّفْظُ لِلْبُخَارِيِّ، عَنْ أَبِي سَعِيدٍ الْخُدْرِيِّ رضي الله عنه قَالَ: خَرَجَ رَسُولُ اللهِ ﷺ فِي أَضْحَى أَوْ فِطْرٍ إِلَى الْمُصَلَّى [٢]، فَمَرَّ عَلَى النِّسَاءِ؛ فَقَالَ: «**يَا مَعْشَرَ النِّسَاءِ تَصَدَّقْنَ، فَإِنِّي أُرِيتُكُنَّ أَكْثَرَ أَهْلِ النَّارِ** [٣]»؛ فَقُلْنَ: وَبِمَ يَا رَسُولَ اللهِ؟ قَالَ: «**تُكْثِرْنَ اللَّعْنَ، وَتَكْفُرْنَ الْعَشِيرَ** [٤]، **مَا رَأَيْتُ مِنْ نَاقِصَاتِ عَقْلٍ وَدِينٍ أَذْهَبَ لِلُبِّ الرَّجُلِ الْحَازِمِ**

---

(١) أخرجه البخاريُّ، كتاب الحيض، باب ترك الحائض الصوم (٣٠٤)، وأخرجه مسلمٌ، كتاب الإيمان، باب بيان نقصان الإيمان بنقصان الطاعات (٧٩) عن ابن عمر رضي الله عنهما، وفي (٨٠) عن أبي هريرة رضي الله عنه.

(٢) أي: مصلَّى العيد.

(٣) إن الله سبحانه وتعالى أراهن له كذلك في ليلة الإسراء.

(٤) أي: الزوج، تكفرن نعمته، وتجحدنها لأدنى خصومة أو خلاف!

مِنْ إِحْدَاكُنَّ».

قُلْنَ: وَمَا نُقْصَانُ دِينِنَا وَعَقْلِنَا يَا رَسُولَ اللهِ؟ قَالَ: «**أَلَيْسَ شَهَادَةُ الْمَرْأَةِ مِثْلَ نِصْفِ شَهَادَةِ الرَّجُلِ؟**» قُلْنَ: بَلَى، قَالَ: «**فَذَلِكَ** [1] **مِنْ نُقْصَانِ عَقْلِهَا، أَلَيْسَ إِذَا حَاضَتْ لَمْ تُصَلِّ وَلَمْ تَصُمْ؟**»، قُلْنَ: بَلَى، قَالَ: «**فَذَلِكَ مِنْ نُقْصَانِ دِينِهَا**».

---

(١) قال الحافظ ابن حجر في «فتح الباري» (١/ ٤٨٤): «بكسر الكاف خطابًا للواحدة التي تولَّت الخطاب، ويجوز فتحُها عَلَى أنه للخطاب العام».

المَبْحَثُ الثَّالِثُ
تَعْلِيمُهُ ﷺ بِالوَعْظِ وَالتَّذْكِيرِ وَالقَصَصِ

إِنَّ فِي النَّفْسِ البَشَرِيَّةِ اسْتِعْدَادًا كَبِيرًا لِلتَّأَثُّرِ بِمَا تَسْمَعُ، وَهُوَ فِي الغَالِبِ اسْتِعْدَادٌ مُؤَقَّتٌ، وَلِذَلِكَ يَلْزَمُهُ التَّكْرَارُ.

وَالمَوْعِظَةُ المُؤَثِّرَةُ الصَّادِقَةُ تَفْتَحُ طَرِيقَهَا إِلَى النَّفْسِ مُبَاشَرَةً، وَتَهُزُّ القَلْبَ، وَتُحَرِّكُ الوِجْدَانَ. وَالقُرْآنُ الكَرِيمُ مَلِيءٌ بِالآيَاتِ الكَرِيمَةِ الَّتِي تَتَّخِذُ أُسْلُوبَ الوَعْظِ أَسَاسًا لِمَنْهَجِ التَّرْبِيَةِ وَالدَّعْوَةِ، وَطَرِيقًا لِلْوُصُولِ لِإِصْلَاحِ الفَرْدِ وَالمُجْتَمَعِ؛ فَهِي تَخْتَرِقُ طَرِيقَهَا إِلَى القُلُوبِ فَتَخْشَعَ، وَإِلَى العُيُونِ فَتَدْمَعَ.

وَلِذَا؛ كَانَ رَسُولُ اللهِ ﷺ يَتَخَوَّلُ أَصْحَابَهُ بِالمَوْعِظَةِ مُذَكِّرًا وَمُرَغِّبًا.

رَوَى أَبُو دَاوُدَ، وَالتِّرْمِذِيُّ، وَابْنُ مَاجَه (١)، وَالسِّيَاقُ لِأَبِي دَاوُدَ، عَنْ عَبْدِالرَّحْمَنِ بْنِ عَمْرٍو السُّلَمِيِّ (٢) وَحُجْرِ بْنِ حُجْرٍ (١)، قَالَا: أَتَيْنَا العِرْبَاضَ بْنَ

---

(١) أخرجه أحمد (٤/ ١٢٦، ١٢٧)، وأبو داود، كتاب السنة، باب في لزوم السنة (٤٦٠٧)، والترمذيُّ، كتاب العلم، باب ما جاء في الأخذ بالسنة واجتناب البدع (٢٦٧٦)، وقال: «هذا حديث حسن صحيح»، وابن ماجه في المقدمة، باب اتباع سنة الخلفاء الراشدين المهديين (٤٢)، وصحَّحَه الألبانيُّ في «صحيح الجامع» (٢٥٤٩)، و«الإرواء» (٢٤٥٥)، و«الصحيحة» (٢٧٣٥).

(٢) هو عبد الرحمن بن عمرو بن عبسة السلمي الشامي، مقبول، من الثالثة، ذكره ابن حبان في «الثقات» (١١٧٥)، ولكن جهَّله ابن القطان في «بيان الوهم والإيهام» (٤/ ٨٨) ط طيبة. الرياض. سنة ١٤٠٨هـ. توفي سنة عشر ومائة في خلافة هشام بن عبد الملك؛ قاله ابن سعد في «الطبقات» (٧/ ٤٤٩).

● وراجع: «تهذيب التهذيب» (٦/ ٢٣٧)، و«تهذيب الكمال» (١٧/ ٣٠٤)، و«ذيل ميزان الاعتدال» (١٤٦) لأبي الفضل العراقي، ط دار الكتب العلمية سنة ١٤١٦هـ.

سَارِيَةَ، فَسَلَّمْنَا، وَقُلْنَا: أَتَيْنَاكَ زَائِرِينَ وَعَائِدِينَ وَمُقْتَبِسِينَ؛ فَقَالَ الْعِرْبَاضُ: صَلَّى بِنَا رَسُولُ اللهِ ﷺ ذَاتَ يَوْمٍ، ثُمَّ أَقْبَلَ عَلَيْنَا، فَوَعَظَنَا مَوْعِظَةً بَلِيغَةً، ذَرَفَتْ مِنْهَا الْعُيُونُ، وَوَجِلَتْ مِنْهَا الْقُلُوبُ.

فَقَالَ قَائِلٌ: يَا رَسُولَ اللهِ، كَأَنَّ هَذِهِ مَوْعِظَةُ مُوَدِّعٍ؟ فَمَاذَا تَعْهَدُ إِلَيْنَا؟ فَقَالَ: **«أُوصِيكُمْ بِتَقْوَى اللهِ، وَالسَّمْعِ وَالطَّاعَةِ، وَإِنْ عَبْدًا حَبَشِيًّا؛ فَإِنَّهُ مَنْ يَعِشْ مِنْكُمْ بَعْدِي فَسَيَرَى اخْتِلَافًا كَثِيرًا، فَعَلَيْكُمْ بِسُنَّتِي وَسُنَّةِ الْخُلَفَاءِ الْمَهْدِيِّينَ الرَّاشِدِينَ، تَمَسَّكُوا بِهَا، وَعَضُّوا عَلَيْهَا بِالنَّوَاجِذِ، وَإِيَّاكُمْ وَمُحْدَثَاتِ الْأُمُورِ؛ فَإِنَّ كُلَّ مُحْدَثَةٍ بِدْعَةٌ، وَكُلَّ بِدْعَةٍ ضَلَالَةٌ»**.

وَرَوَى مُسْلِمٌ فِي «صَحِيحِهِ» (٢) عَنْ جَابِرِ بْنِ عَبْدِ اللهِ الْأَنْصَارِيِّ رضي الله عنهما، قَالَ: كَانَ رَسُولُ اللهِ ﷺ إِذَا خَطَبَ احْمَرَّتْ عَيْنَاهُ، وَعَلَا صَوْتُهُ، وَاشْتَدَّ غَضَبُهُ، حَتَّى كَأَنَّهُ مُنْذِرُ جَيْشٍ، يَقُولُ: **«صَبَّحَكُمْ وَمَسَّاكُمْ»**.

وَيَقُولُ: **«بُعِثْتُ أَنَا وَالسَّاعَةَ كَهَاتَيْنِ»**، وَيَقْرُنُ بَيْنَ إِصْبَعَيْهِ: السَّبَّابَةِ وَالْوُسْطَى.

وَيَقُولُ: **«أَمَّا بَعْدُ، فَإِنَّ خَيْرَ الْحَدِيثِ كِتَابُ اللهِ، وَخَيْرَ الْهَدْيِ هَدْيُ مُحَمَّدٍ ﷺ، وَشَرَّ الْأُمُورِ مُحْدَثَاتُهَا، وَكُلَّ بِدْعَةٍ ضَلَالَةٌ»**.

ثُمَّ يَقُولُ: **«أَنَا أَوْلَى بِكُلِّ مُؤْمِنٍ مِنْ نَفْسِهِ، مَنْ تَرَكَ مَالاً فَلِأَهْلِهِ، وَمَنْ تَرَكَ دَيْنًا، أَوْ ضَيَاعًا، فَإِلَيَّ، وَعَلَيَّ»**.

=

(١) هو حُجْر بن حجر الكلاعي الحمصي التابعي؛ قال الحافظ ابن حجر: «أخرج الحاكم حديثه، وقال: كان من الثقات، وذكره ابن حبان في «الثقات»، وقال ابن القطان: «لا يعرف».

● راجع: «الثقات» لابن حبان (٤/ ١٧٧)، و«تهذيب الكمال» (٥/ ٤٧٢)، و«تهذيب التهذيب» (٢/ ٥١٤)، و«الميزان» (١/ ٤٦٦)، و«ذيل ميزان الاعتدال» (١٤٦).

(٢) أخرجه مسلمٌ، كتاب الجمعة، باب تخفيف الصلاة والخطبة (٨٦٧).

وَمِنْ ذَلِكَ: تَعْلِيمُهُ ﷺ وَتَرْغِيبُهُ وَتَرْهِيبُهُ بِطَرِيقِ الْقَصَصِ وَالْوَقَائِعِ الْمَاضِيَةِ أَيْضًا: رَوَى مُسْلِمٌ (١) عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ ﷺ، عَنِ النَّبِيِّ ﷺ: «أَنَّ رَجُلاً زَارَ أَخًا لَهُ فِي قَرْيَةٍ أُخْرَى، فَأَرْصَدَ اللهُ لَهُ عَلَى مَدْرَجَتِهِ مَلَكًا (٢)، فَلَمَّا أَتَى عَلَيْهِ قَالَ (٣): أَيْنَ تُرِيدُ؟ قَالَ: أُرِيدُ أَخًا لِي فِي هَذِهِ الْقَرْيَةِ، قَالَ: هَلْ لَكَ عَلَيْهِ مِنْ نِعْمَةٍ تَرُبُّهَا (٤)؟ قَالَ: لاَ، غَيْرَ أَنِّي أَحْبَبْتُهُ فِي اللهِ ﷻ، قَالَ: فَإِنِّي رَسُولُ اللهِ إِلَيْكَ، بِأَنَّ اللهَ قَدْ أَحَبَّكَ كَمَا أَحْبَبْتَهُ فِيهِ».

وَرَوَى الْبُخَارِيُّ وَمُسْلِمٌ (٥)، وَاللَّفْظُ لَهُ، عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ ﷺ أَنَّ رَسُولَ اللهِ ﷺ قَالَ: «بَيْنَمَا رَجُلٌ يَمْشِي بِطَرِيقٍ اشْتَدَّ عَلَيْهِ الْعَطَشُ، فَوَجَدَ بِئْرًا فَنَزَلَ فِيهَا، فَشَرِبَ ثُمَّ خَرَجَ، فَإِذَا كَلْبٌ يَلْهَثُ يَأْكُلُ الثَّرَى مِنَ الْعَطَشِ (٦)؛ فَقَالَ الرَّجُلُ: لَقَدْ بَلَغَ هَذَا الْكَلْبَ مِنَ الْعَطَشِ مِثْلُ الَّذِي كَانَ بَلَغَ مِنِّي! فَنَزَلَ الْبِئْرَ فَمَلأَ خُفَّهُ مَاءً، ثُمَّ أَمْسَكَهُ بِفِيهِ (٧) حَتَّى رَقِيَ، فَسَقَى الْكَلْبَ، فَشَكَرَ اللهُ لَهُ فَغَفَرَ لَهُ».

قَالُوا: يَا رَسُولَ اللهِ، وَإِنَّ لَنَا فِي هَذِهِ الْبَهَائِمِ لأَجْرًا؟ فَقَالَ: «فِي كُلِّ كَبِدٍ رَطْبَةٍ أَجْرٌ» (٨).

---

(١) أخرجه مسلمٌ، كتاب البر والصلة، باب فضل الحب في الله تعالى (٢٥٦٧).

(٢) المَدْرَجة: الطريق، وأَرصَدَه: أقعده يَرقُبُه. «شرح مسلم» للنوويِّ (١٦/ ١٢٤)، والمَلَكُ الذي أرصده الله تعالى على طريق الرجل الزائر لأخيه في الله تعالى، كان في صُورة إنسان عادي، لا في صورته على خلقته الحقيقية.

(٣) أي: الملكُ للزائر المسافر لزيارة أخيه في بلدٍ آخر.

(٤) أي: تقوم بإصلاحها وتُسافرُ إليه بسببها، وتزوره من أجلها؛ راجع المصدر السابق.

(٥) أخرجه البخاريُّ، كتاب الأدب، باب رحمة الناس والبهائم (٦٠٠٩)، ومسلمٌ، كتاب السلام، باب فضل سقي البهائم المحرمة وإطعامها (٢٢٤٤).

(٦) الثَّرى: التراب النَّدي، ومعنى: «يأكل الثرى» أي: يلحس الثرى بلسانه من شدة العطش، ليتبرد بطراوته ونداوته؛ وراجع: «شرح مسلم» للنووي (١٤/ ٢٤١، ٢٤٢).

(٧) أي: بفمه، وذلك لأن يديه مشغولتان بصعوده من البئر.

(٨) أي: في كل كبدٍ حيَّة، والمراد بالرطوبة في الكبد: رطوبة الحياة فيها، وهي لازمة لكبد =

وَرَوَى الْبُخَارِيُّ وَمُسْلِمٌ (١)، وَاللَّفْظُ مِنْهُمَا، عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ ﷺ قَالَ: قَالَ رَسُولُ الله ﷺ: «**بَيْنَمَا كَلْبٌ يُطِيفُ بِبِئْرٍ قَدْ كَادَ يَقْتُلُهُ الْعَطَشُ؛ إِذْ رَأَتْهُ بَغِيٌّ مِنْ بَغَايَا بَنِي إِسْرَائِيلَ، فَنَزَعَتْ خُفَّهَا فَأَوْثَقَتْهُ بِخِمَارِهَا، فَنَزَعَتْ لَهُ مِنَ الْمَاءِ، فَسَقَتْهُ إِيَّاهُ فَغُفِرَ لَهَا بِذَلِكَ**».

وَرَوَى الْبُخَارِيُّ وَمُسْلِمٌ (٢) - وَاللَّفْظُ لِمُسْلِمٍ - عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ ﷺ، عَنِ النَّبِيِّ ﷺ قَالَ: «**لَمْ يَتَكَلَّمْ فِي الْمَهْدِ إِلاَّ ثَلاَثَةٌ** (٣): **عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ، وَصَاحِبُ جُرَيْجٍ** (٤)، **وَكَانَ جُرَيْجٌ رَجُلًا عَابِدًا** (٥)، **فَاتَّخَذَ صَوْمَعَةً** (٦) **فَكَانَ فِيهَا، فَأَتَتْهُ أُمُّهُ**

= الإنسان أو الحيوان ما دام حيًّا، والمعنى: في الإحسان إلى كل ذي روح وحياة - حيوانًا كان أو إنسانًا- أجر. وانظر: «الفتح» (٧/ ٢٢٦).

(١) أخرجه البخاريُّ، في آخر كتاب بدء الخلق، باب إذا وقع الذباب في شراب أحدكم فليغمسه (٣٣٢١)، ومسلمٌ، كتاب السلام، باب فضل سقي البهائم المحرمة وإطعامها (٢٢٤٥).

(٢) أخرجَهُ البخاريُّ، كتاب أحاديث الأنبياء، باب قول الله تعالى: ﴿وَٱذْكُرْ فِى ٱلْكِتَـٰبِ مَرْيَمَ﴾ (٣٤٣٦)، ومسلمٌ، كتاب البر والصلة، باب تقديم بر الوالدين على التطوع بالصلاة وغيرها (٢٥٥٠/ ٨).

(٣) ذكر الحافظ ابن حجر في «فتح الباري» (٦/ ٣٤٤) أن هناك غير هؤلاء الثلاثة تكلّموا في المهد؛ كما جاء في السُّنة الثابتة، وأشار إلى وجه التوفيق بين ظاهر هذا الحصر في الحديث والأحاديث الأخرى؛ فراجعه إذا شئت.

(٤) أي: الغلامُ الذي اتُّهم به جريج.

(٥) جاء في بعض روايات هذا الحديث التي أوردها الحافظ ابن حجر في «فتح الباري» (٦/ ٣٤٥) ما نصُّه: «**كَانَ جريجٌ فِي بَنِي إِسْرَائِيل تَاجِرًا، وَكَانَ يَنْقُصُ مَرَّة وَيَزِيد أُخْرَى** (يخسر ويربح)؛ **فَقَالَ: مَا فِي هَذِهِ التِّجَارَةِ خَيْرٌ، لَأَلْتَمِسَنَّ تِجَارَةً هِيَ خَيْرٌ مِنْ هَذِهِ، فَبَنَى صَوْمَعَةً وَتَرَهَّبَ فِيهَا**».

قال الحافظ: «ودلَّ الحديث على أن جريجًا كان بعد عيسى بن مريم عليه السلام، وأنه كان من أتباعه؛ لأنهم الذين ابتدعوا الترهُّب وحَبْسَ النفس في الصوامع».

(٦) الصَّوْمَعَةُ: البناء المرتفع المحدَّد أعلاه، مأخوذة من صَمَعت إذا دَقَقْت، لأنها دقيقة =

وَهُوَ يُصَلِّي؛ فَقَالَتْ: يَا جُرَيْجُ، فَقَالَ: يَا رَبِّ أُمِّي وَصَلَاتِي [١]؟ فَأَقْبَلَ عَلَى صَلَاتِهِ، فَانْصَرَفَتْ، فَلَمَّا كَانَ مِنَ الْغَدِ أَتَتْهُ وَهُوَ يُصَلِّي؛ فَقَالَتْ: يَا جُرَيْجُ، فَقَالَ: يَا رَبِّ أُمِّي وَصَلَاتِي؟ فَأَقْبَلَ عَلَى صَلَاتِهِ، فَانْصَرَفَتْ، فَلَمَّا كَانَ مِنَ الْغَدِ أَتَتْهُ وَهُوَ يُصَلِّي فَقَالَتْ: يَا جُرَيْجُ، فَقَالَ: يَا رَبِّ أُمِّي وَصَلَاتِي؟ فَأَقْبَلَ عَلَى صَلَاتِهِ، فَقَالَتِ: اللهمَّ لَا تُمِتْهُ حَتَّى يَنْظُرَ إِلَى وُجُوهِ الْمُومِسَاتِ [٢]، فَتَذَاكَرَ بَنُو إِسْرَائِيلَ جُرَيْجًا وَعِبَادَتَهُ، وَكَانَتِ امْرَأَةٌ بَغِيٌّ يُتَمَثَّلُ بِحُسْنِهَا؛ فَقَالَتْ: إِنْ شِئْتُمْ لَأَفْتِنَنَّهُ لَكُمْ، قَالَ: فَتَعَرَّضَتْ لَهُ فَلَمْ يَلْتَفِتْ إِلَيْهَا، فَأَتَتْ رَاعِيًا كَانَ يَأْوِي إِلَى صَوْمَعَتِهِ، فَأَمْكَنَتْهُ مِنْ نَفْسِهَا، فَوَقَعَ عَلَيْهَا، فَحَمَلَتْ فَلَمَّا وَلَدَتْ قَالَتْ: هُوَ مِنْ جُرَيْجٍ، فَأَتَوْهُ فَاسْتَنْزَلُوهُ، وَهَدَمُوا صَوْمَعَتَهُ، وَجَعَلُوا يَضْرِبُونَهُ [٣]؛ فَقَالَ: مَا شَأْنُكُمْ؟ قَالُوا: زَنَيْتَ بِهَذِهِ الْبَغِيِّ، فَوَلَدَتْ مِنْكَ [٤]؛ فَقَالَ: أَيْنَ الصَّبِيُّ؟ فَجَاءُوا بِهِ، فَقَالَ: دَعُونِي حَتَّى

= الرأس. انظر: «الفتح» (١٠/ ٢٣٩).

(١) أي: اجتمع عليَّ إجابةُ أمي وإتمامُ صلاتي، فوفقني لأفضلهما؛ **قال الحافظ ابن حجر في «فتح الباري»** (٦/ ٣٤٥): «وكلُّ ذلك قاله - أي في المرات الثلاث من مناداة أمه حال صلاته- مَحْمُول عَلَى أَنَّهُ قَالَهُ فِي نَفْسه، لَا أَنَّهُ نَطَقَ بِهِ، وَيُحْتَمَل أَنْ يَكُون نَطَقَ بِهِ عَلَى ظَاهِره؛ لِأَنَّ الْكَلَام كَانَ مُبَاحًا عِنْدهمْ، وَكَذَلِكَ كَانَ فِي صَدْر الْإِسْلَام».

(٢) الْمُومِسات: الزواني المتجاهرات بذلك، وفي رواية ثانية عند مسلم (٢٥٥٠/ ٧): «اللهمَّ إِنَّ هَذَا جُرَيْجٌ وَهُوَ ابْنِي، وَإِنِّي كَلَّمْتُهُ فَأَبَى أَنْ يُكَلِّمَنِي، اللهمَّ فَلَا تُمِتْهُ حَتَّى تُرِيَهُ الْمُومِسَاتِ، قَالَ: وَلَوْ دَعَتْ عَلَيْهِ أَنْ يُفْتَنَ لَفُتِنَ!»؛ أي: لفتن بالزنى أو القتل! ولكن كانت رفيقةً رحيمةً به، فكانت دعوتها أن تكون عقوبته رؤية وجوه الزواني فقط، وما أشدَّها من عقوبةٍ على قلوب العابدين الصالحين؛ نسألُ الله السلامة والعافية.

(٣) جاء في رواية أشار إليها الحافظ في «الفتح» (١٠/ ٢٣٩): «فَجَعَلُوا يَضْرِبُونَهُ، وَيَقُولُونَ: مُرَاءٍ تُخَادِعُ النَّاس بِعَمَلِك»، قَالَ: وفِي رِوَايَةِ الْأَعْرَج: «فَلَمَّا مَرُّوا بِهِ نَحْو بَيْت الزَّوَانِي خَرَجْنَ يَنْظُرْنَ، فَتَبَسَّمَ! فَقَالُوا: لَمْ يَضْحَك، حَتَّى مَرَّ بِالزَّوَانِي!»، وسيأتي بيان سبب ضحكه في التعليق الآتي.

(٤) وكان في حكمهم أن من زنى قُتل.

أُصَلِّيَ، فَصَلَّى (١)، فَلَمَّا انْصَرَفَ أَتَى الصَّبِيَّ، فَطَعَنَ فِي بَطْنِهِ (٢)، وَقَالَ: يَا غُلَامُ مَنْ أَبُوكَ؟ قَالَ: فُلَانٌ الرَّاعِي، قَالَ: فَأَقْبَلُوا عَلَى جُرَيْجٍ يُقَبِّلُونَهُ وَيَتَمَسَّحُونَ بِهِ، وَقَالُوا: نَبْنِي لَكَ صَوْمَعَتَكَ مِنْ ذَهَبٍ، قَالَ: لاَ، أَعِيدُوهَا مِنْ طِينٍ كَمَا كَانَتْ، فَفَعَلُوا (٣).

وَبَيْنَا صَبِيٌّ يَرْضَعُ مِنْ أُمِّهِ، فَمَرَّ رَجُلٌ رَاكِبٌ عَلَى دَابَّةٍ فَارِهَةٍ (٤)، وَشَارَةٍ حَسَنَةٍ (٥)؛ فَقَالَتْ أُمُّه: اللهمَّ اجْعَلِ ابْنِي مِثْلَ هَذَا، فَتَرَكَ الثَّدْيَ، وَأَقْبَلَ إِلَيْهِ، فَنَظَرَ إِلَيْهِ، فَقَالَ: اللهمَّ لَا تَجْعَلْنِي مِثْلَهُ، ثُمَّ أَقْبَلَ عَلَى ثَدْيِهِ، فَجَعَلَ يَرْتَضِعُ - قَالَ: فَكَأَنِّي أَنْظُرُ إِلَى رَسُولِ الله ﷺ وَهُوَ يَحْكِي ارْتِضَاعَهُ بِإِصْبَعِهِ السَّبَّابَةِ فِي فِيهِ، فَجَعَلَ يَمُصُّهَا.

قَالَ: وَمَرُّوا بِجَارِيَةٍ وَهُمْ يَضْرِبُونَهَا، وَيَقُولُونَ: زَنَيْتِ، سَرَقْتِ، وَهِيَ تَقُولُ: حَسْبِيَ اللهُ وَنِعْمَ الْوَكِيلُ؛ فَقَالَتْ أُمُّهُ: اللهمَّ لَا تَجْعَلِ ابْنِي مِثْلَهَا، فَتَرَكَ الرَّضَاعَ، وَنَظَرَ إِلَيْهَا، فَقَالَ: اللهمَّ اجْعَلْنِي مِثْلَهَا.

---

(١) وقد صلَّى ركعتين، وكانت الصلاة مشروعة عندهم.

(٢) في رواية ثانية عند مسلم (٢٥٥٠/ ٧): «ثُمَّ مَسَحَ رَأْسَ الصَّبِيِّ؛ فَقَالَ: مَنْ أَبُوكَ؟».

(٣) جاء في رواية: «فَرَجَعَ فِي صَوْمَعَته، فَقَالُوا لَهُ: بالله مِمَّ ضَحِكْت؟ فَقَالَ: مَا ضَحِكْت إِلَّا مِنْ دَعْوَة دَعَتْهَا عَلَيَّ أُمِّي»؛ أي: أنه تذكَّر أن هذه العقوبة بسبب تلك المعصية.
قال الحافظ ابن حجر في «فتح الباري» (٦/ ٣٤٧ و٦٣٣): «وَفِي الْحَدِيث إِيثَار إِجَابَة الْأُمّ عَلَى صَلَاة التَّطَوُّع؛ لِأَنَّ الِاسْتِمْرَار فِيهَا: نَافِلَة، وَإِجَابَة الْأُمّ وَبِرّهَا وَاجِب، وفي حديث يزيد بن حوشب عن أبيه أن النبيَّ ﷺ قال: «لَوْ كَانَ جُرَيْج فَقِيهًا - وفي رواية: عالمًا- لَعَلِمَ أَنَّ إِجَابَة أُمّه أَوْلَى مِنْ عِبَادَة رَبّه»؛ أَخْرَجَهُ الْحَسَنُ بْن سُفْيَان، ويزيد والد حوشب: مجهول».

(٤) أي: نشيطة قوية. انظر: «شرح مسلم» للنوويِّ (١٦/ ١٠٧).

(٥) أي: هيئة حسنة وملبس حسن، يُتعجب منه، ويشار إليه؛ لحسنه وجماله. وانظر المصدر السابق.

فَهُناكَ تَراجَعَا الْحَدِيثَ (١)؛ فَقَالَتْ: حَلْقَى!! (٢) مَرَّ رَجُلٌ حَسَنُ الْهَيْئَةِ، فَقُلْتُ: اللهمَّ اجْعَلِ ابْنِي مِثْلَهُ، فَقُلْتَ: اللهمَّ لَا تَجْعَلْنِي مِثْلَهُ، وَمَرُّوا بِهَذِهِ الْأَمَةِ وَهُمْ يَضْرِبُونَهَا، وَيَقُولُونَ: زَنَيْتِ، سَرَقْتِ، فَقُلْتُ: اللهمَّ لَا تَجْعَلِ ابْنِي مِثْلَهَا، فَقُلْتَ: اللهمَّ اجْعَلْنِي مِثْلَهَا؟! فَقَالَ: إِنَّ ذَلِكَ الرَّجُلَ كَانَ جَبَّارًا، فَقُلْتُ: اللهمَّ لَا تَجْعَلْنِي مِثْلَهُ، وَإِنَّ هَذِهِ يَقُولُونَ لَهَا: زَنَيْتِ، وَلَمْ تَزْنِ، وَسَرَقْتِ، وَلَمْ تَسْرِقْ، فَقُلْتُ: اللهمَّ اجْعَلْنِي مِثْلَهَا» (٣).

وَفِي هَذَا الْقَصَصِ الْحَقِّ، وَالْخَبَرِ الْيَقِينِ مِنَ التَّوْجِيهِ؛ تَرْغِيبًا وَتَرْهِيبًا، وَتَنْفِيرًا وَتَحْذِيرًا مَا هُوَ غَنِيٌّ عَنِ الشَّرْحِ وَالْبَيَانِ.

❊❊❊

---

(١) قال الإمام النوويُّ في «شرح صحيح مسلم» (١٦/ ١٠٧): «قوله: «تَرَاجَعَا الْحَدِيث»؛ أي: أَقْبَلَتْ الأم عَلَى الرَّضِيع تُحَدِّثه، وَكَانَتْ أَوَّلًا لَا تَرَاهُ أَهْلًا لِلْكَلَام، فَلَمَّا تَكَرَّرَ مِنْهُ الْكَلَام، عَلِمَتْ أَنَّهُ أَهْلٌ لَهُ، فَسَأَلْته، وَرَاجَعْته».

(٢) أي: عجبًا لك؟! وانظر: «اللسان» (مادة: حلق) (٢/ ٥٥٩).

(٣) أي: سالمًا من المعاصي كما هي سالمة منها، وليس المراد: اجعلني مثلها في النسبة إلى باطل أكونُ منه بريئًا.

المَبْحَثُ الرَّابِعُ

تعْليمهُ ﷺ بِالحِوَارِ وَالسُّؤَالِ

لَقَدْ كَانَ النَّبِيُّ ﷺ حَرِيصًا فِي دَعْوَتِهِ عَلَى إِيقَاظِ القُلُوبِ وَلَفْتِ نَظَرِ المَدْعُوِّينَ وَتَشْوِيقِهِمْ إِلَى مَعْرِفَةِ الحَقِّ، وَذَلِكَ مِنْ خِلَالِ حِوَارٍ نَبَوِيٍّ كَرِيمٍ أَخَّاذٍ يَطْرَحُ فِيهِ تَسَاؤُلاً؛ لِيَكُونَ جَوَابُهُ عَلَيْهِ بَعْدَ ذَلِكَ أَبْلَغَ فِي التَّأْثِيرِ، وَأَقْرَبَ إِلَى النُّفُوسِ فَلَا يُنْسَى.

رَوَى **الْبُخَارِيُّ وَمُسْلِمٌ** (١) وَاللَّفْظُ لَهُ، عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ رضي الله عنه قَالَ: قَالَ رَسُولُ الله ﷺ: «**أَرَأَيْتُمْ لَوْ أَنَّ نَهْرًا بِبَابِ أَحَدِكُمْ يَغْتَسِلُ مِنْهُ كُلَّ يَوْمٍ خَمْسَ مَرَّاتٍ هَلْ يَبْقَى مِنْ دَرَنِهِ شَيْءٌ (٢)؟**». قَالُوا: لَا يَبْقَى مِنْ دَرَنِهِ شَيْءٌ، قَالَ: «**فَذَلِكَ مَثَلُ الصَّلَوَاتِ الْخَمْسِ، يَمْحُو الله بِهِنَّ الْخَطَايَا**».

وَرَوَى **مُسْلِمٌ** فِي «صَحِيحِهِ» (٣) مِنْ حَدِيثِ أَبِي هُرَيْرَةَ رضي الله عنه قَالَ: قَالَ رَسُولُ الله ﷺ: «**أَتَدْرُونَ مَا الْمُفْلِسُ (٤)؟**»، قَالُوا: الْمُفْلِسُ فِينَا مَنْ لَا دِرْهَمَ لَهُ

---

(١) أخرجه البخاريُّ، كتاب مواقيت الصلاة، باب الصلوات الخمس كفارة (٥٢٨)، ومسلمٌ، كتاب المساجد، باب فضل الصلاة المكتوبة في جماعة وفضل انتظار الصلاة و... (٦٦٧).

(٢) الدرن: الوسخ. «الفتح» (٢/ ١٦).

(٣) أخرجه مسلمٌ، كتاب البر والصلة، باب تحريم الظلم (٢٥٨١).

(٤) كذا الرواية: «**أَتَدْرُونَ مَا الْمُفْلِسُ**» بلفظ «**مَا**»، والسؤال هنا عن حقيقة المفلس؛ فلذا جاء التعبير بلفظة «ما» دون لفظة «من»، قال السنوسيُّ في «شرحه عَلَى صحيح مسلم» (٨/ ١٨) عند قوله ﷺ: «**أَتَدْرُونَ مَا الْمُفْلِسُ**»: «قال القرطبيُّ: كذا الرواية، وأصلها - يعني لفظة «ما» - لما لا يعقل، وهي هنا لمن يعقل، قال الأبيُّ: حكى بعضهم أنَّ مذهب سيبويه جواز وقوعها عَلَى من يعقل، وأخذه ابن الحاج من قوله في

=

وَلاَ مَتَاعَ؛ فَقَالَ: «إِنَّ الْمُفْلِسَ مِنْ أُمَّتِي، يَأْتِي يَوْمَ الْقِيَامَةِ بِصَلاَةٍ وَصِيَامٍ وَزَكَاةٍ، وَيَأْتِي قَدْ شَتَمَ هَذَا، وَقَذَفَ هَذَا، وَأَكَلَ مَالَ هَذَا، وَسَفَكَ دَمَ هَذَا، وَضَرَبَ هَذَا، فَيُعْطِي هَذَا مِنْ حَسَنَاتِهِ، وَهَذَا مِنْ حَسَنَاتِهِ؛ فَإِنْ فَنِيَتْ حَسَنَاتُهُ قَبْلَ أَنْ يُقْضَى مَا عَلَيْهِ، أُخِذَ مِنْ خَطَايَاهُمْ فَطُرِحَتْ عَلَيْهِ، ثُمَّ طُرِحَ فِي النَّارِ».

وَمِنَ الأَمْثِلَةِ المَشْهُورَةِ فِي ذَلِكَ حَدِيثُ جِبْرِيلَ عليه السلام فِي تَعْلِيمِ أَرْكَانِ الإِيْمَانِ وَالإِسْلَامِ:

فَفِي «صحيح» مُسْلِمٍ (١) عَنْ عُمَرَ بْنِ الْخَطَّابِ رضي الله عنه قَالَ: بَيْنَمَا نَحْنُ عِنْدَ رَسُولِ الله ﷺ ذَاتَ يَوْمٍ، إِذْ طَلَعَ عَلَيْنَا رَجُلٌ شَدِيدُ بَيَاضِ الثِّيَابِ، شَدِيدُ سَوَادِ الشَّعَرِ، لَا يُرَى عَلَيْهِ أَثَرُ السَّفَرِ، وَلَا يَعْرِفُهُ مِنَّا أَحَدٌ، حَتَّى جَلَسَ إِلَى النَّبِيِّ ﷺ،

= «الكتاب» - أي كتاب سيبويه - لمَّا فرغ من الكلام عَلَى «مَنْ»، قال: ومثلها «ما» مبهمة تقعُ عَلَى كل شيء.
قُلْتُ - أي السنوسي: لقائل أن يقول: السؤال هنا بما، إنما هو عن الحقيقة، والحقيقة من حيث هي حقيقة لا تعقَّل، وهذا كما لو قلت: ما الإنسان؟ أو ما زيد؟ أو نحو ذلك، ومنه: ﴿قَالَ فِرْعَوْنُ وَمَا رَبُّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ [الشعراء:٢٣]، ولم يقل: ومن، فـ«ما» إذًا واقعة في محلها» انتهى، وهو الصواب.
وقد جاء هذا الحديث في بعض الكتب الناقلة عن «صحيح مسلم» مثل «رياض الصالحين»، بلفظ: «**أَتَدْرُونَ مَنِ الْمُفْلِسُ؟**»، وهو خلاف الرواية كما علمت، ولعله من تصرفات بعض الناقلين، والله أعلم.

(١) أخرجه مسلمٌ، في أول كتاب الإيمان (٨)، والحديث عند البخاريِّ، كتاب الإيمان، باب سؤال جبريل عليه السلام النبي ﷺ عن الإيمان، والإسلام، والإحسان، وعلم الساعة، وبيان النبي ﷺ له (٥٠)، من طريق أبي هريرة رضي الله عنه، ومن أوسع المصادر جَمْعًا لطرق هذا الحديث وألفاظه المختلفة كتاب «الإيمان» للحافظ ابن منده في أول المجلد الأول منه، و«فتح الباري شرح صحيح البخاري» للحافظ ابن حجر (١/ ١١٥-١٢٥). وقد شرحه الباحث مفصَّلًا في سبعة مجلدات ط فياض، سنة ١٤٣٠هـ.

فَأَسْنَدَ رُكْبَتَيْهِ إِلَى رُكْبَتَيْهِ، وَوَضَعَ كَفَّيْهِ عَلَى فَخِذَيْهِ (١).

وَقَالَ: يَا مُحَمَّدُ أَخْبِرْنِي عَنِ الْإِسْلَامِ؛ فَقَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: «**الْإِسْلَامُ أَنْ تَشْهَدَ أَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا اللهُ، وَأَنَّ مُحَمَّدًا رَسُولُ اللهِ، وَتُقِيمَ الصَّلَاةَ، وَتُؤْتِيَ الزَّكَاةَ، وَتَصُومَ رَمَضَانَ، وَتَحُجَّ الْبَيْتَ إِنِ اسْتَطَعْتَ إِلَيْهِ سَبِيلًا**».

قَالَ: صَدَقْتَ، قَالَ عُمَرُ رضي الله عنه: فَعَجِبْنَا لَهُ يَسْأَلُهُ وَيُصَدِّقُهُ (٢).

قَالَ: فَأَخْبِرْنِي عَنِ الْإِيمَانِ، قَالَ: «**أَنْ تُؤْمِنَ بِاللهِ، وَمَلَائِكَتِهِ، وَكُتُبِهِ، وَرُسُلِهِ، وَالْيَوْمِ الْآخِرِ، وَتُؤْمِنَ بِالْقَدَرِ خَيْرِهِ وَشَرِّهِ**»، قَالَ: صَدَقْتَ.

قَالَ: فَأَخْبِرْنِي عَنِ الْإِحْسَانِ، قَالَ: «**أَنْ تَعْبُدَ اللهَ كَأَنَّكَ تَرَاهُ، فَإِنْ لَمْ تَكُنْ تَرَاهُ فَإِنَّهُ يَرَاكَ**».

قَالَ: فَأَخْبِرْنِي عَنِ السَّاعَةِ، قَالَ: «**مَا الْمَسْئُولُ عَنْهَا بِأَعْلَمَ مِنَ السَّائِلِ (٣)**».

قَالَ: فَأَخْبِرْنِي عَنْ أَمَارَتِهَا، قَالَ: «**أَنْ تَلِدَ الْأَمَةُ رَبَّتَهَا (٤)، وَأَنْ تَرَى الْحُفَاةَ**

---

(١) يعني: أن الرجل الداخل وضع كفيه عَلَى فخذي نفسه، وجلس عَلَى هيئة المتعلم المتأدب؛ قاله النوويُّ.

(٢) وجه التعجب أن السؤال يقتضي - في الغالب - الجهل بالمسئول عنه، والتصديق يقتضي علم السائل به، ومما يزيد في التعجب أن ما أجابه ﷺ لا يعرف إلا من جهته، وليس هذا الرجل ممن عرف بلقائه ﷺ فضلًا عن سماعه منه.

وفي بعض روايات حديث جبريل عليه السلام: «ما رأينا رجلًا مثل هذا، كأنه يعلم رسول الله ﷺ، يقول له: صدقت صدقت».

(٣) لم يقل: لستُ بأعلم بها منك، كما يقتضيه المقام ظاهرًا، ليشعر بالتعميم، تعريفًا للسامعين أن كل مسئول وكل سائل عن وقت قيام الساعة فهو كذلك.

وقال النوويُّ رحمه الله **في «شرح مسلم» (١/ ١٥٨)**: «يُسْتَنْبَط مِنْهُ أَنَّ الْعَالِم والمفتي وغيرهما إِذَا سُئِلَ عَمَّا لَا يَعْلَم ينبغي له أن يقول: لا أعلم، وأن ذلك لا ينقصه؛ بل يستدل به عَلَى ورعه وتقواه ووفور علمه».

(٤) والمراد: أن يكثر العقوق في الأولاد، فيعامل الولدُ أُمَّهُ معاملةَ السَّيدِ أَمَتَهُ، من الإهانة

=

الْعُرَاةَ الْعَالَةَ رِعَاءَ الشَّاءِ يَتَطَاوَلُونَ فِي الْبُنْيَانِ».

قَالَ عُمَرُ: ثُمَّ انْطَلَقَ - الرَّجُلُ - فَلَبِثْتُ مَلِيًّا (١)، ثُمَّ قَالَ لِي النَّبِيُّ ﷺ: «**يَا عُمَرُ أَتَدْرِي مَنِ السَّائِلُ؟**» قُلْتُ: الله وَرَسُولُهُ أَعْلَمُ، قَالَ: «**فَإِنَّهُ جِبْرِيلُ أَتَاكُمْ يُعَلِّمُكُمْ دِينَكُمْ**».

ﷻ

=

بالسب والضرب والاستخدام، فأطلق عليه «ربها» مجازًا لذلك، وثم أقوال أخر في ذلك. انظر: «الفتح» (١/ ١٤٩).

(١) أي: زمنًا طويلًا أيامًا بعد انصرافه. «الفتح» (١/ ١٥٢).

المَبْحَثُ الخَامِسُ
تعْلِيمهُ ﷺ بِتَقْدِيمِهِ الأَوْلَى فالأَوْلَى

يُخطِئُ بَعْضُ الدُّعَاةِ بِتَقْدِيمِ مَا حَقُّهُ التَّأْخِيرُ، وَتَأْخِيرِ مَا حَقُّهُ التَّقْدِيمُ، وَتَفْخِيمِ الصَّغِيرِ، وتَحْقِيرِ الجَلِيلِ، وَتَقْدِيمِ الفَرْعِ عَلَى الأَصْلِ، وَالجُزْءِ عَلَى الكُلِّ دُونَ فَهْمٍ دَقِيقٍ، وَوَعْيٍ عَمِيقٍ لِمَنْهَجِ الأَوْلَوِيَّاتِ وَتَقْدِيمِ الأَوْلَى فَالأَوْلَى.

وَالمُتَتَبِّعُ لِمَنْهَجِ أُسْوَةِ الدُّعَاةِ يَرَى مُرَاعَاتِهِ للأَهَمِّ فَالأَهَمِّ، وَالأَوْلَى فَالأَوْلَى؛ فَفِي «**الصَّحِيحَيْنِ**» (١) مِنْ حَدِيثِ ابْنِ عَبَّاسٍ رضي الله عنهما، أَنَّ النَّبِيَّ ﷺ بَعَثَ مُعاذًا إِلَى الْيَمَنِ؛ فَقَالَ: «**إِنَّكَ سَتَأْتِي قَوْمًا مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ، فَإِذَا جِئْتَهُمْ فَادْعُهُمْ إِلَى أَنْ يَشْهَدُوا أَنْ لاَ إِلَهَ إِلَّا الله، وَأَنَّ مُحَمَّدًا رَسُولُ الله؛ فَإِنْ هُمْ أَطَاعُوا لَكَ بِذَلِكَ، فَأَخْبِرْهُمْ أَنَّ الله قَدْ فَرَضَ عَلَيْهِمْ خَمْسَ صَلَوَاتٍ فِي كُلِّ يَوْمٍ وَلَيْلَةٍ، فَإِنْ هُمْ أَطَاعُوا لَكَ بِذَلِكَ، فَأَخْبِرْهُمْ أَنَّ الله قَدْ فَرَضَ عَلَيْهِمْ صَدَقَةً، تُؤْخَذُ مِنْ أَغْنِيَائِهِمْ، فَتُرَدُّ عَلَى فُقَرَائِهِمْ، فَإِنْ هُمْ أَطَاعُوا لَكَ بِذَلِكَ، فَإِيَّاكَ وَكَرَائِمَ أَمْوَالِهِمْ، وَاتَّقِ دَعْوَةَ الْمَظْلُومِ؛ فَإِنَّهُ لَيْسَ بَيْنَهُ وَبَيْنَ الله حِجَابٌ**».

وَقَدْ بَدَأَ بِالأَهَمِّ فَالأَهَمِّ، وَذَلِكَ مِنَ التَّلَطُّفِ فِي الخِطَابِ؛ لأَنَّهُ لَوْ طَالَبَهُمْ بِالجَمِيعِ فِي أَوَّلِ مَرَّةٍ لَمْ يَأْمَنِ النُّفْرَةَ (٢).

---

(١) أخرجه البخاريُّ، كتاب الزكاة، باب أخذ الصدقة من الأغنياء وترد في الفقراء حيث كانوا (١٤٩٦)، ومسلمٌ، كتاب الإيمان، باب الدعاء إلى الشهادتين وشرائع الإسلام (١٩).

(٢) «الفتح» (٣/ ٤٢١).

قَالَ الشَّاطِبِيُّ فِي «الْمُوَافَقَاتِ»[١]:

«وَمِنْ هُنَا كَانَ نُزُولُ الْقُرْآنِ نُجُومًا فِي عِشْرِينَ سَنَةً، وَوَرَدَتِ الْأَحْكَامُ التَّكْلِيفِيَّةُ فِيهَا شَيْئًا فَشَيْئًا، وَلَمْ تَنْزِلْ دَفْعَةً وَاحِدَةً، وَذَلِكَ لِئَلَّا تَنْفِرَ عَنْهَا النُّفُوسُ دَفْعَةً وَاحِدَةً.

وَفِيمَا يُحْكَى عَنْ عُمَرَ بْنِ عَبْدِ الْعَزِيزِ أَنَّ ابْنَهُ عَبْدَ الْمَلِكِ قَالَ لَهُ: «مَا لَكَ لَا تُنَفِّذُ الْأُمُورَ؟ فَوَاللَّهِ مَا أُبَالِي لَوْ أَنَّ الْقُدُورَ غَلَتْ بِي وَبِكَ فِي الْحَقِّ». قَالَ لَهُ عُمَرُ: «لَا تَعْجَلْ يَا بُنَيَّ، فَإِنَّ اللَّهَ ذَمَّ الْخَمْرَ فِي الْقُرْآنِ مَرَّتَيْنِ، وَحَرَّمَهَا فِي الثَّالِثَةِ، وَإِنِّي أَخَافُ أَنْ أَحْمِلَ الْحَقَّ عَلَى النَّاسِ جُمْلَةً، فَيَدْفَعُوهُ جُمْلَةً، وَيَكُونُ مِنْ ذَا فِتْنَةٌ».

---

(١) (٤/ ١٨٦) ط ابن عفان.

المَبْحَثُ السَّادِسُ

تَعْلِيمُهُ ﷺ بِالإِجْمَالِ وَالتَّفْصِيلِ

وَاللهِ مَا عَرَفْتُ مُعَلِّمًا قَبْلَهُ وَلَا بَعْدَهُ أَحْسَنَ مِنْهُ ﷺ؛ فَقَدْ حَبَاهُ اللهُ جَلَّ وَعَلَا بِجَوَامِعِ الكَلِمِ، وَفَصِيحِ الكَلَامِ، وَبَلِيغِ البَيَانِ؛ وَمِنْ ذَلِكَ: الإِجْمَالُ ثُمَّ البَيَانُ؛ لِيَكُونَ أَوْقَعَ فِي النَّفْسِ، وَأَمْكَنَ فِي الفَهْمِ، وَأَعْوَنَ عَلَى الحِفْظِ؛ كَمَا يَكُونُ أَيْضًا تَشْوِيقًا لِلْمُخَاطَبِ؛ فَفِي **«الصَّحِيحَيْنِ»** - وَاللَّفْظُ لِمُسْلِمٍ [(١)] - عَنْ أَنَسِ بْنِ مَالِكٍ رضي الله عنه قَالَ: مُرَّ بِجَنَازَةٍ فَأُثْنِيَ عَلَيْهَا خَيْرًا [(٢)]؛ فَقَالَ نَبِيُّ اللهِ ﷺ: **«وَجَبَتْ وَجَبَتْ وَجَبَتْ»**، وَمُرَّ بِجَنَازَةٍ، فَأُثْنِيَ عَلَيْهَا شَرًّا؛ فَقَالَ نَبِيُّ اللهِ ﷺ: **«وَجَبَتْ، وَجَبَتْ، وَجَبَتْ»** [(٣)]، قَالَ عُمَرُ: فِدًى لَكَ أَبِي وَأُمِّي! مُرَّ بِجَنَازَةٍ فَأُثْنِيَ عَلَيْهَا فَقُلْتَ: وَجَبَتْ، وَجَبَتْ، وَجَبَتْ، وَمُرَّ بِجَنَازَةٍ فَأُثْنِيَ عَلَيْهَا شَرٌّ؛ فَقُلْتَ: وَجَبَتْ،

---

(١) أخرجه البخاريُّ، كتاب الجنائز، باب ثناء الناس عَلَى الميت (١٣٦٧)، وفي كتاب الشهادات، باب تعديل كم يجوز؟ (٢٦٤٢)، ومسلمٌ، كتاب الجنائز، باب فيمن يُثْنَى عليه خير أو شر من الموتى (٩٤٩).

(٢) قوله هنا: **«فَأُثْنِيَ عَلَيْهَا خَيْرًا»**، ثم قوله بعد قليل: **«فَأُثْنِيَ عَلَيْهَا شَرًّا»**، هو بالبناء للمجهول فيهما، والثناء يستعمل في الخير وفي الشر، فيقال: أثنيت عليه خيرًا، وأثنيت عليه شرًّا، لأنه بمعنى وصفته، نصَّ عليه جماعةٌ من أئمة اللغة المحققين؛ كما بسطه الفيوميُّ في «المصباح» في «ثنى»، وغلط من قال: لا يستعمل الثناء إلا في الخير، وزعم أنه جاء في الحديث مستعملًا في الشر للازدواج والمشاكلة، وأسهب في تغليطه وأجاد. انظر: «المصباح المنير» للفيومي (١/ ٨٥) ط المكتبة العلمية. بيروت.

(٣) قال الإمام النوويُّ في «شرح صحيح مسلم» (٧/ ١٩): «هكذا جاء هذا الحديث في الأصول: وجبت وجبت وجبت ثلاث مرات، وأنتم شهداء الله في الأرض ثلاث مرات»، وقال الإمام العينيُّ في «عمدة القاري» (٨/ ١٩٥): «والتكرير في الحديث لتأكيد الكلام، لئلا يشكُّوا فيه».

وَجَبَتْ، وَجَبَتْ؛ فَقَالَ رَسُولُ الله ﷺ: «مَنْ أَثْنَيْتُمْ عَلَيْهِ خَيْرًا وَجَبَتْ لَهُ الْجَنَّةُ، وَمَنْ أَثْنَيْتُمْ عَلَيْهِ شَرًّا وَجَبَتْ لَهُ النَّارُ، أَنْتُمْ شُهَدَاءُ الله فِي الأَرْضِ، أَنْتُمْ شُهَدَاءُ الله فِي الأَرْضِ، أَنْتُمْ شُهَدَاءُ الله فِي الأَرْضِ».

وَرَوَى الْبُخَارِيُّ وَمُسْلِمٌ (١) وَاللَّفْظُ لَهُ عَنْ مَعْبَدِ بْنِ كَعْبِ بْنِ مَالِكٍ (٢)، عَنْ أَبِي قَتَادَةَ بْنِ رِبْعِيٍّ رضي الله عنه (٣)، أَنَّهُ كَانَ يُحَدِّثُ: أَنَّ رَسُولَ الله ﷺ مُرَّ عَلَيْهِ بِجَنَازَةٍ؛ فَقَالَ: «مُسْتَرِيحٌ وَمُسْتَرَاحٌ مِنْهُ». قَالُوا: يَا رَسُولَ الله، مَا الْمُسْتَرِيحُ وَالْمُسْتَرَاحُ مِنْهُ؟ فَقَالَ: «الْعَبْدُ الْمُؤْمِنُ يَسْتَرِيحُ مِنْ نَصَبِ الدُّنْيَا (٤) إِلَى رَحْمَةِ الله، وَالْعَبْدُ الْفَاجِرُ يَسْتَرِيحُ مِنْهُ الْعِبَادُ وَالْبِلادُ وَالشَّجَرُ وَالدَّوَابُّ».

وَمِنَ الإِجْمَالِ ثُمَّ التَّفْصِيلِ: قَوْلُهُ ﷺ فِي التَّحْذِيرِ مِنْ أَذَى الْجَارِ:

---

(١) أخرجه البخاريُّ، كتاب الرقاق، باب سكرات الموت (٦٥١٢)، ومسلمٌ، كتاب الجنائز، باب ما جاء في مستريحٌ ومستراحٌ منه (٩٥٠).

(٢) هو معبد بن كعب بن مالك الأنصاري السلميُّ المدنيُّ من أهل المدينة، وكان قائد أبيه بعد ما ذهب بصره، كان أصغر إخوته، وذكره ابن حبان والعجلي في «الثقات»، له في «صحيح البخاري» حديث واحد. وهو هذا الحديث.

● راجع: «تهذيب التهذيب» (١٠/ ٢٢٤)، و«الجرح والتعديل» (٨/ ٢٧٩)، و«الثقات» لابن حبان (٥/ ٤٣٢)، وكذا العجلي في «ثقاته» (٢/ ٢٨٥) مكتبة الدار - المدينة المنورة سنة ١٤٠٥هـ.

(٣) هو الحارث بن ربعي بن بُلدُمَة بن خناس بن سنان بن عبيد بن عدي بن غنم بن كعب ابن سلمة بن سعد بن علي بن راشد بن ساردة بن تزيد بن جشم بن الخزرج أبو قتادة الأنصاري الخزرجي فارس رسول الله ﷺ. وقيل اسمه: النعمان وهو مشهور بكنيته، شهد أحدًا وما بعدها، ولم يصح شهوده بدرًا، ومات سنة أربع وخمسين، وقيل: سنة ثمانٍ وثلاثين، والأول أصح وأشهر.

● انظر: «الإصابة» (١٠٤١١)، و«الاستيعاب» (٤١١)، و«أسد الغابة» (٨٧٩)، و«تقريب التهذيب» (٨٣١١).

(٤) نصب الدنيا: تعبها. راجع: «اللسان» (مادة: نصب).

كَمَا رَوَى الْبُخَارِيُّ [(١)]: عَنْ أَبِي شُرَيْحٍ الْخُزَاعِيِّ ﵁ [(٢)]، أَنَّ رَسُولَ الله ﷺ قَالَ: «وَاللهِ لَا يُؤْمِنُ! وَاللهِ لَا يُؤْمِنُ! وَاللهِ لَا يُؤْمِنُ»، قِيلَ: مَنْ يَا رَسُولَ الله؟ قَالَ: «الَّذِي لَا يَأْمَنُ جَارُهُ بَوَائِقَهُ» [(٣)].

وَمِنْ هَذَا الْبَابِ أَيْضًا: قَوْلُهُ ﷺ فِي التَّحْذِيرِ مِنَ التَّقْصِيرِ فِي بِرِّ الْوَالِدَيْنِ:

كَمَا رَوَى مُسْلِمٌ [(٤)] عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ ﵁ قَالَ: قَالَ رَسُولُ الله ﷺ: «رَغِمَ أَنْفُهُ! ثُمَّ رَغِمَ أَنْفُهُ! ثُمَّ رَغِمَ أَنْفُهُ!»، قِيلَ: مَنْ يَا رَسُولَ الله؟ قَالَ: «مَنْ أَدْرَكَ وَالِدَيْهِ عِنْدَ الْكِبَرِ أَحَدَهُمَا أَوْ كِلَيْهِمَا، ثُمَّ لَمْ يَدْخُلِ الْجَنَّةَ».

وَمِنْ ذَلِكَ: إِجْمَالُهُ ﷺ لِلْمَعْدُودَاتِ ثُمَّ بَيَانُهَا وَاحِدًا بَعْدَ وَاحِدٍ؛ كَمَا رَوَى الْحَاكِمُ فِي «الْمُسْتَدْرَكِ» [(٥)] عَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ ﵄ قَالَ: قَالَ رَسُولُ الله ﷺ: «اغْتَنِمْ خَمْسًا قَبْلَ خَمْسٍ: شَبَابَكَ قَبْلَ هَرَمِكَ، وَصِحَّتَكَ قَبْلَ سَقَمِكَ، وَغِنَاكَ قَبْلَ فَقْرِكَ، وَفَرَاغَكَ قَبْلَ شُغْلِكَ، وَحَيَاتَكَ قَبْلَ مَوْتِكَ».

---

(١) سيأتي هذا الحديث الشريف شاهدًا لأسلوب القسم منه ﷺ في بعض الأحيان (ص:٣٤١) [المبحث العاشر]، وأوردته هنا شاهدًا لأسلوب الإجمال ثم التفصيل.

(٢) هو أبو شريح الخزاعي الكعبي؛ اختلف في اسمه؛ فقيل: خويلد بن عمرو، وقيل: عمرو ابن خويلد، وقيل: كعب بن عمرو، وقيل: هانئ بن عمرو، وأصحها خويلد بن عمرو، أسلم قبل فتح مكة، وكان يحمل أحد ألوية بني كعب بن خزاعة يوم فتح مكة، كان من عقلاء أهل المدينة، مات بالمدينة سنة ثمان وثمانين.

(٣) أي: شروره وأذاياه؛ كما في الفيض للمناوي (٦/ ٨٦).

(٤) أخرجه مسلمٌ، كتاب البر والصلة، باب رغم أنف من أدرك أبويه عند الكبر فلم يدخل الجنة (٢٥٥١/ ١٠).

(٥) أخرجه الحاكم (٤/ ٣٠٦)، وقال: «صحيح عَلَى شرط الشيخين ولم يخرجاه»، ووافقه الذهبيُّ، والبيهقيُّ في «الشعب» (١٠٢٤٨)، وصحَّحه الألبانيُّ في «صحيح الترغيب» (٣٣٥٥)، و«صحيح الجامع» (١٠٧٧).

وَرَوَى الْبُخَارِيُّ وَمُسْلِمٌ (١) عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ رضي الله عنه، عَنِ النَّبِيِّ ﷺ قَالَ: «تُنْكَحُ الْمَرْأَةُ لأَرْبَعٍ: لِمَالِهَا، وَلِحَسَبِهَا، وَجَمَالِهَا، وَلِدِينِهَا، فَاظْفَرْ بِذَاتِ الدِّينِ تَرِبَتْ يَدَاكَ» (٢).

---

(١) أخرجه البخاريُّ، كتاب النكاح، باب الأكفاء في الدين (٥٠٩٠)، ومسلمٌ، كتاب الرضاع، باب استحباب نكاح ذات الدين (١٤٦٦).

(٢) قوله: «تَرِبَتْ يَدَاكَ» أي: لصقتا بالتراب، وهي كناية عن الفقر، وهو خبر بمعنى الدعاء، لكن لا يراد به حقيقته، كما في قولهم «ويحك» و«ويلك»، قال النوويُّ في «شرح صحيح مسلم» (١٠/ ٥٢): «فِي هَذَا الْحَدِيثِ: الْحَثُّ عَلَى مُصَاحَبَةِ أَهْلِ الدِّينِ فِي كُلِّ شَيْءٍ؛ لِأَنَّ صَاحِبَهُمْ يَسْتَفِيدُ مِنْ أَخْلَاقِهِمْ وَبَرَكَتِهِمْ وَحُسْنِ طَرَائِقِهِمْ، وَيَأْمَنُ الْمَفْسَدَةَ مِنْ جِهَتِهِمْ».

المَبْحَثُ السَّابِعُ
مُرَاعَاتُهُ ﷺ لأَحْوَالِ المَدْعُوِّينَ خَشْيَةَ السَّآمَةِ

النَّفْسُ البَشَرِيَّةُ جَمُوحٌ قَدْ تُصَابُ أَحْيَانًا بِالسَّآمَةِ وَالمَلَلِ وَالإِعْرَاضِ؛ فَفِيهَا الفُجُورُ وَالتَّقْوَى، وَتَحْتَاجُ إِلَى بَصِيرَةٍ بِمَفَاتِيحِهَا لِسَبْرِ أَغْوَارِهَا وَالتَّغَلْغُلِ إِلَى أَعْمَاقِهَا، وَالوُصُولِ إِلَى تَحْرِيكِهَا نَحْوَ الخَيْرِ وَالإِنْصَاتِ لَهُ وَالاقْتِنَاعِ وَالعَمَلِ بِهِ.

وَلِذَا؛ فَهِيَ تَحْتَاجُ إِلَى سَاعَةٍ وَسَاعَةٍ. سَاعَةً تَنْعَمُ فِيهَا بِلَذَّةِ الطَّاعَةِ وَالعِبَادَةِ، وَسَاعَةً تَنْشَغِلُ فِيهَا بِحَاجَاتِهَا الفِطْرِيَّةِ مِنْ المَطْعَمِ وَالمَشْرَبِ وَغَيرِ ذَلِكَ؛ كَمَا قَالَ النَّبِيُّ المُعَلِّمُ ﷺ لِحَنْظَلَةَ فِي هَذَا الحِوَارِ الرَّائِعِ، وَالأُسْلُوبِ العَذْبِ البَلِيغِ فِي هَذَا الحَدِيثِ الَّذِي رَوَاهُ مُسْلِمٌ فِي «**صحيحه**»[1] مِنْ حَدِيثِ حَنْظَلَةَ الْأُسَيِّدِيِّ [2]، قَالَ: - وَكَانَ مِنْ كُتَّابِ رَسُولِ اللهِ ﷺ - قَالَ: لَقِيَنِي أَبُو بَكْرٍ، فَقَالَ: كَيْفَ أَنْتَ يَا حَنْظَلَةُ؟ قَالَ: قُلْتُ: نَافَقَ حَنْظَلَةُ، قَالَ: سُبْحَانَ اللهِ مَا تَقُولُ؟ قَالَ: قُلْتُ: نَكُونُ عِنْدَ رَسُولِ اللهِ ﷺ، يُذَكِّرُنَا بِالنَّارِ وَالْجَنَّةِ، حَتَّى كَأَنَّا رَأْيُ عَيْنٍ، فَإِذَا خَرَجْنَا مِنْ عِنْدِ رَسُولِ اللهِ ﷺ، عَافَسْنَا الْأَزْوَاجَ وَالْأَوْلَادَ وَالضَّيْعَاتِ، فَنَسِينَا كَثِيرًا، قَالَ أَبُو بَكْرٍ: فَوَاللهِ إِنَّا لَنَلْقَى مِثْلَ هَذَا، فَانْطَلَقْتُ أَنَا وَأَبُو بَكْرٍ، حَتَّى دَخَلْنَا عَلَى رَسُولِ اللهِ ﷺ، قُلْتُ: نَافَقَ حَنْظَلَةُ يَا رَسُولَ اللهِ؛ فَقَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: «**وَمَا ذَاكَ؟**» قُلْتُ: يَا رَسُولَ اللهِ نَكُونُ عِنْدَكَ، تُذَكِّرُنَا بِالنَّارِ وَالْجَنَّةِ، حَتَّى

---

(١) أخرجه مسلمٌ، كتاب التوبة، باب دوام الذكر والفكر في أمور الآخرة والمراقبة، وجواز ترك ذلك في بعض الأوقات والاشتغال بالدنيا (٢٧٥٠).

(٢) هو حنظلة بن الربيع بن صيفي بن رباح بن الحارث التميمي الأسيدي أبو ربعي المعروف بحنظلة الكاتب، وهو ابن أخي أكتم بن صيفي حكيم العرب، سمي الكاتب؛ لأنه كتب للنبي ﷺ الوحي، نزل الكوفة، وتُوفي بعد عليٍّ معتزلاً للفتنة.

● راجع: «تهذيب التهذيب» (٣/ ٦٠)، و«تقريب التهذيب» (١٥٨١).

كَأَنَّا رَأْيُ عَيْنٍ، فَإِذَا خَرَجْنَا مِنْ عِنْدِكَ، عَافَسْنَا الْأَزْوَاجَ وَالْأَوْلَادَ وَالضَّيْعَاتِ، نَسِينَا كَثِيرًا؛ فَقَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: «**وَالَّذِي نَفْسِي بِيَدِهِ إِنْ لَوْ تَدُومُونَ عَلَى مَا تَكُونُونَ عِنْدِي، وَفِي الذِّكْرِ، لَصَافَحَتْكُمُ الْمَلَائِكَةُ عَلَى فُرُشِكُمْ وَفِي طُرُقِكُمْ، وَلَكِنْ يَا حَنْظَلَةُ سَاعَةً وَسَاعَةً**» ثَلَاثَ مَرَّاتٍ.

وَقَوْلُهُ: «نَافَقَ حَنْظَلَةُ»؛ قَالَ الإِمَامُ النَّوَوِيُّ فِي «**شَرْحِ مُسْلِمٍ**»(١): «مَعْنَاهُ أَنَّهُ خَافَ أَنَّهُ مُنَافِقٌ؛ حَيْثُ كَانَ يَحْصُلُ لَهُ الْخَوْفُ فِي مَجْلِسِ النَّبِيِّ ﷺ وَيَظْهَرُ عَلَيْهِ ذَلِكَ مَعَ الْمُرَاقَبَةِ وَالْفِكْرِ وَالْإِقْبَالِ عَلَى الْآخِرَةِ؛ فَإِذَا خَرَجَ اشْتَغَلَ بِالزَّوْجَةِ وَالْأَوْلَادِ وَمَعَاشِ الدُّنْيَا، وَأَصْلُ النِّفَاقِ إِظْهَارُ مَا يَكْتُمُ خِلَافَهُ مِنَ الشَّرِّ فَخَافَ أَنْ يَكُونَ ذَلِكَ نِفَاقًا، فَأَعْلَمَهُمُ النَّبِيُّ ﷺ أَنَّهُ لَيْسَ بِنِفَاقٍ وَأَنَّهُمْ لَا يُكَلَّفُونَ الدَّوَامَ عَلَى ذَلِكَ سَاعَةً وَسَاعَةً».

وَفِي «الصَّحِيحَيْنِ» (٢)- وَاللَّفْظُ لِمُسْلِمٍ-، مِنْ حَدِيثِ أَبِي وَائِلٍ شَقِيقِ بْنِ سَلَمَةَ (٣) قَالَ: «كَانَ عَبْدُ اللهِ – ابْنُ مَسْعُودٍ – رضي الله عنه يُذَكِّرُنَا كُلَّ يَوْمِ خَمِيسٍ؛ فَقَالَ لَهُ رَجُلٌ: يَا أَبَا عَبْدِ الرَّحْمَنِ! إِنَّا نُحِبُّ حَدِيثَكَ وَنَشْتَهِيهِ، وَلَوَدِدْنَا أَنَّكَ حَدَّثْتَنَا كُلَّ يَوْمٍ؛ فَقَالَ: مَا يَمْنَعُنِي أَنْ أُحَدِّثَكُمْ إِلَّا كَرَاهِيَةُ أَنْ أُمِلَّكُمْ، إِنَّ رَسُولَ اللهِ ﷺ كَانَ يَتَخَوَّلُنَا بِالْمَوْعِظَةِ فِي الْأَيَّامِ، كَرَاهِيَةَ السَّآمَةِ عَلَيْنَا» (٤).

---

(١) (٩/ ١١٤).

(٢) أخرجه البخاريُّ، كتاب العلم، باب ما كان النبيُّ ﷺ يتخولهم بالموعظة والعلم، كي لا ينفروا (٦٨)، ومسلمٌ، كتاب صفة القيامة والجنة والنار، باب الاقتصاد في الموعظة (٢٨٢١).

(٣) هو الإمام الكبير، شيخ الكوفة، أبو وائل الأسدي شقيق بن سلمة مخضرم، أدرك النبيَّ ﷺ وما رآه، حدث عن عمر وعثمان وعلي وغيرهم، تعلم القرآن في شهرين، سكن الكوفة وكان من عبادها، قال ابن أبي النجود: «ما سمعت أبا وائل سبَّ إنسانًا قط، ولا بهيمة»؛ مات سنة (٨٢)، وقيل: مات في خلافة عمر بن عبد العزيز.

● راجع: «سير أعلام النبلاء» (٥٦٣)، و«تهذيب التهذيب» (٤/ ٣٦١-٣٦٢).

(٤) السآمة: الملالة، والمعنى: كان يتعهدنا؛ أي: يعلمنا أيامًا، ويدعنا بعض الأيام كراهية =

قَالَ الْحَافِظُ ابْنُ حَجَرٍ فِي «فَتْحِ الْبَارِي»[1]: «يُسْتَفَادُ مِنَ الْحَدِيثِ: اسْتِحْبَابُ تَرْكِ الْمُدَاوَمَةِ فِي الْجِدِّ فِي الْعَمَلِ الصَّالِحِ خَشْيَةَ الْمَلَالِ، وَإِنْ كَانَتِ الْمُوَاظَبَةُ مَطْلُوبَةً، لَكِنَّهَا عَلَى قِسْمَيْنِ: إِمَّا كُلَّ يَوْمٍ مَعَ عَدَمِ التَّكَلُّفِ، وَإِمَّا يَوْمًا بَعْدَ يَوْمٍ، فَيَكُونُ يَوْمُ التَّرْكِ لِأَجْلِ الرَّاحَةِ، وَيَخْتَلِفُ بِاخْتِلَافِ الْأَحْوَالِ وَالْأَشْخَاصِ، وَالضَّابِطُ: الْحَاجَةُ، مَعَ مُرَاعَاةِ وُجُودِ النَّشَاطِ».

۞

= أن نملَّ شفقةً علينا؛ ليكون أخذنا عنه بنشاط وحرص وشوق، لا عن ضجر وملال، فيفوت مقصوده.

(١) (١/ ١٦٣).

المَبْحَثُ الثَّامِنُ
مُرَاعَاتُهُ ﷺ مَا يُنَاسِبُ أَحْوَالَ المَدْعُوِّينَ وَأَفْهَامَهُمْ وَقُدْرَاتِهِمْ

لَقَدْ كَانَ النَّبِيُّ ﷺ حَرِيصًا كُلَّ الحِرْصِ عَلَى مُرَاعَاةِ أَحْوَالِ المَدْعُوِّينَ بِمَا يَتَلَاءَمُ مَعَ أَفْهَامِهِمْ وَمَنْزِلَتِهِمْ وَقُدُرَاتِهِمْ وَمَكَانَتِهِمْ فِي مُجْتَمَعَاتِهِمْ؛ حَتَّى لَا يَجْرَحَ مَشَاعِرَهُمْ أَوْ يَصْدِمَ قُلُوبَهُمْ وَعُقُولَهُمْ.

فَفِي «**الصَّحِيْحَيْنِ**»[1] مِنْ حَدِيثِ أَنَسِ بْنِ مَالِكٍ رضي الله عنه أَنَّ النَّبِيَّ ﷺ - وَمُعَاذٌ رَدِيفُهُ عَلَى الرَّحْلِ - قَالَ: «**يَا مُعَاذُ**»، قَالَ: لَبَّيْكَ يَا رَسُولَ اللهِ وَسَعْدَيْكَ، قَالَ: «**يَا مُعَاذُ**»، قَالَ: لَبَّيْكَ يَا رَسُولِ اللهِ وَسَعْدَيْكَ، قَالَ: «**يَا مُعَاذُ**»، قَالَ: لَبَّيْكَ يَا رَسُولَ اللهِ وَسَعْدَيْكَ.

قَالَ: «**مَا مِنْ أَحَدٍ يَشْهَدُ أَنْ لاَ إِلَهَ إِلاَّ اللهُ، وَأَنَّ مُحَمَّدًا عَبْدُهُ وَرَسُولُهُ، صِدْقًا مِنْ قَلْبِهِ إِلَّا حَرَّمَهُ اللهُ عَلَى النَّارِ**»، قَالَ: يَا رَسُولَ اللهِ، أَفَلاَ أُخْبِرُ بِهِ النَّاسَ فَيَسْتَبْشِرُوا؟ قَالَ: «**لَا، إِذًا يَتَّكِلُوا**». وَأَخْبَرَ بِهَا مُعَاذٌ عِنْدَ مَوْتِهِ تَأَثُّمًا[2].

قَالَ الْحَافِظُ ابْنُ رَجَبٍ فِي «شَرْحِ الْبُخَارِيِّ»[3]: «قَالَ الْعُلَمَاءُ: يُؤْخَذُ مِنْ مَنْعِ مُعَاذٍ مِنْ تَبْشِيرِ النَّاسِ لِئَلَّا يَتَّكِلُوا، أَنَّ أَحَادِيثَ الرُّخَصِ لَا تُشَاعُ فِي عُمُومِ النَّاسِ، لِئَلَّا يَقْصُرَ فَهْمُهُمْ عَنِ الْمُرَادِ بِهَا، وَقَدْ سَمِعَهَا مُعَاذٌ، فَلَمْ يَزْدَدْ إِلَّا اجْتِهَادًا فِي الْعَمَلِ وَخَشْيَةً لِلَّهِ عَزَّ وَجَلَّ؛ فَأَمَّا مَنْ لَمْ يَبْلُغْ مَنْزِلَتَهُ فَلَا يُؤْمَنُ أَنْ يُقَصِّرَ اتِّكَالًا عَلَى

---

(١) أخرجه البخاريُّ، كتاب العلم، باب من خصَّ بالعلم قومًا دون قوم كراهية ألا يفهموا (١٢٨)، ومسلمٌ، كتاب الإيمان، باب الدليل على أن من مات على التوحيد دخل الجنة قطعًا (٣٠).

(٢) أي: تجنبًا للإثم، والمراد: الإثم الحاصل من كتمان العلم.

(٣) نقله عنه الحافظ في «الفتح» (١١/ ٣٤٠).

ظَاهِرِ هَذَا الْخَبَرِ».

وَقَالَ الْغَزَالِيُّ رحمه الله فِي «إِحْيَاءِ عُلُومِ الدِّينِ» (١): «مِنْ وَظَائِفِ الْمُعَلِّمِ أَنْ يَقْتَصِرَ بِالْمُتَعَلِّمِ عَلَى قَدْرِ فَهْمِهِ، فَلَا يُلْقِي إِلَيْهِ مَا لَا يَبْلُغُهُ عَقْلُهُ فَيُنَفِّرَهُ أَوْ يُخَبِّطَ عَلَيْهِ عَقْلَهُ؛ اقْتِدَاءً فِي ذَلِكَ بِسَيِّدِ الْبَشَرِ ﷺ - فَقَدْ كَانَ يُرَاعِي فِي تَعْلِيمِهِ وَتَحْدِيثِهِ وَوَعْظِهِ - فَلْيَبُثَّ إِلَيْهِ الْحَقِيقَةَ إِذَا عَلِمَ أَنَّهُ يَسْتَقِلُّ بِفَهْمِهَا.

وَلَا يَنْبَغِي أَنْ يُفْشِيَ الْعَالِمُ كُلَّ مَا يَعْلَمُ إِلَى كُلِّ أَحَدٍ؛ هَذَا إِذَا كَانَ يَفْهَمُهُ الْمُتَعَلِّمُ وَلَمْ يَكُنْ أَهْلًا لِلِانْتِفَاعِ بِهِ؛ فَكَيْفَ فِيمَا لَا يَفْهَمُهُ؟ وَلِذَلِكَ قِيلَ - قَائِلُهُ أَبُو طَالِبٍ الْمَكِّيُّ (٢) فِي «قُوتِ الْقُلُوبِ»: «كِلْ لِكُلِّ عَبْدٍ بِمِعْيَارِ عَقْلِهِ، وَزِنْ لَهُ بِمِيزَانِ فَهْمِهِ، حَتَّى تَسْلَمَ مِنْهُ وَيَنْتَفِعَ بِكَ، وَإِلَّا وَقَعَ الْإِنْكَارُ؛ لِتَفَاوُتِ الْمِعْيَارِ»!!

وَقَدْ قَالَ الله : ﴿وَلَا تُؤْتُوا السُّفَهَاءَ أَمْوَالَكُمُ﴾ [النساء:٥]؛ تَنْبِيهًا عَلَى أَنَّ حِفْظَ الْعِلْمِ مِمَّنْ يُفْسِدُهُ وَيَضُرُّهُ أَوْلَى، وَلَيْسَ الظُّلْمُ فِي إِعْطَاءِ غَيْرِ الْمُسْتَحِقِّ بِأَقَلَّ مِنَ الظُّلْمِ فِي مَنْعِ الْمُسْتَحِقِّ.

قَالَ: وَالْمُتَعَلِّمُ الْقَاصِرُ يَنْبَغِي أَنْ يُلْقَى إِلَيْهِ الْجَلِيُّ اللَّائِقُ بِهِ، وَلَا يُذْكَرَ لَهُ أَنَّ وَرَاءَ هَذَا تَدْقِيقًا وَهُوَ يَدَّخِرُهُ عَنْهُ؛ فَإِنَّ ذَلِكَ يُفَتِّرُ رَغْبَتَهُ فِي الْجَلِيِّ، وَيُشَوِّشُ عَلَيْهِ قَلْبَهُ، وَيُوهِمُ إِلَيْهِ الْبُخْلَ بِهِ عَنْهُ؛ إِذْ يَظُنُّ كُلُّ أَحَدٍ أَنَّهُ أَهْلٌ لِكُلِّ عِلْمٍ دَقِيقٍ.

بَلْ لَا يَنْبَغِي أَنْ يُخَاضَ مَعَ الْعَوَامِّ فِي حَقَائِقِ الْعُلُومِ الدَّقِيقَةِ؛ بَلْ يَقْتَصِرُ

---

(١) (١/ ٥٧، ٥٨) باختصار.

(٢) هو محمد بن علي بن عطية الحارثي، شيخ الصوفية، المكيُّ المنشأ، العجميُّ الأصل، كان مجتهدًا في العبادة، وخلَّط في كلامه؛ قال الخطيب: «صنف كتابًا سماه «قوت القلوب» على لسان الصوفية، ذكر فيه أشياء منكرة مستشنعة في الصفات، توفي سنة ست وثمانين وثلاث مائة.

- راجع: «تاريخ بغداد» (٣/ ٣٠٣)، و«السير» (١٦/ ٥٣٦، ٥٣٧)، و«الميزان» (٣/ ٦٥٥).

مَعَهُمْ عَلَى تَعْلِيمِ الْعِبَادَاتِ وَتَعْلِيمِ الْأَمَانَةِ فِي الصِّنَاعَاتِ الَّتِي هُمْ بِصَدَدِهَا، وَيَمْلَأُ قُلُوبَهُمْ مِنَ الرَّغْبَةِ وَالرَّهْبَةِ فِي الْجَنَّةِ وَالنَّارِ، كَمَا نَطَقَ بِهِ الْقُرْآنُ، وَلَا يُحَرِّكُ عَلَيْهِمْ شُبْهَةً؛ فَإِنَّهُ رُبَّمَا تَعَلَّقَتِ الشُّبْهَةُ بِقَلْبِهِ وَيَعْسُرُ عَلَيْهِ حَلُّهَا؛ فَيَشْقَى وَيَهْلِكُ». انْتَهَى.

وَقَدِ اخْتَلَفَتْ أَجْوِبَةُ النَّبِيِّ ﷺ لاخْتِلَافِ أَحْوَالِ السَّائِلِينَ وَظُرُوفِهِمْ وَحَاجَاتِهِمْ. وَالأَمْثِلَةُ عَلَى ذَلِكَ كَثِيرَةٌ وَمُتَعَدِّدَةٌ. فَقَدْ رَوَى الْبُخَارِيُّ وَالتِّرمِذِيُّ[١]، وَاللَّفْظُ مِنْهُمَا، عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ رضي الله عنه: جَاءَ رَجُلٌ إِلَى النَّبِيِّ ﷺ قَالَ: عَلِّمْنِي شَيْئًا، وَلاَ تُكْثِرْ عَلَيَّ لَعَلِّي أَعِيهِ [٢]، قَالَ: «**لاَ تَغْضَبْ**»، فَرَدَّدَ ذَلِكَ مِرَارًا كُلَّ ذَلِكَ يَقُولُ: «**لاَ تَغْضَبْ**» [٣].

وَرَوَى الْبُخَارِيُّ وَمُسْلِمٌ [٤]، وَاللَّفْظُ لَهُ، عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ رضي الله عنه: أَنَّ أَعْرَابِيًّا جَاءَ إِلَى رَسُولِ اللهِ ﷺ؛ فَقَالَ: يَا رَسُولَ اللهِ! دُلَّنِي عَلَى عَمَلٍ إِذَا عَمِلْتُهُ دَخَلْتُ الْجَنَّةَ، قَالَ: «**تَعْبُدُ اللهَ لاَ تُشْرِكُ بِهِ شَيْئًا، وَتُقِيمُ الصَّلاَةَ الْمَكْتُوبَةَ، وَتُؤَدِّي الزَّكَاةَ الْمَفْرُوضَةَ، وَتَصُومُ رَمَضَانَ**». قَالَ: وَالَّذِي نَفْسِي بِيَدِهِ لاَ أَزِيدُ عَلَى هَذَا شَيْئًا أَبَدًا وَلاَ أَنْقُصُ مِنْهُ. فَلَمَّا وَلَّى؛ قَالَ النَّبِيُّ ﷺ: «**مَنْ سَرَّهُ أَنْ يَنْظُرَ إِلَى رَجُلٍ مِنْ أَهْلِ الْجَنَّةِ فَلْيَنْظُرْ إِلَى هَذَا**».

---

(١) أخرجه البخاريُّ، كتاب الأدب، باب الحذر من الغضب (٦١١٦)، والترمذيُّ، كتاب البر والصلة، باب ما جاء في كثرة الغضب (٢٠٢٠).

(٢) أي: أحفظه وأعقله.

(٣) قوله: «لا تغضب»؛ قال الخطابي: «معناه: لا تتعرض لأسباب الغضب، وللأمور التي تجلب الغضب؛ إذ نفس الغضب مطبوع في الإنسان لا يمكن إخراجه من جبلته، أو معناه: لا تفعل ما يأمرك الغضب ويحملك عليه من الأقوال والأفعال»؛ كذا في «عمدة القاري» للبدر العيني (٢٢/ ١٦٤).

(٤) أخرجه البخاريُّ، كتاب الزكاة، باب وجوب الزكاة (١٣٩٧)، ومسلمٌ، كتاب الإيمان (١٤).

وَرَوَى التِّرْمِذِيُّ، وَاللَّفْظُ لَهُ، وَابْنُ مَاجَهْ (١)، عَنْ عَبْدِ اللهِ بْنِ بُسْرٍ (٢): أَنَّ رَجُلاً قَالَ: يَا رَسُولَ اللهِ إِنَّ شَرَائِعَ الإِسْلاَمِ قَدْ كَثُرَتْ عَلَيَّ، فَأَخْبِرْنِي بِشَيْءٍ أَتَشَبَّثُ بِهِ، قَالَ: «**لاَ يَزَالُ لِسَانُكَ رَطْبًا مِنْ ذِكْرِ اللهِ**».

وَفِي «صحيح» مُسْلِمٍ (٣) عَنْ سُفْيَانَ بْنِ عَبْدِ اللهِ الثَّقَفِيِّ (٤) قَالَ: قُلْتُ: يَا رَسُولَ اللهِ، قُلْ لِي فِي الإِسْلاَمِ قَوْلاً لاَ أَسْأَلُ عَنْهُ أَحَدًا بَعْدَكَ، قَالَ: «**قُلْ آمَنْتُ بِاللهِ فَاسْتَقِمْ**». هَذَا لَفْظُ مُسْلِمٍ.

وَفِي لَفْظٍ عِنْدَ التِّرْمِذِيِّ وَابْنِ مَاجَهْ (٥): قُلْتُ: يَا رَسُولَ اللهِ حَدِّثْنِي بِأَمْرٍ

---

(١) أخرجه أحمد (٤/ ١٨٨و ١٩٠)، والترمذيُّ، كتاب الدعوات، باب ما جاء في فضل الذكر (٣٣٧٥)، وابن ماجه، كتاب الأدب، باب فضل الذكر (٣٧٩٣)، وابن حبان (٨١٤)، والحاكم (١/ ٦٧٢)، وصحَّحه الألبانيُّ في «صحيح الترمذي»، و«صحيح الترغيب والترهيب» (٢/ ٩٥).

(٢) هو عبد الله بن بسر بضم الموحدة وسكون المهملة، المازني، أبو بسر الحمصي، وقيل: أبو صفوان السلمي المازني، صلى القبلتين، وضع النبيُّ ﷺ يده عَلَى رأسه، ودعا له، وصحب النبيَّ ﷺ، مات بالشام، وقيل: بحمص منها سنة ثمان وثمانين، وهو ابن أربع وتسعين، وهو آخر من مات بالشام من الصحابة، وقال القاسم ابن سعد: مات سنة ست وتسعين، وهو آخر من مات بالشام من الصحابة، وقال القاسم بن سعد: مات سنة ست وتسعين وهو ابن مائة سنة.

● راجع: «الاستيعاب» (١٥٠٨)، و«أسد الغابة» (٢٨٣٩)، و«الإصابة» (٤٥٨٢).

(٣) أخرجه مسلمٌ، كتاب الإيمان، باب جامع أوصاف الإسلام (٣٨).

(٤) هو سفيان بن عبد الله بن أبي ربيعة بن الحارث بن مالك بن حطيط الثقفيُّ الطائفيُّ، أسلم مع الوفد، معدودٌ في أهل الطائف، وكان عاملًا لعمر بن الخطاب رضي الله عنه عَلَى الطائف، وسأل النبيَّ ﷺ عن أمر يعتصم به؛ فقال: «**قُلْ: رَبِّيَ اللَّهُ ثُمَّ اسْتَقِمْ**».

● راجع: «الاستيعاب» (١٠٠٢)، و«أسد الغابة» (٢١١٨)، و«الإصابة» (٣٣٢٦).

(٥) أخرجهُ الترمذيُّ، كتاب الزهد، باب ما جاء في حفظ اللسان (٢٤١٠)، وابن ماجه، كتاب الفتن، باب كف اللسان في الفتنة (٣٩٧٢)، وصححه الألبانيُّ في «صحيح الترمذي»، و«صحيح ابن ماجه»، و«المشكاة» (٤٨٤٣).

أَعْتَصِمُ بِهِ، قَالَ: «قُلْ رَبِّيَ اللهُ، ثُمَّ اسْتَقِمْ»، قُلْتُ: يَا رَسُولَ اللهِ، مَا أَخْوَفُ مَا تَخَافُ عَلَيَّ؟ فَأَخَذَ بِلِسَانِ نَفْسِهِ، ثُمَّ قَالَ: «هَذَا».

وَرَوَى الْبُخَارِيُّ وَمُسْلِمٌ [١]، وَاللَّفْظُ لَهُ، عَنْ عَبْدِ اللهِ بْنِ عُمَرَ رضي الله عنهما: أَنَّ رَجُلاً سَأَلَ رَسُولَ اللهِ ﷺ أَيُّ الإِسْلَامِ خَيْرٌ [٢]؟ قَالَ: «**تُطْعِمُ الطَّعَامَ، وَتَقْرَأُ السَّلَامَ عَلَى مَنْ عَرَفْتَ وَمَنْ لَمْ تَعْرِفْ**».

وَرَوَى مُسْلِمٌ [٣] عَنْ عَبْدِ اللهِ بْنِ عَمْرٍو رضي الله عنهما: أَنَّ رَجُلاً سَأَلَ رَسُولَ اللهِ ﷺ أَيُّ الْمُسْلِمِينَ خَيْرٌ [٤]؟ قَالَ «**مَنْ سَلِمَ الْمُسْلِمُونَ مِنْ لِسَانِهِ وَيَدِهِ**».

وَرَوَى الْبُخَارِيُّ وَمُسْلِمٌ [٥]، - **وَاللَّفْظُ لِلْبُخَارِيِّ** -، عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ رضي الله عنه سُئِلَ النَّبِيُّ ﷺ أَيُّ الأَعْمَالِ أَفْضَلُ؟ قَالَ: «**إِيمَانٌ بِاللهِ وَرَسُولِهِ**»، قِيلَ ثُمَّ مَاذَا؟ قَالَ: «**جِهَادٌ فِي سَبِيلِ اللهِ**»، قِيلَ: ثُمَّ مَاذَا؟ قَالَ: «**حَجٌّ مَبْرُورٌ**».

وَفِي «الصَّحِيحَيْنِ» [٦]، **وَاللَّفْظُ لِمُسْلِمٍ**، عَنْ عَبْدِ اللهِ بْنِ مَسْعُودٍ رضي الله عنه قَالَ: سَأَلْتُ رَسُولَ اللهِ ﷺ أَيُّ الْعَمَلِ أَفْضَلُ؟ - وَفِي رِوَايَةٍ: أَيُّ الأَعْمَالِ أَحَبُّ إِلَى

---

(١) أخرجه البخاريُّ، كتاب الإيمان، باب إطعام الطعام من الإسلام (١٢)، ومسلمٌ، كتاب الإيمان، باب بيان تفاضل الإسلام وأيُّ أموره أفضل؟ (٣٩).

(٢) أي: أي خصال الإسلام خير؟

(٣) أخرجه مسلمٌ، كتاب الإيمان، باب بيان تفاضلُ الإسلام (٤٠)، وأخرجه نحوه البخاريُّ، كتاب الإيمان، باب المسلم من سلم المسلمون من لسانه ويده (١٠)، وفي كتاب الرقاق، باب الانتهاء عن المعاصي (٦٤٨٤)، وليس فيه: «أَيُّ الْمُسْلِمِينَ خَيْرٌ؟».

(٤) أي: من حيث اتصافه بخصال الإسلام.

(٥) أخرجه البخاريُّ، كتاب الحج، باب فضل الحج المبرور (١٥١٩) وانظر: (٢٦)، ومسلمٌ، كتاب الإيمان، باب بيان كون الإيمان بالله تعالى أفضل الأعمال (٨٣).

(٦) أخرجه البخاريُّ، كتاب مواقيت الصلاة، باب فضل الصلاة لوقتها (٥٢٧)، ومسلمٌ، كتاب الإيمان، باب بيان كون الإيمان بالله تعالى أفضل الأعمال (٨٥).

الله؟ - قَالَ: «**الصَّلَاةُ لِوَقْتِهَا**»، قَالَ: قُلْتُ: ثُمَّ أَيٌّ؟ قَالَ: «**بِرُّ الْوَالِدَيْنِ**»، قَالَ: قُلْتُ: ثُمَّ أَيٌّ؟ قَالَ: «**الْجِهَادُ فِي سَبِيلِ اللهِ**»، فَمَا تَرَكْتُ أَسْتَزِيدُهُ إِلَّا إِرْعَاءً عَلَيْهِ.

أَيْ: لَمْ أَزِدْ فِي السُّؤَالِ عَنْ بَقِيَّةِ الْأَعْمَالِ وَتَرْتِيبِهَا فِي الْفَضْلِ؛ رِفْقًا بِالنَّبِيِّ ﷺ، وَفِيهِ بَيَانُ رِفْقِ الْمُتَعَلِّمِ بِالْمُعَلِّمِ، وَمُرَاعَاةِ مَصَالِحِهِ، وَالشَّفَقَةِ عَلَيْهِ؛ قَالَهُ الْإِمَامُ النَّوَوِيُّ فِي «**شَرْحِ صَحِيحِ مُسْلِمٍ**» (١).

وَالنَّبِيُّ ﷺ هُوَ الْمُعَلِّمُ الْمُرْشِدُ، وَالْهَادِي الْبَصِيرُ، يُبَصِّرُ كُلًّا بِمَا يَحْتَاجُ إِلَيْهِ وَبِمَا يَلِيقُ بِهِ؛ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَعَلَى آلِهِ وَبَارَكَ وَسَلَّمَ.

❀ ◈ ❀

---

(١) «شرح مسلم» للنوويِّ (٢/ ٧٩).

المَبْحَثُ التَّاسِعُ
تَعْلِيمُهُ ﷺ بِالسُّكُوتِ وَالإِقْرَارِ

قَوْلُ النَّبِيِّ ﷺ وفِعْلُهُ فِيمَا يُبَلِّغُ عَنْ رَبِّهِ جَلَّ وَعَلَا تَشْرِيعٌ، وَكَذَلِكَ سُكُوتُهُ عَمَّا يَقَعُ بَيْنَ يَدَيْهِ مِنْ قَوْلٍ وَفِعْلٍ؛ إِقْرَارًا لَهُ وَإِظْهَارًا للرِّضَا بِهِ تَشْرِيعٌ. وَهُوَ مَا يُسَمِّيهُ المُحَدِّثُونَ وَالأُصُولِيُّونَ بِالسُّنَّةِ التَّقْرِيرِيَّةِ [١].

رَوَى الْبُخَارِيُّ [٢] عَنْ أَبِي جُحَيْفَةَ وَهْبِ بْنِ عَبْدِ اللهِ رضي الله عنه، قَالَ: آخَى النَّبِيُّ ﷺ بَيْنَ سَلْمَانَ، وَأَبِي الدَّرْدَاءِ، فَزَارَ سَلْمَانُ أَبَا الدَّرْدَاءِ، فَرَأَى أُمَّ الدَّرْدَاءِ مُتَبَذِّلَةً[٣]، فَقَالَ لَهَا: مَا شَأْنُكِ؟ قَالَتْ: أَخُوكَ أَبُو الدَّرْدَاءِ لَيْسَ لَهُ حَاجَةٌ فِي الدُّنْيَا[٤]، فَجَاءَ أَبُو الدَّرْدَاءِ، فَصَنَعَ لَهُ طَعَامًا، فَقَالَ: كُلْ، قَالَ: فَإِنِّي صَائِمٌ، قَالَ: مَا أَنَا بِآكِلٍ حَتَّى تَأْكُلَ، قَالَ: فَأَكَلَ، فَلَمَّا كَانَ اللَّيْلُ ذَهَبَ أَبُو الدَّرْدَاءِ يَقُومُ، قَالَ: نَمْ، فَنَامَ، ثُمَّ ذَهَبَ يَقُومُ، فَقَالَ: نَمْ، فَلَمَّا كَانَ مِنْ آخِرِ اللَّيْلِ قَالَ سَلْمَانُ: قُمِ الآنَ، فَصَلَّيَا؛ فَقَالَ لَهُ سَلْمَانُ: إِنَّ لِرَبِّكَ عَلَيْكَ حَقًّا، وَلِنَفْسِكَ عَلَيْكَ حَقًّا، وَلأَهْلِكَ عَلَيْكَ حَقًّا، فَأَعْطِ كُلَّ ذِي حَقٍّ حَقَّهُ. فَأَتَى النَّبِيَّ ﷺ فَذَكَرَ ذَلِكَ لَهُ؛ فَقَالَ النَّبِيُّ ﷺ: «**صَدَقَ سَلْمَانُ**» [٥].

---

(١) راجع: «البحر المحيط» للزركشي (٣/ ٢٧٠) ط دار الكتب العلمية، بيروت، سنة ١٤٢١ هـ، و«علم أصول الفقه» (ص:٣٦) لعبد الوهاب خلاف، الطبعة الثانية، دار القلم.

(٢) أخرجه البخاريُّ، كتاب الصوم، باب من أقسم علَى أخيه ليفطر في التطوع (١٩٦٨)، وفي كتاب الأدب، باب صنع الطعام والتكلف للضيف (٦١٣٩).

(٣) أي: لابسة الثياب الخَلِق البالية، وتاركةً للبس الثياب المعتادة المستحسنة.

(٤) تعني: أنه عَزوفٌ عن النساء، منصرفٌ إلى العبادة كلَّ الانصراف.

(٥) أي: في جميع ما ذكره، وفي إقرار النبيِّ ﷺ لسلمان مَنْقَبةٌ عظيمةٌ له رضي الله عنه.

وَرَوَى أَبُـو دَاوُدَ فِـي «سُـنَنِهِ»، وَأَحْمَـدُ فِـي «مُسْـنَدِهِ»، وَالْحَـاكِمُ فِـي «الْمُسْتَدْرَكِ»، وَعَلَّقَهُ الْبُخَارِيُّ فِي «صَحِيحِهِ» (١) عَنْ عَمْرِو بْنِ الْعَـاصِ ﵁ (٢) قَالَ: احْتَلَمْتُ فِي لَيْلَةٍ بَارِدَةٍ فِي غَزْوَةِ ذَاتِ السَّلَاسِلِ (٣)، فَأَشْفَقْتُ إِنِ اغْتَسَلْتُ أَنْ أَهْلِكَ، فَتَيَمَّمْتُ، ثُمَّ صَلَّيْتُ بِأَصْحَابِي الصُّبْحَ، فَذُكِرَ ذَلِكَ لِلنَّبِيِّ ﷺ؛ فَقَالَ: «يَا عَمْـرُو صَـلَّيْتَ بِأَصْحَابِكَ وَأَنْتَ جُنُبٌ؟»؛ فَأَخْبَرْتُـهُ بِالَّـذِي مَنَعَنِي مِنَ الاغْتِسَالِ، وَقُلْتُ: إِنِّـي سَمِعْتُ اللهَ يَقُولُ: ﴿وَلَا تَقْتُلُوٓاْ أَنفُسَكُمۡۚ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ بِكُمۡ رَحِيمٗا﴾ [النساء:٢٩] فَضَحِكَ رَسُولُ اللهِ ﷺ وَلَمْ يَقُلْ شَيْئًا (٤).

---

(١) أخرجه أحمد (٤/ ٢٠٣)، وأبو داود، كتاب التيمم، باب إذا خاف الجنبُ البرد (٣٣٤)، والبخاريُّ في «صحيحه» - تعليقًا بصيغة التمريض - «الفتح» (١/ ٥٤١)، والحاكم (١/ ٢٨٥)، والبيهقيُّ في «السنن الكبير» (١/ ٢٢٥)، وقوَّى سنده الحافظ في «الفتح» (١/ ٥٤١)، وصحَّحه الألبانيُّ في «صحيح أبي داود».

(٢) هو عمرو بن العاصِ بن وائل بن هاشم بن سعيد بن سهم بن عمرو بن هصيص بن كعب بن لؤي القرشي السهمي، يكنى أبا عبد الله، ويقال: أبو محمد. أسلم سنة ثمان قبل الفتح بستةِ أشهر هو وخالد بن الوليد، وعثمان بن طلحة ﵃؛ قال البخاريُّ: «ولَّاه النبيُّ ﷺ على جيش ذات السلاسل». شهد صفين، وهو أحد الحكمين، واستعملهُ معاوية ﵁ على مصر إلى أن مات سنة ثلاث وأربعين. راجع: «الاستيعاب» (١٩٣١)، و«أسد الغابة» (٣٩٧١)، و«الإصابة» (٤/ ٥٣٧)، و«تهذيب التهذيب» (٨/ ٥٦).

(٣) اسمُ ماء بأرض جُذام، وهي وراء وادي القرى، بينها وبين المدينة عشرة أيام، وكانت تلك الغزوة في جُمادى الأولى سنة ثمان من الهجرة. انظر: «معجم البلدان» (٣/ ٢٣٣)، و«فتح الباري» (٨/ ٧٤).

(٤) في تبسمه ﷺ دليلٌ عَلَى جواز التيمم عند شدة البرد؛ لأن تبسمه يُعدُّ إقرارًا منه ﷺ، وهو لا يُقرُّ عَلَى باطل، والتبسُّم والاستبشار منه ﷺ أقوى دلالة عَلَى الجواز من السكوت.

المَبْحَثُ العَاشِرُ
تَأْكِيدُهُ ﷺ التَّعْلِيمَ بِالقَسَمِ وَالتَّكْرَارِ

رَسُولُ اللهِ ﷺ هُوَ الصَّادِقُ الأَمِينُ الَّذِي شَهِدَ بِصِدْقِهِ الأَعْدَاءُ قَبْلَ الأَصْدِقَاءِ؛ بَلْ هُوَ الَّذِي قَالَ لَهُ رَبُّهُ: ﴿فَإِنَّهُمْ لَا يُكَذِّبُونَكَ وَلَٰكِنَّ ٱلظَّٰلِمِينَ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ يَجْحَدُونَ﴾ [الأنعام:٣٣].

وَمَا نَطَقَ إِلَّا بِالصِّدْقِ، وَمَا قَالَ إِلَّا الحَقَّ، وَالتَّارِيخُ وَالوَاقِعُ شَاهِدَانِ عَلَى صِدْقِ مُحَمَّدٍ ﷺ فِي كُلِّ مَا قَالَ، وَإِنْ كُنَّا نَحْنُ المُسْلِمِينَ لَسْنَا فِي حَاجَةٍ إِلَى شَهَادَةِ التَّارِيخِ وَالوَاقِعِ؛ لِأَنَّ الَّذِي شَهِدَ بِصِدْقِهِ هُوَ اللهُ.

وَمَعَ ذَلِكَ أَقْسَمَ النَّبِيُّ ﷺ فِي أَكْثَرَ مِنْ ثَمَانِينَ مَوْضِعًا، وَأَمَرَهُ رَبُّهُ بِالقَسَمِ فِي ثَلَاثَةِ مَوَاضِعَ مِنَ القُرْآنِ؛ تَنْبِيهًا وَتَأْكِيدًا مِنْهُ ﷺ إِلَى أَهَمِّيَةِ مَا يَطْرَحُهُ فِي ﴿قُلْ إِى وَرَبِّىٓ إِنَّهُۥ لَحَقٌّ﴾ [يونس:٥٣]، وفي ﴿قُلْ بَلَىٰ وَرَبِّى لَتَأْتِيَنَّكُمْ﴾ [سبأ:٣]، وفي ﴿قُلْ بَلَىٰ وَرَبِّى لَتُبْعَثُنَّ﴾ [التغابن:٧] (١).

رَوَى مُسْلِمٌ (٢) عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ رضي الله عنه قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: «وَالَّذِي نَفْسِي

(١) قال الإمام ابنُ القيم رحمه الله في «إعلام الموقعين» (٤/ ١٦٥)، و«زاد المعاد» (٢/ ٣١٣): «أقسم النبيُّ ﷺ عَلَى ما أخبر به من الحق، في أكثر من ثمانين موضعًا، وهي موجودة في الصحاح والمسانيد، وأمره الله سبحانه وتعالى بالحلف عَلَى تصديق ما أخبر به في ثلاثة مواضع من القرآن: في ﴿قُلْ إِى وَرَبِّىٓ إِنَّهُۥ لَحَقٌّ﴾ [يونس:٥٣]، وفي ﴿قُلْ بَلَىٰ وَرَبِّى لَتَأْتِيَنَّكُمْ﴾ [سبأ:٣]، وفي ﴿قُلْ بَلَىٰ وَرَبِّى لَتُبْعَثُنَّ﴾ [التغابن:٧]».

(٢) أخرجه مسلمٌ، كتاب الإيمان، باب بيان أنه لا يدخل الجنة إلا المؤمنون، وأن محبة المؤمنين من الإيمان (٥٤).

بِيَدِهِ، لَا تَدْخُلُونَ الْجَنَّةَ حَتَّى تُؤْمِنُوا، وَلَا تُؤْمِنُوا حَتَّى تَحَابُّوا (١)، أَوَلَا أَدُلُّكُمْ عَلَى شَيْءٍ إِذَا فَعَلْتُمُوهُ تَحَابَبْتُمْ؟ أَفْشُوا السَّلَامَ بَيْنَكُمْ».

وَرَوَى مُسْلِمٌ (٢) عَنْ أَنَسٍ رضي الله عنه عَنِ النَّبِيِّ ﷺ قَالَ: «وَالَّذِي نَفْسِي بِيَدِهِ لَا يُؤْمِنُ عَبْدٌ حَتَّى يُحِبَّ لِجَارِهِ - أَوْ قَالَ لِأَخِيهِ - مَا يُحِبُّ لِنَفْسِهِ».

وَرَوَى الْبُخَارِيُّ (٣) عَنْ أَبِي شُرَيْحٍ الْخُزَاعِيِّ رضي الله عنه، أَنَّ رَسُولَ اللهِ ﷺ قَالَ: «وَاللهِ لَا يُؤْمِنُ، وَاللهِ لَا يُؤْمِنُ، وَاللهِ لَا يُؤْمِنُ»، قِيلَ: مَنْ يَا رَسُولَ اللهِ؟ قَالَ: «الَّذِي لَا يَأْمَنُ جَارُهُ بَوَائِقَهُ» (٤).

كَمَا كَانَ ﷺ يُكَرِّرُ حَدِيثَهُ تَأْكِيدًا لِمَضْمُونِهِ، وَتَنْبِيهًا لِلْمُخَاطَبِ عَلَى أَهَمِّيَّتِهِ، وَلِيَفْهَمَهُ السَّامِعُ وَيُتْقِنَهُ، وَقَدْ تَرْجَمَ الْإِمَامُ الْبُخَارِيُّ لِهَذَا الْمَعْنَى: (بَابُ مَنْ أَعَادَ الْحَدِيثَ ثَلَاثًا لِيُفْهَمَ عَنْهُ) (٥)، وَأَخْرَجَ فِيهِ الْحَدِيثَيْنِ التَّالِيَيْنِ:

---

(١) كذا الروايةُ في «صحيح مسلم» بحذف النون في قوله: «ولا تؤمنوا حتى تحابوا..»، قال العلماء: وإنما حُذفت النون هنا من هذا الفعل: «ولا تؤمنوا»، مشاكلة لحذفها من الفعل السابق: «حتى تؤمنوا» فكأنه أورده بحذف النون في الثاني عَلَى الحكاية، لحذفها في الأول.
وانظر - إذا شئت - كلام العلماء مطوّلًا عَلَى حذف النون في هذا الحديث في «شرح صحيح مسلم» للنوويِّ (٢/ ٢٦)، و«المرقاة شرح المشكاة» لعلي القاريِّ (٤/ ٥٥٥)، ويُروى بحذف النون في قوله: «لا تدخلوا الجنة...» كما أشار إليه في «المرقاة شرح المشكاة».

(٢) أخرجه مسلمٌ، كتاب الإيمان، باب الدليل عَلَى أن هذا من خصال الإيمان أن يحب لأخيه المسلم ما يحب لنفسه من الخير (٤٥/ ٧٢)، وانظر: البخاريَّ (١٣).

(٣) أخرجه البخاريُّ، كتاب الأدب، باب إثم من لا يأمن جاره بوائقه (٦٠١٦).

(٤) أي: شروره وأذاياه. انظر: «فيض القدير» للمناويِّ (٦/ ٨٦).

(٥) «الفتح» (١/ ١٨٨، ١٨٩)، في كتاب العلم؛ وفيه: حديث أنس رضي الله عنه برقم (٩٤، ٩٥)، وحديث ابن عمرو برقم (٩٦)، وهو في «مسلم» (٢٤١)؛ **قال الحافظ ابنُ حجر في «فتح الباري» (١/ ١٨٩)**: «قَالَ ابْنُ الْمُنَيِّرِ: نَبَّهَ الْبُخَارِيُّ بِهَذِهِ التَّرْجَمَةِ عَلَى الرَّدِّ عَلَى مَنْ كَرِهَ إِعَادَةَ الْحَدِيثِ، وَأَنْكَرَ عَلَى الطَّالِبِ الِاسْتِعَادَةَ وَعَدَّهُ مِنَ الْبَلَادَةِ. قَالَ: وَالْحَقُّ
=

الْأَوَّلُ: عَنْ أَنَسٍ ﷺ، «عَنِ النَّبِيِّ ﷺ أَنَّهُ كَانَ إِذَا تَكَلَّمَ بِكَلِمَةٍ أَعَادَهَا ثَلَاثًا حَتَّى تُفْهَمَ عَنْهُ».

الثَّانِي: عَنْ عَبْدِ اللهِ بْنِ عَمْرٍو ﷺ قَالَ: «تَخَلَّفَ رَسُولُ اللهِ ﷺ فِي سَفَرٍ سَافَرْنَاهُ، فَأَدْرَكَنَا وَقَدْ أَرْهَقْنَا الصَّلَاةَ صَلَاةَ الْعَصْرِ (١)، وَنَحْنُ نَتَوَضَّأُ، فَجَعَلْنَا نَمْسَحُ عَلَى أَرْجُلِنَا، فَنَادَى بِأَعْلَى صَوْتِهِ: «**وَيْلٌ لِلْأَعْقَابِ مِنَ النَّارِ**»، مَرَّتَيْنِ أَوْ ثَلَاثًا» (٢).

= أَنَّ هَذَا يَخْتَلِف بِاخْتِلَافِ الْقَرَائِح، فَلَا عَيْب عَلَى الْمُسْتَفِيد الَّذِي لَا يَحْفَظ مِنْ مَرَّة إِذَا اِسْتَعَادَ، وَلَا عُذْر لِلْمُفِيدِ إِذَا لَمْ يُعِدْ، بَلْ الْإِعَادَة عَلَيْهِ آكَد مِنْ الِابْتِدَاء؛ لِأَنَّ الشُّرُوع مُلْزِم.

وَقَالَ ابْن التِّين: فِيهِ أَنَّ الثَّلَاث غَايَة مَا يَقَع بِهِ الِاعْتِذَار وَالْبَيَان». انتهى كلام الحافظ ابن حجر. وقد عقد البخاريُّ نفسه (١/ ١٩٦)، (باب من سمع شيئًا فلم يفهمه فراجع حتى يعرفه)، وأخرج فيه حديث ابْنِ أَبِي مُلَيْكَةَ أَنَّ عَائِشَةَ زَوْجَ النَّبِيِّ ﷺ كَانَتْ لَا تَسْمَعُ شَيْئًا لَا تَعْرِفُهُ إِلَّا رَاجَعَتْ فِيهِ حَتَّى تَعْرِفَهُ، وَأَنَّ النَّبِيَّ ﷺ قَالَ: «**مَنْ حُوسِبَ عُذِّبَ**»، قَالَتْ عَائِشَةُ: فَقُلْتُ: أَوَ لَيْسَ يَقُولُ اللهُ تَعَالَى: ﴿**فَسَوْفَ يُحَاسَبُ حِسَابًا يَسِيرًا**﴾، قَالَتْ: فَقَالَ «**إِنَّمَا ذَلِكَ الْعَرْضُ، وَلَكِنْ مَنْ نُوقِشَ الْحِسَابَ يَهْلِكْ**».

قال ابنُ حجر في «فتح الباري» (١/ ١٩٧): «وَفِي الْحَدِيث بيانُ مَا كَانَ عِنْد عَائِشَة مِنْ الْحِرْص عَلَى تَفَهُّم مَعَانِي الْحَدِيث، وَأَنَّ النَّبِيَّ ﷺ لَمْ يَكُنْ يَتَضَجَّر مِنْ الْمُرَاجَعَة فِي الْعِلْم، وَفِيهِ بيانُ جَوَازِ الْمُنَاظَرَة، وَمُقَابَلَة السُّنَّة بِالْكِتَابِ، وَتَفَاوُتُ النَّاسِ فِي الْحِسَاب».

(١) قوله: «أرهقنا»، وفي رواية الأصيلي: «أَرْهَقَتنا» أي: أدركتنا الصلاةُ وضاق وقتها. انظر: «الفتح» (١/ ٢٦٥).

(٢) قوله: «**وَيْلٌ لِلْأَعْقَابِ مِنَ النَّارِ**» الويل: وادٍ في جهنم، يريد الرسول ﷺ بهذا تهديد من لم يستوف غسل قدميه بالماء، والأعقاب: جمع عقب، وهو مؤخر القدم؛ قال البغويُّ: معناه: ويلٌ لأصحاب الأعقاب المقصرين في غسلها.

وفي الحديث من المسائل: تعليم الجاهل، ورفع الصوت بالإنكار، وتكرارُ المسألة لتُفهم؛ كما في «فتح الباري» (١/ ٢٦٦).

=

وَتَارَةً كَانَ ﷺ يُغَيِّرُ جِلْسَتَهُ وَحَالَهُ، مَعَ تَكْرَارِ مَقَالِهِ تَعْبِيرًا عَنِ الِاهْتِمَامِ وَالْخُطُورَةِ لِمَا يَقُولُهُ أَوْ يُحَذِّرُ مِنْهُ.

رَوَى الْبُخَارِيُّ وَمُسْلِمٌ[(١)]، وَاللَّفْظُ لِلْبُخَارِيِّ، عَنْ أَبِي بَكْرَةَ [(٢)] رضي الله عنه قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: «**أَلاَ أُنَبِّئُكُمْ بِأَكْبَرِ الْكَبَائِرِ؟ أَلاَ أُنَبِّئُكُمْ بِأَكْبَرِ الْكَبَائِرِ؟ أَلاَ أُنَبِّئُكُمْ بِأَكْبَرِ الْكَبَائِرِ؟**» [(٣)]، قُلْنَا: بَلَى يَا رَسُولَ اللهِ، قَالَ: «**الإِشْرَاكُ بِالله، وَعُقُوقُ الْوَالِدَيْنِ**»، وَكَانَ مُتَّكِئًا، فَجَلَسَ فَقَالَ: «**أَلاَ وَقَوْلُ الزُّورِ وَشَهَادَةُ الزُّورِ، أَلاَ وَقَوْلُ الزُّورِ وَشَهَادَةُ الزُّورِ، أَلاَ وَقَوْلُ الزُّورِ وَشَهَادَةُ الزُّورِ**»؛ فَمَا زَالَ يُكَرِّرُهَا حَتَّى قُلْنَا: لَيْتَهُ سَكَتَ [(٤)].

=

وقوله: «مرتين أو ثلاثًا» قال الحافظ ابن حجر في «فتح الباري» (١/ ١٨٩): «هو شكٌّ من الراوي، وهو يدل عَلَى أن الإعادة ثلاث مرات ليست شرطًا؛ بل المراد التفهيم، فإذا حصل بدونها أجزأ».

(١) أخرجه البخاريُّ، كتاب الأدب، باب عقوق الوالدين من الكبائر (٥٩٧٦)، ومسلمٌ، كتاب الإيمان، باب الكبائر وأكبرها (٨٧).

(٢) هو نفيع بن الحارث، ويقال: ابن مسروح بن كلدة بن عمرو بن علاج بن أبي سلمة بن عبد العزى بن غيرة بن عوف بن ثقيف الثقفي، مشهور بكنيته، كان من فضلاء الصحابة، سكن البصرة، وكان تدلَّي إلى النبي ﷺ من حصن الطائف ببكرة فاشتهر بأبي بكرة، توفي بالبصرة، سنة إحدى وخمسين، وقيل: اثنتين وخمسين، وأوصى أن يصلي عليه أبو برزة الأسلمي.

● راجع: «الإصابة» (٨٨١٥)، و«الاستيعاب» (٤٩)، و«أسد الغابة» (٥٧٣٩).

(٣) قالها ثلاث مرات، جريًا عَلَى عادته ﷺ في تكرير الشيء ثلاث مرات تأكيدًا؛ لينبه السامع إلى إحضار قلبه وفهمه للخبر الذي يذكره.

(٤) **قال الحافظ ابنُ حجر في «فتح الباري»** (١٠/ ٤١٢): «وَفِي هَذَا الْحَدِيث: اسْتِحْبَاب إِعَادَة الْمَوْعِظَة ثَلَاثًا لِتُفْهَم، وَانْزِعَاج الْوَاعِظ فِي وَعْظه لِيَكُونَ أَبْلَغ فِي الْوَعْي عَنْهُ، وَالزَّجْر عَنْ فِعْل مَا يَنْهَى عَنْهُ.

=

وَمَا هَذَا التَّكْرَارُ وَتَغْيِيرُ الْحَالِ الَّتِي هُوَ عَلَيْهَا إِلَّا لِلَفْتِ أَذْهَانِ السَّامِعِينَ إِلَى خُطُورَةِ ذَلِكَ الْعَمَلِ الَّذِي يُحَذِّرُ مِنْهُ، وَهُوَ شَهَادَةُ الزُّورِ.

=

وَفِيهِ إِشْفَاق التِّلْمِيذ عَلَى شَيْخه إِذَا رَآهُ مُنْزَعِجًا وَتَمَنِّي عَدَم غَضَبه لِمَا يَتَرَتَّب عَلَى الْغَضَب مِنْ تَغَيُّر مِزَاجه». انتهى.

وفيه أيضًا: أنه ينبغي للعالم أن يعرض عَلَى أصحابه ما يريد أن يخبرهم به، لحثهم عَلَى التفرغ والاستماع له.

المَبْحَثُ الحَادِي عَشَرْ
تَوْظِيفُه ﷺ الحَدَثَ فِي التَّعْلِيمِ وَالتَّرْبِيَةِ

فَالمُرَبِّي وَالدَّاعِيَةُ النَّاجِحُ المُوَفَّقُ هُوَ الَّذِي يُطَوِّعُ العَادَاتِ، وَيَرْبِطُهَا بِالقَلْبِ البَشَرِيِّ؛ حَتَّى لَا تَتَحَوَّلُ إِلَى آدَاءٍ آلِيٍّ مُجَرَّدٍ مِنَ الإِحْسَاسِ وَاليَقْظَةِ وَالشُّعُورِ.

وَهُوَ الَّذِي لَا يَدَعُ الأَحْدَاثَ تَذْهَبُ سُدًى بِغَيْرِ عِبْرَةٍ وَلَا عِظَةٍ وَبِدُونِ تَوْجِيهٍ؛ إِنَّمَا يَسْتَغِلُّ الحَدَثَ؛ لِتَرْبِيَةِ النُّفُوسِ، وَإِحْيَاءِ القُلُوبِ، وَتَحْرِيكِ الوِجْدَانِ فِي اللَّحْظَةِ المُنَاسِبَةِ الَّتِي تَبْلُغُ فِيهَا حَرَارَةُ الانْفِعَالِ دَرَجَةَ الانْصِهَارِ؛ وَعِنْدَئِذٍ يَعْقِدُ العُقْدَةَ الَّتِي لَا تَنْحَلُّ، وَيَطْبَعُ الطَّابَعَ العَمِيقَ الَّذِي لَا يَزُولُ بِإِذْنِ اللهِ تَعَالَى.

فَفِي «صَحِيحِ» **مُسْلِمٍ** (١) عَنْ جَابِرٍ رضي الله عنه: أَنَّ رَسُولَ اللهِ ﷺ مَرَّ بِالسُّوقِ، دَاخِلاً مِنْ بَعْضِ العَالِيَةِ (٢)، وَالنَّاسُ كَنَفَتَهُ (٣)، فَمَرَّ بِجَدْيٍ أَسَكَّ (٤) مَيِّتٍ، فَتَنَاوَلَهُ فَأَخَذَ بِأُذُنِهِ، ثُمَّ قَالَ: «**أَيُّكُمْ يُحِبُّ أَنَّ هَذَا لَهُ بِدِرْهَمٍ؟**»، فَقَالُوا مَا نُحِبُّ أَنَّهُ لَنَا بِشَيْءٍ، وَمَا نَصْنَعُ بِهِ؟ قَالَ: «**أَتُحِبُّونَ أَنَّهُ لَكُمْ** (٥)**؟**»، قَالُوا: واللهِ لَوْ كَانَ حَيًّا كَانَ هَذَا السَّكَكُ عَيْبًا فِيهِ، لأَنَّهُ أَسَكُّ، فَكَيْفَ وَهُوَ مَيِّتٌ؟! فَقَالَ: «**فَوَاللهِ لَلدُّنْيَا أَهْوَنُ عَلَى اللهِ مِنْ هَذَا عَلَيْكُمْ**».

وَرَوَى **الْبُخَارِيُّ وَمُسْلِمٌ** (٦) عَنْ عُمَرَ بْنِ الْخَطَّابِ رضي الله عنه قَالَ: قَدِمَ عَلَى

---

(١) أخرجه مسلمٌ، كتاب الزهد والرقائق (٢٩٥٧).

(٢) العالية: قُرى بظاهر المدينة. انظر: «تاج العروس» (٣٩/ ٨٤).

(٣) أي: جانبيه. انظر: «شرح مسلم» (١٨/ ٩٣) للنوويِّ.

(٤) أي: صغير الأذنين. المصدر السابق.

(٥) أي: بلا شيء مَّا.

(٦) أخرجه البخاريُّ، كتاب الأدب، باب رحمة الولد وقبلته ومعانقته (٥٩٩٩)، ومسلمٌ، =

النَّبِيِّ ﷺ سَبْيٌ (١)، فَإِذَا امْرَأَةٌ مِنَ السَّبْيِ تَحَلَّبَ ثَدْيُهَا (٢) تَسْعَى (٣)، إِذْ وَجَدَتْ صَبِيًّا - لَهَا - فِي السَّبْيِ، أَخَذَتْهُ فَأَلْصَقَتْهُ بِبَطْنِهَا، وَأَرْضَعَتْهُ (٤)؛ فَقَالَ لَنَا النَّبِيُّ ﷺ: «**أَتَرَوْنَ (٥) هَذِهِ طَارِحَةً وَلَدَهَا فِي النَّارِ؟**»، قُلْنَا: لاَ، وَهِيَ تَقْدِرُ عَلَى أَنْ لاَ تَطْرَحَهُ (٦)؛ فَقَالَ: «**لَلَّهُ أَرْحَمُ بِعِبَادِهِ مِنْ هَذِهِ بِوَلَدِهَا**» (٧).

وَرَوَى الْبُخَارِيُّ (٨) عَنْ جَرِيرِ بْنِ عَبْدِ اللهِ الْبَجَلِيِّ ﷺ قَالَ: كُنَّا جُلُوسًا لَيْلَةً مَعَ النَّبِيِّ ﷺ، إِذْ نَظَرَ إِلَى الْقَمَرِ لَيْلَةَ الْبَدْرِ؛ فَقَالَ: «**إِنَّكُمْ سَتَرَوْنَ رَبَّكُمْ يوم**

=
كتاب التوبة، باب سعة رحمة الله وأنها تغلب غضبه (٢٧٥٤).

(١) السَّبْيُ: الأسرى، وكان هذا السَّبْيُ سبي هوازن.

(٢) أي: سال لبنها. انظر: «مشارق الأنوار على صحاح الآثار» (١/ ١٩٤) للقاضي عياض، المكتبة العتيقة ودار التراث.

(٣) أي: تمشي بسرعة باحثة عن رضيعها الذي ذهب منها.

(٤) يعني: وهي عَلَى تلك الحال فُوجئت بلقاء طفلها في السبي، فأخذته بحنانٍ شديد وشفقة بالغة، فضمته إلى قلبها وصدرها فرِحَةً مسرورةً بلقياه، فهو عندها أغلى الأطفال، وأحبُّ الراضعين، وقرة العين والقلب جميعًا.

(٥) أي: أتظنون؟. انظر: «الفتح» (١٠/ ٤٤٥).

(٦) أي: لا تطرحه طائعة أبدًا ما دامت قادرة عَلَى حفظه معها ووقايته. وانظر: «الفتح» المصدر السابق.

(٧) قال الحافظ ابن حجر في «فتح الباري» (١٠/ ٣٦١) وهو يشرح فوائد هذا الحديث ويستخرج منه من أحكام: «فِيهِ ضَرْبُ الْمَثَلِ بِمَا يُدْرَكُ بِالْحَوَاسِّ لِمَا لَا يُدْرَكُ بِهَا، لِتَحْصِيلِ مَعْرِفَةِ الشَّيْءِ عَلَى وَجْهِهِ، وَإِنْ كَانَ الَّذِي ضَرَبَ بِهِ الْمَثَلَ لَا يُحَاطُ بِحَقِيقَتِهِ؛ لِأَنَّ رَحْمَةَ اللهِ لَا تُدْرَكُ بِالْعَقْلِ، وَمَعَ ذَلِكَ فَقَرَّبَهَا النَّبِيُّ ﷺ لِلسَّامِعِينَ بِحَالِ الْمَرْأَةِ الْمَذْكُورَةِ».

(٨) أخرجه البخاريُّ، كتاب مواقيت الصلاة، باب فضل صلاة العصر (٥٥٤)، كتاب التفسير (تفسير سورة ق) (٤٨٥١)، وكتاب التوحيد، باب قول الله ﷻ: وجوه يومئذٍ ناضرة، (٧٤٣٥، ٧٤٣٦)، وقد جمعتُ بين هذه الروايات هنا.

القيامة، كَما تَرَوْنَ هَذَا القَمَرَ، لاَ تُضَامُّونَ فِي رُؤْيَتِهِ (١)، فَإِنِ اسْتَطَعْتُمْ أَنْ لاَ تُغْلَبُوا عَلَى صَلاَةٍ قَبْلَ طُلُوعِ الشَّمْسِ، وَصَلاَةٍ قَبْلَ غُرُوبِها، فَافْعَلُوا»، ثُمَّ قَرَأَ: ﴿وَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ قَبْلَ طُلُوعِ ٱلشَّمْسِ وَقَبْلَ ٱلْغُرُوبِ﴾ [ق:٣٩]. فَانْتَهَزَ النَّبِيُّ ﷺ مُشَاهَدَةَ الصَّحَابَةِ لِلْقَمَرِ لَيْلَةَ الْبَدْرِ، فَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّ رُؤْيَةَ الله ﷻ فِي الْآخِرَةِ، سَتَكُونُ لِلْمُؤْمِنِينَ فِي الْجَنَّةِ بِهَذَا الْوُضُوحِ وَتِلْكَ السُّهُولَةِ وَالْيُسْرِ.

(١) أي: لا يحصل لكم ضيمٌ حينئذٍ، ورُوي: «لا تضامون في رؤيته»؛ أي: تتضامون من الضم، والمراد نفي الازدحام، كما يقع للذين يشهدون الهلال في أول الشهر، أنهم يتضامون لتتركز أحداقهم عَلَى موضع معين، فيشتركوا في رؤيته دون سواهم.
وروي: «لا تضارون في رؤيته»؛ أي: لا يلحقكم ضيم ولا ضرر ولا مشقة في رؤيته ﷻ.
● انظر: «شرح السنة» للبغويِّ (٢/ ٢٢٦). المكتب الإسلامي بيروت، ١٤٠٣هـ.

المَبْحَثُ الثَّاني عَشَرْ
تَعْلِيمُهُ ﷺ بِالقِيَاسِ وَالتَّشْبِيهِ وَضَرْبِ الأَمْثِلَةِ

كَانَ ﷺ حَرِيصًا عَلَى تَقْرِيبِ الفَهْمِ لِلسَّائِلِينَ وَالمَدْعُوِّينَ عَنْ طَرِيقِ القِيَاسِ وَضَرْبِ الأَمْثِلَةِ، وَتَشْبِيهِ أَصْلٍ مَعْلُومٍ بِأَصْلٍ مُبْهَمٍ لِيَكُونَ أَوْضَحَ فِي المُرَادِ، وَأَجْلَى لِمَا خَفِيَ فَهْمُهُ.

رَوَى الْبُخَارِيُّ (١) عَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ رضي الله عنهما: أَنَّ امْرَأَةً مِنْ جُهَيْنَةَ، جَاءَتْ إِلَى النَّبِيِّ ﷺ فَقَالَتْ: إِنَّ أُمِّي نَذَرَتْ أَنْ تَحُجَّ، فَلَمْ تَحُجَّ حَتَّى مَاتَتْ، أَفَأَحُجُّ عَنْهَا؟ قَالَ: «**نَعَمْ، حُجِّي عَنْهَا، أَرَأَيْتِ**(٢) **لَوْ كَانَ عَلَى أُمِّكِ دَيْنٌ أَكُنْتِ قَاضِيَتَهُ؟**»، قَالَتْ: نَعَمْ؛ فَقَالَ: «**اقْضُوا الله الَّذِي لَهُ** (٣) **فَإِنَّ الله أَحَقُّ بِالْوَفَاءِ**».

وَمِنْ ذَلِكَ أَيْضًا؛ **مَا رَوَاهُ مُسْلِمٌ** (٤) عَنْ أَبِي ذَرٍّ الْغِفَارِيِّ رضي الله عنه: أَنَّ نَاسًا مِنْ أَصْحَابِ النَّبِيِّ ﷺ قَالُوا لِلنَّبِيِّ ﷺ: يَا رَسُولَ الله ذَهَبَ أَهْلُ الدُّثُورِ بِالأُجُورِ (٥)

---

(١) أخرجه البخاريُّ، كتاب الاعتصام بالكتاب والسنة، باب من شبه أصلًا معلومًا بأصل مبين (٧٣١٥)، وفي أبواب المحصر وجزاء الصيد، باب الحج والنذور عن الميت (١٨٥٢).

(٢) أي: أخبريني. «النهاية» (١/ ٦٢٠).

(٣) جملة «الذي له» في آخر الحديث ليست في رواية نسخة البخاريِّ المطبوعة مع «فتح الباري»، وإنما هي من «نصب الراية» للحافظ الزيلعيِّ (٣/ ١٥٨)، وقد روى الحديث فيها عن البخاريِّ.

(٤) أخرجه مسلمٌ، كتاب الزكاة، باب بيان أن اسم الصدقة يقع عَلَى كل نوع من المعروف (١٠٠٦).

(٥) يعني: ذهب أهل الغنى بالثواب.

يُصَلُّونَ كَمَا نُصَلِّي، وَيَصُومُونَ كَمَا نَصُومُ، وَيَتَصَدَّقُونَ بِفُضُولِ أَمْوَالِهِمْ (١) قَالَ: «**أَوَلَيْسَ قَدْ جَعَلَ اللهُ لَكُمْ مَا تَصَّدَّقُونَ (٢)، إِنَّ بِكُلِّ تَسْبِيحَةٍ صَدَقَةً، وَكُلِّ تَكْبِيرَةٍ صَدَقَةٌ، وَكُلِّ تَحْمِيدَةٍ صَدَقَةٌ، وَكُلِّ تَهْلِيلَةٍ صَدَقَةٌ (٣)، وَأَمْرٌ بِالْمَعْرُوفِ صَدَقَةٌ، وَنَهْيٌ عَنْ مُنْكَرٍ صَدَقَةٌ، وَفِي بُضْعِ أَحَدِكُمْ صَدَقَةٌ (٤)**».

قَالُوا: يَا رَسُولَ الله، أَيَأْتِي أَحَدُنَا شَهْوَتَهُ وَيَكُونُ لَهُ فِيهَا أَجْرٌ؟ قَالَ: «**أَرَأَيْتُمْ(٥) لَوْ وَضَعَهَا فِي حَرَامٍ، أَكَانَ عَلَيْهِ فِيهَا وِزْرٌ؟ فَكَذَلِكَ إِذَا وَضَعَهَا فِي الْحَلَالِ كَانَ لَهُ أَجْرٌ**».

وَفِي «**الصَّحِيحَيْنِ**» (٦) مِنْ حَدِيثِ أَبِي مُوسَى الْأَشْعَرِيِّ رضي الله عنه قَالَ: قَالَ رَسُولُ الله صلى الله عليه وسلم: «**مَثَلُ الْمُؤْمِنِ الَّذِي يَقْرَأُ الْقُرْآنَ؛ كَمَثَلِ الْأُتْرُجَّةِ (٧)، رِيحُهَا طَيِّبٌ،**

(١) أي: بما لديهم من أموال فائضة عن الحاجة.

(٢) أي: تتصدقون به.

(٣) التهليلة؛ قولُ الإنسان: لا إله إلا الله.

(٤) أي: في معاشرة الرجل زوجته الحلال له صدقة، وسَمَّى جزاء هذه الأعمال من التسبيح والتكبير والتحميد، صدقة عَلَى سبيل المقابلة وتجنيس الكلام؛ أي: كما أن للصدقة التي يجود بها الأغنياء أهل الدثور، عَلَى إخوانهم الفقراء المعوزين أجرًا وثوابًا، فكذلك لهذه الأعمال والطاعات أجرٌ وثوابٌ لفاعليها.

(٥) أي: أخبروني.

(٦) أخرجه البخاريُّ، كتاب الأطعمة، باب ذكر الطعام (٥٤٢٧)، ومسلمٌ، كتاب صلاة المسافرين وقصرها، باب فضيلة حافظ القرآن (٧٩٧) من حديث أبي موسى الأشعري رضي الله عنه.

(٧) الأُتْرُجَّة بتشديد الجيم، وقد تُخفف، ثمرٌ معروفٌ في جزيرة العرب، وموجودٌ فيها حتى الآن، الواحدة: أترجة، والجمع أترج، ويقال له أيضًا: ترنج، ويقال له في بلاد الشام «الكبَّاد»، وهو ثمرٌ جامعٌ إلى طيب الطعم والرائحة، حُسْن اللون والمنظر، وله منافع كثيرة ذكَرتْها كتبُ الطب. «عون المعبود» (١٣/ ١٢٢) للعظيم آبادي. ط دار الكتب

=

وَطَعْمُهَا طَيِّبٌ، وَمَثَلُ الْمُؤْمِنِ الَّذِي لاَ يَقْرَأُ الْقُرْآنَ؛ كَمَثَلِ التَّمْرَةِ، لاَ رِيحَ لَهَا، وَطَعْمُهَا حُلْوٌ، وَمَثَلُ الْمُنَافِقِ الَّذِي يَقْرَأُ الْقُرْآنَ؛ مَثَلُ الرَّيْحَانَةِ، رِيحُهَا طَيِّبٌ، وَطَعْمُهَا مُرٌّ، وَمَثَلُ الْمُنَافِقِ الَّذِي لاَ يَقْرَأُ الْقُرْآنَ كَمَثَلِ الْحَنْظَلَةِ، لَيْسَ لَهَا رِيحٌ، وَطَعْمُهَا مُرٌّ».

قَالَ الْإِمَامُ ابْنُ الْقَيِّمِ رحمه الله **فِي «مِفْتَاحِ دَارِ السَّعَادَةِ»** (١): «وَقَدْ جَعَلَ النَّبِيُّ ﷺ فِي هَذَا الْحَدِيثِ النَّاسَ أَرْبَعَةَ أَقْسَامٍ:

الْأَوَّلُ: أَهْلُ الْإِيمَانِ وَالْقُرْآنِ، وَهُمْ خِيَارُ النَّاسِ.

الثَّانِي: أَهْلُ الْإِيمَانِ الَّذِينَ لَا يَقْرَءُونَ الْقُرْآنَ، وَهُمْ دُونَهُمْ؛ فَهَؤُلَاءِ هُمُ السُّعَدَاءُ. **وَالْأَشْقِيَاءُ قِسْمَانِ**:

أَحَدُهُمَا: مَنْ أُوتِيَ قُرْآنًا بِلَا إِيمَانٍ فَهُوَ مُنَافِقٌ، **وَالثَّانِي**: مَنْ لَمْ يُؤْتَ قُرْآنًا وَلَا إِيمَانًا.

وَالْإِيمَانُ وَالْقُرْآنُ هُمَا نُورٌ يَجْعَلُهُ اللهُ فِي قَلْبِ مَنْ يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ، وَإِنَّهُمَا أَصْلُ كُلِّ خَيْرٍ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ، وَعِلْمُهُمَا أَجَلُّ الْعُلُومِ وَأَفْضَلُهَا؛ بَلْ لَا عِلْمَ فِي الْحَقِيقَةِ يَنْفَعُ صَاحِبَهُ إِلَّا عِلْمُهُمَا».

وَمِنْ هَذَا الْأُسْلُوبِ أَيْضًا؛ **مَا رَوَاهُ الْبُخَارِيُّ وَمُسْلِمٌ** (٢) عَنْ أَبِي مُوسَى

=

العلمية، الطبعة الثانية ١٤١٥هـ.

والمقصودُ بضربِ المثل به: بيانُ علوِّ شأن المؤمن وارتفاع عمله، وكشف انحطاط شأن الفاجر، وسقوط عمله، وفي الحديث أيضًا: ضرب المثل لتقريب الفهم.

(١) (١/ ٥٥).

(٢) أخرجه البخاريُّ، كتاب العلم، باب فضل من علم وعلم (٧٩)، ومسلمٌ، كتاب الفضائل، باب بيان مثل ما بعث به النبيّ ﷺ من الهدى والعلم (٢٢٨٢)، واللفظ

=

الْأَشْعَرِيِّ ﵁، عَنِ النَّبِيِّ ﷺ قَالَ: «مَثَلُ مَا بَعَثَنِي اللهُ بِهِ مِنَ الْهُدَى وَالْعِلْمِ؛ كَمَثَلِ الْغَيْثِ الْكَثِيرِ أَصَابَ أَرْضًا، فَكَانَ مِنْهَا نَقِيَّةٌ قَبِلَتِ الْمَاءَ، فَأَنْبَتَتِ الْكَلأَ وَالْعُشْبَ الْكَثِيرَ [١]، وَكَانَتْ مِنْهَا أَجَادِبُ [٢] أَمْسَكَتِ الْمَاءَ، فَنَفَعَ اللهُ بِهَا النَّاسَ، فَشَرِبُوا وَسَقَوْا وَزَرَعُوا، وَأَصَابَتْ مِنْهَا طَائِفَةً أُخْرَى، إِنَّمَا هِيَ قِيعَانٌ [٣] لاَ تُمْسِكُ مَاءً، وَلاَ تُنْبِتُ كَلأً؛ فَذَلِكَ مَثَلُ مَنْ فَقِهَ فِي دِينِ اللهِ، وَنَفَعَهُ مَا بَعَثَنِي اللهُ بِهِ، فَعَلِمَ وَعَلَّمَ، وَمَثَلُ مَنْ لَمْ يَرْفَعْ بِذَلِكَ رَأْسًا، وَلَمْ يَقْبَلْ هُدَى اللهِ الَّذِي أُرْسِلْتُ بِهِ».

قَالَ الْحَافِظُ ابْنُ حَجَرٍ فِي «فَتْحِ الْبَارِي» [٤]: «قَالَ الْقُرْطُبِيُّ وَغَيْرُهُ: ضَرَبَ النَّبِيُّ ﷺ لِمَا جَاءَ بِهِ مِنَ الدِّينِ مَثَلًا بِالْغَيْثِ الْعَامِّ الَّذِي يَأْتِي فِي حَالِ حَاجَتِهِمْ إِلَيْهِ، وَكَذَا كَانَ النَّاسُ قَبْلَ مَبْعَثِهِ ﷺ؛ فَكَمَا أَنَّ الْغَيْثَ يُحْيِي الْبَلَدَ الْمَيِّتَ، فَكَذَا عُلُومُ الدِّينِ تُحْيِي الْقَلْبَ الْمَيِّتَ، ثُمَّ شَبَّهَ السَّامِعِينَ لَهُ بِالْأَرْضِ الْمُخْتَلِفَةِ الَّتِي يَنْزِلُ بِهَا الْغَيْثُ، فَمِنْهُمُ الْعَالِمُ الْعَامِلُ الْمُعَلِّمُ؛ فَهُوَ بِمَنْزِلَةِ الْأَرْضِ الطَّيِّبَةِ شَرِبَتْ فَانْتَفَعَتْ فِي نَفْسِهَا، وَأَنْبَتَتْ فَنَفَعَتْ غَيْرَهَا، وَمِنْهُمُ الْجَامِعُ لِلْعِلْمِ الْمُسْتَغْرِقُ لِزَمَانِهِ فِيهِ غَيْرَ أَنَّهُ لَمْ يَعْمَلْ بِنَوَافِلِهِ أَوْ لَمْ يَتَفَقَّهْ فِيمَا جَمَعَ، لَكِنَّهُ أَدَّاهُ لِغَيْرِهِ، فَهُوَ بِمَنْزِلَةِ الْأَرْضِ الَّتِي يَسْتَقِرُّ فِيهَا الْمَاءُ فَيَنْتَفِعُ النَّاسُ بِهِ، وَهُوَ الْمُشَارُ إِلَيْهِ بِقَوْلِهِ ﷺ: «نَضَّرَ اللهُ امْرَأً سَمِعَ مَقَالَتِي فَوَعَاهَا، ثُمَّ أَدَّاهَا كَمَا سَمِعَهَا، فَرُبَّ حَامِلِ فِقْهٍ غَيْرِ فَقِيهٍ، وَرُبَّ حَامِلِ فِقْهٍ إِلَى مَنْ هُوَ أَفْقَهُ مِنْهُ» [٥]، وَمِنْهُمْ مَنْ يَسْمَعُ الْعِلْمَ فَلَا

=

المسوق مأخوذ منهما.

(١) الغيث: المطر، والكلأ: النبات رطبًا كان أو يابسًا، والعشب: النبات إذا كان رطبًا.

(٢) أجادب: جمع أجدب، والأجادب: صلاب الأرض التي تمسك الماء ولا تشربه سريعًا.

(٣) قيعان: جمع قاع، وهي الأرض المستوية الملساء التي لا تنبت. راجع: «الفتح» (١/ ٢١٢).

(٤) «الفتح» (١/ ٢١٢).

(٥) أخرجه أحمد (١/ ٤٣٧) و(٣/ ٢٢٥) و(٥/ ١٨٣)، وأبو داود، كتاب العلم، باب فضل

=

يَحْفَظُهُ وَلَا يَعْمَلُ بِهِ وَلَا يَنْقُلُهُ لِغَيْرِهِ، فَهُوَ بِمَنْزِلَةِ الْأَرْضِ السَّبْخَةِ أَوِ الْمَلْسَاءِ الَّتِي لَا تَقْبَلُ الْمَاءَ أَوْ تُفْسِدُهُ عَلَى غَيْرِهَا، وَإِنَّمَا جَمَعَ الْمَثَلُ بَيْنَ الطَّائِفَتَيْنِ الْأُولَيَيْنِ الْمَحْمُودَتَيْنِ؛ لاشْتِرَاكِهِمَا فِي الِانْتِفَاعِ بِهِمَا، وَأَفْرَدَ الطَّائِفَةَ الثَّالِثَةَ الْمَذْمُومَةَ؛ لِعَدَمِ النَّفْعِ بِهَا، وَاللهُ أَعْلَمُ» انْتَهَى.

فَالصِّنْفُ الْأَوَّلُ هُمْ أَهْلُ رِوَايَةٍ وَدِرَايَةٍ وَدَعْوَةٍ وَعَمَلٍ، وَالصِّنْفُ الثَّانِي أَهْلُ رِوَايَةٍ وَرِعَايَةٍ وَعَمَلٍ، وَلَهُمْ نَصِيبٌ مِنَ الدِّرَايَةِ، وَالصِّنْفُ الثَّالِثُ الْأَشْقِيَاءُ لَا رِوَايَةَ عِنْدَهُمْ وَلَا دِرَايَةَ وَلَا رِعَايَةَ، وَلَا حِفْظَ وَلَا فَهْمَ، لَمْ يَقْبَلُوا هُدَى اللهِ، وَلَمْ يَرْفَعُوا بِهِ رَأْسًا، بَلْ أَعْرَضُوا عَنْهُ؛ كَمَا أَوْضَحَهُ ابْنُ الْقَيِّمِ رَحِمَهُ اللهُ فِي «**الْوَابِلِ الصَّيِّبِ مِنَ الْكَلِمِ الطَّيِّبِ**» (١).

وَقَالَ **الْإِمَامُ النَّوَوِيُّ** فِي «**شَرْحِ صَحِيحِ مُسْلِمٍ**» (٢): «فِي هَذَا الْحَدِيثِ أَنْوَاعٌ مِنَ الْعِلْمِ، مِنْهَا ضَرْبُ الْأَمْثَالِ، وَمِنْهَا فَضْلُ الْعِلْمِ وَالتَّعْلِيمِ، وَشِدَّةُ الْحَثِّ عَلَيْهِمَا، وَذَمُّ الْإِعْرَاضِ عَنِ الْعِلْمِ، وَاللهُ أَعْلَمُ».

وَفِي «**صَحِيحِ الْبُخَارِيِّ**» (٣) مِنْ حَدِيثِ النُّعْمَانِ بْنِ بَشِيرٍ رضي الله عنه قَالَ: قَالَ النَّبِيُّ ﷺ: «**مَثَلُ الْقَائِمِ عَلَى حُدُودِ اللهِ، وَالْوَاقِعِ فِيهَا كَمَثَلِ قَوْمٍ اسْتَهَمُوا عَلَى سَفِينَةٍ، فَأَصَابَ بَعْضُهُمْ أَعْلَاهَا وَبَعْضُهُمْ أَسْفَلَهَا، فَكَانَ الَّذِينَ فِي أَسْفَلِهَا إِذَا**

= نشر العلم (٣٦٦٠)، والترمذيُّ، كتاب العلم، باب ما جاء في الحث على تبليغ السماع (٢٦٥٦، ٢٦٥٧، ٢٦٥٨)، وابن ماجه، في المقدمة، باب من بلغ علمًا (٢٣٠، ٢٣١، ٢٣٢، ٢٣٦)، وصححه الألباني في «الصحيحة» (٤٠٤).

(١) (ص: ٥٧- ٥٩).

(٢) «شرح مسلم» (١٥/ ٤٨).

(٣) أخرجه البخاريُّ، كتاب الشركة، باب هل يُقرع في القِسْمة؟ (٢٤٩٣)، وكتاب الشهادات، باب القرعة في المشكلات (٢٦٨٦) واللفظ منهما.

اسْتَقَوْا مِنَ الْمَاءِ مَرُّوا عَلَى مَنْ فَوْقَهُمْ، فَقَالُوا: لَوْ أَنَّا خَرَقْنَا فِي نَصِيبِنَا خَرْقًا، وَلَمْ نُؤْذِ مَنْ فَوْقَنَا، فَإِنْ يَتْرُكُوهُمْ وَمَا أَرَادُوا هَلَكُوا جَمِيعًا، وَإِنْ أَخَذُوا عَلَى أَيْدِيهِمْ نَجَوْا وَنَجَوْا جَمِيعًا» (١)، وَفِي «الصَّحِيحَيْنِ» (٢) مِنْ حَدِيثِ أَبِي هُرَيْرَةَ ﷺ أَنَّهُ سَمِعَ رَسُولَ الله ﷺ يَقُولُ: «أَرَأَيْتُمْ لَوْ أَنَّ نَهَرًا بِبَابِ أَحَدِكُمْ يَغْتَسِلُ مِنْهُ كُلَّ يَوْمٍ خَمْسَ مَرَّاتٍ هَلْ يَبْقَى مِنْ دَرَنِهِ شَيْءٌ؟». قَالُوا: لاَ يَبْقَى مِنْ دَرَنِهِ شَيْءٌ، قَالَ: «فَذَلِكَ مَثَلُ الصَّلَوَاتِ الْخَمْسِ، يَمْحُو الله بِهِنَّ الْخَطَايَا».

وَفِي «الصَّحِيحَيْنِ» (٣) مِنْ حَدِيثِ أَبِي مُوسَى الْأَشْعَرِيِّ ﷺ قَالَ: قَالَ رَسُولُ الله ﷺ: «مَثَلُ الَّذِي يَذْكُرُ رَبَّهُ وَالَّذِي لَا يَذْكُرُ رَبَّهُ مَثَلُ الْحَيِّ وَالْمَيِّتِ»، وَفِي رِوَايَةِ مُسْلِمٍ: «مَثَلُ الْبَيْتِ الَّذِي يُذْكَرُ الله فِيهِ وَالْبَيْتِ الَّذِي لاَ يُذْكَرُ الله فِيهِ مَثَلُ الْحَيِّ وَالْمَيِّتِ».

---

(١) فالذين أرادوا خرق السفينة بمنزلة الواقع فِي حدود الله، ومن عداهم إما منكر وهو القائم علـى حدود الله، وإما ساكت وهو المدهن - والمدهن المحابي.
والمعنى أن إقامة الحدود يحصل بها النجاة لمن أقامها وأقيمت عليه، وإلا هلك العاصي بالمعصية، والساكت بالرضا بها.
وفي الحديث بيان استحقاق العقوبة بترك الأمر بالمعروف، وتبيين العالم الحكم بضرب المثل، ووجوب الصبر عَلَى أذى الجار إذا خشي وقوع ما هو أشد ضررًا؛ أفاد كل ذلك في «فتح الباري» (٥/ ٢٩٥، ٢٩٦).

(٢) أخرجه البخاريُّ، كتاب مواقيت الصلاة، باب الصلوات الخمس كفارة (٥٢٨)، ومسلمٌ، كتاب المساجد ومواضع الصلاة، باب المشي إلى الصلاة تُمحى به الخطايا، وترفع به الدرجات (٦٦٧).

(٣) أخرجه البخاريُّ، كتاب الدعوات، باب فضل ذكر الله ﷻ (٦٤٠٧)، ومسلمٌ، كتاب صلاة المسافرين وقصرها، باب استحباب صلاة النافلة في بيته وجوازها في المسجد (٧٧٩).

المَبْحَثُ الثَّالِثَ عَشَرَ
تَعْلِيمُهُ ﷺ بِإِثَارَةِ انْتِبَاهِ السَّامِعِينَ

كَانَ النَّبِيُّ ﷺ لَشَدِيدِ حِرْصِهِ، وَعَظِيمِ رَحْمَتِهِ بِالمَدْعُوِّينَ يُثِيرُ انْتِبَاهَهُمْ بِأَسَالِيبَ مُتَنَوِّعَةٍ بِتَكْرَارِ النِّدَاءِ أَحْيَانًا، وَالأَخْذِ بِيَدِ المُخَاطَبِ، أَوْ مَنْكِبِهِ أَحْيَانًا أَوْ ضَرْبِهِ عَلَى فَخِذِهِ أَحْيَانًا؛ مُبَالَغَةً مِنْهُ فِي تَعْلِيمِهِمْ وَإِفْهَامِهِمْ.

فَفِي «**الصَّحِيحَيْنِ**» (١) - وَاللَّفْظُ لِلْبُخَارِيِّ - عَنْ مُعَاذِ بْنِ جَبَلٍ رضي الله عنه، قَالَ: بَيْنَمَا أَنَا رَدِيفُ النَّبِيِّ ﷺ، لَيْسَ بَيْنِي وَبَيْنَهُ إِلَّا آخِرَةُ الرَّحْلِ، فَقَالَ: «**يَا مُعَاذُ**»، قُلْتُ: لَبَّيْكَ يا رَسُولَ الله وَسَعْدَيْكَ (٢)، ثُمَّ سَارَ سَاعَةً، ثُمَّ قَالَ: «**يَا مُعَاذُ**»، قُلْتُ لَبَّيْكَ رَسُولَ الله وَسَعْدَيْكَ، ثُمَّ سَارَ سَاعَةً ثُمَّ قَالَ: «**يَا مُعَاذُ**»، قُلْتُ: لَبَّيْكَ رَسُولَ الله وَسَعْدَيْكَ (٣). قَالَ: «**هَلْ تَدْرِي مَا حَقُّ الله عَلَى عِبَادِهِ؟**»، قُلْتُ: الله وَرَسُولُهُ أَعْلَمُ، قَالَ: «**حَقُّ الله عَلَى عِبَادِهِ، أَنْ يَعْبُدُوهُ وَلَا يُشْرِكُوا بِهِ شَيْئًا**»، ثُمَّ سَارَ سَاعَةً، ثُمَّ قَالَ: «**يَا مُعَاذُ بْنَ جَبَلٍ**»، قُلْتُ: لَبَّيْكَ رَسُولَ الله وَسَعْدَيْكَ؛ فَقَالَ: «**هَلْ تَدْرِي**

---

(١) أخرجه البخاريُّ، الجهاد، باب اسم الفرس والحمار (٢٨٥٦)، واللباس، باب إرداف الرجل خلف الرجل (٥٩٦٧)، وفي الاستئذان، باب من أجاب بلبَّيك وسعديك (٦٢٦٧)، وفي الرقاق، باب من جاهد نفسه في طاعة الله (٦٥٠٠)، وهنا شرحه الحافظ ابن حجر بتوسع، وفي التوحيد، باب ما جاء في دعاء النبي ﷺ أمته إلى توحيد الله تبارك وتعالى (٧٣٧٣)، ومسلمٌ، كتاب الإيمان، باب الدليل عَلَى أن من مات عَلَى التوحيد دخل الجنة قطعًا (٣٠).

(٢) معنى لبيك: أجبتك إجابة بعد إجابة، وسعديك: ساعدت طاعتك مساعدة بعد مساعدة. «شرح النووي» (١١/٢٣).

(٣) هذا النداءُ المكرر ثلاثًا من رسول الله ﷺ لمعاذ، مع تأخير جواب النداء، لتأكيد الاهتمام بما يخبره، وليكمل انتباه معاذ فيما يسمعه، ليتدبره ويعيه كما ينبغي.

مَا حَقُّ الْعِبَادِ عَلَى اللهِ إِذَا فَعَلُوهُ؟»، قُلْتُ: اللهُ وَرَسُولُهُ أَعْلَمُ، قَالَ: «حَقُّ الْعِبَادِ عَلَى اللهِ أَنْ لَا يُعَذِّبَهُمْ» (١).

وَرَوَى الْبُخَارِيُّ وَمُسْلِمٌ (٢)- وَاللَّفْظُ لِلْبُخَارِيِّ - مِنْ حَدِيثِ ابْنِ مَسْعُودٍ رضي الله عنهما قَالَ: عَلَّمَنِي رَسُولُ اللهِ ﷺ، وَكَفِّي بَيْنَ كَفَّيْهِ التَّشَهُّدَ، كَمَا يُعَلِّمُنِي السُّورَةَ مِنَ الْقُرْآنِ (٣): التَّحِيَّاتُ لِلَّهِ وَالصَّلَوَاتُ وَالطَّيِّبَاتُ، السَّلَامُ عَلَيْكَ أَيُّهَا النَّبِيُّ وَرَحْمَةُ اللهِ وَبَرَكَاتُهُ، السَّلَامُ عَلَيْنَا وَعَلَى عِبَادِ اللهِ الصَّالِحِينَ، أَشْهَدُ أَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا اللهُ، وَأَشْهَدُ أَنَّ مُحَمَّدًا عَبْدُهُ وَرَسُولُهُ.

وَرَوَى الْبُخَارِيُّ فِي «صَحِيحِهِ» عَنْ عَبْدِ اللهِ بْنِ عُمَرَ رضي الله عنهما قَالَ: أَخَذَ

---

(١) وذلك فضلًا منه وكرمًا، بحكم وعده الصادق.

وفي الحديث من الأمور التعليمية - كما قال الحافظ ابن حجر في «فتح الباري» (١١/ ٢٩١): «حُسْنُ أَدَبِ مُعَاذٍ رضي الله عنه فِي الْقَوْلِ، وَفِي الْعِلْمِ بِرَدِّهِ لِمَا لَمْ يُحِطْ بِحَقِيقَتِهِ إِلَى عِلْمِ اللهِ وَرَسُولِهِ، وَقُرْبِ مَنْزِلَتِهِ مِنَ النَّبِيِّ ﷺ، وَفِيهِ تَكْرَارُ الْكَلَامِ لِتَأْكِيدِهِ وَتَفْهِيمِهِ، وفيه اسْتِفْسَار الشَّيْخِ تِلْمِيذَهُ عَنِ الْحُكْمِ لِيَخْتَبِرَ مَا عِنْدَهُ، وَيُبَيِّنَ لَهُ مَا يُشْكِلُ عَلَيْهِ مِنْهُ».

(٢) أخرجه البخاريُّ، كتاب الاستئذان، باب الأخذ باليد (٦٢٦٥)، ومسلمٌ، كتاب الصلاة، باب التشهد في الصلاة (٤٠٢/ ٥٩).

(٣) هذه العبارةُ تُصوِّر شِدَّةَ اهتمام النبيِّ ﷺ بتعليم هذا التشهد، وفي الحديث من أمور التعليم: أن المعلم ينبغي له أن يبدي الاهتمام البالغ بالأمر الهام يعلمه للمستفيدين، وأن يشعرهم بذلك، ليلقوا إليه بسمعهم وبصرهم وقلوبهم، وليكونوا عَلَى كمال التيقظ فيما يتحملونه عنه، فيضبطوا لفظه وفعله وإشارته وعبارته، دون زيادة أو نقص أو تغيير أو تبديل أو تهاون.

وفيه أيضًا: التعليم والتلقين في حالة مذكرة، من شدة القرب، والأخذ بيد المتعلم، ليزداد انتباهه، واهتمامه بما يعلمه، وليكون أذكر لما يلقى إليه، من تعليمه بخطاب عام وحال عادية.

وفيه زيادة عناية المتعلم ببعض المتعلمين لفرط ذكائهم، أو توسم الخير فيهم، أو لمح مخايل الرجاحة والأصالة فيهم.

رَسُولُ اللهِ ﷺ بِمَنْكِبِي، فَقَالَ: «**كُنْ فِي الدُّنْيَا كَأَنَّكَ غَرِيبٌ، أَوْ عَابِرُ سَبِيلٍ**»(١).

وَكَانَ ابْنُ عُمَرَ رضي الله عنهما يَقُولُ: إِذَا أَمْسَيْتَ فَلَا تَنْتَظِرِ الصَّبَاحَ، وَإِذَا أَصْبَحْتَ فَلَا تَنْتَظِرِ الْمَسَاءَ، وَخُذْ مِنْ صِحَّتِكَ لِسَقَمِكَ، وَمِنْ حَيَاتِكَ لِمَوْتِكَ».

قَالَ الْحَافِظُ ابْنُ حَجَرٍ (٢): «وَفِي الْحَدِيثِ: مَسُّ الْمُعَلِّمِ أَعْضَاءَ الْمُتَعَلِّمِ عِنْدَ التَّعْلِيمِ، وَالْمَوْعُوظِ عِنْدَ الْمَوْعِظَةِ، وَذَلِكَ لِلتَّأْنِيسِ وَالتَّنْبِيهِ، وَلَا يُفْعَلُ ذَلِكَ غَالِبًا إِلَّا بِمَنْ يَمِيلُ إِلَيْهِ، وَفِيهِ: مُخَاطَبَةُ الْوَاحِدِ، وَإِرَادَةُ الْجَمْعِ، وَحِرْصُ النَّبِيِّ ﷺ عَلَى إِيصَالِ الْخَيْرِ لِأُمَّتِهِ، وَالْحَضُّ عَلَى تَرْكِ الدُّنْيَا، وَالِاقْتِصَارِ عَلَى مَا لَا بُدَّ مِنْهُ».

وَمِنْ هَذَا الْبَابِ أَيْضًا ضَرْبُ النَّبِيِّ ﷺ عَلَى فَخِذِ بَعْضِ أَصْحَابِهِ فِي بَعْضِ الْأَحْيَانِ.

رَوَى مُسْلِمٌ (٣) عَنِ التَّابِعِيِّ الْجَلِيلِ أَبِي الْعَالِيَةِ (٤)، قَالَ: أَخَّرَ ابْنُ زِيَادٍ (٥)

---

(١) أخرجه البخاريُّ، أوائل كتاب الرقاق (٦٤١٦).

(٢) «فتح الباري» (١١/ ٢٣٥).

(٣) أخرجه مسلمٌ، كتاب المساجد، باب كراهية تأخير الصلاة عن وقتها (٦٤٨/ ٢٤٢).

(٤) هو رفيع بن مهران أبو العالية الرياحيُّ مولاهم البصريُّ، أدرك الجاهلية، وأسلم بعد وفاة النبيِّ ﷺ بسنتين، ودخل عَلَى أبي بكر، وصلى خلف عمر، وروى عن علي وابن مسعود رضي الله عنهم وغيرهما، ثقة كثير الإرسال، مات في ولاية الحجاج سنة تسعين، وقيل: سنة ثلاث وتسعين، وقيل: ست ومائة، وقيل بعد ذلك، قال الحافظ: «الصحيح الأول» وروى له الجماعة.

● راجع: «تهذيب التهذيب» (٣/ ٢٨٤)، و«تقريب التهذيب» (ترجمة:١٩٨٥).

(٥) هو عبيد الله بن زياد الأمير، أبو حفص، أمير العراق، ولد سنة تسع وثلاثين، وهو الذي قتل الحسين بن علي رضي الله عنه، وقد قتل عبيد الله عَلَى يد إبراهيم بن الأشتر في وقعة الخازر سنة ست وستين وقيل: سبع وستين، يوم عاشور من أرض الموصل.

● راجع: أخباره في قصة مقتل الحسين في «البداية والنهاية» لابن كثير، وكذا ترجمته في «البداية» (٨/ ٢٣٩)، و«تعجيل المنفعة» (ترجمة إبراهيم:١٨) ط البشائر، بيروت =

الصَّلاَةَ، فَجَاءَنِي عَبْدُ اللهِ بْنُ الصَّامِتِ [١]، فَأَلْقَيْتُ لَهُ كُرْسِيًّا فَجَلَسَ عَلَيْهِ، فَذَكَرْتُ لَهُ صَنِيعَ ابْنِ زِيَادٍ، فَعَضَّ عَلَى شَفَتِهِ، وَضَرَبَ فَخِذِي، وَقَالَ: إِنِّي سَأَلْتُ أَبَا ذَرٍّ ﵁ كَمَا سَأَلْتَنِي، فَضَرَبَ فَخِذِي، كَمَا ضَرَبْتُ فَخِذَكَ، وَقَالَ: إِنِّي سَأَلْتُ رَسُولَ اللهِ ﷺ، كَمَا سَأَلْتَنِي، فَضَرَبَ فَخِذِي كَمَا ضَرَبْتُ فَخِذَكَ، وَقَالَ: «**صَلِّ الصَّلاَةَ لِوَقْتِهَا؛ فَإِنْ أَدْرَكَتْكَ الصَّلاَةُ مَعَهُمْ فَصَلِّ، وَلاَ تَقُلْ: إِنِّي قَدْ صَلَّيْتُ فَلاَ أُصَلِّي**»، وَفِي رِوَايَةٍ [٢]: «**فَصَلِّ مَعَهُمْ: فَإِنَّهَا زِيَادَةُ خَيْرٍ**».

١٩٩٦م، و«الثقات» للعجلي (٢/ ١٠٤)، و«تاريخ دمشق» (٣٧/ ٤٣٣).

(١) هو عبد الله بن الصامت الغفاري البصريُّ، روى عن عمه أبي ذر وعمر وعثمان ﵃، قال ابن سعد: «يكنى أبا النضر، وكان ثقة، وله أحاديث»، وقال العجلي: «بصري تابعي ثقة» وذكره البخاري في «الأوسط» في فصل من مات ما بين السبعين إلى الثمانين؛ راجع: «تهذيب التهذيب» (٥/ ٢٦٤)، و«تقريب التهذيب» (ترجمة: ٣٤٠٢).

(٢) عند مسلمٍ أيضًا (٦٤٨/ ٢٤٣).

المَبْحَثُ الرَّابِعَ عَشَرْ
تعْلِيمُهُ ﷺ بالمُمَازحَةِ والمُداعَبَةِ

المُمَازَحَةُ اللَّطِيفَةُ، وَالدُّعَابَةُ الصَّادِقَةُ الرَّقِيقَةُ تُرَوِّحُ عَنِ النَّفْسِ، وَتُخَفِّفُ مِنْ مَتَاعِبِ الحَيَاةِ وَرَهَقِهَا، وَتُذْهِبُ شَيْئًا مِنْ العُبُوسِ وَالقُطُوبِ وَالعَنَاءِ، وَقَدْ تَكُونُ سَبَبًا لَتَجْدِيدِ النَّشَاطِ، وَمُعَاوَدَةِ السَّيْرِ الجَادِّ فِي دُرُوبِ الحَيَاةِ.

وَمِنْ جَمِيلِ مَا قَالَهُ العَلَّامَةُ ابْنُ قُتَيْبَةَ رحمه الله: «وَكَانَ النَّاسُ يَأْتَسُونَ بِرَسُولِ الله ﷺ وَيَقْتَدُونَ بِهَدْيِهِ وَشَكْلِهِ؛ يَقُولُ اللهُ تَعَالَى: ﴿لَّقَدْ كَانَ لَكُمْ فِي رَسُولِ ٱللَّهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ﴾ [الأحزاب:٢١]؛ فَلَوْ تَرَكَ رَسُولُ اللهِ ﷺ طَرِيقَ الطَّلَاقَةِ وَالبَشَاشَةِ وَالدَّمَاثَةِ، وَلَزِمَ العُبُوسَ والقُطُوبَ وَالزَّمَاتَةَ، لَأَخَذَ النَّاسُ أَنْفُسَهُمْ بِذَلِكَ عَلَى مَا فِي مُخَالَفَةِ الغَرِيزَةِ مِنَ المَشَقَّةِ وَالعَنَاءِ، فَمَزِحَ ﷺ لِيَمْزَحُوا، وَكَانَ لَا يَقُولُ إِلَّا حَقًّا»(١).

وَقَالَ الإِمَامَ النَوَوِيُّ فِي كِتَابِ «الأذكار»(٢): «المِزَاحُ المَنْهِيُّ عَنْهُ هُوَ الَّذِي فِيهِ إِفْرَاطٌ، وَيُدَاوِمُ عَلَيْهِ، فَإِنَّهُ يُوَرِّثُ الضَّحِكَ، وَقَسْوَةَ القَلْبِ، وَيُشْغِلُ عَنْ ذِكْرِ اللهِ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى، وَالفِكْرِ فِي مَهَمَّاتِ الدِّينِ، وَيَؤُولُ فِي كَثِيرٍ مِنَ الأَوْقَاتِ إِلَى الإِيذَاءِ وَيُوْرِثُ الأَحْقَادَ، وَيُسْقِطُ المَهَابَةَ وَالوَقَارَ.

فَأَمَّا مَا سَلِمَ مِنْ هَذِهِ الأُمُورِ؛ فَهُوَ المُبَاحُ الَّذِي كَانَ رَسُولُ اللهِ ﷺ يَفْعَلُهُ فِي نَادِرٍ مِنَ الأَحْوَالِ، لِمَصْلَحَةٍ وَتَطْيِّبِ نَفْسِ المُخَاطَبِ ومُؤَانَسَتِهِ، وَهَذَا لَا يُمْنَعُ

---

(١) «تأويل مختلف الحديث» (ص: ٢٩٢، ٢٩٣) ط دار الجيل، بيروت، سنة ١٣٩٣هـ، بتصرفٍ يسيرٍ.

(٢) (ص:٣٤٧، ٣٤٨) بتصرفٍ، ط دار الفجر للتراث ٢٠٠٣م.

قَطْعًا؛ بَلْ هُوَ سُنَّةٌ مُسْتَحَبَّةٌ إِذَا كَانَ بِهَذِهِ الصِّفَةِ، فَاعْتَمِدْ هَذَا، فَإِنَّهُ مِمَّا يَعْظُمُ الاحْتِيَاجُ إِلَيْهِ، وَبِاللهِ التَّوْفِيقُ».

رَوَى التِّرْمِذِيُّ (١) عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ ﵁ قَالَ: قَالُوا: يَا رَسُولَ اللَّهِ، إِنَّكَ تُدَاعِبُنَا؟ قَالَ: «**إِنِّي لَا أَقُولُ إِلَّا حَقًّا**»؛ وَقَالَ التِّرْمِذِيُّ: «هَذَا حَدِيثٌ حَسَنٌ، وَمَعْنَى قَوْلِهِمْ: (إِنَّكَ تُدَاعِبُنَا): إِنَّكَ تُمَازِحُنَا».

وَرَوَى الْبُخَارِيُّ وَمُسْلِمٌ وَأَبُو دَاوُدَ (٢)، وَاللَّفْظُ لِأَبِي دَاوُدَ، عَنْ أَنَسِ بْنِ مَالِكٍ ﵁ قَالَ: كَانَ رَسُولُ اللهِ ﷺ يَدْخُلُ عَلَيْنَا، وَلِي أَخٌ صَغِيرٌ يُكْنَى أَبَا عُمَيْرٍ (٣)، وَكَانَ لَهُ نُغَرٌ يَلْعَبُ بِهِ، فَمَاتَ، فَدَخَلَ عَلَيْهِ النَّبِيُّ ﷺ ذَاتَ يَوْمٍ فَرَآهُ حَزِينًا؛ فَقَالَ: «**مَا شَأْنُهُ؟**»، قَالُوا: مَاتَ نُغَرُهُ؛ فَقَالَ: «**يَا أَبَا عُمَيْرٍ، مَا فَعَلَ النُّغَيْرُ؟**» (٤).

وَرَوَى أَبُو دَاوُدَ وَالتِّرْمِذِيُّ (٥) عَنْ أَنَسٍ ﵁ أَنَّ رَجُلًا اسْتَحْمَلَ رَسُولَ اللهِ

---

(١) أخرجه الترمذيُّ، كتاب البر والصلة، باب ما جاء في المزاح (١٩٩٠)، وقال: «هذا حديث حسن»، وأحمد (٢/ ٣٦٠)، والبخاريُّ في «الأدب المفرد» (٢٦٥)، والبيهقي في «الكبرى» (١٠/ ٢٤٨)، وحسَّنه الالبانيُّ في «الصحيحة» (١٧٢٦).

(٢) أخرجه البخاريُّ، كتاب الأدب، باب الانبساط إلى الناس (٦١٢٩)، وباب التكنية للصبي وقبل أن يولد للرجل (٦٢٠٣)، ومسلمٌ، كتاب الآداب، باب استحباب تحنيك المولود عند ولادته وحمله إلى صالح يحنكه (٢١٥٠)، وأبو داود، كتاب الأدب، باب ما جاء في الرجل يكتني ليس له ولد (٢٩٦٩) واللفظ له.

(٣) هو أبو عمير بن أبي طلحة زيد بن سهل الأنصاريُّ، وهو أخو أنس بن مالك لأمه، وقيل: اسمه حفص، وهو صاحب القصة التي فيها «يا أبا عمير، ما فعل النغير» مات في حياة النبيِّ ﷺ.

● راجع: «الاستيعاب» (٢٧٩)، و«أسد الغابة» (٦١٣٩)، و«الإصابة» (١٠٣٢٧).

(٤) النُّغير: تصغير النُّغر، وهو طائر يشبه العصفور أحمر المنقار. انظر: «الفتح» (١/ ١٩٧).

(٥) أخرجه البخاريُّ في «الأدب المفرد» (٢٦٨)، وأبو داود، كتاب الأدب، باب ما جاء في المزاح (٤٩٩٨)، والترمذيُّ، كتاب البر والصلة، باب ما جاء في المزاح (١٩٩١) وقال: «صحيح غريب»، وفي «الشمائل» للترمذيِّ (ص:١٥٢) واللفظ للترمذيِّ، وصحَّحه الألبانيُّ في «الأدب المفرد».

ﷺ (١)؛ فَقَالَ: «**إِنِّي حَامِلُكَ عَلَى وَلَدِ النَّاقَةِ**»؛ فَقَالَ: يَا رَسُولَ الله، مَا أَصْنَعُ بِوَلَدِ النَّاقَةِ؟ فقَالَ رَسُولُ الله ﷺ: «**وَهَلْ تَلِدُ الإِبِلَ إِلَّا النُّوقُ؟**».

فَالإِبِلُ كُلُّهَا وَلَدُ النُّوقِ؛ فَأَفْهَمَهُ ﷺ مِنْ طَرِيقِ هَذِهِ الْمُدَاعَبَةِ اللَّطِيفَةِ، أَنَّ الْجَمَلَ وَلَوْ كَانَ كَبِيرًا يَحْمِلُ الأَثْقَالَ، مَا يَزَالُ وَلَدَ النَّاقَةِ.

---

(١) أي: سأله الحملان، والمعنى: طلبه أن يحمله على دابة، والمراد به أن يعطيه حملة يركبها. انظر: «مرقاة المفاتيح شرح المشكاة» (١٤/ ١٥٦).

المَبْحَثُ الخَامِسَ عَشَرَ
سُؤالُهُ ﷺ أَصْحَابَهُ لاخْتِبَارِ مَا عِنْدَهُمْ مِنَ العِلْمِ

كَانَ ﷺ لِجَمِيلِ عِشْرَتِهِ وَحُسْنِ خُلُقِهِ وَجَمِيلِ قُرْبِهِ وَمَوَدَّتِهِ لِأَصْحَابِهِ يَسْأَلُهُمْ أَحْيَانًا لِيُحْرِزَ عُقُولَهُمْ، وَيُحَرِّكَ ذَكَاءَهُمْ، وَيُصَحِّحَ أَفْهَامَهُمْ، وَيَخْتَبِرَ مَا عِنْدَهُمْ مِنَ العِلْمِ؛ فَمَنْ أَصَابَ الجَوَابَ مَدَحَهُ وَأَثْنَى عَلَيْهِ وَدَعَا لَهُ.

كَمَا فِي «الصَّحِيحَيْنِ» (١) مِنْ حَدِيثِ عَبْدِ اللهِ بْنِ عُمَرَ رضي الله عنهما قَالَ: بَيْنَا نَحْنُ عِنْدَ النَّبِيِّ ﷺ جُلُوسٌ، إِذْ أُتِيَ بِجُمَّارِ نَخْلَةٍ (٢)؛ فَقَالَ النَّبِيُّ ﷺ: **«إِنَّ مِنَ الشَّجَرِ شَجَرَةً خَضْرَاءَ، بَرَكَتُهَا كَبَرَكَةِ الْمُسْلِمِ (٣)، لَا يَسْقُطُ وَرَقُهَا، وَلَا يَتَحَاتُّ (٤)، تُؤْتِي أُكُلَهَا كُلَّ حِينٍ بِإِذْنِ رَبِّهَا (٥)، وَإِنَّهَا مَثَلُ الْمُسْلِمِ (٦)؛ فَحَدِّثُونِي مَا هِيَ؟»**.

---

(١) أخرجه البخاريُّ، كتاب العلم، باب طرح الإمام المسألة عَلَى أصحابه ليختبر ما عندهم من العلم (٦١)، ومسلمٌ، كتاب صفة القيامة والجنة والنار، باب مثل المؤمن مثل النخلة (٢٨١١)، وقد رواه البخاريُّ في «صحيحه» في أحد عشر موضعًا، والمتن المذكور من رواياتٍ متعددةٍ في «الصحيحين».

(٢) الجُمَّار بوزن رمان: قلب النخلة وشحمها، تموت بقطعِهِ، ويستخرج منها بعد قطعها، ويقال له: الجامور؛ انظر: «النهاية» (١/ ٢٨٦)، و«اللسان» (٢/ ٣٥٢).

(٣) بركتها؛ أي: خيرها ونفعها.

(٤) أي: لا يتساقط ورقها ولا يتناثر.

(٥) أي: تعطي ثمرها كل وقت أقته الله تعالى لذلك الثمر، بإرادة خالقها تعالى.

(٦) روي لفظ «مثل» بكسر الميم وسكون الثاء؛ كما روي «مثل المسلم» بفتح الميم وفتح الثاء، وكلاهما بمعنى واحد؛ قال الجوهريُّ في «الصحاح»: «مثل الشيء، ومثله: كلمة تسوية، كما يقال: شبهه وشبهه بمعنى واحد»؛ انظر: «الفتح» (١/ ١٧٦).

وجاء في بعض روايات البخاريِّ ومسلم: «مثلها كمثل المؤمن». ووجه تشبيه النخلة بالمسلم أو المؤمن قائمٌ من جهات كثيرة، وذلك في أنها تعد أشرف الشجر وأعلاها

=

قَالَ عَبْدُ اللهِ: فَوَقَعَ النَّاسُ فِي شَجَرِ الْبَوَادِي، فَقَالَ الْقَوْمُ: هِيَ شَجَرَةُ كَذَا، هِيَ شَجَرَةُ كَذَا، وَوَقَعَ فِي نَفْسِي أَنَّهَا النَّخْلَةُ، فَجَعَلْتُ أُرِيدُ أَنْ أَقُولَهَا، فَإِذَا أَسْنَانُ الْقَوْمِ، فَأَهَابُ أَنْ أَتَكَلَّمَ وَأَنَا غُلَامٌ شَابٌّ، ثُمَّ الْتَفَتُّ فَإِذَا أَنَا عَاشِرُ عَشَرَةٍ أَنَا أَحْدَثُهُمْ (وَفِي رِوَايَةٍ (١): فَإِذَا أَنَا أَصْغَرُ الْقَوْمِ)، وَرَأَيْتُ أَبَا بَكْرٍ وَعُمَرَ رضي الله عنهما لَا يَتَكَلَّمَانِ، فَسَكَتُّ.

فَلَمَّا لَمْ يَتَكَلَّمَا، قَالُوا: حَدِّثْنَا مَا هِيَ يَا رَسُولَ اللهِ؟ فَقَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: «**هِيَ النَّخْلَةُ**».

فَلَمَّا قُمْنَا قُلْتُ لِعُمَرَ أَبِي: وَاللهِ يَا أَبَتَاهُ، لَقَدْ كَانَ وَقَعَ فِي نَفْسِي أَنَّهَا النَّخْلَةُ؛ فَقَالَ: مَا مَنَعَكَ أَنْ تَكَلَّمَ؟ قُلْتُ: لَمْ أَرَكُمْ تَكَلَّمُونَ، لَمْ أَرَكَ وَلَا أَبَا بَكْرٍ تَكَلَّمْتُمَا،

=

مرتبة، وفي كثرة خيرها، ودوام ظلها، وطيب ثمرها، ووجوده عَلَى الدوام، فإنه حين يطلع ثمرها لا يزال يؤكل أنواعًا حتى يجد تمرًا ويقطع.

وإذا يبست النخلة يتخذ منها منافع كثيرة، فخشبها، وورقها، وأغصانها، تستعمل جذوعًا وحطبًا، وعصيًّا ومخاصر وحبالًا وأواني وغير ذلك، ثم آخر شيء ينتفع به منها هو نواها، فإنه يتخذ علفًا للإبل.

أما جمال نباتها وورقها، وحسن خلقتها وثمرها، وفارع طولها وانبساقها، ودوام خضرة أوراقها، وتماسك جذعها أن تلعب به الرياح والأعاصير، وكريم ظلها وفيئها، لمن كان في جزيرة العرب: فمنافع مشهودة، ومتع متكاثرة معروفة محمودة، وقد مدحها الله في القرآن بآياتٍ كثيرة أيما مدح.

وكذلك المسلم أو المؤمن كلُّه خير ونفع، وبركته عامة في جميع الأحوال، ونفعه مستمر له ولغيره حتى بعد موته؛ فهو ذو عمل صالح، وقول حسن، كثير الطاعات عَلَى ألوانها، ما بين صائم، ومصل، وتالٍ للقرآن، وذاكر لله، ومذكر به، ومتصدق، وآمر بالمعروف، وناهٍ عن المنكر.

بل لا ينقطع عمله حتى بعد موته، إذا نظر من حياته لآخرته، واغتنم من يومه لغده، ينتفع بكلِّ ما يصدر عنه حيًّا وميتًا؛ إذ مبعث تصرفاته كلِّها الإيمان بالله، والنفع لعباد الله، سبحان الله ما أعظم المؤمن؟!

(١) عند البخاريِّ، كتاب العلم، باب الفهم في العلم (٧٢).

وَأَنَا غُلَامٌ شَابٌّ، فَاسْتَحْيَيْتُ، فَكَرِهْتُ أَنْ أَتَكَلَّمَ أَوْ أَقُولَ شَيْئًا، فَسَكَتُّ، قَالَ عُمَرُ رضي الله عنه: لأَنْ تَكُونَ قُلْتَهَا أَحَبُّ إِلَيَّ مِنْ كَذَا وَكَذَا.

وَفِي «صَحِيح» مُسْلِمٍ (١) مِنْ حَدِيثِ عَبْدِ اللهِ بْنِ مَسْعُودٍ رضي الله عنه قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللهِ صلى الله عليه وسلم: «**مَا تَعُدُّونَ الرَّقُوبَ فِيكُمْ؟**»، قَالَ: قُلْنَا: الَّذِي لاَ يُولَدُ لَهُ، قَالَ: «**لَيْسَ ذَاكَ بِالرَّقُوبِ وَلَكِنَّهُ الرَّجُلُ الَّذِي لَمْ يُقَدِّمْ مِنْ وَلَدِهِ شَيْئًا**»، قَالَ: «**فَمَا تَعُدُّونَ الصُّرَعَةَ فِيكُمْ؟**»، قَالَ: قُلْنَا: الَّذِي لاَ يَصْرَعُهُ الرِّجَالُ، قَالَ: «**لَيْسَ بِذَلِكَ، وَلَكِنَّهُ الَّذِي يَمْلِكُ نَفْسَهُ عِنْدَ الْغَضَبِ**».

وَفِي «صحيح» مُسْلِمٍ (٢) مِنْ حَدِيثِ أُبَيِّ بْنِ كَعْبٍ (٣)، قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللهِ صلى الله عليه وسلم: «**يَا أَبَا الْمُنْذِرِ، أَتَدْرِي أَيُّ آيَةٍ مِنْ كِتَابِ اللهِ مَعَكَ أَعْظَمُ؟**» قَالَ: قُلْتُ: اللهُ وَرَسُولُهُ أَعْلَمُ. قَالَ: «**يَا أَبَا الْمُنْذِرِ أَتَدْرِي أَيُّ آيَةٍ مِنْ كِتَابِ اللهِ مَعَكَ أَعْظَمُ؟**» قَالَ: قُلْتُ: ﴿ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ٱلْحَىُّ ٱلْقَيُّومُ﴾ [البقرة: ٢٥٥]. قَالَ: فَضَرَبَ فِي صَدْرِي، وَقَالَ: «**وَاللهِ لِيَهْنِكَ الْعِلْمُ أَبَا الْمُنْذِرِ**».

---

(١) أخرجه مسلمٌ، كتاب البر والصلة والآداب، باب فضل من يملك نفسه عند الغضب (٢٦٠٨).

(٢) أخرجه مسلمٌ، كتاب صلاة المسافرين وقصرها، باب فضل سورة الكهف وآية الكرسي (٨١٠).

(٣) أبيّ بن كعب بن قيس بن عبيد بن زيد بن معاوية بن عمرو بن مالك بن النجار الأنصاريُّ أبو المنذر وأبو الطفيل سيد القراء، كان من أصحاب العقبة الثانية، وشهد بدرًا والمشاهد كلَّها، وكان عمر يسميه سيد المسلمين، ويقول: اقرأ يا أُبي، وهو أول من كتب للنبيِّ صلى الله عليه وسلم، وكان أحد فقهاء الصحابة وأقرأهم لكتاب الله عز وجل؛ اختلف في وقت وفاته؛ فقيل: توفي سنة اثنتين وعشرين في خلافة عمر رضي الله عنه، وقيل: سنة عشرين، وقيل: سنة ثلاثين في خلافة عثمان رضي الله عنه، ورجحه أبو نعيم وعلي بن المدينيِّ. وقيل: سنة تسع عشرة؛ قال ابن عبد البر: والأكثر على أنه مات في خلافة عمر رضي الله عنه.

● راجع: «الاستيعاب» (٧)، و«أسد الغابة» (٣٤)، و«الإصابة» (٣٢).

المَبْحَثُ السَّادِسَ عَشَرْ
تَعْلِيمُهُ ﷺ بِالخَطِّ عَلَى الأَرْضِ

لَمْ يَدَعِ النَّبِيُّ ﷺ سَبِيلاً مِنْ سُبُلِ البَلَاغِ إِلَّا سَلَكَهُ، وَمِنْ أَرَقِّ هَذِهِ الأَسَالِيبِ خَطُّهُ عَلَى الأَرْضِ لِيَرْسِمَ صُورَةً ذِهْنِيَّةً تُطْبَعُ فِي القُلُوبِ لِبَيَانِ الحَقِّ وَالدَّعْوَةِ إِلَى الصِّرَاطِ المُسْتَقِيمِ، وَالتَّحْذِيرِ مِنْ سُبُلِ الشَّيَاطِينِ، وَالحَضِّ عَلَى قِصَرِ الأَمَلِ، وَالاسْتِعْدَادِ لِبَغْتَةِ الأَجَلِ.

فَفِي الحَدِيثِ الَّذِي رَوَاهُ الإِمَامُ أَحْمَدُ فِي «مُسْنَدِهِ» عَنْ جَابِرٍ وَابْنِ مَسْعُودٍ رضي الله عنهما، **وَأَبُو عَبْدِ اللهِ الْمَرْوَزِيُّ**[1] **فِي كِتَابِ «السُّنَّةِ»** عَنْ جَابِرٍ وَابْنِ عَبَّاسٍ رضي الله عنهما: قَالَ جَابِرٌ: كُنَّا جُلُوسًا عِنْدَ النَّبِيِّ ﷺ فَخَطَّ خَطًّا هَكَذَا أَمَامَهُ؛ فَقَالَ: «**هَذَا سَبِيلُ اللهِ عز وجل**»، وَخَطَّيْنِ عَنْ يَمِينِهِ، وَخَطَّيْنِ عَنْ شِمَالِهِ، قَالَ: «**هَذِهِ سُبُلُ الشَّيْطَانِ**»، ثُمَّ

---

(١) هو محمد بن نصر بن الحجاج المروزي، أبو عبد الله الإمام الحافظ الفقيه، المحدث، شيخ الإسلام، كان من أعلم الناس باختلاف الصحابة فمن بعدهم في الأحكام، ولد ببغداد، في سنة اثنتين ومائتين، ونشأ بنيسابور، ومسكنه سمرقند، ذكره الحاكم؛ فقال: «إمام عصره بلا مدافعة في الحديث»، قال ابن حجر: «ثقة حافظ، إمام جبل»، وقال أبو بكر الصيرفي من الشافعية: «لو لم يصنف ابن نصر إلا كتاب: «القسامة» لكان من أفقه الناس»، قال أبو إسحاق: «وصنف ابن نصر كتبًا ضمنها الآثار والفقه، وكان من أعلم الناس باختلاف الصحابة ومن بعدهم في الأحكام» له كتاب «السنة»، و«تعظيم قدر الصلاة»، و«الوتر»، و«قيام الليل» وغيرها؛ توفي سنة ٢٩٤هـ.

- راجع: ترجمته في «سير أعلام النبلاء» (ترجمة: ٢٦٩٤)، و«تقريب التهذيب» (ترجمة: ٦٣٧١)، و«تهذيب التهذيب» (٩/ ٤٨٩).

وَضَعَ يَدَهُ فِي الْخَطِّ الأَوْسَطِ، ثُمَّ تَلاَ هَذِهِ الآيَةَ: ﴿وَأَنَّ هَٰذَا صِرَٰطِى مُسْتَقِيمًا فَٱتَّبِعُوهُ ۖ وَلَا تَتَّبِعُوا۟ ٱلسُّبُلَ فَتَفَرَّقَ بِكُمْ عَن سَبِيلِهِۦ ۚ ذَٰلِكُمْ وَصَّىٰكُم بِهِۦ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ﴾ [الأنعام:١٥٣] (١)».

وَرَوَى **الْبُخَارِيُّ** (٢) عَنْ عَبْدِ الله بْنِ مَسْعُودٍ رضي الله عنه قَالَ: خَطَّ النَّبِيُّ ﷺ خَطًّا مُرَبَّعًا، وَخَطَّ خَطًّا فِي الْوَسَطِ خَارِجًا مِنْهُ، وَخَطَّ خُطُوطًا صِغَارًا إِلَى هَذَا الَّذِي فِي الْوَسَطِ، مِنْ جَانِبِهِ الَّذِي فِي الْوَسَطِ (٣)، وَقَالَ: «**هَذَا الإِنْسَانُ، وَهَذَا أَجَلُهُ**

---

(١) في «المسند» للإمام أحمد (٣/ ٣٩٧)، وفي «المنتخب» لعبد بن حميد (١١٤١)، وفي كتاب «السنة» للمروزي (رقم:١٣) طبعة مؤسسة الكتب الثقافية. بيروت. ١٤٠٨هـ. عن جابر وابن عباس رضي الله عنهم، وهو عند ابن ماجه، في المقدمة، باب اتباع سنة رسول الله ﷺ (١١) عن جابر، وصحَّحه الألبانيُّ في «ظلال الجنة» (١٦).
ولفظ الحديث في رواية كتاب «السنة»: «فَخَطَّ بِيَدِهِ فِي الأَرْضِ خَطًّا هَكَذَا؛ فَقَالَ: «**هَذَا سَبِيلُ الله**»، وَخَطَّ خَطَّيْنِ عَنْ يَمِينِهِ، وَخَطَّيْنِ عَنْ شِمَالِهِ، وَقَالَ: «**هَذِهِ سُبُلُ الشَّيْطَانِ**»، ثُمَّ وَضَعَ يَدَهُ فِي الْخَطِّ الأَوْسَطِ، ثُمَّ تَلاَ...».
ورواية «المسند» فيها: «فَخَطَّ خَطًّا هَكَذَا أَمَامَهُ؛ فَقَالَ: «**هَذَا سَبِيلُ الله**»، وَخَطَّيْنِ عَنْ يَمِينِهِ، وَخَطَّيْنِ عَنْ شِمَالِهِ، قَالَ: «**هَذِهِ سُبُلُ الشَّيْطَانِ**»، ثُمَّ وَضَعَ يَدَهُ فِي الْخَطِّ الأَوْسَطِ، ثُمَّ تَلاَ....»، فجمعت بين روايتيهما.

(٢) أخرجه البخاريُّ، كتاب الرقائق، باب في الأمل وطوله (٦٤١٧).

(٣) لفظ رواية نسخة البخاريِّ المطبوعة مع «فتح الباري»: «وخط خططًا صغارًا...»، في هذا الموضع، وفي الموضع التالي أيضًا، وفي رواية ذكرها الحافظ ابن حجر العسقلانيُّ في «فتح الباري» (١١/ ٢٠٢)، وذكرها الفقيه ابن حجر الهيتميُّ في «الفتح المبين بشرح الأربعين» للنوويِّ في شرح الحديث «الأربعين» عن البخاريِّ: «وخط خطوطًا...» فأثبتها هنا.

مُحِيطٌ بِهِ، وَهَذَا الَّذِي هُوَ خَارِجٌ [١] أَمَلُهُ، وَهَذِهِ الْخُطَطُ الصِّغَارُ: الْأَعْرَاضُ [٢]، فَإِنْ أَخْطَأَهُ هَذَا نَهَشَهُ هَذَا [٣]، وَإِنْ أَخْطَأَهُ هَذَا نَهَشَهُ هَذَا، وَإِنْ أَخْطَأَهُ كُلُّهَا أَصَابَهُ الْهَرَمُ [٤]».

(١) أي: خارجٌ عن الخط.

(٢) أي: ما ينتفع به في الدنيا في الخير، وفي الشر. انظر: «الفتح» (١١/ ٢٤٢).

(٣) عبَّر بالنهش - وهو لدغ الأفعى ذات السُّم- مبالغة في الإصابة والإهلاك السريع؛ قاله الحافظ.

(٤) هذه الجملة ليست في نسخة البخاريِّ المطبوعة، وإنما هي من رواية ابن حجر الهيتميِّ في «الفتح المبين» عن البخاريِّ، فأثبتها.

الْمَبْحَثُ السَّابِعَ عَشَرَ
دَعْوَتُهُ ﷺ بِالإِشَارَةِ مَعَ الْقَوْلِ

قَدْ يَحْتَاجُ الدَّاعِي أَحْيَانًا إِلَى لَفْتِ انْتِبَاهِ الْمَدْعُوِّينَ، وَاسْتِمَالَةِ قُلُوبِهِمْ، وَتَحْرِيكِ عُقُولِهِمْ بِجَمْعِهِ بَيْنَ الإِشَارَةِ الْمُعَبِّرَةِ، وَالْكَلِمَاتِ الْمُؤَثِّرَةِ.

فَالإِشَارَةُ إِذَا كَانَتْ مُنَاسِبَةً فِي شَكْلِهَا، مُوَافِقَةً لِلسِّيَاقِ، مُعَبِّرَةً عَنِ الْمَضْمُونِ تَعْبِيرًا صَادِقًا غَيْرَ مُتَكَلَّفٍ، قَدْ يَكُونَ وَقْعُهَا عَلَى الْمُسْتَمِعِ أَقْوَى مِنْ كَثِيرٍ مِنَ الْكَلِمَاتِ.

وَهَا هُوَ سَيِّدُ الدُّعَاةِ ﷺ يَجْمَعُ فِي كَثِيرٍ مِنَ الْمَوَاطِنِ بَيْنَ الْقَوْلِ وَالإِشَارَةِ الْمُعَبِّرَةِ؛ فَفِي «الصَّحِيحَيْنِ» [١]، - وَاللَّفْظُ لِلْبُخَارِيِّ -، عَنْ أَبِي مُوسَى الْأَشْعَرِيِّ رضي الله عنه قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: **«الْمُؤْمِنُ لِلْمُؤْمِنِ كَالْبُنْيَانِ يَشُدُّ بَعْضُهُ بَعْضًا، ثُمَّ شَبَّكَ رَسُولُ اللهِ ﷺ بَيْنَ أَصَابِعِهِ»**.

وَرَوَى **مُسْلِمٌ** [٢]، مِنْ حَدِيثِ جَابِرِ بْنِ عَبْدِ اللهِ رضي الله عنهما، الطَّوِيلِ فِي حَجَّةِ النَّبِيِّ ﷺ قَوْلَهُ: **«لَوْ أَنِّي اسْتَقْبَلْتُ مِنْ أَمْرِي مَا اسْتَدْبَرْتُ، لَمْ أَسُقِ الْهَدْيَ، وَجَعَلْتُهَا عُمْرَةً، فَمَنْ كَانَ مِنْكُمْ لَيْسَ مَعَهُ هَدْيٌ فَلْيَحِلَّ، وَلْيَجْعَلْهَا عُمْرَةً»**، فَقَامَ سُرَاقَةُ بْنُ مَالِكِ بْنِ جُعْشُمٍ؛ فَقَالَ: يَا رَسُولَ اللهِ، أَلِعَامِنَا هَذَا أَمْ لِأَبَدٍ؟ فَشَبَّكَ رَسُولُ اللهِ ﷺ أَصَابِعَهُ وَاحِدَةً فِي الْأُخْرَى، وَقَالَ: **«دَخَلَتِ الْعُمْرَةُ فِي الْحَجِّ، دَخَلَتِ الْعُمْرَةُ فِي الْحَجِّ، لَا؛ بَلْ لِأَبَدِ أَبَدٍ»**.

---

(١) أخرجه البخاريُّ، كتاب المظالم، باب نصر المظلوم (٢٤٤٦)، وفي كتاب الأدب، باب تعاوُن المؤمنين بعضهم بعضًا (٦٠٢٦)، ومسلمٌ، كتاب البر والصلة، باب تراحُم المؤمنين وتعاطُفهم وتعاضدهم (٢٥٨٥).

(٢) أخرجه مسلمٌ، كتاب الحج، باب حجة النبي ﷺ (١٢١٨).

وَرَوَى **الْبُخَارِيُّ** (١) عَنْ سَهْلِ بْنِ سَعْدٍ السَّاعِدِيِّ رضي الله عنه قَالَ: قَالَ رَسُولُ الله ﷺ: «**أَنَا وَكَافِلُ الْيَتِيمِ فِي الْجَنَّةِ كَهَاتَيْنِ**»، وَأَشَارَ بِأُصْبُعَيْهِ: السَّبَّابَةِ وَالْوُسْطَى، وَفَرَّجَ بَيْنَهُمَا شَيْئًا.

وَفِي حَدِيثِ الثَّلَاثَةِ الَّذِينَ تَكَلَّمُوا فِي الْمَهْدِ، الَّذِي رَوَاهُ **الْبُخَارِيُّ وَمُسْلِمٌ**(٢)، وَاللَّفْظُ لِلْبُخَارِيِّ، عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ رضي الله عنه، فَذَكَرَ فِيهِ رَسُولُ الله ﷺ: عِيسَى ابْنَ مَرْيَمَ عليه السلام، وَغُلَامَ جُرَيْجٍ الرَّاهِبِ، ثُمَّ قَالَ: «**وَكَانَتِ امْرَأَةٌ تُرْضِعُ ابْنًا لَهَا مِنْ بَنِي إِسْرَائِيلَ، فَمَرَّ بِهَا رَجُلٌ رَاكِبٌ ذُو شَارَةٍ** (٣)؛ **فَقَالَتِ: اللهمَّ اجْعَلِ ابْنِي مِثْلَهُ، فَتَرَكَ ثَدْيَهَا، وَأَقْبَلَ عَلَى الرَّاكِبِ؛ فَقَالَ: اللهمَّ لاَ تَجْعَلْنِي مِثْلَهُ، ثُمَّ أَقْبَلَ عَلَى ثَدْيِهَا يَمَصُّهُ**». قَالَ أَبُو هُرَيْرَةَ: كَأَنِّي أَنْظُرُ إِلَى النَّبِيِّ ﷺ يَمَصُّ إِصْبَعَهُ.

ثُمَّ مُرَّ بِأَمَةٍ، تُجَرَّرُ وَيُلْعَبُ بِهَا (٤)، وَتُضْرَبُ، فَقَالَتِ: اللهمَّ لاَ تَجْعَلِ ابْنِي مِثْلَ هَذِهِ، فَتَرَكَ ثَدْيَهَا؛ فَقَالَ: اللهمَّ اجْعَلْنِي مِثْلَهَا، فَقَالَتْ: لِمَ ذَاكَ؟ فَقَالَ: الرَّاكِبُ جَبَّارٌ مِنَ الْجَبَابِرَةِ، وَهَذِهِ الأَمَةُ يَقُولُونَ سَرَقْتِ زَنَيْتِ، وَلَمْ تَفْعَلْ (وَهِيَ تَقُولُ: حَسْبِيَ الله وَنِعْمَ الْوَكِيلُ) (٥).

وَرَوَى **الْبُخَارِيُّ وَمُسْلِمٌ** (٦)، وَاللَّفْظُ لِلْبُخَارِيِّ، عَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ رضي الله عنهما: أَنَّ

---

(١) أخرجه البخاريُّ، كتاب الطلاق، باب اللعان (٥٣٠٤)، وكتاب الأدب، باب فضل من يعول يتيمًا (٦٠٠٥).

(٢) أخرجه البخاريُّ، كتاب أحاديث الأنبياء، باب قول الله تعالى: ﴿وَٱذۡكُرۡ فِي ٱلۡكِتَٰبِ مَرۡيَمَ﴾ (٣٤٣٦)، ومسلمٌ، كتاب البر والصلة، باب تقديم بر الوالدين عَلَى التطوع بالصلاة وغيرها (٢٥٥٠/ ٨).

(٣) أي: ذو هيئة جميلة وملبس حسن. «الفتح» (٦/ ٥٥٧).

(٤) هذه الجملة من رواية ثانية عند البخاريِّ، في كتاب «أحاديث الأنبياء»، باب بعد باب ما ذكر عن بني إسرائيل (٣٤٣٦).

(٥) هذه الجملة من رواية أحمد في «مسنده» (٢/ ٣٠٨).

(٦) أخرجه البخاريُّ، كتاب العلم، باب من أجاب الفُتيا بإشارة اليد والرأس (٨٤)، =

النَّبِيَّ ﷺ سُئِلَ فِي حَجَّةِ الْوَدَاعِ؛ فَقَالَ: ذَبَحْتُ قَبْلَ أَنْ أَرْمِيَ، فَأَوْمَأَ بِيَدِهِ وَقَالَ: «**لَا حَرَجَ**»، قَالَ: حَلَقْتُ قَبْلَ أَنْ أَذْبَحَ، فَأَوْمَأَ بِيَدِهِ وَقَالَ: «**لَا حَرَجَ**».

وَرَوَى **مُسْلِمٌ** (١) عَنِ الْمِقْدَادِ بْنِ الْأَسْوَدِ رضي الله عنه، قَالَ: سَمِعْتُ رَسُولَ اللهِ ﷺ يَقُولُ: «**تُدْنَى الشَّمْسُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ مِنَ الْخَلْقِ، حَتَّى تَكُونَ مِنْهُمْ كَمِقْدَارِ مِيلٍ، فَيَكُونُ النَّاسُ عَلَى قَدْرِ أَعْمَالِهِمْ فِي الْعَرَقِ، فَمِنْهُمْ مَنْ يَكُونُ إِلَى كَعْبَيْهِ، وَمِنْهُمْ مَنْ يَكُونُ إِلَى رُكْبَتَيْهِ، وَمِنْهُمْ مَنْ يَكُونُ إِلَى حَقْوَيْهِ** (٢)**، وَمِنْهُمْ مَنْ يُلْجِمُهُ الْعَرَقُ إِلْجَامًا**»، وَأَشَارَ رَسُولُ اللهِ ﷺ بِيَدِهِ إِلَى فِيهِ (٣).

=

ومسلمٌ، كتاب الحج، باب جواز تقديم الذبح عَلَى الرمي (١٣٠٦).

(١) أخرجه مسلمٌ، كتاب الجنة وصفة نعيمها، باب في صفة يوم القيامة أعاننا الله عَلَى أهواله (٢٨٦٤).

(٢) الحقو بفتح الحاء وكسرها مع سكون القاف: هو الموضع الذي يعقد عليه الإزار، أي يبلغ به العرق إلى وسطه. «شرح مسلم» للنوويِّ (٧/ ٣)، (١٨/ ١٤٢)، و«الفتح» (٨/ ٨٥٠).

(٣) أي: إشارة إلى فمه الشريف ﷺ.

المَبْحَثُ الثَّامِنَ عَشَرْ
اتِّخَاذُهُ ﷺ الكِتَابَةَ وَسِيلَةً فِي التَّعْلِيمِ وَالتَّبْلِيغِ وَنَحْوِهِمَا

وَقَدْ كَانَ لِرَسُولِ اللهِ ﷺ كُتَّابٌ أَكْثَرُ مِنْ خَمْسَةَ عَشَرَ كَاتِبًا، يَكْتُبُونَ عَنْهُ الْقُرْآنَ، وَكُتَّابٌ آخَرُونَ خَصَّهُمْ بِكِتَابَةِ رَسَائِلِهِ إِلَى الْآفَاقِ، وَالْمُلُوكِ لِتَبْلِيغِهِمُ الْإِسْلَامَ وَدَعْوَتِهِمْ إِلَيْهِ، وَكُتَّابٌ آخَرُونَ خَصَّهُمْ بِكِتَابَةِ أُمُورٍ أُخْرَى.

وَصَحَّ عَنْهُ ﷺ أَنَّهُ أَذِنَ لِبَعْضِ أَصْحَابِهِ بِكِتَابَةِ حَدِيثِهِ؛ بَلْ أَمَرَ بَعْضَ أَصْحَابِهِ بِكِتَابَتِهِ أَيْضًا:

رَوَى أَبُو دَاوُدَ (١) عَنْ عَبْدِ اللهِ بْنِ عَمْرِو بْنِ الْعَاصِ رضي الله عنهما قَالَ: كُنْتُ أَكْتُبُ كُلَّ شَيْءٍ أَسْمَعُهُ مِنْ رَسُولِ اللهِ ﷺ أُرِيدُ حِفْظَهُ، فَنَهَتْنِي قُرَيْشٌ، وَقَالُوا: أَتَكْتُبُ كُلَّ شَيْءٍ تَسْمَعُهُ، وَرَسُولُ اللهِ ﷺ بَشَرٌ يَتَكَلَّمُ فِي الْغَضَبِ وَالرِّضَا، فَأَمْسَكْتُ عَنِ الْكِتَابِ - أَيِ الْكِتَابَةِ- فَذَكَرْتُ ذَلِكَ لِرَسُولِ اللهِ ﷺ، فَأَوْمَأَ بِأُصْبُعِهِ إِلَى فِيهِ؛ فَقَالَ: «**اكْتُبْ؛ فَوَالَّذِي نَفْسِي بِيَدِهِ مَا يَخْرُجُ مِنْهُ إِلاَّ حَقٌّ**».

وَرَوَى الْبُخَارِيُّ وَمُسْلِمٌ (٢)، وَاللَّفْظُ لِلْبُخَارِيِّ، عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ رضي الله عنه قَالَ: لَمَّا فَتَحَ اللهُ عَلَى رَسُولِهِ ﷺ مَكَّةَ، قَامَ فِي النَّاسِ، فَحَمِدَ اللهَ، وَأَثْنَى عَلَيْهِ، ثُمَّ قَالَ: «**إِنَّ اللهَ حَبَسَ عَنْ مَكَّةَ الْفِيلَ، وَسَلَّطَ عَلَيْهَا رَسُولَهُ وَالْمُؤْمِنِينَ، فَإِنَّهَا لاَ تَحِلُّ**

---

(١) أخرجه أبو داود، كتاب العلم، باب في كتابة العلم (٣٦٤٦)، وأحمد (٢/ ١٦٢، ١٩٢)، والدارميُّ (٤٨٤)، والحاكم (١/ ١٠٥و ١٠٦)، وصححه الألباني في «الصحيحة» (١٥٣٢).

(٢) أخرجه البخاريُّ، كتاب اللُّقطة، باب كيف تُعرَّف لقطة أهل مكة؟ (٢٤٣٤)، وفي كتاب العلم، باب كتابة العلم (١١٢)، بأتمَّ مما هنا، ومسلمٌ، كتاب الحج، باب تحريم مكة وتحريم صيدها (١٣٥٥).

لأَحَدٍ كَانَ قَبْلِي، وَإِنَّهَا أُحِلَّتْ لِي سَاعَةً مِنْ نَهَارٍ، وَإِنَّهَا لاَ تَحِلُّ لأَحَدٍ بَعْدِي، فَلاَ يُنَفَّرُ صَيْدُهَا وَلاَ يُخْتَلَى شَوْكُهَا، وَلاَ تَحِلُّ سَاقِطَتُهَا إِلَّا لِمُنْشِدٍ، وَمَنْ قُتِلَ لَهُ قَتِيلٌ فَهُوَ بِخَيْرِ النَّظَرَيْنِ، إِمَّا أَنْ يُفْدَى، وَإِمَّا أَنْ يُقِيدَ»؛ فَقَالَ الْعَبَّاسُ: إِلَّا الإِذْخِرَ، فَإِنَّا نَجْعَلُهُ لِقُبُورِنَا وَبُيُوتِنَا؛ فَقَالَ رَسُولُ الله ﷺ: «**إِلَّا الإِذْخِرَ**». فَقَامَ أَبُو شَاهٍ - رَجُلٌ مِنْ أَهْلِ الْيَمَنِ- فَقَالَ: اكْتُبُوا لِي يَا رَسُولَ الله؛ فَقَالَ رَسُولُ الله ﷺ: «**اكْتُبُوا لأَبِي شَاهٍ**»، قُلْتُ لِلأَوْزَاعِيِّ: مَا قَوْلُهُ اكْتُبُوا لِي يَا رَسُولَ الله؟ قَالَ: هَذِهِ الْخُطْبَةَ الَّتِي سَمِعَهَا مِنْ رَسُولِ الله ﷺ.

وَرَوَى الْبُخَارِيُّ (١)، عَنْ أَبِي جُحَيْفَةَ قَالَ: قُلْتُ لِعَلِيِّ بْنِ أَبِي طَالِبٍ: هَلْ عِنْدَكُمْ كِتَابٌ (٢)؟قَالَ: لَا إِلَّا كِتَابُ الله، أَوْ فَهْمٌ أُعْطِيَهُ رَجُلٌ مُسْلِمٌ، أَوْ مَا فِي هَذِهِ الصَّحِيفَةِ (٣)، قَالَ: قُلْتُ: فَمَا فِي هَذِهِ الصَّحِيفَةِ؟ قَالَ: الْعَقْلُ، وَفَكَاكُ الأَسِيرِ، وَلَا يُقْتَلُ مُسْلِمٌ بِكَافِرٍ (٤).

وَقَدْ أَرْسَلَ ﷺ كُتُبًا بِاسْمِهِ الشَّرِيفِ إِلَى الآفَاقِ وَالْمُلُوكِ، مِنْهَا مَا فِيهِ الدَّعْوَةُ إِلَى الإِسْلَامِ وَالإِيمَانِ بِالله تَعَالَى، وَمِنْهَا مَا فِيهِ بَيَانُ الأَحْكَامِ وَشَرَائِعِ الإِسْلَامِ لِلدَّاخِلِينَ فِيهِ، وَقَدْ حَفِظَتْ كُتُبُ السِّيرَةِ وَالْحَدِيثِ وَالتَّارِيخِ نُصُوصَ تِلْكَ الْكُتُبِ الْكَرِيمَةِ وَأَلْفَاظَهَا.

---

(١) أخرجه البخاريُّ، كتاب العلم، باب كتابة العلم (١١١)، وانظر: «صحيح مسلم» كتاب الحج (١٣٧٠).

(٢) أي: مكتوب أخذتموه عن رَسُول الله ﷺ مما أوحي إليه، وإنما سأله أبو جحيفة عن ذلك؛ لأن جماعة من الشيعة كانوا يزعمون أن عند أهل البيت - لاسيما عليًّا- أشياء من الوحي خصهم النبيُّ ﷺ بها لم يطلع غيرهم عليها!!

(٣) أي: الورقة المكتوبة، وقد كتب فيها أحاديث عن رَسُول الله ﷺ.

(٤) وكانت في هذه الصحيفة أحاديث أخرى في غير هذه الموضوعات الثلاثة؛ كما ترى تفصيل ذلك في «فتح الباري» (١/ ٢٠٥).

المَبْحَثُ التَّاسِعَ عَشَرْ
إِينَاسُهُ ﷺ للمُخَاطَبِينَ فِي عَرْضِ مَا قَدْ يُسْتَحْيَا مِنْهُ

كَانَ ﷺ يَكْتَفِي بِالتَّعْرِيضِ وَالْإِشَارَةِ فِي تَعْلِيمِ مَا يُسْتَحْيَا مِنْهُ.

فَفِي «**الصَّحِيحَيْنِ**»(١)، وَاللَّفْظُ لِمُسْلِمٍ، عَنْ عَائِشَةَ رضي الله عنها، أَنَّ أَسْمَاءَ سَأَلَتِ النَّبِيَّ ﷺ عَنْ غُسْلِ الْمَحِيضِ(٢)؟ فَقَالَ: «**تَأْخُذُ إِحْدَاكُنَّ مَاءَهَا وَسِدْرَتَهَا(٣) فَتَطَهَّرُ، فَتُحْسِنُ الطُّهُورَ، ثُمَّ تَصُبُّ عَلَى رَأْسِهَا فَتَدْلُكُهُ دَلْكًا شَدِيدًا، حَتَّى تَبْلُغَ شُئُونَ رَأْسِهَا(٤)، ثُمَّ تَصُبُّ عَلَيْهَا الْمَاءَ، ثُمَّ تَأْخُذُ فِرْصَةً مُمَسَّكَةً فَتَطَهَّرُ بِهَا(٥)**»؛ فَقَالَتْ أَسْمَاءُ: وَكَيْفَ تَطَهَّرُ بِهَا؟ فَقَالَ: «**سُبْحَانَ اللهِ! تَطَهَّرِينَ بِهَا(٦)**»؛ فَقَالَتْ

---

(١) أخرجه البخاريُّ، كتاب الحيض، باب ذلك المرأة نفسها إذا تطهرت من المحيض (٣١٤)، ومسلمٌ، كتاب الحيض، باب استحباب استعمال المغتسلة من الحيض فرصة من مسك موضع الدم (٣٣٢/ ٦١).

(٢) أي: عن الغسل بعد انتهاء الحيض.

(٣) السِّدرة: واحدة ورق السدر، وهو شجر معروف ينبت في الأرياف والجبال والرمل. انظر: «اللسان»(مادة: سدر)، و«المصباح المنير» (١/ ٢٧١).

(٤) أي: أصول شعر رأسها. انظر: «شرح صحيح مسلم» للنووي (٢/ ٣٧).

(٥) الفرصة بكسر الفاء: قطعة من القطن أو نحوه، و«ممسكة» أي: مطيبة بالمسك، وهو من أفضل أنواع الطيب؛ أي: تأخذ قطعة قطن أو نحوه مطيبة تتطيب بها في موضع خروج الدم؛ لدفع الرائحة الكريهة.
وهذا الفعل من المرأة أمر مستحب شرعًا؛ أخذًا من هذا الحديث الشريف. وانظر المصدر السابق.

(٦) لم يُفصح لها رَسُول الله ﷺ كيف تتطهر بتلك القطعة الممسكة، إذ كان موضع ذلك مما يستحيا من ذكره، واكتفى بالتسبيح؛ إيذانًا أن ذلك ينبغي أن يكون معلومًا لديها
=

عَائِشَةُ - كَأَنَّهَا تُخْفِي ذَلِكَ (١)- تَتَبَّعِينَ أَثَرَ الدَّمِ (٢)، وَسَأَلَتْهُ عَنْ غُسْلِ الْجَنَابَةِ؟ فَقَالَ: **«تَأْخُذُ مَاءً فَتَطَهَّرُ فَتُحْسِنُ الطُّهُورَ - أَوْ تُبْلِغُ الطُّهُورَ- ثُمَّ تَصُبُّ عَلَى رَأْسِهَا فَتَدْلُكُهُ حَتَّى تَبْلُغَ شُئُونَ رَأْسِهَا، ثُمَّ تُفِيضُ عَلَيْهَا الْمَاءَ (٣)»**؛ فَقَالَتْ عَائِشَةُ: نِعْمَ النِّسَاءُ نِسَاءُ الأَنْصَارِ، لَمْ يَكُنْ يَمْنَعُهُنَّ الْحَيَاءُ أَنْ يَتَفَقَّهْنَ فِي الدِّينِ.

فَلَقَدْ كَانَ النَّبِيُّ ﷺ أَحْسَنَ النَّاسِ خُلُقًا، وَأَشَدَّهُمْ حَيَاءً؛ فَكَانَ يُرَاعِي فِي تَعْلِيمِهِ الأُمُورَ الَّتِي يُسْتَحْيَا مِنْ ذِكْرِهَا؛ فَكَانَ ﷺ تَارَةً يُمَهِّدُ التَّمْهِيدَ اللَّطِيفَ الرَّقِيقَ، إِذَا شَاءَ أَنْ يُعَلِّمَ أَصْحَابَهُ مَا قَدْ يُسْتَحْيَا مِنَ التَّصْرِيحِ بِهِ:

فَقَدْ رَوَى مُسْلِمٌ - مُخْتَصَرًا- وَأَبُو دَاوُدَ وَالنَّسَائِيُّ وَابْنُ مَاجَه تَامًّا- وَاللَّفْظُ لِابْنِ مَاجَه (٤)- عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ رضي الله عنه قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: **«إِنَّمَا أَنَا لَكُمْ مِثْلُ الْوَالِدِ لِوَلَدِهِ أُعَلِّمُكُمْ، إِذَا أَتَيْتُمُ الْغَائِطَ، فَلاَ تَسْتَقْبِلُوا الْقِبْلَةَ وَلاَ تَسْتَدْبِرُوهَا (٥)»**،

=

من أمثالها من النساء.

(١) معناه: قالت لها عائشة كلامًا خفيًّا تسمعه المخاطبة وحدها، ولا يسمعه الحاضرون في المجلس، وجملة «كأنها تخفي ذلك»، مدرجة من كلام الراوي في الحديث، وليست من كلام عائشة رضي الله عنها.

(٢) أي: موضعه الذي يخرج منه، فادلكيه بتلك القطنة المطيبة الممسكة؛ لتزول الرائحة المنفرة من بقايا الحيض.

(٣) أرشدها ﷺ في هذا الحديث إلى أن الغسل من الحيض، يزيد على غسل الجنابة، باستحباب وضع السدر في مائه، ثم بتطييب موضع الدم بعد الفراغ من الاغتسال منه.

(٤) أخرجه مسلمٌ، كتاب الطهارة، باب الاستطابة (٢٦٥)، وأبو داود، كتاب الطهارة، باب كراهية استقبال القبلة عند قضاء الحاجة (٨)، والنسائيُّ، كتاب الطهارة، باب النهي عن الاستطابة بالروث (٤٠)، وابن ماجه، كتاب الطهارة، باب الاستنجاء بالحجارة والنهي عن الروث والرِّمَّة (٣١٣)، وأحمد (٢/ ٢٤٧ و٢٥٠)، والدارميُّ (٦٧٤).

(٥) أي: لا يستدبروا الكعبة المعظمة عند قضاء الحاجة.

وَأَمَرَ بِثَلاثَةِ أَحْجَارٍ (١)، وَنَهَى عَنِ الرَّوْثِ (٢)، وَالرِّمَّةِ (٣)، وَنَهَى أَنْ يَسْتَطِيبَ الرَّجُلُ بِيَمِينِهِ (٤).

وَلَفْظُ الْحَدِيثِ مِنْ رِوَايَةِ أَبِي دَاوُدَ هَكَذَا: «**إِنَّمَا أَنَا لَكُمْ بِمَنْزِلَةِ الْوَالِدِ أُعَلِّمُكُمْ، فَإِذَا أَتَى أَحَدُكُمُ الْغَائِطَ، فَلاَ يَسْتَقْبِلِ الْقِبْلَةَ، وَلاَ يَسْتَدْبِرْهَا، وَلاَ يَسْتَطِبْ بِيَمِينِهِ**»، وَكَانَ يَأْمُرُ بِثَلاَثَةِ أَحْجَارٍ، وَيَنْهَى عَنِ الرَّوْثِ وَالرِّمَّةِ. وَقَدْ أَجَادَ الْعَلاَّمَةُ الْمُنَاوِيُّ (٥) فِي «**فَيْضِ الْقَدِيرِ شَرْحِ الْجَامِعِ الصَّغِيرِ**» (٦) فِي شَرْحِ هَذَا الْحَدِيثِ

---

(١) يعني: أن النبيَّ ﷺ أمر من يستنجي بالحجر، أن يستنجي بثلاثة أحجار؛ لأن النَّقاء يحصل بها غالبًا، والاستنجاء بالماء لمن يجده أفضل.

(٢) الرَّوْث: رجيع ذي حافر. «اللسان» (مادة: روث) (٤/ ٢٨٤)، والاستنجاء به إنما يتصور عند يبسه، بدلًا من الحجر، وإنما نهى عنه؛ لأنه النجاسة بعينها.

(٣) الرِّمَّة: العظم البالي، و المراد هنا مطلق العظم. انظر: «شرح السندي» على ابن ماجة، والنسائي.

(٤) الاستطابة: الاستنجاء، يقال: استطاب الرجل يستطيب فهو مستطيب إذا استنجى، ومعنى الطيب هنا الطهارة،، «شرح السنة» للبغوي (١/ ٣٦٦). وذكر الرجَّل في قول أبي هريرة رضي الله عنه: «**وَنَهى أَنْ يَسْتَطِيبَ الرَّجُلُ بِيَمِينِهِ**» لفظٌ اتفاقي، إذ المرأة مثله، وهذا النهي إنما جاء من رَسُول الله ﷺ رعاية منه للنظام العام الذي رسمه الإسلامُ في أعمال اليدين: فكل عمل رفيع يكون باليد اليمنى، وكل عمل وضيع يكون باليد اليسرى.

(٥) هو عبد الرؤوف بن تاج العارفين بن علي بن زين العابدين، الملقب زين الدين الحدادي، ثم المناوي القاهري، الشافعي، صاحب التصانيف النافعة، ومنها: «شرح الجامع الصغير» المسمَّى بـ «فيض القدير» واختصره في «التيسير» وشرح النخبة في كتاب مختصر بعنوان «اليواقيت والدرر» وآخر كبير في كتاب مختصر بعنوان «نتيجة الفكر» وشرح «الأربعين النووية»، وشرح «ألفية السيرة» للعراقي، وغيرها الكثير. توفي صبيحة يوم الخميس الثالث والعشرين من صفر سنة إحدى وثلاثين وألف، وصلِّي عليه بجامع الأزهر يوم الجمعة من شهر صفر رحمه الله.

- راجع: «البدر الطالع» (ترجمة:٢٣٩)، و«الأعلام» (٦/ ٢٠٤)، و«هدية العارفين في أسماء المؤلفين» (٢/ ٦٦) لإسماعيل باشا البغدادي. ط دار إحياء التراث. بيروت.

(٦) (٢/ ٥٧٠) بتصرفٍ.

الشَّرِيفِ أَيَّمَا إِجَادَةٍ، فَأَنَا أَنْقُلُ كَلَامَهُ بِطُولِهِ لِنَفَاسَتِهِ وَاحْتِوَائِهِ الْمَعَانِي الرَّائِعَةَ؛ فَقَالَ رَحِمَهُ اللهُ تَعَالَى: «قَوْلُهُ ﷺ: «**إِنَّمَا أَنَا لَكُمْ**»؛ أَيْ: لِأَجْلِكُمْ، مَا أَنَا لَكُمْ إِلَّا بِمِثْلِ الْوَالِدِ وَبِمَنْزِلَةِ الْوَالِدِ فِي الشَّفَقَةِ وَالْحُنُوِّ، لَا فِي الرُّتْبَةِ وَالْعُلُوِّ، وَفِي تَعْلِيمِ مَا لَا بُدَّ مِنْهُ، فَكَمَا يُعَلِّمُ الْأَبُ وَلَدَهُ الْأَدَبَ، فَأَنَا أُعَلِّمُكُمْ مَا لَكُمْ وَمَا عَلَيْكُمْ، وَأَبُو الْإِفَادَةِ أَقْوَى مِنْ أَبِي الْوِلَادَةِ، وَهُوَ الَّذِي أَنْقَذَنَا اللهُ بِهِ مِنْ ظُلْمَةِ الْجَهْلِ، إِلَى نُورِ الْإِيمَانِ.

وَقَدَّمَ ﷺ هَذَا أَمَامَ الْمَقْصُودِ إِعْلَامًا بِأَنَّهُ يَجِبُ عَلَيْهِ تَعْلِيمُهُمْ أَمْرَ دِينِهِمْ، كَمَا يَلْزَمُ الْوَالِدَ تَعْلِيمُ وَلَدِهِ مَا يَحْتَاجُ إِلَيْهِ مُطْلَقًا، وَلَا يُبَالِي بِمَا يُسْتَحْيَا مِنْ ذِكْرِهِ؛ فَهَذَا تَمْهِيدٌ مِنْهُ ﷺ لِمَا بَيَّنَهُ لَهُمْ مِنْ آدَابِ قَضَاءِ الْحَاجَةِ، وَهِيَ مِنَ الْأُمُورِ الَّتِي يُسْتَحْيَا مِنْ ذِكْرِهَا، وَلَاسِيَّمَا فِي مَجَالِسِ الْعُظَمَاءِ.

وَإِينَاسًا مِنْهُ ﷺ لِلْمُخَاطَبِينَ؛ لِئَلَّا يَحْتَشِمُوا عَنِ السُّؤَالِ عَمَّا يَعْرِضُ لَهُمْ مِمَّا يُسْتَحْيَا مِنْهُ.

وَبَسْطًا لِلْعُذْرِ عَنِ التَّصْرِيحِ بِقَوْلِهِ: «**فَإِذَا أَتَى أَحَدُكُمُ الْغَائِطَ**» أَيْ: مَحَلَّ قَضَاءِ الْحَاجَةِ، «**فَلَا يَسْتَقْبِلِ الْقِبْلَةَ**» بِفَرْجِهِ وَالْخَارِجِ مِنْهُ، «**وَلَا يَسْتَدْبِرْهَا**» بِبَوْلٍ وَلَا غَائِطٍ وُجُوبًا فِي الصَّحْرَاءِ وَنَدْبًا فِي غَيْرِهَا، «**وَلَا يَسْتَطِبْ بِيَمِينِهِ**» أَيْ: لَا يَسْتَنْجِ بِهَا بِغَسْلٍ أَوْ مَسْحٍ، فَيُكْرَهُ ذَلِكَ تَنْزِيهًا، وَقِيلَ تَحْرِيمًا، وَسُمِّيَ هَذَا الْفِعْلُ بِالِاسْتِطَابَةِ لِطِيبِ الْمَوْضِعِ بِطَهَارَتِهِ مِنَ النَّجَاسَةِ، أَوْ لِطِيبِ نَفْسِ الْمُسْتَطِيبِ بِإِزَالَةِ النَّجَاسَةِ.

وَقَدْ أَفَادَ الْحَدِيثُ أَنَّ النَّبِيَّ ﷺ لِجَمِيعِ الْأُمَّةِ كَالْأَبِ، وَكَذَا أَزْوَاجُهُ أُمَّهَاتُ الْمُؤْمِنِينَ؛ لِأَنَّ مِنْهُ وَمِنْ أَزْوَاجِهِ تَعَلَّمَ الذُّكُورُ وَالْإِنَاثُ مَعَانِيَ الدِّينِ كُلِّهِ، وَلَمْ يَتَوَلَّدْ خَيْرٌ إِلَّا مِنْهُ وَمِنْهُنَّ، فَبِرُّهُ وَبِرُّهُنَّ أَوْجَبُ مِنْ كُلِّ وَاجِبٍ، وَعُقُوقُهُ وَعُقُوقُهُنَّ أَهْلَكُ مِنْ كُلِّ مُهْلِكٍ.

قَالَ ابْنُ الْحَاجِّ (١) فِي كِتَابِهِ «**الْمَدْخَلِ**»: «أُمَّةُ النَّبِيِّ ﷺ فِي الْحَقِيقَةِ أَوْلَادُهُ؛ لِأَنَّهُ السَّبَبُ لِلْإِنْعَامِ عَلَيْهِمْ بِالْحَيَاةِ السَّرْمَدِيَّةِ، وَالْخُلُودِ فِي دَارِ النَّعِيمِ؛ فَحَقُّهُ أَعْظَمُ مِنْ حُقُوقِ الْوَالِدَيْنِ؛ قَالَ ﷺ لِبَعْضِ أَصْحَابِهِ: «**ابْدَأْ بِنَفْسِكَ ثُمَّ بِمَنْ تَعُولُ**»(٢)؛ فَأَفَادَهُ تَقْدِيمُ نَفْسِهِ عَلَى غَيْرِهِ، وَاللهُ سُبْحَانَهُ قَدَّمَ النَّبِيَّ ﷺ فِي كِتَابِهِ عَلَى نَفْسِ كُلِّ مُؤْمِنٍ؛ فَقَالَ: ﴿ٱلنَّبِىُّ أَوْلَىٰ بِٱلْمُؤْمِنِينَ مِنْ أَنفُسِهِمْ﴾ [الأحزاب:٦]، وَمَعْنَاهُ إِذَا تَعَارَضَ لَهُ حَقَّانِ: حَقٌّ لِنَفْسِهِ وَحَقٌّ لِنَبِيِّهِ، فَآكَدُهُمَا وَأَوْجَبُهُمَا حَقُّ النَّبِيِّ ﷺ، ثُمَّ يَجْعَلُ حَقَّ نَفْسِهِ تَبَعًا لِلْحَقِّ الْأَوَّلِ.

وَإِذَا تَأَمَّلْتَ الْأَمْرَ فِي الشَّاهِدِ - أَيْ: الْوَاقِعِ - وَجَدْتَ نَفْعَ الْمُصْطَفَى ﷺ

---

(١) أبو الوليد محمد بن أحمد بن خلف بن إبراهيم بن لُبٍّ التجيبي القرطبيُّ المالكيُّ، شيخ الأندلس ومفتيها، وقاضي الجماعة. قال ابن بشكوال: كان من جلة العلماء، معدودًا في المحدثين والأدباء، بصيرًا بالفتوى، كانت الفتوى تَدور عليه لمعرفته ودينه وثقته، وكان مُعْتَنِيًا بالآثار، جامعًا لها، ضابطًا لأسماء رجالها ورواتها، مقيدًا لمعانيها وغريبها، ذاكرًا للأنساب واللغة والنحو. إلى أن قال: قيد العلم عمره كله. وكان لينًا حليمًا متواضعًا، لم يحفظ له جور في قضية، وكان كثير الخشوع والذكر، قتل ظلمًا يوم الجمعة وهو ساجد في صفر سنة تسع وعشرين وخمس مئة، وله إحدى وسبعون سنة.

● راجع: «السير» (٣٦١)، و«الأعلام» للزركلي (٥/ ٣١٧).

(٢) أخرجه مسلمٌ، كتاب الزكاة، باب بيان أن اليد العليا خير من اليد السفلى (١٠٣٦) بلفظ: «**يَا ابْنَ آدَمَ إِنَّكَ أَنْ تَبْذُلَ الْفَضْلَ خَيْرٌ لَكَ، وَأَنْ تُمْسِكَهُ شَرٌّ لَكَ، وَلاَ تُلاَمُ عَلَى كَفَافٍ، وَابْدَأْ بِمَنْ تَعُولُ، وَالْيَدُ الْعُلْيَا خَيْرٌ مِنَ الْيَدِ السُّفْلَى**».

وفي «**الصحيحين**» البخاريِّ، كتاب الأحكام، باب بيع الإمام على الناس أموالهم وضياعهم (٧١٨٦)، ومسلم، كتاب الزكاة، باب الابتداء في النفقة على النفس ثم أهله (٩٩٧). عن جابر مرفوعًا وفيه: «**ابْدَأْ بِنَفْسِك فَتَصَدَّقْ عَلَيْهَا فَإِنْ فَضَلَ شَيْءٌ فَلأَهْلِك؛ فَإِنْ فَضَلَ عَنْ أَهْلِك شَيْءٌ فَلِذِي قَرَابَتِك، فَإِنْ فَضَلَ عَنْ ذِي قَرَابَتِك شَيْءٌ فَهَكَذَا، وَهَكَذَا يَقُولُ: فَبَيْنَ يَدَيْك وَعَنْ يَمِينِك وَعَنْ شِمَالِك**».

أَعْظَمُ مِنْ نَفْعِ الْآبَاءِ وَالْأُمَّهَاتِ، وَجَمِيعِ الْخَلْقِ؛ فَإِنَّهُ أَنْقَذَكَ، وَأَنْقَذَ آبَاءَكَ مِنَ النَّارِ، وَغَايَةُ أَمْرِ أَبَوَيْكَ أَنَّهُمَا أَوْجَدَاكَ فِي الْحِسِّ؛ فَكَانَا سَبَبًا لِإِخْرَاجِكَ إِلَى دَارِ التَّكْلِيفِ وَالْبَلَاءِ وَالْمِحَنِ، وَكَانَ رَسُولُ اللهِ ﷺ سَبَبًا لِنَجَاتِكَ وَدُخُولِكَ إِلَى دَارِ التَّشْرِيفِ وَالْمِنَحِ؛ فَجَزَى اللهُ عَنَّا نَبِيَّنَا مُحَمَّدًا ﷺ مَا هُوَ أَهْلُهُ» انْتَهَى.

❧ ◊ ☙

المَبْحَثُ العِشْرُونَ
ابْتِداؤُهُ ﷺ أَصْحَابَهُ بِبَعْضِ المَسَائِلِ لإِزَالَةِ الشُّبْهَةِ

لَا شَكَّ أَنَّ فِتْنَةَ الشَّهْوَةِ خَطِيرَةٌ؛ لَكِنَّ فِتْنَةَ الشُّبُهَةِ أَشَدُّ خَطَرًا(١)؛ لأَنَّهَا تَعْصِفُ بِالقَلْبِ وَتُحَوِّلُهُ؛ فَإِذَا تَشَرَّبَهَا عَلَاهُ الرَّانُ وَحُجِبَ عَنْهُ نُورُ الحَقِّ فَلَا تُؤَثِّرُ فِيهِ بَعْدَ ذَلِكَ آيَةٌ، وَلَا تُحَرِّكُهُ مَوْعِظَةٌ، وَيُصْبِحُ فَرِيسَةً لِلشَّيْطَانِ؛ فَتَضْعُفُ بَصِيرَتُهُ، وَيَقِلُّ عِلْمُهُ، وَيَفْسُدُ قَصْدُهُ، وَيَسُوءُ فَهْمُهُ، وَيَتَّبِعُ هَوَاهُ.

وَلِذَا؛ كَانَ ﷺ حَرِيصًا عَلَى سَلَامَةِ قُلُوبِ أَصْحَابِهِ، وَحِمَايَتِهَا مِنَ الشُّبُهَاتِ قَبْلَ وُرُودِهَا عَلَى القَلْبِ. فَفِي «صَحِيحِ» مُسْلِمٍ(٢) مِنْ حَدِيثِ حُذَيْفَةَ رضي الله عنه(٣) قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: **«تُعْرَضُ الْفِتَنُ عَلَى الْقُلُوبِ كَالْحَصِيرِ عُودًا عُودًا؛ فَأَيُّ قَلْبٍ أُشْرِبَهَا، نُكِتَ فِيهِ نُكْتَةٌ سَوْدَاءُ، وَأَيُّ قَلْبٍ أَنْكَرَهَا، نُكِتَ فِيهِ نُكْتَةٌ بَيْضَاءُ، حَتَّى تَصِيرَ عَلَى قَلْبَيْنِ، عَلَى أَبْيَضَ مِثْلِ الصَّفَا فَلَا تَضُرُّهُ فِتْنَةٌ مَا دَامَتِ السَّمَاوَاتُ**

---

(١) ولابن القيم تفصيلٌ رائعٌ، وحديثٌ ماتعٌ في أنواع الفتن؛ فتن الشبهات والشهوات. فراجع: «إغاثة اللهفان» (١/ ٧) و(٢/ ١٦٥) ط دار المعرفة، بيروت. سنة ١٣٩٥هـ.

(٢) أخرجه مسلمٌ، كتاب الإيمان، باب رفع الأمانة والإيمان من بعض القلوب وعرض الفتن على القلوب (١٤٤).

(٣) هو حذيفة بن اليمان العبسي، يكنى: أبا عبد الله، واسم اليمان: حسيل بن جابر، واليمان لقبٌ. وهو حذيفة بن حسيل، ويقال: حسي بن جابر، وكان من كبار الصحابة، وهو معروف بصاحب سرِّ رسول الله ﷺ، وهو حليف الأنصار، وشهد الحرب بنهاوند، مات سنة ست وثلاثين بعد قتل عثمان في أول خلافة عليٍّ رضي الله عنه. راجع: «الاستيعاب» (٥٠٧)، و«أسد الغابة» (١١١٣)، و«الإصابة» (١٦٥٢).

وَالْأَرْضُ، وَالْآخَرُ أَسْوَدُ مُرْبَادًّا كَالْكُوزِ، مُجَخِّيًا لَا يَعْرِفُ مَعْرُوفًا، وَلَا يُنْكِرُ مُنْكَرًا، إِلَّا مَا أُشْرِبَ مِنْ هَوَاهُ».

وَكَانَ ﷺ يُعَلِّمُ أَصْحَابَهُ جَوَابَ الشُّبْهَةِ قَبْلَ حُدُوثِهَا؛ خَشْيَةَ أَنْ تَقَعَ فِي النُّفُوسِ؛ فَتَسْتَقِرَّ بِهَا، وَتَفْعَلَ فِعْلَهَا السَّيِّئَ:

رَوَى الْبُخَارِيُّ وَمُسْلِمٌ (١) عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ رضي الله عنه قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: «يَأْتِي الشَّيْطَانُ أَحَدَكُمْ؛ فَيَقُولُ: مَنْ خَلَقَ كَذَا وَكَذَا؟ حَتَّى يَقُولَ لَهُ: مَنْ خَلَقَ رَبَّكَ؟ فَإِذَا بَلَغَ ذَلِكَ، فَلْيَسْتَعِذْ بِاللهِ، وَلْيَنْتَهِ».

وَفِي رِوَايَةٍ عِنْدَ مُسْلِمٍ (٢) عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ أَيْضًا قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: «لَا يَزَالُ النَّاسُ يَتَسَاءَلُونَ (٣)، حَتَّى يُقَالَ: هَذَا خَلَقَ اللهُ الْخَلْقَ؛ فَمَنْ خَلَقَ اللهَ؟ فَمَنْ وَجَدَ مِنْ ذَلِكَ شَيْئًا؛ فَلْيَقُلْ: آمَنْتُ بِاللهِ»(٤).

وَفِي رِوَايَةٍ ثَانِيَةٍ: «فَإِذَا قَالُوا ذَلِكَ، فَقُولُوا: ﴿ٱللَّهُ أَحَدٌ (٥) ۝١ ٱللَّهُ

---

(١) أخرجه البخاريُّ، كتاب بدء الخلق، باب صفة إبليس وجنوده (٣٢٧٦)، وكتاب الاعتصام بالكتاب والسنة، باب ما يكره من كثرة السؤال (٧٢٩٦) عن أنس رضي الله عنه، ومسلمٌ، كتاب الإيمان، باب بيان الوسوسة في الإيمان وما يقول من وجدها (١٣٤/ ٢١٤).

(٢) أخرجه مسلمٌ، كتاب الإيمان، باب بيان الوسوسة في الإيمان وما يقول من وجدها (١٣٤/ ٢١٢).

(٣) أي: يسأل بعضهم بعضًا.

(٤) أي: فليعرض عن هذا الخاطر الباطل، ليؤيد ويؤكد الإيمان المستقر في قلبه بالقول بلسانه: آمنت بالله، وفي ذلك ردٌّ لوسوسة الشيطان، ودحرٌ لكيده الخبيث.

(٥) يعني: قولوا في ردِّ هذه المقالة والوسوسة: الله أحد؛ أي: الله تبارك وتعالى ليس مخلوقًا، والأحدُ هو: الذي لا ثاني له في الذات ولا في الصفات.

ٱلصَّـمَدُ (١) ﴿٢﴾ لَمْ يَـلِدْ وَلَمْ يُولَـدْ ﴿٣﴾ وَلَمْ يَكُن لَّهُۥ كُفُوًا أَحَدٌ ﴾(٢)، ثُمَّ لْيَتْفُلْ عَنْ يَسَارِهِ ثَلَاثًا (٣)، وَلْيَسْتَعِذْ مِنَ الشَّيْطَانِ»(٤).

---

(١) أي: هو المرجعُ في الحوائج كلِّها، وهو المُستغني عن كلِّ أحد. وثمَّ أقوالٌ أُخر أوردها المفسرون.

(٢) أي: لم يكن له مُكافيًا أو مماثلًا أحدٌ.

(٣) أي: ليبصق ثلاث مرات من جهة يساره، والتفل والبصق في هذا عبارة عن كراهة الشيء والنفور عنه، كمن يجد جيفة! وتكرار ذلك ثلاث مرات: مراغمة للشيطان وتبعيد له، لينفر من المؤمن ويعلم أنه لا يطيعه، وأنه يكره الكلام المذكور.

(٤) والاستعاذة هي: طلب المعاونة من الله عَلَى دفع الشيطان؛ قال العلامة الطيبيُّ: «وإنما أمره بالاستعاذة والاشتغال بأمر آخر، ولم يأمره بالتأمل والاحتجاج؛ لأن العلم باستغناء الله - جلَّ وعلا - عن الموجد أمر ضروري لا يقبل المناظرة، ولأن الاسترسال في الفكر في ذلك لا يزيد المرء إلا حيرة، ومن هذا حاله فلا علاج له إلا الملجأ إلى الله ﷻ والاعتصام به». «الفتح» (٦/ ٣٩٣٠).

الْمَبْحَثُ الحَادِي وَالعِشْرُونَ
إِجَابَتُهُ ﷺ السَّائِلَ عَمَّا سَأَلَ عَنْهُ وَبِأَكْثَرَ مِمَّا سَأَلَ عَنْهُ

الجُودُ بِالعِلْمِ أَعْظَمُ مِنَ الجُودِ بِالمَالِ؛ لأَنَّ العِلْمَ أَشْرَفُ مِنَ المَالِ. وَكَانَ ﷺ أَجْوَدَ النَّاسِ بِالعِلْمِ وَالمَالِ؛ فَكَانَ إِذَا سَأَلَهُ السَّائِلُ عَنْ مَسْأَلَةٍ أَجَابَهُ عَنْهَا جَوَابًا شَافِيًا، وَزَادَ أَحْيَانًا بِمَا يَرَاهُ مُفِيدًا لَهُ مُحْتَاجًا إِلَيْهِ.

وَالأَحَادِيثُ فِي ذَلِكَ كَثِيرَةٌ وَفِيرَةٌ؛ فَمِنْ ذَلِكَ مَا يَلِي:

مَا رَوَاهُ مُسْلِمٌ (١) عَنِ النَّوَّاسِ بْنِ سِمْعَانَ الْكِلَابِيِّ (٢) ﷺ قَالَ: أَقَمْتُ مَعَ رَسُولِ اللهِ ﷺ بِالْمَدِينَةِ سَنَةً، مَا يَمْنَعُنِي مِنَ الْهِجْرَةِ إِلَّا الْمَسْأَلَةُ، كَانَ أَحَدُنَا إِذَا هَاجَرَ لَمْ يَسْأَلْ رَسُولَ اللهِ ﷺ عَنْ شَيْءٍ، فَسَأَلْتُهُ عَنِ الْبِرِّ وَالإِثْمِ؟ فَقَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: «**الْبِرُّ حُسْنُ الْخُلُقِ، وَالإِثْمُ مَا حَاكَ فِي نَفْسِكَ، وَكَرِهْتَ أَنْ يَطَّلِعَ عَلَيْهِ النَّاسُ**».

وَرَوَى الْبُخَارِيُّ وَمُسْلِمٌ (٣) عَنْ رَافِعِ بْنِ خَدِيجٍ (٤) قَالَ: قُلْتُ يَا رَسُولَ اللهِ!

---

(١) أخرجه مسلمٌ، كتاب البر والصلة، باب تفسير البر والإثم (٢٥٥٣/ ١٥).

(٢) هو النواس بن سمعان بن خالد بن عمرو بن قرط بن عبد الله بن أبي بكر بن كلاب بن ربيعة بن عامر بن صعصعة العامري الكلابي معدود في الشاميين، له ولأبيه صحبة.
● راجع: «الإصابة» (٨٨٤٤)، و«أسد الغابة» (٥٣١٥)، و«الاستيعاب» (١٦٧٢).

(٣) أخرجه البخاريُّ، كتاب الذبائح والصيد، باب لا يذكي بالسِّنِّ والعظم والظفر (٥٥٠٦)، وباب ما ندَّ من البهائم فهو بمنزلة الوحش (٥٥٠٩)، ومسلمٌ، كتاب الأضاحي، باب جواز الذبح بكل ما أنهر الدم (١٩٦٨)، واللفظ للبخاريِّ مجموعًا من الموضعين.

(٤) هو رافع بن خديج بن رافع بن عدي بن زيد بن جشم بن حارثة بن الحارث بن الخزرج ابن عمرو بن مالك بن الأوس الأنصاري الأوسي الحارثي، أبو عبد الله أو أبو خديج =

إِنَّا نَخَافُ أَنْ نَلْقَى الْعَدُوَّ غَدًا، وَلَيْسَتْ مَعَنَا مُدًى (١)؛ فَقَالَ: «مَا أَنْهَرَ الدَّمَ وَذُكِرَ اسْمُ اللهِ ﷻ فَكُلْ، لَيْسَ السِّنَّ وَالظُّفُرَ (٢)، وَسَأُحَدِّثُكَ (٣)، أَمَّا السِّنُّ فَعَظْمٌ، وَأَمَّا الظُّفُرُ فَمُدَى الْحَبَشَةِ» (٤).

وَرَوَى الْبُخَارِيُّ وَمُسْلِمٌ (٥)، وَاللَّفْظُ لِلْبُخَارِيِّ، عَنْ أَبِي ثَعْلَبَةَ الْخُشَنِيِّ (٦) ﵁، قَالَ: أَتَيْتُ النَّبِيَّ ﷺ، فَقُلْتُ: يَا رَسُولَ اللهِ، إِنَّا بِأَرْضِ قَوْمٍ مِنْ أَهْلِ

= استصغر يوم بدر، وأجيز يوم أحد فخرج بها وشهد ما بعدها، أصابه سهم في ترقوته، وقيل: ثَندوتُه (لحم الثدي وقيل: اللحم الذي حول الثدي)، فنزع السهم وبقي النصل إلى أن مات، انتقضت جراحته أيام عبد الملك بن مروان سنة أربع وسبعين، وهو ابن ست وثمانين سنة، وقيل: مات سنة ثلاث وسبعين.

● انظر: «الإصابة» (٢٥٣٢)، و«الاستيعاب» (٧٢٤)، و«أسد الغابة» (١٥٨٠).

(١) «مُدًى»: جمع مدية وهي السكين. «النهاية» (٢/ ٦٤٥).

(٢) أي: إلا السن والظفر؛ كما في الرواية الأولى للبخاريِّ (برقم:٥٥٠٦).

(٣) أي: عن سبب نهي الذبح فيهما.

(٤) هذا الذبح كان يفعله أهل الجاهلية؛ فكانوا - أحيانًا- يذبحون الطيور، كالعصفور، والحيوانات الصغيرة، كالأرنب ونحوه، بالسن أو الظفر، فلما جاء الإسلام حظر هذا الذبح وحرمه؛ كما تراه في هذا الحديث.

(٥) أخرجه البخاريُّ، كتاب الذبائح والصيد، باب صيد القوس (٥٤٧٨)، وباب ما جاء في التصيد (٥٤٨٧)، وباب آنية المجوس والميتة (٥٤٩٦)، وقد جمعتُ بين رواياته في اللفظ المذكور، ومسلمٌ، كتاب الصيد والذبائح، باب الصيد بالكلاب المعلمة (١٩٣٠).

(٦) هو أبو ثعلبة الخشني؛ اختلف في اسمه واسم أبيه اختلافًا كثيرًا؛ فقيل: جرهم، وقيل: جرثوم وجرثومة بن ناشب، وقيل: ابن ناشم... غلبت عليه كنيته، وكان ممن بايع تحت الشجرة بيعة الرضوان، ثم نزل الشام ومات أيام معاوية، وقيل: توفي سنة خمس وسبعين أيام عبد الملك بن مروان.

● راجع: «الإصابة» (٩٦٧٢)، و«أسد الغابة» (٥٧٥٢)، و«الاستيعاب» (٥٨).

كِتَابٍ(١)، أَفَنَأْكُلُ فِي آنِيَتِهِمْ(٢)؟ وَبِأَرْضِ صَيْدٍ، أَصِيدُ بِقَوْسِي، وَبِكَلْبِي الَّذِي لَيْسَ بِمُعَلَّمٍ، وَبِكَلْبِي الْمُعَلَّمِ فَمَا يَصْلُحُ لِي؟ قَالَ: «أَمَّا مَا ذَكَرْتَ مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ، فَلَا تَأْكُلُوا فِي آنيتهم(٣) وَإِنْ لَمْ تَجِدُوا بُدًّا(٤)، فَاغْسِلُوهَا وَكُلُوا فِيهَا. وَأَمَّا مَا ذَكَرْتَ أَنَّكَ بِأَرْضِ صَيْدٍ، فَمَا صِدْتَ بِقَوْسِكَ فَذَكَرْتَ اسْمَ اللهِ فَكُلْ(٥). وَمَا صِدْتَ بِكَلْبِكَ الْمُعَلَّمِ فَذَكَرْتَ اسْمَ اللهِ، فَكُلْ(٦)، وَمَا صِدْتَ بِكَلْبِكَ الَّذِي لَيْسَ بِمُعَلَّمٍ فَأَدْرَكْتَ ذَكَاتَهُ فَكُلْ»(٧).

وَرَوَى الْإِمَامُ مَالِكٌ فِي «الْمُوَطَّأِ»، وَأَبُو دَاوُدَ(٨) وَاللَّفْظُ لَهُ، عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ ﷺ

---

(١) كان أبو ثعلبة - هو وقومه بنو خشين من العرب - الذين يسكنون الشام.

(٢) سبب سؤاله عن الأكل في آنية أهل الكتاب: أنهم يطبخون فيها الخنزير، ويشربون فيها الخمر، كما وَرَدَ ذِكْرُهُ صريحًا في رواية أبي داود.

(٣) لنجاستها بطبخهم فيها الخنزير، وشربهم فيها الخمر، وكلٌّ من الخنزير والخمر نجس، فتنجس الأواني بحلوله فيها.

(٤) أي: لا تجدوا سواها، فاغسلوها ثم كلوا أو اشربوا فيها.

(٥) أي: إذا ذكرت اسم الله عند رميك القوس، فكُل الصيد؛ لحلِّه بالتسمية عند رميك له.

(٦) أي: إذا سميت الله عَلَى الصيد عند إشلائك الكلب المعلم وإرسالك إياه عَلَى الصيد، فكُلْه؛ لحلِّه بالتسمية عليه عند إرسال الكلب المعلم.

(٧) أي: صيدُ الكلب الذي ليس بمعلم، لا يحل أكله إلا إذا أدركته قبل أن يموت، فذكيته أي ذبحته، فحينئذٍ يحل لك أكله.
قال الحافظ ابن حجر في «فتح الباري» (٩/ ٥٢٣): «وفي هذا الحديث من الفوائد: جمع المسائل وإيرادها دفعة واحدة، وتفصيل الجواب عنها واحدة واحدة بلفظ أمّا وأمّا». انتهى.

(٨) أخرجه مالك في «الموطأ» (١/ ٢٢)، كتاب الطهارة، باب الطهور للوضوء، وأحمد (٢/ ٢٣٧ و٣٩٣)، وابن أبي شيبة (١/ ١٣١)، والدارميُّ (٧٢٩، ٢٠١١)، وأبو داود، كتاب الطهارة، باب الوضوء بماء البحر (٨٣)، والترمذيُّ، كتاب الطهارة، باب ما جاء في ماء البحر أنه طهور (٦٩)، وقال: «حسن صحيح»، وابن ماجه، كتاب الطهارة، باب الوضوء بماء البحر (٣٨٦) و(٣٢٤٦)، والنسائيُّ (١/ ٥٠ و١٧٦) و(٧/ ٢٠٢)، وفي «الكبرى» (٥٨، ٤٨٤٣)، وصحَّحه الألبانيُّ في «الصحيحة» (٤٨٠)
=

قَالَ: سَأَلَ رَجُلٌ - مِنْ بَنِي مُدْلِجٍ - النَّبِيَّ ﷺ؛ فَقَالَ: يَا رَسُولَ الله، إِنَّا نَرْكَبُ الْبَحْرَ، وَنَحْمِلُ مَعَنَا الْقَلِيلَ مِنَ الْمَاءِ (١) فَإِنْ تَوَضَّأْنَا بِهِ عَطِشْنَا، أَفَنَتَوَضَّأُ بِمَاءِ الْبَحْرِ؟ فَقَالَ رَسُولُ الله ﷺ: «**هُوَ الطَّهُورُ مَاؤُهُ** (٢) **الْحِلُّ مَيْتَتُهُ** (٣)».

فَأَجَابَ النَّبِيُّ ﷺ السَّائِلَ - هُنَا - بِأَكْثَرَ مِمَّا سَأَلَ؛ فَقَدْ سَأَلَهُ الْمُدْلِجِيُّ الْبَحَّارُ عَنْ حُكْمِ التَّوَضُّؤِ بِمَاءِ الْبَحْرِ؛ فَأَجَابَهُ ﷺ بِصِحَّةِ وُضُوئِهِ بِهَذَا الْمَاءِ، وَزَادَهُ عَلَى ذَلِكَ أَنَّ مَيْتَةَ الْبَحْرِ حَلَالٌ أَكْلُهَا؛ وَذَلِكَ لاحْتِيَاجِ الْبَحَّارِ إِلَى مَعْرِفَةِ ذَلِكَ.

كَمَا كَانَ ﷺ يُحَوِّلُ السَّائِلَ عَنْ سُؤَالِهِ وَيَلْفِتُهُ إِلَى شَيْءٍ آخَرَ أَكْثَرَ فَائِدَةً، وَأَعْظَمَ نَفْعًا وَأَهَمِّيَّةً، وَزِيَادَةً فِي الجَوَابِ عَمَّا سَأَلَ؛ فَمِنْ ذَلِكَ:

مَا رَوَاهُ الْبُخَارِيُّ وَمُسْلِمٌ (٤)، وَاللَّفْظُ لِلْبُخَارِيِّ، عَنْ أَنَسٍ رضي الله عنه: أَنَّ رَجُلًا سَأَلَ النَّبِيَّ ﷺ مَتَى السَّاعَةُ يَا رَسُولَ الله؟ قَالَ: «**مَا أَعْدَدْتَ لَهَا؟**»، قَالَ: مَا أَعْدَدْتُ لَهَا مِنْ كَثِيرِ صَلَاةٍ وَلَا صَوْمٍ وَلَا صَدَقَةٍ، وَلَكِنِّي أُحِبُّ الله وَرَسُولَهُ، قَالَ: «**أَنْتَ مَعَ مَنْ أَحْبَبْتَ**».

وَهُنَا دَلَّهُ النَّبِيُّ ﷺ إِلَى مَا هُوَ أَحْوَجُ إِلَيْهِ، وَأَعْظَمُ نَفْعًا مِمَّا سَأَلَ عَنْهُ.

=

و«الإرواء» (١/ ٤٢).

(١) أي: الماء العذب ليشربوه.

(٢) أي: ماؤه بالغ في الطهارة أتمها.

(٣) أي: الحلال.

(٤) أخرجه البخاريُّ، كتاب فضائل الصحابة، باب مناقب عمر بن الخطاب (٣٦٨٨)، وفي كتاب الأدب، باب علامة الحب في الله (٦١٧١)، وفي كتاب الأحكام، باب القضاء والفتيا في الطريق (٧١٥٣)، ومسلمٌ، كتاب البر والصلة، باب المرء مع من أحب (٢٦٣٩).

وَمِنْ هَذَا الْبَابِ أَيْضًا؛ **مَا رَوَاهُ الْبُخَارِيُّ وَمُسْلِمٌ** (١)، عَنِ ابْنِ عُمَرَ رضي الله عنهما: أَنَّ رَجُلاً سَأَلَ النَّبِيَّ ﷺ؛ فَقَالَ: مَا يَلْبَسُ الْمُحْرِمُ؟ فَقَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: «**لاَ يَلْبَسُ الْقَمِيصَ، وَلاَ الْعِمَامَةَ، وَلاَ السَّرَاوِيلَ، وَلاَ الْبُرْنُسَ، وَلاَ ثَوْبًا مَسَّهُ الْوَرْسُ، أَوِ الزَّعْفَرَانُ؛ فَإِنْ لَمْ يَجِدِ النَّعْلَيْنِ، فَلْيَلْبَسِ الْخُفَّيْنِ، وَلْيَقْطَعْهُمَا؛ حَتَّى يَكُونَا تَحْتَ الْكَعْبَيْنِ**».

فَأَنْتَ تَرَى أَنَّ الرَّسُولَ ﷺ سُئِلَ عَمَّا يَلْبَسُ الْمُحْرِمُ، فَأَجَابَ بِبَيَانِ مَا لَا يَلْبَسُهُ الْمُحْرِمُ، وَتَضَمَّنَ ذَلِكَ الْجَوَابَ عَمَّا يَلْبَسُهُ، فَإِنَّ مَا لَا يَلْبَسُهُ الْمُحْرِمُ مَحْصُورٌ، وَمَا يَلْبَسُهُ غَيْرُ مَحْصُورٍ، فَعَدَلَ عَمَّا لَا يَنْحَصِرُ تَعْدَادُهُ إِلَى مَا يَنْحَصِرُ؛ طَلَبًا لِلْإِيجَازِ، وَلَوْ عَدَّدَ لَهُ مَا يَلْبَسُ لَطَالَ بِهِ الْبَيَانُ، وَرُبَّمَا يَصْعُبُ عَلَى السَّائِلِ ضَبْطُهُ وَاسْتِيعَابُهُ.

ثُمَّ بَيَّنَ لَهُ ﷺ زِيَادَةً عَمَّا سَأَلَ: حُكْمَ لُبْسِ الْخُفِّ عِنْدَ عَدَمِ وُجُودِ النَّعْلِ، فَزَادَهُ بَيَانَ حَالَةِ الاضْطِرَارِ هَذِهِ، وَهِيَ مِمَّا يَتَّصِلُ بِالسُّؤَالِ؛ فَقَالَ: «**فَإِنْ لَمْ يَجِدِ النَّعْلَيْنِ فَلْيَلْبَسِ الْخُفَّيْنِ وَلْيَقْطَعْهُمَا حَتَّى يَكُونَا تَحْتَ الْكَعْبَيْنِ**».

وَمِنْ هَذَا الْقَبِيلِ أَيْضًا: مَا رَوَاهُ الْبُخَارِيُّ وَمُسْلِمٌ (٢)، وَاللَّفْظُ لَهُ، عَنْ أَبِي مُوسَى الْأَشْعَرِيِّ رضي الله عنه: **أَنَّ رَجُلاً أَعْرَابِيًّا أَتَى النَّبِيَّ ﷺ**؛ فَقَالَ: يَا رَسُولَ اللهِ، الرَّجُلُ يُقَاتِلُ لِلْمَغْنَمِ، وَالرَّجُلُ يُقَاتِلُ لِيُذْكَرَ (٣)، وَالرَّجُلُ يُقَاتِلُ لِيُرَى مَكَانُهُ (٤)؛

---

(١) أخرجه البخاريُّ، كتاب العلم، باب من أجاب السائل بأكثر مما سأله (١٣٤)، ومسلمٌ، كتاب الحج، باب ما يباح للمحرم بحج أو عمرة (١١٧٧).

(٢) أخرجه البخاريُّ، كتاب العلم، باب من سأل - وهو قائم - عالمًا جالسًا (١٢٣)، وفي كتاب الجهاد، باب من قاتل لتكون كلمة الله هي العليا (٢٨١٠)، وباب من قاتل للمغنم هل ينقص من أجره؟ (٣١٢٦)، ومسلمٌ، كتاب الإمارة، باب من قاتل لتكون كلمة الله هي العليا فهو في سبيل الله (١٩٠٤).

(٣) أي: ليُذكر بين الناس بالشجاعة والبطولة.

(٤) أي: ليُري الناس أنه شجاع وقوي؛ فمرجع هذا الفعل إلى الرياء، ومرجع الفعل الذي =

فَمَنْ فِي سَبِيلِ الله؟ فَقَالَ رَسُولُ الله ﷺ: «**مَنْ قَاتَلَ لِتَكُونَ كَلِمَـةُ الله أَعْلَـى** [١]؛ **فَهُوَ فِي سَبِيلِ الله**» [٢].

فَفِي هَذَا الْحَدِيثِ عُدُولُ الرَّسُولِ ﷺ عَنِ الْجَوَابِ عَنْ عَيْنِ مَا سَأَلَ السَّائِلُ عَنْهُ إِلَى غَيْرِهِ؛ إِذْ كَانَ لَا يَصْلُحُ أَنْ يُجَابَ عَمَّا سَأَلَ عَنْهُ بِنَعَمْ أَوْ لَا، فَقَدْ عَدَلَ عَنْ جَوَابِهِ عَنْ مَاهِيَّةِ الْقِتَالِ الَّتِي يَسْأَلُ عَنْهَا، إِلَى بَيَانِ حَالِ الْمُقَاتِلِ، وَأَفَادَهُ أَنَّ الْعِبْـرَةَ بِخُلُوصِ النِّيَّةِ وَالْقَصْدِ.

وَفِي إِجَابَةِ الرَّسُولِ ﷺ بِمَا ذُكِرَ «مَنْ قَاتَلَ؛ لِتَكُونَ كَلِمَةُ الله هِيَ الْعُلْيَا؛ فَهُوَ فِي سَبِيلِ الله» غَايَةُ الْبَلَاغَةِ وَالْإِيجَازِ، وَقَدْ عُدَّ هَذَا الْحَـدِيثُ مِـنْ جَوَامِـعِ كَلِمِـهِ ﷺ؛ لِأَنَّهُ لَوْ أَجَابَ بِأَنَّ جَمِيعَ مَا ذَكَرَهُ لَيْسَ فِي سَبِيلِ الله، احْتَمَلَ أَنَّ مَا عَدَا ذَلِكَ

= قبله إلى السمعة والشهرة، وكلاهما مذموم، وفي رواية عند البخاريِّ (١/ ١٩٧): «ويقاتل غضبًا» أي: لأجل حَظِّ نفسه، «ويقاتل حمية» أي: لمن يقاتل لأجله، من أهل أو عشيرة أو صاحب أو جار.

ولما كان كلٌّ من هذه المقاصد في القتال يتناوله المدح والذم بحسب الباعث الأول، لم يجبه رسول الله ﷺ بنعم أوْلا؛ **قال الحافظ ابن حجر في «فتح الباري»** (٦/ ٢٢): «فإذا كان أصْلُ الباعثِ الصرفِ عَلَى القتال هو إعلاء كلمة الله، فلا يضره ما عرض له بعد ذلك، والمحذور أن يقصد غير الإعلاء - قصدًا أوليًّا.

وَيَدُلُّ عَلَـى أَنَّ دُخُول غَيْر الْإِعْلَاء ضِمْنًا، لَا يَقْدَح فِي الْإِعْلَاء إِذَا كَانَ الْإِعْلَاء هُوَ الْبَاعِثَ الْأَصْلِيَّ: مَا رَوَاهُ أَبُو دَاوُدَ بِإِسْنَادٍ حَسَن عَنْ عَبْد الله بْن حَوَالَة، قَالَ: بَعَثَنَا رَسُول الله ﷺ عَلَـى أَقْدَامنَا لِنَغْنَم، فَرَجَعْنَا وَلَمْ نَغْنَم شَيْئًا؛ فَقَالَ: اللَّهُمَّ لَا تَكِلْهُمْ إِلَيَّ فَأَضْعُفُ عَنْهُم، وَلَا تَكِلْهُم إِلَى أَنْفُسِهِمْ، فَيَعْجَزُوا عَنْهَا.. الْحَدِيث». انتهى.

(١) هكذا رواية مسلم، ورواية البخاريِّ: «**لِتَكُونَ كَلِمَةُ الله هِيَ الْعُلْيَا**»، و«العليا» تأنيث «أعلَـى»، و«كلمةُ الله» هي دَعْوَة الله إلى الإسلام، ودينه وشريعته.

(٢) وفي هذا الحديث من الأمور التعليمية: جوازُ سؤال المتعلم عن علة الحكم؛ لقوله: «فمن في سبيل الله؟» وتقديم تحصيل العلم عَلَى الدخول في العمل؛ إذ المطلوب من المسلم أن يعلم، ليكون عمله عَلَى بصيرة وهدى من الشرع الحنيف.

كُلِّهِ فِي سَبِيلِ الله، وَلَيْسَ كَذَلِكَ، وَقَدْ يَكُونُ الْغَضَبُ وَالْحَمِيَّةُ للهِ فَيَكُونُ ذَلِكَ فِي سَبِيلِ الله، فَعَدَلَ ﷺ إِلَى لَفْظٍ جَامِعٍ لِمَعْنَى السُّؤَالِ وَالزِّيَادَةِ عَلَيْهِ، فَأَفَادَ دَفْعَ الالْتِبَاسِ، وَزِيَادَةَ الإِفْهَامِ.

ꕥ ◊ ꕥ

المَبْحَثُ الثَّاني والعِشْرُونَ
أمْرُهُ ﷺ بَعْضَ صَحَابَتِهِ بِتَعَلُّمِ بَعْضِ اللُّغَاتِ

رَوَى الْبُخَارِيُّ - مُعَلَّقًا- وَالتِّرْمِذِيُّ (١) وَاللَّفْظُ لَهُ، عَنْ زَيْدِ بْنِ ثَابِتٍ رضي الله عنه(٢) قَالَ: أَمَرَنِي رَسُولُ اللهِ ﷺ أَنْ أَتَعَلَّمَ لَهُ كَلِمَاتٍ مِنْ كِتَابِ يَهُودَ، وقَالَ: إِنِّي وَاللهِ مَا آمَنُ يَهُودَ عَلَى كِتَابِي، قَالَ: فَمَا مَرَّ بِي نِصْفُ شَهْرٍ حَتَّى تَعَلَّمْتُهُ لَهُ، قَالَ: فَلَمَّا تَعَلَّمْتُهُ كَانَ إِذَا كَتَبَ إِلَى يَهُودَ كَتَبْتُ إِلَيْهِمْ، وَإِذَا كَتَبُوا إِلَيْهِ قَرَأْتُ لَهُ كِتَابَهُمْ.

فَاسْتِخْدَامُ اللُّغَاتِ الْأَجْنَبِيَّةِ فِي مَجَالِ التَّعْلِيمِ وَالدَّعْوَةِ وَالتَّبْلِيغِ، عِنْدَ الْحَاجَةِ إِلَيْهَا مِمَّا ثَبَتَ مِنْ هَدْيِ النَّبِيِّ ﷺ، وَهُوَ أَحَدُ أَسَالِيبِ النَّبِيِّ ﷺ فِي التَّعْلِيمِ.

---

(١) أخرجه البخاريُّ، كتاب الأحكام، باب ترجمة الحكام، وهل يجوز ترجمان واحد؟ تعليقًا بصيغة الجزم (٧١٩٥)، ووصله في «التاريخ الكبير» (٢/ ١: ٣٨٠- ٣٨٢)، وكذا الترمذيُّ، كتاب الاستئذان والآداب، باب في تعلم السريانية (٢٧١٥)، وقال: «هذا حديث حسن صحيح، وقد رواه الأعمشُ عن ثابت بن عُبيد، عن زيد بن ثابت يقول: «أَمَرَنِي رَسُولُ اللهِ ﷺ أَنْ أَتَعَلَّمَ السُّريانيَّة».

(٢) هو زيد بن ثابت بن الضحاك بن زيد بن لوذان بن عمرو بن عوف بن غنم بن مالك بن النجار الأنصاريُّ الخزرجيُّ أبو سعيد، وقيل: أبو ثابت، وقيل: غير ذلك في كنيته، استصغر يوم بدر، ويقال: إنه شهد أحدًا، ويقال: أول مشاهده الخندق، وكانت معه راية بني النجار يوم تبوك، وكان من علماء الصحابة، وهو الذي تولى قسم غنائم اليرموك، وكان يكتب لرَسُول الله ﷺ الوحي، وكان من أعلم الصحابة بالفرائض. توفي سنة خمس وأربعين: وقيل: ثلاث وأربعون، وقيل: سنة إحدى وخمسين، وقيل: خمس وخمسون.

● راجع: «الاستيعاب» (٨٣٧)، و«أسد الغابة» (١٨٢٤)، و«الإصابة» (٢٨٨٧).

ثُمَّ اللُّغَاتُ الْيَوْمَ مِفْتَاحُ الْعُلُومِ الْكَوْنِيَّةِ الَّتِي أَصْبَحَتْ ضَرُورِيَّةً، لِمُجَارَاةِ الْعَجَمِ وَالْغَرْبِ، وَالتَّرَقِّي بَيْنَ الْأُمَمِ، وَصَارَتْ مِفْتَاحًا لِلتَّعَارُفِ الَّذِي أَصْبَحَ ضَرُورِيًّا لِلْعَيْشِ، وَأَمْنِ الْإِنْسَانِ عَلَى حُقُوقِهِ حِينَ الِاخْتِلَاطِ.

بِقَدْرِ لُغَاتِ الْمَرْءِ يَكْثُرُ نَفْعُهُ	وَتِلْكَ لَهُ عِنْدَ الْمُلِمَّاتِ أَعْوَانُ
فَبَادِرْ إِلَى حِفْظِ اللُّغَاتِ مُسَارِعًا	فَكُلُّ لِسَانٍ فِي الْحَقِيقَةِ إِنْسَانُ (١)

⁂

(١) البيتان لصفي الدين الحلي؛ كما في «ديوانه» (١٢١٢).

المَبْحَثُ الثَّالِثُ وَالعِشْرُونَ
غَضَبُهُ ﷺ فِي المَوْعِظَةِ وَالتَّعْلِيمِ إِذَا رَأَى مَا يَكْرَهُ

لَمْ يَكُنِ النَّبِيُّ ﷺ يَنْتَقِمُ لِنَفْسِهِ، وَلَكِنْ إِذَا انْتُهِكَتْ حُرُمَاتُ اللهِ لَمْ يَقُمْ لِغَضَبِهِ شَيْءٌ؛ فَلَا يُقِرُّ أَحَدًا عَلَى خَطَأٍ، وَلَا يُجَامِلُ حَتَّى أَقْرَبَ النَّاسِ إِلَيْهِ. وَقَدْ أَظْهَرَ الغَضَبَ فِي مَوَاقِفَ عَدِيدَةٍ، لِيَكُونَ أَوْكَدَ فِي الزَّجْرِ عَنْهَا [1]؛ فَفِي «**الصَّحِيحَيْنِ**»[2] مِنْ حَدِيثِ عَائِشَةَ رضي الله عنها قَالَتْ: «.. وَمَا انْتَقَمَ رَسُولُ اللهِ ﷺ لِنَفْسِهِ إِلَّا أَنْ تُنْتَهَكَ حُرْمَةُ اللهِ، فَيَنْتَقِمَ للهِ بِهَا».

قَالَ الحَافِظُ ابْنُ رَجَبٍ رحمه الله[3]:

«وَكَانَ ﷺ إِذَا رَأَى، أَوْ سَمِعَ مَا يَكْرَهُهُ اللهُ، غَضِبَ لِذَلِكَ، وَقَالَ فِيهِ، وَلَمْ يَسْكُتْ».

لَكِنْ لَا يُخْرِجُهُ الغَضَبُ عَنْ حَدِّ الاعْتِدَالِ، وَلَا يُخْرِجُهُ عَنِ الحَقِّ؛ قَالَ ابْنُ رَجَبٍ: «وَهَذَا عَزِيزٌ جِدًّا، وَهُوَ أَنَّ الإِنْسَانَ لَا يَقُولُ سِوَى الْحَقِّ سَوَاءً غَضِبَ أَوْ رَضِيَ؛ فَإِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ إِذَا غَضِبَ لَا يَتَوَقَّفُ فِيمَا يَقُولُ».

وَكَانَ ﷺ يَغْضَبُ الْغَضَبَ الشَّدِيدَ إِذَا جَاوَزَ الْمُتَعَلِّمُ بِبَحْثِهِ وَسُؤَالِهِ إِلَى مَا

---

(١) «الفتح» (١٠/ ٥٣٤).

(٢) أخرجه البخاريُّ، كتاب المناقب، باب صفة النبي ﷺ (٣٥٦٠)، ومسلمٌ، كتاب الفضائل، باب مباعدته ﷺ للآثام واختياره من المباح أسهله وانتقامه لله عند انتهاك حرماته (٢٣٢٧).

(٣) «جامع العلوم والحكم» (ص: ٣٦٩ و٣٧٢).

لَا يَنْبَغِي السُّؤَالُ عَنْهُ وَالدُّخُولُ فِيهِ، وَمِنْ ذَلِكَ **مَا رَوَاهُ ابْنُ مَاجَه** [(١)] مِنْ حَدِيثِ عَبْدِ اللهِ بْنِ عَمْرِو ابْنِ الْعَاصِ رضي الله عنهما قَالَ: خَرَجَ رَسُولُ اللهِ ﷺ عَلَى أَصْحَابِهِ وَهُمْ يَخْتَصِمُونَ فِي الْقَدَرِ، فَكَأَنَّمَا يُفْقَأُ فِي وَجْهِهِ حَبُّ الرُّمَّانِ مِنَ الْغَضَبِ [(٢)]؛ فَقَالَ: «**بِهَذَا أُمِرْتُمْ؟! أَوْ لِهَذَا خُلِقْتُمْ؟!** [(٣)] **تَضْرِبُونَ الْقُرْآنَ بَعْضَهُ بِبَعْضٍ، بِهَذَا هَلَكَتِ الْأُمَمُ قَبْلَكُمْ**» [(٤)].

قَالَ: فَقَالَ عَبْدُ اللهِ بْنُ عَمْرٍو: مَا غَبَطْتُ نَفْسِي بِمَجْلِسٍ تَخَلَّفْتُ فِيهِ عَنْ رَسُولِ اللهِ ﷺ مَا غَبَطْتُ نَفْسِي بِذَلِكَ الْمَجْلِسِ وَتَخَلُّفِي عَنْهُ [(٥)].

---

(١) أخرجه ابن ماجه، في المقدمة، باب في القدر (٨٥)؛ قال البوصيريُّ في «مصباح الزجاجة» (١/ ٥٣): «هذا إسنادٌ صحيحٌ، رجالُه ثقات»، وأحمد (٢/ ١٧٨ و١٨١ و١٨٥ و١٩٥ و١٩٦)، والبخاريُّ في «خلق أفعال العباد» (٣٠)، وحَسَّنه الألبانيُّ في «ظلال الجنة» (٤٠٦).

(٢) أي: فغضب فاحمر وجهه احمرارًا يشبه فقأ حب الرمان في وجهه، وهذا كناية عن مزيد حمرة وجهه الشريف المنبئة عن مزيد غضبه، وإنما غضب لأن القدر سرٌّ من أسرار الله تعالى، وطلب سر الله منهيٌّ عنه، ولأن من يبحث فيه لا يأمن من أن تزل قدمه كما زلت الجبرية والقدرية.
والعبادُ مأمورون بقبول ما أمرهم الشرعُ من غير أن يطلبوا سرَّ ما لا يجوز طلب سره.

(٣) أي: للخوض في بحث القدر والاختصام فيه؟! هل هو المقصود من خلقكم! أو هو الذي وقع التكليف به؟ حتى اجترأتم عليه! يريد أنه ليس بشيء من الأمرين؛ فأي حاجة إليه؟!

(٤) في رواية عند أحمد (٢/ ١٩٦) ما يُوضح المراد من هذه الرواية، ففيها: «... فَقَالَ بَعْضُهُمْ: أَلَمْ يَقُلِ اللهُ كَذَا وَكَذَا؟ وَقَالَ بَعْضُهُمْ: أَلَمْ يَقُلِ اللهُ كَذَا وَكَذَا؟ فَسَمِعَ ذَلِكَ رَسُولُ اللهِ ﷺ فَخَرَجَ كَأَنَّمَا فُقِئَ فِي وَجْهِهِ حَبُّ الرُّمَّانِ فَقَالَ: «**بِهَذَا أُمِرْتُمْ؟! أَوْ بِهَذَا بُعِثْتُمْ؟! أَنْ تَضْرِبُوا كِتَابَ اللهِ بَعْضَهُ بِبَعْضٍ، إِنَّمَا ضَلَّتِ الْأُمَمُ قَبْلَكُمْ فِي مِثْلِ هَذَا، إِنَّكُمْ لَسْتُمْ مِمَّا هَا هُنَا فِي شَيْءٍ، انْظُرُوا الَّذِي أُمِرْتُمْ بِهِ فَاعْمَلُوا بِهِ، وَالَّذِي نُهِيتُمْ عَنْهُ فَانْتَهُوا**».

(٥) أي: ما استحسنتُ فعل نفسي وتغيبي مرة غبتها عن مجلس رَسُول الله ﷺ إلا في هذا المجلس الذي اشتدَّ فيه غضب رَسُول الله ﷺ على ولوج أصحابه فيما لا يعنيهم.

وَمَا رَوَاهُ التِّرْمِذِيُّ (١) عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ رضي الله عنه قَالَ: خَرَجَ عَلَيْنَا رَسُولُ اللهِ ﷺ وَنَحْنُ نَتَنَازَعُ فِي الْقَدَرِ، فَغَضِبَ حَتَّى احْمَرَّ وَجْهُهُ، حَتَّى كَأَنَّمَا فُقِئَ فِي وَجْنَتَيْهِ الرُّمَّانُ؛ فَقَالَ: **«أَبِهَذَا أُمِرْتُمْ؟! أَمْ بِهَذَا أُرْسِلْتُ إِلَيْكُمْ؟! إِنَّمَا هَلَكَ مَنْ كَانَ قَبْلَكُمْ حِينَ تَنَازَعُوا فِي هَذَا الأَمْرِ، عَزَمْتُ عَلَيْكُمْ، عَزَمْتُ عَلَيْكُمْ (٢)، أَلاَّ تَتَنَازَعُوا فِيهِ»**.

وَتَارَةً كَانَ ﷺ يَنْكِرُ بِيَدِهِ إِذَا غَضِبَ؛ فَفِي **«الصَّحِيحَيْنِ»**(٣) مِنْ حَدِيثِ **عَائِشَةَ** رضي الله عنها قَالَتْ: دَخَلَ عَلَيَّ رَسُولُ اللهِ ﷺ وَأَنَا مُتَسَتِّرَةٌ بِقِرَامٍ فِيهِ صُورَةٌ، فَتَلَوَّنَ وَجْهُهُ، ثُمَّ تَنَاوَلَ السِّتْرَ فَهَتَكَهُ، ثُمَّ قَالَ: **«إِنَّ مِنْ أَشَدِّ النَّاسِ عَذَابًا يَوْمَ الْقِيَامَةِ، الَّذِينَ يُشَبِّهُونَ بِخَلْقِ اللهِ»**.

وَأَنْكَرَ عَلَى الإِمَامِ الَّذِي أَطَالَ الصَّلَاةَ بِالنَّاسِ، وَغَضِبَ أَشَدَّ الغَضَبِ؛ فَفِي **«الصَّحِيحَيْنِ»**(٤) مِنْ حَدِيثِ أَبِي مَسْعُودٍ الأَنْصَارِيِّ رضي الله عنه قَالَ: قَالَ رَجُلٌ: يَا رَسُولَ اللَّهِ إِنِّي لَأَتَأَخَّرُ عَنِ الصَّلَاةِ فِي الفَجْرِ مِمَّا يُطِيلُ بِنَا فُلَانٌ فِيهَا، فَغَضِبَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ، مَا رَأَيْتُهُ غَضِبَ فِي مَوْضِعٍ كَانَ أَشَدَّ غَضَبًا مِنْهُ يَوْمَئِذٍ، ثُمَّ قَالَ: **«يَا أَيُّهَا النَّاسُ، إِنَّ مِنْكُمْ مُنَفِّرِينَ، فَمَنْ أَمَّ النَّاسَ فَلْيَتَجَوَّزْ، فَإِنَّ خَلْفَهُ الضَّعِيفَ وَالكَبِيرَ وَذَا الحَاجَةِ»**.

وَقَدْ بَوَّبَ الإِمَامُ البُخَارِيُّ رحمه الله لِهَذَا الحَدِيثِ فِي مَوْضِعٍ مِنْ مَوَاضِعِ **«صَحِيحِهِ»** بَابًا بِعُنْوَانِ: «بَابُ الغَضَبِ فِي المَوْعِظَةِ وَالتَّعْلِيمِ، إِذَا رَأَى مَا

---

(١) أخرجه الترمذيُّ في أول أبواب القدر (٢١٣٣)، وأبو يعلى في «مسنده» (٦٠٤٥)، وحسَّنه الألباني في «صحيح سنن الترمذي».

(٢) أي: أقسمت عليكم، أو أوجبت عليكم. انظر: «مرعاة المفاتيح شرح مشكاة المصابيح» (١/ ٤٦٢) للمباركفوري.

(٣) أخرجه البخاريُّ، كتاب اللباس، باب ما وطئ من التصاوير (٥٩٥٤)، ومسلمٌ، كتاب اللباس والزينة، باب تحريم تصوير صورة الحيوان و.. (٢١٠٧) (٩١) واللفظ له.

(٤) أخرجه البخاريُّ، كتاب الأدب، باب ما يجوز من الغضب والشدة لأمر الله (١٠/ ٦)، ومسلمٌ، كتاب الصلاة، باب أمر الأئمة بتخفيف الصلاة في تمام (٤٦٦).

يَكْرَهُ»(١).

فَهَذِهِ نَمَاذِجُ مِنْ أَسَالِيبِ التَّعْلِيمِ سَلَكَهَا وَأَرْشَدَ إِلَيْهَا رَسُولُ اللهِ ﷺ أَوْرَدْتُهَا عَلَى سَبِيلِ الذِّكْرِ وَالبَيَانِ، لَا عَلَى سَبِيلِ الاسْتِقْصَاءِ وَالحَصْرِ.

وَالمُتَتَبِّعُ لَحَدِيثِ رَسُولِ اللهِ ﷺ وَسِيرَتِهِ العَطِرَةِ سَيَقِفُ عَلَى الكَثِيرِ مِمَّا يُشَنِّفُ الأَسْمَاعَ، وَيَجْتَذِبُ القُلُوبَ، وَيُحَرِّكُ الأَرْوَاحَ وَالوِجْدَانَ، وَيُطَمْئِنُ النُّفُوسَ، وَيُثَبِّتُ الفُؤَادَ ﴿وَكُلًّا نَّقُصُّ عَلَيْكَ مِنْ أَنۢبَآءِ ٱلرُّسُلِ مَا نُثَبِّتُ بِهِۦ فُؤَادَكَ﴾[هود: ١٢٠]، ﴿لَقَدْ كَانَ فِى قَصَصِهِمْ عِبْرَةٌ لِّأُو۟لِى ٱلْأَلْبَـٰبِ ۗ مَا كَانَ حَدِيثًا يُفْتَرَىٰ وَلَـٰكِن تَصْدِيقَ ٱلَّذِى بَيْنَ يَدَيْهِ وَتَفْصِيلَ كُلِّ شَىْءٍ وَهُدًى وَرَحْمَةً لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ﴾ [يوسف: ١١١](٢).

فَنَسْأَلُ اللهَ العَلِيَّ القَدِيرَ أَنْ يَرْزُقَنَا الهِدَايَةَ وَالرَّشَادَ، وَالثَّبَاتَ وَالسَّدَادَ، وَأَنْ يَحْشُرَنَا مَعَ سَيِّدِ المُعَلِّمِينَ ﷺ فِي جَنَّاتِ النَّعِيمِ؛ إِنَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ.

❊ ❊ ❊

(١) كتاب العلم، باب (٢٩) (حديث: ٩٠).

(٢) راجع: «الرسول المعلم وأساليبه في التعليم» للشيخ عبد الفتاح أبو غدة غفر الله لنا وله. الناشر: مكتبة المطبوعات الإسلامية (ص: ٦٣ وما بعدها).



الفَصْلُ الخَامِسُ

التَّطْبيقُ العَمَليُّ لِلْمَنْهَجِ النَّبَوِيِّ

فِي الدَّعْوَةِ إِلَى اللَّهِ تَعَالَى

● وَفِيهِ تِسْعَةُ مَبَاحِثَ بَعْدَ تَمْهِيدٍ:

○ المَبْحَثُ الأَوَّلُ: دَعْوَتُهُ ﷺ لِلْمُشْرِكِينَ.

وَفِيهِ مَطْلَبَان:

○ المَطْلَبُ الأَوَّلُ: تَعْرِيفُ الشِّرْكِ.

○ المَطْلَبُ الثَّانِي:

١ـ دَعْوَتُهُ لِلأَقْرَبِين.

٢ - دَعْوَتُهُ فِي الأَسْوَاقِ لأَهْلِ الشِّرْكِ.

٣ - دَعْوَتُهُ لِلقَبَائِل.

٤ - دَعْوَتُهُ لِلأَنْصَار.

٥ - صُمُودُهُ فِي دَعْوَتِهِ.

٦ - دَعْوَتُهُ لِأَهْلِ الطَّائِفِ.

○ المَبْحَثُ الثَّانِي: دَعْوَتُهُ ﷺ لأَهْلِ الْكِتَابِ.

وَفِيهِ مَطْلَبَان:

○ المَطْلَبُ الأَوَّلُ: مَنْ هُمْ أَهْلُ الكِتَابِ.

○ المَطْلَبُ الثَّانِي: كَيْفِيَةُ دَعْوَتِهِ ﷺ لِأَهْلِ الكِتَابِ.

○ المَبْحَثُ الثَّالِثُ: دَعْوَتُهُ ﷺ لِلْمُنَافِقِينَ.

وَفِيهِ مَطْلَبَان:

○ المَطْلَبُ الأَوَّلُ: تَعْرِيفُ النِّفَاقِ.

○ المَطْلَبُ الثَّانِي: تَمْهِيدٌ فِي بَيَانِ خُطُورَةِ النِّفَاقِ وَالْمُنَافِقِينَ، ثُمَّ يَتْلُوهُ: دَعْوَتُهُ ﷺ لأَهْلِ النِّفَاقِ وصبرُه عَلَى أذاهم.

○ المَبْحَثُ الرَّابِعُ: دَعْوَتُهُ ﷺ لِلأَعْرَابِ.

وَفِيهِ مَطْلَبَان:

○ المَطْلَبُ الأَوَّلُ: تَعْرِيفُ الأَعْرَابِ.

○ المَطْلَبُ الثاني: تَمْهِيدٌ، ثُمَّ يَتْلُوهُ دَعْوَتُهُ ﷺ لِلأَعْرَابِ.

○ المَبْحَثُ الْخَامِسُ: دَعْوَتُهُ ﷺ لِلْمُلُوكِ وَالْحُكَّامِ وَالأُمَرَاءِ.

○ المَبْحَثُ السَّادِسُ: دَعْوَتُهُ ﷺ لِلْعُصَاةِ.

وَفِيهِ مَطْلَبَان:

○ المَطْلَبُ الأَوَّلُ: مَنْ هُمُ العُصَاةُ؟

○ المَطْلَبُ الثَّانِي: دَعْوَتُهُ ﷺ لِلْعُصَاةِ وَتَعْلِيمُهُ لَهُمْ.

○ المَبْحَثُ السَّابِعُ: دَعْوَتُهُ ﷺ لِلنِّسَاءِ وَتَعْلِيمُهُ لَهُنَّ.

○ المَبْحَثُ الثَّامِنُ: دَعْوَتُهُ ﷺ لِلأَطْفَالِ وَتَعْلِيمُهُ لَهُمْ.

○ المَبْحَثُ التَّاسِعُ: دَعْوَتُهُ ﷺ الفَرْدِيَّةُ لِلأَشْخَاصِ.

الفَصْلُ الْخَامِسُ

التَّطْبِيقُ الْعَمَلِيُّ لِلْمَنْهَجِ النَّبَوِيِّ فِي الدَّعْوَةِ إِلَى اللهِ تَعَالَى

تَمْهِيدٌ

مُنْذُ اللَّحْظَةِ الْأُولَى الَّتِي نَزَلَ فِيهَا قَوْلُ اللهِ ﷻ: ﴿يَا أَيُّهَا الْمُدَّثِّرُ ۝١ قُمْ فَأَنذِرْ﴾ [المدثر:١، ٢]، لَمْ يَذُقِ النَّبِيُّ ﷺ طَعْمَ الرَّاحَةِ، وَلَمْ يَدَعْ سَبِيلًا مِنْ سُبُلِ الدَّعْوَةِ إِلَى اللهِ جَلَّ وَعَلَا إِلَّا سَلَكَهُ، وَقَامَ للهِ خَيْرَ قِيَامٍ يَحْمِلُ عَلَى عَاتِقِهِ حِمْلًا ثَقِيلًا كَانَ بِالْأَمْسِ الْقَرِيبِ حُلْمًا جَمِيلًا، وَصَارَتِ الدَّعْوَةُ هَمَّهُ بِاللَّيْلِ وَالنَّهَارِ، وَفِكْرَهُ فِي النَّوْمِ وَالْيَقَظَةِ، وَشُغْلَهُ فِي السِّرِّ وَالْعَلَنِ، يُضَحِّي فِي سَبِيلِ إِبْلَاغِهَا بِالْجُهْدِ وَالْوَقْتِ وَالرَّاحَةِ وَالْمَالِ؛ بَلْ بِرُوحِهِ وَدَمِهِ، وَيَسْتَعْذِبُ فِي سَبِيلِ إِبْلَاغِهَا لِلْخَلْقِ كُلَّ مِحْنَةٍ وَبَلَاءٍ، يَصْعَدُ جَبَلًا، وَيَهْبِطُ وَادِيًا، وَيَسْلُكُ كُلَّ الدُّرُوبِ عَلَى قَدَمَيْهِ الْمُتْعَبَتَيْنِ، يَبْحَثُ عَنْ أَمَلٍ، وَيَشُقُّ لِلْإِسْلَامِ نَهَرًا لِلْحَيَاةِ وَسْطَ أَحْجَارٍ صَلْدَةٍ عَاتِيَةٍ، وَيُضِيءُ لِلتَّوْحِيدِ شُعْلَةً فِي أَرْضٍ مُظْلِمَةٍ، وَيَغْرِسُ لِلْحَقِّ شَجَرَةً وَارِفَةَ الظِّلَالِ فِي صَحْرَاءَ مُقْفِرَةٍ، وَرَاحَ بِهِمَّةٍ عَالِيَةٍ وَإِرَادَةٍ صَادِقَةٍ يَخُوضُ بِدَعْوَتِهِ الْكَرِيمَةِ بُحُورًا هَائِجَةً، وَيُوَاجِهُ بِهَا أَمْوَاجًا عَاتِيَةً فِي عَالَمِ النَّفْسِ وَالضَّمِيرِ مَعَ شَهَوَاتٍ ثَقِيلَةٍ، وَشُبُهَاتٍ خَطِيرَةٍ، وَفِي عَالَمِ الْوَاقِعِ الْأَلِيمِ مَعَ الْكُفْرِ وَالْبَاطِلِ وَالضَّلَالِ، وَلَا يَعْرِفُ قَدْرَ هَذَا الْجَهْدِ الْمُضْنِي مِنَ الْبَلَاغِ الْمُتَوَاصِلِ الدَّؤُوبِ الصَّابِرِ الطَّامِحِ إِلَّا مَنْ عَرَفَ حَجْمَ الْبَاطِلِ مِنْ جِهَةٍ، وَحَجْمَ اسْتِعْصَاءِ النَّفْسِ الْبَشَرِيَّةِ إِذَا انْحَرَفَتْ عَنِ اللهِ، وَطَالَ عَلَيْهَا الْأَمَدُ مِنْ جِهَةٍ أُخْرَى.

نَعَمْ؛ فَالْغُرْبَةُ كَبِيرَةٌ مُؤْلِمَةٌ، وَالْأَرْضُ كُلُّهَا يُتْمٌ، وَالْبَشَرِيَّةُ تَئِنُّ مِنَ الْأَلَمِ، وَيَعْصِرُ قَلْبَهَا الْهَمُّ وَالْحُزْنُ! وَأَرْضُ الْجَزِيرَةِ غَابَةٌ مِنَ الْأَصْنَامِ الْبَاطِلَةِ وَالْآلِهَةِ الْمَكْذُوبَةِ! وَالْعَادَاتِ الْقَدِيمَةِ الْبَالِيَةِ؛ فَالْقَوْمُ يَنْحَرُ بَعْضُهُمْ بَعْضًا مِنْ أَجْلِ نَاقَةٍ؛

فَمَا ظَنُّكَ بِمَا سَيَفْعَلُونَهُ مِنْ أَجْلِ آلِهَةٍ مُدَّعَاةٍ يَنْحَرُونَ لَهَا آلَافَ النِّيَاقِ؟!

فَمَاذَا عَسَاهُ يَفْعَلُ الْأَمِينُ الصَّادِقُ ﷺ؟

وَالْإِجَابَةُ كَانَتْ أَكْثَرَ مِنْ ثَلَاثَةٍ وَعِشْرِينَ عَامًا فِي التَّعَامُلِ مَعَ الْخَلْقِ بِحِكْمَةٍ بَالِغَةٍ، وَرَحْمَةٍ جَيَّاشَةٍ، وَتَوَاضُعٍ أَخَّاذٍ، وَأَدَبٍ جَمٍّ، وَصَبْرٍ جَمِيلٍ، عَبَّرَ عَنْهُ ﷺ يَوْمًا بِقَوْلِهِ؛ كَمَا فِي «مُسْنَدِ» أَحْمَدَ، وَ«سُنَنِ» التِّرْمِذِيِّ وَابْنِ مَاجَهْ بِسَنَدٍ صَحِيحٍ[1] مِنْ حَدِيثِ أَنَسٍ رضي الله عنه: **«لَقَدْ أُوذِيتُ فِي اللهِ وَمَا يُؤْذَى أَحَدٌ، وَأُخِفْتُ فِي اللهِ وَمَا يُخَافُ أَحَدٌ، وَلَقَدْ أَتَتْ عَلَيَّ ثَلَاثَةٌ مِنْ بَيْنِ يَوْمٍ وَلَيْلَةٍ وَمَا لِي وَلِبِلَالٍ طَعَامٌ يَأْكُلُهُ ذُو كَبِدٍ؛ إِلَّا مَا يُوَارِي إِبْطُ بِلَالٍ»**!!

وَمَعَ تِلْكَ الْمَرَارَةِ وَالْأَذَى صَبَرَ، وَرَاحَ يَعْرِضُ نَفْسَهُ، وَيُبَلِّغُ دَعْوَتَهُ لِلْأَفْرَادِ، وَالْجَمَاعَاتِ، وَالْقَبَائِلِ؛ ثُمَّ عَلَى أَهْلِ الْكِتَابِ مِنَ الْيَهُودِ وَالنَّصَارَى، وَعَلَى الْأَعْرَابِ؛ وَالْمُنَافِقِينَ؛ بَلْ رَاسَلَ الْمُلُوكَ وَالْحُكَّامَ فِي زَمَانِهِ، وَدَعَاهُمْ إِلَى الْإِسْلَامِ.

وَاسْتَطَاعَ - بِأَبِي وَأُمِّي وَرُوحِي- بِهَذَا الْمَنْهَجِ النَّبَوِيِّ فِي الدَّعْوَةِ فِي مُدَّةٍ لَا تُسَاوِي فِي حِسَابِ الزَّمَنِ شَيْئًا عَلَى الْإِطْلَاقِ، أَنْ يُحَوِّلَ رُعَاةَ الْإِبِلِ وَالْغَنَمِ إِلَى سَادَةٍ لِلدُّوَلِ وَالْأُمَمِ، وَأَنْ يَبْعَثَ الْحَيَاةَ فِي نُفُوسِهِمُ الْمَيِّتَةِ!! وَأَنْ يُدَاوِيَ قُلُوبَهُمُ الْمَرِيضَةَ! وَأَنْ يَجْعَلَ مِنْ هَؤُلَاءِ الْغِلَاظِ الْجُفَاةِ شُمُوسَ حَضَارَةٍ حَقَّةٍ تَمْنَحُ ضِيَاءَهَا لِلْعَالَمِينَ.

---

(١) أخرجه أحمد (٣/ ١٢٠، ٢٨٦)، وعبد بن حميد في «المنتخب» (١٣١٧)، والترمذيُّ، كتاب صفة القيامة، باب (٣٤) حديث رقم (٢٤٧٢)، وقال: «حسن صحيح»، وابن ماجه في المقدمة، باب فضل سلمان وأبي ذر والمقداد (١٥١)، وابن أبي شيبة في «مصنفه» (٧/ ٤٢٤) و(٨/ ٤٤٢)، وأبو نعيم في «الحلية» (١/ ١٥٠) و(٦/ ٢٥٢)، وابن حبان في «صحيحه» (٦٥٦٠)، وأبو يعلى (٣٤٢٣)، والبيهقي في «الشعب» (١٦٣٢)، وصحَّحه الألبانيُّ في «صحيح الجامع» (٥١٢٥)، وصححه على شرطِ مسلمٍ في «الصحيحة» (٥/ ٢٢١) (٢٢٢٢).

وَهَذَا هُوَ الْمَنْهَجُ الْعَمَلِيُّ التَّطْبِيقِيُّ فِي دَعْوَتِهِ ﷺ لَا أُقَدِّمُهُ لِلْإِعْجَابِ السَّالِبِ، وَلَا لِلتَّنْظِيرِ الْبَارِدِ، وَلَا مِنْ أَجْلِ الثَّقَافَةِ الذِّهْنِيَّةِ الْبَاهِتَةِ، كَلَّا.. كَلَّا.

بَلْ أُقَدِّمُهُ؛ لِيَكُونَ مِنْ جَدِيدٍ شُعْلَةً تُوقِدُ شُمُوسَ الْحَيَاةِ، وَدِمَاءً زَكِيَّةً تَتَدَفَّقُ مَرَّةً أُخْرَى فِي عُرُوقِ مُسْتَقْبَلِنَا وَأَجْيَالِنَا؛ لِيَكُونَ مَنْهَجًا عَمَلِيًّا لِكُلِّ السَّالِكِينَ دَرْبَ سَيِّدِ الدُّعَاةِ ﷺ.

فَبِهَذَا الْمَنْهَجِ النَّبَوِيِّ وَحْدَهُ نَسْتَطِيعُ أَنْ نَسْبُرَ أَغْوَارَ النَّفْسِ الْبَشَرِيَّةِ، وَأَنْ نَتَغَلْغَلَ إِلَى أَعْمَاقِهَا؛ لِنُزِيحَ عَنْهَا رُكَامَ الْبَاطِلِ الَّذِي طَمَسَ فِطْرَتَهَا النَّيِّرَةَ، وَلِنُخَلِّصَهَا مِنْ رِقِّ الشَّهَوَاتِ الَّتِي كَبَّلَتْهَا، وَأَلْصَقَتْهَا بِالْأَرْضِ وَالطِّينِ.

وَنُحَرِّرَهَا مِنْ شِبَاكِ الشُّبُهَاتِ الَّتِي أَبْعَدَتْهَا عَنِ الْحَقِّ الْمُبِينِ.

بِهَذَا الْمَنْهَجِ النَّبَوِيِّ وَحْدَهُ نَسْقِي الدُّنْيَا كَأْسَ الْفِطْرَةِ، لِتُرْوَى بَعْدَ ظَمَأٍ، وَتَهْتَدِيَ بَعْدَ ضَلَالٍ.

بِهَذَا الْمَنْهَجِ النَّبَوِيِّ وَحْدَهُ نُمَزِّقُ غِشَاوَةَ الْكُفْرِ وَالْكَيْدِ الشَّيْطَانِيِّ، وَنَرُدُّ النَّاسَ إِلَى الْمَنْهَجِ الرَّبَّانِيِّ.

بِهَذَا الْمَنْهَجِ النَّبَوِيِّ وَحْدَهُ نُقِيمُ حُجَّةَ اللهِ عَلَى الْخَلْقِ: ﴿لِئَلَّا يَكُونَ لِلنَّاسِ عَلَى ٱللَّهِ حُجَّةُۢ بَعْدَ ٱلرُّسُلِ﴾ [النساء: ١٦٥].

❧◇☙

المَبْحَثُ الأَوَّلُ

دَعْوَتُه ﷺ لِلمُشْرِكِيْنَ

(المَطْلَبُ الأَوَّلُ)

تَعْرِيْفُ الشِّرْكِ

الشِّـرْكُ لُغَـةً: هُـوَ بِالْكَسْـرِ وَالسُّـكُونِ، وَالشَّـرِيكُ: الْمُشَـارِكُ؛ كَمَـا قَـالَ الْكَفَوِيُّ(١).

وَقَالَ الرَّاغِبُ (٢): «الشِّرْكَةُ وَالْمُشَارَكَةُ: خَلْطُ الْمِلْكَيْنِ».

وَقَالَ ابْنُ مَنْظُورٍ (٣): «الشِّرْكَةُ وَالشَّرِكَةُ سَوَاءٌ: مُخَالَطَةُ الشَّرِيكَيْنِ، وَيُقَالُ: اشْتَرَكْنَا بِمَعْنَى تَشَارَكْنَا، وَقَدِ اشْتَرَكَ الرَّجُلَانِ وَتَشَارَكَا وَشَارَكَ أَحُدُهُمَا الْآخَرَ... وَالْجَمْعُ: أَشْرَاكٌ وَشُرَكَاءُ.. وَمِنْهُ قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿وَأَشْرِكْهُ فِىٓ أَمْرِى﴾ [طه:٣٢]؛ أَيِ: اجْعَلْهُ شَرِيْكِي فِيهِ».

وَاصْطِلَاحًا:

قَالَ فِي «اللِّسَانِ» (٤): «وَأَشْرَكَ بِالله جَعَلَ لَهُ شَرِيكًا فِي مُلْكِهِ؛ تَعَالَى الله عَنْ ذَلِكَ؛ وَالِاسْمُ: الشِّرْكُ.

وَالشِّرْكُ: أَنْ تَجْعَلَ للهِ شَرِيكًا فِي رُبُوبِيَّتِهِ؛ تَعَالَى الله عَنِ الشُّرَكَاءِ وَالْأَنْدَادِ.

---

(١) «الكليات» للكفوي (٥٣٣).

(٢) «المفردات» (٤٥١).

(٣) «اللسان» (٥/ ٩٤).

(٤) (٥/ ٩٥).

وَمَنْ عَدَلَ بِهِ شَيْئًا مِنْ خَلْقِهِ؛ فَهُوَ كَافِرٌ مُشْرِكٌ؛ لِأَنَّ اللهَ وَحْدَهُ لَا شَرِيكَ لَهُ، وَلَا نِدَّ لَهُ، وَلَا نَدِيدَ».

وَقَالَ الْحَافِظُ ابْنُ حَجَرٍ (١): «الْمُشْرِكُ أَصْلُ مِنْ وَضْعِ الشَّيْءِ فِي غَيْرِ مَوْضِعِهِ؛ لِأَنَّهُ جَعَلَ لِمَنْ أَخْرَجَهُ مِنَ الْعَدَمِ إِلَى الْوُجُودِ مُسَاوِيًا، فَنَسَبَ النِّعْمَةَ لِغَيْرِ الْمُنْعِمِ بِهَا».

وَالشِّرْكُ قِسْمَانِ: أَكْبَرُ وَأَصْغَرُ (٢).

أَمَّا الْأَكْبَرُ؛ فَهُوَ اتِّخَاذُ النِّدِّ للهِ أَوْ مَعَ اللهِ، يُحِبُّهُ الْعَبْدُ كَمَا يُحِبُّ اللهَ، وَيَخَافُهُ كَمَا يَخَافُ اللهَ عَزَّوَجَلَّ، وَهَذَا هُوَ شِرْكُ التَّسْوِيَةِ؛ كَمَا قَالَ تَعَالَى حِكَايَةً عَنْ هَؤُلَاءِ الْمُشْرِكِينَ لِآلِهَتِهِمْ وَأَنْدَادِهِمْ فِي النَّارِ: ﴿ تَاللَّهِ إِن كُنَّا لَفِي ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ ﴿٩٧﴾ إِذْ نُسَوِّيكُم بِرَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴾ [الشعراء:٩٧، ٩٨].

وَقَالَ تَعَالَى: ﴿ وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يَتَّخِذُ مِن دُونِ ٱللَّهِ أَندَادًا يُحِبُّونَهُمْ كَحُبِّ ٱللَّهِ ۖ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ أَشَدُّ حُبًّا لِّلَّهِ ﴾ [البقرة:١٦٥]؛ أَيْ: أَشَدُّ حُبًّا للهِ تَعَالَى مِنْ حُبِّ الْأَنْدَادِ لِأَنْدَادِهِمُ الْبَاطِلَةِ الْمَكْذُوبَةِ الْمُدَّعَاةِ!!

قَالَ ابْنُ الْقَيِّمِ رَحِمَهُ اللَّهُ (٣):

وَالشِّرْكُ فَاحْذَرْهُ فَشِرْكٌ ظَاهِرٌ	**ذَا الْقِسْمُ لَيْسَ بِقَابِلِ الْغُفْرَانِ**
وَهُوَ اتِّخَاذُ النِّدِّ لِلرَّحْمَنِ أَيًّا	**كَانَ مِنْ حَجَرٍ وَمِنْ إِنْسَانِ؟**

---

(١) «فتح الباري» (١٢/ ٢٧٧).

(٢) والشرك الأصغر؛ الرياء كما أخبر بذلك النبي ﷺ؛ ويدخل فيه أيضًا الحلف بغير الله عَزَّوَجَلَّ.. إلى غير ذلك ولا يسعنا الحديث هنا عن الشرك الأصغر وصوره؛ لأن الحديث عن المشركين؛ فناسب معهم الحديث عن الشرك الأكبر، وللمزيد يراجع: «حقيقة التوحيد» (ص: ٢٥٦ وما بعدها) للباحث.

(٣) «نونية ابن القيم» (٢/ ٢١٧).

يَـدْعُوهُ أَوْ يَرْجُـوهُ ثُـمَّ يَخَافُـهُ   وَيُحِبُّـــهُ كَمَحَبَّـــةِ الـــدَّيَّانِ

فَهَذَا الْقِسْمُ لَا يَغْفِرُهُ الله إِلَّا بِخَلْعِ رِدَاءِ الشِّرْكِ عَلَى أَوَّلِ عَتَبَةِ بَابِ التَّوْحِيدِ؛ قَالَ تَعَالَى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَغْفِرُ أَن يُشْرَكَ بِهِۦ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَٰلِكَ لِمَن يَشَآءُ ۚ وَمَن يُشْرِكْ بِٱللَّهِ فَقَدْ ضَلَّ ضَلَٰلًۢا بَعِيدًا﴾ [النساء:١١٦]؛ فَالذَّنْبُ الَّذِي لَا يُغْفَرُ هُوَ الشِّرْكُ؛ إِلَّا إِنْ تَابَ مِنْهُ صَاحِبُهُ، قَالَ تَعَالَى: ﴿إِنَّهُۥ مَن يُشْرِكْ بِٱللَّهِ فَقَدْ حَرَّمَ ٱللَّهُ عَلَيْهِ ٱلْجَنَّةَ وَمَأْوَىٰهُ ٱلنَّارُ ۖ وَمَا لِلظَّٰلِمِينَ مِنْ أَنصَارٍ﴾ [المائدة:٧٢]، وَقَالَ تَعَالَى فِي شَأْنِ صَفْوَةِ الْخَلْقِ عليهم السلام: ﴿وَلَوْ أَشْرَكُوا۟ لَحَبِطَ عَنْهُم مَّا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ﴾ [الأنعام:٨٨]، وَقَالَ تَعَالَى لِإِمَامِ الْمُوَحِّدِينَ ﷺ: ﴿وَلَقَدْ أُوحِىَ إِلَيْكَ وَإِلَى ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِكَ لَئِنْ أَشْرَكْتَ لَيَحْبَطَنَّ عَمَلُكَ وَلَتَكُونَنَّ مِنَ ٱلْخَٰسِرِينَ ﴿٦٥﴾ بَلِ ٱللَّهَ فَٱعْبُدْ وَكُن مِّنَ ٱلشَّٰكِرِينَ﴾

[الزمر:٦٥، ٦٦].

إِنَّـهُ أَظْلَـمُ الظُّلْـمِ، وَأَقْبَحُ الْجَهْـلِ، وَأَكْبَـرُ الْكَبَـائِرِ وَالـذُّنُوبِ؛ فَفِـي «**الصَّحِيحَيْنِ**»(١) مِنْ حَدِيثِ ابْـنِ مَسْعُودٍ رضي الله عنه قَـالَ: قُلْـتُ: يَـا رَسُولَ اللهِ؛ أَيُّ الذَّنْبِ أَعْظَمُ عِنْدَ اللهِ؟ قَالَ: «**أَنْ تَجْعَلَ للهِ نِدًّا وَهُوَ خَلَقَـكَ**»، قَـالَ: قُلْـتُ لَـهُ: إِنَّ ذَلِكَ لَعَظِيمٌ، قَالَ: قُلْتُ: ثُمَّ أَيٌّ؟ قَالَ: «**ثُمَّ أَنْ تَقْتُلَ وَلَدَكَ مَخَافَةَ أَنْ يَطْعَمَ مَعَـكَ**»، قَالَ: قُلْتُ: ثُمَّ أَيٌّ؟ قَالَ: «**ثُمَّ أَنْ تُزَانِيَ بِحَلِيلَةِ جَارِكَ**»؛ نَسْأَلُ اللهَ تَعَالَى أَنْ يُنَجِّيَنَـا مِنَ الشِّرْكِ كُلِّهِ، صَغِيرِهِ وَكَبِيرِهِ؛ إِنَّهُ وَلِيُّ ذَلِكَ وَالْقَادِرُ عَلَيْهِ.

---

(١) أخرجه البخاريُّ، كتاب تفسير القرآن، باب قوله تعالى: ﴿فَلَا تَجْعَلُوا۟ لِلَّهِ أَندَادًا وَأَنتُمْ تَعْلَمُونَ﴾ (٤٤٧٧)، ومسلمٌ، كتاب الإيمان، باب كون الشرك أقبح الذنوب وبيان أعظمها بعده (٨٦).

المَطْلَبُ الثَّانِي

دَعْوَتُهُ ﷺ لِلأَقْرَبِينَ

تَمْهِيدٌ

قَالَ تَعَالَى: ﴿وَأَنذِرْ عَشِيرَتَكَ ٱلْأَقْرَبِينَ﴾ [الشعراء:٢١٤].

لَحْظَةٌ حَاسِمَةٌ فِي حَيَاةِ الدَّعْوَةِ؛ فَالأَمْرُ وَاضِحٌ صَرِيحٌ، وَلَكِنَّ الأَمْرَ جِدٌّ خَطِيرٌ؛ فَأَمَامَ رَسُولِ الله ﷺ رُكَامٌ هَائِلٌ مِنَ الْبَاطِلِ، مِنْ عَادَاتٍ وَطُقُوسٍ أَمْسَتْ رَايَةً مَرْفُوعَةً رَفَعَهَا الأَشْرَارُ، وَانْضَوَى تَحْتَ لِوَائِهَا كَثِيرٌ مِنَ الْمَخْدُوعِينَ، وَأَحْدَثُوا حَوْلَهَا ضَجِيجًا يَلْفِتُ الأَنْظَارَ بِشَكْلٍ قَدْ تَنَاسَلَ فِي عُقُولِهِمْ وَرُؤُوسِهِمْ حَتَّى أَصْبَحَ لِلأَصْنَامِ جُيُوشٌ جَرَّارَةٌ مِنَ الْغَضَبِ وَالْجَهْلِ وَالْحَمِيَّةِ مُسْتَعِدَّةٌ دَائِمًا لِذَبْحِ مَنْ يَمَسُّ قُدْسِيَّتَهَا، أَوْ يَعْتَدِي عَلَيْهَا، أَوْ يُسِيءُ إِلَيْهَا!!

وَعَلَى طَرِيقِ الدَّعْوَةِ الطَّوِيلِ قُتِلَ الأَنْبِيَاءُ وَالدُّعَاةُ وَالْمُصْلِحُونَ، وَلَا زَالَتْ حَبَّاتُ الرِّمَالِ وَذَرَّاتُ التُّرَابِ رَطْبَةً بِدِمَائِهِمُ الزَّكِيَّةِ الَّتِي تَرْوِي شَجَرَةَ الدَّعْوَةِ، وَتَبْعَثُ الأَطْيَافَ؛ لِتَكُونَ حَيَاةً لِلْحَيَاةِ.

فَالْحَقُّ وَاضِحٌ كَالشَّمْسِ فِي ضُحَاهَا، وَالنَّهَارِ إِذَا جَلَّاهَا، يَعْرِفُهُ الْجَمِيعُ؛ لَكِنَّهُ يَحْتَاجُ إِلَى رَايَةٍ مَرْفُوعَةٍ، يَنْضَوِي تَحْتَ لِوَائِهَا أَصْحَابُ الْفِطَرِ السَّلِيمَةِ.

إِذَنْ؛ فَلِمَاذَا يَبْقَى الْحَقُّ سِرًّا، وَإِلَى مَتَى؟! وَكَيْفَ سَيَعْرِفُ النَّاسُ الْحَقَّ، وَهُوَ لَيْسَ حِكْرًا وَلَا قَصْرًا عَلَى أَهْلِ مَكَّةَ، وَقَدْ طَالَ الانْتِظَارُ؛ فَالأَرْضُ كُلُّهَا مَوَاتٌ؛ فَلْيَكُنِ الإِنْذَارُ وَالْبَلَاغُ، وَلْتَكُنِ الْبِدَايَةُ بِالأَقْرَبِينَ.

فَفِي «**الصَّحِيحَيْنِ**» (١) مِنْ حَدِيثِ ابْنِ عَبَّاسٍ رضي الله عنهما: لَمَّا نَزَلَتْ: ﴿وَأَنذِرْ عَشِيرَتَكَ ٱلْأَقْرَبِينَ﴾ [الشعراء:٢١٤]، خَرَجَ رَسُولُ اللهِ ﷺ حَتَّى صَعِدَ الصَّفَا فَهَتَفَ: «**يَا صَبَاحَاهْ**»؛ فَقَالُوا: مَنْ هَذَا الَّذِي يَهْتِفُ؟ قَالُوا: مُحَمَّدٌ، فَاجْتَمَعُوا إِلَيْهِ؛ فَقَالَ: «**يَا بَنِي فُلَانٍ، يَا بَنِي فُلَانٍ، يَا بَنِي فُلَانٍ، يَا بَنِي عَبْدِ مَنَافٍ، يَا بَنِي عَبْدِ الْمُطَّلِبِ**»، فَاجْتَمَعُوا إِلَيْهِ؛ فَقَالَ: «**أَرَأَيْتُمْ إِنْ أَخْبَرْتُكُمْ أَنَّ خَيْلًا تَخْرُجُ مِنْ سَفْحِ هَذَا الْجَبَلِ أَكُنْتُمْ مُصَدِّقِيَّ؟**»؛ قَالُوا: مَا جَرَّبْنَا عَلَيْكَ كَذِبًا، قَالَ: «**فَإِنِّي نَذِيرٌ لَكُمْ بَيْنَ يَدَيْ عَذَابٍ شَدِيدٍ**»، قَالَ أَبُو لَهَبٍ: تَبًّا لَكَ مَا جَمَعْتَنَا إِلَّا لِهَذَا؟ ثُمَّ قَامَ، فَنَزَلَتْ هَذِهِ السُّورَةُ: ﴿تَبَّتْ يَدَآ أَبِي لَهَبٍ وَتَبَّ﴾ [المَسَد:١].

وَفِي «**صَحِيحِ مُسْلِمٍ**» (٢) عَنْ عَائِشَةَ رضي الله عنها قَالَتْ: لَمَّا نَزَلَتْ: ﴿وَأَنذِرْ عَشِيرَتَكَ ٱلْأَقْرَبِينَ﴾ [الشعراء:٢١٤]، قَامَ رَسُولُ اللهِ ﷺ عَلَى الصَّفَا؛ فَقَالَ: «**يَا فَاطِمَةُ بِنْتَ مُحَمَّدٍ، يَا صَفِيَّةُ بِنْتَ عَبْدِ الْمُطَّلِبِ، يَا بَنِي عَبْدِ الْمُطَّلِبِ، لاَ أَمْلِكُ لَكُمْ مِنَ اللهِ شَيْئًا، سَلُونِي مِنْ مَالِي مَا شِئْتُمْ**».

وَفِي «**الصَّحِيحَيْنِ**» (٣) مِنْ حَدِيثِ أَبِي هُرَيْرَةَ رضي الله عنه قَالَ: قَامَ رَسُولُ اللهِ ﷺ حِينَ أَنْزَلَ اللهُ عز وجل: ﴿وَأَنذِرْ عَشِيرَتَكَ ٱلْأَقْرَبِينَ﴾ [الشعراء:٢١٤]، قَالَ: «**يَا مَعْشَرَ قُرَيْشٍ** - أَوْ كَلِمَةً نَحْوَهَا - **اشْتَرُوا أَنْفُسَكُمْ، لاَ أُغْنِي عَنْكُمْ مِنَ اللهِ شَيْئًا، يَا بَنِي**

---

(١) أخرجه البخاريُّ، كتاب التفسير، باب ﴿وَأَنذِرْ عَشِيرَتَكَ ٱلْأَقْرَبِينَ﴾ [الشعراء:٢١٤] (٤٧٧٠)، ومسلمٌ، كتاب الإيمان، باب قوله تعالى: ﴿وَأَنذِرْ عَشِيرَتَكَ ٱلْأَقْرَبِينَ﴾ (٢٠٨).

(٢) أخرجه مسلمٌ، كتاب الإيمان، باب قوله تعالى: ﴿وَأَنذِرْ عَشِيرَتَكَ ٱلْأَقْرَبِينَ﴾ (٢٠٥).

(٣) أخرجه البخاريُّ، كتاب التفسير، باب ﴿وَأَنذِرْ عَشِيرَتَكَ ٱلْأَقْرَبِينَ﴾ (٤٧٧١)، وانظر: رقم (٢٧٥٣)، ومسلمٌ، كتاب الإيمان، باب قوله تعالى: ﴿وَأَنذِرْ عَشِيرَتَكَ ٱلْأَقْرَبِينَ﴾ (٢٠٤).

عَبْدِ مَنَافٍ، لاَ أُغْنِي عَنْكُمْ مِنَ اللهِ شَيْئًا، يَا عَبَّاسُ بْنَ عَبْدِ الْمُطَّلِبِ، لاَ أُغْنِي عَنْكَ مِنَ اللهِ شَيْئًا، وَيَا صَفِيَّةُ عَمَّةَ رَسُولِ اللهِ، لَا أُغْنِي عَنْكِ مِنَ اللهِ شَيْئًا، وَيَا فَاطِمَةُ بِنْتَ مُحَمَّدٍ، سَلِينِي مَا شِئْتِ مِنْ مَالِي، لاَ أُغْنِي عَنْكِ مِنَ اللهِ شَيْئًا».

وَفِي «صَحِيحِ مُسْلِمٍ»(١) مِنْ حَدِيثِ قَبِيصَةَ بْنِ الْمُخَارِقِ(٢) وَزُهَيْرِ بْنِ عَمْرٍو(٣) قَالاَ: لَمَّا نَزَلَتْ: ﴿وَأَنذِرْ عَشِيرَتَكَ ٱلْأَقْرَبِينَ﴾(٤) [الشعراء: ٢١٤]، قَالَ: انْطَلَقَ نَبِيُّ اللهِ ﷺ إِلَى رَضْمَةٍ(٥) مِنْ جَبَلٍ، فَعَلاَ أَعْلاَهَا حَجَرًا ثُمَّ نَادَى: **«يَا بَنِي عَبْدِ مَنَافَاهْ، إِنِّي نَذِيرٌ، إِنَّمَا مَثَلِي وَمَثَلُكُمْ؛ كَمَثَلِ رَجُلٍ رَأَى الْعَدُوَّ، فَانْطَلَقَ يَرْبَأُ(٦) أَهْلَهُ فَخَشِيَ أَنْ يَسْبِقُوهُ فَجَعَلَ يَهْتِفُ: يَا صَبَاحَاهْ».**

---

(١) أخرجه مسلمٌ، كتاب الإيمان، باب في قوله تعالى: ﴿وَأَنذِرْ عَشِيرَتَكَ ٱلْأَقْرَبِينَ﴾ (٢٠٧).

(٢) هو قبيصة بن المخارق بن عبد الله بن شداد بن معاوية بن أبي ربيعة بن نهيك بن هلال ابن عامر بن صعصعة العامري الهلالي أبو بشر. له صحبة سكن البصرة.

● راجع: «الإصابة» (٧٠٧٦)، و«الاستيعاب» (١١١٨)، و«أسد الغابة» (٤٢٦٦).

(٣) هو زهير بن عمرو الهلالي من هلال بن عامر بن صعصعة، وقيل: إنه باهليٌّ، ويقال: سكن البصرة، روى عنه أبو عثمان النهدي.

● راجع: «الإصابة» (٢٨٤٢)، و«الاستيعاب» (٨١٦)، و«أسد الغابة» (١٧٧٩).

(٤) قال الحافظ ابن حجر - معلقًا- في «الفتح» (٨/ ٣٦١): «قَوْلُهُ: «لَمَّا نَزَلَتْ: ﴿وَأَنذِرْ عَشِيرَتَكَ ٱلْأَقْرَبِينَ﴾»، - زاد: «ورهطك منهم المخلصين» قَالَ الْقُرْطُبِيُّ: لَعَلَّ هَذِهِ الزِّيَادَة كَانَتْ قُرْآنًا فَنُسِخَتْ تِلَاوَتُهَا، ثُمَّ اسْتُشْكِلَ ذَلِكَ بِأَنَّ الْمُرَاد: إِنْذَار الْكُفَّار، وَالْمُخْلَص صِفَة الْمُؤْمِن، وَالْجَوَاب عَنْ ذَلِكَ أَنَّهُ لَا يَمْتَنِع عَطْف الْخَاصّ عَلَى الْعَامّ؛ فَقَوْله: ﴿وَأَنذِرْ عَشِيرَتَكَ ٱلْأَقْرَبِينَ﴾ عَامٌّ فِيمَنْ آمَنَ مِنْهُمْ وَمَنْ لَمْ يُؤْمِنْ؛ ثُمَّ عَطَفَ عَلَيْهِ الرَّهْط الْمُخْلَصِينَ تَنْوِيهًا بِهِمْ وَتَأْكِيدًا».

(٥) الرضمة واحدة الرضم، والرضام: حجارة عظام بعضها فوق بعض؛ قاله النوويُّ في «شرح مسلم» (٣/ ٨٢).

(٦) أي: يحفظهم ويتطلع لهم. انظر: المصدر السابق.

وَالْحِكْمَةُ مِنْ دَعْوَةِ الْأَقْرَبِينَ قَبْلَ غَيْرِهِمْ؛ **مَا قَالَهُ الْحَافِظُ أَيْضًا فِي «الْفَتْح»**(١): «وَالسِّرُّ فِي الْأَمْرِ بِإِنْذَارِ الْأَقْرَبِينَ أَوَّلًا أَنَّ الْحُجَّةَ إِذَا قَامَتْ عَلَيْهِمْ تَعَدَّتْ إِلَى غَيْرِهِمْ، وَإِلَّا فَكَانُوا عِلَّةً لِلْأَبْعَدِينَ فِي الِامْتِنَاعِ، وَأَنْ لَا يَأْخُذَهُ مَا يَأْخُذُ الْقَرِيبَ لِلْقَرِيبِ مِنَ الْعَطْفِ وَالرَّأْفَةِ؛ فَيُحَابِيَهِمْ فِي الدَّعْوَةِ وَالتَّخْوِيفِ؛ فَلِذَلِكَ نَصَّ لَهُ عَلَى إِنْذَارِهِمْ» انْتَهَى.

فَالدَّعْوَةُ لِلْقَرِيبِ فَالْقَرِيبِ، وَلِلْأَدْنَى فَالْأَدْنَى مَنْهَجٌ قُرْآنِيٌّ وَنَبَوِيٌّ عَلَى الدَّاعِيَةِ الْبَصِيرِ أَنْ يَسْلُكَهُ، وَأَنْ يَسِيرَ عَلَى خُطَاهُ، وَإِنَّ أَوَّلَ مَنْ دَعَاهُمُ النَّبِيُّ ﷺ مِنْ أَهْلِهِ وَعَشِيرَتِهِ: زَوْجَتُهُ خَدِيجَةُ بِنْتُ خُوَيْلِدٍ رضي الله عنها، وَهِيَ أَوَّلُ مَنْ آمَنَ بِهِ، وَابْنُ عَمِّهِ عَلِيُّ بْنُ أَبِي طَالِبٍ رضي الله عنه، ثُمَّ تَتَابَعَ الْقَوْمُ بَعْدَ ذَلِكَ.

وَفِي «صَحِيحِ» الْبُخَارِيِّ (٢) مِنْ حَدِيثِ عَمَّارٍ رضي الله عنه قَالَ: «رَأَيْتُ رَسُولَ اللهِ ﷺ وَمَا مَعَهُ إِلَّا خَمْسَةُ أَعْبُدٍ وَامْرَأَتَانِ وَأَبُو بَكْرٍ».

قَالَ الحافِظُ فِي «الْفَتْحِ» (٣): «وَأَمَّا الْمَرْأَتَانِ؛ فَخَدِيجَةُ، وَالْأُخْرَى: أُمُّ أَيْمَنَ (٤) أَوْ سُمَيَّةُ».

---

(١) (٨/ ٣٦٢).

(٢) أخرجه البخاريُّ، كتاب فضائل أصحاب النبي ﷺ، باب قول النبيِّ ﷺ: «**لَوْ كُنْتُ مُتَّخِذًا خَلِيلًا**» (٣٦٦٠).

(٣) «فتح الباري» (٧/ ٢٩).

(٤) هي أم أيمن مولاة النبيِّ ﷺ وحاضنته. قال أبو عمر: اسمها بركة بنت ثعلبة بن عمرو ابن حصن بن مالك بن سلمة، وكان يقال لها: أم الظباء، وهي حبشية فأعتقها عبد الله أبو رَسُول الله ﷺ وأسلمت قديمًا أول الإسلام، وهاجرت إلى الحبشة وإلى المدينة، وبايعت رَسُول الله ﷺ؛ توفيت في خلافة عثمان، وقيل: بعد رَسُول الله ﷺ بخمسة أشهر.

● راجع: «الإصابة» (١١٩٠٢)، و«الاستيعاب» (٦٨٧)، و«أسد الغابة» (٧٣٧٢).

وَفِي «مُسْنَدِ» أَحْمَدَ، وَ«سُنَنِ» التِّرْمِذِيِّ [١] مِنْ حَدِيثِ زَيْدِ بْنِ أَرْقَمَ [٢] رضي الله عنه قَالَ: «عَلِيٌّ أَوَّلُ مَنْ أَسْلَمَ».

قَالَ شَيْخُ الْإِسْلَامِ ابْنُ تَيْمِيَّةَ رحمه الله [٣]: «وَأَوَّلُ مَنْ أَسْلَمَ مِنَ الرِّجَالِ الْأَحْرَارِ الْبَالِغِينَ؛ أَبُو بَكْرٍ، وَمِنَ الْأَحْرَارِ الصِّبْيَانِ؛ عَلِيٌّ، وَمِنَ الْمَوَالِي؛ زَيْدُ بْنُ حَارِثَةَ، وَمِنَ النِّسَاءِ؛ خَدِيجَةُ أُمُّ الْمُؤْمِنِينَ، وَهَذَا بِاتِّفَاقِ أَهْلِ الْعِلْمِ».

---

(١) أخرجه أحمد (٤/ ٣٦٨)، والترمذيُّ، كتاب المناقب، باب مناقب علي بن أبي طالب رضي الله عنه (٣٧٣٥)، وصحَّحه الشيخ الألبانيُّ في «صحيح الترمذي» (٣/ ٢١٥)، وفي «مسند» أحمد (١/ ٣٣١)، و«سنن الترمذي» (٣٧٣٤) بسندٍ يُحسَّن من حديث ابن عباس، وفيه أنه قال: «وَكَانَ -أي: عليَّ بن أبي طالب- أَوَّلُ مَنْ أَسْلَمَ مِنَ النَّاسِ بَعْدَ خَدِيجَةَ»، وفي رواية الترمذي: «أَوَّلُ مَنْ صَلَّى: عَلِيٌّ».

(٢) هو زيد بن أرقم بن زيد بن قيس بن النعمان بن مالك الأنصاري الخزرجي؛ مختلفٌ في كنيته، قيل: أبو عمر، وقيل: أبو عامر، وقيل: أبو سعد، وقيل: أبو سعيد، واستصغر يوم أحد، وأول مشاهده الخندق، وقيل: المريسيع، وغزا مع رَسُول الله صلى الله عليه وسلم سبع عشرة غزوة، وشهد مع علي صفين، وهو معدودٌ في خاصَّةِ الصحابة. توفي بالكوفة سنة ثمان وستين، وقيل: مات بعد قتل الحسين رضي الله عنه بقليل.

● راجع: «الإصابة» (٢٨٨٠)، و«الاستيعاب» (٨٣٥)، و«أسد الغابة» (١٨١٩).

(٣) «مجموع الفتاوى» (٤/ ٤٦٢)، وراجع: «البداية والنهاية» (٣/ ٢٨) لابن كثير، و«الاستيعاب» لابن عبد البر (١/ ٢٩٤)، و«تفسير القرطبي» (لسورة التوبة: ١٠٠).

دَعْوَتُهُ ﷺ لِعَمِّهِ أَبِي طَالِبٍ وَإِلَى حِيْنَ حَضَرَتْهُ الوَفَاةُ

شَيْخٌ مِنْ شُيُوخِ قُرَيْشٍ، وَسَيِّدٌ مِنْ سَادَاتِهَا، كَرِيمُ الْخِصَالِ وَالطِّبَاعِ، كَانَ حَائِطَ صَدٍّ مَنِيعٍ، طَالَمَا تَحَطَّمَتْ عَلَيْهِ سُيُوفُ وَرِمَاحُ أَهْلِ الشِّرْكِ الَّتِي أَرَادَتْ أَنْ تَنَالَ رَسُولَ اللهِ ﷺ، نَعَمْ.. كَانَ فِي هَذَا الْجَانِبِ بَطَلًا صَاحِبَ حَمِيَّةٍ، وَلَكِنَّهُ رَفَضَ الْحَقَّ، وَخَافَ النَّقِيصَةَ، وَتَشَبَّعَ رَأْسُهُ بِمُعْتَقَدَاتِ قَوْمِهِ، وَيَخْشَى أَنْ تُعَيِّرَهُ مَكَّةُ بَعْدَ مَوْتِهِ أَنَّهُ تَرَكَ دِينَ آبَائِهِ وَأَجْدَادِهِ حِينَ ضَعُفَتْ قُوَاهُ، وَوَهَنَ بَدَنُهُ، وَاشْتَدَّ بِهِ الْمَرَضُ!!.

ورَسُولُ اللهِ ﷺ إِلَى اللَّحْظَةِ الْأَخِيرَةِ يَعْرِضُ عَلَيْهِ الْحَقَّ، وَيُعِيدُ عَلَيْهِ الْهُدَى.

وَلَكِنَّ الْعَوَاطِفَ الْجَيَّاشَةَ، وَالْحَمِيَّةَ الْبَغِيضَةَ، وَالْإِرَادَةَ الضَّعِيفَةَ أَبْقَتْهُ فِي وَحْلِ الشِّرْكِ.

إِنَّهَا النِّهَايَةُ الْمَأْسَاوِيَّةُ الْحَزِينَةُ الْمُؤْلِمَةُ، وَلَكِنْ مَاذَا عَسَاهُ أَنْ يَفْعَلَ الْحُزْنُ وَالْأَلَمُ؟!

فَفِي «الصَّحِيحَيْنِ» (١) مِنْ حَدِيثِ الْمُسَيَّبِ بْنِ حَزْنٍ قَالَ: «لَمَّا حَضَرَتْ أَبَا طَالِبٍ الْوَفَاةُ، جَاءَهُ رَسُولُ اللهِ ﷺ فَوَجَدَ عِنْدَهُ أَبَا جَهْلِ بْنَ هِشَامٍ، وَعَبْدَ اللهِ بْنَ

---

(١) أخرجه البخاريُّ، كتاب التفسير، باب ﴿إِنَّكَ لَا تَهْدِي مَنْ أَحْبَبْتَ وَلَٰكِنَّ اللَّهَ يَهْدِي مَن يَشَاءُ﴾ [القصص:٥٦] (٤٧٧٢)، ومسلمٌ، كتاب الإيمان، باب الدليل على صحة إسلام من حضره الموت ما لم يشرع في النزع وهو الغرغرة (٢٤).

أَبِي أُمَيَّةَ بْنِ الْمُغِيرَةِ، فَقَالَ النَّبِيُّ ﷺ: «**أَيْ عَمِّ، قُلْ لاَ إِلَهَ إِلاَّ اللهُ، كَلِمَةً أُحَاجُّ لَكَ بِهَا عِنْدَ اللهِ**»؛ فَقَالَ أَبُو جَهْلٍ وَعَبْدُ اللهِ بْنُ أَبِي أُمَيَّةَ: أَتَرْغَبُ عَنْ مِلَّةِ عَبْدِ الْمُطَّلِبِ، فَلَمْ يَزَلْ رَسُولُ اللهِ ﷺ يَعْرِضُهَا عَلَيْهِ، وَيَعُودَانِ بِتِلْكَ الْمَقَالَةِ، حَتَّى قَالَ أَبُو طَالِبٍ آخِرَ مَا كَلَّمَهُمْ، عَلَى مِلَّةِ عَبْدِ الْمُطَّلِبِ، وَأَبَى أَنْ يَقُولَ لاَ إِلَهَ إِلاَّ اللهُ، فَقَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: «**وَاللهِ لأَسْتَغْفِرَنَّ لَكَ، مَا لَمْ أُنْهَ عَنْكَ**»؛ فَأَنْزَلَ اللهُ: ﴿مَا كَانَ لِلنَّبِيِّ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَن يَسْتَغْفِرُواْ لِلْمُشْرِكِينَ﴾[التوبة:١١٣]، وَأَنْزَلَ اللهُ فِي أَبِي طَالِبٍ؛ فَقَالَ لِرَسُولِ اللهِ ﷺ: ﴿إِنَّكَ لَا تَهْدِى مَنْ أَحْبَبْتَ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ يَهْدِى مَن يَشَآءُ﴾ [القصص:٥٦].

فَفِي قَوْلِهِ: «فَلَمْ يَزَلْ رَسُولُ اللهِ ﷺ يَعْرِضُهَا عَلَيْهِ» مَدَى حِرْصِ حَبِيبِنَا ﷺ عَلَى هِدَايَةِ الْأَقْرَبِينَ مِنْ قَوْمِهِ وَعَشِيرَتِهِ، وَلَمْ يَمَلَّ لَحْظَةً وَاحِدَةً مِنْ عَرْضِ الْإِسْلَامِ عَلَيْهِمْ حَتَّى آخِرَ لَحْظَةٍ مِنْ وَفَاةِ عَمِّهِ أَبِي طَالِبٍ.. نَعَمْ؛ فَلَمْ يَزَلْ يَعْرِضُهَا عَلَيْهِ- أَيْ: كَلِمَةَ التَّوْحِيدِ- مِرَارًا وَتَكْرَارًا، لَكِنْ شَاءَ اللهُ - وَلَا رَادَّ لِقَضَائِهِ- أَنْ يَمُوتَ أَبُو طَالِبٍ عَلَى الْكُفْرِ - وَالْعِيَاذُ بِاللهِ- وَأَبَى أَنْ يَقُولَ تِلْكَ الْكَلِمَةَ الْعَظِيمَةَ، وَلَمْ يَتَوَقَّفْ حِرْصُ النَّبِيِّ ﷺ وَلَا شَفَقَتُهُ عَلَى عَمِّهِ؛ بَلْ طَلَبَ لَهُ مِنَ اللهِ الْعَفْوَ وَالْمَغْفِرَةَ! لَكِنْ نُسِخَ ذَلِكَ فِي حَقِّ مَنْ مَاتَ مُشْرِكًا، وَإِنَّمَا خَصَّ اللهُ ﷻ نَبِيَّهُ ﷺ بِالشَّفَاعَةِ لَهُ، حَتَّى خَفَّفَ عَنْهُ الْعَذَابَ (١)؛ كَمَا فِي «**الصَّحِيحَيْنِ**» (٢) مِنْ حَدِيثِ الْعَبَّاسِ بْنِ عَبْدِ الْمُطَّلِبِ رضي الله عنه قَالَ لِلنَّبِيِّ ﷺ: مَا أَغْنَيْتَ عَنْ عَمِّكَ، فَإِنَّهُ كَانَ يَحُوطُكَ وَيَغْضَبُ لَكَ؟ قَالَ: «**هُوَ فِي ضَحْضَاحٍ مِنْ نَارٍ، وَلَوْلاَ أَنَا لَكَانَ فِي الدَّرْكِ الْأَسْفَلِ مِنَ النَّارِ**».

---

(١) راجع: «الفتح» (٨/ ٣٦٦- ٣٦٧).

(٢) أخرجه البخاريُّ، كتاب مناقب الأنصار، باب قصة أبي طالب (٣٨٨٣)، ومسلمٌ، كتاب الإيمان، باب شفاعة النبي ﷺ لأبي طالب والتخفيف عنه بسببه (٢٠٩).

وَفِي رِوَايَةِ أَبِي سَعِيدٍ الْخُدْرِيِّ رضي الله عنه ؛ أَنَّهُ سَمِعَ النَّبِيَّ ﷺ وَذُكِرَ عِنْدَهُ عَمُّهُ؛ فَقَالَ: «**لَعَلَّهُ تَنْفَعُهُ شَفَاعَتِي يَوْمَ الْقِيَامَةِ، فَيُجْعَلَ فِي ضَحْضَاحٍ مِنَ النَّارِ، يَبْلُغُ كَعْبَيْهِ، يَغْلِي مِنْهُ دِمَاغُهُ**»(١).

ഌ◈ഌ

(١) عند البخاريِّ، كتاب مناقب الأنصار، باب قصة أبي طالب (٣٨٨٥)، ومسلمٍ، كتاب الإيمان، باب شفاعة النبي ﷺ لأبي طالب والتخفيف عنه بسببه (٢١٠).

دَعْوَتُهُ فِي الأَسْوَاقِ لأَهْلِ الشِّرْكِ

وَلَمْ تَقْتَصِرْ دَعْوَةُ النَّبِيِّ ﷺ عَلَى أَهْلِهِ وَعَشِيرَتِهِ فَحَسْبُ؛ بَلْ خَرَجَ إِلَى الْمَجَامِعِ الْكَبِيرَةِ، وَإِلَى أَنْدِيَةِ الْمُشْرِكِينَ وَأَسْوَاقِهِمْ وَأَمَاكِنِ تِجَارَتِهِمْ؛ لِدَعْوَتِهِمْ إِلَى اللهِ، وَإِخْرَاجِهِمْ مِنْ ظُلُمَاتِ الشِّرْكِ إِلَى أَنْوَارِ التَّوْحِيدِ، وَالْإِيمَانِ، وَهَذَا الْبَلَاغُ الْجَهْرِيُّ، وَالْإِنْذَارُ الْعَامُّ بِإِعْلَانِ الْحَقِّ وَإِظْهَارِ الدَّعْوَةِ إِنَّمَا هُوَ أَمْرٌ رَبَّانِيٌّ لِحَبِيبِهِ ﷺ مَعَ صِيَانَتِهِ وَحِفْظِ اللهِ لَهُ؛ قَالَ تَعَالَى: ﴿فَٱصْدَعْ بِمَا تُؤْمَرُ وَأَعْرِضْ عَنِ ٱلْمُشْرِكِينَ ﴿٩٤﴾ إِنَّا كَفَيْنَٰكَ ٱلْمُسْتَهْزِءِينَ﴾ [الحجر: ٩٤، ٩٥]، وَمِنْ ثَمَّ دَعَاهُمْ فِي الْأَسْوَاقِ، وَمَشَى إِلَيْهِمْ، لَا يَخَافُ إِلَّا اللهَ وَحْدَهُ؛ فَفِي «**مُسْنَدِ**» أَحْمَدَ، وَ«**مُسْتَدْرَكِ**» الْحَاكِمِ، وَ«**مُعْجَمِ**» الطَّبَرَانِيِّ - الْكَبِيرِ وَالْأَوْسَطِ -، وَ«**السُّنَنِ الْكُبْرَى**» لِلْبَيْهَقِيِّ [(١)] مِنْ حَدِيثِ رَبِيعَةَ بْنِ عَبَّادٍ الدِّيلِيِّ [(٢)]، وَكَانَ جَاهِلِيًّا وَأَسْلَمَ، قَالَ: رَأَيْتُ رَسُولَ اللهِ ﷺ بَصَرَ عَيْنِي بِسُوقِ ذِي الْمَجَازِ يَقُولُ: «**يَا أَيُّهَا**

---

(١) أخرجه عبد الله بن أحمد في «زوائد المسند» (٣/ ٤٩٢،٤٩١، ٤٩٣)، وأحمد (٤/ ٣٤١)، ومن طريقه ابن الأثير في «أسد الغابة» (٢/ ٢١٤)، وابن أبي عاصم في «الآحاد والمثاني» (٩٦٠-٩٦٤)، والطبرانيُّ في «الكبير» (٤٥٨٢-٤٥٨٥، ٤٥٧٨، ٤٥٨٨، ٤٥٩٠)، و«الأوسط» (١٥١٠)، والبيهقيُّ في «الكبرى» (٩/ ٧)، والحاكم (١/ ١٥)، وله شاهدٌ عن طارق بن عبد الله المحاربي عند ابن أبي شيبة في «مصنفه» (١٤/ ٣٠٠)، والنسائيّ (٨/ ٥٥) مختصرًا، وابن حبان في «صحيحه» (٦٥٦٢)مطولًا، والحاكم (٢/ ٦١١، ٦١٢)، وعنه البيهقيُّ في «الدلائل» (٥/ ٣٨١)، وصحَّحه لغيره الشيخ شعيب في تحقيق المسند.

(٢) هو ربيعة بن عِباد، وقيل: عُباد، وقيل: عَبَّاد، والكسر أكثر، الدئلي، كان جاهليًّا فأسلم وعُمِّرَ ربيعة عمرًا طويلاً، قيل: مات في خلافة الوليد.

● انظر: «الإصابة» (٢٦١٦)، و«الاستيعاب» (٧٥٧)، و«أسد الغابة» (١٦٤٨).

النَّاسُ؛ قُولُوا لاَ إِلَهَ إِلاَّ اللهُ تُفْلِحُوا»، وَيَدْخُلُ فِي فِجَاجِهَا وَالنَّاسُ مُتَقَصِّفُونَ عَلَيْهِ، فَمَا رَأَيْتُ أَحَداً يَقُولُ شَيْئًا، وَهُوَ لاَ يَسْكُتُ يَقُولُ: «أَيُّهَا النَّاسُ: قُولُوا لاَ إِلَهَ إِلاَّ اللهُ تُفْلِحُوا»، إِلَّا أَنَّ وراءَهُ رَجُلًا أَحْوَلَ، وَضِيءَ الْوَجْهِ، ذُو غَدِيرَتَيْنِ يَقُولُ: إِنَّهُ صَابِئٌ كَاذِبٌ؛ فَقُلْتُ: مَنْ هَذَا؟ قَالُوا: مُحَمَّدُ بْنُ عَبْدِ اللهِ وَهُوَ يَذْكُرُ النُّبُوَّةَ، قُلْتُ: ومَنْ هَذَا الَّذِي يُكَذِّبُهُ؟ قَالُوا: عَمُّهُ أَبُو لَهَبٍ، قُلْتُ: إِنَّكَ كُنْتَ يَوْمَئِذٍ صَغِيرًا؟ قَالَ: لاَ وَاللهِ إِنِّي يَوْمَئِذٍ لأَعْقِلُ.

وَفِي رِوَايَةٍ أُخْرَى: قَالَ: إِنِّي لَمَعَ أَبِي رَجُلٌ شَابٌّ أَنْظُرُ إِلَى رَسُولِ اللهِ ﷺ يَتْبَعُ الْقَبَائِلَ، وَوَرَاءَهُ رَجُلٌ أَحْوَلُ وَضِيءٌ، ذُو جُمَّةٍ، يَقِفُ رَسُولُ اللهِ ﷺ عَلَى الْقَبِيلَةِ، فيَقُولُ: «يَا بَنِي فُلاَنٍ؛ إِنِّي رَسُولُ اللهِ إِلَيْكُمْ، آمُرُكُمْ أَنْ تَعْبُدُوا اللهَ، وَلاَ تُشْرِكُوا بِهِ شَيْئًا، وَأَنْ تُصَدِّقُونِي حَتَّى أُنْفِذَ عَنِ اللهِ مَا بَعَثَنِي بِهِ»؛ فَإِذَا فَرَغَ رَسُولُ اللهِ ﷺ مِنْ مَقَالَتِهِ، قَالَ الآخَرُ مِنْ خَلْفِهِ: يَا بَنِي فُلاَنٍ؛ إِنَّ هَذَا يُرِيدُ مِنْكُمْ أَنْ تَسْلُخُوا اللاَّتَ وَالْعُزَّى، وَحُلَفَاءَكُمْ مِنَ الْحَيِّ بَنِي مَالِكِ ابْنِ أُقَيْشٍ إِلَى مَا جَاءَ بِهِ مِنَ الْبِدْعَةِ وَالضَّلاَلَةِ، فَلاَ تَسْمَعُوا لَهُ، وَلاَ تَتَّبِعُوهُ؛ فَقُلْتُ لأَبِي: مَنْ هَذَا؟ قَالَ: عَمُّهُ أَبُو لَهَبٍ.

❀

دَعْوتُهُ لِلقبَائِل وَعَرْضُ نَفْسه ﷺ عَلَى قَبَائِلِ العَرَبِ فِي مَوْسِمِ الحَجِّ

لَمَّا أَرَادَ اللهُ ﷻ إِظْهَارَ دِينِهِ، وَإِعْزَازَ نَبِيِّهِ ﷺ، وَإِنْجَازَ وَعْدِهِ لَهُ، خَرَجَ رَسُولُ اللهِ ﷺ؛ لِيَعْرِضَ نَفْسَهُ عَلَى قَبَائِلِ الْعَرَبِ، يَدْعُوهُمْ إِلَى الْإِسْلَامِ حِينَمَا يُيَمِّمُونَ وُجُوهَهَمْ تِلْقَاءَ مَكَّةَ فِي مَوْسِمِ الْحَجِّ، فَوَجَدَ النَّبِيُّ ﷺ نَفْسَهُ أَمَامَ فُرْصَةٍ عَظِيمَةٍ، وَوَسِيلَةٍ مُهِمَّةٍ تَصِلُ إِلَيْهِ مِنْ غَيْرِ سَفَرٍ أَوْ عَنَاءٍ! فَفِي «**الثِّقَاتُ**» لابْنِ حَبَّان، وَ«**الدَّلَائِلِ**» لِلْبَيْهَقِيِّ وَلِأَبِي نُعَيْم، بِسَنَدٍ حَسَّنَهُ الْحَافِظُ ابْنُ حَجَرٍ فِي «**الْفَتْح**»[(١)] مِنْ حَدِيثِ ابْنِ عَبَّاسٍ رضي الله عنهما قَالَ: حَدَّثَنِي عَلِيُّ بْنُ أَبِي طَالِبٍ مِنْ فِيهِ قَالَ: لَمَّا أَمَرَ اللهُ تَبَارَكَ وَتَعَالَى رَسُولَهُ ﷺ أَنْ يَعْرِضَ نَفْسَهُ عَلَى قَبَائِلِ الْعَرَبِ، خَرَجَ وَأَنَا مَعَهُ، وَأَبُو بَكْرٍ رضي الله عنه، فَدَفَعْنَا إِلَى مَجْلِسٍ مِنْ مَجَالِسِ الْعَرَبِ، فَتَقَدَّمَ أَبُو بَكْرٍ رضي الله عنه وَكَانَ مُقَدَّمًا فِي كُلِّ خَيْرٍ، وَكَانَ رَجُلًا نَسَّابَةً فَسَلَّمَ، وَقَالَ: مِمَّنِ الْقَوْمُ؟ قَالُوا: مِنْ رَبِيعَةَ، قَالَ: وَأَيُّ رَبِيعَةَ أَنْتُمْ؟ أَمِنْ هَامِهَا أَيْ مِنْ لَهَازِمِهَا؟ فَقَالُوا: مِنَ الْهَامَةِ الْعُظْمَى؛ فَقَالَ أَبُو بَكْرٍ رضي الله عنه: وَأَيُّ هَامَتِهَا الْعُظْمَى أَنْتُمْ؟ قَالُوا: مِنْ ذُهْلٍ الْأَكْبَرِ، قَالَ: مِنْكُمْ

---

(١) أخرجه ابن حبان في «الثقات» (١/ ٨٠-٨٧) ط الفكر، والخطيب في «المتفق والمفترق» (٢٥٢)، والبيهقي في «الدلائل» (٢/ ٤٢٢-٤٢٧)، وأبو نعيم في «الدلائل» (١/ ٢٣٧ - ٢٤٢)، وفي «معرفة الصحابة» (٦٣٨٤،٦٣٤٢) ط دار الوطن، والعقيلي في «الضعفاء» (١/ ١٥٧) ط دار ابن عباس، المنصورة ١٤٢٩ هـ، وقال في آخره: «ليس لهذا الحديث أصل، ولا يُروى من وجه يثبت، إلا شيئًا يُروى في مغازي الواقدي وغيره مرسلاً»، وابن عساكر في «تاريخه» (١٧/ ٢٩٣ - ٢٩٩) ط الفكر، وحَسَّنه الحافظ في «الفتح» (٧/ ٢٢٠)،وقال ابن كثير في «البداية والنهاية» (٣/ ١٤٥): «هذا حديث غريب جدًّا».

عَوْفٌ الَّذِي يُقَالُ لَهُ: لَا حُرَّ بِوَادِي عَوْفٍ؟ قَالُوا: لَا، قَالَ: فَمِنْكُمْ جَسَّاسُ بْنُ مُرَّةَ حَامِي الذِّمَارِ، وَمَانِعُ الْجَارِ؟ قَالُوا: لَا، قَالَ: فَمِنْكُمْ بِسْطَامُ بْنُ قَيْسٍ أَبُو اللِّوَاءِ، وَمُنْتَهَى الْأَحْيَاءِ؟ قَالُوا: لَا، قَالَ: فَمِنْكُمُ الْمُزْدَلِفُ صَاحِبُ الْعِمَامَةِ الْفَرْدَةِ؟ قَالُوا: لَا. قَالَ: فَمِنْكُمْ أَخْوَالُ الْمُلُوكِ مِنْ كِنْدَةَ؟ قَالُوا: لَا. قَالَ: فَمِنْكُمْ أَصْحَابُ الْمُلُوكِ مِنْ لَخْمٍ؟ قَالُوا: لَا. قَالَ أَبُو بَكْرٍ: فَلَسْتُمْ مِنْ ذُهْلِ الْأَكْبَرِ، أَنْتُمْ مِنْ ذُهْلِ الْأَصْغَرِ قَالَ: فَقَامَ إِلَيْهِ غُلَامٌ مِن بَنِي شَيْبَانَ يُقَالُ لَهُ: دَغْفَلٌ حِينَ تَبَيَّنَ وَجْهُهُ؛ فَقَالَ: إِنَّ عَلَى سَائِلِنَا أَنْ نَسَلَهُ وَالعَبْوُ لَا نَعْرِفُهُ أَوْ نَجْهَلُهُ. يَا هَذَا، قَدْ سَأَلْتَنَا فَأَخْبَرْنَاكَ، وَلَمْ نَكْتُمْكَ شَيْئًا؛ فَمِمَّنِ الرَّجُلُ؟ قَالَ أَبُو بَكْرٍ: أَنَا مِنْ قُرَيْشٍ؛ فَقَالَ الْفَتَى: بَخٍ بَخٍ، أَهْلُ الشَّرَفِ وَالرِّيَاسَةِ؛ فَمِنْ أَيِّ الْقُرَشِيِّينَ أَنْتَ؟ قَالَ: مِنْ وَلَدِ تَيْمِ ابْنِ مُرَّةَ، فَقَالَ الْفَتَى: أَمْكَنْتَ وَاللهِ الرَّامِيَ مِنْ سَوَاءِ الثُّغْرَةِ. أَمِنْكُمْ قُصَيٌّ الَّذِي جَمَعَ الْقَبَائِلَ مِنْ فِهْرٍ، فَكَانَ يُدْعَى فِي قُرَيْشٍ مُجَمِّعًا؟ قَالَ: لَا، قَالَ: فَمِنْكُمْ - أَظُنُّهُ قَالَ- هِشَامٌ الَّذِي هَشَمَ الثَّرِيدَ لِقَوْمِهِ وَرِجَالُ مَكَّةَ مُسْنِتُونَ عِجَافٌ؟ قَالَ: لَا، قَالَ: فَمِنْكُمْ شَيْبَةُ الْحَمْدِ عَبْدُ الْمُطَّلِبِ مُطْعِمُ طَيْرِ السَّمَاءِ الَّذِي كَانَ وَجْهُهُ الْقَمَرُ يُضِيءُ فِي اللَّيْلَةِ الدَّاجِيَةِ الظَّلْمَاءِ؟ قَالَ: لَا، قَالَ: فَمِنْ أَهْلِ الْإِفَاضَةِ بِالنَّاسِ أَنْتَ؟ قَالَ: لَا. قَالَ: فَمِنْ أَهْلِ الْحِجَابَةِ أَنْتَ؟ قَالَ: لَا، قَالَ: فَمِنْ أَهْلِ السِّقَايَةِ أَنْتَ؟ قَالَ: لَا، قَالَ: فَمِنْ أَهْلِ النَّدَاوَةِ أَنْتَ؟ قَالَ: لَا، قَالَ: فَمِنْ أَهْلِ الرِّفَادَةِ أَنْتَ؟ قَالَ: فَاجْتَذَبَ أَبُو بَكْرٍ رضي الله عنه زِمَامَ النَّاقَةِ رَاجِعًا إِلَى رَسُولِ اللهِ ﷺ؛ فَقَالَ الْغُلَامُ:

صَادَفَ دَرَّ السَّيْلِ دَرًّا يَدْفَعُهْ ... يَهْضِبُهُ حِينًا وَحِينًا يَصْدَعُهْ

أَمَا وَاللهِ لَوْ ثَبَتَ لَأَخْبَرْتُكَ مَنْ قُرَيْشٌ قَالَ: فَتَبَسَّمَ رَسُولُ اللهِ ﷺ. قَالَ عَلِيٌّ: فَقُلْتُ: يَا أَبَا بَكْرٍ لَقَدْ وَقَعْتَ مِنَ الْأَعْرَابِيِّ عَلَى بَاقِعَةٍ. قَالَ: أَجَلْ أَبَا حَسَنٍ، مَا مِنْ طَامَّةٍ إِلَّا وَفَوْقَهَا طَامَّةٌ، وَالْبَلَاءُ مُوَكَّلٌ بِالْمَنْطِقِ قَالَ: ثُمَّ دَفَعْنَا إِلَى مَجْلِسٍ آخَرَ عَلَيْهِمُ السَّكِينَةُ وَالْوَقَارُ، فَتَقَدَّمَ أَبُو بَكْرٍ فَسَلَّمَ، فَقَالَ: مِمَّنِ الْقَوْمُ؟ قَالُوا: مِنْ شَيْبَانَ بْنِ ثَعْلَبَةَ، فَالْتَفَتَ أَبُو بَكْرٍ رضي الله عنه إِلَى رَسُولِ اللهِ ﷺ؛ فَقَالَ: بِأَبِي أَنْتَ وَأُمِّي

هَؤُلَاءِ غُرَرُ النَّاسِ، وَفِيهِمْ مَفْرُوقُ بْنُ عَمْرٍو، وَهَانِئُ ابْنُ قَبِيصَةَ، وَالْمُثَنَّى بْنُ حَارِثَةَ، وَالنُّعْمَانُ بْنُ شَرِيكٍ، وَكَانَ مَفْرُوقٌ قَدْ غَلَبَهُمْ جَمَالًا وَلِسَانًا، وَكَانَتْ لَهُ غَدِيرَتَانِ تَسْقُطَانِ عَلَى تَرِيبَتِهِ، وَكَانَ أَدْنَى الْقَوْمِ مَجْلِسًا، فَقَالَ أَبُو بَكْرٍ رضي الله عنه: كَيْفَ الْعَدَدُ فِيكُمْ؟ فَقَالَ مَفْرُوقٌ: إِنَّا لَنَزِيدُ عَلَى أَلْفٍ، وَلَنْ تُغْلَبَ أَلْفٌ مِنْ قِلَّةٍ؛ فَقَالَ أَبُو بَكْرٍ: وَكَيْفَ الْمَنَعَةُ فِيكُمْ؟ فَقَالَ الْمَفْرُوقُ: عَلَيْنَا الْجَهْدُ وَلِكُلِّ قَوْمٍ جَهْدٌ؛ فَقَالَ أَبُو بَكْرٍ رضي الله عنه: كَيْفَ الْحَرْبُ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَ عَدُوِّكُمْ؟ فَقَالَ مَفْرُوقٌ: إِنَّا لَأَشَدُّ مَا نَكُونُ غَضَبًا حِينَ نَلْقَى، وَإِنَّا لَأَشَدُّ مَا نَكُونُ لِقَاءً حِينَ نَغْضَبُ، وَإِنَّا لَنُؤْثِرُ الْجِيَادَ عَلَى الْأَوْلَادِ، وَالسِّلَاحَ عَلَى اللِّقَاحِ، وَالنَّصْرُ مِنْ عِنْدِ اللهِ، يُدِيلُنَا مَرَّةً وَيُدِيلُ عَلَيْنَا أُخْرَى، لَعَلَّكَ أَخَا قُرَيْشٍ؛ فَقَالَ أَبُو بَكْرٍ رضي الله عنه: قَدْ بَلَغَكُمْ أَنَّهُ رَسُولُ اللهِ أَلَا هُوَ ذَا، فَقَالَ مَفْرُوقٌ: بَلَغَنَا أَنَّهُ يَذْكُرُ ذَاكَ، فَإِلَى مَا تَدْعُو يَا أَخَا قُرَيْشٍ؟ فَتَقَدَّمَ رَسُولُ اللهِ صلى الله عليه وسلم فَجَلَسَ وَقَامَ أَبُو بَكْرٍ رضي الله عنه يُظِلُّهُ بِثَوْبِهِ؛ فَقَالَ رَسُولُ اللهِ صلى الله عليه وسلم: **«أَدْعُوكُمْ إِلَى شَهَادَةِ أَلَّا إِلَهَ إِلَّا اللهُ وَحْدَهُ لَا شَرِيكَ لَهُ، وَأَنَّ مُحَمَّدًا عَبْدُهُ وَرَسُولُهُ، وَإِلَى أَنْ تُؤْوُونِي وَتَنْصُرُونِي؛ فَإِنَّ قُرَيْشًا قَدْ ظَاهَرَتْ عَلَى أَمْرِ اللهِ، وَكَذَّبَتْ رُسُلَهُ، وَاسْتَغْنَتْ بِالْبَاطِلِ عَنِ الْحَقِّ، وَاللهُ هُوَ الْغَنِيُّ الْحَمِيدُ»**.

فَقَالَ مَفْرُوقُ بْنُ عَمْرٍو (١): وَإِلَامَ تَدْعُونَا يَا أَخَا قُرَيْشٍ؟ فَوَاللهِ مَا سَمِعْتُ

---

(١) هو مفروق بن عمرو (الأصم) بن قيس بن مسعود بن عامر بن عمرو بن أبي ربيعة بن ذهل بن شيبان بن ثعلبة بن عكابة بن صعب بن علي بن بكر بن وائل الشيباني. واسم مفروق: النعمان، وهو بمفروق أشهر. قال ابن الأثير: «قال أبو نعيم: «ولا أعرف لمفروق إسلامًا». قال الزركليّ: «فارس شاعر جاهلي، من سادات بني شيبان. أدرك الإسلام، ووفد على النبي صلى الله عليه وسلم مع جماعة من بني شيبان؛ فكان أطلقهم لسانًا، وأجملهم طلعة».

● راجع: «معرفة الصحابة» لأبي نعيم (ترجمة النعمان بن شريك) (٥/ ٢٦٦٤) ط الوطن، و«أسد الغابة» (٤/ ١٨٣)، و«الإصابة» (٦/ ٣٧١)، و«الأعلام» (٧/ ٢٧٨) للزركليّ.

كَلَامًا أَحْسَنَ مِنْ هَذَا، فَتَلَا رَسُولُ الله ﷺ: ﴿قُلْ تَعَالَوْا أَتْلُ مَا حَرَّمَ رَبُّكُمْ عَلَيْكُمْ﴾ إِلَى: ﴿فَتَفَرَّقَ بِكُمْ عَن سَبِيلِهِۦ ذَٰلِكُمْ وَصَّىٰكُم بِهِۦ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ﴾ [الأنعام:١٥١-١٥٣].

فَقَالَ مَفْرُوقٌ: وَإِلَامَ تَدْعُونَا يَا أَخَا قُرَيْشٍ؟ فَوَالله مَا هَذَا مِنْ كَلَامِ أَهْلِ الْأَرْضِ، قَالَ: فَتَلَا رَسُولُ الله ﷺ: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يَأْمُرُ بِٱلْعَدْلِ وَٱلْإِحْسَٰنِ وَإِيتَآيِٕ ذِى ٱلْقُرْبَىٰ وَيَنْهَىٰ عَنِ ٱلْفَحْشَآءِ وَٱلْمُنكَرِ وَٱلْبَغْيِ ۚ يَعِظُكُمْ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ﴾ [النحل:٩٠].

فَقَالَ مَفْرُوقُ بْنُ عَمْرٍو: دَعَوْتَ وَالله يَا أَخَا قُرَيْشٍ إِلَى مَكَارِمِ الْأَخْلَاقِ، وَمَحَاسِنِ الْأَعْمَالِ، وَلَقَدْ أَفِكَ قَوْمٌ كَذَّبُوكَ وَظَاهَرُوا عَلَيْكَ... فَقَالَ رَسُولُ الله ﷺ: «**مَا أَسَأْتُمْ فِي الرَّدِّ إِذْ أَفْصَحْتُمْ بِالصِّدْقِ، وَإِنَّ دِينَ الله لَنْ يَنْصُرَهُ إِلَّا مَنْ حَاطَهُ مِنْ جَمِيعِ جَوَانِبِهِ، أَرَأَيْتُمْ إِنْ لَمْ تَلْبَثُوا إِلَّا قَلِيلًا حَتَّى يُورِثَكُمُ الله أَرْضَهُمْ وَدِيَارَهُمْ وَأَمْوَالَهُمْ، وَيُفْرِشَكُمْ نِسَاءَهُمْ، أَتُسَبِّحُونَ الله وَتُقَدِّسُونَهُ؟**»؛ فَقَالَ النُّعْمَانُ بْنُ شَرِيكٍ: اللهمَّ فَلَكَ ذَلِكَ، قَالَ: فَتَلَا رَسُولُ الله ﷺ: «﴿إِنَّآ أَرْسَلْنَٰكَ شَٰهِدًا وَمُبَشِّرًا وَنَذِيرًا﴾ [الأحزاب:٤٥]...».

وَفِي «**مُصَنَّفِ**» **ابْنِ أَبِي شَيْبَةَ، وَالْبُخَارِيِّ فِي** «**خَلْقِ أَفْعَالِ الْعِبَادِ**»، **وَ**«**سُنَنِ**» **أَبِي دَاوُدَ وَالتِّرْمِذِيِّ وَابْنِ مَاجَهْ وَالدَّارِمِيِّ، وَ**«**مُسْتَدْرَكِ**» **الْحَاكِمِ، وَ**«**الْأَوْسَطِ**» **لِلطَّبَرَانِيِّ** [١] بِسَنَدٍ حَسَنٍ مِنْ حَدِيثِ جَابِرِ بْنِ عَبْدِ الله رضي الله عنهما قَالَ: «كَانَ

---

(١) أخرجه ابن أبي شيبة في «مصنفه» (٨/ ٤٤٧) ط الفكر، والبخاريُّ في «خلق أفعال العباد» (٦٦)، وأبو داود، كتاب السنة، باب في القرآن (٤٧٣٤)، والترمذيُّ، كتاب فضائل القرآن، باب (٢٤) (٢٩٢٥)، وقال: «غريب صحيح»، وابن ماجة في المقدمة، باب فيما أنكرت الجهمية (٢٠١)، والدارمي (٣٣٥٤)، والحاكم (٢/ ٦٦٩)، =

رَسُولُ الله ﷺ يَعْرِضُ نَفْسَهُ عَلَى النَّاسِ بِالْمَوْقِفِ؛ فَيَقُولُ: «**هَلْ مِنْ رَجُلٍ يَحْمِلُنِي إِلَى قَوْمِهِ؛ فَإِنَّ قُرَيْشًا قَدْ مَنَعُونِي أَنْ أُبَلِّغَ كَلامَ رَبِّي** ﷻ»، فَأَتَاهُ رَجُلٌ مِنْ هَمْدَانَ فَقَالَ: «**مِمَّنْ أَنْتَ؟**»، فَقَالَ الرَّجُلُ: مِنْ هَمْدَانَ، قَالَ: «**فَهَلْ عِنْدَ قَوْمِكَ مِنْ مَنَعَةٍ؟**»، قَالَ: نَعَمْ، ثُمَّ إِنَّ الرَّجُلَ خَشِيَ أَنْ يَخْفِرَهُ قَوْمُهُ (١)، فَأَتَى رَسُولَ الله ﷺ؛ فَقَالَ: «آتِيهِمْ فَأُخْبِرُهُمْ، ثُمَّ آتِيكَ مِنْ عَامٍ قَابِلٍ»، قَالَ: «**نَعَمْ**»، فَانْطَلَقَ وَجَاءَ وَفْدُ الأَنْصَارِ فِي رَجَبٍ.

= وصحَّحَه، ووافقه الذهبيُّ، والطبرانيُّ في «الأوسط» (٦٨٤٧)، وصحَّحَه الألبانيُّ على شرط البخاريِّ؛ كما في «الصحيحة» (١٩٤٧).

(١) أخفرتَ الرجل: إذا نقضتَ عهده وذمامه. انظر: «النهاية» (١/ ٥١٠).

دَعْوَتُهُ ﷺ لِلأَنْصَارِ

قَدْ تَتَفَجَّرُ الْأَنْهَارُ مِنَ الْحِجَارَةِ الْقَاسِيَةِ، وَتَشَّقَّقُ فَيَخْرُجُ مِنْهَا الْمَاءُ، وَقَدْ تَحْمِلُ السَّحَابَةُ السَّوْدَاءُ الْغَيْثَ الَّذِي يُحَوِّلُ الْأَرْضَ الْجَرْدَاءَ إِلَى جَنَّاتٍ خَضْرَاءَ، وَحَدَائِقَ غَنَّاءَ.

وَقَدْ يَنْبَلِجُ سَوَادُ اللَّيْلِ عَنْ ضِيَاءِ الْفَجْرِ، وَمِنْ رَحِمِ الظَّلَامِ يُولَدُ النُّورُ.

فَلَمْ يَكُنْ مَجْلِسُ مَفْرُوقِ بْنِ عَمْرٍو عَطَاءً تَامًّا وَلَا كَسْبًا كَامِلًا لِلْإِسْلَامِ، وَلَكِنَّهُ لَمْ يَكُنْ سَبًّا وَلَا شَتْمًا وَلَا طَرْدًا، وَلَا رَمْيًا لِلْوُجُوهِ بِالتُّرَابِ.

بَلْ كَانَ رَطْبًا ثَرِيًّا يُؤَكِّدُ بِأَنَّ فِي الصَّحْرَاءِ مَاءً، وَبِأَنَّهُ بَيْنَ الْقُلُوبِ الْقَاسِيَةِ قُلُوبًا تُجَدِّدُ الْأَمَلَ، وَبِأَنَّهُ بَيْنَ الشُّقُوقِ الْوَاسِعَةِ نَبْعًا صَافِيًا يُحِيلُهَا إِلَى حَيَاةٍ!!

وَهَا هُوَ الْأَمَلُ يَتَحَوَّلُ إِلَى حَقِيقَةٍ وَاقِعَةٍ مُشْرِقَةٍ مُتَأَلِّقَةٍ بِلِقَاءِ الْغُرَبَاءِ.. بِلِقَاءِ الْأَنْصَارِ الْأَخْيَارِ الَّذِينَ انْفَتَحَتْ قُلُوبُهُمْ عَنْ آخِرِهَا لِلْحَقِّ الَّذِي عَرَضَهُ عَلَيْهِمُ النَّبِيُّ ﷺ، وَحَمَلُوهُ وَابْتَهَجُوا بِهِ وَكَانَ فَخْرًا لَهُمْ عَلَى مَدَى الْأَيَّامِ وَإِلَى آخِرِهَا، وَحُقَّ لَهُمْ أَنْ يَفْخَرُوا بِذَلِكَ حِينَ تُقَدَّمُ الْمَفَاخِرُ وَالْإِنْجَازَاتُ.

فَفِي «مُسْنَدِ» أَحْمَدَ، وَ«تَارِيخِ» الطَّبَرِيِّ، وَ«دَلَائِلِ» الْبَيْهَقِيِّ، وَ«مُعْجَمِ» الطَّبَرَانِيِّ بِسَنَدٍ حَسَنٍ (١) مِنْ حَدِيثِ مَحْمُودِ بْنِ لَبِيدٍ أَخِي بَنِي ....

---

(١) أخرجه أحمد (٥/ ٤٢٧)، والبخاريُّ في «تاريخه» (١٤١٧) ط الفكر، والحاكم (٣/ ١٩٨) ط العلمية، وصحَّحه على شرط مسلم، وقال الذهبيُّ: «مرسل»، والطبريُّ في «تفسيره» (٧٥٨٦)، وفي «تاريخه» (١/ ٥٥٧)، وابن إسحاق؛ كما في «سيرة ابن هشام» (٢/ ٢٧٥)، والطبراني في «الكبير» (١/ ٢٧٦) (٨٠٥)، وابن الأثير في «أسد الغابة» (١/ ٩٩)، والبيهقيُّ في «الدلائل» (٢/ ٤٢٠)، وأبو نعيم في «معرفة الصحابة» (٨٣٩، ٩٥٤)؛ قال الحافظ في «الإصابة» (١/ ١٦٧): «رواه جماعة عن ابن إسحاق

=

عَبْدِ الْأَشْهَلِ(١) قَالَ: لَمَّا قَدِمَ أَبُو الْحَيْسَرِ أَنَسُ ابْنُ رَافِعٍ(٢) مَكَّةَ، وَمَعَهُ فِتْيَةٌ مِنْ بَنِي عَبْدِ الأَشْهَلِ، فِيهِمْ إِيَاسُ بْنُ مُعَاذٍ(٣)، يَلْتَمِسُونَ الْحِلْفَ مِنْ قُرَيْشٍ عَلَى قَوْمِهِمْ مِنَ الْخَزْرَجِ، سَمِعَ بِهِمْ رَسُولُ الله ﷺ، فَأَتَاهُمْ فَجَلَسَ إِلَيْهِمْ؛ فَقَالَ: «هَلْ لَكُمْ إِلَى خَيْرٍ مِمَّا جِئْتُمْ لَهُ؟». قَالُوا: وَمَا ذَاكَ؟ قَالَ: «أَنَا رَسُولُ الله بَعَثَنِي إِلَى الْعِبَادِ، أَدْعُوهُمْ إِلَى أَنْ يَعْبُدُوا الله لاَ يُشْرِكُوا بِهِ شَيْئًا، وَأَنْزَلَ عَلَيَّ كِتَابًا»، ثُمَّ ذَكَرَ الإِسْلاَمَ، وَتَلاَ عَلَيْهِمُ الْقُرْآنَ.

قَالَ: فَقَالَ إِيَاسُ بْنُ مُعَاذٍ، وَكَانَ غُلاَمًا حَدَثًا: أَيْ قَوْمِ، هَذَا والله خَيْرٌ مِمَّا جِئْتُمْ لَهُ.

قَالَ: فَأَخَذَ أَبُو الحَيْسَرِ أَنَسُ بْنُ رَافِعٍ حَفْنَةً مِنَ الْبَطْحَاءِ، فَضَرَبَ بِهَا وَجْهَ إِيَاسِ بْنِ مُعَاذٍ، وَقَامَ رَسُولُ الله ﷺ، وَانْصَرَفُوا إِلَى الْمَدِينَةِ، فَكَانَتْ وَقْعَةُ بُعَاثٍ

= هكذا، وهو من صحيح حديثه»، وحسَّن إسناده الشيخ شعيب في تحقيقه «المسند».

(١) هو محمود بن لبيد بن رافع بن امرئ القيس بن زيد بن عبد الأشهل الأنصاري، الأوسي الأشهلي، قال البخاري: له صحبة، وولد على عهد رَسُول الله ﷺ، وأقام بالمدينة، وحدث عن النبيِّ ﷺ أحاديث، وكان من العلماء، وقال ابن عبد البر: إن محمود بن لبيد أسنُّ من محمود بن الربيع، روى عن ابن عباس، ومات سنة ست وتسعين.

● راجع: «الاستيعاب» (١٣٦٤)، و«أسد الغابة» (٤٧٨١)، و«الإصابة» (٧٨٣٨).

(٢) هو أنس بن رافع بن امرئ القيس بن زيد بن عبد الأشهل أبو الحيسر، قدم على النبي ﷺ في فتية من بني عبد الأشهل، فأتاهم النبيُّ ﷺ يدعوهم إلى الإسلام، وفيهم إياس ابن معاذ، وكانوا قدموا مكة يلتمسون الحلف من قريش على قومهم.

● راجع: «أسد الغابة» (٢٤٨)، و«معرفة الصحابة» لأبي نعيم (١/ ٢٢٤) ط الوطن.

(٣) إياس بن معاذ الأنصاريُّ الأوسيُّ الأشهليُّ؛ قال ابن السكن وابن حبان: «له صحبة»، وذكره البخاريُّ في «تاريخه الأوسط» فيمن مات على عهد النبي ﷺ من المهاجرين الأولين والأنصار، وترجم له في «التاريخ الكبير».

● راجع: «الاستيعاب» (١٢٧)، و«أسد الغابة» (٣٤٧)، و«الإصابة» (٣٨٧).

بَيْنَ الأَوْسِ وَالْخَزْرَجِ، قَالَ: ثُمَّ لَمْ يَلْبَثْ إِيَاسُ بْنُ مُعَاذٍ أَنْ هَلَكَ، قَالَ مَحْمُودُ بْنُ لَبِيدٍ: فَأَخْبَرَنِي مَنْ حَضَرَهُ مِنْ قَوْمِي أَنَّهُمْ لَمْ يَزَالُوا يَسْمَعُونَهُ يُهَلِّلُ اللهَ وَيُكَبِّرُهُ وَيَحْمَدُهُ وَيُسَبِّحُهُ حَتَّى مَاتَ، فَمَا كَانُوا يَشُكُّونَ أَنْ قَدْ مَاتَ مُسْلِمًا، لَقَدْ كَانَ اسْتَشْعَرَ الإِسْلاَمَ فِي ذَلِكَ الْمَجْلِسِ، حِينَ سَمِعَ مِنْ رَسُولِ اللهِ ﷺ مَا سَمِعَ.

وَفِي «مُسْنَدِ» أَحْمَدَ (١) مِنْ حَدِيثِ عُبَادَةَ بْنِ الصَّامِتِ (٢) رضي الله عنه قَالَ: كُنْتُ فِيمَنْ حَضَرَ الْعَقَبَةَ الأُولَى، وَكُنَّا اثْنَي عَشَرَ رَجُلاً، فَبَايَعْنَا رَسُولَ اللهِ ﷺ عَلَى بَيعَةِ النِّسَاءِ - وَذَلِكَ قَبْلَ أَنْ يُفْتَرَضَ الْحَرْبُ- عَلَى أَنْ لاَ نُشْرِكَ بِاللهِ شَيْئًا، وَلاَ نَسْرِقَ، وَلاَ نَزْنِيَ، وَلاَ نَقْتُلَ أَوْلاَدَنَا، وَلاَ نَأْتِيَ بِبُهْتَانٍ نَفْتَرِيهِ بَيْنَ أَيْدِينَا وَأَرْجُلِنَا، وَلاَ نَعْصِيَهُ فِي مَعْرُوفٍ: «**فَإِنْ وَفَّيْتُمْ فَلَكُمُ الْجَنَّةُ، وَإِنْ غَشِيتُمْ مِنْ ذَلِكَ شَيْئًا فَأَمْرُكُمْ إِلَى اللهِ، إِنْ شَاءَ عَذَّبَكُمْ وَإِنْ شَاءَ غَفَرَ لَكُمْ**».

وَفِي «مُسْنَدِ» أَحْمَدَ، وَ«مُسْتَدْرَكِ» الْحَاكِمِ، وَ«مُسْنَدِ» أَبِي يَعْلَى، وَ«صَحِيحِ» ابْنِ حِبَّانَ، وَ«السُّنَنِ الْكَبِيرِ» لِلْبَيْهَقِيِّ، وَ«مُسْنَدِ» الْبَزَّارِ (٣) بِسَنَدٍ حَسَنٍ (٤) مِنْ

---

(١) أخرجه أحمد (٥/ ٣٢٣)، وأصلُه في «الصحيحين» [البخاريّ (١٨، ٣٨٩٢، ٣٨٩٣، ٣٩٩٩ و..)، ومسلمٌ (١٧٠٩)].

(٢) هو عبادة بن الصامت بن قيس بن أصرم بن فهر بن قيس بن ثعلبة الخزرجيُّ الأنصاريُّ، أبو الوليد، شهد بدرًا والمشاهد كلَّها، وكان أحد النقباء بالعقبة، وشهد العقبة الأولى والثانية والثالثة، وآخى رَسُول الله ﷺ بينه وبين أبي مرثد الغنوي، واستعمله النبيُّ ﷺ على بعض الصدقات؛ توفي سنة أربع وثلاثين بالرملة، وقيل: إنه عاش إلى سنة خمس وأربعين.

● راجع: «الاستيعاب» (١٣٧٣)، و«الإصابة» (٤٥١٤)، و«أسد الغابة» (٢٧٩١).

(٣) هو الإمام الحافظ الكبير أحمد بن عمرو بن عبد الخالق، أبو بكر العتكيُّ البصريُّ البزار، ولد سنة نيف عشرة ومائتين، كان حافظًا للحديث، صاحب «المسند الكبير»، سمع هدبة بن خالد، وعمرو بن الفلاس وغيرهما. توفي سنة اثنتين وتسعين ومائتين.

● راجع: «تاريخ بغداد» (٤/ ٣٣٤)، و«سير أعلام النبلاء» (٢٦٥٩).

(٤) أخرجه أحمد في «مسنده» (٣/ ٣٢٢، ٣٢٣، ٣٣٩)، والحاكم (٢/ ٦٢٤، ٦٢٥)، وقال: «هذا حديث صحيح الإسناد، جامع لبيعة العقبة، ولم يخرجاه»، ووافقه الذهبيُّ، =

حَدِيثِ جَابِرِ بْنِ عَبْدِ اللهِ رضي الله عنهما قَالَ: مَكَثَ رَسُولُ اللهِ ﷺ بِمَكَّةَ عَشْرَ سِنِينَ، يَتْبَعُ النَّاسَ فِي مَنَازِلِهِمْ بِعُكَاظٍ وَمَجَنَّةَ، وَفِي الْمَوَاسِمِ بِمِنًى، يَقُولُ: «**مَنْ يُؤْوِينِي، مَنْ يَنْصُرُنِي حَتَّى أُبَلِّغَ رِسَالَةَ رَبِّي وَلَهُ الْجَنَّةُ**»، حَتَّى إِنَّ الرَّجُلَ لَيَخْرُجُ مِنَ الْيَمَنِ، أَوْ مِنْ مُضَرَ - كَذَا قَالَ- فَيَأْتِيهِ قَوْمُهُ فَيَقُولُونَ: احْذَرْ غُلَامَ قُرَيْشٍ، لَا يَفْتِنْكَ، وَيَمْشِي بَيْنَ رِجَالِهِمْ وَهُمْ يُشِيرُونَ إِلَيْهِ بِالْأَصَابِعِ، حَتَّى بَعَثَنَا اللهُ إِلَيْهِ مِنْ يَثْرِبَ، فَآوَيْنَاهُ، وَصَدَّقْنَاهُ، فَيَخْرُجُ الرَّجُلُ مِنَّا فَيُؤْمِنُ بِهِ، وَيُقْرِئُهُ الْقُرْآنَ، فَيَنْقَلِبُ إِلَى أَهْلِهِ، فَيُسْلِمُونَ بِإِسْلَامِهِ، حَتَّى لَمْ يَبْقَ دَارٌ مِنْ دُورِ الْأَنْصَارِ إِلَّا وَفِيهَا رَهْطٌ مِنَ الْمُسْلِمِينَ، يُظْهِرُونَ الْإِسْلَامَ، ثُمَّ ائْتَمَرُوا جَمِيعًا، فَقُلْنَا: حَتَّى مَتَى نَتْرُكُ رَسُولَ اللهِ ﷺ يُطْرَدُ فِي جِبَالِ مَكَّةَ، وَيَخَافُ؟ فَرَحَلَ إِلَيْهِ مِنَّا سَبْعُونَ رَجُلًا، حَتَّى قَدِمُوا عَلَيْهِ فِي الْمَوْسِمِ، فَوَاعَدْنَاهُ شِعْبَ الْعَقَبَةِ، فَاجْتَمَعْنَا عَلَيْهِ مِنْ رَجُلٍ وَرَجُلَيْنِ، حَتَّى تَوَافَيْنَا؛ فَقُلْنَا: يَا رَسُولَ اللهِ عَلَى مَا نُبَايِعُكَ؟ قَالَ: «**تُبَايِعُونِي عَلَى السَّمْعِ وَالطَّاعَةِ فِي النَّشَاطِ وَالْكَسَلِ، وَالنَّفَقَةِ فِي الْعُسْرِ وَالْيُسْرِ، وَعَلَى الْأَمْرِ بِالْمَعْرُوفِ وَالنَّهْيِ عَنِ الْمُنْكَرِ، وَأَنْ تَقُولُوا فِي اللهِ لَا تَخَافُونَ فِي اللهِ لَوْمَةَ لَائِمٍ، وَعَلَى أَنْ تَنْصُرُونِي، فَتَمْنَعُونِي إِذَا قَدِمْتُ عَلَيْكُمْ مِمَّا تَمْنَعُونَ مِنْهُ أَنْفُسَكُمْ، وَأَزْوَاجَكُمْ، وَأَبْنَاءَكُمْ، وَلَكُمُ الْجَنَّةُ..**».

❀◊❀

= وأبو يعلى (١٨٨٧) مختصرًا، وابن حبان (٦٢٧٤و ٧٠١٢)، واللالكائيُّ في «اعتقاد أهل السنة» (١٤٢١)، والبيهقيُّ في «الكبرى» (٩/ ٩)، وفي «الدلائل» (٢/ ٤٤٢ - ٤٤٤)، والبزار (١٧٥٦)، وجوده ابن كثير في «البداية والنهاية» (٣/ ١٥٩، ١٦٠)، وحسَّنه الحافظ في «الفتح» (٧/ ٢٦٣)، وصحَّحه الألبانيُّ في «الصحيحة» (٦٣).

صُمُودُهُ ﷺ فِي دَعْوَتِهِ أَمَامَ الْمُشْرِكِينَ

لَقَدْ كَانَ مَوْقِفُ قُرَيْشٍ مِنْ دَعْوَةِ النَّبِيِّ ﷺ الْعَدَاءَ الْوَاضِحَ، لَكِنَّهُمْ عَجَزُوا أَنْ يُوقِفُوا نُورَ النُّبُوَّةِ الْبَاهِرِ؛ فَانْطَلَقُوا يَطْلُبُونَ مِنْ أَبِي طَالِبٍ الْحَدَّ مِنْ نَشَاطِ النَّبِيِّ ﷺ !!

كَمَا فِي «مُسْتَدْرَكِ» الْحَاكِمِ، وَ«مُسْنَدِ» أَبِي يَعْلَى، وَ«مُعْجَمِ» الطَّبَرَانِيِّ «الْكَبِيرِ» وَ«الْأَوْسَطِ»، وَ«التَّارِيخِ الْكَبِيرِ» لِلْبُخَارِيِّ [1] مِنْ حَدِيثِ عَقِيلِ بْنِ أَبِي طَالِبٍ رضي الله عنه قَالَ: «جَاءَتْ قُرَيْشٌ إِلَى أَبِي طَالِبٍ فَقَالُوا: إِنَّ ابْنَ أَخِيكَ يُؤْذِينَا فِي نَادِينَا وَمَسْجِدِنَا، فَانْهَهُ عَنَّا؛ قَالَ: يَا عَقِيلُ انْطَلِقْ فَأْتِنِي بِمُحَمَّدٍ، فَاسْتَخْرَجْتُهُ مِنْ كِبْسٍ، أَوْ قَالَ: حِفْشٍ، يَقُولُ: بَيْتٌ صَغِيرٌ، فَجَاءَ بِهِ فِي الظَّهِيرَةِ فِي شِدَّةِ الْحَرِّ، فَلَمَّا أَتَاهُمْ قَالَ: إِنَّ بَنِي عَمِّكَ هَؤُلَاءِ قَدْ زَعَمُوا أَنَّكَ تُؤْذِيهِمْ فِي نَادِيهِمْ وَمَسْجِدِهِمْ، فَانْتَهِ عَنْ أَذَاهُمْ، فَحَلَّقَ رَسُولُ اللهِ ﷺ بِبَصَرِهِ إِلَى السَّمَاءِ؛ فَقَالَ: **«تَرَوْنَ هَذِهِ الشَّمْسَ؟»** قَالُوا: نَعَمْ، قَالَ: **«فَمَا أَنَا بِأَقْدَرَ عَلَى أَنْ أَدَعَ ذَلِكَ مِنْكُمْ عَلَى أَنْ تُشْعِلُوا مِنْهَا بِشُعْلَةٍ»**. وَفِي رِوَايَةٍ: **«وَاللهِ مَا أَنَا بِأَقْدَرَ أَنْ أَدَعَ مَا بُعِثْتُ بِهِ مِنْ أَنْ يُشْعِلَ أَحَدُكُمْ مِنْ هَذِهِ الشَّمْسِ شُعْلَةً مِنْ نَارٍ»**.

---

(١) أخرجه الحاكم (٣/ ٦٦٨)، والبخاريُّ في «تاريخه» (٧/ ٥٠)- معلقًا-، والطبرانيُّ في «الكبير» (١٧/ ١٩١) (٥١١)، و«الأوسط» (٨٥٥٣)، وابن إسحاق في «السيرة» (١٣٦)، وأبو يعلى في «مسنده» (٦٨٠٤)، والبزار في «مسنده» (٢١٧٠)، والبيهقيُّ في «الدلائل» (٢/ ١٨٦)، وابن عساكر في «تاريخه» (٤١/ ٤) و(٦٦/ ٣١٥)، وقال البوصيريُّ في «إتحاف الخيرة» (٧/ ١١): «رواته ثقات»، وقال الهيثميُّ في «المجمع» (٥/ ٤٢٨): «رواه الطبراني في الأوسط والكبير وأبو يعلى باختصارٍ يسيرٍ من أوله، ورجال أبي يعلى رجال الصحيح»، وحسَّن إسناده الحافظ في «المطالب العالية» (٤٢٢٧)، وكذا الألباني في «الصحيحة» (٩٢).

فَقَالَ أَبُو طَالِبٍ: وَاللهِ مَا كَذَبَ ابْنُ أَخِي قَطُّ، فَارْجِعُوا رَاشِدِينَ.

وَهَذِهِ شَهَادَةٌ لِلنَّبِيِّ ﷺ بِأَنَّهُ مَا كَذَبَ قَطُّ، وَهَذَا كَفِيلٌ بِأَنْ يُصَدِّقُوهُ، وَيُؤْمِنُوا بِهِ، وَيَتَّبِعُوهُ، وَلَكِنْ صَدَقَ اللهُ إِذْ يَقُولُ: ﴿وَجَحَدُوا بِهَا وَاسْتَيْقَنَتْهَا أَنفُسُهُمْ ظُلْمًا وَعُلُوًّا﴾ [النمل:١٤].

وَفِي «سُنَنِ» النَّسَائِيِّ وَالتِّرْمِذِيِّ، وَ«مُسْنَدِ» أَحْمَدَ، وَ«مُسْتَدْرَكِ» الْحَاكِمِ، وَ«مُسْنَدِ» أَبِي يَعْلَى وَغَيْرِهِمْ (١) مِنْ حَدِيثِ ابْنِ عَبَّاسٍ رضي الله عنهما قَالَ: «مَرِضَ أَبُو طَالِبٍ، فَأَتَتْهُ قُرَيْشٌ، وَأَتَاهُ رَسُولُ اللهِ ﷺ يَعُودُهُ، وَعِنْدَ رَأْسِهِ مَقْعَدُ رَجُلٍ، فَجَاءَ أَبُو جَهْلٍ فَقَعَدَ فِيهِ، ثُمَّ قَالَ: أَلَا تَرَى إِلَى ابْنِ أَخِيكَ يَقَعُ فِي آلِهَتِنَا؟ فَقَالَ: ابْنَ أَخِي مَا لِقَوْمِكَ يَشْكُونَكَ؟ قَالَ: «**أُرِيدُهُمْ عَلَى كَلِمَةٍ تَدِينُ لَهُمْ بِهَا الْعَرَبُ، وَتُؤَدِّي إِلَيْهِمُ الْعَجَمُ الْجِزْيَةَ**»، قَالَ: وَمَا هِيَ؟ قَالَ: «**لَا إِلَهَ إِلَّا اللهُ**»، فَقَالُوا: ﴿أَجَعَلَ الْآلِهَةَ إِلَهًا وَاحِدًا﴾ فَنَزَلَتْ «ص» فَقَرَأَ حَتَّى بَلَغَ: ﴿عُجَابٌ﴾».

وَفِي «مُسْنَدِ» أَحْمَدَ وَالْبَزَّارِ (٢) مِنْ حَدِيثِ عَبْدِ اللهِ بْنِ عَمْرِو بْنِ الْعَاصِ

---

(١) أخرجه أحمد (١/ ٢٢٧، ٣٦٢)، والترمذيُّ، كتاب تفسير القرآن، باب ومن سورة ص (٣٢٣٢)، وقال: «حسن صحيح»، والنسائي في «الكبرى» (٨٧٦٩، ١١٤٣٦)، وابن أبي شيبة في «مصنفه» (٣٦٥٦٤) ط الرشد، والطبري في «تفسيره» (٢١/ ١٥٠) ط الرسالة، وابن حبان (٦٦٨٦)، وأبو يعلى (٢٥٨٣)، والطحاوي في «المشكل» (٥/ ١١٦)، والبيهقي في «الكبرى» (٩/ ١٨٨)، و«الدلائل» (٢/ ٣٤٥)، والضياء في «المختارة» (٤/ ٢٢٧)، وابن عساكر في «تاريخه» (٦٦/ ٣٢٢)، والواحدي في «أسباب النزول» (ص:٢٤٦)، وضعفه الشيخ شعيب في تحقيقه للمسند، والعلامة الألباني في «ضعيف الترمذي».

(٢) أخرجه أحمد (٢/ ٢٠٤، ٢١٨)، وابن حبان في «صحيحه» (٦٥٦٧)، والبزار في «مسنده» (٦/ ٤٥٨)، وابن إسحاق؛ كما في «السيرة» لابن هشام (٢/ ١٢٧)، والبيهقيُّ في «الدلائل» (٢/ ٢٧٤، ٢٧٥، ٢٧٦)، والطبريُّ في «تاريخه» (١/ ٥٤٨)، وابن عساكر في «تاريخه» (٢٥/ ١١)، وأبو نعيم في «الحلية» (٢/ ٢٥٧)، وقال الهيثميُّ في «المجمع»: (٥/ ٤٢٩): «رواه أحمد، وقد صرح ابن إسحاق بالسماع؛ وبقية رجاله =

ﷺ قَالَ: «حَضَرْتُهُمْ وَقَدِ اجْتَمَعَ أَشْرَافُهُمْ يَوْمًا فِي الْحِجْرِ، فَذَكَرُوا رَسُولَ الله ﷺ، فَقَالُوا: مَا رَأَيْنَا مِثْلَ مَا صَبَرْنَا عَلَيْهِ مِنْ هَذَا الرَّجُلِ قَطُّ، سَفَّهَ أَحْلَامَنَا، وَشَتَمَ آبَاءَنَا، وَعَابَ دِينَنَا، وَفَرَّقَ جَمَاعَتَنَا، وَسَبَّ آلِهَتَنَا، لَقَدْ صَبَرْنَا مِنْهُ عَلَى أَمْرٍ عَظِيمٍ، أَوْ كَمَا قَالُوا.

قَالَ: فَبَيْنَمَا هُمْ كَذَلِكَ إِذْ طَلَعَ عَلَيْهِمْ رَسُولُ الله ﷺ، فَأَقْبَلَ يَمْشِي حَتَّى اسْتَلَمَ الرُّكْنَ، ثُمَّ مَرَّ بِهِمْ طَائِفًا بِالْبَيْتِ، فَلَمَّا أَنْ مَرَّ بِهِمْ غَمَزُوهُ بِبَعْضِ مَا يَقُولُ، قَالَ: فَعَرَفْتُ ذَلِكَ فِي وَجْهِهِ، ثُمَّ مَضَى، فَلَمَّا مَرَّ بِهِمُ الثَّانِيَةَ، غَمَزُوهُ بِمِثْلِهَا، فَعَرَفْتُ ذَلِكَ فِي وَجْهِهِ، ثُمَّ مَضَى، ثُمَّ مَرَّ بِهِمُ الثَّالِثَةَ، فَغَمَزُوهُ بِمِثْلِهَا؛ فَقَالَ: **«تَسْمَعُونَ يَا مَعْشَرَ قُرَيْشٍ، أَمَا وَالَّذِي نَفْسُ مُحَمَّدٍ بِيَدِهِ لَقَدْ جِئْتُكُمْ بِالذَّبْحِ»**، فَأَخَذَتِ الْقَوْمَ كَلِمَتُهُ، حَتَّى مَا مِنْهُمْ رَجُلٌ إِلَّا كَأَنَّمَا عَلَى رَأْسِهِ طَائِرٌ وَاقِعٌ، حَتَّى إِنَّ أَشَدَّهُمْ فِيهِ وَصَاةً قَبْلَ ذَلِكَ لَيَرْفَؤُهُ بِأَحْسَنِ مَا يَجِدُ مِنَ الْقَوْلِ، حَتَّى إِنَّهُ لَيَقُولُ: انْصَرِفْ يَا أَبَا الْقَاسِمِ، انْصَرِفْ رَاشِدًا؛ فَوَالله مَا كُنْتَ جَهُولًا.

قَالَ: فَانْصَرَفَ رَسُولُ الله ﷺ حَتَّى إِذَا كَانَ الْغَدُ اجْتَمَعُوا فِي الْحِجْرِ، وَأَنَا مَعَهُمْ؛ فَقَالَ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ: ذَكَرْتُمْ مَا بَلَغَ مِنْكُمْ، وَمَا بَلَغَكُمْ عَنْهُ، حَتَّى إِذَا بَادَأَكُمْ بِمَا تَكْرَهُونَ تَرَكْتُمُوهُ، فَبَيْنَمَا هُمْ فِي ذَلِكَ، إِذْ طَلَعَ رَسُولُ الله ﷺ، فَوَثَبُوا إِلَيْهِ وَثْبَةَ رَجُلٍ وَاحِدٍ، فَأَحَاطُوا بِهِ يَقُولُونَ لَهُ: أَنْتَ الَّذِي تَقُولُ كَذَا وَكَذَا؟ لِمَا كَانَ يَبْلُغُهُمْ عَنْهُ مِنْ عَيْبِ آلِهَتِهِمْ وَدِينِهِمْ، قَالَ: فَيَقُولُ رَسُولُ الله ﷺ: **«نَعَمْ أَنَا الَّذِي أَقُولُ ذَلِكَ»**، قَالَ: فَلَقَدْ رَأَيْتُ رَجُلًا مِنْهُمْ أَخَذَ بِمَجْمَعِ رِدَائِهِ، قَالَ: وَقَامَ أَبُو بَكْرٍ الصِّدِّيقُ ﷺ دُونَهُ يَقُولُ وَهُوَ يَبْكِي: أَتَقْتُلُونَ رَجُلًا أَنْ يَقُولَ رَبِّيَ اللهُ؟ ثُمَّ انْصَرَفُوا عَنْهُ؛ فَإِنَّ ذَلِكَ لَأَشَدُّ مَا رَأَيْتُ قُرَيْشًا بَلَغَتْ مِنْهُ».

نَعَمْ.. لَقَدْ لَاقَى رَسُولُ الله ﷺ فِي دَعْوَتِهِ مِنَ الْأَذَى مَا لَاقَى! وَأُوذِيَ مِنْ

= رجال الصحيح»، ورواه البخاريُّ مختصرًا في «صحيحه» (٣٦٧٨، ٣٨٥٦، ٤٨١٥).

قَوْمِهِ وَعَشِيرَتِهِ الْأَقْرَبِينَ أَشَدَّ الإِيْذَاءِ، وَهَذَا أَشَدُّ مَا يَكُونُ عَلَى النَّفْسِ أَنْ تَجِدَ صُدُودًا وَإِعْرَاضًا مِنْ أَقْرَبِ النَّاسِ؛ بَلْ لَمْ يَقِفِ الْحَدُّ عِنْدَ هَذَا، وَإِنَّمَا دَبَّرُوا وَخَطَّطُوا لِقَتْلِهِ!!

كَمَا قَالَ تَعَالَى: ﴿ وَإِذْ يَمْكُرُ بِكَ الَّذِينَ كَفَرُوا لِيُثْبِتُوكَ أَوْ يَقْتُلُوكَ أَوْ يُخْرِجُوكَ وَيَمْكُرُونَ وَيَمْكُرُ اللَّهُ وَاللَّهُ خَيْرُ الْمَاكِرِينَ ﴾ [الأنفال: ٣٠].

وَهَكَذَا.. فَلْيَثْبُتِ الدَّاعِيَةُ أَمَامَ الْفِتَنِ وَالابْتِلَاءَاتِ، وَالْعَرَاقِيلِ وَالْعَقَبَاتِ الَّتِي تُوَاجِهُ دَعْوَتَهُ حَتَّى تَسْتَمِرَّ، وَيَتَحَقَّقَ لَهَا النَّجَاحُ بِإِذْنِ اللهِ تَعَالَى.

❀ ◊ ❀

دَعْوَتُهُ ﷺ لأَهْلِ الطَّائِفِ

لَمَّا وَجَدَ النَّبِيُّ ﷺ أَرْضَ مَكَّةَ أَرْضًا صَلْدَةً تَأْبَى أَنْ تَقْبَلَ بَذْرَةَ التَّوْحِيدِ وَالْإِيمَانِ؛ خَرَجَ - بِأَبِي هُوَ وَأُمِّي -؛ لِيَبْحَثَ عَنْ أَرْضٍ جَدِيدَةٍ أُخْرَى؛ فَخَرَجَ إِلَى الطَّائِفِ عَلَى قَدَمَيْهِ الدَّامِيَتَيْنِ الْمُتْعَبَتَيْنِ، لَمْ يَجِدْ رَاحِلَةً لِيَرْكَبَهَا، وَالْمَسَافَةُ بَيْنَ مَكَّةَ وَالطَّائِفِ تُقَارِبُ سَبْعِينَ كِيلُو مِتْرًا، فَلَمْ يَجِدْ شَيْئًا يَحْمِلُهُ؛ بَلْ يَمْشِي عَلَى رِمَالِ مَكَّةَ، فِي الصَّحْرَاءِ، الَّتِي انْعَكَسَتْ عَلَيْهَا أَشِعَّةُ الشَّمْسِ؛ فَكَادَتِ الْأَشِعَّةُ الْمُنْعَكِسَةُ - فَقَطْ - أَنْ تَخْطَفَ الْأَبْصَارَ!!! لَا يَرَى حَوْلَهُ إِلَّا جِبَالًا سَوَّدَتْهَا حَرَارَةُ الشَّمْسِ، وَلَا يَرَى إِلَّا رِمَالًا مُلْتَهِبَةً؛ كَأَنَّمَا تَبُخُّ الْحَرَارَةَ بَخًّا، وَتَنْفُثُ الْأَلَمَ نَفْثًا!!

خَرَجَ إِلَى الطَّائِفِ، وَوَاللهِ مَا خَرَجَ إِلَيْهَا يُرِيدُ جَاهًا أَوْ مَالًا، إِنَّمَا ذَهَبَ؛ لِيَنْتَشِلَهُمْ مِنْ ظَلَامِ الشِّرْكِ وَالْوَثَنِيَّةِ إِلَى أَنْوَارِ التَّوْحِيدِ وَالْإِيمَانِ بِرَبِّ الْبَرِيَّةِ - تَعَالَى - لَكِنَّ أَهْلَ الطَّائِفِ فَعَلُوا بِهِ أَسْوَأَ مَا يَفْعَلُهُ الْإِنْسَانُ بِالْإِنْسَانِ؛ وَلَمْ يَتَوَقَّعْ رَسُولُ اللهِ ﷺ أَنْ يَفْعَلَ بِهِ أَهْلُ الطَّائِفِ مَا فَعَلُوا! لَقَدْ سَلَّطُوا عَلَيْهِ السُّفَهَاءَ وَالصِّبْيَانَ؛ فَسَبُّوهُ، وَشَتَمُوهُ، وَقَذَفُوهُ بِالْحِجَارَةِ، وَلَمْ يَسْتَجِيبُوا لِدَعْوَتِهِ؛ **كَمَا رَوَى ذَلِكَ الطَّبَرَانِيُّ فِي «الْكَبِيرِ»، وَفِي «الدُّعَاءِ»، وَابْنُ عَدِيٍّ فِي «الْكَامِلِ»، وَابْنُ عَسَاكِرَ فِي «تَارِيخِهِ»** [1] مِنْ حَدِيثِ عَبْدِ اللهِ بْنِ جَعْفَرٍ قَالَ: لَمَّا تُوُفِّيَ أَبُو طَالِبٍ خَرَجَ النَّبِيُّ ﷺ إِلَى الطَّائِفِ مَاشِيًا عَلَى قَدَمَيْهِ، فَدَعَاهُمْ إِلَى الْإِسْلَامِ، فَلَمْ

---

(١) يحتمل التحسين؛ أخرجه الطبرانيُّ في «الكبير» - كما في «مجمع الزوائد» (٦/ ٣٧)، وفي «الدعاء» (١٠٣٦)، وابن عدي في «كامله» (٦/ ١١١)، وابن عساكر في «تاريخه» (٤٩/ ١٥٢)، والخطيب في «الجامع» (١٨٣٩)، وسنده حسن لولا ما يخشى من تدليس ابن إسحاق، وله شاهدٌ مرسل؛ أخرجه ابن إسحاق؛ كما في «السيرة» لابن هشام (٢/ ٤٣ و٤٤)، والطبريُّ في «تاريخه» (١/ ٥٥٤) والحديث تقدم في الباب الثالث في مبحث علو الهمة.

يُجِيبُوهُ، فَانْصَرَفَ فَأَتَى ظِلَّ شَجَرَةٍ، فَصَلَّى رَكْعَتَيْنِ، ثُمَّ قَالَ: «اللهمَّ إِلَيْكَ أَشْكُو ضَعْفَ قُوَّتِي، وَقِلَّةَ حِيلَتِي، وَهَوَانِي عَلَى النَّاسِ، يَا أَرْحَمَ الرَّاحِمِينَ، أَنْتَ أَرْحَمُ بِي، إِلَى مَنْ تَكِلُنِي؟ إِلَى عَدُوٍّ يَتَجَهَّمُنِي؟ أَمْ إِلَى قَرِيبٍ مَلَّكْتَهُ أَمْرِي؟ إِنْ لَمْ تَكُنْ غَضْبَانَ عَلَيَّ فَلَا أُبَالِي، غَيْرَ أَنَّ عَافِيَتَكَ هِيَ أَوْسَعُ لِي، أَعُوذُ بِنُورِ وَجْهِكَ الَّذِي أَشْرَقَتْ لَهُ الظُّلُمَاتُ، وَصَلَحَ عَلَيْهِ أَمْرُ الدُّنْيَا وَالآخِرَةِ، أَنْ يَنْزِلَ بِي غَضَبُكَ، وَأَنْ يَحِلَّ عَلَيَّ سَخَطُكَ، لَكَ العُتْبَى حَتَّى تَرْضَى، وَلَا حَوْلَ وَلَا قُوَّةَ إِلَّا بِكَ».

حَتَّى قَالَتْ عَائِشَةُ رضي الله عنها لِلنَّبِيِّ ﷺ؛ فِيمَا رَوَاهُ الْبُخَارِيُّ وَمُسْلِمٌ (١) عَنْهَا قَالَتْ: هَلْ أَتَى عَلَيْكَ يَوْمٌ كَانَ أَشَدَّ مِنْ يَوْمِ أُحُدٍ؟ قَالَ: «لَقَدْ لَقِيتُ مِنْ قَوْمِكِ مَا لَقِيتُ، وَكَانَ أَشَدَّ مَا لَقِيتُ مِنْهُمْ يَوْمَ الْعَقَبَةِ، إِذْ عَرَضْتُ نَفْسِي عَلَى ابْنِ عَبْدِ يَالِيلَ ابْنِ عَبْدِ كُلَالٍ، فَلَمْ يُجِبْنِي إِلَى مَا أَرَدْتُ، فَانْطَلَقْتُ وَأَنَا مَهْمُومٌ عَلَى وَجْهِي، فَلَمْ أَسْتَفِقْ إِلَّا وَأَنَا بِقَرْنِ الثَّعَالِبِ، فَرَفَعْتُ رَأْسِي فَإِذَا أَنَا بِسَحَابَةٍ قَدْ أَظَلَّتْنِي، فَنَظَرْتُ فَإِذَا فِيهَا جِبْرِيلُ، فَنَادَانِي؛ فَقَالَ: إِنَّ اللهَ قَدْ سَمِعَ قَوْلَ قَوْمِكَ لَكَ، وَمَا رَدُّوا عَلَيْكَ، وَقَدْ بَعَثَ إِلَيْكَ مَلَكَ الْجِبَالِ لِتَأْمُرَهُ بِمَا شِئْتَ فِيهِمْ، فَنَادَانِي مَلَكُ الْجِبَالِ، فَسَلَّمَ عَلَيَّ، ثُمَّ قَالَ: يَا مُحَمَّدُ، فَقَالَ: ذَلِكَ فِيمَا شِئْتَ إِنْ شِئْتَ أَنْ أُطْبِقَ عَلَيْهِمُ الْأَخْشَبَيْنِ (٢)؛ فَقَالَ النَّبِيُّ ﷺ: بَلْ أَرْجُو أَنْ يُخْرِجَ اللهُ مِنْ أَصْلَابِهِمْ مَنْ يَعْبُدُ اللهَ وَحْدَهُ لَا يُشْرِكُ بِهِ شَيْئًا».

هَذَا هُوَ الْمُصْطَفَى ﷺ، خَرَجَ وَهُوَ يَحْمِلُ فِي قَلْبِهِ أَمَلًا يَتَجَدَّدُ، خَرَجَ وَهُوَ يَحْمِلُ فِي صَدْرِهِ رَبِيعًا يَتَنَفَّسُ.. نَعَمْ! مَا خَرَجَ لِلانْتِقَامِ وَلَا لِلثَّأْرِ لِلذَّاتِ أَبَدًا، وَاللهِ ثُمَّ وَاللهِ لَوْ كَانَ النَّبِيُّ ﷺ مِمَّنْ يَنْتَقِمُونَ لِأَنْفُسِهِمْ وَمِمَّنْ يَثْأَرُونَ لِذَوَاتِهِمْ، لَأَمَرَ مَلَكَ الْجِبَالِ، فَلَحَطَّمَ هَذِهِ الرُّؤُوسَ الصَّلْدَةَ وَالْجَمَاجِمَ الْعَنِيدَةَ، وَلَسَالَتْ بُحُورٌ مِنَ الدِّمَاءِ - لَا مِنَ الْمَاءِ - وَلَكِنَّهُ الرَّحْمَةُ الْمُهْدَاةُ وَالنِّعْمَةُ الْمُسْدَاةُ - بِأَبِي

---

(١) أخرجه البخاريُّ، كتاب بدء الخلق، باب ذكر الملائكة (٣٢٣١)، ومسلمٌ، كتاب الجهاد والسير، باب ما لقي النبيُّ ﷺ من أذى المشركين (١٧٩٥).

(٢) الأخشبان: جبلان عظيمان، يقالُ للأول: أبو قبيس، ويقالُ للثاني: الأحمر؛ كما تقدَّم.

هُوَ وَأُمِّي ﷺ.

وَيَرْجِعُ النَّبِيُّ ﷺ مَرَّةً أُخْرَى إِلَى مَكَّةَ، بَعْدَمَا وَجَدَ أَرْضَ الطَّائِفِ أَشَدَّ صَلَادَةً مِنْ أَرْضِ مَكَّةَ، عَادَ إِلَى مَا كَانَ مِنَ الْأَذَى وَالْمُطَارَدَةِ وَالتَّعْذِيبِ!!

وَلَكِنَّ اللهَ - جَلَّ وَعَلَا- امْتَنَّ عَلَى حَبِيبِهِ ﷺ بِنَصْرٍ وَفَتْحٍ كَبِيرٍ. نَعَمْ.. كَانَتْ رِحْلَةُ الْإِسْرَاءِ وَالْمِعْرَاجِ مُكَافَأَةً رَبَّانِيَّةً لِلْحَبِيبِ النَّبِيِّ ﷺ عَلَى مَا لَاقَاهُ مِنَ آلَامٍ وَأَحْزَانٍ بَعْدَ حِصَارٍ طَوِيلٍ دَامَ ثَلَاثَ سَنَوَاتٍ فِي شِعْبِ أَبِي طَالِبٍ، وَبَعْدَ فَقْدِهِ لِرَمْزِ الْوَفَاءِ، وَسَكَنِ سَيِّدِ الْأَنْبِيَاءِ؛ خَدِيجَةَ ﵂، وَبَعْدَ مَوْتِ عَمِّهِ أَبِي طَالِبٍ وَمَا نَالَهُ مِنْ سُفَهَاءِ الطَّائِفِ!!

فَكَانَتْ هَذِهِ الْمِنْحَةُ الرَّبَّانِيَّةُ تَكْرِيمًا كَبِيرًا لِصَاحِبِ الدَّعْوَةِ لَا لِلدَّعْوَةِ؛ لِأَنَّ قُرَيْشًا اسْتَغَلَّتْهَا أَيْضًا اسْتِغْلَالًا رَخِيصًا وَرَاحَتْ تُشَكِّكُ فِي صِدْقِ مُحَمَّدٍ ﷺ؛ بَلْ وَتُطَالِبُهُ بِالدَّلِيلِ وَلَمْ تَسْتَوْعِبْ قَطُّ أَنَّ اللهَ - جَلَّ وَعَلَا- هُوَ الَّذِي أَسْرَى بِحَبِيبِهِ وَمُصْطَفَاهُ، وَهُوَ الَّذِي عَرَجَ بِهِ وَقَرَّبَهُ وَأَدْنَاهُ، وَخَلَعَ عَلَيْهِ مِنْ حُلَلِ الرِّضَا مَا أَنْسَاهُ كُلَّ مَا لَاقَاهُ!!

وَمَعَ ذَلِكَ قَامَ الصَّادِقُ يُقَدِّمُ لَهُمُ الدَّلِيلَ، وَيَنْعَتُ لَهُمُ الْمَسْجِدَ الْأَقْصَى كَأَنَّهُ يَنْظُرُ إِلَيْهِ، وَتَهَلَّلَتْ قُلُوبُ الْمُؤْمِنِينَ الصَّادِقِينَ وَوَلَّى الْمُشْرِكُونَ يَجُرُّونَ أَذْيَالَ الْخَيْبَةِ حَتَّى فِي هَذِهِ الْمَرَّةِ لَمْ يَرَوْا مُحَمَّدًا إِلَّا صَادِقًا كَمَا عَرَفُوهُ، وَأَقَرُّوا لَهُ بِذَلِكَ بِالْإِجْمَاعِ.

وَلَكِنَّ قُرَيْشًا حَائِطُ صَدٍّ مِنَ الظُّلْمِ وَالْعِنَادِ وَالْبَطْشِ وَالطُّغْيَانِ تَأْبَى أَنْ تَسْمَعَ، وَتَسْتَكْبِرُ عَلَى الْحَقِّ! وَأَخِيرًا رَاحُوا يُخَطِّطُونَ لِقَتْلِ رَسُولِ اللهِ ﷺ؛ لِقَطْعِ تَيَّارِ نُورِ الدَّعْوَةِ عَنِ الْوُجُودِ نِهَائِيًّا.. وَلَكِنْ هَيْهَاتَ هَيْهَاتَ!!

﴿يُرِيدُونَ أَن يُطْفِئُوا۟ نُورَ ٱللَّهِ بِأَفْوَٰهِهِمْ وَيَأْبَى ٱللَّهُ إِلَّآ أَن يُتِمَّ نُورَهُۥ وَلَوْ كَرِهَ ٱلْكَـٰفِرُونَ﴾ [التوبة:٣٢].

«كَمْ صَدُّوا عَنْ سَبِيلِهِ صَدًّا، وَمَنْ ذَا يُدَافِعُ السَّيْلَ إِذَا هَدَرَ؟ وَاعْتَرَضُوهُ

بِالأَلْسِنَةِ رَدًّا، وَلَعَمْرُ اللهِ مَنْ يَرُدُّ عَلَى اللهِ القَدَرَ؟! وَهَلْ رَأَوْا إِلَّا نُورًا يُضِيء كَالمِصْبَاحِ، فَعَضُّوا عَلَيْهِ بِأَفْوَاهِهِمْ كَمَا تَعْصِفُ الرِّيحُ!» (١).

وَأَذِنَ اللهُ لِنَبِيِّهِ بِالْهِجْرَةِ، وَمِنْ ظَلَامِ اللَّيْلِ يَنْبَثِقُ نُورُ الْفَجْرِ؛ فَهُنَالِكَ عَلَى أَرْضِ يَثْرِبَ تَبْدَأُ حَيَاةٌ جَدِيدَةٌ عَبَّرَ عَنْهَا حَسَّانُ بْنُ ثَابِتٍ(٢) رضي الله عنه بِقَوْلِهِ (٣):

لَقَدْ خَابَ قَوْمٌ زَالَ عَنْهُمْ نَبِيُّهُمْ ... وَقُدِّسَ مَنْ يَسْرِي إِلَيْهِمْ وَيَغْتَدِي
تَرَحَّلَ عَنْ قَوْمٍ فَضَلَّتْ عُقُولُهُمْ ... وَحَلَّ عَلَى قَوْمٍ بِنُورٍ مُجَدَّدِ

---

(١) «تاريخ الأدب العربي» للرافعي (ص: ١٤١، ١٤٢) بتصرفٍ.

(٢) هو حسان بن ثابت بن المنذر بن حرام بن عمرو بن مندة بن مناة بن عدي بن عمرو بن مالك بن النجار الأنصاريُّ الخزرجيُّ ثم النجاريُّ شاعر رَسُول الله ﷺ. يكنى أبا الوليد، وهي الأشهر، وأبا المضرب، وأبا الحسام، وأبا عبد الرحمن، مات قبل الأربعين، وقيل: سنة أربعين، وقيل: خمسين، وقيل: أربع وخمسين، وهو ابن عشرين ومائة سنة أو نحوها، وقيل: عاش مائة وأربع سنين.

● راجع: «الاستيعاب» (٥٢١)، و«أسد الغابة» (١١٥٣)، و«الإصابة» (٦٧٠٩).

(٣) جزءٌ من حديث أم معبد الخزاعية رضي الله عنها؛ الذي أخرجه الطبرانيُّ في «الكبير» (٣٦٠٥)، والآجريُّ في «الشريعة» (رقم:٦٤٩) ط قرطبة، والحاكم (٣/ ١٠)، وأبو نعيم في «الدلائل» (٤٢)، وفي «معرفة الصحابة» (٢٢٦٥، ٢٢٦٦)، والبيهقيُّ في «الدلائل» (١/ ٢٧٦)، وابن عساكر في «تاريخه» (٣/ ٣٢٧، ٣٣٣)، و(١٢/ ٣٥٨)، وابن الأثير في «أسد الغابة» (ترجمة حبيش بن خالد) (١/ ٤٢٧) ط المعرفة، وابن عبد البر في «الاستيعاب» (ص:٩٠٣)، واللالكائيُّ في «شرح أصول الاعتقاد» (١٤٣٣، ١٤٣٧) من حديث حزام بن هشام عن أبيه هشام بن حبيش عن حبيش بن خالد صاحب رَسُول الله ﷺ مرفوعًا.

قال الهيثميُّ في «المجمع» (٦/ ٢٤): «رواه الطبرانيُّ، وفي إسناده جماعة لم أعرفهم»، وله شاهدٌ من حديث أبي معبد الخزاعيِّ؛ أخرجه الحاكم (٣/ ١٢)، وابن سعد في «الطبقات» (١/ ٢٣٠)، وابن عساكر (٣/ ٣١٦، ٣١٩).

● راجع: «علل ابن أبي حاتم» (٢/ ٣٩١) ط الفاروق، وله شواهدُ أخرى؛ وقد حسَّنه العَلَّامَة الألبانيُّ في «فقه السيرة» (ص١٦٨) ط القلم. دمشق. سنة ١٩٩٨م.

هَـدَاهُمْ بـهِ بَعْـدَ الضَّـلَالَةِ رَبُّهُـمْ فَأَرْشَـدَهُمْ، مَـنْ يَتْبَـعِ الْحَـقَّ يَرْشُـدِ

وَهَلْ يَسْتَوِي ضُلَّالُ قَـوْمٍ تَسَـفَّهُوا عِـمَا يَـتُهُمْ هَـادٍ بِـهِ كُـلَّ مُهْتَـدِي

وَقَدْ نَزَلَتْ مِنْهُ عَلَى أَهْلِ يَثْرِبٍ رِكابُ هُدىً، حَلَّتْ عَلَيْهِمْ بِأَسْعُدِ

نَبِيٌّ يَرَى مَا لَا يَرَى النَّاسُ حَوْلَهُ وَيَتْلُو كِتَابَ اللهِ فِي كُلِّ مَسْجِدِ

وَإِنْ قَالَ فِي يَوْمٍ مَقَالَةَ غَائِبٍ فَتَصْدِيقُهَا فِي اليَوْمِ أَوْ فِي ضُحَى

فَاللَّهُمَّ اجْزِ عَنَّا نَبِيَّنا خَيْرَ مَا جَزَيْتَ نَبِيًّا عَنْ أُمَّتِهِ، ورَسُولًا عَنْ دَعْوَتِهِ وَرِسَالَتِه.

المَبْحَثُ الثَّانِي

دَعْوَتُهُ ﷺ لأَهْلِ الكِتَابِ

(المَطْلَبُ الأَوَّلُ)

مَنْ هُمْ أَهْلُ الكِتَابِ؟

تَعْرِيفُ أَهْلِ الْكِتَابِ:

لُغَةً: أَهْلُ الشَّيْءِ: أَصْحَابُهُ (١).

قَالَ ابْنُ مَنْظُورٍ فِي «اللِّسَانِ» (٢): «وَأَهْلُ الْمَذْهَبِ: مَنْ يَدِينُ بِهِ، وَأَهْلُ الْإِسْلَامِ: مَنْ يَدِينُ بِهِ».

فَأَهْلُ الْكِتَابِ: مَنْ يَدِينُ بِهِ.

وَاصْطِلَاحًا: هُمُ الْيَهُودُ وَالنَّصَارَى؛ كَمَا نَصَّ عَلَى ذَلِكَ عُلَمَاءُ التَّفْسِيرِ وَغَيْرُهُمْ (٣).

وَنُقِلَ الاتِّفَاقُ عَلَى ذَلِكَ (٤).

---

(١) «المعجم الوسيط» (٣١) ط الشروق الدولية، الطبعة الرابعة، مجمع اللغة العربية.

(٢) «لسان العرب» (١/ ٢٦٣) ط الحديث.

(٣) «مجموع فتاوى ابن باز» (٤/ ٢٧٥)، جمع: محمد بن سعد الشويعر.

(٤) «تتمة أضواء البيان» (٩/ ٣٩) للشيخ عطية سالم، ط دار الفكر.

قَالَ ابْنُ عَطِيَّةَ (١) فِي «الْمُحَرَّرِ الْوَجِيزِ» (٢) فِي قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿أَن تَقُولُوٓاْ إِنَّمَآ أُنزِلَ ٱلۡكِتَٰبُ عَلَىٰ طَآئِفَتَيۡنِ﴾ [الأنعام:١٥٦]: «وَالطَّائِفَتَانِ: الْيَهُودُ وَالنَّصَارَى بِإِجْمَاعٍ مِنَ الْمُتَأَوِّلِينَ».

وَقَالَ ابْنُ عَبْدِ الْبَرِّ (٣) فِي «التَّمْهِيدِ» (٤): «قَالَ تَعَالَى: ﴿يَٰٓأَهۡلَ ٱلۡكِتَٰبِ لِمَ تُحَآجُّونَ فِيٓ إِبۡرَٰهِيمَ وَمَآ أُنزِلَتِ ٱلتَّوۡرَىٰةُ وَٱلۡإِنجِيلُ إِلَّا مِنۢ بَعۡدِهِۦٓ﴾

---

(١) هو عبد الحق بن أبي بكر (غالب) بن عطية المحاربي الغرناطي أبو محمد، الإمام، العلامة، شيخ المفسرين، كان إمامًا في الفقه، وفي التفسير، وفي العربية، ذكيًّا فطنًا، من أوعية العلم، ولد سنة ثمانين وأربع مائة. توفي في الخامس والعشرين من رمضان، سنة إحدى وأربعين وخمس مائة، وقال ابن بشكوال: توفي سنة اثنتين وأربعين، وقال: كان واسع المعرفة، قوي الأدب، متفننًا في العلوم، أخذ الناس عنه رحمه الله تعالى. له «المحرر الوجيز في تفسير الكتاب العزيز» وغيره.

● راجع: «سير أعلام النبلاء» (ترجمة ٥٠١٨)، و«المعين في طبقات المحدثين» (ص:٥٥) للذهبي ط الفرقان. الأردن سنة ١٤٠٤هـ، و«الأعلام» (٣/ ٢٨٢)، و«الإحاطة في أخبار غرناطة» لابن الخطيب (٣/ ٤١٢). ط دار الكتب العلمية. بيروت سنة ٢٠٠٣م، و«الصلة» لابن بشكوال (ترجمة عبد الحق بن غالب).

(٢) «المحرر الوجيز» (٥/ ٤٠٤)، ط وزارة الأوقاف بقطر.

(٣) هو أبو عمر يوسف بن عبد الله بن محمد بن عبد البر النمري الأندلسي القرطبي المالكي، شيخ الإسلام؛ حافظ المغرب، صاحب التصانيف الفائقة، ولد سنة ثمان وستين وثلاث مائة في ربيع الآخر، وطلب الحديث قبل مولد الخطيب بأعوام، قال أبو الوليد الباجي: «لم يكن بالأندلس مثل أبي عمر في الحديث»، وله تواليف لا مثل لها في جمع معانيها، منها كتاب «الاستيعاب في الصحابة» ليس لأحد مثله، ومنها كتاب «التمهيد» و«الاستذكار»، و«جامع بيان العلم وفضله»، مات ليلة الجمعة سنة ثلاث وستين وأربع مائة، واستكمل خمسًا وتسعين سنة.

● راجع: «تذكرة الحفاظ» للذهبي (٣/ ١١٢٨)، و«السير» (٤٤٣٦)، و«شذرات الذهب» (٣/ ٣١٣).

(٤) «التمهيد» (٢/ ١٢٠)، ط وزارة عموم الأوقاف، المغرب.

[آل عمران:٦٥]، وَقَالَ تَعَالَى: ﴿قُلْ يَٰٓأَهْلَ ٱلْكِتَٰبِ لَسْتُمْ عَلَىٰ شَيْءٍ حَتَّىٰ تُقِيمُوا۟ ٱلتَّوْرَىٰةَ وَٱلْإِنجِيلَ﴾ [المائدة:٦٨]، فَدَلَّ عَلَى أَنَّ أَهْلَ الْكِتَابِ هُمْ أَهْلُ التَّوْرَاةِ وَالْإِنْجِيلِ: الْيَهُودُ وَالنَّصَارَى لَا غَيْرُ».

وَقَالَ ابْنُ قُدَامَةَ [(١)] فِي «الْمُغْنِي» [(٢)]: «مَسْأَلَةٌ وَفَصْلٌ: مَنْ هُمْ أَهْلُ الْكِتَابِ؟» ثُمَّ قَالَ: «وَأَهْلُ الْكِتَابِ: هُمْ أَهْلُ التَّوْرَاةِ وَالْإِنْجِيلِ؛ قَالَ تَعَالَى: ﴿أَن تَقُولُوٓا۟ إِنَّمَآ أُنزِلَ ٱلْكِتَٰبُ عَلَىٰ طَآئِفَتَيْنِ مِن قَبْلِنَا﴾ [الأنعام:١٥٦]؛ فَأَهْلُ التَّوْرَاةِ: هُمُ الْيَهُودُ وَالسَّامِرَةُ، وَأَهْلُ الْإِنْجِيلِ: النَّصَارَى، وَمَنْ وَافَقَهُمْ فِي أَصْلِ دِينِهِمْ مِنَ الْإِفْرِنْجِ وَالْأَرْمَنِ وَغَيْرِهِمْ، وَأَمَّا الصَّابِئُونَ: فَاخْتَلَفَ فِيهِمُ السَّلَفُ كَثِيرًا؛ فَرُوِيَ عَنْ أَحْمَدَ أَنَّهُمْ جِنْسٌ مِنَ النَّصَارَى، وَنَصَّ عَلَيْهِ الشَّافِعِيُّ، وَعَلَّقَ الْقَوْلَ فِيهِمْ فِي مَوْضِعٍ آخَرَ.

وَعَنْ أَحْمَدَ أَنَّهُ قَالَ: بَلَغَنِي أَنَّهُمْ يُسْبِتُونَ؛ فَهَؤُلَاءِ إِذًا يُشْبِهُونَ الْيَهُودَ، وَالصَّحِيحُ فِيهِمْ: أَنَّهُمْ إِنْ كَانُوا يُوَافِقُونَ النَّصَارَى أَوِ الْيَهُودَ فِي أَصْلِ دِينِهِمْ،

---

(١) هو عبد الله بن أحمد بن محمد بن قدامة بن مقدم بن نصر، شيخ الإسلام، موفق الدين، أبو محمد الجماعيلي، الدمشقي، الصالحي، الفقيه الحنبلي، ولد بجماعيل في شعبان سنة إحدى وأربعين وخمسمائة، تفقه ببغداد، وعاد إلى دمشق، وحدث، وصنف، وانتفع به، وكان إمامًا، ثقةً، فاضلاً، صالحًا، متبحرًا في العلوم، وكبير القدر، ومن تصانيفه: «المغني» في الفقه، و«الكافي»، و«العمدة»، و«روضة الناظرين»، و«المقنع»، و«الرقة والبكاء»، وكان إمامًا في علم الخلاف والفرائض والأصول والفقه والنحو والحساب. توفي سنة عشرين وستمائة رحمه الله.

● راجع: «فوات الوفيات» للكتبي (٢/ ١٥٨)، و«البداية والنهاية» (١٣/ ٨٧)، و«العبر» (٥/ ٧٩)، و«السير» (٥٨١٣)، و«شذرات الذهب» (٥/ ٨٧).

(٢) «المغني» (٩/ ٣٦٦) ط الحديث.

● وراجع: «المبدع» لابن مفلح (٧/ ٧١) ط المكتب الإسلامي، و«فتاوى اللجنة الدائمة» (٣/ ٤٢١).

وَيُخَالِفُونَهُمْ فِي فُرُوعِهِ، فَهُمْ مِمَّنْ وَافَقُوهُ، وَإِنْ خَالَفُوهُمْ فِي أَصْلِ الدِّينِ؛ فَلَيْسَ هُمْ مِنْهُمْ، وَاللهُ أَعْلَمُ».

وَالْمُرَادُ بِالْكِتَابِ: التَّوْرَاةُ وَالإِنْجِيلُ، وَالْكُتُبُ الْمَوْجُودَةُ الْآنَ مُحَرَّفَةٌ كَمَا هُوَ مَعْرُوفٌ (١).

---

(١) «فتاوى اللجنة الدائمة» (٣/ ٤٢١).

المَطْلَبُ الثَّانِي

كَيْفِيَّةُ دَعْوَتِهِ ﷺ لأَهْلِ الكِتَابِ

تَمْهِيدٌ

لَمْ تَكُنْ دَعْوَتُهُ ﷺ مُقْتَصِرَةً عَلَى جَمَاعَةٍ دُونَ جَمَاعَةٍ أَوْ عَلَى أُمَّةٍ دُونَ أُمَّةٍ!! وَإِنَّمَا كَانَتْ بَعْثَتُهُ لِلْعَالَمِينَ؛ قَالَ تَعَالَى: ﴿ وَمَآ أَرْسَلْنَٰكَ إِلَّا كَآفَّةً لِّلنَّاسِ بَشِيرًا وَنَذِيرًا ﴾ [سبأ:٢٨]، وَقَالَ ﷺ: «**بُعِثْتُ إِلَى النَّاسِ كَافَّةً**»(١).

فَكَمَا أَنَّ رِسَالَتَهُ لِلْعَرَبِ؛ فَهِيَ كَذَلِكَ لِأَهْلِ الْكِتَابِ مِنَ الْيَهُودِ وَالنَّصَارَى.

وَفِي «**صَحِيحِ مُسْلِمٍ**»(٢) مِنْ حَدِيثِ أَبِي هُرَيْرَةَ رضي الله عنه عَنْ رَسُولِ اللهِ ﷺ قَالَ: «**وَالَّذِي نَفْسُ مُحَمَّدٍ بِيَدِهِ، لاَ يَسْمَعُ بِي أَحَدٌ مِنْ هَذِهِ الأُمَّةِ؛ يَهُودِيٌّ وَلاَ نَصْرَانِيٌّ، ثُمَّ يَمُوتُ، وَلَمْ يُؤْمِنْ بِالَّذِي أُرْسِلْتُ بِهِ، إِلاَّ كَانَ مِنْ أَصْحَابِ النَّارِ**».

وَيُعَلِّقُ الإِمَامُ النَّوَوِيُّ عَلَى هَذَا الْحَدِيثِ بِقَوْلِهِ(٣): «وَفِي هَذَا الْحَدِيثِ نَسْخُ الْمِلَلِ كُلِّهَا بِرِسَالَةِ نَبِيِّنَا مُحَمَّدٍ ﷺ، وَفِي مَفْهُومِهِ دَلَالَةٌ عَلَى أَنَّ مَنْ لَمْ تَبْلُغْهُ دَعْوَةُ الْإِسْلَامِ فَهُوَ مَعْذُورٌ، وَهَذَا جَارٍ عَلَى مَا تَقَدَّمَ فِي الْأُصُولِ أَنَّهُ لَا حُكْمَ قَبْلَ وُرُودِ الشَّرْعِ عَلَى الصَّحِيحِ وَاللهُ أَعْلَمُ.

---

(١) أخرجه البخاريُّ، كتاب الصلاة، باب قول النبي ﷺ: «**جُعِلَتْ لِيَ الْأَرْضُ مَسْجِدًا وَطَهُورًا**» (٤٣٨)، ومسلمٌ، كتاب المساجد ومواضع الصلاة (٥٢١)، وانظر: (٥٢٣).

(٢) أخرجه مسلمٌ، كتاب الإيمان، باب وجوب الإيمان برسالة نبينا محمد ﷺ إلى جميع الناس ونسخ الملل بملته (١٥٣).

(٣) «شرح صحيح مسلم» للنوويِّ (١/ ١٨٨).

وَقَوْلُهُ ﷺ: «**لَا يَسْمَعُ بِي أَحَدٌ مِنْ هَذِهِ الْأُمَّةِ**»؛ أَيْ: مِمَّنْ هُوَ مَوْجُودٌ فِي زَمَنِي وَبَعْدِي إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ؛ فَكُلُّهُمْ يَجِبُ عَلَيْهِ الدُّخُولُ فِي طَاعَتِهِ، وَإِنَّمَا ذَكَرَ الْيَهُودِيَّ وَالنَّصْرَانِيَّ، تَنْبِيهًا عَلَى مَنْ سِوَاهُمَا؛ وَذَلِكَ لِأَنَّ الْيَهُودَ وَالنَّصَارَى لَهُمْ كِتَابٌ، فَإِذَا كَانَ هَذَا شَأْنُهُمْ مَعَ أَنَّ لَهُمْ كِتَابًا؛ فَغَيْرُهُمْ مِمَّنْ لَا كِتَابَ لَهُ أَوْلَى، وَاللهُ أَعْلَمُ».

فَكُلُّ أَحَدٍ مَأْمُورٌ بِأَنْ يُؤْمِنَ بِرِسَالَةِ نَبِيِّنَا مُحَمَّدٍ ﷺ الَّذِي بُعِثَ إِلَى الْخَلْقِ كَافَّةً؛ قَالَ تَعَالَى لِنَبِيِّهِ ﷺ: ﴿قُلْ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِنِّى رَسُولُ ٱللَّهِ إِلَيْكُمْ جَمِيعًا ٱلَّذِى لَهُۥ مُلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۖ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ يُحْىِۦ وَيُمِيتُ ۖ فَـَٔامِنُوا۟ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِ ٱلنَّبِىِّ ٱلْأُمِّىِّ ٱلَّذِى يُؤْمِنُ بِٱللَّهِ وَكَلِمَٰتِهِۦ وَٱتَّبِعُوهُ لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ﴾

[الأعراف:١٥٨].

وَكَانَ مِنْ أَوَّلِ الْأُمُورِ الَّتِي فَعَلَهَا النَّبِيُّ ﷺ فِي الْمَدِينَةِ أَنْ دَعَا الْيَهُودَ إِلَى التَّوْحِيدِ وَالدُّخُولِ فِي الْإِسْلَامِ، وَلَمْ يَكْتَفِ رَسُولُ اللهِ ﷺ بِدَعْوَتِهِمْ فِي الْمَدِينَةِ فَحَسْبُ؛ بَلْ وَبَعَثَ مُعَاذَ بْنَ جَبَلٍ رضي الله عنه إِلَى الْيَمَنِ بِهَذِهِ الْمُهِمَّةِ الْجَلِيلَةِ أَيْضًا.

فَفِي «**الصَّحِيحَيْنِ**» (١) مِنْ حَدِيثِ ابْنِ عَبَّاسٍ رضي الله عنهما قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ لِمُعَاذِ بْنِ جَبَلٍ حِينَ بَعَثَهُ إِلَى الْيَمَنِ: «**إِنَّكَ سَتَأْتِي قَوْمًا أَهْلَ كِتَابٍ، فَإِذَا جِئْتَهُمْ فَادْعُهُمْ إِلَى أَنْ يَشْهَدُوا أَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا اللهُ، وَأَنَّ مُحَمَّدًا رَسُولُ اللهِ، فَإِنْ هُمْ أَطَاعُوا لَكَ بِذَلِكَ، فَأَخْبِرْهُمْ أَنَّ اللهَ قَدْ فَرَضَ عَلَيْهِمْ خَمْسَ صَلَوَاتٍ فِي كُلِّ يَوْمٍ وَلَيْلَةٍ، فَإِنْ هُمْ أَطَاعُوا لَكَ بِذَلِكَ، فَأَخْبِرْهُمْ أَنَّ اللهَ قَدْ فَرَضَ عَلَيْهِمْ صَدَقَةً تُؤْخَذُ مِنْ أَغْنِيَائِهِمْ فَتُرَدُّ عَلَى فُقَرَائِهِمْ، فَإِنْ هُمْ أَطَاعُوا لَكَ بِذَلِكَ، فَإِيَّاكَ وَكَرَائِمَ أَمْوَالِهِمْ، وَاتَّقِ دَعْوَةَ الْمَظْلُومِ؛ فَإِنَّهُ لَيْسَ بَيْنَهُ وَبَيْنَ اللهِ حِجَابٌ**».

وَمِمَّنْ دَعَاهُمُ النَّبِيُّ ﷺ مِنَ الْيَهُودِ، وَأَقَامَ الْحُجَّةَ عَلَيْهِمْ؛ فَأَسْلَمُوا وَهُمْ فِئَةٌ

---

(١) سبق تخريجه.

قَلِيلَةٌ (١)؛ مِنْهُمْ: عَبْدُ اللهِ بْنُ سَلَامٍ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ.

فَأَخْرَجَ الْبُخَارِيُّ فِي «**الصَّحِيحِ**» (٢) مِنْ حَدِيثِ أَنَسٍ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ قَالَ: بَلَغَ عَبْدَاللهِ ابْنَ سَلَامٍ مَقْدَمُ النَّبِيِّ ﷺ الْمَدِينَةَ، فَأَتَاهُ، فَقَالَ: إِنِّي سَائِلُكَ عَنْ ثَلَاثٍ لَا يَعْلَمُهُنَّ إِلَّا نَبِيٌّ، مَا أَوَّلُ أَشْرَاطِ السَّاعَةِ؟ وَمَا أَوَّلُ طَعَامٍ يَأْكُلُهُ أَهْلُ الْجَنَّةِ؟ وَمِنْ أَيِّ شَيْءٍ يَنْزِعُ الْوَلَدُ إِلَى أَبِيهِ؟ وَمِنْ أَيِّ شَيْءٍ يَنْزِعُ إِلَى أَخْوَالِهِ؟ فَقَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: «**خَبَّرَنِي بِهِنَّ آنِفًا جِبْرِيلُ**»، قَالَ: فَقَالَ عَبْدُ اللهِ: ذَاكَ عَدُوُّ الْيَهُودِ مِنَ الْمَلَائِكَةِ؛ فَقَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: «**أَمَّا أَوَّلُ أَشْرَاطِ السَّاعَةِ: فَنَارٌ تَحْشُرُ النَّاسَ مِنَ الْمَشْرِقِ إِلَى الْمَغْرِبِ، وَأَمَّا أَوَّلُ طَعَامٍ يَأْكُلُهُ أَهْلُ الْجَنَّةِ: فَزِيَادَةُ كَبِدِ حُوتٍ، وَأَمَّا الشَّبَهُ فِي الْوَلَدِ: فَإِنَّ الرَّجُلَ إِذَا غَشِيَ الْمَرْأَةَ فَسَبَقَهَا مَاؤُهُ كَانَ الشَّبَهُ لَهُ، وَإِذَا سَبَقَ مَاؤُهَا كَانَ الشَّبَهُ لَهَا**»، قَالَ: أَشْهَدُ أَنَّكَ رَسُولُ اللهِ، ثُمَّ قَالَ: يَا رَسُولَ اللهِ، إِنَّ الْيَهُودَ قَوْمٌ بُهُتٌ، إِنْ عَلِمُوا بِإِسْلَامِي قَبْلَ أَنْ تَسْأَلَهُمْ بَهَتُونِي عِنْدَكَ، فَجَاءَتِ الْيَهُودُ؛ وَدَخَلَ عَبْدُ اللهِ الْبَيْتَ، فَقَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: «**أَيُّ رَجُلٍ فِيكُمْ عَبْدُ اللهِ بْنُ سَلَامٍ؟**» قَالُوا: أَعْلَمُنَا وَابْنُ أَعْلَمِنَا، وَأَخْيَرُنَا وَابْنُ أَخْيَرِنَا؛ فَقَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: «**أَفَرَأَيْتُمْ إِنْ أَسْلَمَ عَبْدُ اللهِ؟**» قَالُوا: أَعَاذَهُ اللهُ مِنْ ذَلِكَ، فَخَرَجَ عَبْدُ اللهِ إِلَيْهِمْ فَقَالَ: أَشْهَدُ أَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا اللهُ، وَأَشْهَدُ أَنَّ مُحَمَّدًا رَسُولُ اللهِ؛ فَقَالُوا: شَرُّنَا وَابْنُ شَرِّنَا، وَوَقَعُوا فِيهِ.

وَفِي رِوَايَةٍ (٣): «فَأَرْسَلَ نَبِيُّ اللهِ ﷺ فَأَقْبَلُوا فَدَخَلُوا عَلَيْهِ؛ فَقَالَ لَهُمْ رَسُولُ اللهِ ﷺ: «**يَا مَعْشَرَ الْيَهُودِ، وَيْلَكُمْ اتَّقُوا اللهَ، فَوَاللهِ الَّذِي لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ؛**

---

(١) روى البخاريُّ، كتاب مناقب الأنصار، باب إتيان اليهود النبي ﷺ حين قدم المدينة (٣٩٤١)، ومسلمٌ، كتاب صفة القيامة والجنة والنار، باب نزل أهل الجنة (٢٧٩٣)، من حديث أبي هريرة رَضِيَ اللهُ عَنْهُ قال: قال النبيُّ ﷺ: «**لَوْ تَابَعَنِي عَشَرَةٌ مِنَ الْيَهُودِ لَمْ يَبْقَ عَلَى ظَهْرِهَا يَهُودِيٌّ إِلَّا أَسْلَمَ**».

(٢) أخرجه البخاريُّ، كتاب أحاديث الأنبياء، باب خلق آدم وذريته (٣٣٢٩).

(٣) عند البخاريِّ، كتاب مناقب الأنصار، باب هجرة النبي ﷺ وأصحابه إلى المدينة (٣٩١١).

إِنَّكُمْ لَتَعْلَمُونَ أَنِّي رَسُولُ الله حَقًّا، وَأَنِّي جِئْتُكُمْ بِحَقٍّ؛ فَأَسْلِمُوا»، قَالُوا: مَا نَعْلَمُهُ - قَالُوا لِلنَّبِيِّ ﷺ قَالَهَا ثَلَاثَ مِرَارٍ - قَالَ: «فَأَيُّ رَجُلٍ فِيكُمْ عَبْدُ الله بْنُ سَلَامٍ؟» قَالُوا: ذَاكَ سَيِّدُنَا، وَابْنُ سَيِّدِنَا، وَأَعْلَمُنَا، وَابْنُ أَعْلَمِنَا، قَالَ: «أَفَرَأَيْتُمْ إِنْ أَسْلَمَ»، قَالُوا: حَاشَا للهِ، مَا كَانَ لِيُسْلِمَ، قَالَ: «أَفَرَأَيْتُمْ إِنْ أَسْلَمَ»، قَالُوا: حَاشَا للهِ، مَا كَانَ لِيُسْلِمَ، قَالَ: «أَفَرَأَيْتُمْ إِنْ أَسْلَمَ»، قَالُوا: حَاشَا للهِ، مَا كَانَ لِيُسْلِمَ، قَالَ: «يَا ابْنَ سَلَامٍ، اخْرُجْ عَلَيْهِمْ»، فَخَرَجَ، فَقَالَ: يَا مَعْشَرَ الْيَهُودِ، اتَّقُوا الله فَوَالله الَّذِي لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ، إِنَّكُمْ لَتَعْلَمُونَ أَنَّهُ رَسُولُ الله، وَأَنَّهُ جَاءَ بِحَقٍّ، فَقَالُوا: كَذَبْتَ، فَأَخْرَجَهُمْ رَسُولُ الله ﷺ.

فَانْظُرْ كَيْفَ أَقَامَ النَّبِيُّ ﷺ عَلَيْهِمُ الْحُجَّةَ؟! وَلَكِنَّهُمْ؛ كَمَا قَالَ عَبْدُ الله بْنُ سَلَامٍ: قَوْمٌ بُهْتٌ! وَأَهْلُ غَدْرٍ وَكَذِبٍ وَفُجُورٍ (١)!!

قَالَ ابْنُ الْقَيِّمِ رحمه الله (٢): «وَلَوْ لَمْ يُسْلِمْ مِنَ الْيَهُودِ فِي زَمَنِهِ ﷺ إِلَّا سَيِّدُهُمْ عَلَى الْإِطْلَاقِ، وَابْنُ سَيِّدِهِمْ، وَعَالِمُهُمْ وَابْنُ عَالِمِهِمْ؛ بِاعْتِرَافِهِمْ لَهُ بِذَلِكَ وَشَهَادَتِهِمْ: عَبْدُ الله بْنُ سَلَامٍ؛ لَكَانَ فِي مُقَابَلَةِ كُلِّ يَهُودِيٍّ عَلَى وَجْهِ الْأَرْضِ؛ فَكَيْفَ وَقَدْ تَابَعَهُ عَلَى الْإِسْلَامِ مِنَ الْأَحْبَارِ وَالرُّهْبَانِ مَنْ لَا يُحْصِي عَدَدَهُمْ إِلَّا الله».

فَكَانَ مِمَّنْ كَتَبَ الله لَهُمُ الْهِدَايَةَ وَقَبُولَ الْحَقِّ: عَبْدُ اللهِ بْنُ سَلَامٍ؛ ذَلِكُمُ الْحَبْرُ الْكَرِيمُ الْعَالِمُ.

وَقَدْ أَثْنَى الله تَعَالَى عَلَيْهِ؛ فَفِي «الصَّحِيحَيْنِ» (٣) مِنْ حَدِيثِ سَعْدِ بْنِ أَبِي

---

(١) «الفتح» (٧/ ٢٩٨)؛ وراجع: «الدلائل» للبيهقي (٢/ ٥٣٠ و٥٣١) ط الريان، و«السيرة» لابن إسحاق؛ كما في «سيرة ابن هشام» (٣/ ٤٩ و٥٠).

(٢) «هداية الحيارى في أجوبة اليهود والنصارى» (٥٥). ط الحديث.

(٣) أخرجه البخاريُّ، كتاب مناقب الأنصار، باب مناقب عبد الله بن سلام (٣٨١٢)، ومسلمٌ، كتاب فضائل الصحابة، باب فضائل عبد الله بن سلام (٢٤٨٣).

وَقَّاصٍ ﷺ قَالَ: مَا سَمِعْتُ النَّبِيَّ ﷺ يَقُولُ لأَحَدٍ يَمْشِي عَلَى الأَرْضِ؛ إِنَّهُ مِنْ أَهْلِ الْجَنَّةِ، إِلاَّ لِعَبْدِ اللهِ بْنِ سَلاَمٍ، قَالَ: وَفِيهِ نَزَلَتْ هَذِهِ الآيَةُ: ﴿وَشَهِدَ شَاهِدٌ مِّنۢ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ عَلَىٰ مِثْلِهِۦ فَـَٔامَنَ وَٱسْتَكْبَرْتُمْ﴾ [الأحقاف: ١٠].

وَقَدْ أَخْرَجَ أَحْمَدُ فِي «الْمُسْنَدِ»، وَابْنُ أَبِي شَيْبَةَ فِي «الْمُصَنَّفِ»، وَعَبْدُ بْنُ حُمَيْدٍ فِي «الْمُنْتَخَبِ»، وَالدَّارِمِيُّ فِي «السُّنَنِ» وَالتِّرْمِذِيُّ وَابْنُ مَاجَهْ فِي «سُنَنَيْهِمَا» وَالْحَاكِمُ فِي «الْمُسْتَدْرَكِ» وَالطَّيَالِسِيُّ(١) فِي «مُسْنَدِهِ» وَغَيْرُهُمْ(٢) عَنْ عَبْدِ اللهِ ابْنِ سَلَامٍ قَالَ: لَمَّا قَدِمَ النَّبِيُّ ﷺ انْجَفَلَ النَّاسُ عَلَيْهِ، فَكُنْتُ فِيمَنِ انْجَفَلَ، فَلَمَّا تَبَيَّنْتُ وَجْهَهُ عَرَفْتُ أَنَّ وَجْهَهُ لَيْسَ بِوَجْهِ كَذَّابٍ، فَكَانَ أَوَّلُ شَيْءٍ سَمِعْتُهُ يَقُولُ: **«أَفْشُوا السَّلَامَ، وَأَطْعِمُوا الطَّعَامَ، وَصِلُوا الْأَرْحَامَ، وَصَلُّوا وَالنَّاسُ نِيَامٌ تَدْخُلُوا الْجَنَّةَ بِسَلَامٍ»**.

وَقَدْ تَعَامَلَ النَّبِيُّ ﷺ بِهَذِهِ الْأَخْلَاقِ النَّبِيلَةِ الْكَرِيمَةِ الَّتِي كَانَ يَدْعُو إِلَيْهَا حَتَّى مَعَ الْيَهُودِ؛ فَانْظُرْ إِلَى هَذَا الْحِوَارِ الَّذِي دَارَ بَيْنَ حَبْرٍ مِنْ أَحْبَارِ الْيَهُودِ وَبَيْنَ

---

(١) هو سليمان بن داود بن الجارود، أبو داود الفارسيُّ، ثم الأسدي، ثم الزبيري الحافظ الكبير صاحب «المسند»، قال عليُّ بن المديني: ما رأيت أحفظ من أبي داود، وقال عبد الرحمن بن مهدي: كان أصدق الناس، وقال وكيع: أبو داود جبل العلم. مات سنة ثلاث ومائتين، وقيل: أربع ومائتين بالبصرة، وهو يومئذ ابن اثنتين وسبعين سنة.
● راجع: «سير أعلام النبلاء» (١٥٦٥)، و«تهذيب التهذيب» (٤/ ١٨٢-١٨٦).

(٢) أخرجه أحمد (٥/ ٤٥١)، وابن أبي شيبة في «مصنفه» (٥/ ٢١٧، ٢٤٨) و(٧/ ٢٥٧)، وعبد بن حميد في «المنتخب» (٤٩٦)، والدارميُّ (١٤٦٠، ٢٦٣٢)، وابن سعد في «الطبقات» (٤/ ٢٣٥)، والترمذيُّ، كتاب صفة القيامة، باب (٤٢) (٢٤٨٥)، وقال: «صحيح»، وابن ماجه، كتاب إقامة الصلاة والسنة فيها، باب ما جاء في قيام الليل (١٣٣٤)، وكتاب الأطعمة، باب إطعام الطعام (٣٢٥١)، والطبرانيُّ في «الأوسط» (٥٤١٠)، والقضاعي في «مسنده» (٧١٩)، والبيهقيُّ في «الشعب» (٣٣٦١)، والحاكم (٣/ ١٤)، وقال: «صحيح على شرطهما»؛ ووافقه الذهبيُّ، والألبانيُّ؛ كما في «الصحيحة» (٥٦٩).

سَيِّدِ الْخَلْقِ نَبِيِّنَا ﷺ.

فَفِي «**صَحِيح مُسْلِم**»[(١)] مِنْ حَدِيثِ أَبِي أَسْمَاءَ الرَّحَبِيِّ[(٢)] أَنَّ ثَوْبَانَ مَوْلَى رَسُولِ اللهِ ﷺ حَدَّثَهُ قَالَ: كُنْتُ قَائِمًا عِنْدَ رَسُولِ اللهِ ﷺ، فَجَاءَ حِبْرٌ مِنْ أَحْبَارِ الْيَهُودِ؛ فَقَالَ: السَّلَامُ عَلَيْكَ يَا مُحَمَّدُ، فَدَفَعْتُهُ دَفْعَةً كَادَ يُصْرَعُ مِنْهَا، فَقَالَ: لِمَ تَدْفَعُنِي؟ فَقُلْتُ: أَلَا تَقُولُ يَا رَسُولَ اللهِ، فَقَالَ الْيَهُودِيُّ: إِنَّمَا نَدْعُوهُ بِاسْمِهِ الَّذِي سَمَّاهُ بِهِ أَهْلُهُ؛ فَقَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: «**إِنَّ اسْمِي مُحَمَّدٌ الَّذِي سَمَّانِي بِهِ أَهْلِي**»؛ فَقَالَ الْيَهُودِيُّ: جِئْتُ أَسْأَلُكَ؛ فَقَالَ لَهُ رَسُولُ اللهِ ﷺ: «**أَيَنْفَعُكَ شَيْءٌ إِنْ حَدَّثْتُكَ؟**»، قَالَ: أَسْمَعُ بِأُذُنَيَّ، فَنَكَتَ رَسُولُ اللهِ ﷺ بِعُودٍ مَعَهُ؛ فَقَالَ: «**سَلْ**»؛ فَقَالَ الْيَهُودِيُّ: أَيْنَ يَكُونُ النَّاسُ يَوْمَ تُبَدَّلُ الْأَرْضُ غَيْرَ الْأَرْضِ وَالسَّمَوَاتُ؟

فَقَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: «**هُمْ فِي الظُّلْمَةِ دُونَ الْجِسْرِ**»، قَالَ: فَمَنْ أَوَّلُ النَّاسِ إِجَازَةً؟ قَالَ: «**فُقَرَاءُ الْمُهَاجِرِينَ**»، قَالَ الْيَهُودِيُّ: فَمَا تُحْفَتُهُمْ حِينَ يَدْخُلُونَ الْجَنَّةَ؟ قَالَ: «**زِيَادَةُ كَبِدِ النُّونِ**»، قَالَ: فَمَا غِذَاؤُهُمْ عَلَى إِثْرِهَا؟ قَالَ: «**يُنْحَرُ لَهُمْ ثَوْرُ الْجَنَّةِ الَّذِي كَانَ يَأْكُلُ مِنْ أَطْرَافِهَا**» قَالَ: فَمَا شَرَابُهُمْ عَلَيْهِ؟ قَالَ: «**مِنْ عَيْنٍ فِيهَا تُسَمَّى سَلْسَبِيلاً**». قَالَ: صَدَقْتَ، قَالَ: وَجِئْتُ أَسْأَلُكَ عَنْ شَيْءٍ لاَ يَعْلَمُهُ أَحَدٌ مِنْ أَهْلِ الأَرْضِ إِلاَّ نَبِيٌّ أَوْ رَجُلٌ أَوْ رَجُلاَنِ. قَالَ: «**يَنْفَعُكَ إِنْ حَدَّثْتُكَ**». قَالَ: أَسْمَعُ بِأُذُنَيَّ، قَالَ: جِئْتُ أَسْأَلُكَ عَنِ الْوَلَدِ؟ قَالَ: «**مَاءُ الرَّجُلِ أَبْيَضُ وَمَاءُ الْمَرْأَةِ أَصْفَرُ؛ فَإِذَا اجْتَمَعَا فَعَلاَ مَنِيُّ الرَّجُلِ مَنِيَّ الْمَرْأَةِ أَذْكَرَا بِإِذْنِ اللهِ، وَإِذَا عَلاَ مَنِيُّ الْمَرْأَةِ مَنِيَّ الرَّجُلِ آنَثَا بِإِذْنِ اللهِ**»، قَالَ الْيَهُودِيُّ: لَقَدْ صَدَقْتَ، وَإِنَّكَ لَنَبِيٌّ، ثُمَّ

---

(١) أخرجه مسلمٌ، كتاب الحيض، باب بيان صفة مني الرجل والمرأة وأن الولد مخلوق من مائهما (٣١٥).

(٢) هو أبو أسماء الرحبي الدمشقيُّ، وفي اسم أبي أسماء اختلاف؛ فقيل: عمرو بن مرثد، وقيل: عمرو بن أسماء، والرحبة: قرية عامرة بظاهر دمشق، حدث عن أبي هريرة وثوبان، وشداد بن أوس وغيرهم، مات في خلافة عبد الملك بن مروان.

● راجع: «سير أعلام النبلاء» (٦٩٥)، و«تهذيب التهذيب» (٨/ ٩٩).

انْصَرَفَ فَذَهَبَ؛ فَقَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: «**لَقَدْ سَأَلَنِي هَذَا عَنِ الَّذِي سَأَلَنِي عَنْهُ، وَمَا لِي عِلْمٌ بِشَيْءٍ مِنْهُ حَتَّى أَتَانِيَ اللهُ بِهِ**».

وَفِي «**صَحِيحِ الْبُخَارِيِّ**»(١) مِنْ حَدِيثِ أَبِي هُرَيْرَةَ ﵁ قَالَ: لَمَّا فُتِحَتْ خَيْبَرُ أُهْدِيَتْ لِلنَّبِيِّ ﷺ شَاةٌ فِيهَا سُمٌّ؛ فَقَالَ النَّبِيُّ ﷺ: «**اجْمَعُوا إِلَيَّ مَنْ كَانَ هَا هُنَا مِنْ يَهُودَ**»، فَجُمِعُوا لَهُ؛ فَقَالَ: «**إِنِّي سَائِلُكُمْ عَنْ شَيْءٍ؛ فَهَلْ أَنْتُمْ صَادِقِيَّ عَنْهُ؟**» فَقَالُوا: نَعَمْ، قَالَ لَهُمُ النَّبِيُّ ﷺ: «**مَنْ أَبُوكُمْ؟**»، قَالُوا: فُلَانٌ؛ فَقَالَ: «**كَذَبْتُمْ، بَلْ أَبُوكُمْ فُلَانٌ**»، قَالُوا: صَدَقْتَ، قَالَ: «**فَهَلْ أَنْتُمْ صَادِقِيَّ عَنْ شَيْءٍ إِنْ سَأَلْتُ عَنْهُ؟**» فَقَالُوا: نَعَمْ يَا أَبَا الْقَاسِمِ، وَإِنْ كَذَبْنَا عَرَفْتَ كَذِبَنَا كَمَا عَرَفْتَهُ فِي أَبِينَا؛ فَقَالَ لَهُمْ: «**مَنْ أَهْلُ النَّارِ؟**»، قَالُوا: نَكُونُ فِيهَا يَسِيرًا، ثُمَّ تَخْلُفُونَا فِيهَا؛ فَقَالَ النَّبِيُّ ﷺ: «**اخْسَئُوا فِيهَا، وَاللهِ لَا نَخْلُفُكُمْ فِيهَا أَبَدًا**»، ثُمَّ قَالَ: «**هَلْ أَنْتُمْ صَادِقِيَّ عَنْ شَيْءٍ إِنْ سَأَلْتُكُمْ عَنْهُ؟**» فَقَالُوا: نَعَمْ يَا أَبَا الْقَاسِمِ، قَالَ: «**هَلْ جَعَلْتُمْ فِي هَذِهِ الشَّاةِ سُمًّا؟**» قَالُوا: نَعَمْ، قَالَ: «**مَا حَمَلَكُمْ عَلَى ذَلِكَ؟**»، قَالُوا: أَرَدْنَا إِنْ كُنْتَ كَاذِبًا نَسْتَرِيحُ، وَإِنْ كُنْتَ نَبِيًّا لَمْ يَضُرَّكَ.

وَمِنْ حِرْصِهِ ﷺ عَلَى إِسْلَامِ يَهُودَ: ذَهَابُهُ إِلَى بَيْتِ كَبِيرِ الْيَهُودِ لِدَعْوَتِهِ إِلَى الْإِسْلَامِ.

فَفِي «**الصَّحِيحَيْنِ**»(٢) مِنْ حَدِيثِ أَبِي هُرَيْرَةَ ﵁ قَالَ: بَيْنَا نَحْنُ فِي الْمَسْجِدِ، إِذْ خَرَجَ رَسُولُ اللهِ ﷺ؛ فَقَالَ: «**انْطَلِقُوا إِلَى يَهُودَ**»، فَخَرَجْنَا مَعَهُ حَتَّى جِئْنَاهُمْ.

---

(١) أخرجه البخاريُّ، كتاب الجزية والموادعة، باب: إذا غدر المشركون بالمسلمين هل يعفى عنهم؟ (٣١٦٩).

(٢) أخرجهُ البخاريُّ، كتاب الجزية والموادعة، باب إخراج اليهود من جزيرة العرب (٣١٦٧)، ومسلمٌ، كتاب الجهاد، باب إجلاء اليهود من الحجاز (١٧٦٥).

وَفِي رِوَايَةِ الْبُخَارِيِّ: «فَخَرَجْنَا مَعَهُ، حَتَّى جِئْنَا بَيْتَ الْمِدْرَاسِ»[١].

فَقَامَ رَسُولُ الله ﷺ فَنَادَاهُمْ؛ فَقَالَ: «**يَا مَعْشَرَ يَهُودَ! أَسْلِمُوا تَسْلَمُوا**»؛ فَقَالُوا: قَدْ بَلَّغْتَ[٢] يا أَبَا الْقَاسِم! فَقَالَ لَهُمْ رَسُولُ الله ﷺ: «**ذَلِكَ أُرِيدُ، أَسْلِمُوا تَسْلَمُوا**» فَقَالُوا: قَدْ بَلَّغْتَ يَا أَبَا الْقَاسِم! فَقَالَ لَهُمْ رَسُولُ الله ﷺ: «**ذَلِكَ أُرِيدُ**»، فَقَالَ لَهُمُ الثَّالِثَةَ: «**اعْلَمُوا أَنَّمَا الْأَرْضُ للهِ وَرَسُولِهِ، وَإِنِّي أُرِيدُ أَنْ أُجْلِيَكُمْ مِنْ هَذِهِ الْأَرْضِ؛ فَمَنْ وَجَدَ مِنْكُمْ بِمَالِهِ شَيْئًا فَلْيَبِعْهُ، وَإِلَّا فَاعْلَمُوا أَنَّ الْأَرْضَ للهِ وَرَسُولِهِ**».

وَلَمْ يَكُنِ اهْتِمَامُهُ ﷺ مُنْصَبًّا عَلَى دَعْوَةِ كُبَرَاءِ الْيَهُودِ فَحَسْبُ؛ بَلِ اعْتَنَى عِنَايَةً شَدِيدَةً بِدَعْوَةِ عَامَّةِ الْقَوْمِ فِيهِمْ.

فَانْظُرْ إِلَى هَذَا الْحِرْصِ الشَّدِيدِ مِنَ الرَّحْمَةِ الْمُهْدَاةِ ﷺ نَحْوَ هَذَا الْغُلَامِ الْيَهُودِيِّ حِينَ مَرِضَ.

فَفِي «**صَحِيحِ الْبُخَارِيِّ**»[٣] مِنْ حَدِيثِ أَنَسٍ رضي الله عنه قَالَ: كَانَ غُلَامٌ يَهُودِيٌّ يَخْدُمُ النَّبِيَّ ﷺ؛ فَمَرِضَ، فَأَتَاهُ النَّبِيُّ ﷺ يَعُودُهُ، فَقَعَدَ عِنْدَ رَأْسِهِ؛ فَقَالَ لَهُ: «**أَسْلِمْ**»، فَنَظَرَ إِلَى أَبِيهِ وَهُوَ عِنْدَهُ، فَقَالَ لَهُ: أَطِعْ أَبَا الْقَاسِمِ ﷺ فَأَسْلَمَ، فَخَرَجَ النَّبِيُّ ﷺ وَهُوَ يَقُولُ: «**الْحَمْدُ للهِ الَّذِي أَنْقَذَهُ مِنَ النَّارِ**».

---

(١) قال الحافظ في «الفتح» (٦/ ٣١٣): «وبيت المدراس: بكسر أوله، هو البيت الذي يُدرس فيه كتابُهم، أو المراد بالمدراس: العالم الذي يدرس كتابهم، والأول أرجح؛ لأن في الرواية الأخرى: «حتى أتى المدراس»».

(٢) هي: كلمة مكر ومداجاة ليدافعوه بما يوهمه ظاهرها، ولذلك قال ﷺ: «**ذَلِكَ أُرِيدُ**» أي: التبليغ.

(٣) أخرجه البخاريُّ، كتاب الجنائز، باب إذا أسلم الصبيُّ فمات هل يصلى عليه، وهل يعرض على الصبي الإسلامُ؟ (١٣٥٦).

وَفِي رِوَايَةٍ [١]: «أَنْقَذَهُ بي»؛ أَيْ: خَلَّصَهُ وَنَجَّاهُ بِسَبَبِي مِنَ النَّارِ؛ **قَالَ بَدْرُ الدِّينِ الْعَيْنِيُّ فِي «عُمْدَةِ الْقَارِي»** [٢]: «وَفِيهِ جَوَازُ عِيَادَةِ أَهْلِ الذِّمَّةِ، وَلَاسِيَّمَا إِذَا كَانَ الذِّمِّيُّ جَارًا لَهُ؛ لِأَنَّ فِيهِ إِظْهَارَ مَحَاسِنِ الْإِسْلَامِ، وَزِيَادَةَ التَّأَلُّفِ بِهِمْ؛ لِيَرْغَبُوا فِي الْإِسْلَامِ».

وَفِي «مُسْنَدِ» أَحْمَدِ، وَابْنِ أَبِي الدُّنْيَا [٣] **فِي «الْمُحْتَضَرِينَ» وَغَيْرِهِمَا** [٤] بِسَنَدٍ جَوَّدَهُ وَقَوَّاهُ الْحَافِظُ ابْنُ كَثِيرٍ، وَحَسَّنَهُ ابْنُ الْأَثِيرِ [٥] مِنْ حَدِيثِ أَبِي صَخْرٍ

---

(١) عند أحمد (١٧٥، ٢٢٧، ٢٨٠)، وأبي داود، كتاب الجنائز، باب في عيادة الذمي (٣٠٩٥).

(٢) (٨/ ١٧٥).

(٣) هو عبد الله بن محمد بن عبيد بن سفيان بن قيس القرشيُّ مولاهم البغدادي المؤدب، صاحب التصانيف السائرة، الحافظ المصنف في كل فن، كان صدوقًا، ذا مروءة، كان إذا جالس أحدًا، إن شاء أضحكه، وإن شاء أبكاه في آنٍ واحدٍ لتوسعه في العلم والأخبار.

● راجع: «سير أعلام النبلاء» (٢٥٧١)، و«البداية والنهاية» (١١/ ٦١).

(٤) أخرجه أحمد في «مسنده» (٥/ ٤١١)، وابن أبي الدنيا في «المحتضرين» (برقم:١٣) ط ابن الجوزي، وابن خزيمة في «صحيحه» - كما في «الإصابة» لابن حجر (٧/ ٢١٧)، وابن سعد في «الطبقات» (١/ ١٨٥)، وأبو القاسم الأصبهانيُّ في «الدلائل» (برقم:٣)، وأبو نعيم في «المعرفة» (٦٢٥١)، وأبو أحمد الحاكم في «الكنى»؛ كما في «الصحيحة» (٣٢٦٩)، والحسن بن سفيان في «مسنده»؛ كما في «الإصابة» (مرةً من مسند أبي صخر العقيلي، ومرة عنه عن رجل من الأعراب)، وأبو صخر؛ مختلف في صحبته، وقد جزم بصحبته البخاريُّ ومسلمٌ؛ كما في «الإصابة»، و«التعجيل» لابن حجر رحمه الله، وأشار الحافظ إلى اختلافٍ في السند بشأن صحابي الحديث، ورجَّح العلامة الألبانيُّ كونه: «رجل من الأعراب»، وهي رواية أحمد، والحديث قال فيه الحافظ ابن كثير في «التفسير» (لسورة الأعراف:١٥٧): «هذا حديثٌ جيدٌ قويٌّ»، وحسَّنَه ابن الأثير في «أسد الغابة» (ترجمة أبي صخر ٥/ ١١ ط المعرفة)، وصحَّحَه كذلك العلَّامة الألبانيُّ في «الصحيحة» (٣٢٦٩).

(٥) هو عز الدين ابن الأثير الجزري، أبو الحسن علي بن أبي الكرم محمد بن محمد بن =

الْعُقَيْلِيِّ (١) قَالَ: حَدَّثَنِي رَجُلٌ مِنَ الْأَعْرَابِ قَالَ: جَلَبْتُ جَلُوبَةً إِلَى الْمَدِينَةِ فِي حَيَاةِ رَسُولِ اللهِ ﷺ، فَلَمَّا فَرَغْتُ مِنْ بَيْعَتِي قُلْتُ: لَأَلْقَيَنَّ هَذَا الرَّجُلَ فَلَأَسْمَعَنَّ مِنْهُ، قَالَ: فَتَلَقَّانِي بَيْنَ أَبِي بَكْرٍ وَعُمَرَ رضي الله عنهما يَمْشُونَ فَتَبِعْتُهُمْ فِي أَقْفَائِهِمْ، حَتَّى أَتَوْا عَلَى رَجُلٍ مِنَ الْيَهُودِ نَاشِرًا التَّوْرَاةَ يَقْرَؤُهَا يُعَزِّي بِهَا نَفْسَهُ عَلَى ابْنٍ لَهُ فِي الْمَوْتِ؛ كَأَحْسَنِ الْفِتْيَانِ وَأَجْمَلِهِ؛ فَقَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: «**أَنْشُدُكَ بِالَّذِي أَنْزَلَ التَّوْرَاةَ! هَلْ تَجِدُ فِي كِتَابِكَ ذَا صِفَتِي وَمَخْرَجِي؟**»؛ فَقَالَ بِرَأْسِهِ هَكَذَا، أَيْ: لَا، فَقَالَ ابْنُهُ: إِي وَالَّذِي أَنْزَلَ التَّوْرَاةَ، إِنَّا لَنَجِدُ فِي كِتَابِنَا صِفَتَكَ وَمَخْرَجَكَ، وَأَشْهَدُ أَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا اللهُ، وَأَنَّكَ رَسُولُ اللهِ؛ فَقَالَ: «**أَقِيمُوا الْيَهُودَ عَنْ أَخِيكُمْ، ثُمَّ وَلِيَ كَفَنَهُ وَحَنَّطَهُ وَصَلَّى عَلَيْهِ**».

وَلَقَدْ كَانَ ﷺ يَسْلُكُ مَسْلَكَ التَّرْغِيبِ وَالْحِكْمَةِ وَالرِّفْقِ مَعَهُمْ فِي الدَّعْوَةِ حَتَّى فِي الْجِدَالِ؛ امْتِثَالًا لِقَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿وَلَا تُجَٰدِلُوٓاْ أَهْلَ ٱلْكِتَٰبِ إِلَّا بِٱلَّتِى هِىَ أَحْسَنُ إِلَّا ٱلَّذِينَ ظَلَمُواْ مِنْهُمْ ۖ وَقُولُوٓاْ ءَامَنَّا بِٱلَّذِىٓ أُنزِلَ إِلَيْنَا وَأُنزِلَ إِلَيْكُمْ وَإِلَٰهُنَا وَإِلَٰهُكُمْ وَٰحِدٌ وَنَحْنُ لَهُۥ مُسْلِمُونَ﴾ [العنكبوت:٤٦].

وَقَالَ تَعَالَى لِنَبِيِّهِ ﷺ: ﴿**قُلْ يَٰٓأَهْلَ ٱلْكِتَٰبِ تَعَالَوْاْ إِلَىٰ كَلِمَةٍ سَوَآءٍ بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ أَلَّا نَعْبُدَ إِلَّا ٱللَّهَ وَلَا نُشْرِكَ بِهِۦ شَيْـًٔا وَلَا يَتَّخِذَ بَعْضُنَا بَعْضًا أَرْبَابًا مِّن دُونِ ٱللَّهِ ۚ فَإِن**

=

عبد الكريم المعروف بابن الأثير الجزري، ولد بالجزيرة ونشأ بها، ثم سار إلى الموصل وسكن بها، وكان إمامًا في حفظ الحديث ومعرفته وما يتعلق به، وحافظًا للتواريخ المتقدمة والمتأخرة، وخبيرًا بأنساب العرب وأخبارهم وأيامهم ووقائعهم. توفي في شعبان سنة ثلاثين وستمائة رحمه الله.

● راجع: «سير أعلام النبلاء» (٥٩٢١)، و«وفيات الأعيان» (٣/ ٣٤٩).

(١) من ساكني البصرة؛ ذكره البخاريُّ ومسلمٌ وابن حبان، وغيرهم في الصحابة، قيل: اسمه عبد الله بن قدامة؛ حكاه ابن عبد البر، روى عنه عبد الله بن شقيق حديثًا حسنًا من أعلام النبوة.

● راجع: «الاستيعاب» (٢١٣)، و«أسد الغابة» (٦٠١٩)، و«الإصابة» (١٠١٣٨).

تَوَلَّوْاْ فَقُولُواْ ٱشْهَدُواْ بِأَنَّا مُسْلِمُونَ ﴾ [آل عمران: ٦٤].

وَفِي «سُنَنِ» التِّرْمِذِيِّ، وَ«مُسْنَدِ» أَحْمَدَ، وَالنَّسَائِيِّ فِي «الْكُبْرَى» (١) مِنْ حَدِيثِ ابْنِ عَبَّاسٍ رضي الله عنهما قَالَ: قَالَتْ قُرَيْشٌ لِيَهُودَ: أَعْطُونَا شَيْئًا نَسْأَلُ هَذَا الرَّجُلَ، فَقَالُوا: سَلُوهُ عَنِ الرُّوحِ، فَسَأَلُوهُ عَنِ الرُّوحِ؛ فَأَنْزَلَ اللهُ تَعَالَى: ﴿ وَيَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلرُّوحِ قُلِ ٱلرُّوحُ مِنْ أَمْرِ رَبِّي وَمَآ أُوتِيتُم مِّنَ ٱلْعِلْمِ إِلَّا قَلِيلًا ﴾ [الإسراء: ٨٥]، قَالُوا: أُوتِينَا عِلْمًا كَثِيرًا، أُوتِينَا التَّوْرَاةَ، وَمَنْ أُوتِيَ التَّوْرَاةَ فَقَدْ أُوتِيَ خَيْرًا كَثِيرًا، فَأُنْزِلَتْ: ﴿ قُل لَّوْ كَانَ ٱلْبَحْرُ مِدَادًا لِّكَلِمَٰتِ رَبِّي لَنَفِدَ ٱلْبَحْرُ قَبْلَ أَن تَنفَدَ كَلِمَٰتُ رَبِّي وَلَوْ جِئْنَا بِمِثْلِهِۦ مَدَدًا ﴾ [الكهف: ١٠٩].

وَهُوَ بِلَفْظٍ قَرِيبٍ فِي «الصَّحِيحَيْنِ» (٢) مِنْ حَدِيثِ ابْنِ مَسْعُودٍ رضي الله عنه قَالَ: بَيْنَا أَنَا أَمْشِي مَعَ النَّبِيِّ صلى الله عليه وسلم فِي خَرِبِ الْمَدِينَةِ وَهُوَ يَتَوَكَّأُ عَلَى عَسِيبٍ مَعَهُ؛ فَمَرَّ بِنَفَرٍ مِنَ الْيَهُودِ، فَقَالَ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ: سَلُوهُ عَنِ الرُّوحِ، وَقَالَ بَعْضُهُمْ: لَا تَسْأَلُوهُ، لَا يَجِيءُ فِيهِ بِشَيْءٍ تَكْرَهُونَهُ؛ فَقَالَ بَعْضُهُمْ: لَنَسْأَلَنَّهُ، فَقَامَ رَجُلٌ مِنْهُمْ فَقَالَ: يَا أَبَا الْقَاسِمِ؛ مَا الرُّوحُ؟ فَسَكَتَ، فَقُلْتُ: إِنَّهُ يُوحَى إِلَيْهِ فَقُمْتُ، فَلَمَّا انْجَلَى عَنْهُ، قَالَ: ﴿ وَيَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلرُّوحِ قُلِ ٱلرُّوحُ مِنْ أَمْرِ رَبِّي وَمَآ أُوتِيتُم مِّنَ ٱلْعِلْمِ إِلَّا قَلِيلًا ﴾

[الإسراء: ٨٥].

وَمِنْ حُسْنِ خُلُقِهِ، وَلِينِ جَانِبِهِ صلى الله عليه وسلم مَعَ الْيَهُودِ: رَجَاءُ هِدَايَتِهِمْ، وَدَعْوَتُهُمْ

---

(١) أخرجه أحمد (١/ ٢٥٥)، والترمذيُّ، كتاب تفسير القرآن، باب ومن سورة بني إسرائيل (٣١٤٠)، وقال: «هذا حديث حسن صحيح غريب من هذا الوجه»، والنسائيُّ في «الكبرى» (١١٢٥٢)، وصحَّحه الألبانيُّ في «صحيح سنن الترمذي».

(٢) أخرجه البخاريُّ، كتاب العلم، باب قول الله تعالى: ﴿وَمَآ أُوتِيتُم مِّنَ ٱلْعِلْمِ إِلَّا قَلِيلًا﴾ (١٢٥)، ومسلمٌ، كتاب صفة القيامة والجنة والنار، باب سؤال اليهود النبي صلى الله عليه وسلم عن الروح (٢٧٩٤).

إِلَى الْحَقِّ، وَرَدُّ بَاطِلِهِمْ بِحِكْمَةٍ وَمَعْرُوفٍ وَأُسْلُوبٍ رَشِيدٍ؛ **مَا أَخْرَجَهُ الْبُخَارِيُّ وَمُسْلِمٌ** (١) مِنْ حَدِيثِ أَنَسِ بْنِ مَالِكٍ ﵁ قَالَ: مَرَّ يَهُودِيٌّ بِرَسُولِ الله ﷺ، فَقَالَ: السَّامُ عَلَيْكَ؛ فَقَالَ رَسُولُ الله ﷺ: «**وَعَلَيْكَ**»؛ فَقَالَ رَسُولُ الله ﷺ: «**أَتَدْرُونَ مَا يَقُولُ؟ قَالَ: السَّامُ عَلَيْكَ**»، قَالُوا: يَا رَسُولَ الله أَلَا نَقْتُلُهُ؟ قَالَ: «**لَا؛ إِذَا سَلَّمَ عَلَيْكُمْ أَهْلُ الْكِتَابِ فَقُولُوا: وَعَلَيْكُمْ**».

وَفِي «**الصَّحِيحَيْنِ**» (٢) مِنْ حَدِيثِ عَائِشَةَ ﵂ قَالَتْ: دَخَلَ رَهْطٌ مِنَ الْيَهُودِ عَلَى رَسُولِ الله؛ فَقَالُوا: السَّامُ عَلَيْكَ، فَفَهِمْتُهَا، فَقُلْتُ: عَلَيْكُمُ السَّامُ وَاللَّعْنَةُ؛ فَقَالَ رَسُولُ الله ﷺ: «**مَهْلًا يَا عَائِشَةُ؛ فَإِنَّ اللهَ يُحِبُّ الرِّفْقَ فِي الْأَمْرِ كُلِّهِ**»؛ فَقُلْتُ: يَا رَسُولَ الله! أَوَلَمْ تَسْمَعْ مَا قَالُوا؟ قَالَ رَسُولُ الله ﷺ: «**فَقَدْ قُلْتُ: وَعَلَيْكُمْ**».

وَفِي رِوَايَةٍ عِنْدَ مُسْلِمٍ (٣): أَتَى النَّبِيَّ ﷺ أُنَاسٌ مِنَ الْيَهُودِ؛ فَقَالُوا: السَّامُ عَلَيْكَ يَا أَبَا الْقَاسِمِ، قَالَ: «**وَعَلَيْكُمْ**»، قَالَتْ عَائِشَةُ: قُلْتُ: بَلْ عَلَيْكُمُ السَّامُ وَالذَّامُ، فَقَالَ رَسُولُ الله ﷺ: «**يَا عَائِشَةُ لَا تَكُونِي فَاحِشَةً**»، فَقَالَتْ: مَا سَمِعْتَ مَا قَالُوا؟ فَقَالَ: «**أَوَلَيْسَ قَدْ رَدَدْتُ عَلَيْهِمُ الَّذِي قَالُوا؟ قُلْتُ: وَعَلَيْكُمْ**».

وَمِنْ أَسَالِيبِهِمْ مَعَ رَسُولِ الله ﷺ؛ **كَمَا فِي «الْأَدَبِ الْمُفْرَدِ» لِلْبُخَارِيِّ، وَ«سُنَنِ» التِّرْمِذِيِّ وَأَبِي دَاوُدَ، وَ«مُسْنَدِ» أَحْمَدَ وَغَيْرِهِمْ** (٤) مِنْ حَدِيثِ أَبِي

---

(١) أخرجه البخاريُّ، كتاب استتابة المرتدين والمعاندين وقتالهم، باب إذا عَرَّضَ الذمي وغيره بسبِّ النبيِّ ﷺ (٦٩٢٦)، ومسلمٌ، كتاب السلام، باب النهي عن ابتداء أهل الكتاب بالسلام وكيف يرد عليهم؟ (٢١٦٣/ مختصرًا).

(٢) أخرجه البخاريُّ، كتاب الأدب، باب الرفق في الأمر كله (٦٠٢٤)، ومسلمٌ، كتاب السلام، باب النهي عن ابتداء أهل الكتاب بالسلام وكيف يرد عليهم؟ (٢١٦٥).

(٣) أخرجه مسلمٌ، كتاب السلام، باب النهي عن ابتداء أهل الكتاب بالسلام وكيف يرد عليهم؟ (٢١٦٥/ ١١).

(٤) أخرجه أحمد (٤/ ٤٠، ٤١١)، والبخاريُّ في «الأدب المفرد» (٩٤٠)، وأبو داود، كتاب

=

مُوسَى الْأَشْعَرِيِّ ﵁ قَالَ: كَانَ الْيَهُودُ يَتَعَاطَسُونَ عِنْدَ النَّبِيِّ ﷺ يَرْجُونَ أَنْ يَقُولَ لَهُمْ: «يَرْحَمُكُمُ اللهُ»؛ فَيَقُولُ: «**يَهْدِيكُمُ اللهُ وَيُصْلِحُ بَالَكُمْ**».

بَلْ وَيَأْتِي الْيَهُودِيُّ إِلَى مَجْلِسِ رَسُولِ اللهِ ﷺ؛ لِيَسْأَلَ ثُمَّ يُجِيبُ هُوَ! فَلِمَاذَا؟!! وَلَكِنِ انْظُرْ إِلَى لِينِ الْحَبِيبِ ﷺ وَلُطْفِهِ بِهِمْ.

رَوَى الْبُخَارِيُّ وَمُسْلِمٌ (١) مِنْ حَدِيثِ أَبِي سَعِيدٍ الْخُدْرِيِّ ﵁ قَالَ: قَالَ النَّبِيُّ ﷺ: «**تَكُونُ الْأَرْضُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ خُبْزَةً وَاحِدَةً يَتَكَفَّؤُهَا الْجَبَّارُ بِيَدِهِ، كَمَا يَكْفَأُ أَحَدُكُمْ خُبْزَتَهُ فِي السَّفَرِ، نُزُلًا لِأَهْلِ الْجَنَّةِ**»، فَأَتَى رَجُلٌ مِنَ الْيَهُودِ، فَقَالَ: بَارَكَ الرَّحْمَنُ عَلَيْكَ يَا أَبَا الْقَاسِمِ، أَلَا أُخْبِرُكَ بِنُزُلِ أَهْلِ الْجَنَّةِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ؟ قَالَ: «**بَلَى**»، قَالَ: تَكُونُ الْأَرْضُ خُبْزَةً وَاحِدَةً، كَمَا قَالَ النَّبِيُّ ﷺ؛ فَنَظَرَ النَّبِيُّ ﷺ إِلَيْنَا، ثُمَّ ضَحِكَ حَتَّى بَدَتْ نَوَاجِذُهُ، ثُمَّ قَالَ: «**أَلَا أُخْبِرُكَ بِإِدَامِهِمْ؟**» قَالَ: إِدَامُهُمْ بَالَامٌ وَنُونٌ، قَالُوا: وَمَا هَذَا؟ قَالَ: «**ثَوْرٌ وَنُونٌ، يَأْكُلُ مِنْ زَائِدَةِ كَبِدِهِمَا سَبْعُونَ أَلْفًا**».

وَتَدَبَّرْ حَالَ هَذَا الْيَهُودِيِّ الْآخَرِ! فَفِي «**الصَّحِيحَيْنِ**» (٢) مِنْ حَدِيثِ ابْنِ مَسْعُودٍ ﵁ قَالَ: جَاءَ حَبْرٌ مِنَ الْأَحْبَارِ إِلَى رَسُولِ اللهِ ﷺ فَقَالَ: يَا مُحَمَّدُ! إِنَّا نَجِدُ أَنَّ اللهَ يَجْعَلُ السَّمَوَاتِ عَلَى إِصْبَعٍ، وَالْأَرَضِينَ عَلَى إِصْبَعٍ، وَالشَّجَرَ عَلَى

=

الأدب، باب كيف يشمت الذمي؟ (٥٠٣٨)، والترمذيُّ، كتاب الأدب، باب كيف تشميت العاطس؟ (٢٧٣٩)، وقال: «حسن صحيح»، والنسائيُّ في «عمل اليوم والليلة» (٢٣٢) ط مؤسسة الرسالة، بيروت. وصحَّحه الألبانيُّ في «الأدب المفرد»، و«الإرواء» (١٢٧٧).

(١) أخرجه البخاريُّ، كتاب الرقاق، باب يقبض الله الأرض (٦٥٢٠)، ومسلمٌ، كتاب صفة القيامة والجنة والنار، باب نُزُلِ أهل الجنة (٢٧٩٢).

(٢) أخرجه البخاريُّ، كتاب تفسير القرآن، باب قوله: ﴿وَمَا قَدَرُوا۟ ٱللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِۦ﴾ (٤٨١١)، ومسلمٌ، كتاب صفة القيامة والجنة والنار (٢٧٨٦).

إِصْبَعٍ؛ فَيَقُولُ: أَنَا الْمَلِكُ؛ فَضَحِكَ النَّبِيُّ ﷺ حَتَّى بَدَتْ نَوَاجِذُهُ تَصْدِيقًا لِقَوْلِ الْحَبْرِ، ثُمَّ قَرَأَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: «﴿وَمَا قَدَرُوا۟ ٱللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِۦ وَٱلْأَرْضُ جَمِيعًا قَبْضَتُهُۥ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ وَٱلسَّمَٰوَٰتُ مَطْوِيَّٰتٌۢ بِيَمِينِهِۦ ۚ سُبْحَٰنَهُۥ وَتَعَٰلَىٰ عَمَّا يُشْرِكُونَ﴾ [الزمر:٦٧]».

وَمِنْ تَمَامِ عَقْلِهِ ﷺ، وَحُسْنِ مُعَامَلَتِهِ، وَعَظِيمِ صَبْرِهِ عَلَى أَذَى الْيَهُودِ وَمَكْرِهِمْ بِهِ، وَمُحَاوَلَاتِهِمُ الْمُتَكَرِّرَةِ لِإِيذَائِهِ.

مَا أَخْرَجَهُ الْبُخَارِيُّ وَمُسْلِمٌ (١) مِنْ حَدِيثِ عَائِشَةَ رضي الله عنها قَالَتْ: سَحَرَ رَسُولَ اللهِ ﷺ يَهُودِيٌّ مِنْ يَهُودِ بَنِي زُرَيْقٍ يُقَالُ لَهُ: لَبِيدُ بْنُ الْأَعْصَمِ، قَالَتْ: حَتَّى كَانَ رَسُولُ اللهِ ﷺ يُخَيَّلُ إِلَيْهِ أَنَّهُ يَفْعَلُ الشَّيْءَ وَمَا يَفْعَلُهُ، حَتَّى إِذَا كَانَ ذَاتَ يَوْمٍ، أَوْ ذَاتَ لَيْلَةٍ، دَعَا رَسُولُ اللهِ ﷺ، ثُمَّ دَعَا، ثُمَّ دَعَا، ثُمَّ قَالَ: «**يَا عَائِشَةُ أَشَعَرْتِ أَنَّ اللهَ أَفْتَانِي فِيمَا اسْتَفْتَيْتُهُ فِيهِ، جَاءَنِي رَجُلَانِ فَقَعَدَ أَحَدُهُمَا عِنْدَ رَأْسِي وَالْآخَرُ عِنْدَ رِجْلَيَّ؛ فَقَالَ الَّذِي عِنْدَ رَأْسِي لِلَّذِي عِنْدَ رِجْلَيَّ، أَوِ الَّذِي عِنْدَ رِجْلَيَّ لِلَّذِي عِنْدَ رَأْسِي: مَا وَجَعُ الرَّجُلِ؟ قَالَ: مَطْبُوبٌ، قَالَ: مَنْ طَبَّهُ؟ قَالَ: لَبِيدُ بْنُ الْأَعْصَمِ، قَالَ: فِي أَيِّ شَيْءٍ؟ قَالَ: فِي مُشْطٍ وَمُشَاطَةٍ، قَالَ: وَجُفِّ طَلْعَةِ ذَكَرٍ، قَالَ: فَأَيْنَ هُوَ؟ قَالَ: فِي بِئْرِ ذِي أَرْوَانَ**»، قَالَتْ: فَأَتَاهَا رَسُولُ اللهِ ﷺ فِي أُنَاسٍ مِنْ أَصْحَابِهِ، ثُمَّ قَالَ: «**يَا عَائِشَةُ وَاللهِ لَكَأَنَّ مَاءَهَا نُقَاعَةُ الْحِنَّاءِ، وَلَكَأَنَّ نَخْلَهَا رُءُوسُ الشَّيَاطِينِ**»، قَالَتْ: فَقُلْتُ: يَا رَسُولَ اللهِ ﷺ أَفَلَا أَحْرَقْتَهُ؟ قَالَ: «**لَا، أَمَّا أَنَا فَقَدْ عَافَانِي اللهُ، وَكَرِهْتُ أَنْ أُثِيرَ عَلَى النَّاسِ شَرًّا، فَأَمَرْتُ بِهَا فَدُفِنَتْ**».

وَهَكَذَا كَانَ حَالُ رَسُولِ اللهِ ﷺ مَعَ الْقَوْمِ، مِنَ الرِّفْقِ وَاللِّينِ، وَاللُّطْفِ، وَالْعَفْوِ، وَإِجَابَةِ دَعْوَتِهِمْ تَأْلِيفًا لِقُلُوبِهِمْ؛ كَمَا فِي قِصَّةِ زَيْنَبَ بِنْتِ الْحَارِثِ

---

(١) أخرجه البخاريُّ، كتاب الطب، باب السحر (٥٧٦٣)، ومسلمٌ، كتاب السلام، باب السحر (٢١٨٩).

الْيَهُودِيَّةِ الَّتِي دَعَتْهُ إِلَى ذِرَاعِ شَاةٍ، وَوَضَعَتْ لَهُ ﷺ فِيهَا سُمًّا(١).

وَمَعَ أَنَّ الْقَوْمَ كَانُوا يَعْرِفُونَ أَنَّ مُحَمَّدًا ﷺ هُوَ رَسُولٌ مِنْ عِنْدِ اللهِ، وَمَعَ ذَلِكَ اسْتَكْبَرُوا عَنْ قَبُولِ الْحَقِّ، وَلَمْ يُذْعِنُوا، وَلَمْ يُؤْمِنُوا بِرِسَالَتِهِ؛ بَلْ عَادَوْهُ وَآذَوْهُ، وَلَكِنَّ اللهَ عَصَمَهُ وَحَفِظَهُ مِنْ مَكْرِهِمْ، وَرَدَّ كَيْدَهُمْ فِي نَحْرِهِمْ؛ قَالَ تَعَالَى: ﴿ٱلَّذِينَ ءَاتَيْنَٰهُمُ ٱلْكِتَٰبَ يَعْرِفُونَهُۥ كَمَا يَعْرِفُونَ أَبْنَآءَهُمْ ۖ وَإِنَّ فَرِيقًا مِّنْهُمْ لَيَكْتُمُونَ ٱلْحَقَّ وَهُمْ يَعْلَمُونَ﴾ [البقرة:١٤٦].

وَقَالَ تَعَالَى: ﴿وَلَمَّا جَآءَهُمْ كِتَٰبٌ مِّنْ عِندِ ٱللَّهِ مُصَدِّقٌ لِّمَا مَعَهُمْ وَكَانُوا۟ مِن قَبْلُ يَسْتَفْتِحُونَ عَلَى ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ فَلَمَّا جَآءَهُم مَّا عَرَفُوا۟ كَفَرُوا۟ بِهِۦ ۚ فَلَعْنَةُ ٱللَّهِ عَلَى ٱلْكَٰفِرِينَ﴾ [البقرة:٨٩].

وَدَعْوَتُهُ ﷺ لِلنَّصَارَى كَذَلِكَ، وَرَسَائِلُهُ إِلَيْهِمْ كَثِيرَةٌ، وَلَقَدْ أَبْطَلَ لَهُمْ عَقِيدَتَهُمْ، وَرَدَّ عَلَيْهِمْ بَاطِلَهُمْ بِالْبَرَاهِينِ وَالْبَيِّنَاتِ؛ كَدَعْوَتِهِ لِهِرَقْلَ وَغَيْرِهِ. وَقَدْ قَالَ تَعَالَى: ﴿يَٰٓأَهْلَ ٱلْكِتَٰبِ لَا تَغْلُوا۟ فِى دِينِكُمْ وَلَا تَقُولُوا۟ عَلَى ٱللَّهِ إِلَّا ٱلْحَقَّ ۚ إِنَّمَا ٱلْمَسِيحُ عِيسَى ٱبْنُ مَرْيَمَ رَسُولُ ٱللَّهِ وَكَلِمَتُهُۥٓ أَلْقَىٰهَآ إِلَىٰ مَرْيَمَ وَرُوحٌ مِّنْهُ ۖ فَـَٔامِنُوا۟ بِٱللَّهِ وَرُسُلِهِۦ ۖ وَلَا تَقُولُوا۟ ثَلَٰثَةٌ ۚ ٱنتَهُوا۟ خَيْرًا لَّكُمْ ۚ إِنَّمَا ٱللَّهُ إِلَٰهٌ وَٰحِدٌ ۖ سُبْحَٰنَهُۥٓ أَن يَكُونَ لَهُۥ وَلَدٌ ۘ لَّهُۥ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ ۗ وَكَفَىٰ بِٱللَّهِ وَكِيلًا﴾ [النساء:١٧١].

---

(١) أخرجه البخاريُّ، كتاب المغازي، باب مرض النبي ﷺ ووفاته (٤٤٢٨) معلقًا، ووصله الحاكم (٣/ ٦٠)، وصحَّحه على شرط الشيخين، ووافقه الذهبيُّ، ومن طريقه: البيهقيُّ في «الكبرى» (١٠/ ١١)، وأخرجه أحمد (٦/ ١٨) من حديث أم مبشر امرأة كعب بن مالك رضي الله عنها، وهو عند أبي داود، كتاب الديات، باب في من سقى رجلًا سمًّا أو أطعمه فمات أيقاد منه؟ (٤٥١٣و ٤٥١٤)، وصحَّحه العلامة الألبانيُّ في «صحيح أبي داود»؛ وراجع: «صحيح البخاري» (٣١٦٦ و٤٢٤٩) من حديث أبي هريرة رضي الله عنه، وكذا: البخاريُّ (برقم ٢٦١٧)، ومسلمٌ (٢١٩٠) من حديث أنس رضي الله عنه.

وَمِمَّنْ دَعَاهُمُ النَّبِيُّ ﷺ مِنَ النَّصَارَى؛ عَدِيُّ بْنُ حَاتِمٍ الطَّائِيُّ (١)؛ **فَفِي «سُنَنِ» التِّرْمِذِيِّ، وَ«تَفْسِيرِ» الطَّبَرِيِّ وَابْنِ أَبِي حَاتِمٍ، وَ«مُعْجَمِ» الطَّبَرَانِيِّ وَغَيْرِهِمْ**(٢) مِنْ حَدِيثِ عَدِيِّ بْنِ حَاتِمٍ رضي الله عنه قَالَ: أَتَيْتُ النَّبِيَّ ﷺ وَفِي عُنُقِي صَلِيبٌ مِنْ ذَهَبٍ؛ فَقَالَ: «**يَا عَدِيُّ اطْرَحْ عَنْكَ هَذَا الْوَثَنَ**». وَسَمِعْتُهُ يَقْرَأُ فِي سُورَةِ بَرَاءَةَ: ﴿ٱتَّخَذُوٓا۟ أَحْبَارَهُمْ وَرُهْبَٰنَهُمْ أَرْبَابًا مِّن دُونِ ٱللَّهِ﴾ [التوبة:٣١] قَالَ: «**أَمَا إِنَّهُمْ لَمْ يَكُونُوا يَعْبُدُونَهُمْ، وَلَكِنَّهُمْ كَانُوا إِذَا أَحَلُّوا لَهُمْ شَيْئًا اسْتَحَلُّوهُ، وَإِذَا حَرَّمُوا عَلَيْهِمْ شَيْئًا حَرَّمُوهُ**».

قَالَ أَبُو الْعَالِيَةِ: «اسْتَنْصَحُوا الرِّجَالَ، وَنَبَذُوا كِتَابَ اللهِ وَرَاءَ ظُهُورِهِمْ» (٣).

وَلِهَذَا قَالَ تَعَالَى: ﴿وَمَآ أُمِرُوٓا۟ إِلَّا لِيَعْبُدُوٓا۟ إِلَٰهًا وَٰحِدًا ۖ لَّآ إِلَٰهَ إِلَّا

---

(١) هو عديُّ بن حاتم بن عبد الله بن سعد بن الحشرج بن امرئ القيس بن عدي الطائي ولد الجواد المشهور. يكنى: أبا طريف، أسلم في سنة تسع، قدم على النبي ﷺ في شعبان سنة عشر، وكان نصرانيًّا قبل ذلك، وثبت على إسلامه في الردة، وأحضر صدقة قومه إلى أبي بكر، وشهد فتح العراق، ثم سكن الكوفة، وشهد صفين مع علي. مات بعد الستين وقد أسن. قال خليفة: بلغ عشرين ومائة سنة. وقال أبو حاتم السجستانيُّ: بلغ مائة وثمانين. وجزم خليفة بأنه مات سنة ثمان وستين. وقيل: سبع، وقيل: تسع.
● راجع: «الإصابة» (٥٤٩١)، و «الاستيعاب» (١٧٩٤).

(٢) أخرجه الترمذيُّ، كتاب تفسير القرآن، باب ومن سورة التوبة (٣٠٩٥)، وقال: «هذا حديث غريب لا نعرفه إلا من حديث عبد السلام بن حرب، وغطيف بن أعين ليس بمعروف في الحديث»، والطبريُّ في «تفسيره» (١٦٦٨٦، ١٦٦٨٨)، وابن أبي حاتم (١٠٢٩٥)، والطبرانيُّ في «الكبير» (٢١٨) (١٧/ ٩٢)، والبيهقيُّ في «الكبير» (١٠/ ١١٦)، والمزي في «تهذيب الكمال» (٢٣/ ١١٨، ١١٩) من حديث عدي بن حاتم مرفوعًا. وحسَّنَه الألبانيُّ في «صحيح الترمذي»، و«غاية المرام» (٦) ط المكتب الإسلامي، وروي موقوفًا على حذيفة رضي الله عنه؛ كما عند الطبري (١٦٦٨٩)، وابن أبي حاتم في «تفسيره» (لسورة التوبة:٣١).

(٣) أخرجه الطبريُّ في «تفسيره» (١٦٦٩٧)، وأورده الحافظ ابن كثير في «تفسيره» (٤/ ١٣٥) عن السُّدي.

هُوَۚ سُبۡحَٰنَهُۥ عَمَّا يُشۡرِكُونَ ﴾ [التوبة:٣١].

وَيُعَلِّقُ الْإِمَامُ الْمُبَارَكْفُورِيُّ رَحِمَهُ اللَّهُ (١) عَلَى حَدِيثِ عَدِيٍّ؛ فَيَقُولُ (٢): «قَوْلُهُ: «وَفِي عُنُقِي صَلِيبٌ» هُوَ كُلُّ مَا كَانَ عَلَى شَكْلِ خَطَّيْنِ مُتَقَاطِعَيْنِ.

وَقَالَ فِي «الْمَجْمَع» (٣): هُوَ الْمُرَبَّعُ مِنَ الْخَشَبِ لِلنَّصَارَى يَدَّعُونَ أَنَّ عِيسَى عَلَيْهِ السَّلَامُ صُلِبَ عَلَى خَشَبَةٍ عَلَى تِلْكَ الصُّورَةِ.

وَقَوْلُهُ: «اطْرَحْ عَنْكَ»، أَيْ: أَلْقِ عَنْ عُنُقِكَ «هَذَا الْوَثَنَ» هُوَ كُلُّ مَالَهُ جُثَّةٌ مَعْمُولَةٌ مِنْ جَوَاهِرِ الْأَرْضِ، أَوْ مِنَ الْخَشَبِ وَالْحِجَارَةِ؛ كَصُورَةِ الْآدَمِيِّ، وَالصَّنَمُ: الصُّورَةُ بِلَا جُثَّةٍ، وَقِيلَ: هُمَا سَوَاءٌ، وَقَدْ يُطْلَقُ الْوَثَنُ عَلَى غَيْرِ الصُّورَةِ، وَمِنْهُ حَدِيثُ عَدِيٍّ.... قَالَهُ فِي «الْمَجْمَعِ».

وَقَوْلُهُ: ﴿ ٱتَّخَذُوٓاْ أَحۡبَارَهُمۡ﴾ أَيْ: عُلَمَاءَ الْيَهُودِ، ﴿وَرُهۡبَٰنَهُمۡ ﴾ أَيْ: عُبَّادَ النَّصَارَى ﴿أَرۡبَابٗا مِّن دُونِ ٱللَّهِ ﴾ حَيْثُ اتَّبَعُوهُمْ فِي تَحْلِيلِ مَا حَرَّمَ اللهُ، وَتَحْرِيمِ مَا أَحَلَّ اللهُ.

قَالَ: أَيِ: النَّبِيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ **(أَمَا)** بِالتَّخْفِيفِ؛ حَرْفُ التَّنْبِيهِ «**إِذَا أَحَلُّوا لَهُمْ شَيْئًا**» أَيْ: جَعَلُوا لَهُمْ حَلَالًا، وَهُوَ مِمَّا حَرَّمَهُ اللهُ تَعَالَى «**اسْتَحَلُّوهُ**» أَيِ: اعْتَقَدُوهُ حَلَالًا

---

(١) هو الإمام الشيخ الورع الحافظ أبو المعلى محمد بن عبد الرحمن بن عبد الرحيم المباركفوري الأعظم كدهي المولود سنة (١٢٨٣ هـ) المتوفي سنة (١٣٥٣). انظر ترجمةً موسعةً في: «مقدمة تحفة الأحوذي» (١/ ٧) ط. الحديث.

(٢) «تحفة الأحوذي» (٨/ ٤٧ و٤٨).

(٣) هو «مجمع بحار الأنوار في غرائب التنزيل ولطائف الأخبار» للعلامة جمال الدين محمد طاهر الفتني الهندي، الملقب بملك المحدثين، وكتاب «المجمع» هو تفسير للغرائب الواردة في القرآن والسنة، ورتب على حروف المعجم. ومن مصنفاته: «تذكرة الموضوعات» و«المغني» في الرجال وغيرها. توفي الفتني سنة ٩٨٦ هـ.

● انظر: «شذرات الذهب» (٨/ ٤١٠)، و«الأعلام» للزركليِّ (٦/ ١٧٢).

«**وَإِذَا حَرَّمُوا عَلَيْهِمْ شَيْئًا**» أَيْ: وَهُوَ مِمَّا أَحَلَّهُ الله «**حَرَّمُوهُ**» أَيِ: اعْتَقَدُوهُ حَرَامًا» ا. هـ.

قَالَ الشَّوْكَانِيُّ فِي «**فتح القدير**» (١): «وَفِي هَذِهِ الْآيَةِ مَا يَزْجُرُ مَنْ كَانَ لَهُ قَلْبٌ أَوْ أَلْقَى السَّمْعَ وَهُوَ شَهِيدٌ، عَنِ التَّقْلِيدِ فِي دِينِ الله، وَتَأْثِيرِ مَا يَقُولُهُ الْأَسْلَافُ عَلَى مَا فِي الْكِتَابِ الْعَزِيزِ وَالسُّنَّةِ الْمُطَهَّرَةِ؛ فَإِنَّ طَاعَةَ الْمُتَمَذْهِبِ لِمَنْ يَقْتَدِي بِقَوْلِهِ وَيَسْتَنُّ بِسُنَّتِهِ مِنْ عُلَمَاءِ هَذِهِ الْأُمَّةِ، مَعَ مُخَالَفَتِهِ لِمَا جَاءَتْ بِهِ النُّصُوصُ، وَقَامَتْ بِهِ حُجَجُ الله وَبَرَاهِينُهُ وَنَطَقَتْ بِهِ كُتُبُهُ وَأَنْبِيَاؤُهُ هُوَ كَاتِّخَاذِ الْيَهُودِ وَالنَّصَارَى لِلْأَحْبَارِ وَالرُّهْبَانِ أَرْبَابًا مِنْ دُونِ الله لِلْقَطْعِ بِأَنَّهُمْ لَمْ يَعْبُدُوهُمْ؛ بَلْ أَطَاعُوهُمْ وَحَرَّمُوا مَا حَرَّمُوا، وَحَلَّلُوا مَا حَلَّلُوا، وَهَذَا هُوَ صَنِيعُ الْمُقَلِّدِينَ مِنْ هَذِهِ الْأُمَّةِ!» انْتَهَى.

---

(١) «فتح القدير بين فني الرواية والدراية من علم التفسير» (٢/ ٥١٤).

المَبْحَثُ الثَّالِثُ

دَعْوَتُهُ ﷺ لِلمُنَافِقِينَ

(المَطْلَبُ الأَوَّلُ)

تَعْرِيفُ النِّفَاقِ

تَعْرِيفُ النِّفَاقِ لُغَةً [١]:

النِّفَاقُ بِالْكَسْرِ: مُشْتَقٌّ مِنَ النَّفَقِ، مَأْخُوذٌ مِنْ مَادَّةِ نَفَقَ، وَالنَّفَقُ: هُوَ الْمَسْلَكُ بَيْنَ طَرِيقَيْنِ، يَدْخُلُ الإِنْسَانُ مِنْ جَانِبٍ وَيَخْرُجُ مِنْ هَذَا النَّفَقِ مِنْ جَانِبٍ آخَرَ، وَمِنْهُ قَوْلُهُ تَعَالَى ﴿وَإِن كَانَ كَبُرَ عَلَيْكَ إِعْرَاضُهُمْ فَإِنِ اسْتَطَعْتَ أَن تَبْتَغِيَ نَفَقًا فِي الْأَرْضِ أَوْ سُلَّمًا فِي السَّمَاءِ فَتَأْتِيَهُم بِآيَةٍ﴾ [الأنعام:٣٥].

وَعَلَى ذَلِكَ نَبَّهَ الْقُرْآنُ الْكَرِيمُ بِقَوْلِهِ: ﴿إِنَّ الْمُنَافِقِينَ هُمُ الْفَاسِقُونَ﴾ [التوبة:٦٧]؛ أَي: الْخَارِجُونَ مِنَ الشَّرْعِ.

وَالنَّافِقَاءُ: بِكَسْرِ الْفَاءِ: جُحْرُ الضَّبِّ وَالْيَرْبُوعِ، وَسُمِّيَ الْمُنَافِقُ مُنَافِقًا؛ لِأَنَّهُ مُتَشَبِّهٌ بِالضَّبِّ أَوِ الْيَرْبُوعِ، فَظَاهِرُ جُحْرِ الضَّبِّ تُرَابٌ، وَبَاطِنُهُ حَفْرٌ، وَالضَّبُّ يَجْعَلُ الْمَسْلَكَ الأَوَّلَ لِجُحْرِهِ تُرَابًا بِحَيْثُ يَخْدَعُ النَّاظِرَ إِلَيْهِ، وَإِنْ أَرَادَ أَنْ يَخْرُجَ خَرَجَ مِنَ الْجَانِبِ الآخَرِ، وَظَاهِرُ الْمُنَافِقِ إِيمَانٌ وَبَاطِنُهُ كُفْرٌ، ظَاهِرُهُ خَيْرٌ وَبَاطِنُهُ شَرٌّ، ظَاهِرُهُ هُدًى وَبَاطِنُهُ فُجُورٌ، ظَاهِرُهُ الصَّلَاحُ وَبَاطِنُهُ فَسَادٌ.

---

(١) «لسان العرب» (٨/ ٦٥٧)، و«مقاييس اللغة» (٥/ ٤٥٥)، و«المفردات» للراغب (٥٠٤).

قَالَ ابْنُ رَجَبٍ رحمه الله (١): «وَالَّذِي فَسَّرَهُ بِهِ أَهْلُ الْعِلْمِ الْمُعْتَبَرُونَ أَنَّ النِّفَاقَ فِي اللُّغَةِ: هُوَ مِنْ جِنْسِ الْخِدَاعِ وَالْمَكْرِ، وَإِظْهَارِ الْخَيْرِ، وَإِبْطَانِ خِلَافِهِ».

وَاصْطِلَاحًا:

قَالَ ابْنُ جَرِيرٍ (٢): «وَالنِّفَاقُ اسْمٌ إِسْلَامِيٌّ لَمْ تَعْرِفْهُ الْعَرَبُ بِالْمَعْنَى الْمَخْصُوصِ بِهِ، وَهُوَ الَّذِي يَسْتُرُ كُفْرَهُ، وَيُظْهِرُ إِيمَانَهُ، وَإِنْ كَانَ أَصْلُهُ فِي اللُّغَةِ مَعْرُوفًا».

وَقَالَ الْجُرْجَانِيُّ (٣): «النِّفَاقُ: إِظْهَارُ الْإِيمَانِ بِاللِّسَانِ، وَكِتْمَانُ الْكُفْرِ بِالْقَلْبِ».

وَقَالَ شَيْخُ الْإِسْلَامِ ابْنُ تَيْمِيَّةَ (٤): «وَلَفْظُ النِّفَاقِ فِي الشَّرْعِ: إِظْهَارُ الدِّينِ، وَإِبْطَانُ خِلَافِهِ، وَهَذَا الْمَعْنَى الشَّرْعِيُّ أَخَصُّ مِنْ مُسَمَّى النِّفَاقِ فِي اللُّغَةِ؛ فَإِنَّهُ فِي اللُّغَةِ أَعَمُّ مِنْ إِظْهَارِ الدِّينِ، ثُمَّ إِبْطَانِ مَا يُخَالِفُ الدِّينَ، إِمَّا أَنْ يَكُونَ كُفْرًا أَوْ فِسْقًا؛ فَإِذَا أَظْهَرَ أَنَّهُ مُؤْمِنٌ وَأَبْطَنَ التَّكْذِيبَ؛ فَهَذَا هُوَ النِّفَاقُ الْأَكْبَرُ الَّذِي أُوعِدَ صَاحِبُهُ بِأَنَّهُ فِي الدَّرْكِ الْأَسْفَلِ مِنَ النَّارِ، وَإِنْ أَظْهَرَ أَنَّهُ صَادِقٌ، أَوْ مُوفٍ، أَوْ أَمِينٌ، وَأَبْطَنَ الْكَذِبَ وَالْغَدْرَ وَالْخِيَانَةَ وَنَحْوَ ذَلِكَ؛ فَهَذَا هُوَ النِّفَاقُ الْأَصْغَرُ الَّذِي يَكُونُ صَاحِبُهُ فَاسِقًا؛ فَإِطْلَاقُ النِّفَاقِ عَلَيْهِمَا فِي الْأَصْلِ بِطَرِيقِ التَّوَاطُؤِ. وَعَلَى هَذَا؛ فَالنِّفَاقُ اسْمُ جِنْسٍ تَحْتَهُ نَوْعَانِ، ثُمَّ إِنَّهُ قَدْ يُرَادُ بِهِ النِّفَاقُ فِي أَصْلِ الدِّينِ؛ مِثْلَ قَوْلِهِ: ﴿إِنَّ ٱلْمُنَٰفِقِينَ فِى ٱلدَّرْكِ ٱلْأَسْفَلِ مِنَ ٱلنَّارِ﴾ [النساء:١٤٥]، و﴿إِذَا جَآءَكَ ٱلْمُنَٰفِقُونَ قَالُوا۟ نَشْهَدُ إِنَّكَ لَرَسُولُ ٱللَّهِ ۗ وَٱللَّهُ يَعْلَمُ إِنَّكَ لَرَسُولُهُۥ وَٱللَّهُ يَشْهَدُ إِنَّ ٱلْمُنَٰفِقِينَ لَكَٰذِبُونَ﴾ [المنافقون:١]، وَالْمُنَافِقُ هُنَا: الْكَافِرُ.

---

(١) «جامع العلوم والحكم» (٢/ ٤٨١) ط الرسالة.
(٢) «جامع البيان عن تأويل آي القرآن» (١/ ١٨٦).
(٣) «التعريفات» (٢٣٦).
(٤) «مجموع الفتاوى» (١١/ ١٤٣).

وَقَدْ يُرَادُ بِهِ النِّفَاقُ فِي فُرُوعِهِ؛ مِثْلَ قَوْلِهِ ﷺ: «**آيَةُ الْمُنَافِقِ ثَلَاثٌ**» (١)، وَقَوْلِهِ: «**أَرْبَعٌ مَنْ كُنَّ فِيهِ كَانَ مُنَافِقًا خَالِصًا**» (٢).

وَقَالَ فِي مَوْضِعٍ آخَرَ (٣): «فَمِنَ النِّفَاقِ مَا هُوَ أَكْبَرُ يَكُونُ صَاحِبُهُ فِي الدَّرْكِ الْأَسْفَلِ مِنَ النَّارِ؛ كَنِفَاقِ عَبْدِ اللهِ بْنِ أُبَيٍّ وَغَيْرِهِ، بِأَنْ يُظْهِرَ تَكْذِيبَ الرَّسُولِ، أَوْ جُحُودَ بَعْضِ مَا جَاءَ بِهِ أَوْ بُغْضَهُ، أَوْ عَدَمَ اعْتِقَادِ وُجُوبِ اتِّبَاعِهِ، أَوِ الْمَسَرَّةَ بِانْخِفَاضِ دِينِهِ، أَوِ الْمَسَاءَةَ بِظُهُورِ دِينِهِ وَنَحْوَ ذَلِكَ مِمَّا لَا يَكُونُ صَاحِبُهُ إِلَّا عَدُوًّا للهِ وَرَسُولِهِ، وَهَذَا الْقَدْرُ كَانَ مَوْجُودًا فِي زَمَنِ رَسُولِ اللهِ ﷺ وَمَا زَالَ بَعْدَهُ؛ بَلْ هُوَ بَعْدَهُ أَكْثَرُ مِنْهُ عَلَى عَهْدِهِ».

***

(١) أخرجه البخاريُّ، كتاب الإيمان، باب علامات المنافق (٣٣)، ومسلمٌ، كتاب الإيمان، باب بيان خصال المنافق (٥٩) من حديث أبي هريرة رضي الله عنه.

(٢) أخرجه البخاريُّ، كتاب الإيمان، باب علامات المنافق (٣٤)، ومسلمٌ، كتاب الإيمان، باب بيان خصال المنافق (٥٨) من حديث عبد الله بن عمرو رضي الله عنهما.

(٣) «مجموع الفتاوى» (٢٨/ ٤٣٤).

المَطْلَبُ الثَّانِي
تَمْهِيدٌ فِي بَيَانِ خُطُورَةِ النِّفَاقِ

إِنَّ النِّفَاقَ هُوَ أَخطَرُ عَدُوٍّ حَقِيقِيٍّ عَلَى الدَّعْوَةِ فِي كُلِّ زَمَانٍ وَمَكَانٍ؛ لِأَنَّ أَهْلَ النِّفَاقِ يَنْدَسُّونَ فِي الصَّفِّ الْمُسْلِمِ، وَيَتَكَلَّمُونَ بِلِسَانِ الْمُسْلِمِينَ، وَيَلْبسُونَ أَزْيَاءَهُمْ، وَرُبَّمَا يُصَلُّونَ الْجَمَاعَاتِ، وَرُبَّمَا يُشَارِكُونَ رَسُولَ الله ﷺ فِي الْغزَوَاتِ؛ بَلْ وَاقْتَسَمُوا مَعَ النَّبِيِّ ﷺ الْغَنَائِمَ، بَلْ تَزَوَّجُوا بِإِعْلَانِهِمُ الْإِسْلَامَ الظَّاهِرَ الْحَرَائِرَ الْمُسْلِمَاتِ الْعَفِيفَاتِ؛ وَهُمْ فِي الْوَقْتِ ذَاتِهِ يَحْمِلُونَ قُلُوبًا خَبِيْثَةً كَقُلُوبِ الذِّئَابِ، تَحْمِلُ الْغِلَّ وَالْكُفْرَ وَالْحِقْدَ لِهَذَا الدِّينِ الْعَظِيمِ، وَلِحَامِلِ لِوَائِهِ.

فَهُمْ يُعْلِنُونَ الْإِيمَانَ وَيُبْطِنُونَ الْكُفْرَ، وَهَذَا هُوَ النِّفَاقُ الْأَكْبَرُ - وَسَيَأْتِي تَفْصِيلُهُ- وَمِنْ ثَمَّ؛ فَإِنَّ أَصْلَ مَوْقِفِ الْمُنَافِقِينَ فِي كُلِّ زَمَانٍ وَمَكَانٍ مَبْنِيٌّ عَلَى الْكَذِبِ وَالْخِدَاعِ وَالتَّلَاعُبِ وَالتَّلَوُّنِ؛ فَهُمْ يُحْسِنُونَ الظَّاهِرَ، وَبَاطِنُهُمْ مُظْلِمٌ خَبِيثٌ!!

قَالَ ابْنُ الْقَيِّمِ رحمه الله (١): «وَأَمَّا النِّفَاقُ: فَالدَّاءُ الْعُضَالُ الْبَاطِنُ الَّذِي يَكُونُ الرَّجُلُ مُمْتَلِئًا مِنْهُ وَهُوَ لَا يَشْعُرُ؛ فَإِنَّهُ أَمْرٌ خَفِيٌّ عَلَى النَّاسِ، وَكَثِيرًا مَا يَخْفَى عَلَى مَنْ تَلَبَّسَ بِهِ، فَيَزْعُمُ أَنَّهُ مُصْلِحٌ وَهُوَ مُفْسِدٌ، **وَهُوَ نَوْعَانِ**: أَكْبَرُ وَأَصْغَرُ؛ **فَالْأَكْبَرُ**: يُوجِبُ الْخُلُودَ فِي النَّارِ فِي دَرْكِهَا الْأَسْفَلِ، وَهُوَ أَنْ يُظْهِرَ لِلْمُسْلِمِينَ إِيمَانَهُ بِالله وَمَلَائِكَتِهِ وَكُتُبِهِ وَرُسُلِهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَهُوَ فِي الْبَاطِنِ مُنْسَلِخٌ مِنْ ذَلِكَ كُلِّهِ مُكَذِّبٌ بِهِ لَا يُؤْمِنُ بِأَنَّ الله تَكَلَّمَ بِكَلَامٍ أَنْزَلَهُ عَلَى بَشَرٍ جَعَلَهُ رَسُولًا لِلنَّاسِ يَهْدِيهِمْ بِإِذْنِهِ، وَيُنْذِرُهُمْ بَأْسَهُ، وَيُخَوِّفُهُمْ عِقَابَهُ، وَقَدْ هَتَكَ الله سُبْحَانَهُ أَسْتَارَ الْمُنَافِقِينَ وَكَشَفَ أَسْرَارَهُمْ فِي الْقُرْآنِ، وَجَلَّى لِعِبَادِهِ أُمُورَهُمْ؛ لِيَكُونُوا مِنْهَا وَمِنْ

---

(١)«مدارج السالكين» (١/ ٣٤٧ و٣٤٨) بتلخيصٍ.

أَهْلِهَا عَلَى حَذَرٍ.. فَإِنَّ بَلِيَّةَ الْإِسْلَامِ بِهِمْ شَدِيدَةٌ جِدًّا؛ لِأَنَّهُمْ مَنْسُوبُونَ إِلَيْهِ، وَإِلَى نُصْرَتِهِ وَمُوَالَاتِهِ، وَهُمْ أَعْدَاؤُهُ فِي الْحَقِيقَةِ يُخْرِجُونَ عَدَاوَتَهُ فِي كُلِّ قَالَبٍ يَظُنُّ الْجَاهِلُ أَنَّهُ عِلْمٌ وَإِصْلَاحٌ، وَهُوَ غَايَةُ الْجَهْلِ وَالْإِفْسَادِ.

فَلِلَّهِ كَمْ مِنْ مَعْقِلٍ لِلْإِسْلَامِ قَدْ هَدَمُوهُ!

وَكَمْ مِنْ حِصْنٍ لَهُ قَدْ قَلَعُوا أَسَاسَهُ وَخَرَّبُوهُ!

وَكَمْ مِنْ عِلْمٍ لَهُ قَدْ طَمَسُوهُ!

وَكَمْ مِنْ لِوَاءٍ لَهُ مَرْفُوعٍ قَدْ وَضَعُوهُ!

وَكَمْ ضَرَبُوا بِمَعَاوِلِ الشُّبَهِ فِي أُصُولِ غِرَاسِهِ؛ لِيَقْلَعُوهَا!

وَكَمْ عَمَّوْا عُيُونَ مَوَارِدِهِ بِآرَائِهِمْ؛ لِيَدْفِنُوهَا وَيَقْطَعُوهَا!

فَلَا يَزَالُ الْإِسْلَامُ وَأَهْلُهُ مِنْهُمْ فِي مِحْنَةٍ وَبَلِيَّةٍ.

وَلَا يَزَالُ يَطْرُقُهُ مِنْ شُبَهِهِمْ سَرِيَّةٌ بَعْدَ سَرِيَّةٍ، وَيَزْعُمُونَ أَنَّهُمْ بِذَلِكَ مُصْلِحُونَ: ﴿أَلَآ إِنَّهُمْ هُمُ ٱلْمُفْسِدُونَ وَلَٰكِن لَّا يَشْعُرُونَ﴾ [البقرة:١٢].

دَرَسَتْ مَعَالِمُ الْإِيمَانِ فِي قُلُوبِهِمْ فَلَيْسُوا يَعْرِفُونَهَا، وَدَثَرَتْ مَعَاهِدُهُ عِنْدَهُمْ فَلَيْسُوا يَعْمُرُونَهَا، وَأَفَلَتْ كَوَاكِبُهُ النَّيِّرَةُ مِنْ قُلُوبِهِمْ فَلَيْسُوا يُحْيُونَهَا، وَكَسَفَتْ شَمْسُهُ عِنْدَ اجْتِمَاعِ ظُلَمِ آرَائِهِمْ وَأَفْكَارِهِمْ فَلَيْسُوا يُبْصِرُونَهَا، لَمْ يَقْبَلُوا هُدَى اللهِ الَّذِي أَرْسَلَ بِهِ رَسُولَهُ، وَلَمْ يَرْفَعُوا بِهِ رَأْسًا، وَلَمْ يَرَوْا بِالْإِعْرَاضِ عَنْهُ إِلَى آرَائِهِمْ وَأَفْكَارِهِمْ بَأْسًا.

لَبِسُوا ثِيَابَ أَهْلِ الْإِيمَانِ عَلَى قُلُوبِ أَهْلِ الزَّيْغِ وَالْخُسْرَانِ وَالْغِلِّ وَالْكُفْرَانِ؛ فَالظَّوَاهِرُ ظَوَاهِرُ الْأَنْصَارِ، وَالْبَوَاطِنُ قَدْ تَحَيَّزَتْ إِلَى الْكُفَّارِ، فَأَلْسِنَتُهُمْ أَلْسِنَةُ الْمُسَالِمِينَ، وَقُلُوبُهُمْ قُلُوبُ الْمُحَارِبِينَ، وَيَقُولُونَ: ﴿ءَامَنَّا بِٱللَّهِ وَبِٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ وَمَا هُم بِمُؤْمِنِينَ﴾ [البقرة:٨] قَدْ نَهَكَتْ أَمْرَاضُ الشُّبُهَاتِ وَالشَّهَوَاتِ

قُلُوبَهُمْ فَأَهْلَكَتْهَا، وَغَلَبَتِ الْقُصُودُ السَّيِّئَةُ عَلَى إِرَادَاتِهِمْ وَنِيَّاتِهِمْ فَأَفْسَدَتْهَا، فَفَسَادُهُمْ قَدْ تَرَامَى إِلَى الْهَلَاكِ، فَعَجَزَ عَنْهُ الْأَطِبَّاءُ الْعَارِفُونَ: ﴿فِي قُلُوبِهِم مَّرَضٌ فَزَادَهُمُ ٱللَّهُ مَرَضًاۖ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمُۢ بِمَا كَانُواْ يَكْذِبُونَ﴾ [البقرة:١٠].

لِكُلٍّ مِنْهُمْ وَجْهَانِ: وَجْهٌ يَلْقَى بِهِ الْمُؤْمِنِينَ، وَوَجْهٌ يَنْقَلِبُ بِهِ إِلَى إِخْوَانِهِ مِنَ الْمُلْحِدِينَ، وَلَهُ لِسَانَانِ: أَحَدُهُمَا يَقْبَلُهُ بِظَاهِرِهِ الْمُسْلِمُونَ، وَالْآخَرُ يُتَرْجِمُ بِهِ عَنْ سِرِّهِ الْمَكْنُونِ: ﴿وَإِذَا لَقُواْ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ قَالُوٓاْ ءَامَنَّا وَإِذَا خَلَوْاْ إِلَىٰ شَيَٰطِينِهِمْ قَالُوٓاْ إِنَّا مَعَكُمْ إِنَّمَا نَحْنُ مُسْتَهْزِءُونَ﴾ [البقرة:١٤].

قَدْ أَعْرَضُوا عَنِ الْكِتَابِ وَالسُّنَّةِ اسْتِهْزَاءً بِأَهْلِهِمَا وَاسْتِحْقَارًا، وَأَبَوْا أَنْ يَنْقَادُوا لِحُكْمِ الْوَحْيَيْنِ فَرَحًا بِمَا عِنْدَهُمْ مِنَ الْعِلْمِ الَّذِي لَا يَنْفَعُ الِاسْتِكْثَارُ مِنْهُ أَشَرًا وَاسْتِكْبَارًا، فَتَرَاهُمْ أَبَدًا بِالْمُتَمَسِّكِينَ بِصَرِيحِ الْوَحْيِ يَسْتَهْزِئُونَ: ﴿ٱللَّهُ يَسْتَهْزِئُ بِهِمْ وَيَمُدُّهُمْ فِي طُغْيَٰنِهِمْ يَعْمَهُونَ﴾ [البقرة:١٥].

أَسْمَاعُ قُلُوبِهِمْ قَدْ أَثْقَلَهَا الْوَقْرُ؛ فَهِيَ لَا تَسْمَعُ مُنَادِيَ الْإِيمَانِ، وَعُيُونُ بَصَائِرِهِمْ عَلَيْهَا غِشَاوَةُ الْعَمَى؛ فَهِيَ لَا تُبْصِرُ حَقَائِقَ الْقُرْآنِ، وَأَلْسِنَتُهُمْ بِهَا خَرَسٌ عَنِ الْحَقِّ فَهُمْ بِهِ لَا يَنْطِقُونَ: ﴿صُمُّۢ بُكْمٌ عُمْيٌ فَهُمْ لَا يَرْجِعُونَ﴾ [البقرة:١٨].

ضَعُفَتْ أَبْصَارُ بَصَائِرِهِمْ عَنِ احْتِمَالِ مَا فِي الصَّيِّبِ مِنْ بُرُوقِ أَنْوَارِهِ وَضِيَاءِ مَعَانِيهِ، وَعَجَزَتْ أَسْمَاعُهُمْ عَنْ تَلَقِّي رُعُودِ وَعِيدِهِ وَأَوَامِرِهِ وَنَوَاهِيهِ، فَقَامُوا عِنْدَ ذَلِكَ حَيَارَى فِي أَوْدِيَةِ التِّيهِ، لَا يَنْتَفِعُ بِسَمْعِهِ السَّامِعُ، وَلَا يَهْتَدِي بِبَصَرِهِ الْبَصِيرُ: ﴿كُلَّمَآ أَضَآءَ لَهُم مَّشَوْاْ فِيهِ وَإِذَآ أَظْلَمَ عَلَيْهِمْ قَامُواْۚ وَلَوْ شَآءَ ٱللَّهُ لَذَهَبَ بِسَمْعِهِمْ وَأَبْصَٰرِهِمْۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾ [البقرة:٢٠].

لَهُمْ عَلَامَاتٌ يُعْرَفُونَ بِهَا مُبَيَّنَةٌ فِي السُّنَّةِ وَالْقُرْآنِ، بَادِيَةٌ لِمَنْ تَدَبَّرَهَا مِنْ أَهْلِ بَصَائِرِ الْإِيمَانِ، قَامَ بِهِمْ - وَاللهِ - الرِّيَاءُ، وَهُوَ أَقْبَحُ مَقَامٍ قَامَهُ الْإِنْسَانُ، وَقَعَدَ بِهِمُ الْكَسَلُ عَمَّا أُمِرُوا بِهِ مِنْ أَوَامِرِ الرَّحْمَنِ؛ فَأَصْبَحَ الْإِخْلَاصُ عَلَيْهِمْ لِذَلِكَ

ثَقِيلًا: ﴿وَإِذَا قَامُوٓاْ إِلَى ٱلصَّلَوٰةِ قَامُواْ كُسَالَىٰ يُرَآءُونَ ٱلنَّاسَ وَلَا يَذْكُرُونَ ٱللَّهَ إِلَّا قَلِيلًا﴾ [النساء:١٤٢].

أَحَدُهُمْ كَالشَّاةِ الْعَائِرَةِ بَيْنَ الْغَنَمَيْنِ: تَيْعَرُ إِلَى هَذِهِ مَرَّةً، وَإِلَى هَذِهِ مَرَّةً، وَلَا تَسْتَقِرُّ مَعَ إِحْدَى الْفِئَتَيْنِ؛ فَهُمْ وَاقِفُونَ بَيْنَ الْجَمْعَيْنِ، يَنْظُرُونَ أَيُّهُمْ أَقْوَى وَأَعَزُّ قَبِيلًا: ﴿مُّذَبْذَبِينَ بَيْنَ ذَٰلِكَ لَآ إِلَىٰ هَٰٓؤُلَآءِ وَلَآ إِلَىٰ هَٰٓؤُلَآءِ ۚ وَمَن يُضْلِلِ ٱللَّهُ فَلَن تَجِدَ لَهُۥ سَبِيلًا﴾ [النساء:١٤٣].

يَتَرَبَّصُونَ الدَّوَائِرَ بِأَهْلِ السُّنَّةِ وَالْقُرْآنِ؛ فَإِنْ كَانَ لَهُمْ فَتْحٌ مِنَ اللهِ، قَالُوا: أَلَمْ نَكُنْ مَعَكُمْ؟ وَأَقْسَمُوا عَلَى ذَلِكَ بِاللهِ جَهْدَ أَيْمَانِهِمْ، وَإِنْ كَانَ لِأَعْدَاءِ الْكِتَابِ وَالسُّنَّةِ مِنَ النُّصْرَةِ نَصِيبٌ قَالُوا: أَلَمْ تَعْلَمُوا أَنَّ عَقْدَ الْإِخَاءِ بَيْنَنَا مُحْكَمٌ، وَأَنَّ النَّسَبَ بَيْنَنَا قَرِيبٌ؟ فَيَا مَنْ يُرِيدُ مَعْرِفَتَهُمْ، خُذْ صِفَتَهُمْ مِنْ كَلَامِ رَبِّ الْعَالَمِينَ؛ فَلَا تَحْتَاجُ بَعْدَهُ دَلِيلًا:

﴿ٱلَّذِينَ يَتَرَبَّصُونَ بِكُمْ فَإِن كَانَ لَكُمْ فَتْحٌ مِّنَ ٱللَّهِ قَالُوٓاْ أَلَمْ نَكُن مَّعَكُمْ وَإِن كَانَ لِلْكَٰفِرِينَ نَصِيبٌ قَالُوٓاْ أَلَمْ نَسْتَحْوِذْ عَلَيْكُمْ وَنَمْنَعْكُم مِّنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ۚ فَٱللَّهُ يَحْكُمُ بَيْنَكُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ ۗ وَلَن يَجْعَلَ ٱللَّهُ لِلْكَٰفِرِينَ عَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ سَبِيلًا﴾ [النساء:١٤١].

يُعْجِبُ السَّامِعَ قَوْلُ أَحَدِهِمْ؛ لِحَلَاوَتِهِ وَلِينِهِ، وَيُشْهِدُ اللهَ عَلَى مَا فِي قَلْبِهِ مِنْ كَذِبِهِ وَمَيْنِهِ، فَتَرَاهُ عِنْدَ الْحَقِّ نَائِمًا، وَفِي الْبَاطِلِ عَلَى الْأَقْدَامِ، فَخُذْ وَصْفَهُمْ مِنْ قَوْلِ الْقُدُّوسِ السَّلَامِ: ﴿وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يُعْجِبُكَ قَوْلُهُۥ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَيُشْهِدُ ٱللَّهَ عَلَىٰ مَا فِى قَلْبِهِۦ وَهُوَ أَلَدُّ ٱلْخِصَامِ﴾ [البقرة:٢٠٤].

إِنْ حَاكَمْتَهُمْ إِلَى صَرِيحِ الْوَحْيِ وَجَدْتَهُمْ عَنْهُ نَافِرِينَ، وَإِنْ دَعَوْتَهُمْ إِلَى حُكْمِ كِتَابِ اللهِ وَسُنَّةِ رَسُولِهِ ﷺ رَأَيْتَهُمْ عَنْهُ مُعْرِضِينَ، فَلَوْ شَهِدْتَ حَقَائِقَهُ لَرَأَيْتَ بَيْنَهَا وَبَيْنَ الْهُدَى أَمَدًا بَعِيدًا، وَرَأَيْتَهَا مُعْرِضَةً عَنِ الْوَحْيِ إِعْرَاضًا شَدِيدًا: ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ تَعَالَوْاْ إِلَىٰ مَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ وَإِلَى ٱلرَّسُولِ رَأَيْتَ ٱلْمُنَٰفِقِينَ يَصُدُّونَ

عَنكَ صُدُودًا ﴾ [النساء:٦١].

فَكَيْفَ لَهُمْ بِالْفَلَاحِ وَالْهُدَى بَعْدَ مَا أُصِيبُوا فِي عُقُولِهِمْ وَأَدْيَانِهِمْ؟ وَأَنَّى لَهُمْ بِالتَّخَلُّصِ مِنَ الضَّلَالِ وَالرَّدَى، وَقَدِ اشْتَرَوُا الْكُفْرَ بِإِيمَانِهِمْ؟ فَمَا أَخْسَرَ تِجَارَتَهُمُ الْبَائِرَةَ وَقَدِ اسْتَبْدَلُوا بِالرَّحِيقِ الْمَخْتُومِ حَرِيقًا: ﴿ فَكَيْفَ إِذَآ أَصَٰبَتْهُم مُّصِيبَةٌۢ بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيهِمْ ثُمَّ جَآءُوكَ يَحْلِفُونَ بِٱللَّهِ إِنْ أَرَدْنَآ إِلَّآ إِحْسَٰنًا وَتَوْفِيقًا ﴾

[النساء:٦٢].

تَبًّا لَهُمْ، مَا أَبْعَدَهُمْ عَنْ حَقِيقَةِ الْإِيمَانِ، وَمَا أَكْذَبَ دَعْوَاهُمْ لِلتَّحْقِيقِ وَالْعِرْفَانِ، فَالْقَوْمُ فِي شَأْنٍ وَأَتْبَاعُ الرَّسُولِ فِي شَأْنٍ، لَقَدْ أَقْسَمَ الله جَلَّ جَلَالُهُ فِي كِتَابِهِ بِنَفْسِهِ الْمُقَدَّسَةِ قَسَمًا عَظِيمًا يَعْرِفُ مَضْمُونَهُ أُولُو الْبَصَائِرِ، فَقُلُوبُهُمْ مِنْهُ عَلَى حَذَرٍ إِجْلَالًا لَهُ وَتَعْظِيمًا؛ فَقَالَ تَعَالَى تَحْذِيرًا لِأَوْلِيَائِهِ وَتَنْبِيهًا عَلَى حَالِ هَؤُلَاءِ وَتَفْهِيمًا: ﴿ فَلَا وَرَبِّكَ لَا يُؤْمِنُونَ حَتَّىٰ يُحَكِّمُوكَ فِيمَا شَجَرَ بَيْنَهُمْ ثُمَّ لَا يَجِدُوا۟ فِىٓ أَنفُسِهِمْ حَرَجًا مِّمَّا قَضَيْتَ وَيُسَلِّمُوا۟ تَسْلِيمًا ﴾ [النساء:٦٥].

أَحْسَنُ النَّاسِ أَجْسَامًا، وَأَخْلَبُهُمْ لِسَانًا، وَأَلْطَفُهُمْ بَيَانًا، وَأَخْبَثُهُمْ قُلُوبًا، وَأَضْعَفُهُمْ جَنَانًا؛ فَهُمْ كَالْخُشُبِ الْمُسَنَّدَةِ الَّتِي لَا ثَمَرَ لَهَا، قَدْ قُلِعَتْ مِنْ مَغَارِسِهَا فَتَسَانَدَتْ إِلَى حَائِطٍ يُقِيمُهَا؛ لِئَلَّا يَطَأَهَا السَّالِكُونَ: ﴿ وَإِذَا رَأَيْتَهُمْ تُعْجِبُكَ أَجْسَامُهُمْ ۖ وَإِن يَقُولُوا۟ تَسْمَعْ لِقَوْلِهِمْ ۖ كَأَنَّهُمْ خُشُبٌ مُّسَنَّدَةٌ ۖ يَحْسَبُونَ كُلَّ صَيْحَةٍ عَلَيْهِمْ ۚ هُمُ ٱلْعَدُوُّ فَٱحْذَرْهُمْ ۚ قَٰتَلَهُمُ ٱللَّهُ ۖ أَنَّىٰ يُؤْفَكُونَ ﴾ [المنافقون:٤].

أَسَرُّوا سَرَائِرَ النِّفَاقِ فَأَظْهَرَهَا الله عَلَى صَفَحَاتِ الْوُجُوهِ مِنْهُمْ، وَفَلَتَاتِ اللِّسَانِ، وَوَسَمَهُمْ لِأَجْلِهَا بِسِيمَاءَ لَا يَخْفَوْنَ بِهَا عَلَى أَهْلِ الْبَصَائِرِ وَالْإِيمَانِ، وَظَنُّوا أَنَّهُمْ إِذْ كَتَمُوا كُفْرَهُمْ وَأَظْهَرُوا إِيمَانَهُمْ رَاجُوا عَلَى الصَّيَارِفِ وَالنُّقَّادِ، كَيْفَ؟ وَالنَّاقِدُ الْبَصِيرُ قَدْ كَشَفَهَا لَكُمْ: ﴿ أَمْ حَسِبَ ٱلَّذِينَ فِى قُلُوبِهِم مَّرَضٌ أَن لَّن يُخْرِجَ ٱللَّهُ أَضْغَٰنَهُمْ ﴿٢٩﴾ وَلَوْ نَشَآءُ لَأَرَيْنَٰكَهُمْ فَلَعَرَفْتَهُم بِسِيمَٰهُمْ ۚ وَلَتَعْرِفَنَّهُمْ فِى لَحْنِ

ٱلْقَوْلِۚ وَٱللَّهُ يَعْلَمُ أَعْمَٰلَكُمْ ﴾ [محمد:٢٩، ٣٠].

لَا تَسْتَطِلْ أَوْصَافَ الْقَوْمِ؛ فَالْمَتْرُوكُ - وَاللهِ- أَكْثَرُ مِنَ الْمَذْكُورِ، كَادَ الْقُرْآنُ أَنْ يَكُونَ كُلُّهُ فِي شَأْنِهِمْ؛ لِكَثْرَتِهِمْ عَلَى ظَهْرِ الْأَرْضِ وَفِي أَجْوَافِ الْقُبُورِ، فَلَا خَلَتْ بِقَاعُ الْأَرْضِ مِنْهُمْ؛ لِئَلَّا يَسْتَوْحِشَ الْمُؤْمِنُونَ فِي الطُّرُقَاتِ، وَتَتَعَطَّلَ بِهِمْ أَسْبَابُ الْمَعَايِشِ، وَتَخَطَّفَهُمُ الْوُحُوشُ وَالسِّبَاعُ فِي الْفَلَوَاتِ، سَمِعَ حُذَيْفَةُ رضي الله عنه رَجُلًا يَقُولُ: اللهمَّ أَهْلِكِ الْمُنَافِقِينَ، فَقَالَ: يَا ابْنَ أَخِي، لَوْ هَلَكَ الْمُنَافِقُونَ لَاسْتَوْحَشْتُمْ فِي طُرُقَاتِكُمْ مِنْ قِلَّةِ السَّالِكِ». انْتَهَى.

وَلَقَدْ سَلَكَ رَسُولُ اللهِ ﷺ شَتَّى السُّبُلِ فِي دَعْوَتِهِ لِلْمُنَافِقِينَ، وَتَحَمَّلَ مَكْرَهُمْ وَإِيذَاءَهُمْ، وَمُحَاوَلَاتِهِمُ الْمُتَكَرِّرَةَ لِلْفَسَادِ وَالْإِفْسَادِ، وَدَسِّ الْفُرْقَةِ وَالنِّزَاعِ وَالْخِلَافَاتِ فِي الصَّفِّ الْمُسْلِمِ.

وَيَتَّضِحُ ذَلِكَ بِالْمَوَاقِفِ التَّالِيَةِ:

دعوتُه ﷺ لأهلِ النِّفاقِ وصبْرُه على أذاهُمْ

رَوَى الْبُخَارِيُّ وَمُسْلِمٌ (١) مِنْ حَدِيثِ أُسَامَةَ بْنِ زَيْدٍ رضي الله عنه أَنَّ النَّبِيَّ ﷺ رَكِبَ حِمَارًا، عَلَيْهِ إِكَافٌ تَحْتَهُ قَطِيفَةٌ فَدَكِيَّةٌ، وَأَرْدَفَ وَرَاءَهُ أُسَامَةَ بْنَ زَيْدٍ، وَهُوَ يَعُودُ سَعْدَ بْنَ عُبَادَةَ (٢) فِي بَنِي الْحَارِثِ بْنِ الْخَزْرَجِ، وَذَلِكَ قَبْلَ وَقْعَةِ بَدْرٍ، حَتَّى مَرَّ فِي مَجْلِسٍ فِيهِ أَخْلَاطٌ مِنَ الْمُسْلِمِينَ وَالْمُشْرِكِينَ عَبَدَةِ الْأَوْثَانِ وَالْيَهُودِ وَفِيهِمْ عَبْدُ اللهِ بْنُ أُبَيٍّ، وَفِي الْمَجْلِسِ عَبْدُ اللهِ بْنُ رَوَاحَةَ (٣)، فَلَمَّا غَشِيَتِ الْمَجْلِسَ عَجَاجَةُ الدَّابَّةِ، خَمَّرَ عَبْدُ اللهِ بْنُ أُبَيٍّ (٤) أَنْفَهُ بِرِدَائِهِ، ثُمَّ قَالَ: لَا تُغَبِّرُوا عَلَيْنَا.

---

(١) أخرجه البخاريُّ، كتاب الاستئذان، باب التسليم في مجلس فيه أخلاط من المسلمين والمشركين (٦٢٥٤)، ومسلمٌ، كتاب الجهاد والسير، باب في دعاء النبي ﷺ وصبره على أذى المنافقين (١٧٩٨).

(٢) هو سعد بن عبادة بن دليم بن حارثة بن حرام بن خزيمة بن ثعلبة بن طريف بن الخزرج ابن ساعدة بن كعب بن الخزرج الأنصاري الساعدي سيد الخزرج، يكنى: أبا ثابت، وأبا قيس، شهد العقبة، وكان أحد النقباء، واختلف في شهوده بدرًا، مات سنة خمس عشرة، وقيل: سنة أربع عشرة، وقيل: سنة إحدى عشرة. وجد ميتًا على مغتسله. وقتلته الجن.
● راجع: «الاستيعاب» (٩٤٥)، و«أسد الغابة» (٢٠١٣)، و«الإصابة» (٣١٨٠).

(٣) هو عبد الله بن رواحة بن ثعلبة بن امرئ القيس بن مالك الأغر بن ثعلبة بن كعب بن الخزرج بن الحارث بن الخزرج الأنصاري الخزرجي الشاعر المشهور، يكنى: أبا محمد، ويقال: أبو رواحة، ويقال: أبو عمرو، من السابقين الأولين من الأنصار، أحد النقباء ليلة العقبة، وشهد بدرًا وما بعدها إلى أن استشهد بمؤتة. كان ثالث الأمراء في غزوة مؤتة، أخذ الراية بعد زيد بن حارثة وجعفر فقاتل حتى قتل.
● راجع: «الاستيعاب» (١٥٥٧)، و«أسد الغابة» (٢٩٤٣)، و«الإصابة» (٤٦٩٤).

(٤) هو عبد الله بن أبي بن مالك بن الحارث بن عبيد بن مالك بن سالم بن غنم بن عوف بن الخزرج الأنصاري الخزرجي، وهو ابن أبي ابن سلول - رأس المنافقين- وممن =

فَسَلَّمَ عَلَيْهِمُ النَّبِيُّ ﷺ ثُمَّ وَقَفَ فَنَزَلَ، فَدَعَاهُمْ إِلَى اللهِ، وَقَرَأَ عَلَيْهِمُ الْقُرْآنَ؛ فَقَالَ عَبْدُ اللهِ بْنُ أُبَيٍّ: أَيُّهَا الْمَرْءُ! لا أَحْسَنَ مِنْ هَذَا، إِنْ كَانَ مَا تَقُولُ حَقًّا، فَلَا تُؤْذِنَا فِي مَجَالِسِنَا، وَارْجِعْ إِلَى رَحْلِكَ فَمَنْ جَاءَكَ مِنَّا فَاقْصُصْ عَلَيْهِ؛ فَقَالَ عَبْدُ اللهِ بْنُ رَوَاحَةَ: اغْشَنَا فِي مَجَالِسِنَا؛ فَإِنَّا نُحِبُّ ذَلِكَ، قال: فَاسْتَبَّ الْمُسْلِمُونَ وَالْمُشْرِكُونَ وَالْيَهُودُ، حَتَّى هَمُّوا أَنْ يَتَوَاثَبُوا، فَلَمْ يَزَلِ النَّبِيُّ ﷺ يُخَفِّضُهُمْ، ثُمَّ رَكِبَ دَابَّتَهُ حَتَّى دَخَلَ عَلَى سَعْدِ بْنِ عُبَادَةَ؛ فَقَالَ:

«**أَيْ سَعْدُ أَلَمْ تَسْمَعْ إِلَى مَا قَالَ أَبُو حُبَابٍ؟**» - يُرِيدُ عَبْدَ اللهِ بْنَ أُبَيٍّ - (قَالَ كَذَا وَكَذَا) قَالَ: اعْفُ عَنْهُ يَا رَسُولَ اللهِ وَاصْفَحْ؛ فَوَاللهِ! لَقَدْ أَعْطَاكَ اللهُ الَّذِي أَعْطَاكَ، وَلَقَدْ اصْطَلَحَ أَهْلُ هَذِهِ الْبُحَيْرَةِ عَلَى أَنْ يُتَوِّجُوهُ، فَيُعَصِّبُوهُ بِالْعِصَابَةِ، فَلَمَّا رَدَّ اللهُ ذَلِكَ بِالْحَقِّ الَّذِي أَعْطَاكَه، شَرِقَ بِذَلِكَ؛ فَذَلِكَ فَعَلَ بِهِ مَا رَأَيْتَ، فَعَفَا عَنْهُ النَّبِيُّ ﷺ.

مَا أَعْظَمَ حِلْمَ رَسُولِ اللهِ ﷺ وَعَفْوَهُ بِرَأْسِ الْمُنَافِقِينَ، وَلَقَدْ بَوَّبَ الإِمَامُ النَّوَوِيُّ رَحِمَهُ اللهُ عَلَى هَذَا الْحَدِيثِ بِقَوْلِهِ: «بَابٌ فِي دُعَاءِ النَّبِيِّ ﷺ إِلَى اللهِ، وَصَبْرِهِ عَلَى أَذَى الْمُنَافِقِينَ».

وَفِي ذَلِكَ: **رَوَى الْبُخَارِيُّ وَمُسْلِمٌ** (١) مِنْ حَدِيثِ أَنَسِ بْنِ مَالِكٍ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ قَالَ: قِيلَ لِلنَّبِيِّ ﷺ: لَوْ أَتَيْتَ عَبْدَ اللهِ بْنَ أُبَيٍّ؟ قَالَ: فَانْطَلَقَ إِلَيْهِ وَرَكِبَ حِمَارًا وَانْطَلَقَ الْمُسْلِمُونَ وَهِيَ أَرْضٌ سَبِخَةٌ، فَلَمَّا أَتَاهُ النَّبِيُّ ﷺ قَالَ: إِلَيْكَ عَنِّي، فَوَاللهِ لَقَدْ آذَانِي نَتْنُ حِمَارِكَ، قَالَ: فَقَالَ رَجُلٌ مِنَ الْأَنْصَارِ: وَاللهِ لَحِمَارُ رَسُولِ اللهِ ﷺ

= تولى كبر الإفك في عائشة، مات في عهد النبي ﷺ وصلى عليه النبي ﷺ وكفَّنه في قميصه.

● انظر: «الاستيعاب» (١٦١٢)، و«أسد الغابة» (٣٠٣٩)، و«الإصابة» (٤٨٠٢).

(١) أخرجه البخاريُّ، كتاب الصلح، باب ما جاء في الإصلاح بين الناس (٢٦٩١)، ومسلمٌ، كتاب الجهاد، باب في دعاء النبي ﷺ إلى الله وصبره على المنافقين (١٧٩٩).

أَطْيَبُ رِيحًا مِنْكَ، قَالَ: فَغَضِبَ لِعَبْدِ الله رَجُلٌ مِنْ قَوْمِهِ، قَالَ: فَغَضِبَ لِكُلِّ وَاحِدٍ مِنْهُمَا أَصْحَابُهُ، قَالَ: فَكَانَ بَيْنَهُمْ ضَرْبٌ بِالْجَرِيدِ، وَبِالْأَيْدِي، وَبِالنِّعَالِ، قَالَ: فَبَلَغَنَا أَنَّهَا نَزَلَتْ فِيهِمْ: ﴿وَإِن طَآئِفَتَانِ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ٱقْتَتَلُوا۟ فَأَصْلِحُوا۟ بَيْنَهُمَا﴾

[الحجرات:٩].

قَالَ النَّوَوِيُّ فِي «شَرْحِ مُسْلِمٍ» (١): «وَفِي هَذَا الْحَدِيثِ مَا كَانَ عَلَيْهِ النَّبِيُّ ﷺ مِنَ الْحِلْمِ وَالصَّفْحِ وَالصَّبْرِ عَلَى الْأَذَى فِي الله، وَدَوَامِ الدُّعَاءِ إِلَى الله تَعَالَى».

وَفِي «الْجَامِعِ» لِابْنِ وَهْبٍ (٢)، **وَ«مُسْنَدِ» الْبَزَّارِ، وَ«صَحِيحِ» ابْنِ حِبَّانَ** (٣) مِنْ حَدِيثِ أَبِي هُرَيْرَةَ رضي الله عنه قَالَ: مَرَّ رَسُولُ الله ﷺ عَلَى عَبْدِ الله بْنِ أُبَيٍّ ابْنِ سَلُولَ وَهُوَ فِي ظِلِّ أُطُمٍ؛ فَقَالَ: قَدْ غَبَّرَ عَلَيْنَا ابْنُ أَبِي كَبْشَةَ، فَقَالَ ابْنُهُ عَبْدُ الله بْنُ عَبْدِ الله ابْنِ سَلُولَ: وَالَّذِي أَكْرَمَكَ وَأَنْزَلَ عَلَيْكَ الْكِتَابَ لَئِنْ شِئْتَ لَآتِيَنَّكَ بِرَأْسِهِ؛ فَقَالَ رَسُولُ الله ﷺ: «**لَا، وَلَكِنْ بِرَّ أَبَاكَ وَأَحْسِنْ صُحْبَتَهُ**».

وَفِي «مُسْتَدْرَكِ» الْحَاكِمِ، وَ«الْآحَادِ وَالْمَثَانِي» لِابْنِ أَبِي عَاصِمٍ (٤)، **وَ«تَارِيخِ**

---

(١) «شرح مسلم» (١٢/ ١٥٩).

(٢) هو عبد الله بن وهب بن مسلم، شيخ الإسلام، أبو محمد الفهري مولاهم الفقيه المصري الحافظ، مولده سنة خمس وعشرين ومائة، طلب العلم وله سبع عشرة سنة، وكان يسمَّى بديوان العلم، وانتشر علمه، وبَعُد صيته، وكان من الثقات، وكان من العباد وأجلة الناس، مات سنة ١٩٧هـ.

● راجع: «سير أعلام النبلاء» (١٥٠٥)، و«البداية والنهاية» (٦/ ٧١-٧٣).

(٣) أخرجه ابن حبان في «صحيحه» (٤٢٨)، والبزار في «مسنده» (كشف/ ٢٧٠٨)، وابن وهب في «جامعه» (١١٣)، والطبرانيُّ في «الأوسط» (المجمع ١/ ٣٠١)، وقال الهيثميُّ (٩/ ٥٢٨): «رواه البزار، ورجاله ثقات»، وحَسَّنه الشيخ الأرناؤوط في تحقيقه لابن حبان.

(٤) هو الإمام الحافظ البارع، كثير التصانيف، أبو بكر، أحمد بن عمرو بن الضحاك بن =

الْمَدِينَةِ» لِابْنِ شَبَّةَ (١)، وَ«مَعْرِفَةِ الصَّحَابَةِ» لِأَبِي نُعَيْمٍ (٢) مِنْ حَدِيثِ عُرْوَةَ بْنِ الزُّبَيْرِ عَنْ عَبْدِ اللهِ بْنِ عَبْدِ اللهِ بْنِ أُبَيٍّ ابْنُ سَلُولَ قَالَ: قُلْتُ: يَا رَسُولَ اللهِ أَقْتُلُ

= مخلد الشيباني، من أهل البصرة ومن أهل السنة والحديث والنسك والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، كان ثقةً نبيلًا مُعَمَّرًا فقيهًا، وقد ولي قضاء أصبهان، وكان من أهل الأدب والنظر. ولد في شوال سنة ست ومائتين. ومات سنة سبع وثمانين ومائتين لخمس خلون من ربيع الآخر.

● راجع: «سير أعلام النبلاء» (٢٥٩٤)، و«البداية والنهاية» (١١/ ٧٢-٧٣).

(١) هو عمر بن شبة بن عبدة بن زيد بن رائطة النميري العلامة الأخباري الحافظ الحجة، أبو زيد البصري النحوي، نزيل بغداد، ولد سنة ثلاث وسبعين ومائة، كان صاحب عربية وأدب وشعر وأخبار ومعرفة بأيام الناس، ثقةً عالمًا، صاحب التصانيف، كان أكثر الناس حديثًا. ولد سنة ثلاث وسبعين ومائة، ومات يوم الإثنين لخمس بقين من جمادى الآخرة سنة اثنين وستين ومائتين، وكان قد تجاوز التسعين. وقيل: مات يوم الخميس لأربع بقين من جمادى الآخرة. فكمل تسعًا وثمانين سنة إلا أربعة أيام.

● راجع: «سير أعلام النبلاء» (٢٢٥٤)، و«تهذيب التهذيب» (٧/ ٤٦٠-٤٦١).

(٢) أخرجه الحاكم (٣/ ٦٧٩)، وابن شبة في «تاريخ المدينة» (١/ ٣٦٥)، وابن أبي عاصم في «الآحاد» (١٩٦٧)، وأبو نعيم في «المعرفة» (٣٧٦٣)، وقال الهيثميُّ في «المجمع» (٩/ ٥٢٧): «رواه الطبراني، ورجاله رجال الصحيح، إلا أن عروة بن الزبير لم يدرك عبد الله بن عبد الله بن أبي»، وللحديث شواهدُ؛ فأخرجه الطبراني في «المعجم» - كما في «المجمع» (٩/ ٥٢٧)، والبزار في «مسنده» (البحر الزخار ٢٢٤٢) بسندٍ ليِّن من حديث أسامة بن زيد ﵁، وضعفه الهيثميُّ، وله شاهدٌ معضل؛ أخرجه الحميديُّ في «مسنده» (١٢٤٠) من طريق: سفيان عن أبي هارون المدني قال: فذكره، وأبو هارون ثقة من السادسة، وأخرجه ابن إسحاق؛ كما في «السيرة» لابن هشام - (٤/ ٢٥٥)، والطبريُّ في «تفسيره» (٣٤٠٣٣ و٣٤٠٣٤) من حديث عاصم بن عمر بن قتادة أن عبد الله بن عبد الله بن أبي لما بلغه ما كان من أمر أبيه أتى رَسُول الله ﷺ فقال: فذكره، وعاصم ثقة من الرابعة، وأخرجه ابن شبة في «تاريخ المدينة» (١/ ٣٧٣) من حديث الليث بن سعد عن عمر مولى عفرة وغيره؛ فذكره.

وأخرجه الطبريُّ في «تفسيره» (٣٤٠٢٦)، وعبد الرزاق في «المصنف» (٦٦٢٧) من حديث عكرمة مرسلًا، وبرقم (٣٤٠٣٢) عن ابن زيد قال: فذكره.

أَبِي؟، قَالَ: «**لَا تَقْتُلْ أَبَاكَ**».

وَفِي «**الصَّحِيحَيْنِ**»(١) مِنْ حَدِيثِ عَبْدِ اللهِ بْنِ مَسْعُودٍ رضي الله عنه قَالَ: لَمَّا كَانَ يَوْمُ حُنَيْنٍ آثَرَ النَّبِيُّ ﷺ أُنَاسًا فِي الْقِسْمَةِ؛ فَأَعْطَى الْأَقْرَعَ بْنَ حَابِسٍ مِائَةً مِنَ الْإِبِلِ، وَأَعْطَى عُيَيْنَةَ مِثْلَ ذَلِكَ، وَأَعْطَى أُنَاسًا مِنْ أَشْرَافِ الْعَرَبِ فَآثَرَهُمْ يَوْمَئِذٍ فِي الْقِسْمَةِ، قَالَ رَجُلٌ: وَاللهِ إِنَّ هَذِهِ الْقِسْمَةَ مَا عُدِلَ فِيهَا، وَمَا أُرِيدَ بِهَا وَجْهُ اللهِ، فَقُلْتُ: وَاللهِ لَأُخْبِرَنَّ النَّبِيَّ ﷺ؛ فَأَتَيْتُهُ فَأَخْبَرْتُهُ؛ فَقَالَ: «**فَمَنْ يَعْدِلُ إِذَا لَمْ يَعْدِلِ اللهُ وَرَسُولُهُ؟ رَحِمَ اللهُ مُوسَى. قَدْ أُوذِيَ بِأَكْثَرَ مِنْ هَذَا فَصَبَرَ**».

وَفِي رِوَايَةِ أَبِي سَعِيدٍ الْخُدْرِيِّ رضي الله عنه قَالَ(٢): بَيْنَمَا نَحْنُ عِنْدَ رَسُولِ اللهِ ﷺ وَهُوَ يَقْسِمُ قِسْمًا أَتَاهُ ذُو الْخُوَيْصِرَةِ، وَهُوَ رَجُلٌ مِنْ بَنِي تَمِيمٍ؛ فَقَالَ: يَا رَسُولَ اللهِ! اعْدِلْ، قَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: «**وَيْلَكَ! وَمَنْ يَعْدِلُ إِذَا لَمْ أَعْدِلْ؟ قَدْ خِبْتَ وَخَسِرْتَ إِنْ لَمْ أَعْدِلْ**».

فَقَالَ عُمَرُ: يَا رَسُولَ اللهِ! ائْذَنْ لِي فِيهِ أَضْرِبْ عُنُقَهُ، قَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: «**دَعْهُ؛ فَإِنَّ لَهُ أَصْحَابًا يَحْقِرُ أَحَدُكُمْ صَلَاتَهُ مَعَ صَلَاتِهِمْ، وَصِيَامَهُ مَعَ صِيَامِهِمْ، يَقْرَءُونَ الْقُرْآنَ لَا يُجَاوِزُ تَرَاقِيَهُمْ، يَمْرُقُونَ مِنَ الْإِسْلَامِ كَمَا يَمْرُقُ السَّهْمُ مِنَ الرَّمِيَّةِ، يُنْظَرُ إِلَى نَصْلِهِ**(٣) **فَلَا يُوجَدُ فِيهِ شَيْءٌ، ثُمَّ يُنْظَرُ إِلَى رِصَافِهِ**(٤) **فَلَا يُوجَدُ**

---

(١) أخرجه البخاريُّ، كتاب فرض الخمس، باب ما كان النبي ﷺ يعطي المؤلفة قلوبهم وغيرهم من الخمس ونحوه (٣١٥٠)، ومسلمٌ، كتاب الزكاة، باب إعطاء المؤلفة قلوبهم على الإسلام وتصبُّر من قوي إيمانه (١٠٦٢).

(٢) أخرجه البخاريُّ، كتاب استتابة المرتدين والمعاندين وقتالهم، باب من ترك قتال الخوارج للتألف ولئلا ينفر الناس عنه (٦٩٣٣)، ومسلمٌ، كتاب الزكاة، باب ذكر الخوارج وصفاتهم (١٠٦٤/ ١٤٨).

(٣) النصل: حديدة السهم.

(٤) الرصاف: مدخل النصل في السهم.

فِيهِ شَيْءٌ، ثُمَّ يُنْظَرُ إِلَى نَضِيِّهِ (١) فَلَا يُوجَدُ فِيهِ شَيْءٌ - وَهُوَ الْقِدْحُ- ثُمَّ يُنْظَرُ إِلَى قُذَذِهِ (٢) فَلَا يُوجَدُ فِيهِ شَيْءٌ، سَبَقَ الْفَرْثَ (٣) وَالدَّمَ، آيَتُهُمْ رَجُلٌ أَسْوَدُ إِحْدَى عَضُدَيْهِ مِثْلُ ثَدْيِ الْمَرْأَةِ، أَوْ مِثْلُ الْبَضْعَةِ (٤) تَدَرْدَرُ (٥)، يَخْرُجُونَ عَلَى حِينِ فُرْقَةٍ مِنَ النَّاسِ»، قَالَ أَبُو سَعِيدٍ: فَأَشْهَدُ أَنِّي سَمِعْتُ هَذَا مِنْ رَسُولِ اللهِ ﷺ، وَأَشْهَدُ أَنَّ عَلِيَّ بْنَ أَبِي طَالِبٍ رضي الله عنه قَاتَلَهُمْ وَأَنَا مَعَهُ، فَأَمَرَ بِذَلِكَ الرَّجُلِ؛ فَالْتُمِسَ فَوُجِدَ فَأُتِيَ بِهِ؛ حَتَّى نَظَرْتُ إِلَيْهِ عَلَى نَعْتِ رَسُولِ اللهِ ﷺ الَّذِي نَعَتَ.

وَلِمُسْلِمٍ (٦) مِنْ حَدِيثِ جَابِرٍ رضي الله عنه نَحْوُ حَدِيثِ أَبِي سَعِيدٍ رضي الله عنه وَفِيهِ: فَقَالَ عُمَرُ بْنُ الْخَطَّابِ رضي الله عنه : دَعْنِي يَا رَسُولَ اللهِ! فَأَقْتُلَ هَذَا الْمُنَافِقَ؛ فَقَالَ: «مَعَاذَ اللهِ! أَنْ يَتَحَدَّثَ النَّاسُ أَنِّي أَقْتُلُ أَصْحَابِي! إِنَّ هَذَا وَأَصْحَابَهُ يَقْرَءُونَ الْقُرْآنَ لَا يُجَاوِزُ حَنَاجِرَهُمْ يَمْرُقُونَ مِنْهُ كَمَا يَمْرُقُ السَّهْمُ مِنَ الرَّمِيَّةِ».

قَالَ الْحَافِظُ ابْنُ حَجَرٍ (٧): «وَإِنَّمَا تَرَكَ النَّبِيُّ ﷺ قَتْلَ الْمَذْكُورِ؛ لِأَنَّهُ لَمْ يَكُنْ أَظْهَرَ مَا يُسْتَدَلُّ بِهِ عَلَى مَا وَرَاءَهُ؛ فَلَوْ قَتَلَ مَنْ ظَاهِرُهُ الصَّلَاحُ عِنْدَ النَّاسِ قَبْلَ اسْتِحْكَامِ أَمْرِ الْإِسْلَامِ وَرُسُوخِهِ فِي الْقُلُوبِ لَنَفَّرَهُمْ عَنِ الدُّخُولِ فِي الْإِسْلَامِ.

---

(١) النضي: القدح: وهو عود السهم.

(٢) القذذ: ريش السهم.

(٣) الفرث: ما يكون في الكرش من فضلات.

(٤) البضعة: القطعة من اللحم.

(٥) تدردر: تضطرب وتذهب وتجيء. انظر هذه المعاني في: «شرح مسلم» للنوويِّ (٧/ ١٦٥، ١٦٦)، و«معاني القرآن» للنحاس (٤/ ٨١)، و«الجامع لأحكام القرآن» (١٠/ ١٢٤).

(٦) أخرجه مسلمٌ، كتاب الزكاة، باب ذكر الخوارج وصفاتهم (١٠٦٣)، وهو في «صحيح البخاري» (٣١٣٨ مختصرًا).

(٧) «فتح الباري» (١٢/ ٣٠٤).

وَأَمَّا بَعْدَهُ ﷺ؛ فَلَا يَجُوزُ تَرْكُ قِتَالِهِمْ إِذَا هُمْ أَظْهَرُوا رَأْيَهُمْ، وَتَرَكُوا الْجَمَاعَةَ وَخَالَفُوا الْأَئِمَّةَ مَعَ الْقُدْرَةِ عَلَى قِتَالِهِمْ».

وَفِي «**الصَّحِيحَيْنِ**» (١) مِنْ حَدِيثِ جَابِرٍ رضي الله عنه يَقُولُ: غَزَوْنَا مَعَ النَّبِيِّ ﷺ وَقَدْ ثَابَ مَعَهُ نَاسٌ مِنَ الْمُهَاجِرِينَ حَتَّى كَثُرُوا، وَكَانَ مِنَ الْمُهَاجِرِينَ رَجُلٌ لَعَّابٌ فَكَسَعَ أَنْصَارِيًّا (٢)، فَغَضِبَ الْأَنْصَارِيُّ غَضَبًا شَدِيدًا حَتَّى تَدَاعَوْا، وَقَالَ الْأَنْصَارِيُّ: يَا لَلْأَنْصَارِ، وَقَالَ الْمُهَاجِرِيُّ: يَا لَلْمُهَاجِرِينَ، فَخَرَجَ النَّبِيُّ ﷺ؛ فَقَالَ: «**مَا بَالُ دَعْوَى أَهْلِ الْجَاهِلِيَّةِ؟**» ثُمَّ قَالَ: «**مَا شَأْنُهُمْ؟**» فَأُخْبِرَ بِكَسْعَةِ الْمُهَاجِرِيِّ الْأَنْصَارِيَّ، قَالَ: فَقَالَ النَّبِيُّ ﷺ: «**دَعُوهَا؛ فَإِنَّهَا خَبِيثَةٌ**» (٣)، وَقَالَ عَبْدُ اللهِ بْنُ أُبَيٍّ ابْنُ سَلُولَ: أَقَدْ تَدَاعَوْا عَلَيْنَا؟ لَئِنْ رَجَعْنَا إِلَى الْمَدِينَةِ لَيُخْرِجَنَّ الْأَعَزُّ مِنْهَا الْأَذَلَّ؛ فَقَالَ عُمَرُ: أَلَا نَقْتُلُ يَا رَسُولَ اللهِ هَذَا الْخَبِيثَ؟ لِعَبْدِ اللهِ؛ فَقَالَ النَّبِيُّ ﷺ: «**لَا يَتَحَدَّثُ النَّاسُ أَنَّهُ كَانَ يَقْتُلُ أَصْحَابَهُ**».

وَفِي رِوَايَةِ مُسْلِمٍ: قَالَ عُمَرُ: دَعْنِي أَضْرِبْ عُنُقَ هَذَا الْمُنَافِقِ؛ فَقَالَ: «**دَعْهُ لَا يَتَحَدَّثُ النَّاسُ أَنَّ مُحَمَّدًا يَقْتُلُ أَصْحَابَهُ**»؛ أَيْ: أَتْبَاعَهُ.

وَفِي «**الصَّحِيحَيْنِ**» (٤) مِنْ حَدِيثِ ابْنِ عُمَرَ رضي الله عنهما قَالَ: لَمَّا تُوُفِّيَ عَبْدُ اللهِ ابْنُ أُبَيٍّ ابْنُ سَلُولَ جَاءَ ابْنُهُ عَبْدُ اللهِ بْنُ عَبْدِ اللهِ إِلَى رَسُولِ اللهِ ﷺ؛ فَسَأَلَهُ أَنْ يُعْطِيَهُ قَمِيصَهُ يُكَفِّنُ فِيهِ أَبَاهُ، فَأَعْطَاهُ، ثُمَّ سَأَلَهُ أَنْ يُصَلِّيَ عَلَيْهِ؛ فَقَامَ رَسُولُ اللهِ ﷺ؛ لِيُصَلِّيَ عَلَيْهِ؛ فَقَامَ عُمَرُ فَأَخَذَ بِثَوْبِ رَسُولِ اللهِ ﷺ فَقَالَ: يَا رَسُولَ اللهِ! أَتُصَلِّي عَلَيْهِ وَقَدْ نَهَاكَ اللهُ أَنْ تُصَلِّيَ عَلَيْهِ؛ فَقَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: «**إِنَّمَا خَيَّرَنِي اللهُ؛**

---

(١) أخرجه البخاريُّ، كتاب المناقب، باب ما ينهى من دعوى الجاهلية (٣٥١٨)، ومسلمٌ، كتاب البر والصلة والآداب، باب نصر الأخ ظالمًا أو مظلومًا (٢٥٨٤/ ٦٣).

(٢) الكسع؛ المشهور فيه أنه ضرب باليد أو بالرجل؛ كما في «الفتح» (٨/ ٥١٧).

(٣) في رواية: «منتنة» أي: كلمة قبيحة خبيثة؛ قاله في «الفتح».

(٤) أخرجه البخاريُّ، كتاب الجنائز، باب: الكفن في القميص الذي يُكَفُّ أولا يكفُّ، ومن كفن بغير قميص (١٢٦٩)، ومسلمٌ، كتاب صفات المنافقين وأحكامهم (٢٧٧٤).

فَقَالَ: ﴿ٱسْتَغْفِرْ لَهُمْ أَوْ لَا تَسْتَغْفِرْ لَهُمْ إِن تَسْتَغْفِرْ لَهُمْ سَبْعِينَ مَرَّةً﴾ [التوبة: ٨٠]، وَسَأَزِيدُ عَلَى سَبْعِينَ»، قَالَ: إِنَّهُ مُنَافِقٌ، فَصَلَّى عَلَيْهِ رَسُولُ اللهِ ﷺ وَأَنْزَلَ اللهُ ﷻ: ﴿وَلَا تُصَلِّ عَلَىٰٓ أَحَدٍ مِّنْهُم مَّاتَ أَبَدًا وَلَا تَقُمْ عَلَىٰ قَبْرِهِۦٓ﴾ [التوبة: ٨٤]».

وَفِي «الصَّحِيحَيْنِ»(١) مِنْ حَدِيثِ زَيْدِ بْنِ أَرْقَمَ رضي الله عنه يَقُولُ: خَرَجْنَا مَعَ رَسُولِ اللهِ ﷺ فِي سَفَرٍ(٢)، أَصَابَ النَّاسَ فِيهِ شِدَّةٌ؛ فَقَالَ عَبْدُ اللهِ بْنُ أُبَيٍّ لِأَصْحَابِهِ: لَا تُنْفِقُوا عَلَى مَنْ عِنْدَ رَسُولِ اللهِ حَتَّى يَنْفَضُّوا مِنْ حَوْلِهِ (قَالَ زُهَيْرٌ: وَهِيَ قِرَاءَةُ مَنْ خَفَضَ حَوْلَهُ)، وَقَالَ: لَئِنْ رَجَعْنَا إِلَى الْمَدِينَةِ لَيُخْرِجَنَّ الْأَعَزُّ مِنْهَا الْأَذَلَّ، قَالَ: فَأَتَيْتُ النَّبِيَّ ﷺ فَأَخْبَرْتُهُ بِذَلِكَ، فَأَرْسَلَ إِلَى عَبْدِ اللهِ بْنِ أُبَيٍّ فَسَأَلَهُ فَاجْتَهَدَ يَمِينَهُ مَا فَعَلَ؛ فَقَالَ: كَذَبَ زَيْدٌ رَسُولَ اللهِ ﷺ، قَالَ: فَوَقَعَ فِي نَفْسِي مِمَّا قَالُوهُ شِدَّةٌ، حَتَّى أَنْزَلَ اللهُ تَصْدِيقِي: ﴿إِذَا جَآءَكَ ٱلْمُنَٰفِقُونَ﴾، قَالَ: ثُمَّ دَعَاهُمُ النَّبِيُّ ﷺ لِيَسْتَغْفِرَ لَهُمْ، قَالَ: فَلَوَّوْا رُءُوسَهُمْ، وقَوْله: ﴿كَأَنَّهُمْ خُشُبٌ مُّسَنَّدَةٌ﴾ قَالَ: كَانُوا رِجَالًا أَجْمَلَ شَيْءٍ.

وَفِي رِوَايَةٍ: «فَبَعَثَ إِلَيَّ النَّبِيُّ ﷺ فَقَرَأَ؛ فَقَالَ: «إِنَّ اللهَ صَدَّقَكَ يَا زَيْدُ»».

قَالَ الْحَافِظُ ابْنُ حَجَرٍ رحمه الله(٣): «وَفِي الْحَدِيثِ مِنَ الْفَوَائِدِ: تَرْكُ مُؤَاخَذَةِ كُبَرَاءِ الْقَوْمِ بِالْهَفَوَاتِ؛ لِئَلَّا يَنْفِرَ أَتْبَاعُهُمْ، وَالِاقْتِصَارُ عَلَى مُعَاتَبَاتِهِمْ، وَقَبُولُ أَعْذَارِهِمْ، وَتَصْدِيقُ أَيْمَانِهِمْ، وَإِنْ كَانَتِ الْقَرَائِنُ تُرْشِدُ إِلَى خِلَافِ ذَلِكَ؛ لِمَا فِي ذَلِكَ مِنَ التَّأْنِيسِ وَالتَّأْلِيفِ».

---

(١) أخرجه البخاريُّ، كتاب تفسير القرآن، باب قوله: ﴿إِذَا جَآءَكَ ٱلْمُنَٰفِقُونَ قَالُوا۟ نَشْهَدُ إِنَّكَ لَرَسُولُ ٱللَّهِ﴾ - إلى: ﴿لَكَٰذِبُونَ﴾ (٤٩٠٠)، وانظر: (٤٩٠٣)، ومسلمٌ، كتاب «صفات المنافقين وأحكامهم» (٢٧٧٢).

(٢) في رواية: «كنت في غزاة».

(٣) «الفتح» (٨/ ٥١٤).

فَمَا أَحْلَمَ رَسُولَ الله ﷺ بِالْمُنَافِقِينَ، وَكَلَ سَرَائِرَهُمْ إِلَى الله تَعَالَى، وَعَامَلَهُمْ بِالظَّاهِرِ، وَالله يَتَوَلَّى السَّرَائِرَ؛ حِرْصًا عَلَى تَأْلِيفِهِمْ، وَطَمَعًا فِي إِسْلَامِهِمْ وَإِيْمَانِهِمْ.

وَفِي حَدِيثِ كَعْبِ بْنِ مَالِكٍ رضي الله عنه - فِي قِصَّةِ الثَّلَاثَةِ الَّذِينَ تَخَلَّفُوا عَنْ غَزْوَةِ تَبُوكَ- قَالَ كَعْبٌ (١): وَأَصْبَحَ رَسُولُ الله ﷺ قَادِمًا، وَكَانَ إِذَا قَدِمَ مِنْ سَفَرٍ بَدَأَ بِالْمَسْجِدِ، فَيَرْكَعُ فِيهِ رَكْعَتَيْنِ، ثُمَّ جَلَسَ لِلنَّاسِ، فَلَمَّا فَعَلَ ذَلِكَ جَاءَهُ الْمُخَلَّفُونَ، فَطَفِقُوا يَعْتَذِرُونَ إِلَيْهِ، وَيَحْلِفُونَ لَهُ، وَكَانُوا بِضْعَةً وَثَمَانِينَ رَجُلًا؛ فَقَبِلَ مِنْهُمْ رَسُولُ الله ﷺ عَلَانِيَتَهُمْ، وَبَايَعَهُمْ وَاسْتَغْفَرَ لَهُمْ، وَوَكَلَ سَرَائِرَهُمْ إِلَى الله.

وَكَمَا قَالَ أَمِيرُ الْمُؤْمِنِينَ عُمَرُ بْنُ الْخَطَّابِ رضي الله عنه: «إِنَّ أُنَاسًا كَانُوا يُؤْخَذُونَ بِالْوَحْيِ فِي عَهْدِ رَسُولِ الله ﷺ، وَإِنَّ الْوَحْيَ قَدْ انْقَطَعَ، وَإِنَّمَا نَأْخُذُكُمْ الْآنَ بِمَا ظَهَرَ لَنَا مِنْ أَعْمَالِكُمْ؛ فَمَنْ أَظْهَرَ لَنَا خَيْرًا أَمِنَّاهُ وَقَرَّبْنَاهُ، وَلَيْسَ إِلَيْنَا مِنْ سَرِيرَتِهِ شَيْءٌ، الله يُحَاسِبُهُ فِي سَرِيرَتِهِ، وَمَنْ أَظْهَرَ لَنَا سُوءًا لَمْ نَأْمَنْهُ، وَلَمْ نُصَدِّقْهُ وَإِنْ قَالَ إِنَّ سَرِيرَتَهُ حَسَنَةٌ» (٢).

فَكَانَ النَّبِيُّ ﷺ يَتَعَامَلُ مَعَهُمْ بِالظَّاهِرِ، وَيَكِلُ سَرَائِرَهُمْ إِلَى مَنْ يَعْلَمُ السِّرَّ وَأَخْفَى، وَإِلَّا فَالْوَحْيُ كَانَ يَفْضَحُهُمْ، وَيَكْشِفُ نِيَّاتِهِمُ السَّيِّئَةَ، وَأَخْلَاقَهُمُ الذَّمِيمَةَ، وَبَوَاطِنَهُمُ الْخَبِيثَةَ!!! نَعُوذُ بِالله مِنَ النِّفَاقِ صَغِيرِهِ وَكَبِيرِهِ؛ إِنَّهُ وَلِيُّ ذَلِكَ وَالْقَادِرُ عَلَيْهِ.

---

(١) أخرجه البخاريُّ، كتاب المغازي، باب حديث كعب بن مالك وقول الله عز وجل: ﴿وَعَلَى ٱلثَّلَٰثَةِ ٱلَّذِينَ خُلِّفُوا۟﴾ [التوبة:١١٨] (٤٤١٨)، ومسلمٌ، كتاب التوبة، باب حديث توبة كعب بن مالك وصاحبيه (٢٧٦٩).

(٢) أخرجه البخاريُّ، كتاب الشهادات، باب الشهداء العدول، وقول الله تعالى: ﴿وَأَشْهِدُوا۟ ذَوَىْ عَدْلٍ مِّنكُمْ﴾ [الطلاق:٢]، و ﴿مِمَّن تَرْضَوْنَ مِنَ ٱلشُّهَدَآءِ﴾ [البقرة:٢٨٢] (٢٦٤١).

المَبْحَثُ الرَّابِعُ

دَعْوَتُهُ ﷺ للأعْرَابِ

(المَطْلَبُ الأَوَّلُ)

تَعْرِيفُ الأعْرَابِ

لُغَةً وَاصْطِلَاحًا:

قَالَ ابْنُ مَنْظُورٍ رحمه الله (١): «الْعُرْبُ وَالْعَرَبُ جِيلٌ مِنَ النَّاسِ مَعْرُوفٌ، خِلَافُ الْعَجَمِ، وَالْعَرَبِيُّ مَنْسُوبٌ إِلَى الْعَرَبِ، وَإِنْ لَمْ يَكُنْ بَدَوِيًّا.

وَالْأَعْرَابِيُّ: الْبَدَوِيُّ؛ وَهُمُ الْأَعْرَابُ؛ وَالْأَعَارِيبُ: جَمْعُ الْأَعْرَابِ.

وَقِيلَ: لَيْسَ الْأَعْرَابُ جَمْعًا لِعَرَبٍ.. وَإِنَّمَا الْعَرَبُ اسْمُ جِنْسٍ، وَالنَّسَبُ إِلَى الْأَعْرَابِ: أَعْرَابِيٌّ؛ قَالَ سِيبَوَيْهِ: إِنَّمَا قِيلَ فِي النَّسَبِ إِلَى الْأَعْرَابِ أَعْرَابِيٌّ؛ لِأَنَّهُ لَا وَاحِدَ لَهُ عَلَى هَذَا الْمَعْنَى.

وَعَرَبِيٌّ: بَيِّنُ الْعُرُوبَةِ وَالْعُرُوبِيَّةِ.

وَحَكَى الْأَزْهَرِيُّ (٢): رَجُلٌ عَرَبِيٌّ إِذَا كَانَ نَسَبُهُ فِي الْعَرَبِ ثَابِتًا، وَإِنْ لَمْ يَكُنْ

---

(١) «اللسان» (٩/ ١١٣) ط دار إحياء التراث العربي.

(٢) هو العلامة أبو منصور محمد بن أحمد بن الأزهر بن طلحة الأزهري الهروي اللغوي الشافعي الإمام في اللغة ولد بهراة سنة اثنتين وثمانين ومائتين وكان فقيهًا صالحًا غلب عليه علم اللغة، وكان رأسًا فيها، ثقةً ثبتًا ديِّنًا، ثخين الورع، كثير العبادة والمراقبة، شديد الأشعار لألفاظ الشافعي، وله مصنفاتٌ كثيرة. تُوفي رحمه الله في شهر ربيع الآخر سنة سبعين وثلاثمائة.

● راجع: «سير أعلام النبلاء» (٣٥٨٩)، و«طبقات الشافعية» للسبكي (٣/ ٦٤-٦٥).

فَصِيحًا، وَجَمْعُهُ: الْعَرَبُ؛ كَمَا يُقَالُ: رَجُلٌ مَجُوسِيٌّ وَيَهُودِيٌّ، وَالْجَمْعُ بِحَذْفِ يَاءِ النِّسْبَةِ: الْيَهُودُ وَالْمَجُوسُ.

وَرَجُلٌ مُعْرِبٌ: إِذَا كَانَ فَصِيحًا، وَإِنْ كَانَ عَجَمِيَّ النَّسَبِ.

وَرَجُلٌ أَعْرَابِيٌّ، بِالْأَلِفِ، إِذَا كَانَ بَدَوِيًّا، صَاحِبَ نَجْعَةٍ وَانْتِوَاءٍ وَارْتِيَادٍ لِلْكَلَأِ، وَتَتَبُّعٍ لِمَسَاقِطِ الْغَيْثِ، وَسَوَاءٌ كَانَ مِنَ الْعَرَبِ أَوْ مِنْ مَوَالِيهِمْ.

وَيُجْمَعُ الْأَعْرَابِيُّ عَلَى الْأَعْرَابِ وَالْأَعَارِيبِ.

الْأَعْرَابِيُّ إِذَا قِيلَ لَهُ: يَا عَرَبِيُّ! فَرِحَ بِذَلِكَ وَهَشَّ لَهُ، وَالْعَرَبِيُّ إِذَا قِيلَ لَهُ: يَا أَعْرَابِيُّ! غَضِبَ لَهُ.

فَمَنْ نَزَلَ الْبَادِيَةَ أَوْ جَاوَرَ الْبَادِينَ وَظَعَنَ بِظَعَنِهِمْ، وَانْتَوَى بِانْتِوَائِهِمْ: فَهُمْ أَعْرَابٌ، وَمَنْ نَزَلَ بِلَادَ الرِّيفِ، وَاسْتَوْطَنَ الْمُدُنَ وَالْقُرَى الْعَرَبِيَّةَ وَغَيْرَهَا مِمَّنْ يَنْتَمِي إِلَى الْعَرَبِ: فَهُمْ عَرَبٌ، وَإِنْ لَمْ يَكُونُوا فُصَحَاءَ، وَقَوْلُ اللهِ ﷻ: ﴿قَالَتِ ٱلْأَعْرَابُ ءَامَنَّا ۖ قُل لَّمْ تُؤْمِنُوا۟ وَلَٰكِن قُولُوٓا۟ أَسْلَمْنَا﴾ [الحجرات:١٤].

فَهُؤَلَاءِ قَوْمٌ مِنْ بَوَادِي الْعَرَبِ قَدِمُوا عَلَى النَّبِيِّ ﷺ الْمَدِينَةَ طَمَعًا فِي الصَّدَقَاتِ، لَا رَغْبَةً فِي الْإِسْلَامِ؛ فَسَمَّاهُمُ اللهُ تَعَالَى الْأَعْرَابَ؛ وَمِثْلُهُمُ الَّذِينَ ذَكَرَهُمُ اللهُ فِي سُورَةِ التَّوْبَةِ؛ فَقَالَ: ﴿ٱلْأَعْرَابُ أَشَدُّ كُفْرًا وَنِفَاقًا﴾ الآية [التوبة:٩٧].

قَالَ الْأَزْهَرِيُّ: وَالَّذِي لَا يُفَرِّقُ بَيْنَ الْعَرَبِ وَالْأَعْرَابِ وَالْعَرَبِيِّ وَالْأَعْرَابِيِّ رُبَّمَا تَحَامَلَ عَلَى الْعَرَبِ بِمَا يَتَأَوَّلُهُ فِي هَذِهِ الْآيَةِ، وَهُوَ لَا يُمَيِّزُ بَيْنَ الْعَرَبِ وَالْأَعْرَابِ. قَالَ: وَالْأَعْرَابُ سَاكِنُو الْبَادِيَةِ مِنَ الْعَرَبِ الَّذِينَ لَا يُقِيمُونَ فِي الْأَمْصَارِ، وَلَا يَدْخُلُونَهَا إِلَّا لِحَاجَةٍ.

وَالْعَرَبُ: أَهْلُ الْأَمْصَارِ، وَالْأَعْرَابُ مِنْهُمْ: سُكَّانُ الْبَادِيَةِ خَاصَّةً.

وَفِي حَدِيثِ سَلَمَةَ بْنِ الْأَكْوَعِ رضي الله عنه: أَنَّهُ دَخَلَ عَلَى الْحَجَّاجِ؛ فَقَالَ: يَا ابْنَ

الْأَكْوَعِ ارْتَدَدْتَ عَلَى عَقِبَيْكَ تَعَرَّبْتَ؟ قَالَ: لَا، وَلَكِنَّ رَسُولَ اللهِ ﷺ أَذِنَ لِي فِي الْبَدْوِ»(١). انْتَهَى.

وَقَالَ **الْكَفَوِيُّ** فِي **«الْكُلِّيَّاتِ»**(٢): «الْعَرَبُ: اسْمُ جَمْعٍ، وَاحِدُهُ: عَرَبِيٌّ، وَبَيْنَ الْجَمْعِ وَوَاحِدِهِ نِزَاعٌ بِالنَّسَبِ، وَهَذَا الْجِيلُ الْخَاصُّ: سُكَّانُ الْمُدُنِ وَالْقُرَى.

وَالْأَعْرَابُ: صِيغَةُ جَمْعٍ وَلَيْسَ جَمْعًا لِلْعَرَبِ، قَالَ سِيبَوَيْهِ: وَذَلِكَ لِئَلَّا يَلْزَمَ أَنْ يَكُونَ الْجَمْعُ أَخَصَّ مِنَ الْوَاحِدِ؛ إِذِ الْأَعْرَابُ سُكَّانُ الْبَادِيَةِ فَقَطْ، وَلِهَذَا الْفَرْقِ نُسِبَ إِلَى الْأَعْرَابِ عَلَى لَفْظِهِ، يُقَالُ: «رَجُلٌ أَعْرَابِيٌّ» إِذَا كَانَ بَدَوِيًّا، وَإِنْ لَمْ يَكُنْ مِنَ الْعَرَبِ، وَرَجُلٌ عَرَبِيٌّ: أَيْ: مَنْسُوبٌ إِلَى الْعَرَبِ وَإِنْ لَمْ يَكُنْ بَدَوِيًّا، وَرَجُلٌ أَعْجَمُ وَأَعْجَمِيٌّ أَيْضًا: إِذَا كَانَ فِي لِسَانِهِ عُجْمَةٌ وَإِنْ كَانَ مِنَ الْعَرَبِ، وَرَجُلٌ عَجَمِيٌّ: أَيْ: مَنْسُوبٌ إِلَى الْعَجَمِ، وَإِنْ كَانَ فَصِيحًا».

وَقَالَ **شَيْخُ الْإِسْلَامِ ابْنُ تَيْمِيَّةَ** رَحِمَهُ اللهُ(٣): «لَفْظُ: «الْأَعْرَابِ» هُوَ فِي الْأَصْلِ: اسْمٌ لِبَادِيَةِ الْعَرَبِ، فَإِنَّ كُلَّ أُمَّةٍ لَهَا حَاضِرَةٌ وَبَادِيَةٌ؛ فَبَادِيَةُ الْعَرَبِ: الْأَعْرَابُ».

❊

---

(١) أخرجه البخاريُّ، كتاب الفتن، باب التعرب في الفتنة (٧٠٨٧).

(٢) «الكليات» (٦٤١ و٦٤٢) ط مؤسسة الرسالة.

(٣) «اقتضاء الصراط المستقيم» (١/ ٣٧٤) ط دار المسلم، وراجع هذا الفصل في هذا الكتاب؛ فإنه ماتعٌ نافعٌ.

المَطْلَبُ الثَّانِي

تَمْهِيدٌ

لَمَّا كَانَتْ طَبَائِعُ النَّاسِ مُتَبَايِنَةً وَمُخْتَلِفَةً؛ فَقَدْ تَعَامَلَ رَسُولُ الله ﷺ مَعَ الْأَعْرَابِ بِطَرِيقَةٍ خَاصَّةٍ رُبَّمَا تَخْتَلِفُ عَنْ مُعَامَلَاتِ الْآخَرِينَ بِصُورَةٍ وَاضِحَةٍ، وَكَانَتْ مَوَاقِفُهُ ﷺ مَعَهُمْ مُتَنَوِّعَةً، وَأَسَالِيبُهُ وَطَرَائِقُهُ فِي دَعْوَتِهِ لَهُمْ مُتَعَدِّدَةً؛ مِنْ لِينٍ وَرِفْقٍ إِلَى قُوَّةٍ وَحَزْمٍ.. إِلَى غَيْرِ ذَلِكَ.

وَلِكَوْنِ الْأَعْرَابِ يُمَثِّلُونَ نِسْبَةً كَبِيرَةً فِي أَرْضِ الْجَزِيرَةِ؛ فَقَدْ كَانَتْ عِنَايَةُ النَّبِيِّ ﷺ فِي دَعْوَتِهِمْ وَتَبْلِيغِهِمْ بِشَتَّى الطُّرُقِ عِنَايَةً فَائِقَةً عَظِيمَةً، وَمَنَحَهُمُ اهْتِمَامًا بَالِغًا؛ لِأَجْلِ تَأْلِيفِهِمْ وَتَرْقِيقِ قُلُوبِهِمْ لِهَذَا الدِّينِ الْعَظِيمِ.

قَالَ ابْنُ عَاشُورٍ[1] رحمه الله [2]: «الْعَرَبُ أُمَّةٌ عُرِفَتْ بِالْأَنَفَةِ، وَإِبَاءِ الضَّيْمِ، وَسَلَامَةِ الْفِطْرَةِ، وَسُرْعَةِ الْفَهْمِ؛ فَلَمْ تَكُنْ تَلِيقُ بِهِمُ الشِّدَّةُ وَالْغِلْظَةُ لِأَوَّلِ وَهْلَةٍ، وَلَكِنَّهُمْ مُحْتَاجُونَ إِلَى اسْتِنْزَالِ طَائِرِهِمْ فِي تَبْلِيغِ الشَّرِيعَةِ لَهُمْ؛ لِيَتَجَنَّبُوا بِذَلِكَ

---

(١) هو محمد الطاهر بن محمد بن محمد الطاهر ابن عاشور الشهير بالطاهر ابن عاشور ولد بتونس في (١٢٩٦هـ) رئيس المفتين المالكيين بتونس وشيخ جامع الزيتون وفروعه بتونس، وكان شيخًا للإسلام، وهو من أعضاء المجمعين العربيين في دمشق والقاهرة، له مصنفاتٌ من أشهرها «مقاصد الشريعة الإسلامية»، و«التحرير والتنوير في تفسير القرآن»، وحفظ القرآن الكريم، وكان صاحب همةٍ عاليةٍ في التحصيل، وساعده على ذلك ذكاؤه النادر والبيئة العلمية الدينية التي نشأ فيها. توفي في (١٣ رجب ١٣٩٣هـ).

● راجع: «الأعلام» (٦/ ١٧٤-١٧٦).

(٢) «التحرير والتنوير» (تفسير سورة آل عمران: ١٥٩) لابن عاشور.

الْمُكَابَرَةَ الَّتِي هِيَ الْحَائِلُ الْوَحِيدُ بَيْنَهُمْ وَبَيْنَ الإِذْعَانِ لِلْحَقِّ، وَصَفْحُ النَّبِيِّ ﷺ وَعَفْوُهُ كَانَ سَبَبًا فِي دُخُولِ كَثِيرٍ مِنْهُمُ الإِسْلَامَ».

وَالأَعْرَابُ يَنْقَسِمُونَ إِلَى قِسْمَيْنِ:

قَالَ شَيْخُ الإِسْلَامِ ابْنُ تَيْمِيَّةَ رَحِمَهُ اللهُ (١): «الأَعْرَابُ مُنْقَسِمُونَ: إِلَى أَهْلِ جَفَاءٍ؛ قَالَ اللهُ فِيهِمْ: ﴿ٱلْأَعْرَابُ أَشَدُّ كُفْرًا وَنِفَاقًا وَأَجْدَرُ أَلَّا يَعْلَمُوا۟ حُدُودَ مَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ عَلَىٰ رَسُولِهِۦ ۗ وَٱللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ﴿٩٧﴾ وَمِنَ ٱلْأَعْرَابِ مَن يَتَّخِذُ مَا يُنفِقُ مَغْرَمًا وَيَتَرَبَّصُ بِكُمُ ٱلدَّوَآئِرَ ۚ عَلَيْهِمْ دَآئِرَةُ ٱلسَّوْءِ ۗ وَٱللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ﴾ [التوبة:٩٧،٩٨]، وَقَالَ تَعَالَى فِيهِمْ: ﴿سَيَقُولُ لَكَ ٱلْمُخَلَّفُونَ مِنَ ٱلْأَعْرَابِ شَغَلَتْنَآ أَمْوَٰلُنَا وَأَهْلُونَا فَٱسْتَغْفِرْ لَنَا ۚ يَقُولُونَ بِأَلْسِنَتِهِم مَّا لَيْسَ فِى قُلُوبِهِمْ ۚ قُلْ فَمَن يَمْلِكُ لَكُم مِّنَ ٱللَّهِ شَيْـًٔا إِنْ أَرَادَ بِكُمْ ضَرًّا أَوْ أَرَادَ بِكُمْ نَفْعًۢا ۚ بَلْ كَانَ ٱللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرًۢا ﴿١١﴾ بَلْ ظَنَنتُمْ أَن لَّن يَنقَلِبَ ٱلرَّسُولُ وَٱلْمُؤْمِنُونَ إِلَىٰٓ أَهْلِيهِمْ أَبَدًا وَزُيِّنَ ذَٰلِكَ فِى قُلُوبِكُمْ وَظَنَنتُمْ ظَنَّ ٱلسَّوْءِ وَكُنتُمْ قَوْمًۢا بُورًا﴾

[الفتح:١١، ١٢].

وَإِلَى أَهْلِ إِيمَانٍ وَبِرٍّ؛ قَالَ اللهُ فِيهِمْ: ﴿وَمِنَ ٱلْأَعْرَابِ مَن يُؤْمِنُ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ وَيَتَّخِذُ مَا يُنفِقُ قُرُبَٰتٍ عِندَ ٱللَّهِ وَصَلَوَٰتِ ٱلرَّسُولِ ۚ أَلَآ إِنَّهَا قُرْبَةٌ لَّهُمْ ۚ سَيُدْخِلُهُمُ ٱللَّهُ فِى رَحْمَتِهِۦٓ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾ [التوبة:٩٩].

وَقَدْ كَانَ أَصْحَابُ رَسُولِ اللهِ ﷺ مِمَّنْ وَفَدَ عَلَيْهِ وَمِنْ غَيْرِهِمْ مِنَ الأَعْرَابِ مَنْ هُوَ أَفْضَلُ مِنْ كَثِيرٍ مِنَ الْقَرَوِيِّينَ؛ فَهَذَا كِتَابُ اللهِ يَحْمَدُ بَعْضَ الأَعْرَابِ وَيَذُمُّ بَعْضَهُمْ، وَكَذَلِكَ فَعَلَ بِأَهْلِ الأَمْصَارِ؛ فَقَالَ سُبْحَانَهُ: ﴿وَمِمَّنْ حَوْلَكُم مِّنَ ٱلْأَعْرَابِ مُنَٰفِقُونَ ۖ وَمِنْ أَهْلِ ٱلْمَدِينَةِ ۖ مَرَدُوا۟ عَلَى ٱلنِّفَاقِ لَا تَعْلَمُهُمْ ۖ نَحْنُ نَعْلَمُهُمْ ۚ سَنُعَذِّبُهُم مَّرَّتَيْنِ ثُمَّ يُرَدُّونَ إِلَىٰ عَذَابٍ عَظِيمٍ﴾ [التوبة:١٠١].

---

(١) «الاقتضاء» (١/ ٣٦٦ و٣٦٧).

فَبَيَّنَ أَنَّ الْمُنَافِقِينَ مِنَ الْأَعْرَابِ وَذَوِي الْقُرَى، وَعَامَّةُ سُورَةِ التَّوْبَةِ فِيهَا الذَّمُّ لِلْمُنَافِقِينَ مِنْ أَهْلِ الْمَدِينَةِ وَمِنَ الْأَعْرَابِ، كَمَا فِيهَا الثَّنَاءُ عَلَى السَّابِقِينَ الْأَوَّلِينَ مِنَ الْمُهَاجِرِينَ وَالْأَنْصَارِ، وَالَّذِينَ اتَّبَعُوهُمْ بِإِحْسَانٍ، وَعَلَى الْأَعْرَابِ الَّذِينَ يَتَّخِذُونَ مَا يُنْفِقُونَ قُرُبَاتٍ عِنْدَ اللهِ وَصَلَوَاتِ الرَّسُولِ».

وَمِنَ النَّمَاذِجِ الْمُهِمَّةِ فِي دَعْوَةِ النَّبِيِّ ﷺ لِلْأَعْرَابِ؛ مَا يَلِي:

❀ ◊ ❀

دَعْوَتُه ﷺ لِلأَعْرَابِيِّ الَّذِي بَالَ فِي المَسْجِدِ

رَوَى مُسْلِمٌ فِي «صَحِيحِهِ» (١) مِنْ حَدِيثِ أَنَسِ بْنِ مَالِكٍ رضي الله عنه قَالَ: بَيْنَمَا نَحْنُ فِي الْمَسْجِدِ مَعَ رَسُولِ اللهِ ﷺ إِذْ جَاءَ أَعْرَابِيٌّ، فَقَامَ يَبُولُ فِي الْمَسْجِدِ؛ فَقَالَ أَصْحَابُ رَسُولِ اللهِ ﷺ: مَهْ مَهْ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: «**لَا تُزْرِمُوهُ، دَعُوهُ**»، فَتَرَكُوهُ حَتَّى بَالَ، ثُمَّ إِنَّ رَسُولَ اللهِ ﷺ دَعَاهُ فَقَالَ لَهُ: «**إِنَّ هَذِهِ الْمَسَاجِدَ لَا تَصْلُحُ لِشَيْءٍ مِنْ هَذَا الْبَوْلِ، وَلَا الْقَذَرِ، إِنَّمَا هِيَ لِذِكْرِ اللهِ** عز وجل**، وَالصَّلَاةِ، وَقِرَاءَةِ الْقُرْآنِ**»، أَوْ كَمَا قَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ، قَالَ: فَأَمَرَ رَجُلًا مِنَ الْقَوْمِ فَجَاءَ بِدَلْوٍ مِنْ مَاءٍ فَشَنَّهُ عَلَيْهِ».

وَهُنَا نَجِدُ مَدَى حِكْمَةِ النَّبِيِّ ﷺ، وَحُسْنِ تَصَرُّفِهِ، مَعَ هَذَا الْأَعْرَابِيِّ، وَتَعْلِيمِهِ بِرِفْقٍ وَلِينٍ.

وَأَنَا أَقُولُ: لَوْ حَدَثَ هَذَا الْفِعْلُ فِي زَمَانِنَا هَذَا مِنْ أَيِّ إِنْسَانٍ رُبَّمَا لَا يَخْرُجُ مِنَ الْمَسْجِدِ إِلَّا وَقَدْ هُشِّمَ جَسَدُهُ، وَكُسِّرَ رَأْسُهُ!! لَكِنَّ الرَّحْمَةَ الْمُهْدَاةَ ﷺ يُعَلِّمُنَا كَيْفَ نَتَعَامَلُ مَعَ مِثْلِ هَذَا الْمَوْقِفِ تَعَامُلًا رَشِيدًا سَدِيدًا يُزِيلُ كُلَّ حَرَجٍ.

وَقَدْ ثَبَتَ فِي رِوَايَةٍ أُخْرَى (٢): «**دَعُوهُ، وَهَرِيقُوا عَلَى بَوْلِهِ سَجْلًا مِنْ مَاءٍ - أَوْ ذَنُوبًا مِنْ مَاءٍ- فَإِنَّمَا بُعِثْتُمْ مُيَسِّرِينَ، وَلَمْ تُبْعَثُوا مُعَسِّرِينَ**».

وَتَتَابَعَتِ الْمَوَاقِفُ مِنْ سُؤَالِ الْأَعْرَابِ لِلنَّبِيِّ ﷺ عَنْ مَسَائِلِ الدِّينِ، وَشَرَائِعِ الْإِسْلَامِ وَأَجْوِبَةِ رَسُولِ اللهِ ﷺ عَلَيْهَا كُلٌّ بِحَسَبِ حَالِهِ وَظُرُوفِهِ؛ **فَمِنْ**

---

(١) أخرجه مسلمٌ، كتاب الطهارة، باب وجوب غسل البول وغيره من النجاسات إذا حصلت في المسجد (٢٨٥)، وهو في «صحيح البخاري»، كتاب الوضوء، باب ترك النبي ﷺ والناس الأعرابيَّ حتى فرغ من بوله في المسجد (٢١٩/ مختصرًا).

(٢) عند البخاريِّ، كتاب الوضوء، باب صب الماء على البول في المسجد (٢٢٠).

ذَلِكَ:

مَا أَخْرَجَهُ الْبُخَارِيُّ وَمُسْلِمٌ (١) مِنْ حَدِيثِ أَبِي هُرَيْرَةَ رضي الله عنه أَنَّ أَعْرَابِيًّا أَتَى النَّبِيَّ ﷺ فَقَالَ: دُلَّنِي عَلَى عَمَلٍ إِذَا عَمِلْتُهُ دَخَلْتُ الْجَنَّةَ، قَالَ: «**تَعْبُدُ اللهَ لَا تُشْرِكُ بِهِ شَيْئًا، وَتُقِيمُ الصَّلَاةَ الْمَكْتُوبَةَ، وَتُؤَدِّي الزَّكَاةَ الْمَفْرُوضَةَ، وَتَصُومُ رَمَضَانَ**»، قَالَ: وَالَّذِي نَفْسِي بِيَدِهِ لَا أَزِيدُ عَلَى هَذَا؛ فَلَمَّا وَلَّى قَالَ النَّبِيُّ ﷺ: «**مَنْ سَرَّهُ أَنْ يَنْظُرَ إِلَى رَجُلٍ مِنْ أَهْلِ الْجَنَّةِ، فَلْيَنْظُرْ إِلَى هَذَا**».

وَفِي «**الصَّحِيحَيْنِ**» (٢) مِنْ حَدِيثِ أَبِي أَيُّوبَ الْأَنْصَارِيِّ (٣) رضي الله عنه: أَنَّ أَعْرَابِيًّا عَرَضَ لِرَسُولِ اللهِ ﷺ وَهُوَ فِي سَفَرٍ، فَأَخَذَ بِخِطَامِ نَاقَتِهِ أَوْ بِزِمَامِهَا، ثُمَّ قَالَ: يَا رَسُولَ اللهِ! أَوْ يَا مُحَمَّدُ! أَخْبِرْنِي بِمَا يُقَرِّبُنِي مِنَ الْجَنَّةِ، وَمَا يُبَاعِدُنِي مِنَ النَّارِ، قَالَ: فَكَفَّ النَّبِيُّ ﷺ، ثُمَّ نَظَرَ فِي أَصْحَابِهِ، ثُمَّ قَالَ: «**لَقَدْ وُفِّقَ - أَوْ: لَقَدْ هُدِيَ - قَالَ: كَيْفَ قُلْتَ؟**» قَالَ: فَأَعَادَ؛ فَقَالَ النَّبِيُّ ﷺ: «**تَعْبُدُ اللهَ لَا تُشْرِكُ بِهِ شَيْئًا، وَتُقِيمُ الصَّلَاةَ، وَتُؤْتِي الزَّكَاةَ، وَتَصِلُ الرَّحِمَ؛ دَعِ النَّاقَةَ**».

وَهُنَا مَسْأَلَةٌ مُهِمَّةٌ سَبَقَ أَنْ عَرَّجْنَا فِي الْحَدِيثِ عَنْهَا بِأَدِلَّتِهَا الشَّرْعِيَّةِ أَلَا وَهِيَ مَسْأَلَةُ التَّدَرُّجِ فِي الدَّعْوَةِ، وَالْبَدْءِ بِالْأَهَمِّ فَالْأَهَمِّ، وَقَدْ كَانَ ذَلِكَ سِمَةً بَارِزَةً مِنْ سِمَاتِ الدَّعْوَةِ النَّبَوِيَّةِ لِلنَّاسِ كَافَّةً بِمَا يُنَاسِبُ أَحْوَالَهُمْ.

---

(١) أخرجه البخاريُّ، كتاب الزكاة، باب وجوب الزكاة (١٣٩٧)، ومسلمٌ، كتاب الإيمان، باب بيان الإيمان الذي يدخل الجنة (١٤).

(٢) أخرجه البخاريُّ، كتاب الأدب، باب فضل صلة الرحم (٥٩٨٣)، ومسلمٌ، كتاب الإيمان، باب بيان الإيمان الذي يدخل الجنة وأن من تمسك بما أمر به دخل الجنة (١٣)، واللفظ له.

(٣) هو خالد بن زيد بن كليب بن ثعلبة أبو أيوب الأنصاري البخاريُّ، غلبت عليه كنيته، شهد العقبة وبدرًا وسائر المشاهد، آخى رسول الله ﷺ بينه وبين مصعب بن عمير، ونزل عليه رسول الله ﷺ حينما هاجر إلى المدينة، توفي أبو أيوب مجاهدًا سنة خمسين، وقيل: إحدى وخمسين، وقيل: سنة اثنتين وخمسين، وهو الأكثر.

● راجع: «الاستيعاب» (٦٢٠)، و«أسد الغابة» (١٣٦١)، و«الإصابة» (٢١٦٩).

قَالَ الْحَافِظُ ابْنُ حَجَرٍ رَحِمَهُ اللهُ (١): «وَكَانَ النَّبِيُّ ﷺ أَوَّلَ مَا يَشْتَرِطُ بَعْدَ التَّوْحِيدِ إِقَامَةَ الصَّلَاةِ؛ لِأَنَّهَا رَأْسُ الْعِبَادَاتِ الْبَدَنِيَّةِ، ثُمَّ أَدَاءُ الزَّكَاةِ؛ لِأَنَّهَا رَأْسُ الْعِبَادَاتِ الْمَالِيَّةِ، ثُمَّ يُعَلِّمُ كُلَّ قَوْمٍ مَا حَاجَتُهُمْ إِلَيْهِ أَمَسُّ».

وَيَتَجَلَّى هَذَا الْمَنْهَجُ أَيْضًا؛ فِيمَا أَخْرَجَهُ الْبُخَارِيُّ وَمُسْلِمٌ (٢) مِنْ حَدِيثِ طَلْحَةَ بْنِ عُبَيْدِ اللهِ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ قَالَ: جَاءَ رَجُلٌ إِلَى رَسُولِ اللهِ ﷺ مِنْ أَهْلِ نَجْدٍ، ثَائِرَ الرَّأْسِ، نَسْمَعُ دَوِيَّ صَوْتِهِ وَلَا نَفْهَمُ مَا يَقُولُ، حَتَّى دَنَا؛ فَإِذَا هُوَ يَسْأَلُ عَنِ الْإِسْلَامِ؛ فَقَالَ لَهُ رَسُولُ اللهِ ﷺ: «**خَمْسُ صَلَوَاتٍ فِي الْيَوْمِ وَاللَّيْلَةِ**»، قَالَ: هَلْ عَلَيَّ غَيْرُهُنَّ؟ قَالَ: «**لَا؛ إِلَّا أَنْ تَطَّوَّعَ**»، قَالَ: «**وَصِيَامُ شَهْرِ رَمَضَانَ**»، قَالَ: هَلْ عَلَيَّ غَيْرُهُ؟ قَالَ: «**لَا؛ إِلَّا أَنْ تَطَّوَّعَ**»، وَذَكَرَ لَهُ رَسُولُ اللهِ ﷺ الزَّكَاةَ، قَالَ: هَلْ عَلَيَّ غَيْرُهَا؟ قَالَ: «**لَا؛ إِلَّا أَنْ تَطَّوَّعَ**»، فَأَدْبَرَ الرَّجُلُ وَهُوَ يَقُولُ: وَاللهِ لَا أَزِيدُ عَلَى هَذَا، وَلَا أَنْقُصُ مِنْهُ، قَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: «**أَفْلَحَ إِنْ صَدَقَ**».

وَفِي «**صَحِيحِ مُسْلِمٍ**» (٣) مِنْ حَدِيثِ أَنَسٍ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ أَنَّ رَجُلًا سَأَلَ النَّبِيَّ ﷺ غَنَمًا بَيْنَ جَبَلَيْنِ، فَأَعْطَاهُ إِيَّاهُ، فَأَتَى قَوْمَهُ؛ فَقَالَ: أَيْ قَوْمِ! أَسْلِمُوا، فَوَاللهِ إِنَّ مُحَمَّدًا لَيُعْطِي عَطَاءً مَا يَخَافُ الْفَقْرَ».

فَقَالَ أَنَسٌ: إِنْ كَانَ الرَّجُلُ لَيُسْلِمُ مَا يُرِيدُ إِلَّا الدُّنْيَا؛ فَمَا يُسْلِمُ حَتَّى يَكُونَ الْإِسْلَامُ أَحَبَّ إِلَيْهِ مِنَ الدُّنْيَا وَمَا عَلَيْهَا.

وَتَدَبَّرْ هَذَا الْخُلُقَ الرَّفِيعَ مِنَ النَّبِيِّ ﷺ مَعَ هَذَا الْأَعْرَابِيِّ الَّذِي قَسَا، وَجَبَذَ رِدَاءَ الْحَبِيبِ ﷺ حَتَّى أَثَّرَ ذَلِكَ فِي صَفْحَةِ عَاتِقِهِ - بِأَبِي هُوَ وَأُمِّي ﷺ.

---

(١) «فتح الباري» (٢/ ٧).

(٢) أخرجه البخاريُّ، كتاب الإيمان، باب الزكاة من الإسلام (٤٦)، ومسلمٌ، كتاب الإيمان، باب بيان الصلوات التي هي أحد أركان الإسلام (١١).

(٣) أخرجه مسلمٌ، كتاب الفضائل، باب ما سئل رَسُول الله ﷺ شيئًا قط فقال: لا، وكثرة عطائه (٢٣١٢/ ٥٨).

فَفِي «صَحِيحِ» **الْبُخَارِيِّ وَمُسْلِم** (١) مِنْ حَدِيثِ أَنَسِ بْنِ مَالِكٍ ﷺ قَالَ: كُنْتُ أَمْشِي مَعَ رَسُولِ الله ﷺ، وَعَلَيْهِ بُرْدٌ نَجْرَانِيٌّ غَلِيظُ الْحَاشِيَةِ، فَأَدْرَكَهُ أَعْرَابِيٌّ فَجَبَذَهُ بِرِدَائِهِ جَبْذَةً شَدِيدَةً، حَتَّى نَظَرْتُ إِلَى صَفْحَةِ عَاتِقِ رَسُولِ الله ﷺ قَدْ أَثَّرَتْ بِهَا حَاشِيَةُ الْبُرْدِ مِنْ شِدَّةِ جَبْذَتِهِ، ثُمَّ قَالَ: يَا مُحَمَّدُ! مُرْ لِي مِنْ مَالِ الله الَّذِي عِنْدَكَ، فَالْتَفَتَ إِلَيْهِ رَسُولُ الله ﷺ، ثُمَّ ضَحِكَ، ثُمَّ أَمَرَ لَهُ بِعَطَاءٍ.

وَقَوْلُهُ: «فَأَدْرَكَهُ أَعْرَابِيٌّ» فِي رِوَايَةٍ: «مِنْ خَلْفِهِ»، «فَجَبَذَ بِرِدَائِهِ جَبْذَةً شَدِيدَةً»، وَفِي رِوَايَةٍ: «فَجَذَبَ»، وَهُمَا بِمَعْنًى وَاحِدٍ، وَفِي رِوَايَةٍ لِمُسْلِم: «ثُمَّ جَبَذَهُ إِلَيْهِ جَبْذَةً رَجَعَ نَبِيُّ الله ﷺ فِي نَحْرِ الْأَعْرَابِيِّ»، وَفِي رِوَايَةٍ أُخْرَى: «فَجَاذَبَهُ حَتَّى انْشَقَّ الْبُرْدُ، وَحَتَّى بَقِيَتْ حَاشِيَتُهُ فِي عُنُقِ رَسُولِ الله ﷺ».

قَالَ الْحَافِظُ فِي «الْفَتْحِ» (٢): «وَفِي هَذَا الْحَدِيثِ بَيَانُ حِلْمِهِ ﷺ وَصَبْرِهِ عَلَى الْأَذَى فِي النَّفْسِ وَالْمَالِ وَالتَّجَاوُزِ عَلَى جَفَاءِ مَنْ يُرِيدُ تَأَلُّفَهُ عَلَى الْإِسْلَامِ، وَلِيَتَأَسَّى بِهِ الْوُلَاةُ بَعْدَهُ فِي خُلُقِهِ الْجَمِيلِ مِنَ الصَّفْحِ وَالْإِغْضَاءِ وَالدَّفْعِ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ».

وَهَكَذَا يَنْبَغِي أَنْ يَكُونَ الْإِنْسَانُ ذَا سَعَةٍ، وَإِذَا اشْتَدَّ النَّاسُ أَنْ يَسْتَرْخِيَ هُوَ، وَلَقَدْ سُئِلَ مُعَاوِيَةُ ﷺ: بِمَ سُسْتَ النَّاسَ؟ - وَذَلِكَ لِأَنَّ مُعَاوِيَةَ مَعْرُوفٌ بِالسِّيَاسَةِ وَالْحِكْمَةِ- فَقَالَ(٣): «أَجْعَلُ بَيْنِي وَبَيْنَ النَّاسِ شَعْرَةً؛ فَإِنْ جَذَبُوهَا تَبِعْتُهُمْ، وَإِنْ

---

(١) أخرجه البخاريُّ، كتاب الأدب، باب التبسم والضحك (٦٠٨٨)، ومسلمٌ، كتاب الزكاة، باب إعطاء من سأل بفحش وغلظة (١٠٥٧).

(٢) «الفتح» (١٠/ ٥٢٢).

(٣) أخرجه ابن حبان في «روضة العقلاء» (ص:٧٢) ط: دار الكتب العلمية، ولفظه: «لَوْ أَنَّ بَيْنِي وَبَيْنَ النَّاسِ شَعْرَةً مَا انْقَطَعَتْ؛ قِيلَ: وَكَيْفَ؟ قَالَ: لأَنَّهُمْ إِنْ مَدُّوهَا خَلَّيْتُهَا، وَإِنْ خَلَّوْ مَدَدْتُهَا».

جَذَبْتُهَا تَبِعُونِي، لَكِنْ لَا تَنْقَطِعُ»(١).

فَانْظُرْ إِلَى خُلُقِ صَاحِبِ الْخُلُقِ ﷺ؛ لَمْ يُوَبِّخِ الْأَعْرَابِيَّ، وَلَمْ يَضْرِبْهُ، وَلَمْ يَكْفَهِرَّ فِي وَجْهِهِ، وَلَمْ يَعْبَسْ، وَلَمْ يُقَطِّبْ جَبِينَهُ؛ بَلْ ضَحِكَ وَابْتَسَمَ، وَأَمَرَ لَهُ بِعَطَاءٍ.

وَصَفْحُهُ ﷺ عَنِ الْأَعْرَابِيِّ؛ لِأَنَّ الْخَطَأَ عَلَى شَخْصِهِ ﷺ فَيُسَامِحُ وَخَاصَّةً عَلَى الْجُنَاةِ مِنَ الْأَعْرَابِ، لَكِنْ إِنْ كَانَ الْخَطَأُ عَلَى الْحَقِّ وَالدِّينِ؛ فَإِنَّهُ كَانَ يَغْضَبُ وَيَنْتَقِمُ لِلَّهِ تَعَالَى.

فَالْحَلِيمُ الْعَاقِلُ لَا يُقَابِلُ النَّارَ بِالنَّارِ، وَلَا الْإِسَاءَةَ بِالْإِسَاءَةِ، وَلَا الشَّرَّ بِالشَّرِّ، وَلَا يَرُدُّ عَلَى السَّفِيهِ سَفَاهَتَهُ، بَلْ يَتَمَاسَكُ وَلَا يَهْتَزُّ وَلَا يَضْطَرِبُ، وَقَدْ جَعَلَ الصَّمْتَ رَائِدَهُ، وَالْحِلْمَ قَائِدَهُ.

فَلَا تَكُنْ سَرِيعَ الْغَضَبِ يَسْتَثِيرُكَ كُلُّ أَحَدٍ؛ بَلْ كُنْ مُطْمَئِنًّا مُتَأَنِّيًا، وَسِّعْ صَدْرَكَ، وَافْتَحْ قَلْبَكَ، وَاخْفِضْ جَنَاحَكَ، وَتَخَلَّقْ بِخُلُقِ الْحِلْمِ وَالْأَنَاةِ.

وَإِذَا بَغَى بَاغٍ عَلَيْكَ بِجَهْلِهِ ... فَاقْتُلْهُ بِالْمَعْرُوفِ لَا بِالْمُنْكَرِ(٢)

وَقِصَّتُهُ ﷺ مَعَ مُعَاوِيَةَ بْنِ الْحَكَمِ السُّلَمِيِّ رضي الله عنه، وَمَعَ الْأَعْرَابِيِّ الَّذِي أَرَادَ قَتْلَهُ؛ فَعَفَا عَنْهُ رَسُولُ اللهِ ﷺ وَالْأَعْرَابِيِّ الَّذِي بَالَ فِي الْمَسْجِدِ - كَمَا سَبَقَ- كُلُّ ذَلِكَ مَشْهُورٌ مَعْلُومٌ، وَقَدْ تَقَدَّمَ بَيَانُهُ فِي أَبْوَابٍ أُخْرَى مِنْ هَذِهِ الرِّسَالَةِ.

وَفِي كُلِّ هَذِهِ الْمَوَاقِفِ النَّبَوِيَّةِ الرَّشِيدَةِ تَعْلِيمٌ لِلدُّعَاةِ؛ فَمُقَابَلَةُ الْإِسَاءَةِ بِالْإِحْسَانِ، وَالرِّفْقُ بِالْجَاهِلِ، مِنْ أَعْظَمِ الْأَبْوَابِ لِفَتْحِ الْقُلُوبِ وَتَرْقِيقِهَا وَتَأْلِيفِهَا، وَتَأْثِيرِهَا فِي نُفُوسِ الْمَدْعُوِّينَ.

---

(١) «شرح رياض الصالحين» للعلامة ابن عثيمين (٢/ ٤٣٣).
(٢) «ديوان ابن الرومي» (١٩٥٩).

فَلْيَكُنِ الدَّاعِي إِلَى الله رَحْبَ الصَّدْرِ، بَعِيدَ النَّظَرِ، صَاحِبَ أَخْلَاقٍ رَفِيعَةٍ، مِنْ رِفْقٍ وَحِلْمٍ وَأَنَاةٍ وَخَفْضِ جَنَاحٍ، وَهَذَا فَضْلُ الله يُؤْتِيهِ مَنْ يَشَاءُ، وَالله ذُو الْفَضْلِ الْعَظِيمِ.

فَهَكَذَا كَانَتْ مَوَاقِفُ رَسُولِ الله ﷺ مَعَ الْأَعْرَابِ حَتَّى أَثَّرَتْ فِيهِمْ تِلْكَ الْمَوَاقِفُ، وَآتَتْ ثِمَارَهَا الْيَانِعَةَ، فَأَسْلَمَ الْعَدَدُ الْكَبِيرُ مِنْهُمْ، وَدَخَلَ هَذَا الدِّينُ شِغَافَ قُلُوبِهِمْ؛ بَلْ تَفَانَوْا فِي حُبِّ الْإِسْلَامِ، وَبَذَلُوا الْغَالِيَ وَالنَّفِيسَ لِأَجْلِهِ؛ بَلْ بَذَلُوا أَرْوَاحَهُمْ فِي سَبِيلِ الله.

وَأَخْتِمُ هَذَا الْمَبْحَثَ بِمَا أَخْرَجَهُ النَّسَائِيُّ فِي «السُّنَنِ»، وَالْحَاكِمُ فِي «الْمُسْتَدْرَكِ» وَغَيْرُهُمَا[1] مِنْ حَدِيثِ شَدَّادِ بْنِ الْهَادِ[2] رضي الله عنه أَنَّ رَجُلًا مِنَ الْأَعْرَابِ جَاءَ إِلَى النَّبِيِّ ﷺ فَآمَنَ بِهِ وَاتَّبَعَهُ، ثُمَّ قَالَ: أُهَاجِرُ مَعَكَ، فَأَوْصَى بِهِ النَّبِيُّ ﷺ بَعْضَ أَصْحَابِهِ؛ فَلَمَّا كَانَتْ غَزْوَةٌ غَنِمَ النَّبِيُّ ﷺ سَبْيًا فَقَسَمَ وَقَسَمَ لَهُ، فَأَعْطَى أَصْحَابَهُ مَا قَسَمَ لَهُ، وَكَانَ يَرْعَى ظَهْرَهُمْ فَلَمَّا جَاءَ دَفَعُوهُ إِلَيْهِ؛ فَقَالَ: مَا هَذَا؟ قَالُوا: قِسْمٌ قَسَمَهُ لَكَ النَّبِيُّ ﷺ، فَأَخَذَهُ فَجَاءَ بِهِ إِلَى النَّبِيِّ ﷺ؛ فَقَالَ: مَا هَذَا؟ قَالَ: **«قَسَمْتُهُ لَكَ»**، قَالَ: مَا عَلَى هَذَا اتَّبَعْتُكَ، وَلَكِنِّي اتَّبَعْتُكَ عَلَى أَنْ أُرْمَى إِلَى هَاهُنَا، وَأَشَارَ إِلَى حَلْقِهِ، بِسَهْمٍ فَأَمُوتَ فَأَدْخُلَ الْجَنَّةَ؛ فَقَالَ: «إِنْ

---

(١) أخرجه النسائيُّ، كتاب الجنائز، باب الصلاة على الشهداء (٤/ ٦٠ و٦١)، والحاكم في «المستدرك» (٣/ ٥٩٥و٥٩٦)، والبيهقي في «السنن» (٤/ ١٥ و١٦)، وصحَّحه العلامة الألباني في «أحكام الجنائز» (٦١) ط المكتب الإسلامي، عمان، الأردن.

(٢) هو شداد بن الهاد الليثي ثم العتواري، واسم الهاد أسامة بن عمرو بن عبد الله بن جابر، وشداد لقب وهو مدني، شهد الخندق، وسكن المدينة، وتحول إلى الكوفة وكان سلفًا لرَسُول الله ﷺ ولأبي بكر، ولجعفر، ولعلي بن أبي طالب؛ لأنه كان زوج سلمى بنت عميس، وقيل: لأبي الهاد؛ لأنه كان يوقد النار ليلًا للسارين.

● راجع: «الاستيعاب» (١١٥٩)، و«أسد الغابة» (٢٤٠١)، و«الإصابة» (٣٨٧٦).

تَصْدُقِ اللهَ يَصْدُقْكَ» فَلَبِثُوا قَلِيلًا، ثُمَّ نَهَضُوا فِي قِتَالِ الْعَدُوِّ، فَأُتِيَ بِهِ النَّبِيُّ ﷺ يُحْمَلُ قَدْ أَصَابَهُ سَهْمٌ حَيْثُ أَشَارَ؛ فَقَالَ النَّبِيُّ ﷺ: «أَهُوَ هُوَ؟» قَالُوا: نَعَمْ، قَالَ: «صَدَقَ اللهَ فَصَدَقَهُ»، ثُمَّ كَفَّنَهُ النَّبِيُّ ﷺ فِي جُبَّةِ النَّبِيِّ ﷺ، ثُمَّ قَدَّمَهُ فَصَلَّى عَلَيْهِ، فَكَانَ فِيمَا ظَهَرَ مِنْ صَلَاتِهِ: «اللهمَّ هَذَا عَبْدُكَ خَرَجَ مُهَاجِرًا فِي سَبِيلِكَ، فَقُتِلَ شَهِيدًا أَنَا شَهِيدٌ عَلَى ذَلِكَ».

وَالنَّمَاذِجُ فِي دَعْوَةِ النَّبِيِّ ﷺ لِلْأَعْرَابِ لَا يَأْتِي عَلَيْهَا الْحَصْرُ [1].

---

(١) راجع كتابًا جامعًا نافعًا في ذلك بعنوان: «دعوة النبي ﷺ للأعراب» تأليف محمود بن جابر الحارثي، ط دار المسلم.

المَبْحَثُ الخَامِسُ
دَعْوَتُهُ ﷺ لِلْمُلُوكِ وَالحُكَّامِ وَالأُمَرَاءِ

لَقَدْ رَاسَلَ النَّبِيُّ ﷺ الْمُلُوكَ وَالْأُمَرَاءَ يَدْعُوهُمْ إِلَى الْإِسْلَامِ؛ تَنْفِيذًا مِنْهُ لِأَمْرِ رَبِّهِ؛ فَلَقَدْ قَالَ تَعَالَى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلرَّسُولُ بَلِّغْ مَآ أُنزِلَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ﴾ [المائدة:٦٧].

فَأَرْسَلَ إِلَيْهِمُ الرَّسَائِلَ مَعَ رُسُلِهِ وَمَبْعُوثِيهِ، وَكَانَ مِنْ أَبْرَزِ مَنْ رَاسَلَهُمُ النَّبِيُّ ﷺ: كِسْرَى وَقَيْصَرُ وَالنَّجَاشِيُّ وَالْمُقَوْقِسُ حَاكِمُ مِصْرَ وَغَيْرُهُمْ.

فَفِي «صَحِيحِ» مُسْلِمٍ (١) مِنْ حَدِيثِ أَنَسِ بْنِ مَالِكٍ رضي الله عنه: أَنَّ نَبِيَّ اللهِ ﷺ كَتَبَ إِلَى كِسْرَى، وَإِلَى قَيْصَرَ، وَإِلَى النَّجَاشِيِّ، وَإِلَى كُلِّ جَبَّارٍ، يَدْعُوهُمْ إِلَى اللهِ تَعَالَى، وَلَيْسَ بِالنَّجَاشِيِّ الَّذِي صَلَّى عَلَيْهِ النَّبِيُّ ﷺ.

١ - دَعْوَتُهُ ﷺ لِكِسْرَى وَقَيْصَرَ «هِرَقْلَ» (٢):

فَفِي «صَحِيحِ الْبُخَارِيِّ» (٣) مِنْ حَدِيثِ ابْنِ عَبَّاسٍ رضي الله عنهما أَنَّ رَسُولَ اللهِ ﷺ بَعَثَ بِكِتَابِهِ إِلَى كِسْرَى مَعَ عَبْدِ اللهِ بْنِ حُذَافَةَ السَّهْمِيِّ (٤)، فَأَمَرَهُ أَنْ يَدْفَعَهُ إِلَى

---

(١) أخرجه مسلمٌ، كتاب الجهاد والسير، باب كتب النبي ﷺ إلى ملوك الكفار يدعوهم إلى الله عز وجل (١٧٧٤).

(٢) قال الحافظ في «الفتح» (٩/ ٧٦٢):
«أما كسرى؛ فهو ابن برويز بن هرمز بن أنوشروان، وهو كسرى الكبير المشهور.. وكسرى بفتح الكاف وبكسرها لقب كلِّ من تملك الفرس، وأما قيصر؛ فهو هرقل».
وقال (١/ ٩٠): «هرقل هو ملك الروم، وهرقل: اسمه، وهو بكسر الهاء، وفتح الراء، وسكون القاف، ولقبه قيصر».

(٣) أخرجه البخاريُّ، كتاب المغازي، باب كتاب النبي ﷺ إلى كسرى وقيصر (٤٤٢٤).

(٤) هو عبد الله بن حذافة بن قيس بن عدي بن سعد بن سهم القرشيُّ السَّهميُّ أبو حذافة أو

=

عَظِيمِ الْبَحْرَيْنِ، فَدَفَعَهُ عَظِيمُ الْبَحْرَيْنِ إِلَى كِسْرَى، فَلَمَّا قَرَأَهُ مَزَّقَهُ، فَحَسِبْتُ أَنَّ ابْنَ الْمُسَيَّبِ قَالَ: فَدَعَا عَلَيْهِمْ رَسُولُ اللهِ ﷺ أَنْ يُمَزَّقُوا كُلَّ مُمَزَّقٍ. أَيْ: يَتَفَرَّقُوا وَيَتَقَطَّعُوا.

وَلَمْ يَذْكُرِ الْبُخَارِيُّ رحمه الله نَصَّ الرِّسَالَةِ، وَقَدْ جَاءَ نَصُّهَا **عِنْدَ الطَّبَرِيِّ فِي «التَّارِيخِ»** (١) بِسَنَدٍ مُعْضَلٍ عَنْ يَزِيدَ بْنِ أَبِي حَبِيبٍ (٢) قَالَ: وَبَعَثَ رَسُولُ اللهِ ﷺ عَبْدَ اللهِ بْنَ حُذَافَةَ بْنِ قَيْسِ بْنِ عَدِيِّ بْنِ سَعْدِ بْنِ سَهْمٍ إِلَى كِسْرَى بْنِ هُرْمُزَ مَلِكِ فَارِسٍ، وَكَتَبَ مَعَهُ: «**بِسْمِ اللهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ، مِنْ مُحَمَّدٍ رَسُولِ اللهِ إِلَى كِسْرَى عَظِيمِ فَارِسٍ، سَلَامٌ عَلَى مَنِ اتَّبَعَ الْهُدَى، وَآمَنَ بِاللهِ وَرَسُولِهِ، وَشَهِدَ أَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا اللهُ وَحْدَهُ لَا شَرِيكَ لَهُ، وَأَنَّ مُحَمَّدًا عَبْدُهُ وَرَسُولُهُ، أَدْعُوكَ بِدُعَاءِ اللهِ؛ فَإِنِّي أَنَا رَسُولُ اللهِ إِلَى النَّاسِ كَافَّةً، لِأُنْذِرَ مَنْ كَانَ حَيًّا، وَيَحِقَّ الْقَوْلُ عَلَى الْكَافِرِينَ؛ فَأَسْلِمْ تَسْلَمْ، فَإِنْ أَبَيْتَ؛ فَإِنَّ إِثْمَ الْمَجُوسِ عَلَيْكَ**».

= أبو حذيفة، يقال: شهد بدرًا، أسلم قديمًا، وصحب رسول الله ﷺ وهاجر إلى أرض الحبشة الهجرة الثانية، وشهد له رسول الله ﷺ أنه ابن حذافة، أرسله رسول الله ﷺ بكتابه إلى كسرى يدعوه إلى الإسلام، يقال: مات في خلافة عثمان رضي الله عنه.

● راجع: «الاستيعاب» (١٥٣٨)، و«أسد الغابة» (٣٨٩١)، و«الإصابة» (٤٦٤١).

(١) أخرجه الطبريُّ في «تاريخه» (٢/ ١٣٢ و١٣٣) عن يزيد بن أبي حبيب مرسلًا، وفي سنده شيخ الطبري: محمد بن حميد ضعيفٌ جدًّا، وقال في «نصب الراية» (٤/ ٤٩٩): «وذكر الواقدي أيضًا من حديث الشفاء بنت عبد الله... وذكرته»، وحسَّنَه الألبانيُّ رحمه الله في تعليقه على «فقه السيرة» (٣٥٦)؛ فلعله بشواهده.

(٢) هو يزيد بن أبي حبيب، أبو رجاء الأزدي مولاهم المصري، وقيل: كان أبوه سعيد مولى امرأة، مولاة لبني حسل. ولد بعد سنة خمسين في دولة معاوية، وهو من صغار التابعين. وكان من جلَّة العلماء العاملين، ارتفع بالتقوى مع كونه مولى أسود، وهو مجمعٌ على الاحتجاج به؛ قال الليث بن سعد: يزيد بن أبي حبيب سيدنا، وعالمنا. قال ابن سعد: مات سنة ثمان وعشرين ومائة، وقال غيره: بلغ زيادة على خمس وسبعين سنة.

● راجع: «السير» (٩٧٧)، و«تهذيب التهذيب» (١١/ ٣١٨-٣١٩).

أَمَّا رِسَالَتُهُ إِلَى قَيْصَرَ - هِرَقْل مَلِكِ الرُّومِ - فَقَدْ وَرَدَتْ بِسِيَاقٍ طَوِيلٍ مَاتِعٍ فِي «الصَّحِيحَيْنِ»(١) مِنْ حَدِيثِ ابْنِ عَبَّاسٍ رضي الله عنهما: أَنَّ أَبَا سُفْيَانَ بْنَ حَرْبٍ أَخْبَرَهُ، أَنَّ هِرَقْلَ أَرْسَلَ إِلَيْهِ فِي رَكْبٍ مِنْ قُرَيْشٍ، وَكَانُوا تُجَّارًا بِالشَّأْمِ فِي الْمُدَّةِ الَّتِي كَانَ رَسُولُ اللهِ ﷺ مَادَّ فِيهَا أَبَا سُفْيَانَ وَكُفَّارَ قُرَيْشٍ، فَأَتَوْهُ وَهُمْ بِإِيلِيَاءَ، فَدَعَاهُمْ فِي مَجْلِسِهِ، وَحَوْلَهُ عُظَمَاءُ الرُّومِ، ثُمَّ دَعَاهُمْ وَدَعَا بِتَرْجُمَانِهِ؛ فَقَالَ: أَيُّكُمْ أَقْرَبُ نَسَبًا بِهَذَا الرَّجُلِ الَّذِي يَزْعُمُ أَنَّهُ نَبِيٌّ؟ فَقَالَ أَبُو سُفْيَانَ: فَقُلْتُ: أَنَا أَقْرَبُهُمْ نَسَبًا، فَقَالَ أَدْنُوهُ مِنِّي، وَقَرِّبُوا أَصْحَابَهُ فَاجْعَلُوهُمْ عِنْدَ ظَهْرِهِ، ثُمَّ قَالَ لِتَرْجُمَانِهِ: قُلْ لَهُمْ إِنِّي سَائِلٌ هَذَا عَنْ هَذَا الرَّجُلِ، فَإِنْ كَذَبَنِي فَكَذِّبُوهُ؛ فَوَاللهِ لَوْلَا الْحَيَاءُ مِنْ أَنْ يَأْثِرُوا عَلَيَّ كَذِبًا لَكَذَبْتُ عَنْهُ، ثُمَّ كَانَ أَوَّلَ مَا سَأَلَنِي عَنْهُ أَنْ قَالَ: كَيْفَ نَسَبُهُ فِيكُمْ؟ قُلْتُ: هُوَ فِينَا ذُو نَسَبٍ، قَالَ: فَهَلْ قَالَ هَذَا الْقَوْلَ مِنْكُمْ أَحَدٌ قَطُّ قَبْلَهُ؟ قُلْتُ: لَا، قَالَ: فَهَلْ كَانَ مِنْ آبَائِهِ مِنْ مَلِكٍ؟ قُلْتُ: لَا، قَالَ: فَأَشْرَافُ النَّاسِ يَتَّبِعُونَهُ أَمْ ضُعَفَاؤُهُمْ؟ فَقُلْتُ: بَلْ ضُعَفَاؤُهُمْ، قَالَ: أَيَزِيدُونَ أَمْ يَنْقُصُونَ؟ قُلْتُ: بَلْ يَزِيدُونَ، قَالَ: فَهَلْ يَرْتَدُّ أَحَدٌ مِنْهُمْ سَخْطَةً لِدِينِهِ بَعْدَ أَنْ يَدْخُلَ فِيهِ؟ قُلْتُ: لَا، قَالَ: فَهَلْ كُنْتُمْ تَتَّهِمُونَهُ بِالْكَذِبِ قَبْلَ أَنْ يَقُولَ مَا قَالَ؟ قُلْتُ: لَا، قَالَ: فَهَلْ يَغْدِرُ؟ قُلْتُ: لَا، وَنَحْنُ مِنْهُ فِي مُدَّةٍ لَا نَدْرِي مَا هُوَ فَاعِلٌ فِيهَا، قَالَ: وَلَمْ تُمْكِنِّي كَلِمَةٌ أُدْخِلُ فِيهَا شَيْئًا غَيْرُ هَذِهِ الْكَلِمَةِ، قَالَ: فَهَلْ قَاتَلْتُمُوهُ؟ قُلْتُ: نَعَمْ، قَالَ: فَكَيْفَ كَانَ قِتَالُكُمْ إِيَّاهُ؟ قُلْتُ: الْحَرْبُ بَيْنَنَا وَبَيْنَهُ سِجَالٌ، يَنَالُ مِنَّا وَنَنَالُ مِنْهُ، قَالَ: مَاذَا يَأْمُرُكُمْ؟ قُلْتُ: يَقُولُ: اعْبُدُوا اللهَ وَحْدَهُ وَلَا تُشْرِكُوا بِهِ شَيْئًا، وَاتْرُكُوا مَا يَقُولُ آبَاؤُكُمْ، وَيَأْمُرُنَا بِالصَّلَاةِ، وَالزَّكَاةِ، وَالصِّدْقِ، وَالْعَفَافِ، وَالصِّلَةِ؛ فَقَالَ لِلتَّرْجُمَانِ: قُلْ لَهُ سَأَلْتُكَ عَنْ نَسَبِهِ فَذَكَرْتَ أَنَّهُ فِيكُمْ ذُو نَسَبٍ، فَكَذَلِكَ الرُّسُلُ تُبْعَثُ فِي نَسَبِ قَوْمِهَا، وَسَأَلْتُكَ هَلْ قَالَ أَحَدٌ مِنْكُمْ هَذَا الْقَوْلَ؟ فَذَكَرْتَ أَنْ لَا، فَقُلْتُ: لَوْ كَانَ أَحَدٌ قَالَ هَذَا الْقَوْلَ قَبْلَهُ لَقُلْتُ رَجُلٌ يَأْتَسِي بِقَوْلٍ قِيلَ قَبْلَهُ،

(١) أخرجه البخاريُّ، كتاب بدء الوحي، باب (٦) حديث (٧)، ومسلمٌ، كتاب الجهاد، باب كتاب رَسُول الله ﷺ إلى هرقل يدعوه إلى الإسلام (١٧٧٣).

وَسَأَلْتُكَ هَلْ كَانَ مِنْ آبَائِهِ مِنْ مَلِكٍ؟ فَذَكَرْتَ أَنْ لَا، قُلْتُ: فَلَوْ كَانَ مِنْ آبَائِهِ مِنْ مَلِكٍ قُلْتُ رَجُلٌ يَطْلُبُ مُلْكَ أَبِيهِ، وَسَأَلْتُكَ هَلْ كُنْتُمْ تَتَّهِمُونَهُ بِالْكَذِبِ قَبْلَ أَنْ يَقُولَ مَا قَالَ؟ فَذَكَرْتَ أَنْ لَا، فَقَدْ أَعْرِفُ أَنَّهُ لَمْ يَكُنْ لِيَذَرَ الْكَذِبَ عَلَى النَّاسِ وَيَكْذِبَ عَلَى اللهِ، وَسَأَلْتُكَ أَشْرَافُ النَّاسِ اتَّبَعُوهُ أَمْ ضُعَفَاؤُهُمْ؟ فَذَكَرْتَ أَنَّ ضُعَفَاءَهُمْ اتَّبَعُوهُ، وَهُمْ أَتْبَاعُ الرُّسُلِ، وَسَأَلْتُكَ أَيَزِيدُونَ أَمْ يَنْقُصُونَ؟ فَذَكَرْتَ أَنَّهُمْ يَزِيدُونَ، وَكَذَلِكَ أَمْرُ الإِيمَانِ حَتَّى يَتِمَّ، وَسَأَلْتُكَ أَيَرْتَدُّ أَحَدٌ سَخْطَةً لِدِينِهِ بَعْدَ أَنْ يَدْخُلَ فِيهِ؟ فَذَكَرْتَ أَنْ لَا، وَكَذَلِكَ الإِيمَانُ، حِينَ تُخَالِطُ بَشَاشَتُهُ الْقُلُوبَ، وَسَأَلْتُكَ هَلْ يَغْدِرُ؟ فَذَكَرْتَ أَنْ لَا، وَكَذَلِكَ الرُّسُلُ لَا تَغْدِرُ، وَسَأَلْتُكَ بِمَا يَأْمُرُكُمْ؟ فَذَكَرْتَ أَنَّهُ يَأْمُرُكُمْ أَنْ تَعْبُدُوا اللهَ وَلَا تُشْرِكُوا بِهِ شَيْئًا، وَيَنْهَاكُمْ عَنْ عِبَادَةِ الأَوْثَانِ، وَيَأْمُرُكُمْ بِالصَّلَاةِ، وَالصِّدْقِ، وَالْعَفَافِ؛ فَإِنْ كَانَ مَا تَقُولُ حَقًّا فَسَيَمْلِكُ مَوْضِعَ قَدَمَيَّ هَاتَيْنِ، وَقَدْ كُنْتُ أَعْلَمُ أَنَّهُ خَارِجٌ لَمْ أَكُنْ أَظُنُّ أَنَّهُ مِنْكُمْ، فَلَوْ أَنِّي أَعْلَمُ أَنِّي أَخْلُصُ إِلَيْهِ لَتَجَشَّمْتُ لِقَاءَهُ، وَلَوْ كُنْتُ عِنْدَهُ لَغَسَلْتُ عَنْ قَدَمِهِ، ثُمَّ دَعَا بِكِتَابِ رَسُولِ اللهِ ﷺ الَّذِي بَعَثَ بِهِ دِحْيَةُ إِلَى عَظِيمِ بُصْرَى فَدَفَعَهُ إِلَى هِرَقْلَ، فَقَرَأَهُ فَإِذَا فِيهِ:

«**بِسْمِ اللهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ، مِنْ مُحَمَّدٍ عَبْدِ اللهِ وَرَسُولِهِ إِلَى هِرَقْلَ عَظِيمِ الرُّومِ، سَلَامٌ عَلَى مَنِ اتَّبَعَ الْهُدَى، أَمَّا بَعْدُ؛ فَإِنِّي أَدْعُوكَ بِدِعَايَةِ الإِسْلَامِ: أَسْلِمْ تَسْلَمْ، يُؤْتِكَ اللهُ أَجْرَكَ مَرَّتَيْنِ؛ فَإِنْ تَوَلَّيْتَ فَإِنَّ عَلَيْكَ إِثْمَ الأَرِيسِيِّينَ، وَ﴿قُلْ يَٰٓأَهْلَ ٱلْكِتَٰبِ تَعَالَوْاْ إِلَىٰ كَلِمَةٍ سَوَآءٍۭ بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ أَلَّا نَعْبُدَ إِلَّا ٱللَّهَ وَلَا نُشْرِكَ بِهِۦ شَيْـًٔا وَلَا يَتَّخِذَ بَعْضُنَا بَعْضًا أَرْبَابًا مِّن دُونِ ٱللَّهِ ۚ فَإِن تَوَلَّوْاْ فَقُولُواْ ٱشْهَدُواْ بِأَنَّا مُسْلِمُونَ﴾**» [آل عمران:٦٤]، قَالَ أَبُو سُفْيَانَ: فَلَمَّا قَالَ مَا قَالَ، وَفَرَغَ مِنْ قِرَاءَةِ الْكِتَابِ، كَثُرَ عِنْدَهُ الصَّخَبُ وَارْتَفَعَتِ الأَصْوَاتُ، وَأُخْرِجْنَا فَقُلْتُ لِأَصْحَابِي حِينَ أُخْرِجْنَا: لَقَدْ أَمِرَ أَمْرُ ابْنِ أَبِي كَبْشَةَ، إِنَّهُ يَخَافُهُ مَلِكُ بَنِي الأَصْفَرِ؛ فَمَا زِلْتُ مُوقِنًا أَنَّهُ سَيَظْهَرُ حَتَّى أَدْخَلَ اللهُ عَلَيَّ الإِسْلَامَ، وَكَانَ ابْنُ النَّاظُورِ - صَاحِبُ إِيلِيَاءَ، وَهِرَقْلَ - سُقُفًّا عَلَى نَصَارَى الشَّأْمِ يُحَدِّثُ أَنَّ هِرَقْلَ حِينَ قَدِمَ إِيلِيَاءَ أَصْبَحَ

يَوْمًا خَبِيثَ النَّفْسِ، فَقَالَ بَعْضُ بَطَارِقَتِهِ: قَدْ اسْتَنْكَرْنَا هَيْئَتَكَ، قَالَ ابْنُ النَّاظُورِ: وَكَانَ هِرَقْلُ حَزَّاءً يَنْظُرُ فِي النُّجُومِ، فَقَالَ لَهُمْ حِينَ سَأَلُوهُ: إِنِّي رَأَيْتُ اللَّيْلَةَ حِينَ نَظَرْتُ فِي النُّجُومِ مَلِكَ الْخِتَانِ قَدْ ظَهَرَ؛ فَمَنْ يَخْتَتِنُ مِنْ هَذِهِ الْأُمَّةِ؟ قَالُوا: لَيْسَ يَخْتَتِنُ إِلَّا الْيَهُودُ، فَلَا يُهِمَّنَّكَ شَأْنُهُمْ، وَاكْتُبْ إِلَى مَدَايِنِ مُلْكِكَ فَيَقْتُلُوا مَنْ فِيهِمْ مِنَ الْيَهُودِ؛ فَبَيْنَمَا هُمْ عَلَى أَمْرِهِمْ أُتِيَ هِرَقْلُ بِرَجُلٍ أَرْسَلَ بِهِ مَلِكُ غَسَّانَ يُخْبِرُ عَنْ خَبَرِ رَسُولِ اللهِ ﷺ، فَلَمَّا اسْتَخْبَرَهُ هِرَقْلُ قَالَ: اذْهَبُوا فَانْظُرُوا أَمُخْتَتِنٌ هُوَ أَمْ لَا؟ فَنَظَرُوا إِلَيْهِ فَحَدَّثُوهُ أَنَّهُ مُخْتَتِنٌ، وَسَأَلَهُ عَنِ الْعَرَبِ، فَقَالَ: هُمْ يَخْتَتِنُونَ، فَقَالَ هِرَقْلُ: هَذَا مُلْكُ هَذِهِ الْأُمَّةِ قَدْ ظَهَرَ ثُمَّ كَتَبَ هِرَقْلُ إِلَى صَاحِبٍ لَهُ بِرُومِيَةَ، وَكَانَ نَظِيرَهُ فِي الْعِلْمِ وَسَارَ هِرَقْلُ إِلَى حِمْصَ، فَلَمْ يَرِمْ حِمْصَ حَتَّى أَتَاهُ كِتَابٌ مِنْ صَاحِبِهِ، يُوَافِقُ رَأْيَ هِرَقْلَ عَلَى خُرُوجِ النَّبِيِّ ﷺ وَأَنَّهُ نَبِيٌّ، فَأَذِنَ هِرَقْلُ لِعُظَمَاءِ الرُّومِ فِي دَسْكَرَةٍ لَهُ بِحِمْصَ، ثُمَّ أَمَرَ بِأَبْوَابِهَا فَغُلِّقَتْ، ثُمَّ اطَّلَعَ فَقَالَ: يَا مَعْشَرَ الرُّومِ هَلْ لَكُمْ فِي الْفَلَاحِ وَالرُّشْدِ، وَأَنْ يَثْبُتَ مُلْكُكُمْ فَتُبَايِعُوا هَذَا النَّبِيَّ؟ فَحَاصُوا حَيْصَةَ حُمُرِ الْوَحْشِ إِلَى الْأَبْوَابِ، فَوَجَدُوهَا قَدْ غُلِّقَتْ فَلَمَّا رَأَى هِرَقْلُ نَفْرَتَهُمْ وَأَيِسَ مِنَ الْإِيمَانِ قَالَ: رُدُّوهُمْ عَلَيَّ، وَقَالَ: إِنِّي قُلْتُ مَقَالَتِي آنِفًا أَخْتَبِرُ بِهَا شِدَّتَكُمْ عَلَى دِينِكُمْ، فَقَدْ رَأَيْتُ، فَسَجَدُوا لَهُ وَرَضُوا عَنْهُ؛ فَكَانَ ذَلِكَ آخِرَ شَأْنِ هِرَقْلَ.

وَفِي رِسَالَةِ النَّبِيِّ ﷺ إِلَى هِرَقْلَ مِنَ الْفَوَائِدِ الْجَمَّةِ - وَقَدْ بَسَطَهَا الْحَافِظُ ابْنُ حَجَرٍ رحمه الله فِي «**فَتْحِ الْبَارِي**» (١)؛ فَقَدِ ابْتَدَأَ النَّبِيُّ ﷺ هَذِهِ الرِّسَالَةَ بِبِسْمِ اللهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ، وَهَذَا مَشْرُوعٌ وَمَسْنُونٌ فِي الرَّسَائِلِ وَالْمُكَاتَبَاتِ، وَالْأَدِلَّةُ عَلَى ذَلِكَ كَثِيرَةٌ، مِنْهَا قَوْلُ مَلِكَةِ سَبَأٍ: ﴿قَالَتْ يَٰٓأَيُّهَا ٱلْمَلَؤُا۟ إِنِّىٓ أُلْقِىَ إِلَىَّ كِتَٰبٌ كَرِيمٌ ﴿٢٩﴾ إِنَّهُۥ مِن سُلَيْمَٰنَ وَإِنَّهُۥ بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ﴾ [النمل: ٢٩، ٣٠].

وَوَصَفَ النَّبِيُّ ﷺ هِرَقْلَ بِأَنَّهُ عَظِيمُ الرُّومِ؛ تَأْلِيفًا لِقَلْبِهِ، وَهَذَا مِنْ فِقْهِ

---

(١) «الفتح» (١/ ٩٧ - ١٠٠).

الدَّاعِيَةِ: تَحْبِيبُ مَنْ يَدْعُوهُمْ إِلَى اللهِ تَعَالَى.

وَقَوْلُهُ ﷺ: «**سَلَامٌ عَلَى مَنِ اتَّبَعَ الْهُدَى**»، لَيْسَ الْمُرَادُ مِنْ هَذَا: التَّحِيَّةَ، إِنَّمَا مَعْنَاهُ: «سَلِمَ مِنْ عَذَابِ اللهِ مَنْ أَسْلَمَ»، وَلِهَذَا أَمَرَ اللهُ تَعَالَى مُوسَى وَهَارُونَ عليهما السلام أَنْ يَقُولَا هَذَا لِفِرْعَوْنَ؛ فَقَالَ تَعَالَى: ﴿فَأْتِيَاهُ فَقُولَا إِنَّا رَسُولَا رَبِّكَ فَأَرْسِلْ مَعَنَا بَنِي إِسْرَاءِيلَ وَلَا تُعَذِّبْهُمْ قَدْ جِئْنَاكَ بِآيَةٍ مِّن رَّبِّكَ وَالسَّلَامُ عَلَىٰ مَنِ اتَّبَعَ الْهُدَىٰ ﴿٤٧﴾ إِنَّا قَدْ أُوحِيَ إِلَيْنَا أَنَّ الْعَذَابَ عَلَىٰ مَن كَذَّبَ وَتَوَلَّىٰ﴾ [طه:٤٧ - ٤٨].

وَكَذَا جَاءَ فِي بَقِيَّةِ الرِّسَالَةِ النَّبَوِيَّةِ الْمُوَجَّهَةِ إِلَى هِرَقْلَ: «**فَإِنْ تَوَلَّيْتَ؛ فَإِنَّ عَلَيْكَ إِثْمَ الْأَرِيسِيِّينَ**»، فَمُحَصَّلُ الْجَوَابِ أَنَّهُ لَمْ يَبْدَأِ الْكَافِرَ بِالسَّلَامِ قَصْدًا، وَإِنْ كَانَ اللَّفْظُ يُشْعِرُ بِهِ، لَكِنَّهُ لَمْ يَدْخُلْ فِي الْمُرَادِ؛ لِأَنَّهُ لَيْسَ مِمَّنِ اتَّبَعَ الْهُدَى، فَلَمْ يُسَلِّمْ عَلَيْهِ.

ثُمَّ قَالَ النَّبِيُّ ﷺ: «**أَمَّا بَعْدُ؛ فَإِنِّي أَدْعُوكَ بِدِعَايَةِ الْإِسْلَامِ**»، وَفِي لَفْظِ مُسْلِمٍ: «**بِدَاعِيَةِ الْإِسْلَامِ**» أَيْ: بِالْكَلِمَةِ الدَّاعِيَةِ إِلَى الْإِسْلَامِ، وَهِيَ: شَهَادَةُ أَلَّا إِلَهَ إِلَّا اللهُ، وَأَنَّ مُحَمَّدًا رَسُولُ اللهِ.

ثُمَّ قَرَنَ النَّبِيُّ ﷺ هَذَا الْبَلَاغَ الْبَدِيعَ بِالتَّرْغِيبِ وَالتَّرْهِيبِ؛ فَقَالَ لِهِرَقْلَ: «**أَسْلِمْ تَسْلَمْ يُؤْتِكَ اللهُ أَجْرَكَ مَرَّتَيْنِ**»؛ ثُمَّ قَالَ: «**فَإِنْ تَوَلَّيْتَ فَإِنَّ عَلَيْكَ إِثْمَ الْأَرِيسِيِّينَ**»؛ أَيْ: إِنْ أَعْرَضْتَ عَنِ الْإِجَابَةِ إِلَى الدُّخُولِ فِي الْإِسْلَامِ؛ فَإِنَّمَا عَلَيْكَ إِثْمُ الضُّعَفَاءِ وَالْأَتْبَاعِ إِذَا لَمْ يُسْلِمُوا تَقْلِيدًا لَكَ؛ لِأَنَّ الْأَصَاغِرَ أَتْبَاعُ الْأَكَابِرِ؛ قَالَهُ الْخَطَّابِيُّ.

قَالَ الْحَافِظُ: «وَفِي الْكَلَامِ حَذْفٌ دَلَّ الْمَعْنَى عَلَيْهِ، وَهُوَ: فَإِنَّ عَلَيْكَ مَعَ إِثْمِكَ إِثْمَ الْأَرِيسِيِّينَ؛ لِأَنَّهُ إِذَا كَانَ عَلَيْهِ إِثْمُ الْأَتْبَاعِ بِسَبَبِ أَنَّهُمْ تَبِعُوهُ عَلَى اسْتِمْرَارِ الْكُفْرِ؛ فَلَأَنْ يَكُونَ عَلَيْهِ إِثْمُ نَفْسِهِ أَوْلَى، وَهَذَا يُعَدُّ مِنْ مَفْهُومِ الْمُوَافَقَةِ، وَلَا يُعَارَضُ بِقَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿وَلَا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَىٰ﴾ [فاطر:١٨]؛ لِأَنَّ وِزْرَ الْآثِمِ لَا يَتَحَمَّلُهُ غَيْرُهُ، وَلَكِنَّ الْفَاعِلَ الْمُتَسَبِّبَ وَالْمُتَلَبِّسَ بِالسَّيِّئَاتِ يَتَحَمَّلُ مِنْ جِهَتَيْنِ:

جِهَةِ فِعْلِهِ، وَجِهَةِ تَسَبُّبِهِ» ا. هـ. الْمُرَادُ.

قَالَ تَعَالَى: ﴿لِيَحْمِلُوٓاْ أَوْزَارَهُمْ كَامِلَةً يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ ۙ وَمِنْ أَوْزَارِ ٱلَّذِينَ يُضِلُّونَهُم بِغَيْرِ عِلْمٍ ۗ أَلَا سَآءَ مَا يَزِرُونَ﴾ [النحل:٢٥].

وَقَالَ تَعَالَى: ﴿وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لِلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱتَّبِعُواْ سَبِيلَنَا وَلْنَحْمِلْ خَطَٰيَٰكُمْ وَمَا هُم بِحَٰمِلِينَ مِنْ خَطَٰيَٰهُم مِّن شَىْءٍ ۖ إِنَّهُمْ لَكَٰذِبُونَ ﴿١٢﴾ وَلَيَحْمِلُنَّ أَثْقَالَهُمْ وَأَثْقَالًا مَّعَ أَثْقَالِهِمْ ۖ وَلَيُسْـَٔلُنَّ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ عَمَّا كَانُواْ يَفْتَرُونَ﴾

[العنكبوت:١٢، ١٣].

ثُمَّ تَدَبَّرْ فِقْهَ أَعْظَمِ دَاعِيَةٍ عَرَفَتْهُ الدُّنْيَا - بِأَبِي هُوَ وَأُمِّي ﷺ - حِينَ قَالَ لِهِرَقْلَ: «**أَسْلِمْ تَسْلَمْ يُؤْتِكَ اللهُ أَجْرَكَ مَرَّتَيْنِ**»، وَفِي ذَلِكَ تَشْجِيعٌ لَهُ، وَبَيَانٌ لِثَمَرَةِ اسْتِجَابَتِهِ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ.

فَفِي الدُّنْيَا؛ سَتُحَقِّقُ الْأَمْنَ وَالْأَمَانَ وَالسَّلَامَ، وَفِي الْآخِرَةِ سَتَأْخُذُ أَجْرَكَ مَرَّتَيْنِ؛ كَمَا قَالَ تَعَالَى: ﴿ٱلَّذِينَ ءَاتَيْنَٰهُمُ ٱلْكِتَٰبَ مِن قَبْلِهِۦ هُم بِهِۦ يُؤْمِنُونَ ﴿٥٢﴾ وَإِذَا يُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ قَالُوٓاْ ءَامَنَّا بِهِۦٓ إِنَّهُ ٱلْحَقُّ مِن رَّبِّنَآ إِنَّا كُنَّا مِن قَبْلِهِۦ مُسْلِمِينَ ﴿٥٣﴾ أُوْلَٰٓئِكَ يُؤْتَوْنَ أَجْرَهُم مَّرَّتَيْنِ بِمَا صَبَرُواْ وَيَدْرَءُونَ بِٱلْحَسَنَةِ ٱلسَّيِّئَةَ وَمِمَّا رَزَقْنَٰهُمْ يُنفِقُونَ﴾ [القصص:٥٢ - ٥٤].

وَفِي «**الصَّحِيحَيْنِ**»(١) مِنْ حَدِيثِ أَبِي مُوسَى الْأَشْعَرِيِّ رضي الله عنه قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: «**ثَلَاثَةٌ لَهُمْ أَجْرَانِ: رَجُلٌ مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ آمَنَ بِنَبِيِّهِ وَآمَنَ بِمُحَمَّدٍ ﷺ، وَالْعَبْدُ الْمَمْلُوكُ إِذَا أَدَّى حَقَّ اللهِ وَحَقَّ مَوَالِيهِ، وَرَجُلٌ كَانَتْ عِنْدَهُ أَمَةٌ فَأَدَّبَهَا فَأَحْسَنَ تَأْدِيبَهَا، وَعَلَّمَهَا فَأَحْسَنَ تَعْلِيمَهَا، ثُمَّ أَعْتَقَهَا فَتَزَوَّجَهَا فَلَهُ أَجْرَانِ**». وَفِي

---

(١) أخرجه البخاريُّ، كتاب العلم، باب تعليم الرجل أمته وأهله (٩٧)، ومسلمٌ، كتاب الإيمان، باب وجوب الإيمان برسالة نبينا محمد ﷺ إلى جميع الناس ونسخ الملل بملته (١٥٤/ ٢٤١).

رِوَايَةٍ (١): «.. وَإِذَا آمَنَ بِعِيسَى، ثُمَّ آمَنَ بِي فَلَهُ أَجْرَانِ».

فَعَلَى الدَّاعِي أَنْ يُحَفِّزَ الْمَدْعُوِّينَ بِفَضَائِلِ الْأَعْمَالِ؛ حَتَّى يَكُونَ ذَلِكَ دَافِعًا لَهُمْ عَلَى الْقِيَامِ بِهَا وَفِعْلِهَا.

ثُمَّ عَزَّزَ النَّبِيُّ ﷺ دَعْوَتَهُ وَرِسَالَتَهُ إِلَى هِرَقْلَ بِكَلَامِ اللهِ ﷻ، وَهِيَ آيَةٌ جَامِعَةٌ فِي مَجَالِ الْعَقِيدَةِ؛ أَلَا وَهِيَ قَوْلُ اللهِ تَعَالَى: ﴿قُلْ يَٰٓأَهْلَ ٱلْكِتَٰبِ تَعَالَوْاْ إِلَىٰ كَلِمَةٖ سَوَآءِۭ بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ أَلَّا نَعْبُدَ إِلَّا ٱللَّهَ وَلَا نُشْرِكَ بِهِۦ شَيْـًٔا وَلَا يَتَّخِذَ بَعْضُنَا بَعْضًا أَرْبَابًا مِّن دُونِ ٱللَّهِۚ فَإِن تَوَلَّوْاْ فَقُولُواْ ٱشْهَدُواْ بِأَنَّا مُسْلِمُونَ﴾ [آل عمران: ٦٤].

إِنَّهَا دَعْوَةٌ عَامَّةٌ لِلِالْتِقَاءِ عَلَى كَلِمَةٍ سَوَاءٍ؛ لَكِنْ بِهَذِهِ الشُّرُوطِ، وَبِدُونِهَا لَا يَتِمُّ الْوِفَاقُ!

قَالَ الْحَافِظُ ابْنُ كَثِيرٍ ؒ (٢): «هَذَا الْخِطَابُ يَعُمُّ أَهْلَ الْكِتَابِ مِنَ الْيَهُودِ وَالنَّصَارَى، وَمَنْ جَرَى مَجْرَاهُمْ: ﴿قُلْ يَٰٓأَهْلَ ٱلْكِتَٰبِ تَعَالَوْاْ إِلَىٰ كَلِمَةٖ سَوَآءِۭ﴾؛ وَالْكَلِمَةُ تُطْلَقُ عَلَى الْجُمْلَةِ الْمُفِيدَةِ كَمَا قَالَ هَاهُنَا، ثُمَّ وَصَفَهَا بِقَوْلِهِ: ﴿سَوَآءِۭ بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ﴾؛ أَيْ: عَدْلٍ وَنَصَفٍ، نَسْتَوِي نَحْنُ وَأَنْتُمْ فِيهَا، ثُمَّ فَسَّرَهَا بِقَوْلِهِ: ﴿أَلَّا نَعْبُدَ إِلَّا ٱللَّهَ وَلَا نُشْرِكَ بِهِۦ﴾ لَا وَثَنًا، وَلَا صَنَمًا، وَلَا صَلِيبًا، وَلَا طَاغُوتًا، وَلَا نَارًا، وَلَا شَيْئًا؛ بَلْ نُفْرِدُ الْعِبَادَةَ لِلَّهِ وَحْدَهُ لَا شَرِيكَ لَهُ، وَهَذِهِ دَعْوَةُ جَمِيعِ الرُّسُلِ؛ قَالَ اللهُ تَعَالَى: ﴿وَمَآ أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ مِن رَّسُولٍ إِلَّا نُوحِىٓ إِلَيْهِ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّآ أَنَا۠ فَٱعْبُدُونِ﴾ [الأنبياء: ٢٥]، وَقَالَ تَعَالَى: ﴿وَلَقَدْ بَعَثْنَا فِى كُلِّ أُمَّةٖ رَّسُولًا أَنِ ٱعْبُدُواْ ٱللَّهَ وَٱجْتَنِبُواْ ٱلطَّٰغُوتَ﴾ [النحل: ٣٦].

---

(١) عند البخاريِّ، كتاب أحاديث الأنبياء، باب قوله تعالى: ﴿يَٰٓأَهْلَ ٱلْكِتَٰبِ لَا تَغْلُواْ فِى دِينِكُمْ﴾ إلى ﴿وَكِيلًا﴾ (٣٤٤٦).

(٢) «تفسير القرآن العظيم» (١/ ٣٧٩) ط المعرفة.

ثُمَّ قَالَ تَعَالَى: ﴿وَلَا يَتَّخِذَ بَعْضُنَا بَعْضًا أَرْبَابًا مِّن دُونِ ٱللَّهِ﴾، وَقَالَ ابْنُ جُرَيجٍ: يَعْنِي: يُطِيعُ بَعْضُنَا بَعْضًا فِي مَعْصِيَةِ الله. وَقَالَ عِكْرِمَةُ: يَعْنِي: يَسْجُدُ بَعْضُنَا لِبَعْضٍ.

﴿فَإِن تَوَلَّوْاْ فَقُولُواْ ٱشْهَدُواْ بِأَنَّا مُسْلِمُونَ﴾؛ أَيْ: فَإِنْ تَوَلَّوْا عَنْ هَذَا النَّصَفِ وَهَذِهِ الدَّعْوَةِ فَأَشْهِدُوهُمْ أَنْتُمْ عَلَى اسْتِمْرَارِكُمْ عَلَى الإِسْلَامِ الَّذِي شَرَعَهُ الله لَكُمْ» ا. هـ.

وَقَالَ الْحَافِظُ فِي «الْفَتْحِ» (١): «وَقَدِ اشْتَمَلَتْ هَذِهِ الْجُمَلُ الْقَلِيلَةُ الَّتِي تَضَمَّنَهَا هَذَا الْكِتَابُ عَلَى الْأَمْرِ بِقَوْلِهِ: «**أَسْلِمْ**»، وَالتَّرْغِيبِ بِقَوْلِهِ: «**تَسْلَمْ**» و«**وَيُؤْتِكَ**»، وَالزَّجْرِ بِقَوْلِهِ: «**فَإِنْ تَوَلَّيْتَ**»، وَالتَّرْهِيبِ بِقَوْلِهِ: «**فَإِنَّ عَلَيْكَ إِثْمَ الْأَرِيسِيِّينَ**»، وَالدِّلَالَةِ بِقَوْلِهِ: «**يَا أَهْلَ الْكِتَابِ**»، وَفِي ذَلِكَ مِنَ الْبَلَاغَةِ مَا لَا يَخْفَى، وَكَيْفَ لَا؟ وَهُوَ كَلَامُ مَنْ أُوتِيَ جَوَامِعَ الْكَلِمِ ﷺ». انْتَهَى.

***

(١) «فتح الباري» (١/ ١٠٠).

المَبْحَثُ السَّادِسُ

دَعْوَتُهُ ﷺ لِلعُصَاةِ

المَطْلَبُ الأَوَّلُ

مَنْ هُمُ العُصَاةُ؟

تَعْرِيفُ الْمَعْصِيَةِ لُغَةً وَاصْطِلَاحًا:

الْعِصْيَانُ هُوَ: «تَرْكُ الِانْقِيَادِ»(١).

قَالَ الرَّاغِبُ فِي «الْمُفْرَدَاتِ»(٢): «وَعَصَى عِصْيَانًا: إِذَا خَرَجَ عَنِ الطَّاعَةِ، وَأَصْلُهُ أَنْ يَتَمنَّعَ بِعَصَاهُ؛ قَالَ: ﴿وَعَصَىٰٓ ءَادَمُ رَبَّهُۥ﴾[طه: ١٢١]. ﴿وَمَن يَعْصِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ﴾[النساء: ١٤]. ﴿ءَآلْـَٰٔنَ وَقَدْ عَصَيْتَ قَبْلُ﴾[يونس: ٩١]». اهـ.

وَقَالَ ابْنُ مَنْظُورٍ فِي «اللِّسَانِ»(٣): «وَالْعِصْيَانُ: خِلَافُ الطَّاعَةِ، عَصَى الْعَبْدُ رَبَّهُ إِذَا خَالَفَ أَمْرَهُ، وَعَصَى فُلَانٌ أَمِيرَهُ يَعْصِيهِ عَصْيًا وَعِصْيَانًا وَمَعْصِيَةً إِذَا لَمْ يُطِعْهُ فَهُوَ عَاصٍ وَعَصِيٌّ، قَالَ سِيبَوَيْهِ: لَا يَجِيءُ هَذَا الضَّرْبُ عَلَى مَفْعِلٍ إِلَّا وَفِيهِ الْهَاءُ؛ لِأَنَّهُ إِنْ جَاءَ عَلَى مَفْعِلٍ، بِغَيْرِ هَاءٍ، اعْتَلَّ فَعَدَلُوا إِلَى الْأَخَفِّ، وَعَاصَاهُ أَيْضًا: مِثْلُ عَصَاهُ، وَيُقَالُ لِلْجَمَاعَةِ إِذَا خَرَجَتْ عَنْ طَاعَةِ السُّلْطَانِ: قَدِ اسْتَعْصَتْ عَلَيْهِ، وَفِي الْحَدِيثِ(٤): لَوْلَا أَنْ نَعْصِيَ اللهَ مَا عَصَانَا، أَيْ: لَمْ يَمْتَنِعْ عَنْ إِجَابَتِنَا

---

(١) «التعريفات» (١٦٦) ط دار الندى، الإسكندرية، و«الكليات» للكفوي (٦٥٦).

(٢) «المفردات» (٣٣٩) ط المكتبة التوفيقية.

(٣) «لسان العرب» (٩/ ٢٥١)؛ وانظر: «القاموس المحيط» للفيروز آبادي (١٦٩٢).

(٤) وهو أثرٌ صحيح الإسناد؛ أخرجه ابن أبي شيبة في «مصنفه» (٧/ ١٥٣) و(٨/ ٢١٦)، وأحمد في «الزهد» (٣٥٧)، والبيهقي في «الزهد الكبير» (٧٢٠)، وأبو نعيم في «الحلية» =

إِذَا دَعَوْنَاهُ، فَجَعَلَ الْجَوَابَ بِمَنْزِلَةِ الْخِطَابِ؛ فَسَمَّاهُ عِصْيَانًا؛ كَقَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿ وَمَكَرُواْ وَمَكَرَ ٱللَّهُ ﴾ [آل عمران:٥٤]، وَفِي الْحَدِيثِ: «أَنَّهُ غَيَّرَ اسْمَ الْعَاصِي» (١)، إِنَّمَا غَيَّرَهُ؛ لِأَنَّ شِعَارَ الْمُؤْمِنِ الطَّاعَةُ، وَالْعِصْيَانُ ضِدُّهَا».

= (٤/ ١٠٥)، وابن أبي حاتم في «تفسيره» لسورة الأنفال (آية:٣٩، ٤٠)، والخطيب في «تاريخه» (٩/ ٢٧٠)، وابن عساكر (٢٣/ ١٧٨) من حديث الأعمش قَالَ: قَالَ لِي أَبُو وَائِلٍ شَقِيقُ بْنُ سَلَمَةَ: «يَا سُلَيْمَانُ، نِعْمَ الرَّبُّ رَبُّنَا، لَوْ أَطَعْنَاهُ مَا عَصَانَا».

(١) أخرجه مسلمٌ، كتاب الجهاد، باب لا يُقتل قرشيٌّ صبرًا بعد الفتح (١٧٨٢/ ٨٩)، وفيه: «وَلَمْ يَكُنْ أَسْلَمَ أَحَدٌ مِنْ عُصَاةِ قُرَيْشٍ غَيْرَ مُطِيعٍ، كَانَ اسْمُهُ الْعَاصِي، فَسَمَّاهُ رَسُولُ اللهِ ﷺ مُطِيعًا».

المَطْلَبُ الثَّانِي
دَعْوَتُهُ ﷺ للعُصَاةِ وَتَعْلِيمُهُ لَهُمْ

فَهَذَا الصِّنْفُ أَوْلَى بِهِ نَبِيُّ الرَّحْمَةِ ﷺ الِاهْتِمَامَ الْبَالِغَ، وَالْعِنَايَةَ الْفَائِقَةَ؛ فَوَعَظَ الْعُصَاةَ وَذَكَّرَهُمْ، وَنَصَحَهُمْ بِرِفْقٍ وَلِينٍ، وَإِنِ احْتَاجَ الْمَقَامُ إِلَى شِدَّةٍ، وَذَلِكَ مِنَ الْحِكْمَةِ فِي الدَّعْوَةِ، وَمِنَ الْأَمْثِلَةِ وَالْمَوَاقِفِ النَّبَوِيَّةِ فِي ذَلِكَ مَا يَلِي:

فَفِي «مُسْنَدِ» أَحْمَدَ، وَالطَّبَرَانِيِّ فِي «الْكَبِيرِ»، وَالْبَيْهَقِيِّ فِي «الشُّعَبِ» (١) مِنْ حَدِيثِ أَبِي أُمَامَةَ الْبَاهِلِيِّ رضي الله عنه قَالَ: إِنَّ فَتًى شَابًّا أَتَى النَّبِيَّ ﷺ فَقَالَ: يَا رَسُولَ اللهِ ائْذَنْ لِي بِالزِّنَا؟ فَأَقْبَلَ الْقَوْمُ عَلَيْهِ فَزَجَرُوهُ، قَالُوا: مَهْ مَهْ، فَقَالَ: «**ادْنُهْ**»، فَدَنَا مِنْهُ قَرِيبًا، قَالَ: فَجَلَسَ؛ فَقَالَ ﷺ: «**أَتُحِبُّهُ لِأُمِّكَ؟**»، قَالَ: لَا واللهِ يَا رَسُولَ اللهِ جَعَلَنِي اللهُ فِدَاءَكَ، قَالَ: «**وَلَا النَّاسُ يُحِبُّونَهُ لِأُمَّهَاتِهِمْ**»، قَالَ: «**أَفَتُحِبُّهُ لِابْنَتِكَ؟**» قَالَ: لَا واللهِ يَا رَسُولَ اللهِ جَعَلَنِي اللهُ فِدَاءَكَ، قَالَ: «**وَلَا النَّاسُ يُحِبُّونَهُ لِبَنَاتِهِمْ**»، قَالَ: «**أَفَتُحِبُّهُ لِأُخْتِكَ؟**» قَالَ: لَا واللهِ يَا رَسُولَ اللهِ جَعَلَنِي اللهُ فِدَاءَكَ، قَالَ: «**وَلَا النَّاسُ يُحِبُّونَهُ لِأَخَوَاتِهِمْ**»، قَالَ: «**أَفَتُحِبُّهُ لِعَمَّتِكَ؟**» قَالَ: لَا واللهِ يَا رَسُولَ اللهِ جَعَلَنِي اللهُ فِدَاءَكَ، قَالَ: «**وَلَا النَّاسُ يُحِبُّونَهُ لِعَمَّاتِهِمْ**»، قَالَ: «**أَفَتُحِبُّهُ لِخَالَتِكَ؟**» قَالَ: لَا واللهِ يَا رَسُولَ اللهِ جَعَلَنِي اللهُ فِدَاءَكَ، قَالَ: «**وَلَا النَّاسُ يُحِبُّونَهُ لِخَالَاتِهِمْ**»، قَالَ: فَوَضَعَ يَدَهُ عَلَيْهِ، وَقَالَ: «**اللهم اغْفِرْ ذَنْبَهُ، وَطَهِّرْ قَلْبَهُ، وَحَصِّنْ فَرْجَهُ**»، فَلَمْ يَكُنْ بَعْدُ ذَلِكَ الْفَتَى يَلْتَفِتُ إِلَى شَيْءٍ.

---

(١) أخرجه أحمد (٥/ ٢٥٦، ٢٥٧)، والطبراني في «الكبير» (٧٦٧٩)، و«مسند الشاميين» (١٠٦٦)، والبيهقيُّ في «الشعب» (٥١٨١)، وقال الهيثميُّ في «المجمع» (١/ ١٢٩): «ورجاله رجال الصحيح»، وصحَّحَهُ الألباني في «الصحيحة» (٣٧٠).

فَفِي «صَحِيح» (١) مُسْلِم عَنْ أَبِي هُرَيْـرَةَ رضي الله عنه أَنَّ رَسُـولَ الله ﷺ مَـرَّ عَلَـى صُبْرَةِ طَعَام فَأَدْخَلَ يَدَهُ فِيهَا، فَنَالَتْ أَصَابِعُهُ بَلَـلًا، فَقَـالَ: «**مَـا هَـذَا يَـا صَـاحِبَ الطَّعَامِ؟**» قَالَ: أَصَابَتْهُ السَّمَاءُ يَا رَسُولَ الله، قَالَ: «**أَفَلَا جَعَلْتَهُ فَـوْقَ الطَّعَـامِ كَـيْ يَرَاهُ النَّاسُ؟ مَنْ غَشَّ فَلَيْسَ مِنِّي**».

وَفِي «صَحِيح» (٢) مُسْـلِم عَـنْ أَبِـي مَسْـعُودٍ رضي الله عنه الْبَـدْرِيِّ رضي الله عنه قَـالَ: كُنْـتُ أَضْرِبُ غُلَامًا لِي بِالسَّوْطِ، فَسَمِعْتُ صَوْتًا مِنْ خَلْفِي: «**اعْلَمْ أَبَـا مَسْـعُودٍ**»، فَلَـمْ أَفْهَم الصَّوْتَ مِنَ الْغَضَبِ، قَالَ: فَلَمَّا دَنَا مِنِّي إِذَا هُـوَ رَسُـولُ الله ﷺ؛ فَـإِذَا هُـوَ يَقُولُ: «**اعْلَمْ أَبَا مَسْعُودٍ، اعْلَمْ أَبَا مَسْعُودٍ**»، قَالَ: فَأَلْقَيْتُ السَّوْطَ مِنْ يَدِي؛ فَقَالَ: «**اعْلَمْ أَبَا مَسْـعُودٍ أَنَّ الله أَقْـدَرُ عَلَيْـكَ مِنْـكَ عَلَـى هَـذَا الْغُـلَامِ**»، قَـالَ: فَقُلْـتُ: لَا أَضْرِبُ مَمْلُوكًا بَعْدَهُ أَبَدًا.

وَفِي رِوَايَةٍ (٣) قَالَ: فَقُلْتُ: يَا رَسُولَ الله! هُوَ حُرٌّ لِوَجْهِ الله؛ فَقَالَ: «**أَمَا لَوْ لَمْ تَفْعَلْ لَلَفَحَتْكَ النَّارُ أَوْ لَمَسَّتْكَ النَّارُ**».

قَالَ النَّوَوِيُّ (٤): «قَوْلُهُ ﷺ: «**اعْلَمْ أَبَا مَسْعُودٍ أَنَّ الله أَقْدَرُ عَلَيْكَ مِنْكَ عَلَـى هَذَا الْغُلَامِ**» فِيهِ: الْحَثُّ عَلَى الرِّفْقِ بِالْمَمْلُوكِ، وَالْوَعْظُ وَالتَّنْبِيـهُ عَلَـى اسْـتِعْمَالِ الْعَفْوِ، وَكَظْمِ الْغَيْظِ، وَالْحُكْمُ كَمَا يَحْكُمُ الله عَلَى عِبَادِهِ».

وَفِي «مُسْـنَدِ» أَحْمَـدَ، وَ«سُنَنِ» أَبِـي دَاوُدَ، وَ«مُسْـتَدْرَكِ» الْحَـاكِمِ (٥) عَـنْ

---

(١) أخرجه مسلمٌ، كتاب الإيمان، باب قول النبي ﷺ: «**مَنْ غَشَّنَا فَلَيْسَ مِنَّا**» (١٠٢).

(٢) أخرجه مسلمٌ، كتاب الإيمان، باب صحبة المماليك وكفارة من لطم عبده (١٦٥٩).

(٣) عند مسلم (١٦٥٩/ ٣٥).

(٤) «شرح مسلم» للنووي (٦/ ١٤٥).

(٥) أخرجه أحمد (١/ ٢٠٤، ٢٠٥)، وأبو داود، كتاب الجهاد، باب ما يؤمر به من القيام على الدواب والبهائم (٢٥٤٩)، والحاكم (٢/ ١٠٩)، وصحَّحَهُ، ووافقه الذهبي، وأبو يعلى في «مسنده» (٦٧٨٧)، والبيهقيُّ في «الكبير» (٨/ ١٣)، وفي «الدلائل» (٦/ ٢٦)، والطحاويُّ في «مشكل الآثار» (١٥/ ٢٩)، وصحَّحه على شرط مسلمٍ =

عَبْدِ اللهِ بْنِ جَعْفَرٍ ﵄ قَالَ: رَكِبَ رَسُولُ اللهِ ﷺ بَغْلَتَهُ وَأَرْدَفَنِي خَلْفَهُ، وَكَانَ رَسُولُ اللهِ ﷺ إِذَا تَبَرَّزَ كَانَ أَحَبَّ مَا تَبَرَّزَ فِيهِ هَدَفٌ يَسْتَتِرُ بِهِ، أَوْ حَائِشُ نَخْلٍ؛ فَدَخَلَ حَائِطًا لِرَجُلٍ مِنَ الْأَنْصَارِ فَإِذَا فِيهِ نَاضِحٌ لَهُ، فَلَمَّا رَأَى النَّبِيَّ ﷺ حَنَّ وَذَرَفَتْ عَيْنَاهُ، فَنَزَلَ رَسُولُ اللهِ ﷺ فَمَسَحَ ذِفْرَاهُ وَسَرَاتَهُ (١) فَسَكَنَ؛ فَقَالَ: «مَنْ رَبُّ هَذَا الْجَمَلِ؟» فَجَاءَ شَابٌّ مِنَ الْأَنْصَارِ؛ فَقَالَ: أَنَا؛ فَقَالَ: «**أَلَا تَتَّقِي اللهَ فِي هَذِهِ الْبَهِيمَةِ الَّتِي مَلَّكَكَ اللهُ إِيَّاهَا؟ فَإِنَّهُ شَكَاكَ إِلَيَّ، وَزَعَمَ أَنَّكَ تُجِيعُهُ وَتُدْئِبُهُ**(٢)»، ثُمَّ ذَهَبَ رَسُولُ اللهِ ﷺ فِي الْحَائِطِ فَقَضَى حَاجَتَهُ، ثُمَّ تَوَضَّأَ، ثُمَّ جَاءَ وَالْمَاءُ يَقْطُرُ مِنْ لِحْيَتِهِ عَلَى صَدْرِهِ، فَأَسَرَّ إِلَيَّ شَيْئًا لَا أُحَدِّثُ بِهِ أَحَدًا، فَحَرَّجْنَا عَلَيْهِ أَنْ يُحَدِّثَنَا فَقَالَ: لَا أُفْشِي عَلَى رَسُولِ اللهِ ﷺ سِرَّهُ حَتَّى أَلْقَى اللهَ.

وَفِي «**الصَّحِيحَيْنِ**» (٣) عَنْ أَبِي حُمَيْدٍ السَّاعِدِيِّ (٤) ﵁ قَالَ: اسْتَعْمَلَ

= الألبانيُّ في «الصحيحة» (٢٠).

(١) قال النوويُّ في «رياض الصالحين» (١٦٨) ط القاسم الرياض: «قوله: ذفراه: هو بكسر الذال المعجمة وإسكان الفاء، وهو لفظ مفرد مؤنث؛ قال أهل اللغة: الذفرى: الموضع الذي يعرق من البعير خلف الأذن». وسراته أي: سنامه. وانظر: «عون المعبود» (٥/ ٥١) للعلامة أبي الطيب محمد شمس الحق العظيم آبادي. ط الحديث.

(٢) أي: تكرهه وتتعبه وتديمه في العمل والخدمة.
- راجع: «النبوات» لابن تيمية (٢/ ٦٦١)، و«عون المعبود» (٥/ ٥١).

(٣) أخرجه البخاريُّ، كتاب الهبة، باب من لم يقبل الهدية لعلة (٢٥٩٧)، ومسلمٌ، كتاب الإمارة، باب تحريم هدايا العمال (١٨٣٢/ ٢٧).

(٤) هو أبو حميد الساعديُّ، اختلف في اسمه؛ فقيل: عبد الرحمن بن عمرو بن سعد، وقيل: المنذر بن سعد بن مالك بن خالد بن ثعلبة، يعد في أهل المدينة، شهد أحدًا وما بعدها. قال الواقدي: توفي في آخر خلافة معاوية وأول خلافة يزيد بن معاوية.
- راجع: «الاستيعاب» (٩٣)، و«أسد الغابة» (٥٨٣٠)، و«الإصابة» (٩٧٩٨).

رَسُولُ الله ﷺ رَجُلًا عَلَى صَدَقَاتِ بَنِي سُلَيْم يُدْعَى ابْنَ اللُّتْبِيَّةِ (١)؛ فَلَمَّا جَاءَ حَاسَبَهُ قَالَ: هَذَا مَالُكُمْ، وَهَذَا هَدِيَّةٌ؛ فَقَالَ رَسُولُ الله ﷺ: «**فَهَلَّا جَلَسْتَ فِي بَيْتِ أَبِيكَ وَأُمِّكَ، حَتَّى تَأْتِيَكَ هَدِيَّتُكَ، إِنْ كُنْتَ صَادِقًا**»، ثُمَّ خَطَبَنَا فَحَمِدَ الله وَأَثْنَى عَلَيْهِ، ثُمَّ قَالَ: «**أَمَّا بَعْدُ؛ فَإِنِّي أَسْتَعْمِلُ الرَّجُلَ مِنْكُمْ عَلَى الْعَمَلِ مِمَّا وَلَّانِي الله؛ فَيَأْتِي فَيَقُولُ: هَذَا مَالُكُمْ وَهَذَا هَدِيَّةٌ أُهْدِيَتْ لِي، أَفَلَا جَلَسَ فِي بَيْتِ أَبِيهِ وَأُمِّهِ حَتَّى تَأْتِيَهُ هَدِيَّتُهُ، وَالله لَا يَأْخُذُ أَحَدٌ مِنْكُمْ شَيْئًا بِغَيْرِ حَقِّهِ، إِلَّا لَقِيَ الله يَحْمِلُهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ، فَلَأَعْرِفَنَّ أَحَدًا مِنْكُمْ لَقِيَ الله يَحْمِلُ بَعِيرًا لَهُ رُغَاءٌ، أَوْ بَقَرَةً لَهَا خُوَارٌ، أَوْ شَاةً تَيْعَرُ**»، ثُمَّ رَفَعَ يَدَهُ حَتَّى رُئِيَ بَيَاضُ إِبْطِهِ يَقُولُ: «**اللهمَّ هَلْ بَلَّغْتُ**» بَصْرَ عَيْنِي وَسَمْعَ أُذُنِي.

وَفِي «**مُسْنَدِ**» أَحْمَدَ، وَ«**سُنَنِ**» أَبِي دَاوُدَ وَالتِّرْمِذِيِّ (٢) عَنْ عَائِشَةَ رضي الله عنها قَالَتْ: حَكَيْتُ لِلنَّبِيِّ ﷺ رَجُلًا؛ فَقَالَ: «**مَا يَسُرُّنِي أَنِّي حَكَيْتُ رَجُلًا وَأَنَّ لِي كَذَا وَكَذَا**»، قَالَتْ: فَقُلْتُ: يَا رَسُولَ الله ﷺ إِنَّ صَفِيَّةَ (٣) امْرَأَةٌ، وَقَالَتْ: بِيَدِهَا هَكَذَا!

---

(١) هو ابنُ اللُّتْبية، وقيل ابن الأتبية الأزدي: استعمله رسول الله ﷺ على الصدقة، روى عنه أبو حميد الساعدي.

● راجع: «أسد الغابة» (١٢٦٧)، و«معرفة الصحابة» لأبي نعيم (٦/ ٣٠٦٥)، و«توضيح المشتبه» للحافظ (٧/ ٣٥٨) ط الرسالة - بيروت- ١٩٩٣م.

(٢) أخرجه أحمد (٦/ ١٢٨، ١٣٦، ٢٠٦)، وأبو داود، كتاب الأدب، باب في الغيبة (٤٨٧٥)، والترمذيُّ، كتاب صفة القيامة، باب (٥١) (٢٥٠٢)، والطحاوي في «مشكل الآثار» (٣/ ٨٩)، والبيهقيُّ في «الشعب» (٦٧٢١)، وصححه الألباني في «صحيح أبي داود والترمذي»، و«صحيح الجامع» (٥١٤٠).

(٣) هي صفية بنت حيي بن أخطب زوج النبي ﷺ.

قال أبو عمر: كانت صفيةُ حليمةً عاقلةً فاضلةً، استصفاها رسول الله ﷺ، وصارت في سهمه، ثم أعتقها، وجعل عتقها صداقها.

قيل: ماتت سنة ست وثلاثين، حكاه ابن حبان، وجزم به ابن منده، وهو غلط، وقال الواقديُّ: ماتت في شهر رمضان سنة خمسين، وهذا أقرب.

● راجع: «الاستيعاب» (٥٧٥)، و«الإصابة»(١١٤٠٧).

كَأَنَّهَا تَعْنِي قَصِيرَةً؛ فَقَالَ: «**لَقَدْ مَزَجْتِ بِكَلِمَةٍ لَوْ مَزَجْتِ بِهَا مَاءَ الْبَحْرِ لَمُزِجَ**».

○ قَوْلُهُ فِي: «**مَا يَسُرُّنِي أَنِّي حَكَيْتُ رَجُلًا وَأَنَّ لِي كَذَا وَكَذَا**»؛ أَيْ: مَا يَسُرُّنِي أَنْ أَتَحَدَّثَ بِعَيْبِهِ، أَوْ مَا يَسُرُّنِي أَنْ أُحَاكِيَهُ بِأَنْ أَفْعَلَ أَوْ أَقُولَ مِثْلَ قَوْلِهِ عَلَى وَجْهِ التَّنْقِيصِ، «**وَأَنَّ لِي كَذَا وَكَذَا**» أَيْ: وَلَوْ أُعْطِيتُ كَذَا وَكَذَا مِنَ الدُّنْيَا؛ أَيْ: شَيْئًا كَثِيرًا عَلَى ذَلِكَ؛ قَالَهُ الْعَظِيمُ آبَادِي(١).

وَفِي «**الصَّحِيحَيْنِ**» (٢) وَاللَّفْظُ لِمُسْلِمٍ عَنِ ابْنِ مَسْعُودٍ ﷺ قَالَ: جَاءَ رَجُلٌ إِلَى النَّبِيِّ ﷺ؛ فَقَالَ: يَا رَسُولَ اللهِ إِنِّي عَالَجْتُ امْرَأَةً فِي أَقْصَى الْمَدِينَةِ، وَإِنِّي أَصَبْتُ مِنْهَا مَا دُونَ أَنْ أَمَسَّهَا، فَأَنَا هَذَا، فَاقْضِ فِيَّ مَا شِئْتَ؛ فَقَالَ لَهُ عُمَرُ: لَقَدْ سَتَرَكَ اللهُ لَوْ سَتَرْتَ نَفْسَكَ - قَالَ - فَلَمْ يَرُدَّ النَّبِيُّ ﷺ شَيْئًا، فَقَامَ الرَّجُلُ، فَانْطَلَقَ فَأَتْبَعَهُ النَّبِيُّ ﷺ رَجُلاً دَعَاهُ، وَتَلاَ عَلَيْهِ هَذِهِ الآيَةَ: ﴿وَأَقِمِ ٱلصَّلَوٰةَ طَرَفَيِ ٱلنَّهَارِ وَزُلَفًا مِّنَ ٱلَّيْلِ ۚ إِنَّ ٱلْحَسَنَٰتِ يُذْهِبْنَ ٱلسَّيِّـَٔاتِ ۚ ذَٰلِكَ ذِكْرَىٰ لِلذَّٰكِرِينَ﴾ [هود:١١٤]؛ فَقَالَ رَجُلٌ مِنَ الْقَوْمِ: يَا نَبِيَّ اللهِ هَذَا لَهُ خَاصَّةً؟ قَالَ: «**بَلْ لِلنَّاسِ كَافَّةً**».

وَفِي «**صَحِيحِ**» **الْبُخَارِيِّ** (٣) عَنِ الْمُسَيَّبِ بْنِ حَزْنٍ أَنَّ أَبَاهُ جَاءَ إِلَى النَّبِيِّ ﷺ؛ فَقَالَ: «**مَا اسْمُكَ؟**»، قَالَ: حَزْنٌ، قَالَ: «**أَنْتَ سَهْلٌ**»، قَالَ: لَا أُغَيِّرُ اسْمًا سَمَّانِيهِ أَبِي، قَالَ ابْنُ الْمُسَيَّبِ: فَمَا زَالَتِ الْحُزُونَةُ فِينَا بَعْدُ.

وَفِي «**صَحِيحِ**» (٤) **مُسْلِمٍ** عَنْ سَلَمَةَ بْنِ الْأَكْوَعِ (٥) ﷺ أَنَّ رَجُلاً أَكَلَ عِنْدَ

---

(١) «عون المعبود شرح سنن أبي داود» (٨/ ٢٣٨).

(٢) أخرجه البخاريُّ، كتاب مواقيت الصلاة، باب الصلاة كفارة (٥٢٦)، ومسلمٌ، كتاب التوبة، باب قوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلْحَسَنَٰتِ يُذْهِبْنَ ٱلسَّيِّـَٔاتِ﴾ (٢٧٦٣/ ٤٢) ومثله في البخاري (٦٨٢٣)، ومسلم (٢٧٦٤) عن أنس ﷺ.

(٣) أخرجه البخاريُّ، كتاب الأدب، باب اسم الحزن (٦١٩٠ و٦١٩٣).

(٤) أخرجه مسلمٌ، كتاب الأشربة، باب آداب الطعام والشراب وأحكامهما (٢٠٢١).

(٥) هو سلمة بن عمرو الأكوع، واسم الأكوع سنان بن عبد الله بن قشير بن خزيمة بن =

رَسُولِ اللهِ ﷺ بِشِمَالِهِ فَقَالَ: «كُلْ بِيَمِينِكَ»، قَالَ: لاَ أَسْتَطِيعُ، قَالَ: «لاَ اسْتَطَعْتَ»، مَا مَنَعَهُ إِلَّا الْكِبْرُ، قَالَ: فَمَا رَفَعَهَا إِلَى فِيهِ.

وَفِي «الصَّحِيحَيْنِ» (١) عَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ رضي الله عنهما قَالَ: كَانَ الْفَضْلُ رَدِيفَ النَّبِيِّ ﷺ، فَجَاءَتِ امْرَأَةٌ مِنْ خَثْعَمَ، فَجَعَلَ الْفَضْلُ يَنْظُرُ إِلَيْهَا وَتَنْظُرُ إِلَيْهِ، فَجَعَلَ النَّبِيُّ ﷺ يَصْرِفُ وَجْهَ الْفَضْلِ إِلَى الشِّقِّ الآخَرِ، فَقَالَتْ: إِنَّ فَرِيضَةَ اللهِ أَدْرَكَتْ أَبِي شَيْخًا كَبِيرًا لَا يَثْبُتُ عَلَى الرَّاحِلَةِ أَفَأَحُجُّ عَنْهُ؟ قَالَ: «نَعَمْ»، وَذَلِكَ فِي حَجَّةِ الْوَدَاعِ.

وَفِي الْبُخَارِيِّ فِي «الْأَدَبِ الْمُفْرَدِ»، وَ«مُسْنَدِ» أَحْمَدَ، وَ«سُنَنِ» ابْنِ مَاجَهْ وَالنَّسَائِيِّ (٢) عَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ رضي الله عنهما أَنَّ رَجُلًا قَالَ لِلنَّبِيِّ ﷺ مَا شَاءَ اللهُ وَشِئْتَ؛ فَقَالَ لَهُ النَّبِيُّ ﷺ: «**أَجَعَلْتَنِي لِلَّهِ نِدًّا؟ بَلْ قُلْ: مَا شَاءَ اللهُ وَحْدَهُ**».

وَرَوَى أَحْمَدُ فِي «مُسْنَدِهِ»، وَالتِّرْمِذِيُّ فِي «سُنَنِهِ» وَغَيْرُهُمَا (٣) عَنْ أَبِي وَاقِدٍ

=

مالك بن سلامان بن أسلم الأسلمي، هكذا يقول جماعة أهل الحديث، ينسبونه إلى جده، يكنى: أبا مسلم، وقيل: أبا إياس، وقال بعضهم: يكنى: أبا عامر والأكثر أبو إياس، كان ممن بايع تحت الشجرة، سكن بالربذة، وكان شجاعًا راميًا سخيًّا خيرًا فاضلًا، توفي بالمدينة سنة أربع وسبعين، وقيل: توفي سنة أربع وستين.

● راجع: «الاستيعاب» (١٠١٧)، و«أسد الغابة» (٢١٥٦)، و«الإصابة» (٣٤٠١).

(١) أخرجه البخاريُّ، كتاب الحج، باب وجوب الحج وفضله (١٥١٣)، ومسلمٌ، كتاب الحج، باب الحج عن العاجز لزمانه وهرم ونحوهما أو للموت (١٣٣٤).

(٢) أخرجه البخاريُّ في «الأدب المفرد» (٧٨٣)، وأحمد في «مسنده» (١/ ٢١٤،٢٢٤، ٢٨٣، ٣٤٧)، وابن ماجه، كتاب الكفارات، باب النهي أن يقال ما شاء الله وشئت (٢١١٧)، والنسائيُّ في «الكبرى» (١٠٨٢٥)، وابن أبي شيبة في «مصنفه» (٦٧٤٢)، والبيهقيُّ في «الكبير» (٣/ ٢١٧) من حديث الأجلح عن يزيد بن الأصم عن ابن عباس، وأخرجه النسائيُّ في «الكبرى» (١٠٨٢٤)، من حديث الأجلح عن أبي الزبير عن جابر، والحديث حسَّنه الألباني في «الصحيحة» (١٣٩، ١٠٩٣).

(٣) أخرجه أحمد (٥/ ٢١٨)، والحميدي في «مسنده» (٨٤٨)، وابن أبي شيبة في «مصنفه»

=

اللَّيْثِيِّ ﷺ أَنَّ رَسُولَ الله ﷺ لَمَّا خَرَجَ إِلَى حُنَيْنٍ مَرَّ بِشَجَرَةٍ لِلْمُشْرِكِينَ يُقَالُ لَهَا: ذَاتُ أَنْوَاطٍ؛ يُعَلِّقُونَ عَلَيْهَا أَسْلِحَتَهُمْ، فَقَالُوا: يَا رَسُولَ الله! اجْعَلْ لَنَا ذَاتَ أَنْوَاطٍ، كَمَا لَهُمْ ذَاتُ أَنْوَاطٍ؛ فَقَالَ النَّبِيُّ ﷺ: «**سُبْحَانَ الله! هَذَا كَمَا قَالَ قَوْمُ مُوسَى: اجْعَلْ لَنَا إِلَهًا كَمَا لَهُمْ آلِهَةٌ، وَالَّذِي نَفْسِي بِيَدِهِ لَتَرْكَبُنَّ سُنَّةَ مَنْ كَانَ قَبْلَكُمْ**».

وَفِي «**الصَّحِيحَيْنِ**» (١) عَنِ ابْنِ عُمَرَ ﷺ قَالَ: قَالَ رَسُولُ الله ﷺ لِلْمُتَلَاعِنَيْنِ: «**حِسَابُكُمَا عَلَى الله، أَحَدُكُمَا كَاذِبٌ لَا سَبِيلَ لَكَ عَلَيْهَا**»، قَالَ: يَا رَسُولَ الله مَالِي، قَالَ: «**لَا مَالَ لَكَ إِنْ كُنْتَ صَدَقْتَ عَلَيْهَا فَهُوَ بِمَا اسْتَحْلَلْتَ مِنْ فَرْجِهَا، وَإِنْ كُنْتَ كَذَبْتَ عَلَيْهَا فَذَاكَ أَبْعَدُ لَكَ مِنْهَا**»، وقال: «**الله يَعْلَمُ أَنَّ أَحَدَكُمَا كَاذِبٌ فَهَلْ مِنْكُمَا تَائِبٌ؟**».

وَفِي «**الصَّحِيحَيْنِ**» (٢) عَنْ عَائِشَةَ ﷺ أَنَّهَا اشْتَرَتْ نُمْرُقَةً فِيهَا تَصَاوِيرُ، فَلَمَّا رَآهَا رَسُولُ الله ﷺ قَامَ عَلَى الْبَابِ فَلَمْ يَدْخُلْهُ، فَعَرَفْتُ فِي وَجْهِهِ الْكَرَاهِيَةَ، فَقُلْتُ: يَا رَسُولَ الله، أَتُوبُ إِلَى الله وَإِلَى رَسُولِهِ، مَاذَا أَذْنَبْتُ؟ فَقَالَ رَسُولُ الله ﷺ: «**مَا بَالُ هَذِهِ النُّمْرُقَةِ؟**» قُلْتُ: اشْتَرَيْتُهَا لَكَ لِتَقْعُدَ عَلَيْهَا، وَتَوَسَّدَهَا؛ فَقَالَ رَسُولُ الله ﷺ: «**إِنَّ أَصْحَابَ هَذِهِ الصُّوَرِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ يُعَذَّبُونَ؛ فَيُقَالُ لَهُمْ: أَحْيُوا**

=

(١٥/ ١٠١)، والترمذيُّ، كتاب الفتن، باب ما جاء لتركبن سنن من كان قبلكم (٢١٨٠)، وقال: «حديث حسن صحيح»، وابن حبان (٦٧٠٢)، وابن أبي عاصم في «السنة» (٧٦)، وأبو يعلى في «مسنده» (١٤٤١)، وصححه الألباني في «صحيح سنن الترمذي»، و«صحيح الجامع» (٣٦٠١)، و«المشكاة» (٥٤٠٨).

(١) أخرجه البخاريُّ، كتاب الطلاق، باب إخلاف الملاعن (٥٣٠٦، ٥٣١١، ٥٣١٢)، ومسلمٌ، كتاب اللعان (١٤٩٣).

(٢) أخرجه البخاريُّ، كتاب البيوع، باب التجارة فيما يكره لبسه للرجال والنساء (٢١٠٥)، ومسلمٌ، كتاب اللباس والزينة، باب تحريم تصوير صور الحيوان وتحريم اتخاذ ما فيه صورة غير ممتهنة بالفرش ونحوه (٢١٠٧/ ٩٦).

مَا خَلَقْتُمْ»، وَقَالَ: «إِنَّ الْبَيْتَ الَّذِي فِيهِ الصُّوَرُ لا تَدْخُلُهُ الْمَلَائِكَةُ».

وَفِي «الصَّحِيحَيْنِ»(١) عَنْ أَبِي ذَرٍّ رضي الله عنه قَالَ: كَانَ بَيْنِي وَبَيْنَ رَجُلٍ كَلَامٌ، وَكَانَتْ أُمُّهُ أَعْجَمِيَّةً، فَنِلْتُ مِنْهَا فَذَكَرَنِي إِلَى النَّبِيِّ ﷺ؛ فَقَالَ لِي: «أَسَابَبْتَ فُلَانًا؟» قُلْتُ: نَعَمْ، قَالَ: «أَفَنِلْتَ مِنْ أُمِّهِ؟» قُلْتُ: نَعَمْ، قَالَ: «إِنَّكَ امْرُؤٌ فِيكَ جَاهِلِيَّةٌ»، قُلْتُ: عَلَى حِينِ سَاعَتِي هَذِهِ مِنْ كِبَرِ السِّنِّ، قَالَ: «نَعَمْ هُمْ إِخْوَانُكُمْ، جَعَلَهُمُ اللهُ تَحْتَ أَيْدِيكُمْ، فَمَنْ جَعَلَ اللهُ أَخَاهُ تَحْتَ يَدِهِ، فَلْيُطْعِمْهُ مِمَّا يَأْكُلُ، وَلْيُلْبِسْهُ مِمَّا يَلْبَسُ، وَلَا يُكَلِّفُهُ مِنَ الْعَمَلِ مَا يَغْلِبُهُ؛ فَإِنْ كَلَّفَهُ مَا يَغْلِبُهُ فَلْيُعِنْهُ عَلَيْهِ».

وَفِي لَفْظِ مُسْلِمٍ: قَالَ: يَا رَسُولَ اللهِ، مَنْ سَبَّ الرِّجَالَ سَبُّوا أَبَاهُ وَأُمَّهُ.

وَفِي «الصَّحِيحَيْنِ»(٢) عَنِ النُّعْمَانِ بْنِ بَشِيرٍ رضي الله عنه قَالَ: إِنَّ أَبَاهُ أَتَى بِهِ رَسُولَ اللهِ ﷺ؛ فَقَالَ: إِنِّي نَحَلْتُ ابْنِي هَذَا غُلَامًا كَانَ لِي؛ فَقَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: «أَكُلَّ وَلَدِكَ نَحَلْتَهُ مِثْلَ هَذَا؟» فَقَالَ: لَا؛ فَقَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: «فَارْجِعْهُ».

وَفِي رِوَايَةٍ قَالَ: «اتَّقُوا اللهَ، وَاعْدِلُوا فِي أَوْلَادِكُمْ».

وَفِي رِوَايَةٍ قَالَ: «فَأَشْهِدْ عَلَى هَذَا غَيْرِي»، ثُمَّ قَالَ: «أَيَسُرُّكَ أَنْ يَكُونُوا إِلَيْكَ فِي الْبِرِّ سَوَاءً»، قَالَ: بَلَى، قَالَ: «فَلَا إِذًا».

وَفِي «صَحِيحِ» مُسْلِمٍ(٣) مِنْ حَدِيثِ عَمْرِو بْنِ الْعَاصِ رضي الله عنه قَالَ: رَأَى

---

(١) أخرجه البخاريُّ، كتاب الأدب، باب ما ينهى عن السباب واللعن (٦٠٥٠)، ومسلمٌ، كتاب الأيمان، باب إطعام المملوك مما يأكل وإلباسه مما يلبس ولا يكلفه ما يغلبه (١٦٦١).

(٢) أخرجه البخاريُّ، كتاب الهبة، باب الهبة للولد (٢٥٨٦)، وفي باب الإشهاد في الهبة (٢٥٨٧)؛ وانظر: (٢٦٥٠)، ومسلمٌ، كتاب الفرائض، باب كراهة تفضيل بعض الأولاد في الهبة (١٦٢٣).

(٣) أخرجه مسلمٌ، كتاب اللباس والزينة، باب النهي عن لُبس الرجل الثوب المعصفر (٢٠٧٧).

رَسُولُ الله ﷺ عَلَيَّ ثَوْبَيْنِ مُعَصْفَرَيْنِ؛ فَقَالَ: «**أُمُّكَ أَمَرَتْكَ بِهَذا؟**» قُلْتُ: أَغْسِلُهُمَا؟ قَالَ: «**بَلْ أَحْرِقْهُمَا**».

وَفِي رِوَايَةٍ: «**إِنَّ هَذِهِ مِنْ ثِيَابِ الْكُفَّارِ، فَلَا تَلْبَسْهَا**».

قَالَ النَّوَوِيُّ رحمه الله (١): «**أُمُّكَ أَمَرَتْكَ بِهَذَا**» مَعْنَاهُ أَنَّ هَذَا مِنْ لِبَاسِ النِّسَاءِ وَزِيِّهِنَّ وَأَخْلَاقِهِنَّ، وَأَمَّا الْأَمْرُ بِإِحْرَاقِهِمَا؛ فَقِيلَ: هُوَ عُقُوبَةٌ وَتَغْلِيظٌ؛ لِزَجْرِهِ وَزَجْرِ غَيْرِهِ عَنْ مِثْلِ هَذَا الْفِعْلِ، وَهَذَا نَظِيرُ أَمْرِ تِلْكَ الْمَرْأَةِ الَّتِي لَعَنَتِ النَّاقَةَ بِإِرْسَالِهَا، وَأَمْرِ أَصْحَابِ بَرِيرَةَ بِبَيْعِهَا، وَأَنْكَرَ عَلَيْهِمُ اشْتِرَاطَ الْوَلَاءِ، وَنَحْوِ ذَلِكَ. وَاللهُ أَعْلَمُ».

وَفِي «**صَحِيحِ مُسْلِمٍ**» (٢) مِنْ حَدِيثِ بُرَيْدَةَ بْنِ الْحُصَيْبِ (٣) رضي الله عنه قَالَ: جَاءَ مَاعِزُ بْنُ مَالِكٍ(٤) إِلَى النَّبِيِّ ﷺ؛ فَقَالَ: يَا رَسُولَ الله طَهِّرْنِي؛ فَقَالَ: «**وَيْحَكَ!**

---

(١) «مسلم شرح النووي» (٧/ ٣٠٥).

(٢) أخرجه مسلمٌ، كتاب الحدود، باب من اعترف على نفسه بالزنى (١٦٩٥) (٢٢)؛ وراجع: «صحيح البخاري» (رقم: ٦٨٢٥)، و«صحيح مسلم» (برقم:١٦٩١م) (١٦).

(٣) هو بريدة بن الحصيب بن عبد الله بن الحارث بن الأعرج الأسلميُّ، قال الذهبيُّ: قال ابن السكن، أسلم حين مر به النبيُّ ﷺ مهاجرًا بالغميم، وأقام في موضعه حين مضت بدر وأحد، ثم قدم بعد ذلك، وقيل: أسلم بعد منصرف النبيِّ ﷺ من بدر، وسكن البصرة لما فتحت، وفي «الصحيحين» عنه أنه غزا مع النبيِّ ﷺ ست عشرة غزوة، قال أبو علي الطوسيُّ: اسم بريدة: عامر، وبريدةُ لقبٌ، وأخبار بريدة كثيرة، ومناقبه مشهورة، وكان غزا خراسان في زمن عثمان رضي الله عنه، ثم تحول إلى مرو فسكنها إلى أن مات في خلافة يزيد بن معاوية، قال ابن سعد: مات سنة ثلاث وستين.

● راجع: «الإصابة» (ترجمة: ٦٣٢).

(٤) هو ماعز بن مالك الأسلمي؛ قال ابن حبان: «له صحبة»، وقال ابن عبد البر: «معدود في المدنيين، كتب له رَسُول الله ﷺ كتابًا بإسلام قومه، وهو الذي اعترف على نفسه بالزنا تائبًا منيبًا، وكان محصنًا، فرجم - رحمة الله عليه - روى عنه ابنه عبد الله بن ماعز حديثًا واحدًا».

=

ارْجِعْ فَاسْتَغْفِرِ الله وَتُبْ إِلَيْهِ». قَالَ: فَرَجَعَ غَيْرَ بَعِيدٍ ثُمَّ جَاءَ، فَقَالَ: يَا رَسُولَ الله طَهِّرْنِي؛ فَقَالَ رَسُولُ الله ﷺ: «**وَيْحَكَ ارْجِعْ فَاسْتَغْفِرِ الله وَتُبْ إِلَيْهِ**». قَالَ: فَرَجَعَ غَيْرَ بَعِيدٍ، ثُمَّ جَاءَ فَقَالَ: يَا رَسُولَ الله طَهِّرْنِي؛ فَقَالَ النَّبِيُّ ﷺ مِثْلَ ذَلِكَ حَتَّى إِذَا كَانَتِ الرَّابِعَةُ قَالَ لَهُ رَسُولُ الله: «**فِيمَ أُطَهِّرُكَ؟**» فَقَالَ: مِنَ الزِّنَى. فَسَأَلَ رَسُولُ الله ﷺ: «**أَبِهِ جُنُونٌ؟**» فَأُخْبِرَ أَنَّهُ لَيْسَ بِمَجْنُونٍ؛ فَقَالَ: «**أَشَرِبَ خَمْرًا؟**» فَقَامَ رَجُلٌ فَاسْتَنْكَهَهُ، فَلَمْ يَجِدْ مِنْهُ رِيحَ خَمْرٍ. قَالَ: فَقَالَ رَسُولُ الله ﷺ: «**أَزَنَيْتَ؟**» فَقَالَ: نَعَمْ. فَأَمَرَ بِهِ، فَرُجِمَ، فَكَانَ النَّاسُ فِيهِ فِرْقَتَيْنِ قَائِلٌ يَقُولُ: لَقَدْ هَلَكَ لَقَدْ أَحَاطَتْ بِهِ خَطِيئَتُهُ، وَقَائِلٌ يَقُولُ: مَا تَوْبَةٌ أَفْضَلَ مِنْ تَوْبَةِ مَاعِزٍ أَنَّهُ جَاءَ إِلَى النَّبِيِّ ﷺ، فَوَضَعَ يَدَهُ فِي يَدِهِ، ثُمَّ قَالَ: اقْتُلْنِي بِالْحِجَارَةِ. قَالَ: فَلَبِثُوا بِذَلِكَ يَوْمَيْنِ أَوْ ثَلَاثَةً، ثُمَّ جَاءَ رَسُولُ الله ﷺ، وَهُمْ جُلُوسٌ، فَسَلَّمَ، ثُمَّ جَلَسَ؛ فَقَالَ: «**اسْتَغْفِرُوا لِمَاعِزِ بْنِ مَالِكٍ**». قَالَ: فَقَالُوا: غَفَرَ الله لِمَاعِزِ ابْنِ مَالِكٍ. قَالَ: فَقَالَ رَسُولُ الله ﷺ: «**لَقَدْ تَابَ تَوْبَةً لَوْ قُسِمَتْ بَيْنَ أُمَّةٍ لَوَسِعَتْهُمْ**».

وَفِي رِوَايَةٍ عِنْدَ مُسْلِمٍ (١) **أَيْضًا**: أَنَّ مَاعِزَ بْنَ مَالِكٍ الأَسْلَمِيَّ أَتَى رَسُولَ الله ﷺ فَقَالَ: يَا رَسُولَ الله، إِنِّي قَدْ ظَلَمْتُ نَفْسِي وَزَنَيْتُ وَإِنِّي أُرِيدُ أَنْ تُطَهِّرَنِي. فَرَدَّهُ؛ فَلَمَّا كَانَ مِنَ الْغَدِ أَتَاهُ فَقَالَ: يَا رَسُولَ الله، إِنِّي قَدْ زَنَيْتُ. فَرَدَّهُ الثَّانِيَةَ؛ فَأَرْسَلَ رَسُولُ الله ﷺ إِلَى قَوْمِهِ فَقَالَ: «**أَتَعْلَمُونَ بِعَقْلِهِ بَأْسًا تُنْكِرُونَ مِنْهُ شَيْئًا؟**»، فَقَالُوا: مَا نَعْلَمُهُ إِلَّا وَفِيَّ الْعَقْلِ مِنْ صَالِحِينَا فِيمَا نُرَى؛ فَأَتَاهُ الثَّالِثَةَ، فَأَرْسَلَ إِلَيْهِمْ أَيْضًا، فَسَأَلَ عَنْهُ، فَأَخْبَرُوهُ أَنَّهُ لَا بَأْسَ بِهِ وَلَا بِعَقْلِهِ، فَلَمَّا كَانَ الرَّابِعَةَ حَفَرَ لَهُ حُفْرَةً، ثُمَّ أَمَرَ بِهِ فَرُجِمَ. قَالَ: فَجَاءَتِ الْغَامِدِيَّةُ فَقَالَتْ: يَا رَسُولَ الله إِنِّي قَدْ زَنَيْتُ فَطَهِّرْنِي. وَإِنَّهُ رَدَّهَا فَلَمَّا كَانَ الْغَدُ قَالَتْ: يَا رَسُولَ الله، لِمَ تَرُدُّنِي لَعَلَّكَ أَنْ تَرُدَّنِي

=

● راجع: «الاستيعاب» (ترجمة:١٢٦٧)، و«أسد الغابة» (ترجمة:٤٥٥٧)، و«الإصابة» (ترجمة: ٧٦٠٣).

(١) أخرجه مسلمٌ، كتاب الحدود (١٦٩٥/ ٢٣).

كَمَا رَدَدْتَ مَاعِزًا؛ فَوَاللهِ إِنِّي لَحُبْلَى. قَالَ: «**إِمَّا لاَ فَاذْهَبِي حَتَّى تَلِدِي**»؛ فَلَمَّا وَلَدَتْ أَتَتْهُ بِالصَّبِيِّ فِي خِرْقَةٍ قَالَتْ: هَذَا قَدْ وَلَدْتُهُ. قَالَ: «**اذْهَبِي فَأَرْضِعِيهِ حَتَّى تَفْطِمِيهِ**»، فَلَمَّا فَطَمَتْهُ أَتَتْهُ بِالصَّبِيِّ فِي يَدِهِ كِسْرَةُ خُبْزٍ؛ فَقَالَتْ: هَذَا يَا نَبِيَّ اللهِ قَدْ فَطَمْتُهُ، وَقَدْ أَكَلَ الطَّعَامَ؛ فَدَفَعَ الصَّبِيَّ إِلَى رَجُلٍ مِنَ الْمُسْلِمِينَ، ثُمَّ أَمَرَ بِهَا فَحُفِرَ لَهَا إِلَى صَدْرِهَا وَأَمَرَ النَّاسَ فَرَجَمُوهَا؛ فَيُقْبِلُ خَالِدُ بْنُ الْوَلِيدِ بِحَجَرٍ فَرَمَى رَأْسَهَا فَتَنَضَّحَ الدَّمُ عَلَى وَجْهِ خَالِدٍ فَسَبَّهَا فَسَمِعَ نَبِيُّ اللهِ ﷺ سَبَّهُ إِيَّاهَا، فَقَالَ: «**مَهْلاً يَا خَالِدُ؛ فَوَالَّذِي نَفْسِي بِيَدِهِ لَقَدْ تَابَتْ تَوْبَةً لَوْ تَابَهَا صَاحِبُ مَكْسٍ لَغُفِرَ لَهُ**». ثُمَّ أَمَرَ بِهَا فَصَلَّى عَلَيْهَا وَدُفِنَتْ.

وَفِيهِ أَيْضًا (١): مِنْ حَدِيثِ عِمْرَانَ بْنِ حُصَيْنٍ رضي الله عنه أَنَّ امْرَأَةً مِنْ جُهَيْنَةَ أَتَتْ نَبِيَّ اللهِ ﷺ وَهِيَ حُبْلَى مِنَ الزِّنَى فَقَالَتْ: يَا نَبِيَّ اللهِ، أَصَبْتُ حَدًّا فَأَقِمْهُ عَلَيَّ؛ فَدَعَا نَبِيُّ اللهِ ﷺ وَلِيَّهَا فَقَالَ: «**أَحْسِنْ إِلَيْهَا، فَإِذَا وَضَعَتْ فَائْتِنِي بِهَا**». فَفَعَلَ فَأَمَرَ بِهَا نَبِيُّ اللهِ ﷺ فَشُكَّتْ عَلَيْهَا ثِيَابُهَا، ثُمَّ أَمَرَ بِهَا فَرُجِمَتْ، ثُمَّ صَلَّى عَلَيْهَا، فَقَالَ لَهُ عُمَرُ: تُصَلِّي عَلَيْهَا يَا نَبِيَّ اللهِ وَقَدْ زَنَتْ؛ فَقَالَ: «**لَقَدْ تَابَتْ تَوْبَةً لَوْ قُسِمَتْ بَيْنَ سَبْعِينَ مِنْ أَهْلِ الْمَدِينَةِ لَوَسِعَتْهُمْ، وَهَلْ وَجَدْتَ تَوْبَةً أَفْضَلَ مِنْ أَنْ جَادَتْ بِنَفْسِهَا لِلَّهِ تَعَالَى؟**».

قَالَ النَّوَوِيُّ رحمه الله (٢): «قَوْلُهُ ﷺ لِوَلِيِّ الْغَامِدِيَّةِ: «**أَحْسِنْ إِلَيْهَا، فَإِذَا وَضَعَتْ فَائْتِنِي بِهَا**» هَذَا الْإِحْسَانُ لَهُ سَبَبَانِ: **أَحَدُهُمَا**: الْخَوْفُ عَلَيْهَا مِنْ أَقَارِبِهَا أَنْ تَحْمِلَهُمُ الْغَيْرَةُ وَلُحُوقُ الْعَارِ بِهِمْ أَنْ يُؤْذُوهَا، فَأَوْصَى بِالْإِحْسَانِ إِلَيْهَا تَحْذِيرًا لَهُمْ مِنْ ذَلِكَ.

وَالثَّانِي: أَمَرَ بِهِ رَحْمَةً لَهَا، إِذْ قَدْ تَابَتْ، وَحَرَّضَ عَلَى الْإِحْسَانِ إِلَيْهَا؛ لِمَا فِي نُفُوسِ النَّاسِ مِنَ النُّفْرَةِ مِنْ مِثْلِهَا، وَإِسْمَاعِهَا الْكَلَامَ الْمُؤْذِيَ وَنَحْوِ ذَلِكَ؛ فَنَهَى

---

(١) أخرجه مسلمٌ، كتاب الحدود (١٦٩٦).
(٢) «شرح مسلم» للنووي (١١/ ٢٠٥) ط الريان.

عَنْ هَذَا كُلِّهِ».

وَفِي «صَحِيحِ الْبُخَارِيِّ»[(١)] مِنْ حَدِيثِ عُمَرَ بْنِ الْخَطَّابِ رضي الله عنه أَنَّ رَجُلًا عَلَى عَهْدِ النَّبِيِّ ﷺ كَانَ اسْمُهُ عَبْدَ اللهِ، وَكَانَ يُلَقَّبُ حِمَارًا، وَكَانَ يُضْحِكُ رَسُولَ اللهِ ﷺ، وَكَانَ النَّبِيُّ ﷺ قَدْ جَلَدَهُ فِي الشَّرَابِ، فَأُتِيَ بِهِ يَوْمًا، فَأَمَرَ بِهِ فَجُلِدَ، فَقَالَ رَجُلٌ مِنَ الْقَوْمِ: اللهمَّ الْعَنْهُ مَا أَكْثَرَ مَا يُؤْتَى بِهِ! فَقَالَ النَّبِيُّ ﷺ: «**لَا تَلْعَنُوهُ؛ فَوَاللهِ مَا عَلِمْتُ إِلَّا أَنَّهُ يُحِبُّ اللهَ وَرَسُولَهُ**».

قَالَ الْحَافِظُ ابْنُ حَجَرٍ فِي «الْفَتْحِ»[(٢)]: «وَفِي هَذَا الْحَدِيثِ مِنَ الْفَوَائِدِ: فِيهِ الرَّدُّ عَلَى مَنْ زَعَمَ أَنَّ مُرْتَكِبَ الْكَبِيرَةِ كَافِرٌ؛ لِثُبُوتِ النَّهْيِ عَنْ لَعْنِهِ وَالْأَمْرِ بِالدُّعَاءِ لَهُ. وَفِيهِ أَنْ لَا تَنَافِيَ بَيْنَ ارْتِكَابِ النَّهْيِ وَثُبُوتِ مَحَبَّةِ اللهِ وَرَسُولِهِ فِي قَلْبِ الْمُرْتَكِبِ؛ لِأَنَّهُ ﷺ أَخْبَرَ بِأَنَّ الْمَذْكُورَ يُحِبُّ اللهَ وَرَسُولَهُ مَعَ وُجُودِ مَا صَدَرَ مِنْهُ. وَأَنَّ مَنْ تَكَرَّرَتْ مِنْهُ الْمَعْصِيَةُ لَا تُنْزَعُ مِنْهُ مَحَبَّةُ اللهِ وَرَسُولِهِ، وَيُؤْخَذُ مِنْهُ تَأْكِيدُ مَا تَقَدَّمَ أَنَّ نَفْيَ الْإِيمَانِ عَنْ شَارِبِ الْخَمْرِ لَا يُرَادُ بِهِ زَوَالُهُ بِالْكُلِّيَّةِ بَلْ نَفْيُ كَمَالِهِ كَمَا تَقَدَّمَ، وَيُحْتَمَلُ أَنْ يَكُونَ اسْتِمْرَارُ ثُبُوتِ مَحَبَّةِ اللهِ وَرَسُولِهِ فِي قَلْبِ الْعَاصِي مُقَيَّدًا بِمَا إِذَا نَدِمَ عَلَى وُقُوعِ الْمَعْصِيَةِ، وَأُقِيمَ عَلَيْهِ الْحَدُّ فَكَفَّرَ عَنْهُ الذَّنْبَ الْمَذْكُورَ، بِخِلَافِ مَنْ لَمْ يَقَعْ مِنْهُ ذَلِكَ، فَإِنَّهُ يُخْشَى عَلَيْهِ بِتَكْرَارِ الذَّنْبِ أَنْ يُطْبَعَ عَلَى قَلْبِهِ شَيْءٌ حَتَّى يُسْلَبَ مِنْهُ ذَلِكَ؛ نَسْأَلُ اللهَ الْعَفْوَ وَالْعَافِيَةَ».

وَفِي «**الصَّحِيحَيْنِ**»[(٣)] عَنْ عَائِشَةَ رضي الله عنها قَالَتْ: سَمِعَ رَسُولُ اللهِ ﷺ صَوْتَ خُصُومٍ بِالْبَابِ عَالِيَةٍ أَصْوَاتُهُمَا، وَإِذَا أَحَدُهُمَا يَسْتَوْضِعُ الْآخَرَ، وَيَسْتَرْفِقُهُ فِي شَيْءٍ، وَهُوَ يَقُولُ: وَاللهِ لَا أَفْعَلُ، فَخَرَجَ عَلَيْهِمَا رَسُولُ اللهِ ﷺ فَقَالَ: «**أَيْنَ**

---

(١) أخرجه البخاريُّ، كتاب الحدود، باب ما يكره من لعن شارب الخمر وأنه ليس بخارج من الملة (٦٧٨٠).

(٢) «فتح الباري» (١٢/ ٨٠).

(٣) أخرجه البخاريُّ، كتاب الصلح، باب هل يشير الإمام بالصلح؟ (٢٧٠٥)، ومسلمٌ، كتاب المساقاة، باب استحباب الوضع من الدين (١٥٥٧).

الْمُتَأَلِّي عَلَى اللهِ لَا يَفْعَلُ الْمَعْرُوفَ؟»؛ فَقَالَ: أَنَا يَا رَسُولَ اللهِ، فَلَهُ أَيُّ ذَلِكَ أَحَبَّ.

وَأَوَدُّ أَنْ أُبَيِّنَ هُنَا مَسْأَلَةً مُهِمَّةً؛ أَلَا وَهِيَ أَنَّ الشَّخْصَ الدَّاعِيَ عَلَيْهِ أَنْ يَرْفُقَ فِي حَالِ دَعْوَتِهِ بِأَهْلِ المَعَاصِي، وَأَنْ لَا يَسْتَخِفَّ بِهِمْ، أَوْ يَحْتَقِرَهُمْ.

وَلَقَدْ ذَكَرَ العَلَّامَةُ ابْنُ القَيِّمِ رَحِمَهُ اللهُ فِي «**المَدَارِجِ**» أَنْ مِنْ عَلَامَاتِ الإِنَابَةِ[1]: «تَرْكُ الاسْتِهَانَةِ بِأَهْلِ الغَفْلَةِ، والخَوْفُ عَلَيْهِمْ، مَعَ فَتْحِكَ بَابَ الرَّجَاءِ لِنَفْسِكَ، فَتَرْجُو لِنَفْسِكَ الرَّحْمَةَ، وَتَخْشَى عَلَى أَهْلِ الغَفْلَةِ النِّقْمَةَ، وَلَكِنِ ارْجُ لَهُمُ الرَّحْمَةَ، وَاخْشَ عَلَى نَفْسِكَ النِّقْمَةَ؛ فَإِنْ كُنْتَ لَابُدَّ مُسْتَهِينًا بِهِمْ، مَاقِتًا لَهُمْ، لِانْكِشَافِ أَحْوَالِهِم لَكَ، وَرُؤْيَةِ مَا هُمْ عَلَيْهِ؛ فَكُنْ لِنَفْسِكَ أَشَدَّ مَقْتًا مِنْكَ لَهُمْ، وَكُنْ أَرْجَى لَهُمْ لِرَحْمَةِ اللهِ مِنْكَ لِنَفْسِكَ».

وَلَقَدْ مَرَّ رَجُلٌ مِنْ أَهْلِ الصَّلَاحِ عَلَى مَجْمُوعَةٍ مِنْ أَهْلِ المَعَاصِي؛ فَقَالَ لَهُ جَلِيسٌ مِنْ جُلَسَائِهِ: ادْعُ اللهَ عَلَيْهِمْ؛ فَرَفَعَ يَدَيْهِ إِلَى السَّمَاءِ؛ فَقَالَ: «إِلَهِي وَسَيِّدِي، اللهُمَّ إِنِّي أَسْأَلُكَ أَنْ تُفَرِّحَهُمْ فِي الْآخِرَةِ، كَمَا فَرَّحْتَهُمْ فِي الدُّنْيَا»، فَقَالَ لَهُ أَصْحَابُهُ: إِنَّا سَأَلْنَاكَ أَنْ تَدْعُوَ عَلَيْهِمْ، وَلَمْ نَسْأَلْكَ أَنْ تَدْعُوَ لَهُمْ، قَالَ: «إِذَا فَرَّحَهُمْ فِي الْآخِرَةِ تَابَ عَلَيْهِمْ فِي الدُّنْيَا، وَلَمْ يَضُرَّكُمْ شَيْءٌ»[2].

فَأَنْتَ - أَيُّهَا الدَّاعِي- تُبْغِضُ المَعْصِيَةَ، وَلَكِنْ فَرْقٌ بَيْنَ بُغْضِ المَعْصِيَةِ، وَبُغْضِ الشَّخْصِ نَفْسِهِ؛ لِأَنَّنِي لَوْ غَضِبتُ مِنْهُ غَضِبْتُ عَلَيْهِ، فَأَنَا أَرْجِعُ إِلَى نَفْسِي لِأَقِفَ عَلَى عَيْبِهَا وَتَقْصِيرِهَا، وَحِينَئِذٍ سَأَكُونُ- إِنْ كُنْتُ مِنَ المُنِيبِينَ الصَّادِقِينَ- أَشَدَّ غَضَبًا- مِنْ نَفْسِي أَكْثَرَ مِنْ غَضَبِي عَلَى هَذَا الغَافِلِ؛ لِأَنَّ عُيُوبِي أَكْثَرُ وَأَنَا أَعْرِفُهَا، وَأَنَا إِنْ طَلَبْتُ الرَّحْمَةَ لِي فَأَنَا أَطْلُبُهَا كَذَلِكَ لِأَخِي المُسْلِمِ الغَافِلِ العَاصِي المُذْنِبِ؛ لِأَنَّهُ رُبَّمَا يَكُونُ أَقَلَّ ذُنُوبًا مِنِّي؛ فَنَحْنُ لَا نَغْتَرُّ بِطَاعَتِنَا أَوْ

---

(١) «المدارج» (١/ ٤٣٨).

(٢) أخرجه البيهقي في «الشعب» (٦٧٠٢).

عِبادَتِنا، وَلَا نَسْتَعْلِي عَلَى أَهْلِ المَعَاصِي؛ فَبَعْضُ النَّاسِ إِذَا أَرَادَ أَنْ يَدْعُوَ غَيْرَهُ؛ فَإِنَّ لِسَانَ حَالِهِ يَقُولُ: أَنَا التَّقِيُّ، وَأَنْتَ الشَّقِيُّ!

أَنَا العَالِمُ، وأَنْتَ الجَاهِلُ!

أَنَا المُتَّبِعُ، وأَنْتَ المُبْتَدِعُ!

وَرَبُّ العِزَّةِ سُبْحَانَهُ يَقُولُ: ﴿كَذَٰلِكَ كُنتُم مِّن قَبْلُ فَمَنَّ ٱللَّهُ عَلَيْكُمْ فَتَبَيَّنُوٓاْ﴾ [النساء:٩٤]؛ فَلِمَ الغُرُورُ، وَلِمَ العُجْبُ؟!! وَلَقَدْ رَوَى مُسْلِمٌ فِي «**الصَّحِيح**»(١) مِنْ حَدِيْثِ أَبِي هُرَيْرَةَ رضي الله عنه أَنَّ النَّبِيَّ ﷺ قَالَ: «**إِذَا قَالَ الرَّجُلُ هَلَكَ النَّاسِ فَهُوَ أَهْلَكُهُمْ**» بِالضَّمِّ، وَفِي رِوَايَةٍ: «**فَهُوَ أَهْلَكَهُمْ**» بِالفَتْحِ. وَالرَّفْعُ أَشْهَرُ؛ كَمَا قَالَ النَّوَوِيُّ رحمه الله فِي «شَرْحِ مُسْلِمٍ»(٢).

فَمُرْ - أَيُّهَا الدَّاعِي- إِخْوَانَكَ العُصَاةَ، وأَنْتَ تُحِبُّ لَهُمُ الخَيْرَ، وَتَرْجُو لَهُمُ الهُدَىٰ وَالنَّجَاةَ.

❊

---

(١) أخرجه مسلمٌ، كتاب البر والصلة والآداب، باب النهي عن قوله: هلك الناس (٢٦٢٣).

(٢)«شرح مسلم» للنوويِّ (١٦/ ١٧٥).

الْمَبْحَثُ السَّابِعُ
دَعْوَتُهُ ﷺ لِلنِّسَاءِ وَتَعْلِيمُهُ لَهُنَّ

لَقَدْ كَرَّمَ الْإِسْلَامُ النِّسَاءَ تَكْرِيمًا مَا كُرِّمْنَ إِيَّاهُ فِي أَيِّ تَشْرِيعٍ عَلَى وَجْهِ الْأَرْضِ!! وَبَيَّنَ الْإِسْلَامُ مَكَانَتَهُنَّ، وَرَفَعَ قَدْرَهُنَّ، وَأَعْلَى شَأْنَهُنَّ.

فَكَرَّمَ اللهُ الْمَرْأَةَ أُمًّا، وَكَرَّمَهَا زَوْجَةً، وَكَرَّمَهَا بِنْتًا، وَكَرَّمَهَا أُخْتًا، وَكَرَّمَهَا خَالَةً، وَكَرَّمَهَا عَمَّةً؛ فَإِذَا كَانَتِ الْمَرْأَةُ تُشَكِّلُ نِصْفَ الْمُجْتَمَعِ؛ فَهِيَ تُقَدِّمُ لِلْمُجْتَمَعِ نِصْفَهُ الْآخَرُ؛ فَهِيَ مُجْتَمَعٌ بِأَسْرِهِ!!

فَهِيَ الَّتِي أَخْرَجَتْ لَنَا الرِّجَالَ الْأَطْهَارَ، وَالْقَادَةَ الْأَبْطَالَ الْأَخْيَارَ، وَالْعُلَمَاءَ الْعَامِلِينَ، وَالدُّعَاةَ الصَّادِقِينَ، وَحِينَ عَرَفَ الْأَعْدَاءُ خَطَرَ الْمَرْأَةِ، وَعَلِمُوا أَنَّ الْمَرْأَةَ الْمُسْلِمَةَ مِنْ أَعْظَمِ أَسْبَابِ الْقُوَّةِ فِي الْمُجْتَمَعِ الْإِسْلَامِيِّ حَارَبُوا حِجَابَهَا، وَخُلُقَهَا، وَدِينَهَا، وَعِفَّتَهَا، وَشَرَفَهَا، وَاخْتَلَقُوا «قَضِيَّةَ الْمَرْأَةِ»، وَ«تَحْرِيرَ الْمَرْأَةِ»!! وَالَّذِي يُدْمِي الْقَلْبَ أَنَّ كَثِيرًا مِنَ الْمُسْلِمَاتِ قَدْ تَأَثَّرْنَ بِهَذِهِ الدَّعَاوَى الْخَطِيرَةِ الَّتِي يُغْنِي بُطْلَانُهَا عَنْ إِبْطَالِهَا، وَظَنَّتِ الْمُسْلِمَةُ أَنَّهَا بِالْفِعْلِ مَظْلُومَةٌ، وَأَنَّهَا شِقٌّ مُهْمَلَةٌ، وَرِئَةٌ مُعَطَّلَةٌ، وَأَنَّ الْبَيْتَ سِجْنٌ مُؤَبَّدٌ، وَأَنَّ الزَّوْجَ سَجَّانٌ قَاهِرٌ! وَأَنَّ الْأُمُومَةَ تَكَاثُرٌ حَيَوَانِيٌّ لَا يَلِيقُ بِحَضَارَةِ الْقَرْنِ الْحَادِي وَالْعِشْرِينَ!!! فَعَلَى الْمَرْأَةِ الْمُسْلِمَةِ أَنْ تَفْطِنَ لِهَذَا الْمُخَطَّطِ الْخَبِيثِ، وَأَلَّا تَسْتَمِعَ إِلَى هَؤُلَاءِ الَّذِينَ يُرِيدُونَ مِنْهَا أَنْ تَتَفَلَّتَ مِنْ ضَوَابِطِ الشَّرْعِ وَقَوَاعِدِهِ الْمَعْلُومَةِ الْمَرْعِيَّةِ.

يَا دُرَّةً حُفِظَتْ بِالْأَمْسِ غَالِيَةً	وَالْيَوْمَ يَدْعُونَهَا لِلَّهْوِ وَاللَّعِبِ
يَا حُرَّةً قَدْ أَرَادُوا جَعْلَهَا أَمَةً	غَرِيبَةَ الْعَقْلِ غَرِيبَةَ النَّسَبِ
هَلْ يَسْتَوِي مَنْ رَسُولُ اللهِ قَائِدُهُ	دَوْمًا وَآخَرُ هَادِيهِ أَبُو لَهَبِ؟!

وَأَيْنَ مَنْ كَانَتِ الزَّهْـرَاءُ أُسْـوَتَهَا ... مِمَّـنْ تَقَفَّـتْ خُطَـا حَمَّالَـةِ الْحَطَـبِ
فَـلَا تُبَـالِي بِـمَا يُلْقُـونَ مِـنْ شُـبَهٍ ... وَعِنْـدَكِ الشَّـرْعُ إِنْ تَدْعِيـهِ يَسْـتَجِبِ
سَلِيهِ مَنْ أَنَا مَنْ أَهْلِي لِمَنْ نَسَبِي؟ ... لِلْغَـرْبِ أَمْ لِلْإِسْـلَامِ وَالْعُـرْبِ
لِمَـنْ وَلَائِـي لِمَـنْ حُبِّـي لِمَـنْ ... للهِ أَمْ لِـدُعَاةِ الْإِثْـمِ وَالْكَـذِبِ
هُـمَا سَـبِيلَانِ يَـا أُخْتَـاهُ مَـا لَـهُـمَا ... مِنْ ثَالِثٍ فَاكْسِبِي خَيْرًا أَوِ اكْتَسِبِي
سَـبِيلُ رَبِّـكِ وَالْقُـرْآنُ مَنْهَجُـهُ ... نُورٌ مِـنَ اللهِ لَـمْ يُحْجَـبْ وَلَـمْ يَغِـبِ
فَاسْتَمْسِـكِي بِعُـرَى الْإِيـمَانِ ... وَصَـابِرِي وَاصْـبِرِي للهِ وَاحْتَسِـبِي

فَيَجِبُ عَلَى الْمُسْلِمَةِ أَنْ تَعْلَمَ أَنَّ الْإِسْلَامَ مَا أَمَرَهَـا بِالْحِجَـابِ، وَمَـا حَـرَّمَ عَلَيْهَا الْخُلْوَةَ وَالِاخْتِلَاطَ، وَمَا حَرَّمَ عَلَيْهَا السَّفَرَ بِدُونِ مَحْرَمٍ إِلَّا لِيَحْفَظَ كَرَامَتَهَا، وَلِيَصُونَ عِرْضَهَا وَشَرَفَهَا.

فَأَنْتِ لُؤْلُؤَةٌ مَكْنُونَةٌ، وَدُرَّةٌ مَصُونَةٌ، وَجَـوْهَرَةٌ غَالِيَـةٌ، وَأَنْـتِ صَـاحِبَةُ الْعِفَّـةِ وَالطَّهَارَةِ وَالشَّرَفِ وَالطُّهْرِ.

فَلَا تَتَنَازَلِي عَنْ عَرْشِ حَيَائِكِ، وَكُرْسِيِّ مَمْلَكَتِكِ، وَاعْتَزِّي بِدِينِكِ، وَاعْلَمِي أَنَّ ذَلِكَ سَبِيلُ فَلَاحِكِ وَسَعَادَتِكِ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ.

وَبَعْدَ هَذِهِ الْمُقَدِّمَةِ الْمُخْتَصَرَةِ الَّتِي مَهَّدْتُ بِهَا لِهَذَا الْفَصْلِ الْمُهِمِّ أَقُولُ:

لَمْ يُغْفِلِ النَّبِيُّ ﷺ جَانِبَ النِّسَاءِ فِي الـدَّعْوَةِ وَالْـوَعْظِ وَالْإِرْشَـادِ؛ بَـلْ لَقَـدْ خَصَّصَ لَهُنَّ يَوْمًا لِتَعْلِيمِهِنَّ أَحْكَامَ دِينِهِنَّ، وَتَذْكِيرِهِنَّ بِالْيَوْمِ الْآخِرِ؛ **وَمِـنْ أَمْثِلَـةِ ذَلِكَ مَا يَلِي:**

رَوَى الْبُخَارِيُّ وَمُسْلِمٌ (١) مِنْ حَدِيثِ أَبِي سَعِيدٍ الْخُدْرِيِّ رضي الله عنه قَـالَ: خَـرَجَ

---

(١) أخرجه البخاريُّ، كتاب الحيض، باب ترك الحائض الصوم (٣٠٤)، وأخرجه مسلمٌ، =

رَسُولُ اللهِ ﷺ فِي أَضْحَى أَوْ فِطْرٍ إِلَى الْمُصَلَّى، فَمَرَّ عَلَى النِّسَاءِ فَقَالَ: «**يَا مَعْشَرَ النِّسَاءِ تَصَدَّقْنَ، فَإِنِّي أُرِيتُكُنَّ أَكْثَرَ أَهْلِ النَّارِ**»؛ فَقُلْنَ: وَبِمَ يَا رَسُولَ اللهِ؟ قَالَ: «**تُكْثِرْنَ اللَّعْنَ، وَتَكْفُرْنَ الْعَشِيرَ، مَا رَأَيْتُ مِنْ نَاقِصَاتِ عَقْلٍ وَدِينٍ أَذْهَبَ لِلُبِّ الرَّجُلِ الْحَازِمِ مِنْ إِحْدَاكُنَّ**». قُلْنَ: وَمَا نُقْصَانُ دِينِنَا وَعَقْلِنَا يَا رَسُولَ اللهِ؟ قَالَ: «**أَلَيْسَ شَهَادَةُ الْمَرْأَةِ مِثْلَ نِصْفِ شَهَادَةِ الرَّجُلِ؟**» قُلْنَ: بَلَى، قَالَ: «**فَذَلِكِ مِنْ نُقْصَانِ عَقْلِهَا، أَلَيْسَ إِذَا حَاضَتْ لَمْ تُصَلِّ وَلَمْ تَصُمْ؟**»، قُلْنَ: بَلَى، قَالَ: «**فَذَلِكِ مِنْ نُقْصَانِ دِينِهَا**».

• **قَالَ الْحَافِظُ فِي «الْفَتْحِ»** (١): «وَفِيهِ جَوَازُ عِظَةِ الْإِمَامِ النِّسَاءَ عَلَى حِدَةٍ، وَفِيهِ: الْإِغْلَاظُ فِي النُّصْحِ بِمَا يَكُونُ سَبَبًا لِإِزَالَةِ الصِّفَةِ الَّتِي تُعَابُ، وَأَلَّا يُوَاجِهَ بِذَلِكَ الشَّخْصُ الْمُعَيَّنُ؛ لِأَنَّ فِي التَّعْمِيمِ تَسْهِيلًا عَلَى السَّامِعِ، وَلَيْسَ الْمَقْصُودُ بِذِكْرِ النَّقْصِ فِي النِّسَاءِ لَوْمَهُنَّ عَلَى ذَلِكَ؛ لِأَنَّهُ مِنْ أَصْلِ الْخِلْقَةِ، لَكِنِ التَّنْبِيهُ عَلَى ذَلِكَ؛ تَحْذِيرًا مِنَ الِافْتِتَانِ بِهِنَّ، وَلِهَذَا رَتَّبَ الْعَذَابَ عَلَى مَا ذَكَرَ مِنَ الْكُفْرَانِ وَغَيْرِهِ لَا عَلَى النَّقْصِ، وَلَيْسَ نَقْصُ الدِّينِ مُنْحَصِرًا فِيمَا يَحْصُلُ بِهِ الْإِثْمُ؛ بَلْ فِي أَعَمَّ مِنْ ذَلِكَ؛ قَالَهُ النَّوَوِيُّ».

○ وَهُنَا لَفْتَةٌ سَاقَهَا الْحَافِظُ ابْنُ حَجَرٍ قَبْلَ الْكَلَامِ الْمُتَقَدِّمِ؛ **فَقَالَ** (٢): «قَوْلُهُ: «قُلْنَ: وَمَا نُقْصَانُ دِينِنَا؟» كَأَنَّهُ خَفِيَ عَلَيْهِنَّ ذَلِكَ حَتَّى سَأَلْنَ عَنْهُ، وَنَفْسُ السُّؤَالِ دَالٌّ عَلَى النُّقْصَانِ؛ لِأَنَّهُنَّ سَلَّمْنَ مَا نُسِبَ إِلَيْهِنَّ مِنَ الْأُمُورِ الثَّلَاثَةِ: الْإِكْثَارِ وَالْكُفْرَانِ وَالْإِذْهَابِ، ثُمَّ اسْتَشْكَلْنَ كَوْنَهُنَّ نَاقِصَاتٍ. وَمَا أَلْطَفَ مَا أَجَابَهُنَّ بِهِ ﷺ مِنْ غَيْرِ تَعْنِيفٍ وَلَا لَوْمٍ؛ بَلْ خَاطَبَهُنَّ عَلَى قَدْرِ عُقُولِهِنَّ، وَأَشَارَ

=
كتاب الإيمان، باب بيان نقصان الإيمان بنقصان الطاعات (٧٩) عن ابن عمر رضي الله عنهما، وفي (٨٠) عن أبي هريرة رضي الله عنه.

(١) «فتح الباري» (١/ ٤٨٥).

(٢) «الفتح»(١/ ٤٨٤).

بِقَوْلِهِ: «أَلَيْسَ شَهَادَةُ الْمَرْأَةِ مِثْلَ نِصْفِ شَهَادَةِ الرَّجُلِ؟» إِلَى قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿فَرَجُلٌ وَٱمْرَأَتَانِ مِمَّن تَرْضَوْنَ مِنَ ٱلشُّهَدَآءِ﴾ [البقرة: ٢٨٢]؛ لِأَنَّ الِاسْتِظْهَارَ بِأُخْرَى مُؤْذِنٌ بِقِلَّةِ ضَبْطِهَا، وَهُوَ مُشْعِرٌ بِنَقْصِ عَقْلِهَا».

ثُمَّ قَالَ: «وَفِيهِ مَا كَانَ عَلَيْهِ ﷺ مِنَ الْخُلُقِ الْعَظِيمِ، وَالصَّفْحِ الْجَمِيلِ، وَالرِّفْقِ وَالرَّأْفَةِ، زَادَهُ الله تَشْرِيفًا وَتَكْرِيمًا وَتَعْظِيمًا» ا. هـ.

فَقَدْ كَانَتِ النِّسَاءُ يُرَاجِعْنَهُ فِي تِلْكَ الْمَسَائِلِ الَّتِي لَمْ يَظْهَرْ لَهُنَّ مَعْنَاهَا، وَلَمْ يَتَبَيَّنْ لَهُنَّ فَحْوَاهَا؛ فَبَيَّنَهَا لَهُنَّ الْمُعَلِّمُ الْأَوَّلُ - بِأَبِي هُوَ وَأُمِّي - ﷺ بِكُلِّ لُطْفٍ وَيُسْرٍ. وَقَدِ انْتَهَزَ فُرْصَةَ اجْتِمَاعِهِنَّ؛ لِيَعِظَهُنَّ وَيُذَكِّرَهُنَّ دَفْعَةً وَاحِدَةً، وَكَيْ لَا يَخُصَّ إِحْدَاهُنَّ عَلَى انْفِرَادِهَا بِمَا تَكْرَهُ؛ بَلْ قَصَدَ إِلَى حُضُورِهِنَّ كُلِّهِنَّ: وَذَلِكَ أَدْعَى لِقَبُولِ قَوْلِهِ، وَالْإِنْصَاتِ إِلَى تَوْجِيهِهِ وَنُصْحِهِ؛ بِلَا أَيِّ نَوْعِ مَشَقَّةٍ أَوْ حَرَجٍ.

وَهَذَا مِنْ كَمَالِ وَرَزَانَةِ عَقْلِهِ، وَعَظِيمِ خُلُقِهِ وَتَوَاضُعِهِ، وَكَبِيرِ أَدَبِهِ، وَأَمَانَتِهِ فِي تَبْلِيغِهِ لِدِينِ رَبِّهِ؛ فَصَلَّى الله عَلَى الرَّحْمَةِ الْمُهْدَاةِ وَالنِّعْمَةِ الْمُسْدَاةِ وَسَلَّمَ تَسْلِيمًا كَثِيرًا.

وَفِي «الصَّحِيحَيْنِ» (١) مِنْ حَدِيثِ ابْنِ عَبَّاسٍ رضي الله عنهما قَالَ: أَشْهَدُ عَلَى النَّبِيِّ ﷺ - أَوْ قَالَ عَطَاءٌ (٢) أَشْهَدُ عَلَى ابْنِ عَبَّاسٍ أَنَّ رَسُولَ الله ﷺ - خَرَجَ وَمَعَهُ

---

(١) أخرجه البخاريُّ، كتاب العلم، باب عظة النساء وتعليمهن (٩٨)، ومسلمٌ، كتاب صلاة العيدين (٨٨٤/ ٢). والقُرْط: هو بضم القاف وإسكان الراء بعدها طاء مهملة؛ أي: الحلقة التي تكون في شحمة الأذن «الفتح» (١/ ٢٣٢).

(٢) هو عطاء بن أبي رباح، أبو محمد القرشي مولاهم المكي؛ قال عليُّ بن المديني: اسم أبي رباح: أسلم مولى حبيبة بنت ميسرة بن أبي خثيم.
قال ابن سعد: انتهت فتوى أهل مكة إليه، وسمعتُ بعض أهل العلم يقول: كان عطاء أسود، أعور، أفطس، أشل، أعرج، ثم عمي، وكان ثقةً فقيهًا، عالمًا، كثير الحديث، وقال أبو داود: وقُطعت يده مع ابن الزبير، وقال ابن معين: كان عطاء معلم كتاب،
=

بِلَالٌ، فَظَنَّ أَنَّهُ لَمْ يُسْمِعْ، فَوَعَظَهُنَّ وَأَمَرَهُنَّ بِالصَّدَقَةِ، فَجَعَلَتِ الْمَرْأَةُ تُلْقِي الْقُرْطَ وَالْخَاتَمَ، وَبِلَالٌ يَأْخُذُ فِي طَرَفِ ثَوْبِهِ.

وَقَدْ بَوَّبَ الْإِمَامُ الْبُخَارِيُّ عَلَى هَذَا الْحَدِيثِ بَابًا بِعُنْوَانِ «بَابُ عِظَةِ الْإِمَامِ النِّسَاءَ وَتَعْلِيمِهِنَّ»، وَهَذِهِ الْمَوْعِظَةُ كَانَتْ فِي صَلَاةِ الْعِيدِ.

قَالَ الْحَافِظُ: «وَكَانَتِ الْمَوْعِظَةُ بِقَوْلِهِ: «**إِنِّي رَأَيْتُكُنَّ أَكْثَرَ أَهْلِ النَّارِ**..»».

وَفِي الْحَدِيثِ اسْتِحْبَابُ وَعْظِ النِّسَاءِ وَتَعْلِيمِهِنَّ أَحْكَامَ الدِّينِ إِذَا لَمْ يَتَرَتَّبْ عَلَى ذَلِكَ مَفْسَدَةٌ أَوْ خَوْفُ الْفِتْنَةِ.

وَفِي «**الصَّحِيحَيْنِ**» (١) مِنْ حَدِيثِ أَبِي سَعِيدٍ الْخُدْرِيِّ ﷺ قَالَ: جَاءَتِ امْرَأَةٌ إِلَى رَسُولِ اللهِ ﷺ فَقَالَتْ: يَا رَسُولَ اللهِ ذَهَبَ الرِّجَالُ بِحَدِيثِكَ، فَاجْعَلْ لَنَا مِنْ نَفْسِكَ يَوْمًا نَأْتِيكَ فِيهِ، تُعَلِّمُنَا مِمَّا عَلَّمَكَ اللهُ، قَالَ: «**اجْتَمِعْنَ يَوْمَ كَذَا وَكَذَا**»، فَاجْتَمَعْنَ، فَأَتَاهُنَّ رَسُولُ اللهِ ﷺ فَعَلَّمَهُنَّ مِمَّا عَلَّمَهُ اللهُ، ثُمَّ قَالَ: «**مَا مِنْكُنَّ مِنِ امْرَأَةٍ تُقَدِّمُ بَيْنَ يَدَيْهَا مِنْ وَلَدِهَا ثَلَاثَةً، إِلَّا كَانُوا لَهَا حِجَابًا مِنَ النَّارِ**»؛ فَقَالَتِ امْرَأَةٌ: وَاثْنَيْنِ وَاثْنَيْنِ وَاثْنَيْنِ؛ فَقَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: «**وَاثْنَيْنِ وَاثْنَيْنِ وَاثْنَيْنِ**».

● **قَالَ الْحَافِظُ فِي «الْفَتْحِ»** (٢): «وَفِي الْحَدِيثِ مَا كَانَ عَلَيْهِ نِسَاءُ الصَّحَابَةِ مِنَ الْحِرْصِ عَلَى تَعَلُّمِ أُمُورِ الدِّينِ».

=

وقال ابن جريج: كان المسجدُ فراشَ عطاء عشرين سنة، وكان من أحسن الناس صلاة.

مات سنة أربع عشرة ومائة، وقيل: خمس، قال الواقديُّ: عاش ثمانيًا وثمانين سنة.

● راجع: «سير أعلام النبلاء» (٧٨١)، و«تهذيب التهذيب» (٧/ ١٩٩-٢٠١).

(١) أخرجه البخاريُّ، كتاب العلم، باب هل يجعل للنساء يوم على حدة في العلم؟ (١٠١)، ومسلمٌ، كتاب البر والصلة، باب فضل من يموت له ولد فيحتسبه (٢٦٣٣).

(٢) (١/ ٢٣٧).

وَعَلَّقَ شَيْخُنَا الْعَلَّامَةُ ابْنُ عُثَيْمِينَ رَحِمَهُ اللهُ عَلَى هَذَا الْحَدِيثِ تَعْلِيقًا بَدِيعًا؛ **فَقَالَ**(١): «فِي هَذَا - الْحَدِيثِ - دَلِيلٌ عَلَى أَنَّهُ لَا بَأْسَ أَنْ يَجْتَمِعَ النِّسَاءُ فِي مَكَانٍ، وَيَأْتِي الرَّجُلُ الثِّقَةُ الْأَمِينُ فَيُعَلِّمُهُنَّ، فَيُؤْخَذُ مِنْهُ جَوَازُ تَدْرِيسِ الرَّجُلِ لِلنِّسَاءِ، لَكِنْ يُؤْخَذُ مِنَ الْقَوَاعِدِ الْعَامَّةِ لِلشَّرِيعَةِ أَنَّهُ إِذَا كَانَ يُخْشَى الْفِتْنَةُ فَإِنَّهُ لَا يَجُوزُ؛ لِأَنَّ الْفِتْنَةَ يَجِبُ دَرْؤُهَا؛ لِكَوْنِهَا مَفْسَدَةً.

وَفِي هَذَا دَلِيلٌ عَلَى أَنَّ النِّسَاءَ لَا يَجْتَمِعْنَ مَعَ الرِّجَالِ فِي التَّعْلِيمِ وَإِلَّا لَقَالَ لَهُنَّ رَسُولُ اللهِ ﷺ احْضُرْنَ مَعَ الرِّجَالِ، لَكِنَّ الشَّرْعَ لَا يُقِرُّ الِاخْتِلَاطَ بَيْنَ الرِّجَالِ وَالنِّسَاءِ حَتَّى فِي مَقَامِ التَّعْلِيمِ، وَلِهَذَا كَانَ النِّسَاءُ يَحْضُرْنَ مَعَ النَّبِيِّ ﷺ الصَّلَاةَ، وَلَكِنْ يَحُثُّهُنَّ عَلَى التَّأَخُّرِ؛ فَيَقُولُ: «**خَيْرُ صُفُوفِ النِّسَاءِ آخِرُهَا، وَشَرُّهَا أَوَّلُهَا**»(٢).

كُلُّ هَذَا مِنْ أَجْلِ الْبُعْدِ عَنِ الِاخْتِلَاطِ بِالرِّجَالِ.

وَفِي هَذَا دَلِيلٌ أَيْضًا عَلَى أَنَّهُ لَا بَأْسَ بِتَقْدِيرِ الْحِصَصِ زَمَانًا وَمَكَانًا، وَعَلَى هَذَا فَيُرَدُّ عَلَى مَنْ يَقُولُ: إِنَّ الدِّرَاسَةَ النِّظَامِيَّةَ الْآنَ بِدْعَةٌ، وَأَنَّهُ لَا خَيْرَ فِيهَا، لِأَنَّهُ يُحَدَّدُ لَهَا مَكَانٌ، وَيُحَدَّدُ لَهَا زَمَانٌ؛ فَيُقَالُ: وَمَا الْمَانِعُ مِنْ أَنْ يُحَدَّدَ لَهَا زَمَانٌ وَمَكَانٌ؟ فَهَذَا الرَّسُولُ - عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ - أَمَرَ النِّسَاءَ أَنْ يَجْتَمِعْنَ فِي يَوْمِ كَذَا، فِي مَكَانِ كَذَا؛ فَحَدَّدَ الزَّمَانَ وَحَدَّدَ الْمَكَانَ. ثُمَّ إِنَّهُ يَجِبُ عَلَيْنَا أَنْ نَعْرِفَ الْفَرْقَ بَيْنَ الْوَسَائِلِ وَالْغَايَاتِ؛ فَهَذِهِ الْمَدَارِسُ النِّظَامِيَّةُ تُنَظَّمُ عَلَى هَذَا الْوَجْهِ مِنْ أَجْلِ حِفْظِ الْوَقْتِ، وَحِفْظِ الْعِلْمِ؛ كَمَا فَعَلَ الْعُلَمَاءُ - رَحِمَهُمُ اللهُ - فِي تَبْوِيبِ السُّنَّةِ؛ فَجَعَلُوا التَّوْحِيدَ عَلَى حِدَةٍ، وَالطَّهَارَةَ عَلَى حِدَةٍ، وَالصَّلَاةَ عَلَى حِدَةٍ، وَالزَّكَاةَ عَلَى حِدَةٍ، مَعَ أَنَّ هَذَا لَيْسَ مَعْرُوفًا عَلَى عَهْدِ الرَّسُولِ ﷺ، لَكِنْ مِنْ بَابِ

---

(١) في «شرح صحيح مسلم» له (٧/ ٤٧٧، ٤٧٨) ط المكتبة الإسلامية. القاهرة. سنة ١٤٢٩هـ.

(٢) أخرجه مسلمٌ، كتاب الصلاة، باب تسوية الصفوف وإقامتها (٤٤٠).

الْمَصْلَحَةِ وَحَصْرِ الْعُلُومِ وَتَطْيِيبِهَا وَتَحْبِيبِهَا لِلنَّاسِ؛ فَلَيْسَ كُلُّ شَيْءٍ لَمْ يُصْنَعْ فِي الزَّمَنِ الْأَوَّلِ يَكُونُ بِدْعَةً إِلَّا مَا قُصِدَ التَّعَبُّدُ لِلَّهِ بِهِ، فَهَذَا شَيْءٌ آخَرُ، أَمَّا مَا كَانَ وَسِيلَةً إِلَى مَقْصُودٍ شَرْعِيٍّ؛ فَإِنَّهُ لَا بَأْسَ بِهِ، وَلَا يُعَدُّ هَذَا مِنَ الْبِدَعِ» انْتَهَى.

وَفِي «**صَحِيح**»[(١)] مُسْلِم عَنْ أَنَسٍ ﷺ قَالَ: جَاءَتْ أُمُّ سُلَيْمٍ[(٢)] إِلَى رَسُولِ اللهِ ﷺ فَقَالَتْ لَهُ وَعَائِشَةُ عِنْدَهُ: يَا رَسُولَ اللهِ، الْمَرْأَةُ تَرَى مَا يَرَى الرَّجُلُ فِي الْمَنَامِ، فَتَرَى مِنْ نَفْسِهَا مَا يَرَى الرَّجُلُ مِنْ نَفْسِهِ؛ فَقَالَتْ عَائِشَةُ: يَا أُمَّ سُلَيْمٍ فَضَحْتِ النِّسَاءَ، تَرِبَتْ يَمِينُكِ؛ فَقَالَ لِعَائِشَةَ: «**بَلْ أَنْتِ. فَتَرِبَتْ يَمِينُكِ، نَعَمْ فَلْتَغْتَسِلْ يَا أُمَّ سُلَيْمٍ إِذَا رَأَتْ ذَاكِ**».

وَفِي «**الصَّحِيحَيْنِ**»[(٣)] عَنْ أُمِّ سَلَمَةَ ﷺ قَالَتْ: جَاءَتْ أُمُّ سُلَيْمٍ إِلَى رَسُولِ اللهِ ﷺ؛ فَقَالَتْ: يَا رَسُولَ اللهِ، إِنَّ اللهَ لَا يَسْتَحِي مِنَ الْحَقِّ؛ فَهَلْ عَلَى الْمَرْأَةِ غُسْلٌ إِذَا احْتَلَمَتْ؟ فَقَالَ: «**نَعَمْ إِذَا رَأَتِ الْمَاءَ**».

وَقَدْ بَوَّبَ الْبُخَارِيُّ عَلَى هَذَا الْحَدِيثِ بِقَوْلِهِ: «بَابُ الْحَيَاءِ فِي الْعِلْمِ». وَقَالَ مُجَاهِدٌ: لَا يَتَعَلَّمُ الْعِلْمَ مُسْتَحْيٍ وَلَا مُسْتَكْبِرٌ. وَقَالَتْ عَائِشَةُ: «نِعْمَ النِّسَاءُ نِسَاءُ الْأَنْصَارِ، لَمْ يَمْنَعْهُنَّ الْحَيَاءُ أَنْ يَتَفَقَّهْنَ فِي الدِّينِ».

---

(١) أخرجه مسلمٌ، كتاب الحيض، باب وجوب الغسل على المرأة بخروج المني منها (٣١٠).

(٢) هي أم سليم بنت ملحان بن خالد بن زيد بن حرام بن جندب بن عامر بن غنم بن عدي ابن النجار الأنصارية الخزرجية النجارية أم أنس بن مالك، اختلف في اسمها؛ فقيل: سهلة، وقيل: رميلة، وقيل: رميثة، وقيل: مليكة، والغميصاء، والرميصاء، تزوجت مالك بن النضر في الجاهلية فولدت أنسًا في الجاهلية، وأسلمت مع السابقين إلى الإسلام من الأنصار، فغضب مالك وخرج إلى الشام فمات بها، فتزوجت بعده أبا طلحة وكان مهرها إسلامه، فأسلم وتزوجها.

● راجع: «الاستيعاب» (٧٢٧)، و«أسد الغابة» (٧٤٨٠)، و«الإصابة» (١٢٠٧٧).

(٣) أخرجه البخاريُّ، كتاب العلم، باب الحياء في العلم (١٣٠)، ومسلمٌ، كتاب الحيض، باب وجوب الغسل على المرأة بخروج المني منها (٣١٣).

قَالَ الْحَافِظُ: «قَوْلُهُ: «قَالَتْ عَائِشَةُ» وَصَلَهُ مُسْلِمٌ». وَهُوَ الْحَدِيثُ الْآتِي.

فَفِي «صَحِيح» مُسْلِم[(١)] عَنْ عَائِشَةَ رضي الله عنها أَنَّ أَسْمَاءَ سَأَلَتِ النَّبِيَّ ﷺ عَنْ غُسْلِ الْمَحِيضِ؟ فَقَالَ: «**تَأْخُذُ إِحْدَاكُنَّ مَاءَهَا وَسِدْرَتَهَا فَتَطَهَّرُ، فَتُحْسِنُ الطُّهُورَ، ثُمَّ تَصُبُّ عَلَى رَأْسِهَا فَتَدْلُكُهُ دَلْكًا شَدِيدًا، حَتَّى تَبْلُغَ شُئُونَ رَأْسِهَا، ثُمَّ تَصُبُّ عَلَيْهَا الْمَاءَ، ثُمَّ تَأْخُذُ فِرْصَةً مُمَسَّكَةً فَتَطَهَّرُ بِهَا**»؛ فَقَالَتْ أَسْمَاءُ: وَكَيْفَ تَطَهَّرُ بِهَا؟ فَقَالَ: «**سُبْحَانَ اللهِ! تَطَهَّرِينَ بِهَا**»، فَقَالَتْ عَائِشَةُ كَأَنَّهَا تُخْفِي ذَلِكَ: تَتَبَّعِينَ أَثَرَ الدَّمِ، وَسَأَلَتْهُ عَنْ غُسْلِ الْجَنَابَةِ؛ فَقَالَ: «**تَأْخُذُ مَاءً فَتَطَهَّرُ فَتُحْسِنُ الطُّهُورَ - أَوْ تُبْلِغُ الطُّهُورَ - ثُمَّ تَصُبُّ عَلَى رَأْسِهَا فَتَدْلُكُهُ حَتَّى تَبْلُغَ شُئُونَ رَأْسِهَا، ثُمَّ تُفِيضُ عَلَيْهَا الْمَاءَ**»؛ فَقَالَتْ عَائِشَةُ: نِعْمَ النِّسَاءُ نِسَاءُ الْأَنْصَارِ، لَمْ يَكُنْ يَمْنَعُهُنَّ الْحَيَاءُ أَنْ يَتَفَقَّهْنَ فِي الدِّينِ.

وَفِي «**الصَّحِيحَيْنِ**»[(٢)] عَنْ أَنَسٍ رضي الله عنه أَنَّ رَسُولَ اللهِ ﷺ أَتَى عَلَى امْرَأَةٍ تَبْكِي عَلَى صَبِيٍّ لَهَا؛ فَقَالَ لَهَا: «**اتَّقِي اللهَ وَاصْبِرِي**»؛ فَقَالَتْ: وَمَا تُبَالِي بِمُصِيبَتِي؟ فَلَمَّا ذَهَبَ، قِيلَ لَهَا: إِنَّهُ رَسُولُ اللهِ ﷺ، فَأَخَذَهَا مِثْلُ الْمَوْتِ، فَأَتَتْ بَابَهُ فَلَمْ تَجِدْ عَلَى بَابِهِ بَوَّابِينَ؛ فَقَالَتْ: يَا رَسُولَ اللهِ لَمْ أَعْرِفْكَ؛ فَقَالَ: «**إِنَّمَا الصَّبْرُ عِنْدَ أَوَّلِ صَدْمَةٍ**»، أَوْ قَالَ: «**عِنْدَ أَوَّلِ الصَّدْمَةِ**».

وَفِي «**مُسْنَدِ**» أَحْمَدَ، وَالْحُمَيْدِيِّ، وَ«**سُنَنِ**» التِّرْمِذِيِّ وَالنَّسَائِيِّ وَابْنِ مَاجَهْ[(٣)]

---

(١) أخرجه مسلمٌ، كتاب الحيض، باب استحباب استعمال المغتسلة من الحيض فرصة من مسك في موضع الدم (٣٣٢/ ٦١)؛ وانظر: «صحيح» البخاري، كتاب الحيض، باب دلك المرأة نفسها إذا تطهرت من المحيض وكيف تغتسل؟ (٣١٤).

(٢) أخرجه البخاريُّ، كتاب الجنائز، باب زيارة القبور (١٢٨٣)، ومسلمٌ، كتاب الجنائز، باب في الصبر على المصيبة عند الصدمة الأولى (٩٢٦/ ١٥).

(٣) أخرجه أحمد (٦/ ٣٥٧)، والحميدي (٣٤١)، ومالك في «الموطأ» (٦٠٨)، والترمذيُّ، كتاب السير، باب ما جاء في بيعة النساء (١٥٩٧)، وقال: «حسن صحيح»، والنسائيُّ، كتاب البيعة، باب بيعة النساء (٧/ ١٤٩)، وفي «الكبرى» (٧٨٠٤)، وابن ماجه، كتاب =

عَنْ أُمَيْمَةَ بِنْتِ رُقَيْقَةَ (١) قَالَتْ: أَتَيْتُ رَسُولَ اللهِ ﷺ فِي نِسْوَةٍ مِنَ الْمُسْلِمِينَ لِنُبَايِعَهُ؛ فَقُلْنَا: يَا رَسُولَ اللهِ جِئْنَا لِنُبَايِعَكَ عَلَى أَنْ لَا نُشْرِكَ بِاللهِ شَيْئًا، وَلَا نَسْرِقَ، وَلَا نَزْنِيَ، وَلَا نَقْتُلَ أَوْلَادَنَا، وَلَا نَأْتِيَ بِبُهْتَانٍ نَفْتَرِيهِ بَيْنَ أَيْدِينَا وَأَرْجُلِنَا، وَلَا نَعْصِيَكَ فِي مَعْرُوفٍ، قَالَتْ: فَقَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: «**فِيمَا اسْتَطَعْتُنَّ وَأَطَعْتُنَّ**»، قَالَتْ: قُلْنَا: اللهُ وَرَسُولُهُ أَرْحَمُ بِنَا مِنْ أَنْفُسِنَا، بَايِعْنَا يَا رَسُولَ اللهِ. قَالَ: «**اذْهَبْنَ؛ فَقَدْ بَايَعْتُكُنَّ، إِنَّمَا قَوْلِي لِمِائَةِ امْرَأَةٍ كَقَوْلِي لِامْرَأَةٍ وَاحِدَةٍ**»، قَالَتْ: وَلَمْ يُصَافِحْ رَسُولُ اللهِ ﷺ مِنَّا امْرَأَةً.

وَفِي لَفْظٍ: قُلْنَا: يَا رَسُولَ اللهِ: أَلَا تُصَافِحُنَا؟ قَالَ: «**إِنِّي لَا أُصَافِحُ النِّسَاءَ**».

وَفِي «**صَحِيحِ**» **مُسْلِمٍ** (٢) عَنْ مُعَاوِيَةَ بْنِ الْحَكَمِ السُّلَمِيِّ (٣) رضي الله عنه قَالَ: وَكَانَتْ لِي جَارِيَةٌ تَرْعَى غَنَمًا لِي فِي قِبَلِ أُحُدٍ وَالْجَوَّانِيَّةِ، فَاطَّلَعْتُهَا ذَاتَ يَوْمٍ، فَإِذَا الذِّئْبُ قَدْ ذَهَبَ بِشَاةٍ مِنْ غَنَمِهَا، وَأَنَا رَجُلٌ مِنْ بَنِي آدَمَ آسَفُ كَمَا يَأْسَفُونَ، لَكِنِّي صَكَكْتُهَا صَكَّةً، فَأَتَيْتُ النَّبِيَّ ﷺ، فَعَظَّمَ ذَلِكَ عَلَيَّ، قُلْتُ: يَا رَسُولَ اللهِ أَفَلَا

= الجهاد، باب بيعة النساء (٢٨٧٤)، وابن سعد في «الطبقات» (٨/ ٥ و٦)، والطيالسي (١٧٢٦)، وابن حبان (٤٥٥٣)، وصحَّحهُ الألبانيُّ في «الصحيحة» (٥٢٩).

(١) هي أميمة بنت رقيقة، وأمها رقيقة بنت خويلد بن أسد، أخت خديجة بنت خويلد، وكانت من المبايعات، روت عن النبيِّ ﷺ، ويقال: أميمة بنت عبد الله بن نجاد.

● راجع: «الاستيعاب» (٤٠٩)، و«أسد الغابة» (٦٧٤٠)، و«الإصابة» (١٠٨٥٥، ١٠٨٦٤).

(٢) أخرجه مسلمٌ، كتاب المساجد ومواضع الصلاة، باب تحريم الكلام في الصلاة ونسخ ما كان من إباحته (٥٣٧).

(٣) هو معاوية بن الحكم السلميُّ، كان ينزل المدينة ويسكن في بني سليم، وهو معدودٌ في أهل المدينة، روى عن النبي ﷺ حديثًا واحدًا؛ قال ابن الأثير: ولمعاوية أحاديث غير هذا.

● راجع: «الاستيعاب» (١٤٥٢)، و«أسد الغابة» (٤٩٨٢)، و«الإصابة» (٨٠٨٢).

أُعْتِقُهَا؟ قَالَ: «**ائْتِنِي بِهَا**»، فَأَتَيْتُهُ بِهَا؛ فَقَالَ لَهَا: «**أَيْنَ اللهُ؟**» فَقَالَتْ: فِي السَّمَاءِ، قَالَ: «**مَنْ أَنَا؟**»، قَالَتْ: أَنْتَ رَسُولُ اللهِ، قَالَ: «**أَعْتِقْهَا فَإِنَّهَا مُؤْمِنَةٌ**»، وَقَالَ مَرَّةً: «**هِيَ مُؤْمِنَةٌ فَأَعْتِقْهَا**»؛ فَهَذِهِ دَعْوَةٌ مِنَ النَّبِيِّ ﷺ لِجَارِيَةٍ فِي قَضِيَّةٍ مِنْ أَعْظَمِ قَضَايَا الْعَقِيدَةِ، وَبِنَاءً عَلَيْهَا حَكَمَ لَهَا رَسُولُ اللهِ ﷺ بِالْإِيمَانِ.

وَفِي «مُسْنَدِ» أَحْمَدَ، وَابْنِ أَبِي شَيْبَةَ فِي «مُصَنَّفِهِ»، وَ«سُنَنِ» أَبِي دَاوُدَ، وَابْنِ سَعْدٍ فِي «الطَّبَقَاتِ»، وَالْبَيْهَقِيِّ فِي «الْكَبِيرِ» (١) عَنْ عَبْدِ اللهِ بْنِ عَامِرٍ رضي الله عنه أَنَّهُ قَالَ: أَتَى رَسُولُ اللهِ ﷺ فِي بَيْتِنَا وَأَنَا صَبِيٌّ، قَالَ: فَذَهَبْتُ أَخْرُجُ لِأَلْعَبَ؛ فَقَالَتْ أُمِّي: يَا عَبْدَ اللهِ! تَعَالَ أُعْطِيكَ؛ فَقَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: «**وَمَا أَرَدْتِ أَنْ تُعْطِيهِ؟**»، قَالَتْ: أُعْطِيهِ تَمْرًا، قَالَ: فَقَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: «**أَمَا إِنَّكِ لَوْ لَمْ تُعْطِيهِ شَيْئًا كُتِبَتْ عَلَيْكِ كِذْبَةٌ**».

وَفِي «**مُسْنَدِ**» أَحْمَدَ، وَابْنِ أَبِي شَيْبَةَ فِي «**مُصَنَّفِهِ**»، وَعَبْدِ الرَّزَّاقِ فِي «**مُصَنَّفِهِ**»، وَأَبِي دَاوُدَ وَالتِّرْمِذِيِّ وَالنَّسَائِيِّ فِي «**سُنَنِهِم**» (٢) مِنْ حَدِيثِ عبدِ الله ابْنِ عَمْرِو بْنِ الْعَاصِ رضي الله عنهما: أَنَّ امْرَأَةً مِنْ أَهْلِ الْيَمَنِ أَتَتْ رَسُولَ اللهِ ﷺ وَبِنْتٌ

---

(١) أخرجه أحمد (٣/ ٤٤٧)، والبخاريُّ في «تاريخه» (٥/ ١١)، وابن أبي خيثمة في «تاريخه» (١٢٠٧)، وأبو داود، كتاب الأدب، باب في التشديد في الكذب (٤٩٩١)، وابن أبي شيبة (٦/ ١٢٤)، وابن وهب في «الجامع» (٥١٤)، وابن سعد في «الطبقات» (٥/ ٩)، والبيهقي في «الكبير» (١٠/ ١٩٨)، وفي «الشعب» (٤٨٢٢)، والضياء في «المختارة» (٩/ ٤٨٣)، وصحَّحهُ الألبانيُّ في «الصحيحة» (٧٤٨).

(٢) أخرجه أحمد (٢/ ١٧٨ و٢٠٤، ٢٠٨)، ومالك في «الموطأ» (٢/ ١٢٩)، وابن أبي شيبة (٣/ ١٥٣)، وعبد الرزاق (٤/ ٨٥) (٨٠٦٥)، وأبو داود، كتاب الزكاة، باب الكنز ما هو؟ وزكاة الحلي (١٥٦٣)، والترمذيُّ، كتاب الزكاة، باب ما جاء في زكاة الحلي (٦٣٧)، والنسائيُّ، كتاب الزكاة، باب زكاة الحلي (٢٤٧٨)، وفي «الكبرى» (٢٢٥٨)، وحسَّنهُ الألبانيُّ؛ كما في «صحيح أبي داود» (١٣٨٢) و«الإرواء» (٣/ ٢٩٦).

لَهَا، فِي يَدِ ابْنَتِهَا مَسَكَتَانِ غَلِيظَتَانِ مِنْ ذَهَبٍ؛ فَقَالَ: «**أَتُؤَدِّينَ زَكَاةَ هَذَا؟**» قَالَتْ: لَا، قَالَ: «**أَيَسُرُّكِ أَنْ يُسَوِّرَكِ اللهُ** ﷻ **بِهِمَا يَوْمَ الْقِيَامَةِ سِوَارَيْنِ مِنْ نَارٍ؟**» قَالَ: فَخَلَعَتْهُمَا فَأَلْقَتْهُمَا إِلَى رَسُولِ اللهِ ﷺ، فَقَالَتْ: هُمَا للهِ وَلِرَسُولِهِ.

وَفِي «**صَحِيحِ الْبُخَارِيِّ**» (١) عَنِ الرُّبَيِّعِ بِنْتِ مُعَوِّذٍ (٢) قَالَتْ: دَخَلَ عَلَيَّ النَّبِيُّ ﷺ غَدَاةَ بُنِيَ عَلَيَّ؛ فَجَلَسَ عَلَى فِرَاشِي كَمَجْلِسِكَ مِنِّي (٣)، وَجُوَيْرِيَاتٌ يَضْرِبْنَ بِالدُّفِّ يَنْدُبْنَ (٤) مَنْ قُتِلَ مِنْ آبَائِهِنَّ يَوْمَ بَدْرٍ حَتَّى قَالَتْ جَارِيَةٌ: وَفِينَا نَبِيٌّ يَعْلَمُ مَا فِي غَدٍ؛ فَقَالَ النَّبِيُّ ﷺ: «**لَا تَقُولِي هَكَذَا، وَقُولِي مَا كُنْتِ تَقُولِينَ**».

زَادَ ابْنُ مَاجَهْ وَالطَّبَرَانِيُّ (٥): «**أَمَّا هَذَا فَلَا تَقُولُوهُ. مَا يَعْلَمُ مَا فِي غَدٍ إِلَّا اللهُ**».

وَفِيهِ إِنْكَارُهُ ﷺ هَذَا الْإِطْرَاءَ الْمَنْهِيَّ عَنْهُ؛ فَعِلْمُ الْغَيْبِ يَخْتَصُّ بِاللهِ تَعَالَى؛ كَمَا قَالَ تَعَالَى: ﴿قُل لَّا يَعْلَمُ مَن فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ٱلْغَيْبَ إِلَّا ٱللَّهُ﴾ [النمل: ٦٥]،

---

(١) أخرجه البخاريُّ، كتاب المغازي، باب (١٢) (٤٠٠١)، وعنده أيضًا برقم (٥١٤٧).

(٢) هي الربيع بنت معوذ بن عفراء بن حرام بن جندب الأنصارية النجارية، من بني عدي ابن النجار، كانت من المبايعات بيعة الشجرة، وكانت ربما غزت مع رَسُول الله ﷺ فتداوي الجرحى، وتردُّ القتلى إلى المدينة، وكانت تبيع العطر بالمدينة.

● راجع: «الاستيعاب» (٥٠٣)، و«أسد الغابة» (٦٩١٩)، و«الإصابة» (١١١٧٣).

(٣) قال الكرماني: «هو محمول على أن ذلك كان من وراء حجاب، أو كان قبل نزول آية الحجاب، أو جاز النظر للحاجة أو عند الأمن من الفتنة» ا. هـ؛ **قال الحافظ ابن حجر:** «والأخير هو المعتمد، والذي وضح لنا بالأدلة القوية أن من خصائص النبي ﷺ جواز الخلوة بالأجنبية والنظر إليها». «الفتح» (٩/ ١١٠).

(٤) من الندبة بضم النون، وهي ذكر أوصاف الميت بالثناء عليه، وتعديد محاسنه بالكرم والشجاعة ونحوها؛ قاله الحافظ.

(٥) عند ابن ماجه، كتاب النكاح، باب الغناء والدف (١٨٩٧)، والطبراني في «الكبير» (٢٤/ ٢٧٣) (٦٩٥)، وصحَّحه الشيخ الألباني في «صحيح ابن ماجه».

وَسَائِرُ مَا كَانَ النَّبِيُّ ﷺ يُخْبِرُ بِهِ مِنَ الْغُيُوبِ بِإِعْلَامٍ مِنَ اللهِ إِيَّاهُ، لَا أَنَّهُ يَسْتَقِلُّ بِعِلْمِ ذَلِكَ؛ كَمَا قَالَ تَعَالَى: ﴿عَٰلِمُ ٱلْغَيْبِ فَلَا يُظْهِرُ عَلَىٰ غَيْبِهِۦٓ أَحَدًا ۝٢٦ إِلَّا مَنِ ٱرْتَضَىٰ مِن رَّسُولٍ﴾ [الجن:٢٦-٢٧] (١).

قَالَ الْحَافِظُ (٢): «وَقَوْلُهُ: «**وَقُولِي مَا كُنْتِ تَقُولِينَ**» فِيهِ إِشَارَةٌ إِلَى جَوَازِ سَمَاعِ الْمِدَحِ وَالْمَرْثِيَّةِ مِمَّا لَيْسَ فِيهِ مُبَالَغَةٌ تُفْضِي إِلَى الْغُلُوِّ».

---

(١) انظر: «الفتح» (٩/ ١١١).

(٢) المصدر السابق (٩/ ١١٠).

المَبْحَثُ الثَّامِنُ
دَعْوَتُهُ ﷺ لِلأَطْفَالِ وَتَعْلِيمُهُ لَهُمْ

أَعْجَبُ أَشَدَّ الْعَجَبِ مِنْ هَذَا الِاهْتِمَامِ الْبَالِغِ، وَالْعِنَايَةِ الْخَاصَّةِ مِنَ النَّبِيِّ ﷺ بِالْأَطْفَالِ وَمَرْحَلَةِ الطُّفُولَةِ الَّتِي تَرْتَسِمُ فِيهَا كُلُّ صُوَرِ الْحَيَاةِ؛ بَلْ تُوضَعُ أُسُسُ التَّرْبِيَةِ الَّتِي تَظَلُّ مُلَازِمَةً لَهُمْ طِيلَةَ الْحَيَاةِ مُلَازَمَةَ الرُّوحِ لِلْجَسَدِ.

وَفِي لَفْتَةٍ نَبَوِيَّةٍ دَعَوِيَّةٍ تَرْبَوِيَّةٍ رَائِعَةٍ - قَلَّ مَنْ يَلْتَفِتُ إِلَيْهَا - يُبَيِّنُ لَنَا أُسْوَةُ الدُّعَاةِ ﷺ خَطَرَ وَأَهَمِّيَّةَ الْبِيئَةِ الْأُولَى الَّتِي يَنْشَأُ فِيهَا الطِّفْلُ، وَتَخُطُّ الْخُطُوطَ الْأُولَى عَلَى قَلْبِهِ وَعَقْلِهِ، وَتَغْرِسُ فِيهِ الْخَيْرَ أَوِ الشَّرَّ، وَالصَّلَاحَ أَوِ الْفَسَادَ؛ فَيَقُولُ ﷺ؛ كَمَا فِي «الصَّحِيحَيْنِ» (١) مِنْ حَدِيثِ أَبِي هُرَيْرَةَ رضي الله عنه : **«مَا مِنْ مَوْلُودٍ إِلَّا يُولَدُ عَلَى الْفِطْرَةِ، فَأَبَوَاهُ يُهَوِّدَانِهِ وَيُنَصِّرَانِهِ وَيُمَجِّسَانِهِ، كَمَا تُنْتَجُ الْبَهِيمَةُ بَهِيمَةً جَمْعَاءَ هَلْ تُحِسُّونَ فِيهَا مِنْ جَدْعَاءَ»**.

وَيَقُولُ؛ كَمَا فِي «الصَّحِيحَيْنِ» (٢) مِنْ حَدِيثِ ابْنِ عُمَرَ رضي الله عنهما : **«كُلُّكُمْ رَاعٍ وَكُلُّكُمْ مَسْئُولٌ عَنْ رَعِيَّتِهِ، الْإِمَامُ رَاعٍ وَمَسْئُولٌ عَنْ رَعِيَّتِهِ، وَالرَّجُلُ رَاعٍ فِي أَهْلِهِ وَهُوَ مَسْئُولٌ عَنْ رَعِيَّتِهِ، وَالْمَرْأَةُ رَاعِيَةٌ فِي بَيْتِ زَوْجِهَا وَمَسْئُولَةٌ عَنْ رَعِيَّتِهَا، وَالْخَادِمُ رَاعٍ فِي مَالِ سَيِّدِهِ وَمَسْئُولٌ عَنْ رَعِيَّتِهِ»** قَالَ: وَحَسِبْتُ أَنْ قَدْ قَالَ: **«وَالرَّجُلُ رَاعٍ فِي مَالِ أَبِيهِ وَمَسْئُولٌ عَنْ رَعِيَّتِهِ، وَكُلُّكُمْ رَاعٍ وَمَسْئُولٌ عَنْ رَعِيَّتِهِ»**.

---

(١) أخرجه البخاريُّ، كتاب الجنائز، باب إذا أسلم الصبي فمات هل يصلى عليه؟ (١٣٥٨)، ومسلمٌ، كتاب الإمارة، باب: معنى كل مولود يولد على الفطرة، وحكم موت أطفال الكفار وأطفال المسلمين (٢٦٥٨).

(٢) أخرجه البخاريُّ، كتاب العتق، باب كراهية التطاول على الرقيق (٢٥٥٤)، ومسلمٌ، كتاب الإمارة، باب فضيلة الإمام العادل (١٨٢٩).

وَيَقُولُ؛ كَمَا فِي «**الصَّحِيحَيْنِ**» (١) مِنْ حَدِيثِ مَعْقِلِ بْنِ يَسَارٍ ﵁ (٢): «**مَا مِنْ عَبْدٍ يَسْتَرْعِيهِ اللهُ رَعِيَّةً يَمُوتُ يَوْمَ يَمُوتُ، وَهُوَ غَاشٌّ لِرَعِيَّتِهِ إِلَّا حَرَّمَ اللهُ عَلَيْهِ الْجَنَّةَ**».

بَلْ سَبَقَ النَّبِيُّ ﷺ فِي دَعْوَتِهِ وَمَنْهَجِهِ التَّرْبَوِيِّ لِلْأَطْفَالِ كُلَّ الْمَنَاهِجِ التَّرْبَوِيَّةِ الْحَدِيثَةِ؛ حَيْثُ لَمْ تَبْدَأْ هَذِهِ الْمَرْحَلَةُ الدَّعَوِيَّةُ وَالتَّرْبَوِيَّةُ لِلْأَطْفَالِ فِي مَرَاحِلِ عُمُرِهِمُ الْأُولَى فَحَسْبُ؛ بَلْ قَبْلَ مَجِيئِهِمْ إِلَى الْحَيَاةِ الدُّنْيَا؛ بِتَهْيِئَةِ الْأَرْضِ الطَّيِّبَةِ الصَّالِحَةِ الَّتِي يَخْرُجُ نَبَاتُهَا طَيِّبًا بِإِذْنِ رَبِّهَا؛ فَقَالَ ﷺ: «**فَاظْفَرْ بِذَاتِ الدِّينِ تَرِبَتْ يَدَاكَ**» (٣)، وَيَدْعُو لَهُمْ وَهُمْ فِي أَصْلَابِ آبَائِهِمْ؛ فَيَقُولُ: «**بَلْ أَرْجُو اللهَ أَنْ يُخْرِجَ مِنْ أَصْلَابِهِمْ مَنْ يَعْبُدُ اللهَ وَحْدَهُ، لَا يُشْرِكُ بِهِ شَيْئًا**» (٤)، حَتَّى فِي لَحْظَةِ اللِّقَاءِ بَيْنَ الزَّوْجَيْنِ؛ قَالَ: «**بِاسْمِ اللهِ، اللهمَّ جَنِّبْنَا الشَّيْطَانَ، وَجَنِّبِ الشَّيْطَانَ مَا رَزَقْتَنَا**» (٥)؛ بَلْ حِينَ يَصِلُ الطِّفْلُ إِلَى الْحَيَاةِ كَانَ ﷺ؛ كَمَا تَقُولُ عَائِشَةُ ﵂:

---

(١) أخرجه البخاريُّ، كتاب الأحكام، باب من استرعى رعية فلم ينصح (٧١٥٠)، ومسلمٌ، كتاب الإيمان، باب استحقاق الوالي الغاش لرعيته النار (١٤٢).

(٢) هو معقل بن يسار بن عبد الله بن معير بن حراق المزني، ومعقل يكنى أبا علي، وقيل: كنيته أبو عبد الله، وقيل: أبو يسار، أسلم قبل الحديبية، وشهد بيعة الرضوان؛ قال البغويُّ: هو الذي حفر نهر معقل بالبصرة بأمر عمر، فنسب إليه، ونزل البصرة، مات في آخر خلافة معاوية، وقيل: عاش إلى إمرة يزيد، وذكره البخاريُّ في «الأوسط» في فضل من مات ما بين الستين والسبعين.

● راجع: «الاستيعاب» (١٤٨١)، و«الإصابة» (٨١٦٠).

(٣) أخرجه البخاريُّ، كتاب النكاح، باب تزويج المعسر (٥٠٩٠)، ومسلمٌ، كتاب الرضاع، باب استحباب نكاح ذات الدين (١٤٦٦) عن أبي هريرة ﵁.

(٤) جزءٌ من حديثٍ تقدم، وهو في «الصحيحين» من حديث عائشة ﵂.

(٥) أخرجه البخاريُّ، كتاب الوضوء، باب التسمية على كل حال وعند الوقاع (١٤١)، ومسلمٌ، كتاب النكاح باب ما يستحب أن يقوله عند الجماع (١٤٣٤).

«يُؤْتَى بِالصِّبْيَانِ، فَيُبَرِّكُ عَلَيْهِمْ وَيُحَنِّكُهُمْ» (١)، وَيُوصِي بِالْعَقِيقَةِ، وَيَقُولُ: «**كُلُّ غُلَامٍ مُرْتَهَنٌ بِعَقِيقَتِهِ**» (٢)، وَيُسَمِّيهِمْ بِأَحْسَنِ الْأَسْمَاءِ، وَيُكَنِّيهِمْ بِأَجْمَلِ الْكُنَى (٣)؛ بَلْ وَيَبْكِي وَتَدْمَعُ عَيْنَاهُ، وَيَحْزَنُ قَلْبُهُ لِمَوْتِ طِفْلٍ (٤)؛ بَلْ يُخَفِّفُ الصَّلَاةَ الَّتِي هِيَ قُرَّةُ عَيْنِهِ مِنْ أَجْلِ بُكَاءِ طِفْلٍ (٥)، وَيَحْمِلُهُمْ فِي صَلَاتِهِ (٦)، وَيَهَشُّ لَهُمْ وَيَبَشُّ، وَيُعَلِّمُهُمْ وَيَدْعُوهُمْ لِكُلِّ خَيْرٍ، وَهَذَا بَابٌ مِنْ أَرَقِّ الْأَبْوَابِ وَأَعْظَمِهَا دِلَالَةً عَلَى حَاجَةِ الْبَشَرِيَّةِ عَامَّةً وَالْأُمَّةِ خَاصَّةً إِلَى مَنْهَجِ النَّبِيِّ ﷺ، وَسَأَكْتَفِي بِذِكْرِ بَعْضِ الْأَمْثِلَةِ:

---

(١) أخرجه البخاريُّ، كتاب الدعوات، باب الدعاء للصبيان بالبركة ومسح رؤوسهم (٦٣٥٥) ـ وراجع (رقم:٢٢٢)، ومسلمٌ، كتاب الطهارة، باب حكم بول الطفل الرضيع وكيفية غسله (٢٨٦) واللفظ له.

(٢) أخرجه أحمد (٥/ ٧، ١٢، ١٧)، وابن أبي شيبة في «مصنفه»(٥/ ٥٣٠) و (٨/ ٤٠٣) وأبو داود، كتاب العقيقة (٢٨٣٧، ٢٨٣٨)، والترمذيُّ، كتاب الأضاحي، باب من العقيقة (١٥٢٢)، والنسائيُّ، كتاب العقيقة، باب متى يعق؟ (٧/ ١٦٦)، وابن ماجه، كتاب الذبائح، باب العقيقة (٣١٦٥)، والطيالسي في «مسنده» (٩٠٩)، والحاكم (٤/ ٢٦٤)، وصححه الألباني في «الإرواء» (١١٦٥).

(٣) كما في حديث: «**يَا أَبَا عُمَيْرٍ مَا فَعَلَ النُّغَيْرُ؟**» وقد سبق.

(٤) كما عند البخاريِّ، كتاب الجنائز، باب قول النبي ﷺ: «**إِنَّا بِكَ لَمَحْزُونُوْن**» (١٣٠٣)، ومسلمٍ، كتاب الفضائل، باب رحمته ﷺ الصبيان والعيال وتواضعه وفضل ذلك(٢٣١٥).

(٥) أخرجه البخاريُّ، كتاب الأذان، باب من أخف الصلاة عند بكاء الصبي (٧١٠)، وانظر أطرافه، ومسلمٌ، كتاب الصلاة، باب أمر الأئمة بتخفيف الصلاة (٤٧٠).

(٦) أخرجه البخاريُّ، كتاب الصلاة، باب إذا حمل جارية صغيرة على عنقه في الصلاة (٥١٦)، ومسلمٌ، كتاب المساجد ومواضع الصلاة، باب جواز حمل الصبيان في الصلاة (٥٤٣).

فَفِي «**الصَّحِيحَيْنِ**» (١) مِنْ حَدِيثِ عُمَرَ بْنِ أَبِي سَلَمَةَ (٢) أَنَّهُ قَالَ: كُنْتُ غُلَامًا (٣) فِي حَجْرِ رَسُولِ اللهِ ﷺ، وَكَانَتْ يَدِي تَطِيشُ فِي الصَّحْفَةِ؛ فَقَالَ لِي رَسُولُ اللهِ ﷺ: «**يَا غُلَامُ سَمِّ اللهَ، وَكُلْ بِيَمِينِكَ، وَكُلْ مِمَّا يَلِيكَ**»، فَمَا زَالَتْ تِلْكَ طِعْمَتِي بَعْدُ.

أَيْ: لَزِمْتُ ذَلِكَ وَصَارَ عَادَةً لِي. وَهَذَا فِيهِ حُسْنُ امْتِثَالٍ، وَسُرْعَةُ اسْتِجَابَةٍ مِنْ هَذَا الْغُلَامِ الصَّغِيرِ.

قَالَ الْحَافِظُ (٤): «وَفِيهِ مَنْقَبَةٌ لِعُمَرَ بْنِ أَبِي سَلَمَةَ؛ لِامْتِثَالِهِ الْأَمْرَ، وَمُوَاظَبَتِهِ عَلَى مُقْتَضَاهُ».

وَفِي «صَحِيحِ الْبُخَارِيِّ» (٥) مِنْ حَدِيثِ أَنَسِ بْنِ مَالِكٍ رضي الله عنه أَنَّ غُلَامًا لِيَهُودَ كَانَ يَخْدُمُ النَّبِيَّ ﷺ؛ فَمَرِضَ، فَأَتَاهُ النَّبِيُّ ﷺ يَعُودُهُ؛ فَقَالَ: «**أَسْلِمْ**»، فَأَسْلَمَ.

---

(١) أخرجه البخاريُّ، كتاب الأطعمة، باب التسمية على الطعام والأكل باليمين (٥٣٧٦)، ومسلمٌ، كتاب الأشربة، باب آداب الطعام والشراب وأحكامهما (٢٠٢٢).

(٢) هو عمر بن أبي سلمة بن عبد الأسد بن عبد هلال بن عبد الله بن عمرو بن مخزوم المخزومي، وهو ربيبُ النبيِّ ﷺ، أمه أم سلمة أم المؤمنين، ولد بالحبشة في السنة الثانية، وقيل: قبل ذلك، وقبل الهجرة إلى المدينة، ويدل عليه قول عبد الله بن الزبير: كان أكبر مني بسنتين، ولي البحرين زمن علي، وكان قد شهد معه الجمل، توفي بالمدينة سنة ثلاث وثمانين في خلافة عبد الملك بن مروان بالمدينة رضي الله عنه.

● راجع: «الاستيعاب» (٩٦١)، و«أسد الغابة» (٣٨٣٦)، و«الإصابة» (٥٧٥٦).

(٣) قال الحافظ في «الفتح»: (٩/ ٤٣٢): «قوله: كنت غلامًا» أي: دون البلوغ، يقال للصبي من حين يولد إلى أن يبلغ الحلم غلامًا، وقد ذكر ابن عبد البر أنه ولد في السنة الثانية من الهجرة إلى المدينة بأرض الحبشة، وتبعه غير واحد، وفيه نظر! بل الصواب أنه ولد قبل ذلك، وقد صح في حديث عبد الله بن الزبير أنه قال: «كنت أنا وعمر بن أبي سلمة مع النسوة يوم الخندق، وكان أكبر مني بسنتين» انتهى. ومولد ابن الزبير في السنة الأولى على الصحيح؛ فيكون مولد عمر قبل الهجرة بسنتين.

(٤) «الفتح» (٩/ ٤٣٤).

(٥) أخرجه البخاريُّ، كتاب المرض، باب عيادة المشرك (٥٦٥٧).

وَفِي رِوَايَةٍ [١]: فَأَتَاهُ النَّبِيُّ ﷺ يَعُودُهُ، فَقَعَدَ عِنْدَ رَأْسِهِ؛ فَقَالَ لَهُ: «**أَسْلِمْ**»، فَنَظَرَ إِلَى أَبِيهِ وَهُوَ عِنْدَهُ، فَقَالَ لَهُ: أَطِعْ أَبَا الْقَاسِمِ ﷺ فَأَسْلَمَ، فَخَرَجَ النَّبِيُّ ﷺ وَهُوَ يَقُولُ: «**الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي أَنْقَذَهُ مِنَ النَّارِ**».

قَالَ الْحَافِظُ [٢]: «قَالَ ابْنُ بَطَّالٍ: إِنَّمَا تُشْرَعُ عِيَادَتُهُ إِذَا رُجِيَ أَنْ يُجِيبَ إِلَى الدُّخُولِ فِي الْإِسْلَامِ؛ فَأَمَّا إِذَا لَمْ يُطْمَعْ فِي ذَلِكَ فَلَا» انْتَهَى. فَعَلَّقَ الْحَافِظُ بِقَوْلِهِ: «وَالَّذِي يَظْهَرُ أَنَّ ذَلِكَ يَخْتَلِفُ بِاخْتِلَافِ الْمَقَاصِدِ، فَقَدْ يَقَعُ بِعِيَادَتِهِ مَصْلَحَةٌ أُخْرَى».

وَفِي «مُسْنَدِ» أَحْمَدَ، وَالتِّرْمِذِيِّ فِي «سُنَنِهِ» بِسَنَدٍ صَحِيحٍ [٣] مِنْ حَدِيثِ عَبْدِ اللهِ بْنِ عَبَّاسٍ رضي الله عنهما قَالَ: كُنْتُ خَلْفَ النَّبِيِّ ﷺ يَوْمًا؛ فَقَالَ: «**يَا غُلَامُ إِنِّي أُعَلِّمُكَ كَلِمَاتٍ، احْفَظِ اللهَ يَحْفَظْكَ، احْفَظِ اللهَ تَجِدْهُ تُجَاهَكَ، إِذَا سَأَلْتَ فَاسْأَلِ اللهَ، وَإِذَا اسْتَعَنْتَ فَاسْتَعِنْ بِاللهِ، وَاعْلَمْ أَنَّ الْأُمَّةَ لَوِ اجْتَمَعَتْ عَلَى أَنْ يَنْفَعُوكَ بِشَيْءٍ، لَمْ يَنْفَعُوكَ إِلَّا بِشَيْءٍ قَدْ كَتَبَهُ اللهُ لَكَ، وَلَوِ اجْتَمَعُوا عَلَى أَنْ يَضُرُّوكَ بِشَيْءٍ، لَمْ يَضُرُّوكَ إِلَّا بِشَيْءٍ قَدْ كَتَبَهُ اللهُ عَلَيْكَ، رُفِعَتِ الْأَقْلَامُ، وَجَفَّتِ الصُّحُفُ**».

وَهَذَا الْحَدِيثُ يَتَضَمَّنُ وَصَايَا عَظِيمَةً وَقَوَاعِدَ كُلِّيَّةً مِنْ أَهَمِّ قَوَاعِدِ الدِّينِ؛ حَتَّى قَالَ بَعْضُ الْعُلَمَاءِ: «تَدَبَّرْتُ هَذَا الْحَدِيثَ فَأَدْهَشَنِي، وَكِدْتُ أَطِيشُ» [٤].

---

(١) أخرجه البخاريُّ، كتاب الجنائز، باب إذا أسلم الصبيُّ فمات هل يصلى عليه؟ (١٣٥٦).

(٢) «الفتح» (١٠/ ١٢٥).

(٣) أخرجه أحمد (١/ ٢٩٣، ٣٠٣)، والترمذي، كتاب صفة القيامة والرقاق والورع، باب (٥٩) (٢٥١٦)، وقال: «حسن صحيح»، وقال أحمد شاكر: «إسناده صحيح»، وصححه الألباني في «صحيح الجامع» (٧٩٥٧).

(٤) انظر: «جامع العلوم والحكم» (الحديث التاسع عشر) (ص: ٤٦٢) ط الرسالة.

وَفِي «الصَّحِيحَيْنِ» (١) مِنْ حَدِيثِ أَبِي هُرَيْرَةَ رضي الله عنه قَالَ: أَخَذَ الْحَسَنُ بْنُ عَلِيٍّ رضي الله عنهما تَمْرَةً مِنْ تَمْرِ الصَّدَقَةِ، فَجَعَلَهَا فِي فِيهِ؛ فَقَالَ النَّبِيُّ ﷺ: «**كِخْ كِخْ**»، لِيَطْرَحَهَا، ثُمَّ قَالَ: «**أَمَا شَعَرْتَ أَنَّا لَا نَأْكُلُ الصَّدَقَةَ**».

وَفِي رِوَايَةٍ تَفْصِيلِيَّةٍ أَتَمَّ عِنْدَ الْبُخَارِيِّ أَيْضًا (٢) مِنْ حَدِيثِ أَبِي هُرَيْرَةَ رضي الله عنه قَالَ: كَانَ رَسُولُ اللهِ ﷺ يُؤْتَى بِالتَّمْرِ عِنْدَ صِرَامِ النَّخْلِ (٣) فَيَجِيءُ هَذَا بِتَمْرِهِ وَهَذَا مِنْ تَمْرِهِ، حَتَّى يَصِيرَ عِنْدَهُ كَوْمًا مِنْ تَمْرٍ، فَجَعَلَ الْحَسَنُ وَالْحُسَيْنُ رضي الله عنهما يَلْعَبَانِ بِذَلِكَ التَّمْرِ، فَأَخَذَ أَحَدُهُمَا تَمْرَةً فَجَعَلَهَا فِي فِيهِ؛ فَنَظَرَ إِلَيْهِ رَسُولُ اللهِ ﷺ فَأَخْرَجَهَا مِنْ فِيهِ؛ فَقَالَ: «**أَمَا عَلِمْتَ أَنَّ آلَ مُحَمَّدٍ لَا يَأْكُلُونَ الصَّدَقَةَ**».

وَفِي رِوَايَةِ مُسْلِمٍ: «**إِنَّا لَا تَحِلُّ لَنَا الصَّدَقَةُ**».

وَقَوْلُهُ: «**كِخْ كِخْ**»؛ **قَالَ الْحَافِظُ** (٤): «بِفَتْحِ الْكَافِ وَكَسْرِهَا، وَسُكُونِ الْمُعْجَمَةِ مُثَقَّلًا وَمُخَفَّفًا، وَبِكَسْرِ الْخَاءِ مُنَوَّنَةً وَغَيْرَ مُنَوَّنَةٍ، فَيَخْرُجُ مِنْ ذَلِكَ سِتُّ لُغَاتٍ، وَالثَّانِيَةُ تَوْكِيدٌ لِلْأُولَى، وَهِيَ كَلِمَةٌ تُقَالُ لِرَدْعِ الصَّبِيِّ عِنْدَ تَنَاوُلِهِ مَا يُسْتَقْذَرُ. قِيلَ: عَرَبِيَّةٌ، وَقِيلَ: أَعْجَمِيَّةٌ، وَزَعَمَ الدَّاوُدِيُّ أَنَّهَا مُعَرَّبَةٌ، وَقَدْ أَوْرَدَهَا الْبُخَارِيُّ (٥) فِي «بَابِ مَنْ تَكَلَّمَ بِالْفَارِسِيَّةِ» اهـ.

فَانْظُرْ إِلَى إِنْكَارِهِ ﷺ عَلَى ابْنِ ابْنَتِهِ فَاطِمَةَ رضي الله عنها وَقَالَ لَهُ: «**ارْمِ بِهَا**» (٦) بَعْدَ قَوْلِهِ لَهُ: «**كِخْ كِخْ**» لِيَطْرَحَهَا، ثُمَّ قَالَ لَهُ: «**أَمَا عَلِمْتَ**». وَفِي رِوَايَةٍ: «**أَمَا تَعْرِفُ**»،

---

(١) أخرجه البخاريُّ، كتاب الزكاة، باب ما يذكر في الصدقة للنبي ﷺ (١٤٩١)، ومسلمٌ، كتاب الزكاة، باب تحريم الزكاة على رسول الله ﷺ وعلى آله (١٠٦٩).

(٢) في «صحيحه» كتاب الزكاة، باب أخذ صدقة التمر عند صرام النخل، وهل يترك الصبي فيمس تمر الصدقة؟ (١٤٨٥).

(٣) أي: بعد أن يصير تمرًا. انظر: «الفتح» (٣/ ٤١١).

(٤) «الفتح» (٣/ ٤١٥).

(٥) في «الصحيح» كتاب الجهاد والسير (برقم:٣٠٧٢).

(٦) وهي رواية مسلم.

وَفِي ثَالِثَةٍ - كَمَا سَبَقَ -: «أَمَا شَعَرْتَ» وَهَذَا يُقَالُ عِنْدَ الْأَمْرِ الْوَاضِحِ، وَإِنْ لَمْ يَكُنِ الْمَخَاطَبُ بِذَلِكَ عَالِمًا؛ أَيْ: كَيْفَ خَفِيَ عَلَيْكَ هَذَا مَعَ ظُهُورِهِ؟ وَهُوَ أَبْلَغُ فِي الزَّجْرِ مِنْ قَوْلِهِ: «لَا تَفْعَلْ» (١). وَهَكَذَا يَنْبَغِي أَنْ يُعَلَّمَ الطِّفْلُ، وَيُرَوَّضَ عَلَى الْفَضَائِلِ، وَيُدْعَى إِلَيْهَا، وَيُدَرَّبَ عَلَيْهَا؛ بَلْ وَيُمْنَعَ مِنَ الْمُحَرَّمَاتِ وَإِنْ كَانَ غَيْرَ مُكَلَّفٍ.

وَيَنْشَأُ نَاشِئُ الْفِتْيَانِ مِنَّا عَلَى مَا كَانَ عَوَّدَهُ أَبُوهُ (٢)

وَفِي «مُسْنَدِ» أَحْمَدَ، وَ«سُنَنِ» أَبِي دَاوُدَ وَالتِّرْمِذِيِّ وَالنَّسَائِيِّ وَابْنِ مَاجَهْ بِسَنَدٍ صَحِيحٍ (٣) مِنْ حَدِيثِ الْحَسَنِ بْنِ عَلِيٍّ رضي الله عنهما قَالَ: عَلَّمَنِي رَسُولُ اللهِ ﷺ كَلِمَاتٍ أَقُولُهُنَّ فِي قُنُوتِ الْوَتْرِ: «اللهمَّ اهْدِنِي فِيمَنْ هَدَيْتَ، وَعَافِنِي فِيمَنْ عَافَيْتَ، وَتَوَلَّنِي فِيمَنْ تَوَلَّيْتَ، وَبَارِكْ لِي فِيمَا أَعْطَيْتَ، وَقِنِي شَرَّ مَا قَضَيْتَ، فَإِنَّكَ تَقْضِي وَلَا يُقْضَى عَلَيْكَ، إِنَّهُ لَا يَذِلُّ مَنْ وَالَيْتَ، تَبَارَكْتَ رَبَّنَا وَتَعَالَيْتَ».

وَيُضِيفُ النَّبِيُّ ﷺ فِي تَعْلِيمِهِ لِلْحَسَنِ بْنِ عَلِيٍّ رضي الله عنه أُمُورًا أُخَرَ؛ فَمِنْهَا مَا رَوَاهُ أَحْمَدُ، وَالتِّرْمِذِيُّ، وَالنَّسَائِيُّ، وَالدَّارِمِيُّ، وَالطَّيَالِسِيُّ، وَالطَّبَرَانِيُّ،

---

(١) قاله الحافظ في «الفتح» (٣/ ٤١٦).

(٢) من أبيات أبي العلاء المعري في «ديوانه»(١٤٥٨).

(٣) أخرجه أحمد (١/ ١٩٩، ٢٠٠)، والدارميُّ في «سننه»(١٥٩١)، وأبو داود، كتاب الصلاة، باب القنوت في الوتر (١٤٢٥)، والترمذيُّ، كتاب الوتر، باب ما جاء في القنوت في الوتر (٤٦٣)، وقال: «هذا حديث حسن»، وابن خزيمة في «صحيحه»(١٠٩٥)، والنسائيُّ، كتاب قيام الليل، باب الحث على الصلاة في البيوت (٣/ ٢٤٨)، وابن ماجه، كتاب إقامة الصلاة والسنة فيها، باب ما جاء في القنوت في الوتر (١١٧٨)، والحاكم (٣/ ١٨٨)، والطبراني في «الكبير» (٣/ ٧٣، ٧٥)، وأبو نعيم في «الحلية»(٩/ ٣٢١)، وابن حبان في «صحيحه»(٩٤٥)، وصحَّحهُ الألبانيُّ في «أصل صفة صلاة النبي ﷺ» (٣/ ٩٧٣)، و«الإرواء»(٢/ ١٧٢).

وَابْنُ حِبَّانَ، وَالْحَاكِمُ [(١)] مِنْ حَدِيثِ الْحَسَنِ بْنِ عَلِيٍّ سِبْطِ رَسُولِ الله ﷺ وَرَيْحَانَتِهِ رضي الله عنه قَالَ: «دَعْ مَا يَرِيبُكَ إِلَى مَا لَا يَرِيبُكَ؛ فَإِنَّ الصِّدْقَ طُمَأْنِينَةٌ وَإِنَّ الْكَذِبَ رِيبَةٌ»، وَيَا لَهَا مِنْ وَصِيَّةٍ غَالِيَةٍ وَقَاعِدَةٍ عَظِيمَةٍ فِي بَابِ «الْوَرَعِ» قَلَّ مَنْ يَقُومُ بِهَا؛ نَسْأَلُ الله الصَّلَاحَ.

وَفِي «سُنَنِ» ابْنِ مَاجَهْ، وَعَبْدِ الله بْنِ أَحْمَدَ [(٢)] فِي «السُّنَّةِ»، وَالْبُخَارِيِّ فِي «تَارِيخِهِ» مُعَلَّقًا وَغَيْرِهِمْ [(٣)] مِنْ حَدِيثِ جُنْدُبِ بْنِ عَبْدِ الله الْبَجَلِيِّ [(٤)] رضي الله عنه قَالَ:

---

(١) أخرجه أحمد (١/ ٢٠٠)، والترمذيُّ، كتاب صفة القيامة، باب (٦٠) (رقم:٢٥١٨) وقال: «حسن صحيح»، والنسائيُّ، كتاب الأشربة، باب الحث على ترك الشبهات (٨/ ٣٢٧)، والدارميُّ (٢٥٣٢)، والطيالسي (١١٧٨)، والطبراني في «الكبير» (٣/ ٧٥)(٢٧٠٨)، وابن حبان (٧٢٢)، والحاكم (٢/ ١٥و١٦)، وصححه الألباني في «الإرواء» (١٢) (١/ ٤٤).

(٢) هو عبد الله بن أحمد بن محمد بن حنبل بن هلال، الإمام الحافظ الناقد، محدِّث بغداد، أبو عبد الرحمن ابن شيخ العصر أبي عبد الله الذهلي الشيباني المروزي ثم البغدادي، كان صالحًا صادق اللهجة، كثير الحياء، ثقةً ثبتًا فهمًا، شهد له بمعرفة الرجال وعلل الحديث والأسماء والكنى والمواظبة على طلب العلم حتى بالغ بعضهم فقدمه على أبيه، ولد سنة ثلاث عشرة ومائتين، ومات يوم الأحد لتسع ليال بقين من جمادى الآخرة سنة تسعين ومائتين، عاش سبعًا وسبعين سنة.

● راجع: «سير أعلام النبلاء» (٢٦٣٥)، و«تهذيب التهذيب» (٥/ ١٤١-١٤٣)، و«البداية والنهاية» (١١/ ٨٣).

(٣) أخرجه ابن ماجه في المقدمة، باب في الإيمان (٦١)، والبخاريُّ في «تاريخه» معلقًا (٢/ ٢٢١)، وعبد الله بن أحمد في «السنة» (٧٩٩)، والطبراني في «الكبير» (١٦٧٨)، والبيهقي في «الكبير» (٥٠٧٥)، وفي «الشعب» (٥١)، والخلال في «السنة» (٧٩٩)، وابن بطه في «الإبانة» (١١٣٦)، واللالكائي في «اعتقاد أهل السنة» (١٧١٥)، وابن منده في «الإيمان» (٢٠٨)، وصحَّحهُ الألبانيُّ في «صحيح سنن ابن ماجه».

(٤) هو جندب بن عبد الله بن سفيان البجليُّ العلقيُّ (بطن من بجيلة) وهو علقة بن عبقري

=

كُنَّا مَعَ النَّبِيِّ ﷺ وَنَحْنُ فِتْيَانٌ حَزَاوِرَةٌ (١)؛ فَتَعَلَّمْنَا الْإِيمَانَ قَبْلَ أَنْ نَتَعَلَّمَ الْقُرْآنَ، ثُمَّ تَعَلَّمْنَا الْقُرْآنَ، فَازْدَدْنَا بِهِ إِيمَانًا.

⟡

= ابن أنمار إرش بن عمرو بن الغوث أخو الأزد بن الغوث، له صحبة ليست بالقديمة يكنى أبا عبد الله، سكن الكوفة، ثم انتقل إلى البصرة، ومات بعد الستين.

● راجع: «الإصابة» (١٢٢٦)، و«أسد الغابة» (٨٠٤)، و«الاستيعاب» (٣٤١)، و«تقريب التهذيب» (٩٧٧).

(١) الحَزْوَر، والحَزَوَّر: الغلام الذي قد شب وقوي. انظر: «اللسان» (٣/ ١٥٠).

المَبْحَثُ التَّاسِعُ
دَعْوَتُهُ ﷺ الفَردِيَّةُ لِلأَشْخَاصِ

الْأَرْضُ كُلُّهَا طَرِيقٌ لِدَعْوَةِ سَيِّدِ الدُّعَاةِ، وَالنَّاسُ جَمِيعًا زَرَافَاتٍ وَوُحْدَانًا مَحَلُّ دَعْوَتِهِ، وَمَحَطُّ اهْتِمَامِهِ وَانْشِغَالِهِ الشَّاغِلِ، وَهَمُّهُ الْأَوَّلُ أَنْ يَدُلَّهُمْ عَلَى اللهِ، وَأَنْ يُحْيِيَ مَوَاتَ قُلُوبِهِمْ، وَيُبَدِّدَ غَشَاوَةَ الْكُفْرِ عَنْ عُيُونِهِمْ، وَيُوقِظَ عُقُولَهُمْ، وَيُزَكِّيَ نُفُوسَهُمْ، وَيُهَذِّبَ أَخْلَاقَهُمْ، نَعَمْ.. إِنَّهُ يُرِيدُ أَنْ يُخْرِجَهُمْ لِلْحَيَاةِ بَعْدَ أَنْ خَيَّمَ ظَلَامُ الْكُفْرِ طَوِيلًا طَوِيلًا عَلَى الْأَرْضِ كُلِّهَا حَتَّى اسْتَحَقَّتْ مَقْتَ اللهِ تَعَالَى؛ فَفِي «صَحِيحِ مُسْلِمٍ»[1] مِنْ حَدِيثِ عِيَاضِ بْنِ حِمَارٍ الْمُجَاشِعِيِّ رضي الله عنه أَنَّ النَّبِيَّ ﷺ قَالَ: «إِنَّ اللهَ نَظَرَ إِلَى أَهْلِ الأَرْضِ فَمَقَتَهُمْ عَرَبَهُمْ وَعَجَمَهُمْ إِلَّا بَقَايَا مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ وَقَالَ: إِنَّمَا بَعَثْتُكَ لأَبْتَلِيَكَ وَأَبْتَلِيَ بِكَ، وَأَنْزَلْتُ عَلَيْكَ كِتَابًا لاَ يَغْسِلُهُ الْمَاءُ، تَقْرَؤُهُ نَائِمًا وَيَقْظَانَ، وَإِنَّ اللهَ أَمَرَنِي أَنْ أُحَرِّقَ قُرَيْشًا؛ فَقُلْتُ: رَبِّ إِذًا يَثْلَغُوا رَأْسِي فَيَدَعُوهُ خُبْزَةً، قَالَ: اسْتَخْرِجْهُمْ كَمَا اسْتَخْرَجُوكَ، وَاغْزُهُمْ نُغْزِكَ، وَأَنْفِقْ فَسَنُنْفِقَ عَلَيْكَ، وَابْعَثْ جَيْشًا نَبْعَثْ خَمْسَةً مِثْلَهُ، وَقَاتِلْ بِمَنْ أَطَاعَكَ مَنْ عَصَاكَ، قَالَ: وَأَهْلُ الْجَنَّةِ ثَلاَثَةٌ: ذُو سُلْطَانٍ مُقْسِطٌ مُتَصَدِّقٌ مُوَفَّقٌ، وَرَجُلٌ رَحِيمٌ رَقِيقُ الْقَلْبِ لِكُلِّ ذِي قُرْبَى وَمُسْلِمٍ، وَعَفِيفٌ مُتَعَفِّفٌ ذُو عِيَالٍ - قَالَ - وَأَهْلُ النَّارِ خَمْسَةٌ: الضَّعِيفُ الَّذِي لاَ زَبْرَ لَهُ[2] الَّذِينَ هُمْ فِيكُمْ تَبَعًا لاَ يَتْبَعُونَ أَهْلاً وَلاَ مَالاً، وَالْخَائِنُ الَّذِي لاَ يَخْفَى لَهُ طَمَعٌ وَإِنْ دَقَّ إِلاَّ خَانَهُ، وَرَجُلٌ لاَ يُصْبِحُ وَلاَ يُمْسِي إِلاَّ وَهُوَ يُخَادِعُكَ عَنْ أَهْلِكَ وَمَالِكَ».

---

(١) أخرجه مسلمٌ، كتاب الجنة وصفة نعيمها، باب الصفات التي يعرف بها في الدنيا أهل الجنة وأهل النار(٢٨٦٥) من حديث عياض بن حمار المجاشعي رضي الله عنه.

(٢) أي: لا عقل له يزبره وينهاه عن الإقدام على ما لا ينبغي. انظر: «اللسان» (٦/ ١٠).

بَلْ يَكَادُ الْهَمُّ وَالْحُزْنُ يَقْتُلُهُ ﷺ؛ لِإِعْرَاضِهِمْ عَنِ اللهِ؛ كَمَا قَالَ تَعَالَى: ﴿فَلَعَلَّكَ بَٰخِعٞ نَّفۡسَكَ عَلَىٰٓ ءَاثَٰرِهِمۡ إِن لَّمۡ يُؤۡمِنُواْ بِهَٰذَا ٱلۡحَدِيثِ أَسَفًا﴾ [الكهف:٦].

وَبِهَذِهِ الْمَشَاعِرِ الضَّافِيَةِ وَالْأُبُوَّةِ الْحَانِيَةِ قَامَ إِمَامُ الْأَنْبِيَاءِ وَسَيِّدُ الْمُرْسَلِينَ يَدْعُو بِلَا كَلَلٍ أَوْ مَلَلٍ كُلَّ مَنْ يَقْدِرُ عَلَى دَعْوَتِهِ.

وَإِذَا كَانَتِ النُّفُوسُ كِبَارًا ... تَعِبَتْ فِي مُرَادِهَا الْأَجْسَامُ (١)

فَكَيْفَ إِذَا كَانَتْ نَفْسَ مُحَمَّدٍ ﷺ الَّتِي تَتَقَطَّعُ لِدَعْوَةِ الْعَبْدِ وَالْحُرِّ، وَالْأَمَةِ وَالْحُرَّةِ، وَأَهْلِ الْحَضَرِ وَأَهْلِ الْبَدَاوَةِ، حَتَّى الرُّعَاةِ وَالْمُشْرِكِينَ وَالْمُنَافِقِينَ وَغَيْرِهِمْ.

وَهَذَا بَابٌ يَصْلُحُ أَنْ يَكُونَ رِسَالَةً كَامِلَةً لَوْ تَتَبَّعْنَا دَعْوَتَهُ ﷺ لِلْأَفْرَادِ عَلَى اخْتِلَافِ أَحْوَالِهِمْ وَأَعْمَارِهِمْ وَمُعْتَقَدَاتِهِمْ وَأَلْوَانِهِمْ. وَسَأَكْتَفِي بِذِكْرِ بَعْضِ النَّمَاذِجِ؛ لِتَكُونَ خَيْرَ تَتِمَّةٍ لِبَحْثِنَا الَّذِي أَسْأَلُ اللهَ أَنْ يَجْعَلَهُ خَالِصًا نَافِعًا لِلْمُسْلِمِينَ وَغَيْرِهِمْ.

١ - دَعْوَتُهُ لِأَبِي ذَرٍّ الْغِفَارِيِّ رضي الله عنه:

رَوَى الْبُخَارِيُّ وَمُسْلِمٌ (٢) مِنْ حَدِيثِ ابْنِ عَبَّاسٍ رضي الله عنهما قَالَ: لَمَّا بَلَغَ أَبَا ذَرٍّ مَبْعَثُ النَّبِيِّ ﷺ قَالَ لِأَخِيهِ: ارْكَبْ إِلَى هَذَا الْوَادِي، فَاعْلَمْ لِي عِلْمَ هَذَا الرَّجُلِ الَّذِي يَزْعُمُ أَنَّهُ نَبِيٌّ يَأْتِيهِ الْخَبَرُ مِنَ السَّمَاءِ، وَاسْمَعْ مِنْ قَوْلِهِ، ثُمَّ ائْتِنِي، فَانْطَلَقَ الْأَخُ حَتَّى قَدِمَهُ، وَسَمِعَ مِنْ قَوْلِهِ، ثُمَّ رَجَعَ إِلَى أَبِي ذَرٍّ؛ فَقَالَ لَهُ: رَأَيْتُهُ يَأْمُرُ بِمَكَارِمِ الْأَخْلَاقِ، وَكَلَامًا مَا هُوَ بِالشِّعْرِ؛ فَقَالَ: مَا شَفَيْتَنِي مِمَّا أَرَدْتُ فَتَزَوَّدَ،

---

(١) من أبيات المتنبي في «ديوانه» (٢٦١) ط الجيل – بيروت.

(٢) أخرجه البخاريُّ، كتاب المناقب، باب قصَّة إسلام أبي ذر الغفاري رضي الله عنه (٣٥٢٢)، وفي كتاب مناقب الأنصار، باب إسلام أبي ذر الغفاري رضي الله عنه (٣٨٦١)، ومسلمٌ، كتاب فضائل الصحابة رضي الله عنهم، باب من فضائل أبي ذر رضي الله عنه (٢٤٧٤).

وَحَمَلَ شَنَّةً لَهُ فِيهَا مَاءٌ حَتَّى قَدِمَ مَكَّةَ، فَأَتَى الْمَسْجِدَ فَالْتَمَسَ النَّبِيَّ ﷺ وَلَا يَعْرِفُهُ، وَكَرِهَ أَنْ يَسْأَلَ عَنْهُ حَتَّى أَدْرَكَهُ بَعْضُ اللَّيْلِ، فَرَآهُ عَلِيٌّ فَعَرَفَ أَنَّهُ غَرِيبٌ، فَلَمَّا رَآهُ تَبِعَهُ، فَلَمْ يَسْأَلْ وَاحِدٌ مِنْهُمَا صَاحِبَهُ عَنْ شَيْءٍ، حَتَّى أَصْبَحَ ثُمَّ احْتَمَلَ قِرْبَتَهُ وَزَادَهُ إِلَى الْمَسْجِدِ، وَظَلَّ ذَلِكَ الْيَوْمَ وَلَا يَرَاهُ النَّبِيُّ ﷺ حَتَّى أَمْسَى، فَعَادَ إِلَى مَضْجَعِهِ فَمَرَّ بِهِ عَلِيٌّ؛ فَقَالَ: أَمَا نَالَ لِلرَّجُلِ أَنْ يَعْلَمَ مَنْزِلَهُ؟ فَأَقَامَهُ فَذَهَبَ بِهِ مَعَهُ لَا يَسْأَلُ وَاحِدٌ مِنْهُمَا صَاحِبَهُ عَنْ شَيْءٍ، حَتَّى إِذَا كَانَ يَوْمُ الثَّالِثِ فَعَادَ عَلِيٌّ عَلَى مِثْلِ ذَلِكَ، فَأَقَامَ مَعَهُ ثُمَّ قَالَ: أَلَا تُحَدِّثُنِي مَا الَّذِي أَقْدَمَكَ؟ قَالَ: إِنْ أَعْطَيْتَنِي عَهْدًا وَمِيثَاقًا لَتُرْشِدَنِّي فَعَلْتُ، فَفَعَلَ، فَأَخْبَرَهُ قَالَ: فَإِنَّهُ حَقٌّ، وَهُوَ رَسُولُ اللهِ ﷺ فَإِذَا أَصْبَحْتَ فَاتْبَعْنِي؛ فَإِنِّي إِنْ رَأَيْتُ شَيْئًا أَخَافُ عَلَيْكَ قُمْتُ كَأَنِّي أُرِيقُ الْمَاءَ؛ فَإِنْ مَضَيْتُ فَاتْبَعْنِي، حَتَّى تَدْخُلَ مَدْخَلِي، فَفَعَلَ، فَانْطَلَقَ يَقْفُوهُ حَتَّى دَخَلَ عَلَى النَّبِيِّ ﷺ، وَدَخَلَ مَعَهُ فَسَمِعَ مِنْ قَوْلِهِ وَأَسْلَمَ مَكَانَهُ؛ فَقَالَ لَهُ النَّبِيُّ ﷺ: «**ارْجِعْ إِلَى قَوْمِكَ فَأَخْبِرْهُمْ حَتَّى يَأْتِيَكَ أَمْرِي**»، قَالَ: وَالَّذِي نَفْسِي بِيَدِهِ لَأَصْرُخَنَّ بِهَا بَيْنَ ظَهْرَانَيْهِمْ، فَخَرَجَ حَتَّى أَتَى الْمَسْجِدَ فَنَادَى بِأَعْلَى صَوْتِهِ: أَشْهَدُ أَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا اللهُ، وَأَنَّ مُحَمَّدًا رَسُولُ اللهِ، ثُمَّ قَامَ الْقَوْمُ فَضَرَبُوهُ حَتَّى أَوْجَعُوهُ، وَأَتَى الْعَبَّاسُ فَأَكَبَّ عَلَيْهِ، قَالَ: وَيْلَكُمْ أَلَسْتُمْ تَعْلَمُونَ أَنَّهُ مِنْ غِفَارٍ، وَأَنَّ طَرِيقَ تِجَارِكُمْ إِلَى الشَّأْمِ، فَأَنْقَذَهُ مِنْهُمْ ثُمَّ عَادَ مِنَ الْغَدِ لِمِثْلِهَا فَضَرَبُوهُ وَثَارُوا إِلَيْهِ، فَأَكَبَّ الْعَبَّاسُ عَلَيْهِ.

وَفِي قَوْلِ النَّبِيِّ ﷺ: «**ارْجِعْ إِلَى قَوْمِكَ فَأَخْبِرْهُمْ حَتَّى يَأْتِيَكَ أَمْرِي**» مَدَى حِرْصِ النَّبِيِّ ﷺ عَلَى الْمَدْعُوِّينَ مِنْ أَنْ يَلْحَقَهُمْ أَذًى فِي بِدَايَةِ مَهْدِ الدَّعْوَةِ.

وَفِي رِوَايَةٍ (١): «**يَا أَبَا ذَرٍّ اكْتُمْ هَذَا الْأَمْرَ وَارْجِعْ إِلَى بَلَدِكَ، فَإِذَا بَلَغَكَ ظُهُورُنَا فَأَقْبِلْ**».

---

(١) عند البخاريِّ، كتاب المناقب، باب قصة زمزم (٣٥٢٢).

وَفِي رِوَايَةِ عَبْدِ اللهِ بْنِ الصَّامِتِ [(١)]: «**فَهَلْ أَنْتَ مُبَلِّغٌ عَنِّي قَوْمَكَ؟ عَسَى اللهُ أَنْ يَنْفَعَهُمْ بِكَ، وَيَأْجُرَكَ فِيهِمْ**».

وَهُنَا يَقُولُ أبو ذرٍّ رضي الله عنه: «وَالَّذِي نَفْسِي بِيَدِهِ لَأَصْرُخَنَّ بِهَا بَيْنَ ظَهْرَانَيْهِمْ، فَخَرَجَ حَتَّى أَتَى الْمَسْجِدَ فَنَادَى بِأَعْلَى صَوْتِهِ: أَشْهَدُ أَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا الله، وَأَنَّ مُحَمَّدًا رَسُولُ الله».

قَالَ الْحَافِظُ ابْنُ حَجَرٍ [(٢)]: «قَوْلُهُ: «لَأَصْرُخَنَّ بِهَا»؛ أَيْ: بِكَلِمَةِ التَّوْحِيدِ، وَالْمُرَادُ أَنَّهُ يَرْفَعُ صَوْتَهُ جِهَارًا بَيْنَ الْمُشْرِكِينَ، وَكَأَنَّهُ فَهِمَ أَنَّ أَمْرَ النَّبِيِّ صلى الله عليه وسلم لَهُ بِالْكِتْمَانِ لَيْسَ عَلَى الْإِيجَابِ، بَلْ عَلَى سَبِيلِ الشَّفَقَةِ عَلَيْهِ، فَأَعْلَمَهُ أَنَّ بِهِ قُوَّةً عَلَى ذَلِكَ، وَلِهَذَا أَقَرَّهُ النَّبِيُّ صلى الله عليه وسلم عَلَى ذَلِكَ، وَيُؤْخَذُ مِنْهُ جَوَازُ قَوْلِ الْحَقِّ عِنْدَ مَنْ يُخْشَى مِنْهُ الْأَذِيَّةُ لِمَنْ قَالَهُ، وَإِنْ كَانَ السُّكُوتُ جَائِزًا، وَالتَّحْقِيقُ أَنَّ ذَلِكَ مُخْتَلِفٌ بِاخْتِلَافِ الْأَحْوَالِ وَالْمَقَاصِدِ، وَبِحَسَبِ ذَلِكَ يَتَرَتَّبُ وُجُودُ الْأَجْرِ وَعَدَمُهُ».

٢- دَعْوَتُهُ لِعَمْرِو بْنِ عَبَسَةَ رضي الله عنه [(٣)]:

رَوَى مُسْلِمٌ فِي «صَحِيحِهِ» [(٤)] مِنْ حَدِيثِ أَبِي أُمَامَةَ رضي الله عنه قَالَ: قَالَ عَمْرُو بْنُ

---

(١) عند مسلم، كتاب فضائل الصحابة رضي الله تعالى عنهم، باب من فضائل أبي ذر رضي الله عنه (٢٤٧٢).

(٢) «فتح الباري» (٧/ ٢١٣).

(٣) هو عمرو بن عبسة بن عامر بن خالد بن غاضرة بن عتاب بن امرئ القيس بن بهثة بن سليم. يكنى: أبا نجيح، وقيل: أبو شعيب، أسلم قديمًا أول الإسلام بمكة، وكان يقال: هو ربع الإسلام. وكان قدومه المدينة بعد مضي بدر وأحد والخندق، ثم قدم المدينة فسكنها، ونزل بعد ذلك الشام، روى عنه عدد من الصحابة؛ كابن مسعود وغيره. قال ابن سعد: كان قبل أن يسلم اعتزل عبادة الأوثان. ويقال: إنه مات بحمص. قال الحافظ: «وأظنه مات في أواخر خلافة عثمان، فإنني لم أر له ذكرًا في الفتنة، ولا في خلافة معاوية».

● راجع: «الاستيعاب» (٩٦١)، و«أسد الغابة» (٣٩٨٤)، و«الإصابة» (٥٩١٨).

(٤) أخرجه مسلمٌ، كتاب صلاة المسافرين وقصرها، باب إسلام عمرو بن عبسة (٨٣٢).

عَبَسَةَ السُّلَمِيِّ رضي الله عنه: كُنْتُ وَأَنَا فِي الْجَاهِلِيَّةِ أَظُنُّ أَنَّ النَّاسَ عَلَى ضَلَالَةٍ، وَأَنَّهُمْ لَيْسُوا عَلَى شَيْءٍ، وَهُمْ يَعْبُدُونَ الْأَوْثَانَ، فَسَمِعْتُ بِرَجُلٍ بِمَكَّةَ يُخْبِرُ أَخْبَارًا، فَقَعَدْتُ عَلَى رَاحِلَتِي، فَقَدِمْتُ عَلَيْهِ؛ فَإِذَا رَسُولُ اللهِ ﷺ مُسْتَخْفِيًا، جُرَءَاءُ عَلَيْهِ قَوْمُهُ، فَتَلَطَّفْتُ حَتَّى دَخَلْتُ عَلَيْهِ بِمَكَّةَ؛ فَقُلْتُ لَهُ: مَا أَنْتَ؟(١) قَالَ: «**أَنَا نَبِيٌّ**»، فَقُلْتُ: وَمَا نَبِيٌّ؟ قَالَ: «**أَرْسَلَنِي اللهُ**»، فَقُلْتُ: وَبِأَيِّ شَيْءٍ أَرْسَلَكَ؟ قَالَ: «**أَرْسَلَنِي بِصِلَةِ الْأَرْحَامِ، وَكَسْرِ الْأَوْثَانِ، وَأَنْ يُوَحَّدَ اللهُ لَا يُشْرَكُ بِهِ شَيْءٌ**»، قُلْتُ لَهُ: فَمَنْ مَعَكَ عَلَى هَذَا؟ قَالَ: «**حُرٌّ وَعَبْدٌ**»، (قَالَ: وَمَعَهُ يَوْمَئِذٍ أَبُو بَكْرٍ وَبِلَالٌ مِمَّنْ آمَنَ بِهِ) فَقُلْتُ: إِنِّي مُتَّبِعُكَ، قَالَ: «**إِنَّكَ لَا تَسْتَطِيعُ ذَلِكَ يَوْمَكَ هَذَا، أَلَا تَرَى حَالِي وَحَالَ النَّاسِ؟ وَلَكِنِ ارْجِعْ إِلَى أَهْلِكَ، فَإِذَا سَمِعْتَ بِي قَدْ ظَهَرْتُ فَأْتِنِي**»، قَالَ: فَذَهَبْتُ إِلَى أَهْلِي، وَقَدِمَ رَسُولُ اللهِ ﷺ الْمَدِينَةَ، وَكُنْتُ فِي أَهْلِي فَجَعَلْتُ أَتَخَبَّرُ الْأَخْبَارَ، وَأَسْأَلُ النَّاسَ حِينَ قَدِمَ الْمَدِينَةَ، حَتَّى قَدِمَ عَلَيَّ نَفَرٌ مِنْ أَهْلِ يَثْرِبَ مِنْ أَهْلِ الْمَدِينَةِ؛ فَقُلْتُ: مَا فَعَلَ هَذَا الرَّجُلُ الَّذِي قَدِمَ الْمَدِينَةَ؟ فَقَالُوا: النَّاسُ إِلَيْهِ سِرَاعٌ، وَقَدْ أَرَادَ قَوْمُهُ قَتْلَهُ فَلَمْ يَسْتَطِيعُوا ذَلِكَ، فَقَدِمْتُ الْمَدِينَةَ فَدَخَلْتُ عَلَيْهِ؛ فَقُلْتُ: يَا رَسُولَ اللهِ أَتَعْرِفُنِي؟ قَالَ: «**نَعَمْ أَنْتَ الَّذِي لَقِيتَنِي بِمَكَّةَ**»، قَالَ: فَقُلْتُ: بَلَى، فَقُلْتُ: يَا نَبِيَّ اللهِ أَخْبِرْنِي عَمَّا عَلَّمَكَ اللهُ وَأَجْهَلُهُ؟ أَخْبِرْنِي عَنِ الصَّلَاةِ؟ قَالَ: «**صَلِّ صَلَاةَ الصُّبْحِ، ثُمَّ أَقْصِرْ عَنِ الصَّلَاةِ حَتَّى تَطْلُعَ الشَّمْسُ حَتَّى تَرْتَفِعَ، فَإِنَّهَا تَطْلُعُ حِينَ تَطْلُعُ بَيْنَ قَرْنَيْ شَيْطَانٍ، وَحِينَئِذٍ يَسْجُدُ لَهَا الْكُفَّارُ، ثُمَّ صَلِّ فَإِنَّ الصَّلَاةَ مَشْهُودَةٌ مَحْضُورَةٌ، حَتَّى يَسْتَقِلَّ الظِّلُّ بِالرُّمْحِ، ثُمَّ أَقْصِرْ عَنِ الصَّلَاةِ فَإِنَّ حِينَئِذٍ تُسْجَرُ جَهَنَّمُ؛ فَإِذَا أَقْبَلَ الْفَيْءُ فَصَلِّ فَإِنَّ الصَّلَاةَ مَشْهُودَةٌ مَحْضُورَةٌ، حَتَّى تُصَلِّيَ الْعَصْرَ، ثُمَّ أَقْصِرْ عَنِ الصَّلَاةِ حَتَّى تَغْرُبَ الشَّمْسُ، فَإِنَّهَا**

---

(١) قال النوويُّ رحمه الله: «هكذا هو في الأصول «ما أنت» وإنما قال: «ما أنت»، ولم يقل: «من أنت»؛ لأنه سأله عن صفته لا عن ذاته، والصفات مما لا يعقل». انظر: «شرح مسلم» (٦/ ١٦٥، ١٦٦).

تَغْرُبُ بَيْنَ قَرْنَيْ شَيْطَانٍ وَحِينَئِذٍ يَسْجُدُ لَهَا الْكُفَّارُ»، قَالَ: فَقُلْتُ: يَا نَبِيَّ اللهِ فَالْوُضُوءَ حَدِّثْنِي عَنْهُ؟ قَالَ: «مَا مِنْكُمْ رَجُلٌ يُقَرِّبُ وَضُوءَهُ فَيَتَمَضْمَضُ، وَيَسْتَنْشِقُ فَيَنْتَثِرُ، إِلَّا خَرَّتْ خَطَايَا وَجْهِهِ وَفِيهِ وَخَيَاشِيمِهِ، ثُمَّ إِذَا غَسَلَ وَجْهَهُ كَمَا أَمَرَهُ اللهُ إِلَّا خَرَّتْ خَطَايَا وَجْهِهِ مِنْ أَطْرَافِ لِحْيَتِهِ مَعَ الْمَاءِ، ثُمَّ يَغْسِلُ يَدَيْهِ إِلَى الْمِرْفَقَيْنِ إِلَّا خَرَّتْ خَطَايَا يَدَيْهِ مِنْ أَنَامِلِهِ مَعَ الْمَاءِ، ثُمَّ يَمْسَحُ رَأْسَهُ إِلَّا خَرَّتْ خَطَايَا رَأْسِهِ مِنْ أَطْرَافِ شَعْرِهِ مَعَ الْمَاءِ، ثُمَّ يَغْسِلُ قَدَمَيْهِ إِلَى الْكَعْبَيْنِ إِلَّا خَرَّتْ خَطَايَا رِجْلَيْهِ مِنْ أَنَامِلِهِ مَعَ الْمَاءِ؛ فَإِنْ هُوَ قَامَ فَصَلَّى فَحَمِدَ اللهَ، وَأَثْنَى عَلَيْهِ، وَمَجَّدَهُ بِالَّذِي هُوَ لَهُ أَهْلٌ، وَفَرَّغَ قَلْبَهُ لِلَّهِ إِلَّا انْصَرَفَ مِنْ خَطِيئَتِهِ كَهَيْئَتِهِ يَوْمَ وَلَدَتْهُ أُمُّهُ»، فَحَدَّثَ عَمْرُو بْنُ عَبَسَةَ بِهَذَا الْحَدِيثِ أَبَا أُمَامَةَ صَاحِبَ رَسُولِ اللهِ ﷺ؛ فَقَالَ لَهُ أَبُو أُمَامَةَ: يَا عَمْرُو بْنَ عَبَسَةَ، انْظُرْ مَا تَقُولُ فِي مَقَامٍ وَاحِدٍ يُعْطَى هَذَا الرَّجُلُ؟ فَقَالَ عَمْرٌو: يَا أَبَا أُمَامَةَ لَقَدْ كَبِرَتْ سِنِّي، وَرَقَّ عَظْمِي، وَاقْتَرَبَ أَجَلِي، وَمَا بِي حَاجَةٌ أَنْ أَكْذِبَ عَلَى اللهِ وَلَا عَلَى رَسُولِ اللهِ، لَوْ لَمْ أَسْمَعْهُ مِنْ رَسُولِ اللهِ ﷺ إِلَّا مَرَّةً أَوْ مَرَّتَيْنِ أَوْ ثَلَاثًا، (حَتَّى عَدَّ سَبْعَ مَرَّاتٍ) مَا حَدَّثْتُ بِهِ أَبَدًا، وَلَكِنِّي سَمِعْتُهُ أَكْثَرَ مِنْ ذَلِكَ.

وَفِي قَوْلِهِ ﷺ لِعَمْرٍو رضي الله عنه: «**إِنَّكَ لَا تَسْتَطِيعُ ذَلِكَ يَوْمَكَ هَذَا، أَلَا تَرَى حَالِي وَحَالَ النَّاسِ؟ وَلَكِنِ ارْجِعْ إِلَى أَهْلِكَ، فَإِذَا سَمِعْتَ بِي قَدْ ظَهَرْتُ فَأْتِنِي**» مَا يُشْبِهُ تَوْجِيهَهُ ﷺ لِأَبِي ذَرٍّ رضي الله عنه كَمَا تَقَدَّمَ.

قَالَ النَّوَوِيُّ رحمه الله (١): «مَعْنَاهُ: قُلْتُ لَهُ إِنِّي مُتَّبِعُكَ عَلَى إِظْهَارِ الْإِسْلَامِ هُنَا، وَإِقَامَتِي مَعَكَ؛ فَقَالَ لَا تَسْتَطِيعُ ذَلِكَ؛ لِضَعْفِ شَوْكَةِ الْمُسْلِمِينَ، وَنَخَافُ عَلَيْكَ مِنْ أَذَى كُفَّارِ قُرَيْشٍ، وَلَكِنْ قَدْ حَصَلَ أَجْرُكَ؛ فَابْقَ عَلَى إِسْلَامِكَ، وَارْجِعْ إِلَى قَوْمِكَ، وَاسْتَمِرَّ عَلَى الْإِسْلَامِ فِي مَوْضِعِكَ حَتَّى تَعْلَمَنِي ظَهَرْتُ فَأْتِنِي، وَفِيهِ

---

(١) «شرح مسلم» (٦/ ١٦٦).

مُعْجِزَةٌ لِلنُّبُوَّةِ، وَهِيَ إِعْلَامُهُ بِأَنَّهُ سَيَظْهَرُ».

٣- مَعَ ضِمَادٍ الأَزْدِيِّ [١]:

لَقَدْ كَانَ ضِمَادٌ مِنْ جُمْلَةِ مَنْ أَسْلَمَ عَلَى يَدِ النَّبِيِّ ﷺ فِي بِدَايَةِ دَعْوَتِهِ بِكَلِمَاتٍ نَبَوِيَّةٍ لَمَسَتْ شِغَافَ قَلْبِهِ، وَأَزَالَتْ عَنْهُ الْحُجُبَ وَالدِّعَايَاتِ الْكَاذِبَةَ الَّتِي جَهَرَ بِهَا الْمُشْرِكُونَ لِلصَّدِّ عَنْ دَعْوَةِ رَسُولِ اللهِ ﷺ، فَذَهَبَ ضِمَادٌ بِنَفْسِهِ؛ لِيَسْتَمِعَ مِنْ رَسُولِ اللهِ ﷺ؛ فَانْتَقَلَ بِكَلِمَاتِ الْمُصْطَفَى ﷺ الصَّادِقَةِ الْمُخْلِصَةِ؛ حِينَ أَصْغَى لَهَا سَمْعَهُ، وَبَاشَرَتْ فِطْرَتَهُ وَقَلْبَهُ؛ إِلَى عَالَمِ الْإِسْلَامِ.

فَفِي «**صَحِيحِ مُسْلِمٍ**» [٢] مِنْ حَدِيثِ ابْنِ عَبَّاسٍ رضي الله عنهما: أَنَّ ضِمَادًا قَدِمَ مَكَّةَ، وَكَانَ مِنْ أَزْدِ شَنُوءَةَ، وَكَانَ يَرْقِي مِنْ هَذِهِ الرِّيحِ، فَسَمِعَ سُفَهَاءَ مِنْ أَهْلِ مَكَّةَ يَقُولُونَ: إِنَّ مُحَمَّدًا مَجْنُونٌ، فَقَالَ: لَوْ أَنِّي رَأَيْتُ هَذَا الرَّجُلَ لَعَلَّ اللهَ يَشْفِيهِ عَلَى يَدَيَّ، قَالَ: فَلَقِيَهُ؛ فَقَالَ: يَا مُحَمَّدُ: إِنِّي أَرْقِي مِنْ هَذِهِ الرِّيحِ، وَإِنَّ اللهَ يَشْفِي عَلَى يَدِي مَنْ شَاءَ، فَهَلْ لَكَ؟ فَقَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: «**إِنَّ الْحَمْدَ للهِ، نَحْمَدُهُ وَنَسْتَعِينُهُ، مَنْ يَهْدِهِ اللهُ فَلَا مُضِلَّ لَهُ، وَمَنْ يُضْلِلْ فَلَا هَادِيَ لَهُ، وَأَشْهَدُ أَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا اللهُ وَحْدَهُ لَا شَرِيكَ لَهُ، وَأَنَّ مُحَمَّدًا عَبْدُهُ وَرَسُولُهُ، أَمَّا بَعْدُ**»، قَالَ: فَقَالَ: أَعِدْ عَلَيَّ كَلِمَاتِكَ هَؤُلَاءِ، فَأَعَادَهُنَّ عَلَيْهِ رَسُولُ اللهِ ﷺ ثَلَاثَ مَرَّاتٍ، قَالَ: فَقَالَ: لَقَدْ سَمِعْتُ قَوْلَ الْكَهَنَةِ، وَقَوْلَ السَّحَرَةِ، وَقَوْلَ الشُّعَرَاءِ، فَمَا سَمِعْتُ مِثْلَ كَلِمَاتِكَ هَؤُلَاءِ، وَلَقَدْ بَلَغْنَ نَاعُوسَ الْبَحْرِ، قَالَ: فَقَالَ: هَاتِ يَدَكَ أُبَايِعْكَ عَلَى الْإِسْلَامِ، قَالَ: فَبَايَعَهُ؛

---

(١) هو ضماد بن ثعلبة الأزدي؛ من أزد شنوءة، كان صديقًا للنبي ﷺ في الجاهلية، وكان رجلًا يتطبب، ويرقي، ويطلب العلم، أسلم أول الإسلام؛ قاله ابن عبد البر. وضماد آخره دال، غير ضمام بن ثعلبة السعدي، الآتي ترجمته قريبًا.

● راجع: «الاستيعاب» (١٢٦٢)، و«أسد الغابة» (٢٥٦٩)، و«الإصابة» (٤١٩٦).

(٢) أخرجه مسلمٌ، كتاب الجمعة، باب تخفيف الصلاة والخطبة (٨٦٨).

فَقَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: «وَعَلَى قَوْمِكَ؟» قَالَ: وَعَلَى قَوْمِي، قَالَ: فَبَعَثَ رَسُولُ اللهِ ﷺ سَرِيَّةً فَمَرُّوا بِقَوْمِهِ، فَقَالَ صَاحِبُ السَّرِيَّةِ لِلْجَيْشِ: هَلْ أَصَبْتُمْ مِنْ هَؤُلَاءِ شَيْئًا؟ فَقَالَ رَجُلٌ مِنَ الْقَوْمِ: أَصَبْتُ مِنْهُمْ مِطْهَرَةً، فَقَالَ: رُدُّوهَا فَإِنَّ هَؤُلَاءِ قَوْمُ ضِمَادٍ.

وَقَوْلُهُ: «فَمَا سَمِعْتُ مِثْلَ كَلِمَاتِكَ هَؤُلَاءِ، وَلَقَدْ بَلَغْنَ نَاعُوسَ الْبَحْرِ»؛ يَعْنِي: هَذِهِ الْكَلِمَاتُ لَهَا نُفُوذٌ أَقْوَى وَبَعِيدٌ، وَنَاعُوسُ الْبَحْرِ: هُوَ عُمْقُهُ وَلُجَّتُهُ، وَهَذَا لَا يَكُونُ قَرِيبًا مِنَ السَّوَاحِلِ؛ بَلْ يَكُونُ بَعِيدًا مِنَ السَّوَاحِلِ، وَالْمَعْنَى: أَنَّ هَذِهِ الْكَلِمَاتِ كَانَ لَهَا تَأْثِيرٌ بَالِغٌ[1]، وَحِينَ أَعْجَبَتْهُ كَلِمَاتُ رَسُولِ اللهِ ﷺ الْبَلِيغَةُ طَلَبَ أَنْ يُعِيدَهَا عَلَيْهِ؛ فَقَالَ: «أَعِدْ عَلَيَّ كَلِمَاتِكَ هَؤُلَاءِ؛ فَأَعَادَهُنَّ عَلَيْهِ رَسُولُ اللهِ ﷺ ثَلَاثَ مَرَّاتٍ» وَبَعْدَمَا سَمِعَهَا مَرَّاتٍ وَمَرَّاتٍ، لَمْ يَتَحَوَّلْ مِنْ مَكَانِهِ حَتَّى شَهِدَ شَهَادَةَ الْحَقِّ، وَأَسْلَمَ فِي التَّوِّ وَاللَّحْظَةِ بِبَرَكَةِ دَعْوَتِهِ ﷺ لَهُ إِلَى الْإِسْلَامِ.

٤ - دَعْوَتُهُ ﷺ لِلْوَلِيدِ بْنِ الْمُغِيرَةِ:

رَوَى الْحَاكِمُ فِي «الْمُسْتَدْرَكِ»، وَالْبَيْهَقِيُّ فِي «الشُّعَبِ» وَ«الدَّلَائِلِ»[2] بِسَنَدٍ جَوَّدَهُ الْحَافِظُ الْعِرَاقِيُّ[3] مِنْ حَدِيثِ ابْنِ عَبَّاسٍ رضي الله عنهما: أَنَّ الْوَلِيدَ بْنَ الْمُغِيرَةِ

---

(١) «شرح صحيح مسلم» للنوويِّ (٣/ ٣٠٨).

(٢) أخرجه الحاكم في «المستدرك» (٢/ ٥٠٦، ٥٠٧)، وقال: «صحيح الإسناد على شرط البخاري ولم يخرجاه»، ووافقه الذهبيُّ، وكذا الألباني في «صحيح السيرة» (١٥٨ و١٥٩)، وأخرجه كذلك أبو نعيم في «الدلائل» (١/ ٣٠٦)، والواحديُّ في «أسباب النزول» (٨٩٩)، وإسحاق بن راهويه؛ كما في «البداية والنهاية» (٣/ ٦٠ و٦١)، والبيهقي في «الدلائل» (٢/ ١٩٨ و٢٠٠)، وفي «الشعب» (١٣٥)، وجوَّد سنده الحافظ العراقيُّ في «تخريج الإحياء» (١/ ٢٧٤).

(٣) هو عبد الرحيم بن الحسين بن عبد الرحمن بن أبي بكر بن إبراهيم، الحافظ الكبير المفيد المتقن المحرر الناقد، محدث الديار المصرية، ذو التصانيف المفيدة، زين =

جَاءَ إِلَى النَّبِيِّ ﷺ؛ فَقَرَأَ عَلَيْهِ الْقُرْآنَ؛ فَكَأَنَّهُ رَقَّ لَهُ، فَبَلَغَ ذَلِكَ أَبَا جَهْلٍ؛ فَأَتَاهُ؛ فَقَالَ: يَا عَمِّ! إِنَّ قَوْمَكَ يَرَوْنَ أَنْ يَجْمَعُوا لَكَ مَالًا قَالَ: لِمَ؟ قَالَ: لِيُعْطُوكَهُ؛ فَإِنَّكَ أَتَيْتَ مُحَمَّدًا لِتَعْرِضَ لِمَا قِبَلَهُ، قَالَ: قَدْ عَلِمَتْ قُرَيْشٌ أَنِّي مِنْ أَكْثَرِهَا مَالًا. قَالَ: فَقُلْ فِيهِ قَوْلًا يَبْلُغُ قَوْمَكَ أَنَّكَ مُنْكِرٌ لَهُ، أَوْ أَنَّكَ كَارِهٌ لَهُ. قَالَ: وَمَاذَا أَقُولُ؟ فَوَاللهِ مَا فِيكُمْ رَجُلٌ أَعْلَمَ بِالْأَشْعَارِ مِنِّي، وَلَا أَعْلَمَ بِرَجَزٍ وَلَا بِقَصِيدَةٍ مِنِّي، وَلَا بِأَشْعَارِ الْجِنِّ، وَاللهِ مَا يُشْبِهُ الَّذِي يَقُولُ شَيْئًا مِنْ هَذَا، وَوَاللهِ إِنَّ لِقَوْلِهِ الَّذِي يَقُولُ حَلَاوَةً، وَإِنَّ عَلَيْهِ لَطَلَاوَةً، وَإِنَّهُ لَمُثْمِرٌ أَعْلَاهُ، مُغْدِقٌ أَسْفَلُهُ، وَإِنَّهُ لَيَعْلُو وَمَا يُعْلَى، وَإِنَّهُ لَيَحْطِمُ مَا تَحْتَهُ. قَالَ: لَا يَرْضَى عَنْكَ قَوْمُكَ حَتَّى تَقُولَ فِيهِ. قَالَ: فَدَعْنِي حَتَّى أُفَكِّرَ، فَلَمَّا فَكَّرَ قَالَ: هَذَا سِحْرٌ يُؤْثَرُ، يَأْثِرُهُ عَنْ غَيْرِهِ، فَنَزَلَتْ: ﴿ذَرْنِي وَمَنْ خَلَقْتُ وَحِيدًا ۝١١ وَجَعَلْتُ لَهُۥ مَالًا مَّمْدُودًا ۝١٢ وَبَنِينَ شُهُودًا ۝١٣ وَمَهَّدتُّ لَهُۥ تَمْهِيدًا ۝١٤ ثُمَّ يَطْمَعُ أَنْ أَزِيدَ ۝١٥ كَلَّآ ۖ إِنَّهُۥ كَانَ لِءَايَٰتِنَا عَنِيدًا ۝١٦ سَأُرْهِقُهُۥ صَعُودًا ۝١٧ إِنَّهُۥ فَكَّرَ وَقَدَّرَ ۝١٨ فَقُتِلَ كَيْفَ قَدَّرَ ۝١٩ ثُمَّ قُتِلَ كَيْفَ قَدَّرَ ۝٢٠ ثُمَّ نَظَرَ ۝٢١ ثُمَّ عَبَسَ وَبَسَرَ ۝٢٢ ثُمَّ أَدْبَرَ وَٱسْتَكْبَرَ ۝٢٣ فَقَالَ إِنْ هَٰذَآ إِلَّا سِحْرٌ يُؤْثَرُ ۝٢٤ إِنْ هَٰذَآ إِلَّا قَوْلُ ٱلْبَشَرِ ۝٢٥ سَأُصْلِيهِ سَقَرَ ۝٢٦ وَمَآ أَدْرَىٰكَ مَا سَقَرُ﴾

[المدثر: ١١ - ٢٧].

=

الدين أبو الفضل، العراقي الأصل، الكردي، نزل القاهرة، ولد في جمادى الأولى سنة خمس وعشرين وسبعمائة. ومن مصنفاته: «ألفية الحديث» وهي نظم علوم الحديث لابن الصلاح ثم شرحه، وعمل نكتًا على ابن الصلاح، وخرج أحاديث «الإحياء» للغزالي، واختصره في «المغني»، وله نظم «غريب القرآن»، و«السيرة النبوية» في ألف بيت؛ قال ابن حجي: «انتهت إليه معرفة علم الحديث»، وقال صاحبه الحافظ ابن حجر: «صار المنظور إليه في هذا الفن». توفي في شعبان سنة ست وثمانمائة بالقاهرة؛ رحمه الله تعالى.

- راجع: «طبقات الشافعية» لابن قاضي شهبة (٤/ ٢٩)، و«إنباء الغمر» للحافظ (٢/ ٢٧٥-٢٧٩)، و«البدر الطالع» (٣٩٢)، و«الأعلام» (٣/ ٣٤٤).

٥ - دَعْوَتُه ﷺ لِضِمَامِ بْنِ ثَعْلَبَةَ (١):

رَوَى الْبُخَارِيُّ فِي «صَحِيحِهِ» (٢) مِنْ حَدِيثِ أَنَسِ بْنِ مَالِكٍ رضي الله عنه قَالَ: بَيْنَمَا نَحْنُ جُلُوسٌ مَعَ النَّبِيِّ ﷺ فِي الْمَسْجِدِ، دَخَلَ رَجُلٌ عَلَى جَمَلٍ، فَأَنَاخَهُ فِي الْمَسْجِدِ، ثُمَّ عَقَلَهُ، ثُمَّ قَالَ لَهُمْ: أَيُّكُمْ مُحَمَّدٌ، وَالنَّبِيُّ ﷺ مُتَّكِئٌ بَيْنَ ظَهْرَانَيْهِمْ، فَقُلْنَا: هَذَا الرَّجُلُ الأَبْيَضُ الْمُتَّكِئُ؛ فَقَالَ لَهُ الرَّجُلُ: يَا ابْنَ عَبْدِ الْمُطَّلِبِ؛ فَقَالَ لَهُ النَّبِيُّ ﷺ: «**قَدْ أَجَبْتُكَ**»، فَقَالَ الرَّجُلُ لِلنَّبِيِّ ﷺ: إِنِّي سَائِلُكَ فَمُشَدِّدٌ عَلَيْكَ فِي الْمَسْأَلَةِ، فَلاَ تَجِدْ عَلَيَّ فِي نَفْسِكَ؛ فَقَالَ: «**سَلْ عَمَّا بَدَا لَكَ**»، فَقَالَ: أَسْأَلُكَ بِرَبِّكَ وَرَبِّ مَنْ قَبْلَكَ اللهُ أَرْسَلَكَ إِلَى النَّاسِ كُلِّهِمْ؟ فَقَالَ: «**اللهمَّ نَعَمْ**»، قَالَ: أَنْشُدُكَ بِاللهِ اللهُ أَمَرَكَ أَنْ نُصَلِّيَ الصَّلَوَاتِ الْخَمْسَ فِي الْيَوْمِ وَاللَّيْلَةِ؟ قَالَ: «**اللهمَّ نَعَمْ**»، قَالَ: أَنْشُدُكَ بِاللهِ اللهُ أَمَرَكَ أَنْ نَصُومَ هَذَا الشَّهْرَ مِنَ السَّنَةِ؟ قَالَ: «**اللهمَّ نَعَمْ**»، قَالَ: أَنْشُدُكَ بِاللهِ اللهُ أَمَرَكَ أَنْ تَأْخُذَ هَذِهِ الصَّدَقَةَ مِنْ أَغْنِيَائِنَا فَتَقْسِمَهَا عَلَى فُقَرَائِنَا؟ فَقَالَ النَّبِيُّ ﷺ: «**اللهمَّ نَعَمْ**»، فَقَالَ الرَّجُلُ: آمَنْتُ بِمَا جِئْتَ بِهِ، وَأَنَا رَسُولُ مَنْ وَرَائِي مِنْ قَوْمِي، وَأَنَا ضِمَامُ ابْنُ ثَعْلَبَةَ أَخُو بَنِي سَعْدِ بْنِ بَكْرٍ.

وَفِي رِوَايَةِ مُسْلِمٍ: عَنْ أَنَسِ بْنِ مَالِكٍ رضي الله عنه قَالَ: نُهِينَا أَنْ نَسْأَلَ رَسُولَ اللهِ ﷺ عن شَيْءٍ، فَكَانَ يُعْجِبُنَا أَنْ يَجِيءَ الرَّجُلُ مِنْ أَهْلِ الْبَادِيَةِ الْعَاقِلِ، فَيَسْأَلَهُ وَنَحْنُ نَسْمَعُ؛ فَجَاءَ رَجُلٌ مِنْ أَهْلِ الْبَادِيَةِ؛ فَقَالَ: يَا مُحَمَّدُ! أَتَانَا رَسُولُكَ فَزَعَمَ لَنَا أَنَّكَ تَزْعُمُ أَنَّ اللهَ أَرْسَلَكَ، قَالَ: «**صَدَقَ**»، قَالَ: فَمَنْ خَلَقَ السَّمَاءَ؟ قَالَ: «**اللهُ**»، قَالَ:

---

(١) هو ضمام بن ثعلبة السعدي من بني سعد بن بكر، كان سيدًا في قومه، أوفدوه إلى الرَّسُول ﷺ سنة خمس أو سبع أو تسع، فأسلم وعاد إلى قومه.

● راجع ترجمته في «الإصابة» (٤١٩٧)، و«أسد الغابة» (٢٥٧٠).

(٢) أخرجه البخاريُّ، كتاب العلم، باب ما جاء في العلم (٦٣)، ومسلمٌ، كتاب الإيمان، باب السؤال عن أركان الإسلام (١٢) بسياقٍ مقاربٍ.

فَمَنْ خَلَقَ الْأَرْضَ؟ قَالَ: «الله»، قَالَ: فَمَنْ نَصَبَ هَذِهِ الْجِبَالَ، وَجَعَلَ فِيهَا مَا جَعَلَ؟ قَالَ: «الله»، قَالَ: فَبِالَّذِي خَلَقَ السَّمَاءَ، وَخَلَقَ الْأَرْضَ، وَنَصَبَ هَذِهِ الْجِبَالَ الله أَرْسَلَكَ؟ قَالَ: «**نَعَمْ**»، قَالَ: وَزَعَمَ رَسُولُكَ أَنَّ عَلَيْنَا خَمْسَ صَلَوَاتٍ فِي يَوْمِنَا وَلَيْلَتِنَا، قَالَ: «**صَدَقَ**»، قَالَ: فَبِالَّذِي أَرْسَلَكَ الله أَمَرَكَ بِهَذَا؟ قَالَ: «**نَعَمْ**»، قَالَ: وَزَعَمَ رَسُولُكَ أَنَّ عَلَيْنَا زَكَاةً فِي أَمْوَالِنَا، قَالَ: «**صَدَقَ**» قَالَ: فَبِالَّذِي أَرْسَلَكَ الله أَمَرَكَ بِهَذَا؟ قَالَ: «**نَعَمْ**» قَالَ: وَزَعَمَ رَسُولُكَ أَنَّ عَلَيْنَا صَوْمَ شَهْرِ رَمَضَانَ فِي سَنَتِنَا، قَالَ «**صَدَقَ**»، قَالَ: فَبِالَّذِي أَرْسَلَكَ الله أَمَرَكَ بِهَذَا؟ قَالَ: «**نَعَمْ**»، قَالَ: وَزَعَمَ رَسُولُكَ أَنَّ عَلَيْنَا حَجَّ الْبَيْتِ مَنِ اسْتَطَاعَ إِلَيْهِ سَبِيلًا، قَالَ: «**صَدَقَ**»، قَالَ: ثُمَّ وَلَّى، قَالَ: وَالَّذِي بَعَثَكَ بِالْحَقِّ لَا أَزِيدُ عَلَيْهِنَّ، وَلَا أَنْقُصُ مِنْهُنَّ؛ فَقَالَ النَّبِيُّ ﷺ: «**لَئِنْ صَدَقَ لَيَدْخُلَنَّ الْجَنَّةَ**».

قَالَ ابْنُ حَجَرٍ رحمه الله [١]: «قَالَ عُمَرُ بْنُ الْخَطَّابِ: مَا رَأَيْتُ أَحْسَنَ مَسْأَلَةً وَلَا أَوْجَزَ مِنْ ضِمَامٍ». وَكَانَتْ كَلِمَاتُ رَسُولِ الله ﷺ هِيَ الْأُخْرَى غَايَةً فِي الْبَلَاغَةِ، فَلَمْ تَتَجَاوَزْ قَوْلَهُ: «**صَدَقَ**»، وَ«**نَعَمْ**».

وَهُنَا فَائِدَةٌ سَاقَهَا النَّوَوِيُّ رحمه الله [٢] عَنْ صَاحِبِ التَّحْرِيرِ؛ **فَقَالَ**: «هَذَا مِنْ حُسْنِ سُؤَالِ هَذَا الرَّجُلِ، وَمَلَاحَةِ سِيَاقَتِهِ، وَتَرْتِيبِهِ، فَإِنَّهُ سَأَلَ أَوَّلًا: عَنْ صَانِعِ الْمَخْلُوقَاتِ، مَنْ هُوَ؟ ثُمَّ أَقْسَمَ عَلَيْهِ بِهِ، أَنْ يَصْدُقَهُ فِي كَوْنِهِ رَسُولًا لِلصَّانِعِ، ثُمَّ لَمَّا وَقَفَ عَلَى رِسَالَتِهِ وَعَلِمَهَا أَقْسَمَ عَلَيْهِ بِحَقِّ مُرْسِلِهِ، وَهَذَا تَرْتِيبٌ يَفْتَقِرُ إِلَى عَقْلٍ رَصِينٍ، ثُمَّ إِنَّ هَذِهِ الْأَيْمَانَ جَرَتْ لِلتَّأْكِيدِ وَتَقْرِيرِ الْأَمْرِ، لَا لِافْتِقَارِهِ».

---

(١) «فتح الباري» (١/ ١٩٢).

(٢) «شرح مسلم» للنووي (١/ ١٧٠، ١٧١) ط الريان.

٦ - دَعْوَتُهُ لِثُمَامَةَ بْنِ أُثَالٍ [(١)] رضي الله عنه «سَيِّدِ أَهْلِ الْيَمَامَةِ»:

رَوَى الْبُخَارِيُّ وَمُسْلِمٌ [(٢)] مِنْ حَدِيثِ أَبِي هُرَيْرَةَ رضي الله عنه أَنَّهُ قَالَ: بَعَثَ رَسُولُ اللهِ ﷺ خَيْلًا قِبَلَ نَجْدٍ؛ فَجَاءَتْ بِرَجُلٍ مِنْ بَنِي حَنِيفَةَ، يُقَالُ لَهُ: ثُمَامَةُ بْنُ أُثَالٍ، سَيِّدُ أَهْلِ الْيَمَامَةِ، فَرَبَطُوهُ بِسَارِيَةٍ مِنْ سَوَارِي الْمَسْجِدِ، فَخَرَجَ إِلَيْهِ رَسُولُ اللهِ ﷺ فَقَالَ: «**مَاذَا عِنْدَكَ يَا ثُمَامَةُ؟**» فَقَالَ: عِنْدِي يَا مُحَمَّدُ خَيْرٌ، إِنْ تَقْتُلْ تَقْتُلْ ذَا دَمٍ، وَإِنْ تُنْعِمْ تُنْعِمْ عَلَى شَاكِرٍ، وَإِنْ كُنْتَ تُرِيدُ الْمَالَ فَسَلْ تُعْطَ مِنْهُ مَا شِئْتَ، فَتَرَكَهُ رَسُولُ اللهِ ﷺ حَتَّى كَانَ بَعْدَ الْغَدِ فَقَالَ: «**مَاذَا عِنْدَكَ يَا ثُمَامَةُ؟**» قَالَ: مَا قُلْتُ لَكَ: إِنْ تُنْعِمْ تُنْعِمْ عَلَى شَاكِرٍ، وَإِنْ تَقْتُلْ تَقْتُلْ ذَا دَمٍ، وَإِنْ كُنْتَ تُرِيدُ الْمَالَ فَسَلْ تُعْطَ مِنْهُ مَا شِئْتَ فَتَرَكَهُ رَسُولُ اللهِ ﷺ حَتَّى كَانَ مِنَ الْغَدِ؛ فَقَالَ: «**مَاذَا عِنْدَكَ يَا ثُمَامَةُ؟**» فَقَالَ: عِنْدِي مَا قُلْتُ لَكَ: إِنْ تُنْعِمْ تُنْعِمْ عَلَى شَاكِرٍ، وَإِنْ تَقْتُلْ تَقْتُلْ ذَا دَمٍ، وَإِنْ كُنْتَ تُرِيدُ الْمَالَ فَسَلْ تُعْطَ مِنْهُ مَا شِئْتَ؛ فَقَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: «**أَطْلِقُوا ثُمَامَةَ**»، فَانْطَلَقَ إِلَى نَخْلٍ قَرِيبٍ مِنَ الْمَسْجِدِ، فَاغْتَسَلَ ثُمَّ دَخَلَ الْمَسْجِدَ؛ فَقَالَ: أَشْهَدُ أَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا اللهُ وَأَشْهَدُ أَنَّ مُحَمَّدًا عَبْدُهُ وَرَسُولُهُ، يَا مُحَمَّدُ! وَاللهِ مَا كَانَ عَلَى الْأَرْضِ وَجْهٌ أَبْغَضَ إِلَيَّ مِنْ وَجْهِكَ، فَقَدْ أَصْبَحَ وَجْهُكَ أَحَبَّ الْوُجُوهِ كُلِّهَا

---

(١) هو ثمامة بن أثال بن النعمان بن مسلمة بن عبيد، أبو أمامة اليمامي سيد أهل اليمامة؛ قال محمد بن إسحاق: «لما ارتد أهل اليمامة عن الإسلام لم يرتد ثمامة، وثبت على إسلامه هو ومن اتبعه من قومه، وكان مقيمًا باليمامة ينهاهم عن اتباع مسيلمة وتصديقه ويقول: إياكم وأمرًا مظلمًا لا نور فيه، وإنه لشقاء كتبه الله عز وجل على من أخذ به منكم..» وارتحل هو ومن أطاعه من قومه، فلحقوا بالعلاء الحضرمي، فقاتل معه المرتدين من أهل البحرين.

● راجع: «الاستيعاب» (٢٧٨)، و«أسد الغابة» (٦١٩)، و«الإصابة» (٩٦٣).

(٢) أخرجه البخاريُّ، كتاب المغازي، باب وفد بني حنيفة وحديث ثمامة بن أثال (٤٣٧٢)، ومسلمٌ، كتاب الجهاد، باب ربط الأسير وحبسه وجواز المن عليه (١٧٦٤).

إِلَيَّ، وَالله مَا كَانَ مِنْ دِينٍ أَبْغَضَ إِلَيَّ مِنْ دِينِكَ، فَأَصْبَحَ دِينُكَ أَحَبَّ الدِّيْنِ كُلِّهِ إِلَيَّ، وَالله مَا كَانَ مِنْ بَلَدٍ أَبْغَضَ إِلَيَّ مِنْ بَلَدِكَ، فَأَصْبَحَ بَلَدُكَ أَحَبَّ الْبِلَادِ كُلِّهَا إِلَيَّ، وَإِنَّ خَيْلَكَ أَخَذَتْنِي وَأَنَا أُرِيدُ الْعُمْرَةَ، فَمَاذَا تَرَى؟ فَبَشَّرَهُ رَسُولُ الله ﷺ وَأَمَرَهُ أَنْ يَعْتَمِرَ؛ فَلَمَّا قَدِمَ مَكَّةَ قَالَ لَهُ قَائِلٌ: أَصَبَوْتَ؟ فَقَالَ: لَا، وَلَكِنِّي أَسْلَمْتُ مَعَ رَسُولِ الله ﷺ، وَلَا وَالله لَا يَأْتِيكُمْ مِنَ الْيَمَامَةِ حَبَّةُ حِنْطَةٍ، حَتَّى يَأْذَنَ فِيهَا رَسُولُ الله ﷺ.

قَالَ الْحَافِظُ ابْنُ حَجَرٍ (١): «فِيهِ مِنَ الْمُلَاطَفَةِ بِمَنْ يُرْجَى إِسْلَامُهُ مِنَ الْأُسَارَى إِذَا كَانَ فِي ذَلِكَ مَصْلَحَةٌ لِلْإِسْلَامِ، وَلَاسِيَّمَا مَنْ يَتْبَعُهُ عَلَى إِسْلَامِهِ الْعَدَدُ الْكَثِيرُ مِنْ قَوْمِهِ».

٧- مَعَ مُعَاوِيَةَ بْنِ الْحَكَمِ السُّلَمِيِّ رضي الله عنه:

أَخْرَجَ مُسْلِمٌ فِي «**الصَّحِيحِ**» (٢) مِنْ حَدِيثِ مُعَاوِيَةَ بْنِ الْحَكَمِ السُّلَمِيِّ رضي الله عنه قَالَ: بَيْنَا أَنَا أُصَلِّي مَعَ رَسُولِ الله ﷺ إِذْ عَطَسَ رَجُلٌ مِنَ الْقَوْمِ، فَقُلْتُ: يَرْحَمُكَ اللهُ! فَرَمَانِي الْقَوْمُ بِأَبْصَارِهِمْ، فَقُلْتُ: وَا ثُكْلَ أُمِّيَاهُ! مَا شَأْنُكُمْ تَنْظُرُونَ إِلَيَّ؟ فَجَعَلُوا يَضْرِبُونَ بِأَيْدِيهِمْ عَلَى أَفْخَاذِهِمْ، فَلَمَّا رَأَيْتُهُمْ يُصَمِّتُونَنِي لَكِنِّي سَكَتُّ، فَلَمَّا صَلَّى رَسُولُ الله ﷺ بِأَبِي هُوَ وَأُمِّي! مَا رَأَيْتُ مُعَلِّمًا قَبْلَهُ وَلَا بَعْدَهُ أَحْسَنَ تَعْلِيمًا مِنْهُ؛ فَوَالله مَا كَهَرَنِي، وَلَا ضَرَبَنِي، وَلَا شَتَمَنِي، قَالَ: «**إِنَّ هَذِهِ الصَّلَاةَ، لَا يَصْلُحُ فِيهَا شَيْءٌ مِنْ كَلَامِ النَّاسِ، إِنَّمَا هُوَ التَّسْبِيحُ، وَالتَّكْبِيرُ، وَقِرَاءَةُ الْقُرْآنِ**».

قَالَ النَّوَوِيُّ (٣): «فِيهِ: بَيَانُ مَا كَانَ عَلَيْهِ رَسُولُ الله ﷺ مِنْ عَظِيمِ الْخُلُقِ

---

(١) «فتح الباري» (٧/ ٦٩٠).

(٢) أخرجه مسلمٌ، كتاب المساجد ومواضع الصلاة، باب تحريم الكلام في الصلاة، ونسخ ما كان من إباحته (٥٣٧).

(٣) «شرح مسلم» (٥/ ٢٠).

الَّذِي شَهِدَ اللهُ تَعَالَى لَهُ بِهِ، وَرِفْقِهِ بِالْجَاهِلِ، وَرَأْفَتِهِ بِأُمَّتِهِ، وَشَفَقَتِهِ عَلَيْهِمْ، وَفِيهِ التَّخَلُّقُ بِخُلُقِهِ ﷺ فِي الرِّفْقِ بِالْجَاهِلِ، وَحُسْنِ تَعْلِيمِهِ وَاللُّطْفِ بِهِ، وَتَقْرِيبِ الصَّوَابِ إِلَى فَهْمِهِ».

٨- مَعَ حَكِيمِ بْنِ حِزَامٍ رضي الله عنه[1]:

وَهَا هُوَ رَسُولُ اللهِ ﷺ يُوَجِّهُ نَصِيحَةً غَالِيَةً لِحَكِيمِ بْنِ حِزَامٍ رضي الله عنه فَيَقْبَلُهَا حَكِيمٌ، وَيَعْمَلُ بِهَا حَتَّى قُبِضَ.

فَفِي «**الصَّحِيحَيْنِ**»[2] مِنْ حَدِيثِ حَكِيمِ بْنِ حِزَامٍ رضي الله عنه، قَالَ: سَأَلْتُ رَسُولَ اللهِ ﷺ فَأَعْطَانِي، ثُمَّ سَأَلْتُهُ فَأَعْطَانِي، ثُمَّ سَأَلْتُهُ فَأَعْطَانِي، ثُمَّ قَالَ: «**يَا حَكِيمُ! إِنَّ هَذَا الْمَالَ خَضِرَةٌ حُلْوَةٌ**[3]**؛ فَمَنْ أَخَذَهُ بِسَخَاوَةِ نَفْسٍ بُورِكَ لَهُ فِيهِ، وَمَنْ أَخَذَهُ بِإِشْرَافِ نَفْسٍ لَمْ يُبَارَكْ لَهُ فِيهِ؛ كَالَّذِي يَأْكُلُ وَلَا يَشْبَعُ، الْيَدُ الْعُلْيَا خَيْرٌ مِنَ الْيَدِ السُّفْلَى**»، قَالَ حَكِيمٌ: فَقُلْتُ: يَا رَسُولَ اللهِ وَالَّذِي بَعَثَكَ بِالْحَقِّ، لَا

---

(١) هو حكيم بن حزام بن خويلد بن أسد بن عبد العزى بن قصي بن كلاب، أبو خالد القرشي الأسدي، أسلم يوم الفتح، وحسن إسلامه وغزا حنينًا والطائف، وكان من أشراف قريش، وعقلائها، ونبلائها، وكانت خديجة عمته، وكان الزبير ابن عمه. عاش مائة وعشرين سنة، وولد قبل عام الفيل بثلاث عشرة سنة، كان من المؤلفة. قال البخاريُّ في «تاريخه»: «عاش ستين سنة في الجاهلية، وستين في الإسلام». توفي سنة أربع وخمسين رضي الله عنه.

● راجع: «السير» (ترجمة: ٣٧٠)، و«أسد الغابة» (ترجمة: ١٢٣٤)، و«الإصابة» (ترجمة: ١٨٠٥).

(٢) أخرجه البخاريُّ، كتاب الزكاة، باب الاستعفاف عن المسألة (١٤٧٢)، ومسلمٌ، كتاب الزكاة، باب بيان اليد العليا خير من اليد السفلى (١٠٣٥).

(٣) قال الحافظ ابن حجر: «شبهه بالرغبة فيه، والميل إليه، وحرص النفوس عليه بالفاكهة الخضراء المستلذة؛ فإن الأخضر مرغوبٌ فيه على انفراده بالنسبة إلى اليابس، والحلو مرغوب فيه على انفراده بالنسبة للحامض؛ فالإعجاب بهما إذا اجتمعا أشد». («الفتح» ٣/ ٣٩٤).

أَرْزَأُ(١) أَحَدًا بَعْدَكَ شَيْئًا، حَتَّى أُفَارِقَ الدُّنْيَا، فَكَانَ أَبُو بَكْرٍ ﷺ يَدْعُو حَكِيمًا إِلَى الْعَطَاءِ فَيَأْبَى أَنْ يَقْبَلَهُ مِنْهُ، ثُمَّ إِنَّ عُمَرَ ﷺ دَعَاهُ؛ لِيُعْطِيَهُ فَأَبَى أَنْ يَقْبَلَ مِنْهُ شَيْئًا؛ فَقَالَ عُمَرُ: إِنِّي أُشْهِدُكُمْ يَا مَعْشَرَ الْمُسْلِمِينَ عَلَى حَكِيمٍ أَنِّي أَعْرِضُ عَلَيْهِ حَقَّهُ مِنْ هَذَا الْفَيْءِ فَيَأْبَى أَنْ يَأْخُذَهُ، فَلَمْ يَرْزَأْ حَكِيمٌ أَحَدًا مِنَ النَّاسِ بَعْدَ رَسُولِ اللهِ ﷺ حَتَّى تُوُفِّيَ.

٩- دَعْوَتُهُ ﷺ لِلشَّابِّ الَّذِي جَاءَهُ لِيَسْتَأْذِنَهُ فِي الزِّنَا:

رَوَى أَحْمَدُ فِي «مُسْنَدِهِ»، وَالطَّبَرَانِيُّ فِي «الكَبِير»(٢) مِنْ حَدِيثِ أَبِي أُمَامَةَ ﷺ أَنَّ فَتًى شَابًّا أَتَى النَّبِيَّ ﷺ فَقَالَ: يَا رَسُولَ اللهِ ائْذَنْ لِي بِالزِّنَا؟ فَأَقْبَلَ الْقَوْمُ عَلَيْهِ فَزَجَرُوهُ، قَالُوا: مَهْ مَهْ؛ فَقَالَ: «**ادْنُهْ**»، فَدَنَا مِنْهُ قَرِيبًا قَالَ فَجَلَسَ؛ فَقَالَ ﷺ: «**أَتُحِبُّهُ لِأُمِّكَ؟**»، قَالَ: لَا وَاللهِ يَا رَسُولَ اللهِ جَعَلَنِي اللهُ فِدَاءَكَ، قَالَ: «**وَلَا النَّاسُ يُحِبُّونَهُ لِأُمَّهَاتِهِمْ**»، قَالَ: «**أَفَتُحِبُّهُ لِابْنَتِكَ؟**» قَالَ: لَا وَاللهِ يَا رَسُولَ اللهِ جَعَلَنِي اللهُ فِدَاءَكَ، قَالَ: «**وَلَا النَّاسُ يُحِبُّونَهُ لِبَنَاتِهِمْ**»، قَالَ: «**أَفَتُحِبُّهُ لِأُخْتِكَ؟**» قَالَ: لَا وَاللهِ يَا رَسُولَ اللهِ جَعَلَنِي اللهُ فِدَاءَكَ، قَالَ: «**وَلَا النَّاسُ يُحِبُّونَهُ لِأَخَوَاتِهِمْ**»، قَالَ: «**أَفَتُحِبُّهُ لِعَمَّتِكَ؟**» قَالَ: لَا وَاللهِ يَا رَسُولَ اللهِ جَعَلَنِي اللهُ فِدَاءَكَ، قَالَ: «**وَلَا النَّاسُ يُحِبُّونَهُ لِعَمَّاتِهِمْ**»، قَالَ: «**أَفَتُحِبُّهُ لِخَالَتِكَ؟**» قَالَ: لَا وَاللهِ يَا رَسُولَ اللهِ جَعَلَنِي اللهُ فِدَاءَكَ، قَالَ: «**وَلَا النَّاسُ يُحِبُّونَهُ لِخَالَاتِهِمْ**»، قَالَ: فَوَضَعَ يَدَهُ عَلَيْهِ، وَقَالَ: «**اللهمَّ اغْفِرْ ذَنْبَهُ، وَطَهِّرْ قَلْبَهُ، وَحَصِّنْ فَرْجَهُ**»؛ فَلَمْ يَكُنْ بَعْدُ ذَلِكَ الْفَتَى يَلْتَفِتُ إِلَى شَيْءٍ.

---

(١) رزأ ماله: أصاب من ماله شيئًا. انظر: «اللسان» (٥/ ٢٠٠).

(٢) أخرجه أحمد في «مسنده» (٥/ ٢٥٧)، والطبراني في «الكبير» (٨/ ١٦٢) (٧٦٧٩)، وفي «مسند الشاميين» (١٠٦٦)، وقال الهيثميُّ في «المجمع» (١/ ١٢٩): «رجاله رجال الصحيح»، وصحَّحهُ الألبانيُّ في «الصحيحة» (٣٧٠).

١٠ - دَعْوَتُهُ ﷺ لِمُشْرِكٍ لَحِقَهُ وَهُوَ فِي طَرِيقِهِ لِلْغَزْوِ:

فَفِي «صَحِيحِ مُسْلِمٍ»(١) مِنْ حَدِيثِ عَائِشَةَ زَوْجِ النَّبِيِّ ﷺ أَنَّهَا قَالَتْ: خَرَجَ رَسُولُ اللهِ ﷺ قِبَلَ بَدْرٍ فَلَمَّا كَانَ بِحَرَّةِ الْوَبَرَةِ(٢) أَدْرَكَهُ رَجُلٌ قَدْ كَانَ يُذْكَرُ مِنْهُ جُرْأَةٌ وَنَجْدَةٌ فَفَرِحَ أَصْحَابُ رَسُولِ اللهِ ﷺ حِينَ رَأَوْهُ؛ فَلَمَّا أَدْرَكَهُ قَالَ لِرَسُولِ اللهِ ﷺ: جِئْتُ لِأَتَّبِعَكَ وَأُصِيبَ مَعَكَ، قَالَ لَهُ رَسُولُ اللهِ ﷺ: «**تُؤْمِنُ بِاللهِ وَرَسُولِهِ؟**»، قَالَ: لَا، قَالَ: «**فَارْجِعْ فَلَنْ أَسْتَعِينَ بِمُشْرِكٍ**»، قَالَتْ: ثُمَّ مَضَى حَتَّى إِذَا كُنَّا بِالشَّجَرَةِ أَدْرَكَهُ الرَّجُلُ؛ فَقَالَ لَهُ كَمَا قَالَ أَوَّلَ مَرَّةٍ؛ فَقَالَ لَهُ النَّبِيُّ ﷺ كَمَا قَالَ أَوَّلَ مَرَّةٍ، قَالَ: «**فَارْجِعْ فَلَنْ أَسْتَعِينَ بِمُشْرِكٍ**»، قَالَ: ثُمَّ رَجَعَ فَأَدْرَكَهُ بِالْبَيْدَاءِ فَقَالَ لَهُ كَمَا قَالَ أَوَّلَ مَرَّةٍ: «**تُؤْمِنُ بِاللهِ وَرَسُولِهِ؟**»، قَالَ: نَعَمْ، فَقَالَ لَهُ رَسُولُ اللهِ ﷺ: «**فَانْطَلِقْ**».

فَانْظُرْ إِلَى حِرْصِ النَّبِيِّ ﷺ عَلَى دَعْوَةِ هَذَا الْمُشْرِكِ إِلَى الدُّخُولِ فِي الْإِسْلَامِ، وَمَا زَالَ النَّبِيُّ ﷺ يُكَرِّرُ عَلَيْهِ كُلَّمَا عَادَ: «**تُؤْمِنُ بِاللهِ وَرَسُولِهِ؟**»؛ حَتَّى كَتَبَ اللهُ تَعَالَى لِهَذَا الرَّجُلِ الْهِدَايَةَ وَأَسْلَمَ، حِينَئِذٍ قَبِلَهُ النَّبِيُّ ﷺ لِئَنْ يُجَاهِدَ مَعَهُ، وَيَنْضَمَّ مَعَ حِزْبِ اللهِ الْمُفْلِحِينَ.

وَهَذِهِ فِرَاسَةٌ مِنْ رَسُولِ اللهِ ﷺ لِهَذَا الَّذِي رَغَّبَهُ فِي الْإِسْلَامِ؛ فَرَدَّهُ رَجَاءَ أَنْ يُسْلِمَ، فَصَدَقَ ظَنُّهُ(٣).

---

(١) أخرجه مسلمٌ، كتاب الجهاد والسير، باب كراهية الاستعانة في الغزو بكافر (١٨١٧).

(٢) بفتح الباء والراء، وقيَّده بعضهم بسكون الباء، وهو موضعٌ على أربعة أميال من المدينة؛ راجع: «المفهم لما أشكل من تلخيص كتاب مسلم» (٥/ ٣٤٢)، و«شرح مسلم» للنووي (٦/ ٤٣٨).

(٣) «فتح الباري» (٦/ ١٧٩، ١٨٠).

١١ - دَعْوَتُهُ ﷺ لِمُشْرِكٍ أَرَادَ قَتْلَهُ:

رَوَى الْبُخَارِيُّ وَمُسْلِمٌ (١) مِنْ حَدِيثِ جَابِرِ بْنِ عَبْدِ الله رضي الله عنهما قَالَ: غَزَوْنَا مَعَ رَسُولِ الله ﷺ غَزْوَةً قِبَلَ نَجْدٍ، فَأَدْرَكَنَا رَسُولُ الله ﷺ فِي وَادٍ كَثِيرِ الْعِضَاهِ، فَنَزَلَ رَسُولُ الله ﷺ تَحْتَ شَجَرَةٍ، فَعَلَّقَ سَيْفَهُ بِغُصْنٍ مِنْ أَغْصَانِهَا، قَالَ: وَتَفَرَّقَ النَّاسُ فِي الْوَادِي يَسْتَظِلُّونَ بِالشَّجَرِ، قَالَ: فَقَالَ رَسُولُ الله ﷺ: «**إِنَّ رَجُلًا أَتَانِي وَأَنَا نَائِمٌ فَأَخَذَ السَّيْفَ، فَاسْتَيْقَظْتُ وَهُوَ قَائِمٌ عَلَى رَأْسِي، فَلَمْ أَشْعُرْ إِلَّا وَالسَّيْفُ صَلْتًا فِي يَدِهِ** (٢)**، فَقَالَ لِي: مَنْ يَمْنَعُكَ مِنِّي؟ قَالَ: قُلْتُ: الله، ثُمَّ قَالَ فِي الثَّانِيَةِ:**

---

(١) أخرجه البخاريُّ، كتاب المغازي، باب غزوة ذات الرقاع (٤١٣٥)، وراجع: (٢٩١٠)، ومسلمٌ، كتاب صلاة الخوف، باب صلاة الخوف (٨٤٣).

(٢) أي: مجرَّدًا عن غمده. انظر: «الفتح» (٧/ ٤٩٢).

فائدة: **قال القرطبيُّ**: «هذا يدل على أنه ﷺ كان في هذا الوقت لا يحرسه أحدٌ من الناس، بخلاف ما كان عليه في أول الأمر؛ فإنه كان يُحرس، حتى نزل قوله تعالى: ﴿وَٱللَّهُ يَعۡصِمُكَ مِنَ ٱلنَّاسِ﴾ [المائدة:٦٧]».

وعلَّق الحافظ عليه بقوله: «لكن قد قيل: إن هذه القصة سبب نزول قوله تعالى: ﴿وَٱللَّهُ يَعۡصِمُكَ مِنَ ٱلنَّاسِ﴾ وذلك فيما أخرجه ابن أبي شيبة - وهو عند ابن حبان في «صحيحه» (١٧٣٩- موارد)، وابن مردويه في «تفسيره»؛ كما في ابن كثير («تفسير المائدة»:آية٦٧)- من طريق: محمد بن عمرو عن أبي سلمة عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: «كنا إذا نزلنا طلَبْنا للنبيِّ ﷺ أعظمَ شجرةٍ وأظلها، فننزلُ تحت شجرة؛ فجاء رجل فأخذ سيفه؛ فقال: يا محمد! من يمنعُك مِنِّي؟ قال: «الله»؛ فأنزل الله ﴿وَٱللَّهُ يَعۡصِمُكَ مِنَ ٱلنَّاسِ﴾، وهذا إسنادٌ حسن، فيحتمل إذا كان محفوظًا (*) أن يقال: كان مخيرًا في اتخاذ الحرس، فتركه مرة لقوة يقينه، فلما وقعت هذه القصة ونزلت الآية ترك ذلك». انتهى من «الفتح» (٦/ ١١٥).

===========

(*) فقد رواه أبو سلمة عن جابر عند الشيخين، وهنا رواه عن أبي هريرة على الجادة؛ لذا علَّق الحافظ التحسين، وقد حسَّنهُ الألبانيُّ في «الصحيحة» تحت رقم (٢٤٨٩) (٥/ ٦٤٥).

مَنْ يَمْنَعُكَ مِنِّي؟ قَالَ: قُلْتُ: الله (١)**، قَالَ: فَشَامَ السَّيْفَ** (٢)**، فَهَا هُوَ ذَا جَالِسٌ. ثُمَّ لَمْ يَعْرِضْ لَهُ رَسُولُ الله ﷺ**».

وَفِي رِوَايَةٍ عِنْدَ الْإِسْمَاعِيلِيِّ (٣) فِي «صَحِيحِهِ» وَغَيْرِهِ (٤): «فَإِذَا عِنْدَهُ أَعْرَابِيٌّ جَالِسٌ؛ فَقَالَ رَسُولُ الله ﷺ: إِنَّ هَذَا اخْتَرَطَ عَلَيَّ سَيْفِي وَأَنَا نَائِمٌ، فَاسْتَيْقَظْتُ وَهُوَ فِي يَدِهِ صَلْتًا؛ فَقَالَ لِي: تَخَافُنِي؟ فَقَالَ لَهُ: «**لَا**»، قَالَ: فَمَنْ يَمْنَعُكَ مِنِّي؟ قَالَ: «**الله**»، فَشَامَ السَّيْفَ، فَهَا هُوَ ذَا جَالِسٌ، فَسَقَطَ السَّيْفُ مِنْ يَدِهِ، فَأَخَذَهُ رَسُولُ الله ﷺ، وَقَالَ: «**مَنْ يَمْنَعُكَ أَنْتَ مِنِّي؟**»، قَالَ: كُنْ خَيرَ آخِذٍ؛ فَقَالَ النبيُّ ﷺ: «**تَشْهَدُ أَلَّا إِلَهَ إِلَّا الله، وَأَنِّي رَسُولُ الله ﷺ؟**» قَالَ: لَا، وَلَكِنِّي

---

(١) قال الحافظ في «الفتح» (٧/ ٤٩٢): «ويؤخذُ من مراجعة الأعرابي له في الكلام أن الله سبحانه وتعالى منع نبيه ﷺ. وإلا فما أحوجه إلى مراجعته مع احتياجه إلى الحظوة عند قومه بقتله، وفي قول النبي ﷺ في جوابه: «الله»؛ أي: يمنعني منك إشارة إلى ذلك، ولذلك أعادها الأعرابي، فلم يزده على ذلك الجواب، وفي ذلك غاية التهكم به، وعدم المبالاة به أصلًا» ا. هـ.

(٢) وفي رواية: «فشامه» والمراد: أغمده، وهذه الكلمة من الأضداد، يقال: شامه إذا استله، وشامه إذا أغمده؛ قاله الخطابي وغيره. («الفتح» ٧/ ٤٩٢).

(٣) هو: أبو بكر أحمد بن إبراهيم بن إسماعيل الجرجاني الحافظ الفقيه الشافعي، ذو التصانيف الكبار في الحديث والفقه، ولد سنة سبع وسبعين ومائتين، صنف «المستخرج على الصحيحين» و«معجمه»؛ قال الحاكم: «كان الإسماعيليُّ واحد عصره، وشيخ المحدثين والفقهاء»، توفي في رجب سنة إحدى وسبعين وثلاثمائة عن أربع وتسعين سنة.

● راجع: «تذكرة الحفاظ» (٣/ ٩٤٧)، و«السير» (٣٥٧٣)، و«شذرات الذهب» (٣/ ٧٢)، و«طبقات الشافعية» لابن قاضي شهبة (١/ ١٣٦)، وللسبكي (٣/ ٧)، و«البداية والنهاية» (١١/ ٢٩٨).

(٤) أخرجه أبو بكر الإسماعيلي في «صحيحه»؛ كما عزاه النوويُّ في كتابه «رياض الصالحين» (رقم:٧٩)، وعزاه الحافظ ابن حجر في «الفتح» (٧/ ٤٩٣) لإبراهيم الحربي في «غريب الحديث» بسندٍ منقطع؛ فأبو بشر الراوي عن سليمان بن قيس لم يسمع منه؛ كما قال البخاريُّ في «تهذيب» المزي (١٢/ ٥٥).

أُعَاهِدُكَ أنْ لا أُقَاتِلَكَ، وَلاَ أَكُونَ مَعَ قَومٍ يُقَاتِلُونَكَ، فَخَلَّى سَبِيلَهُ، فَجَاءَ أَصْحَابَهُ، فَقَالَ: جِئْتُكُمْ مِنْ عِنْدِ خَيْرِ النَّاسِ».

قَالَ الحَافِظُ (١): «فَمَنَّ عَلَيْهِ لِشِدَّةِ رَغْبَةِ النَّبِيِّ ﷺ فِي اسْتِئْلَافِ الكُفَّارِ لِيَدْخُلُوا الإِسْلَامَ، وَلَمْ يُؤَاخِذْهُ بِمَا صَنَعَ، بَلْ عَفَا عَنْهُ. وَقَدْ ذَكَرَ الوَاقِدِيُّ فِي نَحْوِ هَذِهِ القِصَّةِ أَنَّهُ أَسْلَمَ، وَأَنَّهُ رَجَعَ إِلَى قَوْمِهِ، فَاهْتَدَى بِهِ خَلْقٌ كَثِيرٌ.

وَوَقَعَ فِي رِوَايَةِ ابْن إِسْحَاق: «ثُمَّ أَسْلَمَ بَعْدُ»، وَفِي الحَدِيثِ: فَرْطُ شَجَاعَةِ النَّبِيِّ ﷺ وَقُوَّةُ يَقِينِهِ وَصَبْرِهِ على الأَذَى، وَحِلْمِهِ عَنِ الجُهَّالِ» انْتَهَى.

١٢ - دَعْوَتُهُ ﷺ لِغُلامٍ يَرْعَى غَنَمًا وَهُوَ فِي طَرِيقِ هِجْرَتِهِ:

فَفِي «**مُسْتَدْرَكِ**» الْحَاكِمِ، وَ«**مُسْنَدِ**» أَبِي يَعْلَى وَالْبَزَّارِ، وَ«**مُعْجَمِ**» الطَّبَرَانِيِّ(٢) مِنْ حَدِيثِ قَيْسِ بْنِ النُّعْمَانِ رضي الله عنه (٣) قَالَ: لَمَّا انْطَلَقَ النَّبِيُّ ﷺ وَأَبُو بَكْرٍ مُسْتَخْفِينَ مَرَّا بِعَبْدٍ يَرْعَى غَنَمًا، فَاسْتَسْقَيَاهُ مِنَ اللَّبَنِ، فَقَالَ: مَا عِنْدِي شَاةٌ تُحْلَبُ غَيْرَ أَنَّ هَا هُنَا عَنَاقًا حَمَلَتْ أَوَّلَ الشِّتَاءِ، وَقَدْ أَخْدَجَتْ، وَمَا بَقِيَ لَهَا لَبَنٌ؛ فَقَالَ: «**ادْعُ بِهَا**» فَدَعَا بِهَا، فَاعْتَقَلَهَا النَّبِيُّ ﷺ وَمَسَحَ ضِرْعَهَا، وَدَعَا حَتَّى أَنْزَلَتْ. قَالَ:

---

(١) «الفتح»(٧/ ٤٩٢، ٤٩٣).

(٢) أخرجه الحاكم (٣/ ٩)، وصححه، ووافقه الذهبي، والبزار؛ كما في «كشف الأستار» (٢/ ١٠٣)، والطبرانيُّ في «الكبير» (١٨/ ٣٤٣) (١٥٥٨٤)، وأبو نعيم في «معرفة الصحابة» (٥٦٩١)، وفي «الحلية» (٩/ ٤١) مختصرًا، والبيهقي في «الدلائل» (٢/ ٤٩٧)، وأبو يعلى؛ كما في «إتحاف الخيرة» (٦٤٦١)، وقال البوصيريُّ: «بإسناد صحيح»، وابن عبد البر في «الاستيعاب» (١/ ٤٠٣)، وقال الهيثميُّ في «المجمع» (٨/ ٢٧٦، ٢٧٧): «رواه الطبراني، ورجاله رجال الصحيح».

(٣) هو السكوني - ويقال: العبسي-؛ كوفيٌّ، له صحبة، يُقال: إنه كان قد قرأ القرآن على عهد رسول الله ﷺ، وأحصاه على عهد عمر.

● راجع: «الاستيعاب» (٢١٥٦)، و«أسد الغابة» (٤/ ٤٢٧)، و«الإصابة» (٥/ ٣٨٢)، و«التاريخ الكبير» للبخاري (٧/ ١٤٤)، و«الجرح والتعديل» لابن أبي حاتم (٧/ ١٠٤).

وَجَاءَ أَبُو بَكْرٍ رضي الله عنه بِمِجَنٍّ فَحَلَبَ فَسَقَى أَبَا بَكْرٍ، ثُمَّ حَلَبَ فَشَرِبَ؛ فَقَالَ الرَّاعِي: بِاللهِ مَنْ أَنْتَ؟ فَوَاللهِ مَا رَأَيْتُ مِثْلَكَ قَطُّ! قَالَ: «**أَوَ تَرَاكَ تَكْتُمُ عَلَيَّ حَتَّى أُخْبِرَكَ؟**». قَالَ: نَعَمْ. قَالَ: «**فَإِنِّي مُحَمَّدٌ رَسُولُ اللهِ**»؛ فَقَالَ: أَنْتَ الَّذِي تَزْعُمُ قُرَيْشٌ أَنَّهُ صَابِئٌ؟ قَالَ: «**إِنَّهُمْ لَيَقُولُونَ ذَلِكَ**». قَالَ: فَأَشْهَدُ أَنَّكَ نَبِيٌّ، وَأَشْهَدُ أَنَّ مَا جِئْتَ بِهِ حَقٌّ، وَأَنَّهُ لَا يَفْعَلُ مَا فَعَلْتَ إِلَّا نَبِيٌّ، وَأَنَا مُتَّبِعُكَ، قَالَ: «**إِنَّكَ لَا تَسْتَطِيعُ ذَلِكَ يَوْمَكَ، فَإِذَا بَلَغَكَ أَنِّي قَدْ ظَهَرْتُ فَأْتِنَا**».

بِهَذَا ظَهَرَتْ أَخْلَاقُ سَيِّدِ الدُّعَاةِ وَإِمَامِ التُّقَاةِ ﷺ، وَرِفْقُهُ بِالْجَاهِلِ، وَاللُّطْفُ بِهِ، وَحُسْنُ تَعْلِيمِهِ، وَصَفْحُهُ وَعَفْوُهُ وَرَحْمَتُهُ وَشَفَقَتُهُ بِالْمَدْعُوِّينَ رَجَاءَ هِدَايَتِهِمْ. وَصَدَقَ فِيهِ قَوْلُ رَبِّهِ: ﴿وَإِنَّكَ لَعَلَىٰ خُلُقٍ عَظِيمٍ﴾ [القلم: ٤]؛ فَهُوَ الْأُسْوَةُ الْحَسَنَةُ، وَالْقُدْوَةُ الطَّيِّبَةُ؛ فَصَلَوَاتُ رَبِّي وَتَسْلِيمَاتُهُ عَلَيْهِ.

وَبَعْدَ هَذِهِ الْجَوْلَةِ الطَّوِيلَةِ يَتَبَيَّنُ لَنَا أَنَّ النَّبِيَّ ﷺ عَاشَ طُوَالَ أَيَّامِهِ وَلَيَالِيهِ يَمْشِي عَلَى شَوْكِ الْأَسَى، وَيَخْطُو عَلَى جَمْرِ الْكَيْدِ وَالْعَنَتِ يَلْتَمِسُ الطَّرِيقَ لِهِدَايَةِ الضَّالِّينَ، وَإِرْشَادِ الْحَائِرِينَ، حَتَّى عَلَّمَ الْجَاهِلَ، وَقَوَّمَ الْمُعْوَجَّ، وَأَمَّنَ الْخَائِفَ، وَطَمْأَنَ الْقَلِقَ، وَنَشَرَ أَضْوَاءَ الْحَقِّ وَالْخَيْرِ وَالْإِيمَانِ كَمَا تَنْشُرُ الشَّمْسُ ضِيَاءَهَا فِي رَابِعَةِ النَّهَارِ حَتَّى أَكْمَلَ اللهُ بِهِ الدِّينَ وَأَتَمَّ النِّعْمَةَ عَلَى الْعَالَمِينَ، وَالْحَمْدُ للهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ.

❖

خَاتِمَةٌ فِي أَهَمِّ النَّتَائِجِ وَالتَّوْصِيَّاتِ

وَبَعْدَ هَذِهِ الوَقْفَةِ الخَاشِعَةِ فِي مِحْرَابِ المَنْهَجِ الدَّعَوِيِّ لاسْتِلْهَامِ الدُّرُوسِ والعِبَرِ، وَالسِّبَاحَةِ المَاتِعَةِ فِي هَذَا النَّهْرِ العَذْبِ لاسْتِخْرَاجِ الجَوَاهِرِ والدُّرَرِ، وَالتَّطَوُّفِ المُبْهِجِ فِي هَذَا البُسْتَانِ اليَانِعِ لِجَنْيِ الرَّحِيقِ وَالثَّمَرِ. أُسَطِّرُ بِنَبْضِ قَلْبِي ومِدَادِ قَلَمِي أَنَّ الكَوْنَ كُلَّهُ الآنَ فِي أَمَسِّ الحَاجَةِ إِلَى مُحَمَّدٍ ﷺ وَإِلَى مَنْهَجِهِ الدَّعَوِيِّ.

وَالبَشَرِيَّةُ كُلُّهَا تَتَطَلَّعُ إِلَى مَنْ يُعِيدُ إِلَيْهَا كَرَامَةَ إِنْسَانِيَّتِهَا وَطَهَارَةَ آدَمِيَّتِهَا، وَيَأْخُذُ بِيَدِهَا إِلَى طَرِيقِ السَّعَادَةِ وَالنَّجَاةِ فِي الدُّنْيَا وَالآخِرَةِ؛ فَهَلْ تَكُونُ أُمَّةُ سَيِّدِ الدُّعَاةِ أَهْلاً للأَمَانَةِ لِتَحْمِلَ مِنْ جَدِيدٍ مَشَاعِلَ النُّورِ وَالهُدَى، وَتَنْهَضَ بِرِسَالَتِهَا الَّتِي شُرِّفَتْ بِحَمْلِهَا للنَّاسِ أَجْمَعِينَ؟!!

○ **وَأَخْتِمُ هَذِهِ الدِّرَاسَةَ بِاسْتِخْلَاصِ أَهَمِّ النَّتَائِجِ وَالتَّوْصِيَّاتِ فِي النِّقَاطِ التَّالِيَةِ:**

النَّتَائِجُ:

● **أَوَّلاً:** خَيْرِيَّةُ الأُمَّةِ لَيْسَتْ عِرْقِيَّةً وَلَا عَصَبِيَّةً وَلَكِنَّهَا مُسْتَمَدَّةٌ مِنَ الرِّسَالَةِ الَّتِي شُرِّفَتْ بِحَمْلِهَا إِلَى النَّاسِ أَجْمَعِينَ.

● **ثَانِيًا:** حَيَاةُ الأُمَّةِ وَسَعَادَتُهَا الحَقِيقِيَّةُ فِي قِيَامِهَا عِلْمًا وَعَمَلاً بِوَاجِبِ الدَّعْوَةِ وَالبَلَاغِ لِلْمُسْلِمِينَ وَغَيْرِهِمْ لإِقَامَةِ حُجَّةِ الحَقِّ عَلَى الخَلْقِ.

● **ثَالِثًا:** مَعَ تَقَدُّمِ البَشَرِيَّةِ فِي الجَانِبِ العِلْمِيِّ وَالمَادِّيِّ فَهِيَ فِي أَمَسِّ الحَاجَةِ إِلَى المَنْهَجِ النَّبَوِيِّ. وَمَا وَقَعَتْ فِيهِ مِنْ انْفِصَامٍ نَكِدٍ شَاهِدٌ عَمَلِيٌّ.

● **رَابِعًا:** الحَيَاةُ البَشَرِيَّةُ مِنْ خَلْقِ اللهِ وَلَنْ تُعَالَجَ أَمْرَاضُهَا وَعِلَلُهَا إِلَّا بِالدَّوَاءِ الَّذِي يُقَدِّمُ لَهَا مِنَ اللهِ بِيَدِ سَيِّدِنَا رَسُولِ اللهِ ﷺ.

● **خَامِسًا:** مَنْهَجُ النَّبِيِّ ﷺ فِي الدَّعْوَةِ وَفَنِّ التَّعَامُلِ مَعَ الخَلْقِ هُوَ المَنْهَجُ الأَوْحَدُ الَّذِي يَسْبُرُ أَغْوَارَ النُّفُوسِ ويَفْتَحُ القُلُوبَ وَيُهَيِّئُ العُقُولَ للسَّمَاعِ مِنْ جَدِيدٍ عَنِ اللهِ وَرَسُولِهِ.

● **سَادِسًا:** المَنْهَجُ النَّبَوِيُّ تَوْقِيفِيٌّ يَضَعُ كُلَّ شَيْءٍ فِي مَرْتَبَتِهِ بِالعَدْلِ، وَيُقَدِّمُ الأَوْلَى فَالأَوْلَى بِضَوَابِطِ الشَّرْعِ الَّتِي يَهْدِي إِلَيْهَا نُورُ الوَحْيِ وَنُورُ العَقْلِ وَفَهْمُ الوَاقِعِ وَلَا يَجُوزُ لِأَيِّ سَالِكٍ لِطَرِيقِ الدَّعْوَةِ أَنْ يَحِيدَ عَنْ أَوْلَوِيَّاتِهِ وَأَهْدَافِهِ أَوْ يَخْتَارَ سِوَاهُ.

● **سَابِعًا:** المَنْهَجُ النَّبَوِيُّ مَنْهَجٌ مُتَكَامِلٌ يَجْمَعُ بَيْنَ الرُّوحِ وَالقَلْبِ وَالجَسَدِ وَبَيْنَ الدِّينِ وَالدُّنْيَا وَالآخِرَةِ فِي تَوَافُقٍ وَتَنَاسُقٍ وَاتِّزَانٍ.

● **ثَامِنًا:** الدُّعَاةُ إِلَى اللهِ لَا يَتَعَامَلُونَ مَعَ مَلَائِكَةٍ بَرَرَةٍ، وَلَا مَعَ شَيَاطِينَ مَرَدَةٍ، وَلَا مَعَ أَحْجَارٍ صَلْدَةٍ؛ بَلْ يَتَعَامَلُونَ مَعَ نُفُوسٍ بَشَرِيَّةٍ فِيهَا الإِقْبَالُ وَالإِحْجَامُ، وَالفُجُورُ وَالتَّقْوَى، وَالحَقُّ وَالبَاطِلُ، وَالخَيْرُ وَالشَّرُّ؛ وَمِنْ ثَمَّ فَوَاجِبٌ عَلَى الدُّعَاةِ أَنْ يَكُونُوا عَلَى بَصِيرَةٍ بِمُقَوِّمَاتِ المَنْهَجِ النَّبَوِيِّ عِلْمًا وَحَالاً.

● **تَاسِعًا:** أَسَالِيبُ وَوَسَائِلُ المَنْهَجِ النَّبَوِيِّ فِي الدَّعْوَةِ كَثِيرَةٌ وَمُتَنَوِّعَةٌ، وَعَلَى الدُّعَاةِ أَنْ يَسْتَفِيدُوا مِنْهَا وَأَنْ يُوَظِّفُوهَا تَوْظِيفًا رَاشِدًا فِي التَّطْبِيقِ العِمَلِيِّ لِلدَّعْوَةِ إِلَى اللهِ ﷻ بِحَسَبِ الأَشْخَاصِ وَالأَحْوَالِ مَعَ الاسْتِفَادَةِ مِنْ كُلِّ وَسَائِلِ الاتِّصَالِ الحَدِيثَةِ بِطَرِيقَةٍ مَشْرُوعَةٍ لِمُخَاطَبَةِ القُلُوبِ وَالعُقُولِ مَعًا.

● **عَاشِرًا:** هَذَا التَّأْصِيلُ العِلْمِيُّ وَالتَّنْظِيرُ الفِكْرِيُّ سَيَظَلُّ يُحَلِّقُ فِي أَجْوَاءِ الخَيَالِ، وَسَمَاءِ الأَحْلَامِ بَعِيدًا عَنْ وَاقِعِ البَشَرِيَّةِ وَمَصِيرِهَا مَا لَمْ يَتَحَوَّلْ فِي

حَيَاتِهَا إِلَى وَاقِعٍ عَمَلِيٍّ وَمَنْهَجِ حَيَاةٍ. فَلَقَدْ اسْتَطَاعَ النَّبِيُّ ﷺ أَنْ يُقِيمَ لِلإِسْلَامِ دَوْلَةً مِنْ فُتَاتٍ مُتَنَاثِرٍ وَسْطَ صَحْرَاءَ تَمُوجُ بِالكُفْرِ وَالجَهْلِ مَوْجًا يَوْمَ أَنْ نَجَحَ فِي طِبَاعَةِ عَشَرَاتِ الآلَافِ مِنَ النُّسَخِ مِنْ هَذَا المَنْهَجِ المُنِيرِ وَلَكِنَّهُ لَمْ يَطْبَعْهَا بِالحِبْرِ عَلَى صَحَائِفِ الأَوْرَاقِ فِي بُطُونِ الكُتُبِ وَالمُجَلَّدَاتِ، وَلَكِنَّهُ - بِأَبِي هُوَ وَأُمِّي - طَبَعَهَا عَلَى صَحَائِفِ قُلُوبِ أَصْحَابِهِ بِمِدَادٍ مِنَ التُّقَى وَالنُّورِ وَلَا زَالَ فِي صَدْرِ البَشَرِيَّةِ مُتَّسَعٌ لِتَسْمَعَ عَنِ اللهِ وَرَسُولِهِ، وَيَبْقَى عَلَى الأُمَّةِ أَنْ تَنْهَضَ بِوَاجِبِ الدَّعْوَةِ سُلُوكًا وَبَلَاغًا بِالحِكْمَةِ البَالِغَةِ وَالمَوْعِظَةِ الحَسَنَةِ.

التَّوْصِيَّاتُ:

● **أولاً:** أَنْ تَعِيَ الأُمَّةُ سِرَّ خَيْرِيَّتِهَا وَشَرَفَ رِسَالَتِهَا لِتُجَيِّشَ كُلَّ طَاقَاتِهَا وَإِمْكَانَاتِهَا لِلقِيَامِ بِوَاجِبِ الدَّعْوَةِ وَالبَلَاغِ لِلنَّاسِ أَجْمَعِينَ؛ قَالَ تَعَالَى: ﴿ قُلْ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِنِّى رَسُولُ ٱللَّهِ إِلَيْكُمْ جَمِيعًا ٱلَّذِى لَهُۥ مُلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۖ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ يُحْىِۦ وَيُمِيتُ ۖ فَـَٔامِنُوا۟ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِ ٱلنَّبِىِّ ٱلْأُمِّىِّ ٱلَّذِى يُؤْمِنُ بِٱللَّهِ وَكَلِمَٰتِهِۦ وَٱتَّبِعُوهُ لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ ﴾ [الأعراف:١٥٨].

وَقَالَ سُبْحَانَهُ: ﴿ وَمَآ أَرْسَلْنَٰكَ إِلَّا كَآفَّةً لِّلنَّاسِ بَشِيرًا وَنَذِيرًا وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ ﴾ [سبأ:٢٨].

وَقَالَ جَلَّ وَعَلَا: ﴿ وَمَآ أَرْسَلْنَٰكَ إِلَّا رَحْمَةً لِّلْعَٰلَمِينَ ﴾ [الأنبياء:١٠٧].

● **ثانيًا:** أَنْ تُرَاعِيَ الأُمَّةُ حُرْمَةَ العُلَمَاءِ وَالدُّعَاةِ، وَأَنْ تَعْرِفَ قَدْرَهُمْ وَمَكَانَتَهُمْ. فَهُمْ أَئِمَّةُ الهُدَى، وَمَصَابِيحُ الدُّجَى، وَوَعْيُ الأُمَّةِ المُسْتَنِيرُ، وَفِكْرُ الأُمَّةِ الحُرُّ، وَقَلْبُ الأُمَّةِ النَّابِضُ، وَقَادَةُ سَفِينَةِ الإِنْقَاذِ وَسْطَ هَذِهِ الرِّيَاحِ الهَوْجَاءِ وَالأَمْوَاجِ المُتَلَاطِمَةِ، وَهُمْ أَبْصَرُ النَّاسِ بِالوَاقِعِ وَالدَّلِيلِ، وَحَرِيٌّ بِالأُمَّةِ فِي هَذِهِ الفِتَنِ أَنْ تَلْتَفَّ حَوْلَهُمْ، وَأَنْ تَصْدُرَ عَنْ أَقْوَالِهِمْ، وَأَنْ تُكَرِّمَهُمْ وَتُقَدِّرَهُم مَادِّيًّا وَمَعْنَوِيًّا؛ فَهُمْ أَوْلَى النَّاسِ بِذَلِكَ.

● **ثَالِثًا:** المَنْهَجُ النَّبَوِيُّ فِي الدَّعْوَةِ إِلَى اللهِ يَتَّسِمُ بِالتَّكَامُلِ، وَالشُّمُولِ، وَالوَسَطِيَّةِ، وَالاعْتِدَالِ، وَالرِّفْقِ، وَاللِّينِ، وَالحِكْمَةِ، وَالرَّحْمَةِ، وَالعَدْلِ، وَالإِنْصَافِ، وَالتَّجَرُّدِ، وَالتَّدَرُّجِ، وَمِنْ ثَمَّ فَهَذَا المَنْهَجُ وَحْدَهُ هُوَ الَّذِي يَجِبُ أَنْ نُخَاطِبَ بِهِ النَّاسَ جَمِيعًا مُسْلِمِينَ وَغَيْرَ مُسْلِمِينَ لإِقَامَةِ حُجَّةِ الحَقِّ عَلَى الخَلْقِ ﴿لِئَلَّا يَكُونَ لِلنَّاسِ عَلَى ٱللَّهِ حُجَّةٌۢ بَعْدَ ٱلرُّسُلِ﴾ [النساء: ١٦٥].

● **رَابِعًا:** أُسْوَةُ العُلَمَاءِ وَالدُّعَاةِ وَقُدْوَتُهُمْ هُوَ سَيِّدُنَا رَسُولُ اللهِ ﷺ الَّذِي أَكْمَلَ اللهُ لَهُ المَحَاسِنَ خَلْقًا وَخُلُقًا، وَوَاجِبٌ عَلَى كُلِّ مَنْ شَرَّفَهُ اللهُ تَعَالَى بِالسَّيْرِ عَلَى طَرِيقِ الدَّعْوَةِ وَحَمْلِ لِوَائِهَا أَنْ يَتَأَسَّى بِرَسُولِ اللهِ ﷺ فِي أَقْوَالِهِ، وَأَفْعَالِهِ، وَأَحْوَالِهِ، وَأَلَّا يَحِيدَ عَنْ مَنْهَجِهِ الدَّعَوِيِّ بِأَهْدَافِهِ وَأَوْلَوِيَّاتِهِ وَمُقَوِّمَاتِهِ؛ فَرَسُولُ اللهِ ﷺ هُوَ القُدْوَةُ الطَّيِّبَةُ الَّتِي لَا تَبْلَى وَالأُسْوَةُ الحَسَنَةُ الَّتِي لَا تَفْنَى؛ قَالَ تَعَالَى: ﴿لَّقَدْ كَانَ لَكُمْ فِى رَسُولِ ٱللَّهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ لِّمَن كَانَ يَرْجُوا۟ ٱللَّهَ وَٱلْيَوْمَ ٱلْـَٔاخِرَ وَذَكَرَ ٱللَّهَ كَثِيرًا﴾ [الأحزاب: ٢١].

● **خَامِسًا:** انْتِقَاءُ الكَلِمَاتِ وَالمُفْرَدَاتِ الَّتِي تُخَاطِبُ المَدْعُوِّينَ وَتَتَنَاسَبُ مَعَ فِئَاتِهِمْ وَأَعْمَارِهِمْ وَأَفْهَامِهِمْ وبِيئَتِهِمْ وَعَصْرِهِمْ، وَاسْتِخْدَامُ كُلِّ الأَسَالِيبِ وَالوَسَائِلِ الحَدِيثَةِ المُتَاحَةِ كَالفَضَائِيَّاتِ وَشَبَكَةِ المَعْلُومَاتِ «الانْتَرْنِتْ» وَالإِذَاعَاتِ وَالصُّحُفِ وَالمَجَلَّاتِ وَالمَطْوِيَّاتِ وَأَجْهِزَةِ الهَاتِفِ وَغَيْرِهَا - بِالضَّوَابِطِ الشَّرْعِيَّةِ - لِلتَّفَاعُلِ مَعَ كُلِّ فِكْرٍ وَمُخَاطَبَةِ كُلِّ عَقْلٍ بِعِلْمٍ وَفَهْمٍ بِلَا كِبْرٍ وَاسْتِعْلَاءٍ.

● **سَادِسًا:** لَا يَجُوزُ أَبَدًا أَنْ يُهْمِلَ الخِطَابُ الدَّعَوِيُّ المَسَاجِدَ مُنْشَغِلاً بِزَخَمِ الأَضْوَاءِ وَالإِعْلَامِ وَوَسَائِلِ التَّوَاصُلِ الاجْتِمَاعِي الحَدِيثَةِ؛ فَالمَسَاجِدُ هِيَ المَحَاضِنُ التَّرْبَوِيَّةُ الطَّاهِرَةُ، وَالمَدَارِسُ الرَّبَّانِيَّةُ المُبْهِرَةُ فِي تَحْقِيقِ الإِيمَانِ وَتَصْحِيحِ الأَخْلَاقِ وَتَزْكِيَةِ النُّفُوسِ وَإِصْلَاحِ القُلُوبِ، وَسَتَظَلُّ مَنَابِرُهَا أَرْقَى المَنَابِرِ، وَإِعْلَامُهَا أَصْدَقَ إِعْلَامٍ، وَتَأْثِيرُهَا أَبْلَغَ تَأْثِيرٍ، وَهَذِهِ الجَمَاهِيرُ المُسْلِمَةُ

الزَّاحِفَةُ إِلَى المَسَاجِدِ لِتَأْدِيَةِ الصَّلَوَاتِ عَامَّةً وَصَلَاةِ الجُمُعَةِ خَاصَّةً تفْتَرِشُ السَّاحَاتِ وَتَمْلأُ الطُّرُقَاتِ وَالأَرْصِفَةَ. لَمِنْ أَعْظَمِ الأَدِلَّةِ عَلَى عِظَمِ رِسَالَةِ المَسَاجِدِ وَجَلِيلِ قَدْرِهَا وَخَطَرِ خِطَابِهَا الَّذِي يُشَكِّلُ الوِجْدَانَ وَالعُقُولَ وَيُحَرِّكُ القُلُوبَ.

● **سابعًا:** الاهْتِمَامُ البَالِغُ بِقَضَايَا الأُمَّةِ وَمُشْكِلَاتِ المُجْتَمَعِ. فَلَا يَجُوزُ أَبَدًا أَنْ تَكُونَ الأُمَّةُ بِمُشْكِلَاتِهَا وَأَزَمَاتِهَا فِي وَادٍ. وَأَنْ يَكُونَ العُلَمَاءُ وَالدُّعَاةُ بِطَرْحِهِمُ العِلْمِيِّ وَالدَّعَوِيِّ فِي وَادٍ آخَرَ حَتَّى لَا نَخْسَرَ أُمَّتَنَا وَيَنْفَضَّ عَنَّا أَبْنَاؤُهَا.

● **ثامنًا:** التَّفْرِيقُ الوَاضِحُ بَيْنَ مَقَامَيِّ الدَّعْوَةِ وَالجِهَادِ؛ لأَنَّ الخَلْطَ بَيْنَهُمَا يُوقِعُ الدَّعْوَةَ وَالدُّعَاةَ فِي حَرَجٍ بَالِغٍ. فَمُقَامُ الجِهَادِ الغِلْظَةُ وَالشِّدَّةُ؛ قَالَ تَعَالَى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ جَٰهِدِ ٱلْكُفَّارَ وَٱلْمُنَٰفِقِينَ وَٱغْلُظْ عَلَيْهِمْ﴾ [التحريم:٩]، وَمُقَامُ الدَّعْوَةِ اللِّينُ وَالحِكْمَةُ وَالرَّحْمَةُ؛ قَالَ ﷻ: ﴿ٱذْهَبَآ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ إِنَّهُۥ طَغَىٰ ﴿٤٣﴾ فَقُولَا لَهُۥ قَوْلًا لَّيِّنًا لَّعَلَّهُۥ يَتَذَكَّرُ أَوْ يَخْشَىٰ﴾ [طه:٤٣، ٤٤]، وَقَالَ سُبْحَانَهُ: ﴿ٱدْعُ إِلَىٰ سَبِيلِ رَبِّكَ بِٱلْحِكْمَةِ وَٱلْمَوْعِظَةِ ٱلْحَسَنَةِ ۖ وَجَٰدِلْهُم بِٱلَّتِي هِيَ أَحْسَنُ﴾ [النحل:١٢٥]، وقَالَ جَلَّ وَعَلَا: ﴿فَبِمَا رَحْمَةٍ مِّنَ ٱللَّهِ لِنتَ لَهُمْ ۖ وَلَوْ كُنتَ فَظًّا غَلِيظَ ٱلْقَلْبِ لَٱنفَضُّوا۟ مِنْ حَوْلِكَ﴾

[آل عمران:١٥٩].

وَالدَّعْوَةُ لَا تَسْتَمِدُّ قُوَّتَهَا مَنْ عُلُوِّ صَوْتِ حَمَلَتِهَا؛ بَلْ مِنْ قُوَّةِ الحَقِّ وَجَمَالِ الصِّدْقِ، فَإِذَا خَرَجَتِ الكَلِمَاتُ مَلْفُوحَةً بِحَرَارَةِ الإِيمَانِ وَنُبْلِ الغَايَةِ عَرَفَتْ سَبِيلَهَا مُبَاشَرَةً إِلَى القُلُوبِ والعُقُولِ.

بَيْنَ الجَوَانِحِ فِي الأَعْمَاقِ سُكْنَاهَا ... فَكَيْفَ تُنْسَى وَمَنْ فِي النَّاسِ يَنْسَاهَا
الأُذْنُ سَامِعَةٌ وَالعَيْنُ دَامِعَةٌ ... وَالرُّوحُ خَاشِعَةٌ وَالقَلْبُ يَهْوَاهَا

● **تاسعًا:** أَنْ يَتَجَنَّبَ الخِطَابُ الدَّعَوِيُّ صِنَاعَةَ الأَعْدَاءِ وَأَنْ يَكُونَ مُطَمْئِنًا لِلْمُسْلِمِينَ وَغَيْرِ المُسْلِمِينَ، لِلرَّدِّ عَلَى هَذِهِ الحَمْلَةِ الشَّرِسَةِ لِلتَّخْوِيفِ مِنَ

الإِسْلَام، وَذَلِكَ بِالمَوْضُوعِيَّةِ فِي الطَّرْحِ وَمُرَاعَاةِ المُمْكِنِ وَالمُتَاحِ، وَالبُعْدِ عَنْ لَهْجَةِ الإِثَارَةِ وَالاسْتِفْزَازِ، وَالتَّرْكِيزِ عَلَى لُغَةِ الإِنَارَةِ، وَتَأْصِيلِ فِقْهِ الخِلَافِ، وَعَدَمِ نَقْلِهِ إِلَى المَنَابِرِ الإِعْلَامِيَّةِ وَالدَّعَوِيَّةِ لِتَحْقِيقِ التَّعَاوُنِ وَالائْتِلَافِ وَنَبْذِ الفُرْقَةِ وَالاخْتِلَافِ، وَتَدْعِيمِ مَنْطِقِ التَّصَالُحِ وَالتَّنَاصُحِ بَدَلاً مِنَ التَّقَاذُفِ وَالتَّخَاصُمِ، وَتَقْوِيَةِ آصِرَةِ الأُخُوَّةِ وَالحُبِّ فِي اللهِ.

● **عَاشِرًا:** العِنَايَةُ التَّامَّةُ بِالشَّبَابِ وَعَدَمُ الاسْتِهَانَةِ بِهِمْ وَالتَّقْلِيلِ مِنْ قَدْرِهِمْ وَدَوْرِهِمْ، فَإِنْ كَانَ شُيُوخُنَا وَعُلَمَاؤُنَا عُقُولَ الأُمَّةِ الَّتِي تُخَطِّطُ وَتُفَكِّرُ، فَإِنَّ شَبَابَنَا سَوَاعِدُ الأُمَّةِ الَّتِي تَبْنِي وَتُعَمِّرُ، وَالشَّمْسُ لَا تَمْلَأُ النَّهَارَ فِي آخِرِهِ كَمَا تَمْلَأُ النَّهَارَ فِي أَوَّلِهِ؛ وَلَا يُمْكِنُ لِعَقْلٍ مَهْمَا كَانَ قَدْرُهُ أَنْ يَأْتِي مُجَرَّدًا دُونَ أَنْ يَمْشِي عَلَى قَدَمَيْنِ أَوْ أَنْ يَقْوَى بِسَاعِدَيْنِ.

وَالأُمَّةُ الَّتِي تَسْتَغْنِي عَنْ شَبَابِهَا أُمَّةٌ ضَعِيفَةٌ مَهْزُومَةٌ، وَالأُمَّةُ الَّتِي تَسْتَغْنِي عَنْ شُيُوخِهَا وَعُلَمَائِهَا أُمَّةٌ فَقِيرَةٌ مَحْرُومَةٌ؛ فَعَلَى الشُّيُوخِ وَالدُّعَاةِ والآبَاءِ أَنْ يَحْتَضِنُوا الشَّبَابَ. وَعَلَى الشَّبَابِ أَنْ يُجِلَّ الشُّيُوخَ وَالآبَاءَ، وَالدُّعَاةَ وَالعُلَمَاءَ.

● **حَادِيَ عَشَرَ:** الاهْتِمَامُ البَالِغُ وَالعِنَايَةُ التَّامَّةُ بِالمَرْأَةِ المُسْلِمَةِ فِي جَمِيعِ مَرَاحِلِهَا العُمُرِيَّةِ والاجْتِمَاعِيَّةِ، وَإِبْرَازُ مَكَانَتِهَا وَحُقُوقِهَا فِي الإِسْلَامِ، وَدَعْمُ دَوْرِهَا الفَاعِلِ فِي بِنَاءِ أُمَّتِهَا تَطْبِيقًا لَا تَنْظِيرًا.

● **ثَانِيَ عَشَرَ:** أُوصِي بِتَقْدِيرِ دَوْرِ المُؤَسَّسَاتِ الدِّينِيَّةِ الدَّعَوِيَّةِ الرَّسْمِيَّةِ. وَالتَّعَاوُنِ بَيْنَهَا وَبَيْنَ الجَمْعِيَّاتِ وَالجَمَاعَاتِ الدَّعَوِيَّةِ غَيْرِ الرَّسْمِيَّةِ لِلاسْتِفَادَةِ مِنَ العُلَمَاءِ البَارِزِينَ وَالدُّعَاةِ المُؤَثِّرِينَ المَشْهُودِ لَهُمْ بِالكَفَاءَةِ وَالعِلْمِ مِنْ كِلَا الجَانِبَيْنِ، لِكَسْرِ هَذِهِ الحَوَاجِزِ النَّفْسِيَّةِ وَالعَمَلِيَّةِ عَلَى سَاحَةِ الدَّعْوَةِ فِي وَقْتٍ تَمُرُّ فِيهِ بَلَدُنَا بِأَزْمَةٍ حَقِيقِيَّةٍ نَحْتَاجُ فِيهَا إِلَى تَصْحِيحِ الانْتِمَاءِ لِيَكُونَ لِلدِّينِ ثُمَّ لِلوَطَنِ فَحَسْبُ.

● **ثالث عشر:** ضَرُورَةُ التَّنْسِيقِ بَيْنَ الجِهَاتِ الدَّعَوِيَّةِ وَوَسَائِلِ الإِعْلَامِ وَالفَضَائِيَّاتِ الدِّينِيَّةِ خَاصَّةً لِإِبْرَازِ العُلَمَاءِ الأَكْفَاءِ وَالدُّعَاةِ المُؤَثِّرِينَ لِتَقْدِيمِ رِسَالَةٍ إِعْلَامِيَّةٍ وَدَعَوِيَّةٍ جَذَّابَةٍ وَمُتَنَوِّعَةٍ لِنُصْرَةِ الدِّينِ وَصَالِحِ الوَطَنِ.

● **رابع عشر:** أُوصِي بِتَجْدِيدِ العِنَايَةِ بِالدِّرَاسَاتِ الإِحْصَائِيَّةِ فِي جَانِبِ الدَّعْوَةِ وَذَلِكَ بِتَوْفِيرِ المَعْلُومَاتِ المُهِمَّةِ فِي عَصْرِ العِلْمِ عَنْ أَهَمِّ الكُتُبِ وَالدِّرَاسَاتِ وَالرَّسَائِلِ الحَدِيثَةِ وَالمَوْضُوعَاتِ الَّتِي تَنَاوَلَتْهَا؛ وَكَذَلِكَ عَنِ العُلَمَاءِ وَالدُّعَاةِ وَإِبْرَازِ تَخَصُّصَاتِهِمْ وَكُتُبِهِمْ وَخِبْرَاتِهِمْ وَبُحُوثِهِمْ العِلْمِيَّةِ وَالدَّعَوِيَّةِ للإِفَادَةِ مِنْ جُهُودِهِمْ وَالبِنَاءِ عَلَيْهَا دُونَ تَكْرَارٍ حَتَّى لَا تَضِيعَ الجُهُودُ وَالأَوْقَاتُ.

● **خامس عشر:** أُوصِي كُلَّ الهَيْئَاتِ المَعْنِيَّةِ بِأَمْرِ الدَّعْوَةِ بِالعَمَلِ الجَادِّ وَالتَّنْظِيمِ وَالتَّنْسِيقِ للإِفَادَةِ مِنَ الأَسَاتِذَةِ وَالمُرَبِّينَ، وَالعُلَمَاءِ وَالدُّعَاةِ فِي الأَجَازَةِ الصَّيْفِيَّةِ لِنَفْعِ أَجْيَالِنَا عَلَى اخْتِلَافِ فِئَاتِهِمُ العُمْرِيَّةِ وَحِمَايَتِهِمْ مِنَ الفِتَنِ.

● **سادس عشر:** أُوصِي الجِهَاتِ الدَّعَوِيَّةَ المُتَخَصِّصَةَ بِالاهْتِمَامِ بِالدَّعْوَةِ إِلَى اللهِ عَنْ طَرِيقِ المُرَاسَلَةِ مَعَ فِئَاتٍ مُعَيَّنَةٍ مِنَ المُسْلِمِينَ وَغَيْرِ المُسْلِمِينَ لاخْتِيَارِ الرِّسَالَةِ الدَّعَوِيَّةِ المُنَاسِبَةِ لِهَذِهِ الفِئَاتِ المُؤَثِّرَةِ فِي مُجْتَمَعَاتِهَا كَمَا خَاطَبَ النَّبِيُّ ﷺ المُلُوكَ، وَالحُكَّامَ، وَالرُّؤَسَاءَ، وَالأُمَرَاءَ.

● **سابع عشر:** ضَرُورَةُ اخْتِيَارِ مَجْمُوعَةٍ مِنَ الدُّعَاةِ النُّبَهَاءِ الأَكْفَاءِ لِتَعْلِيمِهِمُ اللُّغَاتِ الأَجْنَبِيَّةِ لِمُخَاطَبَةِ الشُّعُوبِ بِلِسَانِهَا؛ قال ﷻ: ﴿ وَمَآ أَرْسَلْنَا مِن رَّسُولٍ إِلَّا بِلِسَانِ قَوْمِهِۦ لِيُبَيِّنَ لَهُمْ ۖ فَيُضِلُّ ٱللَّهُ مَن يَشَآءُ وَيَهْدِى مَن يَشَآءُ ۚ وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ﴾ [إبراهيم:٤].

● **ثامن عشر:** أُوصِي الجِهَاتِ الدَّعَوِيَّةَ الرَّسْمِيَّةَ وَغَيْرَ الرَّسْمِيَّةِ بِالاهْتِمَامِ بِالجَالِيَاتِ الإِسْلَامِيَّةِ فِي أُورُوبَّا وَأَمْرِيكَا وَغَيْرِهَا وَتَقْدِيمِ البَرَامِجِ الدَّعَوِيَّةِ

وَالتَّرْبَوِيَّةِ الَّتِي تُنَاسِبُهُمْ فِي مُجْتَمَعَاتِهِمُ الَّتِي يَعِيشُونَ فِيهَا.

● **تَاسِعَ عَشَرَ:** الاسْتِفَادَةُ مِنْ أَصْحَابِ المَنَاصِبِ المَرْمُوقَةِ وَالمَرَاكِزِ المُؤَثِّرَةِ وَالتَّخَصُّصَاتِ النَّادِرَةِ فِي المُجْتَمَعِ مَادِّيًا وَمَعْنَوِيًّا لِدَعْمِ مَشْرُوعَاتِ الدَّعْوَةِ وَالنُّهُوضِ بِهَا. وَإِقْنَاعُهُمْ بِأَنَّ الدَّعْوَةَ لَيْسَتْ مَسْئُولِيَّةَ الدُّعَاةِ وَحْدَهُمْ لِيَبْذُلُوا مِنْ أَوْقَاتِهِمْ وَأَمْوَالِهِمْ وَطَاقَاتِهِمْ لِدَعْمِ الدَّعْوَةِ وَالدُّعَاةِ.

● **عِشْرُونَ:** أُوصِي بِالجَانِبِ العَمَلِيِّ فِي الدَّعْوَةِ وَالنُّزُولِ إِلَى مَيَادِينِ العَمَلِ الخَيْرِيِّ وَالتَّطَوُّعِيِّ لِرَفْعِ مُعَانَاةِ الفُقَرَاءِ وَالمَسَاكِينِ، وَالأُمَّةُ لَمْ تُصَبْ أَبَدًا بِأَزْمَةِ بُخْلٍ، وَلَكِنْ أُصِيبَتْ بِأَزْمَةِ ثِقَةٍ. فَنَحْنُ فِي أَمَسِّ الحَاجَةِ إِلَى دُعَاةٍ مَيْدَانِيِّينَ فِي وَقْتٍ سَأَمَ فِيهِ النَّاسُ التَّنْظِيرَ البَارِدَ.

● **حَادِي وَعِشْرُونَ:** أُوصِي بِعَقْدِ مُؤْتَمَرَاتٍ وَلِقَاءَاتٍ لِلشُّورَى بَيْنَ العُلَمَاءِ وَالدُّعَاةِ لِنَقْدِ الذَّاتِ مِنْ نَاحِيَةٍ وَحَلِّ المُشْكِلَاتِ الَّتِي تَعْتَرِضُ العَمَلَ الدَّعَوِيَّ مِنْ نَاحِيَةٍ ثَانِيَةٍ، وَوَضْعِ الخُطَطِ المُسْتَقْبَلِيَّةِ لِلْعَمَلِ الدَّعَوِيِّ مِنْ نَاحِيَةٍ ثَالِثَةٍ وَلِإِعْلَاءِ مَنْهَجِ الأُخُوَّةِ الإِيمَانِيَّةِ وَالحُبِّ فِي اللهِ مِنْ نَاحِيَةٍ رَابِعَةٍ، وَهَذَا كُلُّهُ لَهُ أَثَرٌ بَالِغٌ فِي وِحْدَةِ الصَّفِّ وَجَمْعِ الكَلِمَةِ وَنَبْذِ التَّقَاطُعِ وَالشِّقَاقِ.

● **اثْنَانِ وَعِشْرُونَ:** أُوصِي الحُكُومَاتِ الإِسْلَامِيَّةَ وَالعَرَبِيَّةَ بِصِفَةٍ عَامَّةٍ وَوِزَارَاتِ الثَّقَافَةِ وَالشَّبَابِ بِصِفَةٍ خَاصَّةٍ أَنْ تَدْعَمَ الهَيْئَاتِ الدَّعَوِيَّةَ، وَالهَيْئَاتِ الَّتِي تَقُومُ بِنَشْرِ الكِتَابِ الإِسْلَامِيِّ وَتُعْنَى بِالتَّأْلِيفِ وَالتَّرْجَمَةِ وَالنَّشْرِ، وَأَنْ تَرْصُدَ جَوَائِزَ قَيِّمَةً وَمُغْرِيَةً لِشَبَابِنَا وَأَوْلَادِنَا فِي مَجَالِ البُحُوثِ وَالدِّرَاسَاتِ لِحَثِّهِمْ عَلَى البَحْثِ وَالإِبْدَاعِ.

● **وَأَخِيرًا:** أُوصِي بِالعِنَايَةِ الفَائِقَةِ بِاللُّغَةِ العَرَبِيَّةِ؛ فَهِيَ لُغَةُ القُرْآنِ، وَوِعَاءُ الدَّعْوَةِ وَالبَلَاغِ، وَإِلَّا فَكَيْفَ نُقَدِّمُ المَاءَ وَنَحْنُ لَا نَمْتَلِكُ الوِعَاءَ؟!

○ وَفِي الْخِتَامِ؛ أَسْأَلُ اللهَ الْعَلِيَّ الْقَدِيرَ أَنْ يَجْعَلَ هَذِهِ الرِّسَالَةَ خَالِصَةً لِوَجْهِهِ، وَأَنْ يَكْتُبَ لَنَا بِهَا الأَجْرَ وَالثَّوَابَ، وَأَنْ يَفْتَحَ بِهَا آذَانًا صُمًّا، وَأَعْيُنًا عُمْيًا،

وَقُلُوبًا غُلْفًا، وَأَنْ يَنْصُرَ ٱلْإِسْلَامَ وَٱلْمُسْلِمِينَ فِي كُلِّ أَرْجَاءِ الْمَعْمُورةِ؛ وَأَنْ يَجْزِي إِخْوَانِي الْفُضَلَاءَ الَّذِيْنَ قَامُوا مَعِي فِي خِدْمَةِ هَذِهِ الرِّسَالَةِ، وَبَذَلُوا جُهْدًا كَبِيْرًا لِإِخْرَاجِهَا بِهَذَا التَّنَاغُمِ وَالتَّنَاسُقِ؛ فَأَسْأَلُ اللهَ أَنْ لَا يَحْرِمَهُمُ الْأَجْرَ، وَأَنْ يَزِيْدَهُمْ مِنْ فَضْلِهِ؛ إِنَّه وَلِيُّ ذَلِكَ وَالْقَادِرُ عَلَيْهِ. وَصَلَّى اللهُ وَسَلَّمَ وَبَارَكَ عَلَى نَبِيِّنَا مُحَمَّدٍ وَآلِهِ وَصَحْبِهِ أَجْمَعِينَ وَالتَّابِعِينَ لَهُمْ بِإِحْسَانٍ إِلَى يَوْمِ الدِّيْنِ، وَالحَمْدُ لله رَبِّ العَالَمِين.

❀◊❀



الفهارس

- فهرس الأحاديث.
- فهرس الآثار.
- فهرس الأشعار.
- فهرس الأعلام والتراجم.
- فهرس المراجع.
- فهرس الموضوعات.



فِهْرِسُ الأَحَادِيْثِ



فهرس الأحاديث

الحديث	الصفحة

الحديث	الصفحة
«ادع بها ...»	٦٤٨
«أدعوك بدعاية الإسلام ...»	٣٧
«أدعوكم إلى شهادة ألا إله إلا الله وحده لا شريك له ...»	٥١٥
«ادنه ...»	٣٢٩، ٤٠٩، ٦٤٤
«إذا حكم الحاكم فاجتهد فأصاب ...»	١٩٤، ٥٩٥
«إذا قال الرجل: هلك الناس فهو أهلكهم ...»	٦٠٨
«أرأيتكم لو أخبرتكم أن خيلاً ...»	٢٩٨، ٤١٩
«أرأيتم لو أن نهرًا بباب أحدكم يغتسل منه ...»	٤٥٣
«أربع من كن فيه كان منافقًا خالصًا»	٤٥٥
«ارجع إلى قومك فأخبرهم حتى يأتيك أمري ...»	٦٣٢
«ارجعوا إلى أهليكم فأقيموا فيهم وعلموهم ومروهم ...»	٣٢٦
«أرسلني بصلة الأرحام، وكسر الأوثان ...»	٦٣٤
«أريدهم على كلمة تدين لهم بها العرب ...»	٥٢٣
«أسابيت فلانًا؟ ...»	٦٠٢
«اسكت يا أبا بكر ...»	٢٧٤
«الإسلام أن تشهد أن لا إله إلا الله ...»	٤٢١
«أسلم ...»	٥٤٢، ٦٢٤
«أطلقوا ثمامة ...»	٦٤١

الحديث	الصفحة

الحديث	الصفحة

الحديث	الصفحة

الحديث	الصفحة

الحديث	الصفحة

الحديث	الصفحة

الحديث	الصفحة
«بسم الله، اللهم جنبنا الشيطان ...»	٦٢٢
«البر حسن الخلق ...»	١١٨، ٤٨١
«بسم الله الرحمن الرحيم، من محمد رسول الله إلى كسرى ...»	٥٨٥
«بسم الله الرحمن الرحيم، من محمد عبد الله ورسوله إلى هرقل ...»	٥٨٧
«بعثت إلى الناس كافة ...»	٥٣٥
«بعثت أنا والساعة كهاتين ...»	٤١٣
«بعثت بالحنيفية السمحة ...»	٣٥٤
«بعثت بين يدي الساعة حتى يُعبدَ الله ...»	٧٩
«بعثت من خير قرون بني آدم قرنًا فقرنًا ...»	٣٤
«بل أرجو الله أن يخرج من أصلابهم من يعبد الله ...»	٣٠١، ٦٢٢
«بل الدم الدم، والهدم الهدم ...»	٢٦٧
«بل أنت فتربت يمينك ...»	٦١٥
«بل للناس كافة ...»	٥٩٩
«بلغوا عني ولو آية ...»	٤٩، ٢٠٠، ٢١٩
«بم بزقت في وجهي ...»	٣٤٧
«بُني الإسلام على خمس ...»	٨٧
«بهذا أمرتم؟ أو لهذا خلقتم؟ ...»	٤٩١
«بينما رجل يمشي بطريق اشتد عليه العطش ...»	٤١٤

الحديث	الصفحة

الحديث	الصفحة

الحديث	الصفحة

الحديث	الصفحة

الحديث	الصفحة
«ما من مولود إلا يولد على الفطرة ...»	٦٢١
«ما من نبي بعثه الله في أمة قبلي إلا كان له من أمته حواريون...»	٤٤
«ما منكم من ينجيه عمله ...»	٣٣٨
«ما هذا الحبل؟ ...»	٣٦٤
«ما هذا يا صاحب الطعام؟ ...»	٥٩٦
«ما يسرني أني حكيت رجلاً وأن لي كذا وكذا ...»	٥٩٨
«مالي وما للدنيا؟ ...»	١٣٣، ٤٠١
«مثل البيت الذي يذكر الله فيه ...»	٤٥٣
«مثل الذي يذكر ربه والذي لا يذكر ربه مثل الحي والميت»	٤٥٣
«مثل القائم على حدود الله والواقع فيها ...»	٦٠، ٤٥٢
«مثل المؤمن الذي يقرأ القرآن كمثل الأترجة ...»	٤٤٩
«مثل ما بعثني الله به من الهدى والعلم ...»	٧٥، ٤٥١
«مثلي كمثل رجل استوقد نارًا فلما أضاءت ما حولها ...»	٢٣٠
«مثلي ومثلكم كمثل رجل أوقد نارًا ...»	٢٣٠
«مرحبًا بطالب العلم ...»	٢٠٥
«مره فليتكلم ...»	٣٦٤
«مستريح ومستراح منه ...»	٤٢٦
«معاذ الله أن يتحدث الناس أني أقتل أصحابي ...»	٥٦٧

الحديث	الصفحة

الحديث	الصفحة

الحديث	الصفحة



فِهْرِسُ الآثَارِ

فهرس الآثار

الأثـــــــــر	الصفحة

الأثـــــــــر	الصفحة

الأثـــــــــــر	الصفحة

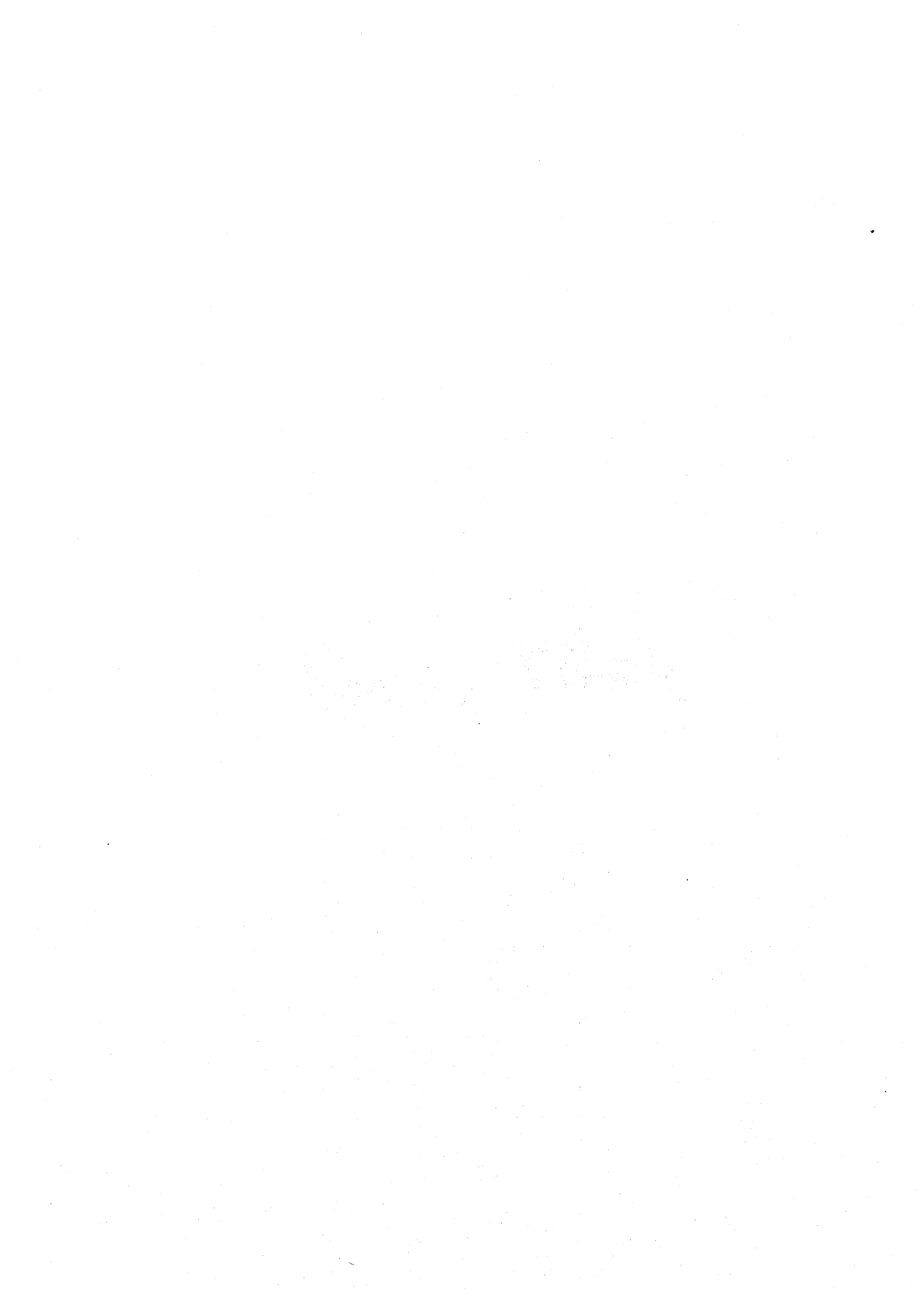
الأثـــــر	الصفحة

الأثــــــر	الصفحة

الأثـــــــر	الصفحة



فِهْرِسُ الأَشْعَارِ



فهرس الأشعار

البيت	الصفحة

فِهْرِسُ
الأَعْلَامِ وَالتَّرَاجِمِ

فهرس الأعلام والتراجم

الترجمة	الصفحة

الترجمة	الصفحة

الترجمة	الصفحة

الترجمة	الصفحة

الترجمة	الصفحة
ثمامة بن أثال	٦٤١
ثوبان	٤٥
جابر بن عبد الله	٩١
الجرجاني	٢٢٥
جرير بن عبد الله	٣٢٣
جعفر بن أبي طالب	١٢٣
جندب بن عبد الله	٦٢٨
الجوهري	٩٦
الحارث بن هشام	٢٦٨
حاطب بن أبي بلتعة	١٩٠
الحاكم	٢٤٧
حجر بن حجر	٤١٢
حذيفة بن اليمان	٤٧٨
حسان بن ثابت	٥٢٩
الحسن البصري	٢٧٤
الحسن بن علي	٣٨٩
حكيم بن حزام	٦٤٣
حمار (النعيمان بن عمرو)	١٨٩
حمران	٤٠٦
الحميدي	٣٨٧
حنظلة الأسيدي	٤٢٩

الترجمة	الصفحة

الترجمة	الصفحة

الترجمة	الصفحة

الترجمة	الصفحة
عبد الله بن سلام	٢٩
عبد الله بن الشخير	٣٣٩
عبد الله بن عباس	٢٥
عبد الله بن عمر	٧٩
عبد الله بن عمرو	٤٩
عبد الله بن عمرو بن حرام	٢٦٥
عبد الله بن مسعود	٤٣
عبد الله بن وهب	٥٦٤
عبد بن حميد	٢٤٢
عبيد الله بن زياد	٤٥٦
عبيد الله بن عبد الله بن عتبة	٢٨٧
عثمان بن عفان	٥٨
عدي بن حاتم	٥٥٠
العراقي	٦٣٧
عرباض بن سارية	١٤٩
عروة بن الزبير	٢٣٩
عطاء بن أبي رباح	٦١٢
عقبة بن عمرو	٣٤٠
عقيل بن أبي طالب	٣٤٨
علي بن أبي طالب	٥١
عمار بن ياسر	٢٤١

الترجمة	الصفحة

الترجمة	الصفحة

الترجمة	الصفحة





فِهْرِسُ المَرَاجِعِ



فهرس المراجع

١- «الإنابة إلى معرفة المختلف فيهم من الصحابة» لمغلطاي ط الرشد. الرياض
٢- «الإبانة» لابن بطة ط الفاروق الحديثة سنة ١٤٢٩هـ.
٣- «إتحاف الخيرة المهرة» للزبيدي ط دار الوطن، الرياض، ١٤٢٠ هـ
٤- «الآحاد والمثاني» لابن أبي عاصم ط دار الراية، الرياض ١٤١١ هـ
٥- «الإحاطة في أخبار غرناطة» لابن الخطيب ط دار الكتب العلمية بيروت سنة ٢٠٠٣ م
٦- «أحكام الجنائز» للألباني ط المعارف، بيروت
٧- «الإحكام في أصول الأحكام» لابن حزم ط مطبعة العاصمة، القاهرة
٨- «إحياء علوم الدين» للغزالي ط دار المعرفة، بيروت
٩- «أخبار مكة» للفاكهي ط دار خضر، بيروت الطبعة الثانية ١٤١٤ هـ
١٠- «أخلاق العلماء» للآجري الناشر رئاسة إدارة البحوث العلمية والإفتاء والدعوة والإرشاد بالسعودية
١١- «الإخوان» لابن أبي الدنيا ط دار الكتب، بيروت
١٢- «الآداب الشرعية» لابن مفلح ط مؤسسة الرسالة، بيروت
١٣- «الآداب» للبيهقي ط مؤسسة الكتب الثقافية، بيروت ١٤٠٨ هـ
١٤- «أدب الدنيا والدين» للماوردي ط دار مكتبة الحياة، بيروت
١٥- «الأدب المفرد» للبخاري ط دار البشائر الإسلامية، بيروت ١٤٠٩ هـ، وط دار الصديق

١٦- «الأذكار» للنووي ط دار الفجر للتراث ٢٠٠٣ م
١٧- «الأربعون في الجهاد» لابن عساكر ط دار الخلفاء للكتاب الإسلامي، الكويت ١٤٠٢ هـ
١٨- «إرشاد العقل السليم إلى مزايا القرآن الكريم» لأبي السعود ط إحياء التراث العربي، بيروت
١٩- «إرشاد الفحول» للشوكاني ط دار الكتاب العربي سنة ١٤١٩ هـ
٢٠- «إرواء الغليل» للألباني ط المكتب الإسلامي، بيروت
٢١- «أسباب النزول» للواحدي ط الكتب العلمية، بيروت ١٤١١ هـ
٢٢- «الاستقامة» لابن تيمية ط جامعة الإمام محمد بن سعود، المدينة ١٤٠٣ هـ
٢٣- «الاستيعاب» لابن عبد البر ط المعرفة، بيروت
٢٤- «أسد الغابة» لابن الأثير ط المعرفة، بيروت، سنة ١٤٢٨ هـ
٢٥- «إسعاف المبطأ برجال الموطأ» للسيوطي ط المكتبة التجارية الكبرى، مصر ١٣٨٩ هـ
٢٦- «الأسلوب دراسة بلاغية تحليلية لأصول الأساليب الأدبية» لأحمد الشائب ط مكتبة النهضة المصرية، القاهرة ط ١٣٩٦ هـ
٢٧- «الأسماء والصفات» للبيهقي ط مكتبة السوادي، جدة ١٤١٦ هـ
٢٨-«الأسماء والكنى» لأبي أحمد الحاكم ط مكتبة الغرباء الأثرية
٢٩- «الإصابة» لابن حجر ط التوفيقية، القاهرة
٣٠- «أصل صفة صلاة النبي ﷺ» للألباني ط المعارف، الرياض
٣١- «إصلاح المال» لابن أبي الدنيا ط مؤسسة الكتب الثقافية بيروت ١٩٩٣ م
٣٢- «أضواء البيان» للشنقيطي ط مكتبة ابن تيمية، القاهرة
٣٣- «الاعتصام» للشاطبي ط المكتبة التجارية الكبرى، مصر

٣٤- «الاعتقاد» للبيهقي ط دار الآفاق الجديدة، بيروت، ط دار الفضيلة

٣٥- «إعلام الموقعين عن رب العالمين» لابن القيم ط مكتبة الكليات الأزهرية، مصر ١٣٨٨ هـ

٣٦- «الأعلام» للزركلي ط العلم للملايين، بيروت

٣٧- «إغاثة اللهفان» لابن القيم ط دار المعرفة، بيروت

٣٨- «الأغاني» للأصفهاني ط دار الفكر، بيروت

٣٩- «اقتضاء الصراط المستقيم» لشيخ الإسلام ابن تيمية ط المسلم، الرياض

٤٠- «اقتضاء العلم العمل» للخطيب البغدادي ط المكتب الإسلامي، بيروت ١٣٩٧ هـ

٤١- «الاكتفاء» للكلاعي ط عالم الكتب، بيروت

٤٢- «إكمال الإكمال» لابن نقطة، جامعة أم القرى بمكة، الطبعة الأولى سنة ١٤١٠ هـ

٤٣- «إكمال الكمال» لابن ماكولا ط دار الكتاب الإسلامي

٤٤- «إكمال المعلم» للقاضي عياض ط الوفاء، المنصورة

٤٥- «الأم» للشافعي ط دار المعرفة، بيروت ١٣٩٣ هـ

٤٦- «أمثال الحديث» للرامهرمزي ط مؤسسة الكتب الثقافية، بيروت

٤٧- «إنباء الغمر بأنباء العمر» لابن حجر ط المجلس الأعلى للشئون الإسلامية، مصر، سنة ١٣٨٩هـ

٤٨- «الانتقاء في فضائل الثلاثة الأئمة الفقهاء» لابن عبد البر ط دار الكتب العلمية، بيروت

٤٩- «الأنساب» للسمعاني ط دار الكتب العلمية، بيروت، ط دار الجنان، بيروت، سنة ١٤٠٨ هـ

٥٠- «أنيس الساري في تخريج أحاديث فتح الباري» للبصارة ط مؤسسة الريان، بيروت
٥١- «الإيمان بالقضاء والقدر» للباحث طبعة مكتبة فياض، بالمنصورة
٥٢- «الإيمان» للعدني ط الدار السلفية، الكويت ١٤٠٧ هـ
٥٣- «البحر المديد في تفسير القرآن المجيد» لابن عجيبة ط التوفيقية، القاهرة
٥٤- «البحر المديد» لابن عجيبة ط الكتب العلمية، بيروت
٥٥- «البحر المحيط» للزركشي ط دار الكتب العلمية، بيروت ١٤٢١ هـ
٥٦- «بدائع التفسير» لابن القيم ط دار ابن الجوزي
٥٧- «البداية والنهاية» لابن كثير ط ابن رجب، المنصورة
٥٨- «البداية والنهاية» لابن كثير ط المعارف، بيروت
٥٩- «البدر الطالع» للشوكاني ط دار ابن كثير، دمشق، بيروت ٢٠٠٦ م
٦٠- «البشر في تاريخ القرن الثالث عشر» للبيطار الميداني الدمشقي ط دار صادر، بيروت، الطبعة الثانية سنة ١٤١٣ هـ
٦١- «بصائر ذوي التمييز» للفيروزآبادي ط المكتبة العلمية، بيروت
٦٢- «البصائر والذخائر» لأبي حيان التوحيدي ط دار صادر، بيروت ١٤١٩ هـ
٦٣- «بغية الباحث عن زوائد مسند الحارث» للهيثمي ط مركز خدمة السنة والسيرة النبوية، المدينة المنورة، ١٤١٣ هـ
٦٤- «بغية الوعاة في طبقات اللغويين والنحاة» للسيوطي ط المكتبة العصرية، بيروت
٦٥- «البلاغة في تراجم أئمة النحو واللغة» للفيروزآبادي ط جمعية إحياء التراث بالكويت سنة ١٤٠٧ هـ
٦٦- «بلوغ الأماني من أسرار الفتح الرباني» للبنا الساعاتي

٦٧- «البلغة في تراجم الأئمة» للفيروزآبادي ط دار إحياء التراث الإسلامي، الكويت، ١٤٠٧ هـ

٦٨- «البناية شرح الهداية» لبدر الدين العيني، ط الكتب العلمية، بيروت

٦٩- «بهجة المجالس وأنس المجالس» لابن عبد البر

٧٠- «بهجة النفوس شرح مختصر صحيح البخاري» لابن أبي جمرة

٧١- «بهجة قلوب الأبرار وقوة عيون الأخيار» للعلامة السعدي ط وزارة الشؤون الإسلامية والأوقاف بالمملكة العربية السعودية، الطبعة الرابعة، سنة ١٤٢٣هـ

٧٢- «بيان الوهم والإيهام» لابن القطان الفاسي ط طيبة، الرياض ١٤٠٨ هـ

٧٣- «تأويل مختلف الحديث» لابن قتيبة ط دار الجيل، بيروت ١٣٩٣ هـ

٧٤- «تاج العروس» للزبيدي ط دار الهداية

٧٥- «تاريخ ابن أبي خيثمة» لابن أبي خيثمة ط دار الفاروق، القاهرة

٧٦- «تاريخ الأدب العربي» للرافعي

٧٧- «تاريخ الإسلام ووفيات المشاهير والأعلام» للذهبي ط دار الكتاب العربي، لبنان، بيروت، الطبعة الأولى، سنة ١٤٠٧ هـ

٧٨- «تاريخ الأمم والملوك» للطبري ط دار الكتب العلمية، بيروت، الطبعة الأولى ١٤٠٧ هـ

٧٩- «التاريخ الكبير» للبخاري ط دار الفكر، بيروت

٨٠- «تاريخ المدينة» لابن شبة ط دار الفكر، بيروت

٨١- «تاريخ بغداد» للخطيب البغدادي ط دار الكتب العلمية، بيروت

٨٢- «تاريخ خليفة بن خياط» لخليفة بن خياط طبعة القلم، ومؤسسة الرسالة، سنة ١٣٩٧ هـ

٨٣- «تاريخ دمشق» لابن عساكر ط دار الفكر، بيروت، ط الكتب العلمية، بيروت
٨٤- «تحبير التيسير في القراءات العشر» لابن الجزري، ط دار الفرقان، عمان، الأردن
٨٥- «التحرير والتنوير» لابن عاشور ط الدار التونسية، تونس، سنة ١٩٨٤م
٨٦- «تحريم النظر في كتب الكلام» لابن قدامة المقدسي ط عالم الكتب، الرياض
٨٧- «تحفة الأحوذي» للمباركفوري ط دار الحديث، القاهرة
٨٨- «التدرج في دعوة النبي ﷺ» للشيخ إبراهيم المطلق ط وزارة الشؤون الإسلامية والأوقاف
٨٩- «تذكرة الحفاظ» للذهبي ط دار الفكر، بيروت
٩٠- «ترتيب المدارك وتقريب المسالك» للقاضي عياض ط مطبعة فضالة المحمدية، المغرب
٩١- «تعجيل المنفعة» لابن حجر ط البشائر، بيروت ١٩٩٦م
٩٢- «التعريفات» للجرجاني ط دار الكتب العربي، بيروت، سنة ١٤٠٥ هـ
٩٣- «تعظيم قدر الصلاة» للمروزي ط مكتبة الدار، المدينة المنورة ١٤٠٦ هـ
٩٤- «تغليق التعليق» لابن حجر ط المكتب الإسلامي، عمان، وط دار عمار، بيروت
٩٥- «تفسير القرآن العظيم» لابن أبي حاتم ط المكتبة العصرية، بيروت
٩٦- «تفسير القرآن العظيم» لابن كثير ط دار طيبة، الطبعة الثانية، و ط أولاد الشيخ، وط دار الفكر
٩٧- «تفسير المنار» لمحمد رشيد رضاط دار المعرفة
٩٨- «تفسير سعيد بن منصور» لسعيد بن منصور ط دار الصميعي ١٤١٧ هـ

٩٩- «تفسير عبد الرزاق» لعبد الرزاق الصنعاني ط مكتبة الرشد، الرياض
١٠٠- «تقريب التهذيب» لابن حجر ط المعرفة، بيروت
١٠١- «التفسير الكبير» أو «مفاتيح الغيب» للفخر الرازي ط التوفيقية، القاهرة
١٠٢- «التقوى» لابن أبي الدنيا
١٠٣- «تكميل النفع بما لم يثبت به وقف ولا رفع» لمحمد عمرو عبد اللطيف ط مكتبة التوعية الإسلامية، مصر
١٠٤- «تلبيس إبليس» لابن الجوزي ط الكتاب العربي، بيروت ١٤٠٥ هـ
١٠٥- «التلخيص الحبير» لابن حجر ط أضواء السلف
١٠٦- «تمام المنة» للألباني ط الراية، السعودية
١٠٧- «التمهيد» لابن عبد البر ط مؤسسة قرطبة، وط وزارة عموم الأوقاف والشئون الإسلامية، المغرب سنة ١٣٧٨ هـ
١٠٨- «تهذيب الآثار» للطبري ط مطبعة المدني، القاهرة
١٠٩- «تهذيب التهذيب» لابن حجر مطبعة دائرة المعارف، والهند، سنة ١٣٢٦ هـ
١١٠- «تهذيب السنن» لابن القيم
١١١- «تهذيب الكمال» للمزي ط الرسالة، بيروت ١٤٠٠ هـ
١١٢- «تهذيب اللغة» للأزهري ط. دار إحياء التراث العربي، بيروت
١١٣-«توضيح المشتبه في ضبط أسماء الرواة» لابن ناصر الدين الدمشقي ط الرسالة، بيروت ١٩٩٣ م
١١٤- «توضيح المشتبه» لابن حجر ط الرسالة، بيروت سنة ١٩٩٣ م
١١٥- «التوقيف على مهمات التعاريف» للمناوي ط دار الفكر، بيروت، دمشق سنة ١٤١٠ هـ

١١٦- «تيسير الكريم الرحمن» للسعدي ط الرسالة، بيروت
١١٧- «التيسير بشرح الجامع الصغير» للمناوي ط مكتبة الشافعي، الرياض، سنة ١٤٠٨ هـ
١١٨- «الثقات» لابن حبان ط دار الفكر ببيروت، سنة ١٣٩٥ هـ
١١٩- «الثقات» للعجلي ط مكتبة الدار، المدينة المنورة سنة ١٤٠٥ هـ
١٢٠- «الثمر المستطاب» للألباني ط دار غراس ١٤٢٢ هـ
١٢١- «جامع البيان عن تأويل آي القرآن» للطبري ط دار السلام، مصر، و ط دار هجر، مصر
١٢٢- «جامع العلوم والحكم» لابن رجب الحنبلي ط مؤسسة الرسالة. الطبعة الثامنة، و ط ابن رجب، المنصورة
١٢٣- «جامع بيان العلم وفضله» لابن عبد البر ط دار الكتب العلمية، بيروت
١٢٤- «الجامع في الحديث» لابن وهب ط دار الوفاء، ١٤٢٥ هـ
١٢٥- «الجامع لأحكام القرآن» للقرطبي ط عالم الكتب الرياض ١٤٢٢ هـ - ٢٠٠٣ م، ط الكتب العلمية، بيروت، ط الحديث، القاهرة
١٢٦- «الجامع لأخلاق الراوي وآداب السامع» للخطيب البغدادي ط مكتبة المعارف، الرياض
١٢٧- «الجامع» لمعمر بن راشد
١٢٨- «جبريل يسأل والنبي يجيب»، للباحث ط فياض بالمنصورة
١٢٩- «الجرح والتعديل» لابن أبي حاتم ط إحياء التراث العربي - بيروت
١٣٠- «جزء في حديث خيثمة» ط دار الكتاب العربي
١٣١- «جلاء العينين في محاكمة الأحمدين» للألوسي ط المدني ١٤٠١ هـ

١٣٢- «الجواب الصحيح لمن بدل دين المسيح» لشيخ الإسلام ابن تيمية ط دار العاصمة، الرياض، الطبعة الأولى، سنة ١٤١٤ هـ

١٣٣- «الجواب الكافي لمن سأل عن الدواء الشافي» لابن القيم ط دار الكتب العلمية، بيروت

١٣٤- «الجواهر والدرر» للسخاوي ط المجلس الأعلى للشؤون الإسلامية بالقاهرة

١٣٥- «الحاوي» للسيوطي ط الكتب العلمية، بيروت

١٣٦- «حجة القراءات» لأبي زرعة بن زنجلة، ط الرسالة، بيروت

١٣٧- «حقيقة التوحيد» للباحث ط فياض، المنصورة

١٣٨- «حكم الانتماء إلى الفرق والأحزاب والجماعات الإسلامية» لبكر بن عبد الله أبو زيد ط مكتبة التوعية الإسلامية، مصر

١٣٩- «الحكمة في الدعوة إلى الله» للدكتور سعيد القحطاني ط وزارة الشئون الإسلامية والأوقاف بالسعودية، ١٤٢٣ هـ

١٤٠- «حلية الأولياء» لأبي نعيم ط المعرفة، بيروت، و ط دار الكتاب العربي، بيروت

١٤١- «حلية البشر في تاريخ القرن الثالث عشر» للبيطار الميداني الدمشقي ط دار صادر، بيروت

١٤٢- «حياة الألباني وآثاره وثناء العلماء عليه» لمحمد إبراهيم الشيباني ط الدار السلفية، الكويت

١٤٣- «الحيوان» للجاحظ ط دار الجيل ١٤١٦ هـ

١٤٤- «خصائص القرآن» لفهد الرومي بدون ذكر اسم الناشر ط ١٤٠٩ هـ

١٤٥- «خلاصة البدر المنير» لابن الملقن ط الرشد الرياض، الطبعة الأولى سنة ١٤١٠ هـ

١٤٦- «خلق أفعال العباد» للبخاري ط مكتبة المعارف، الرياض
١٤٧- «خواطر على طريق الدعوة» للباحث، ط فياض، المنصورة
١٤٨- «الدر المنثور» للسيوطي ط دار هجر، مصر ١٤٢٤، ط دار الفكر، بيروت
١٤٩- «درء تعارض العقل والنقل» لابن تيمية ط دار الحديث القاهرة، ط محمد رشاد سالم
١٥٠- «الدرر السنية في الأجوبة النجدية»، تأليف علماء نجد الأعلام، ط مكتبة المدينة الرقمية، ط السادسة، سنة ١٤١٧ هـ
١٥١- «الدرر الكامنة في أعيان المائة الثامنة» لابن حجر ط مجلس دائرة المعارف العثمانية (حيدر أباد/ الهند) سنة ١٣٩٢ هـ
١٥٢- «الدعاء» للطبراني ط دار الكتب العلمية، بيروت١٤١٣ هـ
١٥٣- «دعوة النبي ﷺ للأعراب» لمحمود الحارثي ط المسلم، الرياض
١٥٤- «الدعوة إلى الله» لمحمد بن إبراهيم التويجري ط دار الأصالة للثقافة والنشر والأعلام
١٥٥- «دفع إيهام الاضطراب عن آي الكتاب» للشنقيطي، ط مكتبة ابن تيمية
١٥٦- «دلائل النبوة» لأبي نعيم ط مكتبة التوعية
١٥٧- «دلائل النبوة» للبيهقي ط دار الكتب العلمية، بيروت، ودار الريان للتراث، ١٤٠٨ هـ
١٥٨- ديوان ابن الرومي
١٥٩- ديوان ابن المعتز
١٦٠- ديوان ابن نباتة المصري
١٦١- ديوان أبي العتاهية ط المعرفة بيروت ١٤٢٧ هـ
١٦٢- ديوان الشافعي

١٦٣- ديوان المتنبي ط الجيل، بيروت
١٦٤- ديوان صفي الدين الحلي
١٦٥- «ذم الدنيا» لابن أبي الدنيا، ط مؤسسة الكتب الثقافية، بيروت ١٩٩٣ م
١٦٦- «ذم الكلام» للهروي ط أطلس للنشر والتوزيع، الرياض سنة ١٩٩٦م
١٦٧- «ذم الهوى» لابن الجوزي ط المنار القاهرة، ط دار الكتب العلمية
١٦٨- «ذيل تذكرة الحفاظ» لأبي المحاسن الحسيني الدمشقي ط دار الفكر العربي
١٦٩- «ذيل ميزان الاعتدال» للعراقي ط الكتب العلمية، بيروت ١٤١٦ هـ
١٧٠- «الرد الوافر» لابن ناصر الدين الدمشقي ط المكتب الإسلامي، بيروت
١٧١- «الرسالة» للشافعي ط مكتبة ابن تيمية القاهرة
١٧٢- «الرسل والرسالات» لعمر سليمان الأشقر ط دار النفائس، الطبعة الرابعة
١٧٣- «الرسول المعلم وأساليبه في التعليم» لعبد الفتاح أبو غدة ط مكتبة المطبوعات الإسلامية
١٧٤- «الرقة والبكاء» لابن قدامة المقدسي ط دار القلم دمشق ١٤١٥ هـ
١٧٥- «روح المعاني» للألوسي ط دار إحياء التراث العربي، بيروت
١٧٦- «الروح» لابن القيم ط الكتب العلمية، بيروت
١٧٧- «رياض الصالحين» للنووي ط دار القاسم، الرياض
١٧٨- «زاد المسير» لابن الجوزي ط المكتب الإسلامي، بيروت ١٤٠٤ هـ
١٧٩- «زاد المعاد» لابن القيم ط دار الرسالة، بيروت
١٨٠- «الزهد الكبير» للبيهقي ط مؤسسة الكتب الثقافية سنة ١٩٩٦ م
١٨١- «الزهد» لابن أبي عاصم ط الريان للتراث ١٤٠٨ هـ
١٨٢- «الزهد» لابن المبارك ط دار الكتب العلمية، بيروت
١٨٣- «الزهد» لأبي داود السجستاني ط دار المشكاة، حلوان، مصر، سنة ١٤١٤ هـ

١٨٤ - «الزهد» لأحمد ط دار الكتب، بيروت، ط الريان، مصر
١٨٥ - «الزهد» لوكيع بن الجراح. ط مكتبة الدار المدينة المنورة ١٤٠٤ هـ
١٨٦ - «الزهد» لهناد ط دار الخلفاء للكتاب الإسلامي، الكويت ١٤٠٦ هـ
١٨٧ - «زهر الآداب وثمر الألباب» للقيرواني ط دار الكتب العلمية، بيروت ١٤١١ هـ
١٨٨ - «سؤالات حمزة» للدارقطني ط دار المعارف، السعودية
١٨٩ - «السبعة في القراءات» لابن مجاهد، ط دار المعارف، القاهرة
١٩٠ - «سبل الهدى والرساد» للصالحي ط دار الكتب العلمية، بيروت
١٩١ - «السلسلة الصحيحة» للألباني ط دار المعارف، الرياض، سنة ١٤١٥ هـ
١٩٢ - «السلسلة الضعيفة» للألباني ط دار المعارف، الرياض، سنة ١٤١٢ هـ
١٩٣ - «السنة» لابن أبي عاصم ط المكتب الإسلامي، بيروت
١٩٤ - «السنة» لعبد الله بن أحمد ط دار ابن القيم، الدمام ١٤٠٦ هـ
١٩٥ - «السنة» للخلال ط الفاروق الحديثة، القاهرة
١٩٦ - «السنة» للمروزي ط مؤسسة الكتب الثقافية، بيروت ١٤٠٨ هـ
١٩٧ - «سنن ابن ماجه» للإمام ابن ماجه ط دار الريان، القاهرة
١٩٨ - «سنن أبي داود» لأبي داود ط دار الحديث، القاهرة
١٩٩ - «سنن الترمذي» للإمام الترمذي ط دار الحديث، القاهرة
٢٠٠ - «سنن الدارقطني» للدارقطني ط دار الحديث، القاهرة، ط المعرفة، بيروت
٢٠١ - «سنن الدارمي» للدارمي ط دار الكتاب العربي، بيروت ١٤٠٧ هـ
٢٠٢ - «السنن الكبرى» للبيهقي ط مجلس دائرة المعارف بالهند ١٣٤٤ هـ
٢٠٣ - «السنن الكبرى» للنسائي ط الرسالة، بيروت ١٤٢٠ هـ، و ط الكتب العلمية، بيروت

٢٠٤- «سنن النسائي» للنسائي ط دار الحديث، القاهرة

٢٠٥- «سنن سعيد بن منصور» لسعيد بن منصور ط الدار السلفية، الهند ١٤٠٣ هـ

٢٠٦- «سير أعلام النبلاء» للذهبي ط دار الحديث بالقاهرة، سنة ٢٠٠٦ م، و ط الرسالة، بيروت، ط دار الصفا، القاهرة

٢٠٧- «السيرة النبوية» لابن كثير ط دار المعرفة، بيروت، سنة ١٣٩٦ هـ

٢٠٨- «السيرة النبوية» لابن هشام ط المكتب الثقافي، بيروت

٢٠٩- «شذرات الذهب» لابن العماد ط الكتب العلمية، بيروت

٢١٠- «شرح أصول اعتقاد أهل السنة والجماعة» للالكائي ط دار طيبة، الرياض ١٤٠٢ هـ

٢١١- «شرح الأصول الثلاثة» للباحث ط فياض، المنصورة

٢١٢- «شرح ديوان المتنبي» للواحدي

٢١٣- «شرح السنة» للبغوي ط المكتب الإسلامي، دمشق، ١٤٠٣ هـ

٢١٤- «شرح العقيدة الطحاوية» للعلامة ابن أبي العز الحنفي، ط المكتب الإسلامي، بيروت

٢١٥- «شرح العقيدة الواسطية» لابن عثيمين ط ابن الجوزي، الرياض

٢١٦- «شرح رياض الصالحين» لابن عثيمين ط العقيدة، الإسكندرية

٢١٧- «شرح صحيح مسلم» للنووي ط دار إحياء التراث العربي، بيروت

٢١٨- «شرح مشكل الآثار» للطحاوي ط مؤسسة الرسالة، بيروت ١٤١٥ هـ

٢١٩- «الشريعة» للآجري ط دار الحديث، مصر

٢٢٠- «شعب الإيمان» للبيهقي ط دار الكتب العلمية، بيروت

٢٢١- «الشعر والشعراء» لابن قتيبة ط دار الحديث، القاهرة

٢٢٢- «الشفا بتعريف حقوق المصطفى» للقاضي عياض ط ابن رجب المنصورة

٢٢٣- «شفاء العليل» لابن القيم ط دار التراث القاهرة

٢٢٤- «الشمائل المحمدية للإمام الترمذي ط مؤسسة الكتب الثقافية، بيروت ١٤١٢ هـ

٢٢٥- «الشوقيات» لأحمد شوقي ط دار كنوز المعرفة

٢٢٦- «الصحاح» للجوهري ط دار إحياء التراث العربي، بيروت

٢٢٧- «صحيح ابن حبان» لابن حبان ط الرسالة، بيروت ١٤٠٨ هـ

٢٢٨- «صحيح ابن خزيمة» للإمام ابن خزيمة ط المكتب الإسلامي، بيروت

٢٢٩- «صحيح البخاري» للإمام البخاري ط دار ابن كثير اليمامة، بيروت ١٤٠٧ هـ

٢٣٠- «صحيح الترغيب والترهيب» للألباني ط مكتبة المعارف، الرياض

٢٣١- «صحيح الجامع» للألباني ط المكتب الإسلامي ١٤٠٨ هـ

٢٣٢- «صحيح سنن الترمذي» ط دار المكتب الإسلامي، بيروت

٢٣٣- «صحيح السيرة النبوية» لإبراهيم العلي ط دار النفائس ١٤١٦ هـ

٢٣٤- «صحيح السيرة النبوية» للألباني ط المكتبة الإسلامية، الأردن

٢٣٥- «الصحيح المسند من أسباب النزول» لمقبل بن هادي الوادعي ط مكتبة ابن تيمية

٢٣٦- «صحيح مسلم» للإمام مسلم ط دار الجيل، بيروت، ودار الآفاق الجديدة، بيروت، ط دار ابن رجب، المنصورة

٢٣٧- «الصلة» لابن بشكوال ط الهيئة المصرية العامة للكتاب ٢٠٠٨ م

٢٣٨- «الصمت» لابن أبي الدنيا ط دار الكتاب العربي، بيروت ١٤١٠هـ

٢٣٩- «الصواعق المرسلة على الجهمية والمعطلة» لابن القيم ط دار العاصمة، الرياض
٢٤٠- «صيد الخواطر» لابن الجوزي ط ابن رجب، المنصورة
٢٤١- «الضعفاء» للعقيلي ط الكتب العلمية، بيروت سنة ١٤٠٤هـ
٢٤٢- «ضعيف الترغيب» للألباني ط المكتب الإسلامي
٢٤٣- «ضعيف الجامع» للألباني ط المكتب الإسلامي
٢٤٤- «الضوء اللامع» للسخاوي ط دار الحياة، بيروت
٢٤٥- «طبقات الحنابلة» لابن أبي يعلى ط المعرفة، بيروت
٢٤٦- «طبقات الشافعية الكبرى» للسبكي ط هجر، سنة ١٤١٣ هـ
٢٤٧- «طبقات الشافعية» لابن قاضي شهبة ط دار عالم الكتب، بيروت
٢٤٨- «طبقات الشافعية» لابن كثير ط مكتبة الثقافية الدينية سنة ١٤١٣ هـ
٢٤٩- «الطبقات الكبرى» لابن سعد ط دار الكتب العلمية، بيروت، ١٤١٠ هـ
٢٥٠- «طبقات المحدثين» للسيوطي ط مكتبة وهبة القاهرة ١٣٩٦ هـ
٢٥١- «طريق الهجرتين وباب السعادتين» لابن القيم ط دار ابن القيم، الدمام، الطبعة الثانية، سنة ١٤١٤ هـ
٢٥٢- «ظلال الجنة في تخريج السنة» للألباني ط المكتب الإسلامي، بيروت
٢٥٣- «العبر في خبر من غبر» للذهبي ط حكومة الكويت، سنة ١٩٨٤م، ط دار الكتب العلمية، بيروت
٢٥٤- «عدة الصابرين» لابن القيم ط ابن عباس، المنصورة
٢٥٥- «العقود الدرية» لابن عبد الهادي ط دار الكتاب العربي، بيروت
٢٥٦- «علل الحديث» لابن أبي حاتم ط الفاروق، القاهرة
٢٥٧- «العلل المتناهية» لابن الجوزي ط دار الكتب العلمية، بيروت ١٤٠٣ هـ

٢٥٨- «العلل» للدارقطني ط دار طيبة، الرياض ١٤٠٥ هـ

٢٥٩- «العلل ومعرفة الرجال» للإمام أحمد ط المكتب الإسلامي، ودار الخاني، بيروت، الرياض ١٤٠٨ هـ

٢٦٠- «علم أصول الفقه» لعبد الوهاب خلاف ط در القلم الطبعة الثانية

٢٦١- «العلم» لابن أبي خيثمة ط المكتب الإسلامي

٢٦٢- «العمدة في إعراب البردة» ط دار اليمامة، دمشق ١٤٢٣ هـ

٢٦٣- «عمدة القاري» للبدر العيني ط الكتب العلمية، بيروت

٢٦٤- «عون المعبود شرح سنن أبي داود» للعلامة أبي الطيب محمد شمس الحق العظيم آبادي ط دار الحديث، القاهرة

٢٦٥- «العين» للخليل بن أحمد الفراهيدي ط مكتبة الهلال

٢٦٦- «عيون الأخبار» لابن قتيبة ط دار الكتب العلمية، بيروت ١٤١٨ هـ

٢.٦٧- «غذاء الألباب شرح منظومة الآداب» للسفاريني ط الكتب العلمية، بيروت ١٤٢٣ هـ

٢٦٨- «فتاوى اللجنة الدائمة والإفتاء» ط دار المؤيد، السعودية

٢٦٩- «فتح الباري» لابن حجر ط دار الريان، القاهرة، سنة ١٤٠٩ هـ، ط السلفية

٢٧٠- «فتح الباري» لابن رجب، ط دار ابن الجوزي، الدمام

٢٧١- «فتح القدير» للشوكاني ط دار الحديث، القاهرة

٢٧٢- «فتح المجيد» لعبد الرحمن بن حسين آل الشيخ ط وزارة الشؤون الإسلامية والأوقاف بالسعودية (الطبعة الخامسة)

٢٧٣- «الفتن» لنعيم بن حماد ط دار الفكر، بيروت

٢٧٤- «الفرقان بين أولياء الرحمن وأولياء الشيطان» لابن تيمية ط مكتبة فياض المنصورة

٢٧٥- «فقه السيرة» للغزالي ط القلم، دمشق ١٩٩٨ م

٢٧٦- «فقه السيرة» للغزالي ط المكتب الإسلامي، عمان

٢٧٧- «فقه الدعوة إلى الله» للدكتور علي عبد الحليم محمود

٢٧٨- «الفقيه والمتفقه» للخطيب البغدادي ط دار ابن الجوزي، السعودية ١٤١٧ هـ، و ط مكتبة التوعية الإسلامية القاهرة سنة ١٤٣٨ هـ

٢٧٩- «الفوائد» لابن القيم ط دار الكتب العلمية بيروت، الطبعة الثانية، سنة ١٣٩٣ هـ

٢٨٠- «الفوائد» لتمام ط مكتبة الرشد، الرياض

٢٨١- «فوات الوفيات» لمحمد شاكر الكتبي ط دار صادر، بيروت، سنة ١٩٧٤م

٢٨٢- «فيض القدير شرح الجامع الصغير» للمناوي ط الكتب العلمية، بيروت، سنة ١٤١٥ هـ، والمكتبة التجارية، مصر

٢٨٣- «القاموس المحيط» للفيروزآبادي ط دار الحديث، القاهرة

٢٨٤- «القصيدة النونية» لابن القيم ط مكتبة ابن تيمية، القاهرة، سنة ١٤١٧ هـ

٢٨٥- «قل هذه سبيلي آية ومعالم» للدكتور إبراهيم عباس ط مكتبة ابن خزيمة

٢٨٦- «قواعد الأحكام» للعز بن عبد السلام ط المعرفة، بيروت

٢٨٧- «قواعد التحديث» للقاسمي ط دار السلام، القاهرة

٢٨٨- «الكامل في ضعفاء الرجال» لابن عدي ط دار الفكر، بيروت

٢٨٩- «الكامل في اللغة» للمبرد، ط الفكر العربي، بيروت.

٢٩٠- «الكامل» لابن الأثير، ط دار الكتاب العربي، بيروت، سنة ١٤١٧ هـ

٢٩١- «الكتاب» لسيبويه، ط مكتبة الخانجي، القاهرة

٢٩٢- «كشف الخفاء» للعجلوني ط دار إحياء التراث

٢٩٣- «الكشكول» لبهاء الدين العاملي ط الكتب العلمية، بيروت

٢٩٤- «الكفاية» للخطيب البغدادي ط ابن عباس المنصورة

٢٩٥- «الكليات» لأبي البقاء ط مؤسسة الرسالة، بيروت، سنة ١٤١٩ هـ

٢٩٦- «كنز العمال» للمتقي الهندي ط الرسالة، بيروت، ١٤٠١ هـ

٢٩٧- «اللباب في تهذيب الأنساب» لأبي الحسن الجزري ط صادر، بيروت، ١٤٠٠ هـ

٢٩٨- «لحظ الألحاظ بذيل طبقات الحفاظ» لابن فهد المكي ط المكتبة العلمية، سنة ١٤١٩ هـ

٢٩٩- «لسان العرب» لابن منظور ط صادر، بيروت

٣٠٠- «لسان الميزان» لابن حجر ط الفاروق بمصر

٣٠١- «المبدع» لابن مفلح ط المكتب الإسلامي

٣٠٢- «المجروحين» لابن حبان ط دار الوعي، حلب

٣٠٣-«مجلة البيان»

٣٠٤- «مجلة المنار» لمحمد رشيد رضا

٣٠٥- «مجمع الزوائد» للهيثمي ط دار الفكر، بيروت ١٤١٢ هـ

٣٠٦- «مجموع فتاوى ابن باز» ط مكتبة المورد، الطبعة الرابعة ١٤٢٧ هـ

٣٠٧- «مجموع الفتاوى» لابن تيمية ط ابن تيمية، القاهرة

٣٠٨- «محاسن التأويل» للقاسمي ط دار الحديث، القاهرة

٣٠٩- «المحرر الوجيز» لابن عطية ط وزارة الأوقاف، قطر

٣١٠- «مختار الصحاح» للرازي ط مكتبة لبنان وناشرون، بيروت

٣١١- «المختارة» للضياء المقدسي ط مكتبة النهضة الحديثة، مكة
٣١٢- «مختصر الشمائل المحمدية» للألباني ط المكتب الإسلامي
٣١٣- «مختصر شعب الإيمان» للقزويني ط دار ابن كثير، دمشق
٣١٤- «المخصص» لابن سيده، ط دار إحياء التراث العربي
٣١٥- «مدارج السالكين» لابن القيم ط دار الحديث، القاهرة، ط دار الكتاب العربي
٣١٦- «المدخل إلى علم الدعوة» للبيانوني
٣١٧- «مرآة الجنان» لليافعي ط الكتب العلمية سنة ١٤١٧ هـ
٣١٨- «مرقاة المفاتيح شرح مشكاة المصابيح» لعلي الملا، ط دار الفكر، بيروت ١٤٢٢ هـ
٣١٩- «المستدرك» للحاكم ط دار الكتب العلمية، بيروت
٣٢٠-«مسند ابن أبي شيبة» لابن أبي شيبة ط دار الوطن، الرياض ١٩٩٧م
٣٢١- «مسند أبي يعلى» لأبي يعلى ط دار المأمون للتراث، دمشق ١٤٠٤هـ
٣٢٢- «مسند أحمد» للإمام أحمد ط الرسالة، بيروت ١٤٢٠هـ
٣٢٣- «مسند أحمد» للإمام أحمد ط عالم الكتب، بيروت ١٤١٩هـ، ط المكتب الإسلامي، عمان
٣٢٤- «مسند إسحاق بن راهويه» ط مكتبة الإيمان، المدينة المنورة ١٤١٢هـ
٣٢٥- «مسند البزار» للبزار ط مكتبة العلوم والحكم، المدينة المنورة ١٩٨٨م
٣٢٦- «مسند الحميدي» للحميدي ط دار الفكر، بيروت
٣٢٧- «مسند الروياني» للروياني ط مؤسسة قرطبة، ١٤١٦هـ
٣٢٨- «مسند الشاشي» ط العلوم والحكم
٣٢٩- «مسند الشافعي» للشافعي ط دار الكتب العلمية، بيروت

٣٣٠-«مسند الشاميين» للطبراني ط مؤسسة الرسالة، بيروت ١٤٠٥هـ
٣٣١- «مسند الشهاب» للقضاعي ط مؤسسة الرسالة، بيروت ١٤٠٧هـ
٣٣٢- «مسند الطيالسي» لأبي داود الطيالسي ط دار هجر، مصر ١٤١٩هـ، وط المعرفة بيروت
٣٣٣- «مشكاة المصابيح» للتبريزي بتحقيق الألباني ط المكتب الإسلامي، بيروت
٣٣٤- «مشكل الآثار» للطحاوي ط الرسالة، بيروت
٣٣٥- «المصباح المنير» للفيومي ط الكتب العلمية، بيروت
٣٣٦- «مصنف ابن أبي شيبة» لابن أبي شيبة ط الدار السلفية بالهند، ط الوطن، الرياض
٣٣٧- «مصنف عبد الرزاق» لعبد الرزاق ط المكتب الإسلامي، بيروت ١٤١٣هـ
٣٣٨- «المطالب العالية» لابن حجر ط قرطبة
٣٣٩- «معارج القبول» للحكمي ط دار ابن القيم
٣٤٠- «معالم التنزيل للبغوي ط دار طيبة، السعودية
٣٤١- «معاني القرآن» للنحاس ط مكة المكرمة أم القرى سنة ١٤٠٩هـ
٣٤٢- «معجم ابن الأعرابي» لابن الأعرابي ط دار ابن الجوزي، السعودية ١٤١٨هـ
٣٤٣- «المعجم الأوسط» للطبراني ط دار الحرمين، القاهرة ١٤١٥هـ
٣٤٤-«معجم البلدان» لياقوت الحموي ط دار الفكر، بيروت
٣٤٥- «معجم الشعراء» للمرزباني، ط الكتب العلمية، بيروت
٣٤٦- «المعجم الصغير» للطبراني ط دار الكتب العلمية، بيروت

٣٤٧- «المعجم الكبير» للطبراني ط ابن تيمية، القاهرة، ١٤١٥هـ وط مكتبة العلوم والحكم، الموصل ١٤٠٤هـ

٣٤٨- «معجم المؤلفين» لعمر كحالة ط دار إحياء التراث العربي ببيروت

٣٤٩- «المعجم الوسيط» تحقيق مجمع اللغة العربية، ط دار الدعوة، وط مكتبة الشروق الدولية، الطبعة الرابعة

٣٥٠- «معجم لآلئ الشعر العربي» للدكتور إميل بديع يعقوب

٣٥١- «معجم مقاييس اللغة» لابن فارس ط دار الفكر، بيروت، و ط اتحاد الكتاب العربي، بيروت، ط الحديث

٣٥٢- «معرفة السنن والآثار» للبيهقي ط دار قتيبة، بيروت، ط دار الوفاء، المنصورة ١٤١٢هـ

٣٥٣- «معرفة الصحابة» لأبي نعيم ط دار الوطن، الرياض ١٤١٩هـ

٣٥٤- «معرفة القراء الكبار على الطبقات والأعصار» للذهبي ط مؤسسة الرسالة، بيروت، سنة ١٤٠٤هـ

٣٥٥- «المعين في طبقات المحدثين» للذهبي ط الفرقان، الأردن ١٤٠٤هـ

٣٥٦- «المغني» لابن قدامة المقدسي ط دار الحديث، القاهرة

٣٥٧- «مفتاح دار السعادة» لابن القيم ط دار الكتب العلمية، بيروت

٣٥٨- «مفردات ألفاظ القرآن» للراغب الأصفهاني ط دار القلم، دمشق، بيروت

٣٥٩- «المقاصد الحسنة» للسخاوي دار الكتاب العربي

٣٦٠- «مكارم الأخلاق» للخرائطي ط دار الآفاق العربية، القاهرة ١٤١٩هـ

٣٦١- «من أقوال سماحة الشيخ ابن باز في الدعوة» ط دار الوطن، الرياض

٣٦٢- «مناقب الشافعي» للبيهقي ط دار التراث، القاهرة

٣٦٣- «المنتخب» لعبد بن حميد ط مكتبة السنة، القاهرة ١٤٠٨هـ، وط مكتبة ابن عباس، المنصورة

٣٦٤- «المنتخب من الزهد» للخطيب البغدادي ط دار البشائر الإسلامية، بيروت ١٤٢٠هـ

٣٦٥- «المنتظم» لابن الجوزي ط صادر، بيروت، سنة ١٣٥٨هـ

٣٦٦- «المنتقى» لابن الجارود ط الكتاب العربي، بيروت ١٤٢٣هـ

٣٦٧- «المنقذ من الضلال» للغزالي ط المكتبة الثقافية، بيروت/ لبنان

٣٦٨- «منهاج السنة النبوية» لابن تيمية ط مؤسسة قرطبة ١٤٠٦هـ، تحقيق محمد رشاد سالم

٣٦٩- «منهج السلف الصالح في ترجيح المصالح وتطويح المفاسد والقبائح» لعلي حسن الحلبي ط الدار الأثرية، عمان

٣٧٠- «الموافقات في أصول الشريعة» للشاطبي ط دار الكتب العلمية، بيروت، و ط مكتبة الأسرة

٣٧١- «الموسوعة الميسرة في الأديان والمذاهب والأحزاب المعاصرة» ط دار الندوة العالمية ط ثانية

٣٧٢- «موطأ مالك» للإمام مالك ط دار إحياء التراث العربي، مصر، وط دار القلم، دمشق ١٤١٣هـ، وط مؤسسة زايد آل نهيان سنة ١٤٢٥هـ

٣٧٣- «ميزان الاعتدال» للذهبي ط دار المعرفة، بيروت

٣٧٤- «النبوات» لابن تيمية ط ابن عباس، المنصورة

٣٧٥- «نزهة الألباء في طبقات الأدباء» لأبي البركات الأنباري ط مكتبة المنار الزرقاء، الأردن ١٤٠٥هـ

٣٧٦- «نسخة وكيع» لوكيع ط الدار السلفية، الكويت

٣٧٧- «النشر في القراءات العشر» لابن الجزري، ط دار الكتب العلمية، بيروت

٣٧٨- «نصب الراية» للزيلعي ط دار الحديث، القاهرة

٣٧٩- «نضرة النعيم في مكارم أخلاق الرسول الكريم ﷺ» إعداد جماعة من المتخصصين ط دار الوسيلة، جدة، الطبعة الأولى، سنة ١٤١٨هـ

٣٨٠- «نظم الدرر» للقضاعي ط الكتب العلمية

٣٨١- «نقض المنطق» لابن تيمية

٣٨٢- «النهاية في غريب الحديث والأثر» لابن الأثير ط المعرفة، بيروت، لبنان، الطبعة الثانية ١٤٢٧هـ

٣٨٣- «هداية الحيارى في أجوبة اليهود والنصارى» لابن القيم ط دار الحديث، القاهرة

٣٨٤- «هدية العارفين في أسماء المؤلفين» لإسماعيل باشا البغدادي ط دار إحياء التراث العربي، بيروت

٣٨٥- «الوافي بالوفيات» ط المكتب الإسلامي، بيروت، الطبعة التاسعة ١٤٠٨هـ

٣٨٦- «الوافي بالوفيات» لصلاح الدين خليل بن أيبك الصفدي ط دار إحياء التراث العربي سنة ١٤٢٠هـ

٣٨٧- «الورع» لابن أبي الدنيا ط الدار السلفية، الكويت ١٤٠٨هـ

٣٨٨- «وفيات الأعيان» لابن خلكان ط دار صادر، بيروت





فِهْرِسُ المَوْضُوعَاتِ



فهرس الموضوعات

الموضوع	الصفحة

الموضوع	الصفحة

الموضوع	الصفحة

الموضوع	الصفحة

الموضوع	الصفحة

الموضوع	الصفحة

الموضوع	الصفحة

الموضوع	الصفحة

وآخر دعوانا أن الحمد لله رب العالمين